وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الفتى هاينريش

رواية



تأليف: غوتفريد كيلر
ترجمة: د. أحمد حيدر



الفتى هاينريش



الفتى هاينريش



تصميم الغلاف

خالد يزبك

الفتى هاينريش

رواية

تأليف : غوتفريد كيلر

ترجمة: د. أحمد حيدر

المراجعة اللغوية: د. ركان الصفدي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب :

Gottfried Keller

Der grüne Heinrich

Roman

Zweite Fassung

Herausgegeben und mit einer

Einleitung von Gustav Steiner

Deogenes Verlag

الفتى هاينرش : رواية / تأليف غوتفريد كيلر؛ ترجمة أحمد حيـــدر .- دمشق الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ .- ٩٢٨ ص؛ ٢٤سم.

(روايات مختارة؛ ٥)

١ - ٨٣٣ ك ي ل ف ٢ - العنوان ٣ - كيلو
٤ - حيدر ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

«٥»

m

تتصدر رواية "الفتى هاينريش" فن غوتفريد كيلر القصصي، على حين تشكل رواية "مارتن سالاندر" خاتمة إبداعه الأدبي. ولهاتين الروايتين بخاصة قاسم مشترك يتجلى في أنهما لم تجدا بسهولة المدخل إلى القراء مثلما وجدته القصائد والمجموعات القصصية. ولم يكتب لهما النجاح ومن ثَمّ لم تدخلا في عداد "تجاحات الكتب"، لأن المؤلف لم يعر اهتماماً لا الذوق السائد في أوساط (جمهور) القراء ولا الاتجاهات الأدبية، بل استسلم لنفسه ببساطة، وأكثر من هذا بصدق مرّ لا يرحم. فلم يهوّن على القارئ بل طالبه بمشاركته التامة وبالنظرة المستقيمة للبيئة الخارجية وبالحس المتفتح بأعمق المسائل، التي تحرك قلب الإنسان، وبالسرور بالتجسيد الفني الصارم، الذي استقى تعبيره الفريد من نوعه شكلاً ومضموناً من نمو مطرد بطيء. فالصدق والابتهاج بالواقع هما السمة المميزة لمؤلفات كيلر. إنه يصف باستمرار، في كبائر الأمور وصغائرها، "الحياة الأساسية" ويرسم، على حد تعبيره هو ذاته، بشراً بالتمام والكمال، ويغوص عبر السطح إلى الأعماق، ويخلِّق ويستوعب في نفسه الشيء الذي رآه، وهذا يظهر في رواية "الفتى هاينريش".

في رواية "مارتن سالاندر" ترد الانطباعات عن الحياة الواقعية، ولا سيما الحياة العامة، قوية إلى حد أن المعالم الأساسية تلوح بوضوح وهي تخترق النسيج الشعري. وعلى كلتا الروايتين ينطبق ما كتب كيلر إلى الناشر فيفيغ إذ قدم له مخطوط "الفتى هاينريش": إن مشروع هذه الرواية التي لها

طابع السيرة الذاتية وتنفيذها ليسا نتيجة لمقصد نظري هادف فحسب، "بل ثمرة لرؤية وخبرة ذاتية خاصة". وقول كيلر للناشر فيفيغ غني في معناه ومغزاه ويسري مفعوله في واقع الأمر على مجمل أعمال هذا الأديب طوال حياته: "لم أنتج مطلقاً شيئاً إلا تلقى الحافز إلى ذلك من حياتي الباطنية أو الظاهرية وسوف أبقي على ذلك إلى ما شاء الله". ثم أضاف أنه ولهذا السبب تراه لا يكتب إلا قليلاً. وبالفعل ليس كيلر غزير الكتابة. وهو لا يكتفي بالانطلاق من الخبرة والتجربة، بل يترك الثمرة إلى أن تنضج ببطء وهدوء. ولم يضن على نفسه بالوقت، لا بل أكثر من إعطائها ما يلزمها منه. هذا ما عايشه ناشر رواية "الفتى هاينريش" وما عرفه بصورة متكررة مُصدر مجلة "روندشاو" الألمانية. وفي هذا ثمة صلة قرابة بين روايتي " الفتى هاينريش" و"مارتن سالاندر" بحيث كان يُبدأ في كل مرة بطبع الواحدة منهما قبل أن ينتهي إعداد المخطوطة. وفي كلتا المرتين توقفت أعمال الطباعة إلى أن تمكن الكاتب من جديد من تسليم جزء مما تبقى من الرواية. على أن معوقات كهذه لم تكن ناجمة عن حالات من التردد فقط إذ إن كيلر بصفته أديباً لم يكن أبداً مجتهداً أو مثابراً على عمله بالمفهوم البورجوازي- بل عن صدق مفعم بالشعور بالمسؤولية. فلم يشأ أن يسلم شيئاً إلا بعد إثبات جدارته تجاه نفسه وتجاه مطالبه الفنية. ولهذا السبب طالت فترة طباعة رواية "الفتى هاينريش".

كيلر ذاته هو بطل رواية "هنري فيرت" Henri Vert، كما اعتاد أن يسمي هذا الكتاب من حين لآخر، ولكن الظن بأن ذلك سهّل عليه غزل الخيط هو ظن في غير محله، فهو لم يشأ أن يروي قصة الشباب لأنها كانت قصته هو، بل أراد أن يرويها مع أنه كان عايشها هو ذاته. على أن الإغواء في جعل الذات على حد كبير من الأهمية وفقدان تقدير النظر إلى ما هو مهم أو غير مهم عند المستمع هما أمران من شأنهما أن يهددا كل رواية لها طابع السيرة الذاتية. يطلق كيلر تسمية "مناورة تنطوي على مجازفة" على مسألة أنه جعل من قصة شبابه الذاتية مضموناً للجزء الأول "لكي تتشكل أساساً لبقية

مجرى الرواية وذلك بالصورة التي كان ممكناً أن تحدث لي أيضاً لو أنني لم ألتفت إلى هذه الناحية". لقد أدرك كيلر العقبات الخطرة، فكتب عن ذلك إلى صديقه هتنر: "كل شيء مرتبط الآن بما إذا كنت أفلحت كثيراً أو قليلاً في عرض العادي من الأمور والقريب من كل إنسان من دون أن أكون في ذلك عادياً أو مبتذلاً أو مملاً". ولذلك أقدم على حذف كل ما لا يميز الغرض النهائي للرواية.

انطلق كيلر من معايشته الذاتية، من قدره الشخصي، من أوجاعه الذاتية، من أخطائه، من بحثه وتطلعه، ولكن بهدف أن يجعل من شخصه على نحو ما مثالاً يحتذى. الإنساني والمعمول به بوجه عام، بكل ما يحمله ذلك من معنى حقيقي، هما المعياران الحاسمان لمضمون هذه الرواية وصياغتها. وهي تتضمن ملامح من استقامة جَسور وأخرى من جمال أخاذ وثالثة من مأسَوية محزنة. ويمكن للمؤلف أن يقول من دون أي حرج إنه أحرز قصب السبق في مجال قصص الصبيان التي ظهرت في تلك الفترة؛ لم يسبق الآخرين على صعيد الزمن فحسب، بل تفوق عليهم وبقي بعد أن زالوا. وهو بفضل رواية "الفتى هاينريش" لم يثبت جدارة ويسجل انتصاراً فحسب، بل ربما لا يزال حتى يومنا هذا يمارس تأثيراً أكبر مما كان ذلك في زمانه.

حين شكت أخت المؤلف من أنها لم تحظ في الرواية بأي ذكر، هدأها بقوله: "إن لي من هذه الرواية غاية محددة تماماً، ولكنها لا تظهر إلا في الجزء الرابع ولم أكن بموجبها بحاجة إلى أخت. وعموماً لا تحتوي الرواية بعد على كل ما عايشته، في حين أنها تحتوي على كثير مما يفتقر إلى الحقيقة، على سبيل المثال قصص الحب". فالرواية، وهذا هو مغزى الكلام، لم يكن لها أن تكون مجرد نسخة منقولة عن الأحداث المعيشة بل أُريدَ لها أن تكون أدباً يغتذي مما هو معيش ويكسب عمقه وشكله من الخبرة الإنسانية والفنية.

ولا يتعلق الأمر هنا بفصل الحقيقة عن الأدب، إذ إنه ليس ذلك مخاطرة مملة فحسب بل هي أيضاً خائبة، لأن الأدب كذلك – بما أنه ينطلق من

معايشة داخلية – هو في حد ذاته حقيقة، إلا أن أهم الوقائع في حياة كيلر إلى حين تدوين هذه الرواية تلقى هنا تسجيلاً وتثبيتاً.

ولد أبواه في قرية زوريخية هي غلاتفيلدن، غير أن الأب، رودولف كيلر، استقر بصفته خراطاً في مدينة زوريخ. وهناك وفي بيت بالقرب من "الزاوية الذهبية" ولد غوتفريد في التاسع عشر من شهر تموز للعام ١٨١٩. ولم يكن عمر الأب سوى ٣٣ عاماً حين اقتلعه الموت من أوساط أشغاله ومشاريعه وطموحاته، وبقيت الزوجة إليزابيت وحيدة مع طفليهما غوتفريد وأخته ريغولا. ويتسم الأب في رواية "الفتى هاينريش" ببريق خاص، وفي رسائل الأديب اليافع ترجع الذكرى أيضاً من حين لآخر إلى الأب، الذي كان قرر أن يتلقى الصبي دروسه الأولى في مدرسة الفقراء المسماة "تسوم برونتتورم" التي كان الأب واحداً من المشرفين عليها. وقد تحققت هذه الرغبة. وفي عام ١٨٣١ التحق كيلر بما عرف باسم معهد الصبية الريفيين. لم يسمح له آنذاك بوصفه مقيماً بدخول المدرسة المتوسطة التي كانت وقفاً على أبناء الطبقة البورجوازية، ولكنه أحس بالفروق الطبقية بوضوح حين سمح له بالالتحاق بالمدرسة الصناعية الكانتونية، التي أنشئت حديثاً آنذاك. هناك أسفر حدث مأسَوي عن إنهاء مفاجئ لهذا التأهيل ودل في الوقت ذاته على حيرة العائلة وعجزها من غير أب. فقد شارك غوتفريد في مظاهرة قام بها التلاميذ أمام بيت معلم (كان يفتقر إلى المهارة والبراعة). وفي التحقيق الذي تلا الحادثة كان عليه أن يتحمل وزر كل التلاميذ المتهربين الزائغين عن الدروس. فطرد من المدرسة في التاسع من تموز لعام ١٨٣٤. وتبيّن الكلمات الختامية من الفصل السادس عشر لرواية "الفتى هاينريش" بوضوح مدى الشعور بالمرارة، الذي يعتري كيلر كلما عاد بذاكرته إلى ذلك التدخل العدواني الوحشي في شؤون حياته. وتخيّم على فترة طفولته وشبابه غيمة سوداء. إلا أن القلق الناجم عن مسألة إحراز تقدم باتجاه المستقبل كان من

شأنه أن أثقل كاهل كل من الطفل والأم على حد سواء. وحُسم أمر اختيار المهنة– كما قال كيلر ذاته – "بناء على رغبات تفتقر إلى الخبرة والتجربة": فقد أتى في عام ١٨٣٤ إلى رسام فني، إن شئت أن تسميه كذلك، لكي يتعلم عنده مهنة الرسم وتبين فيما بعد أنه تلقى دروساً على يد فنان حقيقي إلا أن هذا الفنان غادر زوريخ فجأة لكونه إنساناً مشوشاً عقلياً. كان الفتى آنذاك معتمداً على نفسه كل الاعتماد. وكان إلى جانب الرسم منهمكاً "بمطالعات مستمرة وملء كراسات بكتابات غريبة" إلى أن أقدمت الأم على وضع نهاية لكل حيرة وتردد، فجازفت بإعطاء الابن كل ما سبق لها أن وفرته من مال لكي يذهب إلى مدينة ميونيخ ويتلقى تأهيلاً فنياً مناسباً في أكاديمية فن الرسم. في ربيع عام ١٨٤٠ أمسك كيلر بعصا الترحال، ولكنه وجد في ميونيخ فناً مناقضاً تماماً لما جبل عليه من ابتغاء حقيقة الطبيعة، لكن دون أن يعي هذا التناقض. فمناظره الريفية الشعرية لم تعد ملائمة للعصر. وتعرض لوضع مثقل بالديون كان من شأنه أن شل كل فعالياته، ولاحقه سوء الحظ مرة تلو أخرى. وانتقل أخيراً بكل متاعه الفني إلى بائع أدوات وأغراض قديمة، وصار يدهن صواري الأعلام والرايات لئلا يموت جوعاً – تماماً كما كان يفعل الفتى هاينريش. وبعد ذلك توسل إلى أمه لكي تزوده بالنقود اللازمة لعودته إلى البلاد.

فيما بعد قال كيلر إنه عاد إلى الوطن "دون أن يصبح أي شيء".

وبينما كانت الأم تقف دون كلل أو ملل أمام فرن مطبخها لكي تعد الحساء، كان كيلر يجلس وهو يمعن التفكير وراء علب الكرتون المليئة برسوماته، وبما أن حماسه لهذا الفن الهش كان خف إلى حدّ كبير فقد بدأ من جديد يملأ وقته بالمطالعة والكتابة، لكن ذلك لم يؤد إلى إزالة القلق بشأن المستقبل، بل (الأرجح) أن المستقبل ظل يشغل فكره ووجدانه إلى أن تحول الإمعان في التفكير إلى عقد العزم على كتابة رواية حزينة عن الانقطاع

المأسَوي لمسيرة فنان شاب، تحطم على صخرتها الأم والابن. "كان هذا – حسب علمي- أول مشروع للكتابة بادرت إليه بوعي تام، وكان عمري آنذاك نحو ثلاثة وعشرين عاماً".

ولكن بدءاً من هذه النية الأولى إلى حين الصياغة الأدبية كان ثمة طريق طويل. في عام ١٨٤٢ لم يُكتب من الرواية أكثر من بضع صفحات. على حين يرجع التصميم التالي، الذي وصل إلينا، إلى عام ١٨٤٦. وإلى حين انتهاء هذا العمل الأدبي انقضت بعد ذلك عشر سنوات تقريباً، وكان ذلك لمصلحة الرواية. لم يكتسب المؤلف في أثناء ذلك مزيداً من الاطلاعات والرؤى في الحياة فحسب، بل طور أيضاً أسلوبه الخاص به. لكن قبل كل شيء كان المؤلف في عام ١٨٤٢ لا يزال قريباً من تجربته المريرة أثناء إقامته في ميونخ، وذلك إلى حد تعذر معه تضمينه ذلك المحتوى الإنساني العام والضامن لغنى الرواية وديمومتها. آنذاك كان من المتعذر على الكاتب، وهذا ما أحس به هو نفسه، أن يتعدى حدود رواية فنانية Künstlerroman وآفاقها.

حين رجع كيلر (إلى التفكير) جدياً إلى سابق النيّة لمشروع الرواية، كان (سبق له) أن نال بعض الشهرة، فضلاً عن مزيد من الثقة بالنفس، من جراء نشر مجموعة من القصائد في ديوان صغير. إلا أن الانعطاف الحاسم في حياته تم إذ إن الدولة، القادرة على كل شيء والمسهمة في السابق في تدمير مسيرته التأهيلية، قدمت له الآن يد المساعدة بإعطائه منحة للدراسة في الخارج. بهذا برهنت الجمهورية عن أريحية زاد من علو تقديرها أن منحتها لم تكن مثقلة بتعليمات أو شروط وأنها كررت كرمها حين وقع كيلر في عوز مدقع. وعلاوة على ذلك يتضح مدى اعتراف حكومة زوريخ وعلى رأسها العمدة إيشر والوزيران زولتسر وبولييه بالتطلعات الرفيعة للرجل الشاب وبموهبته الأكيدة وعقليته المثالية كما يتضح أيضاً محاولات كل هؤلاء لدعم هذه المزايا وتشجيعها. وبذلك يُقطع دابر الزعم المنتشر في البلاد والقائم على

انعدام النظر والانتباه بأن كيلر لم يُكتشف كما لم يُقدر حق تقديره إلا خارج البلاد السويسرية.

في خريف عام ١٨٤٨ عقد كيلر العزم وهو مزوّد بمنحة دراسة حكومية على الترحال ثانية، وفي هذه المرة إلى هايدلبيرغ وبرلين. إلى هايدلبيرغ لكي يصب اهتمامه على دراسات أدبية وفلسفية وتاريخية، وإلى برلين لكي يعمق دراساته في الإعداد المسرحي ويغزو هو ذاته خشبة المسرح. ولكن في خريف عام ١٨٥٥ ضاق ذرعاً بالغربة والاغتراب، فعاد إلى زوريخ من دون المسرحية، ولكن كان "الفتى هاينريش" معه في جعبته. في الأعوام البرلينية انقلبت "الرواية الصغيرة الحزينة" تحت يد المؤلف إلى رواية تطويرية، ولكنه واصل الكتابة فيها واختتمها بما يشبه الإكراه، لأن سقف مطالبه من الأدب كان ارتفع وتغيرت الخطة الأصلية بوعي ازداد توسعاً. خطوة الحياة، وتعني التطور الذاتي المتدرج في تقدمه إلى الأمام، هي الوحيدة التي استطاعت تحديد خطوة الرواية ومن ثم سرعة الإيقاع في إنجازها وإتمامها فإذا ما أراد كيلر أن يبقى وفياً لمبدئه فعليه ألا يكتب أي شيء لم يعايشه شخصياً أو يستوعبه. والناشر بدوره، الذي أزعجه بحق صدور أجزاء الرواية بصورة مشتتة ومتقطعة، حاول مرة بالترغيب وأخرى بالترهيب تسريع الختام. في عام ١٨٥١ صدر الجزء الأول وفي عام ١٨٥٥ الجزء الأخير.

كان للمؤلف من البداية اعتراضات كثيرة على "كتاب القدر" بالصورة التي أنجز فيها تحت ضغط الناشر وكابوس الوعد المعطى. وخطرت في باله جملة من التعديلات وضعته في مواجهة صعوبات جديدة، ولكنها أعطت الرواية شكل السيرة الذاتية الموحد الذي نقرؤها به في أيامنا هذه، فقد تم التخلي عن الخاتمة السابقة –وهذه إشارة إلى تغير جوهري واحد فحسب: في الصياغة الأولى للرواية يلتقي هاينريش، العائد تواً إلى الوطن، بجنازة أمه،

في حين يرد في الصياغة الثانية أن الأم تلقي على ابنها النظرة الأخيرة وهي على فراش الموت.

تعد هذه الرواية من مؤلفات الاعتراف Bekenntniswerk الفنية الكبرى، فأمام القارئ، الذي يريد أن يعرف كم يرجع من أحداث الرواية إلى معايشات شخصية ذاتية وكم يرجع منها إلى الخيال الإبداعي، يجلس كيلر ذاته على كرسي الاعتراف. فهو يقول إنه صاغ قصة هاينريش في مرحلة شبابه "استناداً إلى تجارب وإحساسات ذاتية". ثم يتابع: "وفي خضم ذلك دخلت في عملية تخيلات وابتكارات ذهنية إلى أن غدا الكتاب أربعة أجزاء وبدا مفتقراً إلى أدنى حد من التناسق. كان سبب ذلك هو ابتهاجي في أن أبتدع من أواخر اليوم غداً حياً لم يسبق لي أن عشته من قبل، وبمعنى أصح، أن أنمي بوسائل شاعرية تلك البذور والبوادر الزهيدة تحقيقاً لهواي ومتعتي. ولكن الطفولة الفعلية، حتى ما فيها من نوادر وأقاصيص طريفة، قدمت في الرواية بصورة تكاد تكون حقيقية تماماً". بالمقابل تُعرض للقارئ مرحلة الشباب الناضج في معظمها على أنها لعبة لخيال متمم. أما شخصيتا المرأتين فيعبر الكاتب عنهما بقوله: "صورتان متناقضتان من نسج الخيال الشعري، يضع بعضهما بعضاً في حياة الناس المتيقظة موضعاً للشك والتساؤل". ولكن السؤال عن المعايشة الذاتية ليس هنا أكثر من كونه سؤالاً عن المادة الأولية. لم يجسد الكاتب عالماً من الوقائع المعقولة الواضحة فحسب، بل جسّد أيضاً عالماً من الحياة في العمق، فقد انطلق من العالم المرئي، وإن لم يكتف بما هو مرئي. فبفضل القدرة المصعدة للرؤية وبفضل قوة التعبير المتنامية تراه يرسم بشراً وأشياء بثقة واضحة، ولكن صدقه الذي لا يعرف اللّين يجبره أيضاً على الغوص في أعماق النفس والكشف عن المعوقات النفسية وصولاً إلى الخلجات الأخيرة. من يُرد معرفة كيف تحولت المعايشات إلى كتاب عميق الأفكار وغني بالخبرات والحكمة فما عليه إلا أن يفتح الفصل الرابع من الكتاب الرابع. هنا في "معجزة الناي" يتعرف المرء على وجه الكاتب وقدره وهنا

يحصل على الجواب عن سؤاله، الذي هو وحده دون غيره الحاسم من الوجهة الفنية والإنسانية على حد سواء. كيلر تطلع طول حياته إلى أن يكون "نبيل" السجايا، ومن هذه الروح ذات المطلب الخلقي الثابت ومن الروح ذات النزعة الإنســـانية الحقيقية وُلدت روايته التأهيلية. وما دام على "الفتى هاينريش" أن يجد طريقه مروراً بالسعادة والتعاســـة، بالأخطاء والآلام، فإنه قادر على الإجابة عن سؤال كل باحث عن صياغة ماهية الإنسان وعن التطوير المطرد للنفس الإنسانية.

كان نمو الأديب وتطوره متوازياً مع نمو عمله وتطوره. وليس بمقدور كل قارئ أن يتتبع "الفتى هاينريش" من أول محاولة، ولكن رب قارئ، في لحظة من التردد والخيبة، رمى الكتاب جانباً وتوقف عن قراءته ثم عاد فيما بعد بدافع من تطوره الذاتي إلى التوغل في عالم فهمه وإدراكه. بهذا المعنى يكاد "الفتى هاينريش" أن يكون مقياساً لثقافتنا وحجر المسافة في تطورنا الذاتي.

ومن يعش حياة ثقافية في أعماقه، يجد في هذا الكتاب ماهيته الأكثر ذاتية وبصورة أوضح وأعمق مما يستطيع هو ذاته عرضها وتقديمها للناس. وذات مرة كتب هرمان هتتر إلى كيلر يقول: "أقول لك الحقيقة، قصة الشباب هذه هي قطعة حلي وأنا فخور بأنه يجوز لي أن أسمي بطلها ومؤلفها صديقاً لي".

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب



الفتى هاينريش

الجزء الأول



الفصل الأول

مديـح النسـب

كان أبي ابناً لفلاح من قرية موغلة في القدم حازت اسمها من ذلك الرجل الألماني الأصل، الذي كان حط رحاله هناك إبان تقسيم الأطيان وأنشأ مزرعة. وفي مستهل القرون تلاشت في أوساط الشعب عبر القرون تلك السلالة التي منحت القرية اسمها، وقد اتخذ أحد الاقطاعيين اسم القرية لقباً إقطاعياً له وبنى فيها قصراً لم يعد يعرف أحد أين كان موقعه، كذلك كان مجهولاً تاريخ وفاة آخر "نبيل" من نبلاء تلك السلالة. وأما القرية فلا تزال قائمة وآهلة بالسكان وتدب فيها الحياة أكثر من أي زمن مضى، على حين بقيت بضع عشرات من الألقاب العائلية على حالها وظلت باستمرار كافية لأجيال متعددة ومتباعدة القرابات. المقبرة الصغيرة التي تحيط بالكنيسة المتشحة أزلياً بالبياض على الرغم من قدمها، ولم تتوسع قط إذ لا مجال لها أيضاً لأي توسع فتتكون تربتها بالمعنى الحرفي للكلمة من العظام المتحللة لرفات الأجيال البائدة، ويتعذر أن تجد إلى عمق عشرة أقدام حبة تراب واحدة لم تتحول عبر التركيبة العضوية للبشر ولم تساعد فيما مضى في عزق الأرض المتبقية. لكنني أبالغ وأنسى ألواح التنوب الأربعة، التي تنطمر في التراب في كل مرة وهي تنتمي أيضاً إلى تلك الأجيال العملاقة من الشجر المحيط بالجبال الخضراء، وأنسى أيضاً ما كان يغطي القبر من الكتان الذي كان ينمو في تلك الحقول بخشونة وأصالة يتمدد فوقها ويحول لونه ويغدو

واحداً من مكوناتها، مثله مثل ألواح الصنوبر، ثم إنه لا يحول دون أن تكون تربة صحن كنيستنا باردة إلى حدّ مريح وسوداء اللون كغيرها من الترب. وفيها ينمو كذلك أكثر الأعشاب اخضراراً، والورود إلى جانب الياسمين تتكاثر بجنون في حال من فوضى إلهية وغزارة مفرطة بتدبير إلهي بحيث يتراءى لك أن ليس ثمة شجيرات وُضعت على قبر جديد بل القبر هو الذي نُقش في أغوار غابة من الورود. وحفار القبور وحده دون غيره يعرف تمام المعرفة حدود هذه الفوضى كما يعرف أيضاً أين تبدأ المنطقة التي يجب عزقها عزقاً حديثاً.

يكاد عدد سكان القرية يبلغ ألفي نسمة، كل بضع مئات منهم يحمل الأسماء ذاتها، وعلى أن عشرين إلى ثلاثين من هؤلاء على أكثر تقدير اعتادوا أن يسمي بعضهم بعضاً أبناء عمومة، لأن التذكر قلّما كان يصل إلى آباء الأجداد. من أعماق الأزمنة بعيدة الغور يصعد هؤلاء الناس إلى ضوء النهار ويتشمسون فيه قدر المستطاع، يتلمسون بشرتهم ويقاومونها لكي يختفوا من جديد طوعاً أو كرهاً في الظلام حين يئين الأوان. وحين يتلمسون أنوفهم(*) وذلك يعني أنهم على اقتناع تام بتحدرهم من سلسلة نسب متواصلة ومكونة من اثنين وثلاثين سلفاً. وبدلاً من اقتفاء أثر العلاقة الطبيعية بين هؤلاء الأسلاف فإنهم يفضلون بذل المزيد من الجهد لكي لا ينهوا سلسلة النسب من ناحيتهم. وهكذا يستطيعون على هذا النحو قص كل الأساطير والحكايات العجيبة الممكنة ذات العلاقة بمنطقتهم بمنتهى الدقة دون أن يعرفوا كيف حدث زواج جدهم من جدتهم.

تنتشر القرية في منطقة كبيرة ومستديرة ومزدانة بالحقول والغابات وتشكل عند السكان ثروة غنية لا تبلى. هذا الوضع ظل تقريباً على حاله منذ قديم الزمان، وإذا ما حدث من حين لآخر أن ذهبت عروس ما بقسم من هذه الثروة، قام الفتية الصبيان مقابل ذلك بعمليات سطو متكررة في مناطق تمتد

(*) في لحظة من الشرود وإمعان النظر، المترجم.

إلى مسافة ثماني ساعات ويتكفلون بذلك بتعويض كاف كذلك يتكفلون بأن تحافظ الأوضاع النفسية ومعالم الوجوه لدى أهالي القرية على تنوعها المطلوب والمناسب، فتطور بذلك رؤية في مجال اطراد ازدهار جديد أكثر عمقاً وإلماماً مما قد يتأتى لبعض المدن الأرستقراطية والتجارية الغنية ولسلالات الأمراء الأوربيين.

أما توزيع الملكية فيتغير قليلاً من عام إلى آخر ويتغير إلى حد انعدام التمييز تقريباً كل نصف قرن من الزمن. فأطفال متسولي الأمس هم اليوم أغنياء القرية وأحفاد هؤلاء سوف يتسكعون غداً بكل مشقة وعناء في أوساط الطبقة الوسطى إما ليفتقروا تماماً أو ليلقوا من جديد دفعاً إلى الأمام.

توفي أبي في سن مبكرة فلم يعد بمقدوري أن أستمع إليه وهو يحكي عن أبيه ولذلك أراني لا أعرف شيئاً عن هذا الإنسان، ولكن المؤكد أن الدور في الانتقال إلى الفقر المشرِّف كان قد جاء آنذاك على عائلته في نطاقها الضيق. وبما أنني لا أريد أن أظن أن هذا الجد القديم والمجهول كان إنساناً سمجاً وغريب الأطوار فقد أرجح أن ثروته بددت من قبل أخلاف كثيرين. الحق أن لي عدداً لا بأس به من أولاد العم البعيدين، الذين يصعب التمييز بينهم والذين يهمون الآن من جديد- زاحفين كدبيب النحل- بالاستيلاء على قسم لا بأس به من قطع الأرض المجزأة والمحروثة، لا بل إن بعض المسنين من هؤلاء كانوا في ذلك الوقت أغنياء مرة أخرى وقد أصبح أطفالهم فقراء من جديد.

آنذاك لم تعد سويسرا تلك البلاد، التي بدت لسكرتير البعثة الدبلوماسية فيرتر أنها تستحق الشفقة والعطف. وعلى الرغم من أن البذرة الفتية للأفكار الفرنسية طمرت بسقوط ثلج كثيف نتيجة للأوامر التي صدرت بشأن إيواء الجنود النمساويين الروس حتى الفرنسيين، فإن دستور التسوية -Mediations verfassung(*) سمح بحلول نهاية صيف معتدلة لم تمنع أبي من أن يترك في

(*)(١٨٠٣-١٨١٣، المترجم).

صباح أحد الأيام البقرات التي كان يرعاها ويذهب إلى المدينة لكي يتعلم مهنة جديدة. فاختفى منذ ذلك الحين عن أنظار أبناء موطنه، لأن عزيمته المزدادة باستمرار تصميماً واندفاعاً قادته بعد سني التعلم القاسية والمكللة بنجاح باهر إلى أقاصي بلدان الغربة. فجاب ممالك واسعة ونائية حجاراً ماهراً. لكن في أثناء ذلك بعد معركة واترلو حل ربيع الزهور القشية ذات الحفيف الناعم، وكما عم ضوؤه الخافت المائل إلى الزرقة كضوء الشمعة كل الأرجاء فقد انتشر أيضاً في كل زوايا سويسرا وأنحائها، بما في ذلك القرية التي ولد فيها أبي والتي كان أهلها اكتشفوا في التسعينيات أيضاً أنهم يعيشون منذ الأزل في وسط بلاد ذات نظام جمهوري، وفي تلك الأثناء أيضاً كانت السيدة المحترمة، أعني مرحلة إعادة ترتيب الأوضاع الأوروبية Restauration(*)، قد انتقلت في موكب احتفالي مع كل العلب وكراتين متاعها إلى المعقل الجديد وزودته بأثاث جيد قدر المستطاع. وكان لغابات ظليلة، وهضاب ووديان مزدانة بربوع الفرح المريحة إلى أقصى حدود الارتياح، نهر نقي وغني بالأسماك، إضافة إلى تكرار هذه الميزات الحسنة في جوار يعج بالحيوية ويمتد إلى مسافة بعيدة وتزينه إضافة إلى ذلك بضعة قصور مأهولة – أن أضاف إلى أهالي المنطقة من السيدات والسادة عدداً كبيراً من ضيوف آتين من المدينة، يصطادون حيوانات برية ويصطادون أسماكاً ويرقصون ويغنون ويأكلون ويشربون. ومما سهل عليهم الحركة هو أنهم تركوا الفساتين المنفوشة الفضفاضة والشعر المستعار فقد كانت الثورة قد رمتها ولبسوا عوضاً عنها، ولو جاء ذلك متأخراً بعض الشيء في هذه المناطق، الزي اليوناني الذي يرجع إلى عهد القياصرة. كان الفلاحون مندهشين لرؤية عريقات الأصل من مواطنات بلدتهم بذلك المظهر الرائع الموشح بشحوب الحزن وقبعاتهن الغريبة وخصورهن الأكثر غرابة والمحاطة بأحزمة تحت الذراعين مباشرة. روعة

(*)(بعد هزيمة نابليون الأول في معركة واترلو في عام ١٨١٥، المترجم).

الجماعة الارستقراطية تجلت في أرفع درجاتها في بيت القس. لم يكن رجال الدين في الريف السويسري ممن ساروا في ركب حركة الإصلاح صعاليكَ فقراء وأذلاء مثل زملائهم في الشمال البروتستاني. وبما أن كل المناصب الدينية في البلاد ظلت في معظم الحالات حكراً على مواطني المدن المتحكمة، فقد شكلت إلى جانب مناصب الشرف الدنيوية عنصراً متمماً في نظام السلطة، والقساوسة، الذين أقدم إخوتهم على حسم الأمور بالعنف، كان لهم من الظفر نصيب فشاركوا بقوة في بسط التأثير وفي الحكم وذلك بطريقتهم الخاصة في نطاق كلي وجامع وعاشوا حياة ممتعة وخالية من الهموم. في أغلب الحالات كان هؤلاء أغنياء في الأصل، وبيوت القساوسة في الأرياف كانت شبيهة بالمقرات الريفية للسادة الكبار، وكان أيضاً ثمة عدد لا يستهان به من رعاة الأرواح المنتمين إلى طبقة الأشراف، الذين اعتاد الفلاحون أن يطلقوا عليهم تسمية الشريف القس. لم يكن قس قريتي واحداً من هؤلاء لم يكن كذلك أقل من رجل غني، لكنه فيما عدا ذلك جمع في شخصه – وهو المنتمي في الأصل إلى أسرة مدنية قديمة - وفي شؤون بيته كل مواصفات الاعتزاز والروح الطبقية والنزوع إلى التمتع بالحياة، أي المواصفات المتوفرة في كيان مدني ميسور الحال. وكان من دواعي اعتزازه أن يسمى أرستقراطياً، ثم إنه مزج وجاهته الدينية دون أي تكلف بمسحة فظة وذات ملامح نبلائية – عسكرية، لأن الناس آنذاك لم يكونوا عرفوا بعد شيئاً لا عن اسم ولا عن ماهية المذهب الحديث، مذهب النزعة المحافظة القائمة على أساس التظاهر بالتدين والتقى Traktätlein – Konservatismus. كان بيته يعج بالحياة الصاخبة المرحة، وكان أولاده يديرون بكل كفاءة منتجات الحقل والإسطبل، واعتاد الضيوف على نوع من الخدمة الذاتية، إذ كانوا يجلبون من غابة القس بأنفسهم أرانب وطيور الشنقب وطيور الحجل، وما دام صيد المطاردة لم يكن أمراً مألوفاً في البلاد، فقد دعي الفلاحون عوضاً عن ذلك بأسلوب ودي إلى مراكب لصيد الأسماك بالشباك، وهو ما أسفر في كل مرة عن عيد حقيقي.

على هذا النحو لم يكن بيت القس في يوم من الأيام خالياً من الفرح والصخب. كان الناس يطوفون في البلاد ويطوفون حولها، يقومون بزيارات بأعداد كبيرة ويستقبلون زواراً ، ينصبون خياماً ويرقصون تحتها أو يمدونها فوق جداول الماء الصافية فتستحم الصبايا اليونانيات تحتها، وكانوا يداهمون زرافاتٍ طاحونة رطبة مهجورة أو يسافرون في قوارب تغص بالركاب فوق مياه البحيرات والأنهار، القس دائماً في المقدمة وكان يحمل على ظهره بندقية لصيد البط أو يحمل في يده عصاً ضخمة من الخيزران الإسباني.

في هذه الأوساط لم تكن ثمة احتياجات فكرية كثيرة، ومكتبة القس الدنيوية كانت تحتوي، كما سبق لي أن اطلعت عليها، على بعض الروايات الفرنسية القديمة من نوع روايات الرفاهية وقصائد غيسنر الريفية وملاهي غيلرت ونسخة مهترئة بفعل القراءة من قصص مُنشهاوزن الأسطورية. وبدا أن جزأين أو ثلاثة أجزاء منفردة من مؤلفات فيلاند كانت استعيرت من مكتبة المدينة ولم تُعد إلى مكانها. في تلك اللقاءات أُنشدت أغان من نظم هولتي، والشباب فقط هم الذين اعتادوا على حمل ديوان ماتيسن معهم. أما القس ذاته فقد اعتاد، حين تعلق الأمر بالحديث عن أمور كهذه، أن يسأل بانتظام منذ ثلاثين عاماً: "هل قرأتَ كتاب كلوبشتوك عن السيد المسيح؟" وإذا أتى الجواب كالعادة بنعم، كان القس يصمت بحذر. فيما عدا ذلك لم يكن الضيوف منتمين إلى تلك الأوساط الأكثر كفاءة وجودة التي تُعنى بثقافة المصالح المهيمنة عن طريق فعالية عقلية بوتيرة مصعدة وتحاول تثبيتها بتأهيل نبلائي الطابع، بل ينتمون إلى الطبقة الهادئة التي تكتفي بالتمتع بقطف ثمار مجهودات الآخرين وتنعم دون أي متاعب بالفرح والسرور ما دامت تحتفل بتدشين كنيسة.

ولكن هذه الروعة بمجملها كانت تخفي في ذاتها بذور انهيارها؛ كان للقس ابن وابنة يتحليان بميول ونوازع مختلفة عما في محيطهما. ففي حين أقام الابن، الذي هو أيضاً من رجال الدين ويراد له أن يخلف أباه في منصبه، صلات متنوعة مع فلاحين شباب وأمضى يومه بطوله برفقتهم في الحقول أو

سافر معهم إلى أسواق الماشية وتفحص البقرات الفتية بنظرة العارف، كانت الابنة تتخلى ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً عن الفساتين اليونانية وتنسحب إلى المطبخ والحديقة لكي تصب اهتمامها على تزويد الجماعة المضطربة حين تعود من سفراتها بما لذ وطاب من الطعام. لم يكن هذا المطبخ أيضاً مكان الجذب الأضعف عند أهالي المدن الذواقين، والحديقة الكبيرة والمزروعة بمهارة وإتقان كانت دليلاً على جهد دؤوب وولع شديد بالترتيب والتنظيم.

انتهى المطاف بالابن إلى الزواج بابنة فلاح غنية ذات بنية قوية والانتقال إلى بيتها والقيام طوال كل أيام العمل الستة في الأسبوع بزرع حقولها وخدمة مواشيها. وبما أنه كان مرشحاً لمنصب أعلى فقد تدرب وهو البذّار على أن ينثر البذرة الألهية وفقاً لرميات محسوبة بدقة ويقتلع الشر من جذوره على هيئة أعشاب حقيقية ضارة. كان الخوف والغضب من ذلك كبيرين في بيت القس ولا سيما حين كان يخطر في البال أن الفلاحة الشابة سوف تنتقل يوماً ما إلى هناك وتصبح حاكمة البيت ومدبرة أموره وهي لا تجيد بما يلزم من ظرف وكياسة الاستلقاء في العشب كما لا تجيد أيضاً قلي أرنب وتقديمه للضيوف تقديماً يرتقي إلى المستوى الطبقي المطلوب. لذلك كان ثمة رغبة لدى الجميع في أن تعمل ابنة القس، التي كانت تجاوزت بالتدريج مرحلة شبابها الأولى، إما على إغواء قسٍّ فتي ومخلص لطبقته وجذبه إلى البيت للزواج أو أن تبقى لفترة طويلة تلك القوة التي تضمن ثبات ذلك البيت وتماسكه. لكن هذه الآمال أيضاً قد خابت.

* * *



الفصل الثاني

الأب والأم

وإنّه لَفي يوم من الأيام حدث أن دبت حركة كبيرة في أرجاء القرية كلها بقدوم رجل بهي الطلعة، أهيف القامة كان يرتدي سترة ناعمة خضراء اللون متماشية مع أحدث الأزياء وسروالاً أبيض اللون ملتصقاً بالساقين من شدة الضيق وجزمة سوفاروف لامعة. وإذا ما بدا الطقس ماطراً، اعتاد صاحبنا أن يحمل معه مظلة مصنوعة من الحرير الأحمر، ثم إنَّ ساعة ذهبية كبيرة متقنة الصنع، قد أضفت عليه في نظر الفلاحين مسحة أرستقراطية أكيدة. وقد اعتاد أن يطوف في أزقة القرية بطريقة تنم عن النبل والفضيلة وكان يلج الأبواب المنخفضة بكل مودة ولطف معشر ويزور أمهات مسنات وأشابين، ولم يكن هذا الرجل أحداً آخر سوى صانع الحجار لي Lee الذي سبق له أن جال في بلاد الله الواسعة وأنهى تجواله الطويل بنجاح مشرف. من المصيب هنا استخدام تعبير مشرف إذا ما تذكرنا أنه كان هاجر من القرية قبل اثني عشر عاماً وكان وقتذاك صبياً في الرابعة عشرة من عمره، فقيراً وخاوي الوفاض. ثم كان عليه أن يكسب أجور تعلمه الصنعة عن طريق العمل ساعات طويلة لدى معلمه. هكذا كان وضعه حين سافر إلى بلاد الغربة حاملاً على ظهره كيس سفر متواضعاً وفي جيبه مبلغ زهيد من النقود. والآن عاد بصورة سيد رسمي، كما سماه أهل الريف. فتحت السقف المنخفض لأقربائه كان ثمة صندوقان كبيران أحدهما ممتلئ بالثياب والمغسولات الناعمة والآخر بالموديلات والرسوم

والكتب. كان ثمة طابع متوثب ودفاق يميز مجمل شخصية الرجل البالغ آنذاك من العمر ستة وعشرين عاماً، كانت عيناه تتوهجان كما لو أن لهما بريقاً مستمراً وصادراً عن دفء وحماسة عميقين، كان يتحدث دائماً بالألمانية الفصحى ويحاول أن يتوقف عند الجوانب الأجمل والأفضل من أقل الأشياء أهمية. وكان اجتاح في تجواله أرجاء ألمانيا كلها من الجنوب إلى الشمال وعمل في المدن الألمانية الكبيرة كلها، وصادف أن تواكبت سنو ارتحاله مع فترة حروب التحرير(*) بكل مداها وأبعادها فتشرب بذلك ثقافة تلك الأيام ونبرتها بقدر ما كانتا مفهومتين ومتيسرتين عنده، وشاطر على خير وجه الطبقة الوسطى الطيبة الأمل في مستقبل أفضل وأجمل للواقع المعيش دون أن يعرف شيئاً عن الدماثة الفكرية العالية والتسامي الروحي العالي مما تكاثر في بعض العناصر آنذاك عن طريق الطبقات الأعلى في المجتمع.

كانوا قلة أولئك الزملاء الرواد، الذين شاطروه عقليته وتفكيره فشكلوا بذلك بذور الترقي والتنوير النادرة والدفينة التي توغلت في أعماق أرباب المهن المتجولين بعد ذلك بعشرين عاماً، الذين تطلعوا بكل فخر إلى أن يكونوا العمال الأفضل والأكثر رواجاً فنالوا بفضل ذلك إضافة إلى فضل الجد والاعتدال الوسائل اللازمة لترقية عقولهم وإثبات أنهم ظاهراً وباطناً حتى وهم في أثناء سني التجوال رجال أكفياء وجديرون بالاحترام. وعلاوة على ذلك فقد تنبه مصنِّع الأحجار على أهمية الأعمال الكبيرة في فن البناء الألماني القديم، وهو ما زاد من إضاءة دربه بفضل ملء ذهنه بحدوس فنانية بهيجة وسوّغ على ما يبدو ذلك الدافع الغامض حتى تلك اللحظة إلى ترك المراعي الخضراء والانضواء في حياة المدن القادرة على صياغة الإنسان من جديد. تعلم الرسم بمثابرة لا تعرف الكلل وأمضى ليالي وعطلاً كاملة في رسم أعمال ونماذج من كل الأنواع وبعد أن تعلم استخدام الإزميل في التشكيلات

(*) تحرير ألمانيا من نابليون، المترجم.

والتزيينات الأغنى من الوجهة الفنية وبعد أن بلغ درجة الكمال في الأعمال الفنية اليدوية، لم يكتف بذلك بل عكف على دراسة قطع الأحجار وحتى على دراسة علوم أخرى تتعلق بقطاعات غير قطاع البناء. وحاول في كل مكان أن يأوي إلى أبنية عامة كبيرة حيث يوجد كثير مما يجب أن يُشاهد ويَتعلم، وسرعان ما أحرز بفضل الاهتمام والمثابرة نجاحاً باهراً بحيث تعذر على معلمي البناء الاستغناء عن خدماته سواء في مكاتب عملهم على طاولة الرسم أو الكتابة وفي ورشات البناء. وكان أمراً بدهياً أنه لم ينعم هناك بتعطيل أو استراحة، بل أمضى ساعات الظهيرة برسم كل ما استطاع رسمه ونقل كل الحسابات التي تيسر له تلقفها. صحيح أنه لم يصبح على هذا النحو فناناً أكاديمياً مؤهلاً في كل الجوانب، إلا أنه تطور إلى رجل عزم بكل جرأة على أن يصبح في عاصمة بلاده معلماً صالحاً في مهنة البناء والعمارة. وبهذه النية الواضحة ظهر الآن أيضاً في القرية وسط إعجاب قومه الشديد ودهشتهم. وتصاعدت الدهشة حين اندس وهو يرتدي قميصاً أنيقاً مزوداً بأساور أكمام ويتحدث الألمانية الفصحى بأنقى تعابيرها، في وسط الأشخاص الفرنسيين – اليونانيين الموجودين في بيت القس وطلب يد ابنة هذا للزواج. والأخ ذو العقلية الريفية أراد أن يؤدي في هذا الأمر دور الوسيط، على الأقل أن يقدم مثالاً مشجعاً، ولكن سرعان ما قدمت الصبية قلبها هدية للشاب المتألق الذي طلب يدها، والاضطراب الذي أوشك أن ينشأ من جراء ذلك زال بسرعة حين مات والدا العروس الواحد بعد الآخر بفترة زمنية قصيرة.

وهكذا أقام العروسان حفل زفاف هادئاً ثم ذهبا بعد ذلك إلى المدينة لكي يقيما فيها غير عابئين بالماضي المجيد لبيت القس الأب، الذي سرعان ما انتقل إليه القس الشاب الابن مع عربات بأكملها مليئة بالمحشات والمناجل والأدوات اللازمة لدراسة الحبوب وأدوات الذراية إضافة إلى أسرَّة ذات أعمدة ومغازل يدوية وأمشاط من الشمع لفصل خيوط القنب بعضها عن بعض ورافقته في هذا الانتقال زوجته النضيرة الجريئة، التي كانت أخلت البيت والحديقة بسرعة من

كل الألبسة المصنوعة من أقمشة الموسيلين الفاخرة(*)، والرفوف الخشبية والمظلات إضافة إلى كميات الأطعمة من الشحم المدخن وكتل الدقيق الخشنة. وجدار مليء ببنادق صيد ممتازة - كان أيضاً الخليفةُ الجديدُ في بيت القس يجيد التعاطي معها - هو وحده الذي ظل يجذب بعض الصيادين إلى القرية ويميز ذلك البيت نوعاً ما من بيت فلاح عادي.

في المدينة بدأ ذلك البنّاءُ الشاب عمله بتشغيل بضعة عمال في ورشته وكان يعمل من الصباح حتى المساء دون توقف ويلتزم تلبية طلبات صغيرة من كل الأنواع ويبرهن في أداء عمله عن كثير من المهارة والنزاهة، وهو ما أدى حتى قبل أن ينقضي العام إلى توسع أشغاله وذيوع صيته. كان يتحلى بعقلية إبداعية وسديدة الرؤية وبمهارة وسرعة بديهة إلى حد أن كثيرين من المواطنين كانوا يسارعون إلى طلب النصح منه وتكليفه بعمل ما إذا ما كانوا في شك مما ينبغي عليهم أن يغيروا في البناء أو أن يبنوا من جديد. في ذلك كان يسعى باستمرار إلى الجمع بين الجميل والمفيد وكان يشعر بالفرح لمجرد أن يوافق زبائنه على إنجازه بعض الزخرفات والنوافذ وحواف النوافذ بأشكال أكثر صميمية واتقاناً دونما حاجة إلى أن يدفعوا لهذا السبب أجراً أكثر من المتفق عليه لما أبدعه ذوق بنّائهم الملهم.

أما زوجته فقد قامت بحماسة أصيلة بإدارة شؤون البيت، الذي شهد توسعاً سريعاً عن طريق مختلف العمال والخدم الجدد. وأتقنت بكل قوة وبراعة تعبئة عدد من السلات الكبيرة المليئة بالأطعمة وتفريغها وكانت مصدر رعب لنساء السوق ومصدر يأس للجزّارين، الذين كان لا بد لهم من استخدام سُلطة كل حقوقهم القديمة إذا ما أضافوا قطعة صغيرة من العظام إلى كمية اللحم التي توزن لمصلحة السيدة لي. وعلى الرغم من أن المعلم "لي" كان مستغنياً تقريباً عن أي احتياجات شخصية ومن بين مبادئه الكثيرة احتل مبدأ التوفير مكان الصدارة، فقد

(*) نسبة إلى مدينة الموصل في العراق، المترجم.

ركز على الاعتدال في الربح وعلى ابتغاء الخير للجميع إلى حدّ أن المال لم يكن ذا قيمة عنده إلا إذا استُثمر في شيء مفيد أو أُنفق في مساعدة أحد، سواء أكان ذلك عن طريقه هو أم عن طريق غيره. أما زوجته، التي لم تنفق قرشاً واحداً في غير محله وكانت ترى في الامتناع عن إعطاء أحد قيد شعرة أقل أو قيد شعرة أكثر مما يستحق شرطاً أساسياً لتحقيق أكبر مفخرة، فقد كان يدين لها بالشكر والامتنان في أنه بعد مضي سنتين أو ثلاث وجد في انتظاره مبالغ مدخرة من المال كان من شأنها أن قدمت لعقليته الطموح، إلى جانب السمعة الحسنة التي كان نعم بها من قبل، دعماً أكبر. كان يشتري بيوتاً قديمة لحسابه الخاص ويهدمها لكي يبني محلها بيوتاً مناسبة للمواطنين وكان يزودها بتجهيزات ومرافق من ابتكار غيره ومن ابتكاره هو أيضاً. وكان يبيعها بأرباح متفاوتة وينتقل فوراً إلى مشاريع جديدة. كل أبنيته تحلت بطابع السعي إلى غنى في الأشكال والأفكار، وإذا صادف أن احتار مهندس معماري قدير أين يصنف كل الأفكار الواردة في الحسبان وإذا اتهم بكثير من الغموض والنشاز، فإنه كان يعترف دائماً بأن ما أتى به مجرد أفكار وكان يكيل المديح في الوقت ذاته، إذا ما خلا من التردد والارتباك، للحماسة الجميلة التي اتصف بها هذا الرجل في مرحلة افتقار قطاع البناء إلى الأفكار النيرة والخيال الواسع، تلك المرحلة التي سادت على الأقل في الأقاليم النائية من عالم الفن.

هذه الحياة الفعالة وضعت الرجل الذي لم يعرف الكلل في وسط حلقة من المواطنين المتفاعلين معه إلى حد بعيد ومن بين هؤلاء تأسست لجنة مصغرة من رجال منفتحين تجمعهم عقلية واحدة وقد شاطرهم البحث الدؤوب عن الخير والجمال. كان ذلك في منتصف العشرينيات حيث قام في سويسرا عدد كبير من المثقفين المنتمين إلى الطبقة الحاكمة ذاتها والمعتنقين من جديد الأفكار الحكيمة التي أتت بها الثورة(*)، الكبرى بإعداد تربة خصبة وممتنة لأيام تموز واهتموا

(*) الفرنسية، المترجم.

بعناية فائقة بالقيم النبيلة للثقافة والكرامة الإنسانية. إلى هؤلاء أقام "لي" بالتعاون مع رفاقه وانطلاقاً من مكانه امتداداً فعالاً في الطبقة الوسطى العاملة، التي استمدت جذورها منذ الأزل من أعماق الشعب المقيم في ربوع البلاد وعاشت بذلك تجدداً مستمراً. وفي حين ناقش أولئك الوجهاء والفقهاء الشكل المستقبلي للدولة إضافة إلى حقائق فلسفية وقانونية وجعلوا بوجه عام من المسائل المتعلقة بتحقيق إنسانية أكثر جمالاً محطاً لاهتماماتهم، اتجهت أنشطة الحرفيين والعمال وفعالياتهم نحو قضاياهم هم ونحو الطبقات الدنيا من المجتمع محاولين في أثناء ذلك أن يعدوا أنفسهم قدر الإمكان إعداداً عملياً. آنذاك أُسس عدد لا بأس به من الاتحادات، في أغلب الأحوال الأولى من نوعها التي تهدف في معظم الحالات إلى إنجاز تأمين من نوع ما لمصلحة الأعضاء وذويهم. وبنيت مدارس مجتمعية الطابع لضمان تعليم أفضل لمصلحة أبناء عموم الناس، باختصار، عدد لا بأس به من المشاريع من هذا النوع، التي كانت لا تزال جديدة وجديرة بالتقدير، مكَّن البارعين من اختبار كفاءاتهم وأعطاهم فرصاً للنهوض بتأهيلهم. ذلك لأنه كان لا بد في لقاءات متعددة من تصميم لوائح داخلية ومناقشتها ومراجعتها والموافقة عليها وانتخاب مديرين وشرح قوانين وقواعد من حيث الشكل والمضمون والاطلاع عليها.

انضم إلى هذه العناصر المختلفة الكفاح اليوناني في سبيل التحرر معاً وهو الذي أيقظ هنا كما في كل مكان ولأول مرة في خضم فتور العزائم وخور القوى العقول من جديد وذكّر بأن قضية الحرية هي شأن كل البشرية. وكان للمساهمة في الأنشطة الهيلينية أن أضفت حتى على الرفاق غير اللغويين، إضافة إلى حماستهم المتبقية، زخماً عالمياً نبيلاً وانتزعت من الحرفيين المتنورين المسحة الأخيرة من محدودية الأفق. كان "لي" في كل مكان في مقدمة رفاقه وكان صديقاً للجميع، أميناً ومتفانياً، ونظراً إلى ما تحلى به من ميزات نقية وروح عالية فقد لقي من الجميع ما استحق من التقدير لا بل التبجيل.

ولشد ما أسعده تحرره من كل عُجْب وغرور، والآن فحسب بدأ من جديد في التعلم أو استدراك ما أمكنه. وحث رفاقه أيضاً لكي يحذوا حذوه؛ فلم يمض وقت طويل حتى امتلك كل واحد من هؤلاء مجموعة صغيرة من الكتب في مجالات التاريخ والعلوم الطبيعية. وبما أنه تأتى لمعظمهم إن لم يكن لجميعهم في فترة الشباب قدر ضئيل من التعليم، فقد تكشف لهم الآن ولا سيما لدى تغلغلهم في كتب التاريخ ميدان غني ومثمر فأخذوا يطوفون في أرجائه بسرور غامر ومتصاعد باستمرار. لدى لقاءاتهم في صباح كل أحد كانت تكتظ بهم حجرات كثيرة وكانوا يتحاورون في مواضيع شتى ويخبر بعضهم بعضاً عن الاكتشافات الجديدة باستمرار، كما في كل وقت وزمان كانت الأسباب ذاتها تؤدي إلى النتائج ذاتها وما إلى ذلك. وإذا لم يكن في مقدورهم كذلك متابعة الشاعر فريدريش شيلر في ذروات أعماله الفلسفية. فقد سرهم أكثر الانشغال بكتاباته التاريخية، وانطلاقاً من ذلك عكفوا على قراءة أشعاره فاستمتعوا بها وأحسوا بانعكاساتها العملية الواقعية دون أن يستطيعوا الخوض في التقويم الفني الذي خص به نفسه ذلك الشاعر الكبير. وقد سروا أيما سرور بشخصياته الفنية ولم يعثروا على أشباه لها ترضيهم وتقنعهم. توجهه ونقاؤه المنتظمان في الفكرة واللغة كانا تعبيراً عن أعمالهم البسيطة والمتواضعة أكثر مما كانا تعبيراً عن ماهية بعض أتباع شيلر ومقدسيه من مثقفي عالم اليوم. وبما أنهم كانوا بسطاء وعمليين جداً فإنهم لم يقتنعوا تماماً بالقراءة الدرامية بقميص النوم، بل رغبوا في أن يروا هذه الأحداث المهمة بأم أعينهم بالفعل وباللون، ولما لم يكن في المدن السويسرية آنذاك مسرح عامل فقد قرروا على الفور، «لي» حثهم على ذلك مرة أخرى، أن يمثلوا ملهاة بقدر ما يستطيعون ذلك. خشبة المسرح والآلات كانت أعدت بطبيعة الحال بصورة أسرع وأكثر إتقاناً من تعلم الأدوار المسرحية المطلوبة، وحاول بعضهم أن يموه على حجم مهمته ذاتها وذلك بدق المسامير ونشر ألواح الخشب بقوة أكبر من المعتاد، ولكن لا سبيل إلى الإنكار أن الفضل في جزء

كبير من مرونة التعبير والتأدب الظاهري، الذي بقي قاسماً مشتركاً بين معظم الأصدقاء، يرجع إلى تمارين من هذا النوع. وحين أصبحوا أكبر سناً تركوا أشياء من هذا القبيل باقية على حالها، إلا أنهم حافظوا بإخلاص على الإحساس بالبهجة والسرور في كل مجالات الحياة. قد يخطر على بال المرء في هذه الأيام أن يسأل من أين تسنى لهم الوقت اللازم لكل هذه الأنشطة دون أن يهملوا من جراء ذلك أعمالهم وأسرهم: الجواب هو أولاً أنهم كانوا لا يزالون رجالاً يتمتعون بالصحة والبساطة ولم يكونوا ممن يمعنون التفكير في كل صغيرة وكبيرة ويضيعون كثيراً من الوقت على كل فعل وعمل فوق العادة، وذلك بتنسيله وتفتيته وتوسيعه بالضغط والمعس قبل أن يكون صالحاً للتذوق والمتعة، وثانياً كان من أمر الساعات اليومية الممتدة من السابعة حتى العاشرة مساء، إذا ما استغلت بانتظام، أن تشكل كماً من الوقت أكثر قيمة وأهمية مما يظن في أيامنا هذه المرء الذي يضيع هذه الساعات خلف كأس الخمر في دخان التبغ الكثيف. آنذاك لم يكن الناس بعد ملزمين بدفع أتاوات لجمهرة من أصحاب الحانات، بل كانوا يفضلون تخزين ذلك المحصول النبيل في فصل الخريف في أقبيتهم ولم وما من أحد بين هؤلاء الحرفيين، سواء أكان ميسوراً أم فقيراً، إلا كان يخجل إن هو لم يستطع تقديم كأس من النبيذ المعتق في ختام اللقاءات المسائية أو اضطر إلى جلب نبيذ من الحانة لهذا الغرض. في أثناء النهار لم يُرَ حرفي وهو يحمل معه كتاباً أو لفة من ورق إلى ورشة حرفي آخر، اللهم إلا إذا حدث ذلك بشكل خاطف وسري وخفية عن أنظار الزملاء. فيما بعد كانوا يشبهون صبياناً في مدرسة يمرر بعضهم على بعض من تحت الطاولات خطة مشروع حرب مجيدة.

ولكن هذه الحياة المضطربة كان لها بطريقة أخرى أن جلبت ويلات. كان "لي"، في خضم أشغاله المتراكمة وإرهاقه المستمر، قد تعرض في يوم من الأيام لتعرق شديد وبعد ذلك لبرودة شديدة دون أن يكترث للأمر فأسفر ذلك عن زرع بذور مرض خطير في جسمه. وبدلاً من أن يحافظ على

صحته ويهتم بها بكل الوسائل الممكنة، فإنه لم يمتنع عن متابعة أعماله وأنشطته وعن مساعدة الناس في كل عمل. فكان لانشغالاته المهنية المتعددة أن استهلكت كل نشاطه الذي لم يكن يُظن أنه سيضعف فجأة. كان يحسب ويضارب، ويبرم عقوداً ويذهب إلى أقاصي البلاد ليؤمن مشترياته. كان في آن معاً في أعالي السقالات وفي أســافل الأقبية وكان ينتزع من يد أحد العمال رفشه لكي يلقي بعيداً ببعض الرميات المهمة من الأتربة وغيرها، يمسك بصبر نافد بالرافعة لكي يساعد في دحرجة حمولة ضخمة من الأحجار؛ يحمل على كتفيه، إذا ما طال انتظاره إلى أن يأتي الناس إليه، دعامة خشبية ثقيلة وهو يلهث في مكانه وبدلاً من أن يستريح بعد كل هذه المجهودات كان يلقي في أحد النوادي محاضرة تعج بالحيوية أو يغير وجهته تماماً في ساعة متأخرة من الليل فيعرج على سقالة البناء في حال من شدة الانفعال والانشغال بمثل عليا في حمأة صراع مجهد كان يرهقه أكثر بكثير من عمله اليومي. وكانت النهاية أنه مات فجأة وهو رجل مزدهر وفي مقتبل العمر أي في سن يبدأ فيه الآخرون عمل حياتهم وفي وسط تصميماته وآماله ودون أن يرى انبثاق العهد الجديد الذي علق به هو وأصدقاؤه آمالاً كبيرة. وخلَّف وراءه زوجته وحيدة في هذه الدنيا مع طفل عمره خمس سنوات، وهذا الطفل هو أنا.

من عادة الإنسان أن يثمن للقدر ما يفقده تثميناً عالياً يصل إلى ضعفي تثمين ما يملكه فعلاً، وهكذا غمرتني حكايات أمي الطويلة بازدياد مطرد بالحنين إلى أبي الذي لم أعد أعرفه. إن أوضح ذكرى في مخيلتي عنه ترجع لشدة العجب إلى عام واحد تماماً قبل وفاته إذ عشنا معاً لحظة جميلة في مساء يوم أحد، إذ كنا في الحقل وحملني يومها على ذراعيه واقتلع من التراب شجيرة بطاطا لكي يريني دَرَناتها المنتفخة بقصد أن يوقظ فيَّ إدراك الخالق والدَّين بالشكر له. لا أزال أرى لباسه الأخضر والأزرار المعدنية اللامعة بالقرب من وجنتي، وعينيه البراقتين اللتين نظرت إليهما باستغراب عبر

شجيرة البطاطا التي كان يرفعها في الهواء. فيما بعد كانت أمي تتغنى أمامي في غالب الأحيان بكثرة ابتهاجها وغبطتها، هي والخادمة التي كانت ترافقها، بأحاديثه الجميلة. من أيام أسبق بقي أيضاً ظهوره في ذهني من خلال المفاجأة الغريبة الناجمة عن التسلح الكامل الذي ودعنا به في صبيحة أحد الأيام لكي يحضر تمرينات تستمر عدة أيام، وبما أنه كان رامياً بارعاً فإن هذه الصورة إضافة إلى اللون الأخضر المحبب ولمعان المعدن المبهج شيء واحد عندي. أما من فترة حياته الأخيرة فلم أحتفظ إلا بانطباع مشوش، ومعالم وجهه لم تعد ماثلة في ذهني.

حين أفكر في حرارة تعلق الآباء الأوفياء بأبنائهم العاقين وأنهم لم يستطيعوا في يوم من الأيام إبعاد هؤلاء عن قلوبهم، أجد من اللاطبيعي إلى أقصى درجة أن يترك من يسمعون بالناس الشجعان آباءهم ويتخلوا عنهم لأنهم سيئون ويعيشون في العار، وأمتدح حب طفل لا يترك أباه التافه والحقير ولا ينكره، وأتفهم ألم ابنة، لا نهاية له لكنه سامٍ، تقف إلى جانب أمها المجرمة وهي على المقصلة. ولذلك فإنني لا أعرف ما إذا كان بالإمكان إطلاق صفة أرستقراطي على كوني أشعر بسعادة مزدوجة لانتسابي إلى أبوين مستقيمين ومحترمين ولاحمرار وجنتيَّ من الفرح حين كان يتقدم مني، بعد أن كبرت ومارست حقوقي الوطنية لأول مرة في أزمنة حافلة بالأحداث وفي اجتماعات مختلفة، رجل متقدم في السن ويهز يدي ويقول إنه كان صديقاً لوالدي ومن دواعي سروره أن يراني في هذا المكان، ثم كان يأتي إلي بعد ذلك آخرون وكل واحد منهم يقول لي إنه كان يعرف "الرجل" وإنه يأمل أن أكون جديراً بخلافته. لا يسعني غالباً، على الرغم من إدراكي مدى ما ينطوي عليه ذلك من حماقة، إلا أن أبني قصوراً في الهواء وأورد في الحسبان ما كان حدث معي لو أن أبي بقي على قيد الحياة وغدا العالم بكل قواه سهل المنال عندي منذ نعومة أظفاري، لو تحقق ذلك لأخذ بيدي في كل يوم ذلك الرجل الرائع ولعاش فيّ صباه الثاني. وكما أن الحياة المشتركة بين الإخوة أمر غريب علي ويثير

حسدي، ويستعصي علي فهم كيف أن هؤلاء في معظم الحالات يفترق بعضهم عن بعض ويبحثون عن صداقات خارج نطاق حياتهم المشتركة، فإن العلاقة بين أب وابنه البالغ تبدو لي أيضاً – بصرف النظر عما أراه كل يوم- أكثر جدة واستعصاء على الفهم وغبطة مما أملك من الجهد اللازم لوصفها واستحضار ما لم يُعَش منها في يوم من الأيام.

ولكن لا بد لي، كلما قطعت مزيداً من الأشواط على طريق بلوغي مرحلة الرجولة وكلما تصديت لقدري، من أن أوجز وأفكر بهدوء في أعماق نفسي: ماذا قد يفعل الآن لو أنه في مكاني أو كيف سيحكم على فعلي لو أنه على قيد الحياة. لقد انسحب قبل بلوغه ذروة حياته إلى الكون الخفي وترك خيط الحياة الذهبي المتوارث، الذي لا يعرف أحد أي بداية له، في يديَّ الضعيفتين، ولم يبق لي سوى أن أربطه بشرف بالمستقبل الغامض أو ربما أن أقطعه إلى الأبد حين أموت أنا أيضاً. – بعد سنين طويلة حلمت أمي من جديد، بعد فترات كثيرة، أن الأب عاد فجأة من سفرة طويلة من أقاصي المعمورة حاملاً معه السعادة والسرور. وكانت تحكي عن هـذا الموضوع في كل مرة إبان الصباح ثم تغرق بعـد ذلك في تأملات وذكريات عميقة، بينما كنت أنا أحاول وقد سرت في أوصالي رعشـة مقدسة أن أتخيل بأي نظرات قد يقبل علي الرجل الغالي إثر رجوعه مباشرة إذا ما ظهر بيننا فعلاً على هذا النحو.

كلما كان تصوري عن مظهره الخارجي معتماً وغير واضح ارتسمت في مخيلتي صورة مضيئة وواضحة عن كنهه وماهيته وهذه الصورة النبيلة غدت عندي جزءاً من اللانهائية الكبيرة، التي ترجعني إليها آخر أفكاري وإخال أنني أسير تحت رعايتها.

* * *



الفصل الثالث

مرحلة الطفولة.

الدروس الأولى في اللاهوت.

المقعد الصغير في المدرسة

كانت الفترة الأولى بعد موت أبي فترة صعبة من الحزن والقلق لأرملته. فكل تركته كانت في وضع من التحول والانتقال وتطلبت مفاوضات مستفيضة لكي توضع الأمور في نصابها. العقود التي تم إبرامها من قبل توقف مفعولها عن السريان وعُرقلت في كل مكان مشاريع لدفع حسابات جارية كبيرة أو تحصيل حسابات كهذه، وبيعت مخزونات من مواد بناء بخسارة، وكان أمراً مشكوكاً فيه ما إذا بقي في ظل الأوضاع الراهنة آنذاك قرش واحد لمعيشة المرأة المكروبة. موظفو المحكمة كانوا يأتون لوضع الأختام وإزالتها من جديد، أصدقاء المرحوم وعدد من التجار ورجال الأعمال كانوا يترددون على بيته ذهاباً وإياباً، يساعدون ويرتبون، ودارت أنشطتهم في إطار التدقيق والحسابات والفرز وتقديم العروض. مشترون ورجال أعمال جدد أتوا وحاولوا تخفيض المبالغ أو بالأحرى الاستئثار بها أكثر مما كانوا يستحقون، كان ثمة لغط وتوتر بحيث لم تعد أمي، التي كانت باستمرار حاضرة ومتيقظة، تعرف في نهاية الأمر كيف تتغلب على الأوضاع القائمة. ولكن بالتدريج تبددت الفوضى وأنجزت الأشغال واحداً تلو الآخر ففكت الالتزامات وضمنت كل المطالب

وتبين أن البيت، الذي أقمنا فيه في النهاية، هو الملكية الوحيدة التي بقيت لنا. كان بناء قديماً وعالي السقوف ويحتوي على حجرات كثيرة وكان مسكوناً كله من الأسفل إلى الأعلى كخلية نحل، إذ سبق للأب أن اشتراه بنية أن يزيله ويبني بيتاً جديداً في مكانه نفسه، ولكن بما أنه كان من الطراز القديم وفي أبوابه ونوافذه بقايا قيمة من عمل فني رفيع فقد كان من الصعوبة بمكان عنده أن يتخذ قراراً بهدمه فأقام فيه في أثناء ذلك مع عدد من المستأجرين. صحيح أن ذلك البيت بقي مثقلاً ببعض الأموال المستدانة، إلا أن الرجل المتقد حركة وفعالية سرعان ما أثثه وأجَّره بحيث ضمن فائض سنوي من مبالغ الأجورات دخلاً متواضعاً لمصلحة الوارثين.

بدأت أمي أولاً بأول بتقليص تام لكل ما لا لزوم له وعملت بالتالي على إزالته من الوجود، الأمر الذي احتاج مسبقاً إلى كل أنواع الأيدي المجدية. وفي رحاب هذا الترنم الهادئ وجدت بوضوح وعيي الأول، الذي طاف بصاحبه بقصد التمرين في أرجاء البيت الداخلية كلها صاعداً السلالم هابطاً السلالم. الطوابق السفلى كانت مظلمة سواء في الحجرات بسبب ضيق الأزقة وفي المناطق المحيطة بالسلالم وفي الممرات لأن النوافذ كانت كلها مستخدمة لخدمة الحجرات فحسب. بعض التجاويف والممرات أعطت المكان منظراً قاتماً ومبهماً وظلت عندي أسراراً لا بد من اكتشافها بعد، ولكن كلما صعد المرء إلى الأعلى، أصبح المكان أكثر انشراحاً وإضاءة. فيما يعلو آخرُ الطوابق، حيث نسكن نحن، على بيوت الجيران كلها. وثمة نافذة عالية تلقي ضوءاً كثيفاً على السلالم المتكسرة بأشكال شتى والأروقة الخشبية العجيبة على امتداد الأرضية المهواة التي تشكل نقيضاً أكثر إضاءة مقارنة بعتمة الأعماق الباردة. كانت نوافذ غرفتنا تطل على عدد كبير من الأفنية الصغيرة، وهي محاطة غالباً بحي من البيوت وتصدر عنها أصوات أزيز مريح وخفي ولا يحس به الناس الذين يسيرون في الشارع. طول النهار كنت أراقب على مدى ساعات طويلة الحياة البيتية الداخلية في هذه الأفنية، حدائقها الصغيرة

الخضراء بدت لي كجنات خلد صغيرة حين كانت تضيئها شمس الأصيل وترفرف في ربوعها بهدوء ثياب الغسيل المنشورة فيها. وكان الناس، الذين سبق أن رأيتهم في هذه الأفنية من بعيد، يبدون لي، حين يظهرون ذات مرة فجأة في غرفتنا ويدردشون مع أمي، غرباء جداً لكن في الوقت ذاته معروفين من قبلي. كان فناؤنا الصغير يحتوي بين جدرانه العالية على بقعة صغيرة مغطاة بالعشب وفيها شجيرتان من نوع الغبيراء، ونافورة ماء لا تعرف الكلل كانت تتدفق في حوض من الحجر الرملي، الذي اخضر لونه مع مرور الأيام، والركن الضيق بارد ومرعش إلا في فصل الصيف إذ تسطع عليه الشمس يومياً طيلة بضع ساعات. ثم يتلألأ الاخضرار المخفي عبر ممر البيت المعتم بحركة لعوبة باتجاه الزقاق إذا ما فتح باب البيت بحيث يدب باستمرار في أوصال المارين نوع من الحنين إلى الحدائق. في فصل الخريف تصبح نظرات الشمس هذه أقصر وأكثر اعتدالاً، وإذا ما غدت الأوراق التي تكسو شجيرتي الغبيراء صفراء اللون واحمرت ثمارها احمراراً فاقعاً، وإذا ما تحلت الجدران القديمة بلون ذهبي حزين وأضفت المياه على ذلك بعضاً من البريق الفضي، فإن لهذا المكان الصغير المنعزل جاذبية كئيبة رائعة إلى حد يرضي النفس ويريحها بمثل أبعد الربوع الطبيعية الجميلة. ولكن لدى غياب الشمس ارتفع انتباهي إلى البيوت العالية وارتفع أكثر فأكثر كلما ازداد عالم الأسطحة، الذي كنت أراه عبر نافذتنا، حمرة واكتسب حيوية بفعل لمعان الألوان الأكثر جمالاً من كل شيء آخر. خلف هذه الأسطحة انتهى عالمي لأول وهلة. ذلك لأنني عددت الإكليل العطر من الجبال المغطاة بالثلوج، الذي يظهر نصفه خلف قمم الأسطحة الأخيرة، ولفترة طويلة من الزمن جزءاً من الغيوم ما دمت لم أره متصلاً بالأرض الثابتة. فيما بعد حين امتطيت لأول مرة أعلى حافة في سطحنا العالي الضخم ورأيت روعة البحيرة بكل اتساعها، التي صعدت منها الجبال بأشكالها الثابتة وسفوحها الخضراء، عند ذلك عرفت بالطبع طبيعتها من التجوالات الواسعة في العراء، أما الآن فقد كانت أمي

تقول لي مطولاً إنها جبال كبيرة وشواهد عظيمة على قدرة الله، ولكنني لم أميز لهذا السبب بينها وبين السحب التي كان سيرها وتبدلها شغلي الشاغل في مساء كل يوم في حين كان اسمها صدى خاوياً تماماً كاسم الجبل عندي. وبما أن قمم الثلوج البعيدة تظهر تارة مغطاة وتارة أخرى أكثر إضاءة أو أكثر عتمة، بيضاء أو حمراء، فقد رأيتها شيئاً يعج بالحياة والحيوية والروعة والقوة كالغيوم تماماً واعتدت أن أسمي أيضاً أشياء أخرى غيوماً إذا ما أوحت إلي بالاحترام والفضول. وهكذا أسميت، ولا أزال أسمع رنين تلك الكلمة ضعيفاً في أذني وغالباً ما قيلت لي فيما بعد، أول فتاة أعجبتني وكانت من بنات جيراننا "الغيمة البيضاء" من أول انطباع كانت كونته عندي وهي ترتدي ثوباً أبيض. وأسميت بطريقة أصح بصفة خاصة سطح كنيسة طويلاً وعالياً كان يرتفع فوق كل الجمالونات، الجبل. كانت رقعته الكبيرة الراجعة باتجاه الغرب لعينيَّ حقلاً واسعاً طالما استمتعت برؤيته برغبة متزايدة حين كانت تضيئه الأشعة الأخيرة من الشمس. وهذا المستوى المائل، المتوهج احمراراً، فوق المدينة المعتمة كان عندي تماماً ما يفهمه الخيال فيما عدا ذلك من مروج أو حقول مباركة وبهيجة. فوق هذا السطح انتصب برج صغير رفيع ومدبب كالإبرة وعلق به جرس صغير يدور في رأسه ديك ذهبي لماع. وحين كان هذا الجرس يدق في وقت الأصيل، كانت أمي تتحدث عن الله وتعلمني الصلاة، سألتها ذات مرة: "ما الله؟ هل هو رجل؟ " فأجابت: " كلا، الله روح!". سطح الكنيسة كان يغرق بالتدريج في ظلال رمادية اللون والضوء يصعد إلى الأعلى ملتصقاً بالبرج الصغير إلى أن يصل في نهاية المطاف إلى ديك الطقس ذهبي اللون في أعلى البرج، وفي إحدى الأمسيات وجدتني فجأة مؤمناً إيماناً أكيداً بأن هذا الديك هو الله. وقام هذا أيضاً بدور حضور غير محدد في صلوات الأطفال الصغيرة التي أتقنتُ ترديدها بسرور كبير. ولكن حين حصلتُ ذات مرة على كتاب مزدان بالصور لفتت انتباهي صورة نمر ملون بألوان زاهية وجالس بكل وقار وهيبة، انتقل تصوري عن الله شيئاً فشيئاً إلى

هذا النمر ولكن دون أن أُبدي مرة أي رأي بهذا الشأن، كما في شأن الديك أيضاً. كانت تلك آراء باطنية تماماً، وفقط كلما ذكر اسم الله كان يحوم في ذهني تصور ذلك الطير اللامع وبعده النمر الجميل. صحيح أنه لم تمتزج بأفكاري بالتدريج صورة أوضح عن الله، بل امتزج عوضاً عن ذلك مفهوم أكثر رقياً ونبلاً. كنت أردد صلاة "أبانا الذي في السماء...."، التي كان تقسيمها وتدويرها قد أسهم في تسهيل حفظها علي وكان تكرارها قد تحول إلى تمرين مريح، وذلك بمهارة فائقة وتنوعات متعددة إذ كنت أتلو هذا القسم أو ذاك مرتين أو ثلاث مرات أو كنت، بعد تلاوة جملة بصورة سريعة وصوت منخفض، أركز ببطء وبصوت عال على الجملة التالية وأصليها من النهاية إلى البداية فأنتهي عند ذلك بكلمة "أبانا". من هذه الصلاة كان استقر في ذاتي تصور أن الله لا بد أن يكون كائناً يمكن في كل الأحوال مخاطبته بالعقل أكثر مما يتأتى ذلك مع تلك التجسيدات الحيوانية.

وهكذا عشت في علاقة ممتعة بريئة مع الكائن الأعلى، لم أعرف أي احتياجات ولا أي عرفان بالجميل، لا حقّاً ولا باطلاً، وجعلت من الله بكل رحابة صدر رجلاً طيباً حين كان اكتراثي يُصرف عنه.

ولكن سرعان ما توفر من الدواعي ما جعلني أقيم مع الله علاقة أكثر وعياً وأرفعُ إليه لأول مرة مطالبي الإنسانية، حين رأيت نفسي – وكان عمري ست سنوات - في صبيحة أحد الأيام الجميلة في حال كئيبة أتلقى دروساً مع خمسين إلى ستين صبياً وفتاة. كنت وقتها واقفاً في نصف دائرة مع سبعة أطفال آخرين حول لوح كتبت عليه حروف كبيرة وكنت أسترق السمع بكل هدوء وتوتر لما سيحدث من أمور. وبما أننا كنا جميعاً تلاميَذ مبتدئين، فقد أراد كبير المعلمين – وهو رجل متقدم في السن وذو رأس كبير وخشن- الإشراف علينا بنفسه لساعة من الزمن وطلب منا بالتناوب شرح هذه الرموز العجيبة. كان سبق لي منذ وقت طويل أن سمعت ذات مرة كلمة

Pumpernickel(*)، وأعجبتني أيما إعجاب، ولكنني لم أستطع أن أجسدها في شكل مادي ملموس ولم يعطني أحد أي معلومات عنها لأن الشيء الذي يحمل هذا الاسم يستوطن على بعد مئات الساعات. والآن كان ينبغي عليّ أن أجد اسماً للحرف الكبير P، الذي بدا لي في مجمل كينونته عجيباً ومضحكاً إلى أقصى درجة وأصبح واضحاً في ذهني وقلت بحزم وبصورة قاطعة: "هذا الحرف يعني الخبز الأسود". لم يساورني أي شك لا في العالم ولا في نفسي ولا في الخبز الأسود وكنت مسروراً في أعماقي، لكن بقدر ما ظهر على وجهي في تلك اللحظة الجد والرضا عن النفس عدّني كبير المعلمين صبياً خبيثاً ووقحاً ومحتالاً ولا بد من وضع حد لخبثي فانهال علي يشد شعري بطريقة وحشية لدقيقة من الزمن إلى حدّ أنني فقدت السمع والبصر. هذا الاعتداء بدا لي، نظراً إلى غرابته وجدته، كحلم مرعب، غير أنني لم أفعل شيئاً رداً على ما حدث سوى أنني نظرت إلى الرجل بصمت وأنا أحبس الدمع في عينيَّ، لكن منقبض الصدر في الأعماق. كان الأطفال مصدر إزعاج لي باستمرار وإذا ما غابوا أو تعرضوا لمشكلة أطلقوا لدى أقل تماس معها أو حتى لدى الاقتراب منها صراخاً مدوياً يمزق الآذان، وإذا ما تلقى أطفال كهؤلاء في غالب الأحيان بسبب هذا الصراخ تحديداً صفعات مضاعفة، كنت أعاني أنا النقيض المقابل وأفسد نزاعاتي باستمرار بعجزي عن ذرف ولو دمعة واحدة أمام قُضاتي. لذلك حينما رأى كبير المعلمين أنني اكتفيت والدهشة تغمرني بمد يدي إلى رأسي دون أن أبكي، انهال علي مرة أخرى لكي يجتث جذور عنادي الموهوم ومكابرتي الجموح. كنت في تلك اللحظات أعاني بالفعل أشد المعاناة، ولكن بدلاً من أنفجر بالصراخ والعويل، صليت

(*) خبز الزوان الأسود وما يرمز إليه من الرائحة الكريهة والنتن نظراً إلى ما يتشكل عنه في الأمعاء من غازات، المترجم.

بأعلى صوتي متوسلاً وأنا في غمرة خوفي: "بل خلصنا من الشر!". وتخيلت في أثناء ذلك أن الله ماثل أمام عينيَّ، الله الذي قيل لي عنه في أغلب الأحيان إنه أب معين لكل مأزوم. وكان وقع ذلك على المعلم أكبر من كل تصور وسرعان ما تطور الوضع إلى حدث فوق العادة ولذلك تركني وشأني وقد اعترته حالة من الغم الصادق فأخذ ينعم التفكير في معالجة الأمر بأنسب الطرائق. صُرفنا من المدرسة لفترة ما قبل الظهر، وأوصلني الرجل إلى بيتي. هناك فقط انفجرت سراً بالبكاء حين أدرت ظهري للموجودين في المكان ووقفت بمحاذاة النافذة ماسحاً جبيني الذي تناثر فيه الشعر المقتلَع من رأسي، وكنت أسمع في أثناء ذلك كيف تجاذب ذلك الرجل، الذي بدا لي في قدسية غرفتنا غريباً ومعادياً إلى حد مضاعف، أطراف الحديث مع أمي وكيف أراد أن يؤكد لها أن عنصراً شريراً قد أفسدني. لم تكن دهشتها أقل منا نحن الاثنين الآخرين، ذلك لأنني وعلى حد قولها – طفل هادئ بالمطلق ولم أغب حتى الآن عن عينيها ومراقبتها ولم أقترف شيئاً مشيناً. ثم استطردت أمي قائلة إن أفكاراً غريبة تخطر لي من حين لآخر لكنها لا تبدو آتية من نفس خبيثة ويبقى عليّ أن أعوِّد نفسي قليلاً على المدرسة وأهميتها. تظاهر المعلم بالارتياح لكن بهزات رأس، وكان مقتنعاً ضمناً بأنني أظهر نوازع خطيرة. وقال أيضاً بحذر شديد عند الوداع إن المياه الهادئة هي في العادة مياه عميقة. ومنذ ذلك الحين كان عليّ أن أسمع هذه الكلمة في أغلب الأحيان في حياتي وقد أزعجتني دائماً لأنه ليس ثمة محدّث أكثر مني إذا ما أنست لمن أحدِّثه ووثقت به. لكنني لاحظت أن أناساً كثيرين ممن يقولون دائماً الكلمة الكبيرة لا يصبح منهم أذكياء أولئك هم الذين لا يتاح لهم البتة أي مجال للكلام بسبب المتكلمين، إنهم يتلمسون بعد ذلك تحيزاً غير ملائم حالما ينتهون من الثرثرة ويعم الهدوء. ولكن إذا ما تحدث أولئك ذات مرة بصورة غير متوقعة، فإن الأمر يبدو لهم أكثر إثارة للشبهة. أما في مجال التعاطي مع أطفال هادئين

فقد يتطور الأمر إلى حادثة مؤلمة إذا عجز المثرثرون الكبار عن إيجاد حل للأزمة الناشبة غير العبارة المبتذلة: المياه الهادئة هي مياه عميقة.

في فترة بعد الظهر أَرسلتُ مرة أخرى إلى المدرسة ودخلت مغموراً بسوء الظن وعدم الثقة إلى تلك القاعات الخطرة، التي بدت لي وكأنها تحقيق لأحلام غريبة ومخيفة. لكنني لم أر المعلم الشرير آنذاك، إذ كان يجلس في حجرة خشبية هي نوع من غرفة سرية كان يستخدمها لتناول وجبات خفيفة من الطعام. على باب تلك الغرفة الخشبية كانت توجد نافذة دائرية الشكل وعبرها اعتاد الطاغية في أغلب الأحيان أن يدخل رأسه وينظر إلى خارج الغرفة إذا ما سمع أي ضوضاء أو ضجة. لوح هذه النافذة الزجاجي فُقد منذ زمن بعيد بحيث كان بمقدوره مد رأسه من غطاء النافذة الفارغ إلى مسافة بعيدة في قاعة الدرس بغية إنجاز مراقبة كافية. في ذلك اليوم المشؤوم كان بواب المدرسة قد عمل في أثناء فترة الظهيرة تحديداً على تركيب لوح زجاجي جديد للنافذة بدلاً من اللوح المفقود، وبينما كنت أنظر بطرف عيني خائفاً وجلاً إلى ذلك اللوح، انكسر زجاجه مصدراً صوت ارتطام قوياً، إذ كانت رأس مناوئي الكبيرة قد اخترقته فكسرته. كانت أول حركة في داخلي هي تهليل ابتهاجي صادر عن أكبر فرحة قلبية غامرة، ولكن حين رأيت أنه تشوه وأخذ الدم يسيل منه ذهلت أيما ذهول وصفَتْ روحي لثالث مرة ففهمت القول الوارد في الصلاة: واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين بحقنا!

وهكذا تعلمت الكثير في هذا اليوم الأول، صحيح أنني لن أتعلم ما معنى Pumpernickel بل تعلمت أنه لا بد في لحظة الشدة من التوجه إلى الله ومناداته، وتعلمت أيضاً أن الله عادل وأنه يعلمنا ألا نحمل في أنفسنا ضغينة ولا انتقاماً. من الوصية القائلة بوجوب مسامحة الذين يهينوننا تتولد تلقائياً، إذا ما اتُّبعت هذه الوصية، القوة اللازمة لكي نحب أعداءنا، ذلك لأننا نطلب أجراً للجهد الذي نبذله في سبيل ذلك التغلب على الذات، وهذا الأجر يكمن بادئ ذي بدء وبصفة أكثر طبيعية من أي شيء آخر في الحظوة التي نهديها لعدونا

لأنه لا يمكن أن يبقى عندنا موضوعاً لا يجدر الاكتراث له. إن من شأن الحظوة والمحبة أن تهذبا وتنبِّلا حاملهما وقد تفعلان ذلك بأقصى حدود البهاء والرونق إذا ما سرى مفعولهما على من نسميه عدواً أو خصماً. هذه التعاليم الأساسية المميزة للمسيحية لقيت تربة خصبة لتلقفٍ وتلقٍّ واسعين لأنني، وأنا مجروح ومغتاظ قليلاً، كنت دائماً على استعداد وبنفس السرعة لأن أنسى وأصفح، فيما بعد، حين بدأت أعرض عن تعاليم الوحي، انشغلت بإلحاح بالكشف عن مدى كون ذلك القانون تعبيراً فحسب عن حاجة فطرية موجودة في البشرية ومدرَكة، لأنني رأيت أنها لم تُتَّبع بتجرد وإيثار إلا من قبل جزء معين من الناس، يعني من قبل أولئك الذين قادهم إلى ذلك ما جُبلوا عليه من فطرة وطبيعة. أما الآخرون، الذين تغلبوا على شعورهم الأصلي بالانتقام وتخلوا بكل عناء عن حقهم في الأخذ بالثأر، فقد بدا لي في الغالب أنهم حصلوا بذلك على مزايا ضد عدوهم تفوق ما يحتمله مفهوم التخلي البحث عن الذات؛ لأن الخصم، طبقاً للعقل الباطن والذكاء الكامن في الوقت ذاته في المسامحة، هو الوحيد الذي ينهك نفسه ويدمرها في حمأة غضبه العقيم. هذه المسامحة هي أيضاً التي تغني في الحروب الكبيرة والتاريخية تفوق المنتصر بعد أن حسم بكل رجولة نزاعاً لمصلحته، وهي أيضاً التي توثق أن هذا التفوق ذاته أصبح من الناحية المعنوية ناضجاً. وعلى هذا النحو يكون الحفاظ على الخصم المهزوم وإعادة اعتباره أمراً ذا علاقة بحكمة العالم العامة، ولكن حب العدو حباً فعلياً في أوج ازدهاره وطول إلحاقه الضرر بنا، هذا النوع من الحب لم أره في أي مكان من هذه الدنيا.

* * *



الفصل الرابع

مديح اللّٰه والأم. ما يتعلق بالصلاة

على مدى السنين الأولى في المدرسة كثيراً ما تأتت لي الفرص لكي أوسع علاقتي بالله، وذلك لأن المعايشات والأحداث الصغيرة كانت في ازدياد. وسرعان ما استسلمت لحال الدنيا وصرت أفعل، شأني شأن الأطفال الآخرين، ما لا أستطيع أن أدعه. ومن خلال ذلك كنت بالتناوب راضياً مقتنعاً وأقع في ضيق يسببه لي حسن السلوك أو إهمال واجباتي إضافة إلى تصرفات صبيانية كثيرة. ولكنني كنت أنادي الله في كل وضع حرج وأصلي في أعماقي بكلمات منتقاة وموضوعة في مكانها الصحيح إذا ما بدأت الأزمة بالاستفحال وذلك من أجل حسم ملائم والإنقاذ من الخطر، ولا بد لي من الاعتراف وأنا أشعر بالخزي بأنني كنت أطلب دائماً إما المستحيل أو الباطل. وغالباً ما تجاهلت ذنوبي؛ إثر ذلك كنت أرتجل كثيراً من صلوات الشكر النابعة من القلب فكانت تسرني أيما سرور، خصوصاً أن إحساسي باستحقاق العقوبة ظل معطلاً إلى ان اقترفتُ أخطاء متعمدة. وهكذا تكونت مادة نداءاتي الموجهة إلى الله من أغرب مزيج، فمرة رجوته أن يوفقني في حل مسألة حساب صعبة أو أن يصيب موجه صفي بالعمى بسبب بقعة من الحبر في دفتري؛ ومرة أخرى، يوشع ثانٍ، رجوته أن يوقف سير الشمس إذا ما داهمني خطر التأخير عن المدرسة أو رجوته من أجل الحصول على قطعة من المعجنات الغريبة واللذيذة. وحين ارتحلت العذراء – التي كنت أسميها الغيمة

البيضاء – لفترة طويلة من الزمن وودعتنا ذات مساء بينما كنت مستلقياً في سريري الصغير وأسمع كل شيء، رجوت أبي الذي في السماء بتعابير مشبعة باللهفة عله يحثها على أن تتذكرني وأنا وراء ستائري وأن تقبلني مرة أخرى بكل حرارة، وأخيراً غفوت وأنا أردد باستمرار الجملة القصيرة ذاتها ولا أعرف الآن بعد إن كان رجائي قد تحقق.

في أحد الأيام عوقبت بالبقاء في المدرسة طول فترة الظهيرة وأودعت الحبس بحيث لم يتسنَّ لي تناول الطعام إلا في المساء. وكانت تلك المرة الأولى، التي ذقت فيها طعم الجوع وتعلمت في الوقت ذاته أن أصغي إلى تحذيرات أمي التي كانت تمجد لي الله تمجيداً رائعاً بوصفه مُبقي كل مخلوق ومطعمه وخالق خبز بيتنا لذيذ الطعم، طبقاً لما ورد في الصلاة: أعطنا اليوم خبزنا! استرعت اهتمامي عموماً هذه الأشياء المتعلقة بالغذاء وأدركت إلى حد ما طبيعتها بفضل اطلاعي حصراً على تداول النساء موضوعاً رئيسياً هو كسب الرزق ومناقشة أمور المواد الغذائية. وفي تجوالي عبر منازل مبنانا تغلغلت بالتدريج بصورة أعمق إلى عالم التدبير المنزلي لدى جيراننا، وغالباً ما كنت أشاركهم في طعامهم فأجده، معترفاً بالجحود وقلة الوفاء، ألذ وأشهى من طعام أمي. كل ربة منزل، ولو أن وصفات الطعام هي ذاتها باستمرار، من شأنها أن تضفي على الأطعمة التي تعدها نكهة خاصة تتطابق مع ذوقها ومواصفاتها، فمن خلال تفضيل بعض التوابل أو النباتات، من خلال زيادة الدسم أو الجفاف، الطراوة أو القسوة تكتسب كل أطعمتهن طابعاً خاصاً يفصح عن شخصية الطباخة إن كانت محبة للقضم أو تبقى على الريق، طرية أو متقصفة، محمومة أو باردة، مبذرة أو بخيلة، ويستطيع المرء أن يعرف بصورة مؤكدة ربة المنزل وسجاياها من الأطعمة الرئيسية القليلة، التي تُتناوَل في أوساط الطبقة الوسطى. أنا من جهتي، لأني ألم بمعرفة الأطعمة في وقت مبكر، عرفت من مرق لحم فحسب الغريزة اللازمة لكيفية تعاطيَّ مع طابخته. بالمقابل كانت أطعمة أمي تفتقر على نحو ما إلى كل الصفات المميزة وإلى أي

صفة مميزة. فالحساء الذي كانت تعده لم يكن دسماً ولم يكن خالياً من الدسم، وقهوتها لم تكن ثقيلة ولم تكن خفيفة، ولم تستخدم يوماً في طعام ذرة ملح أكثر من اللازم ولم تنقص ذرة عن اللازم، كان طبخها رديئاً ومناسباً، دون أي تكلف، على حد قول فناني الطبخ، في أكثر الظروف صفواً؛ كان بالإمكان التمتع بتناول قسم كبير من أطعمتها دون أن تتأذى المعدة من جراء ذلك. وبدا أنها، بفضل يدها الرزينة والحكيمة وهي واقفة بمحاذاة فرن المطبخ، تجسد في كل يوم المثل القائل: الإنسان يأكل ليعيش، لا يعيش ليأكل. ولم يلحظ في بيتنا بأي صورة قط وجود فائض من الطعام أو قلة منه. هذا المدى المتوسط المفعم بالرزانة والدقة سبب لي الملل، خصوصاً أنني كنت من حين لآخر أثير تذوقي للطعام إلى حد كبير في أمكنة أخرى وبدأت أمارس انتقاداً لاذعاً ضد وجبات أمي حالما أصل إلى درجة الشبع وألتهم آخر شوكة مليئة بالطعام. وبما أنني كنت أجلس باستمرار إلى مائدة الطعام مع أمي فقط وكانت هي تفضل في أثناء ذلك أن تتجاذب معي أطراف الحديث حول مواضيع مسلية على أن يطرح للحوار نظام تربية بحد ذاته، فلم تأمرني إذّاك باقتضاب وعلى سبيل المعاقبة بأن التزم الصمت والهدوء بل كانت تفند آرائي بقدرتها الفائقة إلى التحدث والإقناع وتلفت انتباهي بشكل خاص، مذكرة بمصاير الناس ومجريات الحياة، إلى أنني ربما أكون في يوم من الأيام مغموراً بالفرح لجلوسي على مائدتها وتناولي طعامها، إذ لن تكون آنذاك باقية بعد على قيد الحياة. ولكن على الرغم من أنني لم أدرك تماماً كيف سيحدث ذلك إلا أنني كنت أتأثر في كل مرة بالغ التأثر وينتابني خوف خفي وأشعر عندئذ بالإحباط. وإذا ما لفتت انتباهي بعد ذلك أيضاً إلى نكراني الجميل إزاء الله بتعييبي عطاياه الكريمة، رأيتني أتفادى التهمة باستحياء طاهر من المضي في تعييب المعطي القادر على كل شيء وأغرق في تأمل عميق وفي إمعان التفكير في مواصفاته الفاضلة والرائعة.

ولكن حدث فيما بعد أنه بقدر ما أدركت الله بصورة أكثر وضوحاً وبقدر ما غدا عندي أكثر لزوماً وأكثر جدوى، بدأت معايشتي معه تكتسي

بالاستحياء والتحجب، وحين اكتسبت صلواتي مغزى محدداً اعترتني رهبة متنامية لئلا أتلوها بصوت عال. كانت أمي ذات نفسية بسيطة ورزينة ولم تكن في نظر الناس أقل من امرأة ورعة بل كانت تخشى الله خشية مطلقة. لم يكن ربها هو الذي يرضي ويلبي الكثير من احتياجات القلب الغامضة والملحة، بل بوضوح الأب الواقي والمبقي وبساطته، أي العناية الإلهية. وكلمتها المعتادة كانت: من ينس الله ينسه الله أيضاً؛ بالمقابل لم أسمع أنها ذكرت ذات مرة حب الله الجارف، ولكنها مع ذلك تمسكت به ومارسته، وأصبح أمراً مهماً عندها، ولا سيما ونحن في وضع محبط من اليتم والعزلة على مدى المستقبل الطويل والمبهم، أن أرى الله باستمرار ماثلاً أمام عينيّ بوصفه المُطعِم وحامي الحمى، وأرست في أعماق نفسي أساساً حياً للثقة بالله.

نتيجة لهذه المساعي المؤثرة ولنصح امرأة منافقة لا فائدة منها أرادت أمي في أحد أيام الأحد، حين كنا جلسنا تواً إلى المائدة، أن تصبح صلاة المائدة عادة متبعة في حياتنا اليومية خلافاً لما كان عليه الحال من قبل، ورددت على مسمعي لهذه الغاية صلاة شعبية قديمة وقصيرة ثم طلبت مني أن أقيم تلك الصلاة الآن وفي المستقبل أيضاً، لكنها دهشت أيما اندهاش حين لفظتُ الكلمات الأولى بجفاف ثم صمتُّ فجأة ولم أستطع الاستمرار.

تصاعد البخار من الطعام المنتشر على الطاولة، وعم هدوء مطبق في الحجرة، الأم انتظرت لكنني لم أنبس ببنت شفة. كررتْ طلبها، لكن دون جدوى، بقيتُ صامتاً ومكسور الخاطر، لكن أمي أنهت الأمر عند هذا الحد في هذه المرة لأنها عدّت تصرفي ناجماً عن مزاج صبياني عادي. في اليوم التالي تكرر المشهد، فغدت أمي الآن ملهوفة بجد ثم قالت: "لماذا لا تريد أن تصلي؟ هل تخجل من ذلك؟ " صحيح أن الخجل اعتراني فعلاً، إلا أنني لم أقوَ على الاعتراف بذلك، لأنني لو اعترفت لما كان اعترافي حقيقياً بالمعنى الذي فهمته أمي. المائدة المعدة تراءت لي مأدبة قرابين، وشبك الراحتين إلى جانب إقامة الصلاة بصورة مهيبة أمام صحاف الطعام تحول إلى طقوس ما

لبثت أن قاومتني بشدة بالغة. لم يتعلق الأمر بخجل من العالم، كما اعتاد القساوسة أن يسموه، كيف أخجل من أمي الوحيدة لي في هذا العالم التي لم أتعود نظراً إلى معاملتها الرقيقة أن أخفي عنها شيئاً؟ كان خجلاً مني أنا، لم أستطع أن أسمع ذاتي وأنا أتحدث ولم أستطع بعد ذلك أبداً أن أصلي بصوت عالٍ في العزلة الأعمق والارتياح الأعمق.

قالت الأم: "لا تأكل قبل أن تصلي! "، فنهضت واقفاً وابتعدت عن المائدة إلى زاوية حيث اعتراني حزن شديد ممزوج ببعض العناد والمكابرة، ولكن أمي بقيت جالسة وتظاهرت بأنها ستتناول طعامها على الرغم من أنها لم تستطع ذلك، فحدث بيننا توتر مقبض لم يسبق لي أبداً أن شعرت بمثله وكان من أمره أن سبب لي ضيق الصدر وانقباض القلب. أخذت أمي وهي غارقة في صمت رهيب تزرع الحجرة ذهاباً وإياباً ثم توقفت عن ذلك وأخلت الطاولة من الطعام؛ لكن حين اقترب موعد ذهابي مرة أخرى إلى المدرسة، أحضرت لي طعامي، وهي تمسح عينيها كما لو أن فيهما ذرة من غبار، إلى داخل الغرفة وقالت: " يمكنك أن تتناول طعامك، أيها الطفل العنيد!" إثر ذلك انفجرت أنا من جهتي بالبكاء والنحيب وجلست ألتهم الطعام بجرأة نادرة حالما خف الانفعال الشديد وبدأ بالتلاشي. وفي طريقي إلى المدرسة لم تغب عني زفرات الشكر الجذلى من أجل التحرر السعيد والمصالحة.

بعد سنين كثيرة حين كنت أزور بعض الناس في قريتي، تذكرت هذه الحادثة بكل حيوية عن طريق قصة كانت حدثت هناك لطفلة قبل ما يربو على مئة عام وتركت في نفسي انطباعاً عميقاً. ففي إحدى زوايا جدار فناء الكنيسة كان نحت لوح حجري صغير وهو ليس إلا شعاراً متآكلاً بعوامل التعرية ويحمل تاريخ العام ١٧١٣. أطلق الناس على هذا المكان اسم قبر الطفلة الساحرة وتداولوا حكايات كثيرة تنطوي على المغامرات والخرافات حول هذا القبر، كيف أن طفلة من أسرة نبيلة من المدينة أُحرقت في بيت القس الذي كان يعيش فيه آنذاك رجل متشدد يخشى الله، أُحرقت لكي تُحرر

من إلحادها وسحرها المبكر. لكن دون جدوى، وعلى أفضل وجه لم يكن ممكناً على حد قول الحكايات حملُها على لفظ الأسماء الثلاثة للثالوث المقدس، بل ظلت متشبثة بعنادها الإلحادي وماتت أشنع ميتة. كانت فتاة رقيقة وذكية إلى أبعد الحدود بعمر غض لم يزد عن سبع سنوات، ومع ذلك فقد كانت أكثر الساحرات شراً. وكانت تغوي على وجه الخصوص رجالاً بالغين فتوقعهم، بمجرد أن ترمقهم بنظرة، في حبها إلى حد يفوق كل تصور ويبدؤون بالعراك من أجلها. ثم انتقلت إلى ممارسة فعلاتها الشنيعة على الطيور فجذبت كل حمام القرية إلى بيت القس وسحرت الرجل الورع ذاته بحيث أبقى على الحمام في أغلب الأحيان في بيته وشواه وأكله كله، وهو ما سبب له أضراراً بالغة. وحتى الأسماك التي في الماء لم تنجُ من سحرها، فقد كانت تجلس على الضفة وترقص لها رقصات تنم عن الغرور والاختيال وتتقلب في الشمس ذات اليمين وذات الشمال. النساء المسنات اعتدن استخدام هذه الأسطورة لتفزيع الأطفال حين لا يُظهرون تقى وورعاً كما اعتدن إضافة عناصر غريبة وخيالية إلى الحكايات المحيطة بالطفلة الساحرة. بالمقابل عُلقت بالفعل في بيت القس لوحة زيتية قديمة وقاتمة وتحتوي على صورة هذه الفتاة العجيبة. كانت طبقاً للصورة فتاة رقيقة إلى أبعد الحدود وتلبس ثوباً أخضر اللون غامقه ومن قماش الدامسق الفاخر وشكلت حواشيه دائرة واسعة فغطت بذلك القدمين الصغيرتين. وحول الجسد الرقيق النحيل لُفت قلادة ذهبية وتدلت من الجهة الأمامية إلى أن وصلت إلى الأرض. وحملت على رأسها زينة شبيهة بالتاج ومكونة من زخارف متلألئة من الذهب والفضة ومجدولة بخيوط حريرية ولآلئ. وفي يديها أمسكت تلك الطفلة بجمجمة طفل آخر ووردة بيضاء. لكنني لم أر في حياتي قط وجه طفل جميلاً ومحبباً ولطيفاً كوجه هذه الطفلة شاحب اللون، كان وجهها متطاولاً أكثر منه مستديراً وكمن فيه حزن عميق، والعينان السوداوان اللامعتان كانتا تنظران إلى المتأمل فيهما باكتئاب لكأنما تستجديان عوناً، في حين تحوم حول الفم المغلق مسحة من الخبث أو المرارة المبتسمة.

ويبدو أن مرضاً خطيراً أضفى على كل الوجه نضجاً مبكراً ومعالم نسائية، وأثار لدى الناظر إليه اشتياقاً عفوياً لرؤية الطفلة التي تعج حيوية ونشاطاً والتقرب إليها ومداعبتها. وفي مخيلة القرية القديمة أيضاً كانت صورة الفتاة محببة وقيمة، وفي الأقوال والحكايات، التي انتشرت حولها، لوحظ تعاطف كبير معها بدلاً من الاشمئزاز منها.

القصة الفعلية هي أن تلك الفتاة الصغيرة، التي كانت تنتمي إلى أسرة نبيلة وأبية ومتشددة في تدينها، كانت تظهر نفوراً عنيداً من الصلاة والعبادة بكل أنواعها وتمزق كتب الصلاة التي تعطى لها، وكانت وهي في السرير تدس رأسها في اللحاف إذا ما تليت الصلاة أمامها وكانت تبدأ بالصراخ بطريقة يُرثى لها إذا ما اقتيدت إلى الكنيسة المعتمة الباردة حيث كانت تتظاهر بالخوف من الرجل الأسود الواقف على المنبر. كانت الفتاة وليدة زواج أول لم يكتب له النجاح مع كونها فيما عدا ذلك حجر عثرة. لذلك تقرر، حين تعذر ثنيها على الرغم من اتباع كل الوسائل الممكنة عن شقاوتها التي لا مسوّغ لها، أن توضع على سبيل التجربة تحت رعاية ذلك القس المشهور بتدينه المتشدد. وفي حين عدّت عائلة الطفلة المسألة فاجعة منكرة وتسيء إلى سمعتها أيما إساءة، رأى فيها ذلك الرجل الجدي والقاسي ظاهرة شيطانية مشؤومة ويجب مواجهتها بكل ما أوتي من قوة. وتبعاً لذلك فقد اتخذ التدابير اللازمة اعتماداً على كتاب قديم "diarium" مصفر اللون، في حيازته ومودع في بيت القس ويحتوي على بعض الملاحظات التي تدله على طريقة معالجته الموضوع وتزوده أيضاً بمعلومات كافية عن مصير تلك المخلوقة التعيسة. نقلتُ المقاطع التالية نظراً إلى غرابة مضمونها وأريد أن أضمها إلى هذا الكتاب لكي أُبقي بهذه على ذكرى تلك الطفلة ضمن مذكراتي، وإلا فقد تذهب أدراج الرياح.



الفصل الخامس

ميريت الصغيرة

"في هذا اليوم تسلمت بشكل صحيح من السيدة الشريفة النسب والتقية، فون. م، تكاليف الطعام الباقية بذمتها عن الربع الأول ونظمت وصلاً وقدمت تقريراً عن ذلك. ثم لقنتُ ميريت الصغيرة (إيميرينتيا) تأديبها المستحق أسبوعياً وتشددت في ذلك بوضعها على المقعد مستلقية ثم ضربتها بعصا جديدة، بالطبع ليس من دون ولولة وتنهد إلى الرب لكي يضع لهذه العملية الحزينة نهاية جيدة. صحيح أن الصغيرة بكت بكاء يرثى له وتوسلت بحزن وخضوع لكي يُغفر لها، ولكنها تشبثت فيما بعد بعنادها وأعرضت عن كتاب الترتيل التي كنت قدمته لها. ولذلك تركتها قليلاً لكي تسترد أنفاسها ثم حبستها بعد ذلك في حجرة الشحوم حيث بكت واشتكت ثم هدأت إلى أن بدأت فجأة تغني وتهتف تماماً كالرجال الثلاثة الأبرار في فرن النار، وأصغيت لها وأدركت أنها غنت المزامير المنظومة شعراً ذاتها، التي سبق أن رفضت باستمرار أن تتعلمها، ولكنها غنتها هذه المرة بطريقة دنيوية ولا فائدة منها كأغاني المرضعات وأغاني الأطفال، السخيفة والساذجة، فعددت تصرفاً كهذا خبثاً جديداً وتعسفاً من الشيطان".

ثم:

"وصلت رسالة تزخر بالشكوى من المدام، التي هي في الحقيقة سيدة رائعة ومؤمنة، وقد بللتْ رسالتها المذكورة تواً بالدموع وأنبأتني بما يعتري

السيد زوجها من قلق كبير لأن وضع ميريت الصغيرة لا يريد أن يتحسن. وهذه هي بالتأكيد مصيبة كبيرة ألمت بهذه الأسرة العريقة والشهيرة، ويحلو للمرء، أقول هذا بكل احترام، أن يربط بين خطايا السيد الجد من جهة الأب وذنوبه، الذي كان سفاك دماء ورجل دنيا سيئاً، وبين ما أصاب هذه المخلوقة التعيسة وكيف كانت موضع انتقام. غيرتُ أسلوب معاملتي إزاء الصغيرة وأريد الآن أن أجرب معالجتها بالجوع. وطلبت من زوجتي أيضاً أن تخيط لها ثوباً من الخيش الخشن ثم منعتُ ميريت من أن تلبس نوعاً آخر من الثياب، لأن ثوب التوبة هذا كان الأكثر ملاءمة لها. عناد في الموضوع ذاته".

" رأيت نفسي في هذا اليوم مضطراً لمنع الآنسة من الاختلاط والتحدث مع أولاد الفلاحين، لأنها ذهبت معهم إلى الغابة واستحمت هناك في الحوض الخشبي بعد أن خلعت ثوب التوبة، الذي أمرتها أن ترتديه، وعلقته على غصن شجرة وأخذت تثب وترقص عارية، الأمر الذي دفع رفاقها إلى تصرفات وقحة من الاستهزاء والعبث والمجون. عقوبة كبيرة".

"اليوم ضوضاء كبيرة واستياء كبير. أتى ولد شقي، كبير وقوي، هو الفتى مُيلرهانس وتشاجر معي بسبب ميريت الصغيرة زاعماً أنه يسمع صراخها وعويلها كل يوم، حاججته في هذا الموضوع إلى أن أتى أيضاً المعلم الشاب تروبف وهدد بإقامة دعوى ضدي ثم انهال على المخلوقة التعيسة وعانقها وقبلها وهلم جراً، وهلم جراً. وفي الحال تكللت مساعيّ بالنجاح في القبض على المعلم واقتياده إلى مكتب مدير المنطقة. يجب أن أوقف مُيلرهانس أيضاً عند حده، مع أنه شاب غني وينزع إلى العنف. أريد على الفور، أنا ذاتي، أن أصدق قول الفلاحين بأن هذه الطفلة هي ساحرة، إلا إذا لم تتناقض هذه الفكرة مع العقل. على أي حال، الشيطان يكمن فيها وقد توليت أنا مهمة شاقة ووخيمة العواقب".

"طول الأسبوع كان في ضيافتي رسام أرسلته إلى المدام لكي يرسم صورة للآنسة الصغيرة. الأسرة المنكوبة لا تريد أن تعيد المخلوقة إلى كنفها

بل تريد فقط الاحتفاظ بصورتها وبالتالي الاحتفاظ بالذكرى الحزينة والمشاهدة التائبة ونظراً إلى القدر الكبير من جمال هذه الطفلة. السيد خصوصاً هو الذي لا يريد أن يصرف النظر عن هذه الفكرة. زوجتي تقدم للرسام يومياً كأسين كبيرين من النبيذ، ولكن يبدو أنه لا يكتفي بذلك بل يذهب كل مساء إلى حانة الأسد الأحمر ويلعب هناك مع الطبيب الجرَّاح. إنه شخص متعالٍ، لذلك أقدم له في أغلب الأحيان طائر الشنقب أو سمكة الكركي وأسجل ذلك في حساب المدام الربعي. أراد في البداية أن يقترب من الصغيرة ويتودد إليها وتجاوبت هي في الحال مع محاولاته، ولذلك لمَّحت له ألا يتدخل في شؤوني وإجراءاتي. حين أحضرنا للصغيرة ثوبها، الذي كنا احتفظنا به، وثياب يوم الأحد إضافة إلى زينة الرأس أي تاج العروس والزنار وألبسناها كل ذلك، أظهرت سروراً كبيراً وبدأت ترقص، ولكن سرورها هذا لم يدم طويلاً حتى انقلب إلى مرارة وذلك حين أوعزتُ، بناء على أوامر من السيدة، بإحضار جمجمة إنسان ميت وقدمتها إليها لكي تحملها بيدها لكنها رفضت أن تأخذها بالمرة، وبعد عدة محاولات أمسكتْها فيما بعد بيدها وهي تبكي وترتجف وكأن الجمجمة جمرة من حديد. صحيح أن الرسام يزعم أن بإمكانه أن يرسم الجمجمة على الغائب عن ظهر قلب لأنها تعد من أوائل العناصر في مجال فنه، ولكنني لم أسمح له بذلك خصوصاً أن المدام كتبت لي: "ما تعانيه الطفلة، نعانيه نحن أيضاً، وفي معاناتها تُعطى لنا فرصة للتوبة نستطيع أن نجيرها لمصلحتها ولذلك يُرجى ألاّ تتوقف أيها المحترم عن أي شيء يتعلق برعايتك للطفلة وتربيتك لها. وإذا ما قُدر ذات يوم لابنتنا الصغيرة، وهذا ما آمله من الله الرحيم والقادر على كل شيء، أن تضاء بنور الله هنا أو هناك وتُنقذ، فسوف يغمرها من دون شك سرور عارم لإنجازها من خلال عنادها جزءاً كبيراً من توبتها، التي أحبَّ أن يفرضها عليها السيدُ الذي لم يكتشف خفاياه أحد!". بهذه الكلمات الشجاعة أمام عينيّ عَدَدْتُ أيضاً هذه الفرصة مجدية لأن أصنع من مسألة الجمجمة توبة جدية. للمناسبة كنا بحاجة إلى جمجمة طفل أصغر

وأبسط لأن الرسام اشتكى من أن الجمجمة الكبيرة الرجالية غير متناسقة مع اليد الصغيرة طبقاً لقواعد فنه، وقد فضلت البنت الصغيرة فيما بعد أن تمسك بيدها جمجمة صغيرة، غرز الرسام في الجمجمة وردة بيضاء صغيرة فسبب لي بذلك شيئاً من المعاناة لأن الوردة البيضاء تصح أن تكون رمزاً خيّراً ".

"تلقيتُ اليوم فجأة أمراً مضاداً فيما يتعلق بالصورة يقضي بألا أرسلها إلى المدينة بل ينبغي أن أحتفظ بها هنا. ذلك أمر يؤسف له فيما يتعلق بالعمل البارع الذي أنجزه الرسام بدافع من افتتانه بالطفلة وجمالها. لو عرفتُ ذلك من قبل لكان باستطاعة الرجل لقاء ما أنفقت عليه أن يرسم صورتي على قطعة القماش التي كانت تحمل إليه المواد الغذائية الجميلة إلى جانب أجوره".

"أتاني أمر آخر بوجوب التوقف عن كل أشكال التربية الدنيوية ولا سيما تعليم الطفلة الصغيرة اللغة الفرنسية لأن ذلك لم يعد أخذه بالحسبان أمراً ضرورياً، وعلى زوجتي أيضاً أن تتوقف عن إعطاء دروس البيانو، الأمر الذي سبب استياء للصغيرة. وعلي أيضاً أن أستضيف الفتاة، التي تعيش في كنفي، من الآن فصاعداً على أنها طفلة عادية تحت الرعاية وأن أعنى فقط بألا يصدر عنها إزعاج علني عام".

"أمس الأول ولت ميريت الصغيرة الأدبار هرباً منا وخفنا عليها أشد الخوف إلى أن بانت في ظهيرة هذا اليوم في خميلة شجيرات الزان حيث جلست عارية على ثوب التوبة وعرضت جسمها فترة طويلة لأشعة الشمس. كانت فكت جدائل شعرها تماماً وكسته بإكليل من ورق الزان وعلقت حول جسمها نتفاً من مثله ثم وضعت أمامها كمية جميلة من توت الأرض وأكلت كثيراً منها. حين رأتنا همت بالهرب من جديد، لكنها خجلت من كونها كانت عارية وأرادت أن ترتدي ثوبها ولهذا السبب استطعنا ضبطها والسعادة تغمرنا. إنها الآن مريضة ويبدو أنها مضطربة ومرتبكة لأنها لا تستطيع أن تعطي جواباً معقولاً ومقنعاً عن أسئلتنا".

"تحسن وضع ميريت الصغيرة تحسن من جديد، ولكن طرأ على حالها تغيير تدريجي فأصبحت تماماً بلهاء وخرساء. ورأى الطبيب الذي استدعي لمعالجتها أنها مرشحة للإصابة بالعته والجنون ويجب إخضاعها للمعالجة الطبية، ثم عرض خدماته في هذا المجال ووعد بإعادة وضعها إلى طبيعته إذا ما أقامت في بيته. غير أنني ألاحظ أن السيد الجراح يعلق آماله بعائدات جيدة لإقامتها عنده إلى جانب هدايا المدام، لذلك قلت رأيي بصراحة وما أرى أنه في مصلحة الفتاة وهو أن الرب يبدو أنه وضع الآن نهاية لخطته المتعلقة بمخلوقته وأن أيدي البشر لا تستطيع ولا يُسمح لها أن تغير في ذلك شيئاً، وهذا هو فعلاً واقع الأمر".

بعد مضي خمسة أشهر إلى ستة تابعت قراءة المذكرات:

" يبدو أن هذه الطفلة تتمتع بصحة جيدة وهي في وضعها القائم من البلاهة والغباء، وقد غدت وجنتاها حمراوين وصارت صحيحة ومعافاة. وهي تقيم طول اليوم بين نباتات الفاصولياء المتسلقة حيث لا يراها أحد ولا يكترث لها أحد ما دامت لا تسبب إساءة أو إزعاجاً لغيرها".

"أعدت ميريت الصغيرة لنفسها في وسط الساحة المحاطة بشجيرات الفاصولياء صالوناً صغيراً وحين اكتشفه الناس أخذت تستقبل فيه زيارات مؤدبة من قبل أولاد الفلاحين، الذين كانوا يزودونها بالفاكهة والمأكولات الأخرى فتطمرها برقة ورشاقة في التراب وتجعل منها مؤونة للمستقبل. وهناك وُجدت أيضاً مدفونة في التراب تلك الجمجمة الصغيرة التي كانت فُقدت قبل فترة طويلة ولم يتسنَّ إرجاعها إلى شماس الكنيسة. كذلك جذبت ميريت الصغيرة العصافير وطيوراً أخرى إلى مملكتها وجعلتها سلسة أليفة، مما أسفر عن عبث كبير لهذه الطيور بحبوب الفاصولياء وشجيراتها وامتناعي أنا عن إطلاق النار باتجاه الشجيرات بسبب النزيلة الصغيرة. وإضافة إلى كل ذلك فقد عبثت ميريت الصغيرة مع أفعى سامة كانت تسللت عبر السياج وعششت عندها؛ إجمالاً، كان لا بد من إعادة ميريت إلى البيت وإبقائها فيه".

"احمرار الوجنتين تلاشى من جديد وزعم الطبيب الجراح أن أيام ميريت الصغيرة أصبحت معدودة. فكتبتُ إلى والديها عن هذا الموضوع".

"يوم أمس هربت ميريت الصغيرة المسكينة من سريرها وتسللت إلى شجيرات الفاصولياء ثم ماتت هناك، فقد وجدناها جميعاً ميتة في حفرة صغيرة كانت حفرتها في التراب لكي تنزلق فيها. وُجدت في الحفرة منتصبة تماماً، وكان شعرها وثوبها مبللين وثقيلين بفعل الندى الذي كانت قطراته مبعثرة أيضاً على خديها الصغيرين المتوردين احمراراً، تماماً كازهرار التفاح. صعقنا للمنظر، واعتراني ارتباك واضطراب كبيران في هذا اليوم لأن السادة أتوا من المدينة حين سافرت زوجتي إلى بلدة لك لشراء بعض الحلويات والمؤونة وتقديم ضيافة للسادة الضيوف على أكمل وجه. لذلك لم أعرف في تلك الأثناء أين تقف رأسي وقضيت الوقت أركض وأعدو وأغدو وأروح، ثم كلفت الخادمات بغسل الجثة الصغيرة وإلباسها ثوباً، وبتأمين وجبات خفيفة من الطعام على الفور. وأخيراً أوعزتُ بشيء الشرائح الخضراء من لحم فخذ الخنزير، التي كانت زوجتي وضعتها في الخل قبل أسبوع، واصطاد ياكوب ثلاث قطع من سمك السلمون الأليف، الذي ما زال يأتي من حين لآخر إلى سياج الحديقة مع أن المرحومة (؟!) ميريت مُنعت في أواخر أيامها من الخروج إلى الماء. لحسن الحظ أصبتُ نجاحاً كبيراً بتأمين هذه المأكولات وتقديمها إلى الضيوف عريقي النسب، وقد سرت المدام بالطعام وطاب لها مذاقه. ساد حزن شديد في أرجاء المكان كلها، وأمضينا أكثر من ساعتين في الصلاة والتأملات في الموت ومثل ذلك في الأحاديث الحزينة عن الاستعداد التعيس لدى الفتاة الراحلة لتلقي الأمراض، إذ كان لا بد لنا لعزائنا المتزايد من الظن أن هذا الاستعداد متجذر في ميل إلى ذلك وخيم العواقب على الدم والدماغ. إلى جانب ذلك تحدثنا أيضاً فيما عدا ذلك عن المواهب الكبيرة، التي تحلت بها الطفلة الراحلة وعن خواطرها الذكية والفاتنة في أغلب الأحيان وارتجالاتها وكل ما لا يستطيع قصر نظرنا الدنيوي التوفيق بينه. غداً قبل

الظهر سوف تدفن الطفلة على الطريقة المسيحية وسيكون الأبوان عريقا النسب حاضرين وإلا فسوف يعترض الفلاحون على ذلك".

"كان ذلك هو اليوم الأكثر روعة والأكثر روعاً، لا لأننا تعبنا أشد التعب مع تلك المخلوقة التعيسة فحسب بل بسبب ما حدث فيه لكياني المستقر الهادئ. حين آن الأوان ودقت الساعة العاشرة مشينا وراء الجنازة وتوجهنا إلى المقبرة فيما كان شماس الكنيسة يدق أجراسها، ولكن لم يفعل ذلك بجهد كبير لأن الدقات كانت ضعيفة وتشتت نصفها في الرياح القوية التي هبت بشكل عاصف. كانت السماء معتمة أيضاً وخانقة الرطوبة وكان فناء الكنيسة خالياً من الناس ما عدا مجموعتنا الصغيرة، في حين تجمع خلف أسوارها كل الفلاحين مادين رؤوسهم من فوقها بفضول وحب استطلاع. ولكن ما إن هم الناس بإنزال النعش إلى حفرة القبر، حتى سُمع صراخ نادر منطلق من النعش بحيث اعترانا رعب شديد، وحفار القبور خرج من القبر وولى هارباً، غير أن الجرَّاح، الذي اقترب أيضاً من النعش، فتح بسرعة غطاءه ورفعه إلى الأعلى فإذا بالميتة تنتصب حية وتزحف بسرعة تامة إلى خارج القبر وتحملق فينا. وكما في اللحظة نفسها تغلغلت أشعة الهلع المرضي بصورة غريبة وواخزة عبر أجواء المكان، هكذا كان أيضاً منظرها في رداء البروكار المقصب والمائل إلى الصفرة وكذا في تاجها الصغير المتلألئ. السيدة الأم أغمي عليها في الحال والسيد الأب فون ميريت سقط ناحباً على الأرض. أما أنا فلم يدع لي الاستغراب والهلع أي مجال لأن أبدي أي حراك وآمنت في هذه اللحظة إيماناً متصلباً بعالم الساحرات. الفتاة الصغيرة تشجعت على الفور وهرولت هاربة عبر فناء الكنيسة ثم خرجت على القرية وهي تدور كقطة من مكان إلى آخر إلى أن فر الناس مذعورين إلى بيوتهم وأقفلوا أبوابها من الداخل. في هذا الوقت بالذات انصرف التلاميذ من مدارسهم وأتت مجموعة كبيرة منهم إلى الأزقة وحين رأى هؤلاء الصغار المشهد المعروض في القرية لم يستطع أحد إيقافهم من الجري وراء الفتاة الجثة وتتبعها وبعد ذلك

انضم إليهم أيضاً المعلم وهو يحمل عصاه المعروفة، ولكنها ظلت تسبقهم بنحو عشرين خطوة ولم تتوقف إلا بعد أن وصلت إلى شجيرات الزان وسقطت على الأرض مفارقة الحياة، إثر ذلك تجمع الأطفال حولها وأخذوا يتلمسونها برقة ويربتون على خدها، لكن دون جدوى. كل هذا تناهى إلى علمنا فيما بعد لأننا سرعان ما هرولنا قبل ذلك ونحن في أشد أوضاع الضيق والحرج إلى بيت القس لكي ننجو بأنفسنا وبقينا هناك في عزلة تامة إلى أن أحضرت الجثة من جديد. ثم ألقيت على فراش وغادر السادة بعد ذلك قريتنا تاركين لوحة حجرية صغيرة ولم يحفر عليها سوى شعار الأسرة وتاريخ العام فحسب. والآن تستلقي الفتاة على الفراش مرة أخرى وهي ميتة ولا نجرؤ أن نذهب للنوم لشدة خوفنا، مع أن الطبيب يجلس بجانبها وفي رأيه أنها فارقت الحياة أخيراً".

"في هذا اليوم أعلن الطبيب بعد تجارب متعددة أن الطفلة هي بالفعل في عداد الموتى ودفنت بهدوء ولم يحدث شيء آخر وهلم جراً".

* * *

الفصل السادس

مزيد عن اللّه

السيدة مارغريت وقومها

لا أستطيع القول إن الله، بعد أن كان اتخذ عندي الشكل المحدد والعقلاني لخالق مُطعمٍ ومعين، ملأ قلبي في تلك الفترة من العمر بأحاسيس أكثر رقة ومسرات متغلغلة في نفسي، خصوصاً أنه غاب من رداء الشفق اللامع لكي يعود مرة أخرى في وقت لاحق ويأخذ الرداء من جديد. وإذا ما تحدثت أمي عن الله وعن الأشياء المقدسة فقد كانت تتابع حديثها إلى أن تمكث على خير وجه في رحاب العهد القديم وتعرج على قصة أبناء إسرائيل في الصحراء أو نزاعات يوسف وإخوته بسبب تجارة الحبوب، كما تعرج أيضاً على الأرملة أولكروغ ومثيلاتها أو بصورة استثنائية على قصة إطعام الخمسة آلاف رجل في كتاب العهد الجديد. هذه الأحداث كلها كانت تعجبها كثيراً وكانت تقصها عليّ بطلاقة لسان دافئة، بينما أخلت هذه الطلاقة الساحة لأسلوب ورع في القص يقتضيه الواجب وذلك حين تعلق الأمر بقص حكاية الدراما المثيرة والدموية عن آلام السيد المسيح. وبقدر ما كنت لهذا السبب أحترم الله وأتذكره في جميع الأحوال، بقي خيالي وإحساسي فارغين ما دمت لم أعرف من زاد جديد غير الخبرات التي اكتسبتها حتى الآن، وإن لم يكن ثمة داعٍ لتأليف محاضرة حماسية عن الصلاة فقد كان الإله عندي أخيراً ما هو إلا شخص لا طعم له ولا لون وكان مملاً ويدفعني إلى كثير من إمعان

التفكير وكثير من الغرابات، خصوصاً أن ذلك لم يغب عن بالي لدى وحدتي وعزلتي في معظم أوقاتي.

وهكذا جلب لي هذا الأمر لفترة طويلة عذاباً كبيراً إلى حد أنني أحسست بإغواء شديد لأن أطلق على الله تسميات ساخرة فظة لا بل شتائم ومسبات كالتي كنت أسمعها في الشارع. هذا الإغواء كان يبدأ باستمرار بنوع من حالة نفسية مريحة وأنيسة إلى درجة العبث وذلك إلى أن كنت أعجز عن المقاومة فأقذف بوعي كامل بمسبة الله كل واحدة من تلك الكلمات بصورة متسرعة، ومؤكداً مباشرة أن ذلك لا يجوز وأرجو المعذرة؛ بعد ذلك لم أجد بداً من تكرار كلمات المسبة والرضا النادم وغير ذلك إلى أن يزول الانفعال الغريب. هذه الظاهرة تعودتْ أن تؤلمني على أفضل وجه قبل النعاس، على الرغم من أنها فيما بعد لم تخلق في نفسي أي اضطراب ولا أي انقسام. فكرت بعد ذلك أن الأمر ما هو إلا تجربة غير متعمدة مع وجود الله في كل مكان، ذلك الوجود الذي بدأ أيضاً يشغلني ويحيي في أعماقي الشعور المبهم: عن الله لا يمكن أن تكون أي دقيقة من حياتنا الباطنة خافية وعرضة فعلاً للمعاقبة ما دام بالنسبة إلينا ذلك الكائن الحي الوارد في حسباننا بهذه الصفة.

في أثناء ذلك أقمت علاقة صداقة من شأنها أن قدمت العون لخيالي الباحث وخلصتني من هذا العذاب الذي لا يجدي نفعاً، وذلك بأن أصبحت تشكل عندي مع بساطة أمي وواقعيتها ما تشكل الجدات والمرضعات الغنية بالحكايات والأساطير عند الأطفال المتعطشين لهذه المادة.

في البيت المقابل لنا كان ثمة صالة مكشوفة ومعتمة وممتلئة تماماً بسلع قديمة. على الجدران علقت حلل حريرية قديمة ومواد تريكو وسجادات من كل نوع. أسلحة يعلوها الصدأ وأدوات مختلفة ولوحات زيتية سوداء وممزقة كان تكسو أعمدة المدخل الخشبية وانتشرت على جانبي الجهة الخارجية للمنزل، وعلى طاولات وأدوات كثيرة من الطراز القديم كُوِّمت أوانٍ زجاجية بديعة وخزفيات مختلطة بتماثيل خشبية وفخارية. في الحجرات العليا وعلى

بسطات السلالم وأحياناً فوق حافة خطرة ومنعزلة انتصبت في كل مكان ساعة مزخرفة أو صليب أو ملاك مصنوع من الشمع وما شابه ذلك. ولكن في أعمق الزوايا كانت تجلس في كل وقت امرأة متقدمة في السن وبدينة وترتدي زياً قديماً بألوان قاتمة معتمة ومضيئة، في حين كان رجيل نحيل وأشيب وأكبر سناً من المرأة يطوف عابثاً هنا وهناك في الصالة وتحت إمرته بعض العمال المرؤوسين، وكان يقوم بخدمة أناس كثيرين يغدون ويروحون باستمرار. كانت المرأة هي العقل المدبر لذلك المتجر وكل الأوامر والتعليمات كانت تنطلق منها بصرف النظر عن أنها لم تبرح مكان عملها أبداً ولم يسبق لأحد أن رآها يوماً في الشارع. كانت باستمرار عارية الذراعين، وكانت أكمام قميصها بيضاء اللون كالثلج ومطوية بطريقة اصطناعية لم يعد لها مثيل في أي مكان في العالم وربما كانت هذه طريقة متبعة قبل مئة عام. كانت المرأة الأكثر أصالة في العالم، وقد أتت إلى المدينة مع زوجها قبل أربعة عقود من الزمن معانية فقر الدم والجهل لكي تبحث عن كسب قوتها. وبعد أن شقت طريقها لسنين طويلة مُضنية بأجر يومي وعمل شاق أفلحت في تأسيس متجر للسلع المستعملة وحققت مع مرور الوقت بفضل حسن الحظ والمرونة في مشاريعها المختلفة رخاء مريحاً وأجادت في امتلاك ناصيته بأكثر الأساليب تميزاً وإتقاناً. كانت تكاد تستطيع قراءة ما هو مطبوع، بالمقابل لم تعرف الكتابة ولم تُجِد الحساب بالأعداد العربية التي لم تفلح يوماً في معرفتها، بل تكوَّن مجمَل فنها في الحساب من إلمامها بالأعداد الرومانية واحد وخمسة وعشرة ومئة. وكما كانت تلقت هذه الأعداد الأربعة إبان فترة شبابها المبكر وفي منطقة ريفية معزولة ومنسية وقد نُقلت إليها بالتواتر عبر تقليد قديم عمره ألف عام، فقد استخدمتها بمهارة عجيبة. لم تتعاط مسك الدفاتر ولم يكن لديها حسابات مكتوبة، ولكنها كانت في كل لحظة قادرة على الإحاطة بكل حساباتها التي غالباً ما كانت تبلغ عدة آلاف من مجرد إرساليات صغيرة وذلك بأن كانت تغطي لوح الطاولة بسرعة كبيرة بطباشير كانت

تحمل باستمرار قطعاً صغيرة منها في جيبها، بأعمدة ضخمة من تلك الأعداد الأربعة. فإذا ما أخرجت من ذاكرتها كل المبالغ ووضعتها على هذا النحو على اللوح، تكون قد حققت الهدف ببساطة بمحو صف من الأعمدة تلو الآخر بإصبعها المبللة بنفس الخفة التي استخدمتها في وضعها وتدوين النتائج في أثناء ذلك في أحد الجوانب بطريقة العد. وهكذا كانت تنشأ مجموعات أصغر من أعداد جديدة لم يعرف أحد غيرها معناها وتسمياتها، ذلك لأن الأمر بقي في نطاق الأعداد الأربعة العارية وبدا بالنسبة إلى الآخرين وكأنه كتابة سحرية وثنية قديمة. أضف إلى ذلك أنها لم تفلح أبداً في اتباع هذا المنهج باستخدام قلم رصاص أو ريشة أو حتى قلم مخصص للرسم على لوح من الأردواز بحيث لم يقتصر الأمر على أنها كانت بحاجة من حيث المكان إلى سطح منضدةٍ كامل، بل لم تكن قادرة أيضاً على صنع رموزها القوية إلا بالطباشير الطرية. وغالباً ما كانت تشتكي من أنها لا تستطيع الاحتفاظ بشيء مثبَّت، إلا أنها حققت تحديداً من جراء ذلك نجاحاً منقطع النظير في تطوير ذاكرة كانت تظهر منها فجأة تلك الكميات المكتظة من الأعداد متبلورة الشكل وحيوية الحركة لكي تعود فتختفي على نفس الصورة. التناسب بين الإيرادات والصرفيات لم يسبب لها أي متاعب يعتد بها، وكانت تنفق على الاحتياجات المنزلية والاحتياجات الأخرى سلفاً من الكيس ذاته، الذي أرسى أيضاً أسس التعامل التجاري، وإذا ما تجمع مبلغ فائض من المال بدلت به على الفور ما يعادله من الذهب وحفظته في خزنتها حيث بقي هناك إلى الأبد، اللهم إلا إذا أُخرج قسم منه لكي يُستخدم في مشروع خاص أو قرض استثنائي لأنها فيما عدا ذلك لا تعطي قروضاً لقاء فوائد. كانت تتعامل بصفة خاصة مع أهالي الأرياف من جميع الجهات والنواحي إذ كان هؤلاء يحصلون عندها على حاجاتهم وأذواقهم المختلفة وكانت تعطي سلعها لكل الناس بالدَين لأجَلٍ ما فتربح أحياناً كثيراً من المال وتخسر أيضاً في بعض الأحيان. وهكذا أصبح عدد كبير من الناس مرتبطين بها أو ربطتهم بها علاقة التزام أو علاقة عداوة

وأصبحت هي باستمرار محاطة بأناس يطلبون التساهل أو جاؤوا ليدفعوا ما عليهم وجلبوا معهم، إما للتقرب منها أو عرفاناً بجميلها، مختلف الهدايا وأكثرها تنوعاً كما لو أنها ولية أمر أو رئيسة دير: فواكه حقلية وشجرية من كل نوع، حليب، عسل، عنب، شرائح من فخذ الخنزير ونقانق حُملت إليها بسلات ثقيلة الأوزان، وهذه المؤن شكلت أساساً لحياة وجيهة من اليسر والرخاء كانت تبدأ مباشرة حين يغلق باب الدكان محدثاً صريفاً خاصاً ثم تمارَس في غرفة الجلوس، الأكثر غرابة وندرةً، الحياةُ المسائيةُ الحميمة.

هناك كانت السيدة مارغريت جمعت تلك الأشياء وعرضتها على أنها زينة لأنها كانت أشد إعجاباً بها من أي شيء آخر في أعمالها التجارية، ولم تتردد في أن تحتفظ لنفسها بشيء منها إذا ما أثار ذلك اهتمامها. عُلقت بالجدران صور قديمة لقديسين على أرضية ذهبية وفي النوافذ ألواح زجاجية مزدانة بالرسوم وإلى كل هذه الأشياء كانت السيدة تنسب قصة ما غريبة أو حتى قوى خفية، الأمر الذي أضفى عليها عندها هالة قدسية وجعلها غير قابلة للتصرف ولو أن بعض العليمين بهذه الأمور سعوا أحياناً إلى انتشال هذه الآثار القيمة فعلاً من دائرة جهل السيدة. في خزنة مصنوعة من خشب الأبنوس احتفظت السيدة بعملات تذكارية وقطع نادرة من وحدة التالر النقدية ومزركشات تخريمية وأشياء عبثية أخرى قيمة كانت شديدة الولع بها وتأبى أن تتخلى عنها إلا مقابل ربح كبير. وأخيراً جُمع على رف مثبت في جدار عدد لا يستهان به من الكتب القديمة غير المتناسقة كانت اعتادت السيدة على البحث فيها بحماسة كبيرة. كانت تلك أناجيل مختلفة، وكتباً جغرافية وخرائطَ قديمة مزودة بنقوش لا حصر لها على الخشب، وصوفَ رحلات تعج بالخرافات وعلى أفضل وجه أساطير عجيبة من القرن الماضي ومزودة بنقوش نحاسية كبيرة ومطوية بعضها مع بعض مما عرَّضها للتكسير والتمزق بوجوه مختلفة؛ كانت السيدة تطلق بوجه عام على هذه الأعمال المكتوبة بطريقة بدائية اسم كتب وثنية أو كتب أصنام. وإضافة إلى كل ذلك

كانت تقتني مجموعة كبيرة من الكتابات الشعبية التي كانت تحتوي على أخبار عن مؤلف إنجيل خامس، عن فترة شباب السيد المسيح، مغامراته في الصحراء التي لم يُعرف عنها شيء بعد، والعثور على جثته في حالة سليمة إضافة إلى وثائق هامة، عن ظهور زنديق يكابد الآلام في نار جهنم واعترافاته، وكان من شأن بضعة كتب تؤرخ أحداثاً وفق تسلسلها الزمني وأخرى عن الأعشاب وثالثة عن تنبؤات بوجه عام أن أكملت تلك المجموعة. بالنسبة إلى السيدة مارغريت كان كل شيء مطبوع يحتوي من دون تمييز، شأنه شأن التواتر الشفوي عبر الشعب، على حقيقة معينة، وكان العالم بتمامه وكماله في كل تجلياته والحياة الأبعد كما حياتها الخاصة أيضاً على جانب كبير من الروعة والأهمية على حد سواء عند السيدة؛ فقد كانت لا تزال تحمل الخرافات الصامدة منذ الأزمنة المنقضية، من غير تهذيب وصقل فعليين. وكانت تحيط بكل شيء بولع فضولي وتأخذ على محمل الجد ما يُعرض على خيالها المتلاطم الأمواج وسرعان ما تلبسه أشكال الطابع الشعبي الملموسة المحسوسة والشبيهة بأوعية معدنية قوية ومبقية باستمرار على ألقها بفضل استخدامها الدائم على الرغم من قدمها. كل الآلهة والأصنام التابعة للشعوب القديمة والمعاصرة أثارت اهتمامها وشغلتها فيما يتعلق بتاريخها ومظهرها الخارجي المطابق لصورها لكنها شغلتها بصورة رئيسية أيضاً نظراً إلى أنها كانت تعدّها كائنات حية حقيقية وكان من أمر هذه الكائنات أن كوفحت واجتثت جذورها من قبل الإله الحقيقي، وكان من شأن استحضار مخلوقات غريبة الأطوار ورديئة ونصف مقهورة كهذه وطوافها، أن استرعيا اهتمام السيدة وجذباها بصورة مرعشة تماماً كالأعمال المخيفة لرجل ملحد لم يكن يعني عندها سوى إنسان ينكر بكل عناد وعبث وجود الله على الرغم من اقتناعه التام بذلك. كبار القردة وشياطين الغابات في مناطق الجنوب من الكرة الأرضية، الذين كانت السيدة تقرأ عنهم في كتبها القديمة عن الرحلات والأسفار، ورجال البحر الخرافيون كذلك نساء البحر الخرافيات ليسوا جميعاً

سوى شعوب مُتَحَيْوِنَة ملحدة أو منكرة وجود الله كهؤلاء الذين كانوا، وهم في هذا الوضع التعيس أنصاف نادمين وأنصاف معاندين، شهوداً على غضب الله كما سمحوا لأنفسهم في الوقت ذاته بممارسة أفانين كثيرة من العبث والمجون مع الناس.

حين كانت النار تئز في المساء ويتصاعد البخار من القدور وتمتلئ المائدة بالأطعمة الشهية الشعبية متقنة الإعداد وتجلس السيدة مارغريت بارتياح ووجاهة على كرسيها المزخرف، كان يأتي إليها تدريجياً أتباع وجماعات مختلفون تماماً عن أولئك الذين يأتون أثناء النهار إلى مخزن البضائع. كان هؤلاء رجالاً ونساءً من الفقراء، الذين شد البعضَ منهم إلى المجيء عبقُ المائدة المضياف وشد البعضَ الآخرَ الحديثُ المثير عن أمور أكثر سمواً ورقياً فبحثوا هنا عن نقاهة متعددة الوجوه من المتاعب اليومية ووجدوا ما بحثوا عنه. وباستثناء قلة من المتطفلين المنافقين فقد أظهر الجميع حاجة صادقة إلى إغناء معارفهم عن طريق الأحاديث والنصائح المرتقية فوق أمور الحياة اليومية والبحث بصورة خاصة عما في الدين والأعاجيب من غذاء للروح أكثر طعماً ونكهة مما قدمته لهم الظروف الثقافية العامة. إن ما دفع هؤلاء الناس إلى التجمع هنا وهم متنوعو الآراء والمذاهب النادرة إلى حد أن السيدة مارغريت طلبت منهم بإلحاح تزويدها بالمعلومات المتوفرة لديهم عن حياتهم الباطنية وممارساتهم، كانت دوافع هؤلاء إذاً هي انعدام رضا النفس وعدم إرواء التعطش إلى الحقيقة والمعرفة وأعباءَ المصاير المعيشة، وقد انبعثت هذه الدوافع من محاولة إشباع غرائز مضطربة كهذه في العالم الحسي الدنيوي؛ كانت السيدة ذاتها دنيوية ومريحة إلى درجة تعذر معها أن تذهب بعيداً فتشاركهم في الذي هم فيه. لا بل كانت تؤنب اليائسين بكلمات حادة وتغدو ساخرة لاذعة ومتذمرة إذا ما لاحظت صدور سخافة صوفية عن أحد منهم. لم تكن في غنى عما هو عجيب ورائع ومنطو على أسرار، ولكن في العالم الحسي الدنيوي، في الحياة والمصير، في الظواهر

الخارجية المتبدلة؛ وعن معجزات روحية باطنية وحالات نفسية مميزة، عن المصطفين وأشباههم لم ترغب في أن تعرف أي شيء وكانت توبخ ضيوفها إذا ما أرادوا أن يعرجوا على ذكر مواضيع من هذا النوع. وإضافة إلى أن الله كان عندها الخالق فناً ومغزىً لكل الأشياء والأحداث الرائعة العجيبة، فقد كان أيضاً على أفضل وجه مدهشاً وجديراً بالشكر والثناء في مسألة واحدة: أي إنه المعين الوفي للأذكياء والنشطاء من الناس الذين يبدؤون مسيرتهم بلا شيء حتى بأقل من لا شيء ويصنعون حظهم في هذا العالم بأنفسهم ويحققون إنجازات كبيرة. ولذلك سُرَّت أيما سرور بالشبان الذين يخرجون من أصول مبهمة وقليلة الشأن ثم يصلون بفضل مواهبهم وحرصهم وذكائهم إلى مواقع جيدة ويتمتعون بحصانة رفيعة. وكانت تولي اهتماماً كبيراً بنمو اليسر لدى هؤلاء الشبان الذين منحتهم حمايتها ورعايتها كما لو أن هذا الشأن هو شأنها هي بالذات، وإذا ما أفلحوا أخيراً في بذل متواضع لإمكاناتهم وهم مرتاحون إلى فعلهم، كان يعتريها شعور بارتياح كبير لدى إسهامها بنصيب كبير في نجاحاتهم ومشاركتهم في الرونق الناجم عن ذلك. كانت السيدة من الأساس امرأة محسنة بارّة وكانت تعطي باستمرار بأيدٍ مبسوطة الفقراء والباقين فقراء بالقدر العادي والمجزأ، أما أولئك الذين أظهروا نجاحاً في أعمالهم فكانت تعطيهم بإسراف حقيقي بالنسبة إلى أوضاعها. في معظم الحالات كان يكمن في طبيعة صاعدين كهؤلاء أن يركزوا بعناية، إلى جانب اهتمامهم بعلاقاتهم الأكبر في أمكنة أخرى، أيضاً على حظوة هذه السيدة النادرة إلى أن يحل محلهم في نهاية المطاف جيل جديد من الفتيان الصاعدين، وهكذا لم يكن من النادر أن يجد المرء هنا أو هناك رجلاً أنيق الملبس ووجيه المظهر بين الدائنين المساكين وهذا الرجل كان من شأن سلوكه الوقور والمتزن أن أخجل هؤلاء وأزعجهم. ولكن غيابه من حين لآخر شكل دافعاً لدى هؤلاء لاتهام السيدة بعقلية دنيوية وحب مباهج الدنيا، الأمر الذي أثار في كل مرة حوارات ونزاعات لاهبة.

وقد نجم عن سرورها بالنجاح في طلب الرزق وبالنشاط الجم أن انضم إلى دائرة مديريها عدةُ تجار يهود ممن اتصفوا بالجشع والمساومة. اللاكلل والاكتراث المستمر لدى هؤلاء الناس، الذين كانوا يترددون عليها في أغلب الأحيان ويحطون أحمالهم الثقيلة عندها ويخرجون أكياس نقودهم الممتلئة من ملابس رثة ثم يودعونها عندها دونما تبادل أي كلمة أو وثيقة مكتوبة، طيبةُ قلبهم المستساغة وتواضعهم الفضولي إلى جانب الدهاء المنفر في المفاصلة والمساومة، تقاليدُهم الدينية المتشددة وأصولُهم التوراتية وحتى موقفهم المعادي من المسيحية وخطايا آبائهم الأولين، كل ذلك كان من شأنه أن جعل هؤلاء الناس المعذبين كثيراً والمحتقرين عبر تاريخهم مثيرين للاهتمام إلى أقصى حد ومرغوباً فيهم في نظر السيدة الطيبة، وذلك حين كانوا يحضرون في اللقاءات الجماعية المسائية ويعدون القهوة حول موقد السيدة مارغريت أو يشوون سمكة في فرنها. وإذا ما عمدت السيدات المسيحيات الورعات إلى تعبيرهم برقة بأن اليهود لم يمضِ بعد وقت طويل على كونهم أناساً شاذين وغريبي الأطوار، إذ كانوا يخطفون الأطفال المسيحيين ويقتلونهم ويلقون السم في آبار المياه، أو إذا ما زعمت مارغريت أن اليهودي الأزلي أهاسفيروس كان بات ذات مرة قبل اثني عشر عاماً في مطعم الدب الأسود وقد راقبت هي بذاتها مدة ساعتين من الوقت أمام البيت لكي تشاهد رحيله لكن دون جدوى، لأنه كان سبق أن تابع تجواله قبل طلوع الفجر؛ إثر ذلك ابتسم اليهود الحاضرون بحسن طوية وبرقة محافظين بذلك على صفو مزاجهم.

ولكن بما أنهم كانوا يخشون الله أيضاً ولهم دين متبلور المعالم بحدة، فإنهم أولى بالانضمام إلى هذه الجماعة من شخصين آخرين ظُن أنهما في المكان الصحيح بينما وجب البحث عنهما في مكان آخر غير هذا، ومع ذلك فقد بدا أنهما بمثابة نوع من الملح الذي لا بد منه لهذا المزيج الغريب.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل السابع

متابعة الحديث عن السيدة مارغريت

كان هذان ملحدين مبينين. أحدهما، وهو نجار بسيط وقليل الكلام وكان صنع بضع مئات من التوابيت وسمّرها، كان رجلاً جريئاً وكان يؤكد من حين لآخر بكلمات جافة أنه لا يؤمن بوجود حياة أزلية ولا يريد أن يعرف شيئاً عن الله. أما في غير ذلك فلم يُسمع منه حديث نابٍ ولا كلمة ساخرة، كان يدخن بارتياح تام غليونه الصغير ويتحمل في أثناء ذلك مواعظ الهداية المستمرة التي كانت تنهال عليه من النساء الحاضرات. أما الرجل الآخر فكان خياطاً متقدماً في السن وذا شعر أشيب وقلب ماجن ولا فائدة منه وقد اقترف أكثر من مقلب مؤذ نتيجة لعبثه ومجونه. وفي حين كان ذاك يتصرف بهدوء ومعاناة ونادراً ما يجهر بعقيدته الهزيلة، كان هذا يتبع أسلوباً عدوانياً في تصرفاته ويجد متعة كبيرة في جرح مشاعر النفوس المؤمنة وتخويفها بالتشكيك الفظ والإنكارات والمزاح الخشن والتدنيسات كما يجد متعة أيضاً، باعتباره مكاراً حقيقياً، في إفساد الكلمة الساذجة وطلبها بكثافة بروح الدعابة وإثارة الرغبة الآثمة في الضحك لدى الناس المساكين. لم يمتلك عقلاً كبيراً ولا براً وإحساناً لأي شيء، حتى للطبيعة، وقد بدا أن له حاجة شخصية وحيدة هي إنكار وجود الله أو تغييبه، بينما لم يكترث النجار كثيراً لهذا الأمر وحين كان ينفتح في الكلام كان يتحدث بدلاً من ذلك عن أنه كان تأمل العالم بدقة في أثناء سني ترحاله وسعى باستمرار إلى تحصيل المعرفة وأجاد

التحدث بكل ولع عن كثير من الأشياء العجيبة. أما النجار فقد اقتصر إعجابه على المكايد وغرائب الحديث والنزاعات الصاخبة مع النساء الشغوفات وكان تصرفه مع اليهود، في مقابل تصرف صانع التوابيت، مميزاً. وفي حين اتسم سلوك هذا معهم باللطف والتودد، كما مع أنداده، كان الخياط يتحرش بهم ويعذبهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ويلاحقهم وهو متسلح بتعالٍ مسيحي بكل النكات المبتذلة المتداولة والمتوفرة لديه عن اليهود إلى أن يستاء هؤلاء المغضوب عليهم ويغادروا الجماعة. والسيدة مارغريت اعتادت في هذه الحالة على أن ينفد صبرها فتطرد ذلك الشيطان اللعين من بيتها، ولكنه سرعان ما كان يعود ويتقبله الحاضرون حين يتوخى الحذر في البدء بأحاديثه القديمة ويستخدم كلمات واضحة ومهذبة. لقد بدا أمره كما لو أن الرفاق صناع الأحاديث والحوارات كانوا بحاجة إليه باعتباره مثالاً نموذجياً للإلحاد، على حد ما فهموه، لأنه كان فعلاً ذلك النموذج في نهاية المطاف أيضاً، إذ برهن بكل وضوح عن محاولته قمع فكرة الله والخلود فحصرها وضيق عليها الخناق في ممارسة تافهة ولا فائدة منها، في حين كان النجار يمسح بالفأرة بهدوء وبدون منازع تابوته الأخير الذي خصصه لنفسه، شأنه شأن تابوته الأول فيما مضى.

من هذا النوع كانت تلك اللقاءات، التي تمت في أمسيات كثيرة ولا سيما في فصل الشتاء في بيت السيدة مارغريت ولا أعرف كيف حصل أن وجدتُ نفسي فجأة في أغلب الأيام في ذلك القبو المسلي في وسط الناس العاملين فيه وفي المساء جالساً بالقرب من قدمي السيدة، التي كانت منحتني حظوة كبيرة. كنت أمتاز بانتباهي الكبير لدى سرد أغرب الحكايات عن هذا العالم وأروعها. أما المواضيع الدينية والأخلاقية وتحليلاتها فلم أكن بالطبع قادراً بعد على فهمها في السنين الأولى مع أنها كانت في الأغلب ساذجة بقدر كاف، ولكنها لم تستهلك آنذاك أيضاً وقتاً أكثر مما ينبغي لأن الجماعة كانت سرعان ما تنتقل إلى مجال الأحداث والخبرات الحسية فتتحول بذلك إلى نوع

من المواضيع الطبيعة – الفلسفية إذ كنت أنا أيضاً ضليعاً في ذلك. كان الملتقون يحاولون على أفضل وجه إيجاد قرينة حية بين ظواهر عالم الأرواح مثل الشعور والحدس والأحلام وغير ذلك وكانوا يتوغلون بحس فضولي في الأماكن الخفية من السماء المنجمة وفي أعماق البحر والجبال قاذفات النيران التي سمعوا عنها وكل شيء أُرجع في نهاية المطاف إلى اعتبارات دينية. هنا قُرئت كتب عن عرافين وأنبئ عن سفرات عبر أجرام سماوية متعددة وأخبار مشابهة بعد أن كانت السيدة مرغريت قد نصحت بتأمين تلك الكتب، ثم نوقشت إثر ذلك ومُلئ الخيال بأكثر الأفكار جرأة على الإطلاق. ثم أضاف إلى ذلك واحد أو آخر من الحاضرين تقارير إخبارية في مجال العلم كما كان سمعها من خادم أحد الفلكيين وهي تحكي عن إمكانية رؤية كائنات حية على سطح القمر وسفن نارية في الشمس وذلك من خلال التلسكوب الذي كان في حوزة ذلك الفلكي. كانت مخيلة السيدة مارغريت هي الأكثر حيوية وقد تسرب كل شيء إلى لحمها ودمها. وتعوّدت أن تنهض مرات كثيرة من فراشها ليلاً وتنظر من النافذة لكي ترى ما يحدث في العالم المعتم والهادئ فكانت تكتشف باستمرار نجماً مشبوهاً تراءى لها منظره على غير العادة ونيزكاً أو شعاعاً أحمر وسرعان ما استطاعت إيجاد اسم لكل ما رأته. كل شيء كان عندها ذا أهمية ويعج بالحياة، إذا ما ظهرت أشعة الشمس في كأس من الماء وعبر الكأس على الطاولة الملمعة فقد كانت الألوان السبعة المتموجة عندها انعكاساً مباشراً للروائع التي ينبغي أن توجد في السماء وكانت تقول:" ألا ترون الورود والأكاليل الجميلة، الأسوجة الخضراء ومناديل الحرير الحمراء وهذه الأجراس الذهبية الصغيرة وهذه النوافير الفضية؟" وكلما ظهرت أشعة الشمس في الغرفة كانت تقوم بإجراء التجربة لكي ترى قليلاً في السماء، على حد رأيها. كان زوجها والخياط يسخران منها وأطلق عليها الأول تسمية بقرة خيالية. غير أنها كانت تقف على أرضية أكثر ثباتاً حين يدور الحديث عن ظهورات أشباح لأن لها في هذا المجال خبرات لا تنكر وقد

كلفها الحصول على هذه الخبرات جهداً وعرقاً، وكان جميع الآخرين تقريباً يعرفون الكثير عن هذا الجانب. ومنذ لم تخرج السيدة من بيتها فقد اقتصرت معايشاتها على أصوات دقٍّ وطرقٍ تعودت أن تسمعها في خزانات جدرانية قديمة وعلى تسلل شاة سوداء اللون في أرجاء الشارع أثناء الليل حين كانت تراقب المكان من النافذة عند منتصف الليل أو عند الفجر. وكان يحدث أيضاً أن تكتشف وجود قزم أمام باب البيت وكان هذا القزم في أثناء مراقبتها له بعينين حادتين ونقديتين ينمو مرتفعاً إلى الأعلى إلى أن يصل إلى ما تحت نافذتها، ولكنها لم تستطع أن تدق عنقه بل هربت إلى النوم. في مقابل ذلك كانت الأمور في مرحلة شبابها تسير بحيوية أكثر مما هي عليه الآن، حين كانت السيدة مرغريت ولا سيما إبان إقامتها في الريف تجول ليلاً ونهاراً عبر الحقول والغابات دون خوف أو وجل. حينها كان يمشي إلى جانبها لمسافة أشباحُ رجالٍ بلا رؤوس ويقتربون منها أكثر كلما صلَّت بحماسة أكبر، فلاحون جائلون كانوا يقفون في أراضيها آنذاك ويمدون أيديهم إليها مستعطفين متوسلين، أشباحُ مشنوقين كانوا يحدثون هسيساً لدى انحدارهم من أشجار صنوبر عالية ويصدرون عويلاً مخيفاً ثم يلحقون بها على أمل أن يقتربوا من المحيط الشافي لسيدة مسيحية مؤمنة، كانت مرغريت تصف بكلمات أخاذة الوضع المؤلم الذي انزلقت إليه حين لم تستطع أن تتخلى عن النظر جانباً إلى هؤلاء الصبية المخيفين بطرف عينيها في حين كانت تعرف تمام المعرفة أن ذلك شيء بالغ الأذى والضرر. وصادف أن تورم جسدها بضع مرات في الجانب الذي كان الأشباح يمرون من جهته واقتضى ذلك استدعاء الطبيب. وإضافة إلى كل ذلك فقد كانت تحكي عن أفانين السحر والفنون الشريرة التي كانت معروفة ومتداولة في أوساط الفلاحين في أثناء فترة شبابها، أي لدى نهاية القرن الماضي. في ذلك الحين كانت تقيم في موطن السيدة عائلات فلاحين قوية وجبارة وكان في حوزة هذه العائلات كتب وثنية قديمة تمكنها من ممارسة أسوأ أنواع العبث والمجون. وإذا كان في

مقدورهم أن يحدثوا بواسطة الحرق بشعلة مكشوفة ثقوباً في حزم من القش دون أن تتلف هذه الحزم، أو يعرفوا كيف يزيلون الماء من إناء كان تجمَّع فيه أو كيف يوجهون الدخان المتصاعد من المداخن في الاتجاه الذي يحلو لهم ويصنعون منه أشكالاً مرحة ومضحكة، فإن ذلك كله كان لا يزال يدخل في عداد الدعابات البريئة. ولكن كان من الفظاظة بمكان قتلهم البطيء لأعدائهم بدق ثلاثة مسامير من أجلهم في شجرة صفصاف تحت شعارات مناسبة (والد مرغريت عانى فترة طويلة تحت وطأة هذا التدبير الودّي إلى أن افتضح الأمر وتم إنقاذه بفضل رهبانٍ كبوشيين)، أو حرق محاصيل الحبوب لفقراء الناس وهي لا تزال في سنابلها لكي يهزؤوا بهم فيما بعد إذا ما غدوا عرضة للجوع أو عانوا العوز والشدة. صحيح أنه كان من بواعث ارتياح الناس أن يروا كيف يصب الشيطان بوفرة جام لعنته على هذا أو ذاك من هؤلاء حين يصبح ناضجاً لذلك، غير أن الحدث بحد ذاته كان من شأنه أن أفزع أولئك الناس المنصفين فلم ترحهم رؤية الثلج الملطخ بالدم والشعر المتناثر في أرجاء المكان بالشكل الذي شهدته الراوية وعلى حد روايتها. فلاحون كهؤلاء كانوا يمتلكون أموالاً كافية ويكيلها بعضهم لبعض في مناسبات الأعراس والجنائز بمكاييل كبيرة وبأحواض. كانت الاحتفالات بالأعراس آنذاك لا تزال في غاية الروعة. وعلى حد قول السيدة مارغريت فقد شهدت بالذات عرساً من هذا النوع إذ كان كل الضيوف، رجالاً ونساءً، على صهوات خيولهم وتجمّع هناك ما يقرب من مئة حصان. كانت النساء ترتدي تيجاناً من ذهب مزيف وثياباً حريرية مزدانة بقلائد من العملة الذهبية الأوروبية، دوكات، وملفوفة حول العنق ثلاث مرات أو أربعاً، كان الشيطان ممتطياً صهوة جواد بصحبتهم، ولكن بصورة خفية. وبعد طعام الليل كان العبث والفجور يصلان إلى أوجهما. هؤلاء الفلاحون كانوا يجدون في أثناء مجاعة كبيرة ألمت بالناس في السبعينيات دعابتهم الرئيسية في أن يدرسوا محاصيل الحبوب باثنتي عشرة درّاسة في مخازن غلال مفتوحة على مصاريعها ويدعوا إلى

جانب ذلك رجلاً أعمى يعزف على الكمان وهو جالس على قطعة كبيرة من الخبز، وبعد ذلك حين كان يتجمع عدد كاف من المتسولين الجائعين أمام مخازن الغلال، كان هؤلاء الفلاحون يسلّطون الكلاب الشرسة على جمع المتسولين العزّل. من الجدير بالملاحظة أن الخرافات الشعبية ذكرت أن هؤلاء المستبدين الأغنياء من أهالي الريف هم الأخلاف المتكاثرة المتقلّحة للسادة الطغاة القدماء أصحاب الحصون والبروج المنتشرة في أرجاء البلاد.

وكان ثمة مجال آخر ذو جدوى للزبائن المغامرين هو المذهب الكاثوليكي وحجرات أديرته المتروكة خاوية وتلك الأديرة النابضة بالحياة في المناطق المجاورة، التي ظلت كاثوليكية الانتماء. وقد أسهم في ذلك إلى حد كبير رهبان المنظمات الأخوية التابعة لتلك المناطق، ولا سيما الرهبان الكبوشيون الذين لا يزالون حتى يومنا هذا يشاركون الجلادين بكل مودة في ممارسة أعمال طرد الشيطان والأرواح الشريرة وأفانين اكتساب القلوب في أوساط الفلاحين المصلَحين المؤمنين بالخرافات. في بعض المناطق النائية من البلاد كان يسود آنذاك مذهب بروتستاني معدوم الوعي وغارق في الفساد، لم يتعال الفلاحون على اتباع المذهب الكاثوليكي من باب أنهم يتغاضون عن زلة أناس تعرضوا للتجهيل والاستغباء، بل شاركوهم بكل إخلاص في تصديق كل أساطيرهم وخرافاتهم. إلا أنهم عدّوا مضمونها ينطوي على شر ويستحق الرفض والإنكار. وبدلاً من أن يسخروا من المذهب الكاثوليكي فقد خافوا منه بقدر خوفهم من مسألةٍ وثنيةٍ رهيبة. وكما تعذر عليهم أن يتصوروا في رجل زنديق إنساناً لا يؤمن فعلاً في أعماقه بأي شيء، فقد تعذر عليهم أيضاً أن يظنوا في أحد من الناس إيماناً لا حدود له، لقد اقتصر معيارهم على اعتناق تلك الأمور مؤمنين بأنها منبثقة من الخير لا من الشر.

زوج السيدة مارغريت، الذي سماه الناس تحبباً الأب يعقوب الصغير وسمته زوجته "الأب" فحسب، كان يكبرها بخمسة عشر عاماً واقترب آنذاك من سن الثمانين، وكان يمتلك مقدرة على التخيل تضاهي مقدرة زوجته، لا

بل تعمقت ذكرياته أكثر منها وامتدت إلى عالم أساطير العهود الماضية، إلا أنه فهم كل شيء من زاوية تهريجية مرحة ما دام قد كان منذ القدم رجيلاً مرحاً ويكاد أن يكون لا نفع له، وعلى هذا النحو كان يحكي كثيراً من الحكايات الخرافية المضحكة وقصص البشر المحرّفة بقدر ما كانت زوجته تحكي قصصاً جدية ومخيفة. كانت فترة شبابه الأولى تزامنت مع المحاكمات الأخيرة للساحرات وكان يصف بروح مرحة حفلات الساحرات والولائم المستقاة من التداول الشفوي وذلك بنفس الدقة كما كانت لا تزال تُقرأ في قصص تلك المحاكمات المطابقة للوثائق وفي الدعاوى المستفيضة والاعترافات بالإكراه. كان هذا المجال يروق له بصورة خاصة، وكان يؤكد بكل جدية لدى حديثه عن بعض الأشخاص العجيبين أنهم يفهمون كيف يمتطون قضيب المكنسة، وكان يعد أيضاً من يوم لآخر طول حياته بأن يجلب من أحد أصحابه من السحرة والمشعوذين ذلك المرهم الذي تدهن به المكانس لكي يمكن لدى الامتطاء عليها السفر من مداخن البيوت. كنت باستمرار أهلل أيما تهليل لتلك الحكايات ولا سيما حين كان يلون لي السفرة المزمع القيام بها بمناظر مرحة ومسلية في طقس جميل حيث أجلس أنا بعد ذلك على الجهة الأمامية من قضيب المكنسة وهو يثبتني في مكاني. كان يسمي لي من بين الأشجار التي يعرفها على طريق سفرتنا شجرة كرز جميلة على علوٍ ما أو شجرة خوخ وارفة الظلال وملائمة لقضاء استراحة تحتها وتناول شيء من الطعام أو صنف لذيذ من توت الأرض موجود في هذه الغابة أو تلك حيث يتمتع هناك بكل بساطة باللذيذ من الطعام في حين تُربط المكنسة بشجرة صنوبر. أردنا أن نزور المهرجانات الشعبية المجاورة التي تقام في كل سنة ونقتحم مختلف أكشاك العجائب من دون تذاكر دخول وذلك عبر الأسطحة. ولدى قس صديق في إحدى القرى كان علينا بالطبع، إذا ما أردنا أن نقضم على وجه آخر شيئاً من نقانقه الشهيرة، أن نخبئ المكنسة في الغابة ونتظاهر بأننا أتينا إلى السيد القس في هذا الطقس الجميل مشياً على الأقدام لكي نغزوه

قليلاً، بينما كان علينا لدى إحدى الساحرات، وكانت صاحبة مطعم ميسورة الحال في قرية أخرى، أن نسافر بطريقة وقحة إلى داخل المدخنة لكي نرى عندها طبقاً لتصوراتها السخيفة اثنين من السحرة الناشئين الواعدين فتسارع بلا أي تحفظ إلى تقديم ضيافة رائعة لنا مكونة من كعك بالبيض وشحم الخنزير إضافة إلى عسل طازج. بدهي أننا كنا نستمتع في أثناء السفر برؤية أعشاش عصافير نادرة على أشجار وصخور عالية ونختار أكثر الطيور الصغيرة لياقة وصلاحية. وباستمرار كان لدى الأب يعقوب الصغير معلومة حول كيفية الشروع في أي عمل دونما توقع أي أضرار أو إخفاقات وكان لديه أيضاً الصيغة اللازمة لحرمان الشيطان من نصيبه بعد الانتهاء من المسرة الناجمة عن كل مشروع.

وفي عالم الأشباح كان له باع طويل أيضاً، ولكنه كان يقلب في هذا المجال كذلك كل شيء إلى حال من الدعابة والمرح. والخوف، الذي كان ينتابه في أثناء قيامه بمغامراته، كان مضحكاً إلى أقصى حد وكان ينتهي في أغلب الحالات بمقلب ماكر كان أعده ضد الأرواح الشريرة المعادية.

على هذا النحو كمّل الأب يعقوب الصغير ببراعة طبيعة شخصية زوجته ذات الخيال الجامح، وبذلك أتيح لي أن أغرف مباشرة من رأس النبع ما لا يتسنّى لأبناء المثقفين في ظروف أخرى من معلومات إلا من بعض كتب الخرافات والأساطير. إذا لم يكن موضوع هذا النسيج الخرافي بريئاً كما هي الحال في هذه الكتب ولم يدخل في عداد الأخلاقيات الطفولية البريئة، فإنه مع ذلك كان يحتوي دائماً على حقيقة إنسانية ويسفر بالطبع، خصوصاً أن ينبوعاً غنياً في مجموعة الأدوات المتنوعة لدى السيدة مارغريت كان من شأنه أن أكمل الرؤية الحسية لهذه الخرافات، عن شيء من النضج المبكر في قدرتي على التخيل وعلى تلقيها انطباعات قوية كما كان الأطفال مثلاً يُعوَّدون في الأوساط الشعبية في وقت مبكر على تناول المشروبات القوية الخاصة بالكبار. فما كنت أسمعه لم يقتصر على هذا العالم الخرافي فوق الحسي فحسب، بل كان

الناس يتحدثون أيضاً بأكثر الأساليب ولعاً وانجرافاً عن مصايرهم ومصاير غيرهم، وبصورة رئيسية كانت الحياة الطويلة للسيدة مارغريت ولزوجها غنية بالقصص الجدية والمرحة وبأمثلة عن العدالة والظلم والخطر والعوز والتورط والتحرر، وكانا رأيا الجوع والحرب والثورة والتمرد، ولكن العلاقة بينهما كانت متأججة العاطفة إلى حد بعيد وقد أظهرت ما كمن فيها من قوى شيطانية متأصلة في الطبيعة الإنسانية إلى حد أنني كنت أنظر إلى اللهب المتأجج بعين طفولية مندهشة وأتلقى جراء ذلك انطباعات عميقة.

في حين كانت السيدة مارغريت هي القوة المحركة لأعمال بيتها والمحافظة عليه وفي حين كانت أرست أسس الرفاهية الحالية وكانت تمسك في كل وقت بزمام الأمور، كان زوجها واحداً من أولئك الذين لم يستطيعوا أن يتعلموا أو أن يفعلوا أي شيء انطلاقاً من ذاتهم فغدوا لهذا السبب معتمدين اعتماداً كلياً على كون الواحد منهم معيناً لزوجة قوية وحازمة يعيش تحت لواء سلطتها حياة غير مشرفة قائمة على البطالة والتنبلة. فحين عملت الزوجة، ولا سيما في السنوات الأولى، على تكويم الذهب بكل معنى الكلمة عن طريق استخدام جريء للأحداث المتسلسلة ومباغتات مبتكرة عديدة، كان زوجها يؤدي دور عفريت خدوم في البيت وإذا ما أنجز في كل مرة أعمالاً يدوية كان يستمتع بما تعطيه زوجته ويتلقى ذلك بدعابة سرَّت الجميع. وكان من شأن افتقاره إلى حسن التدبير والأمانة ومن شأن تجربة زوجته في أنها لم تجد فيه يوماً سنداً قوياً في أوضاع حرجة أن جعلاها تتجاهل إنجازاته الأخرى وفسرا كذلك الطريقة المتحررة من كل القيود، التي حرمته بموجبها بلا مبالاة من مشاركتها في الهيمنة على خزنة المال. استمر الوضع على هذا النحو فترة طويلة دون أن يضمر أحد منهما للآخر سوء نية إلى أن أخذ بعض الوشاة، من بينهم ذلك الخياط المولع بالمكايد، يعيِّرون الزوج بذل وضعه ويحرضونه على أن يطالب أخيراً بتقسيم الثروة وبمشاركته التامة فيها.

وما لبث أن انتفخت أوداجه وهدد السيدة المذهولة بالمحاكم، يؤازره الناصحون الأشرار، إن لم تعطه حصته من ثروة "الكسب المشترك". أحست السيدة آنذاك أن الأمر يتعلق بعملية سطو وحشي أكثر منه بإحقاق حق، وقاومت ذلك بكل ما أوتيت من قوة خصوصاً أنها كانت تعلم علم اليقين أنها ستظل الطاقة الوحيدة الفاعلة والمبقية على كيان الأسرة. ولكن القوانين كانت ضدها إذ تعذر عليها معالجة موضوع الفصل بين الأطراف المساهمة في تجميع الثروة إضافة إلى أن الزوج تظاهر، مستخدماً كل ما أمكن من الشكاوى والذرائع، بأنه يريد الانفصال عن زوجته بعد اقتسام الثروة فترتب على ذلك أنها غدت خائرة القوى ومغلوبة على أمرها ومريضة وشبه غائبة عن الوعي إلى أن استسلمت للأمر وتخلت له عن نصف ما ملكت. إثر ذلك خبأ قطعه الذهبية اللامعة في كيس وخاط فتحته ثم وضعه في حقيبة وثبتها في الأرض بمسامير وجلس فوقها محبطاً بذلك خطط أعوانه الذين كانوا علقوا آمالاً كبيرة على تلقف نصيب من ذهبه. ثم استمر في العيش لدى زوجته وعلى نفقتها ولم يمد يده إلى كنزه إلا بقصد تلبية رغباته وهواياته الخاصة. أما هي فقد تخطت الأزمة بعد فترة من الزمن وعوضت خسارتها بإكمال كنزها من الذهب بل ضاعفته على مر السنين، غير أن الأمر الوحيد، الذي شغل بالها وأرَّقها منذ يوم تقسيم الثروة، تمثل في كيفية حصولها من جديد على ما انتزع منها من مال ولم يكن ذلك ممكناً إلا بموت زوجها. لذلك شعرت في كل مرة بوخزة دامية في صميم القلب حين كان يُخرج من كيسه قطعة من الذهب لكي يبدلها وانتظرت بفارغ الصبر لحظة موته. وهو بدوره انتظر أيضاً بكل إلحاح وأمل لحظة موتها لكي يصبح بعد ذلك سيد ثروتها كلها وصاحبها ويمضي بقية حياته الطويلة باستقلال تام وسيادة غير ناقصة. هذه العلاقة الفظيعة لم تكن بالطبع تخطر على بال الناس من أول نظرة، ذلك لأنهما كانا يعيشان معاً كزوجين طيبين مسنين وكانا يسمي بعضهما بعضاً باستمرار الأب والأم. مارغريت على وجه الخصوص ظلت إزاءه في كل

التفاصيل تلك الزوجة الطيبة والكريمة كما كانت من قبل وربما لم تكن تستطيع العيش يوماً واحداً من دون رفيق حياتها ذي الأربعين عاماً من العمر ومجونه المفعم بالدعابة والمرح، وهو أيضاً كان من وقت لآخر مرتاحاً معها وكان يهتم بطريقة اعتمدت على المزاح والمرح بمشاغل المطبخ في حين أطلقت هي العنان، بمعية رفاقها المفتونين، للخيال المزدحم بالتصورات الأسطورية والخرافات.

ولكن في كل فصل من فصول السنة إذا ما حل مرة وإذا ما حدثت في الطبيعة تلك التغيرات الكبيرة مذكرة كبار السن من الناس بقابلية حياتهم للفناء السريع وإذا ما غدت عاهاتهم الجسدية أكثر وضوحاً ومحسوسية، كان ينشب بينهما في معظم الأحيان في ليال سوداء ومؤرقة نزاع مخيف إلى حد أنهما كانا يجلسان منتصبي القامة في سريرهما الواسع وقديم الطراز تحت سقف مزدان بالألوان حتى مطلع الفجر والنوافذ مفتوحة على مصاريعها ويتراشقان الإهانات والشتائم بحيث ترددت أصداء ذلك على اتساع الأزقة الهادئة. واتهم بعضهما بعضاً بجرائر وخطايا منسوبة إلى فترة الشباب البعيدة في الماضي وممارساتها الشهوانية ثم عرجا عبر الليل الصامت على ذكر أحداث كانت وقعت قبل منعطف هذا القرن بزمن طويل في ربوع جبال وحقول حيث إما نمت منذ ذلك الحين غابات كثيفة كاملة أو زالت من الوجود، وحيث كان المشاركون في تلك الأحداث تعفنوا في قبورهم منذ فترة طويلة.

بعد ذلك كانا يسائلان أنفسهما عن السبب في اعتقاد كل منهما أنه سيعيش أطول من الآخر وكانا يقعان بعد ذلك في منافسة بائسة على من منهما سوف ينعم بالارتياح بأن يرى الآخر ميتاً أمامه.

وإذا ما أتى في اليوم التالي أحد الناس إلى بيتهما، كانا يتابعان المشاجرة الفظيعة بحضور الشخص الآتي، سواء أكان غريباً عنهما أم من أصحابهما، إلى أن تنتاب الزوجةَ حالةٌ من الإعياء فتبكي وتصلي في حين يبدو الزوج أكثر سروراً ويبدأ يصفر ألحاناً مرحة ويصنع كعكاً بالبيض

ويدمدم في أثناء ذلك باستمرار كلاماً سخيفاً وثرثرة فارغة. على هذا النحو كان يقضي صباحاً كاملاً لا ينبس في أثنائه ببنت شفة إلا قوله دائماً: "لا أعرف، أظن باستمرار أن المرأة العجوز التي هناك قامت بنزهة خيَّالة في صباح هذا اليوم الباكر! وكانت البارحة اشترت مكنسة جديدة! فقد رأيت شيئاً من هذا القبيل يرفرف في الهواء وكان شكله قريب الشبه من تنورتها الحمراء، أمر غريب! همّ! واحد وخمسون" الخ. كان تصرفه هذا ينم عن سوء نية إذ كان يعرف أنه مصدر معاناة مضاعفة لزوجته؛ فسريرتها لم تنطو على خبث أو مجون لكي تتابع العراك معه على هذا النحو، لكن إلحاق الأذى بالآخر تجلى في هذه الحالة عادةً في كرم مبذِّر، إذ كانا يهديان كل شيء يمران بجانبه كما لو أن كل واحد منهما كان يريد على مرأى من الآخر أن يعبث بالملكية التي تصبو إليها نفس خصمه.

لم يكن الزوج رجلاً ملحداً بالضبط بل عدّ الله، انطلاقاً من إيمانه به وبسمائه بقدر إيمانه العجيب بالأشباح والساحرات، رجلاً طيباً ولم يفكر البتة بالانشغال بالتعاليم الأخلاقية المنبثقة عن هذا الإيمان، كان يأكل ويشرب ويضحك ويسب ويصنع نوادره الغريبة دون أن يتوق إلى التوفيق بين حياته وبين مبدأ أكثر جدية. والزوجة كذلك لم يخطر في بالها أبداً أن تكون أحاسيسها الجارفة متناقضة مع السلوك الديني وكانت تتميز من مريداتها المحتفيات معها بالأعياد الدينية والمتمتعات معها بأطيب الأطعمة بأنها لم تلجم يوماً التعبير الذي كان يحركها بل أطلقت له العنان باستمرار. كانت تحب وتكره، تبارك وتلعن، وتستسلم بوضوح وحرية لكل خلجات النفس والعاطفة دون أن تفكر في يوم من الأيام بذنب لها قد يكون وارداً في الحسبان معتمدة في ذلك من دون ارتباك أو وجل على الله وعلى نفوذه القوي.

كل نصف من هذا الكيان الزوجي كان له أقارب كثيرون ينتشرون على مدى اتساع البلاد ويعانون فقر الدم. هذه القرابة اقتسمت فيما بينها الآمال المعلقة بالميراث الضخم، خصوصاً أن السيدة مارغريت – نتيجة لنفورها

ممن يبقون فقراء إلى درجة يتعذر معها تحسين الأحوال – لم تَجُد على هؤلاء الأقارب إلا بجزء يسير مما يفيض عن احتياجاتها ولم تستضفهم للأكل والشرب إلا في أيام العطل. حينئذ كان يأتي من كلا الجانبين أولاً العم وبنات العم والأخوات والأصهار، ممن تقدموا في العمر، ومعهم بناتهم الجائعات وطويلات الأنوف وأولادهم شاحبو اللون وهم يحملون الأكياس الصغيرة والسلال المحتوية على هدايا فقرهم المتواضعة بقصد كسب الزوجين العجوزين المزاجيين لمصلحتهم أملاً في أن يعودا إلى بيوتهم وقد امتلأت أكياسهم وسلالهم بالمقابل هدايا أكثر ثمناً وقيمة. هؤلاء الأقارب انقسموا بحدة وفظاظة فيما تعلق بالنزاع السائد بين الشخصين الرئيسيين إلى معسكرين، كان كل منهما كذلك يعلق آمالاً كبيرة على موت أبكر للخصم لكي يحصل على إرث أكبر. كل معسكر كان يكره ويعادي الآخر إلى درجة وصلت في قوتها وانجرافها إلى مستوى الكره والعداء بين مارغريت وزوجها، وفي كل مرة، بعد أن كانت الجماعة الغفيرة قد شبعت ودفئت من وفرة الطعام والشراب المقدم إليها وبعد أن كان الغرور قد أزال التكلف الأولي، كانت تنشب مشاجرة قوية بين الطرفين بحيث يأخذ الرجال يرشقون شرائح فخذ الخنزير المتبقية قبل أن يتمكنوا من دسها في أكياسهم باتجاه وجوههم بعضهم لبعض وتتبادل النسوة الفقيرات ذوات الأنوف الشاحبة المدببة المسبات والشتائم وجهاً لوجه، ويحملن معهن إلى بيوتهن فوق المعدة المتخمة قلباً مليئاً بالحسد والغيظ. كان الشرر يتطاير من عيونهن تحت قبعات يوم الأحد المفتقرات إلى الزينة والنظافة حين كن يخرجن بخطوات طويلة، وهن متأبطات الصرَّات الممتلئة، من بوابة السيدة مارغريت وينفصل بعضهن عن بعض على مفترق طرق وهن حانقات غاضبات ثم يسارعن إلى الوصول إلى الأكواخ النائية.

انقضت سنون كثيرة على هذا النحو إلى أن بدأت السيدة المسنة مارغريت مسيرة الموت والانتقال من ثمّ إلى تلك المملكة الخرافية التي تعج

بالأرواح والأشباح. وخلفت وراءها وصية غير متوقعة، إذ اختارت شاباً واحداً وريثاً وحيداً لها، كان ذلك الشاب هو آخر أولئك المقربين لها وأصغرهم سناً ممن كانت تسر بسلاستهم ويسرهم أيما سرور وقد ماتت وهي على اقتناع بأن ذهبها لن ينتقل إلى أيد غير نظيفة بل سوف يشكل القوة والرغبة لأناس مهرة. حين دُفنت جثتها حضر تلك المناسبة جميع أقارب الزوجين، وحالما أخطأ ظنهم في مسألة الميراث عم عويلهم وضجيجهم في كل أرجاء المكان. ووحدهم جميعاً حنقهم المشترك على الوريث السعيد، الذي حزم بكل هدوء متاعه، كثرت فائدته أو قلت، وحمَّله على عربة كبيرة. ولم يترك شيئاً للناس الفقراء إلا ما كان موجوداً سابقاً من مؤن غذائية وما كان تجمع على مر السنين من كتب المرحومة وتحفها النادرة ما دامت لا تحتوي على ذهب أو فضة أو غير ذلك. وبقي الجمع الغفير النائح المولول في البيت الحزين ثلاثة أيام بلياليها إلى أن كسر آخر عظم وغمس نقيه بآخر كسرة خبز. بعد ذلك تفرقوا بالتدريج، كل واحد كان يحمل معه التذكار الذي كان غنمه من قبل. أحدهم كان يحمل على كتفه رزمة من كتب الملحدين والوثنيين مربوطة بخيط قوي ومشدودة بقطعة من الخشب وتحت إبطه كيس صغير من الخوخ المجفف، وآخر كان يعلق صورة للعذراء في عصاه على ظهره ويرجّح على رأسه ببراعة صندوقاً خشبياً منحوتاً بمهارة فنية نادرة ومليئاً بالبطاطا في كل دروجه. وعذارى طويلات نحيلات كن يحملن سلالاً مصنوعة من قضبان الصفصاف، مزينة وقديمة الطراز، وعلباً ملونة مليئة كلها بأزهار صناعية ومتاع زخرفي مصفر اللون، وأطفال كانوا يجرون تماثيل ملائكة مصنوعة من الشمع أو يحملون جراراً صينية الطراز، وكان المنظر شبيهاً بمنظر جماعة من محطمي الصور الدينية آتين من كنيسة مدمرة، ولكن كل واحد كان يفكر بالاحتفاظ بغنيمته بصفتها تذكاراً قيِّماً من المرحومة لكي يتذكر بذلك أخيراً ما نعم به من خيرها، ثم سلك كل واحد طريقه والحزن يلفه من كل جانب في حين كان الوريث الرئيسي يمشي إلى

جانب عربته، وما كان منه إلا أن توقف فجأة واخذ يمعن التفكير في أمر ما ثم باع الحمل كله تاجرَ خردة ولم يحتفظ حتى بمسمار واحد. وذهب بعد ذلك إلى صائغ وباعه قطع الذهب التذكارية والكؤوس والقلائد ثم خرج أخيراً بخطى ثابتة قوية من البوابة دون أن يلتفت إلى الوراء وهو يحمل محفظة نقوده المنتفخة وعصاه، وبدا عليه السرور العارم بحل مسألة كانت مزعجة وطويلة الأمد.

ولكن في البيت بقي الرجل العجوز وحيداً ومعزولاً عن الناس وبقيت معه كمية من المال من نصيبيه جراء تقاسم الثروة سابقاً بينه وبين زوجته الراحلة. كانت هذه الكمية تتناقص باستمرار مع مر الزمن. عاش بعدها ثلاثة أعوام وتوفي تماماً في اليوم الذي استوجب تبديل آخر قطعة ذهبية كانت في حوزته. حتى ذلك الحين كان يقضي وقته في عقد النية وتخيل كيف سيُملّ زوجته حين يلتقيان في الدار الآخرة وحين "تجر هي أذيالها بأفكارها المجنونة" وأية مقالب سوف يعدها لها فيما يتعلق بالحواريين الأنبياء بحيث يشكل ذلك مادة لضحك الرفاق السابقين وهرجهم ومرجهم. وكان يتذكر بعض الموتى من أصحابه ويسره أيما سرور إعادة إحياء المجون المتقادم حين لقائه بهم في الدار الآخرة. كنت أسمعه باستمرار يتحدث عن الحياة الآتية بطريقة مرحة كهذه فحسب. الآن أصيب بالعمى وبلغ من العمر تسعين عاماً، وإذا ما ألمت به الأوجاع والكآبة والضعف وغدا حزيناً وشاكياً لم يكن يتحدث عن هذه الأمور بل كان يصرخ باستمرار قائلاً إن على المرء أن يقتل الناس قبل أن يطول عمرهم ويصبحوا تعساء إلى هذا الحد.

وأخيراً انطفأ مثل ضوء استنفد آخر قطرات زيته، منسياً من العالم، وأنا بصفتي إنساناً ناشئاً ربما كنت الوحيد من أصحاب أيام سابقة لحق ببقية الرماد الصغيرة المتداعية إلى القبر.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثامن

جرائم الأطفال

على غرار الجوقة في مسرحيات القدامى راقبت منذ نعومة أظفاري الحياة والأحداث في هذا البيت المجاور وكنت أذهب في جميع الأوقات مشاركاً متنبهاً. كنت أذهب من حين لآخر إلى هناك وأجلس في إحدى الزوايا أو أقف بين المتاجرين ومحدثي الضجيج إذا ما حدث شيء ما. كنت أخرج الكتب من مكانها وأطلب ما أحتاج إليه من الروائع أو ألعب بمجوهرات السيدة مارغريت. كل الأشخاص الذين كانوا يأتون إلى ذلك البيت على مختلف تنوعاتهم كانوا يعرفونني ويتحببون إلي ما دام ذلك يرضي من كانت حاميتي. لم أكن كثير الكلام، ولكنني كنت حريصاً أشد الحرص على ألا يغيب عن عيني ولا عن أذني أي شيء مما كان يحدث. بعد ذلك كنت أعود عبر الزقاق إلى البيت وأنا محمَّل بكل هذه الانطباعات فأغزل في هدوء حجرتنا وصمتها المادة لأنسجة كبيرة حالمة وكان من شأن الخيال المنفعل أن حدد لها التوجه المطلوب. وهذه الأنسجة الحالمة انضفرت عندي مع الحياة الواقعية إلى حدّ أنني لم أستطع الفصل بينهما.

ومن ذلك فقط ربما أستطيع أن أفسر فيما أفسر قصة كنت تسببت بها وأنا في السابعة من عمري، وإلا لكان تعذر عليّ فهمها وتسويغها. فقد كنت أجلس ذات مرة خلف الطاولة منهمكاً بالانشغال بلعبة ما وكان يصدر مني في أثناء ذلك على غير هدى بعض الكلمات البذيئة والفظة إلى أبعد حد، التي لم

أكن أعرف معناها وربما سمعتها ذات مرة في الشارع. كانت ثمة امرأة تجلس بجانب أمي وتتجاذب معها أطراف الحديث حين سمعت كلماتي ولفتت انتباه الأم إلى ذلك. فسألتاني بجد عمن علمني هذه الأشياء، والسيدة الغريبة بوجه خاص توغلت في أعماقي لحظة ممعنة في الشرود والتفكير، مما أثار دهشتي واستغرابي، ثم ذكرت اسم صبي كنت أراه في المدرسة. وعلى الفور أضفتُ اسمين أو ثلاثة أسماء، كلهم فتيان من اثني عشر إلى ثلاثة عشر عاماً من العمر، ممن لم يصادف أن تكلمت معهم ولو كلمة واحدة. بعد ذلك ببضعة أيام استبقاني المعلم وسط استغرابي الشديد عنده بعد انتهاء الدروس كما استبقى أيضاً أولئك الصبيان الأربعة الذين ذكرت أسماءهم في بيتنا؛ وقد بدا لي هؤلاء كأنصاف رجال لأنهم كانوا متقدمين عليّ تقدماً بعيداً في العمر وطول القامة. ثم حضر قسيس كان يعطي عادة دروس الديانة في مدرستنا ويديرها فيما عدا ذلك؛ جلس هذا مع المعلم إلى طاولة وأمرني بالجلوس إلى جانبه. بينما كان على الصبية أن يقفوا أمام الطاولة في صف واحد وينتظروا ما سيأتي من أمور. وهنا سئلوا بنبرة جادة مهيبة عما إذا سبق لهم أن نطقوا بحضوري كلمات معينة، فلم يعرفوا ماذا يجيبون واعترتهم دهشة كبيرة. إثر ذلك قال لي القسيس: "أين سمعت الأقوال سالفة الذكر من هؤلاء الصبية؟" وما هي إلاّ أن استعدت همتي ونشاطي فأجبت فوراً إجابة جازمة دونما إبطاء: "في غابة الإخوة!". إنها غابة بعيدة عن المدينة مسافة ساعة من الزمن، صحيح أنني لم أكن هناك قط في يوم من الأيام، إلا أنني سمعت اسم هذه الغابة يتردد غالباً في أفواه الناس. سُئلت أيضاً: "كيف حدث ذلك وكيف أتيتم إلى هناك؟" فحكيت كيف أقنعني الصبيان ذات يوم بالذهاب معهم إلى نزهة مشياً على الأقدام وأخذوني برفقتهم إلى الغابة ثم وصفتُ بالتفصيل كيف يأخذ معهم صبيان أكبر سناً صبياً أصغر منهم في السن إلى تجوال عابث. استشاط المتهمون غضباً وأكدوا وهم يبكون أن منهم من لم يكن في تلك الغابة منذ فترة طويلة ومنهم من لم تطأها قدماه أبداً، ناهيك عن مرافقتي إلى هناك! في

أثناء ذلك كانوا يرمقونني بنظرة حقد مخيفة كما لو كانوا ينظرون إلى أفعى شريرة، وأرادوا أن ينهالوا عليَّ بالاتهامات والأسئلة إلا أنهم أُمروا بالهدوء في حين طُلب مني أنا تحديد الطريق التي قادتنا إلى الغابة. وفي الحال تراءت تلك الطريق أمام عينيَّ بكل وضوح، وبتشجيع من التناقض والإنكار الكامنين في خرافة آمنت بها الآن أنا نفسي، وإلا كان تعذر عليّ فيما عدا ذلك أن أفسر بأي طريقة من الطرق القيام الفعلي للمشهد الحالي، قمت بتحديد الطريق والممر المؤديين إلى ذلك المكان. لم أكن أعرف المكان المذكور إلا مما سمعته بشكل عابر وخاطف من أقوال الناس وعلى الرغم من أنني لم أنتبه على ذلك إلا أن كل كلمة كان لها حضورها في الوقت المناسب. حكيت أيضاً كيف كنا في طريقنا إلى هناك نُسقط جوزات من أشجار الجوز وكيف كنا نوقد ناراً ونشوي بها حبات من بطاطا مسروقة ثم انهلنا بضرب مبرح على ابن أحد الفلاحين حين حاول منعنا مما كنا نفعل. وحين وصلنا إلى الغابة تسلق زملائي شجرات عالية من الصنوبر وأخذوا يهتفون في الأعالي معرجين بذلك على ذكر القسيس والمعلم بألقاب ساخرة وكلمات نابية. كنت فيما سبق اختلقت هذه الألقاب الساخرة بيني وبين نفسي اعتماداً على إمعان التفكير في مظهر الرجلين وتحليل شخصيتيهما، ولكنني لم أعلن ذلك أبداً من قبل. أما في هذه المناسبة فقد أفصحت عنها كما عن غيرها فكان غضب السيدين كبيراً بقدر دهشة الصبيان الماثلين أمام المستجوبين واستغرابهم. وبعد أن نزل هؤلاء الصبيةُ من على الأشجار أقدموا على قطع عصي كبيرة وطلبوا مني أن أتسلق أنا أيضاً شجرة صغيرة وأردد الألقاب الساخرة من عل. وما إن رفضت حتى ربطوني إلى إحدى الشجرات وأوسعوني ضرباً بالسياط إلى أن تلفظت بكل ما طلبوا مني بما في ذلك تلك الكلمات النابية إياها. وحين صرخت مستغيثاً، فروا متسللين من وراء ظهري؛ في اللحظة ذاتها اقترب مني أحد الفلاحين وكان سمع كلماتي البذيئة فشد أذني وصرخ بي قائلاً: "انتظروا أيها الصبيان الأشرار! لقد قبضت على هذا، الذي هو

واحد منكم!" ثم انهال على ضرباً وشتماً. ثم ذهب في حال سبيله أيضاً وتركني في مكاني حيث أنا وكان قد حل الظلام. بذلتُ جهداً كبيراً لكي أفك نفسي وأتحرر من القيد ثم بدأت أبحث في الغابة المظلمة عن طريق العودة إلى البيت، ولكنني ضللت طريقي وزلت قدمي فسقطت في جدول ماء عميق وصرت أسبح فيه تارة وأخوض في الماء تارة أخرى إلى أن انتهت الغابة، وهكذا لم أجد طريقي الصحيح إلا بعد اجتياز عدة أخطار. وإضافة إلى ذلك هاجمني أيضاً تيس كبير من الماعز فاقتلعت بسرعة البرق عموداً خشبياً من سياج أحد الحقول وقاتلته به إلى أن فر هارباً.

لم يسبق لأحد قط في مدرستنا أن لاحظ علي الفصاحة وطلاقة اللسان مثلما تجلتا في هذه الحكاية. ولم يخطر ببال أحد أن يستفسر لدى أمي عما إذا كنت عدت إلى البيت في أحد الأيام مبتل الملابس وفي الليل. وبدلاً من ذلك فقد رُبطت مغامرتي بحادثة ثبت الدليل عليها وهي أن بعض التلاميذ هربوا من المدرسة تماماً في الوقت الذي تحدد في حكايتي ذاته. وصدق الناس فتّوتي الكبيرة كما صدقوا أيضاً حكايتي؛ فقد نزلت هذه تماماً من دون توقع وبلا قيود من السماء الصافية لصمتي المألوف. أدين المتهمون وهم أبرياء وعُدّوا شباباً متوحشين وأشراراً، لأن إنكارهم العنيد والإجماعي واستياءهم ويأسهم المحقين زاد الأمر سوءاً، فقد عوقبوا بأشد العقوبات المدرسية وأجلسوا على مقعد العار وعلاوة على كل ذلك أوسعهم آباؤهم ضرباً وحبسوهم.

وبقدر ما لدّي من ذكريات شاحبة لم يكن ما ترتب على الحكاية المشؤومة من وبال عادياً عندي فحسب بل كنت أميل إلى الشعور بالرضا في أعماق ذاتي بأن العدالة الشعرية قد زينت ابتكاري وأكملته بكل شفافية، وأن شيئاً لافتاً قد حدث وتمت المساومة عليه والمعاناة له وكل ذلك بسبب كلمتي المبدعة. لم أستوعب كيف كان في إمكان هؤلاء الصبيان المنكل بهم أن يشكوا مني وكم كانوا حانقين علي ما دام مجرى القصة الرائع كان ينطوي على

أسباب بداهته وأنني في هذا المقام لم أكن لأستطيع أن أغير شيئاً مثلما لم يكن الآلهة القدماء قادرين على تغيير شيء من القضاء المحتوم.

كان جميع المعنيين، ممن أمكن تسميتهم في عالم الأطفال أناساً منصفين، صبياناً هادئين رزينين ولم يكن حتى الآن ثمة مسوّغ لتأنيبهم بعنف ثم إنهم غدوا منذ ذلك الحين مواطنين شباباً وديعين ومجدين في عملهم. ولذلك تجذرت شيطنتي في أعماق ذاكرتهم وتجذر أيضاً الظلم الذي عانوه جراء ذلك، وحين لاموني بعد ذلك سنين طويلة عدت وتذكرت تماماً تلك القصة المنسية ونبضتْ بالحياة من جديد كل كلماتها. والآن فقط أخذ هذا الحدث يعذبني بحنق مضاعف وعميق الأثر وكنت كلما تذكرته أُصبت بدوار في الرأس وكنت أحمِّل بكل تصميم وقوة أولئك المحققين الظالمين، الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء التأكد من صدق أقوالي، وزر الظلم الذي لحق بزملائي لا بل كان يحلو لي أن أقاضي تلك المرأة الثرثارة التي لفتت الانتباه إلى الكلمات المقيتة ولم تهدأ إلا بعد أن بُرهن على وجود أصل محدد لتلك الكلمات. ثلاثة من رفاق المدرسة السابقين غفروا لي ذنبي وكانوا يضحكون حين رأوا كم كان يقلقني هذا الأمر حتى بعد مضي زمن طويل على حدوثه، وسرهم أنني ابتغاء مرضاتهم كنت أتذكر الموضوع بكل تفاصيله. ولكن الرفيق الرابع، الذي كان يعاني مختلف المتاعب في حياته، لم يستطع بأي حال من الأحوال التمييز بين فترة الطفولة وفترة الشباب اللاحقة وبقي يؤاخذني على ما اقترفت بحقه كما لو أنني اقترفته اليوم وبعقلية الرجال البالغين. وإذا ما مرّ بي كان يظهر حقداً أعمى وإذا ما رمقني بنظرات مهينة لم أستطع الرد عليه بالمثل لأن ما سبق من ظلمي له كان لا يزال ملقى على عاتقي ولم يكن بمقدور أحد أن ينساه.

* * *



الفصل التاسع

أصيل المدرسة

أصبحت أعرف الآن كيف أتدبر أموري في المدرسة، وقد شعرت فيها بارتياح ما دامت المرحلة الأولى من تعليمي فيها توالت بسرعة وكنت في كل يوم أحرز تقدماً ملحوظاً. وكان من شأن مرافق المدرسة ومنشآتها أن هيأت جواً فيه الكثير من التسلية والمتعة، كنت أدخل إليها بشغف ورغبة إذ شكلت مكونات حياتي العامة وكانت تعني عندي ما عنته عند الأقدمين مكان الإعدام والمسرح. لم تكن مؤسسة عامة بل كانت صنيعة لجمعية كانت وضعت نصب عينيها تحقيق المنفعة العامة وكان يراد لها أن تؤمن لأطفال الناس الفقراء، نظراً إلى النقص الكبير في توفر المدارس الابتدائية الجيدة لأبناء الطبقات الدنيا، تأهيلاً تربوياً أفضل ولذلك سميت مدرسة الفقراء. فاستُخدم فيها أسلوب بيستالوتسي- لانكاستر التعليمي بحماس وتفان منقطعي النظير، وهاتان هما سجيتان يتحلى بهما عادة الرجال المؤيدون بولع شديد للمدارس الخاصة. كان والدي في سني وجوده على قيد الحياة شديد الاهتمام بمرافق هذه المنشأة وتجهيزاتها والنتائج المرجوة منها، وكان يزورها من حين لآخر ويعاينها، وغالباً ما أفصح عن نيته في أن أقضي فيها سني تعليمي الأولى باحثاً بذلك عن تدبير تربوي تمثل في أن تتم أول مرحلة من تأهيلي المدرسي برفقة أفقر أطفال المدينة فيُقضى بذلك في المهد على كل روح طبقية وغرور لدي. هذه النية كانت عند أمي وصية مقدسة كان من شأنها أن سهلت عليها اختيار أول

مدرسة لابنها. في قاعة كبيرة أعطيت دروس لمئة طفل، نصفهم صبيان والنصف الآخر بنات، من سن الخامسة حتى الثانية عشرة. في منتصف القاعة وضعت ستة مقاعد مدرسية طويلة وخصصت لجنس واحد، كل مقعد كان يشكل فئة متقاربة في العمر وأمام هذه الفئة كان يقف تلميذ متقدم عمره من أحد عشر إلى اثني عشر عاماً ويقوم بتعليم كل من على ذلك المقعد الذي عُهد إليه به، بينما وقف الجنس الآخر على شكل أنصاف دوائر حول ست منصات موضوعة على طول الجدران. وفي وسط كل دائرة كان يجلس على كرسي صغير أيضاً تلميذ يعلّم الأطفال أو تلميذة تعلّمهم. المعلم الرئيسي كان يجلس على منصة عالية ويحيط برؤية الكل وكان له معاونان يقومان بجولات عبر القاعة المعتمة ويتدخلان هنا وهناك إذا ما دعت الحاجة إلى المساعدة ويزودان التلاميذ بأكثر الأشياء علماً ومعرفة. كان المشهد يتبدل كل نصف ساعة، كان كبير المعلمين يعطي إشارة بواسطة جرس إيذاناً بحدوث مناورة رائعة، إذ كان المئة طفل ينهضون واقفين بعد الإشارة وينفذون حركة ووقفة طبقاً للتعليمات النافذة، دوماً حسب الجرس، ثم يدورون إلى الوراء ويغيرون اتجاههم ويؤدون مشية عسكرية محسوبة بدقة لمدة دقيقة واحدة، الأمر الذي كان يؤدي إلى تغيير المواقع بحيث يقف الخمسون الذين كانوا قاعدين ويقعد الخمسون الذين كانوا واقفين. وكم كانت تلك باستمرار دقيقةً سعيدة إلى أقصى حد حين كان الصبيان يمرون، وأيديهم مشبوكة على ظهورهم، بالفتيات بمشية نظامية محاولين التركيز على خطوتهم ذات الطابع العسكري القوي إزاء مشية البنات الضعيفة والمتألقة. أما السماح للتلاميذ بجلب أزهار معهم وإمساكها بأيديهم في أثناء حصة الدرس، فلا أعرف إن كان ذلك ابتذالاً مؤدباً ومتوارثاً أو إجراءً متعمداً، على الأقل كان من أمر هذا الترخيص الجميل أن ألغي في كل المدارس الأخرى، ولكن كان دوماً أمراً حسناً أن ترى في أثناء المشية العسكرية المرحة كيف كانت كل فتاة تمسك بأصابع يديها المشبوكتين على ظهرها وردة أو قرنفلة في حين كان الصبية يحملون الزهور في الفم

كالغلايين أو يدسونها باستهتار صبياني خلف الأذن. كان التلاميذ بمجملهم أبناء حطابين أو عمال مياومين أو خياطين فقراء أو حذائين أو متلقي صدقات أما أرباب المهن الأفضل حالاً فلم يسمح لهم بسبب طبقتهم وسمعتهم بتعليم أولادهم في مدرستنا. ولذلك كنت الأحسن والأنظف لباساً بين الصبيان وعُددت في عداد المنعَمين بنصف وجاهة مع أنني سرعان ما أنست لأولئك الشياطين الفقراء المرقعة والمبرشّة ملابسهم كما أنست أيضاً لعاداتهم وتقاليدهم، اللهم ما داموا غير غرباء ومشاكسين عندي. ذلك لأنه على الرغم من أن أبناء الفقراء ليسوا أسوأ ولا أخبث من أبناء الأغنياء أو المنعَمين بالأمان والاستقرار، لا بل هم أقرب إلى أن يكونوا أكثر براءة وطيبة قلب، إلا أنهم يُظهرون أحياناً فظاظات تلميحية في تصرفاتهم كان من شأنها أن نفرتني من بعض الزملاء التلاميذ.

كانت الملابس التي حصلت عليها آنذاك خضراء اللون، لأن أمي كلفت أحد الخياطين بأن يصنع لي لباساً من بقايا الزي الرسمي الذي كان يرتديه أبي وبالتالي بدلة مخصصة ليوم الأحد وأخرى لأيام العمل الأسبوعية. وكانت الملابس البورجوازية التي تركها أبي بعد مماته كلها تقريباً خضراء اللون، وإلى أن بلغت سن الثانية عشرة كانت تلك التركة كافية لصنع جاكيتات وبدلات خضراء ما دامت أمي تهتم بالملابس وتتشدد على المحافظة عليها وإبقائها سليمة ونظيفة بحيث أطلق علي في وقت مبكر بسبب لون الملابس المستعصي على التغيير اسم "هاينريش الأخضر" وحملتُ هذا الاسم في مدينتنا. وبهذه الصفة سرعان ما أصبحتُ في المدرسة وفي الزقاق على حد سواء شخصاً معروفاً واستخدمتُ شعبيتي الخضراء في متابعة مراقباتي وإسهامي في كل ما كان يَحدث ويُفعل. كنت أقتحم مع مختلف الأطفال، طبقاً للحاجة والمزاج، بيوت آبائهم وكنت أقابَل بالترحيب لظنهم أنني طفل هادئ وجيد في حين كنت أطَّلع بدقة على أنظمة البيوت لدى الناس الفقراء وعلى عادات هؤلاء ثم أغيب عنهم فترة لكي أنسحب إلى مقري الرئيسي لدى السيدة مارغريت حيث كانت توجد

باستمرار في نهاية المطاف أكثر المشاهدات قاطبة. سُرَّت السيدة أيما سرور من أنني سرعان ما استطعت إتقان القراءة باللغة الألمانية، وعلاوة على ذلك أتقنتُ أيضاً شرح الحروف اللاتينية المتكرر ورودُها في كتبها القديمة وكذلك الأرقام العربية التي لم تتعلم أبداً التعاطي معها وفهمها. ثم أعددت لها كمية كبيرة من المذكرات الموجزة بالخط الغوطي على قصاصات ورق فاحتفظتْ بها وتمكنت من قراءتها بارتياح؛ بهذه الطريقة غدوت كاتبها السري الصغير. وكان سبق أن رأت فيَّ، إذ عدّتني عبقرياً كبيراً، واحداً من جالبي الحظ لها في المستقبل وكانت مسرورة مسبقاً بمسيرتي الباهرة. وبالفعل لم يسبب لي التعلم جهداً ولا كرباً، ونلتُ، دون أن أعرف كيف تأتى لي ذلك، شرف إعطاء دروس للزملاء الأصغر مني. بذلك تحققت لي متعة جديدة على خير وجه لأنني، وقد كنت أنعم بسلطة المكافأة والمعاقبة، استطعت الجمع بين مصاير صغيرة واستحضار الابتسامات والدموع والصداقات والعداوات بأسلوب ساحر، حتى إن حب النساء بدأت بوادره بالظهور من حين لآخر بصورة خافتة. فإذا ما كنت أجلس في نصف دائرة من تسع إلى عشر بنات صغيرات، كان المقعد الأول الأكثر تشريفاً تارة قريباً مني وتارة أخرى المقعد الأخير تبعاً للمنطقة المعنية من القاعة الكبيرة. وهكذا كان يحدث أن أضع تلك الفتيات، اللواتي كنت أرغب في النظر إليهن، إما دائماً في الجهة العليا من منطقة الشهرة والفضيلة أو أنزلهن إلى الجو المعتم والمليء بالإثم والنسيان، ولكن في كلتا الحالتين تظل الفتيات قريبات من قلبيَ الجائر. لكن هذا القلب ذاته كان يتحرك بقوة إذا ما أبت فتاة جميلة سبق لها أن رُفعت بغير حقٍ إلى الشهرة والفضيلة أن تمنحني ابتسامة شكر ومن ثم إذا ما حسبت أنها جديرة بالشرف الذي نالته بغير حق فصعّبت علي عندئذ بما لا يقاس من خلال مقالبها العابثة المستهترة أن أبقيها في علوها دون خرق للعدالة لافت للانتباه.

ثمة أمران كانا مصدراً لعذابي ووحشتي في تلك المدرسة وقد ظلا طول حياتي ذكرى غير محببة إلى نفسي. أحدهما كان ذلك الأسلوب الجنائي

الغامض، الذي عالج قضية العدالة في المدرسة. وكان يرجع من جهة إلى عقلية الزمن القديم، الذي كنا نقف على تخومه، ومن جهة أخرى إلى هوايات الأشخاص وأمزجتهم، وكانت مواءمته لأسلوب التعامل الآخر رديئة. فقد فُرضت عقوبات منتقاة، مؤلمة ومذلة، على تلك الفترة الغضة من العمر ولم يكن يمضي شهر واحد إلا نفذ بطريقة احتفالية حكم بحق واحد من المذنبين المساكين. صحيح أن ذلك شمل في معظم الحالات أوغاداً حقيقيين، إلا أنه مع ذلك كان عكسي المفعول إذ كان يؤدي بالأطفال إلى إدانة مبكرة ومألوفة، وهكذا فإن ثمة ظاهرة نادرة كانت تتمثل في أن الأطفال، حتى ولو كانوا على وعي بأن فيهم النقيصة ذاتها ونجوا مع ذلك من العقاب، كانوا يحتقرون الطفل المعاقب والموصوم ويلاحقونه ويسخرون منه إلى أن تزول الآثار الأخيرة أو يقع الملاحِقون أنفسهم في الشباك. وما دام العصر الذهبي لم يأتِ، فقد تعرض صبية صغار للضرب، لكن ما ترك انطباعاً مقيتاً هو أن يُقتاد مذنب تعيس بعد إلقاء كلمة تقريع وتوبيخ إلى حجرة منعزلة وتُنزع عنه ثيابه ثم يُلقى على مقعد ويُترك هناك وحده، أو حين فُرض على فتاة كبيرة نوعاً ما أن تعلق على كتفيها لوحة وتجلس على خزانة عالية، طيلة يوم كامل. أشفقتُ عليها كثيراً على الرغم من أنها ربما ارتكبت خطأً كبيراً، وربما أدينت وهي بريئة أيضاً. بعد بضعة أعوام أغرقت تلك الفتاة نفسها في أثناء درس تثبيت العمادة، لم أعد أعرف السبب ولكنني لا أزال أذكر المشاركة الحزينة التي كنت أكنها للميتة حين رأيتها تُحمل إلى القبر وتمشي وراء نعشها جمهرة كبيرة من الفتيات اللابسات ثياباً بيضاء واللواتي تراوحت أعمارهن بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وكن يحملن باقات من الورود. وقد جرى تكريمها إلى هذا القدر، بصرف النظر عن موتها المخالف للتعاليم المسيحية، تقديراً لشبابها وستراً للحدث الباهر وتخفيفاً من وقعه في آن معاً.

والذكرى المؤلمة الأخرى عن تلك الفترة في المدرسة تتعلق بكتاب تعليم الدين المسيحي والحصص التي شغلتنا به. كان ذلك كتيباً مليئاً بأسئلة

وأجوبة جافة ومفتقرة إلى أدنى حد من الحيوية، وقد انتُزِع من عالم الكتب المقدسة ولم يصلح إلا لشغل عقول أناس مسنين ومعدومي البصيرة وكان علينا خلال مرحلة الشباب، التي بدت وكأنها لا نهاية لها، أن نحفظ محتواه عن ظهر قلب عبر عملية اجترار أزلية وتلاوةٍ عبر حوار مبهم وعقيم. كلمات نابية وكفارات مضنية شكلت الاستتارات اللازمة لتلك الحياة الدينية، والمخاوف المقبضة من نسيان أية كلمة من الكلمات الغامضة في ذلك الكتيب شكلت المشجعات المحضّة على الحياة سالفة الذكر. وكان من شأن بعض الترانيم ومقاطع المزامير، وهذه أيضاً كانت مسلوخة عن سياقها ولذلك كره ترسيخها في الذهن بوصفها قصيدة عضوية كاملة، أن أربكت الذاكرة بدلاً من أن تمرنها. وحين كنا نرى هذه الأوامر العارية وغليظة الأطراف، الموجهة ضد الآثام الوحشية لدى الناس البالغين أشدهم، وهي مصطفة إلى جانب العقائد فوق الحسية والمستعصية على الإدراك، لم نكن نشعر بسريان روح لتطور إنساني هادئ بل نَفَسٍ خانقٍ لبربرية فظة ومتحجرة فقد تعلق الأمر بتخليص النشء الغض في أبكر وقت من الشحوب السريع والإكراهي وتهيئته لمجمل الحياة القائمة والتفكير القائم وتحميله مسؤوليتهما. الألم الكامن في هذا النظام الانضباطي بلغ ذروته حين كان يأتي دوري مرات متعددة في العام وذلك في يوم الأحد في الكنيسة وأمام جماعة المؤمنين كلها لإجراء حوار رائع وبصوت عالٍ ومسموع مع القس الذي كان يقف على المنبر على مسافة بعيدة مني، حيث كان يؤدي كلُ تعثر في كلامه أو نسيانٌ إلى فضيحة في الكنيسة. صحيح أن أطفالاً كثيرين غرفوا بالذات من هذه العادة فن التفاخر بطقوس التكريس وبطلاقة اللسان والتفاخر حتى بوقاحتهم، وكان يوم الأحد في الكنيسة دائماً يوم انتصار وفرح عندهم، ولكن لدى هؤلاء بالذات ثبت في كل وقت أن كل شيء دوي ودخان، ليس إلا. ثمة أتباع للمذهب البروتستاني بالولادة، وأحب أن أعد نفسي واحداً منهم، ولأن الأمر لا يتعلق بافتقارٍ إلى الحس الديني، بل – بالطبع انطلاقاً من لا شعوري الخاص- لأن بقية خفيفة

من دخان كومات حطب بائدة(*) كانت تحوم في أجواء الكنيسة المردِّدة الأصداء هي التي جعلت حضوري في الكنيسة مقيتاً ولا يطاق حين كانت جمل العنف الرتيبة المملة تُرمى جزافاً هنا وهناك. لا كما لو أنني أردت أن أوهم نفسي بأنني طفل معجزة وبارع في الحوارات النزاعية، بل لأن الأمر كان وحده لم يتعدّ كونه شأناً من شؤون الاحساس الفطري الغريزي.

على هذا النحو اضطررت مكرهاً إلى العودة إلى تعاملي الشخصي مع الله، وأصررت على عادتي في أداء صلواتي وإجراء محادثاتي بحسب احتياجي إلى ذلك واستخدامها بعد ذلك نظراً إلى الوقت أيضاً عندما تدعو حاجتي إليها. وصلاة "أبانا الذي في السموات..." وحدها هي التي كانت تؤدَّى صباحاً ومساءً بانتظام وبصوت منخفض.

لكن من حياتي الظاهرية والباطنية أيضاً، حياة اللهو واللذات، أقصي ربنا، ولم تستطع أمي ولا السيدة مارغريت إبقاءه فيها. على مدى أعوام طويلة تحولت فكرة الله في ذهني إلى تصور واقعي وذلك بالمعنى الذي يرى فيه الشعراء الرديئون أن الحياة الفعلية هي الحياة الواقعية خلافاً لتلك المتخيَّلة والخرافية. ومن العجيب أن الحياة والطبيعة الحسية كانتا أسطورتي التي كنت أبحث فيها عن بهجتي وسروري، في حين تحول الله عندي إلى الحقيقة الحتمية لكن الواقعية أيضاً والوعظية التوجيهية التي لم أكن أعود إليها إلا بصفتي صبياً متعباً من اللعب وجائعاً لحساء البيت اليومي والتي كنت أحاول التخلص منها بالسرعة الممكنة. فأدى ذلك إلى صياغة الطريقة التي تم بموجبها ربط الدين بفترة طفولتي. على الأقل لا أستطيع، على الرغم من أن تلك الفترة بمجملها تمثل أمامي بكل وضوح وشفافية مرآة مضيئة، أن أتذكر أنني شعرت يوماً قبل استيقاظ العقل برعشة عبادة، حتى ولو طفلية عفوية.

(*) لحرق مناوئين وهم أحياء؟ المترجم.

أعد هذه الفترة نصف الملحدة بالذات من السنين الأكثر طراوة وتأهيلاً التي استمرت سبعة إلى ثمانية أعوام، مرحلة باردة ومقفرة وأحمِّل كتاب تعليم الدين المسيحي ومستعمليه وزر ذلك، لأنني إذا ما حاولت التوغل بحدة ودقة راجعاً إلى تلك الحالة النفسية القائمة السابقة فقد أكتشف أنني لم أحب الله في طفولتي بل كنت بحاجة إليه فحسب. والآن فقط يتضح لي تماماً ذلك الغموض الذي خيم على تلك الفترة وحجب عني وقتئذ نصف الحياة وجعلني من البلاهة والخجل بمكان بحيث لم أستطع فهم الناس ولم أستطع تمكينهم من فهمي وذلك إلى درجة أن المربين كانوا يقفون أمامي كما لو أنهم كانوا يقفون أمام لغز محير ويقولون:

"هذا هو إنسان نادر الوجود ولا سبيل إلى معرفة كيفية التصرف معه".



* * *

الفصل العاشر

الطفل اللاهي

لذلك انزويت برغبة عارمة في الانطواء على نفسي أكثر من ذي قبل، وذلك في العالم الذي أجبرني على ألاّ اعتمد على أحد غيري. لم تشتر لي أمي سوى ألعاب قليلة جداً، لأن تفكيرها كان محصوراً دائماً في توفير كل قرش من أجل مستقبلي، وكانت ترى أنه لا لزوم لأي مصروف إلا إذا شكل تضحية مباشرة لأكثر الاحتياجات ضرورة ولزوماً. وعوضاً عن ذلك كانت تحاول أن تشغلني بتسليات شفوية مستمرة إذ كانت تقص عليّ ألف حكاية من حياتها الماضية وحياة الناس الآخرين على حد سواء وتجد في ذلك عادة حلوة ولازمة في جو عزلتنا. إلا أن هذه التسلية، مثلها مثل الأعمال الجارية في بيت الجيران الرائع، لم تستطع في نهاية المطاف أن تملأ ساعات فراغي وكنت بحاجة إلى مادة حسية من شأنها أن توضع في تصرف قدرتي على الخلق والإبداع. ولذلك سرعان ما كنت مضطراً إلى الاعتماد على نفسي في تأمين ألعابي. الورق والخشب، مساعداي المعتادان في هذه الحال، كانا يستهلكان بسرعة؛ خصوصاً أنني كنت أفتقر إلى ناصح يعرفني كيف استخدام على النحو الأمثل لمسات اليد وفنون الأنامل. وهكذا وجدت لدى الطبيعة البكماء ما لم أجده لدى البشر. كنت أرى عن بعد لدى صبية آخرين أنهم يملكون مجموعات صغيرة وظريفة من منتجات الطبيعة خصوصاً أحجاراً وفراشات، وأن معلميهم وآباءهم كانوا يرشدونهم في أثناء قيامهم بنزهات إلى

البحث عن منتجات كهذه. فلدت من تلقاء ذاتي تصرفات هؤلاء فبدأت أقوم برحلات جريئة على ضفاف الجداول والأنهار حيث كانت توجد أنواع كثيرة من مجروفات الرواسب. وسرعان ما توفرت عندي مجموعة مهمة من المعادن اللماعة والملونة: ميكا، كوارتز وأحجار أخرى من هذا النوع كانت لفتت نظري من خلال أشكالها المميزة والمخالفة غيرها. رواسب لماعة كانت ألقيتُ في النهر من مصانع تعدين كانت عندي أيضاً قطعاً معدنية ثمينة كما عددتُ معجوناتٍ زجاجية بمثابة أحجار كريمة، أما سلع السيدة مارغريت القديمة فقد زودتني ببعض البقايا من قطع المرمر الملمع وبزخارف نصف شفافة من الرخام الأبيض، التي تخللها علاوة على ذلك ألق أثري الطابع. ومن أجل هذه الأشياء أعددت رفوفاً وصناديق وأرفقت بها قصاصات ورق غريبة الأوصاف. وحين كانت أشعة الشمس تنتشر في فسحة بيتنا الصغيرة، كنت أنقل الكنز كله إلى أرض الفسحة وأغسل قطعه واحدة تلو الأخرى بماء النافورة الصغيرة ثم أنشرها بعد ذلك في أشعة الشمس لكي تجف، وكم كان سروري كبيراً ببريقها. بعد ذلك كنت أرتبها من جديد في العلب وأغلف منها القطع الأكثر لمعاناً بعناية بالقطن الذي كنت أنتشه من بالات القطن الكبيرة الموجودة في ساحة الميناء أو بجوار المتجر الكبير. وعلى هذا النحو مارست تلك الهواية فترة طويلة من الزمن، لكن نفسي لم تكن مرتاحة إلى ذلك إلا ظاهرياً، وحين رأيت أن أولئك الصبية أطلقوا على كل حجر اسماً خاصاً به وكان في حوزتهم في الوقت ذاته أشياء عجيبة كثيرة لم يتيسر لي امتلاكها، كأنواع الكريستال والخامات، واكتسبوا دراية وخبرة في كل ذلك في حين بقيت أنا غريباً تماماً عن تلك المجالات والأجواء، زالت بالتدريج اللعبة كلها من حياتي ومنيتُ جراء ذلك بالحزن والغم. آنذاك صعب عليّ أن أرى من حولي شيئاً ميتاً أو مرمياً بعيداً، فما لم أكن بحاجة إليه أحرقته بسرعة أو أبعدته عني، وهكذا حملت في يوم من الأيام بعناء وجهد كبيرين كل إحجاري إلى ضفاف النهر وأغرقتها في خضم أمواجه وعدت حزيناً ومحبطاً إلى البيت.

حاولت بعد ذلك ممارسة هوايتي في جمع الفراشات والخنافس، فجهزت لي أمي خيطاً لهذه الغاية وغالباً ما خرجت معي هي نفسها إلى الحقول لأنها كانت مقتنعة ببساطة هذه الألعاب وجدواها. اصطدت وجمعت ما أمكنني امتلاكه وأسرت عدداً كبيراً من الأساريع، ولكنني لم أكن أعرف ماذا تأكل هذه الأساريع ولم أُجِد التعاطي معها بحيث لم تسفر تربيتها عندي عن إنتاج أي فراشة. ولكن الفراشات الحية التي اصطدتها والخنافس اللماعة أيضاً أعيتني بقتلها وبالإبقاء عليها سليمة ومعافاة، لأن تلك الحيوانات الطرية كان تتمتع بقدرة شديدة المراس على الحياة في يديّ القاتلتين وإلى أن فقدت الحياة أخيراً، دُمِّر الشذا واللون وضاعا وعلت رؤوسَ إبري مجموعةٌ ممزقة إرباً إرباً من الشهداء الجديرين بالشفقة والرحمة. التمويت بحد ذاته كان ينهكني أيما إنهاك ويقلقني أيما إقلاق لأنني لا أطيق أن أرى تلك الحيوانات الرقيقة وهي تعاني وتتألم. هذه الحساسية كانت طفلية الصبغة، كنت قادراً ككل الأطفال على إساءة معاملة الحيوانات المقيتة عندي أو تلك التي لا أعبأ بها، الأرجح هو أن الأمر لم يكن إلا حنواً غير عادل على المخلوقات الأكثر تلويناً، التي أثارت إشفاقي وعطفي. أما كل حشرة من الفلول المشؤومة فقد سببت لي اكتئاباً، خصوصاً أنها شكلت ذكرى ليوم ومغامرة قضيتهما في العراء. والفترة الواقعة بين أسر الحشرة وموتها المؤلم كانت مصيراً ذا تأثير كبير في نفسي والبقايا الصامتة تحدثت معي بلغة مؤنبة.

هذا المشروع أخفق أيضاً في نهاية المطاف، حين رأيت أول مرة معرضاً كبيراً للحيوانات. واتخذت في الحال قراراً بإقامة معرض من هذا النوع فصنعت لهذه الغاية بجهود مضنية عدداً من الأقفاص والخلايا، التي كانت من قبل صناديق صغيرة كنت أصنعها من الورق المقوى والخشب ووضعتُ في الجهة الأمامية منها قضباناً مشدودة من الأسلاك أو خيوطاً تبعاً لقوة الحيوان المعدة من أجله. أول النزلاء كان فأراً نقل من مصيدته إلى سجنه في الجانب الآخر بصعوبات كانت كافية لإعداد عملية نقل دب. ثم تبعه

أرنب صغير وبضعة عصافير وثعبان وأفعى أكبر منه وعدة سحليات بألوان وأحجام مختلفة، وقبع جُعَل ضخم ذو قرون في الحال مع كثير من الجِعلان الأخرى معانية كل المعاناة في صناديق مكدسة بعضها فوق بعض. وعدة عناكب كبيرة أدت في حقيقة الأمر دور النمور الكاسرة عندي لأنني كنت أخاف منها أشد الخوف ولم أستطع اصطيادها إلا بصعوبة فائقة. كنت أراقب بارتياح مرعش هذه الحشرات العزَّل إلى أن خرجت ذات يوم إحدى العناكب من قفصها فجأة وعدت بسرعة فوق يدي، غير أن الهلع كان من شأنه أن زاد من اهتمامي بمعرض الحيوانات الصغير وكنت أطعمها بانتظام دقيق وأدعو أطفالاً آخرين كي أزودهم بكل أبهة وفخامة بمعلومات عن تلك الحيوانات. النسر الفتي، الذي حصلت عليه، هو النسر الجبلي الكبير، والسحليات هي تماسيح، والأفاعي أخرجت بعناية من أثوابها ولفت حول حنايا دمية. بعد ذلك كنت أجلس وحدي ساعات طويلة أمام الحيوانات الحزينة وأراقب حركاتها. كان الفأر تغلب منذ فترة طويلة على صعوباته واختفى والثعبان تهشم وتقطعت ذيول التماسيح كلها، الأرنب أصبح هزيلاً كهيكل عظمي ولم يعد له مكان في قفصه، وكل الحيوانات الباقية ماتت شيئاً فشيئاً فاكتأبتُ لذلك وقررتُ أن أقتل وأدفن الجميع بلا استثناء. فأخذت سيخاً طويلاً من الحديد وسخنته بالنار إلى أن توهج ثم انقضضت به بيد مرتجفة عبر القضبان والأقفاص وبدأت بارتكاب حمام دم فظيع. لكن تلك المخلوقات غدت كلها محببة عندي وكان يخيفني ارتعاد الأعضاء المدمرة فتوقفت عند ذلك عن القتل. وأسرعت إلى فسحة المبنى الأرضية وأعددت حفرة تحت شجيرة الغبيراء لكي أرمي فيها مجموعة الحيوانات كلها، الميتة ونصف الميتة والحية على حد سواء، رأساً على عقب، وهي في علبها ثم دفنتها بسرعة في التراب. وحين رأت أمي ذلك المشهد ارتأت أنه كان علي أن أحمل الحيوانات إلى العراء من حيث أتيت بها فلربما تتعافى هناك من جديد وتبقى على قيد الحياة. أبديت تفهماً لرأيها وندمت على ما فعلت، ولكن بقعة العشب تحت شجيرة الغبيراء ظلت لفترة طويلة مكاناً

مخيفاً لي ولم أجرؤ في حياتي قط على أن أصغي إلى ذلك الفضول الطفلي الذي يدفع باستمرار إلى نبش المدفون من جديد والتفرج عليه.

عند السيدة مارغريت سنحت لي فرصة لممارسة ما تلا ذلك من ألعاب، من بين إرشادات ثيوصوفية حمقاء، كنت وجدتها في كتب السيدة، كان ثمة إرشاد يبين عناصر الوجود الأربعة إضافة إلى تجارب صبيانية سخيفة والجداول التابعة لها. وطبقاً لتلك التعليمات أخذت قارورة كبيرة وملأت ربعها بالرمل والربع الثاني بالماء والثالث بالزيت ثم تركت الربع الرابع فارغاً، أي مملوءاً بالهواء. فانفصلت هذه المواد بعضها عن بعض طبقاً لثقلها وأظهرت في مكانها المغلق العناصر الأربعة التي هي التراب والماء والنار (زيت الوقود) والهواء. هززتها بقوة خالطاً بعضها ببعض على نحوٍ متقن فنجم عن ذلك فوضى كان من شأنها أن توضحت من جديد على أحسن وجه، وجلست أنا مغموراً بالفرح والسرور أمام هذه الظاهرة عالية المستوى في سماتها الفقهية والتعليمية.

بعد ذلك تناولت ورقة ورسمت عليها، طبقاً لما ورد في ذلك الكتاب، أجواء متعددة مع دوائر وخطوط في مختلف الاتجاهات وملونة إلى حد ما ومرصعة بأعداد وحروف لاتينية، الاتجاهات الأربعة، مناطق وأقطاب، فضاءات سماوية، عناصر، أمزجة، فضائل ورذائل، بشر وأشباح، أرض، جحيم، مملكة وسط، السماوات السبع، كل ذلك كان رائعاً لكن متداخلاً طبقاً لنظام معين في فوضى عارمة وكلف جهداً مضنياً ومجزياً. كل الأجواء جُعلت مأهولة بأرواح ملائمة فازدهرت الأرواح فيها. وعلَّمت عليها بنجوم وعلَّمت على النجوم بأسماء؛ الأكثر غبطة وسعادة بين الأسماء كان والدي، بجانب عين الله وضمن نطاق المثلث، وقد بدا أنه ينظر من عل عبر هذه العين الإلهية التي ترى كل شيء إلى أمي وإلي أنا ونحن نتنزه في أجمل بقاع الأرض. أما خصومي فكانوا يقبعون جميعاً في جهنم حيث زود الشرير منهم بذيل يعتد به. وطبقاً لتصرفات الناس كنت أغير مواقعهم فأنقلهم إلى أماكن

أكثر نظافة أو أعود بهم إلى حيث يسود النواح والعويل واصطكاك الأسنان. وتركت بعضهم حائمين في أوضاع مبهمة بقصد اختبارهم ثم حبست اثنين معاً لم يكو يطيق بعضهما بعضاً في منطقة نائية ومعزولة في حين فرقت بين اثنين كانا متحابّين لكي أجمع بينهما بعد اختبارات كثيرة في مكان سعيد. وهكذا قمت بسرية تامة على هذا النحو باستعراض إجمالي دقيق لأوضاع كل الناس الذين كنت أعرفهم ومصايرهم، شيباً وشباناً على حد سواء.

واحتوت الإرشادات الثيوصوفية فيما احتوت أيضاً على توصية بأن تسكب في الماء شمعاً مذوباً لكي تحصل على ترميز لشيء لم أعد أعرف ما هو. ملأت عدة زجاجات دوائية بالماء واستمتعت بالتشكلات الناجمة عن الشمع المسكوب فيها ثم أغلقت الزجاجات فأغنيت بذلك وسائل التعليم والإيضاح. ظاهرة الزجاج هذه راقت لي جداً ووجدت مادة جديدة لها حين مشيت ذات مرة وأنا أرتعد من خوف عميق عبر مجموعة تشريحية كانت ضُمت إلى المستشفى. بضع مجموعات من الأجنة في زجاجاتها لاقت لدي استحساناً كبيراً وشكلت موضوعاً مناسباً لعملي بحيث حاولتُ تقليدها. في إحدى الخزانات سبق أن احتفظت أمي بقماش الكتان المنضد، الذي كانت تصنعه في وقت فراغها، في حالة قطع خشنة وقاتمة اللون وهناك وُجدت في المكان ذاته أيضاً، مخبأةً ومنسيةً، أقراص كثيرة من الشمع الخالص وقد كانت شهوداً متقادمين على فترة سابقة، مورست فيها بكل جد ونشاط تربية النحل. من أقراص الشمع هذه كنت أقتطع باستمرار أجزاء لا يستهان بها لأصنع منها بطريقة منمنمة صبياناً عجيبين كبيري الرؤوس، كذلك كنت أراهم في واقع الأمر وكنت أسعى في أثناء ذلك إلى المبالغة قليلاً في تجسيم اختلافات أشكالهم الخيالية. وفّرت زجاجات بقدر ما استطعت، من جميع الأشكال والأحجام، وصنعت التماثيل طبقاً لها. ففي زجاجات طويلة ورفيعة كانت خصصت في الأصل لماء الكولونيا كانت تتدلى من خيوطها، بعد أن كنت قطعتُ رقاب الزجاجات، تماثيل صبيان هزيلي الأبدان طويلي القامة، وفي زجاجات قصيرة وبدينة كانت

مخصصة للمراهم أقامت نباتات درنية. وبدلاً من كحول الإيتيل ملأتُ الزجاجات ماء وأعطيت كل مقيم فيها اسماً متفقاً مع اهتمامي بالدعابة، الذي تطور مروراً بالعمل المسلي إلى اهتمام بما ييسر التعلم والمعرفة فحسب. كان عدد أعضاء هذا المنتدى الجميل قد وصل إلى أكثر من ثلاثين وقارب الشمع على النفاد حين عمَّدتُ مخلوقاتي بأسماء مثل: شنوربر، فارك، فوغلمان، سيبلباين، شنايدر، شيمرباوخ، نابلهانس، فاكسبايسر، هونيغتويفل وما إلى ذلك، وكنت أحس بمتعة مستمرة في أنني كتبت في الوقت ذاته لكل واحد من هؤلاء سيرة حياة قصيرة كان قضاها في الجبل الذي تُجلب منه الأطفال الصغار، طبقاً لما ورد في أسطورتنا الخرافية. وأعددت أيضاً قوائم خاصة تعلقت بمجالات أنشطتهم ومواصفاتهم ودونتُ فيها فضائل كل منهم أو رذائله، فإذا ما أثار أحدهم استنكاري كنت أضطر إلى وضعه في مكان أسوأ مما كانت عليه أمكنة الأحياء من الناس. كنت أمارس كل هذه الأشياء في حجرة نائية معزولة حيث وضعتُ في إحدى الأمسيات إبان وقت الغسق كل الزجاجات على طاولتي المحببة وكانت قطعة أثاث قديمة وبنية اللون وكثيرة الدروج. صففت الزجاجات في دائرة كبيرة، العناصر الأساسية الأربعة في الوسط، وفرشتُ قوائمي الملونة التي ألقيت عليها الأضواء من بعض تماثيل الشمع المشتعلة فتائلها من أيدٍ مرفوعة إلى الأعلى ثم تمعنت في الكوكبات المتألقة على القوائم في حين دفعت أصحاب المصير المعنيين واحداً بعد آخر إلى التقدم إلى الأمام وتفحصتهم وفرزتهم كل على حدة، فيكسيريش، هُيرليمان، ماير أو فوغلمان. ومصادفة اصطدمت بالطاولة بحيث أخذت الزجاجات كلها تهتز وتأرجحت وتقلبت تماثيل الشمع. راق لي ذلك وبدأت أطرق على الطاولة تناغماً مع الإيقاع الصادر عن اهتزاز الزجاجات فأخذ صبيان الشمع يرقصون، وتابعت الطَرْق بوتيرة أقوى وأكثر جموحاً وغنيتُ علاوة على ذلك إلى أن اصطدمت الزجاجات بعضها ببعض بقوة وأصدرت رنيناً مسموعاً، وفجأة سُمع صوت نف ومخط في إحدى الزوايا وتطاير شرر من زوج من العيون. قطة كبيرة كانت جاءت من خارج

البيت وقفزت إلى الحجرة وكانت تصرفاتها متسمة حتى الآن بالهدوء على استحياء وجفول. أردت أن أطردها فاتخذت وضعية تنم عن تهديد ضدي وانتصب شعرها وأخذت تنفخ بقوة؛ في لحظة خوف فتحتُ إحدى النوافذ وقذفت زجاجة باتجاه القطة فقفزت فوقها، ولكنها لم تستطع متابعة سيرها فدارت إلى الوراء واتجهت صوبي من جديد. فصرت أقذف الآن تمثال شمع تلو الآخر باتجاهها فانتفضت برعب وأخذت تستعد لمهاجمتي بقفزة حانقة، وحين رميت أخيراً عناصر الوجود الأربعة فوق رأسها أحسستُ بغرز أظافرها في رقبتي. وسقطتُ على الأرض إلى جانب الطاولة، الأضواء انطفأت وأنا أخذت أصرخ في الظلام على الرغم من أن القطة كانت غادرت المكان. دخلت أمي إلى الحجرة حين كانت القطة تنسلُّ إلى خارجها، وجدتني أمي ملقى على الأرض، نصف مغمى عليّ في وسط شظايا الزجاج وجداول الماء والعفاريت. لم يسبق لممارساتي في الحجرة أن لفتت انتباهها في يوم من الأيام، لا بل كانت راضية ومرتاحة حين كانت تلاحظ هدوئي وسروري فيما أنا أفعل ولم تكن تعرف كيف ينبغي أن تتجاوب مع سردي المرتبك لتلك الممارسات. في أثناء ذلك اكتشفتْ النقص الكبير في الشمع، الذي كانت خبأته إلى حين حاجتها إليه، وأخذت تعاين وتلاحظ بتمعن واهتمام مع شيء من الغضب أنقاض العالم المنهار الذي سبق لي أن صنعته بيديّ.

كان هذا الأمر محط الاهتمام، فقد رغبت السيدة مارغريت في سماع القصة بكل تفاصيلها ورؤيةِ الورق المليء بالرسوم إضافة إلى بقية الأنقاض ورأت أن الموضوع برمته مثير للقلق والارتياب. وعبرت عن خشيتها من أنني في نهاية المطاف غرفتُ من كتبها أسراراً خطرة لم يكن لها سبيل إليها لقلة مطالعاتها فأقفلت بمنتهى التصميم والجدية على الكتب الأكثر إثارة للريبة، ولكنها لم تستطع أن تخفي رضاها إلى حد ما عما بدا من البرهنة عن أن هذه الأشياء تنطوي على أسرار أكثر مما ظن الناس، وكانت متيقنة من أنني في طريقي وعلى أفضل وجه إلى أن أصبح بفضل كتبها ساحراً ذا شأن.

الفصل الحادي عشر

قصص من المسـرح.

غريتشن وقرد الغينـون

في أثناء مثل هذه الخطوب زهدّني شغلي المنعزل في المنزل مصدر التنغيص والاستياء فانضممت إلى بعض الصبيان الذين بدا عليهم حسن التسلية واللهو من خلال قيامهم بتمثيل ملهاة في برميل قديم وضخم. كانوا يغلقون باب البرميل بستارة ويأمرون أطفالاً مفضلين لديهم بالانتظار باحترام أمام الستارة إلى أن ينتهوا هم من استعداداتهم السرية داخل البرميل. بعد ذلك يُفتح البيت المقدس، وبضعة فرسان مدججين بأسلحة من ورق يجرون أحاديث مقتضبة قوامها مسبات وشتائم عنيفة وسرعان ما ينهالون بعد ذلك بعضهم على بعض بالضرب والطعن ثم يتمددون على الأرض صرعى ميتين مع إسدال السجادة المليئة بالثقوب. وفي الحال ضُممت إلى المشروع بوصفي صبياً ماهراً وأدخلت إلى البرميل بادئ ذي بدء الأولى مادة أكثر تحديداً ما هي إلا عن أحداث قصيرة انتقيتها من قصص الإنجيل أو من الكتب الشعبية ثم نقلت الأقوال الواردة عن تلك الأحداث نقلاً حرفياً وربطت بينها ببعض العبارات. ووجدت أيضاً أن ثمة رغبة في أن يكون للأبطال مدخل خاص بهم لكي يستطيعوا الظهور على خشبة المسرح دون أن يراهم أحد قبيل ذلك. لذلك نُشرت فتحة في الجدار الخلفي وقُطعت وخُدشت إلى أن صار بمقدور فارس

مسلح تسليحاً جيداً أن يزحف بتواضع عبر الفتحة، الأمر الذي بدا مرحاً ولطيفاً، حين كان يبدأ بإلقاء خطبه المزمجرة المتوعدة قبل أن ينتصب واقفاً تماماً. بعدئذ جيء بأغصان أشجار خضراء من أجل تحويل داخل البرميل إلى غابة، وقمت أنا بتثبيت هذه الأغصان بمسامير على الدائر ما عدا فتحة سدادة البرميل، التي ظلت مكشوفة لكي تدوي عبرها من عل أصوات فوق أرضية. وأحد الصبية جلب مرة كيساً مليئاً بطحين للمسرح فجلب بذلك عنصراً جديداً ورائعاً في إطار مجهوداتنا.

في أحد الأيام عُرضت مسرحية "داود وجوليات". الفلسطينيون كانوا في ميدان القتال وقد مارسوا تصرفات وثنية ثم أتوا إلى مقدمة المسرح في الجهة الأمامية من البرميل. بعد ذلك زحف بنو اسرائيل إلى الداخل وأخذوا ينوحون ويولولون يائسين قانطين ثم أتوا إلى الجهة الأخرى من مدخل المسرح، فإذا بالعملاق جوليات، وهو ولد كبير، يظهر على خشبة المسرح ويعيث مجوناً وعبثاً ينمان عن غطرسة واختيال فيثير بذلك ضحكاً كبيراً في أوساط كلا الجيشين وأوساط الجمهور أيضاً إلى أن يضع داود، وهو فتى يافع قصير القامة ومحب للقتال، نهاية للمجون بإطلاقه ثمرة كبيرة من كستناء الحصان من مقلاعه، الذي كان يجيد استخدامه، على جبين العملاق جوليات. فغضب هذا غضباً شديداً ورد على ذلك بأن وجه إلى رأس داود بنفس الخشونة والعنف لكمات صائبة ونشب بينهما في الحال عراك عنيف. هنا صفق الجمهور وكلا الجوقتين استحساناً وانحازوا إلى واحد من الطرفين، أما أنا فقد جلست ممتطياً ظهر البرميل، في إحدى يديَّ بقية ضوء خافت وفي الأخرى غليون فخاري وبعض الراتنج، وصرت باعتباري الإله زيوس أرسل صواعق قوية ومتواصلة فتخترق فتحة سدادة البرميل وتدخل إليه بحيث تندلع السنة اللهب في أوراق الشجر الخضراء ويحدث الورق المفضض الذي يغلف خوذة جوليات لمعاناً سحرياً يخطف الأبصار. من حين لآخر كنت أنظر بسرعة عبر الفتحة إلى داخل البرميل لكي أشجع المقتتلين ببسالة من جديد

بإرسال الصواعق ولم يدر في خاطري أي سوء نية حين ترنح فجأة وانقلب رأساً على عقب ذلك العالم، الذي كنت أظن أنني أهيمن عليه، وقذفني من عالي سمائي؛ لأن جوليات تغلب أخيراً على داود ورماه بقوة إلى الحائط. عند ذلك دوت صرخة عالية، وحين اكتشف صاحب البرميل تلك التغييرات التعسفية التي أجريت على برميله، أتى إلينا وأقفل ذلك البيت المتدحرج ممطراً إياناً بالتقريع والتجريح وبتوزيع الكلمات واللطمات.

ولكننا لم نفتقد إلى الأبد هذه الجنة الممنوعة، إذ سرعان ما أتت إلى مدينتنا إثر ذلك فرقة ممثلين ألمانية لكي تبني بموافقة السلطات العليا وعلى مرأى من الأهالي البيت البسيط المخصص للأحاسيس الجارفة بمقياس أكثر اكتمالاً ودقة مما تم حتى ذلك الحين على يد هواة وأطفال. جمعية الفنانين المتجولة هذه أقامت في فندق صغير من فنادق المدينة وحولت صالة الرقص الواسعة إلى مسرح وملأت في الوقت ذاته كل الغرف والأمكنة الأكثر تواضعاً بحاجاتها المتعلقة بالحياة البيتية. المدير وحده هو الذي أقام في غرفة فخمة وأكثر رونقاً وبريقاً.

وبالمناسبة كان ذلك البيت المأهول يشدنا إليه لا في أثناء العروض المسرحية المسائية فحسب، بل كانت لنا في أثناء النهار أيضاً وقفات كافية أمامه ومشاهدات كافية أيضاً، من جهة لكي نرى من أعجبنا بهم من الأبطال والملكات بأزيائهم الجريئة والفتانة ووقفتهم وقوامهم ومشيتهم في دخولهم وخروجهم، ومن جهة أخرى لكي نمتع أعيننا برؤية كل آلة وكل سلة مليئة بمعاطف وسيوف حمراء اللون وكل لوازم المسرح التي تُحمل إلى داخل المبنى. وكنا نمكث أيضاً على أفضل وجه أمام مبنى خلفي مكشوف، حيث كان يقف دهّان جريء محاطاً بعدد من القدور وإحدى يديه في جيب بنطاله ومعه فرشاة مطولة إلى ما لا نهاية كان يصنع بها أعاجيب على القماش أو الورق المفروش. لا أزال أتذكر بوضوح الانطباع العميق، الذي تركه في نفسي أسلوبه البسيط والمضمون في وضع ستائر بيضاء رقيقة وشفافة حول

نوافذ حجرة حمراء؛ فبفضل ما قل ودل من الخطوط والنقاط البيضاء على الأرضية الحمراء أدركت فجأة أمراً مهماً مع أنني كنت أقف أمام أمور كهذه، حين كانت تظهر أمامي في إضاءات ليلية، مندهشاً وفي جهل مطبق. هنا بزغت عندي أول رؤية إلى عالم الرسم؛ إن دهناً حراً لألوان كثيفة مغطية على أرضية شفافة أوضح لي أموراً كثيرة، فبدأت بعد ذلك أقتفي أثر الحد الفاصل بين هذين المجالين حين كنت أشاهد لوحة ما، ورفعتني اكتشافاتي إلى ما وراء الإيمان بالمعجزات، الإيمان الأعزل من كل سلاح الذي يتخلى في أي يوم من الأيام عن فهم شيء من هذا القبيل.

في أمسيات التمثيل على خشبة المسرح كنا نحضر بكامل عددنا ومن كل بد في مكاننا المعهود ثم نتسلل كالقطط من حول المبنى. ونظراً إلى أنني، في ظل إجراءات أمي المقترة، لم أجد أي فرصة للوصول إلى داخل معبد الفن بطريقة شرعية، فقد كان ذلك الوضع أفضل بكثير حتى من أوضاع رفاقي في مدرسة الفقراء الذين كانوا معتمدين أيضاً في تسللهم إلى المسرح إما على أدائهم خدمات صغيرة أو على مكرهم الجسور. أفلحت مرات عديدة أيضاً في التسلل بوجيب قلب سريع إلى الصالة المكتظة بالناس وشاهدت مشاهدة الكرام وبنظرات مرتاحة أعمال الديكور لدى فتح الستارة وثياب الممثلين وأزياءهم لكي أتعمق أخيراً، بعد أن تكون قد حُكيت أشياء كثيرة، في دراسة الخرافة. وسرعان ما كنت ملماً جداً بمعرفة هذا المجال وصرت أحاور أصدقائي باستفاضة مع افتراض برودة الدم في أثناء ذلك. هذا الانقسام، المتمثل في هدوء العارف المفترَض والاستسلام الجارف الذي لا مفر منه حتى لأكثر المسرحيات انحطاطاً، بدأ يغضبني؛ وكان يعتريني من الآن فصاعداً حنين إلى الذهاب دفعة واحدة إلى ما وراء الكواليس لكي أشاهد عن قرب التمثيل الخلاب والممثلين وأدواتهم ولوازمهم، فقد خيل إليّ أن العيش هناك لا بد أن يكون أفضل من العيش في أي مكان آخر في هذا العالم، دون أهواء جارفة وبشعور من التفوق. ولكنني لم أجرؤ على التفكير بأن

أمنيتي هذه سهلة التحقق، وإذا بحسن الطالع يقدم لي فجأة فرصة لذلك دونما توقع أو حسبان. كنا واقفين في إحدى الأمسيات يائسين أمام باب جانبي، حين كانت تعرض للتو مسرحية فاوست. سبق أن سمعنا عن إمكانية رؤية الدكتور فاوست العظيم، الذي كنا نعرف عنه ما يكفي، إضافة إلى الشيطان وإلى كل روعاته وبهاءاته على خشبة المسرح، ولكننا وجدنا كل العوائق التي كانت تقف في طرق تسللنا المعتادة متعذراً إزالتها في ذلك اليوم. ونحن في تلك الحالة كنا نسمع بكل أسىً ولهفة أنغام المقدمة الموسيقية من مسرحية فاوست، التي عُزفت من قبل عشاقها من نبلاء المدينة ووجهائها، وكنا ننهك تفكيرنا في اقتحام المبنى الذي ربما لا يزال ممكناً. كانت تلك أمسية خريفية داكنة وكان المطر ينهمر بلا توقف والطقس يميل إلى البرودة. اعترتني قشعريرة البرد وفكرت عندئذ في العودة إلى البيت، خصوصاً أن أمي كانت تشكو باستمرار من تسكعي في الشوارع خلال ساعات المساء، وإذا الباب القاتم اللون يُفتح فجأة ويخرج منه خادم أخذ ينادينا بصوت عالٍ: "أنتم هناك، أيها الصبيان! ثلاثة أو أربعة منكم يمكنهم الدخول، علهم يشاركون في تمثيل المسرحية!" إثر سماع هذه الكلمة السحرية سرعان ما تدافع الصبية الأكثر قوة واقتداراً للدخول إلى المبنى، لأن تلك كانت حالة لا تتيح لأحد فرصة للتفكير إلا بمصلحته هو فحسب. ولكن الخادم رفضهم بسبب كبرهم وسمنتهم، في حين دعاني أنا للاقتراب منه – مع أنني كنت أقف في الخلف ولم أعلق آمالاً كبيرة على إمكانية اختياري- ثم قال: "هذا الذي هناك هو صبي مناسب، وسوف يكون قرداً جيداً!" وبالإضافة إليّ أمسك الرجل بصبيين آخرين نحيلي الجسم وأغلق الباب وراءنا ثم مشى في مقدمتنا إلى صالة صغيرة تحوّلت إلى غرفة ملابس. هناك لم يكن في تصرفنا وقت كاف للتفرج على أكوام الثياب والأسلحة والمعدات، إذ سرعان ما طُلب إلينا خلعُ ثيابنا وأُلبسنا عوضاً عنها ثياب مغامرات مصنوعة من الفرو الذي شكل تغطية كاملة لأجسامنا من الرأس حتى القدم. أما وجه القرد فقد أمكن رده إلى الوراء كالقلنسوة، وحين

وقفنا هكذا متبدلين على هذا النحو وممسكين أذيالنا الطويلة بأيدينا، صرنا نبتسم بسرور غامر ويهنئ بعضنا بعضاً آنذاك فقط.

ثمَّ سير بنا إلى خشبة المسرح حيث استقبلنا قردان كبيران بكل سرور ومرح ووُضعنا بسرعة بمهمتنا المقبلة إلينا. وفهمنا بسرعة أيضاً ما كان مطلوباً منا وأنجزنا بروفة موفقة من مختلف الشقلبات وقفزات القرود ولعبنا أيضاً بكل رقة ورشاقة بكرةٍ صغيرة إلى أن استُغني عنا مؤقتاً إلى حين موعد ظهورنا على المسرح وأداء دورنا. فتنزهنا بكل وقار وهيبة مشياً على الأقدام في وسط الزحام الذي دلف واختلط بعضه ببعض في المكان الضيق والواقع بين الجدران الأربعة الحقيقية والأخرى المرسومة، وعلى الفور نظرت بعين ثابتة تارة إلى خشبة المسرح وتارة أخرى إلى ما وراء الكواليس وصرت أراقب بسرور عارم كيف خرجت بكل هدوء وغفلة من الفوضى المقنّعة والمفعمة بصخبٍ وخصامٍ حبيسين صورٌ وأحداثٌ مرتبة وظهرت في المكان المكشوف والمضيء كما لو أنها في عالم ماورائي لكي تعود مرة أخرى إلى المنطقة المعتمة بنفس الغموض والاستعصاء على الفهم. كان الممثلون يضحكون، يمزحون، يتلاطفون ويتشاجرون، وأحياناً كان واحد منهم يبتعد فجأة عن مجموعته ويقف للحظة وحيداً ومهيباً في وسط السطوة السحرية ويُظهر للمتفرجين الذين لم أكن أراهم وجهاً ورعاً كما لو أنه كان يقف أمام الآلهة، المتجمعين في ذلك المكان. وفي لمح البصر كان يعود إلينا لمتابعة الشتائم والمجاملات، التي كانت توقفت في أثناء غيابه، في حين كان انفصل عن المجموعة ممثل آخر لكي يفعل كما فعل زميل له من قبل. هؤلاء الناس كانوا يعيشون حياتين الواحدة منهما قد تكون حلماً، ولكنني لم أفهم أيهما كانت الحلم وأيهما كانت الحقيقة الواقعية عندهم. لقد بدا أن الفرح والألم موجودان مختلطان بنسبة متساوية في كلتا الحياتين، ولكن في داخل المسرح، حين كانت الستارة تفتح، بدت هيمنة العقل والكرامة وهيمنة يوم مشرق وبدت بالتالي ماثلةً للعيان الحياةُ الحقيقيةُ الواقعيةُ، بينما ينهار كل شيء حالما تُغلق

الستارة ويتحول إلى فوضى مقبضة حالمة. وخيّل إليّ أيضاً أن أولئك الفعالين في هذا الحلم الضغث بجموح وانجراف إلى أبعد الحدود، كانوا هناك في الجانب الأفضل من الحياة الأشخاص الأكثر نبلاً والأقوى تعبيراً، لكن أولئك السلبيين، الذين كانوا بقربهم واتصفوا بالهدوء والبرودة والدماثة، هم الذين أدّوا في خضم ذلك البريق والتألق دوراً أشبه ما يكون بالحزين. نص المسرحية لم يكن إلا الموسيقى التي فعَّلت الحياة ودفعتها إلى الأمام. وحالما صمتت، هدأ الرقص كساعةٍ توقفت. أبيات فاوست الشعرية، التي تُلهب حماساً كلَّ ألماني حالما يسمع بيتاً واحداً منها، وهذه اللغة الموفقة والمشبعة إلى درجة الإعجاب والإعجاز كانت ترن باستمرار كموسيقى نبيلة وكانت تفرحني وتدهشني مع أنني لم أكن أفهم منها أكثر من قرد حقيقي طويل الذيل.

في أثناء ذلك شعرت فجأة بيد تمسك بذيلي وتجرني من الخلف إلى مطبخ الساحرات، حيث كانت كل القرود منهمكة في القفز هنا وهناك على غير هدى في حين كان يشع ضياء ولمعان وجوه وعيون لا حصر لها من الطابق الأرضي إلى داخل المطبخ. كنت تجاهلت حتى الآن الديكور الذي ظهر في مطبخ الساحرات وكان عليّ أن أستدرك أشياء كثيرة مما فاتني، لأن الأشياء الخيالية التي كانت من حولي والصور المشوهة والأشباح كان من شأنها جميعاً أن شدت انتباهي واستهوتني كما استهوتني أيضاً أفعال الشيطان ميفستو والساحرة والقرود الأخرى. وكما لو أنني لم أكن أنا نفسي قرداً طويل الذيل وعليّ أن أؤدي مهمة بصفتي كذلك، فقد نسيت تماماً القفزات وألاعيب المجون التي سبق أن تدربت عليها وصرت أتفرج في حالة من الهدوء ونسيان الذات على الآخرين. والآن نظر فاوست بافتتان عارم إلى مرآة السحر، وكم تعجبتُ مما حصلت رؤيتُه هناك من عجائب؟ وحين حولت نظري إلى الاتجاه نفسه من قبيل التقليد، مرت نظراتي بالمرآة الفارغة المرسومة إلى ما وراء الكواليس واكتشفت هناك في حمأة فوضى تلك الحياة الآخرة الصورة التي كان فاوست قد زعم أنه رآها. في أثناء ذلك كانت

غريتشن وصلت إلى خشبة المسرح وأخذت تطلي وجهها، وهي ترسل إلى الوراء كلمات مؤثرة بعمق، بآخر أصباغ الزينة بعد أن كانت جففت عينيها ووجنتيها بعناية وإحكام بمنديل أبيض كما لو أنها كانت تجهش بالبكاء. كانت امرأة جميلة جداً إلى درجة أن عيني لم تعد تصرف النظر عنها غير آبهٍ بالكلمات والتأنيبات التي تلقيتها من زملائي القرود المواظبين. وهكذا اختزلتُ كل مطالبي وأمنياتي، أنا الذي كنتُ أحن من قبل بشدة إلى هذا المجال الأسمى، بأمل العودة إلى حيث كانت تجول شخصية هذه المرأة كاملة الجمال.

أخيراً آلت فترة عملنا إلى الانتهاء، أما أنا فقد أنجزت قفزتي الأولى والوحيدة الجيدة حين خرجت بل قفزت من ساحة الحدث محاولاً الاقتراب قدر الإمكان من الصورة المرئية. إلا أنها بدورها وجدت نفسها في اللحظة نفسها وحيدة في قلب الحدث فلم أستطع إذّاك رؤيتها من جديد إلا من بعيد.

بدا أنها تحمل في داخلها منغصاً عميقاً فكان تمثيلها لهذا السبب مزيجاً من الملاحة والحنق الماثل للعيان. هذا المزيج لم يسفر بالطبع عن غريتشن جيدة، ولكنه أضفى على الممثلة جاذبية مميزة، تعاطفت معها ضد أعدائها المجهولين عندي وابتدعت على الفور الرواية التي ربما كانت تورطت فيها. ولكن سرعان ما تفكك هذا النسيج العابر من التهيؤات وذاب مع التصورات المعروضة على خشبة المسرح، حين أصبح مصير البطلة مأسوياً. عندما كانت مستلقية على القش في سجنها وبدأت بعد ذلك تهذي، مثلت دورها ببراعة فائقة بحيث هزني ذلك بهلع عميق ولكن تشربت في الوقت ذاته بانفعال حار متعطش صورة المرأة الغارقة في الشقاء والتعاسة إلى أقصى حد، لأنني حسبت هذا الشقاء حقيقياً وكم كنت مندهشاً بذلك المشهد الذي فاق بقوته كل ما سبق لي أن رأيت أو سمعت حتى الآن.

أسدلت الستارة وعمت الفوضى على خشبة المسرح في كل شيء في حين انهمكت أنا في اقتفاء أثر بعض الأوراق التي سبق أن لاحظتها من قبل في أيدي المدير والفنانين ووجدتها بعد ذلك في إحدى الزوايا الكائنة خلف

جدار مرسوم. استمتعت كثيراً باطلاعي على ما كتب في تلك الأوراق مما تمخض عن تبعات كبيرة، ولذلك سرعان ما غرقتُ في قراءة الأدوار المسرحية، على الرغم من أنني كنت أحطتُ إدراكاً بالظواهر الجسدية وأحسست بها، إلا أن الكلمات المكتوبة ولغة الإشارات، النابعة من عقل ناضج ورجولي كبير، ظلت عصية تماماً على فهم طفل جاهل، والدخيل الصغير وجد نفسه بكل تواضع مقتاداً مرة أخرى إلى أمام باب موصد لعالم أكثر علواً وسمواً، وسرعان ما رأيتُني بفعل أبحاثي وتحرياتي أستسلم للنعاس فالنوم العميق.

وحين استيقظتُ من جديد كان المسرح خاوياً وهادئاً، المصابيح مطفأة، وكان بدر التمام يسكب ضوءه بين الكواليس فوق الفوضى النادرة. لم أعرف ماذا جرى لي ولا أين كنت، ولكنني حين اطلعت على وضعي اعتراني خوف شديد وصرت أبحث عن مخرج فوجدت الأبواب التي كنت دخلت منها من قبل مقفلة. فاستسلمت الآن لما حدث وبدأت من جديد بدراسة كل الأشياء النادرة الموجودة في هذه الأمكنة. أخذت أتلمس الروائع الورقية، التي كانت تصدر حفيفاً مثيراً ووضعت معطفي الصغير وسيف ميفستوفيليس، اللذين كانا ألقيا على أحد الكراسي، حول بدلتي التي مثلتُ فيها على خشبة المسرح دور القرد طويل الذيل. وهكذا أخذت أتنزه مشياً على الأقدام في ضوء القمر صعوداً ونزولاً واستللت السيف وبدأت ألوح به بيديَّ. بعد ذلك اكتشفت آليات تشغيل الستارة وأفلحت في فتحها. هنا ظهرت أمامي صالة المشاهدين معتمة وسوداء كعين أصيبت بالعمى؛ نزلت إلى منصة الأوركسترا حيث كانت الآلات الموسيقية ملقاة على الأرض بغير اكتراث أو اهتمام ماعدا آلات الكمان التي كانت موضوعة بعناية في صناديق صغيرة مقفلة. وعلى الطبول ألقيت مضاربها الرفيعة التي أمسكت بها وأخذتُ، في حين كانت يداي ترتجفان خوفاً وتردداً، أقرع على الجلد بحيث كان يصدر صوتاً ودياً وعميقاً. ثم تشجعت أكثر وصرت أقرع بقوة أشد إلى أن دوى الصوت أخيراً كعاصفة

عبر الصالة الخاوية عند منتصف الليل. كنت أضخم دوي الرعد ثم أعود فأضعفه وحين يتلاشى كانت تبدو لي فترات الاستراحة أجمل بكثير من الدوي ذاته. وأخيراً أرعبني هذا العمل فرميت مضارب الطبل بعيداً ولم أجرؤ على القفز إلى ما وراء مقاعد الطابق الأرضي لكي أجلس في أقصى الخلف مستنداً إلى الحائط. هنا أحسست بالبرد وتمنيت لو أنني في البيت واعتراني خوف شديد في وحدتي. كانت النوافذ في هذا الجزء من الصالة مقفلة تماماً بحيث لم تكن سوى خشبة المسرح، التي كانت لا تزال تمثل السجن، بفضل ضوء القمر مضاءة بشكل سحري خلاب. في ما وراء الكواليس كان الباب الصغير لا يزال مفتوحاً حيث كانت غريتشن مستلقية، شعاع خافت تسرب إلى مخزن القش؛ فكرتُ في تلك اللحظة بغريتشن الجميلة التي سوف تواجه مصير الإعدام، وبدا لي سجنها الهادئ والمضاء بضوء القمر أكثر سحراً وقداسة مما بدت حجرتها فيما مضى لفاوست. أسندت رأسي إلى كلتا راحتيَّ وأرسلت نظراتي المفعمة بالشوق والحنين إلى الجانب الآخر، ولا سيما إلى التجويف الذي مر به الضوء مرور الكرام، حيث القش المفروش على الأرض. هناك دبت حركة في الظلام فنظرت إلى المكان وأنا حبيس النفَس من الخوف، والآن وقف شبح أبيض اللون في تلك الزاوية، كان ذلك الشبح هو غريتشن كما سبق لي أن رأيتها آخر مرة. اعترتني قشعريرة من قمة رأسي حتى أخمص قدمي واصطكت أسناني، في حين اعتراني في الوقت ذاته شعور قوي بمفاجأة سعيدة وغمرني بالدفء. أجل، كانت غريتشن بالذات، كانت روحها على الرغم من أنني لم أستطع بسبب البعد أن أميز ملامحها، الأمر الذي جعل ظهورها متسماً بطابع أكثر شبحية. بدت منهمكة في البحث على غير هدى في أرجاء المكان عن شيء ما وبنظرات قاتمة، نهضتُ واقفاً وثمة شيء جرني إلى الأمام كما لو أنه أمسكني بيدين ضخمتين خفيتين وفي حين صارت خفقات قلبي قوية ومسموعة مشيت فوق المقاعد باتجاه مقدمة المسرح، متوقفاً لحظة بعد كل خطوة. قدماي المغلفتان بالفرو لم يُسمع وقع

خطاهما ولذلك لم ألفت انتباه الشبح إلا بعد أن ألقى القمر، وأنا أتسلق قبو الملقنين، على ثيابي غير المألوفة أول بقعة من ضوئه. رأيتها في حالة من الارتياع وهي توجه عينها المتطايرة شرراً باتجاهي، لكن بهدوء ودون أن تنبس ببنت شفة، وقد خفقت جوانحها من الذعر. اقتربتُ منها خطوة صامتة ثم توقفتُ من جديد، كانت عيناي مفتوحتين باتساع كبير، رفعتُ يديّ إلى الأعلى وهما ترتجفان ومشيتُ إلى الشبح وقد شبت في داخلي نار شجاعة جذلى. وهنا صرخ الشبح بصوت ينم عن نبرة آمرة ناهية: "توقف، أيها الشيء الصغير، ما أنت؟" ثم مدت ذراعها باتجاهي مهددة بحيث بقيت في مكاني مذهولاً، لا أبرحه قيد أنملة. نظرنا بعضنا إلى بعض بثبات، وعرفتُ الآن ملامحها جيداً، كانت تلف جسدها بثوب ليلي أبيض، كانت رقبتها عارية وكان الكتفان عاريين أيضاً مما نم عن ضوء خفيف كضوء الثلج في الليل. تشممت في الحال الحياة الدافئة؛ وجرأة المغامرة التي كنت أحسست بها إزاء الشبح تحولت إلى ارتباك طبيعي أمام المرأة الحية. أما هي فقد كانت لا تزال في شك من ظهوري الشيطاني ولذلك صرخت في وجهي مرة أخرى: "من أنت أيها الصبي الصغير؟" فأجبت بصوت منخفض: " اسمي هاينريش لي وأنا واحد من القردة الذين ظهروا على خشبة المسرح، وأنا هنا محاصر، فقد أقفل علي الباب!".

فأتت إليّ وأرجعت قناع وجهي إلى الوراء ثم لمست وجهي بكلتا يديها وقالت ضاحكة بصوت عالٍ: "يا إلهي، هذا هو القرد المهذب! أي، أيها الوغد الصغير! ألأنت الذي أحدث صخباً كما لو أن عاصفة هادرة هبت في هذا المبنى؟" قلتُ: "نعم!" وعيناي مستقرتان باستمرار في البقعة البيضاء من صدرها وقلبي مغمور بالفرح لأول مرة من جديد بهذا القدر من الخشوع والتهيب، كما حدث ذات مرة حين نظرت إلى الشفق اللامع عند المساء وظننت آنذاك أنني أرى الله متجسداً فيه. بعد ذلك تأملت بارتياح جدير بالترحيب في وجهها الجميل واستسلمت من دون أي حرج أو ارتباك

للانطباع الحلو الذي خلفه عندي ثغرها المثير. وبدورها نظرت هي إلي لفترة بهدوء وجدٍّ ثم قالت: "يبدو لي أنك فتى طيب، ولكن حين تكبر ستصبح فظاً، شأنك شأن الجميع! " ثم ضمتني إليها وقبلتني مرات كثيرة على فمي، الذي لم يكن ليتحرك ببطء إلا بفعل تلك القبل، حيث توجهت سراً إلى الله بصلاة شكر من أعماق قلبي على تلك المغامرة الرائعة، لكن كان من شأن التقبيل أن أحدث انقطاعاً في صلاتي.

إثر ذلك قالت: "من الأفضل الآن أن تبقى عندي إلى اليوم التالي، لأن منتصف الليل مضى منذ فترة طويلة! " ثم أمسكت بيدي وقادتني عبر بضعة أبواب إلى غرفتها حيث كانت نامت من قبل، ولكن عبثي في أثناء الليل أيقظها. هناك أعدت لي مكاناً للنوم في سريرها إلى جانب قدميها، وحين استلقيت في ذلك المكان تدثرت هي بمعطف مخملي واستلقت بالطول في السرير ثم أسندت قدميها الخفيفتين إلى صدري مما جعل قلبي يدق تحتهما بكل متعة وحبور. وهكذا نمنا في وضع شبيه تماماً بتماثيل القبور القديمة، التي يستلقي متمدداً عليها فارس حجري وتحت قدميه كلب وفي.

* * *

الفصل الثاني عشر

عائلة القرّاء. زمن الكذب

نتيجة للقلق والاضطراب، اللذين نجما عن غيابي ليلاً عن البيت، مُنعت بتاتاً من التسكع مساء ومن زيارة المسرح، وحتى في أثناء النهار كنت أخضع بمتابعة أكبر للمراقبة وحُدَّ من اختلاطي بأطفال الناس الفقراء، الذين نُسب إليهم خطأً تمتُعهم بحرية لا محدودة ومفسِدة ومعدية. وهكذا غادر الممثلون الغرباء مدينتنا دون أن ألتقي بتلك المرأة التي امتلكت قلبي بالتمام والكمال. وحين سمعت أن الجماعة ارتحلوا تملكني حزن عميق دام وقتاً طويلاً. وبقدر ما كنت أجهل المكان الذي ارتحلوا إليه، كانت كل البلاد الواقعة وراء الجبال موطناً لرغبات مجهولة وتطلعات قاتمة.

في هذه الفترة اختلطت يومياً تقريباً بصبي كانت أخواته البالغات والمغرمات بالمطالعة جمعن عدداً كبيراً من الروايات الرديئة. أجزاء من كتب كانت فقدت من مكتبات إعارة ومهملات ضئيلة الشأن حُصل عليها من بيوت أرستقراطية أو اشتُريت من بائعي كتب قديمة كانت توجد ملقاة بكل إهمال على حواف النوافذ وعلى المقاعد والطاولات في بيت هؤلاء الناس، وفي أيام الأحد لم يكن الأمر مقتصراً على الأخوات وعشاقهن، بل كنت تجد أيضاً الأب والأم وغيرهما ممن كانوا في بيت العائلة متعمقين في قراءة تلك الكتب المتسخة. كان كبار السن منهم بلهاء يبحثون في هذا النوع من التسلية عن مواضيع لأحاديث سخيفة، بالمقابل عمل الصغار على تنشيط مخيلاتهم

بهذه الأعمال الرديئة، الأقل من عادية والخالية من أية شاعرية أو بالأحرى بحثوا هنا عن عالم أفضل تعذر عليهم إيجاده في الحياة الواقعية. كان لهذه الروايات نوعان رئيسيان، النوع الأول كان تعبيراً عن العادات السيئة في القرن الماضي وارداً في تبادل رسائل بائس وقصص إغواء يرثى لها، والنوع الآخر هو روايات فظة عن حياة الفرسان. الفتيات أخذن بالنوع الأول باهتمام كبير وارتمين تطبيقاً لذلك في أحضان عشاقهن المشاركين لهن والذين أمطروهن بالتقبيل والتحبب والتدليل، أما عندنا نحن الصبيان فقد كانت هذه الوصوفات النثرية الجافة واللاحسية لشهوانيةٍ لم تكن لحسن الحظ في متناول التمتع، وكنا نكتفي بتناول إحدى قصص الفروسية وننسحب. على أن الرضا الواضح، الذي نجم عن هذه القصص الخشنة، كان من شأنه أن أراح مشاعري المثارة وأعطاها شكلاً واسماً. وسرعان ما حفظنا أجملها عن ظهر قلب وكنا نمثل أحداثها في كل مرة بمتعة جديدة أنَّى ذهبنا وأينما وقفنا، في عليَّات البيوت وفسحاتها، في الغابة والجبل، وكنا نكمل الأشخاص سلفاً من صبيان سهلي الانقياد وكنا نروضهم على عجل. هذه الألعاب ذاتها أسفرت شيئاً فشيئاً عن اختراع قصص ومغامرات مستمرة متسلسلة، وهذه أسفرت بدورها أخيراً عن أنه أصبح لكل واحد منا قصصه القلبية والفروسية الكبيرة الخاصة به، وكان يروي أحداثها للآخرين بكل جدية، إلى أن وجدنا أنفسنا محاطين ومتورطين بشبكة ضخمة من الكذب، لأننا كنا نروي بعضنا لبعض معايشاتنا المتخيلة في كلا الطرفين بطريقة تنم عن أننا نطالب بأن نحظى بالتصديق من كل بد ومنح بعضنا بعضاً ظاهرياً التصديق اللازم تحقيقاً لنوايا أنانية ومصالح شخصية. هذه المصداقية الزائفة غدت سهلة لديَّ، لأن الموضوع الرئيسي لقصصنا في كلا الطرفين كان باستمرار سيدة متألقة ورائعة من مدينتنا ولأنني سرعان ما خلعت على السيدة، التي اخترتها موضوعاً لأكاذيبي، ميلي واحترامي. إلى جانب ذلك كان لنا أعداء ومنافسون أقوياء وكنا نعدّهم ضباطاً فرساناً مرموقين ونراهم غالباً وهم ممتطون

صهوات جيادهم. ثم أظهرنا أننا نمتلك ثروات مخبأة وقد بنينا منها قصوراً رائعة في أمكنة نائية ومعزولة وكنا ندّعي وعلى وجوهنا ملامح انهماك مهمة أننا نشرف على هذه القصور. إلا أن مخيلة رفيقي انشغلت علاوة على ذلك بحيل ومكايد كثيرة وقد ركزتْ قبل كل شيء على الاهتمام بالتملك والأوضاع الصحية الجيدة وتخيل في هذا المجال أغرب القصص والأحداث، في حين استخدمت أنا كل موهبتي التخيلية في مجال عشيقتي المنتقاة وفي المزايدة على أوضاعه المالية المقترة والشاقة، التي جمعها بالأحلام دون توقف، بكذبة ضخمة عن كنز كبير مستخرَج مظهراً بذلك تفوقي وانتصاري عليه. ربما كان ذلك مدعاة لانزعاجه، ولأني لم أكترث نظراً إلى أنني كنت راضياً عن عالم تخيلاتي لمصداقية تباهياته، فقد بدأ يضايقني بتشكيكه في مصداقية تباهياتي ويلح في طلب البراهين عليها. وحين تحدثت آنذاك بشكل عابر عن وجود علبة مليئة بالذهب والفضة في مستودع قبونا، أصر إصراراً شديداً على أن يراها. حددت له موعداً لذلك فتقيد به تقيداً تاماً وسبب لي بذلك حرجاً لم يسبق لي أن خطر على بالي مثيل له أبداً. ولكنني سرعان ما طلبت منه آنذاك الانتظار هنيهة أمام البيت وعدت أدراجي بسرعة إلى الحجرة التي وجدت فيها علبة خشبية صغيرة كانت مخبأة في درج طاولة أمي وكان فيها كنز صغير من قطع فضية قديمة وجديدة وبضع قطع من عملة الدوكات. هذا الكنز كان يحتوي من جهة على هدايا التعميد منذ طفولة أمي ومن جهة أخرى على هدايا تعميدي أنا وتعود ملكيته كله بصورة معلنة إلي أنا. ولكن الحلية الرئيسية كانت قطعة ذهبية ضخمة من عملة تذكارية بحجم قطعة التالر وذات قيمة عظيمة، وهي الهدية التي كانت السيدة مارغريت قدمتها إلي في ساعة رضا فأودعتُها بأمانة لدى أمي ذكرى وفاء إلى أن أكبر أنا وتكون هي قد رحلت عن هذه الدنيا. كان مسموحاً لي أن أخرج العلبة الصغيرة من مكانها وأتفرج على الكنز اللامع كلما أردت ذلك، وقد سبق لي أن جلت بها أيضاً في أرجاء البيت كلها. وهكذا أخرجتها الآن وحملتها إلى مستودع القبو ووضعتها

في صندوق كبير مليء بالقش، ثم طلبتُ من ذلك المتشكك بحركة تنطوي على غموض وإبهام أن يدخل وهوّيت غطاء الصندوق قليلاً وأخرجت العلبة منه. وحين فتحتها أومضت في وجهه قطع الفضة المتلألئة بضياء باهر، ولكن حين أخرجت قطع الدوكات وأخيراً القطعة الذهبية الكبيرة وصارت تلمع في العتمة بطريقة نادرة وظهر عليها السويسري العجوز حاملاً الراية كما ظهر أيضاً الإكليل المحتوي على دروع الشعارات، اتسعت حينذاك عيناه اندهاشاً واستغراباً وأراد أن يدس كل أصابعه الخمس في العلبة. ولكنني أغلقتها ووضعتها في الصندوق من جديد وقلت: "العلبة كما ترى مليئة بأشياء كهذه!" وبذلك أخرجته من القبو وسحبت المفتاح. الآن انتصرتُ عليه هذه المرة، لأنه على الرغم من تأكده من كذب حكاياتنا الأسطورية، إلا أن نبرة اختلاطنا التي تمسكنا بها حتى الآن لم تسمح له بمتابعة الإلحاح خصوصاً أن تأدب الحياة المفعم بالمراعاة كان يتطلب الحفاظ على الضبابية التي كانت تُعرض بأسلوب جيد. لا بل كان من شأن هذا التسامح المؤقت أن أعطى صديقي فرصة لدفعي إلى مزيد من الكذب ووضعي أمام اختبارات حرجة أكثر فأكثر.

بعيد ذلك التقينا، إبان إقامة القداس، على ضفاف البحيرة، وصرنا نتسكع أمام محلات الأمتعة القديمة التي اصطفت هناك جنباً إلى جنب وشكلت شوارع طويلة وحيّا بعضنا بعضاً كساحرات ماكبث بسؤال "ماذا أنجزت؟". ووقفنا أمام مخزن رجل إيطالي كان يعرض للمساومة، إضافة إلى مأكولات جنوبية، مجوهرات وألعاباً براقة أيضاً. تين، لوز وتمر، صناديق مليئة بالمعكرونة البيضاء، لكن بصورة خاصة جبال من نقانق السلامي الهائلة – كل ذلك كان من شأنه أن استهوى ذهن زميلي إلى تخيلات جريئة، في حين تمعنتُ أنا بأمشاط نسائية رقيقة، بزجاجات زيت وأطباق مليئة بمخاريط سوداء اللون وتلزم لتدخين اللحوم والمأكولات، وفكرتُ تقريباً في أن استخدام هذه الأشياء في أي مجال هو أمر جيد. هنا بدأ رفيقي يكذب بقوله: "اشتريت

قبل قليل نقانق سلامي كهذه لأجرب إن كان ينبغي علي الحصول على صندوق منها من أجل وليمتي التالية. وحين قضمت قليلاً منها تقززت من طعمها ورميتها في البحيرة، ولا بد أن النقانق ما تزال تسبح هناك، رأيتها لتوي في هذه اللحظة. "ونظرنا إلى مرآة الأمواج المتلألئة حيث كانت تفاحة أو ورقة خس تتموج بين السفن، لكن لم نر أي نقانق. قلت بحسن نية: "إي، ربما تلقفتها واحدة من أسماك الكركي!" فأقر رفيقي بهذا الاحتمال وسألني ما إذا كنت أريد ان أتسوق بعض الأشياء؟ فأجبته: "طبعاً، أريد أن أشتري هذه القلادة لعشيقتي! " وأشرت عند ذلك إلى قلادة عنق من الحلي المزيف، إلا أنها مذهبة ولامعة. هنا تمسك بي ولفني بشبكة من الالتزام الأخلاقي وقد زوده الفضول ليعرف إن كان الكنز المحاط بالأسرار الخفية فعلاً تحت تصرفي، بالكلمات اللازمة لذلك. وهكذا لم أجد مخرجاً آخر غير ذهابي إلى البيت والانشغال بمطمورة توفيري. بعد ذلك بلحظات غادرت البيت من جديد، وفي يدي المغلقة جيداً بضع قطع فضية لامعة، وتوجهت واجفاً خافق القلب إلى السوق حيث استقبلني هناك شيطاني المتربص. ساومنا على القلادة أو بالأحرى دفعنا ما طلب الإيطالي منا، وانتقيت أيضاً سواراً من رقائق العقيق اليماني وخاتماً له عجينة زجاجية حمراء اللون، هنا رمقني التاجر كما رمق أيضاً قطع النقود الجميلة بنظرات غريبة، لكنه مع ذلك دس القطع في جيبه، أما أنا فكنت على عجلة من أمري في الطريق إلى البيت الذي كانت تقيم فيه سيدتي. في ساحة نائية معزولة كان ثمة ستة من بيوت السادة، التي حافظ أصحابها بفضل تجارة الحرير على علو وجاهتهم السابقة. في هذا المكان المتصف بهدوئه وعزلته ونظافته لا تطالعك حانة أو أي محل آخر تمارس فيه أي مهنة، وكان بلاط الشوارع أكثر بياضاً وأفضل مما في أحياء المدينة الأخرى وقد أحيط بأسوار حديدية نفيسة. في أكبر هذه البيوت وأكثرها وجاهة كانت تسكن السيدة التي هي موضوع كذباتي وهي واحدة من تلك الشابات الفاتنات، اللواتي- إذ نمون بطريقة جيدة ورشيقة – يفتنّ قليلي الخبرة

ويُدخِلن البهجة والسرور حتى إلى قلوب ذوي الجباه ذات الأخاديد، بعبارة أخرى مجملة: اللواتي هن الجمال بعينه وذلك بما أوتين من لون وجه زهري وعيون واسعة ضاحكة وشفاه لطيفة وخصلات شعر غنية وحُجُب مرفرفة وثياب حريرية. كنا وصلنا إلى أمام البوابة الفخمة، فختم مرافقي أخيراً محاولات إقناعي بوجوب تقديم هداياي إلى سيدتي الآن أو لا أقدمها أبداً، بأن أمسكَ بوقاحة قبضة جرس البيت اللامعة وشدها بقوة. ولكن على الرغم من وقاحته، هكذا قد يقول رجل أرستقراطي، فإن طاقته الكامنة في عاميته لا تكفي لإحداث رنين قوي، إذ إن مجهوده لم يسفر إلا عن رنة وحيدة تبدد صداها في داخل البيت الكبير بخوف ومهابة. وبعد بضع ثوان فُتحت إحدى درفتي البوابة حول جسم غير ملحوظ فدفعني مرافقي إلى الداخل ودخلت مكرها خوفاً من إحداث أي ضجة. هناك وقفتُ هكذا في حيرة تعزّ عن الوصف بجانب دَرَجٍ حجري واسع ينتهي في الجهة العليا بين أروقة واسعة. وضعت السوار والخاتم مضغوطين في يدي في حين كانت القلادة تنبثق جزئياً من بين أصابعي؛ في الأعالي سُمعت خطوات كانت أصداؤها تتردد في كل الاتجاهات وإذا واحد من الناس ينادي من عل: مَن هناك؟ لزمتُ الصمت والهدوء ولم يستطع أن يراني أحد وتابعت المشي بعد إغلاق الباب من خلفي. والآن صعدت ببطء على الدرج متلفتاً حولي بحذر، إلى كل الجدران وقد علقت لوحات زيتية كبيرة، إما لمناظر طبيعية رائعة أو لحياة هادئة خشنة. كانت السقوف مطلية بدهان أبيض تتخلله نقوش صغيرة، وعلى مسافات محددة كانت تقف أبواب عالية من اللون البني الغامق وخشبِ الجوز ومحاطة بأعمدة وجملونات من النوع نفسه، وكل شيء مزدان بلمعان باهر. كل خطوة من خطواتي كانت تحدث صوتاً في القباب، وبصعوبة تجرأت على المشي ولم أفكر بتاتاً في ما أردت أن أقول إذا ما بوغتُّ فجأة. أمام كل باب وضعت حصيرة من القش، غير أنه أمام واحد من تلك الأبواب وضعت حصيرة محبوكة من قش ملون ومتميزة الغنى والزخرفة، وإلى جانبها وقفت طاولة

صغيرة قديمة ومطلية بالذهب وعليها سلة صغيرة من صنع اليد وفيها أدوات تريكو وبضع تفاحات وسكين صغيرة فضية جميلة وضعت في أقصى حافة السلة كما لو أنها وضعت في ذلك المكان قبل هنيهة فحسب. ظننت أن الآنسة تقيم هنا ووضعت، وأنا غارق في تلك اللحظة في التفكير فيها، جواهري في وسط الحصيرة ما عدا الخاتم الذي وضعته في أسفل السلة الصغيرة على قفاز ناعم. ولكنني بعد ذلك سرعان ما نزلت الأدراج وخرجت من البيت لأجد معذِّبي وهو ينتظرني بصبر نافد. وصرخ في وجهي: "هل أديت المهمة؟" فأجبته بارتياح بالغ: "أجل بالطبع". فقال من جديد: "هذا ليس صحيحاً، فهي تجلس طول الوقت وراء النافذة التي هناك ولم تبرح المكان أبداً". وبالفعل كانت السيدة الجميلة تُرى بكل وضوح خلف النافذة اللامعة وتحديداً في ذلك المكان من البيت حيث يوجد باب الغرفة ذاك. رجفت بشدة من الخوف، ولكنني قلت: "أقسم لك إنني وضعت القلادة والسوار بجانب قدميها وأدخلت الخاتم في إصبعها!". سألني: "أتقسم بالله على ذلك؟ " فقلت: " أجل، أقسم بالله!" ثم قال لي: "لكن عليك الآن أن ترميها بقبلة باليد أيضاً وإن لم تفعل فقد أقسمت يميناً كاذباً، انظر، إنها تنظر الآن إلى تحت!" وفعلاً استقرت عيناها اللامعتان علينا آنذاك، ولكن الفكرة التي خطرت لصديقي كانت شيطانية، لأنني كنت أفضل أن أبصق في وجه الشيطان على أن ألبي هذه الرغبة القائمة على الإساءة والتجني. فبسبب يميني اليسوعية كنت وقعت بالفعل في المأزق الحرج، ولم يكن ثمة مخرج. قبّلت يدي بسرعة وحركتها إلى الأعلى باتجاه النافذة. كانت الفتاة نظرت إلينا باهتمام وأخذت الآن تضحك بطريقة جموح وتومئ إلينا من عل محيية برقة ولطف، إلا أنني غادرت المكان بالسرعة التي استطعتها. كان الكيل طفح، وحين لحق بي صاحبي إلى الشارع التالي. اقتربت منه وقلت: "أخبرني عن نقانق السلامي التي كنتَ اشتريتها من أجل وليمتك؟ هل ترى أنها كافية للتكافؤ مع الأشياء التي أنجزها أنا؟ " وعند ذلك رميته أرضاً من حيث لا يدري ولكمته بقبضة يدي على وجهه إلى أن

تدخل رجل ورفعني عنه وقال: "هؤلاء الفتيان الشياطين يتشاجرون باستمرار فيما بينهم!"

كانت تلك المرة الأولى في حياتي، التي أقدمت فيها على ضرب زميل في المدرسة ورفيق طفولة، لم أعد أستطيع رؤية ذلك الصبي وشفيت في الوقت ذاته إلى الأبد من آفة الكذب.

في البيت المولع بالمطالعة ازداد في أثناء ذلك مخزون الكتب الرديئة أكثر فأكثر وازدادت معه البلاهة والحماقة. كان الكبار ينظرون بفرحة نادرة إلى انحدار بناتهم التعيسات إلى حضيض عاشقات ساذجات واستبدالهن على طول الخط عشاقاً بعشاقٍ آخرين دون أن تقاد أي واحدة منهن إلى بيت الزوجية بحيث بقين جالسات في وسط المكتبة كريهة الرائحة مع قطيع من الأطفال الصغار الذين كانوا يعبثون بالكتب المهترئة بفعل القراءة ويعيثون فيها تمزيقاً وتدميراً. ومع ذاك فإن زخم المطالعة لم يتناقص بل استمر على وتيرته، لأنه كان يُنسي النزاع والعوز والقلق ويحل محلها جميعها بحيث كنت لا ترى في مسكن هؤلاء القوم سوى كتب وقماطات معلقة والذكريات المتنوعة عن لباقة الفرسان غير المخلصين إزاء النساء، وأكاليل زهور مرسومة وقد كتبت عليها أقوال وحكم وألبومات ضيوف مليئة بأبيات الغزل وأختام صداقة، وبيض صناعي خاص بعيد الفصح ويختبئ في داخله إله حب صغير وما إلى ذلك. إجمالاً يحلو أن يبدو لي أن هذا البؤس وكذلك التطرف المقابل، الذي سبق أن وجدته في بيت السيدة مارغريت والمتجلي في ظاهرة المذهبية الدينية وفهم فقراء الناس للكتاب المقدس فهماً اندفاعياً متعصباً، تعبير عن نداءات الضمير في كلا طرفي النقيض ومن ثم تعبير عن البحث عن واقع أفضل.

حين كبر ابن هذا البيت ظهرت عواقب خياله الغني بالخبرات والتجارب على نحو آخر لم تكن أقل قابلية للريبة والتشكيك. كان عنده نزوع كبير إلى المتعة، إذ كان وهو ما يزال تلميذاً مهنياً في معهد تجاري نزيل

الحانات بصفته لاعبَ قمار مندفعاً، كما كان أيضاً مواظباً على حضور كل مناسبة عامة تمارس فيها أنواع المتعة. من أجل ذلك كان بحاجة إلى مال كثير ولتأمين ذلك اضطر إلى ابتداع أغرب أنواع الاختلاق والكذب والمكيدة، التي شكلت عنده ضرباً من استمرار رومانتيكيته السابقة. ولكن هذه الممارسات المشبوهة إلى حد معين فقط لم تكن كافية، بل سرعان ما وجد نفسه متوجهاً إلى مزيد من الممارسات الشبيهة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان يعد من أولئك الرجال الذين لا يفكرون أدنى تفكير في الحد لا بقليل ولا بكثير من شهواتهم، بل يخططون نظراً إلى دناءة عقليتهم لأن ينتزعوا من الآخر بالحيلة أو بالقوة كل ما لا يُترك لهم طوعاً وبملء الرغبة. هذه العقلية الهابطة هي بصورة متساوية ومنتظمة الأصلُ الواحدُ لما تبدو أنها ظواهر مختلفة تمام الاختلاف. وهي تبعث الحياة من جديد في الحاكم المكروه، الذي، إذ يشكل مجردُ وجوده سقماً لكل طفل في البلاد، لا يتنحى عن موقعه ولا يفخر أكثر مما يلزم بتغذيته من دم قلب الشعب المحتَقر والمكروه لديه؛ وهي لب الأهواء الجارفة لدى عاشق لا يذعن على الفور إذا لم يبادل حباً بحب، بل يسعى بكل إلحاح مشوب بالعنف إلى تدمير حياة أناس غريبين عنه، وإضافة إلى كل هذه الطباع تعيش هذه العقلية أخيراً أيضاً في أنانية الدجال واللص من جميع الأصناف، كباراً وصغاراً، وهي في كل مكان تدخل وقح كان يلجأ إليه أيضاً زميلي السابق، الذي غاب تماماً عن عينيّ مع مرور الأيام في أثناء إقامته في السجن مرات عديدة، ولكنه شغل تفكيري وسيطر عليه حين رأيت في يوم من الأيام إنساناً منحطاً يقوده المحضرون إلى السجن. ومنذ ذلك الحين مات في هذا السجن.

* * *



الفصل الثالث عشر

ربيع السلاح. الدَّين المبكر

الآن بلغت الثانية عشرة من العمر، فكان على أمي إذاً أن تفكر بمتابعة تعليمي. خطة أبي، التي كانت تقضي بأن أتعلم بالتتابع في المدارس الخاصة التابعة لجمعيات الصالح العام، لم يُكتب لها النجاح، لأن هذه المدارس استُغني عنها وحلت محلها في غضون ذلك مدارس عامة منشأة ومجهزة تجهيزاً جيداً؛ كان التجديد المتكرر للدولة السويسرية قد ركز اهتمامه منذ البداية على هذه النقطة بالذات. فوُسعت إلى حد بعيد الشريحة القديمة من الفقهاء والمعلمين في المدن عن طريق استدعاء معلمين ألمان، ووُزعت في معظم الكانتونات على مدارس توعمية كبيرة مؤلفة من مدرسة ثانوية وأخرى متوسطة. ألحقتني أمي بالمدرسة المتوسطة بعد عدة مشاورات وروحات احتفالية، وإنجازاتي المتحققة في مدرسة الفقراء المتواضعة، التي خرجتُ منها نصف حزين ونصف مبتهج، برهنتْ لدى تقديمي امتحان القبول على أنها كافية إلى حد أنني نجحت بالتساوي تماماً مع تلاميذ مدارس المدن، الجيدة والعريقة. كان هؤلاء التلاميذ من أبناء البورجوازيين الأغنياء خاضعين أيضاً للإجراءات الجديدة على صعيد التربية والتعليم. هكذا وجدت نفسي فجأة منقولاً إلى بيئة أخرى مختلفة تماماً عما سبق. فبدلاً من أن أكون، كما في السابق، أكثر التلاميذ وجاهة وأفضلهم لباساً غدوت وأنا مرتدٍ سترتي

الخضراء الصغيرة، التي كان عليَّ أن أستهلكها إلى أقصى حد، واحداً من أولئك التلاميذ الأقل اعتباراً والأكثر تواضعاً لا فيما يتعلق باللباس فحسب بل أيضاً فيما يتعلق بأسلوب التصرف والسلوك. أكثرية الصبيان كانوا ينتمون إلى عائلات من الطبقة البورجوازية التقليدية العتيقة؛ كان بعضهم أبناء سادة ناعمين وعريقي الأصل والبعض الآخر كانوا ينتمون إلى كبراء القرى من الأغنياء، كل هؤلاء كانوا يتحلون بظهور وتصرف ينمان عن ثقة بالنفس كما يتحلون بأساليب اختلاط متبلورة وحاسمة وبلغة ثابتة مصطلح عليها في الحديث واللهو، وكنت أقف هكذا إزاءها بكل بلاهة واهتزاز شخصية. وحين كانوا يتشاجرون، كانوا يتضاربون بحركات سريعة على الوجه بحيث كان يسمع صوت الصفع، على أن إيجاد طريقي إلى أسلوب الاختلاط الجديد كان أصعب عليّ من التعلم الجديد ذاته إذا ما صرفت النظر عن المعاناة من منغصات كثيرة. الآن فقط أدركت كم كان مجتمع الأطفال الفقراء رحيماً وطيب القلب، وغالباً ما كنت لا أزال أتسلل إليهم وكانوا يسمعونني بحسد حزين وأنا أتحدث عن أوضاعي الحالية.

الحق أن كل يوم كان يدخل على نمط حياتي حتى الآن تغييرات جديدة. فنذ فترة طويلة كان فتيان المدن يتدربون على حمل السلاح، من سن العاشرة حتى سن الخدمة الإلزامية الفعلية للشباب تقريباً، ولكن الأمر لم يكن إلزامياً بقدر ما تعلق بالميل وحرية الإدارة ومن لم يشأ لأطفاله أن يشاركوا في التدريب لم يجبر على ذلك. أما الآن فقد أصبحت التدريبات على السلاح أمراً لا مفر منه من الوجهة القانونية فيما يتعلق بجميع الفتيان الخاضعين للتعلم في المدرسة بحيث شكلت كل مدرسة كانتونية في الوقت ذاته فيلقاً من الجنود. وإلى جانب التدريبات الحربية كانت رياضة الجمباز مطلوبة أيضاً فقد كنا نتمرن في إحدى الأمسيات ونقفز ونتسلق ونسبح في الأخرى. حتى ذلك الحين كنت نموت وترعرعت كما تنمو عشبة، سهل الانقياد لأي خلجة من خلجات الحياة والمزاج، لم يسبق أن طلب مني أحد أن أقف منتصب القامة

ولم يقتدني أي رجل إلى بحيرة أو نهر لكي يرميني بأي منهما، في حال انفعالي فقط كنت أقفز قفزة وأخرى دون نية للتكرار. لم تكن تدفعني حميتي إلى ذلك مثل أبناء أرامل أخريات لأنني لم أقم لفعل كهذا وزناً ولا قيمة، إذ كنت على قدر يعتد به من التبصر والهدوء. بالمقابل كان رفاقي الحاليون في المدرسة، من أكبرهم حتى أصغرهم سناً وحجماً، يسبحون جميعاً في كل الأرجاء كالسمك في بحيرة ويقفزون ويتسلقون، ولم يضطرني في المقام الأول سوى استهزائهم إلى اكتساب بعض من روح عالية ومرونة وإلا تعرض حماسي واندفاعي إلى برودة وتلاشٍ.

ولكن التغيرات التي طرأت على نمط حياتي كانت أكثر عمقاً، فقد اختلطتُ برفاق كانوا جميعهم مزودين قليلاً أو كثيراً بمصروف يومي كافٍ، بعضهم نظراً إلى اليسر المادي الذي ينعمون به في بيوتهم والبعض الآخر نتيجة لعرف متوارث ولتباهي الوالدين بلا اكتراث ولا مبالاة. كانت مناسبات صرف النقود أكثر من ذلك بكثير لأن الأمر لم يقتصر على عادة شراء الفواكه وأنواع الفطائر والمعجنات في أثناء القيام بالتدريبات والألعاب المعتادة في الأمكنة والساحات النائية فحسب، بل عد أيضاً من شمائل الرجولة الجلوس وراء خبز ونبيذ في أثناء القيام بجولات جمباز ونزهات عسكرية أكبر ترافقها فرقة موسيقية في أرجاء القرى البعيدة وربوعها. أضف إلى ذلك مصاريف الألعاب الكثيرة التي أصبحت في المدرسة موضة متناوبة بحجة أنها انشغالات مفيدة، وأضف أيضاً الزيارات المجدية نفعاً لكل المعالم الغريبة الرائعة، التي يكتسب الابتعاد عنها بانتظام مسحة لا تطاق من العوز الثقافي والوحشة المقيتة. كانت أمي تتكفل بدقة شديدة بكل المصاريف غير المعتادة والمتعلقة بالوسائل التعليمية والأدوات والمواد اللازمة إلى حد أنها منحتني في هذا المجال هامشاً معيناً لشيء من الإسراف. كنت أثقب أجمل الورق في كل غرفة الصف بفراجير أبي الناعمة، كنت أستغل كل مناسبة لصنع دفتر جديد، وكانت كتبي دائماً مجلَّدة. ولكن فيما يتعلق بكل شيء آخر لم تكن الحاجةُ

ماسةً إليه كانت أمي تصر بكل عناد على مبدأ الامتناع عن صرف أي بفينيغ من غير فائدة وأن عليّ أن أتعود ذلك في وقت مبكر. أما بالنسبة إلى الرحلات والمشاريع المهمة، التي كان غيابي عنها يؤلمني أشد الألم، فقد كانت تعطيني مبلغاً زهيداً من المال فأصرفه في كل مرة لدى حلول منتصف اليوم المفرح. بذلك لم تبقني أسير جهل نسائي للعالم في عزلة تامة عن الناس كما كان يناسب مبدأها في التوفير الشديد، بل تركتني أقضي جل وقتي في رفقة الآخرين ظناً منها أنني لا أختلط إلا بصبيان من ذوي التربية الفاضلة وتحت إشراف معلمين كبار ومرموقين، في حين غدا أنه لا بد من خلال ذلك بالذات من المشاركة والمقارنة ونجم عنه أنني وقعت في إرباكات ومواقف محرجة لا حصر لها. ونظراً إلى بساطة نفسية أمي وبراءتها ومسيرة حياتها، فإنها لم تفقه شيئاً عن النبتة السامة غير القابلة للشفاء، التي اسمها الخجل الزائف وهي تبدأ تتضخم أكثر فأكثر منذ أيام الحياة الأولى وتلقى من قبل غباء كبار السن العناية والدلال بدلاً من أن تجتث من الجذور. من بين ألف من أصدقاء شبيبة وأعضاء هيئات – ربما لا يوجد اثنا عشر ممن لا يزالون يتذكرون، اعتماداً على مخزونات ذكرياتهم الخاصة، ألف باء نفسية الطفل ويعرفون كيف تتشكل منها الكلمات المشؤومة، ولا يجوز لأحد في حقيقة الأمر مجرد لفت انتباههم إلى ذلك وإلا فسوف ينكبون في الحال على هذا المجال ويضعون له نظاماً أساسياً ولوائح داخلية.

نُظمت في عيد العنصرة ذات يوم حملة شبابية كبيرة؛ فرقة صغيرة بكاملها، بضع مئات من الشباب، كان ينبغي أن تزحف برفقة الموسيقى عبر أرجاء البلاد لكي تزور الشبيبة المسلحة في مدينة مجاورة وتقيم معها استعراضات وتدريبات مشتركة. هنا ساد الجوَ انفعال عام، مزيج من فرح الانتظار ومتعة الاستعداد. حقائب الظهر حُمِّلت طبقاً للتعليمات، وتم تصنيع ما أمكن من الطلقات الزائدة عن العدد المحدد عادة، وكُللت مدافعنا ذات القنابل التي تزن كيلو غراماً واحداً كما كُللت راياتنا أيضاً، وعلاوة على ذلك

سرت في الخفاء أحدوثة تقول إن جيراننا ليسوا جنوداً وسيمين ومتقني التدريب فحسب، بل هم أيضاً شرِّيبة كحول وزملاء مرحون وحاذقون بحيث لا يجوز الاكتفاء بأن نكون متألقين ومشدودي القامة فحسب بل يجب أن يكون كل منا مزوداً بمصروف يمكنه من مجابهة الجار الشهير في كل الأوضاع والأحوال. وعلاوة على ذلك عرفنا أن الشبيبة النسائية سوف تشترك أيضاً في اللقاء المنتظر هناك وفي أثناء زحفنا سوف ترحب بنا بثياب احتفالية زاهية وأكاليل رائعة وبعد تناول الطعام المشترك ثمة حفلة راقصة. في هذه المسألة أيضاً لم نكن لنسمح بالانتقاص من قيمتنا، كان قد قيل إن على كل واحد أن يؤمِّن زوج قفاز أبيض اللون لكي يظهر في حفلة الرقص بهيئة فروسية وعسكرية، وكل هذه المسائل نُظر فيها من وراء ظهر المشرفين واكتسبت أهمية بالغة إلى حد أنني خشيت من أنني قد لا أستطيع تأمين كل ما يلزم. صحيح أنني كنت واحداً من أوائل الذين حصلوا على زوج من القفازات، إذ كانت أمي – بناء على شكواي وإلحاحي – أخرجت من مخزونات شبابها المدفونة قفازين طويلين من الجلد الأبيض وقصَّت بدون أي حرج يديهما من الجهة الأمامية بحيث أصبحتا مناسبتين لي بصورة رائعة. بالمقابل فيما يتعلق بمصروف الجيب من النقود، توقعت والحزن يعتصر قلبي أن أوضع في مواجهة دور لا بد لي من أن أؤديه بانقباض واقتناع بالقليل. في وسط أجواء هذه التأملات جلست عشية أيام المسرة المنتظرة في زاوية إلى أن خطرت لي فجأة فكرة الانتظار إلى أن تخرج أمي من البيت فأسرع عندئذ إلى قطعة الأثاث التي كنت خبأت فيها كنزي الصغير. فتحت علبة الكنز إلى النصف وأخرجت منها بلا تمعن أو تفكير قطعة نقود كبيرة كانت في الأعلى، والقطع الأخرى انزاحت قليلاً من مكانها وأحدثت خشة فضية خافتة ولكنها نمَّت في صفائها الرنان عن قوة معينة جعلتني أرتعش خوفاً. وسرعان ما وضعتُ غنيمتي جانباً، ولكن اعترتني حالة نفسية غريبة غدوت معها خجولاً وقليل الكلام إزاء أمي. فإذا كانت العملية السابقة نتيجة لحالة مادية اضطرارية

وحيدة وظاهرية ولم تثقلني بتكبيت الضمير، فإن المخاطرة الحالية طوعية ومتعمَّدة؛ لقد أقدمت على فعلة وأنا متأكد تماماً من أن أمي لن تصفح عنها أبداً، وبدا أيضاً أن جمال القطعة النقدية ولمعانها يحذران من إنفاقها الدنيوي. إلا أن الوضع، المتمثل في أنني سرقت نفسي بالذات بغرض المساعدة الملحة في حالة حرجة، حال دون شعور حقيقي باللصوصية، وتعلق الأمر في المقام الأول بشيء من الوعي الذي بزغ في نفس الابن الضال وهو مرتحل في صبيحة أحد الأيام الجميلة ومعه نصيبه من ميراث أبيه لكي يبذره.

في يوم العنصرة استيقظت من النوم في وقت مبكر، طبَّالونا وأصغر الأولاد وأكثرهم مرحاً طافوا بمجموعات كبيرة في أرجاء المدينة محاطين بتلاميذ جاهزين للسير على أنغام الموسيقى، وقد أسرعت أنا للحاق بهم. كان لا يزال لدى أمي الكثير مما أرادت أن تحضره لي، ملأتْ حقيبة ظهري بمواد الطعام وعلقتْ حول عنقي زجاجة سفر ظريفة مليئة بالنبيذ ودستْ في جيوبي هنا وهناك شيئاً ما وزودتْني بالجيد من قواعد السلوك والتصرف. كنت وضعت منذ وقت طويل بندقيتي على كتفي وعلقت حولي محفظة الطلقات التي كانت تحتوي أيضاً على قطعة التالر النقدية الكبيرة وما إن هممتُ أخيراً بالتخلص من يديّ أمي حتى قالت متسائلة إنني أريد بالتأكيد أن آخذ معي بعض النقود. ثم أخرجت المبلغ المعدود من قبل وزودتني بالتعليمات الواجب اتباعها في إنفاقه وتوزيعه. صحيح أنه لم يكن مبلغاً يربو على الكفاية، على حد زعمها، ولكنه مع ذلك مبلغ لا يستهان به ويغطي احتياجاتي بالتمام والكمال إضافة إلى جزء مخصص للحالات الطارئة. وفي ورقة صُرَّت أيضاً قطعة خاصة وجب عليّ أن أقدمها هدية لخدم البيت الكريم الذي سأنزل فيه. حين تمعنتُ في ذلك الوضع، رأيت فيه أول مناسبة بدا أنها كانت تستلزم في واقع الأمر تجهيزاً من ذلك القبيل وتأكد لي أن أمي لم تقصر بواجبها. ولكن مع ذلك فوجئت بما فعلتْ من أجلي، واعتراني أشد الارتباك والانفعال فاندفعتْ من عينيَّ في أثناء نزولي على الدرج دموع نادرة مما اضطرني إلى تجفيفها وراء باب المنزل قبل

وصولي إلى الشارع وانضمامي إلى الجمع الغفير، المتفجر مرحاً وحبوراً. لقد أمكن أن يجد الابتهاج العام في أعماقي، الذي هزها وأثر فيها أيما تأثير اهتمام أمي المفعم بالحنو والحب، سبباً أكثر وجاهة وصدى أكثر اتساعاً لولا أن قطعة التالر النقدية التي في محفظتي كانت بمثابة حجر يجثو على قلبي. ولكن حين تم لقاء الجمع بأسره وصدرت الأوامر فانتظمنا في الصفوف وانطلقنا في سيرنا، قمعت أفكاري القاتمة بعنف. وحين سرتُ، بعد إفرازي إلى طليعة المسيرة، في الأعالي الرحبة تحت سماء الصباح المنعشة؛ وإذ تحرك الموكب الطويل متلألئاً ومغنياً ومقتفياً آثار أقدامنا تحت راية خفاقة، نسيت كل شيء وعشتُ فقط اللحظة التي سقطت، لؤلؤةً إثر أخرى، من العقد المتألق للتوقع التالي. مارسنا حياة طليعية مرحة، وكان من شأن محارب قديم، قضى جل عمره وشاب شعره وهو يقدم خدمات في الغربة ثم وُظف الآن في تعليمنا نحن الفراخ الصغار الواثبين لتونا من العش صنعةَ العسكرة، أن قادنا إلى كثير من الألاعيب الماجنة وكنا ننهال عليه باستمرار لكي يشرب من زمزمياتنا فكان ينتقد محتواها بحدة ولذع. كنا فخورين بأنه ما من أحد من القائمين على التعليم في المدرسة وعلى إدارتها ممن كانوا يرافقون القافلة الكبيرة قد انضم إلى طليعتنا. وكنا نصغي بعمق إلى مغامرات الحرب التي كان يحكيها لنا الجندي العجوز.

حين حل وقت الظهيرة توقفت القافلة في وادٍ مشمس وغير مأهول بالسكان، كانت الأرض البرية المقفرة مكسوة بأشجار بلوط كثيرة ومنفردة وحولها تمركز الجمع الفتي. أما نحن الطليعة فقد وقفنا على جبل وصرنا ننظر من عل برضا وارتياح إلى الفوضى المزدحمة، التي تعج بالفرح والسرور. عمنا الهدوء وتشربنا اليوم الهادئ الرائع، أما الجاويش العجوز فقد استلقى على الأرض وأخذ يغمز بعينيه في الأفق الهادئ عبر أنهار وبحيرات زرقاء اللون. وعلى الرغم من أننا لم نكن نستطيع بعد قول أي شيء عن جمال الطبيعة، وأن بعضنا لم تتح له طول حياته أي فرصة لذلك، فقد أحسسنا جميعاً بالطبيعة ولا سيما حين شكلنا من خلال مسيرتنا المبهجة

مظهراً مشرفاً في ربوع الطبيعة، وكنا في ذلك فعالين ولهذا السبب كنا متحررين من الحنين المرهف الذي يعتري عادة معجبين بالطبيعة سلبيين وغير فعالين. لأنني علمت فيما بعد وأدركت أن التمتع السلبي والموحش بالطبيعة الجبارة من شأنه أن يضعف العاطفة ويستهلكها دون أن يشبعها، في حين تعمل قوتها وجمالها على تقوية العاطفة وتغذيها حين نكون نحن ذاتنا حتى في مظهرنا الخارجي شيئاً يعتد به ونعني شيئاً للطبيعة. وحتى حينذاك فإن الطبيعة تبقى في هدوئها أحياناً ذات قوة جبارة عندنا، فحيث لا تسمع خرير مياه ولا ترى غيوماً تسبح في الجو، يحلو لك أن تشعل ناراً لكي تدفع الطبيعة إلى التحرك وإلى أن تراها تتنفس قليلاً. وهكذا جمعنا بضعة أغصان جافة وأضرمنا فيها النار؛ كان الجمر الأحمر يصدر صوتاً خافتاً ومريحاً ومن شأنه أن جعل حتى قائدنا الأشيب والخشن ينظر إلى النار بمتعة كبيرة في حين شكل الدخان الأزرق عند جموع الجيش الذي في الوادي إشارة إلى مكان إقامتنا؛ وعلى الرغم من حرارة وقت الظهيرة فإن وهج النار المتصاعد بدا لنا محبباً، ولم نطفئه إلا كرهاً حين انسحبنا من المكان. كان يحلو لنا أن نطلق بضعة عيارات نارية في الهواء الهادئ لولا أن ذلك كان ممنوعاً منعاً باتاً، وكان أحد الصبية لقم بندقيته استعداداً لإطلاق النار، إلا أنه اضطر من جديد بمهارته المعهودة إلى إخراج الطلقة من البندقية وقد آلمه ذلك كما قد يؤلم اضطرار شخص ثرثار إلى كتم سر من الأسرار وعدم إفشائه.

في ضوء المساء الذهبي رأينا أخيراً المدينة الصديقة أمامنا، التي من أبوابها القديمة المكسوة بالزهور والأغصان الخضراء خرج للقائنا الشباب المسلح مثلنا والمحاط بالآباء والإخوة الفضوليين والمؤنسين. وأطلقت مدفعيتهم عدداً من الطلقات ترحيباً بنا؛ كنا نلاحظ بعين نقدية كيف كان المدفعيون الصغار بجانب الفوهة ينحنون إلى الخلف بحركة التوائية رشيقة حين يقترب الفتيل من المفجّر ويميلون بعد الإطلاق إلى الأمام مع الممسحة كدمية تُحرّك من مكان خفي كما جرت العادة عندنا في كل هذه الأمور. وكان

ثمة سبب آخر أكثر وجاهة للغيرة هو توفر البنادق الجميلة من ذوات الكبسولة لدى زملائنا في الطرف الآخر في حين لم يكن في حوزتنا سوى بنادق قديمة كانت تعمل باستخدام الحجر الناري لاشتعال البارود وتعطب من حين لآخر. كان عُرف عن حكومة هذا الكانتون أنها نظراً إلى حسها المتيقظ لكل جيد وجميل كانت تنفق على ذلك أموالاً أكثر مما كان يتحمل حسن تدبيرها في مجال الموازنة المالية، وتبعاً لذلك فقد زودت فتيان مدارسها بأسلحة جديدة في وقتٍ لم يتأتَّ فيه هذا الإجراء إلا لدول عسكرية أكبر. ولذلك سمعنا، في حين شرحٍ لنا أصدقاؤنا بكل رضا وإعجاب كيف أُلغيت لديهم في أثناء تلقيم البندقية حركة "البارود وحوض البارود"، مرافقينا البالغين وهم يستهجنون هذا الإنفاق بكل هدوء وتعقل. ولكننا كنا في نهاية المطاف متعبين واستسلمنا بملء رغبتنا لدعوات العائلات، التي تنازعت فيما بينها بشدة على استضافتنا بحيث اختفى كل جمعنا الغفير في أذرعها المفتوحة بسرعة فائقة كاختفاء رذاذ المطر الخفيف في التربة العطشى الحارة. والآن وجدنا أنفسنا، كل على حدة، وقد نقلنا إلى جو استضافة عائلية باعتبارنا موضوعاً لحظوة احتفالية وكافأنا هذا الكرم، كما لو أننا كنا في بلاد معادية، بأن اصطحبنا معنا ونحن في طريقنا إلى النوم بنادقنا الصغيرة ووضعناها بجانب أسرَّة الضيوف الكبيرة التي جندنا في سبيل الصعود إليها كل فنوننا في رياضة الجمباز.

احتفالات اليوم التالي حققت كل الرغبات. وجعل روح التنافس أن كلاً من الفريقين ندّاً للآخر في التدريبات، لكن إزاء بنادق قدح الكبسولة التي في حوزة خصومنا اضطررنا إلى لعب ورقة أخرى رابحة. ففي حين اعتادت مدفعيتهم إطلاق النار بشكل عشوائي ولم تكن تعرف القذائف، كانت مدفعيتنا ترمي بمهارة باتجاه الهدف بحيث صح القول السائد: "الحق أن فعل الصغار هو أفضل من الكبار!"، وكان الجيران ينظرون بدهشة واستغراب إلى التصويب الجدي لمدافعنا.

وأقيمت مأدبة كبيرة على مرج أخضر جمعت بضعة آلاف من الفتيان وكبار السن. فألقى بعض الأصدقاء المحببين للفتيان خطباً على المائدة وأصابوا في ذلك لب الحقيقية بأن بدؤوا، بدلاً من التعاطي معنا بجدية جوفاء على أساس أننا بلغنا مرحلة نضج مبكر، بأسلوب مرح بحت بنبرة تنم عن ابتهاج بريء ناسين بذلك أعمارهم لكن من دون تصرفات صبيانية فعلمونا بذلك ببساطة ألا نستمتع بالبهجة من دون ظرف ومرح. بعد ذلك خرج من البوابة رتل من الفتيات اللطيفات مروراً بنا إلى ساحة منبسطة يكسوها العشب وهناك دعتنا الفتيات وهن يغنين إلى اللهو والرقص. كنَّ كلهن يرتدين ثياباً بألوان بيضاء وحمراء وينتشرن بأحلى نضارة وزهو بدءاً من خصلات الشعر الطفولية إلى الفتاة التي هي في طريقها لأن تصبح غادة عذراء؛ وخلف الإكليل البعيد كانت تعلو بعض الرؤوس النسائية بحسنها الناضج لكي تشرف على الغرسات الناعمات وتتسلل هي بهذه المناسبة المجدية فوق العشب بمظهر أكثر نضارة وشباباً مما كان مسموحاً في أيام أخرى. والرجال بدورهم أدركوا أهمية المناسبة أيضاً وأعلنوا أن ابتهاج الأطفال هو جزء من قضيتهم هم ثم ثبّتوا ذلك ببعض الزجاجات! كان جمعنا الغفير المتحلي بالجرأة والشجاعة قد اقترب بحشد كثيف من دائرة الفتيات الجميلات، ولكن ما من أحد شاء أن يكون في المقدمة، كان من شأن هشاشتنا أن أظهرتنا بمظهر العداء والتجهم في حين أدى ارتداء القفازات البيضاء إلى وميض ولمعان تامين. ولكن تبين الآن أن نصف القفازات كان زائداً عن اللزوم لأننا انقسمنا إلى قسمين مختلفين ضم الأول منهما صبياناً يعيشون في كنف أسرهم مع أخوات أكبر منهم وتكون الثاني من صبيان لم ينعموا بهذه الميزة المريحة. وبرهن صبيان المجموعة الأولى على أنهم جميعاً يجيدون الرقص ويؤدونه برشاقة وإتقان، وسرعان ما بُحث عنهم وكوفئوا، في حين كان صبيان المجموعة الثانية يتعثرون فوق العشب كدببة تفتقر إلى الهندمة والأناقة وقد انسلوا بعد بضع مغامرات خائبة من الصفوف وتجمعوا على طاولات الشرب

حيث كنا نمارس بغناء صاخب حياة جنود متوحشين باعتبارنا محاربين خشنين وأعداء للنساء وهنا حاولنا أن يوهم بعضنا بعضاً بأن الفتيات ينظرن في كثير من الأحيان بأطراف أعينهن إلى ما نقوم به من ممارسات فعالة ونشيطة. صحيح أن شربنا الجماعي كان ينحصر في تقليد متواضع لكبار السن ولم يتغلب على الكره الطبيعي للإفراط الذي لا يزال كامناً في كل مرحلة من مراحل الحياة، ولكنه دل على هامش كاف لأهوائنا الجارفة الصغيرة. صناعة النبيذ في تلك المنطقة كانت أهم وأنبل مما عندنا ولهذا السبب كان لمرح جيراننا الفتيان لون أكثر تبلوراً وحسماً مما كنَّا عليه نحن، وكان بمقدورهم شرب كأس من النبيذ أقوى تأثيراً مما كان بمقدورنا نحن، الأمر الذي سوّغ سمعتهم تسويغاً تاماً. والآن كان إظهار شيء من التفوق أمراً في محله تماماً، فتفرغتُ لهذا المسعى دون قيد أو شرط وكان من شأن وضعي المالي الجيد نوعاً ما أن منحني الثقة والحرية اللازمتين وسرعان ما تلا ذلك قدر من احترامي من قبل الناس الذين أحاطوا بي. طفنا في أرجاء المدينة وأماكن لهوها يداً بيد، أثارني الطقس الجميل والفرح والنبيذ فغدوت بذلك كثير الكلام ومتطاولاً ومفوهاً، وتحولت فجأة من أبله ناظرٍ إلى الأمور عن بعد إلى موجِّه لها بصوت عالٍ، وصرتُ بكل غرور أبدي ملاحظات في مختلف المجالات وأبتكر مشاهد هزلية، وسرعان ما اعترف بي وتحبب إليَّ بقية قادة المجموعات والمتحدثين باسمها، الذين قليلاً ما اكترثوا لي وأعاروني انتباهاً قبل ذلك. وأدى وضعي بوصفي غريباً عن المنطقة كما أدت أيضاً ساحة الأحداث الجديدة إلى رفع وتيرة الفرح والمرح والهرج والمرج، لكن من الصعب البتُّ في أمر ما الذي كان العامل الأكبر في تحولي المفاجئ، هل كان نزوعي إلى الأحاديث الطويلة والأوصاف التفصيلية أم نشوة فرحي أم زهوي المتيقظ؟ باختصار كنت أسبح في سعادة جديدة تماماً وقد زادت في اليوم الثالث قدر الإمكان حين سرنا باتجاه الأهل وأسفر السرور من كل جانب والتنظيم الحر والتصرفات الحرة عن سلسلة جديدة من المشاهد المفرحة المرحة.

وحين دخلت مع حلول وقت المغيب إلى منزل أمي، معفراً بالغبار ومُحرَقاً بأشعة المشمس وكنت زينت قبعتي بغصن صنوبر وكانت فوهة البندقية الصغيرة اسودّت واسودّ فمي أيضاً من البارود تباهياً وزهواً، حينئذ لم أعد الشخص ذاته الذي كان خرج من المنزل من قبل بل غدوت على اختلاط مع أكثر قادة عالم الصبيان جسارة وتطاولاً وارتبطت بهم بمواعيد ووعود مختلفة من أجل مواصلة النبرة التي كنت بدأتها من قبل. كان ينبغي بادئ ذي بدء أن يُمنع متصنعو الظرف والكياسة ممن يجيدون الرقص أو المخنثون، كما سميناهم، من التفوق علينا في نظر الحسناوات من بنات البلد، لذلك أردنا مجابهة فنونهم الرشيقة بروح عسكرية خشنة وأفعال جريئة وتجوالات ومشاريع كثيرة وذلك بقصد وضع سمعتهم موضع الريبة والشك. وفي غمرة هذه الأفكار كما في غمرة الفرحة التي كنت أعيشها فلم أستنفدها ولم تستنفدني، شعرت أنني في أفضل مزاج واسترسلت في منزلنا برواية حكايات بصوت عال، كما استرسلت أيضاً بإظهار روح مفعمة بالتباهي والفظاظة إلى أن دُفعت مرة واحدة إلى الراحة والنوم بفضل بضع حبات سحرية من عالم النكتة كانت أمي قد رمتها في خضم الموج المتلاطم على شاطئي.

* * *

الفصل الرابع عشر

متباهون، ديون،

محدودو أفق بين الأطفال

أصدقائي الجدد لم يتركوا لي وقتاً لكي أخرج من دائرة ضلالي وأخطائي، فاليوم التالي الذي ظهرتُ فيه بنوع من العظمة بين أشهر رجالات مدينتنا، كان من شأنه أن أيقظ في نفسي من جديد كل الذكريات الجديدة، وأصداء المهرجان الكبير أتاحت الفرصة لاستجرار ما تبقى من كل ما أملك من نقود لكي أستبدل بهذه البقية مجدداً أكاليل غار. حُدد يوم من أيام الأحد التالية موعداً للقيام بنزهة كبيرة مشياً على الأقدام، وأريد لهذه النزهة أن تكون من جديد مظاهرة ضد مدعيّ الظرف والكياسة. وأبى طيشي أن يدفعني إلى التفكير مسبقاً بمصدر الوسائل المادية اللازمة وبعقد العزم على تأمينها أيضاً، ولكن حين آن الأوان لجأت مرة أخرى إلى الخزنة دون أن أشعر بشيء آخر سوى بالحاجة الضرورية وبنوع من قرار غير أكيد بأن هذه هي المرة الأخيرة.

سارت الأمور على هذا النحو طوال فصل الصيف القصير. كان المزاج المسبب لذلك قد زال منذ فترة طويلة، وكان المشاركون قد أذعنوا من جديد لمسيرة الحياة المنتظمة، وهيمن علي أنا أيضاً مرة أخرى الاعتدال والتواضع اللهم إذا لم تطرأ على الوضع حالة أخرى من الولع الجارف، أي

ولع إنفاق المال إنفاقاً غير محدود ومن ثم التبذير بحد ذاته. كان يغريني أنني أستطيع في كل لحظة شراء الأشياء الرائعة الصغيرة التي تسبب المتعة لشريحة سني آنذاك؛ كانت يدي باستمرار مدسوسة في جيبي بقصد إخراج النقود منها. كنت أشتري الأشياء، التي عادة ما يستبدلها الصبيان بغيرها نقداً فحسب، وكنت أوزع نقوداً على الأطفال والمتسولين وأقدم هدايا لبعض الصبيان الذين شكلوا ذيلاً لي واستغلوا عمى بصيرتي بقدر ما استطاعوا، لأنه كان عمى بصيرة فعلياً. لم يخطر ببالي إطلاقاً أن الأمر لا بد له من نهاية، ولم أعد أفتح العلبة الصغيرة فتحة كاملة فألقي نظرة شاملة على محتواها من المال، بل كنت أكتفي بإدخال يدي تحت الغطاء لكي أخرج قطعة نقود منها، ولم يخطر ببالي أيضاً أن أتأكد من كمية المال التي بعثرتها هنا وهناك. ولم تعترني أي خشية من اكتشاف ذلك، وفيما يتعلق بالمدرسة كما بوظائفي البيتية لم أعدّ نفسي أسوأ من السابق لا بل أفضل لأنه ما من رغبات لم تُلبَّ استطاعت أن تدفعني إلى حياة الكسل الحالمة والقعود في البيت، ولأن الحرية الكاملة في التصرف التي أحسست بها لدى إنفاقي النقود تبدت أيضاً في العمل على هيئة سرعة وتصميم معنيين. أضف إلى ذلك أنني أحسست بحاجة غامضة إلى الموازنة بين الكارثة الخفية التي تجمعت بفعل ما أسرفت وأداء الواجب إلى حد ما في مجالات أخرى.

ولكن على الرغم من ذلك كنت أعاني طول ذلك الصيف وضعاً رهيباً ومؤلماً ومن شأن ذكراه في ارتباطها بذكرى السماء الزرقاء وأشعة الشمس والحانات الهادئة في الغابات الخضراء، التي كنا نزحف إليها لكي نقيم ولائم أسرية، أن توقظ في نفسي إحساساً غريباً. كان لا بد لرفاقي من أن يلاحظوا منذ فترة غير قصيرة أن وضع نقودي لم يعد على يرام؛ ولكنهم تحاشوا بكل عناية أن يظهروا أي اشتباه بهذا أو أن يسألوني عنه؛ لا بل حرصوا على إظهار أن كل شيء يسير بصورة طبيعية وبدهية وساعدوني بصمت على تبديل قطع الفضة اللامعة واللافتة للانتباه إلى العملة المتداولة دون الدخول

في حوارات لا تضر ولا تنفع، ولكن حين انتهت عظمة المال تحولوا عني بجفاف وحياد واضحين، تماماً كتجار بالغين مهرة يحصلون بكل هدوء على الربح من قليلي الذمة دونما تحرٍّ عن مصدر الربح. هذا التصرف المتوقع أزعجني ولا سيما حين لاحظتُ على الفور أنهم بدؤوا يعاملونني بتحفظ غريب ولا يصبحون أكثر دفئاً إلا إذا طرحت من جديد قطعة نقود للإنفاق، إلى جانب ذلك بدا أنهم يدأبون على استغيابي في أماكن أخرى. ولكن في حين لم يطلب الصنف التافه والعادي لأكثريتهم انفصالاً حاداً وجارفاً عني، كان من شأن الأنانية القوية لواحد منهم بمفرده وما أفرزته من حقد أن سببت لي قلقاً وألماً شديدين ويندر أن يظهرا لدى إنسان في مثل عمري. كان ذاك صبياً صغيراً وذا وجه متسم بملامح صغيرة ومنتظمة وتكسوه تماماً بقع النمش الصيفي اللطيف. كان عقله ينم عن نضج مبكر، وكان يتعلم في المدرسة بجد ودقة ويسعى إلى التعبير عن نفسه إزاء الناس المتقدمين في السن ولا سيما النساء منهم بكلمات ناضجة الذكاء وفي مكانها المناسب فعُدّ لذلك صبياً مرتباً وعلى درجة عالية من النفع والفائدة. كان بارعاً تقريباً في كل التدريبات والتمارين، بفضل الانتباه والمثابرة، وكان يحقق بطريقة لطيفة وناعمة كل ما كان يصبو إليه. لكن ماير الصغير، هكذا كان يُسمى، لم يمتلك موهبة على درجة كبيرة من العمق، ففي مشاريعه المتعددة لم يبدُ للعيان أي شيء جديد أو من صنعه هو، بل لم يكن يجيد إلا إنجاز ما كان مُنجزاً من قبل ولم يكن يُحييه إلا حاجة متواصلة للاستيلاء على كل ما يخطر على البال. لذلك كان بمقدوره على حد سواء أن ينجز عملاً من الورق المقوى، تاماً ونظيفاً، وأن يجلس فوق حفرة أو يضرب الكرة أو يصيب بحجر صغير مكاناً معلَّماً في جدار، كل ذلك بفضل تمارين بطيئة ومستمرة، كانت دفاتره المدرسية صحيحة ومرتبة ترتيباً عالي الدقة وكان خطه ناعماً ورقيقاً وأعداده على وجه الخصوص كان يعرف كيف يضعها في صفوف بصورة مريحة جداً ودائرية. إلا أن موهبته الأكثر براعة وتفوقاً تمثلت في مقدرة معينة على تغطية كل

شيء بحديث مدرك ومتبصر واختلاق حالات وأوضاع نتيجة لذكاء حاد وفطنة ألمعية، وبتوظيف ملامح وجهه الغنية بالتعابير والدلالات كان يقدم معلومات وإيضاحات وتخمينات تفوق بما لا يقاس معطيات تلك المرحلة من عمرنا. بذلك كان باستمرار صبياً مسلياً وجديراً بالثقة، مطلوباً ومفيداً، وقلما كان يبدأ مشاجرة ولكنه كان يتابعها بعناد وإصرار إلى النهاية ولذلك بقي أكثر جدارة بالاحترام حين كان يقف بصورة مدروسة ومدبرة باستمرار في صف الحق المنتصر، سواء كان حقاً حقيقياً أو حقاً باطلاً.

كان يكبرني بعام ونصف العام وقد تقرب مني في أثناء ذلك أكثر من كل الباقين بحيث قامت بيننا صداقة خاصة وكان يجمعنا معاً في كل لحظة فراغ. كان يكلِّمني على أفضل وجه وأنا بدوري طبت به نفساً. كانت مشاريعي تهدف إلى تحقيق ما هو خيالي وملون وفعال في حين أضفى هو عن طريق الدقة والعناية الكامنتين في العمل الآلي، على تصاميمي العابرة والخام مسحة من الاستهداف والترتيب. ماير الصغير حافظ بحذر على سري كالآخرين على الرغم من أنه كان أقل سرية فيما يتعلق بملكة انتباهه المبصرة، ولكنه لم يشعرني بين وقت وآخر بإدراكه الوضع الذي أنا فيه بل سعى إلى أن يحول بيني وبين النفقات الطائشة ويوجه رغباتي إلى أشياء يبدو أنها مفيدة وجيدة بكلمات رزينة، الأمر الذي أضفى على اختلاطنا مسحة من المتانة والثقة. ولكنه كان أشد حرصاً من الآخرين على مصلحته هو ولم يكتفِ بما أغدقتُ عليه من كرم مباشر، بل أقام بيني وبينه على أساس من بصيرته النافذة علاقة مداينة فجمع بروح المقتصد الموفر من نقودي مبلغاً صغيراً من المال كان يعطيني منه، حين لا أستطيع حالاً لسبب أو لآخر الوصول إلى علبة كنزي المخبأة في منزلنا، سلفاً متواضعة من أجل إنفاقنا المشترك ويدونها في كتيب لطيف معدٍّ لهذه الغاية وتحمل كل صفحة من صفحاته عنواناً لا يستهان به: الجانب الدائن أو الجانب المدين. وعلاوة على ذلك كان يجيد بيعي كمية كبيرة من الأشياء الصبيانية السخيفة ويدون سعرها

بكل جد وحماس في كتابه. ثم استغل أيضاً براعته في مختلف التمارين والتدريبات؛ كان باختصار الشيطان الملتزم خدمتي الذي استطاع كل شيء وحقق كل ما رغبنا فيه، ولكنه كان يعبر عن كل خدمة يقوم بها بواسطة أصناف صغيرة من قطع النقود التي كان يدونها في جدول ديوني. وفي أثناء النزهات، التي كنا نقوم بها مشياً على الأقدام، كان يحضني دائماً على وضع مهاراته على محك التجربة. فكان يقول على سبيل المثال: "أتريد مني أن أصيب بهذا الحجر الصغير تلك الورقة اليابسة؟"، فأجيب: "لن تستطيع ذلك!" – "وإذا ما فعلت، فهل تقر أنك مدين لي بعشرة رابنات؟" – "أجل" وكان يصيبها ويصعِّب على نفسه المهمة بالشروط نفسها ثلاث مرات متتالية دون أن يخطئ الهدف. بعد ذلك كان يدوِّن المبلغ بتمامه وكماله في كتيِّبه بأحب الأرقام المتناسقة، الأمر الذي كان يمتعني إلى حدّ القهقهة بصوت عالٍ. أما هو فكان يقول بجدية إنه ليس ثمة شيء يضحك وينبغي علي أن أضع في حسباني تسديد كل هذه الديون ذات مرة، إذ إن لكتيبه أهمية وصلاحية نظاميتين لدى كل تاجر! ثم دعاني بعد ذلك من جديد إلى مشارطات كثيرة، مثلاً إن كان طير ما سوف يحط على هذا العمود أو على ذاك، أو إن كانت شجرة في مهب الريح سوف تميل في المرة التالية إلى هذه الجهة أو إلى تلك، أو إن كان ارتطام الأمواج الخامس أو السادس لشاطئ البحيرة سوف يسفر عن وصول موجة كبيرة إلى الشاطئ. ولكن إذا ما شاءت المصادفة أن أربح أحياناً في هذه الألعاب، وضع في كتابه على صفحة الجانب المدين وعلى وجهه ملامح الجد والأهمية رقماً زهيداً وعلى أكبر حد من الغرابة نظراً إلى عزلته ووحدته، كما أنه كان يشكل عندي مادة للضحك في حين تزاحمت على لسان صديقي الحكم والأقوال المأثورة الجدية، وحاول باستمالة أن يقنعني بأن الديون هي أمر مهم يتعلق بكرامة الإنسان. وفي أحد الأيام حين اقترب الصيف من نهايته فاجأني ماير الصغير بنبأ أنه الآن "أعد تصفية للحساب الذي بيننا" وأراني رقماً تقريبياً من عدة غولدات إضافة إلى بضعة

كرويتسرات وبفينيغات وعلق على ذلك بقوله إن من أصول اللياقة أن أفكر في تسديد المبلغ لأنه يرغب في شراء كتاب جميل من وفوراته. إلا أنه عرَّج في هذا الصدد على ذكر مهلة الأسبوعين التاليين لا أكثر، وأعد في غضون ذلك فاتورة جديدة بجدية متزايدة وتصرفات غريبة ونادرة. صحيح أنه لم يُظهر جفاء وعداء، إلا أن مرح اختلاطنا واسترساله اختفيا من ملامح وجهه إلى غير رجعة. ودب في أوصالي قنوط كبير، ولكن لم يبدُ على سمات وجه صديقي أي انزعاج البتة، لا بل اصطنع نبرة رثائية حزينة باستعادته ذكرى النبي إبراهيم حين خطا مع ابنه إسحق المشية الأخيرة الموهومة. وبعد فترة من الزمن كرر إنذاره لي، هذه المرة بكل عزم وتصميم مع حفاظه على اللياقة واللباقة لكن بنبرة حزينة وجدية أبوية. عندئذ اعتراني الخوف وشعرت بانقباض حاد في حين وَعَدت بحل المشكلة، ولكنني لم أجد ما يشجعني على أخذ المبلغ، حتى إنني فقدت الجرأة على متابعة عملياتي السابقة المعتادة. كان شعوري بوضعي الحرج قد تبلور الآن، وصرت أتسلل حزيناً كئيباً هنا وهناك على غير هدى دون أن أجرؤ على التفكير في ما سيأتي. أحسست بارتباط مخيف بصديقي، كان حضوره مقبضاً لي وغيابه مؤلماً، لأنني كنت باستمرار منجذباً إليه لئلا أشعر بالعزلة والوحدة وربما أيضاً لكي أجد فرصة لأعترف له بكل شيء وأجد عند عقله وعمق رؤيته نصيحة وعزاء، غير أنه تحاشى أن يمنحني هذه الفرصة وغدا دائماً أكثر تحفظاً في اختلاطه بي إلى أن انسحب أخيراً تماماً لكي يكرر طلبه بكلمات قصيرة وشبه عدائية. وربما شعر أنني مهدد بأزمة وشيكة، ولذلك كان قبل نشوب الأزمة قلقاً على ضمان مكسبه الذي خطط له بعناية فائقة وعبر فترة طويلة، وكان محقاً في ذلك، ففي هذه الفترة أدى تناهي المشكلة إلى علم أمي من قبل أحد أصحابها إلى لفت نظرها واهتمامها بالموضوع، وفي نهاية المطاف أحاطت أمي علماً بممارساتي خارج البيت حتى ذلك الحين، التي كان أكبر الذنب فيها لرفاقي الذين كانوا تخلوا عني قبل بدء خذلاني وقنوطي.

وذات يوم حين كنت واقفاً وراء النافذة أبحث لنظراتي إلى الأسطحة المكسوة بأشعة الشمس وإلى الجبال وإلى السماء عن نقاط سكون هادئة وأحاول نسيان الحجرة اللائمة المؤنبة العاتبة، نادتني أمي بالاسم بصوت غير معتاد؛ تلفتُّ إلى الوراء فإذا هي تقف إلى جانب الطاولة التي كانت وضعت عليها علبة الكنز مفتوحةً وفي داخلها قطعتان أو ثلاث قطع من الفضة.

وألقت عليّ نظرة حادة وقلقة ومتحسّرة ثم قالت: "انظر إلى هذه العلبة!". ففعلت ذلك بنصف نظرة كان من شأنها أن مكنتني لأول مرة منذ زمن طويل من رؤية داخل العلبة المنهوبة، الذي أعرفه معرفة جيدة. داخل العلبة واجهني بتثاؤب مفعم باللوم والتأنيب والعتاب. وتابعت أمي حديثها فقالت: "صحيح إذاً ما سمعته وثبت الآن من أن إيماني الراسخ وخلي البال بأن لدي طفلاً كريم الخلق وطيب القلب هو إيمان زائف؟". وقفتُ هكذا حائراً ودون أن أنبس ببنت شفة وأمعنت النظر في إحدى زوايا الحجرة؛ شعورُ الكارثة والدمار دار في داخلي بقوة وعنف، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث دائماً إلا في حياة إنسان طويلة ومتنوعة، ولكن عبر الغيمة الداكنة كانت تومض بارقة لطيفة من المصالحة والانعتاق. والنظرة الساذجة من أمي إلى وضعي المفضوح بدأت بإبعاد الكابوس الذي كان جثم على صدري حتى الآن، عينها حادة النظر كانت عليّ برداً وسلاماً وحررتني من عذابي وشعرت في تلك اللحظة بحب إزاءها جل عن الوصف واخترق بأشعته ذلي وحطام نفسي وأوشك أن يحوله إلى نصر مغمس بالغبطة والسعادة في حين ظلت أمي تتخبط في قلقها وقسوتها. ذلك لأن نوع خطيئتي كان مس أكثر الجوانب حساسية وبالأحرى عصب حياتها: من جهة مس الثقة العمياء الطفلية بمشروعيتها الدينية كما مس من جهة أخرى على حد سواء نزوعها الديني إلى التوفير ومسألة حياتها الثابتة المستقرة. لم تكن تفرح لرؤية المال ولم تتفقد مرة، إذا لم تدعُ الضرورة، ما كانت تملك من المال نقداً، ولكن كل قطعة غولدن كانت عندها تقريباً رمزاً مقدساً للقدر إذا ما أمسكته بيدها لكي تستبدل به متطلبات الحياة. ولذلك كانت

في هذه الحال مثقلة بالهم أكثر بكثير مما لو كنت اقترفت أي شيء آخر. وكما لو أنها تريد الاقتناع بالقوة من العكس، فقد استعرضت أمامي كل شيء بكل وضوح ورزانة ثم كررت السؤال: "هل هذا صحيح فعلاً؟ اعترف!". فأخرجتُ من فمي كلمة "نعم" مقتضبة وتركت العنان لدموعي دون أن أحدث في أثناء ذلك أي صوت، لأنني كنت في تلك اللحظة أنعم بالانعتاق تماماً وأوشكت أن أشعر بالفرح والمتعة.

صارت أمي تمشي في الحجرة صعوداً ونزولاً إلى أن قالت: "لا أعرف الآن ما سيحدث إذا لم تشأ أن تتحسن بصورة ثابتة وإلى الأبد!". وإثر ذلك أعادت العلبة الصغيرة من جديد إلى طاولة مكتبها وتركت مفتاح الطاولة في المكان المعتاد.

وقالت أمي: "لا أعرف إن كنت، لو أنك أنفقت أيضاً ما تبقى من قطع نقودك، ستمد يدك إلى نقودي أنا التي كنت وفرتها بشق النفس، لم يكن ذلك أمراً مستحيلاً؛ لكن يستحيل عليّ أن أقفل عليها في وجهك. لذلك سأترك المفتاح مخبأ في المكان نفسه كما كان من قبل وأحصر الاهتمام والأهمية في إمكان توجهك طوعاً إلى تحسين سلوكك وتصرفك، وإلا فلن ينفعنا أي شيء وسيان أن نصبح تعيسين عاجلاً أو آجلاً!".

في تلك الأثناء بدأت لتوها عطلة لمدة ثمانية أيام؛ بقيت في البيت بملء رغبتي ويممتُ وجهي شطر كل الزوايا التي وجدت فيها من جديد أمان الأيام السابقة وراحتها. كنت هادئاً وحزيناً من الأعماق، خصوصاً أن أمي أبقت على جديتها وكانت تذهب من حين لآخر دون أن تسر لي شيئاً. كان تناول الطعام الأكثر حزناً حين كنا نجلس على طاولة الأكل الصغيرة فلا أجرؤ على قول أي شيء ولا أرغب في قول أي شيء لأنني أحسست بالحاجة إلى هذا الحزن حتى إن الوضع برمته طاب لي، في حين كانت أمي تجلس وهي غارقة في أفكار عميقة وتحتبس في بعض الأحيان تنهيدة حزينة.

الفصل الخامس عشر

سلام في الهدوء

أول خصم وسقوط هذا الخصم

هكذا بقيت في البيت ولم أجد رغبة إطلاقاً في العراء ولا في الذهاب إلى رفاقي. اللهم إلا إمعان النظر مرة من النافذة في ما كان يحدث في الشارع ثم العودة فوراً إلى الحجرة من جديد كما لو أن الماضي المقبض قد صعد إلى عندي. تحت أنقاض رخائي الزائل وذكرياته وُجدت علبة ألوان كبيرة كانت تحتوي على ألواح تلوين بدلاً من الأحجار الصغيرة القاسية التي تعطى عادة للأطفال من أجل التلوين. كنت عرفت سابقاً عن طريق ماير الصغير أن استخدام هذه الألواح الصغيرة لا يجوز أن يكون من خلال تجويفها مباشرة بالفرشاة بل بتقطيعها إلى أقراص وتذويبها بالماء. وعملت بهذه الطريقة فحصلت على كمية وفيرة ومشبعة من ألوان الحبر وبدأت أُجري عليها تجارب كثيرة، وتعلمت كيف أمزج هذه الألوان بعضها ببعض. فاكتشفت على وجه الخصوص أن مزج اللونين الأصفر والأزرق يسفر عن تكوين مختلف أنواع اللون الأخضر وسررت لذلك أيما سرور؛ إلى جانب ذلك اكتشفت درجتي اللون البنفسجي والبني. كان سبق لي قبل فترة طويلة أن تأملت بإعجاب شديد لوحة زيتية قديمة لمنظر طبيعي معلقة بأحد جدران

منزلنا؛ كانت لوحة تصور أمسية؛ السماء، ولا سيما الانتقال المستعصي على الفهم لتحول اللون الأصفر إلى أزرق، تَساوي هذا التحول ورقته – كل ذلك أغراني إغراءً شديداً، وبنفس الدرجة من شدة الإغراء كان أيضاً نوع الشجر في اللوحة، الذي بدا لي أنه لا مثيل له. على الرغم من أن اللوحة كانت من المستوى الوسط، إلا أنني كنت أرى فيها عملاً فنياً جديراً بالإعجاب لأنني رأيت الطبيعة التي أعرفها مرسومة بشيء من التقنية لأجل الطبيعة ذاتها. وقفت ساعات طويلة على كرسي أمام اللوحة متمعناً وغرقت بنظري في اتساع السماء المتواصل من دون انقطاع وفوضى الأشجار اللانهائية المرسومة فيها، ولم يكن من قبيل التواضع الكبير أن شرعت فجأة بتقليد اللوحة اعتماداً على ألواني المائية. وضعتُ اللوحة على الطاولة ومددت ورقة على لوح خشبي ثم أحطت نفسي بصحون فناجين وأطباق قديمة، ما دمت لم أجد عندنا قطعاً من الزجاج، وهكذا تصارعت بجهود مضنية طوال أيام كثيرة مع المهمة التي ألقيتها على عاتقي؛ ولكنني شعرت بالسعادة جراء انشغالي بعمل مهم ومتواصل، كنت أعمل فيه من الصباح الباكر حتى الأصيل وقلما خصصت أي وقت للطعام. الطمأنينة، التي أوحت بها اللوحة المخلصة، تسربت إلى نفسي وربما نشرت انطلاقاً من وجهي إشعاعاتها إلى الأم التي كانت جالسة بجانب النافذة ومنشغلة بالخياطة. وحين شعرت بابتعاد اللوحة الأصل عن الطبيعة لم تزعجني الهوة السحيقة بين عملي وقدوته. كانت لوحتي تبقيعاً مجعداً وعديم الشكل امتزج فيه الافتقار التام لكل رسم امتزاجاً حميماً مع مواد غير مروَّضة، ولكن إذا ما قارنتَ من مسافة بعيدة مجمل العمل باللوحة الزيتية استطعتَ حتى اليوم أن تجد فيها انطباعاً إجمالياً لا سبيل إلى تجاهله. باختصار، كنت راضياً عن عملي وكنت أنسى نفسي وأشرع أحياناً بالغناء، كسابق عهدي، وارتعد خوفاً ثم أصمت من جديد. لكن ازداد نسياني لنفسي أكثر فأكثر واعتدت من جديد أن أدندن على غير هدى وباستمرار أكثر من ذي قبل، وكزهرة الثلج في الربيع كانت أمي ترمي كلمة

لطيفة أو أخرى، وحين انتهت لوحة المنظر الطبيعي شعرت باحترام الأم وعودة ثقتها بي. وما إن فككت ورقة اللوحة عن لوح الخشب حتى طُرق الباب ودخل ماير الصغير وعلى وجهه علائم الجد فألقى قبعته على كرسي وأخرج كتيبه من جيبه ثم تنحنح وألقى خطاباً رسمياً موجهاً إلى أمي قدم بموجبه بكلمات مهذبة شكوى ضدي راجياً فيها السيدة "لي" بأن تفي بالتزاماتي، لأنه سوف يأسف لحدوث ازعاجات ومضايقات إذا ما امتنعتْ عن تسديد ديون ابنها. بذلك قدم لها ذلك القزم الصغير كتيّبه المذعِن ورجاها التجاوب بإلقاء نظرة عليه. هنا نظرت أمي إليه بعين الدهشة والاستغراب ثم نظرت إليّ أنا ثم في الكتيّب وقالت: "ما هذا من جديد؟" وراجعت الحسابات الصافية وقالت: "فوق كل ذلك ديون أيضاً؟ من حسن إلى أحسن، لقد فعلتم فعلتكم على الأقل بروعة وإتقان!"، في حين ظل الصغير يصرخ بصوت عالٍ: "كلها حسابات صحيحة، يا سيدة "لي"، لكنني مع ذلك على استعداد للتهاون في أمر هذا البند الأخير بعد الحساب الرئيسي اللهم إذا كنتِ جاهزة لتسديد البنود الأخرى". فضحكتْ وعلى وجهها معالم غضب شديد ثم قالت: "آي، آي! هكذا إذاً، هكذا إذاً؟ نريد أن نبحث هذا الموضوع مع والديك، أيها السيد الوصي على الديون! كيف نشأت هذه الديون الظريفة؟" هنا اشرأب الصبي إلى الأعلى وزمجر: "أرجوكِ! الحسابات سليمة تماماً"، ولكن أمي سألتني بحدة، إذ كنت مرتبكاً تماماً وأقف هكذا بحال انقباض وحرج جديدين: "هل أنت مدين للفتى بهذا المبلغ وكيف تم ذلك؟ قل لي!". تلعثمت بحيرة وحرج بكلمة "نعم" وببعض الوقائع حول طبيعة الديون. هنا كان طفح بها الكيل فطردت ماير الصغير مع كتيِّبه من الحجرة فولى هارباً وهو يؤدي حركات وإشارات وقحة بعد أن كان رمقني أيضاً بنظرة تهديد ووعيد. بعد ذلك استجوبتني أمي بالتفصيل عن مجرى الحادثة بالتمام والكمال واعتراها غضب شديد، لأن ما كان يظهر على هذا الصبي بصفة خاصة من استقامة ونبل هو الذي حال دون تسرب أي ظن إلى ذهنها حول ارتكاباتي. بعد ذلك

اغتنمت الفرصة لكي تعرج بصورة أعمق على كل ما جرى وتمهد لنشوء تصورات ملحة في ذهني، لكن لا بنبرة القاضية القاسية والمعاقبة بل الأم الصديقة التي غفرت كل شيء. والآن غدا كل شيء على ما يرام.

ولكن ليس هذا كل شيء، إذ إنني حين دخلت إلى المدرسة من جديد لاحظت أن عدة تلاميذ متجمعين حول ماير الصغير أخذوا يتهامسون وينظرون إلي بسخرية واستهزاء. أوجستُ خيفة، وحين انتهت حصة الدرس الأولى التي أعطاها مدير المدرسة ذاته، تقدم منه دائني بكل احترام وهو يحمل كتيِّبه بيده وقدم شكوى ضدي عبر ادعاء طليق اللسان. كان الجميع متلهفين ومتوترين ومصغين إلى ما يقال، أما أنا فكنت على أحر من الجمر. المدير اعترته الدهشة، فاطلع على ما في الكتيِّب وبدأ بالاستجواب الذي حاول ماير الصغير أن يهيمن عليه ويوجهه، ولكن المدير أمره بالهدوء وطلب مني أن أتحدث. فقدمت بعض المعلومات الهزيلة وكان يحلو لي ألاَّ أنبس ببنت شفة، إلا أن الرجل صرخ في وجهي فجأة: " كفى، أنتما الاثنان لا يرجى منكما خير وسوف تعاقبان!". عند ذلك تقدم من القوائم المعلنة موجهاً إلى كل منا ملاحظة شديدة اللهجة. إثر ذلك أصيب ماير الصغير بالذهول وقال: "لكن، يا سيد بروفسور!". فرد عليه المدير قائلاً:"اسكت!" ثم تناول الكتيِّب المشؤوم ونتفه ألف نتفة وأردف: "إذا ما سُمعت أي كلمة بعد الآن حول هذا الموضوع أو إذا ما تكرر مثيل له، فسوف تحتجزان وتعاقبان بوصفكما تلميذين موضع ريبة وخطر! اغرب عن وجهي!".

في أثناء حصص الدروس الباقية كتبت رسالة صغيرة إلى خصمي أكدت له فيها أنني سوف أسدد ديني بالتدريج وأدفع له كل كرويتسر أستطيع توفيره من الآن فصاعداً. ثم طويت الرسالة وطلبت من الزملاء إيصالها إليه من تحت الطاولات، ولكنني سرعان ما تلقيت الرد: "فوراً كل شيء أو لا شيء!". بعد انتهاء الدروس وذهاب المعلم وقف ذلك الشيطان على عتبة باب المدرسة محاطاً بمجموعة من الفضوليين وحين أردت الخروج وقف في

طريقي وقال: "انظروا إلى هذا الخبيث! طول الصيف كان يسرق نقوداً وقد نصب عليَّ بمبلغ خمسة غولدات وثلاثين كرويتسراً! خذوا جميعاً علماً بذلك وانظروا إليه!" فتعالت حينئذ أصوات من جهات كثيرة: "خبيث ظريف، هذا الهاينريش الأخضر!"، فصرخت بانفعال عارم: "أنتَ ذاتك خبيث وكذاب!" ولكن شُوش علي بأصوات أعلى، وتجمّع حول ماير الصغير خمسة صبيان أشرار أو ستة ممن يبحثون باستمرار عن ذريعة للتحرش والتنكيل وتبعوني بالسب والشتم إلى أن وصلت إلى بيتي. ومُذّاك فصاعداً كانت أحداث كهذه تتكرر في كل يوم تقريباً، ماير الصغير كسب إلى صفه بعض الصبيان في علاقة شكلية، وحيثما كنت أذهب كنت أسمع هتافاً مسيئاً من ورائي. كنت فقدت سلوكي ذائع الصيت وعدت إلى سابق عهدي في الغفلة والبلاهة؛ وذلك ما شجع العبث والنزوع إلى السخرية لدى ملاحقتي إلى أن تعبوا أخيراً من ممارسة ذلك. كان هؤلاء جميعاً من نوع الرفاق الذين مارسوا شيطنة أو كانوا ينتظرون فرصة فحسب لكي يحصلوا على بقايا قنب عالقة بالمغزل. كان لافتاً للانتباه أن ماير الصغير، على الرغم من شخصيته عتيقة الذكاء والمجدة في كل شيء، لم يكن يفضل الاختلاط بأناس من ذوي الطباع الشبيهة بطباعه بل كان يُرى باستمرار برفقة الطائشين والعابثين والبلهاء مثلي ومثل الآخرين غيري في حين شارك الهادئون والفاضلون من شريحة عمري في مناهضة نزوع أولئك إلى ملاحقتي وحموني مرات كثيرة من اعتداءاتهم ولم يشعروني بالازدراء أو الجفاء إلى حد أنني أصبحت أكثر من كوني قوبلت بتعاطف حار وقلما لفت ذلك انتباهي. في نهاية المطاف بقي ماير الصغير تقريباً وحيداً في الساحة متخماً بالحقد والحنق، غير أن ذلك دفعه إلى أن يكون أكثر حدة ووحشية في حين زال في نفسي كل حدس بإمكانية تصالح بيننا. فحين كنا نتقابل كنت أحاول أن أحول نظري عنه وأمر بجانبه صامتاً مرور الكرام، أما هو فكان يرميني بصوت عالٍ بكلمات سامة وقاتلة إذا ما كنا وحيدين في المكان أو بحضور أناس غرباء فحسب، أما إذا لم نكن وحيدين،

فقد كان يتمتم بكلمات مشابهة هكذا على غير هدى بحيث لا يستطيع أن يسمعها أحد غيري. وغدا كرهي له أكثر مرارة من كرهه لي، ولكنني كنت أتحاشاه وأخشى من لحظة تصفية الحسابات. على هذا النحو بقي الوضع على حاله مدة عام كامل، وحل فصل الخريف من جديد حين كانت تجري في المدرسة عادة تدريبات عسكرية كبيرة. كنا نفرح لمجيء هذا اليوم ما دام يسمح لنا بإطلاق النار كما نشاء. أمّا عني فقد أصبح كل الفرح المشترك مكرراً وبارداً لأن عدوي كان مشاركاً في الوقت ذاته وغالباً ما كان يندس بجانبي. في هذه المرة قُسم حشدنا إلى نصفين، كان على النصف الأول احتلال قمة رابية مكسوة بالأشجار وسامقة وعلى النصف الثاني اجتياز النهر والالتفاف حول الهضبة وبالتالي الاستيلاء عليها. أُلحقت بهذه الكتيبة بينما ألحق عدوي بتلك. قبل ذلك قضينا أسبوعاً كاملاً منهمكين في بناء رأس جسر صغير وتدبيب أوتاد خفيفة وغرزها في الأرض بينما اشتغل بعض النجارين في نصب جسر فوق المياه قليلة العمق. والآن استولينا بمدافعنا، طبقاً لاتفاق على أعلى المستويات، على المعبر ودحرنا العدو بكل جدارة إلى أعلى المرتفع. المجموعة الرئيسية زحفت صعوداً على طريق حلزونية الشكل في حين قام رتل موسع من المناوشين بتطهير الأدغال واندفعت إلى الأمام عبر العوائق والعقبات. هؤلاء نعموا بالمتعة الأكبر واعتراهم الانفعال الأقوى، وبعض منهم تدافعوا بأجسادهم بينما لم يشأ الذين أمروا بالانسحاب أن يُخلوا المكان، وكادت الطلقات أن تحرق الوجوه، وأكثر من قضيب لحشو البنادق أزّ، منسياً بفعل شدة الحماس عبر الأشجار، وحسن حظ الشباب فحسب هو الذي حال دون وقوع حوادث جدية، أما الجاويش العجوز الذي أشرف على المناوشين فقد اضطر أن يضرب بعصاه بين هذا وذاك ويوزع شتائمه بسخاء لكي يحافظ نوعاً ما على النظام. كنت آنذاك في أقصى جناح هذا الرتل، ولكنني لم أشارك زملائي في انفعالاتهم بل سرت إلى الأمام شارد الذهن وهادئاً وكئيباً أطلق أعيرتي النارية وأحشو بندقيتي من جديد كلما فرغت.

وسرعان ما ضللت طريقي فانفصلت عن الباقين ووجدت نفسي فجأة في سفح واد موحش ومجهول عندي، في أعماقه يسمع خرير جدول صغير من الماء وتكسو ترابَه غابةٌ من أشجار الصنوبر. كانت السماء قد تغطت بالغيوم وخيم على المكان جو قاتم ولكنه رقيق، وكان من شأن إطلاق الأعيرة وقرع الطبول من بعيد أن زادا من الهدوء العميق في الأمكنة القريبة مباشرة، وقفت بهدوء واتكأت على بندقيتي طلباً للراحة، وكنت وقتئذ تحت رحمة مزاج كان ينزع حيناً إلى البكاء وحيناً آخر إلى العناد والمكابرة ويعتريني في أغلب الأحيان إزاء الطبيعة الكبيرة فيكون بمثابة سؤال الواقعين في ضائقة عن الحظ. هنا سمعت وقع خطوات قريبة مني، عبر ممر ضيق بين الصخور وفي الوحشة العميقة أتى عدوي قادماً إلي، صار قلبي يخفق بشدة، أما هو فنظر إلي بنظرة لاذعة وجابهني بعد ذلك مباشرة بإطلاق عيار ناري كان من القرب مني إلى حد أن بضع حبات من البارود تناثرت حول وجهي. وقفت دون حراك وحملقت فيه، فلقم بندقيته بسرعة مرة أخرى، صرت أراقبه فارتبكَ وغضب واعترته حال تجل عن الوصف من عمى بصيرة الفطنة، وبنيَّة إطلاق النار في وسط الوجه بغباء وطيب قلب متوهمين، أراد مجدداً أن يصوب من مكان قريب، فرميت سلاحي وانقضضتُ عليه فنزعت سلاحه هو أيضاً. وفي الحال اشتبكنا في عراك عنيف وتصارعنا بعضنا مع بعض لربع ساعة كامل بصمت ومرارة مع تبدل الحظ، تارة لمصلحة أحدنا وأخرى لمصلحة الآخر. كان يتحلى بخفة الحركة كالقطة ويستخدم مئة وسيلة لكي يسقطني على الأرض، يضع ساقه مائلة في طريقي، يضغط بقبضة يده خلف أذني، يضربني على صدغي ويعض يدي، وكان يمكنه أن يهزمني عشر مرات لولا أن غضباً عارماً أحيا في نفسي قدرة فائقة على التحمل. وبهدوء مميت تشبثت به وصرت أضربه من حين لآخر بقبضة يدي، وعيناي تدمعان، وأحسست عند ذلك بآلام شديدة مع يقيني بأنني لن أشعر في يوم من الأيام بأعمق منها مهما عشت وعايشت الأسوأ من الأمور قاطبة. في نهاية

العراك انزلقنا على الأشواك الملساء التي كانت تغطي الأرض، سقط هو تحتي واصطدمت مؤخرة رأسه بجذر لشجرة شربين فأغمي عليه للحظة وتمددت يداه إلى الجانبين. عند ذلك نهضت واقفاً على الفور بحركة لا إرادية وفعل هو مثل ما فعلت، ومن دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر تناول كلانا بندقيته وغادر ذلك المكان الموحش. شعرت بالإنهاك في كل الأعضاء وبالإذلال وبتدنيس جسمي جراء هذا العراك العدائي مع صديق سابق.

منذ ذلك الحين لم يلتق بعضنا الآخر قط، ربما شعر جراء تصميمي اليائس أنه إجمالاً صُدّ إلى غير رجعة فتجنب عندئذ كل شكل من أشكال الاحتكاك معي. ولكن النزاع بقي من دون حسم واستمر عداؤنا على حاله، لا بل ازدادت قوته في أعماق كل منا على الرغم من أننا لم ير بعضنا بعضاً في السنين التي انقضت إلا نادراً، غير أن كل مرة كانت كافية لإيقاظ الحقد الدفين من جديد. حين كنت أراه كان ظهوره عندي، بصرف النظر عن سبب انفصالنا بعضنا عن بعض، أمراً لا يطاق بحد ذاته ويستحق الإبادة؛ لم أشعر بأي أثر للحزن الجارف، الذي يمتزج عادة مع استياءٍ كبير لدى رؤيةِ صديق كان تحول إلى عدو؛ بل كنت أشعر بالكراهية البحتة كما أشعر أيضاً بأن هذا، مع أن رفاق الصبا يحافظون عادة طول حياتهم على تبادل المودة والميل فيما بينهم، سيبقى عدو صباي طول حياتي. ربما كان يعاني هو أيضاً مشاعر مشابهة حين يراني، خصوصاً أن سبب عدائنا الأول، أي موضوع كتيّب الديون، لا بد أن يكون نسيانه متعذراً عنده. في غضون ذلك عمل في مكتب تجاري وطور هناك قدراته المميزة وبرهن عن أنه لا غنى عنه وأنه ذكي وواعد فنال بذلك رضا رئيسه وميله، وقد كان تاجراً ماكراً وعلى جانب كبير من المرونة والتفوه، باختصار كان عدوي يشعر في تلك الفترة بالسعادة ويعلق آمالاً عريضة بنشاطاته المستقبلية. وهكذا أستطيع أن أظن أن خيبة الأمل الفظيعة، التي نجمت عن محاولته الشبابية الأولى التعاطي مع شؤون التجارة والصفقات، لا بد أنها كانت مؤلمة إلى حد عميق الأثر، مثلها مثل

السخرية الأولى الرافضة للمحاولات الفنية الساذجة البريئة، التي تقوم بها الطبيعة الفطرية الطفلية لدى الشعراء والفنانين.

كنا اجتزنا طقوس تثبيت العقيدة، هو في الثامنة عشرة من عمره وأنا في السادسة عشرة؛ عندئذ بدأنا نتحرك بشيء من الاستقلالية وتعرفنا بعض الأوضاع والناس. وحين كنا نلتقي في أماكن عامة كنا نتجنب أن يرى بعضنا بعضاً، ولكن كان كل منا يبوح لأصدقائه بسر كرهه الذي كان أحياناً على وشك أن ينشر تأثيره أو ينفجر بصورة أكثر خطراً من اختلاط كل منا بمجموعة من الفتيان الذين يتفقون مع انشغالاته وطبائعه ويشكلون بذلك أرضاً خصبة لاستعار العداوة من جديد. لذلك كان يساورني قلق على المستقبل وكيفية تطور هذه المشكلة مدى الحياة في مدينة صغيرة كمدينتنا. إلا أن هذا القلق لم يكن مجدياً في ظل حادثة محزنة كان من شأنها أن أدت إلى نهاية مبكرة. إن والد خصمي كان اشترى بناية قديمة رائعة كانت في يوم من الأيام مسكناً للفرسان ومن أملاك البلدية وكانت مزدانة ببرج ضخم. هذه البناية كانت تُعد لأن تصبح سكناً مريحاً وكانت تُجرى تغييرات في كل ركن من أركانها. أما عن الابن وكانت تلك فترة ذهبية، إذ لم يقتصر هذا المشروع على تقديم فرصة للمضاربة التجارية فحسب بل لأن يُظهر الرجل إلى العلن كثيراً من المهارات التي كان يمتلكها أيضاً. كل دقيقة فراغ كانت في تصرفه كان يقضيها بين عمال البناء ويساعدهم ويتولى بنفسه أعمالاً كثيرة بتمامها وكمالها لكي يعوض عمن يلزمه من عمال ولكي يوفر أجوراً أيضاً. كانت طريقي إلى عملي تقودني يومياً بجانب تلك البناية وكنت أراه باستمرار بين الساعة الثانية عشرة والثالثة عشرة إبان راحة العمال في وقت الظهيرة وكنت أراه أيضاً مرة أخرى في المساء واقفاً تحت النوافذ أو فوق سقالة حاملاً سطلاً مليئاً بالدهان أو مطرقة. لم يزدد نمواً منذ فترة الطفولة، ومنظره في نشاطه الدائب معلقاً بالجدران الضخمة كان ينم عن درجة قصوى من الغرابة والندرة، اضطرني هذا المنظر إلى الضحك دون قصد وأوشكت أن أترك في

نفسي هامشاً لشعور أكثر مودة وتعاطفاً مع عدوي ما دام بدا في شخصيته تلك لطيفاً وماهراً، إلا أنه استغل ذات مرة الفرصة ورشني من عل بفرشاة من ماء الكلس.

في أحد الأيام حين غدت البناية في مرمى نظري، ساقني حسن الطالع في طريق آخر عبر شارع جانبي، وحين انعطفتُ من جديد بعد بضع دقائق إلى الشارع الرئيسي، رأيت كثيرين من الناس آتين من منطقة تلك البناية وعلى وجوههم علائم الرعب ويتحدثون بشدة ويولولون. بغية إزالة راية قديمة كانت وُضعت فوق البرج لكي تدل على اتجاه الريح، كان عمال البناء ارتأوا وجوب جلب سقالة كبيرة، ولكن الرجل التعيس، الذي لم يكن يتهيب شيئاً وأراد أن يوفر على نفســه المال اللازم لذلك ويُنزِل الراية من مكانها بكل هدوء في ساعة الظهيرة، كان خرج إلى أعلى السطح شديد الانحدار ثم هوى إلى الأرض وكان ملقى في تلك اللحظة على بلاط الشارع بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

حين علمتُ بالنبأ وأسرعت في السير على طريقي اعتراني خوف شديد بسبب حادثة السقوط من على السطح وطريقة حدوثها، ولكن لو أنني نبشت في داخلي ما شئت، لما تذكرت ومضة أي أثر للإشفاق أو الندم. كانت أفكاري جدية وقاتمة وبقيت كذلك، ولكن أعماقي التي لا تخضع لأي أوامر كانت تضحك وتعج بالفرح. لو أنني رأيته يتألم أو نظرت إلى جثته لظننت بكل ثقة أن الإشفاق والندم سيعترياننيي، غير أن قولي لنفسي إن عدوي لم يعد فجأة عدواً لي، لم يمن عليّ سوى بمصالحة، مصالحة مع الرضا لا مع الألم ومع الانتقام لا مع الحب. صحيح أنني صممتُ بسرعة بعد أن تمعنتُ في الأمر صلاةً اصطناعية ومضطربة رجوت فيها الله الغفران والرحمة والنسيان، فابتسمت أعماقي لذلك وإلى اليوم، بعد مضي سنين، أخشى أن يكون تعاطفي اللاحق مع تلك الفاجعة هو ثمرة لازدهار العقل أكثر منه لازدهار القلب، إلى هذا الحد من العمق تجذر الحقد.

الفصل السادس عشر

معلمون خُرق. تلاميذ أشرار

إذا ما عرجت مرة أخرى على مرحلة التعلم في المدرسة فإنني لا أستطيع أن أقر بأنها كانت مرحلة مضيئة وسعيدة. فدائرة ما يجب الإلمام بمعرفته توسعت بصورة لافتة وغدت المتطلبات أكثر جدية، وكان لدي شعور غامض بأن الأمر يتعلق بما هو مهم وجميل وكنت أحس باندفاع معين لوضع هذا الإحساس موضع التنفيذ. غير أن وسائل الانتقال من مرحلة إلى أخرى لم تكن واضحة أبداً وضللتُ عنها في اغلب الأحيان. غير أن المساوئ كمنت في المقام الأول في الأوضاع الانتقالية المتعلقة بالمدرسة ذاتها ما دامت الهيئة التعليمية كانت لا تزال مكونة من عناصر قديمة، أي من رجال الدين العاطلين من العمل والتابعين للكنيسة المحلية ممن اعتادوا بدافع الهواية أو الحاجة تولي تعليم كل ما أمكنهم من المقررات، وكانت تلك الهيئة التعليمية مكونة أيضاً من معلمين متخصصين ومؤهلين تمام التأهيل ولذلك لم تستطع أن تطور طريقة تعليمية مدرسية، متساوية ومتماسكة. فرجال الدين التزموا العادات القديمة وعلموا على أساسها وأساس أمزجتهم الشخصية فكانوا يخرجون عن المواضيع حين يحلو لهم ذلك ويعاملون الجميع على أنهم جهلة وتنقصهم الخبرة والتخصص، في حين اتبع المعلمون الدنيويون من ذوي التخصص والمهنة بدورهم طرائق وأساليب لم تكن قد جُربت بعد. فنجمت عن ذلك عيوب أساسية إضافية تمثلت في معالجة متباينة وغير ثابتة لمشكلة

الشبيبة، وفي بوادر تلك الكوارث والمغامرات الغريبة، التي كان ضحية لها مرةً المعلمُ ومرة التلميذُ.

كان يعلِّم في مدرستنا رجل جمع بنية حسنة وحسٍّ صادق بين قدر كبير من قلة الخبرة في مجال التعاطي مع الشباب ومظهر هزيل ونادر الوجود. وكان أسهم بشجاعة في النضال الذي أدى إلى تغير الأمور ولا سيما إلى الإصلاح والتجديد في قطاع التعليم وعُدّ في مدينتنا المحافظة رجلاً سيئ السمعة بصفته ليبرالياً مندفعاً. نحن الصبيان كنا جميعاً أرستقراطيين صالحين ماعدا أولئك الذين أتوا من الأرياف. وأنا أيضاً، على الرغم من أنني ريفي المنشأ والأصول ولكن وُلدت في المدينة، سرت مع التيار وبدا علي مع قلة مداركي الصبيانية شيء من السعادة لكوني أعد أيضاً أرستقراطياً من أهل المدن. لم تكن أمي تتحدث في السياسة ولم يكن عندي قدوة غيرها قريبة مني تستطيع تحديد آرائي التي لا وزن لها ولا أهمية. كنت أعرف فقط أن الحكومة الجديدة المتطرفة كانت أزالت بعض الأبراج وفتحات الأسوار القديمة، وهو ما كان موضوعاً لرغبتنا وميلنا، وأنها مكونة من ريفيين مكروهين ووصوليين. لو كان أبي، الذي عُد من هؤلاء، لا يزال على قيد الحياة لكنت أنا بلا أي شك رجلاً صغيراً ليبرالياً تماماً.

فور ابتداء المدارس الجديدة وحين مارس المعلم الأخرق عمله بارتياح كبير، نشر بيننا أحد التلاميذ، وهو ابن لمواطن متعصب من أهالي المدينة، بكلمات خطيرة خبراً مفاده أن المعلم كان أقسم إنه سيروضنا نحن أبناء الارستقراطيين بعصاً حديدية. وكان قد نُبِّه في أثناء مجالسته بعض الناس إلى أنه سوف يتعامل مع شبيبة مدينةٍ بعضهم ماجن ومستهتر وبطر بحكم الأصل والعادات والتقاليد القديمة، فأجاب المعلم عن ذلك بقوله إنه يعرف كيف سيوقف أولئك الصبيان عند حدهم. هذا القول، بالطريقة الواردة آنفاً ومع احتمال تدخل كبار السن من أعضاء الهيئة التعليمية ومساعدتهم، رُمي في أوساط جمهورنا الطائش وبدأ على الفور سريان مفعوله. قبلنا التحدي، فشرع التلاميذ الأكثر

جسارة ومجازفة في مقاومةٍ منظمةٍ ومناوشاتٍ بسيطةٍ ماجنة. مجرد هذا الشروع أربكه وبدلاً من أن يصد المهاجمين بسخريات لاذعة وعزيمة هادئة متفوقة، زحف على الفور بقواته الرئيسية ومدفعيته الثقيلة ورد على كل تصرف عابث بسيط وكذلك على كل فعلةٍ غير مقصودة هكذا بعشوائية وبأقسى ما كان في متناول يده من عقوبات وأكثرها تأثيراً وضرراً ومما لم تكن لتُفرض فيما عدا ذلك إلا في حالات نادرة. بذلك تنصل في نظرنا من الأرضية القانونية الجيدة، لأننا في مجال تقدير العلاقة بين العقاب والجريمة كنا نمتلك تجربة كبيرة. وسرعان ما غدت عقوبات عديمة القيمة وفي نهاية المطاف مسالة كرامة، مسألة استشهاد. حدثت ضجة علنية في الحصص التعليمية وانتشرت أيضاً في قاعات الدرس الأخرى التي كان على المعلم المحرِّض أن يوجد فيها. والآن اقترف خطأً جديداً، فبدلاً من أن يجعل حركة التمرد تنهار من ذاتها ويقف لها بالمرصاد فترة من الزمن، بدأ بطرد كل تلميذ من قاعة الدرس إذا ما اقترف هذا أتفه ذنب. وكان يكفي أن يطرح عليه أحدنا سؤالاً بريئاً أو أن يسقط منه شيء ما على الأرض بقصد أو بغير قصد لكي يطرده إلى العراء. فطنَّا إلى ذلك، وسرعان ما صار يعطي درسه بانتظام بحضور اثنين أو ثلاثة فقط من التلاميذ الأتقياء في حين كان الجمع الغفير من هؤلاء يتزاحم أمام الباب مستهزئاً بالمعلم وساخراً منه. كانت تدخلات من سلطات أعلى أو حتى طاقته هو، إذا ما انهال على بعضهم مرة بالضرب على رأسه، تكفي لإنهاء المشكلة. لم يكن يمتلك الشخصية المناسبة للحل الثاني، أما الحل الأول فلم يكن وارداً في الحسبان، لأن الهيئة المعنية مباشرة كانت مكونة من أوصياء لم يحبوا المعلم الملاحَق ثم بدا أنهم طيلة ما أمكن من الوقت لم يلاحظوا الأحداث الجارية. كان التلاميذ يروون أفعالهم لأهلهم بكل تبجح ولم يغفلوا في أثناء ذلك عن وصف المعلم بأنه الغول المرعب إلى أقصى حد. المواطنون البدينون البورجوازيون، حين كانوا يتذكرون برضا وإعجاب مقالب أبنائهم ويرون انطلاقاً من تجارب تربيتهم القديمة المدرسة نوعاً من مأوى

مؤقت إلى أن ينضم الطفل البورجوازي عريق الأصل من دون أن يجهد نفسه في التعلم وإمعان التفكير في تحصيل المعارف إلى شريحة الامتيازات والنقابات المريحة في المدينة القديمة الطيبة، هؤلاء البورجوازيون كانوا يشجعون أبناءهم المدللين على ممارسة مقالبهم وشيطناتهم بابتسامة غير خافية إن لم يكن بتحريض مباشر على ذلك. وعلى الرغم من أن الموضوع كان من فترة طويلة أثار ضجة كبيرة فإنه كان يوصف في أوساط الجهات العليا بأن كل المسؤولية تقع على عاتق المعلم المتعرض للملاحقة، وإذا ما أتى شخص إلى حصة الدرس لكي يرى بنفسه ما كان يحدث داخل القاعة كنا نتحاشى أن نبدأ بأي شغب، وفي حصص بقية المعلمين كنا نحافظ على هدوء وانضباط مضاعفين. فمعلمنا التعيس هو الذي شكل نقطة الانطلاق لكل شرور المدرسة. وظل على هذا النحو قرابة عام إلى أن أوقف أخيراً عن العمل بعض الوقت. وكان يحلو له أن يبقى بعيداً تماماً عن ممارسة مهنته في ظل معاناته من أضرار في صحته ونحول جسمه، ولكن أسرة كبيرة كانت تصرخ للحصول على الخبز، وكان هو معتمداً حصراً على هذه المهنة. ولذلك عاد من جديد إلى المشي على درب آلامه بقدر ما أمكنه ذلك من التصالح والتواضع، ولكنه لم يُبد أي رأفة؛ فقد تفجرت هتافات صاخبة معادية له وتكررت المقالب وأحداث المجون السابقة، فكان لا بد من عزله والاستغناء تماماً عن خدماته بعد بضعة أيام من عودته إلى التعليم.

كنت لفترة طويلة أتصرف بهدوء تقريباً وأنظر بارتياح إلى مجريات الأحداث. لم أرتكب مرة أي جرم ضد الرجل تحديداً لأنني كنت أرفض من حيث المبدأ مجابهة الناس البالغين، ولكن حين بدأ يطرد كل تلاميذ صفي حاولت أن أشترك معهم وعملت على ذلك بممارسة مقالب صغيرة أو الخروج هكذا تضامناً مع المطرودين؛ أولاً لأن الوجود خارج غرفة الصف كان مفعماً باللهو والتسلية وثانياً لأنني لم أشأ أن أتضامن بأي صورة من الصور مع القلة من رعاة الإنصاف المكروهين، الذين فضلوا البقاء في قاعة الدرس.

حين أكون خارج القاعة، كان يطرأ على صوتي علو ملحوظ وكنت أساعد في تنظيم المسيرات وعمليات الطواف وأنعم بعد انسحاب طويل بسرور جارف إلى حد أن قلبي كان ينبض بشدة ودمي يغلي حين كنا نعود من جديد إلى الجلوس على مقاعدنا في حصة المعلم التالي. أستطيع أن اعترف بالتأكيد أمام نفسي بأن سروري آنذاك كان للسرور ذاته ولم أحمل في داخلي أي نوايا شريرة. بل الأرجح هو أنني كنت أشعر بإشفاق خفي على معلمنا المسكين، ولكنني امتنعت عن إظهار ذلك لئلا أجلب على نفسي استهزاء الآخرين وسخريتهم. ذات مرة قابلته على انفراد تماماً على درب زراعية، بدا كأنه يقوم بنزهة استجمام مشياً على الأقدام، وبكل عفوية أزحت قبعتي عن رأسي باحترام تحية له فسر أيما سرور بحيث تجاوب معي وشكرني ثم نظر إلي في أثناء ذلك بعين معذبة وكأنه كان يتوسل إلي استدراراً لإشفاقي. هذا المشهد مسَّ شغاف قلبي، وجال في خاطري أن الوضع لا بد أن يتغير. وفي اليوم التالي مباشرة انضممت إلى مجموعة من زملائي التلاميذ الأكثر توحشاً لكي أبادر في المكان المناسب إلى رمي كلمة في مسامعهم من شأنها أن تروج للمشاركة الوجدانية مع معلمنا المظلوم والتأمل في وضعه؛ كنت وقتها أمتلك الغريزة الصحيحة من أن بادرتي سوف تلقى تجاوباً، إن لم يكن في حينها ففيما بعد بالتأكيد، وتجذب مزاج الجمع الغفير من التلاميذ. كانوا يتحدثون تواً عن المعلم نفسه وكانوا اخترعوا قبيل ذلك لقباً مثيراً للاستهزاء إلى حد جعلت مزاج الجميع في أحسن حال ونقلتهم إلى جو من الضحك والقهقهة، هنا انقلب ما سبق أن نويت قوله لمصلحة المعلم رأساً على عقب وبدلاً من تأدية واجبي نحوه رأيتني أخونه وأخون الشق الأفضل من ذاتي بسرد مغامرة أمس بطريقة كانت تتناسب تماماً مع الجو السائد آنذاك وترفع وتيرته.

بعد إبعاد معلمنا ساد بيننا الهدوء؛ المحتاجون منا إلى الجلبة والضوضاء والناوون الشر تنازعتهم توجهاتهم بقلق كبير وعاشوا على ذكرياتهم وضلوا طريقهم. في مساء أحد الأيام بعد انتهاء الدروس مشيت بهدوء وتثاقل في

طريقي إلى أن اقتربت من بيتنا وهنا سمعت صوتاً ينادي: "تعال إلى هنا، يا هاينريش الأخضر!" التفت إلى الوراء فرأيت في شارع آخر مجموعة لا بأس بها من التلاميذ يتزاحمون كجمع غفير من النمل وقد بدا أنهم منشغلون جداً في شيء ما. وصلت إليهم فأُبلغت بأن الجميع ينوون زيارة المعلم المعزول وإقامة احتفال ختامي وطُلب مني أن أشاركهم في ذلك. في بادئ الأمر استعصت الخطة على اقتناعي فرفضتها باقتضاب وتابعت طريقي، إلا أن الفضول استدارني إلى الخلف فلحقتُ بهم من بعيد وأردت أن أرى ما سيجري. مجموعة التلاميذ تقدمت إلى الأمام؛ بعض المدارس الأخرى، التي كان تلاميذها في ذلك الوقت يدبون في الأزقة كالنمل، ضُمت إلى الجماعة فتدحرجت بذلك على الفور مسيرة من مئة صبي من جميع الفئات. وقف الأهالي على الأبواب وأخذوا يراقبون بدهشة واستغراب ذلك التصرف، سمعت واحداً يقول: "ماذا ينوي هؤلاء الصبيان الشياطين أن يرتكبوا من جديد؟ إنهم وحق الله نشيطون تقريباً مثلما كنا نحن ذات يوم!" هذه الكلمات دوت في أذني كبوق حرب فنشطت قدماي ولحقت بآخر رجل في المسيرة. غمرتِ الجماعةَ متعةٌ تعزّ على الوصف وكان سببها التلاقي العفوي المشترك تلقائياً. ازددت دفئاً أكثر فأكثر فسحبت نفسي إلى الأمام إلى أن وصلت فجأة إلى المقدمة حيث كان يمشي قادة المسيرة الكبار، فحيوني ورحبوا بي. حينئذ علا صوت يقول: "هاينريش الأخضر انضم إلينا أخيراً!"، ودوى الصوت على امتداد المسيرة وأغنى مادة اللغط والسرور اللاهي. وطاف في ذهني على الفور ما سبق أن قرأت عن حركات شعبية ومشاهد ثورية. فاقترحت على المحرضين أن "نتوزع إلى صفوف أكثر تساوياً وننشد بنَفَسٍ جدي أغنية وطنية!"، فقوبل اقتراحي باستجابة دافئة ونُفذ فوراً، وعلى هذا النحو طفنا في عدة شوارع، وكانت نظرات الناس تتبعنا بدهشة واستغراب، فاقترحتُ حينذاك أن نطوِّل طريقنا مرة أخرى ونبقي على هذا الاستمتاع قدر الإمكان. فتم ذلك أيضاً، ولكننا وصلنا في نهاية المطاف إلى الهدف. هنا سألت: "ماذا نريد في حقيقة

الأمر أن نفعل الآن؟ ما قولكم في أن ننشد هنا أغنية أخرى وننصرف من هنا ونحن نهتف فرحاً وحبوراً!" فتلقيت جواباً: "هلموا ادخلوا البيت! إلى البيت! نريد أن نقول له كلمة شكر على ما قدم لنا من خدمات!"، عند ذلك قلت: "ينبغي على الأقل أن نكون يداً واحدة وألاَّ يتهرب أحد فيُعاقَب الجميع بالتساوي إذا ما حصل ضرب بالعصا!". إثر ذلك تدفق الكل إلى البيت الصغير الضيق وهدروا باتجاه أعلى الدرج. بقيتُ واقفاً على الباب لكي أمنع هروب بعض المساهمين في الذنب قبل الأوان. سُمعت ضجة مخيفة في الداخل، كان الصبيان منتشين تماماً بانفعالاتهم؛ كان الرجل المطلوب على فراش المرض في غرفة مقفلة، وحاولت السيدات وهن مرتعبات قفل باقي الأبواب وبحثن وهن واقفات وراء النوافذ عن مساعدة. ولكنهن خجلن من الصراخ بصوت عالٍ، لم يعرف الجيران ماذا يعني كل ما كان يحدث على مرأى ومسمع منهم وشاهدوا ذلك بأقصى حد للدهشة والاستغراب، أما أنا فبقيت في موقعي وفي ذهني لا أقل من أفكار مرحة. كان البيت من أسفله إلى أعلاه مليئاً بالناس، ومحدثو الضجيج ظهروا تحت النوافذ التي هي في السقوف المائلة، وأخذوا يقذفون بالسلال القديمة إلى خارج البيت حتى إنهم صعدوا إلى السطح وملؤوا الجو بصراخهم. أخيراً خرجت امرأة طاعنة في السن من حجرتها الصغيرة وطردت تدريجياً بمكنسة في يدها كل السرب من ذلك البيت.

هذا الاعتداء كان لافتاً للنظر أكثر مما يُسمح للسلطات العليا بالاستمرار في مراقبته دون تحريك أي ساكن، فطالبوا بإجراء تحقيق حازم. جُمعنا في قاعة ونودي علينا كل بمفرده للمثول أمام محكمة كانت منعقدة في حجرة مجاورة. استمر الاستجواب بضع ساعات، والعائدون منه كانوا يغادرون في الحال دون أن يخبروا شيئاً عن استجوابهم؛ ثلثا المجتمعين غادروا المبنى ولم يُناد علي بعد؛ في المقابل كنت ألاحظ أن كل الذين كانوا يخرجون أخيراً من قاعة الاستجواب كانوا ينظرون إلي قبل مغادرتهم. وفي نهاية الأمر قيل إنه ينبغي على كل الباقين الدخول إلى القاعة ما عدا هاينريش الأخضر.

وأخيراً أتى دوري؛ الجماعة الأخيرة من التلاميذ ظهرت من جديد ودعتني إلى الدخول فأردت أن أسأل عما يحدث، ولكنني لم أحصل على أي جواب، لا بل كان الزملاء يسرعون وهم يرتجفون خوفاً لدى مغادرة المكان. وهكذا دخلتُ إلى الغرفة المجاورة، يدفعني إلى الأمام الفضول من جهة ويستوقفني من جهة أخرى الخوف الذي يحس به الشبيبة عادة من كبار السن حين يفترضون أنهم أشخاص متفوقون عليهم عقلياً وقادرون على كل شيء. كان في الغرفة سيدان جالسان في الزاوية العليا من منضدة طويلة وقفتُ أنا إلى جانب إحدى أرجلها، كان أمامهما على المنضدة بعض الأوراق وأداة للكتابة. كان أحدهما هو ناظر المدرسة التالي، الذي كان هو ذاته يعطينا دروساً كذلك وكان يعرفني، وكان الآخر سيداً أرفع تفقهاً ومكانة ويقول قليلاً من الكلام. مع ذاك توفّرت لي علاقة مميزة، كان أفاكاً مريحاً كثير الكلام ويسره أن يمنحه تلميذ ما من خلال اعتراض متواضع فرصة للإسهاب في الحديث عن واقعة ما. في أول الأمر عاملني برفق لأنني أحسنت التصرف معه بالذات، غير أن طريقتي، المتمثلة في ردي بصمت مطبق على الاتهامات والتحذيرات والعقوبات فيما تعلق بأحداثٍ واقعةٍ، كانت جرَّت علي نفورَه وكراهيتَه. الإنكار الوجل، طلاقة اللسان، درء العقوبة، المساومة بعناد على المعاقبة، كل هذه الأمور كانت متعذرة علي؛ فإذا كنت أظن أنني أستحق العقاب، رضيت به بصمت، ولكن إذا ما بدا لي أنه عقاب ظالم، رضيت به بصمت أيضاً، وليس منْ قبيل العناد والتحدي بل سخرت من ذلك بيني وبين نفسي وسررت به في آن معاً وجالت في خاطري فكرة أن القاضي ليس من الأذكياء والأفذاذ. لذلك عدّني ذلك السيد صبياً لا فائدة منه وموضع شك وارتياب فأغلظ لي القول وصرخ في وجهي مهدداً: "هل شاركت في الفضيحة؟ اسكت! لا تنكر، فالنكران لن يفيدك في شيء!" هنا خرجت من شفتي كلمة "نعم" بصوت غير مسموع، متوقعاً ما سيأتي بعد ذلك من أمور، ولكنه تظاهر بأنه لا يزال يريد إنقاذي، من وجهة نظره طبعاً، وبما أن حواراً

جذرياً كان ضرورياً عنده لإيقاظ مزاج جيد فقد تصرف كأنه سمع مني كلمة "كلا" فصرخ في وجهي قائلاً: "كيف، ماذا؟ قل الحقيقة!" كررتُ بصوت أعلى قليلاً: "نعم" فقال: "حسن، حسن، حسن! سوف تجد بالتأكيد شخصاً نداً لك يضربك بحجر على جبينك العنيد ويورمه!". هذه الكلمات أهانتني وآلمتني، لأنها لم تنمّ عن سوء تقدير شرير فحسب، بل عن تنبؤ غير لائق للمستقبل ومن ثم عن مرارة شخصية كذلك. ثم تابع استجوابه: " ألم تقترح في الطريق تنظيم مسيرة رسمية وإنشاد أغنية؟" أدهشني هذا السؤال، وقلت في نفسي إذاً خانني رفاقي ولذلك برؤوا أنفسهم من دون شك، ترددتُ في ما إذا كنت أستطيع النكران، ولكن كلمة "أجل" خرجت من فمي مرة أخرى هكذا دون سابق نية. واستطرد المحقق: "ألم تعلن في البيت المعتدى عليه أنه لا يسمح لأحد بالانسحاب ووضعت إعلانك موضع التنفيذ بحراستك الباب؟". فاعترفت بذلك من غير تردد لأنه لم يبد لي أنه عار أو حرام. هنا بدا للسيد المحقق أن هذين السببين، اللذين ظهرا بجلاء نتيجة للاستجوابات الأولى للمشاركين في الذنب، لا بد أن يدلا على الجاني الرئيسي، وقد برزا أيضاً بالصورة الأكثر معقولية بفعل الممارسات الفوضوية المضطربة فركز التحقيق عليهما دون غيرهما. كان الجميع قد ردّوا بالإيجاب على السؤال عن هذين الموضوعين وسرهم أنهم لم يضطروا إلى الحديث عما اقترفوه.

أُطلق سراحي وذهبت إلى البيت مضطرباً، لكن ببطء وتؤدة، وبدا لي أن كل ما جرى يهدر من الكرامة ويحط من القدر. صحيح أنني شعرت بندم عميق، لكن تجاه المعلم الذي أسيئت معاملته فحسب. في البيت رويت لأمي كل ما حدث فهمَّت هي بدورها بإلقاء خطبة تعنيف وتوبيخ ومعاقبة لولا أن مستخدماً دخل علينا ومعه رسالة كبيرة. تضمنت الرسالة نبأ أنني طُردت من المدرسة بدءاً من هذه الساعة وإلى الأبد. شعور السخط والظلم الملم بي، الذي ظهر في الحال بداخلي، كان مقنعاً إلى درجة أن أمي لم تعد تتوقف عند مسألة ذنبي بل تركت العنان لمشاعرها القلقة لأن الدولة الكبيرة والقادرة

على كل شيء وضعت الابن الوحيد لأرملة لا معين لها أمام الباب قائلة: "لا حاجة إليه".

حين يسود نزاع عميق ومستمر حول شرعية عقوبة الموت، يحق للمرء أن يسأل إن كان للدولة الحق أن تحرم طفلاً أو شاباً فتياً لا ينزعان إلى جنون الغضب من نظام التربية الذي وضعَته ورَعته وتتحمل في الوقت ذاته مسؤولية المجازفة في ذلك. وجرياً على ذلك الحدث يُحتمل أن تُقطع رأسي إذا ما وقعت في أثناء مراحل حياتي اللاحقة في ورطة مماثلة أكثر جدية وفي أوضاع مشابهة وقضاة شبيهين بأولئك؛ لأن حرمان طفل من التربية العامة لا يعني شيئاً آخر سوى القضاء على تطوره الداخلي وقطع دابر حياته العقلية. وبالفعل انتهت في أحيان كثيرة التحركات العلنية للبالغين، التي تعدّ تجمعات أطفال من هذا النوع صورة طبق الأصل عنها، بعقوبات إعدام.

ليس من حق الدولة أن تسأل عما إذا كانت الشروط لمتابعة تأهيل خاص متوفرة أو، على الرغم من تخليها عن الناس، ما إذا كانت الحياة لن تخذل المتخلَّى عنه بل ستصنع منه أحياناً مواطناً صالحاً: عليه فقط أن يتذكر واجبه فيشرف على تربية كل واحد من أطفاله ويستمر فيها. هذه الظاهرة هي في النهاية أيضاً أقل أهمية، فيما يتعلق بمصير مطرودين كهؤلاء، من كونها تدل على مكمن الداء حتى في أفضل مؤسساتنا، أي على تبلد أولئك المكلفين بهذه الأمور، الذين يدعون بأنهم مربون وكسلهم.

* * *

الفصل السابع عشر

هروب إلى الأم الطبيعة

لم يكن الهم والقنوط من جهتي كبيرين إلى درجة لا تحتمل، كان عليّ أن أعيد إلى معلم اللغة الفرنسية بعض الكتب، لأنه اعتاد بكل لطف وأريحية أن يعيرني كتباً مجلدة جديرة بالاحترام لكتاب كلاسيكيين فرنسيين. وكان أطلعني أيضاً بضع مرات على مكتبة كبيرة وعلمني مفاهيم أولية جديرة بالتقدير تتعلق بعالم الكتب. حين أتيت إليه عبر لي عن أسفه لما حدث وأفهمني ألا أبالغ في النظر إلى الأمور بجدية أكثر من اللازم لأن معظم المعلمين، حسب معلوماته، وهو معهم أيضاً لم يكونوا غير راضين عني. ثم دعاني إلى زيارته للأخذ بنصائحه ومتابعة تعلم اللغة الفرنسية إذا ما كان لي رغبة في ذلك. صحيح أنني لم أره من جديد لدى تعاقب الوقت، ولكن كلماته أرضتني إلى درجة أنني شعرت بالحرية كالطير في الجو، حصوصاً أنني لم أستطع تجاهل خطورة اللحظة الراهنة وأهمية المستقبل.

بالمقابل وجدت أمي نفسها في وضع حرج جداً، كان ثمة ما يدفعها حتماً إلى الظن أن الأب، لو أنه ما زال على قيد الحياة، لن يكتفي بإنهاء تعليمي في المدرسة عند هذا الحد ولكنها لم تر بوسائلها المادية المحدودة أي قدرة على دفع أجور معلم خصوصي أو على إرسالي إلى مدرسة خارجية، كذلك لم تستطع أن تتصور المهنة التي قد تتاح لي على الوجه الأفضل ما دام الأفق الأوسع الناجم عن إتمام التعلم في الصفوف الأعلى من شأنه أن يتيح

الفرصة لتقرير مصير أكثر تبصراً وجدوى. انشغالي في البيت كان اقتصر مؤخراً على الرسم والرسم الزيتي تقريباً، من هذه الناحية أيضاً وجدت نفسي في علاقة غريبة بالمدرسة، هناك كنت أُعد رساماً موهوباً، طوال أشهر من الزمن كانت تظل ورقة الرسم ذاتها ملصقة على لوحة الرسم الخاصة بي، كنت أكابد بقرف وتبرم لكي أنسخ رأساً كبيراً أو زخرفة بقلم رصاص نحيل، عشرات الخطوط مُحيت إلى أن بقي الخط الصحيح منها، اتسخ الورق وتهرّأ من الفرك فدل ذلك على رسام كسول وخائب. لكن حالما كنت أعود إلى البيت كنت أرمي هذا الفن المدرسي جانباً وانشغل بجد كبير بالفن البيتي. وبعد تلك المحاولة الأولى لنسخ منظر طبيعي مرسوم سابقاً تابعتُ إنتاج لوحات من هذا النوع بالألوان المائية، ولكن بما أنني لم أمتلك أي نماذج لكي أنقل عنها وجب علي أن أوجدها اعتماداً على ذاتي وفعلت ذلك بمثابرة دائمة. مدفأة غرفتنا، المرسومة في لوحة، كانت تحتوي على عدد من المواضيع الصغيرة المقتبسة من الطبيعة، مثلاً برج، جسر، بعض الأعمدة على ضفاف بحيرة وما إلى ذلك، وكان من شأن ألبومٍ قديمٍ بحوزة أمي، مخصص لتدوينات الضيوف، ومكتبة صغيرة من تقاويم نسائية قديمة تعود إلى فترة شبابها أن أخفيا كنزاً ثميناً من صور طبيعية عاطفية ومطابقة للنص الشعري، مع معابد، وهياكل وأوز في أحواض، مع عشاق جالسين في قوارب وخمائل معتمة بدت لي أشجارها غير واضحة المعالم. من كل هذا مجتمعاً نشأ فن من الشعر بريء إلى أقصى درجة البراءة وجوهري إن صح التعبير، وشكل أساساً لعملي الحماسي وغمرني بالسعادة في أثناء هذا العمل. وابتكرت بضعة مناظر طبيعية وكدست فيها بوفرة كل المواضيع الشعرية وانتقلت منها إلى مواضيع أخرى، كانت الهيمنة فيها لموضوع واحد اقترن به وأمَّ إليه دائماً الشخصُ الذي قصدت به عن نصف عمد، ذاتي أنا لا غيرها. لأنني بعد الإخفاق المستمر لاختلاطي بباقي العالم بدأت عملية غير لائقة من تبصر بالذات وأنانية جارفة بغية التسلل إلى أعماق نفسي، شعرت بإشفاق ذاتي لين على

نفسي وأحببت أن أضع شخصي رمزياً في المشاهد الممتعة التي ابتكرتها. هذا الشخص في لباس أخضر مفصل على طريقة رومانسية وعلى ظهره محفظة سفر تحجر في أشفاق وأقواس قزح، جال في مقابر أو في الغابة أو طاف أيضاً في حدائق غنَّاء مليئة بالأزهار والأطيار الملونة. ما كان يؤخذ على هذه المجموعة الكبيرة من لوحات كهذه كانت تكدست وازداد عددها مع مرور الوقت، بقي باستمرار مستنداً إلى وجهة النظر القائلة بالافتقار التام إلى الخبرة وتلقي الدروس، وقدر معين من الجسارة والمهارة فقط في طلي الألوان كنت اكتسبتها بفضل التمرن المستمر، إضافة إلى روح الإقدام العالية في مشاريعي عامة، كل ذلك هو ما ميز عملي إلى حد ما من الألعاب الصبيانية الأخرى بالأقلام والألوان وكان سبباً في قولي المؤقت إنني أريد أن أصبح رساماً. ولكن لم يُحك آنذاك عن ذلك بتفصيل أكثر، بل اتُخذ قرار بأن أقيم بعض الوقت في البيت الريفي لخالي القس لكي أتجاوز محنتي في الأشهر المقبلة بطريقة ناجعة، بينما تُجرى تحريات بشأن ضمان مستقبل لائق بي.

قرية موطننا الأصلي كانت تقع في أقصى زاوية من البلاد، لم يسبق لي أبداً أن كنت هناك كما أن أمي انقطعت عن زيارتها منذ بضع سنوات، وأقاربنا هناك، ما عدا استثناءات نادرة، لم يظهروا في المدينة أبداً. خالي القس فقط كان يأتي مرة كل عام على صهوة جواده الهرم لكي يشارك في اجتماع كنسي وكان يغادر دائماً والدعوات الحارة توجه إليه لكي يخرج أخيراً إلى التجوال ذات مرة. كان لخالي نصف دزينة من بنين وبنات لم أعرفهم ولم أعرف أمهم بعد، أي عمتي البدينة والفلاحة زوجة القس. وعلاوة على ذلك كان يقيم هناك عدد كبير من أقارب أبي وفي مقدمتهم أمه بشحمها ولحمها، وكانت سيدة طاعنة في السن ومتزوجة منذ زمن طويل من رجل ثان غني وعبوس وقد عاشت تحت وطأة قسوته في عزلة عميقة ونادراً ما تبادلت عن بعد مع من خلفوا ابنها المتوفى عن عمر مبكر تحية اشتياق وحنين. كان الأهالي لا يزالون يعيشون حياة هادئة وقائمة على الرضا بالقليل والزهد كما

كانوا ورثوها من قرون سابقة إذ كانت النساء البعيدات بعضهن عن بعض بضعة أميال لا يلتقين أو يلتقين نادراً لمناسبة أحداث في غاية الخطورة والأهمية فيتم اللقاء بطريقة روائية مثيرة بحق ويذرفن دموع التأثر البالغ والذكرى المؤلمة أو المفرحة، بينما كان الرجال يتحركون من أماكن إقامتهم بنيَّة جدية لإنجاز أشغالهم ويمرون مرور الكرام على أبواب أقاربهم، الذين يكادون أن يكونوا في عداد الموتى أو المفقودين، وذلك إذا ما كانوا عاجزين عن الانتصاح أو الاستنارة برأي. أما الآن فقد أصبح هؤلاء الأهالي من جديد أكثر حيوية، فقد دفعتهم وسائل النقل المريحة والحياة العامة الناشئة مجدداً واحتفالات شعبية متعددة على التحرك بفرح غامر وإعادة نفسيتهم في الوقت ذاته إلى عهد الصبا والخصوبة ولم يستثن من ذلك سوى بضعة مندفعين من محدودي الأفق الذين لا يزالون يروجون ضد مزاج التجول الأُبَّهي لدى أولئك الذين يحرثون الأرض ولدى أولادهم.

أمرتني أمي بأن أخصص في المقام الأول لجدتي الباقية على قيد الحياة والمعانية من الوحدة والعزلة ما أمكنني من الوقت، وأن أثابر على معاملتها باحتـــرام وحب ما دام ذلك يعجبها أن أبقى حولها وأحكي لها عن أبي الذي هو ابنها.

وهكذا انطلقت في صبيحة أحد الأيام قبل شروق الشمس وبدأت رحلتي مشياً على الأقدام في الطريق الأبعد التي كنت اخترتها للوصول إلى أقاربي وذويَّ. تمتعت لأول مرة في حياتي بالفجر في العراء ورأيت الشمس وهي تشرق على سفوح الغابات التي رطَّبها الليل. كنت أتجول طول اليوم دون أن أحس بالتعب وأمر بعدة قرى وأعود من جديد إلى السير ساعات طويلة وحيداً في غابات واسعة أو في مرتفعات مكشوفة ودافئة وأضل طريقي في غالب الأحيان، ولكنني لم أندم على الوقت الضائع لأنني كنت باستمرار منشغلاً في تفكيري ومغموراً لأول مرة، بفضل تجوالي الهادئ، بالتمعن الأول من نوعه بالمصير والمستقبل. زهور التورنشاه وشقائق النعمان والفطور الملونة في

الغابات كانت ترافقني على طول الدرب، وغيوم رائعة الجمال كانت تتشكل باستمرار وتهيم في السماء المنخفضة الهادئة على غير هدىً، تابعت سيري في حين داهمني من جديد إشفاقي المغرور على نفسي، الذي حتمه العالم عليّ، إلى أن بكيت خلافاً لكل عادة بكل مرارة وأسىً. لم أعرف حينئذ سبيلاً إلى التخلص من الحزن والكآبة فجلست إلى نبع ماء تخيم عليه الظلال، ولم أزل باكياً منتحباً، إلى أن اعتراني الخجل فغسلت وجهي وقطعت بقية المسافة وأنا مستاء من نفسي. أخيراً رأيت في متناول قدميَّ تلك القرية الواقعة في وادٍ تكسوه المروج الخضراء وتخترقه التواءات نهر صغير متلألئ وتحيط به جبال مكسوة بالأشجار المورقة. كانت شمس الأصيل تسطع على الوادي، ومن المداخن ينطلق الدخان برفق، وثمة أصوات ونداءات كانت تسمع من بعيد. سرعان ما وصلت إلى البيوت الأولى، سألت عن بيت القس فرد عليّ الناس، الذين عرفوا من عينيّ وأنفي أنني أنتمي إلى عائلة "لي"، بالسؤال عما إن كنت ربما ابناً لمعلم البناء المتوفى؟

هكذا وصلت إلى منزل خالي، الذي كان على ضفاف النهر الصغير الهادر وتحيط به أشجار جوز كبيرة وبعض أشجار الدردار العالية؛ كانت النوافذ تومض بين أوراق مشمش وأوراق عريش كثيفة وتحت واحدة من تلك النوافذ كان يقف خالي البدين مرتدياً سترة خضراء اللون، في فمه بوق صيد فضي اللون كان يتصاعد منه دخان سيجار وفي يده بندقية ذات فوهتين. فوق البيت كان سرب من الحمام يطير مذعوراً حول البرج؛ حين رآني خالي نادى على الفور بصوتٍ عالٍ: "ها، ها، ابن أختنا قادم إلينا! إنه لجميل أن تكون عندنا، تعال إلي بسرعة!". ثم نظر فجأة إلى الأعلى وأطلق النار في الجو فإذا بطير جارح كان يحوم حول الحمام يسقط ميتاً إلى جانب قدميَّ. فرفعته عن الأرض وحملته إلى خالي الذي رحب بي ترحيباً مفرحاً من خلال هذا الاستقبال البارع.

في الحجرة وجدته وحيداً بجانب مائدة طويلة كانت أعدت لأشخاص كثيرين. قال لي: "لقد جئت إلينا في الوقت المناسب، إذ سنحتفل اليوم بعيد

الحصاد وحالاً سيأتي الناس إلى هنا". بعد ذلك نادى زوجته فجاءت ومعها وعاءان كبيران مليئان بالنبيذ فوضعتهما على الطاولة وقالت بصوت عالٍ: " أي أي! ما هذا الأنف الباهت اللون وهذا الوجه المكسو بزغب الشعر؟ انتظر، لا يجوز أن تغادرنا إلا بعد أن تصبح وجنتاك متوردتين كالمرحوم أبيك! كيف حال الوالدة، ما هذا ، لماذا لم تأت معك؟ " وفي الحال أعدت لي على المائدة وجبة مؤقتة وسحبتني بلا تريث، حين ترددت، مع الكرسي التي كنت جالساً عليها ثم أمرتني بالبدء حالاً بالأكل والشرب. في أثناء ذلك كان صوت هدير قد اقترب، وإذا عربة الغلال العالية تتمايل آتية إلينا من تحت أشجار الجوز بحيث اصطدمت بالأغصان السفلى، كان أبناء خالي وبناته مع جمع غيرهم من الحصادين والحصادات يمشون بجانب العربة ضاحكين مغنين؛ وخالي الذي كان ينظف بندقيته ناداهم بصوت عالٍ بأنني حضرت، وسرعان ما وجدت نفسي في وسط زحام اللقاء السعيد وصخبه. لم أستلقِ في فراشي بالقرب من نافذة مفتوحة إلا في وقت متأخر من الليل؛ كنت أسمع خرير المياه بكثافة تحت تلك النافذة، وفي الجانب الآخر كانت طاحونة تجعجع، وعبر الوادي زحفت عاصفة مبرقة مرعدة، فكان لهطول المطر رنينُ موسيقى ولهبوب الريح في غابات الجبال القريبة حفيفُ أغنية، ونمتُ وأنا أتنفس الهواء البارد المنعش، على نحو ما على صدر الطبيعة الجبارة.

* * *

الفصل الثامن عشر

عصبة الأقارب

في الصباح الباكر، حين تسلل بريق الشمس عبر أوراق الشجر إلى الغرفة، استيقظت من النوم بطريقة مميزة؛ جلس على صدري نمس صغير نبيل السلالة ومكسو بفرو ناعم وأخذ يتشمم أنفي بنفحات نَفَسه الرقيقة السريعة عبر بوزه المدبب البارد، ولكنه ما إن فتحت عينيَّ حتى سارع إلى الاختباء تحت اللحاف ثم أخرج عينيه ليرمش بطرفيهما هنا وهناك وعاد فاختبأ من جديد. حين لم أتعلم شيئاً من ظهوره هذا، انطلق أولاد خالي الصغار ضاحكين من غرفة نومهم التي كانوا ينصتون فيها لما كان يجري محفزين بذلك الحيوان السريع إلى القيام بأجمل القفزات وأكثرها خفة ومرحاً، الأمر الذي ملأ الغرفة فرحاً وحبوراً. وكان هذا أن استدرج عصابة من الكلاب الجميلة فاندفعت إلى الغرفة ثم ظهر غزال بدافع الفضول على عتبة الباب، ثم لحقت بكل هؤلاء قطة بهية رمادية اللون وأخذت تتلوى عبر الزحام الصاخب صادةً بذلك بكل مهابة ووقار مجموعة الكلاب اللاهية الفظة، بعض الحمامات حطت على النافذة، بشر وحيوانات، البشر أقل من نصف عراة، طارد بعضهم بعضاً وشكلوا فوضى عارمة. لكن سخروا من ذلك الدلق الذكي وبدا أنه كان يلعب معنا أكثر مما كنا نلعب معه. في تلك اللحظة ظهر أيضاً خالي بممصّ سيجارهِ الذي كان يتصاعد منه الدخان فحفزنا إلى المجون والعبث بدلاً من أن يمنعنا من ذلك، وتبعته بناته، اللواتي كن آنذاك في ريعان

الصبا، لكي يرين سبب الضجة ويدعون إلى تناول الفطور والحفاظ على الهدوء والنظام، ولكنهن سرعان ما اضطررن إلى الدفاع عن أنفسهن حين نشبت ضدهن حرب مداعبات شاملة شارك فيها حتى الكلاب التي لم تحتج إلى إعطائها مرتين كلمة السر المتعلقة بالسماح بالهرج والمرج والفرح والمرح في وقت الصباح الباكر، بل أخذت تتعلق بكل جرأة بالحواشي المتينة لثياب أولئك البنات الشاتمات. أما أنا فقد جلست خلف النافذة المفتوحة وتنشقت هواء الصباح الشافي، كانت الأمواج المترقرقة في النهر الصغير سريع الجريان تعكس لمعانها على سقف الغرفة الأبيض وكان انعكاسها يغطي وجه تلك الطفلة النادرة، ميريت، التي كانت عُلقت صورتها الأثرية على الحائط. هنا بدا أنها تعيش بين تناوب الشعاع الفضي اللاهي، وكان من شأنها أن أغنت الانطباع الذي تكوّن عندي عن كل شيء. بالقرب من تحت النافذة كانت تُسقى مواشٍ، كانت بقرات، ثيران، بقر فتي ، أحصنة وعنزات، تسير إلى منتصف الماء الصافي وتشرب على جرعات متأنية ثم تقفز عابثة وتخرج من الماء؛ الوادي بمجمله كان يعج بالحياة ويلمع من الطراوة والنضارة وكان صوت حفيفه وخريره يمتزج بالضحك المدوي في غرفتي، أحسست بأنني أكثر سعادة من أمير شاب يقام في قصره استقبال ذو ألق وبريق. أخيراً ظهرت زوج خالي وأمرت بالذهاب دون أي مقاومة إلى تناول الفطور.

رأيتني من جديد جالساً إلى الطاولة الطويلة، التي تجمعت حولها العائلة الكبيرة مع حَشَمها وعمالها المياومين. الأخيرون أتوا من عمل دام ساعات واستراحوا من الجهد الأول الخفيف ومن الشمس المشتدة حرارتها بالتدريج بصفتها تحية صباح مرسلة إليهم. أكل الجميع من حساء الشوفان المغذي بشدة وقد صُبّ فيه بسخاء حليب طبيعي، ولكن في النهاية العليا من الطاولة، بين الأب والأم والبنت الأكبر، ساد فنجان القهوة؛ وأنا بصفتي ضيفاً أُلحق بذيول هذه الجماعة النبيلة، كنت أنظر بعين ملؤها الحسد إلى منطقة الحساء في الجانب الآخر حيث كان الناس هناك يتبادلون إلقاء النكات والمقالب المضحكة

المفرحة. ولكن سرعان ما انفض الجمع وانطلق إلى العمل منتشراً في الحقول البعيدة الحارة أو في مخزن الغلال أو الإسطبل. أجزاء الطاولة أدخل بعضها في بعض بحيث أصبحت تلك الطاولة، وهي كتلة ثقيلة من خشب الجوز اللامع، واقفة بهدوء في الغرفة التي أُخليت تواً إلى أن أتت ربة البيت بسلة ضخمة مليئة بالبقول وكومت ما فيها على الطاولة لكي تعده طعاماً للغداء، فلم تترك بعد ذلك مكاناً لدفاتر الخال وسجلاته التي كان دوَّن فيها غلال حقول ذلك العام وقارنها مع الأعوام السابقة إضافة إلى مقارنة إيرادات حقوله بعضها ببعض. كان على الابن الأصغر سناً، وهو من عمري تقريباً، أن يقدم إليه تقريراً، وهو واقف خلف كرسيه، عن هذا الموضوع؛ وحين أدى الابن واجبه طلب مني أن أخرج معه إلى الحقول وأساعده في عمل ما يحلو لنا، غير أنه يستحسن أن نلتقي على وجبة الطعام الخفيفة التي تعد في الحقول ويتخللها مرح ومزاح. ولكن في تلك الأثناء ظهر مبعوث من قبل جدتي التي كانت سمعت بوصولي وهي تدعوني إلى المجيء إليها فوراً. هنا أبدى ابن خالي استعداده لمرافقتي، فتزينت بشيء من التكلف، باعتباري نصف ريفي ونصف كوميدي، ثم مشينا في الطريق التي قادتنا عبر المقبرة الواقعة فوق تلة صغيرة. هناك كانت تنتشر بقوة رائحة ألف زهرة، عالم متلألئ مترنم من ضوء وخنافس وفراشات ونحل وحشرات براقة لا اسم لها كان يُنسَج فوق القبور ذهاباً ومجيئة. كانت تلك حفلة موسيقية رقيقة بالقرب من بيت مضاء، تتموج صعوداً وهبوطاً وتخبو باستثناء الغناء المتوقع من حشرة واحدة، وتنتعش من جديد وتتضخم إلى درجة العبث والمجون بإيقاع جهوري رنان، ثم تنسحب إلى الظلمات التي تشكلها شجيرات الياسمين والبيلسان فوق شواهد القبور إلى أن تقوم نحلة كبيرة طنانة بسحب الرقصة من جديد إلى دائرة الضوء، وأكمام الزهور أحنت رؤوسها على إيقاع استمرار الموسيقيين في خفض النغمة ورفعها. وتحت هذا النسيج الرقيق ساد صمت القبور والقرون منذ الأيام التي شهدت استيطان هذا الفرع من الشعب الألماني في هذا المكان

وفتح أول حفرة فيه. كلمتهم، آثار عاداتهم وقوانينهم لا تزال تعيش في الإقليم الأخضر، في عِزَب الجبال وفي المدن الحجرية الرمادية الصغيرة، المعلقة بضفاف الأنهار أو المتكئة على منحدرات الجبال. أحسست بنوع من الاستحياء سوف يعتريني لدى مثولي أمام السيدة الشائبة، التي لم يسبق لي أن رأيتها مرة في حياتي ثم إنها تراءت لي إنسانة ميتة من أسلافي أكثر منها جدة حية. سرنا على دروب ضيقة وتحت أشجار مثقلة الثمار وحول مزارع هادئة إلى أن وصلنا أخيراً إلى أمام بيتها الكائن في ظلٍ عميق الاخضرار وصامت: كانت واقفة على عتبة الباب بني اللون وتبدو، وهي تضع يدها فوق عينيها، منهمكة في البحث عني. قادتني فوراً إلى داخل الحجرة وبصوتها الرقيق رحبت بي بحرارة ثم مشت إلى برميل صبّ، قصديري لامع ومعلق في ركن ملمع من خشب البلوط فوق طبق من القصدير وفتحت الحنفية تاركة الماء الصافي يتدفق فوق يديها الصغيرتين المسمَّرتين. بعد ذلك وضعت نبيذاً وخبزاً على الطاولة ثم وقفت مبتسمة إلى انتهيتُ من الشرب والأكل فجلست حينئذ بقربي، لأن بصرها كان ضعيفاً، وتمعنت في وجهي دون أن تتحول عنه في حين صارت تسألني عن أمي وعن أحوالنا وتبدو في الوقت ذاته غارقة في ذكريات الفترات السابقة. وأنا أيضاً نظرت إليها باهتمام واحترام ولم أثقل عليها بأخبار صغيرة وقليلة الشأن. كانت هيفاء القامة، رقيقة الترعرع، وكانت على الرغم من كبر سنها دائمة الحركة ودقيقة الانتباه، لا مدنية ولا فلاحة بل سيِّدة طيبة، كل كلمة تنطق بها تنم عن دماثة الخلق والعفة والتسامح والحب والتنقية من كل شوائب العادات السيئة وتنم أيضاً عن الاستواء والعمق. وكانت لا تزال امرأة يستطيع المرء أن يدرك من خلالها كيف أن القدماء كانوا يطالبون بديّة أكبر من دية الرجل بأضعاف، إذا ما قتلت امرأة أو شُتمت.

حضر زوجها، وهو فلاح دبلوماسي ورزين، سلّم عليَّ ببرود ودي، وبعد أن رأى بنظرة واحدة أن لي طبيعة "رائعة" تذكر بطبيعة أبي ولهذا لن

يكون هناك في المستقبل خوف من مطالب أو نزاعات، فإنه ترك لزوجته أن تتمتع بفرحتها بي وأفهمها بكل ارتياح وأناة أن بإمكانها أن تكرمني كما تشاء وذهب مجدداً في حال سبيله.

بقيت بضع ساعات في بيت جدتي دون أن نتحدث معاً كلاماً كثيراً، كانت تجلس بجانبي مستمتعة بوجودي، صامتة هادئة ثم استسلمت أخيراً للنوم وهي تبتسم. فوق عينيها المغمضتين سرت حركة خفيفة مثل سدل ستارة يحدث خلفها شيء ما، وهنا يعتري المرءَ شعورٌ بأن صوراً تتراءى للمرء هناك في شعاع شمسٍ رقيقٍ متقادم، والشفتان اللطيفتان نمّتا عن ذلك بخلجات ضعيفة. حين نهضت واقفاً لكي انصرف بحذر وبلا حركة، استيقظت جدتي في الحال ثم استوقفتني وتمعنت فيّ كما لو كنت غريباً عنها؛ إن ما سبق وجودي على هذه المعمورة، متمثلاً في شخصها، تراءى أمامي كبيراً ومباشراً في حين ربما رأتني هي في مثولي أمامها قاتماً وغامضاً باعتباري استمراراً لحياتها وبالتالي مستقبلها، إذ إن لباسي ولغتي انحرفا عن كل ما كان يحركها طول حياتها السابقة. مشت جدتي، وهي غارقة في تفكيرها، إلى الغرفة المجاورة حيث كانت تحتفظ في خزانة عالية بمجموعة من الهدايا الصغيرة كانت اعتادت أن تشتريها من بائعين متجولين لكي تهديها في مناسبات معينة إلى الفتيان. وبدلاً من منديل جيب كبير أمسكت، نظراً إلى وجهها الأبله، شالاً صغيراً من الحرير الأحمر كالذي تلبسه الفتيات الريفيات وأعطتنيه وهو ما زال مغلفاً بالورق ذاته كما كانت اشترته. كان علي أن أعدها بأن آتي إليها كل يوم وأن أتناول ذات مرة الطعام عندها في القريب العاجل.

كان ابن خالي انصرف منذ وقت طويل فاضطررت لذلك إلى البحث وحدي عن طريق العودة، والشال الأحمر في جيبي. لدى مروري بأحد البيوت، لاحظت بضعة أطفال أفظاظ أسرعوا كالبرق إلى داخل البيت وأخذوا يصرخون بصوت عال محدثين في أثناء ذلك ضجة كبيرة. فخرجت سيدة وأدخلتني إلى حيث كان الأطفال وأعلنت أنها عمة لي ثم سألتني عما إذا كنت

أعرف شيئاً عنها أو عن أسرتها؟ فأجبت بالإيجاب واعتذرت منها لكوني لم أكن أعرفها. أجبرتني الآن على الدخول إلى بيتها حيث كانت تفوح رائحة زكية لخبز طازج وكان درج طويل مغطى من الأسفل إلى الأعلى بقطع كبيرة مربعة ومدورة من الكاتو، على كل درجة قطعة، من أجل أن تبرد. وبينما انهمكت هذه العمة، وهي امرأة بدينة وعلى أتم الازدهار والقوة في الرغبة في العمل، في رد شعرها بسرعة إلى الخلف وربط مئزر حول خاصرتها. قرفص الأطفال جميعاً وراء المدفأة الساخنة وأخذوا ينظرون باستحياء ويكركرون بالضحك. هنا أعلنت راعيتي أنني قدمت إليهم في الوقت المناسب كونها خبزت في ذلك اليوم، ثم قطعت فوراً قطعة كبيرة من الكاتو إلى أربعة أجزاء وأحضرت نبيذاً لكي تعد بعد ذلك مائدة الغداء. لم يتحلَّ هذا البيت بطابع تراثي كبيت جدتي، إذ لم يحتوِ على أدوات مصنوعة من خشب الجوز بل من شجر الصنوبر فحسب؛ كانت الجدران لا تزال بلون الخشب الطازج وكان القرميد الذي على السطح أحمر فاتحاً كخشب السقف الظاهر، ولم يكن أمام البيت سوى قليل أو حتى لا شيء من ظلال الأشجار؛ كانت حرارة الشمس منتشرة في حديقة خضار واسعة كان من شأن منطقة أزهار متواضعة فيها أن دلت على أن الوضع المادي لدى هذه العائلة هو في طريقه إلى إرساء أسسٍ متينة ليسرٍ حديث قوامه مبدئياً هو الكسب اليومي الفعلي. الآن أتى الزوج من الحقل مع الصبي الأكبر سناً وعمل، على الرغم من سماعه نبأ أنني جالس في الحجرة، على تقديم العلف إلى ثيرانه وبقراته ثم غسل يديه على نافورة الماء على مهل ودخل إلى الحجرة بهدوء وثبات ومد يده للسلام عليّ وتحقق على الفور مما إذا قامت زوجه بتقديم الضيافة اللائقة بي. بذلك لم يظهر الناس أي تكلف، كما لو أن إمكاناتهم زهيدة جداً، ذلك لأن الفلاح هو الوحيد الذي يرى أن خبزه هو الأفضل ويقدمه إلى الناس بصفته كذلك. ويرى أن ما لذ وطاب من طعامه هو أوائل كل غلة؛ فالبطاطا الجديدة، وأول ثمرة كمثرى، والكرز والخوخ مفضلة عنده على كل شيء آخر وهو

يقدرها تقديراً عالياً إلى حد يؤمن معه بمعجزة أن يغنم شيئاً إذا ما تلقف ملء يده من الثمار لدى مروره بأشجار تعود ملكيتها إلى غيره، في حين كان يمر على طيِّبات المدينة الملونة مرور الكرام ولم تكن تعني له شيئاً. هذه القناعة كانت تنتقل إلى الضيف، الذي سرعان ما كان يستسلم لشهية قوية دون أن يندم على ذلك. لذلك جلست أنا "ابن الخال" هزيل البدن خلف الطاولة مرة أخرى بجرأة نادرة لكي أتمتع بتناول الطعام على الرغم من أنني كنت فعلت في ذلك اليوم الشيء الكثير في هذا الاتجاه. بكل ترفق ورضا صار الأقارب يكدسون لي الأطعمة وينظرون إليّ، ككل مدنيّ ليس ملاّكاً جاء لجباية الفوائد المستحقة، على أنني جائع معدم. ونشب في أثناء المائدة حديث ناشط حول مصيرنا واستُجوبتُ في خلاله بدقة متناهية حول كل أوضاعنا وظروفنا.

بعد أن اطلعت على الإسطبل وقدمت في مخزن الغلال إلى كل بقرة وجبة من البرسيم، ودعتُ أقاربي، غير أن عمتي لم تتوان في مرافقتي شيئاً من الطريق لكي تتمكن بسرعة من تقديمي إلى عمة أخرى أيضاً إذ لن أكون هذه المرة بحاجة إلى إطالة مكوثي. قُدمت إلى شيخة لطيفة، ولكنها لم تكن تماماً من فئة جدتي النبيلة الرقيقة، بل سيدة مهذبة وطيبة. كانت تعيش وحدها مع ابنة كانت سابقاً، تبعاً لتقاليد متبعة، خدمت في المدينة لمدة عامين ثم تزوجت بعد ذلك فلاحاً غنياً سرعان ما وافته المنية لكي تصبح هي أرملة من بعده. لم تكن بعد قد بلغت الثانية والعشرين من عمرها، كانت تنعم ببنية عالية وثابتة وكان وجهها من النموذج المميز لعرقنا ولكنه ازدان بإشراقة أضفاها عليه جمال غير عادي، وولَّدت على وجه الخصوص العينان الواسعتان والفم والذقن المدور انطباعاً آنياً، وإضافة إلى ذلك زيَّنها شعر كثيف أسود تعذر تقريباً التغلب عليه. ومع أن اسمها يوديت ولم يعرف عنها أحد شيئاً محدداً أو مسيئاً، فقد عُدّت نوعاً من الجنية المشهورة باسم لوريلاي. الآن دخلت هذه المرة إلى الحجرة آتية من الحديقة ومائلة قليلاً إلى الخلف بسبب أنها كانت تحمل في مئزرها كمية كبيرة من محصول التفاح المقطوف حديثاً إضافة إلى

مجموعة كبيرة من الزهور المكسرة. أفرغت الحمل كله على الطاولة كإلهة فاتنة للأشجار المثمرة، بومونا، بحيث انتشر مزيج من شكل ولون وأريج على الطاولة اللامعة. ثم حيتني بعد ذلك بنبرة أهل المدينة في حين أخذت تنظر إليَّ بفضول من عل من ظل قبعة واسعة من القش وقالت إنها عطشى فأحضرتْ إناءً مليئاً بالحليب وصبت منه في طاسة قدمتها إلي، أردت أن أرفض لأنه سبق لي أن تناولت ما يكفي من الطعام والشراب، ولكنها قالت ضاحكة: "اشرب بالله عليك!" وتهيأت لوضع الوعاء على فمي. لذلك تناولتُه ورشفتُ ذلك الشراب الأبيض كالرخام والبارد بجرعة واحدة إلى الأسفل ومعه ارتياح عزّ على الوصف ونظرتُ إليها في غضون ذلك بهدوء تام فضمنت بذلك لهدوئها الفخور تمالكَ توازنِه. لو أنها كانت آنذاك فتاة بعمري لما حافظت دون أدنى شك على رفع الكلفة بيننا. لكن هذا كله لم يشكل سوى لحظة واحدة، وحين انشغلت بالأزاهير بعد ذلك جمعت يوديت طاقة كبيرة من الوردات والقرنفلات والأعشاب ذات الرائحة الزكية ودستها في يدي هبة، والأم العجوز ملأت جيوبي بالتفاح بحيث انصرفت من هناك محملاً بالهدايا وفقاً للشكليات المتبعة ومُهاناً دونما اعتراض ومغموراً بالطلبات من قبل كل النساء والأقارب الآخرين للقيام بزيارتهم جدياً وفي أقرب وقت.

* * *

الفصل التاسع عشر

حيـاة جديـدة

كان الوقت عزّ العصر حين وجدت أخيراً بيت خالي من جديد وكان مقفلاً لأن كل سكانه كانوا ذهبوا إلى العراء، ولكنني كنت أعرف أنني سأجد عبر مخزن الغلال والإسطبل منفذاً للدخول إلى البيت. في المخزن قفز الغزال باتجاهي وتبعني دون إبطاء؛ وفي الإسطبل التفتت البقرات نحوي وتلمس عجل طليق طريقه من منتصفها باتجاهي وتهيأ لقفزة ودية ضدي فخفت وأنقذت نفسي بالإسراع إلى المكان التالي المليء بالأدوات الزراعية وسقط المتاع الخشبي. من تلك الفوضى المظلمة انطلق بدمدمة جذلى الدلق الذي كان يعاني الملل وحيداً هنا وجلس مبدئياً على رأسي نائساً بذيله على وجنتي وممارساً من فرحه عبثاً ومجوناً كبيرين فأضحكني بصوت عالٍ وملأني حبوراً. وهكذا وصلت بصحبة مرافقي إلى الجزء الأكثر إضاءة والمسكون من المنزل ووجدت أخيراً غرفة الجلوس فأنزلت فيها حملي من الزهور والفاكهة والحيوانات. وعلى الطاولة كان كتب بالطباشير أين أجد ما أتناول من الطعام عند الحاجة مضافاً إلى ذلك نكات كثيرة تركها لي الأولاد، لكنني فضلت أن أشاهد على مهل البيت الذي ولدت أمي فيه.

كان خالي منذ بضعة أعوام اعتزل مهنة الإكليروس لكي يتفرغ كلياً لميوله وهواياته. وبما أن دائرة الكنيسة كانت ترغب على كل الأحوال في أن

تبني بيتاً جديداً للقس فقد اشترى منها خالي آنذاك بيت القس القديم، الذي كان في الأصل في حقيقة الأمر المنزل الريفي لأحد الملاكين فكان لذلك يحتوي على سلالم حجرية تقوم على أطرافها درابزينات حديدية، وفوق سقوف مكسوة بالجبس، صالة فيها مستوقد ، غرف وأمكنة كثيرة وفي كل مكان عدد كبير من اللوحات الزيتية السوداء تقريباً. إلى داخل هذا العالم المميز كان الخال، تحت نفس السقف، قد نقل انشغالاته الزراعية بأن أزال جزءاً من المنزل المخصص للسكن، بحيث اندمج بعضهما ببعض كلا العنصرين الإقطاعي والفلاحي وارتبطا بأبواب وممرات غريبة. فلدى خروجه من حجرة ملونة بمناظر صيد بري ومليئة بكتب لاهوتية قديمة كان المرء يرى نفسه فجأة، إذا ما فتح باباً ملبّساً بورق الجدران، منتقلاً إلى مخزن التبن. وتحت السطح وُجدت غرفة كانت جدرانها مغطاة بخناجر صيد قديمة وسيوف مخصصة لمن يتوددون للنساء وبندقية صيد لا نفع لها، وكان ثمة سيف إسباني طويل وله قبضة مصنَّعة بشكل رائع من الفولاذ تحفةً رائعة وربما عايش أياماً وأحداثاً نادرة. في إحدى الزوايا وجدتُ بضعة كتب ضخمة كان الغبار يعلوها، وفي منتصف الغرفة كرسي ذو مسند وملبس بجلد ممزق بحيث لم تفتقر الغرفة إلا إلى وجود دون كيشوت لكي تصنع منها لوحة. بالمناسبة جلست في ذلك الكرسي مستسلماً للراحة وتذكرت في تلك اللحظة ذلك الرجل الطيب، الذي كنت ترجمت قصته ذات مرة من اللغة الفرنسية، الشهيد فلوريان. سمعت خشة نادرة، هديلاً ودبيباً على الحائط، أرجعت مزلاجاً خشبياً إلى الوراء وأدخلت رأسي عبر فتحة مؤدية إلى برج الحمام الحار الذي سرعان ما دوى فيه ما يشبه إنذاراً بالخطر مما أدى إلى أن أرجعت رأسي إلى الوراء. ثم اكتشفتُ غرف نوم البنات، حجرات صغيرة معتمة وهادئة ولها حدائق صغيرة خضراء تشرف عليها نوافذ وتحرسها علاوة على ذلك قمم أشجار وفية وتكسوها بقايا قطع من ورق الجدران المطبع بالأزهار حيث كانت مرايا عصر الزخرفة Rokoko في المقر السابق

للسيد الإقطاعي قد وجدت مأوى مشرفاً للعمر المتقدم، واكتشفتُ أيضاً حجرة الأبناء الكبيرة، التي كانت مزينة بآثار بعض الرسوم والتصاميم السطحية كذلك الأدوات المتعلقة بأوقات الفراغ الريفية كصنارات صيد السمك وشبكات صيد العصافير.

من جهة الشرق كانت نوافذ البيت تطل على فوضى أشجار الفاكهة وجملونات الأسطحة في القرية، التي ترتفع فيها المقبرة العالية مع الكنيسة البيضاء كقلعة منيعة لرجال الدين، وإلى جهة الغرب امتد صف طويل وعالٍ من نوافذ الصالة لكي يطل على وادٍ مكسوٍّ بالمروج الخضراء التي يتلوى النهر عبرها بفروع وتعريجات كثيرة بلون فضي فعلاً، لأنه كان بعمق قدمين على الأكثر، وكمياه نافورة كان يجري بأمواج حيوية عاتية فوق رواسب مجروفة بيضاء. وراء هذه المروج ارتفع في سفح جبل سهلٌ مكسوٌّ بالغابات وكانت تتموج فيه بتداخل محكم وفوضى عارمة كل أنواع الأشجار وتتخلله جدران من الصخور وقمم مستديرة، رمادية اللون. ولكن كان للشمس الغائبة مخرج رحب عبر الجبال الزرقاء البعيدة وكانت تصب وهجها على الوادي في كل الأمسيات بحيث تسنى للمرء أن يجلس على طول نوافذ الصالة في جو يشوبه الاحمرار حتى إن الحمرة كانت تتغلغل عبر تلك الصالة، إذا ما كانت أبوابها مفتوحة، إلى داخل البيت وتغطى الممرات والجدران، حدائق خُضَر وزهور، وأمكنة مهملة، وشجيرات البيلسان وينابيع مسورة، كل ذلك مظلل بالأشجار، شكلت أرضاً يباباً موحشة واسعة واتسعت عبر جسر صغير إلى ما وراء الماء. ولكن الطاحونة الموجودة على مسافة قريبة في مكان أعلى لم تفصح عن وجودها هناك إلا من خلال الهدير وومض حجر الرحى وتطاير الماء منه من بين الأشجار الكثيفة. إجمالاً كان البيت مزيجاً من مقر قس وبيت فلاح ودارة وبيت صياد وقد هلل قلبي حين اكتشفتُ كل شيء وأحطت بكل شيء وقد حام من حولي عالم من الحيوانات ذوات الجناحين وذوات أربع الأرجل. كل مكان هنا كان يعج بالألوان والبريق، بالحركة،

بالحياة والسعادة، بالوفرة وباللانهاية إضافة إلى الحرية والترف، وروح الدعابة والترفق. أول ما خطر على بالي هو قيامي بعمل حر وغير مرتبط بأحد. أسرعت إلى غرفتي، التي كانت تقع أيضاً إلى جهة الغرب، وبدأت بإخراج أمتعتي التي وصلتني لاحقاً من حقائبها، كتبي المدرسية ودفاتري المكسرة التي كنت أهتم بالاعتناء بها قدر المستطاع، ولكن على أفضل وجه أخرجت كمية لا يستهان بها من الورق من مختلف الأنواع وريشات وأقلام رصاص وألوان لأكتب فيها وأرسم إلى ما شاء الله! في تلك اللحظة تحول الدافع إلى اللعب حتى الآن إلى دافع جديد من نوعه تماماً إلى الإبداع والعمل، إلى التجسيد والإنتاج الواعيين. كان من شأن هذا اليوم الواحد أكثر من كل ما مضى من استياء وأذى البسيط لكن الغني أيضاً، أن أيقظ في أعماقي الشعاع الأول من الوضوح ومن ثم فجر الشباب الأكثر نضجاً. حين نشرت أوراقي المموهة بالدهان على اتساع السرير الكبير إلى أن ظهر وكأنه مفروش بلحاف ملون غريب الشكل أحسست دفعة واحدة أنني تجاوزت هذه الأمور وأنني بحاجة إلى الإدارة أيضاً لكي أحقق في الحال تقدماً إلى الأمام.

دخل خالي عليَّ بعد عودته من جولة استطلاعية ودهش أيما اندهاش من رؤيتي محاطاً بأغراضي المبعثرة من حولي. وكان من شأن التباهي الساذج لرسوماتي الرديئة وتطاولها على الفن ومن شأن الألوان الصاخبة والطفيلية أن أبهرت عينه المفتقرة إلى الخبرة فنادى بصوتٍ عالٍ: "آي، إنك رسام تماماً، يا سيد ابن أختي! هذا أمر حسن، وفي حوزتك هنا كمية لا بأس بها من الورق والألوان؟ حسن! ما هذه الأشياء التي رسمتها هنا ومن أين أتيت بها؟". أجبته بأن كل ذلك من مخيلتي، فقال: " أريد أن أكلفك الآن بمهمات أخرى! ينبغي أن تكون رسَّام بلاطنا من الآن فصاعداً! ابدأ من صباح الغد فوراً برسم لوحة لبيتنا مع الحدائق والأشجار وكل شيء آخر بدقة وعناية! يمكنني أيضاً أن أطلعك على بعض الأماكن الجميلة في منطقتنا حيث تستطيع رسم مناظر وإطلالات ممتعة، مما سيعود عليك بالتمرين والفائدة.

كنت أود أنا ذاتي لو أنني تدربت على أشياء من هذا النوع. اسمع، أستطيع أن أريك بعض الأشياء الجميلة لسيدٍ غالباً ما كان يزورنا قبل سنين طويلة حين كان يأتي إلينا باستمرار زائرون من المدينة. كان هذا الضيف يرسم لمتعته لوحات زيتية وبالألوان المائية وينقش على النحاس أو يحفر على الخشب، على حد تسميته لتلك الممارسات وكان ماهراً إضافة إلى أنه فنان!".

ثم أحضر خالي محفظة قديمة كانت ملفوفة بخيط لا يستهان به وحين فتحها قال: "بالله نسيتُ هذه الأشياء منذ وقت طويل وأتوق الآن إلى رؤيتها من جديد! الأرستقراطي الطيب فيليكس مدفون في روما منذ بعض السنين، كان أعزب متقدماً في السن واعتاد أن يرش على شعره مسحوقاً للزينة وكان لا يزال في بداية العشرينيات يجدِّله في ضفيرة ويرسم ويحفر على الخشب طول اليوم باستثناء فصل الخريف إذ كان يذهب معنا للصيد. آنذاك منذ بداية العشرينيات عاد بضعة شباب من إيطاليا وبينهم رسام عبقري. هؤلاء الشباب أثاروا ضجة شيطانية حين زعموا أن الفن القديم بمجمله هو فن منحط وفاسد، ولكنه يُبعث اليوم من جديد في روما وعلى يد رجال ألمان. وكل ما يعود تاريخه إلى نهاية القرن الماضي، أي هراء من يُسمُّون غوتي، فون هاكارت وتيشباين وغيرهم، ما هو إلا عن فن تافه والآن انبثق عصر جديد. هذه الأقوال أزعجت فجأة صديقي فيليكس المسكين في حياته السليمة حتى ذلك الحين وعبثاً حاول أصدقاؤه القدماء، الذين كان دخن معهم بضعة قناطر من التبغ، تهدئته بقولهم إن عليه أن يدع الشباب المصابين بالغرور يصرخون كما يحلو لهم فسوف يتجاوزهم الزمن ويتجاوزنا نحن أيضاً! ولكن لم يكن ثمة جدوى من كلامهم! ففي صبيحة أحد الأيام أغلق فيليكس معبده الفني البكر وهرع كالمجنون إلى جبل سانت غوتهارد إلى غير رجعة. وبعد أن قص أوغاد روما ضفيرة شعره في أثناء جلسة سكر وعربدة فقد كل متكأ وكل كرامة ومات في أيامه المتأخرة، لا بسبب ضعف الشيخوخة بل بسبب النبيذ الرومي وصور النساء الروميات. وهذه المحفظة تركها لنا مصادفة".

تصفحنا آنذاك الأوراق المصفرَّة، فوجدنا بضع رسومات أشجار بالطباشير والقلم الأحمر، لم تُملأ فيها الفراغات ولم تُرسم بتوكيد ولكنها تدل على جهد كبير تنقصه الخبرة، إضافة إلى بعض الرسومات الملونة، التي بهت لونها بمرور الزمن ولوحة زيتية كبيرة لشجرة بلوط. قال خالي: "كان يسمي هذا مذهباً في رسم الشجر ويجعل لذلك شأناً عظيماً. وكان تعلم سر ذلك في عام ١٧٨٠ في مدينة دريسدن لدى أستاذه الجليل تسينك، أو كما سماه. واعتاد أن يقول إنه يوجد صنفان من الشجر تنضوي تحتها كل الأشجار قاطبة، للأول أوراق مستديرة وللآخر أوراق مسننة. لذلك يوجد أسلوبان فنيان متميزان، الأسلوب المتبع في رسم ورق البلوط المتعرج والآخر المتبع في الزيزفون المدور! وحين كان فيليكس يسعى إلى تعليم شاباتنا الكتابة المألوفة لهذين الأسلوبين كان يقول إن عليهن في المقام الأول التعود على إيقاع معين، على سبيل المثال عند رسم هذا النوع أو ذاك من ورق الشجر عليهن العدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة!.. فتقول البنات بصوت عالٍ: "هذا هو في حقيقة الأمر إيقاع رقصة الفالس!" ويبدأن بالرقص من حوله إلى أن يقفز غاضباً بحيث تبدأ ضفيرة شعره الصغيرة بالتأرجح والاهتزاز!".

وهكذا حصلتُ بطريقة غريبة على أول سند في عالم تقاليدٍ كان حاملها ذاته على جهل بهذا الموضوع. تمعنتُ في الأوراق بصمت واهتمام ورجوت أن توضع المحفظة تحت تصرفي بحرية. كانت تحتوي علاوة على ذلك على عدد من المناظر الطبيعية المحفورة على الخشب، بضع لوحات للرسام الهولندي واترلو، بضع خمائل ريفية هادئة من إبداع غيسنر وفيها أشجار جميلة جداً أدهشني سحرها واستولى علي في الوقت ذاته إلى أن اكتشفت لوحةً محفورة من إبداع راينهارت، صفراء اللون ومتسخة ومقطعة قليلاً في أطرافها لكن قوتها وزخمها وصحتها تحدثت إليّ بقوة وشعت بقوة أيضاً من قطعة الورق الصغيرة المبددة. وبينما كنت أمسك بيدي تلك اللوحة مندهشاً (لم يسبق لي حتى ذلك الحين أن رأيت عملاً فنياً حقيقياً)، عاد خالي وقال: "تعال

معي يا ابن أختي الرسام! عما قريب سوف يبقى الخريف عندنا مدة كافية ولذلك دعنا الآن نطلع على الأوضاع الحالية للأرانب والثعالب والدجاج وأمثال هذه الجماعة! إنها لأمسية جميلة، نريد أن ننصب قليلاً كميناً من غير بندقية، وأريك في الوقت ذاته بعض المناظر الجميلة".

وتلقف خالي من إحدى الزوايا، حيث تكومت عيدان إسبانية قديمة، عصاً قويةً وناولني أيضاً واحدة ثم نفخ من مِمَصِّه عقب السيجار المحترق إلى نهايته ووضع مكانه سيجاراً جديداً وصفَّر من النافذة صفرات بعيدة مدوية فانطلقت الكلاب على الفور من جميع زوايا القرية قافزة إلينا كالبرق فزحفنا، محاطين بالحيوانات النابحة، باتجاه الغابة الجبلية التي كانت تستعد لاستقبال المساء.

وسرعان ما سبقتنا عصابة كلاب الصيد وغابت بين الأدغال، لكن لم نكد نبدأ بصعود المرتفَع حتى سمعناها تنبح فوقنا وتعدو بسرعة تامة على سفح الجبل بحيث كان يملأ الوديان صدى أصواتها. كان خالي مغموراً بالفرح والسرور، فشدني بيدي إلى الأمام وزعم أن علينا أن نحث الخطا كي نصل إلى مرج غابي صغير ونرى الحيوانات هناك، ولكنه أرهف أذنيه وهو في طريقه إلى هناك وغير الاتجاه فجأة وهو يقول:" والله إنه ثعلب! يجب أن نسير في ذلك الاتجاه، بسرعة، بست!" وما كدنا نطأ درباً ضيقة تسير بموازاة جدول غابي جاف بين منحدرين مشجرين حتى استوقفني فجأة وأشار بصمت إلى الأمام: شبح ضارب إلى الحمرة كانت الكلاب الستة أخذت تنبح خلفه. سألني خالي: "هل رأيته؟ " وقد غمره الفرح والسرور كما لو انه في عشية زفافه، ثم أردف يقول: "لقد ضيعتْه، لكن في الجانب الآخر من الغابة لا بد أن تكتشف أرنباً صغيراً! نريد تماماً أن نصعد هنا في هذا المكان إلى أعلى المرتفع!" وصلنا إلى مرتفع صغير كان حقلاً من الشوفان أضفت عليه الشمس المائلة إلى الغروب مسحة من الاحمرار وأحاطت به أشجار صنوبر متوهجة بهدوء. هنا توقفنا عن السير ووقفنا في طرف الحقل، بصمت مستعذب، غير بعيدين عن طريق موحش ويقود إلى مكان معتم. ربما انتظرنا هناك مدة ربع

ساعة، فإذا نباح الكلاب يبدأ فجأة من جديد وعلى مقربة منا فدفعني خالي بيده قليلاً ليلفت انتباهي ويذكرني. في الوقت ذاته تموج الشوفان أمام ناظرينا جيئة وذهاباً، فهمس خالي: "يا للعنة، ماذا يجري هنا؟" وظهرت قطة فلاحية ضخمة فنظرت إلينا ثم تسللت هاربة. بغضب كبير صرخ السيد الكهنوتي عندئذ: "أيتها الوحشة اللعينة، ماذا تفعلين هنا؟ هناك ترين من أين تأتي الأرانب الصغيرة! انتظر، أريد أن أساعدك في الصيد!" ورمى وراء القطة حجراً كبيراً. فقفزت من جديد إلى وسط الشوفان في حين مرت الكلاب بنا تهرّ بسرعة البرق فوقف خالي غاضباً مذهولاً وقال: "انظر إلى هناك! الآن لم نرَ الأرنب!".

قال خالي: "سنكتفي اليوم بهذا القدر، والآن دعنا نسر هنا إلى الأمام حيث تستطيع أن ترى تلك الجبال العالية، التي اقتربت الآن منها قليلاً".

في الطرف المقابل من الحقل العالي، حيث تتكشف أشجار الصنوبر، كنت ترى عبر قمم جبال خضراء وأخرى تزداد باستمرار زرقة سلسلة جبال الجنوب، التي تظهر أمام ناظريك بوضوح على اتساع امتدادها الكامل من الشرق إلى الغرب، من قمم أبنتسلّ المستديرة إلى جبال بيرن الأبية، لكن البعيدة مثل الحلم.

بذلك نُبهِّت على الطابع الذي تميزت به الطبيعة المحيطة. فقد كانت قريبة إلى حد كبير مما تصورت أنها جبال ألمانية: خضراء، صخرية، مستصلحة. وعدد لا يستهان به من الوهاد والوديان، التي تخترقها الأنهار، تعد بملاذ غني لتجوالات مستمرة، فلم تكن في المقام الأول إلا بلاد غابات.

وبينما عدنا إلى البيت عن طريق آخر، تبدلت الصور الرائعة أمام ناظري مروراً بظلال الليل العميقة وانتهاءً بضوء القمر شديد الإضاءة، الذي كان يتلألأ فوق الطاحونة وبيت القس وفوق الماء، لدى وصولنا. كان الشباب يتسامرون في الساحة تحت أشجار الدردار ويرمي بعضهم بعضاً في مياه النهر الصغير، وانهمكت البنات في الغناء في الحديقة، في حين قالت زوجة خالي بأعلى صوتها إنني متشرد متسكع ولم يرني أحد طول اليوم.

الفصل العشرون

هواجس المهنة

في فجر اليوم التالي كنت أتلقى التحية من كل جهة بلقب: "الرسَّام"! كان يقال لي: "صباح الخير، أيها الرسام! هل نَعِم السيد الرسام بنوم هادئ؟ ليتفضل الرسام إلى تناول الفطور!" وقد استخدمت الجماعة الصغيرة هذا اللقب مع ذلك السرور الساخر وطيِّب النية، الذي تحس به باستمرار إذا ما وجدت أخيراً لقادم جديد، لا تجيد مهاجمته، تسمية يألفها الناس ويتعوّدونها. ولكن المرتبـــة التي أُعطيتُها أعجبتني ونويت بيني وبين نفسي ألا أتخلى عنها. قضيت بدافع الشعور بالواجب أول ســـاعة من الصباح منكبّاً على كتبي المدرســـية، أعلّم نفسي، لكن على ورق النشـــاف الرمادي، الخاص بهذه الكتب الكئيبة، سرعان ما أشـــاع من جديد الشعور بالخواء والانقباض من الماضي؛ وراء الوادي فاحت الغـــابة بأريج رمادي اللون كالفضة، ومدارج السفوح ارتفعت بشكل ملحوظ بعضها عن بعض، ومعالمها المورقة، التي لامستها أشعة الصباح، كانت خضراء نقية، كل مجموعة مهمة من الأشجار بانت كبيرة وجميلة في الأريج المتماسك وبدت لعبة في اليد المقلِّدة، ولكن حصة درسي لم تشأ أن تنقضي، مع أنني ما عدت منذ فترة طويلة أعيرها انتباهي.

مشيتُ نافد الصبر ذهاباً وإياباً، وفي يدي كتاب مدرسي للفيزياء، وعبر حجرات متعددة إلى أن اكتشفت في واحدة منها المكتبة الدنيوية في بيت

خالي، كانت عُلقت فوقها قبعة قديمة واسعة من القش، كالتي تحتاج إليها الفتيات في أعمال الحقل، وكادت أن تخفيها بالكامل. حين أزحت القبعة من مكانها، رأيت مجموعة صغيرة من الكتب المجلدة الجيدة وذات الظهر الذهبي، أخرجتُ كتاباً من قطع الربع ونفخت الغبار الكثيف عنه، وفتحت كتب الرسام غيسنر المجلدة بورق الرق والمزينة بعدد من التصاوير والصور. وحيثما كنت أقلب الصفحات كان الحديث يدور عن الطبيعة، المناظر الطبيعية، الغابة والحقول والمروج؛ أعمال الحفر على الخشب من صنع غيسنر بحب وحماس تطابقت كلها مع هذا المضمون؛ هنا رأيت ميولي تشكل موضوع كتاب كبير وجميل وجدير بالاحترام، ولكنني حين عثرت على الرسالة المتعلقة بفن رسم المناظر الطبيعية إذ يقدم المؤلف نصيحة قيمة لرجل شاب، قرأت الرسالة بدهشة واستغراب من أولها إلى آخرها. البساطة البريئة لهذا البحث كانت مفهومة تماماً عندي، والمقطع المتضمن نصيحة أن يؤتى إلى حجرة الرسم بأحجار حقول وجداول متنوعة ومكسرة لكي تصنع منها تصاميم للوحات صخور، تطابق تماماً مع شخصيتي نصف الصبيانية واتضح لي تماماً. أحببت هذا الرجل في الحال وجعلته نبياً لي، وبعد أن بحثت عن مزيد من كتبه وجدت كتّيباً صغيراً لم يؤلفه هو بل كان يحتوي على سيرة حياته. هذا الكتيب أيضاً لم أبرح مكاني حتى قرأته كله. وقد ذكر فيه الكثير عن العبقرية والاعتماد على الذات وأمور كهذه، عن الطيش والعسر ومن ثم تغير الأحوال إلى الأفضل، عن الشهرة والحظ. وأغلقت الكتب بهدوء وانهماك في التفكير، صحيح أنني لم أفكر بعمق كبير ولكنني صرت ولو بغير وعي واضح في عداد أتباع المذهب.

وحتى في حال توفر أفضل تربية فإن من المتعذر اتقاء مرور هذه اللحظة الغنية بالعواقب والخطرة عبر رؤوس شابة متلقية، في غفلة من كل الوسط المحيط، وربما كان قليلون هم أولئك الذين لا يحظون بمعرفة الكلمة المغيظة "عبقرية" إلا بعد أن يخلّفوا وراءهم من دون ارتباك وبحسن نية شيئاً

من الحياة السليمة والتعلم والإبداع والنجاح. أجل، الأمر هنا يتعلق عموماً بسؤال عما إذا كان بإمكان النجاحات حتى الأكثر تواضعاً الاستغناء عن أرضية ثابتة من نوايا واعية وكل أدوات النزوع إلى العبقرية، والفرق ربما يكمن فقط في أن العبقرية الحقيقية لا تتيح رؤية هذه الأدوات بل تحرقها مسبقاً، في حين تعمل العبقرية الموهومة فقط على إبرازها ببذل جهود كبيرة ونصبها كسقالة بناء مقاومة للعوامل المناخية في معبد لم ينته بناؤه بعد.

ولكنني لم أرتشف الشراب السحري من كوب ساحر كثير الرغبات وباهر، بل من طاسة راعٍ محبب متواضع، فبكل العبارات كان عالم الفنان غيسنر ذا طبيعة بسيطة وبريئة وقد قادني دفعة واحدة بوعي أكبر تحت ظلال أشجار خضراء وإلى ينابيع غابيّة هادئة.

في كتيب سيرة الحياة تعرفت أيضاً الفنان العجوز زولتسر، الذي كان راعي غيسنر الشاب في برلين، وحين لاحظت بين الكتب وجود بعض الأجزاء من مؤلف "نظرية الفنون الجميلة" قمت بمصادرتها على أنها تابعة لمجالي الذي كنت اكتشفته مؤخراً. هذا الكتاب لا بد أنه حظي في زمانه بانتشار واسع لأن المرء قد يجده الآن تقريباً في كل خزانات الكتب القديمة ويمكنه أن يضارب عليه في كل المزادات العلنية كما يمكن أن يرسو عليه المزاد بمبلغ قليل من المال. مثل قطة فتية في حديقة العشب تجولتُ في عالم البنية الموسوعية للكتاب الذي دام استخدامه زمناً طويلاً، آخذاً كل شيء على محمل الجد وملتقفاً مئة من وجهات النظر المؤقتة والمبهمة، وحين اقترب وقت الظهيرة كان رأسي متخماً بالتفقه والمعرفة، وشعرت تقريباً أنا ذاتي بالاعتزاز المهيب في شفتيَّ الملتويتين وعينيَّ المشدودتين وجررت كل المراجع من الكتب حول الفن إلى غرفتي ثم ضممتها إلى محفظة النبيل فيليكس.

وما إن وجدت بعد تناول طعام الغداء ما يكفي من الوقت حتى قمت بزيارة قصيرة لجدتي فأعطتني وصية صغيرة مذهبة الأطراف ولها قفل

صغير من الفضة، كانت أعدتها لي من قبل. وما إن أدخلتها في جيبي حتى وليت متهرّباً. فتبعتني الجدة بنظراتها الحزينة إلى ما استطاعت عيناها الضعيفتان الوصول إليه من مدى، إذ كانت تريد أن تسلمني باليد تلك العطية المقدسة بحب خاص وجو احتفالي مميز، ولكنني اختفيت بسرعة عن ناظريها تحدوني الرغبة الملحة في إيجاد تطبيقاتٍ لإدراكي الفني المتأجج أو الأحرى أن أطبقه على الأشجار.

سرتُ مزوداً بمحفظة وأدوات لازمة وسط الأصداء الخضراء التي كانت تتردد في الغابة الجبلية وعاينت كل شجرة ولكنني لم أجد في واقع الأمر أي موضوع للرسم، ذلك لأن الغابة المعتزة بنفسها كانت بعضها يلتفّ حول بعض بتلاصق محكم وتقف ذراعاً بذراع ولم تسلمني أياً من أبنائها بمفرده، الشجيرات والأحجار، الأعشاب والزهور، أشكال الأرض لامس بعضها بعضاً واختبأت تحت حماية الأشجار واتصلت في كل مكان مع الكل الكبير، الذي كان يتبعني بنظراته مبتسماً وبدا أنه يسخر من حيرتي وارتباكي. وأخيراً برزت شجرة زانٍ ضخمة ذات جذع زاخر وغلاف باهر وتاج رفيع متحدية أمام الصفوف المتشابكة كملك من عهد قديم يدعو عدوه إلى المبارزة. هذا المحارب الصنديد كان في كل غصن وفي كل مجموعة من أوراق الشجر ثابتاً وواضحاً ومحباً للحياة ولله إلى حد أن ثباته أبهرني وظننت أن بإمكاني بجهد قليل أن أتغلب على تجسيده. فجلست أمامه وقلمي بيدي إلى الورقة البيضاء بينما مضت فترة لا يستهان بها من الزمن قبل أن أستطيع عقد العزم على أول جرة قلم، لأنني كلما كنت أنظر بدقة أكثر إلى مكان محدد من الشجرة العملاقة، بدت أكثر بعداً عني ومع كل دقيقة تنقضي كنت أفقد انعتاقي وهدوئي. أخيراً تجرأت، مبتدئاً من الأسفل، على رسم بضعة خطوط محاولاً الإمساك بقاعدة الجذع الضخم، المتفرعة بإتقان إلى كل الاتجاهات؛ ولكن ما فعلت، كان معدوم الحياة والأهمية؛ أشعة الشمس كانت تتمايل عبر أوراق الشجر على سفح الجذع فتضيء المعالم القوية وتزيلها من

جديد، مرة كانت تبتسم بقعة فضة رمادية اللون ومرة أخرى بقعة ريانة من الطحالب انطلاقاً من العتمة المضيئة، ومرة ثالثة كان يترجّح في الضوء غصن صغير منبثق من الجذور وانعكاس من الضوء مكَّن من اكتشاف خط جديد مكسو بضفائر إلى أن اختفى كل شيء مرة أخرى وأخلى الساحة لظواهر جديدة في حين ظلت الشجرة واقفة هكذا بهدوء مستمر ومتساوٍ وكان يُسمع في أعماقها همس الأشباح. ولكنني تابعت الرسم متسرعاً وبلا تبصر، مخادعاً نفسي، بانياً طبقة فوق طبقة متمسكاً بخوف وهلع فقط بالجزء الذي كنت رسمته تواً وعاجزاً تماماً عن أن أربطه بالكل، بصرف النظر عن انعدام الشكل في الخطوط المختلفة. مشروع اللوحة على الورق نما واتسع إلى تجسيد خارق، ولا سيما في عرض اللوحة، وحين وصلت إلى القمة لم أعد أجد متسعاً لكي أرسمها وكان عليّ في هذه الحالة إطالتها في العرض مع ضغطها إلى الأسفل، كجبين أبله أخرق، ثم إرغامها على أن تستقر على كتلة الورق غير المتناسقة بحيث تبقى حافة اللوحة ملتصقة بالورقة الأخيرة بينما تترنح قاعدة الجذع في الخواء. حين جلت بنظري في أرجاء اللوحة وتصفحت أخيراً كل ما أنجزت، غمزتني بطرف عينيها صورة مشوهة مضحكة، كقزم من مرآة مجوفة، غير أن شجرة الزان، التي كانت تعج بالحيوية والنشاط، تألقت للحظة بجلالة أكبر من ذي قبل كما لو أنها تتعمد الاستهزاء بعجزي وانعدام حيلتي، بعد ذلك اختفت الشمس وراء الجبل واختفت معها الشجرة في ظل إخوتها. فلم أر شيئاً بعد سوى فوضى خضراء وصورة الاستهزاء على ركبتي. مزقت الصورة، وبقدر ما كنت أتيت إلى الغابة متكبراً وطموحاً، غدوت خانعاً ذليلاً. وشعرت بأنني مرفوض ومرمي بي خارج معبد آمالي الشبابية، وكان من شأن الجانب المواسي من الحياة، الذي كنت ظننت أنني حظيت به، أن اختفى أمام بصيرتي وتراءى لي أنني شخص تافه عديم القيمة فعلاً ولا جدوى مني. إثر ذلك هممت من جديد، يائساً باكياً منتحباً مهيض الجناح، بالبحث عن موضوع آخر قد يكون أكثر رأفة بي

وإشفاقاً عليّ، غير أن الطبيعة، التي أخذت آنذاك تزداد تعمقاً وذوباناً، لم تَجُد علي بأي صدقة، وفي ضيقي وشدتي أُنبئت بالحقيقة الكامنة في المثل القائل إن "كل بداية صعبة" وأدركت بذلك أنني لم أبدأ سوى الآن وأن هذه المشقة هي التي تعلل الاختلاف عن العبث السابق. لكن هذا الإدراك لم يزدني إلا حزناً ما دمت حتى ذلك الحين لم أعرف العناء والمشقة ولم أعرف الجد المرير. وأخيراً لجأت من جديد إلى الله، الذي كان في حفيف الغابة وفي تعاستي الموهومة قريباً مني، وتوسلت إليه أن يساعدني كُرمى لأمي التي تذكرت وقتها وحدتها المفعمة بالقلق والغم.

هنا التقيت بشجرة دردار فتية كانت نمت في وسط فسحة غابيّة فوق سد منخفض وسقيت من ينبوع ماء متسرب. وكان لهذه الشجيرة جذع مترنح بثخانة بوصتين فقط وقمة رشيقة مورقة من الممكن عد أوراقها المصفوفة بانتظام وقد ارتسمت، كما ارتسم الجذع أيضاً، ببساطة ووضوح وظرف على ذهب الأصيل الصافي. ولأن الضوء كان وراء النبتة، لم يكن بالإمكان رؤية غير المقطع الحاد من صورة الظل، وقد بدت كما لو أنها وضعت عمداً من أجل أن يتدرب عليها أحد التلاميذ.

جلست مرة أخرى وأردت بسرعة أن أسرق الجذع الرقيق، الذي كان في سن الطفولة، بخطين متوازيين على ورق الرسم، ولكنني تعرضتُ مرة أخرى للاستهزاء والسخرية حين قام العود البسيط المخضَّر، في اللحظة ذاتها التي بدأت فيها برسمه ومعاينته بدقة أكثر، بحركة هي غاية في الرقة والنعومة. الخطان المرتفعان إلى الأعلى تلامسا بشدة في كل الالتواءات، التي كانت تكاد تلحظ، وجددا شبابهما إلى الأعلى برقة ونعومة فخرجت من بينهما أخيراً الأغصان الفتية بزوايا مقيسة بدقة بحيث تعذر الانزياح شعرة واحدة إذا ما أريد للشجرة الصغيرة أن تحافظ على شكلها الجميل. ولكنني تماسكت وتشبثت بكل خوف وانتباه بكل حركة من حركات قدوتي في الرسم فأسفر ذلك أخيراً لا عن تصميم أكيد ورشيق بل عن شكل هياب لكن وفيٍّ للأصل

تقريباً. وأضفتُ إلى ذلك ضمن نطاق مجهوداتي، بشيء من التعمق، الأعشاب وجذور التراب التالية ورأيت في لوحتي واحدة من تلك الشجيرات الناصرية الورعة، التي كانت ترسم على لوحات فناني الكنائس القدماء وأخلافهم المقلدين في أيامنا هذه وتخترق الأفق بطريقة جذابة وساذجة. كنت راضياً عن عملي المتواضع وتمعنت فيه طويلاً مقارناً إياه بالدردارة النحيلة، التي كانت تتمايل بهدوء في نسيم المساء وتبدو لي مثل مبعوث سماوي لطيف. وكما لو أنني حققت معجزة توجهت إلى القرية مغموراً بالفرح حيث كان أقاربي متشوقين إلى رؤية ثمار رحلتي الطموح إلى الغابة. لكن بعد أن أظهرت شجيرتي، التي كان يكسوها أربع دستات من الأوراق، تحولت التوقعات إلى ابتسامة جامعة وتحولت هذه بدورها لدى الأقل تكلفاً وحرجاً من الحاضرين إلى ضحك وقهقهة، خالي فقط أعجب بتعرفي فوراً على شجرة دردار صغيرة وفتية وشجعني على أن أتابع عملي دون كلل أو ملل وأدرس أشجار الغابة بشكل صحيح وهو باعتباره خبيراً في شؤون الغابات والحراج يريد أن يساعدني في ذلك. وكانت باقية في ذهنه ذكريات مدنية كثيرة بحيث لم تبدُ له أشياء من هذا القبيل مثيرة للضحك، إضافة إلى أن المولعين بالصيد يحبون فن الرسم ما دام يمجد الساحة التي تشهد أجواء فرحهم وتمتعهم كما يمجد أيضاً أفعالهم ذاتها. لذلك بدأ فوراً بعد طعام العشاء بإعطائي دروساً حول هذا الموضوع فتحدث عن الخصائص المميزة للأشجار وعن الأمكنة التي قد أجد فيها أكثر العينات الأكثر جدوى على الصعيد التعليمي. ونصحني قبل كل شيء بنسخ لوحات النبيل فيليكس ففعلت ذلك في الأيام التالية بحماس بالغ، بينما كنا نواصل في أثناء الأمسيات الجميلة نزهاتنا الاستطلاعية مشياً على الأقدام من أجل القيام برحلة الصيد التالية، وكنا في ذلك نطوف في أجمل الوديان والمرتفعات يحيط بنا ويرافقنا عالم الأشجار الغني.

هكذا انقضى الأسبوع الأول من إقامتي في الريف بارتياح وفي هذا الوقت عرفت كيف أميز بين بعض الأشجار ولشد ما سرني أنني كنت

أستطيع أن أحيي الرفاق الخضر بأسمائهم، لكن فيما تعلق بغطاء التربة الرطبة أو الجافة من الأعشاب فقد أسفت آنذاك فحسب بشدة على الانقطاع عن بدايات الدراسات النباتية في المدرسة، لأنني كنت أشعر أن بضعة ملامح إجمالية لا تكفي للإلمام بمعرفة هذا العالم الصغير لكن الأكثر تنوعاً إلى حد بعيد، ومع ذلك كنت أحب أن أعرف أسماء كل الأشياء المزدهرة، التي كانت تغطي الأرض ومواصفاتها.



* * *

الفصل الواحد والعشرون

نزهة أحدية في ربوع الريف/المعلم وابنته

في أول يوم أحد من حضوري تحدّد موعد زيارة أردنا أن نقوم بها نحن الشباب إلى ما وراء الغابة. فهناك كان يقيم في مزرعة منعزلة ونائية أخ لعمتي مع ابنة له في مقتبل العمر وتقيم علاقات صداقة حميمية مع بنات خالي. كان أبوها فيما مضى معلماً في المدرسة، ولكنه انسحب بعد وفاة زوجته إلى تلك المزرعة الهادئة حيث كان يملك ثروة كافية. وكان يشكل تماماً الشخصية المعاكسة لشخصية خالي. ففي حين كان هذا المنتمي إلى بيئة مدنية والمترعرع في أجواء بعض الدراسات الدينية رمى كل ذلك وراء ظهره ونسيه لكي يتفرغ تماماً لأرض الحقل البنية والغابة الموحشة، لم يطمح ذاك الذي كان ينتمي إلى أصول فلاحية ويتمتع بثقافة متواضعة إلى أكثر من العيش وفقاً لعادات قائمة على التسامح واللين وحياة رجل حكيم ومنصف وسمعته، وكان تعمق في تأملات هادئة دينية وفلسفية وتمعن في أمور الطبيعة بإرشاد من بعض الكتب وكان السرور يغمره إذا ما سنحت له الفرص لإجراء أحاديث رزينة متعقلة ساعياً في ذلك إلى إظهار قدر كبير من الظرف واللطف. أما ابنة المعلم الصغيرة، التي كانت في سن الرابعة عشرة، فعاشت بهدوء ورقة في الضوء الخافت لتلك العقلية وفضلت نزولاً عند رغبة أبيها أن تكون ابنة قس ناعمة على أن تكون ابنة مزارع، في حين أظهرت ذرية خالي من البنات، اللواتي أوكلت إليهن أعمال خشنة، أثراً قوياً من مطر وأشعة

شمس أضفى عليهن زينة أكثر مما أســـاء إلى مظهرهن واتفق مع بريق أعينهن النضرتين.

بنات خالي الثلاث، في سن العشرين والسادسة عشرة والرابعة عشرة وبأسماء مفرنسة: مارغوت وليزيت وكاتون، كن يعقدن بعد ظهر يوم الأحد اجتماعاً مطولاً في حجراتهن الصغيرات وكن يتبادلن الزيارات فيما بينهن ويغلقن في أثناء ذلك الأبواب خلفهن. أما نحن الصبيان، الذين انتهت ترتيبات زينتهم منذ فترة طويلة، فقد كنا ننتظر بفارغ الصبر، ومن خلال ثقوب المفاتيح وشقوق الأبواب فحسب كنا نلاحظ خزانات الثياب مفتوحة على مصاريعها والبنات يقفن أمامها يسدي بعضهن النصائح لبعض بحركات وإشارات مهمة. ولكي نبدد الوقت بدأنا بمعاكسة البنات الورعات ومداعبتهن، وأخيراً اقتحمنا المكان زرافات إلى وسطهن وانقضضنا على خزانة كبيرة لكي ندس أنوفنا في المئة علبة كرتونية ومعدنية صغيرة وفي أشياء سرية أخرى، ولكن بشجاعة لبؤات كاسرات تتعرض أشبالهن للاختطاف رمي بنا إلى خارج الحجرة وخضنا أمام الأبواب معركة بلا جدوى من أجل فتحها من جديد. وإذا هي بعد فترة قصيرة من الهدوء تُفتح تلقائياً وتخرج منها البنات الثلاث المسكينات، خجلات مستاءات لكن على وعي تام بانتصارهن، بألوان وأبهة، مرتديات أزياء من العام المنقضي وحاملات شمسيات من غابر الأزمنة ومحافظ يد ذات أشكال رائعة، كانت الأولى تشبه نجمة والثانية هلالاً والثالثة شكلاً وسطاً بين محفظة خيالة وقيثارة.

كل ذلك كان لا بد أن يولد انطباعاً أكبر إذا ما أوردنا في الحسبان أن الفتيات الطيبات كن معتمدات على أنفسهن فحسب، وكن فيما يتعلق بأمور التبرج يقفن هكذا في هذا العالم وحيدات تماماً ومن غير مشورة أو نصح، لأن أمهن كانت تشمئز من كل ثياب مدنية وتخلع قلنسوتها، التي اعتادت أن ترتديها بصفتها زوجة قس، فور خروجها من الكنيسة كل مرة. أما سيدات القس الجديد، الوحيدات في القرية، فكن معتدات بأنفسهن ومتعجرفات وينعمن

بزينتهن جاهزة مسبقاً من المدينة. وهكذا كانت بنات خالي معتمدات على أنفسهن وعلى خياطة من القرية وعلى بعض تقاليد البيت، التي استخرجنها بعد بحث وتمحيص دائبين من أعماق الماضي السحيق. ولذلك كانت نجاحاتهن جديرة بالاعتبار بقدر مضاعف، وحين استقبلناهن لدى ظهورهن في هذا اليوم بلفظة "أووو"! الاستهزائية لم يكن هذا الاستهزاء سوى من باب التمثيل والتصنع بل كان ومن ثم قناعاً لإعجاب صادق.

في حين اتفق لباسنا نحن، من حيث إنه مزيج من الجرأة والأناقة، كل الاتفاق مع زي الشابات. فأولاد خالي ارتدوا جاكيتات من أقمشة خشنة، غير أن خياط القرية كان اختار لذلك تفصيلة وقحة ومجازِفة إلى أقصى حد. كانت هذه الجاكيتات مزودة بعدد كبير من الأزرار اللامعة، التي كبست عليها صور لحيوانات الغابة في هيئة قفزات من وحي عالم الصيد والتي كان خالي اشتراها ذات مرة بالجملة عند توفر فرصة ملائمة وتزود بها على هذا النحو من أجل أبنائه وأبناء أبنائه. ما تقطَّعَ من هذه الزخارف سرى بين صبيان القرية باعتباره قطعاً نقدية ممكنة كانت تعادل الواحدة منها ستة أزرار من العظم أو من الرصاص. أنا ذاتي ارتديت إضافة إلى سترة عسكرية خضراء ذات خيوط حمراء بنطالاً أبيض وقميصاً صبيانياً من دون صدرية ولففت حولي بشكل رائع المنديل الحريري الأحمر، الذي أُهديته من جدتي، وتدلت فوقه الساعة الذهبية الموروثة من أبي، لكن المهملة مني، معلقة بوشاح أزرق مطرز بالزهور كنت أخذته من علب أمي. وكنت فصلت منذ فترة طويلة المظلة البليدة عن قلنسوتي بحيث نعم جبيني بالحرية، وأردت أن أظهر كصبي كامل الأوصاف في سوق البيع السنوي. إن الناس، الذين يحسون ويرغبون في شيء أفضل وأعمق، سوف يحجمون على ما أظن أكثر فأكثر عن كل المظاهر الخارجية المضحكة وذلك كلما اقتربوا أكثر عبر الخبرة والممارسة مما يحسون به، ولكن كلما ابتعدوا عنه تشبثوا أكثر بزخارف من هذا القبيل. لكن هذه المظاهر الخارجية ذاتها كان لها أن تحول في غالب

الأحيان دون تطور داخلية المرء بسرعة إذا لم يوجد رجل أو أب يعمل على تقويضها وقمعها بسخرية شديدة ويرسم في الوقت ذاته للابن الطموح ما هو حقيقي وأصيل بيد ثابتة.

كان بالإمكان الوصول إلى بيت المعلم عن طريقين، إذ كان علينا إما أن نصعد إلى جبل طويل الامتداد خلف القرية ونسير باستمرار على طول قمته ونهبط أخيراً على سفوح الجانب الآخر حيث كان يوجد وادٍ آخر شبيه بوادينا مع فارق أنه اصغر وأكثر استدارة وتكاد تملؤه بحيرة قاتمة عميقة، أو كان بإمكاننا أن نجتاز وادينا سيراً على طول ضفاف النهر ونصل برفقة المياه التائهة في الغابات الملتفة حول الجبل إلى البحيرة، التي تصب فيها تلك المياه وينعكس على سطحها البيت الصديق.

فضلنا أن نقطع طريق الذهاب برفقة النهير المسلي ونعود لدى حلول برودة المساء إلى البيت عبر طريق الجبل، فتحرك موكبنا الملون واللامع إلى مدى بعيد فوراً عبر الوادي الأخضر إلى أن وصلنا إلى بقعة جميلة حيث هبطت الغابة إلى المياه على ضفتي النهر وظللتها بالبرودة والعتمة، ثم ما لبثت أن أحاطت بها بجدران من الأشجار المورقة، عصية على الاختراق، بحيث كنا نضطر إلى ليّ الأغصان المتدلية فوق رؤوسنا إلى الخلف لكي نستطيع المرور، ولكن سرعان ما اتسعت تلك الغابة فأخذت تقترب منا مجموعة من أشجار صنوبر عالية ومتباعد بعضها عن بعض في بقعة كانت تنتشر فيها أشعة الشمس، بعد ذلك اقتربنا من صخور منحدرة من الأعلى بالتفاف وفي الماء أيضاً وأدت إلى تشكل شلالات، بينما برزت أطلال وخرائب من بين شجيرات السفوح، ودروب جانبية صغيرة كانت تقود إلى أماكن معتمة، وفي كل مكان كانت تتكشف لنا أكثر الأسرار طرافة وظرفاً. ثياب البنات، الحمراء والزرقاء والبيضاء، كانت تتلألأ بكل ألق وروعة في الاخضرار القاتم، وأولاد خالي كانوا يقفزون من صخرة إلى أخرى بحيث صارت أزرارهم الذهبية تومض ببريقها الخلاب وتتنافس في ذلك مع دوائر

الأمواج الفضية. ويا لكثرة ما رأينا من الحيوانات البرية المختلفة، هنا رأينا ريشات حمامة برية كانت تعرضت دون شك لهجوم من طائر جارح فمزقها شر تمزيق، وهناك انطلقت أفعى عبر أمواج ضفة النهر إلى الحصى الملساء، وفي بقعة ضحلة المياه ومفصولة عن باقي ماء النهر كانت سمكة فوريلا انحبست فأخذت تتلمس ببوزها خائفة وعلى غير هدى الأحجار المتاخمة، لكن لدى اقترابنا منها قفزتْ إلى النهر الدافق واختفت في أعماقه.

وهكذا التففنا حول الجبل دون أن نعي ذلك، فاتسعت البقعة الخلابة ومكنتنا دفعة واحدة من رؤية البحيرة الهادئة، القاتمة الزرقة، المرشوشة بالفضة والراقدة مع محيطها الوادع في التلألؤ الهادئ، الذي كان يغمر عصر يوم الأحد ذاك. كانت البحيرة محاطة بشريط من الأرض المستصلحة المزروعة وخلف هذا الشريط تابعت الغابة في كل مكان انتشارها صعوداً شيئاً فشيئاً، ولكنها كانت تضم بين جنباتها من حين لآخر مزرعة هادئة حيث كان يبرز هنا وهناك من بين الأدغال سطح قرميدي أحمر أو عمود من الدخان. أما من جهة الشمس فكان ثمة جبل من كروم عنب لا يستهان بها وعلى سفحه بيت المعلم، بالقرب من البحيرة، ولكن مباشرة فوق صفوف أعلى الأعمدة تدلت السماء الصافية العميقة وانعكست في الماء المنزلق إلى أن وُضعت لها حدود من الشريط المزروع قمحاً أصفر وحقولِ البرسيم والغابةِ الخلفية، التي ظهرت كلها بلا أي تغيير مقلوبة في الماء رأساً على عقب. كان البيت مطلياً بدهان أبيض والهيكل الخشبي بدهان أحمر وكانت درفات النوافذ مزينة برسومات أصداف كبيرة، ومن النوافذ كانت ترفرف ستائر بيضاء؛ وخرجت من باب البيت ثم نزلت على سلم صغير ابنةُ الخال الصغيرة بقوام ممشوق وناعم كنرجسة، مرتدية ثوباً أبيض، ولها شعر بني ذهبي وعينان زرقاوان وجبين عنيد وفم مبتسم. وعلى الوجنتين الضيقتين كان يجيش احمرار تلو آخر، والصوت الناعم الشبيه برنين الجرس الخفيف يكاد يمكن سماعه ولكن صداه ما فتئ يتردد في كل لحظة. عبر حديقة صغيرة كان

شذاها يفوح بروائح الأوراد والقرنفل العطرة قادتنا آنًّا، بعد أن تجاذبت مع ابن خالي أطراف الترحيب والحديث برقة واحتفائية كبيرتين كما لو أن الواحد منهما لم يرَ الآخر منذ عقد من الزمن، قادتنا إلى البيت الذي كانت تتردد فيه من كل الجوانب أصداء النظافة والترتيب، حيث استقبلنا الأب، مرتدياً بذلة نظيفة رمادية اللون ورباط عنق أبيض ومنتعلاً شبشباً مقصباً، بكل حرارة وسرور. كان قضى يوم الأحد الهادئ فوق الكتب التي كانت لا تزال منتشرة على الطاولة ولا بد أن يكون الآن مغموراً بالفرح لرؤيته، دونما توقع مسبق، هذه المجموعة الجميلة من المصغين إلى حسن بيانه وطلاقة لسانه. حين قُدمتُ إليه بدا على محياه سرور من نوع خاص مرده إلى رغبته في الترويج لنهجه وأحاديثه العلمية مع حصد الاعتراف بذلك، فقد ظن أنني آتٍ من بيئة تعليمية مدرسية على أعلى درجات التطور والازدهار. كان له ما سوّغ تمسكه بي، ذلك لأن أولاد خالي اختفوا قبل أن يبدأ المعلم باختيار موضوع للحديث، وقد رأيت كيف أنهم ثلاثتهم يدخلون رؤوسهم في فتحة حاوية السمك في العراء على ضفة النهر، بحيث لم يعد يُرى منهم أي شيء عدا أرجلهم الست. كانوا يحصون بدقة وعناية موجودات خالهم من السمك، بينما لحقت أخواتهم بابنته الصغيرة وبخادمة متقدمة في السن إلى المطبخ والحديقة.

لاحظ المعلم بسرعة أنني على استعداد لأن أكون مستمعاً لأحاديثه بملء رغبتي وأجيبَ عن أسئلته قدر المستطاع. وبعد أن سألني بإلحاح عن الترتيبات الجديدة التي كانت اتُخذت في قطاع التعليم، تابع يقول: "لكن لابد أن تحدث أيضاً أشياء كثيرة! قرأت تواً في الجريدة أن الإشكالات المعروفة في قسم من مدرستنا الكانتونية أزيلت أخيراً بطرد المعلم المفتقر إلى الكفاءة وفي آن معاً أيضاً التلميذ عديم النفع بالمرة كونه ثورياً حقيقياً صغيراً فعمَّ نتيجة لذلك الهدوءُ والاستقرارُ التامان. يبدو لي أن عزل المعلم هو قرار صائب وعقلاني، اللهم إذا ضُمنت حقوقه في مجال آخر؛ أما عن التلميذ فلم أقتنع تماماً بما اتُخذ بحقه من إجراء، ويبدو لي أنه أسيء فهمه: وُضعتَ الآن

خارج مجتمعنا وعليك أن ترى ماذا تستطيع أن تصنع من ذاتك! لم يُعالج الموضوع بروح التسامح المسيحي، وربنا ومعلمنا لا بد بادئ ذي بدء أنه حمى الشاة الضالة في كنفه. هل تعرف، يا قريبي، ذلك الصبي المطرود؟".

بهذه الأسئلة أوقظ الرجل في نفسي تلك الذكريات المؤلمة وأوقظ في الوقت ذاته من خلال طريقة طرحها حزناً عميقاً في داخلي فأجبته بصوت منخفض بأنني أنا ذلك الصبي.

وفي حالة من الذهول التام تراجع خطوة إلى الوراء وأخذ يتمعن في وجهي بعينين واسعتين، وبدا حائراً مرتبكاً من رؤية صبي على مقربة منه متنكر بحذر شديد في ثياب حمل وديع، غير أنه يحث خطاه على طريق أن يصبح شيطاناً رجيماً. ولكنني كنت كسبته قليلاً إلى جانبي وربما أسفرت تصرفاتي الهادئة عن إدراكه أن وجهة نظره السابقة، الرحيمة المتسامحة، كانت على حق.

تابع المعلم قائلاً: "خطر ببالي على الفور أن في الأمر شيئاً غير طبيعي، لأنني أرى ويحلو لي أن أصدق أن قريبي الذي هو الآن أمامي شاب جدير بأن يتبادل المرء معه حديثاً متعقلاً! ولكن اروِ لي الآن مجريات هذه القصة الشنيعة بكل صدق وأمانة، إذ يهمني جداً كيف يتوزع فيها الذنب والظلم!".

بعد أن رويت للمعلم اللطيف مجرى القصة بأمانة واستفاضة وبحماس جارف في النهاية، لأنني وجدت لأول مرة منذ ذلك الحين فرصة سانحة لأن أفضي إلى أحدٍ بذات نفسي، تمعن هنيهة في ما قلت وهو يكرر مرات كثيرة لفظة: همّ! ولفظة: هكذا إذاً! ثم تابع بعد ذلك يقول:

"هذا قَدَر فريد من نوعه تماماً! أولاً عليك ألاَّ تحمِّل الأمر أكثر مما يحتمل وألاَّ تقيم على ما عانيته سخطاً متعالياً من شأنه أن يلحق بك الضرر طول حياتك! يجب أن تورد في حسبانك أنك شاطرت الآخرين الظلم والعبث، ولذلك عليك الآن أن تثنِّي على نفسك وأن تشعر بالسعادة مادمت تلقيت من الله ذاته في عمر مبكر عقاباً جدياً وعبرة، لأن ما حدث لك ليس من عدالة

البشر بل هو تدخل مباشر من سيد العالم شرَّفك به في وقت مبكر وبرهن لك عن أنه لا يفكر بالمزاح معك بل يريد أن يقودك على دروبه الخاصة الوعرة. وبعد أن تقبلت إذاً بشكر وامتنان وندم هذا الحدث المحزن المفتَعل وغفرت ونسيت الظلم الموهوم، يجب أن تعقد العزم فحسب على أن تتابع حياتك في اتفاق تام مع جدية هذه المعايشة وأن تتوقع أن كل انحراف عن درب الفضيلة سوف يكون سبباً للانتقام منك بشكل أكثر حساسية من غيرك، لكي تمعن بذلك في التمرس على فعل الخير بصورة أكثر جدية وقوة من كثيرين لم يحدث لهم ما حدث لك. بهذه الطريقة يستطيع الحدث أن يكون شيئاً جالباً للخلاص، ولكن من دون ذلك سوف يبقى قصة وخيمة العواقب ومزعجة، ولا يُرضي الله أو يسره أن تكون حياة شابةٌ مثقلةً بهذه القصة وتداعياتها. الأمر التالي والأهم في حياتك هو بالطبع اختيار مهنة مناسبة لك، ومن يعلم إن كان قدرك يكمن تحديداً بسبب هذه الأزمة المفاجئة، في وجوب حسم هذا الأمر بصورة أبكر مما قد يحدث فيما بعد! من المؤكد أنك أحسست في أعماقك بالرغبة في اختيار مهنة ما خاصة؟".

هذا الحديث أعجبني كل الإعجاب، وعلى الرغم من أنني لم أدرك تماماً المغزى الأخلاقي الجدي منه، إلا أنني تلقفت الفكرة المتعلقة بتسيير الله وتوجيهه الأعلى وهي في حيويتها القصوى، وخيِّل إلي أنني مغمور بالسعادة بمعرفة وجودي في عالم رغباتي وميولي محفوفاً بحماية الله الخاصة ورعايته، واتضح لي بوعي تام ما كان يدور في ذهني فقلت بصراحة تامة: "أجل، أريد أن أصبح رساماً!".

دُهش صديقي الجديد من هذا الجواب تقريباً أكثر مما أدهشه اعترافي السابق، ذلك لأنه بحكم انعزاله عن كل اختلاط بالعالم لم تكن هذه الكلمة تخطر بباله بأي شكل من الأشكال، ولكنه أمعن التفكير أيضاً بسرعة ثم قال:

"تريد أن تصبح رساماً؟ إي، هذا أمر نادر! لكن دعنا نرَ! كان بالطبع ثمة زمان وُجد فيه رسامون مهتدون بروح إلهية وقد قدموا للشعوب

المتعطشة شراباً للحياة السماوية نتيجة للافتقار إلى الكلمة الحية، التي نمتلكها نحن الآن. ولكن كما تطور آنذاك هذا الفن بسرعة فائقة إلى أباطيل براقة زائفة في خدمة الكنيسة المتعالية، فإنه يبدو لي في أيامنا هذه خالياً تماماً من أي جوهر عميق ومجرد سلوك لأباطيل البشر وتشويهاتهم. صحيح أنني لا أعرف شيئاً عن الفنون كما تُطبق اليوم في العالم، ولكنني لا أستطيع أن أتصور عيش حياة جدية وعقلية إلى جانب ذلك! هل عندك رغبة ومهارة كبيرتان لإنجاز الكثير من الرسوم عديمة النفع أو حتى لرسم وجوه بشرية لقاء مبلغ من المال؟".

أجبت: "أريد بادئ ذي بدء أن أصبح رساماً لمناظر طبيعية ورغبتي في ذلك كبيرة جداً وأرجو من الله أن يمنحني المهارة اللازمة لذلك!".

"رسّام مناظر طبيعية؟ هذا يعني أن ترسم مدناً عجيبة وجبالاً ومناطق من العالم؟ همّ! يبدو لي أن هذا ليس أمراً رديئاً، إذ يتعرف المرء على الأقل العالم ويجول أماكن بعيدة، يتعرف بلداناً وبحاراً وبشراً أيضاً، ولكن ذلك يحتاج إلى جرأة من نوع خاص وحظ شخصي كما يبدو لي، وفي المقام الأول ينبغي على فتى شاب مثلك أن يفكر في البقاء في بلاده ويكسب عيشه بصدق واستقامة وأن يفيد مواطنيه ويقدم لأبويه ما أمكنه من خدمات!".

"رسم المناظر الطبيعية، كما هو في ذهني، هو شيء آخر مختلف تماماً عما تتصور يا قريبي العزيز!".

"ماذا تعني؟"

"لا ينحصر الأمر في البحث عن أمكنـــة عجيبة وشهيرة ومن ثم رسمها، بل في التمعن في عظمة الطبيعة وجمالها في هدوئهما الخلاب ومحاولة إبداع صورة لها، أحياناً إطلالة كاملة كهذه البحيرة مع الغابات والجبال المحيطة بها وأحياناً شجرة وحيدة، بل حتى بركة صغيرة من الماء وبقعة صغيرة من السمـــاء!".

ما دام قريبي لم يردّ إثر ذلك بأي شيء على ما قلت، بل بدا أنه ينتظر متابعة حديثي، تابعت الحديث وانزلقت من جهتي إلى جو من الحماس المنتظم وطلاقة اللسان بشكل مرتب ومقنع. كانت البحيرة في تلك الأثناء تتموج بهدوء بين تلألؤ أشعة الشمس وظلال الغابة وترقد بأبهة أمام النوافذ الصافية. من سفح جبل بعيد ظهرت في مرمى النظر بضع شجرات هيفاوات من البلوط وقد سمقت في الهواء الأحدي إلى أعالي السماء لكي تومئ إلي، من بعيد، بهدوء، لكن بإلحاح؛ تطلعت إليهن، دون أن أحول نظري عنهن لحظة واحدة، على اعتبار أنهن ظاهرة أكثر ارتقاءً وسمواً، ووجدتني أقول:

"لماذا لا تكون مهنةً نبيلة وجميلة أن تجلس دائماً ووحدك أمام مخلوقات الله، التي لا تزال حتى يومنا هذا محافظة على طهارتها وجمالها التام، وتتعرفها وتبجلها وتتوسل إليه عبرها لكي يمكنك من رسمها وهي راقدة في سلمها وسلامها؟ إذا ما رسمتَ شجيرة بسيطة فإنك تحس بمهابة إزاء كل غصن لأنه نما وفقاً لقوانين الخالق، لا وفقاً لغيرها، لكن إذا ما أصبحتَ قادراً بحق وأمانة على رسم غابة بكاملها أو حقل واسع بسمائه، وإذا ما استطعت أخيراً أن تخرج مثل هذه المخلوقات من أعماق نفسك، دون الاستعانة بقدوة، غابات، ووديانا، وسلاسل جبال، أو زوايا صغيرة من الأرض فحسب، طليقة وجديدة، ولكنها ليست شيئاً آخر غير أنها نشأت في مكان ما ولا بد من أن تبدو للعيان، فيبدو لي أن هذا الفن متعة حقيقية ناجمة عن الخلق الإلهي. هنا في لوحاتك يمكنك أن تجعل الأشجار تنمو إلى السماء وتزحف فوق رؤوسها السحب الجميلة وينعكس الكل في مياه صافية! وتقول، ليسطعِ النور! ثم تنتثر أشعة الشمس كما يحلو لك فوق أعشاب وأحجار وتطفئها تحت أشجار ظليلة. وبمجرد أن تمد يدك تهب عاصفة فتخيف الأرض السمراء وتغيب الشمس بعد ذلك محولة لونها إلى أرجوان! وهذا كله دونما أي اضطرار للاتفاق مع إنسان رديء، إذ ليس ثمة نشاز في مجمل النغمة!".

هنا سأل المعلم الطيب وهو في حالة من الذهول التام: "هل يعقل أن يوجد نوع كهذا من الفن وهل يُعترف به؟"

فأجبته: "أجل، في المدن، في بيوت وجهاء القوم ونبلائهم تُعلَّق لوحات جميلة براقة مقدمة للمشاهدِ في معظم الحالات أماكن مقفرة خضراء تم رسمُها برقة وبراعة كما لو أنه يشاهدها حية في طبيعة الله الحرة، والناس المحبوسون المعتكفون في بيوتهم ينعشون أبصارهم بهذه الصور الطاهرة ويغدقون على صانعيها بأجور مجزية!".

عندئذ اقترب المعلم من النافذة ونظر إلى الخارج بشيء من الدهشة وقال:

"إذاً هذه البحيرة الصغيرة على سبيل المثال، عزلتي الخلابة هذه، ربما تكون مادة كافية للفن، على الرغم من أنه ما من أحد يعرف الاسم، نظراً إلى رحمة الله وقوته فحسب، المتجليتين هنا أيضاً؟ "

هنا أضفت قائلاً: "أجل، ذلك أمر أكيد! آمل أيضاً أن أرسم لك هذه البحيرة مع ضفتها القاتمة وهذه الشمس الأصيلية في لوحة تمكنك من التمتع بمعرفة هذه الفترة من بعد الظهر من خلالها بحيث لن يكون لك بد من القول إنه لا ضرورة هنا لإضافة أي شيء من أجل اكتساب أهمية أو شأن، طبعاً حين أصبح رساماً وأكون تعلمت ما هو صائب وسديد".

قال قريبي وقد بدا عليه تأثر شديد: "تعلمت الآن في سني المتقدم شيئاً جديداً مرة أخرى، إنه لأمر في منتهى الغرابة بكم أسلوب يستطيع العقل البشري أن يعبر عن ذاته. يبدو لي أنك الآن على درب جيدة وورعة، وما دمت تمكنت من إنجاز عمل كهذا فإنه قد يستحق بسهولة التقدير والاحترام، شأنه شأن أغنية دينية جيدة وتشيد بالربيع والغلال". ثم نادى الفتيان الملمين بمعرفة السمك وأصنافه الذين كانوا ما يزالون منهمكين في انشغالاتهم: "هيه، أيها الصبيان! أحضروا برميلاً واختاروا لنا وجبة معتبرة من السمك، أنكليس، فوريل أو سمك الكركي لكي نستطيع قليها وإعدادها طعاماً لنا".

في أثناء ذلك كانت الفتيات عدن إلى الحجرة وسمعن جزءاً من حديثنا، ولذلك فإن الرجل الثرثار لم يجد أي حرج في أن ينتقل إلى موضوع جديد ويلزم الجميع بسماعه. أما أنا فقد عدت من جديد إلى سكوتي وارتباكي بما أن آنّا الناعمة كانت عادت إلى هناك مرة أخرى دون أن تلفت الانتباه وكانت منهمكة في الهمس مع إحدى بنات عمتها. الآن أخذ العجوز يتحدث مع البنات عن المواسم والغلال، عن الآمال المعلقة على محصول العنب، وعن محاصيل الفاكهة، لكن كل ذلك بأسلوب رقيق ومعسول، وكان إلى جانب ذلك يشرح لي بعض الأمور حين يفترض أنني لا أعرفها. لم أقل شيئاً في ذلك الصدد، بل كنت سعيداً وهانئ البال بالقرب من تلك الفتاة اللطيفة من دون أن أنظر إليها وكنت أحس بارتياح إذا ما رفعت ذات مرة صوتها الناعم في أثناء الحديث.

رائحة طعام شهي عمت المكان كله وجذبت الصبيان إليها ثم دفعت المعلم، بموجب إشارة من الطباخة المسنّة، إلى أن يطلب من الجميع الانطلاق إلى الطابق الأعلى. هناك وُجدت صالة صغيرة ومضيئة وباردة ولم تكن تحتوي ضمن جدرانها المبيضة تماماً إلا على طاولة مستطيلة وكراسٍ وأرغن منزلي قديم. كانت الطاولة معدّة للطعام، فجلسنا إلى عشاء مؤنس ومبهج ومكون من الأسماك، التي كان اختارها أبناء الخال بقليل من التواضع. وكان من شأن معجنات فواكه ريفية ونبيذ خفيف فاتح اللون من محصول الكرم الذي على السفوح خلف البيت أن أغنت تلك المائدة البسيطة لكن الاحتفالية في نوعها، والشيخ أيضاً تبَّل المائدة بأحاديث ذات مغزى بينما نكَّت الصبيان وتبادلوا إعطاء الأحاجي والتلاعب بالكلمات الساذجة؛ ونبرة راقية أحدية كان من شأنها أن ذهَّبت كل ذلك، مختلفة كما لو أن المرء في بيته ومختلفة أيضاً كما لو أنه في أسرة فلاحية عادية. حين أنعشنا الطعام والشراب بما فيه الكفاية، ذهب المعلم إلى الأرغن وفتحه فظهر صف المزامير المتلألئ وتكشف المكان الذي داخل البابين الصغيرين عن الجنة المزدانة بصور أدم وحواء وزهور وحيوانات. ثم جلس أمامه، في حين أوعز إلينا أن نشكل حلقة دائرية حوله،

ووزعت آنّا علينا بعض الكتب الموسيقية. وبعد أن عزف والدها مقدمة موسيقية غنّينا على عزفه ومقدمة غنائه بضع أغان صيفية جميلة ثم أقمنا بعد ذلك جوقة مصطنعة. غنّينا في جو من المرح والسرور ومن الأعماق، لكن باعتدال ورزانة أيضاً، وكان من شأن الامتنان إزاء اللحظة الراهنة أن جاد بموسيقى أجمل وأفضل مما نجم من تدريباتنا على العزف في المدرسة؛ أما أنا فقد أطلقت العنان لسعادتي العميقة لكي تتدفق في الغناء بحرية ودون أي عوائق، إذ كان هذا اليوم عندي أجد وأجمل من كل الأيام السابقة. حين كنا ننتهي من غناء مقطع كان يرجع من جدار شجري في الغابة مروراً فوق البحيرة صدىً مفعم بالتناسق والانسجام، مازجاً أنغام الأرغن مع أصوات الناس ليشكل من الكل نغمة جديدة في منتهى الروعة، وكان يتهدج تماماً إذا ما رفعنا إيقاع الأغنية إلى الأعلى. في مقاطع مختلفة، صعوداً وهبوطاً، تيقظت وانطلقت أصوات بهيجة من الناس، الذين أطلقوا فرحتهم على شكل غناء وتهليل في الأجواء المتموجة بهدوء بحيث انتشرت جوقتنا، التي اختتمنا بها الاحتفال، على نحو ما في كل أرجاء الوادي.

ولكن حين اقتربت الشمس من الجبال كان علينا أن ننطلق عائدين إلى البيت؛ أذن لنا مضيفنا المعلم بالانصراف وهو في أوج الرضا والسرور وودعني بما ينم حتماً عن الطيب والترفق. وكان عليَّ أن أعده أن أعرج في أثناء جولاتي قدر المستطاع على واديه وأن أقيم في بيته عندئذ وأعده بمثابة خالي تماماً. وأبدت آنّا رغبة في مرافقتنا إلى رأس الجبل مما جعلنا ونحن في الطريق إلى هناك أكثر إثارة وأعلى صوتاً مما كنا عليه حين مجيئنا. كانت البنات، اللواتي وُضعن من لا شيء ومن ثم من مجرد المناسبة المتحررة من كل قيود، في أجواء مزاج من الصفاء والمجون، يغنين باستمرار بعيون براقة لامعة مما أغوانا للغناء معهن حين بدأن بترنيم أغان عالمية ووطنية. في غضون ذلك كانت مداعبات ومعاكسات أخوية تجري متبادلة تمس شغاف القلب، وكل الدردشة الحلوة في ذلك العمر الغني بالآمال انطلقت من العواطف

الصريحة وامتدت إلى كل التلميحات المريحة للسمع، إلى المقاومة المتصنعة والأجوبة الماكرة اللعوب. آنّا وحدها بدت في مأمن ضد الهجمات، في حين كانت من حين لآخر ترمي نكتة خجولة، ولم أكن أعلق على ذلك بشيء لأن قلبي كان مليئاً بأحداث اليوم. وصلنا إلى قمة الجبل، التي كانت تتلألأ في لمعان الشمس المائلة إلى الغروب؛ أمام ناظري حام خيال الفتاة الشابة، الخفيف الوزن كالريشة والمتسم بالسمو والرفعة، وإلى جانبها خُيل إليَّ أنني أرى الله مبتسماً، وبالتالي صديقَ رسامي المناظر الطبيعية وراعيهم كما كنت أكتشفه بهذه الصفة في هذا اليوم من خلال حديثي مع المعلم. كان من شأن حمرة الأصيل أن زادت من حمرة الخجل على وجه الفتاة المودِّعة، وذلك حين مدت يدها أخيراً لوداعي. وتلامست أناملنا بعض التلامس، وكنا لا نزال نخاطب بعضنا بصيغة التكلف المتأدبة المجاملة، ولكن أبناء خالي سخروا منا وبناته طالبننا بجد بالتخاطب بالصيغة الحميمية، ما دام أيُّ تخاطب آخر بين الشباب لا يُقبل في هذه المنطقة.

وهكذا تبادلنا أسماءنا الشخصية بطريقة تنضح باليأس والجفاف، ولكن اسمي انزلق كنغمة ناي في أذني، وحين اختفت آنّا بسرعة وخوف في ظلال جهتها هي من الجبل ونزلنا نحن إلى جهتنا، كنت اكتسبت شيئين اثنين: راعيَ فنٍ، كبيراً ومقتدراً، يقيم في خفايا عالم الغسق وصورة امرأة رقيقة ناعمة تجرأتُ فوراً على أن أنصبها تمثالاً في قلبي.

* * *



الفتى هاينريش

الجزء الثاني


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الأول

اختيار المهنة. الأم والمشيرون عليها

لم أعد أستطيع تحمل الوضع في غموضه وضبابيته، بل صرت أبحث بين حاجاتي عن ورق ناعم لكي أكتب رسالة إلى أمي، الرسالة الأولى في حياتي. وحين كتبت في أعلى زاوية من الورقة عبارة "أمي العزيزة!"، تراءت لي أمي بمنظار جديد؛ فأحسستُ تماماً بهذا التقدم والجدية في الحياة، وخذلتني في البداية ملكة تمكني من الكتابة ولأياً استطعت صياغة الجمل الأولى. ولكن أوصاف سفرتي ومعايشاتي الأخرى ما لبثت أن أسعفتني وأتت كتابتي بأسلوب يزخر بالتزيين والزخرفة والمباهاة. أظهرتُ في الرسالة ارتياحاً كبيراً وحرصاً عجيباً، تكرر فيما بعد مرات كثيرة، على أن أُحدث لدى أمي نوعاً من انطباع عن أوضاعي السعيدة وأفعالي ومغامراتي المختلفة ونوعاً من شبه نزعة إلى تسليتها بأسلوب مرح محققاً بذلك في نفس الوقت ذاتي أيضاً. بعد ذلك انتقلتُ إلى ذكر الغاية من رسالتي معلناً بكل صراحة ووضوح أنني أظن أنه لا بدّ من أن أصبح رسّاماً؛ ولذلك رجوت أمي أن تستطلع مؤقتاً وتتشاور حول هذا الأمر مع مختلف الناس الخبيرين به من معارفنا. واختتمتُ الرسالة بأخبار عن الأقارب وتحيات منهم وطلبات مهمة لأشياء صغيرة كنت بحاجة إليها؛ ثم طويتها بشكل ملتصق ومفتعَل وأغلقتها بخاتمي الشخصي، مَعْقد الأمل الذي كنت خبأته منذ فترة طويلة من الزمن في قطعة طرية من المرمر واستعملته الآن لأول مرة.

بعد تسلمها هذه الرسالة ارتدت أمي ثياباً رسمية، بسيطة وبلون واحد، وكورت منديل جيب في يدها ثم بدأت بالطبع جولة على الشخصيات المهمة، التي كان يتسنى لها الاتصال بها.

في البداية تحدثت أمي إلى معلم في النجارة من ذوي الجاه والنفوذ والاختلاط بأناس مرموقين وعلى جانب كبير من الإلمام بمعرفة الدنيا والعالم. وباعتباره كان في يوم من الأيام صديقاً للمرحوم أبي، فقد بقي على صداقة معنا كما تابع أيضاً بكل جد وفعالية أنشطة أصدقاء المرحوم في مجال التثقيف والتأهيل. وبعد أن سمع بإصغاء واهتمام قول أمي أجاب باختصار أن ذلك مشروع لا فائدة منه ومعناه هو أن تترك الصبي لمستقبل خائب وغامض. بالمقابل كان النجار يعرف نصيحة أفضل، اللهم إذا كان لا بد من اختيار مهنة من المجال الفني. كان أحد أبناء عمه قد تلقى تأهيلاً لمهنة حفر الخرائط وحصل على دخل جيد بحيث اصبح له بين ذويه مكانة مرموقة، لذلك عرض صاحب النصيحة على أمي، بدافع صداقة من نوع خاص، فكرة أن يضعني تحت رعاية ابن عمه هذا وإشرافه، إذ قد لا أقتصر، في حال ثبوت أنني أتمتع بحيوية ونشاط، على عملية حفر الخرائط بل قد أتخطى ذلك إلى تصميمها؛ اللهم إذا ما أحسنتُ استثمار وقتي في تحصيل المعلومات والمعارف الضرورية. بذلك أضمن، على حد رأيه، مهنة لطيفة ومشرفة وفي الوقت ذاته مفيدة وملائمة للحياة الشاملة.

بمزيد من القلق والشكوك لجأت أمي إلى الراعي الثاني، الذي كان هو أيضاً صديقاً لزوجها. كان ذلك الرجل صاحب مصنع للأقمشة الملونة والمطبوعة وقد عمل بالتدريج على توسيع مصنعه بالتدريج إلى أن نعم بوضع من الرخاء والرفاهية المتناميين باطّراد. صاحبنا هذا رد على قول أمي بشأن اختيار مهنة لي بما يلي: "هذا الحدث، المتمثل في أن ابن صديقنا الذي لا يُنسى – هاينريش الشاب – قد عبر عن رغبة في اختيار مسيرة فنية لحياته إضافة إلى نبأ أنه منشغل منذ فترة طويلة على أفضل وجه بأقلام

الرسم وألوانه، هو أمر يتجاوب بكل لطف ورقة مع التصور الذي أتمنى منذ بعض الوقت وضعه موضع التنفيذ لمصلحة الصبي، إذ يتطابق تماماً مع عقلية والده الفاضل ميلُ الابن إلى مهنة أكثر رقةً وتتطلب مواهب وهمة عالية؛ ولكن هذا الميل لا بد أن ينعم بتوجيه مستقيم وعقلاني. والآن تعرفين أيتها السيدة والصديقة المبجلة نوعَ عملي المهم هنا في هذا المصنع؛ فأنا أصنِّع أقمشة ملونة وإن كنت أتطلع إلى تحقيق كسب لا بأس به، فإن ذلك يتم في المقام الأول من خلال محاولتي في كل وقت وبكل اهتمام وسرعة إعدادَ أحدث التصاميم وأكثرها قابلية للإنجاز ومنافسةَ الذوق السائد ذاته من خلال ابتكار كل ما هو جديد وأصلي تماماً. لهذه الغاية لدينا رسامونا، الذين تنحصر مهمتهم في أن يبتكروا تصاميم جديدة ويخلطوا، كما يحلو لهم لدى جلوسهم في الحجرة المريحة، رسومات زهور، نجوم، غصون متسلقة، نقاط دائرية كبيرة وخطوط، بعضها مع بعض على غير هدى. عندي في مؤسستي ثلاثة رسامين من هذا النوع، أدفع لهم أجوراً لا يستهان بها وأعاملهم علاوة على ذلك بكل لطف ومداراة، ولكن هؤلاء، مع أنهم برعوا في فهم سير العمل ومتابعته، لم يأتوا إلى هذه المهنة إلا عن طريق المصادفة ومن دون أي إمكانات ذاتية سابقة ومن دون أي مواهب. في هذه الحالة هل ثمة أحب إلى نفسي من شاب يعلن بهذه القوة عن تحمسه للورق وللألوان وهو في هذا العمر الفتي وينهمك طول يومه، دون محفزات أخرى، في رسم أشجار وحدائق وزهور؟ سوف نؤمن له كميات كافية من الزهور لكي يرسمها على الأقمشة في شكل صفوف منتظمة، من غير نفاد، بصورة متجددة؛ عليه أن يفرز من الطبيعة الغنية أروع الأشكال وأرقها، التي من شأنها أن تقود غرمائي إلى اليأس! باختصار، ضمي ابنك إلى أسرة مصنعنا! فسوف أمكنه في أقرب الآجال من اللحاق بالآخرين، وحين يزيد عمره بضعة أعوام على ما هو عليه الآن سنرسله إلى باريس حيث يرتقي العمل هناك إلى مستويات أعلى ويعيش المصممون الأفضل في مختلف فروع القطاع الصناعي عيشة الأمراء وينعمون بحظوة

التجار وتدليلهم. وإذا ما علا شأنه هناك إلى الحد المطلوب وازداد خبرة فمعنى ذلك أنه حقق ذاته ويستطيع إذاً أن يحدد مصيره بنفسه. أما إذا أراد بعد ذلك أن يرتبط بي من جديد، فسوف تسرني هذه البادرة وتعود علي بفائدة كبيرة، وإذا وجد حظه في مكان آخر، كان ذلك مدعاة لسروري أيضاً. كوني على ثقة من أن ظني لا يخطئ في هذه المسألة".

إثر ذلك تجول مع أمي في أرجاء مصنعه وأطلعها على الروائع الملونة والأثاث الخشبي المحفور وفي المقام الأول على التجميعات الجريئة من إبداع رساميه. فحظي كل شيء باقتناعها وغمرها بالأمل من جديد. وبصرف النظر عما كفل تاجر ماهر من كسب مؤكد ووفير لابنها، فإن كل هذا الفن هو في خدمة السيدة، إذ بدا واضحاً ومريحاً أن ابناً في حضنها وبقربها سوف ينعم بالأمان والاستقرار. وربما أدى ذلك إلى إيقاظ نزعة من الغرور المسوّغ حين كانت تتخيل أنها ترتدي ثياباً مصنوعة من الأقمشة الأكثر تواضعاً، التي هي من ابتكاري. كانت أمي على هذا النحو منشغلة بهذا التصور المريح بحيث توقفت مؤقتاً عن تجوالها لكي تسترسل في انشغالها بهذه الفكرة.

ولكن في اليوم التالي ناداها من جديد أداء الواجب، الذي يقع في العادة على عاتق الأب، وقادها إلى الانطلاق مجدداً إلى مساعيها بمزيد من الهموم والشكوك. فذهبت إلى صديق ثالث لأبي وكان حذّاء عرف عنه أنه عميق الفهم وسياسي محنك. وكان انضم منذ وفاة أبي بفعل أحداث تلك الفترة إلى تيار ديمقراطي أكثر تشدداً. وبعد أن سمع الآن وهو معكر المزاج تقرير أمي وأقوالها عن نجاح مساعيها يوم أمس، هبَّ يقول:

"رسام، صانع خرائط، رسام زهور صغيرة، حبيس بيت، خادم! نصير لأرستقراطي المال، معين على العيش الكمالي والترف، وباعتبار امرئٍ ما صانع خرائط فقد يكون أيضاً مشجعاً مباشراً لقضايا الحرب الوحشية! حرفة، عمل يدوي شريف وصعب، نحن بحاجة إلى كل ذلك، أيتها السيدة الطيبة! لو كان زوجك على قيد الحياة، لفضل بكل تأكيد أن يختار لابنه مهنة لحياته

قائمة على أساس العمل اليدوي الخشن، تلك حقيقة تماماً كحقيقة اثنين ضرب اثنين يساوي أربعة! وإضافة إلى ذلك، ابنكِ ضعيف البنية ومدلل بفعل رعايتكِ النسائية له؛ دعيه يصبح بنّاءً أو حجّاراً، أو بالأصح، أعطنيه فسوف يكتسب إذاً التواضع المناسب ومن ثم الاعتزاز الصحيح لرجل من أوساط الشعب وإلى أن يصبح قادراً على صنع حذاء بمهارة تامة يكون قد تعلم ما معنى أن يكون المرء مواطناً إذا ما خلف، على وجه آخر، أباه الذي نفتقده كثيراً، نحن الحرفيين الآخرين! فكري يا سيدة "لي"! فتعلم المهنة من أساسها من شأنه أن يصنع الرجال! آمل ألاَّ يكون زوج الأحذية، الذي أرسلته إليك مؤخراً، ضيقاً على قدميكِ؟".

لكن السيدة "لي" لم تغادر المكان مسرورة إلى حد كبير، بل أخذت تدمدم هكذا على غير هدى: "دقّ مساميرك الخشبية، لن تصل عندي إلى غايتك، أيها السيد الحذّاء، أيها الرجل الفظ! ابقَ لدى قالبك وانتظر إلى أن يأتي ابني إليك لكي يُؤانسك! الخيط المغمس بالقار ليس نصيحة! لو أنك تخاف الله، لما هربتَ من الدباغ! من يلمس القار، يتلوث!". بهذه الألفاظ الساخرة، التي ما فتئت ترددها فيما بعد كلما أتت على ذكر تلك المقابلة، شدت أمي الجرس الموجود على باب بيت عالٍ وجميل كان سبق لأبي أن بناه في يوم من الأيام لسيد وجيه. كان هذا السيد رجلاً خلوقاً وجدياً، موظفاً في أعمال الدولة، قليل الكلام؛ وكان يُظهر شيئاً من الميول إلينا والاهتمام بنا وقد سبق ان دعمنا مرات عديدة بنصائح سديدة. ولكن حين علم من أمي بما يتعلق الأمر، رد عليها بكل تهذيب بكلمات رافضة:

"يؤسفني أنني في هذه المسألة تحديداً لا أستطيع تقديم أي خدمة! فأنا لا أفهم شيئاً يُذكر في الفن! إلا أن ما أعرفه هو أنه لا بد، حتى لأفضل المواهب، من سني دراسة طويلة وتوفر إمكانات مادية مهمة. لا شك أن لدينا عبقريات كبيرة استطاعت في نهاية المطاف اجتياز متاعب كبيرة وحققت أهدافها؛ ولكن لكي نقوِّم إن كان ابنك محط ولو أقل الآمال المتعلقة بهذا الشأن، لا يوجد في

مدينتنا هذه أي شخص جدير بهذا التقويم! إن من يقيمون بين ظهرانينا من الفنانين وأمثالهم بعيدون كل البعد عما أتصور أنه فن حقيقي، ولذلك لن أنصح أبداً بالتوجه إلى هدف في غير محله كهذا الهدف". ثم أمعن في التفكير هنيهة وتابع يقول: "حبذا لو تعدين أنت وابنك الأمر كله لا يزيد على كونه أحلاماً صبيانية؛ ولكن إذا كان في نية ابنك أن يعمل في أحد مكاتبنا، فسوف أمد له يد العون وأورد هذا الأمر في الحسبان. فقد تناهي إلى سمعي أنه ذو مواهب في المقام الأول في مجال الأعمال الكتابية. وإذا ما أصاب في ذلك نجاحاً، فقد يتمكن مع مرور الزمن من الارتقاء إلى مرتبة رجل إداري من الطراز الرفيع كغيره من الرجال الذين أبلوا بلاءً حسناً، وكانوا بدؤوا من الصفر وعملوا في مكاتبنا بصفتهم كتاباً صغاراً مساكين. لم أُبدِ الملاحظة الأخيرة لكي أمنيكِ بالآمال، بل لأبين لك فحسب أن الصبي في هذا المجال أيضاً ليس خاضعاً بالضرورة لمصير غامض وحظ عاثر".

هذا القول، في حين كوَّن لدي أمي أملاً جديداً تماماً، أعادها إلى الحيرة المطبقة والتردد في ما إذا كان ينبغي عليها أن تحثني بكل جد على تغيير ما عقدت العزم عليه. ذلك لأن الأمر هنا تعلق، أكثر مما كان عليه لدى صاحب المصنع، بضمانة أنه رجل مرموق وواثق من كلامه وعلى علم بمعظم ظروفنا وأوضاعنا، إذ كان سبر غورها وأسهم معنا في تذليلها وكان بمقدوره تأمين المقومات اللازمة لوجود أولئك الذين يؤتمنون على نصيحته.

هنا اختتمت أمي مساعيها المتعبة ووصفت لي في رسالة كبيرة كل نجاحات تلك المساعي، مركزة بشكل خاص على اقتراحي صاحب المصنع ورجل الدولة، وحذرتني من ارجاء اتخاذ قرار محدد بهذا الشأن، بدلاً من أن أفكر بأنسب طريقة للبقاء في البلاد وأكسب عيشي على أساس مستقيم وأكون عزاء وسنداً لها في شيخوختها إضافة إلى تمكني من تلبية احتياجات ما جُبلتُ عليه من مواهب وإمكانات فنية؛ فمن المؤكد أنها لن تسهم في يوم من الأيام في إجباري على اختيـــار مهنة متعارضة مع تطلعاتي وإمكاناتي، لأنها في

هذه المسألة عينها تعرف حق المعرفة مبادئ أبي وترى أن مهمتها الوحيدة تتمثل في أن تتصرف كما يمكن أن يتصرف هو، لو أنه ظل إلى الآن على قيد الحياة.

كانت تلك الرسالة معنونة بعبارة "ولدي العزيز!" وكلمة ولدي، التي سمعتها من أمي آنذاك لأول مرة في حياتي، أثرت في نفسي تأثيراً بالغاً وجاملتني إلى أقصى درجات المجاملة بحيث غدوت متلهفاً لتلقي بقية مضمون الرسالة وفي حيرة وشك من أمري. شعرت بالوحدة التامة وألاّ حول لي، أنا وأشجاري الخضراء، إزاء حياة العالم الجدية وإزاء موجهيها. ولكن في أثناء بدئي بالتعود على تصورات أنني سأفارق الغابة الحبيبة، رأيتني ازداد ولعاً بالطبيعة وأتجول طول اليوم في ربوع الجبال؛ وكان من شأن الفراق المحدق أن مكنني من الإمساك بناصية المشاركة الوجدانية الناشئة لتوها بشكل أكثر ثباتاً مما كان عليه الحال فيما عدا ذلك. سبق أن رسمتُ لوحات كثيرة من أعمال النبيل فيليكس واكتسبت من جراء ذلك بعضاً من أساليب التعبير بحيث غدت رسوماتي، على الأقل بكل عناية، أبيض وأسود بفعل القلم والحبر الصيني.

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثاني

يوديت وآنّـا

كثيراً ما كنت أقف صباحاً أو مساء على الهضبة المطلة على البحيرة العميقة، حيث كان يقيم معلم المدرسة مع ابنته الصغيرة، أو كنت أمكث أيضاً طول يوم كامل في بقعة من السفح، تحت شجرة زان أو شجرة بلوط، وأرى البيت قابعاً بالتناوب في أشعة الشمس أو في الظل؛ ولكن كلما طال تريثي، قلَّت مقاومتي لرغبة النزول إلى هناك، لأنني ما فتئت أفكر في تلك الفتاة وأظن لهذا السبب أن الناس لا بد أن يلاحظوا على الفور أنني جئت بسببها. كانت أفكاري احتلت فجأة إطلالة آنَّا الجميلة بصورة تامة إلى درجة فقدتُ معها في اللحظة ذاتها كل جرأة حيالها وافترضتُ على الفور، إضافة إلى تصنع فضولي، حدوث الشيء ذاته من جهتها. ولكن في حين كنت أشتاق إلى اللقاء، لم يكن الوقت الفاصل كما لم يكن ترددي أيضاً مؤلماً وغير محتمل، لا بل طاب لي ذلك الوضع المفعم بالتفكير والتوقعات وانتظرت لقاء ثانياً بارتباك واضطراب. كلما كانت بنات خالي يتحدثن عنها، كنت أتظاهر بأنني لم أسمع قولهن في حين لم أكن لأبرح المكان طول استمرار حديثهن وإذا ما سألنني أليست هي الطفلة الأحب من بين كل ما يُحبّ، كنت أجيب بردٍ جاف: "أجل، بالتأكيد!".

في أثناء تجوالي كنت أمر في كثير من الأحيان ببيت الجميلة يوديت، وبما أنها كانت امرأة جميلة كنت أشعر ببعض الارتباك وأتردد في الدخول

إليه حين كانت تدعوني إلى ذلك بنبرة آمرة وتصر على مكوثي عندها فترة من الزمن. كانت أمها ،عملاً بأسلوب النساء المسنات المضحيات واللواتي لا يعرفن الكلل وطبقاً للعادات التي لا غنى عنها ، تبقى باستمرار في الحقل الدافئ؛ في حين اختارت ابنتها العمل الأسهل ناشدة الراحة في البيت البارد وفي الحديقة. ولذلك ظلت هذه بانتظام، إذا ما كان الطقس جيداً، في البيت وحدها وكان يسرها أيما سرور مجيءُ من ترتاح إليه وتجاذُب أطراف الحديث معه. وحين اكتشفت مهاراتي الفنية في مجال الرسم كلفتني في الحال أن أرسم لها طاقة من الزهور اعتادت أن تضعها بين صفحات كتابها المحتوي على التراتيل والأناشيد الدينية. كان في حوزتها كتيب صغير يحتوي على تدوينات بعض الضيوف والأصدقاء للذكرى وكانت حصلت عليه من المدينة؛ كان في ذلك الكتيب ثلاثة نقوش وعدد لا يستهان به من الأوراق مذهبة الأطراف والخالية من أي كتابة أو رسم؛ كانت تعطيني في كل زيارة بعضاً من هذه الأوراق فأرسم عليها زهرة أو إكليلاً صغيراً (كنت تركت عندها ألواناً وريشة فاحتفظت بها وحافظت عليها بكل عناية واهتمام)؛ بعد ذلك كان يُكتب تحت الرسم بيت من الشعر أو قول مضحك بحيث امتلأ كتاب التراتيل الخاص بها بصور صغيرة كهذه كنت أنجز رسمها في بضع دقائق. أبيات الشعر كانت تؤخذ من مجموعة شعرية كبيرة من قطع الورق المطبوعة، التي كانت احتفظت بها بصفتها بقايا من الحلويات المأكولة. بفضل ذلك الاختلاط غدوت أشعر عندها بالأنس ودفء الحضور بين الأهل، وفي حين كنت أفكر باستمرار في آنّا الشابة كنت أحب المكوث عند يوديت الجميلة لأنني في تلك الفترة اللاواعية صرتُ أستبدل امرأة بأخرى دونما أي ظن البتة بارتكاب خيانة إذا ما نظرتُ إلى الشخصية النسائية التامة والمنطلقة القوى على أفضل وجه فيصبح ارتياحي في أثناء ذلك لدى توجه تفكيري إلى البرعم الناعم الغائب أكبر مما لو توجه إلى أي مكان آخر، لا بل أكبر مما لو كان ذلك البرعم ذاته حاضراً. كنت ألتقيها أحياناً في الصباح حين تسرح

شعرها الحافل المترف والمسترسل حتى أردافها. مع هذا السيل العارم المتموج من الحرير كنت أبدأ لعبي، وسرعان ما اعتادت يوديت وهي تضع يديها في حجرها أن تضع رأسها الجميلة تحت تصرف يديَّ وتتقبل مبتسمة مداعباتي التي انتقل إليها اللعب تدريجياً. السعادة الهادئة، التي كنت أشعر بها في غضون ذلك دون أن أسأل كيف نشأت وإلى أين قد تقود، غدت عندي عادة وحاجة ماسة إلى حد أنني كنت أهرع يومياً إلى بيتها لكي أقضي هناك نصف ساعة من الوقت وأشرب قدحاً من الحليب وأفك للمرأة المبتسمة شعرها حتى ولو سبق أن جدلته من قبل. لكنني كنت أفعل ذلك فقط في حال وجودها وحدها في البيت حيث لا يرد في الحسبان أي إزعاج وحيث كانت تحدوها الرغبة؛ ذلك التفاهم الصامت على السرية أضفى على اختلاطنا بأسره جاذبية حلوة.

على هذا النحو عرجتُ عليها وأنا قادم من الجبل فوجدتها جالسة وراء البيت بجانب النافورة وكانت لتوها قد انتهت من غسل سلة مليئة بالخس الأخضر؛ أمسكت بيديها تحت تيار الماء المتدفق وغسلتهما وفركتهما كما لو كانت طفلة، صببت قطرات من الماء البارد في نقرتها ورششت أخيراً قطرات في وجهها عبر مزاج تعيس إلى أن أمسكت برأسي وضغطته في حجرها وأرهقته بخشونة ودكته مرات متعددة إلى أن بدأت أذناي بالطنين. ومع أنني كنت إلى حد ما راغباً في هذه العقوبة، إلا أنها آذتني شر أذى؛ خلَّصتُ نفسي منها بقوة وأمسكتُ بدوري برأس خصمي متعطشاً إلى الانتقام. ولكنها وهي ما زالت جالسة أبدت مقاومة عنيفة إلى أن صرنا في نهاية الأمر تحت وطأة تنفس حاد وهيجان شديد فأوقفنا العراك، ولكنني بقيت وذراعاي ملتفان حول عنقها الأبيض معلقاً بها علني أستجم من عناء المعركة؛ كان صدرها يعلو وينخفض في حين كانت هي تنظر إلى الأمام على غير هدى ويداها ملقاتان منهكتان على ركبتيها. وتبعت عيناي عينيها إلى ما وراء شفق المساء، الذي أحاطت بنا سكينته من كل جانب؛ يوديت جلست غارقة في تفكير عميق وأقفلت، مروضة بذلك ثوران دمها المطارَد، في حنايا صدرها

على رغبات وخلجات باطنية في وجه صباي؛ بينما استسلمت أنا، بغير وعي للهوة الملتهبة التي كنت أرقد فيها، ببال مرتاح للغبطة الغامرة ورأيت صورة آنّا الناعمة الرقيقة تظهر في وهج السماء الوردي الشفاف. لأنني لم أفكر في تلك اللحظة إلا بها؛ تخيلت حياة الحب وتأثيره وأحسست بحاجة ملحة إلى أن أرى على الفور تلك الفتاة الطيبة. وفجأة أفلتُّ من يوديت وأسرعتُ إلى البيت حيث تهادت باتجاهي نغمة رنانة من كمنجة قرية. جميع الشباب تجمعوا آنذاك في الصالة الواسعة لكي يقضوا الأمسية المنعشة من وقت فراغهم في تعليم بعضهم بعضاً فنون الرقص والتدرب عليه على أنغام عازف الكمان الذي كان استدعي إلى هناك. لأن أفراد عصبة الأقارب الأكبر سناً ارتأوا أن يستعد الناشئون إلى إحياء احتفالات الخريف المقترب حلوله فيهيئوا بذلك لأنفسهم هم أيضاً أسباب المتعة في الرقص ولو إلى حين. حين دخلتُ إلى الصالة طُلب مني على الفور أن أشارك الموجودين بما هم فيه، وما إن لبيت الطلب واندسست بين الصفوف الضاحكة حتى رأيت فجأة آنّا المحمرة الوجه التي كانت اختبأت في وسط الجموع المحتشدة. شعرت بالارتياح وطرتُ في أعماقي من الفرح؛ ولكن على الرغم من انقضاء أسابيع على رؤيتي لها لأول مرة، أخفيتُ ارتياحي وابتعدت عنها بعد أن حييتها على استعجال، وحين طلبت مني بناتُ خالي أن أشاركها في رقصة كانت بدأت بها في الحال حاولت التهرب بدون أي مجاملة وتحت ألف عذر. لم يُجد ذلك نفعاً؛ وأخيراً أذعنا للأمر على مضض ورقصنا معاً، دون أن ينظر أحد منا إلى الآخر أو يكاد يلمسه، عبر الصالة بتردد واستحياء. وبصرف النظر عن أنه بدا لي كما لو أنني أخذت بيد ملاك فتي وسرت به متجولاً في الجنة، إلا أننا سرعان ما افترق بعضنا عن بعض بعد الدورة الأولى كالنار والماء واتسعت بيننا المسافة الفاصلة إلى أن صرنا في ذات اللحظة في أقصى النهايتين المتقابلتين في الصالة. أنا، الذي كنت قبل ذلك بفترة وجيزة أضغط بين يديَّ بعبث ودونما أي ارتباك خدّي يوديت الجميلة ذات القامة المديدة، رأيتُني الآن

أرتجف من احتواء جسد الطفلة، النحيل والخيالي، بذراعيَّ وإبعاده عني كحديد متوهج. ومرة أخرى اختبأت هي بدورها خلف البنات المرحات مبتعدة عن صفوف الناس أكثر مما ابتعدت أنا؛ بالمقابل عقدتُ العزم على أن أوجه كلماتي إلى الجميع وأقف في مكان يتيح أيضاً لفتاتي آنّا أن تسمعها متوهماً أنها كانت تقصد بالكلمات القليلة التي تلفظت بها الشيء ذاته.

بما أن آنّا كانت تتبادل بصورة نشيطة طيور الحمام مع بنات خالي، فقد أتت في تلك الأمسية حاملة سلة صغيرة من الفراخ، الأمر الذي كان شكل سبباً رئيسياً لدعوة عازف الكمان المارِّ أمام البيت. والآن اتُفق على أن تتكرر التدريبات على الرقص مرات متعددة. أما في تلك اللحظة فكان ضرورياً، ما دام الظلام عمّ، أن يقوم أحد بمرافقة أنَّا إلى البيت فاختاروني أنا لهذه المهمة؛ صحيح أن هذا النبأ رنَّ في أذني كالموسيقى، ولكنني لم أظهر رغبة ملحَّة، فقد استيقظ في نفسي إباء حال دون التودد إلى تلك الفتاة الصغيرة وكلما كان حبها يزداد في داخلي كان يزداد مظهري تجهماً وارتباكاً. غير أن الفتاة ظلت باستمرار على الوضع ذاته، هادئة ومتواضعة ورقيقة ثم ربطت بكل رزانة قبعتها، المصنوعة من القش وعليها وردة، حول ذقنها؛ ونظراً إلى برودة الليل فقد زودتها العمة بشال أبيض فخم من الزي القديم وموشى بالورود وزهيرات النجمة ولفته حول فستانها الأزرق نصف الريفي بحيث بدت بشعرها الذهبي ووجهها الصغير الناعم كسيدة إنكليزية شابة من سيدات تسعينيات القرن. وعلى هذا النحو أظهرت الآن بكل هدوء أنها تهم بالانطلاق بانتظار أن يرافقها أحد دون أن يحول الانتظار بالطبع دون توكيدها إظهار تصميمها. وبتنشيط وتغطية من عبث بنات خالي ابتسمت آنّا ساخرة من قلة مهارتي وتلكؤ تصوفي دون أن تنظر باتجاهي، الأمر الذي زاد من ارتباكي لأنني وقفت هكذا وحيداً في مواجهة الفتيات المتكاتفات المتماسكات وحدتني الرغبة إلى البقاء في الصالة. ولكن أكبرهن سناً أشفقت علي ودعتني مرة أخرى بصورة حاسمة للتصرف بحيث يتفق مع كرامتي على الأقل أن أنضم إلى

الموكب الذي بدأ لتوه بالتحرك من أمام البيت. مشينا معاً حتى نهاية القرية حيث بدأ الجبل الذي كان ينبغي على آنَّا أن تجتازه. هناك تم الوداع، أما أنا فقد وقفت في الخلف ورأيت كيف طوت منديلها في يدها ثم قالت: "والآن، من الذي سيأتي معي فعلاً؟" في حين أنَّبتني الفتيات وقلن لها: "إذا كان السيد الرسام يفتقر إلى التهذيب واللباقة فلا بد أن يرافقكِ شخص آخر!". هنا قال واحد من إخوتهن: "إذا كان لا بد من مرافقتها فأنا أتبرع بذلك، مع أن الرسام محق تماماً في ألاّ يقوم بدور أجير للبنات طبقاً لرغبتكن في تكريس هذه العادة!". غير أنني تقدمت إلى الأمام وقلت بفظاظة: "لم أزعم أنني لا أريد مرافقة آنَّا، وإذا لم يكن ثمة ما يمنع فأنا على استعداد لذلك". فردت: "ليس ثمة ما يمنع". إثر ذلك تأهبت للسير إلى جانبها. ولكن الجميع قالوا بصوت عال إن عليّ أن أمشي إلى جانبها ذراعاً بذراع على أساس أننا من أبناء المدن الناعمين؛ صدقتُ ذلك ووضعت ذراعي في ذراعها، ولكنها سحبته بسرعة وأمسكت بي من تحت الذراع، برقة لكن بحزم، وهي تنظر إلى الوراء مبتسمة باتجاه الجمع المستهزئ، لاحظتُ غلطتي واعتراني الخجل إلى حد أنني دون أن أنبس ببنت شفة اقتحمت الجبل وكادت البنت المسكينة ألاّ تقدر على اللحاق بي، ولكنها تحاشت أن تظهر أمام الناس عاجزة عن ذلك فأسرعت بكل شجاعة في مشيها، وما إن كنا وحيدين حتى بدأت بطلاقة وثقة تتحدث عن الدروب التي لا بد أن تريها لي في أثناء سيرنا، عن الحقول، لمن قطعة الأرض هذه ولمن تلك وكيف كانت هذه البقعة هنا وتلك البقعة هناك قبل سنين قليلة. لم يكن عندي سوى رد قليل على حديثها، في حين كنت أصغي إليه باهتمام وأبتلع كل كلمة منه كقطرة نبيذ بنكهة جوز الطيب؛ كانت سرعتي خفت حين وصلنا إلى علو الجبل ومشينا بارتياح إلى سطحه. كانت السماء المتلألئة بالنجوم معلقة على انتشار واسع فوق المنطقة ومع ذلك كانت قمة الجبل معتمة، وكان من شأن العتمة أن زادت من اقترابنا بعضنا من بعض لأننا كنا نظن أيضاً، ويكاد أحدنا يرى وجه الآخر، أن التلاصق يمكننا

من سماع أحاديثنا بصورة أفضل. كان خرير المياه صوتاً مألوفاً في الوادي البعيد، وكنا نرى هنا وهناك توهج ضوء خافت على الأرض القاتمة، التي انفصلت بكثافة بفعل ظلالها السوداء عن السماء المحيطة بها في الأطراف، بحزام باهت من الغسق. أخذت ذلك كله بالحسبان وأصغيت إلى كلمات مرافِقتي وأمعنتُ النظر في الوقت ذاته بيني وبين نفسي في سروري وكبريائي جراء سيري بحبيبة ماسكاً بذراعها، هكذا كنت أراها وإلى الأبد. والآن تحدثنا بكل غبطة وسرور وبصورة مرتبة ومنسقة عن ألف موضوع، عن لا شيء البتة ثم عدنا مرة أخرى بكلمات مهمة إلى الحديث عن أقاربنا المشتركين وعن أوضاعهم كما لو أننا أناس طاعنون في السن وأذكياء. وكنا كلما ازددنا اقتراباً من بيتها، المتوهج ضوؤه في المنحدر كمنارة، ازدادت هي أماناً وعلا صوتها؛ كان صوتها يرن بنعومة وبلا انقطاع كجرس صغير يعلن صلاة الغروب؛ وضعت أفضل خواطر إبداعي في مقابل خواطرها الظريفة ومع ذلك لم نتخاطب مباشرة قط طول تلك الأمسية، وصيغة التخاطب الحميمي لم تتكرر بيننا إطلاقاً منذ تلك المرة الوحيدة، التي حدثت في وقت مضى. حافظنا عليها، على الأقل أنا، في القلب كقرش ذهبي احتياطي لا حاجة إلى صرفه إلا عند الضرورة القصوى؛ أو كانت تحوم كنجمة بعيدة أمام ناظرينا في منتصف محايد، وبهذه النجمة كانت تهتدي أقوالنا وعلاقاتنا وتلتقي هناك كخطين في نقطة وتلامس بعضها من قبل ذلك برقة ولطف. ولكن بعد أن صرنا في بيتها وسلمنا على أبيها، الذي كان ينتظر قدومها بفارغ الصبر، صارت تذكر اسمي عرضياً لكن بلا أي تحفظ أو حرج وكلما دعت الضرورة، وذلك في معرض روايتها لأحداث تلك الأمسية؛ ثم صارت، تحت حماية بيت الأسرة حيث أحست هنا بالارتياح والشعور الدافئ كحمامة في عشها، تتناول بعفوية ودون تمحيص صيغة التخاطب الحميمي وتقذفها باستهتار واضح بحيث كان يكفي أن أتلقاها ثم أعيدها بنفس الطريقة وسلامة النية. في أثناء ذلك لامني أبوها على طول غيابي عنه ولكي يضمن لرغبته

أن تتحقق، طلب مني وعداً بأن أزوره مباشرة في صباح اليوم التالي وأقضي اليوم بطوله في رحاب بحيرته. آنَّا سلمتني الشال الذي كان علي أن أعيد ارتداءه؛ ثم أضاءت لي الدرب أمام البيت وقالت وداعاً بتلك النغمة المريحة والمختلفة عما قبل، وذلك إثر إقامة صداقة صامتة وغير معلنة. لم أكد أخرج من محيط البيت حتى لففت ذلك الشال اللين الملمس والمكسو برسوم الزهور حول الرأس والكتفين ورقصت فيه ليلاً على سفح الجبل، كمن أصيب بمس. وحين وصلتُ إلى قمته، تحت النجوم ، دقت الساعة منتصف الليل؛ في تلك اللحظات أصبح الهدوء، في الأمكنة القريبة والبعيدة على حد سواء، من العمق بمكان بحيث بدا كأنه يتحول إلى ضوضاء شجية مخيفة، ولم يسمع خرير مياه النهر وجريانه في الوادي إلا إذا تبددت هذه الخدعة وتجمع الإصغاء من كل حدب وصوب. حين وقفت هنيهة كالمأسور، بدت رعدة في محيط مجال البصر وهي تقترب من الجبل مرتجفة ومشكلة دوائر تزداد باستمرار ضيقاً إلى أن تصل إلى قلبي. حررت نفسي بكل إصغاء وانتباه من الغطاء المقيت الملتف حولي وطويته ثم بدأت وأنا غارق في أحلامي أنزل في سفح الجبل إلى أن وجدت طريقي إلى البيت دون أن يلفت ذلك انتباهي.

* * *

الفصل الثالث

مغامرة غرامية عند كومة الفاصولياء

في صباح اليوم التالي عدت على الطريق ذاتها، التي تتلألئ وتلمع بفعل الندى والشمس، محملاً بأدواتي ورأيت على الفور البحيرة وهي تبرز مترقرقة لامعة في أريج الصباح. وألقى اليوم الجديد على البيت وعلى الحديقة وشاحاً بلون الذهب فانعكست صورتهما المماثلة، كريستالية اللون، في مياه البحيرة؛ وبين أحواض الزرع تحرك شبح أزرق بعيد وصغير وشبيه بلعبة من لعب نُيرنبيرغ؛ اختفت الصورة من جديد خلف الأشجار لكي تظهر مرة أخرى في الحال أكبر وأقرب فتضمني إلى إطارها. أسرة المعلم كانت تنتظرني على الفطور؛ وكنت غدوت آنذاك راغباً في تناول الطعام نظراً إلى المسافة الطويلة التي قطعتها سيراً على الأقدام ولذلك رأيتُني يغمرني السرور بجلوسي خلف المائدة، في حين عملت آنّا بطريقة هي غاية في الرقة واللطف على القيام بدور أم البيت الصغيرة ثم جلست أخيراً إلى جانبي وأخذت تتناول ما قل من الطعام كجنّية وكما لو أن بإمكانها الاستغناء عن احتياجات دنيوية أرضية. بعد ذلك بأقل من ساعة رأيتها وهي تمسك بقطعة خبز ضخمة وتحضر لي قطعة أخرى ثم تبدأ هكذا على سجيتها وبنشاط ملحوظ بقضم خبزتها بأسنانها الصغيرة البيضاء، وطريقتها المحببة تلك في تناول الطعام أثناء المشي والدردشة كانت لائقة تماماً كلياقة تصرفاتها المتواضعة حين كانت على المائدة.

بعد الفطور صعد الأب مع الخادمة المسنة إلى كرم عنبه، لكي يزيلا أوراق الشجيرات الحاجبة أشعة الشمس عن العناقيد، التي هي في طريقها إلى النضج. كان الاهتمام بكرم العنب ومتابعة العمل فيه، إضافة إلى تقطيع الخشب إلى قطع صغيرة، هما عمله الرئيس في عيشه الهادئ. أما أنا فقد بحثت آنذاك عن موضوع للبدء بعملي. وكان على آنّا أن تزيل الأذيال الصغيرة لمحتوى طشت كبير مليء بالفاصولياء وتعلقه بخيط طويل على شكل صفوف متناسقة لكي تعده للتجفيف. ولكي أتمكن من البقاء بالقرب منها، تذرعت بأنه لا بد لي بغية الخروج عن المألوف من رسم زهور وفقاً للطبيعة ورجوت آنّا بأن تقطف لي طاقة منها. ثم رافقتها إلى الحديقة للمشاركة في إعداد الطاقة، وما إن انقضى نصف ساعة من الزمن حتى جمعنا كمية جميلة من الزهور ووضعناها في كأس تراثية قديمة الطراز تنم عن أبهة وبهاء، ثم وضعنا الكأس على طاولة كانت في فناء بيت الحديقة المغطى بعرائش برية وراء المنزل؛ آنّا أفرغت فاصولياءها حول الطاولة وجلسنا معاً وجهاً لوجه حتى الظهيرة منهمكين بعملينا ونحن نتبادل الأحاديث عن مجرى حياتنا. كنت في تلك اللحظات مغموراً بدفء العيش في كنف الأهل وحنوّه وبدأتُ على الفور، وأنا في حال من الشعور بتفوق أخ على أخته، أُبهر تلك الفتاة الطيبة بإصداري أحكاماً مهمة وإبدائي ملاحظات منثورة هنا وهناك؛ في حين صرتُ أرسم زهوري بألوان جريئة ومتنوعة وآنّا تشاهدني باندهاش وسرور وهي منحنية على الطاولة، في إحدى يديها حزمة من الفاصولياء الخضراء وفي الأخرى سكين الجيب الصغيرة. وضعت طاقة الزهور بحجمها الطبيعي على ورقة بنية أن أترك ورائي في بيت أولئك الأقارب تحفة حقيقية. في غضون ذلك عادت الخادمة من كرم العنب وطلبت من زميلتي من عهد الطفولة واللعب أن تساعدها في إعداد الطعام. كان الانفصال القصير بعضنا عن بعض، ثم اللقاء من جديد على المائدة، فترة الراحة بعد المائدة، رضا المعلم عن عملي الذي يتقدم إلى الأمام وتتبيل ذلك الرضا بأقوال حكيمة

وأخيراً الأمل في تكرار لقاء جديد ومستمر حتى المساء في بهو بيت الحديقة، كان من شأن كل ذلك أن أدى إلى كثير من التحركات والأحداث العرضية المريحة. وبدا أيضاً أن آنَّا تشاطرني التفكير والإحساس، إذ أفرغت على الطاولة من جديد كمية كبيرة من الفاصولياء قد يستغرق إعدادها للتجفيف حتى المساء. ولكن مدبرة المنزل ظهرت فجأة وأعلنت أن على آنَّا أن تذهب إلى كرم العنب لكي يُنجز العمل فيه في ذلك اليوم فلا تحتاج في اليوم التالي إلى الذهاب إلى هناك بسبب ما بقي من عمل قليل. أزعجني هذا الإعلان وكان حنقي شديداً على المرأة العجوز؛ بالمقابل همَّت آنَّا بالذهاب على الفور طوعاً ولطفاً ولم تُظهر سروراً ولا تبرماً من التغيير الذي طرأ على برنامجها. أما العجوز فقد ارتأت، حين رأت أنني سأبقى وحدي، أن أرافقها إلى الكرم فالبقعة هناك في غاية الجمال ومن غير المعقول أن أريد البقاء هنا وحيداً. كنت في تلك اللحظات مستاء جداً ومعكر المزاج فتذرعت بأن عليَّ أن أنجز لوحتي. وفي الحال جلست في عزلة تامة في ذلك المكان المقفر وذلك الصمت، الذي ساد هناك في بعد ظهيرة ذلك اليوم، غير أنني شعرت من جديد بالرضا والارتياح. كان من شأن وحدتي هذه أن عادت بالفائدة على عملي الفني التعيس، إذ رأيتُني أبذل مزيداً من الجهد لاستخدام الزهور الطبيعية التي أمامي بصورة فعلية وأتعلم منها، في حين كنت قبل الظهر من ذلك اليوم أقبلت على الرسم بأسلوبي الصبياني السابق فحركت الفرشاة على الورق بتعجل وعلى غير هُدى. الآن صرت أمزج الألوان بصورة أكثر دقة مما سبق وأتعاطى مع الأشكال والظلال بطريقة أكثر نقاء واعتناء، وبذلك أنجزت لوحة من أمرها أن تقدم، وهي على جدران ريفيين أبرياء، شيئاً ذا أهمية.

بذلك مضى الوقت بسرعة وبساطة وأتى بالمساء، في غضون ذلك انشغلتُ بشغف كبير بإتمام اللوحة وفقاً لرؤيتي وإدراكي فرممت هنا أو هناك ورقة أو ساقاً وسوَّدتُ ظلالاً. وكان من شأن ميلي إلى تلك الفتاة أن علمني وجدانية إنجاز العمل وإعادة النظر فيه، الأمر الذي لم أكن أعرفه سابقاً؛

وحين لم أجد شيئاً آخر يمكن أن أقدمه للوحة كتبتُ في إحدى زواياها "بريشة هاينريش لي" وتحت طاقة الزهور اسم مالكتها المقبلة، بخط غوطي.

في غضون ذلك استغرق العمل في كرم العنب مدة أطول مما كان وارداً في الحسبان، لأن الشمس مالت بشدة إلى ما فوق حافة الغابة ونشرت شعاعاً ناري اللون فوق المياه المعتمة، وكنت حتى ذلك الحين لم أسمع بعد أي شيء عن مضيفيّ. جلستُ آنذاك على الدرج أمام المنزل؛ انحدرت الشمس إلى مقر مغيبها تاركة وراءها وهجاً ذهبياً عميقاً كان من شأنه أن ترك آثار سطوع في كل شيء وسما باللوحة التي على ركبتيّ فجعلها تُرى باعتبارها مساوية لعمل عظيم. بما أنني كنتُ استيقظتُ من نومي في وقت جد مبكر، وفي هذه اللحظة الآنية لم أعرف شيئاً أفضل من النوم فقد استسلمت له بالتدريج وحين استيقظت وجدتُ العائدين يقفون بجانبي في وقت الأصيل المتأخر ووجدت النجوم في الوقت ذاته تسطع من جديد في السماء ذات الزرقة القاتمة. الآن شوهد فني في مجال الرسم بعد دخول أفراد العائلة إلى الحجرة، الخادمة اعترتها الدهشة والاستغراب معبرة عن أنها لم ترَ في حياتها شيئاً مشابهاً للوحتي، بينما رأى المعلم أنها جيدة وامتدح لطفي وتهذيبي حيال ابنته الصغيرة بكلمات جميلة وسره ذلك أيما سرور؛ وآنَّا ابتسمت بفرح عارم للهدية، ولكنها لم تجرؤ على لمسها بل تركتها ملقاة على الطاولة المنبسطة واكتفت بالنظر من فوقها إلى ما وراء الطاولة الأخرى. بعد أن تناولنا طعام العشاء عبرتُ عن نيتي في العودة إلى البيت؛ ولكن المعلم منعني من ذلك وأمر بإعداد سرير لنومي، لأنني – على حد قوله – سأضل طريقي لا محالة في أرجاء الجبل المظلم. ومع أنني اعترضتُ بأن سبق لي ذات مرة أن قطعت تلك الطريق في أثناء الليل، فقد اقتنعت بسهولة بالبقاء هناك، لمجرد الصداقة، وإثر ذلك ذهبنا جميعاً إلى صالة الأرغن الصغيرة. صار المعلم يعزف وآنَّا وأنا نغني بعض الأغاني المسائية، وإكراماً للخادمة التي كانت تحب أن تغني معنا غنينا أيضاً أحد المزامير الذي كانت تجيد غناءه بصوت

جهوري. بعد ذلك ذهب العجوز إلى النوم. الآن فحسب بدأت سلطة العجوز كاترين، التي كانت كومت في الحجرة السفلى مخزوناً هائلاً من الفاصولياء الخضراء التي كان لا بد في تلك الليلة من إعدادها كلياً للتجفيف. وبما أن كاترين لا تنام في الليل لمدة طويلة فقد أصرت بعناد على الأخذ بالعادة الريفية القاضية بعقد العزم على إنجاز أعمال من هذا النوع ولو اقتضى الأمر السهر حتى ساعة متأخرة من الليل. وهكذا سهرنا حتى الساعة الواحدة صباحاً حول كومة الفاصولياء وأزلناها بالتدريج بأن حفر كل منا حفرة عميقة أمامه واستحضرت العجوز كل ما عندها من الأقوال والحكايات الهزلية فأبقتنا بذلك كلينا في حالة من النشاط المتيقظ. آنّا، التي كانت جالسة في الجهة المقابلة لي، أقامت ممرها في داخل كومة الفاصولياء بطريقة فنية محكمة، إذ صارت تخرج من الكومة قرناً بعد آخر وتحفر، دون أن يلاحظ أحد، نفقاً تحت الأرض بحيث تظهر يدها الصغيرة فجأة في ممري أنا على شكل عامل صغير في منجم وتسحب من فاصوليتي قروناً عديدة ثم تجرها إلى داخل النفق المعتم. كاترين علمتني أن آنّا ملزمة، طبقاً للتقاليد المتبعة، بأن تقبّلني إذا ما تمكنتُ مرةً من مباغتة يدها والإمساك بها فجأة لكن شرط ألاّ ينهار جبل الفاصولياء جراء ذلك، ولهذا السبب وقفت لها بالمرصاد. ثم شقّت آنّا علاوة على ذلك دروباً متعددة وبدأت ، بأسلوب خبيث، بمداعبتي ومعابثتي؛ كانت تخفي يدها في أعماق جبل الفاصولياء وتنظر إلي من فوقه بعينيها الزرقاوين بخبث وعبث في حين تُبدي للعيان هنا واحدة من أناملها وتحرك الفاصولياء هناك كخلد تتعذر رؤيته في أي مكان، ثم تمريرها كاملةً إلى خارج النفق بسرعة وتعود فتسحبها من جديد إلى الداخل كفأرة صغيرة في حجرها، دون أن أفلح ولو مرة واحدة في تصيد تلك اليد. وصارت تكرر هذه اللعبة، في حين تنظر في أثناء ذلك باستمرار إلى عينيَّ، إلى أن سحبت من بين أصابعي فجأة قرناً من الفاصولياء كدتُ أمسك به قبل لحظة، وذلك دون أن أدرك أين أخفته. انحنت كاترين إلي وهمست في أذني قائلة: "دعها تفعل

ما تشاء، لكن حين يتهدم البناء أخيراً بسبب كثرة الثقوب التي فيه، فلا بد لها في كل الأحوال من أن تقبِّلك!" آنَّا عرفت في الحال ما قالت لي العجوز؛ فقفزت واقفةً ودارت حول نفسها ثلاث مرات راقصةً ثم صفقت بيديها وقالت بصوت عال: "لم يتهدم! لم يتهدم! لم يتهدم!" في المرة الثالثة أقدمت كاترين على صدم الطاولة بقدمها بدفعة سريعة فإذا بجبل الفاصولياء المجوف ينهار مخلفاً وراءه مشهداً يثير الأسى والحزن. فصرخت آنَّا بصوت عال وأخذت تجول في أرجاء الغرفة واثبةً جذلى، الأمر الذي لم يكن يتوقع منها: "غش غير مقبول! غش غير مقبول! صدمتما الطاولة ، رأيت ذلك بأم عيني!".

ادّعت كاترين: "هذا ليس صحيحاً، وهاينريش له الحق في الحصول على قبلة منك، أيتها الساحرة!".

فقالت الطفلة المرتبكة: "أي، اخجلي من أن تكذبي هكذا يا كاترين". وردت عليها الخادمة القاسية: " مهما يكن من الأمر، المهم هو أن الجبل انهار وسقط قبل أن تدوري حول ذاتك ثلاث مرات، ولذلك فأنت مدينة للسيد هاينريش بقبلة!".

فقالت بصوت عال وهي تضحك: "أريد أن أبقى مدينة له بذلك"، أنا ذاتي سرني أنني تخلصت من الشعيرة الاحتفالية الرسمية ووجهت الأمر في الوقت ذاته لمصلحتي وقلت:"حسن، إذاً عديني بأن تريدي أن تكوني مدينة لي بقبلة الآن وفي كل وقت!".

ومرة أخرى ردت بأعلى صوتها وهي تضرب بيدها بعبث واستهتار فوق يدي الممدودة إليها بحيث حدث دوي من جراء ذلك: "نعم، أريد أن أكون كذلك!" كانت في تلك اللحظات تفيض بالحيوية والنشاط وعلو الصوت ومرونة الحركة كالزئبق، وبدت كأنها مخلوقة مختلفة تماماً عما كانت عليه في نهار ذلك اليوم. وبدا أن منتصف الليل غيَّر مزاجها وطباعها، كان وجهها الصغير محمرَّاً تماماً وعيناها تتلألآن فرحاً وسروراً. وأخذت تحوم حول كاترين قليلة الحيلة والتدبير وتعاكسها فتلاحقها هذه، وهكذا نشبت

مطاردة في الحجرة كنت تورطتُ فيها أنا أيضاً. كاترين العجوز فقدت فردة من حذائها وانسحبت من المعركة محبوسة الأنفاس في حين ازدادت آنّا أكثر فأكثر تنمراً ونشاطاً. أخيراً اصطدتها وثبّتها في مكانها، فألقت ذراعيها ببساطة حول رقبتي وقرّبت فمها من فمي ثم قالت بصوت منخفض، متقطع بفعل النَفَس المتسرع:

"فأرة صغيرة بيضاء

تقيم في بيت جبلي أخضر؛

الجبل يريد أن يتداعى

فتهرب الفأرة منه."

إثر ذلك تابعتُ قولها بنفس الطريقة:

"أُمسكَ بها في آخر لحظة،

ورُبطت بقدميها الصغيرتين

ولُفَّ حول كفيها الأماميين

وشاح أحمر.

ثم قلنا معاً بإيقاع متساوٍ في حين صرنا نتمايل بهدوء يمنة ويسرة:

"تقلبت وتخبطت وصرخت:

' ماذا جنيتُ؟ '

عند ذلك وُخزت في قلبها الصغير بسهم ذهبي. "

وحين انتهت الأغنية، كانت شفتانا منطبقتين بتلاصق تام، لكن من دون أي حراك؛ لم نتبادل القبل ولم نفكر بذلك، نَفَسانا فقط امتزجا على الجسر الجديد الذي لم يُستخدم بعد، وبقي القلب فرحاً وهادئاً.

في صباح اليوم التالي غدت آنّا من جديد كسابق عهدها، هادئةً ولطيفة؛ المعلم أبدى رغبة في أن يرى اللوحة في ضوء النهار فصادف أن كانت آنّا خبأتها في أحد الأمكنة من غرفتها الصغيرة، حيث يكاد يتعذر اكتشافه والوصول إليه. ولكن كان عليها الآن أن تُخرج اللوحة من مخبئها من جديد، الطلب الذي

صعب عليها ولم تُلبِّه إلا مكرهة. في تلك الأثناء أتى الأب من على الحائط بإطار كانت علقت به من قبل قائمة تنكارية، مصفرَّة اللون وفاسدة، لغلاء الأسعار عام ١٨١٧ فأخرج القائمة من الإطار ودس لوحتي الملونة حديثة العهد خلف زجاجة. ثم قال: "آن الأوان أخيراً لإزالة هذه الوثيقة الحزينة عن الحائط، لأنها هي ذاتها لا تريد أن تدوم بعد الآن. نريد أن نضمها إلى بقية الوثائق التذكارية المنسية وأن ننصب بدلاً منها هذه اللوحة المزدهرة، لوحة الحياة التي أبدعها صديقنا الشاب. وبما أنه أكرمكِ، يا عزيزتي آنَّا الصغيرة، بوضع اسمك تحت الزهور فلتكن اللوحة في آن معاً صورة لتكريمكِ وتذكاراً لكِ في بيتنا ومثلاً أعلى لحياة بهيجة باستمرار وبريئة ونفس محلاَّة بالزينة تماماً كهذه الزهور اللطيفة الجليلة التي من صنع الله الخالق".

بعد تناول الطعام أعددتُ العدة أخيراً للرجوع إلى البيت؛ آنَّا تذكرت أن اليوم هو موعد تمرين الرقص من جديد فرجت أن يُسمح لها بالذهاب معي في الحال. وأعلنت في الوقت ذاته أنها لابد أن تبيت لدى بنات عمتها لئلا تضطر إلى العودة في وقت متأخر من الليل عن طريق الجبل. اخترنا، هي وأنا، الطريق الموازية للنهر الصغير لكي نمشي في الظل؛ وبما أن تلك الدرب كانت في أغلب الأحيان رطبة ومبتلة وتحيط بها فتضيقها نباتات مائية وأدغال، فقد شمرت آنَّا طرف ثوبها الأخضر الفاتح، المرصع بنقاط حمر، وأمسكت بيدها قبعة القش بسبب علو الأغصان المتدلية ثم مشت إلى جانبي عبر العتمة المضيئة، التي انسابت عبرها الأمواج المتلألئة خلسةً فوق حمراء حمراء زهرية وبيضاء وزرقاء. خصلاتها الذهبية تدلت إلى العمق من فوق نقرتها، وكان وجهها محاطاً بطوق مكشكش من صنعها هي وقد غطى أيضاً كتفيها الفتيين الضيقين. لم تقل كثيراً من الكلام، لا بل بدا عليها قليل من الخجل بسبب تصرفاتها في الليلة الماضية؛ وفي كل مكان حيث لم ألمح أي شيء كانت ترى زهرات يانعة وتقطفها ولم تلبث أن امتلأت يداها بمتنوع الزهيرات. في أحد الأمكنة حيث تجمّع الماء في أحد توسعات مجرى النهر واستقر هادئاً، ألقت آنَّا

على الأرض كل ما كانت تحمله ثم قالت: "هنا سوف نستريح!" فجلسنا على حافة حوض الماء؛ جدّلت آنّا إكليلاً من زهور الغابة الصغيرة النبيلة ووضعته على رأسها. فكان منظرها عند ذلك شبيهاً تماماً بأسطورة خلابة؛ من مد المياه كانت صورتها تنظر مبتسمة إلى فوق باتجاهنا، وكان وجهها الأبيض والأحمر كما لو أنه بكل روعة مظلل بزجاج معتم. ومن الجانب المقابل لنا من الماء، البعيد عنا عشر خطوات فحسب، برز عالياً جدار من الصخور، عمودي تقريباً ومكسو بشجيرات قليلة فقط. وكان من شأن انحداره الشديد أن دل على مدى عمق المياه الصغيرة هنا، وبلغ علوه مقدار علو كنيسة كبيرة. في وسط ذلك الجدار بدا للعيان كهف يغوص في داخل الصخر وقد تعذر كل التعذّر اكتشاف أي مدخل له، وبدا شبيهاً بنافذة كبيرة في برج من الأبراج. روت آنّا أنه أُطلق على هذا الكهف اسم حجرة الكفار، ثم قالت: "حين توغلت المسيحية في هذه البلاد كان لا بد للكفار من الاختباء ما داموا لا يريدون التعميد. كيان عائلي بأكمله مع أطفال كثيرين هرب إلى الكهف الذي هناك في الأعالي، لكن لم يعرف أحد بأي طريقة تم ذلك. ولم يستطع أحد الوصول إليهم، وهم أيضاً لم يجدوا أي طريق للخروج من هناك، فأقاموا في الكهف وطبخوا فترة طويلة من الزمن، ومن فوق الجدار سقط في الماء بعد ذلك طفل بعد آخر وغرق هنا. فلم يبقَ أخيراً سوى الأب والأم، لكن بلا أي طعام أو شراب فتراءيا بعد ذلك هيكلين عظميين يرثى لهما أمام المدخل، محدقين بقبر أطفالهما إلى أن سقطا أخيراً في الماء، والأسرة بأكملها هي الآن ملقاة في هذه المياه العميقة، العميقة؛ لأن عمق الماء هنا هو بقدر علو الصخر!".

نظرنا، ونحن جالسان في الظل، إلى الأعلى حيث كان الجزء العلوي من الصخر يتلألأ في أشعة الشمس وكان الكهف النادر مضاءً. حين نظرنا إلى هناك على هذا النحو، رأينا دخاناً، أزرق اللون لامعاً، يتدفق من حجرة الكفار ويصعد إلى الأعلى على طول الجدار الصخري؛ وحين حملقنا مدة أطول في ذلك الاتجاه، رأينا امرأة غريبة النوع، طويلة القامة وهزيلتها، تقف

في سحابة الدخان المتموجة وتنظر إلينا من عينين مجوفتين ثم تختفي بعد ذلك من جديد. نظرنا إلى هناك دون أن ننبس ببنت شفة، التصقت آنّا بي وأنا ألقيت ذراعي حولها؛ اعترانا خوف شديد ولكننا كنا مع ذلك سعيدين، والصورة التي في الأعالي تموجت مضطربة ومبهمة أمام ناظرينا المشرئبين إلى الأعلى، وحين تجلت الصورة بوضوح وقف هناك رجل وامرأة ونظرا إلينا من عل، وصف كامل من صبيان وبنات، نصف عراة أو عراة تماماً، جلس تحت الكهف مدلياً السيقان من فوق الجدار الصخري إلى الأسفل. كل العيون حملقت فينا، وابتسم الأطفال ابتسامة تنم عن تعاسة وألم ومدوا أيديهم على طولها إلينا كما لو أنهم يتوسلون إلينا من أجل شيء ما. اعترانا الخوف، فنهضنا واقفين بسرعة البرق وهمستْ آنّا في أذني وهي تذرف دموعاً من لآلئ: "أووه، يا لهؤلاء القوم الكفار المساكين، المساكين!" ذلك لأنها كانت على يقين من رؤية أشباحهم خصوصاً أن بعضهم كان يظن أن لا طريق تقود إلى ذلك المكان. قالت لي الفتاة بصوت منخفض:" حبذا لو ضحينا بشيء من أجلهم، لكي يحسوا بإشفاقنا عليهم!" وأخرجت قطعة نقود من محفظتها الصغيرة ففعلت أنا مثلها ووضعنا تبرعنا فوق حجر على ضفة النهر. ونظرنا مرة أخرى إلى الأعلى، حيث كانت الأخيلة التي تراءت لنا تراقبنا باستمرار وتتبعنا بحركات وإشارات تنم عن الشكر والعرفان.

حين وصلنا إلى القرية كان الناس يتداولون إشاعة تقول إن عصابة من المشردين شوهدت في تلك المنطقة وسوف يقوم الناس في الأيام التالية بمطاردتها إلى ما وراء الحدود. عندها صار بإمكاننا ، آنّا وأنا، تفسير ظهور الأشباح لنا في تلك البقعة المقفرة؛ لا بد من وجود طريق سري يؤدي إلى الكهف ولا يعرفه سوى أولئك القوم التعساء الذين هم بحاجة إلى وكر يختبئون فيه. في مكان منعزل تماماً وخالٍ من الناس عاهدنا، آنّا وأنا، بعضنا بعضاً بطريقة احتفالية ألاّ نقول لأحد شيئاً عن مكان إقامة أولئك المساكين؛ وبذلك جمعنا سر مهم.

الفصل الرابع

رقصـة المـوت

وهكذا عشنا، على سجيتنا ومنعميْن بالسعادة، فترة من الزمن. تارةً اجتاز أنا الطريق من فوق الجبل وتارةً أخرى تأتي آنّا إلينا، وسرى مفعول صداقتنا على أمر متفق عليه وليس لأحد عليه أي مأخذ؛ كنت في نهاية المطاف الشخص الوحيد الذي أعطاها في الخفاء اسم الحب، لأن كل شيء تحول مرة واحدة إلى رواية.

في تلك الأثناء مرضت جدتي تدريجياً ولكن كان وضعها يتفاقم شيئاً فشيئاً إلى حد الخطورة، وبعد بضعة أسابيع لوحظ أنها سوف تفارق الحياة عما قريب. لقد عاشت ما يكفي من العمر وغدت الآن متعبة؛ ولكن ما دامت لا تزال بكامل وعيها، كانت تحب أن أمكث بجانب سريرها ساعة أو ساعتين من الوقت، وكنت أنا بدوري ألبي طوعاً هذا الواجب على الرغم من أن معايشتي لآلامها ولإقامتها في غرفة المرض بدت لي أمراً غير معتاد وغمرتني بالحزن والكـآبة. ولكن حين وقفت جدتي على عتبة الاحتضار، الذي استمر أياماً كثيرة، تحول هذا عندي إلى تمرين جدي وقاسٍ. لم يسبق لي أن رأيت ذات مرة أحداً يموت، والآن رأيت العجوز الشائبة، فاقدة الوعي أو على الأقل التي يبدو عليها فقدانها الوعي، تصارع الموت وهي مختنقة الصوت؛ لأن بارقة الحياة لديها أبت أن تنطفئ. اقتضت التقاليد أن يمكث في الحجرة باستمرار ثلاثة أشخاص على الأقل، لكي يؤدوا بالتناوب واجبات

تتمثل في أداء الصلاة واســتقبال الزائرين الغرباء، الذين ما فتئوا يفدون لزيارة السيدة المحتضرة والاطمئنان عليها، بما يجب من الاحترام وإخبارهم عن تطورات حالتها الصحيــة، غير أن الناس كانوا جراء الطقس الجميل آنذاك منشغلين بأعمالهم الكثيرة؛ أما أنـــا، الذي لم أكن ملتزماً أي عمل آخر غير تلاوة الصلوات بمهارة، فقد كان وجودي لهذا السبب موضع ترحيب وأصر الناس على التمسك بي في معظم أوقات اليوم إلى جانب ســرير الموت. وأنا جالس على مقعــد بلا مسند وكتابي على ركبتيَّ كان علي أن أتلو بصوت مسموع صلوات ومزامير وأغاني موتى، وكان من شأن جَلَدي أن أنعم علي بحظوة السيدات ورضاهن مقابل حرماني من التمتع بأشعة الشمس الجميلة التي لم أكن أراها إلا من بعيد مقابل مشاهدتي المستمرة الموت من قريب.

لم يعد بإمكاني أن أبحث عن آنَّا، مع أنها كانت آنذاك أحلى عزاءٍ عندي في وضعي المتسم بالزهد والتقشف؛ وفجأة ظهرت آنَّا، خجولاً ومؤدبة كالعادة، على عتبة غرفة المريضة لكي تزور العجوز التي لا تربطها بها سوى قرابة بعيدة جداً. كانت الفتاة الشابة تحظى بحب واحترام لدى الفلاحات ولهذا السبب كانت الآن موضع ترحيب كبير؛ وحين تقدمت، بعد بعض المكوث الهادئ، بغرض أن تنوب عني في أداء الصلاة سُمح لها بذلك بكل رغبة وامتنان، وهكذا ظلت إلى جانبي طول البقية الباقية من زمن حدوث الموت ورأت معي انطفاء الشعلة المتصارعة معه. لم نكن في أثناء ذلك نتحدث معاً إلا نادراً ومن ثم إلا حين كنا نتبادل تسليم الكتب الدينية بعضنا إلى بعض فنتهامس بعض الكلمات، أو حين كنا نتوقف لمدة قصيرة عن عملنا، كنا نستجم بارتياح جنباً إلى جنب ونتعاكس ونتعابث بهدوء ممارسين بذلك حقنا مرةً بوصفنا شباباً في مقتبل العمر. حين حدثت الوفاة وأخذت النسوة تنتحب وتنشج بالبكاء، ذرفت آنَّا أيضاً الدموع بغزارة ولم تُبدِ أي رضاً عن أن عينيَّ، بما أن حادثة الموت لا تعنيها بقدر ما تعنيني أنا بصفتي

حفيداً للمتوفاة، ظلتا تتعمان بالجفاف؛ لم يكفِ آنَّا في هذه الحال أنني كنت جدياً وغارقاً في التفكير. اعتراني القلق بسبب الفتاة المسكينة التي ما فتئت تبكي بحدة متصاعدة وأحسست بأنني حسران ومحبط ومذهول. ذهبتُ بها إلى الحديقة ثم داعبت وجنتيها بيدي ورجوتها بإلحاح أن تخفف من حدة بكائها، فبدا السرور على وجهها كالشمس عبر المطر وجففت عينيها ثم نظرت إلي فجأة مبتسمة راضية.

تمتعنا الآن من جديد بأيام لا عمل فيها، في الحال رافقت آنَّا إلى البيت لكي تستريح وتبقى هناك إلى أن يحين موعد الدفن. بقيتُ في غضون ذلك جدياً؛ لأن مجرى الأحداث أنهكني وعلاوة على ذلك كانت جدتي محببة وجديرة بالاحترام بصرف النظر عن أنني لم أعرفها إلا منذ وقت قصير. لم تكن صديقتي مرتاحة مرة أخرى لهذا الوضع النفسي، وقد حاولت بألف حيلة أن تروح عن نفسي وكانت بذلك شبيهة ببقية النساء اللواتي كن كلهن يقفن أمام بيوتهن وينهمكن من جديد في الدردشة والثرثرة.

زوج جدتي المتوفاة تظاهر، في حين كان يشعر بالارتياح، كما لو أنه فقد الكثير لفقدانها وأنه كان يقدرها حق قدرها في أثناء وجودها على قيد الحياة. وأعدَّ لها جنازة فخمة شارك فيها ما يربو على ستين شخصاً ولم يقصر في تلك المناسبة في متابعة لالتزام العادات القديمة بكل أبعادها وتفاصيلها.

في اليوم المتفق عليه للدفن ذهبت برفقة المعلم وآنَّا؛ كان المعلم يرتدي بذلة رسمية سوداء اللون ذات أذيال واسعة وربطة عنق بيضاء مطرزة، وارتدت آنَّا ثوباً كنسياً أسود أيضاً وأحد أطواق عنقها المميزة، الذي ظهرت به شبيهة بهيئة الآنسة الكاهنة، بينما تركت قبعة القش في البيت وجدلت شعرها بطريقة فنية خاصة، واليوم هذا تغلغل إلى أعماقها إضافة إلى ذلك ورع وتقى كبيران، فكانت هادئة واتسمت حركاتها بالتزام العادات والتقاليد والتطابق معها؛ وكل ذلك أظهرها في ناظري بجاذبية لا نهاية لها. واختلط بمزاجي الاحتفالي، المتسم بمسحة من الحزن، زهو حلو ناجم عن علاقتي

الحميمة والأليفة مع هذه المخلوقة الظريفة ونادرة الوجود، وخالط هذا الزهو احترام عميق بحيث قستُ حركاتي وأحجمتُ عن الكثير منها ثم مشيتُ إلى جانب صغيرتي باحترام حقيقي وقدمتُ لها خدماتي حيث كانت الطريق غير المستوية تستدعي ذلك.

توقفنا لفترة في بيت خالي، وكانت أسرته على أتم الاستعداد للانطلاق فانضمت إلينا حالما قُرع جرس الموت. في بيت المتوفاة فُصلتُ عن جميع مرافقيَّ، لأن موقعي بصفتي حفيداً للمرحومة اقتضى أن أكون حاضراً بين المعزِّين والمعنيين، وبصفتي السليل الأصغر سناً والأكثر قرباً فقد حضرت بثوبي الأخضر في مقدمة كل المشيعين وكنت قبل غيري عرضة لالتزام الطقوس المعقدة والمتعبة. كان الأقارب الأكثر قرباً من المرحومة تجمعوا في غرفة الجلوس الكبيرة الواسعة بانتظار قدوم العنصر النسائي لكي يقوم بتقديم التعازي. وبعد أن وقفنا لفترة طويلة صامتين ومنتصبين على طول الجدران، دخلت تباعاً فلاحات كثيرات تقدم بهن العمر وكن مرتديات ألبسة سوداء؛ بدأن بتعزيتي أنا، واحدة تلو الأخرى، بأن مددن إلي أيديهن وردَّدن العبارات التي تقال عادة في مثل مناسبة كهذه وتابعن سيرهن بالطريقة نفسها إلى الشخص التالي المتقبِّل التعازي. هؤلاء الشيخات كنَّ في معظمهن يمشين منحنيات ومرتجفات ويقلن كلماتهن بنبرة مؤثرة باعتبارهن صديقات قديمات للمرحومة ومن معارفها وباعتبارهن أيضاً أحسسن إحساساً مضاعفاً بقرب الموت. كن يرمقنني كلهن بنظرة ثابتة وذات مغزى، وكان لا بد لي من أن أشكر كل واحدة منهن بمفردها وأن أنظر إليه أيضاً، الأمر الذي قد أفعله في كل الأحوال. كنت ترى بينهن أحياناً امرأة مسنة لا تزال فارعة القامة وقوية، وكانت تتقدم إلي منتصبة القد وتنظر إلي بما ينم عن راحة النفس؛ بعدها مباشرة تلت مرة أخرى عجوز منحنية الظهر وقـد بدا أنها، قياساً على أمراضها هي، تعرف وتقدر مرض الراحلة. إلا أن النساء المعزيات أصبحن أصغر سناً وبنفس النسبة أكثر عدداً؛ كانت الحجرة آنذاك مليئة تماماً بالأشكال

السوداء، التي تزاحمت إلى هناك، نساء بعمر أربعين وثلاثين عاماً وكلهن خفــة حركة وفضول، وموقف الحزن الذي ساوى بينهن لم يُغطِّ على مختلف الأهواء الجارفة والخصائص التي ميزتهن بعضهن من بعض. لم تلح في الأفق أي نهاية للازدحام؛ إذ لم يقتصر الأمر على نساء كل القرية، بل ظهرت نساء كثيرات من مناطق الجوار لأن المرحومة كانت تتمتع بينهن بسمعة كبيرة كان تقادم عليها الزمن إلى حد ما، ولكنها عادت الآن إلى كامل بهائها ورونقها. في النهاية غدت الأيدي أكثر نعومة وطراوة، إذ مرَّ الجنس الأصغر سناً؛ وكنت أصبحتُ متعباً تماماً وخائر القوى حين أتت بنات خالي ومددن أيديهن بلطف لتعزيتي فأسهمن بذلك في تفريج بعض الكرب عني، ثم أتت بعدهن مباشرة آنّا الأحب إلي من كل شيء فمدت إلي، وهي ممتقعة اللون ومنفعلة، يدها الصغيرة بحركة عرضية عابرة، ذارفة فوقها دموعاً متلألئة. ولأنني، خلافاً للعادة، لم أفكر فيها بتاتاً وكنت عقدت الآمال عليها فقد فوجئت الآن مفاجأة صاعقة بمرورها من أمامي.

أخيراً انتهينا من تعازي النساء وخرجنا إلى أمام البيت حيث كان في انتظارنا جمع غفير من الرجال المتعقلين لكي يمارسوا معنا، نحن الذين اصطففنا من جديد، الطقوس ذاتها. صحيح أنهم أدوا واجبهم بصورة أقصر وأسرع بكثير من زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم، إلا أنهم استخدموا بالمقابل أيديهم القاسية الخشنة ككماشات الحداد وملازم النجار، ومن قبضات أيدي بعض الفلاحين السمر ظننت أنني لن أستطيع سحب يدي سليمة معافاة.

أخيراً أخذ النعش يتهادى أمام أنظارنا، النساء كن يبكين وينحن والرجال حنوا رؤوسهم شاردين مرتبكين وأعينهم تنظر إلى الأرض على غير هدى؛ أتى القس أيضاً وفرض احترامه، ودون أن أعرف الكثير مما كان يجري رأيتني وُضعت أخيراً في مقدمة الموكب الطويل الذي وصل إلى المقبرة وبعد ذلك في الكنيسة الباردة التي اكتظت تماماً بالجماعة. وهناك سمعتُ في غمرة دهشتي ومتابعتي إعلان اسم العائلة الأصلي لجدتي، نسبها،

عمرها، سيرة حياتها ومديحها من على منبر الكنيسة وأدليتُ من كل قلبي بصوتي في أغنية التصالح وراحة النفس، التي أُنشدت في النهاية. ولكن حين سمعت صوت الرفوش يرن من أمام باب الكنيسة، خرجت لكي ألقي نظرة على القبر. كان النعش البسيط ألقي فيه، وأحاط به كثيرون من الناس وصاروا يبكون، كتل التراب كانت تسقط بشدة على غطاء النعش وتخفيه بالتدريج عن الأنظار؛ نظرت بدهشة إلى داخل القبر فخيل إلي أنني غريب ومستغرب، وخُيلت إليّ المتوفاة في باطن الأرض غريبة أيضاً، ولم أجد في عينيَّ أي دموع. حين خطر لي فحسب أنها كانت الأم المحببة لأبي وتذكرت في تلك اللحظة أمي، التي سوف تُلقى هي الأخرى في باطن الأرض ذات مرة، عند ذلك استحضرتُ مرة أخرى صلتي بهذا القبر واستحضرتُ أيضاً القول القائل: "جيل يمضي، وآخر ينشأ!".

القسم المدعوٌّ من الجمع الغفير اتجه الآن من جديد إلى بيت الحزن، الذي عم بكل حجراته بالحيوية والنشاط جراء الاستعدادات الجارية على قدم وساق من أجل وليمة الجنازة. وحين جلس الناس إلى المائدة حتمت علي الأعراف والتقاليد أن أحضر من جديد بجانب الأرمل المتجهم، حيث كان لا بد لي من أن أتحمل ساعتين كاملتين دون أن أستطيع التحدث مع أحد طول فترة الطعام التقاليدية الأولى بكل أنواع أطعمتها الحتمية. صرت أنظر عبر المائدة الطويلة حتى نهايتها باحثاً عن المعلم وابنته، اللذين كانا بين الحاضرين؛ لا بد أنهما كانا في الغرفة المجاورة لأنني لم أجدهما.

في بادئ الأمر تجاذب الناس أطراف الحديث باعتدالٍ وتأنٍّ وتناولوا الأطعمة بتعفف كبير. كان الفلاحون يجلسون بوضع منتصب في كراسيهم أو مستندين إلى الجدار وعلى مسافة لا يُستهان بها عن الطاولة، ويقطعون لقم اللحم بأذرع ممدودة بطريقة احتفالية في حين يمسكون بالشوكة في نهايتها القصوى، وكانوا يشربون النبيذ بجرعات صغيرة محتشمة لكن متعددة. والخادمات كن يحملن طشوتاً كبيرة وواسعة من القصدير رافعات أيديهن بقدر

علو أوجههن ويمشين بخطى استعراضية وئيدة وأردافهن تتأرجح بشدة يمنة ويسرة. وحيث كنَّ يضعن أحمالهن على الطاولات كان الرجلان الاثنان الأقرب إليهن يتنافسان على تقديم الشراب لهن ويهمسان في آذانهن على الأقل نكتتين طريفتين؛ هذا النزاع كان يُفض فيما بعد بأن ترشف الخادمة من كل كأس جرعة صغيرة ثم تنسحب راضية قليلاً أو كثيراً عن تأدية هذا الإتيكيت.

بعد انقضاء ساعتين طويلتين من الزمن اقترب تدريجياً الضيوف الأكثر فظاظة من الطاولة وألقوا أذرعهم فوقها ثم بدؤوا بنشاط وفعالية بتناول الطعام وشرب النبيذ بجرعات عميقة، ولكن الأكثر رزانة واعتدالاً منهم علت أصواتهم في الحديث وقربوا كراسيهم بعضها من بعض ثم حولوا دردشتهم تدريجياً إلى جو معتدل من الأنس والمرح. وكان ذلك مختلفاً عن جو مسلٍّ عادي ومنطوياً على نية رمزية للانجراف في مجرى الأمور وممارسة الحق في الحياة ضد الموت.

الآن سنحت لي أخيراً فرصة لمغادرة مكاني والقيام بجولة. في الغرفة المجاورة وجدت آنَّا جالسة إلى طاولة صغيرة مع أبيها، الذي كان يمارس بأسلوب فني رائع ضمن مجموعة من الأذكياء والأتقياء الاذعان بحكمة وسرور لحتمية مالا محيد عنه. وكان يتودد لبعض السيدات المتقدمات في العمر ويتغزل بهن فيجيد قول ما كانت تحب أن تسمع كل واحدة منهن قبل ثلاثين عاماً؛ بالمقابل كن يجاملن آنَّا ويتحببن إليها ويمتدحن لياقتها وسلوكها كما يمتدحن أيضاً أباها العجوز وهن في سعادة غامرة. انضممتُ إلى هذه المجموعة فاتخذت مكاناً إلى الطاولة وصرت أسمع إلى جانب آنَّا أحاديث المسنين المتبصرة المتأملة. وفي أثناء ذلك تناولنا أيضاً نحن الاثنان، بعد أن نعمنا بجو من المتعة والسرور، وجبة صغيرة من الطعام من طشت الجماعة ذاته وشربنا معاً كأساً من النبيذ.

فجأةً بدأت همهمة وصفير فوق رؤوسنا، آلات كمان وباص وكلارينيت دُوزنت استعداداً للعزف، واسترسل بوق في نغمات خانقة. وفي حين انطلق

القسم قوي البنيان من الجمع وصعد إلى أرض القاعة الواسعة قال المعلم: "لا بد إذن من الرقص! ظننت أن هذا العرف قد ألغي أخيراً، وهذه القرية هي بالتأكيد الوحيدة على مد النظر، التي لا يزال رقص الموت يُمارس فيها أحياناً! أحترم الأعراف القديمة، ولكن ليس كل شيء قديم هو بالضرورة جدير بالاحترام وذو صلاحية! مع ذلك لا مانع من أن تشاهدوا، أيها الأعزاء، لكي تتمكنوا فيما بعد من التحدث عن هذا العرف، وكلنا أمل في أن ممارسة الرقص في مناسبات الاحتفالات الجنائزية هي أخيراً في طريقها إلى الزوال عما قريب!".

وفي الحال خرجنا من الغرفة حيث وجدنا في الممر وعلى الدرج المتجه إلى الطابق الأعلى الجمع الغفير من الناس مصطفين أزواجاً أزواجاً، ولم يسمح لأحد بالصعود إلى هناك إلا إذا كان بصحبة مرافق أو مرافقة. لذلك أمسكت بيد آنّا ووقفت في الصف الذي انطلق إلى التحرك، وكان الموسيقيون في المقدمة. عُزفت موسيقى موكب حزين، وعلى إيقاعها دار الناس ثلاث مرات فوق الأرضية التي كانت تحولت إلى قاعة للرقص ثم شكلا بعد ذلك حلقة كبيرة. بعد ذلك قدِم سبعة أزواج إلى منتصف الحلقة وقدموا رقصة قديمة متثاقلة ذات سبع حركات وتتخللها قفزات صعبة والتفافات وتشابكات إضافة إلى تصفيقات بالأيدي مدوية. بعد أن كان هذا الاستعراض أُعطي الوقت الذي استحقه، ظهر صاحب البيت ثم مشى عبر الصفوف فشكر الضيوف على مشاركتهم له في مصابه، وهمس في أذن صبي يافع هنا وهناك على مرأى من الجميع ألاّ يحزن حزناً شديداً بل حبذا لو يتركه الآن وحيداً ومعزولاً في آلامه وفجيعته ويتفرغ من جديد للحياة ومباهجها. إثر ذلك غادر الأرمل منحني الرأس من جديد تلك الأمكنة ونزل على السلم كما لو أنه ذاهب إلى الجحيم. انتقلت الموسيقى فجأة إلى رقصة قفز مرحة فانسحب كبار السن من الحلبة في حين هدر الشباب مهللين يدقون الأرض بأقدامهم لتدوي في كل الأرجاء. آنّا وأنا وقفنا آنذاك، ومازالت يدانا

متشابكتين، بمحاذاة النافذة بدهشة واستغراب وصرنا نراقب الزوبعة الشيطانية التي أمامنا. في الشارع رأينا بقية شباب القرية يلحقون بأنغام الكمان؛ الفتيات وقفن أمام الباب فأتى الصبيان بهن إلى فوق وبعد أن أدَّين رقصة حقَّت لهن دعوة الشباب الذين ظلوا في الشارع إلى الصعود إلى البيت. وأُتي بنبيذ كثير وأُعدت للشرب أمكنة صغيرة منتشرة في كل زوايا سطح البيت وسرعان ما ذاب كل شيء في زوبعة منتشية وهادرة من المرح، الذي كان متميزاً في صخبه وعلو ضجيجه خصوصاً أن الناس كانوا في يوم عمل إذ انتشروا في أرجاء حقولهم منهمكين في أعمالهم المعتادة الهادئة.

بعد أن تفرجنا فترة طويلة ثم رحنا وغدونا من جديد قالت لي آنَّا وهي محمرة الوجنتين إنها ترغب مرة في أن تجرب إن كانت تستطيع الرقص في وسط جمع غفير من الناس. رحبتُ بالفكرة أيما ترحيب وسرعان ما درنا في ذات اللحظة في حلقات رقصة فالس. ومنذ ذاك فصاعداً رقصنا فترة طويلة بلا انقطاع دون أن نشعر بالتعب، ناسيين العالم من حولنا وناسيين نفسينا أيضاً. وحين كانت الموسيقى تتوقف بعض الوقت للاستراحة، لم نقف هادئين بل تابعنا طريقنا عبر الجمع الغفير بخطىً سريعة وبدأنا بالرقص من جديد بدءاً من النغمة الأولى، واستقامت مشيتنا ما كان النغم.

ولكن لدى الدقة الأولى من جرس المساء توقف الرقص فجأة في وسط رقصة فالس، أزواج الرقص أسبلت الأيدي وأسرع الجميع، وهم يتبادلون التحيات باحترام، في النزول على السلم واتخاذ أمكنتهم من جديد لكي يتمتعوا مرة أخرى بشرب القهوة وتناول الكاتو ثم يعودوا بعد ذلك إلى بيوتهم. كانت آنَّا في تلك اللحظات لا تزال واقفة بين ذراعي في حين التفُّت أنا حواليّ حائراً مندهشاً. ابتسمت آنَّا وسحبتني من يدي؛ لم نجد أباها في ذلك البيت، لذلك ذهبنا للبحث عنه عند خالي. في العراء كان انتشر الأصيل في كل الأرجاء وحل أجمل الليالي قاطبة. حين وصلنا إلى المقبرة، كان القبر الجديد في عزلة وصمت وكان مرَّ به مرورَ الكرام ضوءُ القمر الذهبي الطالع لتوه.

وقفنا أمام الهضبة السمراء، التي كانت تفوح منها رائحة التربة الرطبة، متعانقين؛ اثنتان من فراشات الليل رفرفتا عبر الأدغال فتنفست آنَّا آنذاك فقط بسرعة وبقوة. جلنا بين القبور لكي نجمع لقبر الجدة طاقة من الزهور فوقعنا في أثناء ذلك، ونحن نطوف في العشب العميق، في الظلال المبهمة لشجيرات القبر الغنَّاء. هنا وهناك كانت تومض في وسط الظلام كتابة ذهبية باهتة أو يتلألأ حجر. وإذ كنا واقفين هكذا في الليل، همست آنَّا في أذني أنه ترغب الآن في أن تقول لي شيئاً، ولكن يجب ألاّ أسخر منها وأكتم ما ستقول. سألتها: "ماذا"؟ فقالت إنها تريد أن تعطيني الآن القبلة التي تدين لي بها من تلك الأمسية. كنت انحنيت إليها وقبَّل بعضنا بعضاً بأسلوب احتفالي ومفتقر إلى البـــراعة.



*   *   *

الفصل الخامس

بدء العمل، هابرزات ومدرسته في الفن

حين ودعت آنّا وأبوها الناس في وقت متأخر من الليل لم أكن في تلك اللحظة حاضراً ولذلك لم تستطع أن تقول لي وداعاً. ولكن على الرغم من تألمي من تعذر إيجادها فقد عوضت سعادتي النفسية الفتية عما فقدت؛ في حجرتي الصغيرة بقيت ساعة كاملة تحت النافذة أرى النجوم كيف تسير في مجراها البعيد، والأمواج من تحتي تحمل ضوء القمر الفضي على أكتافها الصافية بسرعة وكركرة إلى الوادي كما لو أنها كانت سرقته، وترمي هنا وهناك بعضاً من ومضات التلألؤ إلى ضفاف النهر كما لو أنها ناءت بحملها، وتدندن على الدوام أغنية تجوالها العابثة. واستوطنت الأغنية في فمي مخفية، لكن حلوة ودافئة وحتى طازجة وباردة برودة الندى.

حين ذهبتُ للنوم ما فتئت أغنية الأمواج تراود خيالي ويشغلني حفيفها على شفتيّ طول الليل، عبر المنام واليقظة بتناوب متكرر وشديد؛ هويتُ من حلم إلى آخر، ملون وبراق، معتم وخانق، ثم ما يلبث أن يستضيء مرة أخرى من ظلمة زرقاء غامقة إلى وضوح يزخر بالزهور؛ لم يسبق لي أبداً أن حلمت بآنّا، لكنني قبّلت أوراق شجر وزهوراً وقبّلت الهواء النقي، وقُبِّلتُ من جديد في كل مكان؛ نساء غريبات ذهبن إلى المقبرة وعبرن النهر بأقدام فضية لماعة؛ واحدة منهن لبست ثوب آنّا الأسود وأخرى لبست الأزرق، وثالثة الأخضر المزين بزهيرات حمراء ورابعة وضعت طوق آنّا المكشكش

حول العنق، وحين اعتراني الخوف من جراء ذلك وتبعتهن وترتب على تتبعهن أن استيقظت من منامي، خُيِّل إلي أن آنّا الحقيقية تسللت تواً هي ذاتها من سريري وغادرته بحيث احتددت وأنا في حال من الاضطراب والذهول وناديتها بصوتٍ عالٍ بالاسم إلى أن أعادني الليل اللامع الهادئ إلى نفسي وغلفني بمنامات جديدة.

وعلى هذا النحو استمر الوضع حتى الصباح ولدى استيقاظي كنت كمن ارتوى وانتشى من منهل ساخن للسعادة.

أتيت إلى أقاربي وكنت لا أزال نشوان حالماً فوجدت في غرفة الجلوس جارنا الطحان، الذي كان ينتظرني لكي يأخذني معه إلى المدينة بعربة نقل خفيفة. كانت عودتي مقررة منذ بعض الوقت وقد رُبطت واتُفق على موعدها مع سفرة عمل هذا الرجل، ذلك لأن السفر معه لا يخلو من ارتياح وأمان. بطبيعة الحال لم أكن أسأل كثيراً عن السفرة، زد على ذلك أن الطحان أتى دون توقع وأبكر مما كنا نظن، خالي وذووه طلبوا مني أن أدعه يسافر وأبقى أنا عندهم، في قلبي علا صراخ باتجاه آنّا والبحيرة الهادئة، ولكنني أكدتُ بجدية أن أوضاعي تتطلب مني أن أُفيد من هذه الفرصة، فتناولتُ فطوري بسرعة وجمعتُ أمتعتي ثم ودعتُ أقاربي وجلستُ مع الطحان على العربة الصغيرة، التي تدحرجت بلا توقف إلى خارج القرية وسرعان ما وصلت إلى الطريق العام. قمتُ بكل ذلك وأنا في وضع من الاضطراب والبلبلة، من جهة لأنني ظننت أنه سيبدو عليّ في الحال أنني بقيت من أجل آنّا وأنني أحبها فعلاً، وكذلك أخيراً بدافع مزاج متقلب لا سبيل إلى تفسيره.

حالما بعدت عن القرية مسافة مئة خطوة، ندمت على سفري؛ وكان يحلو لي أن أقفز من العربة، كنت أدير رأسي باستمرار إلى الوراء صوب الأعالي المحيطة بالبحيرة وأنظر إليها دون أن أرى كيف أصبحت تحت عيني زرقاء اللون وصغيرة الحجم وكيف برزت الجبال العالية وسمقت من بحيرات أكبر وأعمق.

لم أستطع في الأيام الأولى من عودتي أن أتأقلم من جديد وأتدبر أموري بالنحو الذي يرضيني. ولدى رؤية الربوع الطبيعية الرائعة، التي تحيط بالمدينة، لم يطف بمخيلتي كجنة غناء سوى تلك المنطقة التي غادرتها، ولم أشعر سوى الآن فقط بكل فاتن من مفاتن مكوناتها البسيطة والمتواضعة، لكن أيضاً الهادئة والمحببة إلى حد كبير. حين كنت أنظر من أعلى مكان فوق مدينتنا إلى تلك الربوع، كانت عندي تلك البقعة الصغيرة المتوارية عن الأنظار من تلك المنطقة البعيدة الداكنة، التي خمنتُ أن تلك القرية وبحيرة المعلم القريبة منها تقعان في نطاقها، هي أجمل بقعة أحاط بها مجال نظري، كان النسيم يهفو من هناك أنقى وأسعد، وكان لإقامة آنَّا، المستعصية على نظري، إبان ذلك الأصيل الداكن والنائي، أثر مغناطيسي في جميع الربوع الواقعة بيني وبينها؛ وحين كانت تتعذر علي، إذا ما غصت إلى الأعماق، رؤية ذلك الأفق السعيد، كنت أبحث على الأقل عن الجهة الأصلية وأحس بها وأرى بكل حنين واشتياق تلك القطعة من السماء، الذاهبة إلى هناك والمحاطة بأقرب الجبال.

في غضون ذلك أثيرت من جديد مسألة اختيار مهنتي وبرزت بصورة أكثر إلحاحاً يوماً بعد يوم، وذلك كي لا أبقى الآن عاطلاً من العمل ومن دون خطة في الحياة. كنت ذات مرة ماراً بأبواب مبنى المصنع الذي أقام فيه أحد المهتمين بأموري. رائحة أحماض كريهة توغلت في أنفي، وأطفال شاحبو الوجه كانوا يعملون في داخل المصنع ويضحكون فتظهر عضلات وجوههم خشونة وفظاظة. نبذتُ الفرص التي سنحت هنا لمصلحتي وفضلتُ الابتعاد تماماً عن تطلعاتٍ نصف فنية من هذا النوع ومن ثم الارتماء بكل عزم وتصميم في أحضان العمل في وظائف الدولة إن كان لا بد من التحول عن عالم الفن، واستسلمتُ لهذه الفكرة بصبر وهدوء. لأنه ما من أمل، مهما كان ضعيفاً، لاح في الأفق في أن تسنح فرصة لوضعي في عهدة فنان جيد.

في تلك الفترة صادف أن رأيت يوماً كيف كانت مجموعة من مثقفي المدينة يرتادون بكثرة من حين لآخر مبنى عاماً. فسألت عن السبب فقيل لي إن معرضاً فنياً يقام في ذلك المبنى وينتقل من مدينة إلى أخرى. وبما أنني رأيت الذين يدخلون إلى هناك أناساً متأنقين في ملبسهم، أسرعت إلى البيت وتزينت أيضاً قدر الإمكان كما لو أنني ذاهب إلى الكنيسة فتجرأت فوراً على الدخول إلى تلك القاعات التي تعج بالأسرار والخفايا. دخلتُ إلى صالة مضيئة كانت تلمع فيها من كل الجدران والأعمدة الكبيرة أضواء منعشة، ملونة ومذهبة. الانطباع الأول كان خيالياً تماماً؛ من كل الجوانب والجهات طالعتني لوحات ربوع طبيعية، نقية وكبيرة، من دون أن أراها بادئ ذي بدء منفردة ثم حامت أمام ناظري في أجواء ساحرة وقمم أشجار؛ لوحات أصائل تحترق، رؤوس أطفال، رسومات لطيفة كانت في غضون ذلك تبرز من بين اللوحات الكبيرة، وفجأة يختفي كل شيء من جديد أمام أشكال جديدة بحيث كان لا بد لي بجد من أن أقلِّب بصري فيما حولي لكي أرى أين اختفت هذه الخميلة الرائعة من أشجار الزيزفون أو تلك السلسلة الهائلة من الجبال، التي كنت لتوي أظن أنني لا أزال أراها؟ إضافة إلى ذلك نشرت الدهانات المنعشة، التي طليت بها إطارات اللوحات، رائحة ذكية أحدية كان من شأنها أن بدت لي أكثر طيباً من بخور كنيسة كاثوليكية.

تعذر علي أخيراً أن أقف بهدوء أمام واحدة من هذه اللوحات تقريباً، وحين حدث ذلك فعلاً نسيتُ نفسي أمامها ولم أعد أبرح مكاني. بعض اللوحات الكبيرة المنتمية إلى مدرسة جنيف، مجموعات أشجار وغيوم ضخمة مرسومة بطلاء تعذرت علي الإحاطة بمعرفته، شكلت حليّ المعرض وزيناته، وتخللت ذلك مجموعة من اللوحات الصغيرة من الحياة اليومية والصور بالألوان المائية جذبت الناس باعتبارها الفئة البسيطة المناوشة، وبضع لوحات تاريخية وهالات قديسين أثارت أيضاً إعجاب المرتادين. ولكنني كنت أعود باستمرار إلى تلك اللوحات الكبيرة، التي كانت تصور المناظر الطبيعية الخلابة وأتتبع أشعة

الشمس التي تلهو عبر الأعشاب وأوراق الأشجار وأرسخ في ذاكرتي بتعاطف عميق صور الغيوم الجميلة، التي بدا أنها كُومت بعضها فوق بعض بيد خفيفة ولاهية من قبل أناس سعيدي الحظ.

مكثت ما قدر لي أن أستمر في المكوث، طول اليوم في الصالة المبهجة حيث جرت الأمور برقة وتهذيب، وكان الناس يتبادلون التحيات بلباقة ويتحدثون أمام إطارات اللوحات اللامعة بكلمات رقيقة. حين عدت إلى البيت كانت أمي جالسة هناك وهي تمعن في التفكير بسببي، وتندب باستمرار حظي ومصيري لأني لا بد لي من التخلي عن الرسم بحيث مس هذا الأمر شغاف قلبها فألقت مرة أخرى نظرة شاملة بنية أن تعمل ما في وسعها على تلبية رغبتي مهما يكن من أمر.

وهكذا وجدت أمي أخيراً رجلاً كان يمارس أعمالاً فنية غريبة في دير قديم وصغير للراهبات، خارج المدينة، وقليلاً ما لفت انتباه الناس. كان الرجل رساماً، حفاراً على النحاس، طباعاً على الحجر وطباع كتب في شخص واحد، وقد كان يرسم بأسلوب عفا عليه الزمن مناظر لربوع من الطبيعة السويسرية كان زارها من قبل مرات متعددة ويحفرها في النحاس ثم يطبعها ويكلف بعض الشباب بطلائها بألوان مختلفة. هذه اللوحات كان يرسلها إلى جميع أنحاء العالم ويمارس من خلالها تجارة جديرة بالامتنان. وإضافة إلى ذلك كان يصنِّع كل ما تيسّر له، شهادات وأجران تعميد، تماثيل شبين وشبينة، نقوشاً على القبر ، أشجار صفصاف حزينة وملائكة حافين وهم يبكون؛ وإذا ما أتى إليه في غضون ذلك شخص قليل الخبرة وقال له: "هل تستطيع أن ترسم لي صورة من الجميل جداً امتلاكها وتساوي قيمتها لدى العارفين وذوي الخبرة من الناس عشرة آلاف تالر؟ أريد صورة كهذه!"، فسوف يوافق على هذا الطلب ويبدأ فوراً ، بعد أن يدفع له ذاك الرجل نصف السعر سلفاً، بالعمل على تلبيته. في أعماله هذه كان يدعمه لفيف من الشبان الشجعان، الذين تميزوا بالاستقامة وكان مسرح إنجازاتهم هو قاعة الطعام السابقة التي كانت

مخصصة للراهبات الورعات. كل واحد من جانبيها الطولانيين كان مزوداً بنصف دزينة من النوافذ العالية وألواح زجاجية دائرية الشكل، صحيح أنها كانت تسمح للضوء بالتسلل إلى الداخل؛ ولكن نظراً إلى شكل سطحها الشبيه بالأمواج فقد تعذر إلقاء نظرة عبرها إلى الخارج، الأمر الذي كان له تأثير مريح في مثابرة العمل في هذه المدرسة الفنية النشيطة هنا. كل واحدة من هذه النوافذ كانت محتلة من شخص مهتم بالفن مديرٍ ظهره لمن وراءه وناظرٍ إلى قفا من هو أمامه. اللقاء الرئيسي لهذا الفريق من الناس تكوَّن من أربعة شبان إلى ستة، بعضهم صبيان تميزوا بإنجاز عمل رائع في تلوين لوحات الطبيعة السويسرية؛ بعد ذلك يأتي دور صبي معلول وسعَّال ليطلي صفائح نحاسية صغيرة بالصمغ وحمض النتريك فيقضي بذلك على الحفر التي قد تشكل فيما بعد خطراً على اللوحات ثم يحفر بالإزميل في ما بينها، وتُطلق عليه تسمية حفَّار النحاس. ويأتي بعده طبَّاع الحجر وهو شاب مجبور الخاطر وعلى سجيته ويلم نسبياً بمجال العمل هناك من أقصاه إلى أقصاه فيأتي في الدرجة الثانية بعد المعلم، لأنه حاضر باستمرار وعليه أن يكون على استعداد لطبع صورة رئيس دولة أو قائمة مشروبات روحية، أو مخطط درَّاسة، كذلك عنوان نص تربوي تثقيفي تهذيبي لبنات فتيَّات، كان يطبع كل ذلك على الحجر بالطباشير أو بالريشة أو بالحفر أو بالحبر الصيني. في خلفية قاعة المطعم كان يعمل بحركات واسعة غلامان ضاربان إلى السواد، هما حافر النحاس وطابع الحجر، كل على آلة الطباعة التابعة له، وذلك بسحب أعمال أولئك الفنانين على ورق رطب. وأخيراً خلف كل الجماعة وفي وضع من الإشراف التام عليها، كان المعلم السيد الرسام الفني وتاجر الأعمال الفنية، هابرزات، صاحب مطبعة للحفر على النحاس والحجر، الجاهز لتلبية كل الطلبات المرغوبة، يجلس على كرسيه منشغلاً بأدق الأعمال وأصعبها، لكن في معظم الأحيان منشغلاً بكتابه أو بكتابة رسائل وتغليف المنتجات الجاهزة للإرسال وحزمها.

في تطلعات العاملين في ورشة هذا الفن وآمالهم سادت عقليات متباينة. الحافر على النحاس والطابع على الحجر كانا ناضجين ومتعبين من الحياة وكانا ينظران إلى العالم نظرة مستقلة، ويحصلان في عملهما لدى المعلم هابرزات على غولدن واحد من النقود يومياً ويعملان ثماني ساعات في اليوم لقاء هذا الأجر، وفيما عدا ذلك لم يعبأا بالمعلم ولم يعلقا به أو بغيره أي آمال تُذكر. بالمقابل كان وضع أولئك الشبان المشتغلين بالتلوين مختلفاً تمام الاختلاف. هذه الأرواح المرحة اشتغلت بألوان فعلية وبسيطة وشفافة واستخدمت الفرشاة بالدهانات الزرقاء والحمراء والصفراء بفرح غامر، خصوصاً أنهم كانوا متحررين من أعباء الرسم والتنسيق والترتيب متجاوزين بذلك بفضل مادتهم السائلة الملونة تجاوزاً سطحياً فن الطباعة الداكن المتعلق بالحفر على النحاس. وكانوا بحق الرسامين الفعليين من بين المجموعة بأسرها؛ كانت أبواب الحياة لا تزال مفتوحة أمامهم وكان كل منهم يتطلع، إذا ما قُدر له أن يفلت من مطهر المعلم هابرزات، إلى أن يصبح فناناً كبيراً. في هذه المجموعة استمر عبر كل الأجيال، التي عملت في خدمة المعلم في ورشته الفنية، توريث التقاليد الفنية الكبيرة المتعلقة بالسترة المخملية والقلنسوة؛ ولكن لم يصل أحد إلى هذا الهدف إلا نادراً، إذ نجم باستمرار عن الصعود السريع إعياء كبير، إضافة إلى أن معظم المغرَّر بهم حقق بعد تركه العمل في الورشة إنجازاً مهماً بتعلمه صنعة جيدة ومجدية. كانوا باستمرار أبناء أناس مصابين بفقر الدم، وبدافع من حيرتهم لدى اختيار مأوى لهم كان الرجل النشيط يغريهم بالقدوم إلى ورشته بنية أن يصبحوا فيما بعد رسامين وسادة قادرين على كسب رزقهم وأعلى مرتبة من أن يصبحوا خيَّاطين أو حذَّائين. وبما أنهم في العادة لم يستطيعوا الإتيان بنقود، فقد كان عليهم أن يلتزموا دفع أجور الدروس في "فن الرسم" على صورة أعمال يؤدونها في الورشة الفنية وبالعمل أيضاً لمصلحة المعلم أربع سنوات كاملة. بعد ذلك كان المعلم يبدأ بترويضهم منذ اليوم الأول على تلوين مناظره الطبيعية ويوصلهم،

بصرف النظر عن افتقارهم إلى الكفاءة اللازمة، بالشدة والصرامة إلى حد يؤدون معه عملهم على الفور بصورة نظيفة ولطيفة وطبقاً للأعراف المتوارثة. إلى جانب ذلك سُمح لهم، إذا ما رغبوا، في أيام العطل أن يتمرنوا على تقليد لوحة مهملة أو عديمة الجدوى بغية متابعة تأهيلهم، فكانوا يختارون في معظم الحالات مواضيع لا فائدة منها للتعلم بل هي ذات أثر كبير، لكنه آني الطابع؛ وكان المعلم هابرزات يصحح لهم أعمالهم هذه إذا ما وجد الوقت لذلك، ولكنه كان يمتعض من ممارستهم هذا النشاط الخاص أكثر من اللازم؛ إذ كان تناهى إلى خبرته بضع مرات أن هؤلاء الذين طابت لهم هذه الانشغالات واكتشفوا شرياناً فنياً يتدفق في داخلهم غدوا مع الأيام مضطربين مرتبكين ولا يتوخون النظافة والنقاء لدى تلوين منشوراته. كان عليهم أن يقوموا بجد ومثابرة بأعمال تخللتها ألاعيب مجون وهزليات كثيرة روحت عن أنفسهم في كل لحظة استراحة وتوقف عن العمل، ولدى الاقتراب من حلول السنة الرابعة حين انقضت أجمل الأوقات لتعلم الأفضل، تعرض هؤلاء للإذلال والضغط، وأمطرهم الآباء بالتعبيرات المعذِّبة بأنهم لا يزالون يأكلون من خبزهم، ففكر هؤلاء الشباب بصورة جدية وهم لا يزالون يحركون الفرشاة في الطلاء في تأمين عمل أكثر كسباً حين تتحسن الأوضاع. كان هابرزات نفخ سني شباب نحو ثلاثين من صبيان كهؤلاء في أجواءٍ أحدية زرقاء وأشجار خضراء كالعشب على أوراقه، وحفار النحاس السعَّال كان ساعده الأيمن الجهنمي إذ كان يحفر بحمض النتريك ما تحت الورق من مستند أسود اللون في حين كان يشكل الطباعون المكتئبون، وهم ملتصقون بدولاب آلتهم المطقطِق، من تصح تسميتهم نوعاً من شياطين مظلومين، من الدرجة الثانية، شياطين لا يعرفون التعب أبداً، وينجزون من تحت درافيل مطابعهم بلا كلل أو تعب وإلى مالا نهاية تلك الأوراق المطلوب تلوينها. وهكذا أدرك المعلم هابرزات إدراكاً تاماً كنه الصناعة الحديثة، التي تبدو منتجاتها أكثر قيمة وأكثر جاذبية لدى الشارين كلما اندمجت فيها حياة أطفال

مسروقة بطريقة ماكرة. وأنجز صفقات عظيمة فعُدَّ لذلك رجلاً يمكن للمرء أن يتعلم في كنفه شيئاً إذا ما توفرت الرغبة في ذلك.

من جهة ما نُصحت أمي بأن تتحدث معه وتتعرف مكان عمله فربما يُستحسن أن يكون ذلك في البدء على الأقل محطة أولى للسير على طريق المستقبل، ولا سيما إذا ما تم الاتفاق معه على ألاّ يستغلني لمصلحته، بل يدرسني مقابل تعويض كاف طبقاً لأفضل معرفة في حوزته. فأظهر هابرزات استعداداً وسروراً لتأهيل شاب فتي لكي يكون فناناً فعلياً وامتدح عالياً قرار أمي المعلن بدفع المبالغ الضرورية لهذا الغرض؛ فقد بدا لها الآن أن الوقت قد حان للتضحية بثمرة توفيرها المتواصل وتقديمه قرباناً على مذبح مصيري. فأُبرم عقد لمدة عامين أقضيهما في الورشة الفنية في غمرة التمرينات الأكثر فائدة وجدوى، وذلك لقاء دفع مبلغ من المال بانتظام كل ثلاثة أشهر. بعد توقيع العقد من الجانبين ذهبت في صباح أحد أيام الاثنين إلى الدير القديم حاملاً معي كل تجاربي وأعمالي حتى ذلك الحين في مزيج متنوع وملون، لكي أقدمها بين يدي المعلم الجديد عند الطلب. وحين دارت لوحاتي الغريبة على الحاضرين بالتناوب عبَّر المعلم فيما بعد عن رضاه عن تحمسي ونواياي وقدمني إلى العاملين في ورشته الفنية، الذين كانوا نهضوا واقفين هكذا عشوائياً واعتراهم الفضول قدمني إليهم ، بصفتي طموحاً حقيقياً مجبولاً على هذه المنقبة حتى قبل دخوله إلى صالة للفن. ثم أعلن بعد ذلك سروره الشديد بإنجاز مدرسة يعتد بها بفضل تلميذ من هذا النوع، وتحدث فيما بعد بنبرة منبرية عن توقعاته وطموحاته فيما يتعلق باجتهادي ومثابرتي.

كان على أحد المشتغلين بعمليات الطلي والتلوين أن يخلي لي مكانه بجانب النافذة ويجلس بالقرب من زميل آخر في حين أجريت الاستعدادات لأن أحل محله؛ وإثر ذلك، حين وقفت أمام الطاولة الخاوية بانتظار الأشياء التي ستأتي، أخرج السيد هابرزات من حقائبه نموذجاً لمنظر طبيعي ثم رسماً لموضوع بسيط من عمل مطبوع على الحجر مثل الذي سبق أن كنت أراه

في المدارس بأشكال متنوعة. طُلب مني أن أنسخ هذا الرسم مؤقتاً باهتمام ودقة. ولكن قبل أن أجلس لأبدأ بالعمل، أرسلني المعلم لجلب ورق وقلم رصاص، الأمر الذي لم يكن يخطر ببالي إذ لم يكن في ذهني أي تصور عن كيفيـــة البدء بعملي أول مرة. وصف لي المعلم ما هو ضروري، وبما أنني لم أحمل آنذاك أي نقود فقد كان لا بد لي قبل كل شيء من قطع المسافة الطويلة إلى بيتنا ثم الذهاب إلى دكان لكي أشتري ما كنت بحاجة إليه، جيداً وجديداً، وحين عدت أدراجي إلى الورشة الفنية كان بقي لحلول وقت الظهيرة نصف ساعة من الوقت فقط. كل هــذه الإزعاجات: الامتناع عن إعطائي ورقة وقلماً لهذه البداية بالعمل بل إرسالي لجلبهما، علاوة على تسكعي في الشوارع، وطلبي نقوداً من أمي، وأخيراً البدء بعملي قبيل تفرق الناس وذهابهم إلى الطعام، تراءى لي أمراً منعدم الشعور وتافهاً ومناقضاً لما كنت تصورت بشيء من الغموض عن مكان إقامة لمجموعة من الفنانين، الأمر الذي انقبض له قلبي.

ولكن سرعان ما زال هذا الانطباع حين شغلتني تلك المهمات الخفية التي كُلفت بها أكثر مما كنت توهمت في بدء الأمر؛ لأن هابرزات ركز في المقام الأول على أن يكون لكل جرة قلم من صنعي قياساً مساوياً تماماً للأصل الذي أرسم عنه، وأن تظهر اللوحة بمجملها لا أكبر ولا أصغر من الأصل. ولكن تقليداتي للأصل كانت باستمرار أكبر منه على الرغم من صحة التناسب، والمعلم استغل هنا الفرصة ليؤكد دقته وصرامته وصعوبة تطوير الفن وإشعاري بالارتياح من أن الأمور لم تجر بالسرعة التي كنت أظنها.

ولكنني وجدت نفسي مرتاحاً إلى طاولتي (كان أمراً طبيعياً عندي ألاّ أجد حوامل للرسم مع أنني كنت أعدها نوعاً خاصاً من الزينة في ورشة فنية) وأثبتُّ وجودي بشجاعة عبر بدايات عملي المتواضعة، نسختُ بأمانة إسطبلات خنازير في الأرياف ومخازن حطب وأشياء من هذا القبيل كانت شكلت، إضافة إلى كثير من الأشجار الكثيفة النحيلة، النماذج التي اقتديت بها

في رسوماتي وضاعفت من مشقتي وعنائي بقدر ما كانت تبدو لعينيَّ تافهة وحقيرة. فلدى دخولي إلى صالة المعلم كان انصب، في عقليتي المتحررة من كل قيد لا بل التحكمية المتعسفة، في آن معاً إلى جانب الالتزام والطاعة مظهر من انعدام العاطفة ومن الخواء أيضاً، انصب فوق هذه الأشياء. فكان يتراءى لي أمراً غريباً أن أجلس طول اليوم مكبلاً في مكاني فوق أوراقي، ولا سيما وسط المنع من التجوال في الغرفة والتحدث دون أن يطلب مني ذلك من قبل. كان ثمة اختلاط متواضع بين طابع النحاس وطابع الحجر فقط وبينهما وبين صبيان الطباعة المعنيين، وكان ذانك يوجهان الكلمة إلى المعلم حين كانت تبدو لهما جدوى ما من الدردشة معه. أما هذا فقد كان يروي، حين يطيب له المزاج، قصصاً كثيرة وأقوالاً متداولة عن الفن وكذلك هزليات من حياته السابقة وشمائل من عظمة الرسامين. ولكن حالما كان يلاحظ أن أحداً أصغى إلى حديثه باهتمام بالغ ونسي عمله جراء ذلك، كان يبتر الحديث ويراقب لفترة قصيرة ظهور تحفظ حكيم إزاء حديثه.

بعد فترة من الوقت حصلتُ على حق استخراج نماذج لرسوماتي بنفسي والاطلاع على كنوز النماذج الموجودة. كانت تلك تتكون من مجموعة كبيرة من أشياء تجمعت مصادفة ولوحات نحاسية قديمة لا بأس بها ورقاع ولوحات متفرقة لا أهمية لها بل تُكوَّم هكذا على مر الزمن ورسومات نجمت عن روتين معين، دون حقيقة طبيعية وأخيراً خليط متبقٍّ من رسومات متنوعة. رسومات يدوية طبقاً للطبيعة، أوراق وُجدت هناك لذاتها ورئي أنها تشربت هواء منعشاً وشمساً، كل ذلك وُجد بكثرة في كنز الفن؛ لأن المعلم كان اقتنى آثاره الفنية وفوضاه بين أربعة جدران ولم يخرج من هناك إلا ليصمم بما أمكن من السرعة منظراً ممكناً. كل ما حصّل معلمي من معرفة ما كان إلا تقنية مرنة مع أنها مزيفة، وعلى هذه النقطة كان يركز كل التركيز إبان إعطاء دروسه.

في البداية أبقاني فترة من الزمن في تبعيته، إذ لم أكن أدرك تماماً الفرق بين درسٍ شفاف وحاد وآخر ملوث بالهباب ومتبلد، بل ركزت على الشكل والطابع؛ لكن أخيراً وقعتُ بفضل الاشتغال المستمر بالفرشاة وراء السر، وصرت بعد ذلك أُنتج بملاحنة ثابتة عدداً كبيراً من الرسومات بالحبر الصيني، لوحة بعد أخرى. كنت ركزت فقط على عدد المنتج لدي وسررت أيما سرور لانتفاخ حقيبتي؛ ولكن لم تنل مني في أثناء عملية اختيار النماذج تلك التي كانت أكثر تأثيراً وأكثر لفتاً لنظري أي اهتمام إضافي. وهكذا أوشكت مؤونة معلمي من النماذج، قبل انتهاء الشتاء الأول، على النفاد وذلك بطريقة كان هو ذاته يلم بها على وجه التقريب؛ لأنني بعد أن لاحظت حركات اليد والوسائل اللازمة لمعالجة دقيقة ونظيفة علوتُ في الحال فوق درجة الطلي المعتاد، التي كان بلغها المعلم نفسه خصوصاً أنني بقيت في وضع تراجع تام في مجال الكنه والفهم الحقيقيين لهذا الفن. لهذا السبب كان المعلم هابرزات بعد نصف العام الأول محتاراً في ما كان ينبغي عليه أن يقدم لي من نماذج للرسم ما دام لم يكن يرغب، من باب الحرص على نفسه هو، في أن يطلعني على كل فنه؛ لأنه لم يبقَ عنده في الكمين سوى معالجته للألوان المائية التي هي أيضاً، كما فهمها هو، ليست ضرباً من ضروب ممارسة السحر. ولأن عمق التفكير والدقة العقلية أمران لم يكونا معروفين في الورشة الفنية، فإن كل المقدرة تكونت فيها من مظاهر فارغة كانت تحققت بسرعة. ولكنني وجدت مخرجاً حين أعلنت أنني أريد إنجاز مجموعة صغيرة من اللوحات الكبيرة المحفورة على النحاس عن طريق فرشاتي المغمسة بالحبر الصيني. كان في حوزته في المجموعة ذاتها ستٌّ لوحات محفورة عن كلود لوريه، لوحتان كبيرتان لمناظر طبيعية صخرية وقطاع طرق عن سالفاتور روزا وبضع لوحات محفورة على النحاس عن رويسدال وايفردنغن. نسختُ هذه الأشياء بالدور بأسلوبي الوقح المعتاد. لوحات كلود وروزا أحرزت نجاحاً لا بأس به لأنها، بصرف النظر عن أنها كانت حُفرت في

الأصل بطريقة تقليدية، عرضت نفسها أيضاً فيما عدا ذلك بأشكال رمزية وواسعة؛ بالمقابل عثت فَساداً في اللوحات الهولندية الناعمة والطبيعية بطريقة شنيعة، وما من أحد رأى هذا الفسق والفجور.

بهذا العمل تجذر في نفسي أساس لرؤية أكثر نبلاً ورقياً، والأشكال الجميلة والممحصة التي هي أمامي كان لها وقع مريح مقارنة ببقية أعمالي ولم تترك مجالاً لحدس الأفضل أن ينطفئ في أعماقي. ولكن من جهة أخرى التصق بهذا الإنجاز في الحال من جديد مساءة تمثلت في أن الرغبة القديمة المتسرعة للاختراع أوقظت مرة أخرى فبدأت في البيت أنا ذاتي، وقد أغوتني العظمة البسيطة للمواضيع الكلاسيكية، بتصميم لوحات طبيعية من هذا النوع ثم تابعت نشاطي ذاك على الفور في أثناء فترة العمل الفعلية في ورشة المعلم الفنية وذلك بوضع تصاميمي موضع التنفيذ بحجم طموح وبالمهارة المكتسبة. لم يمنعني السيد هابرزات من هذا العمل لا بل ارتاح لتحرره بذلك من عبء تأمين نماذج للرسم تفي بالغرض عندي؛ وأرفق أفكاري الهائلة والمفتقرة إلى النضج بهذا الشأن بآراء مهمة تعلقت بمعايير إنشاء اللوحة وربوع الطبيعة التاريخية وما إلى ذلك؛ هذا كله كان من شأنه أن أتى بعنصر علمي إلى ورشته بحيث حُسبت في الحال صبياً شيطاناً وتقبلت التملق الذي غلف الحديث عن الفرص السارة، التي تنتظرني في المستقبل، سفرة إلى إيطاليا، روما، لوحات زيتية كبيرة، لوحات كرتونية، كل ذلك تنبؤوا لي به سلفاً. ولكنني لم أُصب بالتعجرف جراء هذه الأمور بل حافظت على الوفاق والشيطنة مع زملائي الشبان وغالباً ما سرني أن أقطع جلوسي الأزلي وأساعدهم، مع أنهم كانوا خاضعين في الوقت ذاته لسيدة البيت، في إدخال كومة من الحطب إلى ذلك البيت. إجمالاً كانت السيدة، وهي سليطة اللسان وحادة الأنياب، تقتحم الورشة الفنية وفي جعبتها شكاوى تتعلق بشؤون البيت وبأحداث عائلية وتصطحب معها غالباً الطفل والخادمة، جاعلة من ذلك المكان ساحة لعراك مستعر ولم يندر أن تورط فيه كل الجماعة دون استثناء.

بعد ذلك كان الزوج يقف على رأس مجموعة خاضعة له في مواجهة زوجته، التي وقفت في مقدمة أتباعها وسط ضجيج وصخب هائلين ولم تنسحب إلا بعد أن ردت بطريقتها على كل ما وُجه إليها؛ أحياناً كان الزوجان يشكلان معاً جبهة موحدة ضد كل الباقين من جماعة البيت، وكذلك كان يبدأ غالباً طابع النحاس أو طابع الحجر تحركاً مهدّداً بصفته واحداً من التابعين في حين تُقمع بالقوة انتفاضات العبيد المشتغلين في مجال الطلي والتلوين. وأنا ذاتي تعرضت أكثر من مرة لمواقف خطرة، إذ وفرت لي بعض المشاهد العنيفة قسطاً من التسلية فكنت أروي بلا حذر وحيطة ما كنت أشاهد، وعلى سبيل المثال أعددتُ ذات مرة أحد تلك المشاهد إعداداً مسرحياً وعرضته على خشبة رواق الدير نصف المهدم مع الرسامين الشبان. ذلك لأنه مع أنني كنت في ذلك الوقت مستعداً وميالاً لأن أعيش حياة ناعمة طامحة نظراً إلى حدساً قوياً كان استيقظ في داخلي في أثناء الأيام الجميلة التي قضيتها في الريف، إلا أنني رأيتُني حُرمت من اختلاط جديرٍ بذلك الميل مكتفياً بالمجون الذي كان يحدث من حين لآخر في الورشة الفنية ومارست كل الشيطنة والعبث بأمانة وحيوية مع من مارسوا ذلك لأنني كنت بحاجة إلى الاختلاط والائتمان ولم أكن ممن يحتملون التحفظ بحكمة ونصف المشاركة.

لكن بما أن العواء مع الذئاب لم يعد علي بالضرر، كما ظننت، فإن نجم آنّا اللطيف الذي سطع دائماً في قرارة نفسي هو الذي دفع الضر عني حالما كنت وحدي من جديد سواء في بيت أمي أو في مشاويري بمفردي. ربطتُ بها كل شيء كنتُ بحاجة إليه خارج نطاق حياتي اليومية وكانت عندي النور الهادئ الذي شع في كل مساء على القلب المعتم، إذا ما غربت الشمس، وفي الصدر المُضاء تراءى لي بعد ذلك باستمرار أيضاً صديقنا الطيب الله العزيز، الذي بدأ في ذلك الوقت بوضوح متصاعد بممارسة حقوقه الأزلية ، عندي أيضاً.

كنت وجدت، وأنا أبحث عن كتب، رواية للأديب الألماني جان باول. في هذه الرواية بدا لي فجأة أن كل شيء مما أردته وبحثت عنه أو أحسست

به باضطراب وغموض يواجهني الآن مواسياً وملبياً. أدهشتني هذه الروعة، وبدا لي أن ذلك الوضع هو الحقيقي والصحيح! وفي وسط أوقات الأصيل وأقواس قزح، غابات ليلك ونجوم، وسط العواصف الهادرة والبارقة، وسط كل هذه الألعاب النارية في الأعالي والأعماق، بمعطف الدنيا هذا، المتألق والخالي من الحواشي بدا متدثراً من لا نهاية له، كبيراً لكن مليئاً بالحب، مقدساً لكن إله الابتسامة والمزاح، مخيفاً بسلطانه وقوته لكن ملتصقاً بارتياح إلى صدر طفل وينظر منه بعين البراءة كما ينظر أرنب صغير من بين الزهور! كان هذا سيداً وراعياً آخر مختلفاً عن ذلك الراعي الذي يخرز مقاطع كلمات من كتاب قواعد الدين المسيحي!

كنت في السابق حلمتُ بشيء من هذا القبيل ورن في أذنيَّ، والآن طلع علي صباح في ليالي الشتاء الطويلة التي كنت أقرأ في أثنائها في ستة وثلاثين جزءاً من كتاب النبي، وحين حل الربيع وغدت الليالي أقصر كنت أقرأ من جديد في فترات الصباح الرائعة وعودت نفسي علاوة على ذلك أن أبقى مستلقياً في السرير مدة طويلة وأنام في النهار، ووجنتي على الكتاب المحبب إلي، نوماً هادئاً مطمئناً. وحين كنت أستيقظ بعد ذلك وأذهب أخيراً إلى عملي فعلاً، كانت تتملكني روح من التسلط والتحرر من كل القيود، ولكنها أكثر تردداً وارتياباً من روح التمردات السابقة.

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل السادس

المخادِع

حين حل فصل الربيع، الذي كنت انتظرته بفارغ الصبر، كنت أذهب في الأيام الدافئة الأولى إلى العراء، مزوداً بالمهارة التي سبق أن اكتسبتها، لكي أستبدل بالطبيعة ذاتها النماذج الورقية للرسم. ورشة المعلم هابرزات الفنية نظرت بعين التقدير والحسد الدفين إلى استعداداتي المعقدة؛ لأن تلك كانت هي المرة الأولى، التي يؤدي فيها أحد أفراد الورشة عمله بهذا المستوى من الروعة، وممارسة الرسم "وفقاً للطبيعة" كانت حتى ذلك الحين أسطورة بديعة. أما أنا فلم أعد أذهب بروح من الثقة الوقحة، لكن حسنة النية كما كان الأمر في الصيف الماضي، إلى أمام أشياء الطبيعة، دائرية الشكل والمضاءة بأشعة الشمس، بل صرت أذهب إلى الطبيعة بروح من ضيق الأفق الأكثر خطراً وغروراً. فما كان عندي مبهماً أو بدا لي صعباً جداً داخلته، مخادعاً نفسي، بعضه ببعض وأخفيته بمهارتي التعيسة في الطلي بالفرشاة؛ لأنني بدلاً من أن أبدأ بكل تواضع بقلم الرسم خرجت في الحال بأواني الحبر الصيني المعتادة، بكأس الماء والفرشاة وسعيت جاهداً لملء أوراق كاملة على صورة لوحات في كل الزوايا الأربع كنت أرسم إما مناظر كاملة مع بحيرات وجبال أو أتتبع جداول جبلية في الغابة حيث كنت أجد كثيراً من شلالات المياه الصغيرة والجميلة التي كنت أحيطها بأربعة خطوط. ولشد ما أمتعتني لعبة الماء الرقيقة في سقوطه وإرغائه وجريانه السريع وأمتعتني أيضاً شفافيته

وانعكاساته المتنوعة، ولكنني نقلته إلى صيغ فظة من ابتكار مهارتي بحيث ضاعت منه الحياة والبريق في حين لم تكن وسائلي كافية لرسم ذلك الكائن المتحرك على الدوام. كان من الأسهل علي أن أهيمن على ما في الجداول من أحجار كثيرة التنوع وأنقاض أحجارٍ مكومة بعضها فوق بعض بلا ترتيب، ولكن سريرتي الفنية كانت آنذاك قاتمةً معتمة. كانت هذه السريرة تتحرك في الغالب محذرة إذا ما تجاوزت أو أهملت تفاصيل منظورية دقيقة وتصغيرات في الأحجار على الرغم من رؤيتي لها وشعوري بها وذلك بدلاً من أن أتتبع الأشكال المهمة بذريعة أن الأمر لا يتوقف على هذه المساحة أو تلك وأن الطبيعة العفوية قد تكون تماماً مطابقة لما رسمته؛ ولكن أسلوب عملي برمته كان من شأنه أن حال دون ظهور حالات كهذه من تأنيب الضمير، والمعلم هابرزات، حين كنت أطلعه على أعمالي الرديئة هذه لم يكن جاهزاً لتحسس حقيقة الطبيعة المفقودة، التي كان ينبغي أن تظهر حقاً في الملامح المهملة؛ بل كان يحكم على الأشياء باستمرار انطلاقاً من فنه الحبيس بين أربعة جدران.

بصرف النظر عن مبدئه المتعلق بنظافة تقديم المنتج وشفافيته فإن المعلم كان يراعي تقليداً وحيداً من المناسب أن ينقله إلي وهو تقليد توفر عنصري العجيب والمرضي، الأمر الذي استبدل به هنا الجميل والفاتن. كان يشجعني على البحث عن أعواد صفصاف جوفاء وأشجار متآكلة بالية وأشباح صخور مغامرة بألوان متعددة من العفن والانحلال وكان يمتدح لي هذه الأشياء على أنها مواضيع جديرة بالاهتمام. راق لي الأمر ما دام أثار خيالي فشددت الرحال بكل حماس واندفاع لتصيد ظواهر من هذا النوع، إلا أن الطبيعة لم تقدمها إلي إلا بتقتير محبط، لا بل أثبتت لي أنها تنعم بصحة أتم من أن تتفق مع رغباتي وأمنياتي وما وجدته من نباتات تعيسة تراءى على الفور لعينيَّ المنهكتين بفعل الإثارة والتبحر في السخف والبساطة، كشارب كحول يرغب في الحصول مرة تلو أخرى على عرق أقوى فأقوى. لهذا السبب بدأت الحياة المزدهرة في الجبال والغابات تصبح بتفاصيلها فاترة

وغير جديرة بالاكتراث، وصرتُ أطوف في إقفار الغابات ووحشتها هكذا على غير هدى من الصباح حتى المساء. وكنت أتوغل باستمرار بصورة أكثر تعمقاً في زوايا ووهاد لم تُر من قبل؛ وحين كنت أجد مكاناً معزولاً تماماً ومنطوياً على أسرار كنت أقيم فيه وأنجز بسرعة رسماً من اختراع خيالي لكي لا أعود إلى البيت خالي الوفاض. في تلك الرسوم كنت أكدس أغرب الأشكال التي استطاعت مخيلتي الإتيان بها وأندرها بحيث مزجت ما رأيته حتى آنذاك من خصائص الطبيعة مع مهارتي المكتسبة فتمخض ذلك عن أشياء قدمتها إلى السيد هابرزات على أنها موجودة في الطبيعة فاستعصى الأمر على فهمه. كان يهنئني على اكتشافاتي ويؤكد صحة أقواله عن دأبي وموهبتي ما دمت أبرهن بمنجزاتي بكل وضوح على أن لي نظرة حادة وقريرة إلى ما هو رائع وخلاب، وأنني أعثر على أشياء يمر عليها ألف شخص آخر مرور الكرام. كان من شأن هذا التضليل بنية حسنة أن أيقظ في نفسي مزاجاً سيئاً لمتابعة مجهوداتي والعمل بتكلف على خداع الرجل الطيب.
كنت أخترع باستمرار، وأنا جالس في مكان ما من مجاهل الغابة، تشوهات أكثر استهتاراً ومجوناً لصخور وأشجار، وأفرح سلفاً نظراً إلى أن معلمي سوف يعدّها حقيقة وموجودة في أقرب الأمكنة. ولكن ربما يكفي لشيء من الاعتذار أنني رأيت في لوحات نحاسية قديمة، على سبيل المثال من أعمال سفانيفيلت، أن التجسيدات الأكثر مغامرة ومجازفة تصلح – بصفتها تحفاً فنية جديرة بالمديح - لأن تكون نماذج اقتداء للرسامين، وهيمن علي لمدة طويلة رأي ساذج أن هذا هو الفن الحقيقي، بل هو في كل الأحوال تمرين ممتاز.
حتى الأشكال النبيلة والسليمة من أعمال كلود لوريه كانت انخفضت في الوجدان الشبابي العرضي من جديد إلى ما تحت السطح. في أثناء أمسيات الشتاء كان رسم الأشخاص مورس في الورشة الفنية إلى حد ما وكنت اكتسبت، حين نسختُ عدداً كبيراً من صور الأشخاص المحفورة والمرتدية ثياباً بهدف تحقيق شيء من الحيوية في الرسوم، بعض الخبرة السطحية في

مجال تصميم لوحات كهذه. وعلى هذا النحو ابتكرت آنذاك، إضافة إلى لوحاتي المتعلقة بالمناظر الطبيعية الغريبة، صوراً لبشر أكثر غرابة، صبياناً بثياب رثة بالية، وحملتها معي إلى الورشة الفنية لكي أجني قهقهة مدوية. كان الأمر يتعلق بجيل مجنون وعديم الفائدة فكان بارتباطه بمحلية نادرة شكل عالماً لا وجود له سوى في دماغي وغدا أخيراً موضع شك وارتياب عند رئيسي في العمل، غير أنه لم يلاحظ الشيء الكثير حول هذا الموضوع، بل تركني أسير في دروبي الخاصة بي لافتقاره من جهة إلى العقلية الحديثة لكي يتمكن من اقتفاء أثر دسائس ممارساتي وخلفياتها فيباغتني، ومن جهة أخرى لتفوق معرفته. هاتان القدرتان تشكلان في حقيقة الأمر سر كل تربية: روح الشباب الحيوية الواضحة، التي وحدها تعرف الشباب وتتغلغل فيهم، والتفوق الأكيد للشخص في كل الأوضاع والأحوال. غالباً ما تتمكن قدرة من هاتين من أن تحل محل الأخرى عند الحاجة، ولكن إذا ما انتفى وجودهما معاً فإن الشباب هو قوقعة مغلقة في يد المعلم، الذي لا يتسنى له فتحها إلا بتدميرها، غير أن كلتا الصفتين لا تخرج سوى من الأرضية الواحدة والأخيرة ذاتها: من استقامة الوعي ونقائه وبساطته.

كان الصيف وصل إلى أوجه حين استجبت لرغبتي الدفينة في السفر بصحبة أمتعتي إلى الوطن الآخر، وطن القرية النائية المنعزلة. بقيت أمي مرة أخرى في البيت زاهدة قانعة ومستغنية عن التحرك إلى بلاد الله الواسعة، على الرغم من كل الدعوات التي وُجهت إليها لأن تغلق باب بيتها إغلاقاً تاماً وتذهب من جديد إلى الربوع التي قضت فيها شبابها. أما أنا فقد اصطحبت معي ثمار عملي الكثيرة، التي نجمت عن نشاطاتي منذ أن غادرت الأقارب، لأنني فكرت في أنها لا بد أنها ستكون محط الاهتمام وشاغلة الناس.

الحق أن الرسوم الكثيرة الملونة بالأسود تلويناً شديداً قد أثارت في بيت خالي بعض الدهشة والاستغراب؛ وقد نظر الناس بعامة إلى الموضوع برمته بتقدير واحترام. لكن حين تأمل الخال تلك الرسوم، التي أردت لها أن تكون

منجزة وفقاً للطبيعة (لأنني أخيراً آمنت أنا ذاتي بذلك بصفتها نوعاً من معايشات مُنشهاورن، على أفضل وجه لأن هذه الأشياء نشأت في العراء تحت سماء مكشوفة)، أخذ يهز رأسه مرتاباً ومستغرباً أين كانت عيناي إبان عملية الرسم. وقد اهتدى خالي بحسه الواقعي للأمور باعتباره مزارعاً وخفير غابات رغم قلة إلمامه بالأمور الفنية إلى الخطأ، بسرعة وبساطة.

قال: "هذه الأشجار متشابهة، ولكنها كلها لا تشبه أي شجرة حقيقية! وهذه الصخور والأشجار لا يمكن ولو للحظة واحدة أن توجد هكذا بعضها فوق بعض دون أن تنهار! وهنا شلال توحي كمية مائه بأنه واحد من شلالات أكبر، ولكن الكمية تصطدم لدى سقوطها من عل بحصىً تافهة كما لو أن كتيبة من الجنود تعثرت فوق رقاقة؛ هذه الحال تتطلب وجود جدار صخري؛ ولكنني في حقيقة الأمر أستغرب أين يوجد، واويلتاه، بالقرب من المدينة شلال كهذا! ثم أريد أيضاً أن أعرف ما الذي يستحق أن يُرسم في عيدان صفصاف متعفنة كهذه، في هذه الحالة قد يبدو لي رسم شجرة سليمة من البلوط أو الزان أمراً أجدى نفعاً"، وهلم جراً.

بالمقابل امتعضت جماعة النساء من أن أبطال لوحاتي هم من المتشردين والمتسكعين والسمكريين ومشوهي الوجوه، ولم يتفهمن لماذا لم أفضل رسم فتاة ريفية لطيفة وهي تمر في الحقل أو فلاح عفيف أمين بدلاً من اشتغالي دائماً بشياطين من هذا النوع؛ أما الأبناء فقد سخروا من كهوفي الهائلة في الجبال، من الجسور المستحيلة والمضحكة ومن الرؤوس الصخرية الشبيهة برؤوس البشر وعاهات الأشجار، وأعطوا لكل واحدة من تلك الرسومات الجنونية اسماً بدا أن السخرية الكامنة فيه تنسحب علي أنا دون غيري. وقفتُ هكذا على استحياء كإنسان تعج حياته بالجنون والأباطيل، وما جلبته معي من استعداد اصطناعي للمرض زحف من أمام الصحة البسيطة السائدة في هذا البيت إلى الهواء الريفي.

كلفني خالي أول يوم من وصولي مباشرة، لكي يوجهني من جديد إلى مسار واقعي، بمهمة رسم ممتلكاته بكل دقة وتدبر، البيت والحديقة والأشجار، وتصميم لوحة أمينة لكل ذلك. ولفت انتباهي إلى كل الخصائص المميزة وإلى كل ما يرغب في أن يبرزه بصورة خاصة، ولما كانت تلميحاته تلبي مطالب مالكٍ معافىً أكثر مما تلبي مطالب خبير في الفن فإن ذلك اضطرني إلى معاينة الأشياء المطلوب رسمها، من جديد بدقة وتمعن في كل مكوناتها الخارجية المميزة. ولا سيما أكثر أشياء البيت بساطة، حتى القرميد على السطح، سببت لي من المتاعب أكثر مما كنت أظن ودفعتني إلى أن أرسم أيضاً الأشجار المحيطة؛ بتلك الطريقة لا بل أكثر دقة؛ تعلمت من جديد العمل والجهد المخلصين ونتيجة لذلك حين أنجزت عملاً ونال رضاي أنا نفسي من خلال طريقة إنجازه المتواضعة أكثر بما لا يقاس من منتجاتي السوقية المستوى من الآونة الأخيرة، فزت باكتساب مفهوم البساطة في الرسم، لكن مفهوم الحقيقة كذلك.

في غضون ذلك غمرتني فرحة كبيرة بالعثور من جديد على كل ماغادرته في العام السابق، وراقبت كل التغييرات التي حدثت وانتظرت بيني وبين نفسي بفارغ الصبر اللحظة التي أرى فيها آنّا من جديد أو على الأقل أسمع اسمها بادئ ذي بدء. ولكن كانت انقضت بضعة أيام دون أي ذكر؛ وكلما طال ذلك قل سؤالي عنها. وبدا أن النسيان طواها تماماً كما لو أنها لم تكن هنا في يوم من الأيام؛ وما سبَّب لي امتعاضاً من الأعماق هو أنه ما من أحد، كما كان يبدو، ظن أن لي حقاً أو حاجة إلى سماع أي شيء عنها. كثيراً ما كنت أذهب إلى منتصف الطريق عند أعلى الجبل أو على امتداد ظلال وادي النهر، ولكنني كنت أعود أدراجي فجأة في كل مرة خشية أن أقابلها ولم أجد تفسيراً لخشيتي. ذهبت إلى المقبرة ووقفت بجانب قبر جدتي، التي تستلقي الآن في باطن الأرض منذ عام من الزمن؛ ولكن الهواء هناك كان متوقفاً عن ذكر آنّا، الأعشاب لم تكن ترغب في معرفة أي شيء، الزهور لم تهمس

باسمها والجبل والوادي لم ينبسا ببنت شفة عنها، قلبي وحده هو الذي أطلق اسمها بصوت عالٍ إلى الصمت الجاحد.

أخيراً سئلتُ لماذا لم أقم بزيارة المعلم، وهنا قيل مصادفة إن آنَّا ليست في هذه المنطقة منذ نصف عام وإن الناس هنا كانوا يتوقعون درايتي بذلك. كان أبوها، نظراً إلى تطلعه الدائم إلى تحصيل الثقافة ورقة الروح وإدخاله في الحسبان أن طفلته، التي هي أنعم وأرق بما لا يقاس من أن تكون فلاحة، سوف تبقى بعد موته وحيدة في المحيط الريفي الخشن، لذلك كله قرر فجأة أن يُدخل آنَّا إلى مؤسسة تأهيلية في الجزء الفرنسي من سويسرا حيث تستطيع هناك تحصيل معارف أفضل وتحقيق استقلالية للعقل والفهم. وحين رفضت قراره ذاك، لم تثنه دموعها عنه بل حرص أولاً وأخيراً على تنفيذ رغباته في هذا المجال واصطحب معه طفلته المغادرة قريتها كرهاً إلى بيت المربي البعيد والمتصف بالوجاهة والتدين، حيث وجب عليها أن تقضي هناك عاماً كاملاً على أقل تقدير. هذا النبأ سقط علي كصاعقة من سماء زرقاء.

ذهبت في كل الأيام إلى أبيها ورافقته على دروبه لكي أسمع ما كان يحكيه عنها؛ وغالباً ما كنت أبقى هناك عدة أيام ثم أقمت بعد ذلك في حجرتها الصغيرة، ولكنني قلَّما كنت أبدي فيها حراكاً بل نظرت إلى محتوياتها من الأشياء القليلة البسيطة بحياء مقدس. كانت حجرتها صغيرة وضيقة؛ ومليئة باستمرار بأشعة شمس الأصيل وضوء القمر بحيث لم يبق فيها أي بقعة سوداء، وكان منظرها في أشعة شمس شبيهاً بعلبة مجوهرات ذهبية حمراء وفي ضوء القمر بعلبة فضية اللون لم يفتني أن أحل في تفكيري ومشاعري محل جواهرها.

حين كنت أهيم على وجهي باحثاً عن مواضيع للرسم، كنت أؤم خصوصاً تلك الأمكنة التي كنتُ مكثتُ في ربوعها برفقة آنَّا؛ مثلاً الجدار الصخري المحفوف بالأسرار على حافة الماء حيث استرحنا هناك ورأينا تلك الظاهرة العجيبة، وقد سبق أن رسمت ذلك المكان، لم أستطع أن أحجم عن

أن أخط مربعاً نظيفاً على جدار الحجرة الصغيرة، الأبيض كالثلج، وأرسم في داخله بقدر الامكان صورة لحجرة الوثنيين، وأردت لهذه الصورة أن تكون بمثابة تحية من أجل آنًّا وأن تثبت لها فيما بعد مدى تفكيري بها وديمومته.

تذكرها المستمر وغيابها جعلاني خفية ازداد باطراد جسارة وحميمية حيال صورتها؛ وبدأت آنذاك بكتابة رسائل حب طويلة إليها ثم صرت أحرقها في بداية الأمر وصرت أحفظها بعد ذلك ثم غدوت أخيراً من الجرأة بمكان لكي أكتب إلى آنًّا كل ما كنت أشعر به إزاءها على ورقة مكشوفة بأحدِّ التعابير وأشدها مع تقديم اسمها الكامل وتوقيعي أنا، وأرمي هذه الورقة في النهر الصغير بحيث يجري بها إلى الأسفل على مرأى من كل العالم باتجاه نهر الراين ثم باتجاه البحر؛ لأن ذلك كان عملاً محرراً عندي وإقراراً بسري، مع افتراضي طبعاً أنه لن يجد الرسالة أحد في مكان قريب. رأيت كيف كانت تنزلق من موجة إلى أخرى على مهل، كيف أُوقفت هنا من قبل شجيرة منحنية فوق الضفة ثم تعلقت لفترة طويلة بإحدى الأزهار إلى أن انتزعت نفسها بعد طول تردد؛ وأخيراً سارت قدماً وسبحت عائمة إلى حيث غابت بعد ذلك عن عينيَّ. لكن الرسالة لا بد أنها تلكأت في طريقها من جديد في مكان ما، لأنها لم تصل إلا في وقت متأخر من الليل إلى الجدار الصخري لحجرة الوثنيين ومن ثم إلى صدر سيدة كانت تسبح هناك وهذه السيدة لم تكن سوى يوديت ذاتها التي التقطتها ثم قرأتها واحتفظت بها.

لم يتناهَ ذلك إلى معرفتي إلا فيما بعد، لأنني في أثناء إقامتي الحالية في القرية لم أذهب أبداً إلى بيتها وكنت أتجنب بدقة وعناية الطريق المؤدية إليه. فالعام الذي أصبحت بموجبه أكبر سناً جعلني أنظر إلى العلاقة الحميمية السابقة بكل استحياء وأدخل إلى نفسي شيئاً من التهيب العنيد إزاء البنية القوية والفخور للسيدة يوديت؛ اختبأت دون أن أحييها، بسرعة، حين مرت ذات مرة ببيت خالي ولكن عينيَّ كانت تتبعانها بفضول حين كنت أراها من بعيد تمشي عبر الحدائق وحقول الحبوب.

الفصل السابع

صلــة الحـديث

في هذه المرة عدتُ إلى المدينة في وقت أبكر من المرة السابقة وبين جوانحي حنين عميق كان تشكل الآن برمته وأحاط بكل شيء كان ينقصني وكنت أظن أنه متوفر في هذا العالم.

معلمي السيد هابرزات قادني الآن إلى آخر مراحل فنه وذلك بتعليمي كيفية التعاطي مع ألوانه المائية ودفعي بكل قوة إلى استخدامها بشكل أكثر نظافة وأخف حركة. ولكن بما أن الطبيعة لم ترد من جديد في الحسبان، فقد تعلمت بسرعة إنجاز رسومات ملونة كما كانت تُطلب تقريباً في الورشة وقبل أن ينقضي العام الثاني المتفق عليه لم أر بعد الكثير مما يتوجب تعلمه من دون الإلمام بمقدرات جديرة بالاهتمام. في الدير القديم كان يعتريني الملل فأبقى في البيت إثر ذلك طول أسابيع لكي أقرأ هناك أو أبدأ بأعمال كنت أخفيها عن المعلم. فترتب على ذلك أن هذا قام بزيارة لأمي شاكياً لها من تشتتي ومشيداً في الوقت ذاته بالتقدم الذي كنت أحرزه، ثم اقترح أن أدخل معه في علاقة أخرى فأعمل عنده في ورشته بجد ودقة، لكن مقابل تعويض مادي. في رأيه سوف تشكل هذه البادرة المرحلة الثانية من الدراسة، إذ أتعود بفضل تأهيلي المتقدم باستمرار في هذه الفترة العمل الحذر وأحقق في الوقت ذاته بعض الوفور اللازمة لخروجي بعد بضع سنين إلى بلاد الله الواسعة ما دام الوقت الآن لم يحن لذلك بعد. وأكد أن أولئك، الذين وصلوا أخيراً إلى قمة

الفن بفضل سنين طويلة من العمل المتواضع، لا يشكلون الفئة الأكثر رداءة بين مشاهير الفنانين، لا بل إن فعالية متواضعة ومنطوية على جهود كبيرة كهذه من شأنها أن ترسي أحياناً أساساً أكثر كفاءة وملاءمة للدأب والاستقلالية من التأهيل الفني الأرستقراطي، المقتصر على فئة بعينها. ثم قال إنه يعرف أبناء موهوبين لآباء أغنياء وقد باءت حياتهم بالإخفاق الذريع لمجرد أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام مضطرين للاعتماد على أنفسهم ولطلب الرزق بسرعة فتحطموا على صخرة تدليل الذات الأزلي والزهو الزائف والهشاشية.

هذه الكلمات كانت مفهومة جداً على الرغم من خلفيتها القائمة على شيء من المنفعة الشخصية؛ ولكنها لم تلق لدي أي استجابة. كنت أكره كل ما يتعلق بأجر يومي وصناعة صغيرة وأريد أن أصل إلى هدفي على طريق مستقيم فحسب. أما الورشة الفنية فقد تراءت لي يوماً بعد يوم عائقاً وانقباضاً؛ واعتراني حنين إلى إقامة ورشة هادئة في بيتنا فأساعد نفسي بنفسي بقدر ما أستطيع؛ في صبيحة أحد الأيام ودعت السيد هابرزات قبل انتهاء مدة تعلمي وأطلعت أمي على أنني سوف أعمل في البيت؛ وإذا كان مطلبها هو أن أكسب بعض المال فقد أتمكن من ذلك من دونه، ولا أعرف ماذا يمكنني أن أتعلم عنده زيادة عما تعلمت حتى الآن.

بسرور وأمل أقمت مقراً لي في أعلى البيت، في حجرة تحت السقف كانت تطل على جزء كبير من المدينة على امتداد جهة الشمال، وكانت نوافذها تتلقف في الصباح الباكر وفي المساء نظرة الشمس الأولى والأخيرة. وعندي كان عملاً مهماً ومريحاً في آن معاً أن أقيم هنا عالماً خاصاً بي فقضيت عدة أيام في إعداد الحجرة لهذا الغرض وترتيبها. زجاج النوافذ المستدير غُسل إلى حد أنه أصبح نظيفاً وواضحاً، وزُرعت في الجهة الأمامية منه على لوح أزهار عريض حديقة صغيرة. وعلى الجدران المطلية بدهان أبيض علقتُ في بعض الأمكنة لوحات نحاسية ورسوم أخرى تحتوي على مغامرات مثيرة ورسمتُ في أمكنة أخرى بقلم الفحم أقنعة غريبة نادرة، أو

كتبت أقوالاً عن الحب وأبيات شعر عنيفة كانت بهرتني وأثارت إعجابي. وأدخلتُ إلى الحجرة أقدم أدواتنا وأكثرها جدارة بالاحترام وجررت معها ما رأيته شبيهاً بأي كتاب وكومته فوق المفروشات الآيل لونها إلى البني؛ فتكدست مختلف الأشياء بالتدريج وعززت الانطباع المتعلق بالرسم والطلي؛ ولكن في وسط الحجرة نُصب حامل رسمٍ كان من شأنه أن حقق رغبة راودتني منذ زمن طويل.

كنت آنذاك متروكاً وشأني، حراً ومستقلاً تماماً، دونما أقل تأثير فيّ من الخارج ودونما قدوة أو تعليمات. وأقمتُ بالتناوب علاقات اختلاطٍ مع بعض الشبان، الذين شدني إليهم تعلق قرابة أو تعاطف صداقة ولا سيما مع زملاء سابقين في المدرسة ممن كانوا آنذاك يتابعون دراساتهم ويحكون لي بإخلاص وأمانة في أثناء زياراتهم لي في الصومعة عن نجاحاتهم وفي المقام الأول عما كان يحدث في المدارس. انتهزت هذه الفرصة لكي أتلقف علاوة على ذلك أموراً أخرى وكنت في أغلب الأحيان أنظر بكل حسرة وألم عبر القضبان المغلقة إلى الحديقة الغناء التابعة لتأهيل الشبان الأكثر تقدماً فأحس الآن فقط بما ضاع مني حقاً. ولكنني تعرفتُ من خلال أصدقائي بعض الكتب وصلات الوصل التي كنت أتلمس عن طريقها الخيط الهزيل؛ ولدى مزج ما كنت أتوصل إليه مع المقومات الخيالية الناجمة عن عزلتي واعتكافي كنت أصاب بالغرور جراء ما حصّلت من تعلُّم مثير للضحك وبريء إلى أقصى حدود البراءة، وكان من شأنه أن زاد إلى حد عجيب ونادر من انشغالاتي وأغناها. في الصباح الباكر الهادئ أو في آخر الليل كنت أكتب مقالات طنانة وأوصافاً ونداءات حماسية، وأصابني زهو خاص بالحكم العميقة التي كنت أكتبها في مذكراتي ممزوجة ببعض الرسوم والزخارف المنمقة. وهكذا كانت صومعتي شبيهة بمختبر كيماوي تُعد على موقده حياة متصارعة. ما هو ظريف وسليم ومشوّه وعجيب، الاعتدال والتعسف –كل هذه العناصر رُميت في قِدر واحد وصهرها الغليان فامتزج بعضها ببعض وتفرق بعضها عن بعضٍ خلال لحظات.

وبصرف النظر عن حياتي الهادئة ظاهرياً، فقد طرأ عليها بعض التنكيد المبكر، الذي كان من شأنه أن حرك فيَّ القلق والولع.

كان لي في تلك الفترة صديق ناري وحيوي وقد شاطرني ميولي أكثر من كل أصحابي الآخرين وكثيراً ما شاركني في رسومي وتحليقي في عالم الشعر، وما دام آنذاك لم يزل يتعلم في المدرسة فقد جلب معه من هناك مادة وفيرة إلى حجرتي. وكان في الوقت ذاته محباً للحياة وغالباً ما اختلط بأناس ناجحين وتسكع معهم في حانات ومطاعم حكى لي فيما بعد عن أبهتها وولائمها. بقيت في معظم الأحيان في البيت حزيناً كئيباً، ما دامت أمي كانت تقتر علي إلى حد كبير في هذا المجال ولم ترَ أي ضرورة لأقل مصاريف من هذا النوع. لذلك اقتفيت أثر المتسكع المبتهج كما يقتفي طير سجين في قفص أثر طير آخر محلق في الأعالي، وحلمتُ بالحرية في مستقبل مشرق إذ عقدت العزم على أن أصبح فيما بعد زينة لمحافل الشرب والعربدة. ولكن في غضون ذلك كنت أستنكر في أغلب الأحيان، كالثعلب الذي تذرع بشدة حموضة العنب، مجون صديقي وأحاول أن أقيده في منزلي الهادئ، فأدى هذا إلى بعض التذمر في علاقتنا وسررت أخيراً لسفره إلى مكان بعيد، الأمر الذي أسفر بدوره عن فرصة سانحة لتبادل الرسائل بحماس منقطع النظير. هنا رفعنا درجة علاقتنا إلى مرتبة صداقة مثالية لا يعكرها وجودنا الشخصي معاً وحشدنا في رسائل منتظمة كل الفصاحة الكامنة في الحماس الشبابي. بكل رضاً عن النفس حاولت أن أكتب رسائلي جميلة دفاقة قدر الإمكان وكان لا بد من التدرب على صياغة فلسفتي، المفتقرة إلى الخبرة، شكلاً ومضموناً إلى حد ما. كان من الأسهل تغليفُ جزء من الرسائل برداء من الخيال الفاسق وتزيينه بروح الدعابة التي كنت أقلد فيها الأديب جان باول؛ لكن مهما كنت أندفع وأقدم كل ما عندي من الحمية والحماس، فإن أجوبة صديقي في كل مرة تفوقت على كل ما أُتيت به سواء في الأفكار الأكثر نضجاً وإتقاناً أو في الفطنة الحقيقية التي أبرزت بشكل مخجل بنات أفكاري الصارخة والمضطربة.

كنت معجباً بصديقي وفخوراً به وكنت أركز تركيزاً مضاعفاً في التعلم من رسائله من أجل إنجاز الجديد والمكافئ. ولكن كلما كنت أزداد ارتقاءً، انسحب هو إلى ما هو أعلى ومستعصي البلوغ كصورة من الجو حاولتُ الإمساك بها دون جدوى. إلى جانب ذلك كانت أفكاره تحمل أكثر الألوان تناوباً كالبحر الأزلي، مزاجية بكل ظرف ولطف ومفاجئ وغني بالينابيع التي بدا أنها تتدفق من الأعماق وتتحدر من الجبال ومن السماء في آن معاً؛ نظرتُ إلى الرفيق البعيد بإعجاب شديد باعتباره ظاهرة رائعة ومنطوية على أسرار خفية وقد كان تطورها البديع يوماً بعد يوم يعد بما هو أكبر وأعظم؛ وهيأت نفسي بشيء من الخوف إلى أن أخرج إلى الحياة مع هذه الظاهرة وأسير إلى جانبها قدر المستطاع.

عندئذ وقع في يديَّ ذات يوم كتابُ تسيمرمان حول المعاناة من الوحدة والعزلة؛ كنت سمعت كثيراً عن هذا الكتاب وأخذت لذلك أقرؤه برغبة مضاعفة إلى أن وصلتُ إلى الفقرة التي تبدأ بعبارة "أريد أن أحبسك في غرفة دراستك، أيها الفتى!"، كل كلمة من هذه الكلمات غدت عندي معروفة أكثر، وأخيراً وجدت هنا واحدة من أولى رسائل صديقي منقولة حرفياً عن كتاب تسيمرمان. إثر ذلك بفترة قصيرة اكتشفت رسالة أخرى في أفكار ديديرو ، قليلة الشأن، حول الرسم كنت حصلت عليها من بائع كتب قديمة ووجدت على هذا النحو مصدر ما كان أثارني من الدقة والوضوح. وكما تظهر فجأة بأعداد كبيرة أحداث ومصادفات متلكئة منذ فترة طويلة، هكذا ظهرت آنذاك على وجه السرعة اكتشافات متتالية وأماطت اللثام عن حالة نادرة من التضليل والخداع. وجدتُ اقتباسات حرفية من روسو ومن رواية فيرتر، من لورانس ستين وفون هيبِّل كذلك من ليسينغ، وأشعاراً رائعة من بايرون وهايني محولةً إلى نثرٍ رسائلي، حتى أقوالاً لفلاسفة عميقي المغزى كان من شأنها أن أفعمت نفسي، دون أن أفهمها، بالتقدير والاحترام إزاء ذلك الصديق.

مع طوالع من هذا النوع كُتب لي أن أتصارع وأنا خائر القوى؛ صُعقت لأمر هذا الصديق، وفي مخيلتي كنت أرى صديقي هذا يسخر مني ولم أكن أستطيع تفسير تصرفه إلا عبر رداءتي أنا. غير أنني شعرت بإهانة فوراً وكتبت بعد بعض الصمت رسالة ملمِّحة استنكرتُ فيها هيمنته الفكرية المتطاولة، ولكنني لم أشأ إلغاء صداقتنا بل الأرجح هو أنني أردت أن أرجعه إلى حقيقة مخلصة. بيد أن طموحي الجريح سمح لي باختيار تعبيرات عنيفة وسليطة؛ خصمي لم يشأ، على حد قوله، أن يسخر مني بل بقليل من الجهد أراد لحماسي أن يتوازن؛ كما حاول أيضاً فيما بعد المساعدة في أمور أكثر جدية ودائماً بوسائل من هذا النوع، وذلك على الرغم من أنه كان يمتلك المواهب اللازمة لطموح حقيقي لا محدود ولهذا السبب كان يمتلك أيضاً الإحساس بالعزة والاستعلاء. وهكذا حدث، لكي يغطي ارتباكه ونظراً إلى امتعاضه من عصياني، أن أجابني برسالة أكثر إثارة وإهانة. فهبت بيننا عاصفة غضب قوية؛ وتبادلنا الشتائم بلا هوادة، وبقدر ما كنا في السابق متعاطفين متحابين، استخدمنا الآن كماً كبيراً من الكلمات المأسوية لدى إعلاننا عن إلغاء الصداقة القائمة بيننا، وحرص كل منا هكذا عشوائياً على أن يكون أول من ينفي الآخر من ذاكرته!

ولكن ليست كلماته القاسية وحدها فقط هي التي حزت في نفسي، بل كلماتي أنا أيضاً؛ وحزنت طوال أيام كثيرة في حين كنت لا أزال في آن معاً أحترم وأحب وأكره المولي عني؛ كنت أحس آنذاك للمرة الثانية، في عمر هو الآن أكثر تقدماً من المرة السابقة، بالألم الناجم عن تحطم صداقة خاصة وأن العلاقة هذه المرة كانت أكثر نبلاً وأصالة. لم أفكر حتى في المنام في أن ما حدث قد يكون رداً على الألاعيب التي كانت انطلت على معلمي هابرزات بخصوص تلك اللوحات الزائفة التي ادعيتُ أنني رسمتها وفقاً للطبيعة.

* * *

الفصل الثامن

ربيـع جـديـد

كان الربيع قد حل؛ وزهيرات الربيع العطرية وزهيرات البنفسج غطّاها العشب المشتد ساعده بحيث لم تلفت ثميراتها انتباه أحد. بالمقابل كانت شقائق النعمان ونجمات اللبلاب الزرقاء والجذوع فاتحة اللون لأشجار صفصاف فتية تنتشر على مدى واسع في مداخل الغابات؛ ذلك لأن الأرجاء كانت لا تزال مضيئة ورحبة كما في بيت رجل فقيه كانت أحب النساء إليه عملت على ترتيبه وتزيينه قبل أن يعود الفقيه من إحدى سفراته ولكن سرعان ما عمت الفوضى العارمة في ذلك البيت ورجع إلى وضعه السابق. بتواضع واتزان اتخذت أمكنتها الأغصان الجديدة المورقة، الناعمة الاخضرار ولم تدع مجالاً لتخمين مدى الاندفاع العارم، الكامن في عملية نموها. أوراقها الصغيرة الناعمة جلست بوضعية متناظرة ورقيقة على الأغصان، وأمكن عدُّها، صلبة قليلاً وكأنها من تنسيق صانعة البرانيط، الحزوز والطويات الصغيرة ما زالت متقنة إلى أبعد الحدود ونظيفة كما لو أنها مقصوصة ومضغوطة في ورق، العيدان والأغصان الصغيرة كأنها مطلية بلون أحمر، كل شيء متبرج إلى أقصى حد. نسائم جذلى كانت تهب، وفي السماء كانت تتلوى غيوم لامعة، وعلى حواف الحقول كانت تتلوى الأعشاب الفتية وعلى ظهور الحملان يتمايل الصوف، كانت الحركة تدب في كل شيء، ببطء وعبث؛ خصل الشعر المسترسلة في نقرات الفتيات الشابات كانت تتموج إذا ما مشين في أنسام

الربيع، وكان قلبي يتموج أيضاً. كنت أمشي فوق كل الارتفاعات وأعزف في أمكنة نائية معزولة وذات مواقع جميلة ساعات طويلة على ناي كبيرة كنت أمتلكها منذ عام واحد. بعد أن تعلمت ممن باعني الناي، وهو جار ذو باعٍ في عالم الموسيقى، اللمسات الأولى استحالت عندي متابعة الدروس وما كنت تعلمته في المدرسة كان غاص منذ فترة طويلة في بحر عميق من النسيان. لذلك تكونت لدي، بما أنني كنت أعزف بإفراط منقطع النظير، مهارة همجية كان من شأنها أن أنتجت أغرب الزغاريد والنغمات السريعة والختامية. كنت أستطيع بمهارة مماثلة أن أعزف على الناي ما أصفِّره بواسطة فمي من النغمات أو ما أغنِّيه من رأسي، ولكن بإيقاع أكثر خشونة، صحيح أنني كنت أحس بالإيقاع الأنعم وأعرف كيف أخرجه إلى حيز السمع لكن كان لا بد لي عندئذ من أن أعزف ببطء وبحذر أكبر بحيث تتداخل هذه المقاطع بكآبة وتقطع متنوع بين مكونات بقية الصخب والضجيج. بعض الملمين بالموسيقى، الذين سمعوا عزفي من بعيد، عدّوني عازفاً جيداً وامتدحوني ثم دعوني إلى مشاركتهم في مناسبات لهوهم وتسلياتهم، ولكن حين لبيت دعوتهم بصحبة بوقي البني ذي الغطاء الواحد ورأيت، وأنا في حالة مزرية من الارتباك والحرج، الأدوات الموسيقية المصنوعة من شجر الأبنوس والمزودة بعدد كبير من المفاتيح الفضية والنوتات الموسيقية الكبيرة والمكسوة باكتظاظ من السواد، عندئذ تبين أن لا لزوم لي، والجيران أخذوا يهزون رؤوسهم باستغراب وحيرة. كان ذلك حافزاً لأن أملأ الآن الهواء الطلق بعزفي على الناي باندفاع أكبر ألحاناً شبيهة ربما بتغريد عصفور كبير يشنف الآذان ولكنه وحيد الوتيرة، وأحسست وقتذاك، وأنا أستلقي على حواف غابة هادئة، من الأعماق بمتعة طاغية في ربوع ريفية رعوية تعود إلى قرن آخر من الزمن.

في تلك الأثناء سمعت كلمة عابرة كانت تحمل نبأ رجوع آنَّا إلى موطنها. كنت لم أرها آنذاك منذ عامين؛ كان كلانا اقترب من يوم ميلاده السادس عشر. وعلى الفور جهزت نفسي لنقل مقر إقامتي إلى القرية

وانطلقت في واحد من أيام السبت مرتاح البال في سيري على الدروب العزيزة على نفسي. كان صوتي متقطعاً، ولكنني أسأت استخدامه وغنيت عبر الغابات المرددة إلى أن تعبت. بعد ذلك انقطعتُ عن الغناء، وفي لحظة من التمعن في عمق أنغامي فكرت بصوت آنَّا وحاولت أن أتصور إلى أي حدّ وصلت الآن رخامة صوتها. ثم تخيلت طولها، وبما أنني في غضون ما انقضى من وقت نموتُ أنا ذاتي بسرعة فقد تعذر علي اتقاء رعشة صغيرة لدى تصور قدَّ فتيات مدينتنا ، اللواتي بلغن سن السادسة عشرة. في أثناء ذلك لاحت لي باستمرار صورة آنَّا نصف الطفلية على ضفاف تلك البحيرة وفوق ذلك القبر، بالطوق المكشكش حول رقبتها وضفائر شعرها الذهبي وعينيها اللطيفتين البريئتين. تلك الصورة أزالت إلى حد ما القلق، الذي أراد أن يهيمن علي؛ فتابعت سيري بارتياح إلى أن وصلت إلى بيت خالي فوجدت فيه ما سبق أن عايشته فيما مضى من ترتيب وحياة بهيجة مرحة.

الأشخاص الأكبر سناً فحسب هم وحدهم الذين ظلوا في واقع الأمر تماماً على ما كانوا عليه من قبل؛ أما الشبان فقد تغيرت نبرتهم قليلاً في المزاج والأحاديث. حين انسحب الأبوان بعد طعام العشاء إلى شأنيهما وأتى بضعة شبان من أهالي القرية ذكوراً وإناثاً لكي يقضوا بضع ساعات في الدردشة والتسلية، لاحظتُ أن قضايا الحب أصبحت الآن الموضوع الوحيد والأكثر دقة وتبلوراً للأحاديث العابثة، ولكن بحيث كان الشبان الذكور يخفون بطريقة ساخرة نوعاً ما وتنم عن شهامة وشمائل فروسية أحاسيس أكثر عمقاً، بينما بدا أن الفتيات يسعين إلى إظهار هشاشة كبيرة وازدراء إزاء الرجال ورضاً عذري عن الذات؛ ومن الطريقة التي بموجبها استثارت مرةً الدعابات والهجومات المتضاربة في حين بدا مرة أخرى أنها كانت جارحة في الجهتين، تبين بوضوح أن العناصر المكونة للكريستال حضرت هنا في نقطة تبلور وانعقاد.

بادئ ذي بدء التزمت الصمت وحاولت أن أجد طريقي في المناوشات الغنية بالكلمات أكثر منها بالمغزى؛ البنات رأينني محايداً متواضعاً وبدا أنهن

أردن أن يكسبنني إلى جانبهن كصبي فارس. ولكنني فجأة ومن حيث لم أحتسب، في حين عددتُ تلك المعركة الصورية جدية تماماً، انضممت إلى صفوف أبناء جنسي. الاستغناء المزعوم عن الرجال وتجلي الذات بزهو واختيال من قبل الجميلات تراءى لي أمراً خطيراً ومهيناً ولم يتفق في قليل أو كثير مع مشاعري. ولكنني للأسف جابهت البنات، بدلاً من أن أستخدم سلاح رفاقي الفعال أكثر والمرغوب أكثر، مستخدماً، بعقليةٍ صبيانيةٍ ومفتقرةٍ إلى شمائل الشهامة والفروسية، طريقة حربهن هن. الصبر العنيد، الذي احتملته إزاء الاكتفاء الذاتي العذري، قذفني إلى موقع معزول وخطر بوتيرة أسرع مما كنت أظن آنذاك وفقاً لسذاجتي وتصرفي بجدية شديدة. سهام السخرية والاستهزاء كلها تجمعت في الحال لتنطلق باتجاهي، إذ نُظر إلي على أنني مثير للفتن إلى حد يتعذر معه تحملي؛ كان المشاركون في المعركة من الذكور يخذلونني أيضاً أو يحرضونني خطأً لكي يصفوا حساباتهم بطريقة أفضل مع الفتيات المستشيطات غضباً، الأمر الذي أغرقني من جديد في بحر من التنغيص والغيرة، وكنت أمتعض أيما امتعاض حين ألاحظ كيف كانت نظرات التجاوب والتفاهم تُتبادل في قلب المعركة في أغلب الأحيان وكيف كان العدو الجميل يترك يديه في تصرف الصبيان بشكل مطرد الاستمرار ومطرد الرغبة. بعيد تفرق الجمع وصعودي على الدرج بصفتي عدواً مُعلناً للنساء، لحقت بي بنات خالي الثلاث، كل واحدة منهن كانت تحمل مصباحها الليلي، وصرن يستهزئن بي إلى أن وصلن إلى أمام باب الغرفة المخصصة لنومي. هناك استدرت إلى الوراء وصرخت في وجوههن: "اغربن عن وجهي، أيتها العذراوات البلهاوات، مع مصابيحكن! على الرغم من أن كلاً منكن سوف تحصل عما قريب على عريسها الدنيوي، فإنني أخشى من أن زيت صبركن لن يكفي لأقصر الآجال؛ عليكن إطفاء أضوائكن والحياء في الظلام، عندئذ توفرن على أنفسكن هذا القليل المتبقي من الزيت، أيتها الفتيات العاشقات!".

كانت خادمة تحمل لتوها حوضاً من الماء لكي تدخله إلى الغرفة، فغطَّسن أيديهن فيه ورششن ماء على وجهي في حين أدرن مصابيحهن الصغيرة المشتعلة حول شعري وأنفي وهجمن علي بعنف ثم قلن: "بالنار والماء ندشنك إلى حقد أزلي على النساء! عسى ألاَّ ترغب أبداً واحدة من النساء في أن يزول منك هذا الحقد، وعسى أن ينطفئ إلى الأبد نور الحب في نفسك! نم جيداً أيها السيد الصارم ولا تحلم بأي فتاة!". بذلك نفخن شمعتي وتفرقن بسرعة بحيث اختفت أضوائهن الخافتة في أرجاء البيت المعتم ووقفت أنا في الظلمة. تلمستُ طريقي في الغرفة مصطدماً بكل الأشياء التي مررت بها وبعثرت في الظلام بكل تذمر واستياء ثيابي على الأرض هكذا كيفما اتفق وعلى غير هدى. وحين وجدت أخيراً نهاية رأس السرير وأردت أن أندس بسرعة تحت الغطاء مددت رجليَّ في كيس ملعون فلم يستطل، لا بل أدت حركة رجليَّ العنيفة إلى إعاقتي وتقرفصي بشكل متعب ومزعج إلى أبعد الحدود. كانت ملاءات السرير، نتيجة لمداعبات على طريقة أهل الريف، مطوية ومتداخلة بعضها في بعض بطريقة مفتعلة بحيث لم تفلح جهودي نافدة الصبر في تفكيكها وإعادتها إلى الوضع المعتاد، فكان علي إذاً أن ألم أطرافي للنوم وأكور جسدي في غفلة عن العالم وبطريقة متعبة ومضحكة إلى أقصى حد. ولكن النوم أبى على الرغم من تعبي الشديد أن يسعفني؛ وحال دون إغماض عينيَّ إلا للحظات فقط شعورٌ مزعج ومخجل بأنني زججت نفسي في وضع محرج، ثم القلقُ جراء تفكيري بكيفية تصرف آنَّا إزاء كل ما حدث، وأخيراً السريرُ المسحور، حيث لاحقتني بعد ذلك أكثر الرؤى والتخيلات بلبلة واضطراباً.

كان الليل مضطرباً وصاخباً في جميع أرجاء الوادي، لأنها كانت الليلة الفاصلة بين يوم السبت ويوم الأحد، التي اعتاد فيها الصبيان على الانتشار زرافات زرافات واقتفاء آثار دروب الحب. قسم منهم طاف بأعداد كبيرة أرجاء المنطقة الليلية مغنين مهللين، كانوا يسمعون تارة من بعيد وتارة تقترب أصواتهم؛ وقسم آخر تسلل فرداً فرداً حول المنازل، كان هؤلاء ينادون

بأصوات حبيسة منخفضة أسماء فتيات وينصبون سلالم على الجدران ثم يرمون أحجاراً صغيرة على درفات النوافذ. نهضت من فراشي وفتحت النافذة؛ نسيمٌ أياري بلسمي هب في وجهي وغمزت النجوم بعينيها من عل عاشقة متيمة، قطة صغيرة اختبأت في إحدى زوايا منزل في حين انحنى حول الزاوية الأخرى ظل نحيل ومعه سلم طويل أسنده إلى حائط المنزل، على بعد ثلاث نوافذ أو أربع عني. ثم صعد بكل يقظة وحذر على امتداد الدرج ونادى بصوت هامس على ابنة خالي الأكبر سناً ففُتحت النافذة إثر ذلك بهدوء وبدأ همس حميم كان يعكر صفوهُ من حين إلى آخر صوتٌ شبيه تماماً بما يصدر عن قبلات نارية متأججة. قلت لنفسي عندئذ: "أووه، إنها لأحداث لطيفة!". وحين كنت أقول ذلك رأيت ظلاً آخر يقفز من نافذة ابنة خالي الوسطى، التي تنام تحت غرفة أختها الأولى بطابق واحد، ثم يتأرجح فوق غصن شجرة قريبة وينزلق بعد ذلك بخفة ورشاقة إلى الأرض. ولم يكد يبتعد مسافة خمسين خطوة حتى انفجر، رداً على أصوات رفاق الليل ونداءاتهم، بالهتافات والتهاليل الصاخبة، التي عمت أصداؤها كل أرجاء المنطقة.

وتحت وطأة أحاسيس غير عادية أغلقت النافذة بحذر وحاولت أن أنسى عبر متاهات قماش الكتان الخبيث، الذي كنت أستخدمه في الرسم، البنات والحب وليل أيار والمنغصات.

بيد أن مشاعر أكثر امتزاجاً عادت إلي حين أمعنتُ التفكير في صباح اليوم التالي بما عايشته في الليلة السابقة. وفي بادئ الأمر اعتراني استنكار مكروب ضد بنات خالي وعشاقهن. وخلَّف ذلك انطباعاً كما لو أن أفانين كثيرة من الماسونية تمارس في حديقة مغلقة وأنا أقف أمام الباب بوصفي موضع سخرية واستهزاء.

في أثناء ذلك قررت، حين دعت الضرورة إلى ذلك، أن أذهب إلى حجرة الجلوس الكبيرة لوضع تصرفي التالي في نصابه، في المقام الأول لكي أغرق في صمت مطبق؛ هذا القرار تراءى لي متسماً بالنبل والأريحية بحيث

ظننت، وأنا في غمرة النشوة والغرور، أن الفتيات لا بد أن يأخذن في التو أريحيتي بالحسبان حين دخلتُ إلى الغرفة. ولكنني لم أسترعِ مطلقاً أي انتباه؛ وبدلاً من ذلك رأيت في إحدى النوافذ جسماً نِسْوياً نحيلاً يقف في وسط بنات خالي الثلاث. من ملامحها المميزة والصوت المتغير لكن المحتفظ في الوقت ذاته بعذوبته أدركت على الفور أنها آنَّا؛ ظهرت لي رقيقة سامية، أما أنا فبقيت واقفاً مذهولاً تماماً وفي حيرة من أمري. كانت تنظر بتواضع وهدوء إلى ربوع الطبيعة عبر النافذة وكانت بنات خالي يتحدثن معها بصوت منخفض ورقة ومودة كما تفعل النساء عادة إذا ما شغلن بزائرات يكنَّ بمثابة زينة لمجالسهن. وساد جو من التهيب والتهذيب كما لو أن الطفلات الجميلات الأربع أتين لتوهن من مدرسة في أحد الأديرة، ولا سيما بنات ذلك البيت فقد بدا أنهن لم يحتفظن البتة بأي ذكرى لما حدث في أمسية البارحة. ومن دون أي تحفظ سلمن علي حالما لاحظن أخيراً وجودي في الغرفة، ثم قدمنني إلى آنَّا. كلانا نظر باستحياء إلى الأرض وقدم إلى الآخر رؤوس أصابعه للمصافحة، ولكنها لم تكد تتلامس وفي أثناء ذلك قامت آنَّا، على حد ظني، بأداء انحناءة صغيرة مؤدبة بقصد التحية. فقلت وأنا في حالة ارتباك تام: "لقد عُدتِ إذاً؟" فردت: "أجل" – بنبرة جرس صغيرة لا يعرف تماماً متى يبدأ بالقرع، ظهراً أو حين تحين صلاة الغروب. إثر ذلك رأيتني وُضعت من جديد خارج دائرة البنات دون أن أعرف بأي طريقة تم ذلك وانشغلت آنذاك بكل حماس بمداعبة قطةٍ في حين كنت أسرق نظرات تمعنٍ وتدقيق باتجاه آنَّا. فوجدت أنها تطورت إلى شكل مختلف تماماً عما قبل، كانت الآن مرتدية ثوباً أسود من الحرير وكان شعرها الذهبي مربوطاً ببساطة ونبل ويوحي بأنه عومل بعناية واهتمام، في حين كانت تُلف في السابق بعض خصلات الشعر الصغيرة من تلقاء ذاتها وتلوح من بين الضفائر. أما معالم الوجه فقد بقيت في تميزها وخاصيتها كما كانت تماماً، لكنها أوحت بهدوء أكثر مما سبق، وعيناها المسكينتان، الزرقاوان الجميلتان، فقدتا حريتهما وتقيدتا بالأعراف

المعهودة. آنذاك لم أميز كل ذلك بدقة، ولكن ملاحظاتي مجتمعة ولدت عندي انطباعاً كان من شأنه أن راعني حين وجب علي أن أجلس إلى مائدة الفطور، الذي كان ينقل في أثناء ذلك إلى غرفة الطعام، بجانب آنّا؛ لأن خالي، ما دامت آنّا قدمت من المنطقة الفرنسية، كان جمع من جديد معلوماته في اللغة الفرنسية، التي ترجع إلى فترة ظرف بيت القس وازدهاره، ثم قال: "حسن! يا سيد ابن أختي! خذ مكانك بالقرب من الآنسة ابنة خالتك، من فضلك؛ تباً لك! يظهر عليك أنك لم تنم جيداً وأنك حزين!". ثم قال لآنّا بانحناءة مضحكة في حين أدى تحيةً بممص سيجارِهِ: "هيا تقبلي يا آنستي جمائل هذا الشاب المسكين الذي يلفه الأسى والحزن وتمني، إذا شئت، أن يكون خادمك المطيع لكي يستعيد منزلنا الشهير ألقَ الأيام الحلوة الماضية وجمالها، هيا نتكلم الفرنسية! كلنا معاً!" فبدأت آنذاك محادثة مضحكة في نتف مكسرة من الكلام باللغة الفرنسية كانت تتقاطع في ما بينها بطريقة مرحة إلى أقصى حد، لأنه ما من أحد خجل من الإفصاح عن ركاكته في التعبير وجهله اللغة الفرنسية وعد المزاح نوعاً من التودد من شأنه أن يعطي آنّا فرصة لإظهار التأهيل الذي حصلت عليه. شاركت آنّا أيضاً بتواضع، لكن بثقة، في الحديث الغريب وقدمت أحاديثها بنبرة لطيفة ومزينة بتعابير من أجواء الدردشة الفرنسية، مثل: حقاً! خذوا! انظروا! وما إلى ذلك، إذ كان الخال يضيف في أثناء ذلك، ناسياً طبيعته الدينية الجادة، بعض الشيطنات والتعليقات الماجنة. هذه التعابير لم تكن مألوفة أبداً عندي، ولم أستطع التعبير عن آرائي إلا بتقديم ترجمة قاطعة وعارية وعلاوة على ذلك ليس بالنبرة الأحب؛ ولذلك كنت أقول بالفرنسية من حين لآخر فحسب "نعم" و"لا" أو "لا أعرف"! والعبارة الوحيدة، التي كانت في تصرفي، هي: ماذا تريدون مني أن أفعل! وقد أوردتها مرات متعددة دون أن تكون على الدوام ملائمة للمقام الذي كانت قيلت فيه. وحين كان الجميع يضحك على قولي هذا كان يعتريني شعور كئيب ومعكر المزاج؛ فمع كل لحظة، منذ أن مسستُ ثوب آنّا الحريري، ازدادت خشيتي من أنني في نظرهم قليل القيمة

والأهمية، في حين كانت رغبتي حتى ذلك الحين تحدوني إلى أن أقدر الأفضل والأسمى وأتطلع إلى تحقيقهما وأن أحمل جراء ذلك تحديداً قيماً كبيرة في ذاتي. نظرياً كنت احتللت العالم واستأهلته أيضاً وكانت آنّا على وجه الخصوص تحت تصرفي تماماً؛ ولكن ما دام الجانب العملي بدأ الآن فقد تسلل إلى أعماقي مباشرة من البداية خضوع يائس أوجزته باللغة الفرنسية على وجه التقريب في الكلمة التالية، المتسمة بالعناد والعنف: "أحب بما فيه الكفاية لغة بلادي الجميلة والمبجلة، التي هي لحسن الحظ اللغة الألمانية؛ ذلك لكي لا أندب حظي من أنني لا أجيد اللغة الفرنسية، ولكن الآنسة ابنة خالي تحب اللغة الفرنسية وربما لأنها تتردد على كنيسة قريتنا فقد تشكو من أنها لن تجد فيها أبداً خطباء من كانتون الفادت ممن يعدون من أصحاب المراتب الرفيعة، فقهاء ومتدينين. ولكي لا يكون استياؤها كبيراً أقترح عليك أيها السيد خالي أن تصعد إلى المنبر ثانية وتتلو علينا، بصفتنا مستمعين، مواعظ فرنسية جميلة!". وحين ألقيت هذه الكلمة بالسرعة والطلاقة المتيسرة أضفت وأنا في حال من الارتباك الشديد: "ماذا تريدون مني أن أفعل؟" كان الجميع في غاية الاندهاش من هذه الكلمة الطنانة والمملة، ولذلك كنت في نظرهم شيطاناً يخفي عداوة لدودة ضد الفرنسيين، خصوصاً أن جماعتي لم تفهم شيئاً مما قلت بسبب السرعة التي تحدثت بها؛ ما عدا خالي الذي ضحك بسرور غامر. لم يدر في خلد أحد أنني أعددتُ الخطبة مسبقاً بيني وبين نفسي بشكل موضوعي وليس بمقدوري بأي شكل من الأشكال أن أستمر في إلقاء المزيد بالطلاقة نفسها. كانت آنّا الشخص الوحيد التي فهمت كل شيء ولم تقل إثر ذلك أي كلمة، بل بدت في أعماقها مُذلةً مُهانةً، لأنها كانت محمرة الوجه ومطأطئة الرأس بارتباك وحرج. كانت جدية تماماً في كل ما تعلق برجال الدين المنتمين إلى كانتون الفادت، لأنها كانت تحمل من هناك إلى جانب الفرنسية مسحة من التدين المتشدد. وبما أنني لاحظت أن الطريقة المقلوبة رأساً على عقب في إظهار قنوطي وانكسار نفسي قد ولّدت تقريباً انطباعاً سيئاً، ابتعدتُ عن الطاولة حالما أمكنني ذلك هرباً من

الحرج والارتباك. والآن قُرعت أجراس الكنيسة في نداء أخير للصلاة فأعدت نفسها كل العائلة للذهاب إلى هناك. ارتدت آنَّا قفازات جلدية لماعة فاتحة اللون؛ وبنات البيت الثلاث، اللواتي، على الرغم من لباسهن المدني الطابع، كن يذهبن إلى الكنيسة حتى ذلك الحين بلا قفازات، أحضرن الآن قفازاتهن المصنوعة من الحرير أو القطن وزيَّن أنفسهن بها؛ وحين كان الجمع على أتم الاستعداد للذهاب، أظهرت آنَّا شخصية متماسكة ومصغية وقليلة الكلام ومطأطئة الرأس؛ وبنات خالي الأخريات، اللواتي كنَّ في العادة طول حياتهن يذهبن إلى الكنيسة مبتهجات ضاحكات، ظهرن الآن هن أيضاً بمظهر احتفالي مهيب بحيث فقدتُ تماسكي ولم أعرف كيف ينبغي علي أن أتصرف. وقفتُ من شدة الارتباك بجانب المدفأة على الرغم من أن شمس الصيف الفتية كانت خيمت فوق الحديقة؛ سُئلت إن كنت أريد الذهاب إلى الكنيسة مع الذاهبين فقلت، لكي أعيد أخيراً اعتباري من جديد، بنبرة تنم عن إعطائي الأمر أهمية كبيرة: كلا، لا أريد الذهاب، إذ لا وقت عندي الآن إلا للكتابة.

كل البيت ذهب في ذلك اليوم إلى الكنيسة، تكريماً لآنَّا، وكنت الوحيد الذي بقي في المنزل. اقتفيت عبر النافذة أثر الموكب الذي سار عبر المروج تحت الأشجار وظهر للعيان بعد ذلك في أعالي المقبرة لكي يختفي أخيراً بعد دخوله من باب الكنيسة. بعد ذلك أُغلق الباب على الفور وصمتت الأجراس وانطلق النشيد ثم أخذ يدوي واضحاً وجميلاً باتجاهي، وهذا أيضاً لاذ بالصمت؛ ثم انتشر بحرٌ من الهدوء فوق القرية، ولكن تخلله من حين لآخر نداء القس الواعظ الذي كان يتردد قوياً كزعيق النوارس، لا بل أقوى منه. أوراق الشجر وملايين الأعشاب كانت كلها هادئة كالفئران الصغيرة، ولكنها مع ذلك مارست عن طريق ترنحها ذات اليمين وذات الشمال أفانين من المجون الصامت شبيهة بعبث الأطفال في أثناء حديث جدي مهيب. الأصداء المتقطعة لخطبة الموعظة، التي كانت تضيع في كل أرجاء المكان عبر مصراعٍ نافذة مفتوحة، كانت تتردد بإيقاع نادر وعجيب وتُسمع أحياناً على

صورة هولَّلاهو وأحياناً أخرى على صورة يوخهي وهوبسا! مرة بنغمات رفيعة وأخرى بدوي عميق، وفي هذه اللحظات كنداء حريق ليلي ثم مرة أخرى كقهقهة فتاة مرحة. حين كان القس يلقي موعظته وكنتُ أنا أرى في مخيلتي آنَّا جالسة هكذا بهدوء على مقعدها في بهو الكنيسة، تناولت ورقة وريشة ودونتُ مشاعري إزاءها بكلمات نارية. ذكَّرتها بالحدث اللطيف الذي جرى على قبر جدتي وسميتها بالاسم واستخدمت ما أمكن من المرات الصيغة الحميمية في المخاطبة، التي كانت دارجة بيننا فيما مضى. لشد ما أسعدتني هذه الكتابة، وكنت في أثنائها أتوقف أحياناً عن الكتابة ثم أتابعها بعد ذلك باستعمال كلمات أجمل. وكان من شأن ما تجمع عندي من ثقافة مصادِفة ومشتتَة أن تحرر هنا وامتزج بإحساس وضعي الآني الراهن آنذاك. علاوة على ذلك خيّم جو كئيب عبر كل شيء وحين تمت كتابة الورقة قرأتُها عدة مرات، كما لو أنني بذلك أستطيع أن أنادي آنَّا في القلب بكل كلمة من كلماتها. بعد ذلك ثمة ما شدني إلى أن أترك الورقة ملقاة على الطاولة وأذهب إلى الحديقة لكي تتمكن السماء أو يتمكن أي شيء آخر من قراءتها عبر النافذة المفتوحة. ولكن التيقن التام فقط، من أنه لا يوجد بالقرب من هذا المكان أي مخلوق، هو الذي شجعني على هذه الجرأة التي جعلتني أتمشى صعوداً ونزولاً بين أحواض النباتات في حين كنت أنظر إلى النافذة حيث كان يوجد خلفها إعلان حبي الجميل. ظننت أنني فعلت بذلك شيئاً صحيحاً وشعرت بالارتياح والتحرر، ولكنني عدت على الفور إلى الغرفة لأنني لم أكن أثق تماماً بالسلام والهدوء السائدين في ذلك الجو؛ وصلت إلى هناك تحديداً في اللحظة التي هفَّت الورقة خارجة من النافذة إلى العراء بفعل تيار هوائي كان حملها من الغرفة وطار بها. ثم حطت رحالها على شجرة تفاح؛ عدت ثانية إلى الحديقة؛ وهناك رأيتها ترتفع إلى الأعلى وتطير كالبرق جراء دفعة قوية باتجاه بيت النحل حيث تشبثت خلف خلية مليئة بالنحل وطنينه ثم اختفت بعد ذلك. اقتربتُ من خلية النحل تلك؛ ولكن جماعة النحل كانت، نظراً

إلى زمن الصيف القصير، أُعفيت بأمر من البوليس من التعطيل في يوم الأحد فرأت عملها إذاً أمراً لا بد منه؛ كان المكان الذي أمام البيت ساحة تعج بالطنين والتلاقي والتقاطع بحيث لم يكن اجتياز الطريق وارداً في الحسبان. بقيت واقفاً هناك متردداً وخائفاً؛ ولكن لسعةً حساسةً على الوجنة أفهمتني أن مسألة إعلان حبي أوكلت تماماً إلى الرعاية المسلحة التابعة لدولة النحل هذه. ورقة إعلان الحب هذه ظلت بأمان طول بضعة أشهر خلف خلية النحل، وحين استخرج العسل ظهرت الورقة أيضاً، وماذا بعد؟ في تلك الأثناء عددتُ هذا الحدث تدبيراً أعلى وبالتالي قضاء وقدراً وكنت مسروراً نصف سرور من معرفتي بأن إعلان حبي خرج عن إطار إرادتي وهو الآن عرضة لعثورٍ عليه، محتمل الوقوع في كل لحظة. أخيراً غادرتُ منطقة النحل، وأنا أفرك وجنتي الملسوعة، متفحصاً بدقة إن كان طرف صغير من أطراف الورقة بادياً للعيان من مخبئه خلف خلية النحل. التراتيل في الكنيسة دوت من جديد وقُرعت الأجراس وتفرق الجمع في مجموعات صغيرة وعاد كل إلى بيته. وقفتُ من جديد في الطابق العلوي بجانب النافذة ورأيت آنّا تقترب بالتدريج مروراً بربوع خضراء. خلعت قبعتها البيضاء ووقفت بهدوء بعض الوقت أمام بيت النحل وهي تمعن النظر في الحيوانات الصغيرات المجدات مبدية إعجاباً كبيراً بها؛ ولكن بإعجاب أكبر صرت أنا أمعن النظر في آنّا، التي كانت آنذاك واقفة بهدوء تام أمام سري الخفي إلى حد أنني توهمت أن حدسها بذلك هو ما جعلها تتشبث بالوقوف في ذلك المكان الزاهي واللطيف. وحين صعدتْ إلى المنزل أظهرتْ بكل رضاً وارتياح مرح أولئك الغارقين بعمق في التفكير والتبصر حين يعودون من الكنيسة وكانت أعلى صوتاً وأكثر تجاوباً من ذي قبل. لدى تناول طعام الغداء، حيث أتيت من جديد للجلوس إلى جانبها، بدأ تأهيلي المر الحلو للحياة مرة أخرى. في أيام الأحد والأعياد كانت مائدة خالي شبيهة تماماً ببيته وأظهرت تركيبته العجيبة والخلابة بكل تفاصيلها. ثلاثة أرباع تلك المائدة، في تكونها من الشبان

والعاملين في خدمته، اعتادوا حمل أوان ريفية كبيرة ومليئة بالأطعمة الملائمة: قطع كبيرة من لحم البقر وشرائح ضخمة من فخذ الخنزير، نبيذ طازج صب من جرة كبيرة في كؤوس بسيطة مائلة إلى الاخضرار، السكاكين والشوكات من النوع الأرخص سعراً والملاعق من القصدير، في صدارة المائدة، حيث كان يجلس الخال وبعض الضيوف، كانت نوعية هذه الأشياء في تغير مستمر. هناك كانت توضع على المائدة غنائم الصيد وصيد الأسماك إلى جانب مأكولات أخرى متميزة في أطباق صغيرة، ولأن عمتي كانت تكره إعداد أطعمة كهذه وتناولها، فقد تعاملت معها بطريقة صيدلانية وأناملية، كحداد خشن يريد أن يركِّب ساعة ناعمة. في طبق من البورسلان القديم الملون وضع هنا طائر مقليٌّ، وهناك سمكة، بضعة سراطين حمراء أو سلطة صغيرة ناعمة وكؤوس مزينة ومغرقة في القدم ومتنوعة الأشكال؛ كانت الملاعق من فضة وبقية أدوات الطعـــام تكونت من أنقاض عز قديم؛ هنا ملعقة مقبضها من عاج الفيل، وهناك شوكة مزودة بأسنان قصيرة ومقبضها مغلف بطلاء زجاجي ملون. ومن بين اكتظاظ هذه الأدوات المزينة قطعة الخبز الضخمة كما لو أنها جبل يمثل مرتفعاً هائلاً من سلسلة جبال الأطعمة السفلى، الذي عمل جيرانه على الانتقام من أحقية الناس الأعلى في قصر التذوق عليهم وحدهم وذلك بممارسة انتقاد لاذع لمهارتهم في آلية تناول الطعام. فمن لم يستطع أكل سمكة بسرعة ونظافة أو لم يُجِد تنسير عظيمات طائر صغير، نال ما استحق من الاستهزاء والسخرية. وبما أنني كنت تعودت في كنف أمي أبسط أنماط العيش فإن طريقتي في تناول طعام السمك أو الطيور كانت تفتقر إلى شيء من المرونة والبراعة، ولهــذا السبب رأيتني أكثر الناس تعرضاً لنكات رفاق المائدة. مثلاً قدم لي في هذا اليوم أيضاً واحد من العمال الزراعيين قطعة من فخذ الخنزير ورجاني مستهزئاً أن أنسّر له جناح هذه الحمامة كوني أجيد ذلك، على حد قوله؛ ورأى آخر أنني أصلح على أكمل وجه لقرض العمود الفقري في قطعة من النقانق المقلية. إضافة

إلى ذلك كان ينبغي علي بوصفي عاشقاً أن أقوم بخدمة جميلتي، الأمر الذي لم يُرحني أبداً؛ فعلاوة على أن الأمر بدا لي مضحكاً إذا ما قدمت إليها طعاماً موجوداً في الأصل أمامها وأنني كنت أفضل أن أخدمها بالقلب على أن أخدمها باليدين حيث لا حاجة بها إلى ذلك، فإن معرفتي لم تكن كافية في مجال لياقات الطعام بل كنت أقدم أحياناً ذيل سمكة بدلاً من رأسها وبالعكس. تركتها على الفور جالسة أيضاً من دون أن أهتم بإطعامها وكفاني وأنا خلي البال فرحي بقربي منها؛ ولكن خالي أيقظني من تلك المتعة إذ طلب مني أن أنسر من أجل آنَّا رأســاً لواحدة من سمكات الكركي فأبين لها بذلك رموز آلام السيد المسيح المتضمِّنة في ذلك. لكنني كنت أكلت تلك الرأس عن غير قصد، على الرغم من حديث سابق عن هذا الموضوع، وأظهرت نفسي الآن في الوقت ذاته وكأنني وثني جاهل؛ وفي غمرة استيائي مما حدث أمسكت بقبضة يدي عظم الخنزير، الذي كان جرد في أثناء ذلك من اللحم، وجعلته بين عينيَّ آنَّا ثم قلت: ربما قــد يشكل هذا مسماراً مقدساً من الصليب. في نظر المستهزئين كنت بالطبع على حق مرة أخرى فيما فعلت، لكن آنا لم تستأهل تحديداً فظاظة كهذه لأنها لم يسبق أن سخرت مني بل كانت جلست بصمت وهدوء إلى جانبي طول الوقت. احمر وجهها خجلاً بالتمام والكمال. وعندها شعرت ببطلان تصوفي وكان يحلو لي من شدة الندم لو أنني أبتلع العظم كله. ولم يوفر علي ذلك تأنيبٌ صغيرٌ صدر عن خالي وطلب بموجبه مني أن أكف عن تعليقات كهذه. جاء دوري الآن في احمرار الوجه خجلاً فلم أقل أي شيء طول الوقت المتبقي من مكوثنا حول المائدة. فانسحبت وأنا في حال نفسية مزرية من الاستياء المرير وصممت على ألا أجعل أحداً يراني، إلى أن أمَّتني بنات خالي وطلبن مني أن أشترك معهن ومع إخوتهن في مرافقة آنَّا إلى بيتها وزيارة أبيها المعلم. بما أنني كنت منزلقاً إلى وضع مخجل، فقد وجدن أن من المناسب إخراجي من هذا الوضع عن طريق معاملتي باللطف والمودة؛ لأنهن كن يعلمن حق العلم أنني بغير ذلك سوف

أتصرف طبقاً لعرف تلك المرحلة من العمر وأمتنع عن المجيء معهن، لأن التبليم في وجوه الناس هو في نظر ذلك العرف مسألة كرامة ومرتبط أيضاً بمعايير معينة.

وهكذا انطلقنا للرحيل مقتفين آثار النهر الصغير عبر الغابة. بقيت صامتاً هادئاً، وحين كان علينا أن نجتاز مضيق الدرب منفصلين بعضنا عن بعض وكل واحد منا يمشي خلف الآخر، سرت بصفتي الأخير في الموكب، وراء الجميع في أعقاب آنّا مباشرةً لكن بصمت مطبق وعميق دائماً. غير أن عينيَّ تعلقتا بكل تمعن وحب بقوامها وكانتا على استعداد للتنحي عن النظر إليها حالما تنظر هي إلى الوراء، لكن آنّا لم تفعل ذلك، حتى ولا لمرة واحدة؛ بالمقابل تخيلت أنا، مغموراً بسرور باطني، أنها كانت أحياناً تمشي في أمكنة وعرة ومنحدرة دون أن تُظهر نيتها في إثارة الإعجاب بها. وقمت بضع مرات بمحاولات خجلى لمساعدتها في التغلب على وعورة الطريق، إلا أنها كانت باستمرار تسبق يديَّ. وفجأة بدت للعيان يوديت الجميلة واقفة في مكان مرتفع من تلك الدرب تحت شجرة معتمة من أشجار الصنوبر سمق جذعها إلى السماء كعمود من المرمر، رمادي اللون. كنت لم أرها منذ زمن طويل؛ لقد بدت مع مرور الوقت تزداد جمالاً يوماً بعد يوم؛ كانت يوديت تشابك ذراعيها وفي فمها برعم وردة تداعبه بشفتيها هكذا على غير هدى ودونما اكتراث. حيتنا واحداً تلو الآخر دون أن تدخل في حديث مع أحد وحين أتى دوري أخيراً أومأت لي برأسها إيماءة خفيفة وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة.

رحب بنا المعلم بسرور بالغ وفي المقام الأول بابنته التي كان ينتظر عودتها باشتياق وبفارغ صبر، لأنه بات الآن يرى فيها تحققاً لمثله الأعلى ويرى فيها أيضاً ابنة جميلة ناعمة مثقفة وذات نفسية متبصرة ونبيلة، وبالهفيف المتواضع لثوبها الحرير- لا بالمعنى الخبيث – كان أشرق عنده عالم جديد وجميل. وإضافة إلى ما جمع حتى ذلك الحين من ثروة فقد نعم بميراث جيد واستخدمه دونما أي تباهٍ أو تظاهر بالوجاهة في إحاطة عيشته

بكل أسباب الراحة النزيهة والعفيفة. ما رغبت فيه ابنته من احتياجات بعد عودتها من المنطقة الفرنسية، زودها به فوراً وزود مكتبته هو بعدد كبير من الكتب الجميلة، تحقيقاً لرغباته الشخصية واســتبدل ببدلته الرسمية الرمادية اللون سترة طويلة ناعمة وسوداء اللون إذا ما أراد الخروج للسهرة، وفي المنزل اعتاد أن يرتدي روباً شبيهاً بالرسمي وذا وجاهة وعراقة لكي ينعم أكثر بسمعة فقيهٍ مستقل نصف ديني وجدير بالاحترام. كل ما أمكن تزيينه بالتطريز، من شخصه ومن أدواته، كان من شأنه أن زُود بهذه الزينة بكل الوسائل والألوان لأنه كان شديد الإعجاب بهذا النوع من الزخرفة، وتكفّلت آنَّا بتدبر هذا الأمر بكل سخاء ووفرة. في صالة الأرغن الصغيرة وُجدت أريكة فاخرة ووسادات مطرزة بألوان مختلفة وأمام الأريكة سجادة مزدانة بأزهار كبيرة، من تطريز أيدي آنَّا. هذه الأبهة الغنية بالألوان والمكدسة في مكان واحد أظهرت ملاءمة وتميزاً على أكمل وجه، خلافاً لما كانت عليه القاعة المدهونة بطلاء بسيط أبيض. ولكن الأرغن قدم هو الآخر بعض الزينة في مزامير لماعة ومصراعي بابه المزادنين بمختلف الرسوم والنقوش. ظهرت آنَّا الآن بثوب أبيض وجلست بمحاذاة الأرغن. في البنسيون، الذي كانت أقامت فيه أثناء وجودها في المنطقة الفرنسية من سويسرا، كان عليها أن تعزف على البيانو، غير أنها رفضت الآن أن تمتلك آلة موسيقية من هذا النوع حين عرض أبوها عليها في الحال تزويدها بها؛ لأنها كانت ذكية ومعتدة بنفسها إلى حد تعذر معه متابعة النشاز المعتاد. بالمقابل كانت تفيد مما تعلمته في التدرب على عزف أغان بسيطة على الأرغن؛ وهكذا رافقتنا الآن في إنشادنا وأبوها المعلم مكث في مجموعتنا لكي يغني معنا. كان ينظر باستمرار إلى ابنته وأنا أيضاً كنت أنظر إليها، بما أننا كنا واقفين وراءها؛ كانت تشبه بالفعل سيسيليا(*) مقدسة، في حين كان وضع أناملها البيضاء على أزرار

(*) تيمناً بالقديسة سيسيليا، راعية الموسيقى وحامية حماها، المترجم.

الأرغن يعبر عن أنها لا تزال طفلة صفيرة. حين اكتفينا من التمتع بالموسيقى ذهبنا إلى أمام البيت؛ هناك كان كل شيء تغير أيضاً. على الدرج اصطفت شجيرات من الرمان والدفلى والحديقة الصغيرة لم تعد مجرد حديقة أزهار ومنثور أصفر مجعدة ومزعّرة بل غدت ملائمة أكثر لمظهر آنَّأ الحالي ومزودة بنباتات أجنبية وطاولة خضراء إلى جانب بضعة كراسيّ مخصصة للحدائق. وبعد أن تناولنا هنا طعام العشاء ذهبنا إلى ضفة البحيرة حيث رسا هناك قارب جديد؛ كانت آنَّا تعلمت التجديف في بحيرة جنيف ولهذا السبب أمر المعلم بصنع تلك المركبة، هي الأولى التي شوهدت منذ أزمان غابرة فوق سطح مياه البحيرة الصغيرة. ما عدا المعلم صعدنا جميعاً إلى القارب وأبحرنا فوق المياه اللامعة الهادئة؛ كنت أجدف لأنني أردت بصفتي جاراً لبحيرة أكبر أن أُظهر أيضاً فنوني في هذا المجال؛ جلست الفتيات جنباً إلى جنب في حين لم يكفّ الصبيان عن الحركة والعبث باحثين بذلك عن مزاح ومشاجرات. وأخيراً أفلحوا في الشروع في المعركة، خصوصاً أن أخواتهم كن يتطلعن انطلاقاً من الوضع المتسم بالتحفظ والرزانة والجمود إلى التحرك بحرية. فقد سئمن من مجاراة آنَّا في لعبهن معها دور الناعمات والصارمات ورغبن على خير وجه وبكل أبهة في جني ثمار المجون، الذي سمحن لأنفسهن به مع سريري حين قمن بإشاعة الفوضى فيه. لذلك غدوت على الفور موضوعاً للحديث؛ مارغوت، أكبر بنات خالي سناً، أخبرت آنَّا بأنني قدمت نفسي بوصفي عدواً لدوداً للبنات ولا أمل البتة في أن يرق قلبي يوماً لقلب متيم؛ ولذلك فهي تحذر آنَّا سلفاً من أن تقع سابقاً أو لاحقاً في غرامي، أما فيما عدا ذلك فإنني شاب لطيف وظريف. إثر ذلك قالت ليزيت إن المظهر لا يطمئن؛ بل هي ترجح الظن أنني في أعماقي أحترق عشقاً ولكنها لا تعرف بالطبع من هي معشوقتي؛ ولكن دليلاً أكيداً على ذلك يكمن في نومي المضطرب؛ إذ وُجد سريري في الصباح في حالة من الفوضى تدعو إلى أشد الاستغراب، كانت ملاءته ملتفة مشرّكة إلى حد يُظن معه أنني كنت طول

الليل أدور حول نفسي كالمغزل. هنا تظاهرت مارغوت بأنها قلقة علي وسألت ما إذا كنت فعلاً لم أنم جيداً؟ إذا كان الأمر كذلك فهي لا تعرفني بالطبع على حقيقتي. في أثناء ذلك تريد مارغوت أن تأمل أنني لست منافقاً وأنني أمثل دور عدو البنات في حين أنني لا أعرف من شدة الحب أي مخرج مما أنا فيه! زد على ذلك أنني، في رأي مارغوت، لا أزال صغير السن تجاه أفكار كهذه. ولكن ليزيت ردت بقولها إن المصيبة هي تحديداً أن يكون غر مفتقر إلى التجربة والخبرة مثلي أنا عاشقاً متيماً إلى حد أنه لم يعد يستطيع حتى أن ينام. هذا القول الأخير أثار استيائي وغضبي فصرخت:" إذا لم أستطع أن أنام، فذلك كان يرجع إلى أن عشقكن أنتن أزعجني طول الليل ولم أكن على الأقل الوحيد المستيقظ!" فقالتا بشيء من الارتباك والدهشة: "أووو، أكيد أننا غارقتان في الحب إلى ما فوق آذاننا!" ولكنهما تماسكتا في الحال وتابعت الأخت الأكبر سناً حديثها: "ما رأيك، يا ابن عمتي الصغير، لو أقمنا بيننا جسراً من التعاون المتبادل؟ أفصح لنا عن آلامك لكي نجعل منك بالمقابل، عرفاناً منا بجميلك، موضع سرنا وملاك إنقاذنا في شدائد حبنا!" فأجبتها: "يبدو لي أنكِ لست بحاجة إلى ملاك إنقاذ لأن ملائكة كثيرين يصعدون إلى نافذتك وينزلون منها على السلم وهم مغمورون بالفرح والابتهاج!". وصرخت مارغوت وقد احمر وجهها خجلاً وحرجاً: "اسمعوا إنه يهذي الآن، لا بد أنه في وضع سيئ"؛ وليزيت، التي أرادت أن تحصن نفسها في وقت مبكر، أضافت تقول: "أخ، دعوا الشاب المسكين وشأنه، إنه لعزيز علي وإنه ليؤسفني!"، فقلت لها بمزيد من الغضب والاحتداد: "اخرسي! عشاقكِ يسقطون في غرفتك من أعالي الشجر!".

هنا صفق الصبيان وصرخوا:" أوهو، هكذا هو الوضع إذاً؟ من المؤكد أن الرسام رأى شيئاً، طبعاً، طبعاً، طبعاً! لقد لاحظنا ذلك منذ فترة طويلة!" ثم ذكروا اسمي العشيقين سعيدي الحظ للسيدتين الصغيرتين، اللتين أدارتا لنا ظهريهما قائلتين: " كلام فارغ! أنتم جميعاً أوغاد كاذبون والرسام هو زعيم

شرير لعصابة من الكذابين!" بعد ذلك تجاذبنا بضحك وهمس أطراف الحديث مع الفتاتين الأخريين، اللتين لم تعرفا تماماً ما موقفهما من مجمل المشكلة، وكل البنات لم يجدن علينا بعد ذلك بأي نظرة. وهكذا أفشيت حتى قبل أن تغيب الشمس ذلك السر، الذي كنت نويت في الصباح بكل أريحية الحفاظ عليه. بذلك تم إعلان الحرب بيني وبين الجميلات، ورأيتني فجأة ابتعدت عن محط آمالي وهدفها بعد السماء عن الأرض؛ لأنني ظننت أن كل الفتيات متحالفات في ما بينهنّ تحالفاً وثيقاً كما لو أنهن جميعاً شخص واحد ولا بد للمرء أن يكون عموماً على علاقة جيدة بهذا الشخص، إذا ما أراد هذا المرء أن يكسب جزءاً صغيراً منه.

* * *





الفصل التاسع

حرب الفيلسوف والفتيات

في ذلك الوقت نُقل من مدرسة القرية المعلم الثاني وحل محله معلم فتي لم يبلغ بعد السابعة عشرة من عمره وسرعان ما انتشرت سمعته في كل أرجاء المنطقة. كان صبياً رائع الجمال، ذا وجنتين ورديتين وفم حلو صغير وأنف صغير أفطس وعينين زرقاوين وشعر أشقر مجعد. كان يسمي نفسه فيلسوفاً، وقد مُنح هذا اللقب بوجه عام لأن شخصيته وأفعاله كانت بكل تفاصيلها غريبة وشاذة. وبما أنه تميز بذاكرة رائعة، سرعان ما حاز كل المعارف اللازمة لمهنته واشتغل لذلك في إطار الحلقة الدراسية بدراسة كل من أمكن من الفلاسفة الذين حفظ كلماتهم حرفياً عن ظهر قلب؛ لأنه كان يزعم أن أفضل معلم ابتدائي هو ذلك الذي يقف في أعلى قمة من قمم المعرفة الإنسانية وأوضحها وله نظرة ثاقبة تحيط بكل الأشياء ووعيه مزود بكل أفكار العالم، ولكن في ذات الوقت يطوف بين صغار الناس بكل تواضع وبساطة وطهارة أزلية وإذا أمكن برفقة الأصغرين منهم. طبقاً لذلك كان يعيش هذا الفيلسوف فعلاً؛ ولكن عيشه هذا كان بسبب شبابه الكبير صورة ساخرة منمنمة وكان أحبَّ إليه من كل ما أحب. كان شبيهاً بزرزور لدى ترديده كل منظومات الفيلسوف اليوناني تاليس حتى الآن؛ ولكنه فهمها دائماً بالمعنى الحرفي والحسي للكلمة، في حين أدى فهمه للرموز والصور إلى عبث مثير للضحك. حين كان يتحدث عن سبينوزا لم تكن عنده على سبيل المثال فكرة كل ما يوجد في العالم

من كراسيّ هي المثال لقطعة من المادة المستخدمة لغاية ما، أي المقياس، بل الكرسي الواحد الذي يقف أمامه الآن هو المقياس الجاهز والتام، الذي يكمن فيه الجوهر الإلهي بأكثر أشكال الوجود واقعية وتطبيقاً، وعبر ذلك حظي الكرسي بالتقديس. وفيما يتعلق بالفيلسوف لايبنيتس فإن العالم لا ينقسم عند فيلسوفنا إلى وحدات وجودٍ جسدية –روحية بسيطة بل إبريق القهوة، الذي هو على الطاولة وفي معرضٍ أن يتخذ الآن مثالاً، يوشك أن يتفكك وتوشك القهوة، التي لم يتضمنها الترميز، أن تسيل على الطاولة بحيث يترتب على الفيلسوف أن يسارع من خلال الانسجام المثبَّت من قبل إلى تجميع الإبريق وإعادته إلى وضعه الأول إذا ما أردنا أن نتمتع بهذا المشروب المنعش. لدى كانط سمع الناس المسلَّمة الإلهية وهي تدوي نابضة بالحياة ورشيقة كبوق بريد صغير من البعد العميق في حنايا الصدر؛ ولدى نيشته اختفت كل الحقيقة الواقعية من جديد كالعنب في قبو فويرباخ، ولكن لم يُسمح لنا أن نؤمن حتى بأنوفنا التي أمسكناها بأيدينا؛ إذ كان فويرباخ يقول: ليس الله سوى ما سحب الإنسان من كينونته الخاصة به وتبعاً لاحتياجاته ثم جعل من هذا المحسوب إلهاً ومن ثم ليس أحد غير الإنسان هو هذا الله ذاته، فقد أحاط فويرباخ نفسه بهالة صوفية ونظر إلى نفسه بمنظار تأليهٍ قدسي، بحيث تحول الأمر عنده، ما دام يحتفظ دائماً بالمعنى الديني للكلمة، إلى حال مضحكة من سب الله وشتمه، الأمر الذي ورد في الكتاب بصفته أقسى أنواع الاعتزال والزهد. ولكن أكثر ما كان مضحكاً في تصرفات فيلسوفنا هو اقتداؤه بالمذاهب القديمة، التي جمع في سلوكه الظاهر أنماط عيشها. فبوصفه لاذع السخرية كان ينزع من جاكيته كل الأزرار الزائدة عن اللزوم ويرمي بعيداً رباط حذائه وينزع الشريط من قبعته ويحمل عصا غليظة خشنة كانت على تنافر صارخ ونادر مع وجهه الصغير الناعم وكان يلقي فراشه على الأرض العارية؛ تارة كان يجدل شعره الذهبي الجميل في خصل طويلة تحتوي على آلاف التكويرات والدوائر بذريعة أن لا لزوم للمقص، وتارة أخرى كان يقصه من جذوره على كل الرأس إلى حد كان

يصعب معه على أي كماشة مهما صغرت ورقت ونعمت أن تمسك ولو بشعيرة في منتهى الصغر، في حين أعلن أن الخصل هي كماليات وضيعة، فكان منظره عندئذ برأسه الأصلع الأجرد أكثر إثارة للضحك. بالمقابل كان فيما تعلق بالطعام أبيقورياً متعوياً، وفي حين أعرض عن طعام القرية المعتاد كان يحمِّر سنجاباً صغيراً حامضاً ويقلي سمكة صغيرة أو طائراً من طيور السَّمان من حصيلة صيده ويتناول ما كان ينتقي من حبوب الفاصولياء أو اللوبياء ونباتات غضة وما إلى ذلك، وإلى جانب هذا كله كان يشرب نصف كأس صغير من النبيذ المعتق. ولكن بصفته من أتباع المذهب الرواقي فقد كان يحلو له الإعدادُ لكثير من المشاجرات العبثية لكي ينعم بعد ذلك في خضم الضوضاء والفوضى الناجمة عنها بشيء من راحة البال ويوفر على نفسه كل انزعاج أو قلق؛ وبوجه سافر أعلن أنه يحتقر النساء وكان في حرب دائمة معهن لأنهن بإثارتهن الحسية وطبيعتهن المغرورة المتبرجة يردن سلبَ الرجال فضيلتهم وجديتهم. وبوصفه لاذع السخرية كان يلاحق النساء والفتيات في كل مكان بتصرفات طبيعية تفتقر إلى التشذيب والصقل، وبوصفه أبيقورياً متعوياً كان يروي نكات شهوانية، والجانب الرواقي منه كان يطالعهن بقول فظاظات وكلام خشن وغليظ، إلا أنه كان يوجد دائماً حيث توجد ثلاث منهن في مكان واحد. كن يدافعن عن أنفسهن بارتياع وذعر صاخبين بحيث كانت تبدأ حالة من الضوضاء المرحة حيث يظهر هو في أي مكان كان؛ ومع ذلك كان الناس يتمنون رؤيته ويرغبون فيها؛ الرجال لم يكترثوا له والأطفال تعلقوا به بحب كبير؛ لأنه مع هؤلاء كان فجأة كحمل وديع وكان له معهم أفضل العلاقات. كان يعتني بصغارهم على أكمل وجه وأفضله بحيث لم يسبق أبداً لأحد قبل ذلك أن رأى في القرية نوعية من الصبيان الصغار والفتيات الصغيرات بهذه الدرجة من النبل والطيب. ولذلك تجاهل الناس بقية ما قام به من ممارسات وما حاك من قصص ومقالب ونسبوا ذلك كله إلى شبابه المستهتر العابث؛ وحتى ظهوره بمظهر الملحد لم يستطع أن يسلبه حظوة العنصر النسائي في القرية.

كان الفيلسوف يتردد على بيت خالي، حيث كان يتردد عليه أيضاً عدد كبير من الفتيات والصبيان المعجبين باستعراضاته، وقد ازداد هذا العدد بسبب تنوع أسباب الزيارات. وانضممت أنا أيضاً إلى أتباع الفيسلوف، لأنني كنت من جهة مشدوداً إلى تفلسفه ومن جهة أخرى إلى حربه ضد النساء التي اتفقت آنذاك تحديداً مع وضعي الحرج مع الفتيات. قمنا معاً بنزهات طويلة مشياً على الأقدام وكان يتلو علي في أثنائها المنظومات الفلسفية المختلفة حسب ترتيبها في ذهنه وبمقدار ما استطعتُ استيعابها. وتراءى لي كل شيء من هذا القبيل غاية في الأهمية والبهجة، وسرعان ما نظرت مثله باحترام إلى كل نظرية وإلى كل مفكر سواء استصوبناه أو لم نستصوبه. حول العقيدة المسيحية سرعان ما تلاقت آراؤنا، وبصورة أسرع أعلنَّا الحرب ضد القساوسة وذوي السلطان من كل نوع؛ ولكن حين كان ينبغي علي أن أتخلى عن فكرة وجود الله والخلود ويطلب مني الفيلسوف ذلك عبر نقاشات هي غاية في البساطة، عندها كنت أضحك بالبساطة نفسها وحتى لم يكن يدور في خلدي أن أبحث معه هذا الأمر بجدية. بل قلت، في النهاية قد تكون الصيغة الرئيسية لكل فلسفة، ولو كانت منطقية إلى حد كبير، نهجاً صوفياً كبيراً وشنيعاً في آن واحد مثل التعاليم المتعلقة بالثالوث المقدس، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن أي شيء عدا اقتناعي الشخصي الفطرية دون أن أسمح لأي حيّ فانٍ بأن يقاطعني في حديثي. وعلاوة على ذلك، إذا كنت لا أعرف ماذا أفعل من دون الله وإذا كنت أرى أنني لا أزال في الحياة بحاجة ماسة إلى العناية الإلهية، فقد ربطني بهذا الاقتناع الراسخ نوع من إحساس فني متبلور. آمنتُ بأن كل ما يُنجزه البشر يكتسب أهمية أولاً وأخيراً عن طريق كونهم قدروا على إنجازه وأنه من صنع العقل والإرادة الحرة؛ ولذلك لم تكن الطبيعة، التي كنت أُرشدتُ إليها، ذات أهمية إلا إذا عددْتها من صنع عقل يحس بما أحس به ويتكهن بما أتكهن به. إن وادياً من شجر الزان تخترقه أشعة الشمس لا يمكن أن يكون موضوعاً للإعجاب إلا إذا فكرتُ أنه مخلوق

عبر شعور مشابه من الفرح والجمال. قلت للفيلسوف: "انظر إلى هذه الزهرة! يستحيل ألاَّ يكون هذا التناظر مع هذه النقاط والسنن المحصيَّة بدقة، هذه التقليمات الصغيرة البيضاء والحمراء، هذا التويج الذهبي في الوسط، يستحيل ألاَّ يكون كل ذلك مستوطناً في الذاكرة من قبل! وكم هي جميلة هذه الزهرة ولطيفة، هي قصيدة، عمل فني، فطنة، دعابة ملونة ويفوح أريجها في كل الأرجاء! شيء كهذه لا يصنع نفسه بنفسه!" فقال الفيلسوف:" هي جميلة على كل حال سواء أكانت مصنوعة أم غير مصنوعة! سل مرةً! فهي لن تقول شيئاً، لا وقت لديها لذلك، لأن عليها أن تُزهر وليس بوسعها أن تهتم بشكوكك! لأن كل ما أنت آتٍ به ليس إلا شكوكاً بحتة بالله وشكوكاً دنيئة بالطبيعة، وإن نفسي لتغثي لمجرد أن أسمع شكاكاً، شكاكاً مرهف الإحساس! وأسفاه!" كان سمع هذه الورقة الرابحة لدى حوار أناس أكبر سناً وأتى بها، كفنون المبارزة المشابهة التي كان يجيدها، لكي يستخدمها ضدي وينتصر علي أخيراً؛ وعلى وجه الخصوص كان يقول دائماً في نهاية المطاف إني لا أزال أجهل الأمر ولا أتقن التفكير السليم، الأمر الذي أغاظني جداً وترتب عليه أن نشب بيننا أحياناً عراك عنيف. ولكننا كنا دائماً نعود إلى التصالح من جديد حين نلتقي الفتيات، إذ كان لا بد لنا آنذاك من تحقيق نصر مشترك في معركة هوجمنا فيها من جميع الجهات. تمكنَّا لفترة طويلة من الانتصار على العدو ورده على أعقابه باستخدام سلاح سخرياتنا اللاذعة، ولكنه حين عجز عن متابعة القتال واستشاط غضباً وهياجاً تحولت الحرب إلى الاحتكام إلى القوة وبالتالي إلى التشابك بالأيدي؛ إحداهن بدأت بالحرب بأن صبت على رأس أحدنا من حيث لا يدري كأساً من الماء وسرعان ما نشبت بعد ذلك مطاردة وملاحقة عبر أرجاء البيت والحدائق. وسرعان ما انخرط في المعركة صبيان آخرون، لأنهم رأوا في خمس بناتٍ حانقات إلى ست مناسبة مثيرة إلى أقصى حد. تبادل المتعاركون قذف الفاكهة باتجاه بعضهم الآخر وتقاذفوا شجيرات القريص بعد أن اقتلعوها من الحديقة وتدافعوا لإسقاط

بعضهم بعضاً في الماء إلى أن تطور الأمر إلى تلاحم الأيدي بالتصاق وثيق، ولشد ما أدهشني أن أجد الصبيان العابثين بهذا المستوى العالي من خفة الحركة والاستعداد للرد والدفاع. حين كنت أضم بكل ما أوتيت من قوة صبية هائجة بوحشية بقصد ترويضها في حين كانت هي تسعى إلى إيذائي بنية خبيثة وشريرة، كنت أقاتل بشرف وشجاعة دونما تفكير بأي مغنم عرضي ولم أكن أعرف البتة أن من أضغط عليه بذراعي هو فتاة. معارك كهذه كانت تُخاض دائماً في غياب آنّا؛ ولكن نشوب تلك المعركة في أثناء حضورها لم يكن أمراً متعمداً وسرعان ما رغبت في إنقاذ نفسها من أتونها؛ أما أنا، فحين كنت أطارد تواً بنفس محموم فتاة أخرى لكي أعاقبها على تصرف سابق، خبيث وغادر، أمسكت يداي مصادفة وفجأةً بآنّا فما كان مني عندئذ إلا أن أسبلتهما بتثاقل وهلع.

بقدر ما كنت أتحلى، وأنا في صف الفيلسوف، بكل الجرأة والشجاعة، كنت متخاذلاً ومغلوباً على أمري في مجابهة البنات وحدي، حينئذ كان لا بد من تحمل كل شيء. أما الفيلسوف فلم يخف من اختبار كهذا بل كان أحياناً يصول ويجول بكل شجاعة هنا وهناك في جحيم معركة ضد دزينة من النساء الشابات والمسنات على حد سواء وكان يهلل بصوت عال لانتصاره كلما تعرض للإيذاء بالألسنة وبالأيدي حين كان يرشقهن بأقوال من الإنجيل معادية للنساء وبحجج دنيوية أخرى في هذا الاتجاه. أنا بالمقابل كنت أخلي الساحة حين تسوء أوضاعي أو أتراجع على أساس أن عندي استعداداً للتعلم من الآخرين وتقبل هدايتهم. وحين أكون مع فتاة على انفراد تام كنا نعقد هدنة وكنت أبدي نصف نزوعٍ إلى خيانة قضيتنا ووضع نفسي تحت حماية العدو. كنت أتطلع إلى أن يحقق لي هذا التجاوب المروَّض بالتدريج إجراء حديث مع آنّا من جديد، بالتفصيل وعلى انفراد، وكنت أظن دائماً أن من الأفضل أن يتم ذلك على مدى بعيد وبطريقة غير مباشرة بحيث اعتمد على الآخرين بدلاً من أن أمسك آنّا ذات مرة بيدها وأبادرها الكلام. لكن هذا التصور الأخير بدا

عندي بعيداً بعد السماء عن الأرض ومستحيلاً بحتاً؛ وكنت أفضل أن أقبِّل تتيناً على أن أكسر الحاجز هكذا باستهتار إلى هذا الحد، على الرغم من أن استخراج الحميمية الطاهرة الجميلة مرة أخرى من موطن الرقة والافتتان ربما توقف على هذه القبلة التتينية، ومن ثم على هذه الكلمة الأولى.

ولكن من يدري! عصفور في اليد خير من نسر على السطح! كان لا يزال الاحتفاظ المؤكد بهذا القرب الصامت أفضل بكثير من الاضطرار لدى إهانة الكرامة إلى صرف النظر كلياً عن موضوع آنَّا! لهذا السبب ازداد تصلبي وعنادي باطّراد إلى أن صرتُ عاجزاً عن أن أوجه إليها أي كلمة حتى ولو كانت عديمة الأهمية والطعم واللون؛ وهكذا حدث، حين لم تقل لي أيضاً أي شيء، أن زالت بيننا بعد لقاء مغرق في الصمت كل علاقة دون أن يتجنب بعضنا بعضاً. وغالباً ما كانت تأتي إلينا كالعادة في أثناء حلولي ضيفاً على بيت خالي وكنت أنا أزور أباها المعلم، لاحقاً كما سابقاً، إذ كانت تبدو في كل مرة مسرورة بتحركاتها في كل الأمكنة والأرجاء دون أن تهتم أو حتى تكترث لي. في حين تراءى لي أمراً عجيباً أنه ما من أحد بدا أنه لاحظ موقفنا الغريب بعضنا من بعض وذلك على الرغم من أنه كان من الأكيد أن تلفت الانتباه حقيقة أننا لم يسبق بتاتاً أن قلنا لبعضنا أي شيء. ابنة خالي الأكبر سناً، مارغوت، خُطبت في ذلك الصيف من قبل الشاب ميلر الذي كان خيَّالاً ذا طلعة مهيبة؛ والابنة الوسطى تحملت على المكشوف طلبات ودها من قبل ابن فلاح غني، أما الأصغر سناً، وكانت بُنيةً بعمر ستة عشر عاماً وتتصرف في الاشتباكات العراكية بصورة أكثر وحشية وعداء من الجميع، فقد فوجئت مباشرة بعد إحدى المعارك العنيفة وهي تتبادل القبل في كوخ الحديقة هكذا على وجه السرعة مع الفيلسوف؛ ولهذا السبب جرت أذيالها سحب الشقاق وانقشعت وعم السلام العام ما عدا ما بيني وبين آنَّا، بل لنقل إنه كان سلاماً صامتاً مع أننا لم نتجابه في أي معركة بعضنا ضد بعض وجهاً لوجه؛ لأن علاقتنا بقيت باستمرار تراوح في مكانها. كانت آنَّا أقلعت عن

أصول السلوك الفرنسية الظاهرية وغدت من جديد أكثر نشاطاً وتحرراً، إلا أنها ظلت طفلة ناعمة وهشة، قليلة الحديث عموماً، عرضة للإهانة وللانفعال ببساطة وسهولة مما أظهر باستمرار احمراراً سريعاً على وجهها، وبان عليها على وجه الخصوص زهو بسيط كان ممزوجاً بشيء من العناد والمكابرة. ومع ذلك كان عشقي لها يزداد يوماً بعد يوم بحيث كانت باستمرار شغلي الشاغل حين أكون وحدي وحين كنت أشعر بالتعاسة وأطوف وحيداً الغابات والمرتفعات؛ بما أنني كنت آنذاك من جديد الوحيد الذي وجب عليه أن يُخفي أفكاره، على ما كنت أظن، فقد فضلت أيضاً أن أمشي من جديد أيضاً وحدي وأعتمد على نفسي فقط.



* * *

الفصل العاشر

المحاكمة في كوخ الحديقة

كنت أقضي الأيام في أعماق الغابة مزوداً بأدواتي؛ ولكنني لم أرسم وفقاً للطبيعة إلا قليلاً، بل حين وجدت مكاناً خفياً حيث تأكدت من أن ما من أحد سيفاجئني فيه، تناولت قطعة جميلة من الورق الإنكليزي ورسمت عليها صورة آنَّا بالألوان المائية كما تخيلتها في ذاكرتي. وحققتُ أكبر سعادة حين أعددت لنفسي مكان إقامة على ضفاف مياه صافية كالمرأة وتحت سقف من أوراق الشجر الكثيفة، صورة آنَّا على ركبتيَّ. لم أستطع أن أرسم بقوة وجسامة ولذلك اتسم عملي كله بشيء من التزلف والتملق مما أضفى عليه بسبب جودة الألوان ولمعانها نوعاً من ترغيب خاص في مشاهدته. في كل يوم كنت أمعن النظر في آنَّا خلسةً أو علانية ثم أصحح اللوحة بناء على ذلك إلى أن أصبحت في النهاية قريبة الشبه بها. كانت الصورة بالقد الكامل وضمن حوض من الزهور التي علت سيقانها وتيجانها مع رأس آنَّا إلى السماء العميقة الزرقة؛ الجزء العلوي من الرسم كان مدوراً على شكل قوس ومحاطاً بزخارف تخللتها طيور وفراشات لامعة وقد أضفت إلى ألوانها أضواء ذهبية. كل هذا وكذلك ثوب آنَّا، الذي ابتكرته من خيالي وزينته، كان عندي العمل الأكثر إراحة طول الأيام الكثيرة التي كنت قضيتها في الغابة ولم أكن أنقطع عن عملي هذا إلا حين كنت أعزف على نايي التي كانت ترافقني على الدوام. وحتى في المساء بعد غياب الشمس كنت أخرج أيضاً إلى التنزه

وأصعد إلى الجبل إلى المكان الذي يتحاذى في العمق مع البحيرة ومع بيت المعلم ثم أطلق العنان بعدئذ لألحاني، التي نمت في بيئة بوهيمية متوحشة، أو لأغنية حب جميلة عبر الليل وضوء القمر.

على هذا النحو انقضت أشهر الصيف؛ خبأت صورة آنَّا بعناية ورعاية ونويت إخفاءها مدة طويلة عن أنظار الناس ما داموا لا بد أن يعدوها اعترافاً واضحاً بحبي لها. في عصر أحد الأيام المشمسة من شهر أيلول حين انتشر الشعاع الخريفي الخفيف فوق الحديقة كنت أريد لتوي الخروج للنزهة، وإذا صبي ينقل إلي نبأ مفاده أن مجيئي إلى كوخ الحديقة الأكبر هو أمر مطلوب ومرغوب فيه. كنت أعرف مسبقاً أن الفتيات كلهن كن منشغلات هناك بإعداد جهاز مارغوت اللازم لإقامة حفل زفافها وأن آنَّا تساعدهن في عملهن؛ ولذلك خفق قلبي في الحال لأنني أحسست وقتها بشيء ما غير عادي؛ ولكنني لن أذهب إلى هناك إلا بعد فترة وجيزة وبحال تنم عن عدم الاكتراث والمبالاة. كانت البنات جالسات على هيئة نصف دائرة حول البياضات والمفارش البيضاء تحت سقف العرائش الخضراء وأظهرن كلهن جمالاً وازدهاراً خلابين.

حين دخلت وسألت عما يرغبن، أخذن يبتسمن ويتضاحكن لفترة غير وجيزة بحيث أردت بكل عناد وتصميم أن أعود أدراجي وأذهب وشأني. ولكن مارغوت تناولت الكلمة وصرخت: "لا تبرح مكانك، فلن نأكلك!" وبعد أن تنحنحت، تابعت تقول: "لقد تجمعت ضدك شكاوى كثيرة ولذلك اجتمعنا هنا بوصفنا نوعاً من محكمة لكي نقاضيك ونستجوبك، يا ابن عمتنا العزيز، وبهذا نطلب منك أن تجيبنا عن كل الأسئلة التي ستوجه إليك، بكل أمانة وصدق وتواضع، في البداية نرغب في أن نعرف - حسن، ماذا أردنا أن نسأل قبل كل شيء، ياكاتون؟" فأجابت هذه: " عما إذا كا يحب أكل المشمش؟" وليزيت صرخت: "يجب أن نسأل أولاً كم عمره وما اسمه!".

قلت: "أرجو ألاَّ تجعلن أنفسكن عديمات الفائدة أكثر مما يجوز، وهيا أفصحن عن مطلبكن!".

لكن مارغوت قالت: "باختصار، ينبغي عليك أن تقول ما هي مآخذك على آنّا، التي قد تسوّغ بها تصرفاتك معها بهذه الصورة؟"

أجبتُ بارتباك: "أي صورة؟"، وآنّا غدت محمرة الوجه وألقت نظرة على قماشها الكتاني.

وتابعت مارغوت تقول: "أي صورة؟ أريد أنا أيضاً أن أطرح عليك هذا السؤال! بكلمة واحدة، ما السبب في أنك منذ وصولك إلينا لم تتحدث إلى آنّا بكلمة واحدة وأنك تتجاهل تماماً وجودها في هذا العالم؟ ليس هذا إهانة لها فحسب، بل لنا كلنا؛ ولا بد بطريقة ما من أن تُزال هذه الإهانة من أجل التزام باللياقات العامة على الأقل؛ قل لنا إن حدث أن أهانتك آنّا من حيث لا تدري لكي تعتذر منك بكل خضوع. للمناسبة لا يجوز أن تكون فخوراً بذلك أو أن تظن أن حظوتك الثمينة هي موضوع طموح وتطلع! لا قصد من جلسة المحاكمة الحالية إلا الحفاظ على الأصول واللياقات والحق المشروع!".

كان ردي على ذلك هو أنني على استعداد لذكر أسباب تصرفاتي إزاء آنّا حالما تريد هي أن تسوّغ تصرفاتها إزائي، في حين لا يجوز لي أن أتباهى بأي كلمة توجه إلي. هنا سُجل علي مأخذ تمثل في أن المرأة لا تزال تستطيع باستمرار أن تفعل ما تريد؛ وعلى أي حال يجب علي أن أكون أنا البادئ وإثر ذلك سوف تلتزم آنّا أن تتعايش معي في جو ودي ومتجاوب، تماماً كما مع الآخرين.

كان قول مارغوت جديراً بالاستماع إليه وبدا لي أنه قيل تماماً بالمعنى نفسه الذي كنت أعدّ النساء بموجبه وحدة تآمرية قائمة بذاتها، وتراءى لي أنه برهان مريح على استحسان معالجتهن موضوعاً ما إذا ما أبدين في ذلك رضاً وترفقاً. رددتُ مبتسماً أنني على استعداد لأن أذعن بكل رغبة لكلمة متعقلة ولا أطلب شيئاً أفضل من أن أعيش مع كل العالم بأمن وسلام. ولكنني كنت أقف هناك في تلك اللحظات دون أن أتابع النظر إلى آنّا التي كانت منهمكة في الخياطة. الآن تناولت ليزيت الكلمة وقالت: "لكي نبدأ بالقضية، مدّ يدك

الآن إلى آنَّا وعدها بكلمات واضحة أن تحييها باسمها في كل مرة تلتقيها وأن تسألها عن أحوالها؛ في هذه المسألة ينبغي أن يؤكد أن تتصافحا في بداية كل لقاء يتم بينكما على مدى كل الأيام، كما هي العادة المتبعة بين الإخوة المسيحيين".

اقتربتُ من آنَّا ومددت لها يدي ثم ألقيت كلمة صغيرة مضطربة ومبهمة، ودون أن ترفع نظرها إلى الأعلى مدت لي يدها هي أيضاً بأنفة وبشيء من التبسم.

وحين أردتُ الابتعاد عن كوخ الحديقة والذهاب إلى حال سبيلي، بدأت مارغوت بالكلام من جديد: "صبراً، أيها السيّد ابن عمتي. الآن ترد المشكلة الثانية التي لا بد أن تحلّ". وهنا أزاحت المناديل التي كانت تغطي الطاولة وأخرجت صورة آنَّا التي كنت رسمتها بين أحضان الطبيعة.

وتابعت مارغوت حديثها: "لا نريد أن نتحاور طويلاً في مسألة كيف وصلنا إلى هذا العمل الفني السري؛ لقد اكتشف مكانه بطريقة ما ونرغب الآن في أن نعلم بأي حق ولأي غرض تُرسم فتيات بريئات من غير معرفتهن بذلك مسبقاً؟".

كانت آنَّا ألقت نظرة عابرة على اللوحة الملونة وجلست هكذا مضطربة ومرتبكة في آن معاً في حين كنت في غمرة من الخجل والعناد. هنا أعلنت أن اللوحة هي ملك لي وأنني لست مديناً لأي مخلوق فانٍ بأي مسؤولية عنها، سواء أكانت بادية للعيان أم لا تزال في مخبئها وهنا أرجو ألاَّ تمتد مستقبلاً يدُ أحدٍ أياً كان إلى حوائجي الخاصة. بهذا مددت يدي لأخذ الرسمة؛ ولكن الفتيات سرعان ما غطينها بأقمشة الكتان وكومن فوقها جهاز العروس كله.

وقلن إنه لا يمكن أن يقفن مكتوفات الأيدي من مسألة رسم صورهن خفية عنهن ولغايات غير معروفة. وطلبن مني أن أعلن بشكل محدد وقاطع لمصلحة من قمت أنا برسم الصورة المذكورة وماذا أنوي أن أفعل بها؛ لأن الظن بأنني أريد أن أحتفظ بالصورة لنفسي لا يتفق بأي حال مع التصرفات

التي صدرت مني حتى الآن حيال صاحبتها؛ دع أن الاحتفاظ بالصورة هو أيضاً أمر غير مسموح به.

أخيراً رددتُ عليهن: "الموضوع هو في منتهى البساطة. أردت أن أُعد مفاجأة سارة للمعلم، والد آنَّا، لمناسبة عيد اسمه ونويت أن أحقق ذلك على أفضل وجه برسم صورة شخصية لابنته البتول؛ إذا كنت ارتكبت جراء ذلك إثماً كبيراً فاسمحن لي هنا أن أبدي أسفي وأن أعلن أنني لن أكرر ثانية عملاً كهذا البتة! وبدلاً منه ربما أتمكن من تقديم خدمة مماثلة لقريبي السيد المعلم عن طريق رسم لوحة لبيته وحديقته على ضفاف البحيرة؛ سيان عندي!".

صحيح أنني بهذا المهرب ضيعتُ على نفسي امتلاك اللوحة التي كنت أحببتها جراء ما بذلت فيها من جهد وعمل؛ ولكنني في الوقت ذاته قطعت بذلك خيط المفاوضات المتعبة، في حين لم تعرف الفتيات بالمقابل بماذا يعترضن على ما قلت لهن، لا بل دُفعن مضطرات إلى امتداح اهتمامي اللافت بالمعلم وشؤونه. ولكنهن قررن الاحتفاظ باللوحة إلى ذلك اليوم الذي نقدمها فيه جميعنا إلى المعلم في جو احتفالي مهيب.

وهكذا خسرت كنزي الثمين، ولكنني أخفيت انزعاجي من ذلك في حين بدأت من جديد، كونها لم تكن راضية بعد، ابنة خالي الصغيرة كاتون: يقول، سيان عنده إذا ما رسم البيت أو رسم آنَّا! ما معنى هذا؟".

فردت عليها مارغوت بقولها: "معنى هذا أنه صبي متكبر متغطرس وفي حسابه أنه لا قيمة ولا أهمية لفتاة جميلة وشأنها في ذلك على حد سواء شأن بيت عادي، لا أكثر! لكن بصورة رئيسية ينبغي أن يعني هذا ما يلي: إياكن والظن أن هذا الوجه الناعم كان يهمني على وجه الخصوص في أدنى شيء حين رسمته! إن هذه لإهانة جديدة، وآنَّا المسكينة تستحق رد اعتبار رائعاً ولائقاً بها!".

في تلك اللحظة أخرجت مارغوت من صدرها قصاصة ورق مطوية ثم فتحتها وكلفت ليزيت أن تتلوها على الحضور بصوت عالٍ ونبرة احتفالية

مهيبة. كنت وقتها أتحرق فضولاً لمعرفة ما في الأمر؛ وآنَّا أيضاً لم تعرف شيئاً عما كان يحدث، إلا أنها رفعت نظرها قليلاً إلى الأعلى؛ بعد تلاوة الكلمات الأولى أدركت أن الأمر يتعلق بالرسالة التي تضمنت إعلان حبي إزاء آنَّا، ذلك الإعلان الذي تم في بيت النحل. في أثناء تلاوة الرسالة كنت أشعر بالبرودة والسخونة معاً؛ أما آنَّا، بقدر ما تمكنت أن ألاحظ عبر حالتي النفسية المضطربة، فلم تستطع اقتفاء الأثر إلا بالتدريج. وبقية الفتيات، اللواتي أظهرن في البداية وجوهاً ماجنة وضاحكة فاجأهن وأخجلهن ذلك الهدوء الذي خيم على الجو أثناء تلاوة الرسالة كما فاجأتهن تلك القوة الصادقة التي كمنت في تلك الكلمات واحمرت وجوههن خجلاً واحدة تلو الأخرى كما لو أن إعلان الحب الوارد في الرسالة يعنيهن هن بالذات. في غضون ذلك أوحى إلي الخوف، الذي اعتراني قبل أن يخبو صدى الكلمة الأخيرة من التلاوة، بحيلة جديدة. فحين انتهت ليزيت من التلاوة، وكانت هي ذاتها جد مرتبكة ومندهشة، قلت بنبرة جافة قدر الإمكان:" يا للشيطان! يخيل إلي أنني أعرف هذه الرسالة، أطلعنني عليها! - صحيح! هذه صفحة قديمة من الورق، مكتوبة بخط يدي!".

وهنا قالت مارغوت، مبهوتة قليلاً، لأنها آنذاك لم تكن تعرف هي الأخرى ما المخرج من ذلك المأزق: "والآن؟ ماذا بعد؟".

فتابعت حديثي: "أين وجدتن هذه الرسالة؟ إنها قطعة ترجمة من الفرنسية كنت أعددتها قبل عامين هنا في هذا البيت. القصة بمجملها متضمّنة في الرواية الريفية القديمة والمذهَّبة والموجودة في غرفة السطح الصغيرة بجانب السيوف والرقاقات المعدنية القديمة؛ آنذاك وضعت بدلاً من اسم ميلندي اسم آنَّا من باب الدعابة. أحضري لنا الكتاب من فوق، يا كاتون الصغيرة! لأنني أريد أن اقرأ لكنّ نص الرسالة باللغة الفرنسية".

ردت كاتون الصغيرة بقولها: "أحضِر الكتاب أنت، هاينريش الصغير، فأنت وأنا متساويان في العمر!". وبقية البنات عبرت وجوههن عن خيبة أمل،

لأن اختراعي هذه المرة ظهر طبيعياً وحقيقياً أكثر مما ينبغي. آنَّا فحسب عرفت بكل تأكيد أن وثيقة إعلان الحب موجهة إليها هي دون غيرها لأنها هي الوحيدة التي استطاعت، اعتماداً على ذكر قبر الجدة، أن تدرك أن مادة الرسالة وتاريخها جديدان. فلم تُبدِ أي حراك. على هذا النحو وصل إذاً محتوى الورقة الطائرة إلى المكان الصحيح الموجه إليه، وتمكنت أنا في هذه الحالة من أن أوكل تأثيره إليه ذاته دون أن أؤيده إضافة إلى ذلك بشخصي أنا مباشرة ودون أن تحقق البنات انتصاراً من جرائه. كان من شأن الحدث برمته أن أكسبني ثقة بنفسي وشجاعة بحيث تناولت الورقة وطويتها ثم قدمتها إلى آنَّا بانحناءة مضحكة وبالكلمات التالية:

"بما أن الناس نسبوا في يوم من الأيام إلى هذا التمرين من أجل تحسين الأسلوب غاية أسمى، تكرمي أيتها الآنسة المحترمة بمنح هذه الورقة التائهة مأوىً يحميها، وتكرمي أيضاً بقبولها مني بوصفها ذكرى لعصر هذا اليوم خالد الذكر!".

تركتني واقفاً لفترة طويلة دون أن تشاء تناول الرسالة من يدي؛ لكن حين أردت أن أتجه إلى اليسار إيذاناً بمغادرة المكان، أخذتها مني بسرعة ورمتها إلى جانبها على الطاولة.

في أثناء ذلك أشــرف مكري على نهايته فحاولت بأســلوب وجيه الخروج من كوخ الحديقة. فاستأذنت بالانصراف مع تأدية انحناءة ثانية بطريقة هزلية؛ كل البنات نهضن واقفات برقة وأفرجن عني وسط تأدية انحناءات ساخرة مهذبة. السخرية أتت من سخطهن النسائي فلم يذللنني ولم يقهرنني والتهذيب أتى من الاحترام الذي أحدثه سلوكي؛ إذ بينما برهنت الصورة والرسالة المكتوبة عن وجود بعض الميل عندي تجاه آنَّا، عرفتُ على الرغم من علنية المحاكمة كيف أحافظ على سري بحيث لم أحتفظ أنا فحسب، بل آنَّا أيضاً، تحت غطاء الدعابة والمزاح بالحرية الكاملة للاعتراف بما كان يطيب لها.

إثر ذلك انسحبتُ مغموراً بالرضا والارتياح إلى حجرة السطح الصغيرة، حيث كنت أقمتُ مقراً لإقامتي، وحلَّقتُ بخيالي هناك ساعة من الزمن والسعادة الغامرة تحيط بي من كل جانب. تراءت لي آنا جديرة بالحب وعذبة أكثر من أي وقت مضى، وفي حين كان حسي الأناني يظن أنه استأثر بها من دون مهرب، كدت آسف لنعومتها وشعرت بنوع من الإشفاق الرقيق عليها. وفي الحال خرجت من البيت مرة أخرى وتسللت إلى الحديقة لكي أضع التاج على رأس ذلك اليوم فأرى إن كان بإمكاني إيصال آنَّا إلى بيتها، من جديد لأول مرة منذ أيام الطفولة الجميلة، ولكنها كانت ذهبت لتقطع وحدها طريقها فوق الجبل؛ وبنات خالي كن أنجزن عملهن وأظهرن رباطة جأش وهدوءاً؛ جلت بنظري على الطاولة الخاوية، ولكنني تحاشيت أن أسأل عما إذا كانت آنَّا أخذت معها بالفعل رسالة اعترافي بحبها، وسرت الهوينى بامتعاض باتجاه أعالي الوادي في طريقي إلى الدخول في الظلال.

في الأيام التالية لم تأتِ آنَّا إلينا، وأنا أيضاً لم أجرؤ على الذهاب إلى بيت المعلم؛ ففي حوزتها الآن اعتراف خطي مني ولذلك بدا لي أننا فقدنا كلانا حريتنا، الأمر الذي جعل سلوكينا أكثر صعوبة لأنني أحسست بعنف إعلان حب من هذا النوع. مع مرور الأيام فقدت من جديد ما كنت أنعم به من أمان واطمئنان، ولا سيما في غياب أي ذكر أو أثر للحدث الذي جرى في كوخ الحديقة، وأوصلتني الأحوال مرة أخرى إلى وضع كاد قلبي فيه أن يتصلب، إلى أن حل فعلاً عيد اسم المعلم، ذلك اليوم الذي طالما كنت استغثت به في لحظات الشدة، عند ذلك أعلنت بنيات خالي أننا سوف نذهب جميعاً في مساء ذلك اليوم إلى بيت المعلم لكي نقدم له التهاني لتلك المناسبة. آنذاك فقط تمكنت من جديد من رؤية صورة آنَّا، التي كانت محاطة بإطار ناعم جداً. سبق أن عثرت البنات على إطار للوحة نحاسية تالفة، ضيقٍ ومحفور على الخشب بطريقةٍ هي غاية في الرقة والرشاقة وربما بلغ عمره السبعين عاماً وكان هذا الإطار يعرض على قضيب ضيق صفاً من الأصداف الصغيرة

تغطي الواحدة منها نصف الأخرى. على الحافة الداخلية دارت سلسلة من مفاصل مربعة وكانت الحافة الخارجية محاطة بعقد من اللآلئ. زجَّاج القرية، الذي مارس فنوناً كثيرة وكان بارعاً في أعمال التلميع المتقادمة في مجال العلب قديمة الطراز، كان أعطى الأصداف لمعاناً مائلاً إلى الاحمرار وطلى السلسلة بماء الذهب وبيَّض اللآلئ وزود الإطار بزجاج جديد صاف، بحيث اندهشت أيما اندهاش لرؤية رسمتي من جديد بهذه الزينة الباهرة. أثارت الرسمة إعجاب كل المتأملين بها من أهل الريف، أعجبوا على وجه الخصوص بزهوري وطيوري ومشابك الشعر المذهبة والأحجار الكريمة، التي كنت زينت بها آنًّا وكذلك برسم شعرها وطوق عنقها الأبيض المكشكش بكل ورعٍ وعناية، وبعينيها الزرقاوين الجميلتين ووجنتيها الورديتين وفمها الكرزي، كل ذلك وافق الإحساس جامح الخيال لدى أولئك الناس، الذين غمرت البهجة عيونهم لرؤية هذه الأشياء المتنوعة. الوجه لم يُرسم بقصد أن يصبح نموذجاً ومضيئاً تماماً وهذا ما أعجبهم أكثر على الرغم من أن هذه المزية الموهومة لم تكن تزد على كونها تعبيراً عن عجزي وقلة خبرتي.

حين انطلقنا للذهاب إلى بيت المعلم كان علي أنا شخصياً أن أحمل صورة آنًّا بيدي، وحين كانت الشمس تنعكس في قطعة الزجاج اللامعة ثبتت صحة القول السائد إنه لا يصح إلا الصحيح وإن الحقيقة لا بد أن تظهر في يوم من الأيام. كانت البنات كلما نظرن إلي يتهكمن عليَّ وأنا أحمل إطار الصورة بعناية وحذر كما لو أنني أحمل لوحة هيكل قدسي إلى أعلى الجبل والعرق يتصبب من جبيني. ولكن الفرحة، التي أظهرها المعلم، عوضتني بسخاء عن كل شيء كما عوضتني أيضاً عن فقدي الصورة خصوصاً أنني عقدت العزم على تصميم صورة أخرى أكثر جمالاً من هذه، لكي أحتفظ بها لنفسي بالذات. كنت رجل الساعة حين عُلقت الصورة، بعد تمعن وتأمل كافيين فيها، فوق الأريكة في صالة الأرغن فقد بدت وكأنها صورة قديسة كنسية أسطورية.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الحادي عشر

مساعي الإيمان

لكن هذا كله صعَّب علي التقرّب من آنّا؛ فقد تعذر علي أن أستغل الفرصة للتملق لها وتصنع الود إزاءها؛ وكنت أتفهم حقيقة أنها سوف تتعامل معي بتحفظ كبير وكنت أدرك في الوقت ذاته أيضاً أن من الصعوبة بمكان أن تفصح لفتاة عن ميلك نحوها بصورة جازمة. في حين كانت علاقتي بالمعلم أفضل وكنت أتحاور معه في أمور كثيرة. كانت دائرة ثقافته تركز على المجال الأخلاقي، مسيحي الطابع، بمفهوم نصف متنور ونصف صوفي التبصر فقد تربع على عرش أولوياته مبدأ التسامح والحب القائم على أساس معرفة الذات ودراسة كنه الله والعالم. ومن هنا كان واسع الاطلاع على أعمال المتبصرين من ذوي العقول النيرة من مختلف الأمم ومدوناتهم، وقد امتلك وعرف كتباً نادرة ومشهورة من هذا النوع أوصلها إليه انتقال احتياجات مشابهة من جيل إلى آخر. كانت هذه الكتب تحتوي على كل جميل وممتع، وكنت أنا أصغي بتواضع وإعجاب إلى محاضرات المعلم ما دام الإمعان في التفكير لدى البحث عن الحقيقة والخير بدا عندي أمراً لا مفر منه. كانت مآخذي تنحصر في اعتراضي على العقيدة المسيحية المميزة التي تستأثر لنفسها بحق تمثيل كل الخير في تاريخ البشرية. من هذه الناحية وجدتني في تمزق مؤلم، ففي حين كنت أحب شخصية المسيح ولو أنها، كما كنت أظن، بمجملها كما يعلمها الجميع لابد أن تكون أسطورة، كنت في الوقت ذاته ضد كل ما يمت إلى المسيحية بصلة وأصبحت أناصبه له العداء دون أن

أعرف تماماً أسباب ذلك، حتى إنني كنت مسروراً لشعوري بهذا النفور؛ فحيث سادت المسيحية، ساد في رأيي واقع قاتم ومفتقر إلى الإثارة. ولذلك أقلعت منذ بضع سنين عن الذهاب إلى الكنيسة، ونادراً ما كنت أحضر الدروس الدينية مع أنني كنت واظبت عليها في وقت سابق؛ في الصيف اجتزت المشكلة بسلام لأنني أقمت معظم الوقت في الريف؛ أما في الشتاء فكنت أحضر مرتين أو ثلاث مرات وبدا أن الناس لم يلاحظوا ذلك ولم يسببوا لي أي متاعب لسبب بسيط هو أن اسمي هاينريش الأخضر، أي لأنني كنت ظاهرة فريدة ومعزولة من نوعها؛ إضافة إلى أنني بدوت دائماً متجهم الوجه بحيث كان رجال الدين يرغبون في أن أنصرف عن مجالسهم. وعلى هذا النحو نعمتُ بحرية تامة، وعلى ما أظن لأنني استبحتها لنفسي بكل تصميم على الرغم من صغر سني؛ لأنه لا مساومة عندي في هذا الأمر. ولكن كان علي أن أدفع مرة أو مرتين في العام مبلغاً كافياً إذا ما أتى دوري للظهور في الكنيسة، أي في تعليم الكنيسة العلني الذي يقتضي، بعد تدرب سابق، الإجابة عن ظهر قلب عن بعض الأسئلة. كان هذا قبل سنين أمراً مزعجاً عندي، أما الآن فقد غدا أقرب إلى أن يكون أمراً لا يُطاق تحمله، وعلى الرغم من ذلك فقد خضعت للعرف المتبع أو الأصح أنني أُجبرت على الخضوع له، لأن التخلص مني شرعاً ونهائياً، بصرف النظر عن قلق أمي وغمها، كان مرتبطاً بذلك أشد الارتباط. لدى حلول عيد الميلاد التالي سوف يحتفل بتثبيت تعميدي ومن ثم بضمي إلى الجماعة البروتستانتية، الأمر الذي سبب لي، بصرف النظر عن حريتي الكاملة التي لوحت لي فيما بعد مودِّعةً، قلقاً كبيراً. لذلك عبرتُ الآن عن عدائي للمسيحية أمام المعلم أكثر مما كنت سأفعل فيما عدا ذلك على الرغم من أن هذا التعبير تم بطريقة مغايرة تماماً لما جرى في أحاديثي مع الفيلسوف؛ كان عليَّ أن أحترم المعلم لا بوصفه أبا آنًّا فحسب بل لأنه رجل مسن على وجه العموم؛ وعلى وجه الخصوص فرض أسلوبه المتسامح والمحب علي من ذاته أن ألتزم في تعابيري الاعتدال

والتواضع حتى أن أعترف بأنني بوصفي صبياً فتياً لا أزال أجد إمكانية لمزيد من التعلم. وبدوره كان المعلم أيضاً مسروراً بآرائي الجانحة إذ نشَّطت فيه فعالياته العقلية وغدا يحبني بسبب الجهد الذي دفعته إلى بذله. قال إن الأمر تماماً على ما يُرام وإني برهنت من جديد عن أنني إنسان سوف تكون المسيحية لديه نتيجة الحياة لا نتيجة الكنيسة وسوف أصبح مسيحياً حقيقياً إذا ما اكتسبت شيئاً من الخبرة والتجربة. لم يكن مؤيداً للكنيسة وقد زعم أن من يخدمونها هم أناس جهلة وأفظاظ، ولكنني اشتبهت قليلاً في أن سبب ذلك هو أنهم يجيدون العبرية واليونانية وهو لا يجيدهما.

في أثناء ذلك كان موسم الحصاد والجني قد انقضى وحان الوقت لأن أفكر في العودة. أراد خالي في هذه المرة أن يوصلني إلى المدينة ويصطحب معه في الوقت ذاته بناته الثلاث، اللواتي منهن الاثنتان الأصغر سناً لم يكونا هناك أبداً. فأمر بإعداد عربة قديمة، وهكذا انطلقنا من هناك، البنات بأفضل ما عندهن من الثياب، وسط اندهاش كل أحياء القرية، التي مررنا عبرها. خالي عاد إلى قريته في اليوم ذاته مع مارغوت في حين بقيت ليزيت وكاتون أسبوعاً في ضيافتنا، وهنا جاء دورهما لكي تؤديا دور السخيفتين والخجولين، لأنني أريتهما بمعالم وجه جدية كل روائع المدينة وتظاهرت بأنني أنا الذي اخترع هذا كله.

بعد مغادرتهما لنا بفترة قصيرة أتت متدحرجةً إلى أمام بيتنا عربة خفيفة ونزل منها المعلم وابنته الصغيرة، التي كان يحميها من هواء الخريف البارد حجابٌ أخضر متطاير. لا يمكن أبداً أن أعيش مفاجأة أجمل، وأمي فرحت أشد الفرح بالطفلة الطيبة. أراد المعلم من سفرته هذه أن يبحث في المدينة عن مسكن ملائم من أجل قضاء فصل الشتاء بحيث تتعود ابنته بالتدريج الاختلاط بالعالم وتطور ملكاتها الفطرية في كل الاتجاهات، ولكنه لم يوفق في إيجاد فرصة مناسبة، فاحتفظ لنفسه بحق شراء بيت صغير في العام التالي بالقرب من المدينة والانتقال إليه والإقامة فيه مع ابنته. صحيح أن هذا

الأمل غمرني بسرور مفاجئ، ولكنني كنت أفضل أن أعدّ آنّا إلى الأبد حلّي تلك الوديان الخضراء النائية التي أصبحت محببة إلي. في أثناء ذلك سررت في الخفاء أيما سرور لرؤيتي أمي وهي تقيم صداقة حميمة مع آنّا ورؤية هذه تبدي احتراماً عميقاً إزاء تلك تعبيراً عن ميلٍ قلبي وتظهر ذلك بكل رغبة لكي ترضيني أيما إرضاء. وتنافسنا فعلاً، أنا، في إبداء الاحترام للمعلم وهي في إبداء الاحترام لأمي ونظراً إلى هذا التنافس فإننا لم نجد أي وقت للاجتماع معاً أو قل إننا اختلطنا معاً من جراء ذلك فحسب. وهكذا غادرانا دون أن أتبادل معها ولو نظرة واحدة تخصنا.

والآن اقترب الشتاء واقترب معه عيد الميلاد. كان علي أن أذهب ثلاث مرات في الأسبوع في الساعة الخامسة إلى بيت مساعد القس حيث كان يُعدُّ هناك في حجرة طولانية ضيقة وعلى هيئة حزام ما يقارب من أربعين شاباً لعملية تثبيت التعميد والضم إلى الجماعة البروتستانتية. كنا أحداثاً، كما كانوا يسموننا، من جميع الطبقات؛ النهاية العليا من الحجرة، حيث أُشعل بعض الشمعات الخافتة، كانت مكاناً للوجهاء والدارسين ثم أتت الطبقة الوسطى البرجوازية، عابثة وطليقة من كل قيد، وأخيراً في ظلام دامس تماماً، صُنَاع حذائون وخدم وعمال مصانع، خشنون وخجولون وكان يحدث بينهم من حين لآخر تشويش فظ في حين استسلم الجالسون في الأمكنة العليا لما أملته اللياقات الاجتماعية من تأمل هادئ. هذا التمييز لم يكن تحديداً مرتباً عن عمد، بل جاء هكذا من تلقاء ذاته. أي إنه جاء تبعاً لسلوكنا ومثابرتنا؛ وبما أن الصبيان الأكثر عراقة من حيث المنشأ تربوا بصرامة على أساس مسالمة ظاهرية مع الكنيسة وكانوا الأكثر لياقة في حديثهم وهذه العلاقة تدرجت نزولاً على سلم كل المراتب، فإن هذا الترتيب بدا ظاهرياً أمراً طبيعياً جداً، خصوصاً أن الاستثناءات في ذلك كانت من تلقاء ذاتها تنحصر في دائرة الذين هم من مستواهم الطبقي ولم تكن البتة من نصيب أولئك المندسين في أوساط طبقات أخرى.

مجرد الاستيقاظ في وقت محدد بدقة والخروج من البيت في الصباح البارد المعتم في أيام منتظمة من فصل الشتاء والجلوس في مكان مفروض، كل ذلك كان عندي أمراً لا يُطاق لأنني كنت أقلعتُ عن عادات كهذه منذ أيام المدرسة. ليس لأنني صعب الانقياد لنظام معين إذا ما أدركت أنه ينطوي على مبتغىً حتمياً ومتعقلاً؛ لأنني حين كان علي بعد ذلك بعامين اثنين أن أؤدي واجبي في خدمة العلم وأن أحضر، بصفتي مجنداً مستجداً، في أيام محددة من الوقت المحدد بالدقيقة في مكان الاجتماع لكي أدور على كعبي يمنة ويسرة، تبعاً لإرادة مدربي العتيق، لمدة ست ساعات، فعلتُ ذلك بحماس منقطع النظير متطلعاً بكل وجل إلى الفوز بمديح رفيقي في السلاح، عتي العمر. هنا تعلق الأمر باكتساب المقدرة على الدفاع عن الوطن وحريته؛ الوطن كان قيمة عليا حقيقية وبادية للعيان، وقفت على أرضه وتغذيت من ثماره. ولكن هناك وجب علي انتزاع نفسي بالقوة من النوم والحلم لكي أعيش الحياة الخيالية الخرافية إلى أبعد الحدود، وذلك في الغرفة المعتمة بين صفوف طويلة لجمع من الصبيان الأحداث الآخرين والمتعطشين إلى النوم وتحت وطأة أوامر رتيبة مملة وصادرة من وزير ديني لم يسبق أن ربطتني به في غير ذلك أي صلة أو أي علاقة من أي نوع في هذا العالم بأسره.

ما حدث تحت أشجار النخيل في الشرق البعيد قبل آلاف السنين أو تخيله حالمون قديسون ودوّن كتاباً للأساطير نوقش هنا كلمة كلمة بوصفه المقتضى الأعلى والأكثر جدية لحياة البشر ومن ثم الشرط الأول للمواطنة ونُظم الإيمان به أدق تنظيم. أغرب نتاجات الخيال البشري، مرةً مؤنسة ومثيرة ومرة أخرى قاتمة ولافحة ودموية ولكنها محاطة في كل مرة بانتظام بضبابية من أريج بُعدٍ ناءٍ، كان لزاماً على الناس أن يعدّوها الأساس الأكثر راهنية وثباتاً للوجود البشري برمته وشُرحت لنا وحُللت لآخر مرة وبكل جدية بقصد أن نتمكن، حسب مفهوم تلك الخيالات، من أن نتمتع على أصح الوجوه بشرب قليل من الخمر وأكل قليل من الخبز؛ وإذا لم يحدث ذلك، أي إذا لم نخضع لهذا النظام

الدخيل العجيب عن اقتناع أو عن غير اقتناع، فإننا لا نصلح لأن نكون مواطنين في الدولة ولن يسمح لأحد بأن يتخذ زوجة له. من قرن إلى قرن كان الناس يتدربون على ذلك، واختلاف الفهم في هذا التصور الرمزي كان أسفر عن بحر من الدماء؛ امتداد دولتنا الحالي وقيامها كانا في معظمهما نتيجة لتلك الحروب بحيث كان عالم الخيال مرتبطاً عندنا أوثق ارتباط بعالمنا الواقعي الحالي والملموس لمس اليد إلى أقصى حد. حين كنت أرى الجدية من غير اعتراض، التي عومل بموجبها بوجه جامد كل ما كان خرافياً، فقد بدا لي كما لو أن أناساً طاعنين في السن كانوا يمارسون لعبة أطفال مع زهور، وكل غلطة أو ابتسامة تتخلل هذه اللعبة من شأنها أن تؤدي إلى عقوبة الإعدام.

أول ما عدّه المعلم من المقتضيات المسيحية وأرسى عليه أسس علم واسع كان إدراك المعصية والاعتراف بها. لم يكن الصدق مع الذات ومعرفة الأخطاء والرذائل الذاتية أموراً غريبة عني البتة، لا بل كانت ذكريات الأعمال الشريرة الصبيانية والمغامرات الخلقية من أيام المدرسة لا تزال حاضرة في ذهني بحيث كنت أرى في أعماق وعيي، حتى بكل وضوح، مشروع آثم صغير يتسكع فيها هكذا على غير هدى، الأمر الذي سبب لي ندماً مذلاً. على الرغم من ذلك أبت الكلمة أن تعجبني؛ كانت لها صيغة حرفية أكثر مما يجوز ومن ثم رائحة تقنية مقيتة كالتي تصدر من غلي الغراء أو من المادة اللاصقة الفاسدة المحمضة في ورشة نسَّاج الكتان. وكون المعالجة الإلهية بالخطيئة الأولى من شأنها أن تابعت تعفين الكائن المتعفن أصلاً، فقد تعذر علي آنذاك فهم ذلك فهماً صحيحاً لأن النمنمات الأخيرة في البيئة اللاهوتية المريحة لم تكن بعد سهلة المنال. لذلك لم أتابع هذا الأمر، من دون تكبر وبشعور أنه على أي حال مسألة صعبة ومن المشكوك فيه ألاَّ أخالط من حين لآخر جماعة الأبرار والفاضلين. ثم لاح لي أيضاً حدس بأنَّه حتى المنصف من الناس لا بد أن يكون عرضة لبعض الاختلالات في نظامه وكل اختلال يحمل في ذاته معياره الخاص للاضطلاع بالمسؤولية.

بعد التعليم المتعلق بالمعصية ورد مباشرة التعليم المتعلق بالإيمان بوصفه المنقذ من المعصية وعليه تركز في واقع الأمر الثقل الرئيسي لجميع الدروس، وعلى الرغم من كل الإضافات، على سبيل المثال أن أعمال الخير ضرورية أيضاً، فقد بقي النشيد الختامي على حاله ووحده: الإيمان يحقق السعادة! ولكي يجعل الرجل الديني هذا الكلام مقنعاً لنا، بصفتنا صبياناً في طريقنا إلى النمو فالنضج، فقد كان يستخدم قدر الإمكان طلاقة اللسان المستحسنة التي كانت تبدو منطقية ومقنعة. إذا ما صعدتُ إلى أعلى الجبل وعددت النجوم واحدة تلو الأخرى كما لو أنها أجور أسبوع من العمل فلن أستطيع في ذلك اكتشاف أي فضل للإيمان، وإذا ما انقلبت رأساً على عقب ونظرت إلى زهرة السوسن من تحت كأسها باتجاه أعلاها فلن أستطيع العثور على أي شيء من شأنه أن يدل على فضل الإيمان. من يؤمن بشيء فقد يكون إنساناً طيباً ومن لا يؤمن فهو أيضاً إنسان طيب. وإذا ما شككت في أن حاصل اثنين في اثنين هو أربعة فإن الحاصل لن يكون لهذا السبب أقل من أربعة، وإذا ما آمنت بأن حاصل اثنين في اثنين هو أربعة فلن يكون عندي ما قد أتباهى به ولن يمتدحني لهذا السبب أي إنسان. إذا ما خلق الله عالماً وملأه بكائنات قادرة على التفكير والتف بعد ذلك بحجاب غير شفاف، ولكنه ترك الجنس البشري الذي كان خلقه ينحط في بؤس ومعصية ثم تجلى لبعض البشر بطريقة فوق عادية وعجيبة وأرسل مخلِّصاً وسط ظروف لم يعد ممكناً بعد ذلك فهمها بالعقل، ولكنه جعل خلاص جميع المخلوقات وسعادتها متوقفاً على الإيمان بذلك، وكل هذا لمجرد أن يستمتع بالإيمان به وهو الذي ينبغي أن يكون واثقاً من أن شأنه على خير ما يرام: إذا كان الأمر كذلك فإن كل هذه الإجراءات لا تغدو كونها ملهاة مفتعلة من شأنها، عندي، أن تسلب من وجود الله والعالم ووجودي أنا ذاتي كل مواساة وكل مسرة. آمِينْ! أووه، كم ترن هذه الكلمة في أذني سخيفة إلى درجة تجل عن الوصف! إنها الاختلاق الأكثر تعقيداً من كل ما استطاع العقل البشري إنجازه على هذا الصعيد في وضع

من صبر كبير ومتفاقم! إذا كنتُ بحاجة إلى وجود الله وعنايته الإلهية ومتأكداً منه، فكم هو بعيد هذا الشعور مما يسمونه سواء أنظرتُ إليه أم لم أنظر. الله يعرف، لأنه محيط بمعرفة كل شيء، كل فكرة تنبع من أعماقي ويعرف الفكرة السابقة التي ولَّدتها ويرى الفكرة التالية المتولِّدة منها؛ وقد منح كل أفكاري الطريق التي يجب أن تسلكها والتي لا محيد عنها تماماً كطريق النجوم وطريق الدم؛ يمكنني إذاً أن أقول: أريد أن أفعل هذا أو أترك ذاك، أريد أن أكون طيب القلب أو أن أتجاوز ذلك ولا أكترث له، وأستطيع أن أنجزه عبر الولاء والتمرين؛ ولكنني لا استطيع بتاتاً القول: أريد أن أومن أو لا أومن؛ أريد أن أصم أذنيَّ عن حقيقة ما أو أنفتح لها! لا أستطيع أن أستجدي الإيمان لأنني لا أستطيع أن أرغب في شيء أبداً إذا لم أقره، لأن مصيبة واضحة ويتيسر لي إدراكها لا تزال تشكل عندي هواء حيوياً للتنفس في حين أن سعادة غامرة يتعذر على إدراكها هي عندي هواء خانق.

ومع ذلك فإن شيئاً من العمق والحقيقة يكمن في عبارة: الإيمان يحقق السعادة! ما دامت تعبر عن الشعور بالرضا البريء والبدائي، الذي يعتري كل الناس الذين يؤمنون بشغف وببساطة بالخير والجمال والعجيب من الأمور، على عكس أولئك الذين يشككون في كل شيء انطلاقاً من تكبر وعناد أو أنانية وينتقدون كل ما يُحكى لهم بوصفه خيراً وجميلاً وعجيباً. وحين يُعزى الإيمان الديني، المتكئ على ضعف في ملكة التأمل والتدبر، إلى تلك السرعة في التصديق القائمة على التهذيب وطيبة القلب، هنا يحق للمرء أن يقول إن الإيمان يحقق السعادة كما يحق له أيضاً أن يصف عدم الإيمان النابع من منهل مغاير بأنه مشؤوم ومرفوض. ولكن لا علاقة لكلا الطرفين بالتعاليم العقائدية الحقيقية المتعلقة بمبدأ الإيمان؛ ففي حين هناك مؤمنون مسيحيون هم في كل الأمور الأخرى أكثر الناس إزعاجاً في تشكيكهم وانتقادهم، هناك بالمقابل كثيرون ممن لا يؤمنون لا بل كفرة ملحدون، ولكنهم بمنتهى البساطة على أتم الاستعداد لأن يؤمنوا عدا ذلك بكل ما تُعلَّق به آمال البشر وبكل ما

يسرهم، وإنها لحجة محببة لجدليي التفنيد المسيحي أن يعيِّروا هؤلاء بكل سخرية واستهزاء بأنهم يهتمون بتوافه الأمور اللافتة أيما اهتمام ويتغذون من الأوهام في حين أنهم لا يريدون أن يؤمنوا بالكبير والواحد. هنا تتجلى أوضح صورها المسرحية الكوميدية، إذ يستسلم الناس لأكثر الإيديولوجيات تجريداً لكي يسمعوا فيما بعد كل من يؤمن بأي خير وجمال في متناول المنال، شخصاً عقائدياً. إذا ما أراد المرء أن يعرف أهمية الإيمان، فليس عليه أن ينظر بعين فاحصة إلى رجال الكنيسة المتشددين، الذين يعممون الأحكام على الجميع ولا يأخذون الصفات المميزة بالحسبان، بقدر ما عليه أن يورد في الحسبان أولئك المتمردين على الطقوس القائمة من مناهضي مبدأ الإيمان المنتشرين بحرية خلف أسوار الكنيسة، سواء في المذاهب الناشئة أو الأشخاص المنفردين. هنا تتجلى الدوافع الحقيقية وتتجلى جذور الأصل في القضاء والقدر وفي طبيعة الإنسان وتلقي ضوءاً على الخلق ذي العاهة والخلق الذي أصبح ثابتاً من المادة التاريخية الكبيرة.

كان يعيش في مدينتنا رجل غريب اسمه فورملينغر وكان يجد متعة كبيرة في أن يحكي للناس الذين يترددون عليه قصصاً كثيرة مختلقة ومغامرات تزخر بالتباهي والزهو لكي يسخر فيما بعد من سهولة تصديقهم له وسرعته بقوله إن القصة التي حكاها تواً غير صحيحة. ولكن إذا ما حكى رجل آخر أي شيء، كان فورملينغر يكذبه وكان له أسلوب غدر خاص به في تحويل سلامة النية، التي ينطوي عليها قول الناس له، إلى ما يثير الضحك والسخرية، بنفس الأسلوب الذي عرف بموجبه كيف يسخر من سلامة نية أولئك الذين كانوا يصدقونه. لم يكن يأكل حتى فتات خبز إذا ما لم يكن حصل عليه بطريقة مستقيمة، ولكن إذا ما أكل خبزة، كان يقول إنها جيدة إن كانت سيئة ويقول سيئة إن كانت جيدة. وبوجه عام كانت كل مساعيه تنطلق باتجاه أن يُظهر غير ما يُضمر، الأمر الذي تطلب منه دائماً إمعان نظر دقيق في كل مسألة بحيث كان، مع أنه في حقيقة الأمر لم يكن يعمل شيئاً ولم يكن له

أي فائدة قط، منهمكاً في كل دقيقة في أكثر الأشغال تعقيداً وإشكالية. من أجل ذلك كان بحاجة إلى تسلل وتربص مستمرين، من جهة لكي يتلقف اللحظات الملائمة للقيام بمجوناته ومقالبه ومن جهة أخرى لكي يباغت الناس في نقاط ضعفهم، لأنه كان مولعاً أشد الولع بإثبات إدانة العالم بأسره بالكذب والنفاق، ولم يكن ثمة ما يثير الضحك أكثر من أن تراه خارجاً من الباب، الذي كان لتوه يتربص وراءه، وهو يثب على أصابع رجليه ثم يقف فجأة منتصب القامة ومتصلباً كالعصا ويحملق من حوله بعينين متدحرجتين، متباهياً بكلمات طنانة باستقامته وصدقه وخشونته البريئة. وبما أنه أحس عبر كل فعلاته بأن كل الناس أفضل حالاً منه، فقد غمره حسد طاغ على كل حركاته وسكناته إلى أن استهلكه كنار متوهجة، فأبان بذلك عن أن كل كلمة ثالثة كان يقولها هي كلمة "حسد". كان يؤكد بمناسبة وبغير مناسبة أنه ينعم بتفوق معنوي أزلي ومفعم بالسعادة والرضا، ولذلك كان يرى في كل ورقة شجر لا تحف على هواه خصماً حاسداً، والعالم بأسره لم يكن عنده سوى غابة تهتز حسداً. إذا ما عارضه أحد، كان يعزو كل معارضة إلى الحسد؛ وإذا ما صمت الناس في أثناء محاضراته، استشاط غضباً ولم يكد يصبر إلى أن ينصرف الصامتون كي يتهمهم بالحسد، بحيث كانت خطبته كلها في واقع الأمر عبر كلمة حسد المتكررة باستمرار تتحول إلى نشيد مدوٍّ للحسد ذاته. وهكذا كان في كل شيء العدو الشخصي للحقيقة وتنفس في غيابها فقط، كما ترقص الفئران على الطاولة إن لم تكن القطة في المنزل، وقد انتقمت منه الحقيقة بأبسط السبل. كان عيبه الأساسي هو أنه كان أراد وهو في رحم أمه أن يكون أكثر ذكاء من أمه ذاتها ونتيجة لذلك استطاع أن يعيش فقط إذا لم يكن بحاجة إلى تصديق ما يقوله أي إنسان، في حين ينبغي على كل الناس أن يصدقوا ما يقوله هو. استطاع أن يتظاهر بالطبع كما لو أن الأمر كان كذلك فعلاً، وقد فعل أيضاً ما كوّن خلاصة فعالة لحالات الكذب المنفردة إضافة إلى كذبه الرئيسي؛ إلا أن البرهان عن حقائق الأمور تجلى بأوضح صوره في ضحك أولئك الذين هم

بجواره. ولذلك وجد باختصار أن أفضل موقف قد يتخذه يكمن في تلك التعاليم التي ترفع راية الإيمان المطلق. ولمجرد أن التوجه العام في تلك الفترة أعرض عن مبدأ الإيمان، وصرفت أكثرية الناس المفكرين، حتى ولو أنهم لم يعترضوا على ذلك، النظر عنه متكيفة بالبناء على العنصر القابل للفهم والإدراك، فقد كان ذلك سبباً كافياً عنده لمجابهة هذا التوجه مباشرة والادعاء في أثناء ذلك بأن ميل ذلك العصر واندفاعه يتجهان بكل وضوح صوب الإيمان المتجدد؛ ذلك لأنه لم يستطع ولا في أي مكان التخلي عن الكذب. أما أولئك، الذين كانوا يؤمنون فعلاً، فقد كانوا مملين ولم يعرهم أي اهتمام ولهذا السبب لم يُشاهَد في يوم من الأيام في كنيسة أو في جمع ديني البتة. وعلى العكس من ذلك فقد كان له علاقات أكثر بأولئك الذين لم يتخذوا من الإيمان مبدأ لهم. ليس لأنه كان مهتماً بنجاة أرواحهم على الرغم من أنه تتبع الأمر بتسرع وجل؛ وتمثل خوفه في ما يلي: إذا كان قال ذات مرة إنه يؤمن فلا بد من أن يكون عنده كل أولئك، الذين لم يؤمنوا، حميراً؛ وإذا لم يلقَ ما سببته كلمتُه قبولاً حسناً فقد آمن هو ذاته بأنه شيء من هذا القبيل. في واقع الأمر كان بالإمكان تسمية ذلك النزاع المشؤوم مسألة الحمير، لأنه بالتأكيد من أصل ألف من المتحمسين، الذين كانوا يضحون من أجل رأيهم الديني بكل غال ورخيص، تسعمئة وتسعة وتسعون أخلوا بالسلم وأشعلوا كومات حطب فقط بسبب أنه بدا لهم أن كلمة حمير موجهة إليهم انطلاقاً من تحدي المُلاحقين. لم يكره الرجل أكثر من البحث العلمي الدقيق والنزيه واكتشاف العلم؛ إذا ما أسفر البحث عن نظرية ما وذاع صيتها كان يخبط بيديه ورجليه احتجاجاً وامتعاضاً ويحاول أن يسخر منها، وإذا ما برهنت عن صحتها ورئيت نتائجها ولمست على كل الأزقة كانت تثور ثائرته كل الثورة ويزعم علناً أنها كذبة. جدول الضرب وبوتقة كيميائية كانا عنده أكثر إزعاجاً مما كانا كذلك عند كل من الشيطان، والصلاة الربانية، وجرن الماء المقدس؛ ولكن الطبيعة أيضاً انتقمت منه وهي تبتسم. ففي حين أنه كان يشكك بصلاحية الحواس الخمس،

كان يسعى باستمرار إلى إضافة بضع حواس أخرى عليها من اختراعه لكي يفسر بفضل تخيلها المضحك عالم المعجزات المسيحي، وإذا ما اصطدم من جراء ذلك مرات كثيرة بالعقل الديني المسيحي وبُرهن له هذا عبر كتاب العهد الجديد، كان يقول إنه لا يأبه بالعهد الجديد، بل له عقله الخاص به وذلك في اللحظة نفسها التي كان فيها يطلق عليه اسم كتاب الحياة. على الرغم من كل ذلك كان يؤمن بقلب سليم لأنه لا بد لكل إنسان من أن يستسلم لجهةٍ ما وقد ازداد إيمانه صدقاً واستقامة، من جهة لأن موضوع الإيمان ليس حقيقة مقررة ثابتة وليس مدركاً وهو فوق أرضي، ومن جهة أخرى كان من شأن الشعور الباطني لفطنته المفجوعة أن جعله بلا معين ولا نصير وشاكياً باكياً.

في أحد الأيام ذهب فورملينغر مع جماعة مرحة إلى مرتفع صخري واقع على ضفاف البحيرة. كان في الأصل ذا بنية جسدية جيدة؛ ولكن فساد روحه الدائم كان جعل جسمه مائلاً تماماً بحيث كان شكله شبيهاً بديك رياح منحنٍ. ولكن نموه الجميل كان موضوعاً محبباً لأحاديثه، فكان في كل لحظة على استعداد لأن يخلع ملابسه ويُظهر جسده عارياً، في حين كان يخترع لكل إنسان فانٍ عاهةً أو نقصاً للتعييب والتعيير، ودون أن يُسأل كان يفتري على هذا حدبةً وعلى ذاك ساقين عوجاوين. وحين مر الآن معكَّر المزاج أمام بقية الشبان، الذين كانوا يسخرون منه لأسباب مختلفة، ناداه فجأة واحد كان نظر إليه لأول مرة بطريقة أكثر دقة واهتماماً: "أنت، يا سيد فورملينغر! إنك في الحقيقة أعوج إلى درجة مخيفة!" فدار مذهولاً إلى الوراء وقال:" أنت تحلم، أم تريد أن يكون ما قلته نكتة طريفة؟" لكن الرجل الآخر التفت إلى الجمع وطلب منهم أن يعاينوه عن كثب أيضاً؛ فأُمر أن يتقدم بضع خطوات إلى الأمام؛ ففعل؛ وهنا أيد الجميع: أجل إنه مائل! وفي لحظة من الغضب الشديد وقف على الفور بجانب مهاجمه وأراد أن يثبت له أنه هو المشوه، غير أن هذا كان ممشوق القد ومنتصب القامة كشجرة الصنوبر، وبدأ الجمع في تلك اللحظة بالضحك والهرج والمرج. بكل صمتٍ وتسرع خلع ملابسه ومر

عارياً كما ولدته أمه أمام الباقين؛ كان الكتف الأيمن أعلى من الأيسر بسبب رفع المنكبين وخفضهما باستمرار لدى ممارسته السخرية من الناس والاستهزاء بهم، وكان المرفقان ملتفين باتجاه الخارج نظراً إلى حركاته المتصنعة في مواقف الاختيال والغرور، وكانت الأرداف منزاحة من مكانها؛ إضافة إلى ذلك أصبح أكثر تقوساً وانحناءً جراء سعيه لأن يبدو منتصب القامة؛ وظهر في عريه بأغرب وضع لساقيه حين كان يخطو إلى الأمام وينظر بخوف من حين لآخر إلى ما حوله ليرى إن كان استحسان الجمع وتقديره سوف يتبعانه أو لا. ولكن حين انفجر هذا الجمع بضحك منقطع النظير، استشاط الرجل غضباً وبدأ، لكي ينتزع انتباه الناس وتقديرهم، بتأدية قفزات هائلة وأفانين عديدة من أجل إظهار قوة جسده. ازداد الضحك وعلا أكثر فأكثر وكان لا بد للناس من الإمساك بخواصرهم من شدة الضحك. وحين رأى الراقص العاري، المتجول هكذا على غير هدى في كل أرجاء المكان، إن الضاحكين جلسوا ليستريحوا، اعترته فجأة نوبة من الغضب الشديد، الذي عزّ على الوصف وأراد أن ينتزع شيئاً بديعاً فقفز بوثبة قوية عالية فوق حافة الصخور وسقط في البحيرة. من حسن الحظ أنه سقط في شبكة واسعة لصيد السمك كان يلمها في تلك اللحظة الصيادان، اللذان عملا آنذاك في قاربين اثنين واصطادا بالحقيقة الرجل بوصفه سمكة تتقلب وتتخبط في الشبكة فأنقذاه بذلك. وهو يرتعد من شدة البرد كان عليه في حالته من العري الكامل أن يهرول على ضفة البحيرة مسافة ما إلى أن يأوي إلى بيت هناك بانتظار ثيابه. إثر ذلك مباشرة اختفى ذلك الرجل من المنطقة كلها.

العقيدة الرئيسية الثالثة، التي تلاها علينا رجل الدين بوصفها عقيدة مسيحية، تناولت مسألة الحب. حول هذا الموضوع ليس عندي الكثير مما أقوله؛ إذ لم أستطع بعد أن أفعِّل أي حب مع أنني أحس أن شيئاً من هذا القبيل حاضر في داخلي غير أنني لا أستطيع أن أحب بناء على إصدار أمر بذلك، كما أنني لا أستطيع أيضاً أن أحب نظرياً. المراعاة المباشرة لله بحد ذاتها

عندي عائقة ومتعبة إلى حد ما إذا أراد الحب الطبيعي أن يكون ساري المفعول في داخلي. حدث لي أن صددت رجلاً فقيراً في الشارع لأنني، حين أردت أن أتصدق عليه بشيء من المال، فكرت في الوقت ذاته برضا الله وليس بما يعود علي شخصياً بالمنفعة. بعد ذلك أسفت على الرجل الفقير فعدت أدراجي إليه؛ ولكن في أثناء عودتي إليه تراءى لي تحديداً هذا التأسف متصنِّعاً أكثر من اللازم فدرتُ على عقبيَّ وعدت من حيث أتيت إلى أن خطرت ببالي أخيراً هذه الفكرة الصائبة: مهما يكن من أمر، لا بد في كل الأحوال من أن يسعى الرجل الفقير إلى تحقيق هدفه، ربما كانت هذه هي المسألة الأولى! ولكن هذه الفكرة تأتي في بعض الأحيان بعد فوات الأوان وتبقى الصدقة محجوبة عن العطاء. لذلك سررتُ دائماً بأداء واجبي من غير رويَّةٍ وبأنه لم يخطر ببالي إلا لاحقاً أن هذا قد يكون شيئاً فاضلاً؛ لقد اعتدتُ في هذه الحالة وأنا في أقصى السعادة أن ألجأ إلى الخديعة فأتجه إلى السماء وأنادي: "ألا ترى، أيها الأب القديم! أنا الآن عندك ممسوح من على وجه الأرض!"، ولكن أقصى متعة تتحقق لي هي حين يخطر ببالي في لحظات كهذه كيف أتراءى له مضحكاً جداً؛ فبما أن الله يفهم كل شيء، فلا بد من أنه يفهم المزاح أيضاً؛ على الرغم من أن المرء يستطيع بحق أن يقول من جديد أيضاً إن الله لا يفهم المزاح!

أكثر التعاليم مرحاً وجمالاً كانت عندي تلك المتعلقة بالروح بوصفها أزلية وتتغلغل في كل شيء. بالطبع أخشى من أنني أسأت قليلاً فهم هذه التعاليم وأنني لم أقع تحت تأثير الروح الدينية الصحيحة. فالله بدا لي ليس دينياً بل هو روح دنيوية لأنه هو العالم والعالم موجود فيه؛ الله يشع دنيوية.

بوجه عام أومن بصورة مؤكدة أنني استطعت أن أستمر في العيش وسط أناس يعتنقون مسيحية روحانية وحين اعترفتُ بذلك للمعلم والد آنَّا طلب مني، واضعاً مؤقتاً ما تعلق بالعنصر الخارق وبمسائل الإيمان على جنب ومبرهناً بذلك عن روح متنورة، أن أعترف بالمسيحية بهذا المعنى الروحاني

على الأقل وأن آمل استمرارها بالظهور بنقائها الحقيقي ومحافظتها على اسمها؛ ليس الآن ثمة حال أفضل ولا يلوح في الأفق شيء من هذا القبيل. فرددت على ذلك بقولي: يمكن التعبير عن الروح إلى درجة ما بواسطة إنسان، ولكنها لا يمكن أبداً أن تُخترع لأنها موجودة منذ الأزل ولا نهائية؛ لذلك فإن تسمية الحقيقة باسم إنسان هي بمثابة سلب لملكية مشتركة ينشأ عنه سلب لجوهر السلطة من كل الأنواع. وقلت: في جمهورية ما يُطلب الأكبر والأفضل من كل إنسان دون أن يُعوض عنه من جراء سقوط هذه الجمهورية بأن يوضع اسمه على سن الرمح ويرفَّع إلى أمير؛ كذلك عدّ عالم الأرواح بمثابة جمهورية حامي حماها هو الله فحسب، الذي تحافظ جلالته بحرية تامة على قدسية القانون الذي سنه، وهذه الحرية هي أيضاً حريتنا وحريتنا هي حريته! وإذا كانت سحابة مسائية تشكل بالنسبة إلي لواء للخلود، فإن كل سحابة صباحية هي لواء ذهبي لجمهورية العالم! فقال المعلم وهو يبتسم بلطف: "التي يمكن لكل إنسان فيها أن يصبح حامل اللواء!"؛ أما أنا فقد زعمت: أن الأهمية المعنوية لهذا الشعور الاستقلالي تبدو لي كبيرة جداً لا بل أكبر مما ربما نظن.

*   *   *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثاني عشر

عيد تثبيت التعميد

الآن انتهت الدروس الدينية؛ إثر ذلك كان علينا أن نفكر في أمر الإجراءات الكفيلة بإظهارنا بمظهر لائق عند الاحتفال بتثبيت تعميدنا. جرت العادة، التي لم تقبل أي تغيير، أن يسعى الفتيان إلى تفصيل أول بذلة رسمية وأن يرفعوا ياقة القميص إلى الأعلى ويربطوا حول الياقة ربطة عنق صلبة ويضعوا أيضاً أول قصبة قبعة على الرأس؛ إضافة إلى ذلك قصَّر وخفَّف كل ذي شعر شبابي طويل شعره بحيث غدوا شبيهين بمن عُرفوا باسم الرؤوس الدائرية الإنكليزية. كانت هذه الإجراءات كلها مزعجة لي إلى حد يجل عن الوصف وأقسمت ألا أعود أبداً إلى تكرارها في يوم من الأيام. اللون الأخضر كان أصبح لوناً مميزاً لي ولم أرغب أبداً في أن أزيل لقبي من الوجود، الذي لم يزل يلازمني وأُعطاه حين يتحدث أحد عني. أقنعت أمي بسهولة أن تختار لي منديلاً أخضر وتؤمن لي بدلاً من بذلة رسمية سترة قصيرة مزودة ببعض الفتلات إضافة إلى قبعة مخملية سوداء بدلاً من القبعة الرسمية التي خشيتُ من فرضها علي؛ لأن القبعة والبذلة الرسمية نادراً ما تُلبسان معاً ومن ثم سوف تشكلان بالنظر إلى اطراد نموي نفقات لا فائدة منها. وزادت من قناعتها بوجه خاص حقيقةُ أن الصناع وأبناء المياومين من الفقراء لم يعتادوا أن يلبسوا ثياباً سوداء بل جاؤوا بثياب يوم الأحد المعتادة، وأعلنت أنا بدوري أنه سيان عندي تماماً إن عدّني الناس من أبناء الطبقة الوسطى الجديرة

بالاحترام أو لا. طويت قبة القميص إلى الوراء بقدر ما استطعت ذلك وأسدلت شعري الطويل بكل جرأة خلف الأذنين ثم ظهرت على هذه الهيئة، حاملاً قبعتي في يدي، ليلة عيد الميلاد في غرفة القس حيث كان ينبغي أن تتخذ أيضاً بعض التدابير ذات الطابع الحميمي. وحين وقفت بين الشبان المتزينين بزينات إلزامية، نُظر إلي بشيء من الدهشة والاستغراب؛ لأنني وقفت بالطبع هكذا لافتاً للانتباه بلباسي بوصفي بروتستانتياً تاماً؛ ولكن لأنني حاولت من دون عناد وتكبر أن أتوارى عن الأنظار، ضيعت نفسي من جديد ولم أعد محط اكتراث أو اهتمام؛ أعجبتني خطبة القس أيما إعجاب؛ كان محتواها الرئيسي هو أننا سنبدأ من الآن فصاعداً حياة جديدة وأن خطايانا حتى الآن سوف تغفر لنا ويطويها النسيان، بالمقابل سوف تُكال خطايانا المقبلة بمكيال أكثر قسوة وصرامة. شعرت عندئذ أن مرحلة انتقالية كهذه هي أمر ضروري وأن وقتها قد حان الآن؛ ولذلك انضممت بنواياي الجدية، التي عقدتها خصيصاً لهذه المناسبة، بكل رغبة وإخلاص إلى هذا الحدث العلني وكنت أيضاً سليم الطوية تجاه ذلك الرجل حين حذرنا بكل تحفز من أن نفقد الثقة بالأفضل الكامن في أنفسنا. من مكان إقامته انطلقنا متصدرين كل الجماعة إلى الكنيسة حيث جرى الاحتفال الفعلي. هناك تحول القس فجأة إلى شخص آخر مختلف تماماً؛ إذ تميز بظهور قوي وعالٍ مستمداً بلاغته وطلاقة لسانه من مخزن عتاد الكنيسة القائمة ومرر علينا بكلمات مدوية الجنة والنار. كانت موعظته ذات البنية الفنية المتينة والتشويق المصعَّد متجهة صوب وجهة نظر أُريد لها أن تهز الجماعة بأسرها، حين أطلقنا ونحن متجمعون حوله في حلقة واسعة كلمة "نعم" عالية الصوت واحتفالية النبرة. لم أُصغ إلى مغزى كلماته، ومع ذلك همستُ مع الناس بالموافقة دون أن أفهم بوضوح السؤال المطروح؛ غير أن رعشة اخترقتني وصرت أرتعد لهنيهة من الزمن دون أن أستطيع السيطرة على هذه الحركة. كان ارتعادي مزيجاً مبهماً من خضوع لا إرادي للتأثر العام وهلع عميق اعتراني عبر فكرة أنني، وأنا لا أزال فتياً

وغراً، سقطت في مواجهة رأي مغرق في القدم وجماعة قوية كنت أشكل منها جزءاً صغيراً قليل الأهمية.

في صبيحة عيد الميلاد كان علينا أن نذهب إلى الكنيسة من جديد في موكب موحد، لكي نتناول العشاء الرباني. كنت آنذاك منذ الصباح الباكر معتدل المزاج؛ وكان لا يزال أمامي بضع ســاعات فقط وأتحرر من كل التزام عَقَدي، وأصبح حــراً كالعصفور في الجو! ولذلك أحسست بشعور لطيف ومسالم وذهبت إلى الكنيسة كما يذهب المرء للمــرة الأخيرة إلى جماعة لا يجمعه بها أي شيء، لذلك كان الوداع مرحاً ومؤدباً. ولدى وصولنا إلى الكنيسة سُمح لنا أن نندس بين الناس الأكبر ســناً وأن يأخذ كل واحد مكانه كما يحلو لــه. فاستأثرت بكرسي الرجال التي كانت مخصصة لبيتنا وكان سبق لأمي أن رسخت في ذهني رقم ذلك الكرسي بكل عناية وبحسها العائلي المتبلور.

كان كرسينا بقي منذ وفاة أبي، أي منذ سنين كثيرة، شاغراً أو بالأحرى كان استوطن فيه رجيل فقير لا يملك أي عقارات. حين اقترب مني ووجدني جالساً على الكرسي، رجاني بلطف كنسي أن أخلي "مكانه" ثم أضاف بنبرة تعليمية أن كل المقاعد في هذا المكان هي ملكية شخصية. ربما كان ينبغي علي من باب اللياقات الاجتماعية أن أخلي مكاني، بوصفي صبياً أخضر، لمصلحة الرجيل المسن وأبحث عن مكان آخر؛ ولكــن روح التملك والطرد في قلب الكنيسة المسيحية حرضا مزاجي النزق؛ ثم إنني أردت أيضاً أن أعاقب مرتاد الكنيسة التقي على تطاوله المرتاح؛ وأخيراً فعلت هذا لمجرد أنني كنت مدركاً أن الشخص الذي طردته سوف يعود عما قريب إلى أخذ مكانه المعتاد من جديد وإلى الأبد، وهذه الفكرة كان من شأنها أن غمرتني بالسرور إلى أقصى حد حين استخدمت معه بدوري أيضاً النبرة التعليمية ذاتها، ورأيته وهو يبحث مندهشاً وحزيناً تماماً عن مقعد بعيد وسط المعدمين الآخرين الهائمين على وجوههم دون توقف أو هدوء، نويت أن ألمح له في

اليوم التالي أن بإمكانه على أي حال استعمال الكرسي التي أمتلكها حيث إنني لست بحاجة إليها، ولكنني أردت لمرة واحدة أن أجلس فيها ثم أنهض واقفاً كما كان يفعل أبي. كان أبي يتردد على الكنيسة في كل أيام الأعياد، لأن كل الأعياد عظيمة الشأن كانت تغمره بفرحة مرحة وشجاعة جريئة بحيث كان يحس بعد ذلك إحساساً خاصاً بتلك الروح الكبيرة والطيبة، التي كان يراها تتحقق في كل العالم والطبيعة، كما كان يقدسها أيضاً. عيد الميلاد، عيد الفصح، عيد صعود السيد المسيح إلى السماء كانت عنده أعظم أيام الفرح والسرور وكان يقضيها بتأملات عميقة وزيارات إلى الكنيسة ونزهات مرحة مشياً على الأقدام إلى أعالي الجبال الخضراء. وكنت ورثت عنه هذا الشغف بالأعياد، وحين كنت أقف في صباح يوم عيد من أعياد العنصرة فوق أحد الجبال في الهواء النقي كنقاء الكريستال، كان قرع الأجراس في الأعماق البعيدة عندي الموسيقى الأجمل التي سمعتها في حياتي وغالباً ما سبق أن ألقيت برأسي في خضم الأفكار بغية الوقوف على إمكانية أخرى لاستخدام هذا القرع الجميل والإبقاء عليه في حالة إلغاء وارد في الحسبان للمنظومة الكنسية ككل. ولكن أبى أن يخطر ببالي شيء من هذا القبيل إلا بدا سخيفاً ومفتقراً إلى الأصالة، وفي نهاية المطاف كنت أجد دائماً أن الجاذبية المفعمة بالحنين، الكامنة في نغمات تلك الأجراس، كانت تكمن تحديداً في الوضع الراهن آنذاك إذ كانت هذه النغمات تتهادى إلي من أعماق الوديان البعيدة المعتمة وتنبئني بأن الشعب هناك يلتقي على ذكريات إيمانية قديمة. لدى تحرري من الالتزامات والارتباطات كنت أكن لهذه الذكريات، كما لذكريات الطفولة، كل احترام، وتحديداً نظراً إلى أنني خلفتها ورائي، فقد غدت الأجراس التي دوى قرعها في البلاد القديمة الجميلة قروناً كثيرة مصدر حزنٍ وكآبة عندي. أحسست بأنه لا يمكن للمرء أن "يفعل" شيئاً وبأن مرور الزمن ومن ثم التغير الأزلي لكل مـــا هو دنيوي وأرضي كفيل بما يكفي بخلق جاذبية شاعرية مفعمة بالحنين.

كانت نزعة أبي التحريرية فيما تعلق بالدين متجهة في المقام الأول ضد التجاوزات السافرة للمذهب المونتاني المتطرف(*) وضد تعصب بعض المتشددين الإصلاحيين وتجمدهم كذلك ضد الاستغباء أيضاً والنفاق عمداً ومن كل نوع، ولذلك كان يردد في أغلب الأحيان كلمة Pfaff(**). لكنه كان يجل رجال الدين الجديرين بالاحترام ويسره أن يُظهر إزاءهم ولاء وخضوعاً، وإذا ما صادف أن تمكن من البرهنة على احترام كاهن كاثوليكي متشدد لكن جدير بالاحترام فقد كان يشعر حينئذ بمتعة كبيرة خصوصاً أنه كان يشعر بالارتياح في حضن الكنيسة الآخذة بتعاليم تزفنغلي. كانت صورة هذا المصلح إنساني النزعة والحر، الذي سقط شهيداً في المعركة، بمثابة القائد والضامن الأكيد والجدير بالحب. ولكنني كنت أقف على أرضية أخرى واشعر أنني، مع كل تقديري للمصلح والبطل، لا يمكن أن أشاطر أبي إيمانه في حين كنت واثقاً من تسامحه التام ومراعاته لاستقلالية أفكاري. هذا الاختلاف السلمي في أمور الإيمان بين الأب والابن، الذي افترضتُ نشوءه بكل طيب سريرة، احتفلتُ به الآن في كرسي الكنيسة بأن تصورت أن أبي لم يزل على قيد الحياة وأنني دخلت معه في حديث ديني وحين همت الجماعة بإنشاد أغنيته الميلادية المحببة إليه آنذاك: " هذا هو اليوم، الذي خلقه الله!" وجدتني أغني مع المغنين بسرور وبصوت عال من أجل أبي وذلك مع ما بذلت من جهد لأداء اللحن الصحيح؛ فقد جلس إلى يميني نحّاس عجوز وإلى يساري سبّاك قصدير واهن الجسم وحاولا الانحراف بي عن مسار الغناء الصحيح بترديدهم أغرب الألحان بصوت أعلى وأكثر جسارة، كلما أظهرت ثباتاً وعزيمة. بعد ذلك أصغيت باهتمام إلى الموعظة ووضعتها على محك النقد فلم أجدها رديئة؛ وكلما كانت النهاية تقترب وكان يلوح في الأفق خلاصي من ذلك الجو

(*) نسبة إلى مونتانوس الذي روج لعودة السيد المسيح في القريب العاجل، المترجم.

(**) تسمية ساخرة للقس، المترجم.

الضاغط، كنت أجد الموعظة جيدة وقد أطلقتُ على القس في الخفاء صفة رجل فاضل.

حالي النفسية غدت باطراد أكثر بشاشة وانشراحاً. وأخيراً أُقيم العشاء الرباني؛ فتتبعتُ بكل اهتمام الاستعدادات الجارية وراقبت كل شيء بدقة وعناية تحاشياً للنسيان؛ لأنني لم أنوِ أن أظهر بعد ذلك في مناسبة كهذه. تكوَّن الخبز من قطع بيضاء بحجم بطاقة من ورق وسماكتها وبدا شبيهاً بورقة ناعمة لامعة. كان شماس الكنيسة يخبزه وكان الأطفال يشترونه منه بوصفه بقايا طعام شهي مفعم بالطهارة، وأنا ذاتي كنت أحصل في بعض الأحيان على ملء قبعة من بقايا ذلك الخبز واستغرب حقيقة أن هذه القطع لم يُقضم منها شيء. كان العديد من خدام الكنيسة يوزعون الخبز على طول الأنساق المصطفة من الناس فيُقدم الأتقياء المؤمنون على كسر زاوية من قطع الخبز ويعطون ما تبقى إلى من يليهم في الصف، في حين ألحق عاملون آخرون في الكنيسة الخبز بالنبيذ فوزعوه في أكواب خشبية. فمن الناس، ولا سيما النساء والفتيات، من كان يرغب في الاحتفاظ بقطعة خبز صغيرة لوضعها بكل ورع وتقى في كتبه الخاصة بالتراتيل الدينية. على قطعة كهذه كنت وجدتها ذات مرة في كتاب إحدى بنات خالي رسمتُ آنذاك حملاً صغيراً خاصاً بعيد الفصح مع صورة لإله حب راكب على الحمل وحين اكتشفت الرسمة تعرضتُ لاستجواب قاسٍ وتأنيب؛ وحين تجمعت في يدي الآن عدة قطع كهذه تذكرت الحادثة ورأيتني أبتسم؛ وصبت نفسي إلى أن أحتفظ للحظة بواحدة لكي أرسم عليها رمزاً ما مرحاً لذكرى توديعي الكنيسة. لكنني تذكرت أنني قابع على كرسي فأعطيت الخبزة لمن بعدي بعد أن أدخلت في فمي إحدى زواياها باعتبار ذلك الوداع الورع لكن الأخير من فترة الطفولة وطعام الطفولة الذي كنت اشتريته من خادم الكنيسة.

حين أمسكت كوب النبيذ بيدي نظرت إلى الشراب بتمعن قبل أن أشرب منه؛ فلم يحرك المنظر أي شيء في داخلي، تناولت جرعة ثم أعطيت القدح

إلى من بعدي، وفي حين كنت أبتلع جرعة النبيذ وكانت أفكاري قد قطعت مسافة بعيدة في طريقها إلى البيت، ودورت قبعتي المخملية في يدي بصبر نافد ولأياً تحملت الانتظار إلى أن انتهت الصلاة، هنا بدأت برودة قوية تدب في قدمي وأصبح الوقوف بهدوء أمراً صعباً.

وحين فتحت الكنيسة أبوابها توغلتُ بمرونة ورشاقة عبر الناس الكثيرين دون أن أظهر فرحتي بحريتي ودون أن أصطدم بأحد، وكنت بكل هدوء وطمأنينة أول من وجد نفسه على مسافة غير قصيرة من الكنيسة. هناك انتظرت أمي، التي خرجت أخيراً بكل خضوع وخشوع من بين الجموع المحتشدة وهي ترتدي لباسها الأسود، وذهبت برفقتها إلى البيت غير آبهٍ برفاقي المشاركين في الدروس الدينية. إذ لم أكن على اختلاط بأي منهم ولم أعد ألتقي الكثيرين منهم حتى الآن. حين وصلت إلى حجرتنا الدافئة رميت بعيداً وأنا في غاية السرور كتابي الخاص بالتراتيل الدينية، في حين انشغلت أمي بالطعام الذي سبق أن وضعته في الصباح في داخل الفرن. في مناسبة كتلك روعي أن يكون الطعام وفيراً وذا طابع احتفالي كما لم تشهده مائدتنا منذ أيام أبي، وكانت تُدعى إلى تناول الطعام معنا أرملة فقيرة كانت تؤدي بعض الخدمات الصغيرة لأمي والآن حضرت في الوقت المحدد. في يوم عيد الميلاد جرت العادة دائماً أن يتمتع الناس بأكل الجني الأول من محصول الكرنب المخلل، وهكذا وضع هذا الصنف الآن على المائدة إلى جانب وجبة لذيذة من أضلاع الخنزير الصغيرة. كان من شأن الحكم على هذا الطعام أن هيأ للسيدتين فرصة طيبة لإطلاق الأحاديث. كانت الأرملة الضيفة ذات طبيعة طيبة القلب وصاخبة في آن معاً؛ حين أتت إثر ذلك فطيرة صغيرة عبرت الأرملة عن دهشتها مؤكدة أنها لن تأكل شيئاً منها، وذلك أمر مؤسف. وكان آخر ما قدم من الطعام أرنب مشوي كان خالي أرسله إلينا من قبل. هنا نبهت السيدة إلى أن علينا أن نترك الأرنب على حاله لكي نوفر ليوم الاحتفال الثاني، لأننا تناولنا من الطعام أكثر من كفايتنا؛ ومع ذلك أكلنا كل شيء

وجلسنا فترة طويلة حول المائدة بأحاديث عن مصيرها وقدرها وتفتح بوابات قلبها على مصاريعها. كان سبق لها قبل فترة طويلة من الزمن أن تزوجت ذات مرة لمدة عام كامل رجلاً عديم النفع وقد طاف في كل أرجاء العالم وترك لها ابناً أوصلته بعد بذل جهود كبيرة إلى وضع صانع في مهنة الخياطة، وكان يقضي جل وقته متسكعاً بكل تعاسة من خياط في القرية إلى خياط آخر، في حين كان عليها هي أن تكسب قوت يومها في المدينة بنقل المياه والغسيل وما إلى ذلك من أعمال. كان مجرد وصفها لزوجها بالكلب الوغد، كما كانت تسميه، يثير فينا موجة عارمة من الضحك ولكن علاقتها بابنها أضحكتنا أكثر. ففي حين كانت تعدّه بمنتهى الاحتقار ثمرة الكلب الوغد، كان هو ذلك الموضوع الوحيد لحبها واهتمامها بحيث كانت تتحدث عنه دائماً. لقد أعطته ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتحديداً صغر هذه العطايا، التي كانت عندها كبيرة، كان من شأنه أن مس شغاف قلبينا وأضحكنا في الوقت نفسه، حين كانت تعد بتفاخر واعتزاز ينمان عن بساطة وطيب سريرة "التضحيات" التي بذلتها من شأنه. في عيد الفصح الأخير، على حد روايتها، حصل منها على فولار قطني، أحمر وأصفر، وفي عيد العنصرة على زوج من الأحذية ثم أهدته لمناسبة العام الجديد جوارب صوفية وقبعة من الفرو، كل ذلك كان من نصيب الولد التعيس، القزم، شاحب الوجه! ومنذ ثلاث سنوات حصل منها بالتدريج على زهاء قطعتين ذهبيتين من عملة لويدور الفرنسية، هذا الولد الذي لا يبقي ولا يذر، هذا المتسكع التعيس! ولكن عليه أن يعطيها إيصالات عن كل شيء تدفعه له لأنه لا بد، لعمرها، لرجلها المتشرد من أن يعوض عليها كل قرش إذا ما قدر لها أن تلتقيه به ذات مرة. إيصالات ابنها، رجل الكرسي، جميلة جداً لأنه يجيد الكتابة أكثر من رئيس الحكومة الاتحادية؛ وهو يعزف على الكلارينيت تغاريد العندليب بحيث يضطر سامعوه إلى البكاء. ولكنه صبي تعيس ما دام لا يفلح في شيء، ومهما يبتلع من شحم الخنزير والبطاطا حين يجول مع معلمه على الزّبن من

الفلاحين فلا ينفعه ذلك بل يبقى هزيل الجسم وأخضر اللون وشاحبه كالجزرة. وذات مرة حاك فكرة أن يتزوج ما دام بلغ الثلاثين من العمر. ولكن بما أنها أعدت من أجله زوجاً من الجوارب فقد تأبطت الجوارب واشترت قطعة من النقانق وخرجت مسرعة إلى القرية لكي تثنيه عن فكرة الزواج. وإلى أن التهم النقانق، استسلم أخيراً هو أيضاً إلى قدره ثم أخذ بعد ذلك يعزف على الكلارينيت أجمل الأنغام. وكان يتقن الخياطة على حد قولها كالشيطان بمقدار ما كان أبوه على جانب من المهارة والحيطة، ويفهم جيداً كيف يعدُّ أفضل بكرات الخيطان على اتساع المنطقة بأسرها، غير أن دماً شريراً كان يجري في عروق هذا الصبي المتشيطن ولذلك لا بد من وضع الفتى المبذر عند حده ومعالجة مسألة زواجه بحذر شديد. وفي أثناء حديثها عن ابنها كانت السيدة تتغنى باستمرار بلذة طعامنا وتمتدح كل لقمة منه مع إبداء أسفها على عدم تمكنها من تقديم شيء من ذلك الطعام إلى ابنها الخبيث الشرير مع أنه لا يستحق ذلك. في غضون ذلك روت قصصاً عن ثلاث عائلات معلمين في الخياطة أو أربع سبق لابنها المدلل أن عمل لديها، وعن خصوماته البريئة معها وروت أيضاً أحداثاً مضحكة كانت جرت في القرى التي اشتغل فيها المعلم والصانع في مهنة الخياطة بحيث عملت مصاير عدد كبير من الناس على إغناء وجبة طعامنا بالتوابل الزكية دون أن تدري الأرملة بذلك. بعد الطعام تناولت تلك السيدة، بعد أن غمرها جو من المرح والحبور جراء شرب بضعة كؤوس من النبيذ، الناي التي كانت بحوزتي وحاولت أن تعزف عليها ثم أعطتنيها ورجتني أن أعزف شيئاً من الموسيقى الراقصة. وحين لبيت طلبها، أمسكت بمئزرها وأخذت تجول راقصة برقة ولطف في كل أرجاء الغرفة؛ لم نتوقف طيلة الوقت عن الضحك وكنا جميعاً في غاية السرور. قالت السيدة إنها لم تعد ترقص منذ حفل زواجها؛ وقد يكون اليوم الأجمل في حياتها لو أن المحتفل بزواجه هو كلب وغد؛ ثم أردفت تقول إن عليها في نهاية المطاف أن تعترف شاكرة بأن الله أحسن إليها وأعالها ومنَّ

عليها ولا يزال بأوقات مليئة بالفرح والسرور؛ على سبيل المثال لم يكن يخطر ببالها يوم أمس أنها ستعيش يوم ميلاد ممتع إلى هذه الدرجة. كان ذلك مدعاة لتأمل السيدتين وغرقهما في التفكير في هذا الموضوع بجدية أكثر وبرضا وارتياح، في حين سنحت لي آنذاك فرصة لإلقاء نظرة في حياة أرملة أرادت أن تصنع من ابنها رجلاً فلم تستطع أن تفعل شيئاً في هذا المجال أكثر من حبك بعض الجوارب. وكان لا بد لي أيضاً من أن أعترف بأن أوضاع حياتي، التي بدت في بعض الأحيان تعيسة وموحشة، كانت على ما يرام مقارنة بأوضاع الوحشة والعزلة التي عاشت فيها الأرملة مع ابنها الهزيل المسكين.

* * *



الفصل الثالث عشر

تمثيليات كرنفالية

بعد بدء العام ببضعة أسابيع، حين تقت إلى حلول فصل الربيع، تلقيت من القرية نبأ مفاده أن بلدات كثيرة في تلك المنطقة اتفقت فيما بينها على أن تحتفل معاً هذه المرة بأعياد الكرنفال المرحة بإعداد عروض مسرحية رائعة. كان من شأن الرغبة الكاثوليكية فيما مضى بالاحتفال بعيد الكرنفال أن حافظت على بقائها لدينا بصفتها نزوعاً إلى احتفال عام بقدوم فصل الربيع وتحولت الحفلات الشعبية التنكرية، التي تميزت بالخشونة والعربدة، بالتدريج منذ سنين طويلة إلى عروض وطنية كانت تقام في العراء وقد شارك فيها بادئ ذي بدء جيل الشبان وبعد ذلك رجال اتصفوا بالمرح والنشاط كذلك؛ كانت تُعرض تارة معركة حربية سويسرية وتارة كان يُعرض حدث من حياة أبطال مشاهير، وتبعاً لمعيار الثقافة والرخاء في منطقة معينة كانت تُعد وتُنفذ مثل هذه الفصول المسرحية بأكثر أو أقل من الجدية والإنفاق. بعض البلدات كان معروفاً على نطاق واسع على هذا الصعيد وبلدات أخرى حاولت أن تصبح كذلك. أما قريتي فقد كانت إضافة إلى بضع قرى أخرى مدعوة من قبل إحدى كبريات القرى المجاورة إلى تقديم عرض مسرحي كبير عن شخصية فيلهلم تِلّ ونتيجة لذلك طلب مني أقاربي من جديد أن أخرج للمشاركة في الاستعدادات الجارية نظراً إلى أن خبرتي ومهارتي في هذا المجال، بصفتي رساماً، كانتا موضع ثقة الجميع خصوصاً أن قريتنا كانت تقع في منطقة فلاحية بحتة، أي لم يكن لها باع طويل في هذا المجال. كنت

سيد وقتي تماماً، ولكن تخصيص جزء منه لغرض كهذا كان من شأنه أن يصب في مصلحة تطلعات أبي إلى حد يحول دون أن تعترض أمي على ذلك؛ لذلك لم أتردد وكنت أخرج كل أسبوع لبضعة أيام والسرور الكبير يغمرني جراء التجوال المستمر في هذا الفصل من السنة، أحياناً عبر الحقول والغابات المغطاة بالثلوج. وأتاح لي ذلك فرصةً لمشاهدة البلاد في فصل الشتاء والاطلاع على انشغالات أهل الريف ومسراتهم في هذا الفصل وكيف يستقبلون الربيع الموشك على الاستيقاظ.

أُعد العرض المسرحي بناء على نص مسرحية شيلر "فيلهلم تِلّ"، التي توفرت آنذاك في عدة إصدارات مدرسية شعبية ولكن لم ترد فيها كلها قصة الحب المعروفة بين بيرتا فون برونيك وأولريش فون رودينس. هكذا كان الكتاب منتشراً بين الناس على نطاق واسع لأنه كان يعبر بأسلوب رائع عن عقليتهم وتفكيرهم وعن كل ما يعدّونه حقيقياً؛ ذلك مع ندرة أن يستاء مخلوق من إظهاره شعرياً، قليلاً أو كثيراً، بمظهر مثالي.

الجزء الأكبر من جمع الممثلين تكوَّن من رعاة، وفلاحين، وصيادي سمك وصيادين آخرين، وأريد منه أن يمثل الشعب كله وينتقل بكثرته من ساحة أحداث إلى أخرى حيث يُحمل الحدث من قبل أولئك الذين كانوا يعدّون أنفسهم أكفياء للظهور بشجاعة وجرأة على خشبة المسرح. وفي صفوف الشعب شاركت أيضاً فتيات شابات عبرن عن أنفسهن على الأكثر في الأغاني المشتركة في حين أوكلت أدوار النساء حاملة الأحداث إلى بعض الفتيان. وقد وزع مسرح الحدث الفعلي على كل البلدات والقرى تبعاً لخاصياتها بحيث ارتبطت بذلك أمواج احتفالية غادية ورائحة من الجموع المتنكرة وجموع المشاهدين.

برهنتُ على أنني عنصر مفيد في مجال الاستعدادات الجارية وكُلفت ببعض الأعمال التي وجب إنجازها في المدينة. فتشت في كل المخازن عن لوازم الزينة والتنكر وحاولت أن اقترح أفضلها للاستعمال، خصوصاً أن مكلفين آخرين غيري كانوا يرغبون في الأدوات زاهية الألوان ولافتة الانتباه.

حتى إنني احتككت بموظفين حكوميين فتأتت لي جراء ذلك فرصة لأن أظهر بصفتي مندوباً شجاعاً لمنطقتي، إذ أوكل إلي اختيار الأسلحة القديمة وتسلمها وقد وافقت السلطات على تسليمها إلي تحت شرط الاعتناء بها إلى أقصى حد. ولكن بما أن احتفالات كثيرة مماثلة كانت تقام هذه المرة تحديداً فقد ترتب على ذلك ألاَّ يبقى من المخزونات إلا القليل، أي رموز الانتصارات التي تفوق في قيمتها وأهميتها كل شيء آخر، إذ ترتبط بها ذكريات معينة. زد على ذلك أن ممثلي الوحدات الإدارية تنازعوا فيما بينهم بشأن الأسلحة؛ الجميع أرادوا الحصول على السلاح ذاته على الرغم من أنه لم يكن يليق بهم أو يناسبهم؛ أحد الخصوم أراد أن ينتزع مني عدداً من السيوف الحربية والهراوات الكبيرة، التي كنت انتقيتها من أجل أهالي منطقتي على الرغم من أنني أعلمته بحاجته، بالنسبة إلى الزمن الذي يريد مواطنو منطقته عرض واحد من أحداثه على خشبة المسرح، إلى أدوات حربية أخرى مختلفة تماماً عن هذه الأدوات. واعتمدت في ذلك أخيراً على شهادة حارس المخزن الذي وافقني على ما قلت، في حين هلل صاحب حانة من إحدى القرى كان ذا مهابة وقوة ويقف ورائي استعداداً لنقل أدواتنا إلى مكان العرض، هلل لانتصاري وامتدحني بلطف وتودد. ولكن الخصوم رأوا أنني صبي خطير يريد أن يسبق كل الناس للحصول على أفضل الأشياء وتبعوني في كل روحة وغدوة إلى مخزن الأسلحة القديم مختارين من المعدات ما كنت أنوي الحصول عليه تحديداً بحيث لم يتسنَّ لي الحصول على عربة مليئة بالخوذات الحديدية والبلطات، اللازمة لمقاتليَّ من محكومي الطغاة، إلا بشق الأنفس. وهكذا خُيل إلي أنني ذو أهمية كبيرة حين تأكدت بصحبة المشرفين على العملية من قائمة الأشياء التي تسلّمناها، مع أن صاحب الحانة كان الرجل المسؤول عن التسلّم وهو الذي وقع على القائمة.

فيما بعد كان ينتظرني في الريف من جديد عمل كثير، فخرجت إلى العراء ومعي بضع علب من الكرتون المليئة بالدهانات والأصبغة لكي أحوِّل

بيت فلاح جديد على طرف الشارع إلى مسكن شبيهٍ تماماً بمسكن شتاوفاخر(*) وذلك بزخارف وأقوال ملونة؛ إذ لن يقتصر الأمر هنا على الحديث الذي جرى بين شتاوفاخر وزوجه، بل سيأتي الحاكم الطاغية قبل ذلك ممتطياً حصانه ويلقي خطبته الشريرة.

في بيت خالي كنت مساعداً فعلياً في كل الأعمال ومتطلعاً بحماس إلى جعل ملابس أبنائه ذات مظهر تاريخي قدر الإمكان، وبناته أردن التزيُّن على الطريقة الحديثة فحاولت منعهن من ذلك. باستثناء العروس أراد كل أولاد خالي المشاركة في الاحتفال والتمثيل وحاولوا أيضاً إقناع آنَّا التي كان سبق أن دعتها إلى ذلك بإلحاح لجنة تنظيم المهرجانات، ولكنها لم تشأ أبداً أن تتكرم بالموافقة؛ لا أظن أن سبب الرفض تهيب وتردد بقدر ما هو فخر واعتزاز إلى أن طلب منها أبوها، المتقد تحمساً لتنبيل المهرجانات القديمة الأكثر فظاظة وخشونة وتهذيبها، بصورة حاسمة أن تدلي بدلوها في احتفالات تلك المناسبة. ولكن السؤال الكبير، الذي طرح نفسه، هو ما الدور الذي كان يجدر أن تمثله؛ كان من شأن نعومتها وثقافتها أن أضفتا على العيد زينة وبهاء في حين أُوكلت كل الأدوار النسائية المهمة إلى رجال شبان. كان سبق أن فكرت منذ فترة طويلة بدور مناسب لها وأقنعت في الحال بنات خالي والمعلمَ بجدوى اقتراحي. وعلى الرغم من أن دور بيرتا فون برونِك(**) حذف تماماً، فقد كان باستطاعة آنَّا أن تمثل دور شخص أبكم وتمجد الحاشية الفرسانية التابعة لحاكم المقاطعة غيسلر. هذه الحاشية كانت في العادة تُصور في الفكاهة الشعبية على أنها خسيسة ومتوحشة ويُصور الحاكم الطاغية على وجه الخصوص بصورة مشوهة ويدعو إلى السخرية؛ ولكن خلافاً لذلك عملتُ على أن يكون موكب حاكم المقاطعة براقاً ومهيباً لأن الانتصار على

(*) أحد الفلاحين في المسرحية، المترجم.

(**) وريثة غنية في المسرحية، المترجم.

خصم تعيس وقليل الشأن لا يشكل إنجازاً متميزاً. أما أنا فقد اضطلعت بأداء دور ردوينس(*) على أن علاقته بعمه حُذفت من النص ولم ينتقل إلى صفوف الشعب إلا لدى نهاية العرض المسرحي بحيث بقي في تصرفي مزيد من الحرية والوقت لأداء بعض المساعدات هنا وهناك وللتقليل من الكلام في المقام الأول. واحد من أبناء خالي قام بدور رودولف دير هاراس فاستطاعت آنّا نتيجة لذلك أن تنعم بحماية اثنين من أقاربها. نص المسرحية الأصلي، الذي كتبه شيلر، لم يكن معروفاً في البيت؛ وحتى المعلم ذاته لم يقرأ إبداعات هذا الأديب الكبير ما دامت ثقافته كانت توجهت إلى جوانب أخرى؛ لذلك لم يدرِ أحد بما ورد في خطتي من ارتباطات وعلاقات، وآنّا سارت بكل سذاجة وطيب سريرة إلى الفخ الذي نُصب لها. أصعب ما كان في الأمر هو أن تركب آنّا الخيل؛ كان في إسطبل خالي حصان أبيض اللون، مريح وكروي الشكل ولم يُصب طول حياته أحداً بأي أذى وقد اعتاد خالي أن يمتطي صهوته في أثناء تجوالاته في ربوع الريف. وعلى الأرض كانت بردعة نسائية منسية وقديمة الطراز اطُّرحت؛ فأُلبست من جديد بمخمل أحمر اللون كنا أخذناه من كرسي ذي مسند ومهابة، وحين امتطت آنّا ظهر الحصان لأول مرة في حياتها، لاقت التجربة نجاحاً وسارت الأمور على ما يرام خصوصاً أن جارنا السيد مُيلر، الذي كان ملماً بمسائل ركوب الخيل، زودنا ببعض المعلومات والإرشادات بحيث وجدت آنّا في نهاية المطاف متعة كبيرة في التعاطي مع الحصان الطيب. ومُزقت ستارة كبيرة خضراء اللون مصنوعة من قماش الدمقس الفاخر كانت تغطي آنذاك سريراً ذا أعمدة، وحُولت إلى بذلة خيالة؛ إضافة إلى ذلك كان المعلم ورث تاجاً قديماً من جدائل الفضة مخصصاً من قديم الزمان لتزيين رؤوس العرائس؛ جُدل شعر آنّا اللامع كالذهب برشاقة ولطف إلى قرب الصدغ فقط، ولكنه تُرك تحت ذلك على طوله وانتشاره بكل حرية ثم وضع

(*) ابن أخي الشريف فون أتينغهاوزن، المترجم.

التاج على رأسها وأحيط عنقها بعقد ذهبي وغُرزت عملاً بنصيحتي بضع حلقات في قفازاتها البيضاء، وحين جربت لأول مرة كل هذا اللباس لم يكن منظرها يوحي بأنها فتاة خيالة فحسب بل ملكة حوريات، والبيت بأسره هام بإطلالتها اللطيفة. ولكنها امتنعت الآن من جديد عن المشاركة في التمثيل لأنها خالت نفسها في وضع غريب جداً ولولا أن الجمع الغفير كله بعائلاته المبجلة إلى أقصى حد أظهر اهتماماً كبيراً بهذا الشأن، لتعذر إقناعها بأداء دورها. في أثناء ذلك لم أهدأ، بل صرت أعبث قليلاً بصنعة سروج الخيل وذلك بمشاركة أولاد خالي، إذ عملنا معاً على تلبيس أحزمة اللجام، التي كانت في ملكية خالي واتسخت مع مر الزمن، بقماش حريري أحمر اللون كنا اشتريناه من أحد اليهود بسعر رخيص ثم خيطناه حول الأحزمة؛ لكي لا تلمس يدا آنّا لمساً مباشراً تلك الأحزمة الجلدية القديمة.

كنت أعددت لباسي قبل فترة طويلة واخترته أخضر اللون وعلى طريقة الصيادين، لأن ذلك أدى إلى تحقيق بساطة أكبر بالنسبة إلى إمكاناتي المتواضعة، إلا أنه كان يفي بالغرض بصورة متيسرة، غطاء كبير بني اللون حُول دون حدوث أي أضرار إلى معطف كثير الثنيات وكان من شأنه أن أخفى كل النواقص والعيوب؛ وحملت على ظهري نوعاً قديماً من أقواس الرماية وعلى رأسي لبادة رمادية اللون. وما دام الإنسان يعاني دائماً وجود نقاط ضعف فيه، فقد تحزمت بسيف طليطلي طويل؛ سبق أن نبهت الجميع على التقيد بالطابع التاريخي للباسهم وأحضرت من الترسانة كمية كبيرة من الأسلحة الملائمة للعصر الذي كنا في صدده، وقد اخترت هذا السيخ الإسباني دون أن يتضح لي اليوم ما الذي خطر ببالي آنذاك.

حل اليوم المهم والمنشود بأجمل الصباحات؛ كانت السماء تتلألأ خالية من الغيوم وكان الطقس في ذلك الشهر الشباطي دافئاً إلى حد أن الأشجار بدأت تورق والمروج تخضر. ومع شروق الشمس، حين وقف الحصان على ضفة النهر الصغير اللامع لكي يُغسل، انطلقت أبواق الألب وأجراس القطعان من

أعالي الجبال وانحدرت متغلغلة عبر القرية ثم اقترب موكب مكون من أكثر من مئة بقرة فاخرة، مكللة ومزودة بأجراس، برفقة مجموعة كبيرة من الفتيان والفتيات، لكي تطوف في أعالي الوادي متابعة سيرها إلى القرى الأخرى منجزة بذلك عرضاً لرحلة جبلية. لم يكن الناس بحاجة إلى أكثر من ارتداء الأزياء التقاليدية ليوم الأحد، المتوارثة من قديم الزمان، واستبعاد كل المستجدات المتوغلة وإضافة بعض القطع من الثياب الفخمة التي تعود إلى الآباء والأجداد بغية الظهور بمظهر احتفالي وخلاب، والمغايرة الأقوى للعصر تجلت في ظهور الغلايين التي كان الفتيان يحملونها في أفواههم هكذا بلا اكتراث أو اهتمام. أكمام القمصان النظيفة، التي كان يرتديها الفتيان والفتيات، صداريهم الحمر ومشداتهم الوردية على الخصور كانت تسطع إلى مسافة بعيدة باكتظاظ بهيج، وحين توقف الموكب أمام بيتنا وأمام الطاحونة المجاورة ونشأ فجأة تحت الأشجار اكتظاظ هائل من الألوان تخلله غناء وتهليل وضحك، وحين طلبوا وهم يحيوننا بصوت عال جرعة صباحية نهضنا بمرح وحبور من تناول فطور متنوع الأطعمة كنا تجمعنا حوله من قبل باستثناء آنَّا بكامل ألبستنا المخصصة للمناسبة الاحتفالية وكانت مفاجأتنا بالفرحة العارمة لدى حدوثها أقوى وأشد من كل توقعاتنا. على وجه السرعة حملنا براميل النبيذ، التي كنا أعددناها من قبل، مع عدد كبير من الكؤوس إلى وسط الزحام في حين ساهم خالي وزوجته بسلال كبيرة مليئة بمعجنات ريفية. هذا التهليل الأول، الذي هو على مدى بعيد تعبير عن إعياء مبكر، لم يزد عن كونه تباشير أكيدة ليوم صداقة طويل ولأشياء أكبر أيضاً. العمة عاينت الماشية الجميلة وتغنت بها ثم داعبت ومسحت بيدها بقرات مشهورات كانت تعرفها من قبل معرفة جيدة ومازحت الفتيان والفتيات وتبادلت معهم نكات كثيرة؛ أما خالي فلم يتوقف البتة عن صب النبيذ في الكؤوس في حين انهمكت بناته في توزيع تلك الكؤوس على الناس وبإقناع البنات باحتساء الخمر مع أنهن كن يعرفن حق المعرفة أن جنسهن الفاضل لم يعتد شرب الخمر في الصباح الباكر. وبدلاً من ذلك نشطت

الراعيات أيما نشاط في التهام الكاتو اللذيذ وزودن به الأطفال، الذين عملوا مع عنزاتهم على توسيع نطاق الموكب. في وسط الزحام اصطدمنا بجماعة الطحانين، الذين كانوا شنوا هجوماً على العدو من الناحية الأخرى بقيادة طحان شاب كان صليل سلاحه القوي بصفته خيالاً مدرعاً يقترب منا، فأقبل الناس عليه لكي يلمسوا درعه القديم ويؤدوا إزاءه شعائر التقدير والاحترام. وفجأة ظهرت آنّا، خجولاً ومحتشمة؛ إلا أن توجسها ما لبث أن زال بفعل هيمنة الفرحة العارمة على الجو بأسره فانتقلت في الحال إلى وضع شبيه بتحول تام. وافتر ثغرها عن ابتسامة نمت عن ثقة بالنفس وانشراح الصدر، تاجها الفضي كان يلمع في أشعة الشمس، وشعرها يهب ويرفرف بجمال أخاذ في ريح الصباح، كانت آنّا تختال بثوب الخيالة المرفوع بيدها بظرف وثقة وتمسك به باليدين المزينتين بالحلقات كما لو أنها كانت ترتدي لباساً كهذا طوال حياتها. كان عليها أن تطوف في كل الأمكنة حيث تلقت تحيات الناس وإعجابهم المدهش. أخيراً تابع الموكب مسيرته، وشارك أفراد بيتنا في انطلاقته من جديد. الاثنتان الأصغر سناً من بنات خالي واثنان من إخوتهن انضموا إلى الموكب في حين جلست أختهن المخطوبة والمعلم في عربة خفيفة لكي يسلكا طريقهما الخاصة بصفتهما متفرجين ويضما آنّا إليهما في حال عزوفها عن متابعة أداء دورها. أما خالي وزوجه فقد بقيا في البيت بغية استضافة بعض المتسكعين في المكان واستطلاع الأمكنة القريبة بالتناوب. ولكن آنّا، رودولف دير هاراس وأنا امتطينا صهوات الجياد تحت حراسة الطحان المصلصل بدرعه. كان سبق أن اختار لي الطحان من بين جياده حصاناً بني اللون مخلصاً وأميناً، ولضمان مزيد من الأمان كان شدَّ السرج بحزام من صوف الغنم. لم أكن أهتم البتة بفن ركوب الخيل، وما دام لم يكن ثمة من يهتم بذلك، فقد قفزت بكل بساطة إلى ما فوق ظهر الحصان البني وحركته في كل الاتجاهات، هكذا على غير هدى. في الريف يتيسر ركوب الخيل لكل إنسان يورد في الحسبان أنه قد يسقط من على ظهر حصان مدرب. هكذا ركبنا الخيل بكل أبهة باتجاه

أعالي القرية، مقدمين بذلك بأنفسنا عرضاً مسرحياً أمام أولئك الناس الذين بقوا في القرية وأمام جمع من الأطفال الذين تبعونا جرياً إلى أن استرعت اهتمامهم مجموعة أخرى غيرنا.

قبل وصولنا إلى القرية رأينا الحركة تدب فيها من كل الجهات، ملونة متلألئة، وحين قطعنا مسافة ربع ساعة على ظهور الخيل وصلنا إلى حانة تقع في زاوية من تقاطع شارعين؛ أمامها كان يجلس إخوة الرحمة الستة، الذين أرادوا نقل غيسلر بعيداً عن المكان؛ كان هؤلاء الصبيان الأكثر مرحاً في كل المنطقة؛ وكانوا صنعوا بطوناً ضخمة تحت ثياب الرهبان التي ارتدوها وربطوا على ذقونهم لحىً مخيفة من خيطان الكتان وطلوا أنوفهم باللون الأحمر؛ وعقدوا العزم على أن يصولوا ويجولوا طول اليوم متحكمين مستقلين متحملين مسؤولية ما يفعلون، كانوا في تلك الأثناء يلعبون الورق في جو من التهليل والعربدة ويخرجون في غضون ذلك أوراق لعب أخرى من قلنسواتهم ويهدونها إلى الناس بدلاً من إهدائها إلى القديسين، ثم حملوا معهم أكياساً كبيرة من الزاد والمؤن وبدوا مندفعين إلى حد ما في مجونهم بحيث اعترانا القلق جراء احتفالهم بعملهم لدى موت حاكم المقاطعة غيسلر.

في القرية التالية رأينا آرنولد فون ميلشتال وهو يبيع بهدوء ثوراً للحام من المدينة وكان يرتدي لهذه المناسبة لباسه القديم؛ بعد ذلك مر موكب مزود بطبل ومزمار وكان يرفع القبعة على العصا إيذاناً بإعلان القانون الساخر والشامت. فالشيء الأجمل في الأمر هو التحرر من التزام القيود المسرحية والعزوف عن الجري وراء المفاجآت، ومن ثم التحرك بدلاً من ذلك بحرية ومن دون برنامج مسبق والتقاء الناس، كما لو أنهم يخرجون من الحياة الواقعية ومن تلقاء أنفسهم، في تلك الأمكنة التي يجري فيها الحدث. في أثناء ذلك نشأ مئة حدث صغير جديد بالتمثيل ووجد في كل مكان ما يستحق المشاهدة والضحك، ولكن إذا ما تعلق الأمر بالأحداث المهمة، كنت ترى الجميع يلتقون لمشاهدة تلك الأحداث ومعايشتها بكل اهتمام وخشوع.

كان موكبنا ازداد بعدد لا يستهان به من الناس، إذ كان انضم إليه كثيرون من راكبي الخيول وكثيرون من المشاة أيضاً، والكل شكلوا جزءاً من موكب الفرسان؛ وصلنا إلى جسر جديد فوق النهر الكبير؛ ومن الجهة الأخرى اقترب منا قسم كبير من أولئك الذين شكلوا الرحلة الجبلية لكي يعودوا بالماشية إلى البيوت ويشاركوا في الموكب فيما بعد بصفتهم مشاة. والآن كان ثمة محصل جمركي نحيل على الجسر وقد أصر على تحصيل رسوم جمركية عن البقرات والخيول طبقاً للقانون، لأن الحيوانات حسب زعمه كانت في طريقها إلى النقل؛ فأغلق حاجز الحدود ولم يقتنع هذه المرة بأن يتخلى عن مطلبه، في حين لم نكن أعددنا أنفسنا من قبل للحظة كهذه كما لم يكن في نيتنا أن نستجيب لمطالب من هذا النوع، فنجم عن ذلك ازدحام كبير ومواقف حرجة دون أن نجرؤ على المرور عبر الحاجز بالقوة.

* * *



الفصل الرابع عشر

فيلهم تـلّ

في تلك الأثناء ظهر فجأة ذلك الرجل، الذي أوكل إليه أداء دور بطل الرواية تِلّ وكان يمشي في طريقه وحيداً مع صبيهِ. كان يعمل بكفاءة عالية في إدارة مطعم وفي مجال الرماية أيضاً ويتمتع بمكانة مرموقة ويتحلى بالأمانة والصدق وعمره أربعون عاماً، وقد وقع عليه الاختيار لتمثيل دور تِلّ هكذا دون عمد وبالإجماع. كان ارتدى الزي المطابق لتصور الناس الدائم عن السويسريين في العهود الماضية، قبعته الصغيرة المحززة باللونين الأحمر والأبيض غُرزت فيها ريشات حمر وبيض، وارتدى إضافة إلى ذلك وشاحاً حريرياً على صدره، وإن كان ذلك كله لا يشكل شيئاً أقل مما هو جدير بصياد بسيط، فإن جدية الرجل أظهرت كم كان يجل صورة البطل في ذهنه من خلال هذه الأبهة؛ بهذا المعنى لم يكن تِلّ صياداً بسيطاً فحسب، بل كذلك قائداً سياسياً وقديساً شفيعاً ولا يرد في الحسبان إلا أن يقترن ظهوره بألوان البلاد ورمزها، أي في المخمل والحرير، وبريشات مسترسلة متموجة. ولكن نظراً إلى بساطته الجريئة لم تخطر بباله السخرية الكامنة في لباسه البهي؛ أتى تِلّ بتمهل وتبصر إلى الجسر مع صبيه الخاص به، المتزين مثل نوع من ملاك حماية، وسأل عن الفوضى الناشئة هناك. وحين أنبأه الناس بأسباب ذلك، أوضح لمحصل الجمارك بطلان فرضه رسوماً جمركية على المواشي والجياد لأنها لم تأت إلى البلاد من الخارج وسوف لا تغادر البلاد بل لا بد

من حساب أنها تمر في الطرقات مروراً اعتيادياً. ولكن محصل الجمارك، المتطلع إلى تحصيل قطع نقدية كثيرة، أصر بنبرة كيدية مراوغة على رأيه بأن الحيوانات سيقت بكل حرية في موكب طويل في الشوارع ولم تكن آتية من الحقول ولذلك فإنه محق في طلب الرسوم الجمركية. إثر ذلك أمسك تِلّ الشجاع بحاجز الحدود وضغط عليه كما لو أنه ريشة خفيفة ثم رفعه إلى الأعلى وأمر الجميع بالعبور متحملاً هو شخصياً مسؤولية ما فعل. ونبه الفلاحين على ضرورة أن يحضروا إلى المكان مرة أخرى في وقت مبكر لكي يروا أفعاله؛ أما عنا، نحن الخيالة، فقد حيَّانا ببرود واعتزاز ويبدو أنه عدّنا ونحن على ظهور خيولنا من حثالة القوم ومن ثم من حاشية الحاكم الطاغية؛ إلى هذا القدر كان غارقاً في تكريس كرامته وعنفوانه.

أخيراً وصلنا إلى البقعة من السوق، التي تشكل في أيامنا هذه قريتنا القديمة. وحين مررنا عبر البوابة القديمة ممتطين صهوات جيادنا، وجدنا المدينة الصغيرة المحتوية على ساحة واحدة فحسب تعج تماماً بالحركة والحياة والموسيقى والرايات وعلى كل البيوت وُضعت أغصان الصنوبر. كان السيد غيسلر، حاكم المقاطعة، قد خرج لتوه من المدينة لكي يعيث فساداً في تلك المنطقة مصطحباً معه كلاً من الطحان والهاراس؛ ترجلنا عن حصانينا، آنَّا وأنا، أمام مبنى البلدية حيث كان تجمع بقية السادة واصطحبت آنَّا إلى الصالة حيث رُحب بها بإعجاب منقطع النظير من لجنة المهرجان والسيدات الحاضرات من أعضاء المجلس البلدي. لم أكن هنا معروفاً إلا قليلاً ولم أعش إلا في البريق الذي ألقته آنَّا علي، والآن أتى المعلم بعربته مع مرافِقته؛ فانضما إلينا بعد أن تأمن مأوى مؤقت للعربة، وحدثانا كيف جرى في الحال أن أُخذ من الشاب ميلشتال بالقوة ثوراه من المحراث حين كان يعمل في الحقل فولى هارباً وقُبض على أبيه فأودع السجن؛ كيف عاث الطغاة فساداً واعتداء على الناس وكيف حدثت أمام بيت شتاوفاخر مشاهد غريبة على مرأى من جمع من المتفرجين. هؤلاء تدفقوا في الحال إلى البوابة؛ لأنه على الرغم من أن الجميع

لم يرغبوا في أن يحضروا في كل مكان، فإن العدد الأكبر أراد فعلاً أن يرى الأحداث الرئيسية المهمة والجديرة بالاحترام وفي المقام الأول طلقة تِلّ. كنا نرى أيضاً من نافذة المجلس البلدي الأُجراء محدودي الأفق وفي أيديهم الرماح المكروهة وهم يصلون إلى المكان ويغرزون حرابهم في الساحة ثم يعلنون تحت قرع الطبول تطبيق القانون. والآن أُخليت الساحة من الناس، الشعب بأسره، سواء أولئك المرتدون أزياء تنكرية أو غير المرتدين إياها، أُبعد إلى أطراف الساحة؛ وأمام النوافذ، على الأدراج، على الأروقة الخشبية والأسطحة كانت تتموج الجموع الغفيرة. إلى جانب رمحيهما كان الحارسان يسيران ذهاباً وإياباً؛ والآن أتى تِلّ مع صبيه ماشياً عبر الساحة فحياه الشعب بعاصفة هادرة من التصفيق؛ لم يُبق على الحديث مع الطفل بل اشتبك في الحال في عراك عنيف مع الحارسين الوغدين، كان من شأنه أن أثار اهتمام الناس فأخذوا يتابعونه بحماس وترقب، في حين ذهبنا، آنّا وأنا، مع حثالة أخرى استبدادية إلى الباب الخلفي وركبنا الخيل لأن الوقت كان حان لأن ننضم إلى موكب الصيد التابع لحاكم المقاطعة غيسلر، الذي كان توقف أمام البوابة. دخلنا ونحن على ظهور الخيل تحت دوي الأبواق فوجدنا الحدث يجري على قدم وساق ووجدنا تِلّ في وضع حرج جداً والشعب في حركة نشيطة في مسعىً منه لتخليص البطل من أيدي جلاديه. ولكن حين بدأ حاكم المقاطعة بإلقاء كلمته ساد الهدوء. لم تُحكَ الأدوار على الطريقة المسرحية، بل كانت أشبه بالخطب التي تلقى في تجمع شعبي، بصوت عال، على وتيرة واحدة وعلى شكل أغانٍ ما دامت أبياتاً من الشعر؛ كان سماعها متيسراً للجميع في كل أرجاء المكان؛ وإذا صادف أن أحداً من الممثلين، إذا ما توجس خيفة، تعذر فهمه، كان الشعب يصرخ بأعلى صوته: "ارفع الصوت، ارفع الصوت!" ويفرح أيما فرح لسماع المقطع مرة أخرى دونما تعكير لصفو أوهامه.

هكذا كان حالي أيضاً حين وجب علي أن أقول بعضاً من الكلام، ولكنني لحسن الحظ قوطعت بسبب حدث مضحك. أخذت تتسكع في المكان

مجموعة من المقنعين من الطراز القديم، شياطين تعساء كانوا يرتدون قمصاناً بيضاء فوق ثيابهم الرثة، مكسوة تماماً بخرق ملونة؛ وعلى رؤوسهم كانوا يرتدون قبعات من الورق عالية ومخروطية الشكل مرسوماً عليها وجوه مجعدة مخيفة وأمام وجوههم مناديل مثقوبة على مدى كل مساحتها. هذا اللباس شكل عدا ذاك التقنع العام في فترة أعياد الكرنفال وكان يمارس في هذا التقنع أنواع منوعة من المزاح والضحك والفرح والمرح؛ كان هؤلاء العفاريت التعساء يكرهون الألعاب الحديثة لأنهم اعتادوا في هذا التقنع النادر أن يجمعوا هبات وعطايا ولذلك كانوا متحمسين لفكرة الإبقاء عليه دون غيره. كانوا يشخصون إلى حد ما التخلف والانحطاط ويرقصون الآن بطرق غريبة الأطوار هكذا عشوائياً بالعصي والمكانس. اثنان منهم على وجه الخصوص شوشا على الأداء التمثيلي حين جاء في الحال دوري في الكلام وذلك بأن مزق كل منهما تمزيقاً عشوائياً الجزء الخلفي من قميص الآخر الذي كان مطلياً بالخردل. كان كل منهما يمسك بيده قطعة من النقانق ويفركها قبل أن يقضم منها لقمة بقميص الآخر، في حين كانا يدوران بعضهما حول بعض مثل كلبين يسعى كل منهما جاهداً إلى شم ذيل الآخر. على هذا النحو رقصا مارين بين غيسلر وغريمه تِلّ إيماناً منهما بمعجزة أنهما يحققان شيئاً في جهلهما؛ وتلت ذلك أيضاً موجة مدوية من الضحك لأن الشعب في اللحظة الأولى لم يستطع أن يقاوم أمزجته، ولكن ما لبثت أن تلت ذلك أيضاً لكمات وصدامات خشنة بمقابض سيوف وحراب؛ أهل المجون والتهريج حاولوا إنقاذ أنفسهم بأن اندسوا بين المتفرجين، ولكنهم صُدوا في كل مكان بسخرية وضحك بحيث لم يجدوا على طول الصفوف المرحة أي ملاذ أو مأوى فضلوا طريقهم متسكعين بخوف ووجل بين الجموع المحتشدة وعلى رؤوسهم قبعات منكوشة مشعثة في حين كانوا يضغطون وهم مرتعبون أقنعتهم على وجوههم لئلا يعرفهم أحد. أشفقت آنًا عليهم وكلفتني أنا ورودولف ديرهاراس بمهمة إيجاد مخرج لأولئك التعساء المعذبين، وعلى هذا النحو كنت تخلصت

من إلقاء كلمتي. لم يكن ذلك مصدر إزعاج لأن الكلمات لم تُعدّ وحتى إن تفعيلة شيلر الشعرية كانت تُزين أحياناً بعبارات عامية مبتذلة من صنع المتكلم ذاته، طبقاً للتأثر والانفعال. لكن المرح الشعبي كان حاضراً في وسط العرض التمثيلي عندما حان وقت الطلقة.

هنا اعتاد الناس منذ قديم الزمان، حين تُعرض في أثناء المواكب الاحتفالية مأثرة تِلّ التاريخية، على الدعابة التي تروي أن الصبي الذي كان برفقة تِلّ تناول التفاحة من على رأسه في أثناء تجاذب أطراف الحديث ثم أكلها بارتياح وهدوء وسط تهليل الشعب وحماسه. هذه المتعة أُدخلت هنا أيضاً من جديد في مسيرة الأحداث، وحين استاء غيسلر من تصرف الصبي وأغلظ له القول متسائلاً عما ينبغي أن يعني تصرفه أجاب هذا غير هياب: " يا سيدي! إن أبي رامٍ جيد إلى درجة أنه سوف يخجل من أن يرمي على تفاحة كبيرة بهذا القدر! ضع واحدة أخرى على رأسي ليست أكبر من رحمتك وسوف يصيبها أبي بصورة أفضل!".

حين رمى تِلّ، بدا أنه كاد أن يكون متأسفاً لأن بندقيته لم تكن في يده ولأنه لم يرمِ سوى طلقة مسرحية عمياء. لكنه أخذ يرتجف فعلاً وبصورة لا إرادية حين سدد الرمية؛ إلى هذا القدر تغلغل في أعماقه الإحساس بالشرف والكرامة جراء تمكنه من أداء هذا الحدث المقدس. وحين وضع للطاغية غيسلر السهم الثاني تحت العينين متوعداً إياه بالقتل، في حين رأى كل الشعب ما كان يجري بانقباض وهلع يقطعان الأنفاس، ارتجفت يد تِلّ من جديد مع السهم واخترق غيسلر بعينيه وعلا صوته للحظة بقوة الإحساس الجارف إلى درجة أن غيسلر امتقع لونه وساد هلع مخيف في كل أرجاء السوق. بعد ذلك انتشرت همهمة مفرحة، مدوية بعمق، وتصافح الناس بالأيدي وتداولوا القول بأن صاحب المطعم تِلّ رجل كامل الرجولة وما دام بين ظهرانينا رجال من هذا النوع فلا خوف علينا!

ولكن قُبض آنذاك على الرجل الشجاع وسيق إلى السجن، والجمع الغفير من الناس تدفق في تلك الأثناء من البوابة إلى جهات مختلفة لكي يرى مشاهد تمثيلية أخرى أو يتسكع هنا وهناك كما يشاء ويحب. وكثيرون بقوا في أماكنهم لكي يتمتعوا بسماع أنغام الكمان التي كانت تتهادى في أرجاء ذلك المكان.

لدى حلول وقت الظهيرة استعد الجميع للقاء في ربوع المرج الجبلي رُيتلي حيث أقسم على إقامة الاتحاد السويسري مع حذف المقاطع الواردة في مسرحية شيلر مما كان له علاقة بما جرى في الليل الفائت. مرج جميل على ضفاف النهر الواسع، محاط بغابة تعلو تدريجياً، كان هو المكان المخصص للقاء، كما رئي أن يشكل النهر عموماً بديلاً للبحيرة أيضاً ومسرحاً للأحداث عند الصيادين والبحارة. جلست آنَّا إلى جانب أبيها في العربة في حين بقيت أنا بجوارها ممتطياً صهوة حصاني، وعلى هذا النحو شققنا طريقنا إلى هناك بارتياح لكي نستريح من عناء العمل بصفتنا متفرجين ونتمتع بارتياحنا. فوق جبل رُيتلي سارت الأمور بجدية كبيرة وروح احتفالية عالية؛ وفي حين انتشر الشعب بمختلف فئاته على السفوح وجلس كيفما اتفق وعلى غير هدىً تحت الأشجار اجتمع الرفاق الاتحاديون في بطن الوادي. كنت ترى هناك رجال الدفاع الحقيقيين بسيوفهم ولحاهم الكبيرة وشباناً أقوياء بهراواتهم والقادة الثلاثة في الوسط. كل شيء حدث على خير ما يرام وبوعي وإدراك كبيرين؛ كان النهر يمر مرور الكرام باتساع لافت، براقاً وراضياً؛ إلا أن المعلم أخذ على الشباب كما على المسنين أنهم في أثناء الحدث الاحتفالي لأياً أخرجوا الغلايين من أفواههم وأن القس روسلمان لم يتوقف عن تنشق العاطوس.

حين أقسم على إقامة الاتحاد السويسري وسط هتاف مدوٍ من كل أرجاء الجبل الذي يعج بالناس، تحركت الجموع الغفيرة بأسرها، المتفرجون والممثلون اختلط بعضهم ببعض؛ القسم الأعظم هاج وماج، كما كان الحال في عصور تجوال الشعوب، باتجاه المدينة الصغيرة حيث كانت تُعد وجبة بسيطة من الطعام وتحول كل بيت تقريباً إلى مَضيف سواء للأصدقاء والأصحاب

وكذلك للغرباء مقابل مبلغ زهيد من المال؛ فكما كنا بحرية وبتصرف حولنا فصول المسرحية إلى فوضى عارمة، فقد استحسنا أيضاً أن نتوقف عن عرضها على مدى ساعة استراحة لكي نفجر الأحداث الأخيرة العنيفة فيما بعد بشجاعة متجددة. أصحاب المطاعم كانوا نظراً إلى الطقس الحار على غير العادة حولوا بسرعة وسط المدينة إلى صالة للطعام؛ صفوف طويلة من الطاولات كانت أقيمت وأعدت عليها الموائد من أجل أولئك "المغيرين ألبستهم" وغيرهم من ضيوف الشرف الذين أرادوا مشاطرة الناس الطعام المشترك؛ أما الباقون فقد احتلوا البيوت وطاولات كثيرة كانت وضعت أمامها. وعلى هذ النحو اكتسبت المدينة الصغيرة مرة أخرى شهرة أسرة واحدة ومكانتها؛ من كل النوافذ كانت الجماعات التي لم تشارك في المهرجانات تنظر إلى المائدة الرئيسية الكبيرة، وتلك الجماعات التي أمام البيوت كانت وكأنها تفرعات لتلك المائدة. وكان من شأن النقد المسرحي العام، الذي انتشر على كل الطاولات وألف الفنانون أنفسهم مقالاته الشفوية، أن شكل المادة الملائمة لأحاديث جرت بصوت عال. لم ينشغل ذلك النقد في المقام الأول بمضمون المسرحية وعرضها بل ركز على مظهر أبطالها بثوب رومانتيكي وعلى المقارنة بسلوكهم المعتاد. وأسفر ذلك عن نشوء عشرات القرائن والتلميحات الهزلية كاد ينجو منها تِلّ وحده؛ لأن هذا بدا عصياً على التعرض والتناول. في حين هوجم الطاغية غيسلر من كل جانب إلى حد أنه وهو في خضم المعركة تناول شراباً مخدراً بحيث غدا قادراً في الحال على إظهار حنقه الأعمى بطريقة جد طبيعية. ولكن هذا لم يرق لي كثيراً لأنني كنت منشغلاً بالاهتمام بآنّا. كانت آنّا تجلس على منصة الشرف بين أبيها وحاكم المقاطعة، مقابل تِلّ وزوجته الفعلية الحاضرة في ذات المكان. بعد أن أثارت آنّا بإطلالتها الفاتنة والنبيلة اهتمام عموم الناس، سرى هنا أيضاً مفعول السمعة المشرفة التي يتمتع بها أبوها وتربيتها الرقيقة وفي خلفية التصورات ما يكمن في إرثها من تأدب وأخلاق أيضاً؛ كان علي أن أرى بقلق كبير كيف

تدافع كثيرون من الشباب الطموحين إلى المكان الذي كانت تجلس فيه، بل كيف تطلع تقريباً كل ممثلي العلوم الرئيسية الأربعة إلى الاقتداء في حياتهم بالمعلم الوقور، حباً به وإعجاباً، إذ كان أتى إليه طبيب شاب كان يعمل في الريف وكاتب في محكمة ومعاون قس ومهندس زراعي وجميعهم قدموا أخيراً إلى آنّا بطاقات زيارة لمساعدتها لدى تركها المدرسة. كان جميعهم ذوي طلعة وجيهة وآفاق مستقبلية مريحة في حين كنت اخترت أنا مهنة مرتبطة طبقاً للمفاهيم العامة السائدة بفقر أزلي. ولذلك اكتشفت لأول مرة، وأنا أتوجس خيفة ورعباً، كمال القوة التي كنت أواجهها وتمامها، وانزلقت وأنا واقف خلف مقعد آنّا إلى حال نفسية مزعجة وقاتمة وفكرت بأن أولي الأدبار.

أدارت آنّا رأسها إلى الخلف فجأة ورجتني أن أحتفظ لها بالبطاقات؛ وقالت مبتسمة إنه حبذا لو أهتم بها، وحين أدخلتها في جيبي أحسست كما لو أنني أحمل في تلك الجيب كل الأبطال الأربعة.

* * *

الفصل الخامس عشر

أحاديث حول الطاولة

في حين انطلق الناس من كل الجهات للعودة إلى بيوتهم، كانت بدأت بالقرب منا، حيث كان يجلس كل من حاكم المدينة وفيلهلم تِلّ وصاحب المطعم ورجال آخرون من ذوي الجاه والمكانة، أحاديث متعقلة ومتدبرة. كان الأمر يتعلق بمسألة اتجاه شارع عام جديد يبدأ من العاصمة ويمر عبر هذه المنطقة بمحاذاة الحدود. كان ثمة خطتان مختلفتان ومتجابهتان فيما كان يتعلق بمنطقتنا الأكثر ضيقاً ومرتبطتان بفوائد وصعوبات تتساوى فيما بينها؛ أحد الاتجاهين أريد له أن يسير عبر مرتفع متسع ويكاد يتطابق مع شارع أقدم من الدرجة الثانية، لكن كان لابد من سيره هنا متعرجاً وورود تكاليف باهظة في الحسبان؛ والاتجاه الآخر كان أكثر استقامة واستواء فوق النهر، لكن هنا كان سعر الأرض المتوجب شراؤها أعلى، وكان لابد من بناء جسر بحيث تصبح التكاليف في الخطتين متساوية، في حين كانت أوضاع السير والمرور متشابهة أيضاً. ولكن بمحاذاة الطريق القديم فوق المرتفع كان يوجد مطعم تِلّ، وقد تميز هذا المطعم بإطلالة واسعة وبكثرة مرتاديه من تجار وسائقين؛ عبر الشارع الكبير الذي سيقام في المنخفض يكون السير قد مر من هناك ويكون البيت القديم ذو السمعة والشهرة عرضة للعزلة والوحدة؛ ولذلك أيد تِلّ الشجاع، على رأس أتباع له من أهالي المرتفع الآخرين، بكل قوة وإصرار ضرورة إقامة الشارع الجديد عبر المرتفع. في مقابل ذلك كان تاجر أخشاب غني قد أقام في

المنخفض منشأته الواسعة وكان يستخدم في نقل بضائعه نزولاً الملاحة الناشطة في النهر في حين بدا ألاّ غنى له لنقلها صعوداً عن الشارع الذي سيقام مروراً بالمنخفض. كان هذا التاجر منذ سنين كثيرة عضواً في مجلس الكانتون وواحداً من أولئك الرجال الذين لا يغنون هيئة تشريعية بمادة فكرية بقدر ما يغنونها من خلال معارف تجارية موضوعية ومحلية بتصورات بسيطة ولا غنى عنها ولذلك لابد أن يسري مفعولها وأن تعود بالفائدة على جميع الأحزاب بالتساوي. كان متطرفاً وكان يعطي صوته فيما تعلق بالمسائل السياسية لمصلحة التوجه التقدمي ولكن من دون إشكالات كثيرة متخذاً من نفسه مثالاً عملياً بدلاً من اعتماده على الكلام. اللهم إلا إذا مست مسألة ما كيس النقود، فقد اعتاد عندئذ أن يوقف مسيرة الحوار بتحليلات وارتيابات دقيقة؛ لأن حرية الفكر عنده هي أيضاً صفقة، وفي رأيه أن الادخارات الناجمة عن تكاليف ستة مشاريع أعمال قد تمكن من إقامة مشروع سابع. لقد أراد أن يفهم ممارسة الحرية والتنوير طبقاً لأسلوب صاحب مصنع لا يهدف دفعة واحدة إلى تشييد مبنى فخم ضخم بتكاليف هائلة وتشغيل العمال فيه عند الضرورة، بل يفضل أن يصفَّ مبانيَ لا تلفت الانتباه ومدخَّنة، ورشة بجانب ورشة، مخزناً بجانب مخزن، حسبما تقتضي الحاجة والكسب، مرةً مؤقتة ومرة أخرى ثابتة، على مراحل، ولكن دائماً أسرع مع الوقت بحيث يصعد الدخان والبخار من كل الزوايا ويسمع الدق والطرق في كل الأرجاء في حين يعرف كل مشتغل في هذه الفوضى المرحة اختياره وموطئ قدمه. لذلك كان يتحمس باستمرار ضد مباني المدارس الكبيرة والجميلة وضد أجور المعلمين المرتفعة وما إلى ذلك، لأن بلاداً تُطعَّم بعدد وافر من القاعات المدرسية المتواضعة والمزودة بعدد قليل من الوسائل الجيدة، ويمارس فيها التعلم ومذاكرة الدروس بكل شجاعة ونشاط جم في كل زاوية وكل نهاية من جوار مريح في كل مكان إقامة لبضعة أطفال ودونما لفت نظر، عندئذ تبين في البلاد الثقافة الحقيقية. الإنفاق القائم على التباهي من شأنه، في زعم تاجر الأخشاب، أن يعوق الحركة البارعة؛ فليس ضرورياً امتلاك سيفٍ

ذهبي يضغط مقبضه المرصع بأحجار ثمينة اليد التي تمسك به ويؤلمها، بل الضروري هو فأس حادة خفيفة وقبضتها الخشبية مصقولة وناعمة بسبب الاستخدام النشيط وقادرة تماماً على تلبية احتياجات اليد سواء في الدفاع عن النفس وفي العمل، والصقل الجدير بالاحترام لقبضة فأس كهذه هو ذو بريق أجمل بكثير مما قد يقدمه الذهب والأحجار الثمينة لقبضة السيف تلك. إن شعباً يبني قصوراً هو شعب يطلب لنفسه شواهد قبور مزينة فقط، والتقلب تتأتى مقاومته على أفضل وجه حين يجر المرء نفسه تحت لوائه بخبث عبر الزمن، ببساطة واجتهاد؛ حصراً إذا ما أدرك شعب ما هذه الحقيقة وكان دائماً مسلحاً وجاهزاً للزحف من دون أمتعة لا فائدة منها، بل مزوداً بخزينة حربية ممتلئة وكان معبده وقصره وحصنه ومسكنه في آن واحد الخيمة الجوالة الخفيفة والمهولة والعصية على التمزق، خيمة خبرته العقلية ومبادئه يحملها معه وينصبها أينما ذهب وأينما حل، عندئذ يستطيع هذا الشعب أن يعلق آمالاً باستمرار حقيقي من شأنه أن يحافظ على مكان إقامته لمدة أطول. أما عن السويسريين على وجه الخصوص فمن العبث أن يريدوا إلصاق مبانٍ جميلة على جبالهم؛ على الأكثر عند مدخل البلاد قد يحتمل الأمر في كل الأحوال وجود بضع مدن مرموقة وفخمة، ولكن فيما عدا ذلك لابد أن نترك للطبيعة مسألة استقبال الضيوف؛ ليس هذا هو التصرف الأكثر مشروعية فحسب بل هو أيضاً الأكثر ذكاء. من بين كل أنواع الفنون أقر تاجر الأخشاب فقط بطلاقة اللسان وبالغناء وذلك لتطابقهما مع "الخيمة الجوالة" التي روج لها ولأنهما لا يكلفان شيئاً ولا يحتلان مكاناً. وملكيته الخاصة اتفقت تماماً مع مبادئه؛ الحطب وخشب البناء، الفحم، الحديد والأحجار شكلت كلها في مستودعات مؤن هائلة مخزناً كبيراً؛ اخضرَّت فيما بينها حدائق صغيرة وكبيرة؛ إذ كلما أخلي مكان لمدة صيف واحد، كانت تُزرع فيه بسرعة خُضَر متعددة الأنواع؛ هنا وهناك ألقت بظلالها شجرات صنوبر كبيرة، كان صاحبنا تركها على حالها ولم يقطعها، على منشرة أخشاب أو ورشة حدادة. وكان مسكنه الخاص يقع مرمياً

هكذا بين الأشجار شبيهاً بكوخ عمال أكثر منه ببيت سادة، والنساء اللاتي أقمن في بيته كان لابد لهن من خوض حرب مستمرة من أجل حديقة صغيرة ومتواضعة من نباتات الزينة والهروب بها دائماً حول البيت؛ حيناً كانت تُهرَّب إلى هذه الزاوية وحيناً آخر إلى تلك، وعلى كل تلك البقعة من الأرض لم تكن ترى أي سياج أو أي سور. تلك البقعة انطوت على غنى كبير، ولكن هذا الغنى كان يغير شكله الخارجي كل يوم؛ فحتى سطوح المباني كان الرجل يبيعها أحياناً إذا ما سنحت له فرصة ملائمة، ومع كل ذلك أقام في ملكيته الخاصة هذه منذ وقت طويل، والشارع الخلافي بدا أنه سوف يضع التاج على رأسه؛ لأن شارعاً جيداً خيل إليه أنه أفضل شيء في العالم اللهم من دون أحجار مسافة باهظة التكاليف وشجيرات طلح للزينة وما إلى ذلك من خزعبلات وعبث. كان على وجه التقريب يسافر دائماً في عربة خفيفة بسيطة لكن رائعة وكان كراجها أيضاً متنقلاً باستمرار ومكوناً فقط من ألواح من الخشب المخصص للبناء، منفصل بعضها عن بعض. والآن رأى تاجر الخشب أن على صاحب المطعم أن يغلق كوخه ويبني مطعماً في المنخفض على حافة الشارع والجسر الجديدين حيث تُتوقع حركة مرور أكثر أهمية ما دام البحارة أيضاً سوف يرتادون المكان. ولكن كان لصاحب المطعم رأي مغاير تماماً، إذ إنه يقيم في بيت آبائه الذي كان منذ قديم الأزمنة مطعماً؛ من تلته المشمسة اعتاد أن يتمتع بإطلالة بعيدة عبر أرجاء البلاد وحرص على تزيين البيت بقصص سويسرية جميلة. وهو لم يشأ أن يسمع شيئاً عن الدفاع عن النفس بفأس رديئة، فهذه قد تصلح أحياناً في أحسن الأحوال لقتل الذئاب؛ وخلافاً لذلك فهو بحاجة إلى بندقية جيدة ومصنوعة بمهارة وإتقان، فاستخدام هذا النوع من السلاح كان عنده أنبل تمضية للوقت. وكان يرى أيضاً أن المواطن الحر يجب أن يعمل وأن يوجه اهتمامه إلى إيجاد دخل مستقل والحفاظ عليه، لكن ليس أكثر مما هو ضروري؛ وإذا ما سارت الأمور في مجرى ثابت ومضمون، فقد تليق بالرجل راحة لا تشوبها شائبة وكلمة متعقلة

حول كأس من النبيذ وتمعن مبهج بماضي البلاد ومستقبلها. كان يمارس بصورة محدودة تجارة النبيذ، فقط النبيذ الجيد والقيِّم، من حين لآخر لا دائماً، وفي بيته سار كل شيء في طريقه الصحيح دونما حاجة إلى تدخله في هذا الأمر أو ذاك. وهو أيضاً كان رجل النصيحة والفعل، لكن في العالم الأخلاقي أكثر منه في غيره، وكان على الصعيد السياسي رجلاً شعبياً ذا نفوذ كبير على الرغم من أنه لم يكن عضواً في مجلس الكانتون. في أثناء الانتخابات كان لدى كثيرين من الناس مسموع الكلمة نافذ الرأي؛ ولذلك كانت الحكومة حريصة على ألاَّ تثيره ضدها، أكثر من حرصها على ألاَّ تثير تاجر الأخشاب. الآن انتهز حاكم المدينة الفرصة لإنجاز تفاهم بين الرجلين حول إقامة الشارع المثير للجدل. وبصفته رجلاً لطيفاً وممتلئ الجسم وذا وجه جميل وشعر أرستقراطي أشيب يذكر بمسحوق الزينة، فقد كان يرتدي ثياباً ناعمة وسترة ناعمة وتكسو يدَه البيضاء خواتمُ ذهبية وكان شغوفاً بالضحك. كان دائماً رزيناً وينجز أعماله بثبات وثقة بالنفس دون أن يعتمد على السلطة ويتباهى بمنصبه الحكومي. ومع أنه كان مثقفاً على صعيد العلوم السياسية فإنه لم يظهر من ذلك في أي وقت إلا ما كان ضرورياً فحسب وبطريقة كانت تنم عن أنه يروي للفلاحين شيئاً كان عرفه مصادفة وبإمكانهم هم أن يعرفوه بنفس القدر إبان حدوثه. بسترته الناعمة وأساور قميصه كان يذهب إلى كل مكان قد يؤمّه أي فلاح دون اعتناء بزينته ودون إفسادها. لم يتصرف مع الناس كما يتصرف حاكم مع مرؤوسيه والتابعين له ولا كضابط مع جنوده ولا كأب مع أطفاله أو بطريرك مع رعاته، بل ببساطة كرجل متحرر من كل قيد وتحيز ويريد أن ينجز عملاً ما مع الآخر ويؤدي بعدُ واجبه. لم يتطلع إلى أن يكون مفرطاً في التواضع أو في لطف المعشر، بل كان يحاول على الأقل أن يتصرف بصفته خادم الشعب لقاء أجر. لم يستمد ثباته وتماسكه من جاه منصبه بل من الشعور بالواجب؛ ولكنه إذا لم يشأ أن يكون أكثر من غيره فإنه لم يرضَ أيضاً أن يكون أقل منه.

ومع ذلك فإنه لم يكن رجلاً مستقلاً، لقد تحدر من أسرة غنية لكن مبذرة وكان في شبابه مرحاً مستهتراً، غير أنه عاد إلى أسرته بعد أن أكسبته تجاربه في الحياة رزانة وتدبراً وبعد أن آلت الأسرة إلى الانهيار؛ لذلك رأى نفسه هذا الرجلُ الشاب مضطراً للبحث عن عمل فأصبح أخيراً بعد تنقله في عدة مناصب وبعد تجارب كثيرة واحداً من أولئك الذين لابد لهم من أن يمتهنوا التسول إذا ما جردوا من مناصبهم؛ إذاً كتب عليهم أن يكونوا موظفين لدى الحكومة. لكنه استطاع أن يكون بمثابة إنقاذٍ لكرامة هذا النمط سيئ السمعة من العيش وسموٍّ له؛ كان أنجز الخطوة الأُولى في هذا المجال إبان سني شبابه وفي ظروف اضطرارية، وحين تعذر عليه فيما بعد أن يتغير انسحب من تلك الوظيفة على الأقل محافظاً على كرامته ومبدياً ذكاءً حقيقياً. وقد اعتاد المعلم أن يقول عنه إنه واحد من القلائل الذين يصبحون حكماء من جراء ممارستهم الحكم.

لكن كل الحكمة لم تستطع أن تساعد الآن في إيجاد تفاهم بين تاجر الأخشاب وصاحب المطعم لكي يستطيع هو بدوره إخبار الحكومة أي مسار للشارع في تلك المنطقة هو المرغوب فيه. كل واحد من هذين الرجلين دافع عن مصلحته بعناد؛ تاجر الأخشاب تمسك ببساطة بالدافع الذي يمليه العقل وهو أن الاختيار بين خط منبسط ومستقيم وبين جبل لابد أن يكون في أيامنا هذه غير قابل للتشكيك، فأخفى على هذا النحو مصلحته الشخصية خلف العقل؛ ثم أبدى ملاحظة مفادها هو أنه بصفته عضواً في السلطة الحكومية يتطلع إلى مساعدتها في إحراز النصر. بالمقابل قال صاحب المطعم إنه يريد أن يرى إن كان يستحق في سبيل الدولة أن يُحول بيت آبائه إلى أرض مقفرة! أن ينزل إلى المنخفض ويعيش على ضفاف الماء الرطب مثل كلب الماء، ما من أحدٍ يستطيع أن يقوعه بذلك؛ في المرتفع الذي يقيم فيه، حيث الطقس جاف ومشمس، كان أبصر النور وسوف يبقى أيضاً هناك! إثر ذلك قال خصمه وهو يبتسم: قد يفعل ذلك من غير أن يعوقه أحد ويحلم بالحرية،

بينما هو أسير لانحيازه وأحكامه المسبقة؛ ثمة آخرون يفضلون أن يكونوا فعلاً أحراراً وليتسكعوا فرحين في كل الأرجاء.

بدأت النبرة الرزينة بالتراجع شيئاً فشيئاً وبدأت لدى أتباع الطرفين أصوات تعلو بعبارات مثل: عناد جموح ومصلحة شخصية! وإذا بجماعة مرحة من الناس جاءت لتدعو تِلّ إلى متابعة بطولاته فكان ينبغي عليه الآن أن يقفز فوق الطاولة ويرمي حاكم المقاطعة بالرصاص. فانطلق غاضباً في حين انقض الباقون وتبعثروا ولم يبقَ جالساً سوى آنَّا مع أبيها وأنا. كان الحديث قد ولَّد لدي انطباعاً مؤلماً؛ ولا سيما ما تعلق بصاحب المطعم الذي جرح شعوري دفاعُه السافر عن منفعته الشخصية، في ذلك اليوم تحديداً وبتلك الحجج القوية؛ إن مطالب شخصية كهذه ضد عمل يحقق المصلحة العامة ويدعي بها رجال منورون بكل إصرار وحدة، وإبراز المكسب الشخصي والمكانة الشخصية، كل ذلك تناقض تماماً مع الصورة التي عاشت في داخلي عن شخصية الدولة غير المنحازة التي كانت ارتسمت في ذهني أيضاً عن رجال الشعب المشهورين. وعبرت عن هذا الانطباع بتبجح وتطاول أمام والد آنَّا ثم أضفت أنني، على ما يبدو، سوف أستحق عما قريب أن يؤخذ علي ما يؤخذ أحياناً على السويسريين من نزوع إلى البحث عن توافه الأمور والمنفعة الخاصة والتعصب. المعلم خفف قليلاً من لومي ودعاني إلى التسامح مع حقيقة افتقار الإنسان إلى الكمال، الذي ينطبق أيضاً على هذين الرجلين الفاضلين في باقي المواقف. وللمناسبة، قال المعلم، إن حبنا للحرية لا يزال نبتة قليلة الشأن على قشرة الأرض السطحية وإن رجالنا التقدميين يفتقرون إلى التدين الحقيقي، الذي يضفي على الحياة السياسية الصعبة تلك اللامبالاة المرحة والورعة والمفعمة بالحنو والحب، التي تنبع من الاتكال الحميم على الله وتجعل دون غيرها الاستعداد للتضحية والتحرك الحر إلى أقصى درجات الحرية في الجسد والروح أمرين ممكنين. وحين يدرك رجالنا المجدون ذات مرة أن الكتاب المقدس يدعو إلى تحرك أكثر يقظة

وجمالاً مما يعظ به تاجر الأخشاب، فإن عملية التسييس سوف تسير بصورة أكبر بكثير وسوف تؤتي أُكُلها عندئذ. هنا أردت أن أبدي اعتراضي الشديد إذا يد تربت على كتفي؛ وحين التفت إلى الوراء، رأيت حاكم المدينة يقف وراءنا. قال الرجل: "ولو أنني لا أرى أن من الصواب أن يعول المرء كثيراً في جمهورية معافاة على آراء الشبان ما دام المسنون الناضجون لم يفقدوا بعد توازنهم العقلي ويصابوا بالغباء والبلاهة بعد، فإنني أريد أن أحاول، أيها السيد الفتي، أن أخفف من قلقك لئلا يُفسد عليك جمال هذا اليوم الرائع بسبب تجارب كالحة موهومة؛ أضف إلى ذلك أنك لم تبلغ بعد ذلك العمر الذي أعنيه أنا حقيقةً، وبما أنك تجيد بقوة التأنيب واللوم فحبذا لو تُبدي استعداداً بنفس القدر لكي تتعلم أيضاً. يسرني قبل كل شيء، فيما يتعلق بالرجلين اللذين انصرفا من هنا قبل قليل، أن أقوي عزيمتك من جديد؛ لكن ليس كل الرجال في بلادنا السويسرية على قدم المساواة؛ وأمّا عن كل من السيد عضو مجلس الكانتون وصاحب المطعم الشبيه بالأسد، فكن مطمئناً لحقيقة أنهما على استعداد لتقديم كل ما يملكان لمصلحة البلاد في حال تعرضها لخطر وأن كلاً منهما يضحي بكل ما يملك لمصلحة الآخر إن تعرض هذا لنكبة أو كارثة وربما بروح أعلى للتضحية ما دام الآخر كان يدافع اليوم عن إقامة الشارع دفاع المستميت. وحبذا لو تذكرت في المستقبل: أن من لا يفهم كيف ينتزع بيد سافرة مغنمه ويحافظ عليه، لن يكون في مقدوره أبداً أن يؤمن لغيره مغنماً بملء حريته! لأن ثمة فرقاً كبيراً (هنا بدا أن حاكم المدينة يوجه كلامه إلى المعلم أكثر منه إلي أنا) بين التخلي الحر عن ملكية مكتسبة ومنتزعة بعرق الجبين أو اقتسامها مع آخرين وبين التخلي المتكاسل عما لم يملكه المرء في يوم من الأيام ومن الحمق أن يدافع عنه. ذاك هو وضع شبيه بتصرف سمح بثروة مكتسبة بحق وشرعية وهذا هو تبذير لثروات موروثة أو كان عُثر عليها بطريقة أو بأخرى. إن من يتخلى دائماً وإلى الأبد ويقف في كل مكان مسالماً في آخر الصف، هذا قد يكون إنساناً جيداً وغير مؤذٍ؛ ولكن لن يشكره أحد لهذا السبب ولن يقول: هذا

حقق لي منفعة! لأن شيئاً كهذا، كما سبق أن قلنا، قد يحققه للغير من يعرف أولاً كيف يحصل ويحافظ عليه هو نفسه قبل غيره. لكن حيث يفعل المرء ذلك بجرأة وبلا تملق، هنا يسود وضع صحي كما يبدو لي وتبدو لي أيضاً أي مشاجرة عنيفة حول المنفعة الشخصية ظاهرة صحية. وحيث لا يستطيع المرء أن يكون مسؤولاً بكل صراحة عما يملك، في هذا المكان لا تطيب لي الإقامة؛ فهنا لن تحصل إلا على هزالة النفاق وغبطة المنة والفساد الرومانسي؛ هنا يتخلى الجميع لأن العنب بالغ الحموضة عند هؤلاء جميعاً، وذيول الثعالب تتحرك بابتسامة صفراء ذات اليمين وذات الشمال حول الجوانب المجدبة. ولكن ما يتعلق بآراء الغرباء (وهنا وجه كلامه مرة أخرى إلي) فإنك ستتعلم ذات مرة في أثناء ترحالك في أرجاء هذا العالم ألاَّ توليه أي اهتمام!".

بعد هذا الحديث صافحنا حاكم المدينة مودعاً ثم انصرف. لم أقتنع بآرائه، أما المعلم فقد أظهر أن تغيير الموضوع هو أمر يريحه ويرضيه. إلا أننا اتفقنا على أن الرجل لطيف وذكي؛ وفي حين كنت أنظر إليه بارتياح وأشعر أن حديثه إلي غمرني بالاحترام والتقدير، امتدحته أمام المعلم على أنه ذو فضل لا ينكر وهو بالتأكيد إنسان سعيد من جراء ذلك. لكن المعلم هز رأسه مردداً القول المشهور: ليس كلُ ما يلمع ذهباً. كان المعلم بدأ منذ بعض الوقت يخاطبني بالصيغة الحميمة وتابع الآن حديثه معي بقوله: "بما أنك فتىً يمعن التفكير في الأمور، فإن عليك أيضاً أن تكتسب رؤية في حياة الناس؛ لأنني أرى أن معرفة حالات وتكوينات كثيرة تعود بالفائدة على الشبان أكثر مما تفيدهم النظريات الأخلاقية؛ فهذه هي من شأن الرجل المزود بالتجربة والخبرة، إلى حد ما تعويضاً عما لم يعد بالإمكان تغييره. لذلك فإن حاكم المدينة يناهض بحماس بالغ ما يسميه تخلياً لأنه هو ذاته نوع من المتخلين، أي لأنه هو ذاته ضحى بتلك الفعالية التي كان ممكناً أن تسعده وتتطابق مع مواصفاته. ومع أن إنكار الذات على هذا النحو هو في نظري فضيلة وأن حاكم المدينة بعمله الحالي ذو فضل ومنفعة لا مثيل لهما، فإنه لا يمثل وجهة

النظر هذه، وهو يعيش أحياناً ساعات عصيبة وغنية بالاختبارات ويصعب على المرء توقع كمونها في أسلوب تصرفه وحديثه المرح واللطيف. وقد جُبل في آن واحد على طباع نارية ووُهب عقلاً كبيراً وصافياً فتميز لذلك لدى تصادم العقول في صراع المبادئ بقيادة شجاعة وإجمالاً بقدرة على اتخاذ القرارات المتعلقة بحياة الناس وعلى أن يكون إدارياً فعالاً، كل ذلك كان انطلاقاً من المنصب ذاته. ولكنه لم يمتلك الشجاعة للمجازفة بمنصبه ولو ليوم واحد؛ لم يكن يعرف كيف تؤمن الطيور والزنابق في الحقول طعامها ولباسها دون أن يكون لها دخل ثابت، ولذلك تخلى عن فرض آرائه الخاصة وسريان مفعولها على الناس. أكثر من مرة، حين كانت تتغير الحكومات عن طريق صراع الأحزاب فيما بينها وكان الطرف المنتصر يخطط لإيذاء الطرف المنهزم باتخاذ تدابير ظالمة ضده، كان حاكم مدينتنا مثل رجل شريف في منصبه يعارض تلك التدابير؛ ولكن ما كان يفضل أن يفعله ويتطابق مع طباعه ومزاجه، أي أن يتخلى للحكومة عن منصبه ويترأس حركة ويطرد اعتماداً على فطنته وطاقته القائمين على السلطة إلى حيث أتوا: لقد تخلى عن ذلك، وهذا التخلي كلفه عشرة أضعاف الجهد الذي قد يبذله في تسيير أعمال منصبه المستمرة بلا انقطاع. إزاء أهل الريف لم يكن بحاجة إلا إلى أن يعيش كما يعيش فعلاً لكي يبقى محافظاً على كرامته ووقاره، ولكن إزاء السلطات وفي العاصمة لابد من ابتسامة ملزمة وبعض التنميقات ولو أنها بريئة أيضاً وذلك حيث يفضل أن يقول: " أيها السيد! إنك لمجنون كبير!، أو يقول: " أيها السيد! يبدو أنك وغد خبيث!، لأنه كما سبق أن قلنا يعيش في خوف غامض مما يسمى انعدام الدخل".

فقلت: "ولكن يا للشيطان! هل هم السادة حكامنا في أي وقت من الأوقات شيء آخر غير فئة من الشعب، وألا نعيش في نظام جمهوري؟".

أجاب المعلم: "طبعاً، يا بنيَّ العزيز، ولكن سوف تبقى حقيقة عجيبة كيف تصبح على وجه الخصوص في الزمن الجديد فئة شعب كهذه، وهي

هيئة ممثلة للشعب عبر عملية بسيطة من الانتخاب، تصبح في الحال شيئاً مختلفاً تماماً إلى حد عجيب، من جهة لا تزال شعباً ومن جهة أخرى هي فئة مضادة للشعب، بل معادية له. مثل ذلك مثل مادة كيميائية تتغير مركباتها بطريقة غامضة لمجرد أن تُغطس فيها عُصية صغيرة لا بل لمجرد حتى وقوفها. يبدو تقريباً في بعض الأحيان أن الحكومات القديمة، المكونة من أعضاء كانوا ينتمون إلى طبقة النبلاء الأثرياء، استطاعت أكثر من غيرها إظهار سجايا شعبها الأصيلة وحافظت عليها. ولكن لا تدع أحداً يضللك فترى أن ديمقراطيتنا ذات الطابع التمثيلي ليست أفضل دستور للبلاد! الظاهرة آنفة الذكر تؤدي لدى شعب معافىً إلى خلق جو من المرح والتسلية، لأن من دواعي الفكاهة والدعابة أن نهز أحياناً بكل طمأنينة المادة الكيميائية المتغيرة بطريقة عجيبة ونرفع القارورة بيدنا في مواجهة الضوء وننظر إليها بعين فاحصة ثم نستخدمها في نهاية المطاف لمصلحة الشعب".

هنا قاطعت حديث المعلم وسألته عما إذا كان حاكم المدينة اعتماداً على اطلاعه الواسع وعقله النير لا يستطيع كسب قوته بصورة أفضل إذا ما عمل في القطاع الخاص بدلاً من منصبه في الحكومة؟ فأجاب المعلم: "كونه لا يستطيع ذلك أو لا يظن أنه يستطيعه، ربما كان هذا هو سر حياته! العمل الحر هو أمر يحظى باهتمام بعض الناس في وقت متأخر جداً وقد لا يحظى باهتمام بعضهم الآخر. وهو عند كثيرين ومضة بسيطة تأتي لهم إدراكها في لمح البصر عن طريق المصادفة أو حسن الحظ، وعند كثيرين آخرين فن يتحقق عبر نضال بطيء. إن من لم يكتشف في سني شبابه، عن طريق التدريب والاقتداء بمحيطه ومن ثم بفضل تقاليـــد أسرته ومنبته أو فيما عدا ذلك في اللحظة المناسبة، البقعة المناسبة التي تقع فيها الومضة فإنه يبقى أحياناً حتى سن الأربعين أو الخمسين إنساناً مُلقىً هنا وهناك وعرضة للتسول وغالباً ما يموت بصفته وغداً، على حد قول الناس. كثيرون من أشخاص الدولة، ممن كانوا طوال حياتهم موظفين نشيطين، ليس في أذهانهم أي تصور

عن التملك؛ لأن كل الذين يتقاضون رواتب من أموال الدولة يشكلون فيما بينهم جبهة واحدة، يوزعون العمل فيما بينهم وكل واحد منهم يتقاضى من الموارد العامة احتياجات معيشته دون أي اكتراث للمطر أو لأشعة الشمس، أو لسوء النمو، للحرب أو السلام، للنجاح أو الإخفاق. ويعدون على هذا النحو عالماً مختلفاً عن بقية الشعب الذي يديرون مرافقه ومنشآته العامة. هذا العالم ينطوي، عنـد أولئك الذين يعيشون فيه منـذ القدم، على ظاهرة محطمة للأعصاب فيما يتعلق بالقدرة على الكسب. إنهم يعرفون العمل والنزاهة والادخار، ولكنهم لا يعرفون كيف تجمع المبلغ التقريبي، الذي تقاضوه بصفته أجوراً، في حمأة تقلبات التنافس. بعضهم كان طول حياته القاضي ومنفذ الحجز معاً في مجال المال، ولكنه لم يصل مرة إلى آمر بالسحب والصرف في الوقت المناسب. من يُرد أن يأكل، فعليه أن يعمل؛ أما إن كان أجر العمل المكتَسب أكيداً ومن دون قلق أو إن كان خارج نطاق العمل البسيط نتيجةً أيضاً للقلق والمصير فيتحول بالتالي إلى كسب، أي من الأمرين هو الصائب والمعقول ومن ثم أي منهما تحدده للإنسان نية أعلى: لا أجرؤ على أن أحسم هذا الأمر، وربما سيفعل المستقبل ذلك. ولكن الحالتين موجودتان في أوضاعنا وينجم عن ذلك مزيج معقد من تبعية وحرية وآراء مختلفة. حاكم المدينة يظن أنه تابع ويحجم بعقلية منغلقة لدى نشوب كل أزمة بانتظام عن إبداء أي رأي شخصي خاص به، ولا يعرف في أثناء ذلك كم هم أولئك الناس الذين يسعون من وراء ظهره إلى معرفة أفكاره في غور أعماقها لكي يعرفوا كيف يتصرفون إزاءه".

أحسست بتعاطف كبير مع حاكم المدينة واحترمته، دون أن أستطيع أن أفسّر لنفسي ذلك؛ لأنني استنكرت إلى درجة عالية تهييه الفقر ولم يتضح لي أنه أكثر الأمور صعوبة وتعقيداً إلا فيما بعد: فقد قام بوظيفته، على كره، خير قيام كما لو أنه خلق لها ودون تبرم أو خبث. في غضون ذلك لم تكن أقوال المعلم عن مسألة الكسب والومضة الحقيقية موسيقى محببة عندي؛ فقد كنت

في شك من أمري إن كان سيتسنّى لي في يوم من الأيام تلقف هذه الومضة والإفادة منها، لأنني بدأت أدرك أن الحرية عند كل هذا الشعب اليقظ وصلب البنيان لا تشكل قيمة إنسانية عليا إلا إذا ضمن قوته وخبز يومه، وأحسست وأنا أرى هذه الصفوف الطويلة والخاوية الآن من الناس أن هذا الاحتفال تحديداً لن يكون سوى احتفال كئيب وتعيس إذا كانت المعدة جائعة وكيس النقود فارغاً.

سرني أننا انطلقنا أخيراً للرحيل. هنا اقترح والد آنَّا أن نجلس إلى جانبه في العربة لكي نعمل جميعاً على تقويم الأداء المسرحي؛ غير آنَّا أبدت رغبة في أنها تفضل امتطاء صهوة الجواد، الذي استراح في غضون ذلك، وتتسكع قليلاً في ممارسة ركوب الخيل لأن ذلك لم يعد وارداً في الحسبان فيما بعد ولا تحت أي ذريعة. فاقتنع المعلم أيضاً بقولها ثم أعلن: أنه يريد إذاً على الأقل أن يسير معنا إلى أن يجد فرصة لتخفيف متاعب العودة إلى البيت عن رجل تقدم به العمر، ما دام الشباب كلهم يعرضون عنه. أما أنا فقد سرت مغموراً بأفكار سارة إلى البيت الذي آوى حصانينا وأمرت بإحضارهما إلى الشارع، وحين ساعدت آنَّا في امتطاء الحصان، خفق قلبي من جراء فرحة شديدة ووقفت مرة أخرى بهدوء في مواجهة خوف مريح لأنني قدرت أنني سوف أكون عما قريب وحدي إلى جانبها ونحن نجتاز الجبال والوديان على حصانينا.

* * *



الفصل السادس عشر

مناظر طبيعية في المساء.

بيرتا فون برونِك

كان تقديري صحيحاً أيضاً ولو أنه تم بطريقة مختلفة عما كنت منَّيت به النفس. لم نكن بعد قد اجتزنا البوابة بمسافة بعيدة حين رأينا المعلم المضياف وقد حمَّل عربته الصغيرة بثلاثة أشخاص مسنين وسبقنا بخطى خبب مرحة باتجاه الزقاق الأجوف المقرر سلوكه. تقدمنا الآن بهدوء وعلى مهل وحيينا باهتمام بالغ الناس المبتهجين، الذين كنا نمر بهم يسرة ويمنة إلى أن اقتربنا من الحشد المتموج المهمهم المدمدم وأوشكنا على الوصول إليه. هنا التقينا بالفيلسوف، الذي كان وجهه الصغير الجميل يتوهج جراء العبث ويفصح بذلك عما اقترف من مجون. كان يرتدي لباسه المعتاد ويحمل في يده كتاباً، إذ إنه إلى جانب معلم آخر تولى مهمة وسواس لكي يكون باستمرار في متناول اليد وجاهزاً للمساعدة حين تغيب الذكرى عن أحد أبطاله. ولكنه روى لنا الآن كيف أن الناس لم يعودوا يريدون سماع أي شيء، وكل شيء يأخذ مجراه الهمجي تقريباً من تلقاء ذاته؛ ولذلك فهو يتمتع الآن، على حد قوله، بأجمل وقت من الفراغ وخلو البال ويسره أن يلقننا نحن الاثنين مشهد الصيد، الذي خرجنا دونما شك لكي نمثله وحيدين معزولين عن الناس، وفي رأيه أن الوقت حان لذلك ونريد أن نباشر العمل دونما إبطاء!

احمرت وجنتاي خجلاً وسقتُ الحصانين بغية الابتعاد عن الفيلسوف؛ ولكنه أمسك باللجامين؛ سألت آنَّا ما موضوع مشهد الصيد فأجابها وهو يضحك: ليس عليه أن يقول لنا ما الذي يفكِّه العالم ويسليه ويفكِّهنا نحن من دون شك أكثر من كل العالم! الآن احمرت وجنتا آنَّا أيضاً من الخجل وطلبت بإصرار أن تعرف ماذا يقصد. هنا ناولها الكتاب المفتوح الذي في يده، وفي حين كان حصانانا يتشمم بعضهما بعضاً بارتياح وكنت أنا أجلس على أحر من الجمر، أخذت آنَّا تقرأ باهتمام في الكتاب، بعد أن كانت وضعته على ركبتها اليمنى، ذلك المشهد المتعلق بعقد تحالف بين رودينس وبيرتا من البداية إلى النهاية وفي أثناء قراءتها المشهد كانت تزداد وجنتاها احمراراً أكثر فأكثر. الآن افتضح أمر الفخ الذي كنت نصبته لها ببراءة بغير عمدٍ، فالفيلسوف أعد نفسه بصورة ملحوظة لمقالب ماجنة لا نهاية لها، وإذا آنَّا تغلق الكتاب فجأة وترميه أرضاً ثم تعلن بحزم إلى أقصى حد أنها تريد فوراً الذهاب إلى البيت. في اللحظة ذاتها أدارت حصانها إلى الوراء وبدأت تسير باتجاه الحقول على طريق ضيق، تقريباً باتجاه قريتنا. فتبعتها بنظراتي فترة من الزمن بارتباك وتردد؛ ولكنني سرعان ما تشجعت وخببت خلفها، إذ لم يكن بد من أن يرافقها أحد؛ وحين وصلت إليها تبعنا الفيلسوف بأغنية مفككة تلاشت أنغامها خلفنا شيئاً فشيئاً بحيث لم نعد نسمع أخيراً سوى موسيقى الزفاف المرحة لكن البعيدة وهي تنطلق من الزقاق الأجوف وأهازيج وتهاليل متفرقة في أمكنة مختلفة من ربوع المنطقة. غير أن المنطقة بأسرها لاحت هادئة وبخاصة بفعل انقطاعات الصوت المتكررة ورقدت بحقولها وغاباتها بسلام في بريق الشمس المائلة إلى الغروب الشبيه ببريق أكثر الذهب نقاءً وصفاءً. والآن سرنا ركوباً على حصانينا فوق هضبة ذات امتداد واسع، كان حصاني لا يزال على بعد طول الرأس خلف حصانها لكنني لم أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة. هنا ضربت آنَّا حصانها بجسارة بالعصا فبدأ يعدو بسرعة، ففعلت أنا مثلها؛ في وجهينا هبت ريح فاترة، وحين رأيت فجأة آنَّا محمرة الوجه وتتنشق الهواء البلسمي المنعش

وتبتسم فرحة جذلى ثم ترفع رأسها مع التاج الصغير المتلألئ في حين يتموج شعرها بشكل أفقي، عندئذ اقتربت منها وأسرعنا هكذا لمدة خمس دقائق فوق الهضبة المقفرة باتجاه البيت. كانت الدرب نصف مبللة ولكنها ثابتة؛ على الجهة اليمنى من تحتنا كان النهر ينساب، وقد متعنا النظر على طول مجراه اللامع المتلألئ؛ وعلى الجهة المقابلة ارتفعت الضفة منتصبة وارتفعت معها غابة معتمة أتيح لنا أن نرى من فوقها عبر سلاسل جبلية كثيرة إلى الجهة الشمالية الشرقية بضعة جبال وأهرام وحيدة معزولة في هدوء وبعد لا نهاية لهما. في الجهة الجنوبية الغربية أحاطت بنا جبال الألب على امتداد واسع مكسوة بالثلج إلى مسافة عميقة نحو الأسفل وتكدست فوقها جبال هائلة ورائعة الجمال من الغيوم في بريق مشابه، الضوء والظل بلون مشابه للون الجبال، بحر من البياض براق وزرقة عميقة لكن مصبوبة بألف شكل يعلو الواحد منها فوق الآخر. المنظر كله كان منطقة مقفرة مقامة بشكل عمودي، لامعة وعجيبة، هائلة وقريبة من النفس ولكنها هادئة ولا حراك فيها وبعيدة. رأينا كل شيء في وقت واحد دون أن ننظر إليه بصورة خاصة؛ والعالم البعيد بدا كأنه هالة لا نهاية لها تدور من حولنا إلى أن ضاق حين بدأنا بالنزول تدريجياً إلى أسفل الجبل باتجاه النهر. كنا نشعر كما لو أننا في المنام ندخل إلى منام حلمنا به حين اجتزنا النهر على قارب عبور، والأمواج الخضراء الشفافة تتكسر هادرة على جدار القارب ثم تسير في طريقها من تحتنا في حين كنا نحن نجلس فوق حصانينا ونتحرك إلى الأمام في اتجاه نصف قوس فوق النهر. ومن جديد ظننا أننا انتقلنا إلى حلم آخر حين صعدنا ببطء، بعد وصولنا إلى الضفة الأخرى، إلى طريق جوفاء معتمة كان غطاها ثلج ذائب وهنا كان المكان بارداً ورطباً ومرعشاً؛ من الشجيرات المعتمة كانت تتتالى قطرات ماء وتنهار كتل ثلجية كثيرة في سقوطها إلى الأرض؛ وجدنا أنفسنا آنذاك تماماً في بحر من الظلمة الداكنة الكثيفة، التي في ظلالها كان الثلج القديم يصدر بصيصاً حزيناً، ولكن فوقنا في الأعالي كانت السماء الذهبية اللون تتلألأ وتلمع. الآن كنا أيضاً أضعنا

الطريق ولم نعرف أين كنا بالضبط وإذا الخضرة والجفاف يحيطان بنا فجأة. وصلنا إلى رأس الهضبة ووجدنا نفسينا في غابة عالية من أشجار الصنوبر كانت جذوعها متباعدة ثلاث خطوات إلى أربع، على أرض مغطاة بكثافة بطحالب جافة والأغصان تشابكت في الأعالي في نمو همجي وشكلت سقفاً قاتم الخضرة بحيث لم تكد تمر هنا وهناك مروراً خاطفاً فوق الطحالب وبمحاذاة جذوع الشجر، أصوات حوافر الحصانين لم تعد مسموعة، ركبنا حصانينا بارتياح وسرنا بين الجذوع حول أشجار الصنوبر، حيناً ينفصل بعضنا عن بعض وحيناً آخر يحشر بعضنا بعضاً بين عمودين كما لو أننا سنمر عبر بوابة السماء، ولكن بوابة كهذه كانت مغلقة بخيط عنكبوت مبكِّر، مسحوب باتجاهٍ عرضاني؛ كان هذا الخيط يومض تحت تأثير شعاع بسيط عابر بكل الألوان، الأزرق والأخضر والأحمر، كشعاع الماس. انحنينا كلانا تحت خيط العنكبوت وفي تلك اللحظة تقارب وجهانا بحيث تبادلنا قبلة بغير قصد. وفي الطريق المار بين المرتفعين كنا بدأنا نتبادل الأحاديث والدردشة لفترة من الزمن بسعادة غامرة إلى أن تذكرنا القبلة فأدركنا أننا نحمر خجلاً إذا ما نظر بعضنا إلى بعض، وساد جوَنا الهدوءُ من جديد. والآن انحدرت الغابة إلى الجهة الأخرى وعمتها الظلال مرة أخرى. في أسفل الوادي رأينا مياهاً تلمع، والمرج الجبلي القريب تماماً كان يشع بالصخور وأشجار الشربين في ضوء الشمس الساطع عبر الجذوع المعتمة التي سرنا تحتها وينشر غسقاً غامضاً في الساحات الظليلة على امتداد غابتنا الصنوبرية. هنا غدت الأرض منحدرة إلى حد كان لابد لنا معه من أن نترجل. وحين أنزلت أنَّا عن حصانها قبَّل بعضنا بعضاً للمرة الثانية، ولكنها سرعان ما هربت وانحدرت أمامي فوق البساط الأخضر اللين باتجاه أسفل السفح في حين انشغلت أنا بسوق الحصانين. وحين رأيت قوامها الجذاب الرائع يختال على هذا النحو عبر أشجار الصنوبر، خيل إلي أنني أحلم من جديد وبذلت أكبر جهد لإيقاف الحصانين في مكانيهما من أجل أن أقف على الحقيقة الواقعية بأن انطلقت وراءها مسعوراً وضممتها إلى صدري.

وهكذا أتينا أخيراً إلى الماء وتبين لنا أننا كنا بالقرب من حجرة الكفار في منطقة نعرفها جيداً. لعل الجو هنا كان أكثر هدوءاً من غابة الصنوبر، وكان المكان هو الأكثر احتواء على الأسرار والخفايا الغامضة؛ الجدار الصخري، الذي كسته أشعة الشمس، انعكس في الماء الصافي وكانت ثلاثة صقور كبيرة تحوم في الجو فوقه وتتقابل باستمرار اللون البني على أجنحتها واللون الأبيض في الجانب الداخلي منها كانا يتناوبان ويتعاقبان ويومضان مع كل خفقة جناح ومع التلويحات في أشعة الشمس، في حين كنا نحن تحت جدار الصخور في الظل. رأيت هذا كله وأنا مغمور بالسعادة في حين حررت الحصانين الطيبين، اللذين أظهرا رغبة شديدة في شرب الماء، من لجامهما. في هذه الأثناء رأت آنّا زهرة صغيرة بيضاء اللون، لا أعرف من أي نوع كانت، فقطفتها ثم أتت إلي لكي تغرزها في قبعتي؛ لم أعد حينئذ أرى أو أسمع أي شيء آخر عدا أننا تبادلنا القبل للمرة الثالثة. في الوقت ذاته ضممتها بذراعي وضغطتها بشدة إلى صدري ثم بدأت أغطيها بالقبل. في بادئ الأمر وقفت هادئة للحظة وهي ترتجف وبعد ذلك أحاطت رقبتي بذراعيها وقبّلتني من جديد؛ ولكن لدى القبلة الخامسة والسادسة غدت ممتقعة اللون بشدة وحاولت التخلص مني والابتعاد عني، في حين أحسست أنا أيضاً بتحول غريب يدب في أوصالي. خمدت القبل كما لو كانت من تلقاء ذاتها وأحسست كما لو أنني أضم بين ذراعيّ شيئاً غريباً عني وخيالياً لا يمت إلى الواقع بصلة، ونظر كل منهما إلى وجه الآخر بغرابة وهلع، وفي لحظة من التردد أبقيت ذراعيّ ملتفين حولها ولم أجرؤ لا على تركها ولا على جذبها إلي بصورة أكثر ثباتاً وشدة. وخيل إلي أنني إذا ما تركتها فسوف أرميها في قاع لا قرار له وإذا ما أبقيت على أسرها فسوف أميتها؛ خوف وحزن شديدان هبطا على قلبينا السخيفين. وأخيراً تراخى ذراعاي وتفلّتا، ووقفنا هكذا خجلين ومكسوري الخاطر ننظر إلى الأرض. بعد ذلك جلست آنّا على حجر بالقرب من المياه الصافية العميقة وبدأت تبكي بمرارة. وحين رأيت هذا المشهد كان لابد لي من أن أنشغل بها من جديد، إلى

هذا القدر كنت غارقاً في حيرتي وارتباكي وفي البرودة المجلدة التي كانت داهمتنا. اقتربتُ من الفتاة الجميلة المحزونة وحاولت أن أمسك يدها في حين ذكرت اسمها بتريث وحذر، ولكنها أخفت وجهها تماماً في ثنايا ثوبها الطويل الأخضر وهي تذرف باستمرار دموعاً غزيرة. وأخيراً استردت قواها قليلاً واكتفت بالقول: "أوه! كنا مسرورين حتى الآن!" ظننت أنني فهمتها لأنني كنت أشاطرها الشعور ذاته لكن ليس بالعمق نفسه؛ ولذلك لم أردّ على كلامها بل جلست بهدوء بعيداً قليلاً عنها وفي وضع نصف مواجه لها، وصرنا على هذا النحو ننظر بصمت واجم إلى الماء. ومن قاعه رأيت صورتها المنعكسة مع تاجها الصغير تومض إلى الأعلى كما لو أنها من عالم آخر، كجنية ماء غريبة تهدد بالهروب إلى الأعماق بعد ارتكاب خيانة بحق الثقة.

وإذ ضممتها بعنف إلى صدري وقبَّلتها وردت هي بالمثل في حال من الارتباك والاضطراب، فقد جرعنا بذلك من كأس رغبتنا البريئة ما تجاوز الحد؛ فأمطرنا مشروبه بوابل من البرودة المفاجئة وانتزعنا تحسس الجسد، المتسم بالعداء تقريباً، من الجنة. هذه العواقب، المترتبة على جيشان بريء وصادق في نفسيْ شخصين في مقتبل العمر كانا في زمن مضى بصفتهما طفلين يفعلان الشيء ذاته من دون أي قلق أو اكتراث، تعد في رأي الكثيرين ماجنة وجنونية؛ أما نحن فقد خيل إلينا أن الأمر جدي ولا عبث فيه، وجلسنا في جو من كرب حقيقي على ضفاف الماء الذي لم يكن بأي مقياس أكثر نقاء وصفاء من نفسية آنَّا. لم تحدثني نفسي عن السبب الحقيقي لهذا الحدث المخيف؛ لأنني لم أكن أعرف أن الدم الأحمر في ذلك العمر أكثر حكمة من العقل وأنه يكبت رغباته من تلقاء ذاته إذا ما هاجت وماجت إلى حد غير لائق. بالمقابل ربما لامت آنَّا نفسها في المقام الأول بسبب قبولها حضور المهرجان فعوقبت على ذلك بحدوث خلل في نمط حياتها مشوب بالفظاظة والقسوة.

كان من شأن حفيف قوي في رؤوس الأشجار من حولنا أن أيقظنا من التأمل الكئيب، الذي أضفى علينا في واقع الأمر من جديد نوعاً آخر من

مسحة سعادة جميلة؛ فبما يتعلق بذكرياتي ليست اللحظات الأخيرة، التي أيقظنا فيها حفيف أوراق الشجر، أقل غلاء ونفاسة من نزهة ركوب الخيل فوق الهضبة وعبر غابة الصنوبر. وآنَّا كذلك بدت أكثر رضاً وارتياحاً من ذي قبل؛ حين نهضنا واقفين، ابتسمت ابتسامة خاطفة لدى اختفاء صورتي في الماء؛ إلا أن حركاتها الحازمة بلطف وظرف بدت وكأنها تقول: لا تجرؤ بعد الآن على أن تلمسني!

كان الحصانان توقفا منذ فترة طويلة عن الشرب ووقفا مندهشين في المكان المقفر الضيق، حيث لم يكادا يجدان بين الأحجار والماء مكاناً ليتحركا فيه؛ لجمت الحصانين ورفعت آنَّا إلى ظهر حصانها وفي حين كنت أجره تلمست على الدرب الضيقة، التي ألحق النهر الصغير بها أضراراً فادحة فزادها ضيقاً في كثير من الأمكنة، إمكانية للسير إلى الأمام وتبعني الحصان البني اللون بصبر وإخلاص. وصلنا أيضاً بسلامة إلى المروج وأخيراً إلى تحت الأشجار التي أمام بيت القس. لم يكن أحد في المنزل، حتى الخال وزوجته كانا خرجا مساء من البيت وكل شيء كان هادئاً من حوله. في حين أسرعت آنَّا على الفور إلى الداخل، جررت حصانها إلى الإسطبل وأنزلت السرج عنه ثم وضعت أمامه التبن المخصص له. بعد ذلك صعدت إلى المنزل لكي أحضر للحصان البني بعض الخبز لأنني كنت أنوي أن أمتطيه للحاق بسرعة بالعرض المسرحي. وحثتني آنَّا أيضاً على ذلك في الحال حين دخلت إلى الغرفة التي هي فيها. كانت في غضون ذلك بدلت ملابسها وأخذت لتوها تجدل شعرها بسرعة بطريقتها المعتادة، فأذهلها دخولي بسبب انشغالها بزينتها واحمر وجهها خجلاً من جديد وغدت مرتبكة مضطربة.

نزلت إلى الأسفل لكي أعلف حصاني البني وبينما كنت أقطع له الخبز وأدس في فمه قطعة بعد أخرى، وقفت آنَّا في النافذة المفتوحة وقد أسدلت شعرها كله وأخذت تنظر إلي. اشتغال أيدينا المريح في السكون الذي خيم على

المزرعة كان من شأنه أن غمرنا بهدوء عميق ومفعم بالسعادة في الأساس؛ وكان يحلو لنا أن نبقى على تلك الحالة سنين طويلة؛ كنت أنا ذاتي أقضم أحياناً كسرة من قطعة الخبز قبل أن أقدمها للحصان، فما كان من آنَّا إلا أن أحضرت هي أيضاً خبزاً من الخزانة وصارت تقضمه وهي واقفة في النافذة. كان ذلك منظراً مضحكاً وبقدر ما طاب لنا طعم الخبز اليابس بعد تلك الوليمة الاحتفالية والصاخبة، هكذا أيضاً بدا نمط حياتنا آنذاك بمثابة بر الأمان الذي وصلنا إليه بعد هبوب العاصفة الصغيرة وعلينا أن نبقى فيه. أظهرت آنَّا رضاها وارتياحها أيضاً ببقائها في النافذة إلى أن ركبت حصاني وابتعدت عنها.



* * *

الفصل السابع عشر

إخوة الرحمـة

قبيل القرية أتى المعلم في عربته وبصحبته خالي وزوجه، فقلت لهم إن آنَّا في البيت؛ وبعد مسافة قصيرة التقيت أجير الطحان الذي جر حصانه إلى البيت. ولدى سماعي أن الكل مجتمع في ساحة البرج وأن ثمة هرجاً ومرجاً كبيرين ينتشران على امتداد الساحة، وكذلك لم تعد الطريق بعيدة إلى هناك، سلمت حصاني إلى الإجير وتابعت سيري إلى هناك بسرعة، مشياً على الأقدام. كانت خرابة برج متداعية خُصصت لإقامة المهرجانات واقعة في بقعة ضمن أرض مشاع مرتفعة وذات إطلالة بعيدة على مناطق الجبال المترامية الأطراف. كانت الأنقاض مكسوة ببضع حاملات من القضبان والأخشاب كما لو أنها في وضع من البناء والتشييد بدلاً من الخراب والدمار وكانت أكاليل الطغيان الظافر علقت بها. كانت الشمس قد غابت تواً حين وصلتُ ورأيت كيف حطم الشعب ما أقيم من حاملات حديدية وخشبية ورماها إضافة إلى الأكاليل فوق كومة ضخمة من الأخشاب والأغصان الجافة ثم أضرم فيها النار. هنا تم أيضاً تمجيد فيلهلم تِلّ وتكريمه بدلاً من أمام بيته، ولكن ليس طبقاً للخطة المرسومة من قبل بل طبقاً لمزاج ابتكاري عام كان من شأن راهنية اللحظة أن أيقظته في ألف ذهن وتفكير، وخاتمة الأحداث تحولت هكذا على غير هدى إلى احتفال بهيج مفعم بالغبطة والنشوة. كان الطغاة المدحورون مع عرباتهم عادوا وتسللوا من جديد بين أوساط الشعب وأخذوا يطوفون بينهم كأشباح جذلى؛ وأظهروا بذلك ردود فعل هي غاية في

البراءة والوداعة. فوق كل التلال والجبال كنا نرى الآن نيران الكرنفال وهي تشتعل، في حين كانت نارنا نحن تتأجج على مدى واسع؛ كنا نقف حولها بالمئات في حلقة على شكل دائرة، وتِلّ – الرامي البارع – أظهر الآن مواهبه بوصفه مغنياً أيضاً وعلى قدر كبير من الكفاءة، حتى بوصفه نبياً وذلك بأن أنشد أغنية شعبية حماسية عن معركة زيمباخ فردد الجميع من ورائه كلمات الجوقة بنشوة منقطعة النظير. كان النبيذ موجوداً بوفرة؛ وتشكلت عدة حلقات للغناء، بسيطة وبصوت واحد، وأخذت تترنم بأغان قديمة كما تشكلت أيضاً جوقات رجال بأربعة أصوات لكي تؤدي أغانيَ جديدة، مدارس غناء مختلطة من بنات وصبيان، جموع من الأطفال، كل شيء كان يغني ويحدث أصواتاً وأنغاماً ويتموج في كل الاتجاهات بفوضى عارمة على امتداد بقعة الأرض المشاع، التي نشرت النار فوقها ضياءً ضارباً إلى الحمرة. من صوب الجبال كانت تهب باستمرار رياح الفُين أقوى وأدفأ وتدحل معها قوافل السحب في أعالي الجو؛ وكان الجو كلما ازداد قتامة، علت صيحات الفرح الذي خيم في بادئ الأمر حول أنقاض البرج وحول النار في أوساط جمع كبير من الناس ما لبث أن تشتت باتجاه المنحدر الجبلي في مجموعات كثيرة وأخرى منفردة كانت لا تزال تمر هنا في أشعة الضوء الضارب إلى الحمرة وتهل هناك في العتمة المخيمة على المكان. وإلى أبعد من ذلك ما فتئت البهجة تئزّ من الحقول المعتمة وتتلألأ أخيراً من جديد في الشعل العديدة التي تعبر الآفاق. نسيم الربيع القوي والمغرق في القدم في هذه البلاد، على الرغم من أنه قد يجلب خطراً وضيقاً، كان من شأنه أن أيقظ شعوراً إزاء الطبيعة، قديماً وبهيجاً بإصرار، وفي حين كان يهب في الوجوه وفي اللهيب الساخن رجع التفكير من رمز النار المتعلق بالوعي السياسي مروراً بالنار المسيحية في العصور الوسطى إلى نار الربيع في العهود الوثنية التي ربما اشتعلت ذات يوم في نفس الوقت وذات المكان. في تجمعات الغيوم القاتمة بدت جحافل جيوش من أجيال غابرة وكأنها تزحف وأحياناً تتوقف فوق جموع الناس المحتشدة ليلاً وهي تغني وتنغم على هواها، كما لو أنه طاب لهذه الجحافل أن تنزل إلى الأرض وتختلط بأولئك

الذين نسوا زمنهم لدى وجودهم بقرب النار. ولكن هذه الأرض المشاع كانت بقعة رائعة؛ فالتربة الضاربة إلى اللون البني، التي اكتست اكتساء عارماً بالعشب البري المخضر منذ بدأ هذا العشب بالانتشار، بدت لنا أكثر طراوة ومرونة من المخمل المنجَّد وحتى قبل العهد الفرنجي كانت تلك التربة عند أهالي المنطقة تماماً على ما هي عليه الآن.

مع حلول الليل كانت أصوات النساء قد غدت أعلى مما كانت عليه؛ وفي حين كانت غادرت المكان الأكبر سناً منهن وكان الرجال المتزوجون تجمعوا سعياً وراء حانات مؤنسة، بدأت الفتيات بمارسن سلطاتهن بصورة أكثر تحرراً وانطلاقاً، بدءاً من عقد حلقات ضاحكة وإلى أن تم أخيراً لم الشمل لكل الناس التابعين بعضهم لبعض وعمل كل زوج على إظهار نفسه أو إخفائها على طريقته. ولكن حين خمدت النار تفرقت حلقات الناس المتشابكة بعضها عن بعض وبدأت تزحف في مجموعات كبيرة وصغيرة باتجاه المدينة الصغيرة حيث كانت في انتظارها في مبنى البلدية وفي بعض المطاعم أبواق وكمنجات. كنت أتسكع باستمرار وسط الزحام، والآن أمتعني وسرني وهج النار المنطفئ الذي كان يرقص من حوله هكذا على غير هدى، إضافة إلى بعض الصبيان، أولئك المقنعون مشوهو الأشكال. فقد ظهروا بقمصانهم المرفرفة وقبعاتهم الورقية العالية كالأشباح الذين انشقت عنهم الأنقاض والأسوار. بعضهم كان منهمكاً بعد قطع النقود التي كانوا تلقفوها من الناس؛ وآخرون جهدوا لإخراج قطعة خشب متفحمة من كومة النار، ولكنني رأيت واحداً منهم وهو يؤدي أكبر القفزات وأكثرها مجوناً وحسبته صبياً لا قيمة له ولا فائدة منه، والآن ظهر بعد إماطة القناع عن وجهه في هيئة شيخ صغير أشيب وقد انشغل بتعذيب نفسه بتسرع ملحوظ بقطعة من حطب الشربين كان الدخان يتصاعد منها.

أعرضت أخيراً عن هذا كله ومشيت ببطء في اتجاه آخر، متردداً، هل أعود إلى البيت أم أولي وجهي شطر المدينة الصغيرة؟ كان من شأن معطفي والسيف والقوس والنُشاب أن عاقت حركتي منذ فترة طويلة؛ فوضعتها كلها

تحت ذراعي، وحين نزلت بخطىً أسرع من الأرض المشاع شعرت بالنشاط والإقبال على الحياة كما في فترة الصباح الباكر وكلما طال بي المشي قويت في نفسي تلك الرغبة الجريئة للتسكع هكذا على غير هدى طوال الليل كما تعاظم في الوقت ذاته الندم على أنني استغنيت عن آنَّا بهذه السهولة. توهمت أنني تماماً الرجل المناسب لاصطحاب حبيبة طوال ليلة احتفالية عامرة بالرقص ورنين الكؤوس والدعابة. فلمت نفسي أشد اللوم على تضييعي اليوم الوحيد بطريقة مفتقرة إلى المهارة والعزيمة وتخيلت في الوقت ذاته أن آنَّا أيضاً تعاني ما أعانيه وأنها تحن إلي بأرق شديد؛ فالوقت تجاوز الساعة التاسعة ليلاً.

من حيث لم أدرِ وصلت إلى البقعة التي كانت تدوي بالموسيقى وحين دخلت إلى الصالة المزدحمة بالناس الراقصين أزواجاً أزواجاً، زاهين متألقين، ازداد خفقان قلبي امتعاضاً وتأججاً؛ لم أورد في الحسبان أننا كنا الوحيدين بعمر السادسة عشرة، اللذين ظهرا في ناد علني عام؛ كما لم أورد في الحسبان أيضاً أن معايشاتنا في ذلك اليوم أجمل بعشر مرات من كل ما استطاع هذا الشباب الصاخب أن يتمتع به هنا وأنني ينبغي حين أعيش في ذكرى معايشاتنا الجميلة أن أشعر بغنى نفس وسعادة كافيين. لم أر سوى فرحة البالغين والمخطوبين والمستقلين وتطاولت على حقهم دون أن ألاحظ قط أن نفسيتي المتباهية المغرورة، إذا ما كانت آنَّا بجانبي فعلاً، غدت من جديد في الحال أليفة ومكبوحة الجماح. من غير اللائق بي أيضاً أن يكون الأمر بحاجة إلى حضورها الشخصي بشحمها ولحمها لكي أرجع إلى تواضعي. ولكن حين رحب بي بكل جرأة وشجاعة أبناء خالي وأصحابي ظناً منهم أنني ضائع وجروني إلى غمرة الأحداث، بهرني نور الفرحة إلى حد أنني نسيت نفسي وامتعاضي وصرت أرقص مع بنات خالي الثلاث واحدة تلو الأخرى. ازددت باطراد سخونة دون أن أشعر بالرضا والارتياح؛ فالسرور الذي أحدث إجمالاً ضجة كبيرة سرى في أوصالي بالتفاصيل ببطء ورزانة شديدين. وفي حين كانت وجوه جميع الشبان تشع بالفرحة، بدا لي أن هذه

الفرحة لم تتعدَّ كونها وميضاً باهتاً مقارنة بالتلألؤ الذي كان استيقظ في مخيلتي. باطراد وقلق عرجت على بعض الحانات التي كانت بجوار الصالة فاستوقفني هناك جمع من الفتيان الذين كانوا يحتسون نبيذاً أرجواني اللون ويغنون في أثناء ذلك. هنا بدا أن حنيني وجد أخيراً هدفاً له؛ شربتُ من النبيذ البارد، الذي لقي لونه الجميل إعجاباً شديداً من عينيَّ ثم بدأت أغني بلهفة وحماس. وما كادت أغنية أن تنتهي حتى بدأت بأغنية أخرى وأسرعت في الإيقاع وعلا صوتي في بعض المقاطع المعبِّرة بحيث ما لبث أن ارتفع في الحال فوق أصوات الباقين. وكون الفتيان استغربوا من أن مطأطئ الرأس من أهالي المدينة يجيد الشرب وإحداث الضجة أكثر منهم، فإنهم رفضوا أن يتخلفوا عنه؛ حفز بعضنا بعضاً، فغنيت وغنيت دون انقطاع إلى أن لاحظت، لدى جولة غناء وجب علي في أثنائها أن ألوذ بالصمت، أن كل بنات خالي كن ينظرن إلي من ثقب الباب مندهشات لرؤيتي جالساً وأنا في أوج أبهتي وأمجادي. ضحكن لي تحبباً وأومأن مهددات لأنني لم أنضم إلى مجلسهن ثم طلبن مني أن أرقص من جديد. كنت في تلك الأثناء رجلاً مرموقاً وذا مكانة مرموقة بين رفاقي، تماماً كما كنت ذات مرة صبياً ذا شأن وقمت لفترة طويلة بدور صاحب الجاه والشهرة؛ وحين أخذ بعض الرفاق من هؤلاء يبحثون من جديد عن فتيـــات ليتخذوا منهن صديقات، انطلقت بصحبة صبيين جامحين لكي نطوف في أرجاء المدينة الصغيرة. ذراعاً بذراع اندفعت راكضاً مع أبناء الفلاحين الأصحاء عبر الشوارع؛ تبادلنا تقديم الأقوال المأثورة إثارة للضحك والدعابة، غنينا وشعرنا بالارتياح الذي ينجم عن توحد أناس متغايرين وسرورهم.

ولكن في بيت الرقص التالي، الذي دخلنا إليه، ضيعت أصدقائي الجدد واحداً تلو الآخر، إذ إنهم ربما وجدوا هناك ما كان سبق لهم أن بحثوا عنه في حين تابعت أنا وحدي ومن دون توقف تجوالي على غير هدى. هنا وهناك كنت أشاهد للحظة ما كان يحدث وأرد دونما تلكؤ أو إبطاء على ما كان يوجه إلي من دعابات إلى أن دخلت إلى حجرة كان يجلس فيها على طاولة مستديرة

ضخمة أربعة من إخوة الرحمة،واثنان سبق أن ارتدا واختفيا؛ الأربعة الذين مكثوا هنا كانوا خلفوا وراءهم ثملة ثانية وحضروا في تلك الأثناء في ذلك الوضع من التكاسل والخمول، الذي يسفر عند ندماء محنكين عن يوم يعج بالمرح والحبور وتروى فيه نكات مريبة ويشرب النبيذ بحيث لا يُدفع المزيد من النقود ولكن مع تحاشي ألاَّ تضيع أخيراً أي قطرة سدى.

على بعد قليل من إخوة الرحمة كانت تجلس على الطاولة ذاتها يوديت، وطبقاً للتقاليد المتبعة كان سبق أن قدموا لها كأساً. لقد بدا أنها كانت هي وحدها لافتة الانتباه وعرضة للتعليقات في المهرجان فكان إذاً من المستحسن أن ترد بقوة وبديهة حاضرة على كل نكات هؤلاء الرجال ومقالبهم وتوقفهم عند حد الاحترام، الأمر الذي تطلب قدراً لا يستهان به من المرونة والطلاقة والقوة. كانت تجلس هكذا بالمثل باسترخاء وارتياح مسندة ظهرها إلى الكرسي ونصف مائلة في جلستها وترمي بردودها العنيفة بثقة ورباطة جأش. كان الرهبان، إخوة الرحمة، قد انتزعوا لحاهم المصنوعة من الشمع وغسلوا أنوفهم التي كانوا لونوها من قبل؛ فقط الأكبر سناً من بينهم، الذي كان في طريقه إلى الصلعة وله أنف ناري طبيعي، كان لا يزال يتباهى بدرجة الاحمرار العالية لأنفه. كان هذا هو الأخ الأقل فائدة، وحين أردت أن أمر بجانبه ناداني: "انتبه أنت، أيها الغراب! إلى أين أنت خارج؟" وقفت بهدوء وأجبته: "أيها الصديق الطيب! نسيت أن تمسح عن أنفك التلوين الأحمر البرتقالي أسوة بإخوتك الآخرين! أريد أن ألفت انتباهك إلى ذلك لئلا تلوث وسادتك باللون الأحمر".

سرعان ما ضمني ضحك الباقين إلى تحالفهم السعيد؛ فكان علي أن أجلس إلى جانبهم وأقبل منهم كأساً من النبيذ ثم قالوا إثر ذلك: "ومع ذلك هل تصدقون أن هذا الصبي يرى أن من الضروري طلي أنفه بالأصباغ في هذا اليوم؟". أجبت: " كان هذا بالطبع ينم تماماً عن حماقة مماثلة لطلي وردة بالأصبغة! ".

قال آخر: " ثم إنه أيضاً أكثر خطورة، لأنك إذا ما طليت وردة فمعنى ذلك أنك تريد أن تدخل على صنع الله تحسيناً والله على استعداد للغفران! أما أن تصبغ أنفاً أحمر فهذا يعني أنك تسخر من الشيطان، والشيطان لا يغفر!".

واستمر الحوار على هذا النحو. فقد تطرقوا الآن إلى الحديث عن صلعته، في حين لذت أنا بالصمت وابتعدت عنهم، فرووا عن موضوع الصلع وحده عشرين نكتة متنوعة كان من شأنها أن أثارت في المخيلة أكثر التصورات إضحاكاً وتفوقت الواحدة منها على الأخرى في الجدة والجرأة. يوديت ضحكت حين انقض عديمو النفع بعضهم على بعض بالسخرية والاستهزاء، وحين رأى المتعرض للهجوم ذلك المشهد حاول إنقاذ نفسه من النار بالتوجه إلى مهاجمتهم. كانت يوديت ترتدي ثوباً بسيطاً بني اللون وقد غطت صدرها بشال أبيض كان من شأنه أن أمكن قليلاً من رؤية عنقها الرائع في جماله؛ وحوله وُضعت قلادة ذهبية ناعمة، إلا أنها تاهت غائبة في ثنايا الشال؛ فيما عدا ذلك لم تُبدِ أي زينة أخرى سوى شعرها البني الجميل. الرجل الأصلع رمش بعينيه وأخذ يغني:

" يا حبيبتي ، حول عنقك الأبيض

يتهادى خيط من بريق خافت،

وينحدر إلى صدرك

أدخليه إلى قلبك المزيف!"

يوديت ردت عليه بسرعة: " لكي تنسى عنقي الأبيض، أريد أن أتلو على مسامعك أغنية تحكي عن شيء أبيض!" ولم تغنِّ، بل ترنمت بكلمات الأغنية ببساطة بنغمات عذبة:

" إنه لزمن رديء!

لونا، الفتاة الطاهرة ذات مرة،

تغازل على رؤوس آثمين مسنين

في وضح النهار وتسخر منا نحن الأطفال المساكين.

استحِ، يا ضوء القمر!

فتحت النافذة

في ليلة مظلمة وبحثت عن مسيرة لونا؛

فرأيتها تسطع بوقاحة على عتبة بيتي،

صببت الماء بعنف على البقعة البيضاء.

استحِ، يا ضوء القمر! "

كانت أم يوديت متوفاة، أما هي فقد سبق لها منذ ذلك الحين أن ربحت في يانصيب أجنبي عدة آلاف غولدن لأنها كانت تنشغل بأمور كهذه نتيجة للملل. وهكذا بدت الآن أكثر من أي وقت مضى لقمة سائغة لقطاع الطريق، المتمرسين منهم والهواة على حد سواء؛ والرجل الأصلع، بعد أن منحته وهي تضحك قروضاً متعددة، كان يظن أن باستطاعته اقتحامها والاستيلاء عليها ولكنها ردته على أعقابه وهي تضحك أيضاً. غير أن الأغنية الواردة آنفاً بدت وكأنها تلمح إلى مغامرة وخيمة العواقب قام بها في أثناء بحثه عن زوجة له. لأن الثلاثة الباقين نظروا بكتمان شديد بعضهم إلى بعض وبعيون تطاير منها الشرر وأفواه مكظومة، في حين بدؤوا بصوت هامس يدندنون:

" همّ! همّ! – همّ! همّ! همّ!

همّ! همّ! همّ! – همّ! همّ! همّ!

إيقاع هذه الدندنة كان مغوياً إلى درجة أنني صرت أشارك فيها وأحسست بسعادة تبعث على الاعتزاز من جراء تمكني من الغناء مع الساخرين: همّ همّ همّ! - همّ همّ همّ! – وخيم الهدوء والمهابة في الحجرة المضاءة بنور خافت، وبارتياح مهيب تابعنا أداء الإيقاعات الغريبة. يوديت أطلقت ضحكة رنانة ثم قالت: " يا لكم من أطفال حمقى! " فتفجر الضحك عالياً من أعماقنا: "ها ها ها! – ها ها ها!".

ولكن المتهكَّم عليه جال ببصره في أرجاء المكان ثم سحب فجأة من ثوب الراهب الأكثر تهكماً قصاصة ورق كانت تطل من جيبه ثم قرأ عنوانها: "البشيرة الأسبوعية المسيحية، جريدة شعبية محافظة. " هنا انصب التهكم على الشخص المفاجأ الذي تجلت نقطة ضعفه في نزعته المحافظة، التي عجز عن شرحها بما يقنع وعن الدفاع عنها أيضاً. هذه التسمية لم تُطرح في التداول إلا منذ بعض الوقت وتمكنت من بعض الناس الذين كانوا قبل ذلك يحومون في الضبابية. هنا طلب الأصلع من ذي النزعة المحافظة أن يفصح عما يعنيه حين يزعم أنه كذلك. فأراد هذا أن يظهر أنه لا يقبل مزاحاً في أمر كهذا وأبدى بكل جد وحزم رغبة في ألا يخوض نقاشاً سياسياً! ولكن واحداً آخر قال: " شرح هذا المصطلح يجب البحث عنه في الجنة! فحين أعطى آدم للحيوانات أسماءها كان بينها حيوان أخذ يحرك أذنيه بتأمل وتفكير معلناً أنه محافظ النزعة، ولكنه لم يستطع أن يعلن أي سبب لذلك فقال آدم: ينبغي أن تسمى حماراً!" فأفصح هذا غاضباً عن دافعه الفعلي، الذي كمن في أعماقه وبنى عليه أوهامه، فاتهم التطرف بأنه خلَّل النبيذ ورفع سعره. إذا ما أراد المرء أن يشرب كأساً حلوة ورخيصة فلن يجدها إلا حصراً في الحانات النائية المنعزلة وعلى نهج الآباء والأجداد إلى حيث يتسلل الطاعنون في السن لكي يتواروا عن أعين العالم. ثم صرخ: "اشربوا منظف البلعوم المتطرف من عند مضيفيكم، أصحاب الحانات السياسيين الشهيرين! أنا متضامن مع القديم المتخلف!" لكن بما أن شيئاً من الحقيقة كان يكمن في هذا التأنيب، فقد استشاط الثلاثة الباقون بدورهم غضباً متهمين ذلك المحافظ النزعة بالافتراء وساعين إلى أن يبرهنوا له عن أنه لولا التطرف لما تمكن حتى من شم رائحة النبيذ، لا الجيد منه ولا الرديء؛ وأنه هو ذاته – بوصفه خادماً لحزب محافظ – زائد عن اللزوم وسيلقى ركلة تحت الظهر من قبل الرعيل القديم بدلاً من جرعة النبيذ المقوية من قبل المؤلفة قلوبهم. أدى ذلك إلى نشوب عراك حامي الوطيس قلل فيه السادة بالتناوب من قيمة مبادئهم ووقائعهم وقادة أحزابهم وذلك بتعابير ومقارنات وأقوال متلاحقة متتابعة يعجز أي كاتب مسرحي

بالإتيان بما يتفوق عليها في مشاهده الشعبية من حيث صوابها وتميزها؛ لم تكن أقوالهم قابلة حتى للنقل، وبمنتهى البساطة وبسرعة البرق انبثقت النكات من المقومات التي ابتُكرت حقيقية وصحيحة حيناً وشريرة حيناً آخر، ولكنها تعلقت في كل الأحوال بالأوضاع والأشخاص موضوع الحوار. صحيح أنه تعذر انتهال مقالة افتتاحية أو خطبة من هذه المنازلة؛ ولكن مع ذلك تيسر للمرء أن يرى أي نقد لاذع يمارسه الناس كل بطريقته وكم يخدع نفسه ذلك الذي يفترض، وهو يدعو من على منصة الخطابة "الشعب الطيب الأمين" إلى غايات مريبة، افتتاناً جارفاً، بدائياً وخيِّراً، إلى أبعد الحدود. وحتى مظاهر الأمور وسطحياتها، ظواهر التعود، العاهات الجسدية، كل ذلك رُبط في سياق مع كلمات رجال مرموقين وتصرفاتهم إلى حد أن الأخيرة بدت وكأنها لا تزيد على كونها نتيجة حتمية للأولى، وظن الناس أنهم يرون في بعض أبناء الشعب من غير ذوي العلم، بل من ذوي الخيال الواسع، أكثر العلماء في مجال دراسة تعابير الوجه وتفسيرها تمسكاً بالعقائد والمبادئ. ورب رجل مرموق حُول هنا إلى غول مضحك أو مخيف إلى درجة أن الناس توهموا أنهم رأوه بشحمه ولحمه، وحتى الدفاع عن هذا الرجل حمل في طياته بعضاً من الإذلال عنده لو أنه سمعه.

كنت هنا في عالم مختلف تمام الاختلاف عن عالم المعلم؛ ومع ذلك فقد شعرت على الفور كما لو أنني بين أهلي وأقاربي وارتشفت الأقوال العنيفة واللامبالية والخواطر الساخرة والجامحة بإصغاء مماثل للإصغاء إلى كلمات والد آنَّا المنتقاة الهادئة. هناك بدوت لنفسي إنساناً آخر وهنا أيضاً إنساناً آخر ومع ذلك دائماً الشخص ذاته. وسرني أن حياتي فتحت أمامي جانباً تلو الآخر، وكنت فخوراً بتصوري أن هؤلاء الرجال المرحين عدّوني جديراً بالانضمام إلى مجلسهم ولم يتورعوا عن رواية نكاتهم بحضوري. وأمتعني تفكيري في المعلم ورغبتي مستقبلاً في الحوار معه بجدية وأمانة، في الوقت الذي وسعت فيه معلوماتي عن أشياء أخرى؛ إذ بدا لي أمراً مهماً أن يتيسر لي الحضور في كل الأمكنة والإحاطة بكل الأشياء.

الفصل الثامن عشر

يوديت

كانت السياسة والحديث عنها قد أعادت إلى إخوة الرحمة صلابتهم وحيويتهم فطلبوا ملء الزجاجات من جديد، بالرغم من مضي وقت طويل على انقضاء منتصف الليل، وإذا يوديت تتأهب للرحيل وهي تقول: "ينبغي الآن على النساء والصبيان الذهاب كل إلى بيته! ألا تريد أن تأتي معي يا ابن خالي، ما دامت طريقنا واحدة؟" قلت: نعم، ولكن لا بد لي قبل ذلك من البحث عن أقاربي الذين قد يأتون معنا. فردت يوديت: "ربما ذهبوا، فالوقت أصبح متأخراً: ولولا أنني عولت على إمكانية الذهاب معك، لكنت غادرت هذا المكان منذ وقت طويل". هنا تدخل الندماء في الحديث: "أوهو! كما لو أننا لسنا موجودين! نحن كلنا على استعداد لمرافقتك! لا يجوز أن يقال إن يوديت ينقصها مرافقون تختار منهم من تشاء!" ثم نهضوا واقفين متكفلين باحتساء ما تبقى من النبيذ الجديد، في حين أومأت يوديت إلي وقالت لدى وصولها إلى الممر: "سوف ندبر مقلباً لهؤلاء الكفار الأربعة!". حين بلغت الشارع رأيت أن الصالة التي مكث فيها أولاد خالي وبناته كانت مظلمة، وأكد لي أناس كثيرون عودتهم إلى البيت. وهكذا كان لابد لي من أن ألحق بيوديت حين قادتني عبر زقاق جانبي صغير مظلم إلى العراء وعبر بضع دروب حقلية إلى الطريق الزراعي، بحيث سبقنا الرجال الأربعة وصرنا نسمعهم ينادون وراءنا. وكوننا كنا نحث الخطى، فقد مشينا بضع مسافات جنباً إلى جنب؛ توقفت بتثاقل في

حين لم تفقد أذني أي صوت لخطوتها الثابتة والخفيفة وكم كنت أشتهي سماع حفيف ثوبها الهادئ. كان الليل مظلماً، ولكن كان من شأن الأنوثة والثقة والوفرة في طبيعتها أن غمرتني من كل جوانب شخصيتها بنشوة غامرة بحيث كان لابد لي في كل لحظة من النظر إليها بطرف عيني تماماً مثل متجول خائف يمشي إلى جانبه شبح في حقل. وكما يوقظ المتجولُ وهو في غمرة خوفه وعيَه المسيحي لكي يحميه من المرافق المخيف، فقد حملتُ في نفسي في أثناء المشية المغوية كبرياء دينية قائمة على الهشاشة والعصمة. يوديت تحدثت عن الرجال بسخرية واستهزاء وحكت لي بارتياح عن الحماقات التي ارتكبها أحدهم ضدها، ثم سألتني ما إذا لم تكن لونا إلهة قديمة للقمر؟ على الأقل هكذا كانت تظن دائماً حين كانت تقرأ تلك الأغنية في أحد الكتب؛ لقد استحق هذا الوغد ردها عليه بأغنية لونا. بعد ذلك سألتني يوديت فجأة لماذا غدوت مترفعاً إلى هذا الحد ولم أعد أراها منذ مدة طويلة وامتنعت عن زيارتها؟ أردت أن أعتذر عن ذلك بقولي إنها لا تختلط بأسرة خالي ولذلك لا أجد، من باب اللياقة، أي داع لأن أراها.

قالت: "هكذا اذاً! أنت ابن خالٍ لي بنفس الرتبة والمرتبة ويحق لك شرعاً وقانوناً أن تزورني في بيتي حينما تشاء! من قبل، حين كنتَ لا تزال صغيراً، كنتَ تحبني وكنت أنا أيضاً أحبك قليلاً، أما الآن فلك حبيبة أنت مغرم بها وترى أنه لا يجوز لك أن تنظر إلى أي امرأة سواها!".

قلت: "أنا لي حبيبة؟" وحين كررت زعمها هذا وذكرت آنّا بالاسم، أنكرتُ الأمر انكاراً مطلقاً. كنا وصلنا من حيث لا ندري إلى القرية، التي كانت لا تزال الأصوات فيها تعلو ويتسكع الشباب فيها عبر الأزقة. كانت يوديت ترغب في أن تحيد عن طريقهم، وعلى الرغم من أنه يحسن بي أن أذهب وشأني فإنني لم أُبدِ إزاء يوديت أي مقاومة بل تبعتها من غير إرادة حين أمسكتني من يدي وقادتني بين الأسوجة والجدران عبر فوضى من الظلام لكي نصل إلى بيتها دون أن يرانا أحد. سبق ليوديت أن باعت حقولها

ولم تُبق إلا على حديقة أشجار جميلة بجانب البيت الذي أقامت فيه وحدها. كان النبيذ المحتسى قد رفع وتيرة الهيجان الذي اعتراني حين كنا نتسلل عبر الدروب الضيقة، وحين قالت يوديت لدى وصولنا إلى البيت: "ادخل معي، أريد أن أعد قهوة لنشربها معاً!". ودخلتُ وأقفلتِ الباب خلفنا، توجس قلبي خيفة غامضة في حين سررت بالمغامرة وغمرني شيء من الغرور وتجاسرت على القيام بها مع صون كرامتي، لكن بجرأة وجسارة. في تلك الأثناء لم تخطر آنًا ببالي، إذ عتم دمي الغليان على صورتها ولم يترك إلا نجم غروري يلتمع؛ لأنني، بعد تبصر وتدبر، أردت فقط من أجلي أنا ذاتي أن أجرب صمودي. ولكن يجوز أن أعترف لنفسي أن شعوراً بالواجب رومانسياً هو في واقع الأمر ما دفعني إلى ألاَّ أتهرب من تجربة غريبة. والهيجان المخيف الذي كان ألم بي تلاشى حالما أشعلت يوديت النور وأجّجت ناراً مضيئة. جلست على الفرن وتجاذبت معها بسرور ومتعة أطراف الحديث، وفي حين كنت أنظر باستمرار إلى وجهها المضاء بالنور ظننت أنني أستطيع بكل فخر وكبرياء أن ألعب بالخطر ثم استرجعت حالماً وضع الأمور حين كنت قبل عامين من الزمن أفك جدائلها وأجدل شعرها. بينما كانت القهوة تغلي مغنيةً، دخلت يوديت إلى الغرفة لكي تزيل الشال عن عنقها وتخلع لباس الخروج الخاص بيوم الأحد ثم عادت بثوب داخلي أبيض عارية الذراعين ومن ثوب الكتان الأبيض كالثلج تكشف كتفاها عن جمال أخاذ. وعلى الفور غدوت مضطرباً ومرتبكاً؛ وشيئاً فشيئاً فحسب وأنا أنظر إليها بعينين ثابتتين دون أن أحول نظري عنها هدأت نظرتي المتلألئة ووجدت سكينتها ومستقرها في الصفاء الهادئ لهذه القسمات. كنت رأيتها وأنا صبي مرة أو اثنتين بهذا المظهر حين لم تُعر لي انتباهاً في أثناء ارتدائها ملابسها، ومع أن رؤيتي اختلفت الآن عما كانت عليه آنذاك فقد بدا هذا البياض الناصع على القدر ذاته من العصمة من كل معابة أو مأخذ؛ أضف إلى ذلك أن يوديت كانت تتحرك بثقة وحرية إلى حد أن هذه الثقة انتقلت إلي أيضاً. حين أُعدت

القهوة حملتها يوديت إلى الغرفة وجلست بجانبي، وحين فتحت كتاب التراتيل الذي أحضرته معها قالت: "انظر، لا أزال أحتفظ بكل الرسوم الصغيرة التي رسمَتها لي!" وأخذنا نتفرج على تلك الصور الصبيانية واحدة تلو الأخرى؛ خطوط تلك الفترة التي اتسمت بالافتقار إلى الثقة والنضج تراءت لي بمنتهى الغرابة مثل إشارات منسية من زمن غابر لا يعرف مداه. أدهشتني هُوى النسيان التي تقع بين سني الشباب القصيرة وتأملت الرسومات الصغيرة وأنا غارق في التفكير؛ وخط الكتابة أيضاً، الذي كتبت فيه الأقوال والحكم السائرة، كان مختلفاً تمام الاختلاف وكان كذلك أيضاً الخط الذي تعلمناه في المدرسة. المعالم الوجلة نظرت إلي بحزن وكآبة؛ يوديت أيضاً كانت تنظر طوال فترة من الزمن بكل هدوء إلى الرسم ذاته الذي جمعنا معاً ثم نظرت بعد ذلك فجأة إلى عينيَّ باقتراب شديد في حين أحاطت عنقي بذراعيها ثم قالت: "أنت مازلت على حالك باستمرار! بم تفكر الآن؟". أجبت: "لا أعرف" فتابعت تقول: "هل تعلم أنني أرغب في أن ألتهمك حين تسبح بخيالك هكذا على غير هدى!". ثم ألصقتني بها أكثر بينما كنت أقول: "لماذا بحق السماء؟". قالت: "أنا ذاتي لا أعرف تماماً ما السبب؛ ولكن من الملل بمكان بين الناس أن يكون المرء في الغالب مسروراً إذا ما تيسر له أن يفكر في شيء آخر؛ أرغب في أن يتيسر لي ذلك أيضاً، ولكنني لا أعرف كثيراً وأبقى دائماً في التفكير ذاته على الرغم من أن شيئاً مجهولاً يدور في رأسي؛ حين أراك تندهش، يتراءى إلي كما لو أنك تفكر تحديداً في ما أرغب أنا في التفكير فيه؛ أعني دائماً أنه لمن المريح أن يتنزه المرء مع أفكارك الخفية في الآفاق البعيدة!". لم يسبق لي أن سمعت قط كلاماً من هذا النوع؛ ومع أنني تحققت من أن يوديت لشد ما أخطأت الظن بي لمصلحتي في ما تعلق بأفكاري الخفية واحمرت وجنتي خجلاً بحيث ظننت أن احمرار وجنتي المتوهجة لابد أن يلهب كتفها الأبيض الذي اتكأت عليه. هكذا امتصصت برغبة جامحة هذه المجاملة كلمة فكلمة واستقرت عيناي في أثناء ذلك على ارتفاع الصدر، الذي علا بهدوء ونقاء من

ثوب الكتان النظيف ولمع في مقربة مباشرة من ناظري كالموطن الأزلي للسعادة. يوديت لم تعرف أو على الأقل لم تعرف تماماً أن صدرها ذاته جمع الآن بين الهدوء والذكاء والحزن، لكن السعادة أيضاً. شعرت آنذاك بأنني خارج نطاق الزمن؛ كنا في تلك اللحظة متساويين في العمر، صغاراً كنا أو كباراً ، واعتراني شعور كما لو أنني الآن أستبق الهدوء والسكينة لكل ما سيأتي فيما بعد من الألم والجهد. أجل هذه اللحظة بدت بكل وضوح وتأكيد حاملة تسويغها في ذاتها بحيث إنني حتى لم أفزع حين أخرجت يوديت، وهي تقلب صفحات كتاب التراتيل، ورقة مطوية ثم فتحتها وأرتنيها وكان مني بعد طول تمعن وتفكير أن تعرفت فيها رسالة الحب التي كانت مكتوبة وموجهة مني إلى آنَّا وسبق قبل سنين أن سلمتها ذات مرة إلى أمواج النهر. قالت يوديت: "ألا تزال تنكر أن هذه الطفلة الطيبة هي حبيبتك؟". فأنكرت ذلك للمرة الثانية عبثاً ومجوناً وأعلنت أن الرسالة ما هي إلا ولدنة طواها النسيان.

في تلك اللحظة نادت أصوات من أمام البيت عرفنا أنها أصوات أولئك الرجال الأربعة. وعلى الفور أطفأت يوديت النور وجلسنا في الظلام، ولكن الرجال الذين كانوا أمام البيت رغبوا مع ذلك في أن يسمح لهم بالدخول فنادوا بأعلى أصواتهم: "افتحي لنا الباب يا يوديت الجميلة وقدمي لنا فنجاناً من القهوة! نريد أن نتصرف معك بطريقة شريفة ونتحدث معك كلمة معقولة! ولكن افتحي لنا الباب تعويضاً لنا عن أنك ضحكت على ذقوننا فلم نستطع اقتفاء أثرك؛ نحن الآن نحتفل جميعاً بأعياد الكرنفال ويحسن بك دونما تعرض لأي أخطار أن تقومي مرة بخدمة الزملاء الأربعة، أجدر من في البلاد بالشهرة والجاه!".

ولكننا احتفظنا بهدوئنا التام؛ قطرات مطر ثقيلة ضربت على ألواح الزجاج، ومن بعيد برقت ورعدت فأوحى صوت البرق والرعد كما لو أننا في شهر أيار أو حزيران. ولكي يُخضعوا يوديت أنشد الرجال بعناية منافقة أغنية بأربعة أصوات وبذلوا جهداً كبيراً في جعل غنائهم جميلاً قدر المستطاع وكان

من شأن وضعهم المراقَب أن أضفى على أصواتهم فعلاً تهدجاً يثير العطف. حين لم تُجن من ذلك أي فائدة بدؤوا يقذفون الشتائم والسباب، وتسلق أحدهم الحائط الشبكي إلى النافذة لكي يرى ما في الحجرة المظلمة. لاحظنا تماماً قلنسوته المدببة التي كان ارتداها على رأسه؛ في تلك اللحظة أضاءت الحجرة فجأة لمعةُ برق فاستطاع الرجل المستطلع أن يعرف يوديت من لباسها الأبيض.

ونادى بصوت منخفض زملاءه من النافذة: " الساحرة الملعونة تجلس معتدلة وحيوية إلى الطاولة!"؛ فقال آخر:" دعني أرَ!" لكن في أثناء حلول الثاني محل الأول وعودة الظلام إلى الحجرة تسللت يوديت بسرعة إلى سريرها ثم تناولت غطاءه الأبيض ورمته على الكرسي وسحبتني إثر ذلك بهدوء إلى السرير الذي تتعذر رؤيته من النافذة. وحين أضاء الحجرةَ بكل وضوح لمعانُ برق ثان أقوى من الأول، قال الرجل الذي وجه عينيه كبندقية مزدوجة الماسورة إلى الكرسي: "ليست هي، بل ثمة قماش أبيض منتشر على الكرسي؛ أدوات القهوة على الطاولة وكتاب التراتيل مُلقىً بجانبها. شيطان السماء هو في نهاية المطاف أكثر ورعاً مما يظن المرء!".

أما يوديت فقد همست في أذني: "لو أننا بقينا جالسين، لتمكن الوغد بكل تأكيد من رؤيتك!".

كان من شأن انهمار المطر بقوة ولمع الرق وقصف الرعد أن أدى إلى طرد المستطلع من حافة النافذة التي كان تسلقها ؛ سمعنا كيف كان إخوة الرحمة الأربعة ينفضونَ ألبستهم وكيف انفضّوا لكي يبحثوا في القرية عن مأوى لأنهم جميعاً كانوا بعيدين عن مواطنهم. وحين لم نعد نسمع منهم أي شيء، جلسنا فترة في السرير في هدوء تام منصتين إلى الصاعقة التي هزت البيت الصغير وجعلته يرتجف بحيث لم أستطع التمييز بين رجفاني الهادئ ورجفانه. ضممت يوديت إلى صدري لكي أتخلص من هذا الرجفان المقبض وقبلتها على فمها؛ فردت هي قبلتي بثبات ودفء؛ ولكنها سرعان ما أبعدت ذراعيَّ عن عنقها وقالت: "السعادة هي السعادة، ولا يوجد سوى سعادة واحدة؛

ولكنني لن أبقيك عندي بعد الآن إذا لم تعترف بأنك أنت وابنة المعلم متحابّان! لأن الكذب فقط هو ما يجعل كل شيء سيئاً!".

من دون أي تحفظ بدأت الآن أروي لها كل القصة من البداية إلى النهاية، كل ما حدث بيني وبين آنَّا بالتمام والكمال وربطت الوصف البليغ لشخصها مع وصف المشاعر التي كنت أحس بها حيالها. ورويت أيضاً بكل دقة قصة هذا اليوم وشكوت ليوديت ألمي فيما تعلق بالنفور والجفاء، اللذين غالباً ما حدثا بيننا. وبعد أن أسهبت في سردي وشكواي لفترة طويلة لم تُجب يوديت على شكاواي بل سألتني: "وكيف تفسر في حقيقة الأمر وجودك عندي الآن؟". لذت بالصمت باحثاً عن كلمة وأنا في وضع حرج من الاضطراب والخجل ثم قلت أخيراً بتردد وارتباك: "أنتِ التي أخذتني معك!" فردت علي: "صحيح، ولكن هل تقبل بأن تأتي أيضاً مع أي امرأة جميلة أخرى إذا ما أغوتك ودفعتك إلى ذلك؟ فكر في هذا الأمر!". فكرت فعلاً وقلت بعد ذلك بنبرة قاطعة: "كلا، ولا مع أي امرأة!" فتابعت تقول: "إذاً أنت تحبني نوعاً ما؟". عند ذاك وقعت في أكبر حيرة وارتباك؛ فإذا ما رددت عليها بالإيجاب، هكذا كنت أشعر بكل وضوح، فسوف أكون ارتكبت أول خيانة فعلية في حياتي؛ ومع ذلك حين حاولت التفكير بصدق وأمانة لم أستطع الإنكار. وأخيراً لم أستطع قول شيء آخر غير: "أجل، لكن ليس كما أحب آنَّا!" قالت: "كيف؟". فضممتها بقوة وعنف وصرت أداعبها وأتزلف إليها متابعاً قولي: "أصغي إلي! من أجل آنَّا أريد أن أتحمل كل شيء وأطيع كل إشارة؛ أريد أن أكون لها في المستقبل زوجاً لطيفاً ومخلصاً ومنطوياً في كل شيء على النقاء والشفافية بحيث تستطيع هي أن تسبر غوري كقطعة من الكريستال؛ لن أفعل شيئاً دون أن أذكرها وسأعيش إلى الأبد مع روحها حتى ولو أنني لن أراها بعد الآن من هذا اليوم فصاعداً! بينما لن أستطيع أن أفعل كل هذا من أجلك أنت! ومع ذلك أحبكِ من كل قلبي وإذا ما طلبتِ برهاناً على حبي لك أن أسمح لك بغرز سكين في صدري فسوف أرضى بذلك بكل هدوء في هذه اللحظة وأجعل دمي يسيل في حجرك!".

وسرعان ما اعتراني الذعر جراء هذه الكلمات واكتشفت في ذات الوقت أنها ليست أقل من كلمات مبالغ فيها، لا بل طبقاً للشعور الذي كنت أحس به منذ الأزل من حيث لا أدري إزاء يوديت.

توقفتُ فجأة عن مداعباتي لها، لكنني أبقيت يدي على خدها وفي هذه اللحظة أحسست بدمعة تسيل فوقها. في الوقت ذاته تنهدت يوديت وقالت: "ماذا أفعل بدمك! – أوه! لم يسبق لرجل أن رغب في الظهور أمامي لطيفاً وشفافاً ونقي القلب، ومع ذلك فإنني أحب الحقيقة كما أحب نفسي ذاتها!".

قلت بأسىً وحسرة: "ولكنني لا أستطيع أن أكون عاشقاً جدياً لك ولا زوجاً؟". فردت علي:" أوه، أعرف هذا جيداً ولا يخطر ببالي أبداً!. أريد أن أقول لك أيضاً ماذا عليك أن تفكر في شأني! استدرجتك لتأتي معي، أولاً لأنني رغبت مجدداً في التقبيل قليلاً وذلك ما أريد القيام به أيضاً مباشرة فيما بعد وأجد فيك الشخص الملائم لذلك! ثانياً أردت أن أروضك قليلاً بصفتك صبياً متكبراً وثالثاً أجد متعة، نظراً إلى الافتقار إلى وجود رجل آخر، في أن أحب الرجل الذي يكمن فيك، كما أحببت أن أراك وأنت طفل." بهذه الكلمات أمسكت بي وبدأت تقبِّلني إلى أن تأجج في جسدي لهيب الدفء، ولكي أبرِّده تشبثت بشفتيها الرطبتين وقبَّلتها من جديد. حين قبَّلت آنَّا كان بدا لي كما لو أن فمي مس وردة حقيقية؛ أما الآن فقد قبَّلت فماً دافئاً مكتنزاً وتدفق النَفس البلسمي الغامض من داخل امرأة جميلة وقوية إلى داخلي بكامل جرعاته. تحسستُ هذا الفرق إلى حد أن نجم آنَّا ظهر في غمار التقبيل العنيف وتحديداً حين همست يوديت كأنما تتحدث مع نفسها: "هل تفكر الآن أيضاً في حبيبتك؟" قلت: "أجل، وسوف أنصرف في الحال!". وأردت أن أنتزع نفسي من بين ذراعيها. قالت وهي تبتسم: "انصرف اذاً!" لكنها فكت عني ذراعيها الطريين العاريين بطريقة غريبة بحيث آلمني أشد الألم أن أشعر بتحرري منها فتأهبت من جديد للارتماء بين ذراعيها فإذا هي تنهض وتقبلني مرة أخرى ثم تبعدني عنها وتقول بصوت منخفض: "اغرب عني فقد حان الوقت الآن لأن تذهب

إلى بيتك!". اعتراني الخجل وبحثت عن قبعتي ووليت هارباً إلى حال سبيلي فضحكت بصوت عال ولأياً استطاعت أن تلحق بي لكي تفتح لي باب البيت. حين أردت الانصراف همست تقول: "توقف! اخرج من الأعلى عبر حديقة الأشجار ودُر حول القرية قليلاً!". وأتت معي عبر الحديقة في ثوبها الخفيف الناعم على الرغم من انهمار المطر وهبوب العاصفة بقدر ما قدر للسماء أن تجود به. وقفت على السور بهدوء وقالت: "أصغ إلي! لا أرى في بيتي أي رجل البتة وأنت الأول الذي قبّلته منذ وقت طويل! ويطيب لي أن أبقى وفية لك، لا تسلني لماذا، لا بد من أن أجرب لوقت طويل وهذا يسرني. بالمقابل أطلب منك أن تزورني في كل مرة تكون فيها في قريتنا، أن تأتي إلي ليلاً وسراً؛ أما في أثناء النهار وأمام الناس فإننا نريد أن نتظاهر بأننا نكاد نريد أن يرى بعضنا بعضاً، أعدك بأنك لن تندم على ذلك، لن يحدث في العالم ما تفكر فيه وربما كذلك في علاقتك مع آنًا قد لا تتطور الأمور إلى ما يرام؛ سوف ترى كل ذلك بأم عينك؛ يكفي أن أقول لك إنك ستكون فيما بعد في غاية السرور بعد أن تأتي إلي!". فقلت بحدة: "لن أعود إليك أبداً!". قالت: "بست! أخفض صوتك". ثم نظرت إلى عينيَّ نظرة جدية بحيث رأيت عينيها على الرغم من العاصفة والظلام تلمعان، ثم تابعت تقول: "إذا لم تعدني وعداً مقدساً وبشرفك بأنك تريد أن تعود إلي، فسوف آخذك معي في الحال إلى سريري وأجبرك على النوم معي! أقسم بالله على ذلك!".

لم يخطر ببالي أن أضحك على هـذا التهديد أو أزدريه؛ بل وعدتُ، بقدر ما استطعت من السرعة، وأنا أصافح يوديت أنني أريد العودة إليها، ثم وليت هارباً.

مشيت دون أن أعرف إلى أين؛ لأن المطر الهاطل بغزارة أراحني؛ وهكذا خرجت في الحال من القرية وأتيت إلى مرتفع تابعت فوقه المشي. طلع الصباح وألقى ضوءاً ضعيفاً في العاصفة؛ لمت نفسي أشد اللوم وأحسست بالإحباط والذل، وحين أبصرت فجأة البحيرة الصغيرة وبيت المعلم على

مقربة من قدميَّ، ولكن كان من الصعب تعرّفهما من جراء من الغاشية المعتمة من المطر والفجر، سقطت حينذاك على الأرض مرهقاً وانهمرت دموعي بصورة يرثى لها.

استمر المطر ينهمر عليّ وهبات الريح اندفعت تملأ الأجواء صفيراً وتولول ببؤس في الأشجار، كنت أبكي كالطفل؛ ولكن كما كانت تقضي اللياقة فإنني لم أُلقِ باللائمة على أحد غيري ولم يخطر ببالي قط أن أحمِّل يوديت أي وزر فيما حصل. أحسست بأن كياني منقسم إلى شطرين فكان علي أن أتوارى عن أنظار آنَّا لدى يوديت وأتوارى عن أنظار يوديت لدى آنَّا. عاهدت نفسي ألا أذهب إلى تلك وأن أخلف بوعدي لها؛ لأنني أحسست بإشفاق لا حدود له إزاء آنَّا، التي عرفت أنها تنام الآن بهدوء في الأعماق الرطبة المعتمة على مقربة من قدميَّ. وأخيراً استجمعت قواي ونزلت إلى القرية من جديد؛ كان الدخان يتصاعد من المداخن ويزحف في تشكلات سحابية غريبة عبر المطر؛ فكرت بتمعن أعمق ماذا يمكن أن اختلق في بيت خالي عن غيابي عنهم في الليلة الفائتة، مثلاً ضللت طريقي وصرت أتسكع طوال الليل. كانت تلك المرة الأولى منذ سني الطفولة العصيبة، التي اضطررت فيها إلى الكذب من جديد لغاية في نفسي؛ فطوال سنين عديدة لم أعد أعرف ما الكذب، وهذا الاكتشاف جعلني أشعر تماماً كما لو أنني طردت من حديقة جميلة كنت فيها ضيفاً لفترة طويلة من الزمن.

*   *   *



الفتى هاينريش

الجزء الثالث


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الأول

العمـل والتـأمـل

نمتُ بعمق ومن دون أحلام حتى وقت الظهيرة؛ وحين استيقظت كانت رياح الجنوب الدافئة ما تزال تهب والمطر ما يزال يهطل. نظرت من النافذة ورأيت الوادي صعوداً ونزولاً ومئات الرجال يعملون عند الماء لكي يقيموا السدود لأن الثلوج التي في الجبال كان لا بد لها من أن تذوب وكان من المتوقع حدوث فيضان كبير. كان النهر الصغير يهدر بمياهه بقوة ولذلك أصبح رمادياً ضارباً إلى الصفرة؛ أما على بيتنا فلم يكن ثمة أي خطر لأنه كان يقع على فرع جانبي من النهر أحكم سدّه، غير أنه كان يدير الطاحون؛ كل الرجال كانوا خرجوا لحماية المروج، فجلست إلى المائدة مع النساء. وفيما بعد خرجت أنا أيضاً إلى العراء ورأيت الرجال يعملون أيضاً بنشاط وهمة وحزم مثل إصرارهم يوم أمس على التمتع والفرح. كانوا يكدّون في الأرض والغابة والأحجار ويقفون في الأوحال والمياه إلى ما فوق الركب ويلوحون بالفؤوس ويحملون رزماً من الأغصان الجافة والدعامات الخشبية ويطوفون بها في كل الأرجاء؛ وإذا ما حمل ثمانية رجال شــجرة ثقيلة طويلة ومشوا تحتها، خلتَ انهم يسيرون من جديد في موكب احتفالي، ولكن الاختــلاف عن يوم أمس تجلى في أنك اليوم لم تر غلايين تبغ. لم أستطع تقــديم الكثير من المساعدة، بل كنت أقرب إلى أن أشكل عند هؤلاء الناس عنصراً عائقاً عن العمل؛ لذلك بعد أن سرت متئد الخطى مسافة لا يستهان بها باتجاه منبع النهر، عدت إلى

القرية ورأيت في أثناء مسيري هذا النشاط المنتج على كل طرقهم المعتادة. فمن لم يكن منشغلاً عند الماء، اتجه صوب الغابة لكي ينجز العمل هناك بالسرعة الممكنة، وفي أحد الحقول رأيت رجلاً يحرث الأرض بهدوء واهتمام كأن ذلك اليوم لم يكن اليوم الذي تلا عيداً من الأعياد وكأنه لم يكن هناك خطر في البلاد. خجلت من أنني أنا الوحيد الذي أتسكع عاطلاً من العمل ومن دون أي هدف، ولكي أفعل أمراً حاسماً فحسب قررت العودة فوراً إلى المدينة. للأسف لم يكن عندي هناك عمل ينبغي علي إنجازه، بل عملي عديم الفائدة والسائب لم يقدم لي في تلك الأثناء ملاذاً مغرياً لا بل تراءى لي عملاً تافهاً وباطلاً؛ لكن بما أن فترة بعد الظهر من ذلك اليوم كانت حلت وكان علي أن أرحل في الليـــل عبر الوحل والمطر فإن مزاجاً من الزهد جعلني أنظر إلى هذه الرحلة باستحسان، فانطلقت مسافراً دونما إبطاء وعلى الرغم من كل اعتراضات أقاربي.

ومع أن السفرة كانت عاصفة ومضنية، إلا أنني قطعت معظم المسافة كما لو أن الطريق درب حديقة مشمسة؛ ذلك لأن كل الأفكار استيقظت في داخلي وأخذت تلعب بلا انقطاع مع لغز الحياة كما مع كرة ذهبية ولم تكن دهشتي صغيرة حين وجدت نفسي فجأة ومن حيث لا أدري، في المدينة. وحين وصلتُ إلى أمام بيتنا لاحظت من النوافذ المعتمة أن أمي غارقة في سبات عميق؛ تسلل رفيق البيت العائد إلى بيته وإلى غرفته، وفي الصباح فتحت أمي عينيها بدهشة واستغراب حين ظهرت فجأة أمام ناظريها.

لاحظت في الحال أن تغييراً بسيطاً كان جرى في حجرتنا، إذ رأيت سريراً صغيراً ومستهلكاً بجوار الحائط كانت أمي اشترته بسعر رخيص من أحد أصحابها إذ لم يعد يتيسر لهذا مكان لوضع السرير فيه؛ كان سريراً بسيطاً إلى أبعد حد، مصنوعاً ببساطة ومكسواً بقش مجدل فقط، أبيض وأخضر، ومع ذلك كله كان قطعة أثاث ظريفة تماماً. ولكن تكدست على السرير كومة كبيرة من الكتب قارب عددها الخمسين، جميعها مجلدة

بالتساوي ومزودة على الظهر بلافتات صغيرة حمراء اللون وبعناوين مذهبة ومربوطة بخيط قوي مضعَّف. كانت تلك هي مؤلفات غوته الكاملة، التي كان بائع كتب مستعملة، اعتاد أن يغريني بكتب قديمة ولوحات مصفرَّة منقوشة على النحاس فيوقعني في ديون خفيفة وسابقة لأوانها، قد أحضر تلك المؤلفات إلى بيتنا لكي ألقي عليها نظرة وأشتريها. قبل بضعة أعوام كان نجار ألماني يقوم ببعض الإصلاحات في غرفتنا إذا هو يقول فجأة: "غوته الكبير وافته المنية"، فما فتئت هذه الكلمة ترن في أذني باستمرار. كان المتوفى المجهول خاض غمار كل الاشتغالات والمحفزات وشد إليه في كل مكان خيوطاً مفصلية كانت نهاياتها اختفت في يده الخفية. وكما لو أنني جمعت الآن كل هذه الخيوط في عقدة الربط الغليظة التي أحاطت بالكتب فقد انقضضتُ على تلك العقد وبدأت أحلها باستعجال لافت للنظر وحين انحلت تفرقت في أجمل صورة بعضها عن بعض الثمارُ الذهبية لحياة امتدت ثمانين عاماً وانتشرت على سرير الراحة، ثم سقطت عبر حافته على الأرض بحيث كان لابد لي من بذل جهد كبير لكي أعاود جمع تلك الثروة المبعثرة. ومنذ تلك الساعة لم أعد أبتعد عن السرير الرث وانهمكت أربعين يوماً في المطالعة وتخلل ذلك حلول فصل الشتاء من جديد وكذلك حلول فصل الربيع مرة أخرى. ولكن الثلج ناصع البياض مر بي وكأنه حلم رأيته غير آبه من زاوية جانبية. بادئ ذي بدء امتدت يدي إلى كل ما أظهر الإصدار الذي بين يديَّ أنه ذو طابع مسرحي، وبعد ذلك قرأت بعض النصوص المقفاة ثم قرأت الروايات وبعدها كتاب الرحلة الإيطالية، وحين جرى التيار إثر ذلك في الأجواء الواقعية للجد اليومي ومن ثم للجهد الفردي صرفت النظر عن قراءة ما تبقى من نصوص وبدأت من جديد لكي أكتشف في هذه المرة جميع الكواكب في مواقعها الجميلة بعضها من بعض وأكتشف في أثناء ذلك نجوماً وحيدة وهي تلمع بطريقة نادرة وغريبة مثل كتاب راينيكي فوكس أو بنفينوتو تشيلليني. وعلى هذا النحو كنت طفت مرة أخرى في أرجاء هذه السماء وقرأت أعمالاً كثيرة من

جديد مرتين مكتشفاً في نهاية المطاف نجماً مضيئاً آخر، جدياً كل الجدة: كتاب الشعر والحقيقة. كنت توّاً انتهيت من قراءة هذا الكتاب وإذا بائع الكتب القديمة يدخل إلى بيتنا مستفسراً عما إذا كنت أريد أن أحتفظ بهذه الكتب، وإلا فإن شارياً آخر يرغب في اقتنائها. وفي هذه الحال لابد من دفع ثمن هذا الكنز نقداً، الأمر الذي يجاوز إمكاناتي المادية في ذلك الحين: رأت أمي أهمية الكنز الثمين من الكتب القيمة عندي، ولكن مكوثي مستلقياً ومنهمكاً في القراءة لمدة أربعين يوماً جعلها تتردد؛ لذلك أمسك الرجل بخيط الربط من جديد وحزم به الكتب ثم قذفها إلى ظهره واستأذن في الانصراف.

وبدا الوضع كما لو أن جماعة من الأشباح المتلألئة والمنشدة غادرت الحجرة فغدت هذه فجأة هادئة وخاوية؛ نهضت واقفاً وقلبت بصري فيما حولي وكان ممكناً أن يخيل إلي أنني في قبر لولا أن إبر التريكو، التي كانت أمي تشتغل بها، أحدثت صوتاً لطيفاً. خرجتُ إلى العراء؛ المدينة الجبلية القديمة والصخور والغابة والنهر والبحيرة وسلاسل الجبال الغنية بالأشكال اكتست كلها بأشعة الشمس الآذارية الخافتة، وفي حين كان بصري يحيط بكل شيء، أحسست بسرور خالص وعميق لم أكن أعرفه من قبل. كان ذلك هو الحب المستسلم لكل صائر وقائم الذي يحترم حق كل شيء وأهميته ويحس بترابط العالم وعمقه. هذا الحب هو أسمى من الانتشال الفني للفرد بغية تحقيق غاية نفعية خاصة، الانتشال الذي يؤدي في النهاية باستمرار إلى الاهتمام بصغائر الأمور وتكريس المزاج؛ وهو أسمى أيضاً من التمتع والفرز إلى أوضاع نفسية معينة وهوايات رومانسية ثم هو وحده القادر على إضفاء وهج مستمر ومنتظم. تراءى لي الآن كلٌّ شيء وباستمرار جديداً وجميلاً وعجيباً، وبدأت أرى وأحب لا شكل الأشياء فحسب بل مضمونها وماهيتها وتاريخها كذلك. ومع أنني لم أطوّف في الأرجاء مباشرة، بمثل هذا الوعي الجاهز إلى حدّ بعيد، فإن الشيء الذي يستيقظ تدريجياً قد انبثق من تلك الأيام الأربعين.

الهدوء في الحركة ليس غير هو الذي يحفظ العالم ويصنع الرجال؛ فالعالم في باطنه هادئ وساكن وهكذا يجب أن يكون أيضاً الرجل الذي يريد أن يفهم العالم ويعكسه بوصفه جزءاً فاعلاً منه. فالهدوء يجذب الحياة والاضطراب يطردها؛ والله يبقى ساكناً كفأرة صغيرة ولذلك فإن العالم يدور حوله. وعند الإنسان الفنان قد يطبق هذا القول بطريقة تجعله يتصرف متألماً ومتفرجاً ويترك الأمور تمر عليه مرور الكرام لا أن يجري خلفها ويطاردها؛ لأن الذي يمشي مع موكب احتفالي هو أقل مقدرة بما لا يقاس وصفه ممن يقف في الطريق. لذلك فإن هذا ليس زائداً على اللزوم ولا يقف من الأحداث موقف المتفرج، والرائي يشكل مجمل حياة ما يراه وإذا كان رائياً حقيقياً فسوف تأتي اللحظة التي سينضم فيها الموكب بمرآته الذهبية، شبيهاً بالملك الثامن في مسرحية ماكبث الذي يمكّن الناس من رؤية ملوك كثيرين عبر مرآته. وكذلك ليس من غير عمل وجهد ظاهريين تتم رؤية المتألم بهدوء، مثله مثل المتفرج على موكب احتفالي في بذله جهداً كافياً للحصول على مكان جيد أو المحافظة عليه. هذا هو الحفاظ على حرية أعيننا وعفافها.

وفي نظرتي إلى الشعر حدث أيضاً تغيير لافت. فقد كنت تعودت، دون أن أعرف متى وكيف، أن أسمي كل شيء كنت أجده في الحياة والفن ذا فائدة ومنفعة وجيداً وجميلاً، شعرياً، حتى مواضيع مهنتي المختارة بألوانها وأشكالها لم أطلق عليها صفة من عالم فن الرسم والألوان بل من عالم الشعر، تماماً ككل الأحداث الإنسانية التي مستني بدوافع محفزة. كان هذا، كما أعتقد، في محله تماماً لأنه نفس القانون الذي يجعل مختلف الأشياء شعرية أو يجعل انعكاس وجودها ذا قيمة؛ ولكن فيما يتعلق ببعض الأمور التي أسميتها حتى الآن أموراً شعرية، تعلمت الآن أن متعذر الفهم والمستحيل والمنطوي على مغامرات والمفرط من الأمور ليس شعرياً وأن الوضع هنا، كما الوضع هناك في مسألة الهدوء والسكينة في الحركة، لابد أن تسود فيه البساطة والاستقامة في وسط البريق والتجسيد لكي يتمخض عن ذلك نتاج شعري أو قل، بنفس

المعنى، حيوي وعقلاني؛ باختصار، ألاَّ يخلط بين ما يعرف باسم عبث الفن وبطلانه. إلا أن هذه قصة قديمة بحيث يمكننا أن نرى لدى أرسطو أن تأملاته المتعلقة بالموضوع حول فن الكلام السياسي – الواقعي هي في الوقت ذاته أفضل وصف لشاعر أيضاً.

وكما يبدو لي، فإن كل مسعى صحيح لتبسيط الشيء المنفصل، والمتباين ظاهرياً ومعرفة سببه وتوحيده يهدف إلى إيجاد أساس للحياة؛ وفي هذا السعي إلى عرض الضروري والبسيط بقوة ووفرة وبكامل جوهره وكنهه يكمن الفن؛ لذلك لا يختلف الفنانون عن غيرهم من الناس إلا بأنهم يرون الجوهري فوراً ويعرفون كيف يقدمونه بوفرة إلى الناس من خلال أعمالهم الفنية، في حين لابد للآخرين من أن يتعرفوا جوهر الأشياء من جديد ويدهشوا له، ولذلك فإن كل أولئك الذين يحتاج فهمهم إلى اتجاه خاص في التذوق أو إلى مدرسة فنية معينة ليسوا فنانين.

لم يكن لي علاقة بالكلمة الإنسانية ولا بالشكل الإنساني، وشعرت بالسعادة والرضا لمجرد أن لي موطئ قدم في أكثر المجالات تواضعاً، على وجه الأرض التي يتحرك فيها الإنسان وبذلك جاز لي أن أقدم في عالم الشعر على الأقل حافظة سجادة. كان غوته تحدث كثيراً وبحب عن أشياء تتعلق بالطبيعة وربوعها وعبر هذا الجسر ظننت أنني من دون تكبر مرتبط قليلاً بعالمه.

أردت أن أبدأ في الحال بالتعاطي مع الأمور بحب واكتراث وألتزم الطبيعة التزاماً تاماً وألا أقوم بعمل زائد على اللزوم أو لا فائدة منه، وأن أكون واضحاً تمام الوضوح في كل جرة ريشة. رأيت في مخيلتي كنزاً غنياً من الأعمال ينتظرني، وأعمالاً تراءت لي كلها جميلة وقيمة وعميقة المضمون، زاخرة بجرات ريشة ناعمة وقوية ليس فيها ما هو بلا معنى وأهمية. جلست في العراء لكي أبدأ باللوحة الأولى من هذه المجموعة الرائعة؛ ولكن الأمر اقتضى أن أتابع العمل من حيث كنت توقفت آخر مرة وثبت لي أنني لم أكن قادراً قط على أن أبدع فجأة شيئاً جديداً ما دمت لم أر

شيئاً جديداً يمكن أن يصلح أساساً يُبنى عليه. وبما أنه لم يكن تحت تصرفي ولو لوحة واحدة لفنان مرموق صالحة لأن أقتدي بها وكانت لوحات مخيلتي البديعة ما تلبث أن تتلاشى حالما كان قلم الرسم يلامس الورق، لذلك لم أُنجز سوى شخبرة كئيبة إذ حاولت الخروج على أسلوبي القديم الذي كنت أحتقره، وإذا أنا الآن أعمل حتى على إفساده وتخريبه. وهكذا سمت نفسي أياماً كثيرة سوء العذاب هكذا على غير هدى، أرى في مخيلتي دائماً عملاً جيداً وموضوعياً، ولكنني أقع في حيرة حين تهم يدي بالبدء بالعمل. اعتراني الخوف والهلع وظننت أنه لا بد أن اليأس آتٍ عما قريب إذا ما استمر الإخفاق، وهنا تنهدت ورجوت الله أن يساعدني في الخروج من المأزق. وصليت بالكلمات الطفلية ذاتها التي كنت أرددها في الصلاة قبل عشرة أعوام مكرراً دائماً الجمل ذاتها إلى أن لفت ذلك انتباهي حين صرت أهمس بصوت نصف عالٍ هكذا على غير هدىً. أمعنت التفكير في وضعي وتوقفت عن العمل المتسرع ثم نظرت إلى ورق الرسم الذي أمامي وأفكاري ضائعة تائهة في مجهول.

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثاني

معجزة وفنان حقيقي

في تلك اللحظة تظللت فجأة الورق الأبيض الذي كانت ملقاة على ركبتي بظل وارف بعد أن كانت من قبل تلمع وتتلألأ في أشعة الشمس؛ اعتراني الهلع ونظرت إلى ما حولي فرأيت رجلاً جليلاً يقف ورائي وقد ارتدى لباساً غريباً وكان السبب في تغطية ورقة الرسم بالظلال. كان طويلاً ونحيف الجسم وذا وجه جدي ينم عن شأن وأهمية، كان أنفه منحنياً بقوة وشارباه مدورين بعناية واهتمام وكانت ملابسه ناعمة ونظيفة.

خاطبني باللغة الألمانية الفصحى قائلاً: "هل تسمح أيها الشاب بأن أرعى عملك للحظة من الزمن؟" نصف مسرور ونصف مرتبك قدمت له رسمتي التي نظر إليها بكل عناية واهتمام لبضع لحظات؛ ثم سألني عما إذا كان في محفظتي المزيد من الرسوم وهل أريد أن أصبح فناناً حقيقياً في المستقبل. طبعاً كنت أحمل معي دائماً مخزوناً من آخر اللوحات التي كنت رسمتها طبقاً للطبيعة وذلك لكي يكون على كل حال في حوزتي شيء في حال كان يومي مجدباً ولا إنتاج فيه؛ وبينما كنت أخرج الرسوم شيئاً فشيئاً من المحفظة، حكيت بجد وحميمية عن مصايري الفنية حتى الآن؛ لأنني لاحظت في الحال اعتماداً على الطريقة التي اتبعها الرجل الغريب في معاينة لوحاتي أنه يفهم أشياء حتى خارج نطاق مجاله الفني.

ثبت ذلك أيضاً حين نبهني على أخطائي وقارن الرسم، الذي كنت أشتغل به الآن، بالطبيعة، وأبرز لي الشيء الجوهري في الطبيعة ذاتها ثم علمني كيف أراه. شعرت عندئذ بسعادة لا حدود لها وحافظت على هدوء تام كواحد يغمره الفرح لرؤية صنيع، وذلك حين قارن بضعة أجزاء من أوراق الشجر في لوحتي مع المثال الذي اقتديت به وأوضح الضوء والأشكال، ثم صنع على حافة اللوحة بقليل من جرات قلم فنية ودونما بذل أي جهد يذكر ما كنت بحثت عنه وصبت نفسي إليه دون جدوى.

بقي عندي نصف ساعة من الزمن ثم قال بعد ذلك: "ذكرتَ من قبل الرجل الفاضل هابرزات؛ هل تعرف أنني عملتُ قبل سبعة عشر عاماً في خدمة ديره المتعب؟ ولكنني وليت الأدبار في الوقت المناسب ومنذ ذلك الحين صرت أتنقل باستمرار بين إيطاليا وفرنسا. أنا رسام مناظر طبيعية، اسمي رُومر وأنوي أن أقيم مدة طويلة في وطني. وسوف يسرني إذا ما استطعت أن أساعدك قدر الإمكان؛ عندي بضعة أشياء بهذا الخصوص، حبذا لو زرتني مرة أو تعال معي حالاً إلى بيتي، إذا شئت!".

حزمت أغراضي بسرعة وصحبت الرجل وأنا في أوج السعادة والاعتزاز. وكثيراً ما كنت أسمع الناس يحكون عنه إذ إنه كان أسطورة من الأساطير الكبيرة في ورشة هابرزات الفنية، وكان المعلم هابرزات يشعر بالاعتزاز حين كان يسمع أن تلميذه سابقاً رُومر، هو رسام مشهور بالألوان المائية في روما ولم يكن يبيع لوحاته إلا للأمراء والإنكليز. في طريقنا إلى بيته، وطوال وجودنا في العراء، كان رُومر يريني كثيراً من الأشياء الجيدة في الطبيعة. كنت أنظر بحماس واهتمام إلى ما كان يشير بيده ويشطبه بنعومة؛ واندهشت حين اكتشفت أنني، مع ظني أن رؤيتي للمناظر تحسنت منذ وقت قصير، لم يسبق لي في واقع الأمر أن رأيت شيئاً يعتد به، واندهشت أكثر حين وجدت أن المهم والمفيد يتجلى في معظم الأحيان في ظواهر كنت في السابق غافلاً عنها أو قلما اكترثت لها. ولكن سرني أنني كنت أفهم إلى

حد ما ما كان يقصد مرافقي أحياناً، كذلك سرني أيضاً أن أرى معه ظلاً كثيفاً وواضحاً في الوقت ذاته، أو حفيفاً هادئاً أو نتوءاً ناعماً في شجرة؛ وبعد أن تنزهت معه مشياً على الأقدام بضع مرات كنت تعودت في الحال ألاَّ أعدّ المناظر الطبيعية بصورة عامة شيئاً قائماً وموجوداً بذاته على أرض الواقع، بل مجرد مجموعة صور ولوحات مرسومة ومن ثم شيئاً مرئياً من مجرد وجهة نظر صحيحة ويتم تقويمه بتعابير تقنية.

حين وصلنا إلى مسكنه المؤلف من بضع حجرات أنيقة في بيت جميل، وضع رُومر محافظه على أحد الكراسي أمام الأريكة التي دعاني إلى الجلوس عليها ثم بدأ يقلِّب مجموعة لوحاته الأكبر والأثمن الواحدة تلو الأخرى ويضعها على انفراد. كانت تلك كلها لوحات كبيرة من إيطاليا مرسومة على ورق قوي تكسوه حبيبات خشنة وبالألوان المائية، ولكن بطريقة جديدة تماماً عليّ وبوسائل جريئة وذكية، غير معروفة؛ بحيث تكشفت عن تذويب ورائحة ذكية بقدر ما تكشفت أيضاً عن وضوح وقوة، وبرهنت في المقام الأول في كل جرة ريشة على أنها صُنعت أمام الطبيعة الحية. لم أعرف، أكان ينبغي علي أن أحس بسرور أكبر من جراء تناول المواضيع بمهارة باهرة واقتراب مريح أم بالمواضيع ذاتها، فمن مجموعات أشجار السرو القوية القائمة حول الفيلات في روما، ومن جبال السابين الجميلة إلى أطلال بيستوم وخليج نابولي المتلألئ، إلى سواحل صقلية عُرضت أمامي بالخطوط السحرية، التي كُثفت ونفخت فيها الحياة، لوحةٌ إثر لوحة مع تدوين رائع لليوم والمكان وشعاع الشمس الذي أُنجزت تحته كل لوحة. أديرة وقلاع جميلة كانت تلمع في أشعة الشمس هذه على سفوح جبال خلابة، السماء والبحر رقدا في زرقة عميقة أو في لون فضي مرح وفي هذه الأشعة كان يستحم عالم النبات الرائع النبيل بأشكاله الكلاسيكية البسيطة، لكن التامة كذلك. في غضون ذلك كانت تغني وتطن الأسماء الإيطالية حين كان رُومر يسمي الأشياء والمواضيع ويبدي ملاحظات حول الطبيعة والمواقع. أحياناً كنت أجول ببصري، خارج نطاق

اللوحات، في كل أرجاء الغرفة. رأيت هنا قبعة صياد من نابولي وهناك سكين جيب رومية، خيط مرجان أو مشبك شعر فضياً؛ وبعين الرضا رأيتني أنظر باهتمام وتعمق إلى المهتم الجديد بي وحامي حماي، إلى سترته البيضاء وأساور قميصه وحين كان يقلب اللوحة كنت أكرر النظر لكي أمر بعينيَّ مروراً سريعاً على ما رأيت من قبل وذلك قبل أن تظهر اللوحة التالية.

حين انتهينا من مشاهدة لوحات تلك المحفظة، أطلعني رُومر بطريقة عابرة على بعض المحافظ الأخرى التي احتوت الواحدة منها على وفرة من التفاصيل الملونة، والأخرى على لوحات كثيرة مرسومة بقلم الرصاص، وثالثة تتعلق لوحاتها كلها بالبحر والإبحار وصيد الأسماك، وأخيراً احتوت محفظة رابعة على ظواهر وأعاجيب مختلفة من عالم الألوان كالمغارة الزرقاء، وظهورات غيوم غير عادية، وثورانات بركان فيزوف، وجداول حمم بركانية وما إلى ذلك. ثم أطلعني بعد ذلك في غرفة أخرى على عمله الحالي الذي هو رسم لوحة أكبر منصوبة على حامل وتصور الحديقة التابعة لفيلا دي إيست. أشجار سرو ضخمة قاتمة انتصبت سامقة من بين دوالي العنب وخمائل الغار المرفرفة، ومن بين أحواض المرمر والأسوار المزدانة بالأزهار والمركون عليها تمثال وحيد هو آريوست مرتدياً لباساً أسود خاصاً بالفرسان وسيفه على خاصرته. في الوادي الأوسط امتدت بيوت تيفولي وأشجارها محاطة بالأريج والروائح الزكية، وعلى مسافة بعيدة فوق الوادي امتد الحقل الواسع وقد سكب عليه أرجوان المساء وظهرت فيه على امتداد أقصى الأفق قبة كنيسة القديس بطرس.

قال رُومر: "لنكتفِ اليوم بهذا القدر، ولكن بإمكانك أن تزورني من حين لآخر، حتى كل يوم إذا شئت؛ أحضر معك أغراضك، فربما أستطيع أن أعطيك هذه اللوحة أو تلك لكي تنسخ عنها وتحصل بذلك على تقنية أكثر سهولة وأجدى نفعاً!".

بالاحترام المحمل بأكبر آيات الشكر والامتنان ودعت رُومر وصرت أقفز، بدلاً من أن أمشي، وأنا في طريقي إلى البيت. رويت لأمي المغامرة السعيدة بأبلغ الكلمات وأفصحها ولم يفتني أن أنعم على الرجل الغريب والفنان بكل صفات الروعة والأبهة، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ لقد سرني أن أقدم لها أخيراً مثالاً للنجاح المشرف بوصفه مواساة لمستقبلي الخاص، خصوصاً أن رُومر أيضاً تخرج في مدرسة هابرزات الفنية البائسة. ولكن الخمسة عشر عاماً، التي قضاها رُومر في الغربة واحتاج إليها لتحقيق نجاحاته، لم تقنع أمي تماماً؛ كما رأت أيضاً أنه ليس من المتفق عليه أن الغريب فعلاً ينعم بالهناء وراحة البال وقد عاد إلى بلاده بصفته غريباً ويعيش فيها الآن وحيداً ومغموراً لا يعرفه أحد. ولكن كان عندي دليل خفي آخر على صحة آمالي وأمنياتي المرجوة، أعني ظهور رُومر فجأة، مباشرة بعد أن كنت أقمت الصلاة لأنني، بصرف النظر عن تمردي على الكنيسة، كنت لا أزال صوفياً صحيحاً حين يتعلق الأمر بأملي وألمي الشخصيين.

غبر أنني لم أقل لأمي شيئاً عن هذا الموضوع، لأننا أولاً لم نعتد أن نتحدث كثيراً في مواضيع كهذه؛ ثم إن أمي كانت تعول كثيراً على عون الله، ولكن لن يعجبها أن أتباهى بوضع عجيب ومسرحي كهذا الوضع. كفاها ألاَّ يحجب الله عنا قوت يومنا وأن يكون عوناً لنا في معاناتنا الصعبة وفي الحالات المتعلقة بالحياة والموت، وربما كان يحلو لها زجري وتأنيبي بكل سخرية واستهزاء؛ خصوصاً أنني انشغلت طوال ذلك المساء بالحدث المفاجئ ولا بد لي من الاعتراف بأن شعوراً مريباً انتابني آنذاك. لم أستطع أن أكبت تصوري عن سلك طويل سُحب به الرجل الغريب باتجاه صلاتي في حين لم ترق لي، إزاء هذه الصورة المضحكة، مصادفة ورود غيابه عني في الحسبان بعد الآن. منذ ذلك الحين تعودت أن أحسب حالات حظ من هذا النوع أو عكسها أيضاً، أعني إذا ما أحسست أنني منساق باستمرار إلى عدّ حدث مزعج عقاباً على خطيئة متعمدة ومرتكبة مباشرة قبل ذلك الحدث، أن أحسب

تلك الحالات أمراً واقعاً وأشكر الله عليها دون أن أتوهم قط أنها تمت مباشرة وعلى وجه الخصوص من أجلي دون غيري. ولكنني لا أستطيع في كل مرة أقف فيها أمام مشكلة مستعصية الحل أن أحجم عن اللجوء من جديد إلى الصلاة من أجل إيجاد حل مناسب وعن البحث في خطاياي عن سبب لزجر القدر وتأنيبه لي وأتعهد من ثم بالسير في طريق التحسن.

انتظرتُ بفارغ الصبر يوماً ثم ذهبتُ بعد ذلك في اليوم التالي إلى رُومر حاملاً كل ما أنجزت حتى الآن من رسوم وأعمال. استقبلني متجاوباً بلطف وتأمّل على لوحاتي بمشاركة مصغية. وفي أثناء ذلك كان يسدي إلي باستمرار نصيحة جيدة، وحين انتهينا من تفقد اللوحات ودراستها قال لي رُومر إن علي قبل كل شيء أن أقلع عن أسلوبي القديم، المفتقر إلى المهارة، في معالجة أدوات العمل ولوازمه الذي لم يعد يعتد به لتحقيق أي شيء مجدٍ. ينبغي علي أن أرسم بجد طبقاً للطبيعة، مبدئياً برصاص طري وأن أبدأ في البيت بالتدرب على طريقته وهو بدوره يريد أن يساعدني في ذلك بكل سرور. وأخرج لي أيضاً من محفظته بعض اللوحات البسيطة، المرسومة بقلم الرصاص وكذلك بالألوان المائية لكي أنسخها من قبيل التجربة، وحين أردت إثر ذلك أن أودعه وأنصرف قال لي: "أووه، ابق هنا سويعة أخرى من الزمن ما دمت لن تستطيع إنجاز أي عمل في فترة قبل الظهر هذه؛ شاهد عملي قليلاً ودعنا نتبادل الحديث معاً بعض الشيء!" فعلت ذلك بسرور بالغ، أصغيت إلى ملاحظاته التي أبداها حول أسلوبه في العمل وشاهدت لأول مرة الطريقة البسيطة والحرة والأكثر ضماناً، التي يعمل بها فنان مرموق. اتضح لي الأمر وخيل إلي، حين كنت أتصور طريقتي في العمل حتى الآن، كما لو أنني حتى اليوم صنعت جوارب فحسب أو ما شابه.

نسختُ بسرعة اللوحات التي أعطانيها رُومر بكل رغبة وكل فلاح تسفر عنهما محاولة أولى وحين أعدتها إليه قال لي: "عملك رائع، جيد تماماً!". في ذلك اليوم دعاني، ما دام الطقس كان جيداً، إلى أن أقوم برفقته

بنزهة مشياً على الأقدام وفي أثناء ذلك ربط رُومر ما كنت اطلعت عليه في بيته بالطبيعة الحية وتخلل هذا الربط أحاديث ثقة حول أمور وأوضاع أخرى وأناس آخرين تناولها الحديث هكذا بالمصادفة، مرة بنقد لاذع وأخرى بدعابة ومزاح بحيث رأيت فيه في وقت واحد معلماً أميناً وجديراً بالثقة وصديقاً مسلياً ولطيف المعشر.

وسرعان ما أحسست بالحاجة إلى أن أكون دائماً وتماماً بقربه، ولذلك كثيراً ما انتهزت فرصة تمتعي بالحرية وقمت بزيارته في أغلب الأحيان إلى أن قال لي ذات يوم بعد أن تفحص بدقة وبطريقة أكثر قسوة أحد أعمالي: "يستحسن أن تبقى فترة طويلة تحت إشراف تام من قبل معلم من شأنه أن يرشدك ويرعاك؛ وقد يسعدني ويسرني أن أعرض عليك خدماتي في هذا المجال؛ ولكن بما أن أوضاعي ليست في حال يسمح لي بالقيام بذلك دونما تعويض مادي؛ على الأقل إذا كان ضرورياً أن تتشاور مع السيدة والدتك في ما إذا أمكن تخصيص مبلغ شهري لهذه الغاية، فحبذا لو فعلت ذلك. في كل الأحوال سوف أبقى هنا بعض الوقت وفي غضون نصف عام من الآن آمل أن أقطع بك شوطاً تحقق فيه بعد ذلك جاهزية أفضل، وتكون قادراً على تحصيل بعض الكسب الذي يمكنك من القيام برحلاتك وسفراتك في طلب العلم والمعرفة. إذا ما اتفقنا فربما يمكنك أن تأتي إلي كل صباح في الساعة الثامنة وتعمل عندي طوال اليوم".

كان ذلك أفضل عمل يمكن أن يحقق لي رغباتي، فأسرعت إلى البيت لكي أبلغ أمي اقتراح رُومر، ولكن أمي لم تكن مثلي في عجلة من الأمر، ما دام الأمر كان يتعلق بإنفاق مبلغ لا يستهان به من المال وأنني كنت عددت في وقت سابق جزءاً مما كان دفع إلى السيد هابرزات من أجل تعلمي فن الرسم في ورشته الفنية مالاً ضائعاً، فذهبت أمي إلى ذلك السيد الوجيه الذي سبق لها ذات مرة أن زارته لكي تستشيره في أمر مستقبلي؛ لأنها ظنت أن هذا السيد لا بد أن يعرف في كل الأحوال إن كان رُومر بالفعل هو بحق الفنان الذي

يحظى بالاحترام والشهرة كما سبق أن قلت أنا عنه بكل حماس وتقدير. ولكن الشخص هز كتفيه، صحيح أنه اعترف بأن رُومر موهوب بصفته فناناً وبأنه ذو موهبة وذو شهرة فائقة في البلاد البعيدة؛ ولكن فيما تعلق بصفاته وخلقه فثمة غموض يلف الرجل ولم يعرف عنه السيد فضائل ومآثر كثيرة، وتحاشى الدخول في تفاصيل هذا الجانب وذهب أخيراً أنه لا بد من الحذر والحيطة. وكان في رأيه أيضاً أن طلب رُومر يتجاوز الحدود فمدينتنا ليست روما ولا باريس، ويستحسن أن تخصص هذه المبالغ لتمويل رحلاتي كما يفضل أن أقوم بها في وقت مبكر بحيث أستطيع أنا ذاتي أن أرى ما رآه رُومر من العالم أن أحصّل ما حصل عليه من علوم ومعارف.

كلمة رحلات كانت وردت الآن متكررة مرات كثيرة فكانت كافية لحض أمي على الاحتفاظ بكل قرش من أجل الإعداد للسفر وتمويله. لذلك أخبرتني بالملاحظات المريبة التي أبديت حول رُومر، دون أن تركز على ما تعلق منها بخلقه وصفاته الشخصية، فكان مني أن استنكرتها وأحبطتها بتذمر واستياء؛ لأنني كنت مسلحاً ضدها إذ علمت من أقوال مختلفة مبهمة صدرت عن رُومر بأن علاقته بالعالم لم تكن جيدة وأنه لشد ما عانى ظلم الناس وشرهم. لا بل كانت ثمة لغة خاصة ذات صلة بهذه النقطة تحديداً نشأت بيننا بحيث تجاوبت مع شكاواه بمشاركة وجدانية منطوية على كل إجلال واحترام، وكنت أرد عليها كما لو أنني أنا ذاتي مررت بأمرِّ التجارب أو على الأقل خشيت المرور بها ولكنني أردت برباطة جأش وقدم ثابت في الأرض أن أترقبها ثم أنتقم لي وله في آن واحد. وحين كان رُومر يلومني إثر ذلك ويذكرني بأنني لن أعرف الناس أفضل مما يعرفهم هو، كان علي أن أتقبل لومه وأتقبل بملامح وجهٍ جدية ومهمة تعليمه لي كيف يبدأ المرء بترسيخ السلوك اللائق، دون أن أعرف في حقيقة الأمر أي شيء عن الموضوع المطروح وما هي التجارب التي مر بها.

اتخذت قراري بسرعة وقلت لأمي إنني أريد أن أضحي من أجل تعليمي على يد رُومر بالذهب الذي بقي في علبة توفيري التي سبق أن دمرتُها نهباً وتبذيراً. فلم تُبد أمي أي اعتراض على ذلك؛ عندئذ حملت الميدالية الذهبية التذكارية مع بعض قطع الدوكات الذهبية التي كانت بجانبها في علبة التوفير إلى صائغ دفع لي قيمة الكل بالعملة الفضية التي أخذتها إلى رُومر وقلت له: هذا كل ما أستطيع أن أدفعه لك، مبدياً رغبتي في أن أتمتع بدروسه مقابل ذلك أربعة أشهر على الأقل. فتجاوب معي وقال: لم يكن طلبي منك جدياً ودقيقاً إلى هذا الحد! وسوف أفعل ما بوسعي، وكما يليق بتلميذ في مجال الفن فإنه لن يتوانَى عن تعليمي وسيبذل كل ما يستطيع من جهد في هذا المضمار طوال بقائه في مدينتنا، وينبغي علي فوراً أن آتي إليه غداً وأبدأ بدراسة فن الرسم على يديه وتحت إشرافه.

وهكذا جهزت نفسي برضا كبير للدراسة عنده. في اليومين الأول والثاني كان وضعي هناك لا يزال مريحاً إلى حد لا يستهان به؛ ولكن في اليوم الثالث بدأ رُومر يغني نغمة أخرى مختلفة تمام الاختلاف بأن أصبح فجأة نقدياً وقاسياً وصار يقلل بلا رحمة من قيمة عملي ويبرهن لي لا على عجزي عن إنجاز أي شيء فحسب بل على إهمالي وتكاسلي أيضاً. استغربت أشد الاستغراب من تصرفاته تلك، ولكنني تماسكت قليلاً فلم يعد علي ذلك بكثير من الشكر بل على العكس؛ إذ إن رُومر ازداد أكثر فأكثر قسوة واستهزاء في زجره وتأنيبه لي، الذي لم يصغْه بأكثر العبارات مراعاة ولباقة. هنا تماسكت بصورة أكثر جدية، وتأنيبه لي غدا أيضاً جدياً وشبه مؤثر في القلوب إلى أن شرعت أخيراً بكل ذل وخنوع بتفحص المكان الذي ينبغي أن توضع فيه كل جرة قلم على ورقة الرسم، وضعتها حيناً برقة وتدبر ورميتها حيناً آخر، بعد تبصر قصير، فجأة كزهر النرد هكذا جزافاً وحاولت أخيراً أن أفعل كل شيء تماماً طبقاً لطلب رُومر ورغبته. وبهذه الطريقة حصلت على بعض من إمكانية أتاحت لي التوجه نحو الهدف الرامي إلى إنجاز عمل لا

بأس به. إلا أن الثعلب الماكر لاحظ نيتي فصعَّب علي الوظائف من حيث لا أدري، فبدأ من جديد ضيقي وحرجي وازداد انتقاد معلمي لأدائي أكثر من أي وقت مضى. ومرة أخرى حاولت بعد جهد كبير الحصول على حسن سلوك في طور النشوء، ولكنني رُددت على أعقابي من جديد بتصعيب هدف من المتعذر تحقيقه بدلاً من أن أستريح قليلاً، كما كنت آمل، مستلقياً على أوراق الغار المخصصة لإنجاز مرحلة أعلى. وعلى هذا النحو مارس علي رُومر بضعة شهور إذلالاً وإخضاعاً كبيرين، ولكن مع استمرار الأحاديث الصوفية التي كانت تدور بيننا حول التجارب المريرة مع الناس وحول هذا الموضوع وذاك، وحين كان ينتهي العمل اليومي أوكنا نقوم بنزهات مشياً على الأقدام كنا نُبقي على اختلاطنا بعضنا ببعض كما كان في السابق. بذلك نشأت طريقة غريبة ونادرة للتعامل تمثلت في أن رُومر صرخ في وجهي بغتة في أثناء محادثة حميمة وعميقة وقال: "يا إلهي! أعلى عينيك غشاوة؟" بحيث غدوت فجأة هادئاً ومحقوناً بالغضب والامتعاض منه ومني أيضاً وتابعت عملي من جديد باهتمام يائس.

وهكذا تعرفت أخيراً العمل والجهد الحقيقيين دون أن يصبحا عبئاً علي لأنهما يحملان في طياتهما مكافأة الاستجمام واسترجاع الشباب المتجددين باستمرار، ورأيت نفسي مهيّأ للتعاطي مع رسم كبير من صنع رُومر هو أكثر ما يكون لوحة كاملة ونسخها بطريقة جعلت معلمي يعلن الاكتفاء بالعمل الآن في هذا الاتجاه، وإلا فسوف أنسخ، على حد قوله، كل محتويات محافظه؛ إنها ثروته الوحيدة ولا يرغب مع كل تقديره لعلاقات الصداقة في أن تقع نسخة ثانية من أعماله في أيدٍ غريبة.

بفضل هذا الانشغال والإلمام من عجيب الأمور أنني غدوت أقرب إلى أن أكون في عداد أهل الجنوب أكثر مني في عداد أبناء وطني. فبما أن الرسومات التي نسختُها واعتمدتها أساساً لعملي صُنعت كلها بصورة رائعة في الهواء الطلق كما رافقت عملي باستمرار حكاياتُ رُومر وملاحظاته عن

الجنوب، فقد فهمتُ الشمس الجنوبية وتلك السماء والبحر تقريباً كما لو أنني رأيتها فعلاً.

أطلال الفن المعماري الإغريقي، التي انتشرت هنا وهناك في أرجاء البلاد، عادت علي بجاذبية خاصة. أحسست من جديد بفن الشعر حين كنت أفصل دعامات المرمر المشمسة في معبد للدوريين الإغريق عن السماء الزرقاء. الخطوط الأفقية في العتبات والنقوش على الجدران والأكاليل وتضليعات الأعمدة كان لابد من أن ترسم بأرق دقة وبتمعن حقيقي، بهدوء لكن بثقة ورشاقة؛ كانت الظلال على هذه الأحجار الثمينة الذهبية زرقاء بحتة، وكنت إذا ما وجهت نظري باستمرار إلى هذه الزرقة، أظن في نهاية الأمر أنني أرى بالفعل معبداً حقيقياً. قدستُ كل ثغرة في الدعامات نظرت السماءُ عبرها وكل حز في التضليعات وتمسكتُ بأصغر أشكالها.

ضمن تركة أبي وجدت كتاباً عن فن البناء كان يحتوي على قصة طراز البناء القديم وشرح له إلى جانب رسوم جيدة بكل التفاصيل. أخرجت الآن هذا الكتاب ودرسته برغبة جامحة لكي أفهم الأطلال والخرائب فهماً أفضل وأعرف قيمتها معرفة جيدة. وتذكرت في أثناء ذلك رحلة غوته إلى إيطاليا، التي سبق لي أن قرأت كتابه عنها؛ روى لي رُومر قصصاً كثيرة عن الناس والعادات وعن ماضي إيطاليا. لم يقرأ كتباً تقريباً عدا الترجمة الألمانية لمؤلفات الشاعر هومير وكتاباً بالإيطالية للشاعر أريوست. وحثني رُومر على قراءة هومير فلم أكن بحاجة إلى أن يطلب مني ذلك مرة ثانية. في بادئ الأمر وجدت صعوبة في القراءة، صحيح أنني وجدت أن كل شيء جميل إلا أنني لم أكن معتاداً على الجمع بين البسيط والهائل فلم أتحمل القراءة لفترة طويلة بصورة مستمرة. ولكن رُومر نبهني كيف أن هومير يستخدم في كل حركة وكل موقف الضروري والمناسب فحسب، وكيف أن كل وعاء يصفه وكل ثياب يصفها تنم عن أرفع ذوق قد يمكن أن يخطر على بال إنسان، وأخيراً كيف أن كل وضع وكل صراع أخلاقي لديه مع كل البساطة الطفلية

مغموس بالشعر الأكثر انتقاء واختياراً. "في أيامنا هذه يتوق المرء دائماً إلى المنتقى والشائق والشهي من الأشياء ولا يعرف بتاتاً، نظراً إلى بلادته، ألاَّ وجود للمنتقى والشهي والمتجدد منذ الأزل، الذي يرقى إلى مستوى خاطرة هوميرية في جودتها وصلاحيتها للنمذجة الكلاسيكية البسيطة! لا أتمنى لك، يا عزيزي "لي"، أن تتعلم ذات مرة الإحساس عن تجربة بالحقيقة المنتقاة الشهية الكامنة في وضع أوديسيوس حين يظهر عارياً وملطخاً بالوحل أمام ناوسيكا ورفاق طفولتها! هل تريد أن تعرف كيف يحدث ذلك؟ دعنا الآن نتشبث بهذا المثال! إذا ما كنتَ ذات مرة تتسكع في بلاد الغربة منقطع الصلة بوطنك وبكل ما تحب وسبق لك أن رأيتَ كثيراً من هذه الدنيا ومررتَ بتجارب كثيرة وكنتَ مهموماً وقلقاً وتعيساً ومعزولاً عن الناس: فسوف تحلم حتماً في الليل أنك تقترب من وطنك؛ وسوف تراه يلمع ويشع بأجمل الألوان؛ ويطالعك أشخاص عزيزون ولطيفون وأحبة؛ وهنا تكتشف فجأة أنك تسير ممزقاً عارياً وملطخاً بالتراب ويعتريك خجل وخوف لا حدود لهما، تحاول أن تغطي نفسك، أن تخبئها ثم تفيق من حلمك مستحماً بالعرق. هذا هو، ما دام هناك بشر على وجه الأرض، حلم الرجل الذي يقض الغم مضجعه وتتقاذفه الحياة هنا وهناك، وهكذا أخرج هومير ذلك الوضع من كنه البشرية الأعمق والأزلي".

في أثناء ذلك كان من حسن الحظ أن اهتمام رُومر فيما تعلق بنسخ مجموعاته من الرسوم واللوحات التقى اهتمامي أنا؛ لأنني حين جلست من جديد أمام الطبيعة، تلبية لطلبه، لكي أرسم طبقاً لها على أرض الواقع، ثبت أنني قد أتعرض لخطر أن أرى كل مهارتي في نسخ اللوحات ومعرفتي الإيطالية تتحولان إلى افتراض واختلاق عجيبين. فإنجاز لوحة طبيعية، جيدة ولو بمقدار العشر فحسب من جودة منسوخاتي عن الرسوم الأصلية كان عملاً كلفني أكبر صبر وأكبر جهد؛ حتى إن المحاولات الأولى أخفقت كلها تقريباً وعلق رُومر على ذلك بشماتة واضحة: "أجل يا عزيزي، هذا لا يتم بسرعة! كنتُ شبه متأكدٍ من ظني أنك ستفشل؛ والآن ينبغي عليك أن تقف على قدميك

أنت أو بالأحرى أن ترى بعينيك لا بعيني غيرك! أما أن تنسخ نسخاً لا بأس به لوحةً جيدة، فلا يتطلب منك ذلك الاعتماد الكامل على نفسك والرؤية بعينيك إلى درجة مماثلة لما هي عليه في الحالة الأولى. أم هل تظن أن المرء قد يسمح بسهولة أن يحترق ظهره بأشعة الشمس من أجل الآخرين؟" وما إلى ذلك. الآن شُنت كل حرب التأنيب ضد السعي إلى سبق رُومر وإيقاعه في مقالب شريرة، من جديد؛ رُومر خرج معي وصار يرسم هو ذاته أيضاً بين أحضان الطبيعة لكي أبقى دائماً تحت مراقبته. لم يكن مستحسناً هنا أن أكرر الشيطنات والاحتيالات التي كنت دبرتها في السابق ضد السيد هابرزات، لأن رُومر بدا أنه يرى عبر الأحجار والأشجار ويلاحظ كل جرة قلم إن كانت دقيقة أو لا. وكان يتفحص كل غصن إن كان ثخيناً أو رفيعاً، وحين كنت أحاجُّه بأن الغصن الذي أرسمه قد يكون في نهاية الأمر نما وتطور على هذا النحو كان يقول: " دع عنك هذا! فالطبيعة عاقلة وأمينة؛ إننا نعرف جيداً احتيالات من هذا النوع! لأنك لست أول مشعوذ يريد أن يخدع الطبيعة ومعلمه!".

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثالث

آنَّـــا

بما أنني كنت مضطراً إلى استغلال الوقت، الذي خُصص لي في أثناء إقامة رُومر في مدينتنا، بالعمل الدؤوب، لم يتسنَّ لي التفكير بزيارة القرية على الرغم من أنني كنت تلقيت من هناك تحيات وإشارات متعددة. كنت أفكر في آنَّا بازدياد مطّرد لدى انهماكي في عملي وحين يغمرني حفيف الأشجار الخضراء بهدوء من حولي. سرني من أجلها تقدمي في مسيرة تعلمي فن الرسم وأن خبرتي ازدادت غنىً في هذا العام مقارنة بالعام السابق؛ وعلقت آمالاً كبيرة على أنني حققت فوزاً من شأنه أن يعزز مكانتي عندها ويسوّغ في بيتها الأمنية التي كنت سمحت لنفسي أن أتطلع إليها.

كان فصل الخريف قد حل، وحين ذهبت في ظهيرة أحد الأيام إلى البيت لكي أتناول طعام الغداء ودخلت إلى حجرتنا رأيت معطفاً حريرياً أسود اللون ملقى على الكنبة. سرني المشهد ورأيتني أسرع إلى ذلك الشيء الخفيف اللطيف وأرفعه إلى الأعلى وأتفحصه من كل الجوانب. ذهبت به إلى المطبخ بسرعة البرق فوجدت أمي منشغلة بتحضير طعام أفضل من المعتاد. أخبرتني أمي عن وصول المعلم وابنته إلى بيتنا، ولكنها أضافت فوراً وعلى وجهها علائم الجد والقلق أنهما للأسف لم يأتيا للمتعة بل لزيارة طبيب مشهور. وفي أثناء دخول أمي إلى الغرفة لكي تعد المائدة لمحت لي ببضع كلمات بأن أعراضاً غريبة ومخيفة ظهرت لدى آنَّا وأن المعلم قلق جداً لهذا السبب وأنها،

أي أمي، لا تقل قلقاً عنه؛ لأن منظر الفتاة المسكينة بمجمله يوحي بأن هذا الكائن الرقيق الناعم قد لا يعمر طويلاً.

جلست على الكنبة وتشبثت بالمعطف بيدي ثم أصغيت باستغراب إلى هذه الكلمات التي رنت في أذني غريبة وغير متوقعة إلى حد أنها تراءت لي عجيبة أكثر منها مخيفة. في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل الضيفان اللذان لهما في نفسي كل الحب والاحترام. نهضت واقفاً بكل ذهول ودهشة ومشيت باتجاههما فلم أنتبه على أنني كنت لا أزال أحمل معطف آنّا إلا بعد أن مددت لها يدي للمصافحة. احمر وجهها خجلاً وافتر ثغرها عن ابتسامة في وقت واحد، في حين وقفت أنا هكذا حائراً مرتبكاً؛ المعلم لامني لأنني غبت عنهما طوال الصيف المنصرم، وهكذا نسيتُ بسبب هذه الترحيبات ما أخبرتني به أمي خصوصاً أنني لم ألاحظ ما من شأنه أن يذكرني به. ولكن حين جلسنا حول المائدة نُبهت من خلال حب واهتمام متزايدين كانت أمي تعامل بهما آنّا فظننت عند ذلك أنني أرى فقط أنها غدت أطول مما كانت في السابق لكن أكثر ضعفاً ونحولاً أيضاً؛ لون وجهها غدا وكأنه شفاف وحول عينيها، اللتين كانتا تلمعان بازدياد، تراءت أوجاع مضنية تارة في النار الطفلية للأيام السالفة وتارة في التأمل العميق الحالم. كانت مرحة وأكثرت من الكلام في حين لذت أنا بالصمت مكتفياً بالسماع والنظر إليها؛ والمعلم أيضاً كان مرحاً ويتصرف كعادته؛ ذلك لأننا – نحن الأقارب- حين تحل بنا الأقدار والآلام لا نظهر الحزن والأسى بل تقريباً منذ اللحظة الأولى نتصرف بالتماسك نفسه وتناوب الأمل والخوف وخداع النفس نفسه تماماً كالمصابين أنفسهم. ومع ذلك فقد حذر المعلم ابنته الآن ألاَّ تكثر من الكلام ثم سألني عما إذا كنت أعلم سبب هذه السفرة القصيرة وأضاف: "أجل، يا عزيزي هاينريش! يبدو أن ابنتي آنّا في طريقها إلى أن تصاب بمرض عضال! لكن لنحتفظ بقوة عزيمتنا ولا نيأس! قال لنا الطبيب إنه ليس لديه في الوقت الحاضر الكثير مما يقوله أو يفعله بهذا الشأن. أعطانا بضعة إرشادات تتعلق بما ينبغي علينا أن

نتصرف وأمرنا بالعودة بهدوء وبالعيش هناك في القرية بدلاً من أن ننتقل إلى هنا، لأن الهواء هناك يلائمنا أكثر. وهو ينوي توجيه رسالة بهذا الخصوص إلى طبيبنا والسفر إلينا من حين لآخر لتفقد الوضع".

لم أعرف بماذا أرد على كلامه كما لم أعرف كيف أُبدي مشاركتي الوجدانية؛ بل احمر وجهي تماماً وتملكني الحياء من أنني لست مريضاً أيضاً. بالمقابل نظرت آنَّا إلي حين كان أبوها يحدثني بابتسامة رقيقة كما لو أنها أشفقت علي جراء اضطراري لسماع أشياء مؤلمة من هذا القبيل.

بعد تناول الطعام طلب المعلم مني أن أطلعه على أعمالي وأريه بعضاً منها؛ فأحضرت محفظة مليئة بالرسوم وحكيت له عن معلمي في فن الرسم؛ ولكنه لم ينشغل طويلاً بهذا الموضوع بل جهز نفسه للقيام ببعض المشاوير وشراء بعض الأغراض. فرافقته أمي في حين بقيت أنا وحدي مع آنَّا. كانت آنَّا تتابع رسومي المشاهدة بعناية واهتمام؛ وطلبت مني وهي جالسة على المقعد أن أريها وأشرح لها كل شيء. وبينما كانت تشاهد رسومي المتعلقة بمناظر الطبيعة وربوعها، كنت أنظر إليها من عل وكان علي في بعض الأحيان أن أنحني إلى الأسفل وأحياناً أخرى كنا نمسك معاً لوحة في أيدينا مدة طويلة؛ لكن فيما عدا ذلك لم يحدث بيننا أي شيء ذو طابع حميم؛ لأنها بينما كانت عندي من جديد كائناً آخر مختلفاً عما قبل وتحرجت من أن أجرحها ولو عن بعد، فقد أمطرت رسومي بكل ملاحظات السرور والاكتراث ولم تشأ أن تنشغل عنها بينما لم تعرني أي نظرة أو اهتمام.

وفجأة قالت آنَّا: "عمتنا زوجة القس تبلغك بواسطتنا أن عليك أن تخرج معنا في الحال لزيارتهم وإلا فسوف تسخط عليك! هل تريد السفر معنا؟" فأجبت: "نعم، أستطيع الآن أن أسافر معكما" ثم أضفت: "يا إلهي ، ما بكِ؟" قالت: "أنا ذاتي لا أعرف ما بي، أنا متعبة دائماً وأتوجع أحياناً بعض الشيء؛ الآخرون ينشغلون بهذا الوضع أكثر مما أنشغل أنا به!".

عادت أمي إلى البيت وعاد معها المعلم؛ إلى جانب صرر صيدلانية غريبة وضعها المعلم على الطاولة مع تنهيدة خفية أحضر معه أيضاً بعض الهدايا لآنَّا: أقمشة جيدة لصنع الملابس، خمار كبير دافئ وساعة ذهبية كما لو أنه أراد بهذه الأشياء الثمينة وذات الاستخدام الدائم أن ينتزع من القدر تحولاً ملائماً لوضع ابنته. وحين ارتعبت آنَّا من جراء رؤيتها هذه الهدايا قال أبوها أن أنَّا تستحقها منذ زمن طويل، وثمنها القليل من المال لم يكن له قيمة عنده لولا أنه يعد لها به شيئاً من السرور والسعادة.

أظهر المعلم اغتباطاً بسفري معه ومع ابنته وأمي كذلك رحبت بذلك وأعدت لي بعض الأغراض في حين ذهبت أنا لجلب العربة من الفندق الذي كانت مركونة في محيطه. بدت آنَّا في منتهى الظرف والجاذبية حين جلست في العربة إلى جانب المعلم مقنَّعة تماماً ومحجَّبة. وجلست أنا في المقعد الأمامي ممسكاً بيديَّ رسن الحصان المعلوف جيداً الذي كان نفد صبره وأخذ يضرب الأرض بحوافره؛ وانشغلت أمي بالعربة وقتاً طويلاً وكررت عروضها على المعلم بتقديم كل مساعدة لازمة وإذا احتاج الأمر إلى مجيئها لرعاية آنَّا وتمريضها فهي مستعدة لذلك؛ والجيران أخرجوا رؤوسهم من النوافذ وعززوا اعتدادي بنفسي حين قدت العربة على طول الشارع الضيق ومعي أخيراً جماعتي الأنيسة الظريفة.

في ربوع الريف تألق عصر خريفي مشمس، وفي ذلك الجو الرائع سارت بنا الطريق عبر القرى والحقول، رأينا الغابات والمرتفعات مضطجعة في أريج رقيق، وسمعنا أبواق الصيادين في الأمكنة البعيدة وطالعتنا في كل مكان عربات نقل كثيرة وهي تجلب محاصيل الخريف الوفيرة إلى مخازنها؛ هنا أعد الناس الأواني اللازمة لقطف العنب وصنعوا براميل كبيرة وهناك اصطفوا في الحقول لكي يقتلعوا الثمار الجذرية؛ وحرثوا الأرض في أمكنة أخرى وتجمعت في أثناء ذلك كل العائلة حيث كانت شمس الخريف أغوتها للخروج من البيت والانتشار في الحقول؛ كل الربوع كانت تعج بالحركة

والحيوية والرضا. كان الهواء عليلاً بحيث ردت آنّا حجابها الأخضر إلى الوراء وأظهرت وجهها المليح. كنا نسينا نحن الثلاثة لماذا اخترنا في واقع الأمر هذه الطرقات؛ كان المعلم في أثناء ذلك ميالاً إلى تجاذب أطراف الأحاديث فروى لنا حكايات كثيرة عن المناطق التي مررنا بها وأرانا المساكن التي أقام فيها مشاهير الرجال، الذين دلت أراضي مزارعهم المنظمة بعناية فائقة والنظيفة بصورة لافتة على ذكاء أصحابها. هنا وهناك كانت تقيم ابنة جميلة أو اثنتان من بنات هؤلاء، وكنا نحاول في أثناء مرورنا إلقاء نظرة عابرة علنا نرى المقيمات هناك فإذا ما أفلحنا كانت آنّا تلقي التحية بلباقة متواضعة تجدر بمن هن بمثابة زهور البلاد وزينتها الجميلة.

ولكن كان حل الظلام منذ فترة قصيرة قبل أن نصل إلى الهدف ومع حلوله خطر لي فجأة أنني كنت وعدت يوديت أن أزورها في كل مرة لدى مجيئي إلى القرية. كانت آنّا غطت وجهها من جديد. أما أنا فكنت الآن أجلس بجانبها في حين تسلم المعلم، الذي كان ملماً بمعرفة طرقات المنطقة أكثر مني، زمام الحصان وقاد العربة؛ وبما أننا لزمنا الصمت بسبب الظلام فقد توفر لي بعض الوقت للتفكير فيما أريد أن أفعل.

كلما بدا لي التزام وعدي إزاء يوديت أمراً غير مناسب وكلما ورد في الحسبان أن أوجه إهانة ولو في الذهن فحسب إلى المخلوقة التي أحس بها إلى جانبي وهي الآن تستند إليّ برقة ووداعة، أصبحت القناعة في الجانب الآخر أكثر إلحاحاً بأنني في النهاية لا يجوز أن أخلف بوعدي لأن يوديت ما كانت لتفرج عني لولا ثقتها بالوعد الذي قطعته على نفسي، ولم أتردد لحظة في التصور أن الإخلال بالوعد سوف يكدرها ويؤلمها. لم يكن يجوز مهما كلف الأمر أن أظهر أمامها هي تحديداً من الوجهة الرجولية خصوصاً كرجل أعطى وعداً بدافع الخوف وأخلف بوعده بدافع الخوف أيضاً. هنا وجدت مخرجاً هو غاية في النباهة والذكاء، على حد ظني، وعولت عليه تسويغاً لي أمام نفسي ذاتها. كنت بحاجة إلى الإقامة في بيت المعلم فحسب ومعنى ذلك

أنني لم أكن في القرية وإذا ما زرت القرية في أثناء النهار لم أكن ملزماً لقاء يوديت التي كانت اشترطت علي أن أزورها ليلاً فقط وبسرية تامة في أثناء إقامة لي في القرية.

لذلك حين وصلنا إلى بيت المعلم ووجدنا العمة زوجة القس بانتظارنا مع أحد أبنائها وابنتين أخريين بنية اصطحابي فوراً في عربتهم إلى بيتهم، أعلنتُ فجأة أنني أريد البقاء هنا والخادمة العجوز كاترين أسرعت في إعداد مبيت من أجلي بينما ذهبت آنَّا، التي كانت جد متعبة وأضناها المرض وداهمها السعال، إلى السرير في الحال. قادتني آنَّا إلى طاولة مجهزة ومرتبة بظرف وكياسة وعليها كتبها وأغراض عملها وورق وأدوات كتابة ثم أشعلت النور فوق الطاولة وقالت وهي تبتسم: "أبي يبقى معي كل مساء إلى أن يغلبني النعاس ويقرأ لي أحياناً شيئاً من النصوص. ربما يمكنك هنا أن تشتغل فترة طويلة. انظر، هنا أصنع شيئاً من أجلك!" وأرتني قطعة تطريز بوصفها مشروعاً لمحفظة صغيرة أعدتها طبقاً لتلك الرسمة من الزهور، التي كنت أهديتها لها قبل عدة أعوام في أدغال العرائش. هذه اللوحة البدائية عُلقت فوق طاولتها. بعد ذلك مدت لي يدها وقالت بصوت منخفض وحزين لكن في غاية الرقة واللطف: "ليلةً سعيدة!" فقلت أنا أيضاً بصوت منخفض مشابه "ليلة سعيدة".

بعد ذلك ببضع لحظات دخل المعلم إلى الغرفة ورأيت أنه يأخذ معه كتاب صلوات ملفوف بشكل جميل بغلاف حين ابتعد عنا من جديد لكي يذهب إلى غرفة آنَّا. بالمقابل صرت أنا أعاين كل الأشياء الصغيرة الجميلة التي كانت على الطاولة ولعبت بمقصها ولم أستطع أن أفكر بجد أن آنَّا هي الآن عرضة لخطر محدق.

* * *

الفصل الرابع

يوديت

بما أنني كنت ضيفاً في بيت حبيبتي، فقد استيقظت في الصباح مبكراً جداً وذلك قبل أن تدب الحركة لدى أي مخلوق. فتحت النافذة وسرحت نظري فترة طويلة في ربوع البحيرة، التي كانت مرتفعات ضفافها تتلألأ بفعل شفق الصباح في حين مازال القمر المتأخر واقفاً في السماء وانعكس بقوة في المياه القاتمة. رأيته يشحب شيئاً فشيئاً أمام الشمس، التي ذهَّبت الآن رؤوس الأشجار الصفراء ورمت شعاعاً خافتاً فوق البحيرة الصائرة إلى الزرقة، ولكن في الوقت ذاته بدأ الهواء يحتجب، وسرى ضباب خفيف كحجاب فضي حول كل الأشياء وفي حين أزال هذا الضباب صورة لامعة بعد أخرى بحيث تحركت رقصة دائرية قوامها تفريق واختفاء لامعان، غدا الضباب فجأة كثيفاً إلى حد أنني لم أعد أرى أمامي سوى الحديقة الصغيرة وفي بادئ الأمر حجب هذه أيضاً وتغلغل إلى النافذة حاملاً رطوبة كثيفة. أغلقت النافذة وخرجت من الغرفة فوجدت كاترين العجوز في المطبخ بجانب النار المضيئة المؤنسة.

تجاذبنا أطراف الحديث طويلاً؛ وأمطرتني هي بنواح رقيق حول وضع آنًا المقلق، ثم أخبرتني منذ متى بدأ هذا الوضع ولكن من دون أن تتضح لي بحال من الأحوال الطبيعة الحقيقية لهذا الوضع لأنها استخدمت بعض الرموز والإشارات الغامضة والمنطوية على أسرار خفية. ثم بدأت بعد ذلك بفصاحة تمس شغاف القلب ولكنها بارعة تماماً بامتداح آنًا والتأمل في حياتها حتى

الآن ومن ثم رجوعاً حتى سني طفولتها فرأيت أمامي بوضوح من جراء تلك الفصاحة ذلك الملاك الصغير بعمر ثلاث سنوات وهو يقفز هنا وهناك في ثياب موصوفة بدقة، ولكن بالطبع رأيت أيضاً سرير مرض في أول عهده ويعج بالأوجاع وقد أُلقيت عليه فيما بعد تلك المخلوقة الصغيرة سنين متعددة بحيث تراءى لي الآن جثمان صغير ناصع البياض وممدد على طوله وذو وجه صبور وذكي ومبتسم دائماً. ولكن هذا الغصن المريض عوفي، والتعبير العجيب عن الحكمة المبكرة التي نجمت عن الألم توارى من جديد إلى موطنه المجهول فزها طفل على سجيته الوردية وكأن شيئاً لم يكن، وذلك وقت رأيته لأول مرة.

أخيراً أتى المعلم الذي لم يعد يسره الاستيقاظ في وقت مبكر من كل يوم، ما دامت ابنته كانت تبقى في سريرها في الصباح وتنام لفترة أطول من ذي قبل، بل أصبح يوزع وقته تماماً طبقاً لتوزيع وقت ابنته المريضة. بعد فترة غير وجيزة ظهرت آنَّا وتناولت فطورها المعد لها وفقاً لتعليمات الطبيب، بينما تناولنا نحن فطورنا المعتاد. عبر ذلك ساد على الطاولة جو من الكآبة وتحول شيئاً فشيئاً إلى تأمل جدي عندما بقينا نحن الثلاثة جالسين وصرنا نتجاذب أطراف الحديث. تناول المعلم كتاباً، وهو "خلافة المسيح" من تأليف توماس كيمبيس، وقرأ علينا بضع صفحات منه، بينما انشغلت آنَّا بعملها في التطريز. بعد ذلك بدأ أبوها بحديث عما قرأ لتوه بقصد إشراكي فيه واختبار مقدرتي على التقويم وإصدار الأحكام ومن ثم التخفيف منها وفقاً للطريقة المتعارف عليها وتعزيز البنيان الداخلي المشترك ومن ثم توجيهه إلى نقطة التقاء بناءة. ولكنني كنت طوال الصيف المنصرم فقدت الرغبة بصورة شبه تامة في أحاديث من هذا النوع وكان اهتمامي متجهاً إلى ظهور وتجسيد حسيين، وحتى التأملات المبهمة حول الخبرات التي حصلت عليها من جراء عملي تحت إشراف رُومر كان لها طابع حسي دنيوي تماماً. إضافة إلى ذلك أحسست أن عليَّ الآن أن أراعي آنَّا إلى أقصى حد، وحين لاحظت أكثر من

ذلك حتى إنها بدت سعيدة لرؤيتي حبيساً في بيتها وعرضة لعملية هداية ناشئة، حرصتُ على ألاَّ أبدي أي معارضة وعبرتُ حينئذ عن استحساني الصادق لتلك الجمل التي تحتوي على حقائق أو المصوغة بتعابير جميلة وقوية أو استسلمت للكسل الحلو من جراء تأملي الألوان الجميلة في كُبَب آنَّا الحريرية الصغيرة.

كانت آنَّا تمتعت بقسط كبير من الراحة وبدت نشيطة وحيوية بحيث لم يلاحظ ثمة فرق كبير بين مظهرها الحالي والسابق في أثناء النهار. سررت لذلك وانطلقت إلى القرية لكي أصل في وضح النهار، وأنا في مأمن من يوديت، إلى بيت القس وأعود أدراجي من هناك.

حين خرجت في الضباب الكثيف كنت مبتهجاً ولا بد لي من أن أضحك من جراء حيلتي الغريبة خصوصاً أن التجول الخفي في الطبيعة القاتمة المعتمة جعل سيري شبيهاً تماماً بطريق سري ملتوٍ. صعدت عبر الجبل ووصلت فوراً إلى القرية؛ لكنني ضللت الاتجاه بسبب الضباب ورأيتني أنتقل إلى شبكة من الدروب الضيقة عبر الحدائق والمروج، تارة إلى بيت ناءٍ منعزل وتارة أخرى إلى خارج القرية تماماً. لم أكن أستطيع الرؤية على بعد أربع خطوات؛ كنت أسمع دائماً أناساً دون أن أراهم، ولكن شاءت المصادفات ألاَّ أرى أحداً في طريقي. هنا أتيت إلى بداية مفتوحة وقررت الدخول منها لعبور كل المزارع لكي أصل أخيراً مرةً أخرى إلى الشارع الرئيسي. وقعت في حديقة أشجار كبيرة فاخرة وكانت تتدلى من كل أشجارها ثمار ناضجة في منتهى الروعة والجمال. ولكنني لم أستطع أن أرى بوضوح سوى شجرة واحدة في حين وقفت باقي الشجرات في دائرة حولها، نصف محجوبة عن الرؤية ومن خلفها سُد المكان من جديد بجدار أبيض من الضباب. وفجأة رأيت يوديت آتية باتجاهي وهي تحمل سلة كبيرة مليئة بالتفاح بكلتا يديها بحيث غدا خيزران السلة يطقطق بصوت منخفض من جراء الحمل الثقيل. كان جمع الفاكهة هو تقريباً العمل الوحيد الذي تفرغت له بحب وحماس.

كانت رفعت ثوبها قليلاً بسبب العشب المبلل وأظهرت أجمل قدمين؛ وكان شعرها ثقيلاً بفعل الرطوبة ووجنتها محمرة بأرجوان نقي من جراء هواء الخريف. هكذا أتت باتجاهي وهي تنظر إلى سلتها، رأتني فجأة ووضعت وهي ممتقعة اللون في البداية سلتها على الأرض وأسرعت بعد ذلك وعليها علائم أكبر السرور وأصدقه باتجاهي، ثم عانقتني وأمطرتني بنصف دزينة من القبل على شفتيَّ، فكان مني أن بذلت جهداً كبيراً لئلا أقابلها بالمثل وأبعدت نفسي أخيراً عن صدرها.

قالت وهي تضحك مسرورة: "انظر، انظر! من الآتي؟ ياللك من صبي ذكي، أتيت إلي اليوم مستغلاً الضباب الكثيف لكي تغزوني قبل حلول الليل؛ لم أكن أتوقع منك ذلك!". قلت وأنا أنظر جانباً: "كلا، أتيتُ البارحة وأقيم في بيت المعلم لأن آنَّا مريضة. وفي هذه الظروف الحرجة لا أستطيع بأي حال أن أزورك!". لاذت يوديت بالصمت فترة وشابكت ذراعيها ونظرت إلي نظرة ذكية وثاقبة بحيث ارتفع نظري إلى الأعلى متجهاً إلى نظرها هي.

وأخيراً قالت يوديت: " هذا بالطبع تصرف أكثر ذكاء مما كنت أعني في السابق، اللهم إذا كان في مصلحتك! وما دامت حبيبتنا المسكينة مريضة فسوف أتجاوب معك وأوافق على تعديل اتفاقنا. سوف يظهر الضباب على هذا النحو من الكثافة عدة ساعات في اليوم على مدى أسبوع واحد على الأقل. إذا ما أتيت إلي كل يوم، فسوف أجعلك في حل من التزامك المجيء إلى عندي في الليل وسوف أعدك في الوقت ذاته ألاَّ أعانقك وأقبلك بل سأجزرك إذا ما أردت أن تفعل ذلك معي؛ عليك فقط أن تجيبني في كل مرة عن السؤال ذاته بكلمة صغيرة ووحيدة من دون أن تكذب!". قلت: "أي سؤال؟" فأجابت: "سوف تعرفه عما قريب! تعال، عندي تفاحات جميلات!".

مشت أمامي إلى شجرة تفاح بدت أغصانها وأوراقها ذات منبت أكثر نبلاً وأصالة من الشجرات الأخريات وصعدت على سلم بضع درجات إلى الأعلى ثم قطفت بضع تفاحات ذوات شكل ولون جميلين. وقطعت بأسنانها

الناصعة البياض تفاحة منها كانت لا تزال تلمع في الأريج الرطب إلى نصفين ثم أعطتني النصف المعضوض وبدأت بالتهام النصف الآخر. التهمت أنا أيضاً حصتي وبسرعة؛ كانت ذات نضارة ونكهة نادرتين ولأياً استطعت الانتظار إلى أن لقيت التفاحة الثانية المصير ذاته. وحين أكلنا ثلاث ثمرات بهذه الطريقة كان فمي مرطباً بحلاوة إلى حد أنني اضطررت إلى الامتناع عن تقبيل يوديت وانتزاع الحلاوة أيضاً من فمها هي. رأت ذلك ثم ضحكت وقالت: "قل لي الآن: هل تحبني؟". ونظرت إلي في أثناء ذلك بإصرار وثبات فلم أستطع، مع أنني كنت في تلك اللحظة أفكر بكل حيوية وتأكيد في آنَّا، أن أقول شيئاً آخر عدا "نعم"! فقالت يوديت عندئذ والسرور يغمرها: "ينبغي أن تقول لي هذا في كل يوم!".

إثر ذلك بدأت تهذر وتقول:" هل تعرف في حقيقة الأمر كيف هو وضع الطفلة الطيبة؟" وحين أجبتها أنني بالطبع لا أعرف شيئاً عن ذلك، تابعت قائلة:" يقال إن هذه الفتاة المسكينة ترى منذ بعض الوقت أحلاماً غريبة وتعتريها أحاسيس عجيبة وأنها سبق أن تنبأت ببضعة أشياء فحدثت بالفعل، وإنها في بعض الأحيان في المنام كما في اليقظة تتلقى فجأة نوعاً من التصور والإحساس بما يفعل أو لا يفعل في اللحظة الراهنة أشخاص بعيدون عنها لكنها تحبهم أو أين يوجدون أو كيف أحوالهم، وأنها الآن ورعة تماماً وتعاني أخيراً مرضاً في الصدر! أنا لا أومن بأشياء من هذا النوع، ولكن من المؤكد أنها مريضة وأتمنى لها من كل قلبي كل الخير لأنني أحبها من أجلك". ثم أضافت وهي غارقة في تفكيرها:" ولكن لا بد للجميع من أن يكابدوا ما قُدر لهم وكتب عليهم!".

وبينما كانت تهز رأسها بارتياب، عبرت أوصالي رجفة بسيطة وثمة حجاب نادر التف حول صورة آنَّا، التي لاحت لبصيرتي، فجعلها مختلفة تماماً عما كانت. وتقريباً في اللحظة ذاتها اعتراني أيضاً إحساس بأنها تراني الآن وأنا أمكث لدى يوديت في وضع سري وحميمي؛ ذعرت جراء هذا

التصور والتفتّ حولي. تبدد الضباب وعبر أنسجته الشفافة الفضية اللون كنت ترى السماء الزرقاء وبضع أشعة من الشمس سقطت متلألئة على الأغصان الرطبة وأضفت لمعاناً على القطرات التي سقطت وانفصلت عنها؛ كنت ترى الظل الأزرق لرجل عابر، وأخيراً تغلغل الوضوح إلى كل مكان وأحاط بنا ثم ألقى، كما كنا، بظلينا على أرض العشب المغطاة بشعاع شمس شاحب.

انصرفت مسرعاً وسمعت في بيت خالي تأكيداً لما أخبرتني به يوديت عن قصة آنّا؛ وبما أنني كنت محاطاً بالرعاية والعناية في ذلك البيت الذي يزخر بالحياة والحيوية، وسكن روعي بفضل الحديث الحميمي، صرت أبتسم من جديد إلى حد يستعصي على التصديق وسرني أنني وجدت في أبناء خالي الشباب رفاقاً لا يكترثون كثيراً لقصص كهذه. ولكن بقي في نفسي دائماً شعور مختلط، لأن الميل إلى ظواهر من هذا النوع، ومن ثم مطلب هذا الميل، بدا لي أنه شبه تطاول لم أستطع بأي حال من الأحوال أن أنسبه إلى آنّا الطيبة بل إلى مخلوق غريب عني ولا أطيقه، ولكنني رأيتها الآن تتقمص فيه. وهكذا واجهتها حين عدت في المساء إلى بيت المعلم بشيء من الجفول والاستحياء، ولكنهما ما لبثا أن تبددا من جديد بفعل حضورها اللطيف؛ وحين بدأت الآن هي ذاتها، بحضور أبيها، تحكي بصوت منخفض عن حلم كانت رأته قبل بضعة أيام ولاحظت أنا لهذا السبب أنها تريد أن تقحمني في السر الموهوم، عندها آمنت دونما إبطاء بقضيتها وعاملتها باحترام ثم تأكدت من أنها تزداد لطفاً وتجاوباً بقدر ما كنت أشكك فيه سابقاً.

حين وجدت نفسي وحيداً أمعنت التفكير في الأمر وتذكرت أنني سبق أن قرأت عن حكايات كهذه حيث أُشير، دون الإقرار بشيء عجيب أو فوق طبيعي، إلى مجالات وقدرات في الطبيعة ذاتها لم يتم بعد اكتشافها، وكان علي بوجه عام أن أقر – لدى تأمل ناضج - بإمكانية وجود بعض الروابط والقوانين الخفية وذلك إذا ما أردت أن أقر بإمكانيتي الأكبر، أي الله، وألا أنفيها إلى عزلة مقفرة.

كنت مستلقياً في سريري حين اتضحت لي هذه الأفكار وخطرت في مخيلتي براءة آنَّا وصدق نيتها التي لا بد من أخذهما أيضاً بالحسبان؛ وحالما اعتراني هذا التصور تمددت بارتياح وشبكت يديَّ برقة فوق صدري ثم اتخذت وضعاً مختاراً ومثالياً إلى أقصى حد لكي أنجح مع مرتبة الشرف إذا ما قدر لعين آنّا، المتحالفة مع الأرواح، أن تراني. ولكن النعاس سرعان ما أخرجني من هذا الوضع غير المعتاد وساءني أن وجدت نفسي في الصباح في أكثر وضع ارتياحاً وابتذالاً في العالم.

استجمعت قواي بسرعة، وكما يغسل المرء في الصباح وجهه ويديه فقد غسلت إلى حد ما وجه روحي ويديه وتقمصت شخص مخلوق مركَّز التفكير ودقيقه، ثم أردت أن أسيطر على أفكاري وأكون واضحاً ونقياً في كل لحظة. على هذا النحو ظهرتُ أمام آنَّا، إذ أصبح حضور كهذا نقي وثابت يومياً أمراً سهلاً عندي؛ لأن وجوداً من نوع آخر في حضورها كان في الحقيقة أمراً متعذراً. أخذ الصباح مجراه من جديد كالبارحة، كان الضباب كثيفاً أمام النوافذ وبدا أنه يناديني للخروج. فإذا ما انتابني الآن اضطراب لزيارة يوديت فلم يكن ذلك تقلباً وضعفاً مفرطين بقدر ما كان عرفاناً بالجميل صادراً عن طيب قلب، أحسست به ودفعني إلى أن أكون لطيفاً إزاء ميل السيدة الفاتنة؛ لأنني بعد الفرحة العفوية والصادقة التي فاجأتها بها ليلة البارحة جاز لي الآن فعلاً أن أتخيل أنها عاملتني معاملة طيبة من القلب. وظننت أن بإمكاني أن أقول لها من دون أي حرج إنني أحبها، وغريب أنني بذلك لم أر أي قطيعة لمشاعري مع آنَّا ولم أكن على وعي بأنني بهذا التوكيد لم أعبر سوى عن رغبتي في أن أعانقها بلهفة وشدة. أضف إلى ذلك أنني رأيت زيارتي مناسبة جيدة لكي أسيطر على نفسي وأكون في المحيط الأكثر خطراً عرضة لأن يكشفني حلم غادر(*).

(*) من أحلام آنَّا، المترجم.

وسط هذه المراوغات ارتحلت إلى يوديت، ولكن ليس دون إلقاء نظرة وجلة باتجاه آنَّا التي لم أكتشف فيها أدنى شك. في الخارج ترددت من جديد، إلا أنني وجدت طريقي إلى حديقة يوديت غير آبه بأي شيء آخر. أما هي ذاتها فقد كان علي في بداية الأمر أن أبحث عنها فترة من الزمن لأنها، إذ رأتني مباشرة في مدخل الحديقة، اختبأت متسللة عبر سحب الضباب ذهاباً وإياباً فغدت بذلك هي ذاتها حائرة مرتبكة، فتوقفت أخيراً عن التحرك وصارت تناديني بصوت منخفض إلى أن وجدتها. قمنا كلانا بحركة لا إرادية أوشكنا من خلالها أن نتعانق ولكننا تراجعنا واكتفينا بالمصافحة. كانت يوديت لا تزال تجمع الفاكهة، غير أن تلك الأصناف منها التي هي أكثر نبلاً وجودة وتنمو على أشجار صغيرة؛ أما البقية فكانت تبيعها وتكلف الشارين أنفسهم بقطفها عن أشجارها. ساعدتُها في قطف ملء سلة من الفاكهة وتسلقت إلى أعلى بعض الأشجار التي لم تستطع يوديت الوصول إليها. وشاء العبث والمجون أن يصعدا بي أيضاً إلى أعلى هامة لشجرة تفاح سامقة إلى أن اختفيت في بحر الضباب. فسألتني يوديت وهي على الأرض ما إذا كنت أحبها فردَّدتُ على مسمعها، كما لو أنني أناديها من بين الغيوم، نَعَمي المعهودة. نادتني عندئذ مجاملة متملقة: "آخ، هذه أغنية جميلة، أنها لتشنف أذنيّ! انزل عن الشجرة، أيها العصفور الفتي، الذي يغرد بهذا الظرف واللطف!".

هكذا كنا نقضي ساعة من كل يوم قبل أن أذهب إلى بيت خالي؛ وكنا نتحدث في أثناء ذلك عن هذا وذاك من المواضيع، كنت أنا أتحدث كثيراً عن آنَّا فاضطرت يوديت إلى أن تصغي إلى كل أحاديثي بصبر كبير لكي أبقى عندها فحسب. لأنني في حين كنت أحب في آنَّا ذلك الجزء من ذاتي، الأفضل والأكثر روحانية وعقلانية، كانت يوديت تبحث من جديد عن الشيء الأفضل في شبابي مما قدم إليها العالم حتى الآن؛ ومع ذلك كانت ترى جيداً أن نصفي الحسي الشهواني هو الذي جذبها إلي؛ وإذا ما أحست أيضاً أن لقلبي في هذا الموضوع علاقة أكثر مما كنت أعرف أنا ذاتي فقد تحاشت أن ألاحظ ذلك

وتركتني أجيب عن سؤالها اليومي بحسن نية عن أساس أنه سؤال لا يعني شيئاً ولا أهمية له.

وكثيراً ما اقتحمت أنا أيضاً مكمن أسرارها وطلبت أن تحكي لي عن حياتها الخاصة ولماذا هي وحيدة وتعيش في عزلة إلى هذا الحد. كانت تفعل ذلك وكنت أصغي إليها برغبة جامحة. كانت اقترنت بزوجها المرحوم وهي ما تزال فتاة صغيره لأن شكله كان ينم عن جمال وقوة، ولكن تبين في ما بعد أنه كان غبياً وتافهاً ويتناول الناس بالأقاويل والإشاعات، وكان أيضاً فضولياً مثيراً للسخرية في ما تعلق بشؤون المطبخ والطعام؛ كانت كل هذه الصفات مخبأة خلف بلاهة الخاطب الصامتة. واعترفت يوديت بحرية ودون تردد أن موته كان عندها ضربة حظ كبيرة. وفيما بعد طلبها للزواج رجال يطمعون في ثروتها فحسب وسرعان ما يتوجهون إلى أماكن أخرى إذا ما استشعروا بضع مئات أكثر من الغولدن. ورأت كيف تزوج رجال مزدهرون وأذكياء ومهرة نساءً مائلات جانباً وشاحبات اللون ولهن أنوف مدببة ويمتلكن أموالاً كثيرة، ولذلك فهي تسخر من الجميع وتعاملهم بازدراء وجفاء. ثم أضافت تقول: و"لكن لابد لي من التكفير عما ارتكبت، لماذا تزوجتُ حماراً جميلاً!".

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الخامس

حماقة الفنان والتلميذ

بعد ثمانية أيام عدت إلى المدينة وبدأت عملي من جديد تحت إشراف رُومر. وبما أن الرسم في العراء بين أحضان الطبيعة وطبقاً لها قد ولى عهده ثم لم يعد ثمة رسوم للنسخ، فقد أرشدني رُومر إلى محاولة أن أصنع مما اكتسبت عملاً كلياً ومستقلاً. كان علي أن أبحث بين رسومي عن موضوع وأتوسع به إلى لوحة صغيرة ثم أحدده. قال لي رُومر: "ما دمنا هنا نفتقر إلى كل الوسائل اللازمة عدا محفظتي الخاصة التي سوف تنسخ طيلة هذا الشتاء كل ما فيها من لوحات ورسوم فتنقلها بذلك إلى محفظتك أنت، هذا اللهم إن سمحتُ لك بذلك؛ فمن الأفضل إذاً في هذه الحال أن نعمل على النحو التالي؛ صحيح أنك لا تزال صغير السن لهذا العمل ولا بد لك من أن تنطلق من البداية مرة أو مرتين بخبرات جديدة قبل أن تنجز عملاً يبقى طويلاً وله صفة الديمومة، ولكن دعنا نحاول ملء مربع بالرسوم بحيث تستطيع أن تبيعه عند الضرورة!".

كانت التجربة الأولى تماماً على ما يرام؛ وكذلك الثانية والثالثة. وكان من شأن النسمات العليلة وبساطة الموضوع وخبرة رُومر الأكيدة أن جعلت الأسس، التي قامت عليها الرسوم، ينضم بعضها إلى بعض كما لو أنها تنجز ذلك من تلقاء ذاتها، فقد تم توزيع الضوء من دون أي صعوبات امتلأ كل جزء بالضوء والظل بتعقل ووضوح بحيث لم تبق أمكنة مبهمة وعاجزة عن التعبير. ولشد ما أفرحني أن أضع في الظل مشروعاً أو بضعة مشاريع أُخذت عن

لوحات كانت رُسمت في الضوء أو العكس بحيث يوضع نصب الأعين عن طريق إمعان ذاتي في التفكير وحسابات مدروسة هدف جديد وحتمية وحيدة، بحسب شروط لون المكان والوقت من اليوم والسماء الزرقاء أو المغطاة بالغيوم والأشياء المجاورة، التي لابد من أن تعكس كثيراً أو قليلاً الضوء واللون. وحين كنت أفلح في الحصول على درجة اللون المرجحة، التي قد تحوم في ظروف مشابهة فوق الطبيعة ذاتها - الأمر الذي بدا للعيان في الحال، إذ إن درجة لون حقيقية تمارس باستمرار سحراً مميزاً تماماً - كان يتسلل إلى أعماقي شعور بالاعتزاز يتراءى لي فيه توحد خبرتي مع نسج الطبيعة.

ولكن ثبت أن الفرحة ازدادت صعوبة حين اتسعت المشاريع وازداد مضمونها غنىً وظهرت من جديد، عبر هذه الفعالية، رغبتي في الابتكار وغطت على كل شيء. الكلمة المنطوية على أهمية شديدة "تركيب" طنت في أذنيَّ بنبرة المباهاة والافتخار، وحين صممت مخططات أولية كانت معدة للتنفيذ أرخيت الأعنة لرغباتي ونوازعي. عقدت العزم على أن أضع في جميع الأمكنة زوايا ومواقع رومانسية وأقيم صلات ومعانيَ غنية بالمبادرات والخواطر ولو كانت تتعارض مع الهدوء اللازم والبساطة الضرورية. ترك لي رُومر المجال لتنفيذ مخطط كهذا دونما تشذيب أو تهذيب، وحين أبى ذلك النتاج الرديء أن يريحني، دون أن أعرف لماذا، بيَّن لي رُومر وهو يشعر بالانتصار أن الوسائل التقنية وحقائق الطبيعية بتفاصيلها ليست بذات تأثير بسبب بنية العمل الفني الطامح والمطلوب ولا تستطيع أن تتحول إلى حقيقة كلية بل هي تتدلى حول رسمتي البارزة كزخارف ملونة حول هيكل عظمي؛ أجل وبيَّن لي رُومر أيضاً تعذر وجود حقيقة جديدة حتى في التفاصيل وفي توفر النية الحسنة، لأن نضارة الطبيعة قبل الابتكار الغالب وقبل الروحانية المتطاولة (على حد تعبير رُومر) تنسحب على نحو ما إلى الوراء بطريقة هشة من رأس الريشة إلى مقبضها.

قال رُومر: "على أن هناك اتجاهاً يقوم في المقام الأول على الابتكار على حساب الحقيقة المباشرة. ولكن لوحات من هذا النوع تشبه شعراً مكتوباً أكثر مما تشبه رسومات فعلية مثلما توجد أيضاً اشعار من شأنها أن تولد انطباعاً عن صورة مرسومة أكثر منها كلمة من نتاج الفكر والعقل. لو كنت في روما ورأيت أعمال الفنان العجوز كوخ أو راينهارد، فإنك سوف تنضم بافتتان كبير نظراً إلى نزعتك الألمانية إلى هذين العجوزين الفريدين من نوعهما؛ ولكن من حسن الحظ أنك لست هناك لأن هذا أمر ينطوي على خطر على شاب فتي مثلك، فهو يقتضي تأهيلاً متقناً وعلمياً تقريباً ومقدرة شديدة وأكيدة وعظيمة على الرسم وقائمة على أساس دراسة التشكيل البشري أكثر منها على دراسة الأشجار والشجيرات؛ باختصار: يقتضي ذلك توفر أسلوب كبير من شأنه أن ينحصر في أهمية خبرة غنية تماماً لكي يُنسى بريق حقيقة مزيفة في الطبيعة؛ وبهذا كله حكم على المرء بغرابة الأطوار الأزلية وبالفقر وذلك حق لأن الأسلوب برمته غير صحيح وسخيف أيضاً!".

لم أرتضِ كل هذه الأقوال لأنني سبق أن لاحظت أن الابتكار ليس نقطة القوة عنده، لأنه تكرر أكثر من مرة في أثناء تصحيحه تنسيقاتي أنه لم يرَ حتى مواقع محببة في سلاسل جبلية أو ودياناً في غابات مما ظننت أنها غاية في الأهمية وإلاَّ لعلَّم عليها بتظليلها برفق بواسطة قلم رصاصي ضخم محولاً إياها إلى أساس قوي يبنى عليه، لكن ليس بذي أهمية أي لا يقدم ولا يؤخر. وحتى لو فرضنا أن هذه المواقع كانت مزعجة، مع ذلك كان عليه في رأيي أن يلاحظها ويفهمني ويقول شيئاً عن هذا الموضوع.

لذلك تجرأت على أن أعارض رُومر وحمَّلت الألوان المائية مسؤولية كل إخفاق لأنها تفتقر إلى القوة والحرية، وعبرت عن حنيني إلى الجيد من قماش الكتان المخصص للرسم وإلى الألوان الزيتية إذ يكتسب كل شيء من تلقاء ذاته شكلاً ووضعاً جديرين بالاحترام. بذلك هاجمت معلمي في عقر داره إذ إنه كان يؤمن ويزعم أن معشر الفنانين قاطبة لا يعملون ولا يُظهرون

فنهم بصورة كافية وعلى خير وجه إلا بفضل بعض الورق الأبيض وبعض أقراص التلوين الإنكليزية. كان أتم مسيرته ولم يفكر بإنجاز أي شيء آخر زيادة على ذلك؛ ولذلك شعر بالإهانة حين أعلنت أنني لا أعد ما تعلمته عن طريقه إلا محطة في مسيرة طويلة وأشعر أنني أهل لما هو أعلى وأفضل. وغدا أكثر حساسية حين تحملت بعناد وإصرار نزاعاً متكرراً حول هذا الموضوع ولم أتخلَّ عن آمالي وطموحاتي ولم أعد أتقبل أقواله بالضرورة إذا ما تعلقت بعموميات الأمور، لا بل كنت أدحضها وأفندها غير هياب ولا مكترث. السبب في ذلك كان يعود في المقام الأول إلى أن أحاديثه وإخباراته في ما عدا ذلك كانت تزداد باستمرار غرابة ولفتاً للنظر مما أسهم في إضعاف تقديري لقدرته على إصدار الأحكام وتقويم الأمور. واتفق بعض من ذلك مع الإشاعات الغامضة التي انتشرت عنه بحيث وجدت نفسي لفترة طويلة في حالة من التوتر المؤلم إلى أقصى درجة عايشت في أثنائها كيف تحول معلم محترم وجدير بأن يعول عليه إلى شخص لا أغرب ولا أغمض.

منذ بعض الوقت كانت أقواله عن الناس والأوضاع قد أصبحت باستمرار أقسى فأقسى وفي الوقت ذاته أكثر تحديداً، وذلك بأن توجهت بصورة أكثر حصرية إلى الأمور السياسية. كان يرتاد في كل مساء جمعية لإعارة المجلات وقراءتها ويقرأ هناك الصحف الفرنسية والإنكليزية ثم اعتاد أن يدون أشياء كثيرة وأن يستخدم في منزله قصاصات ورق سرية كثيرة وكثيراً ما أصابه الهلع والذهول بسبب رسائل مهمة. وكان يتعاطى على خير وجه مع صحيفة جورنال دي ديبا. كان يسمي حكومتنا شرذمةً ساذجة من محدودي الأفق ومجلس الكنتونات حثالةً حقيرة وأوضاعنا في البلاد إجمالاً هراءً سخيفاً. صرت أندهش لذلك أيما أندهاش وأتحفظ بموافقاتي على آرائه أو أدافع عن أوضاع بلادنا، وعددته إنساناً متأزماً حاقداً كان من شأن إقامته الطويلة في مدن كبيرة غريبة أن غمرته باحتقار وطنه العزيز. وكثيراً ما كان يتحدث عن لويس فيليب ويطعن في تدابيره وخطواته كواحد يرى أن تعليمات

سرية لم تُتبع بدقة. وذات مرة أتى إلى البيت وهو يستشيط فظاظة وخشونة شاكياً من خطاب كان ألقاه الوزير تيرس. فزمجر وقال وهو يكرر مقتطفاً من صحيفة ثم يرميه أرضاً: "لا فائدة من التعاطي مع هذا الولد الصغير المعقد ولا يعول عليه في شيء، وكان ينبغي علي ألا أرى طول اللسان التحكمي هذا! كنت ظننت في السابق أنه تلميذي الأنجب". فسألت رُومر: "هل يرسم السيد تيرس أيضاً مناظر طبيعية؟. "ورد علي وهو يفرك يديه عبر حركة ذات مغزى: "تحديداً كلا! دعنا من هذا!".

ولكن سرعان ما لمح لي بعد ذلك أن كل خيوط السياسة الأوروبية التقت في يده وأن يوماً واحداً بل ساعة واحدة من الإهمال في عمله العقلي المجدّ، الذي أوشك أن ينهك جسمه، سرعان ما لوحظت من خلال فوضى شاملة استشرت في مجالات القضايا العامة وأن عدداً مضطرباً ومتوجساً من صحيفة جورنال دي ديبا يشير في كل مرة إلى أنه متوعك صحياً أو متعب ويفتقر إلى المشورة وحسن التدبير. نظرت إلى معلمي نظرة جدية فرأيت في وجهه الطلاقة والرزانة، أنفه المقوس كان واقفاً كالعادة في منتصفه وتحته الشاربان المعتنى بهما جيداً وفوق العينين لم تغزه أدنى رعشة غامضة.

دهشتي لم تدم طويلاً بل سرعان مازالت حين تناهى إلى علمي فضلاً عن كل ما سبق أن رُومر كان على حد قوله في آن واحد محوراً خفياً لكل حكومة في الدولة وضحية لطغيان وتنكيل لا مثيل لهما. وبدلاً من أن يعتلي على مرآى من كل الناس العرش الأقوى في أوروبا حسب أكثر من قانون، أُكره بطريقة غامضة كعفريت منفي على العيش في الخفاء والفقر بحيث لم يستطع الإتيان بأي حركة دون إرادة طغاته في حين كانوا يضخون من روحه كل يوم ما يحتاجون إليه لتأمين أغراضهم الدنيئة الشاملة. بالطبع لو أنه حصل على حقه وعلى حريته، لكان توقف في اللحظة ذاتها اقتصاد الفئران ولبزغ عصر حر ومضيء وسعيد. لكن تخليطات عقله الضئيلة، التي تستخدم بالقطارة، تجمعت ببطء وشكلت بحراً قوياً وقادراً على كل شيء بحيث كمن

في طريقة تعاطيها مع الأمور ألا يبيد أي منها او يلغى مرة أخرى، وفي ذلك البحر القاهر كل شيء سوف يعود حقه إليه ويخلص العالم؛ ولذلك كان يرغب صاحبنا في أن يرى شخصه الجسدي يعاني أشد المعاناة.

قال رُومر: "هل تسمع هذا الديك اللعين وهو يصيح، كانت هذه وسيلة من آلاف الوسائل التي استخدموها في تعذيبي؛ فهم يعرفون أن صياح الديك يهز منظومة أعصابي بأسرها ويعطل فيّ كل قدرة على الإمعان في التفكير والتبصر؛ ولذلك فهم يضعون في كل مكان ديوكاً بقربي ويدفعونهم إلى اللعب، حالما يحصلون مني على الأنباء العاجلة المطلوبة، لكي تتوقف منظومتي العقلية عن العمل بقية اليوم! هل تصدق أن هذا المنزل مليء تماماً بتمديدات مخفية بحيث تُسمع كل كلمة نتفوه بها ويُرى كل شيء نفعله؟".

التفتُّ حولي في الغرفة وحاولت أن أبدي بعض الاعتراضات ولكنها سرعان ما كُبتت بفعل نظراته وكلماته اللاذعة والغامضة والمهمة. طوال حديثي معه رأيتني في حالة نفسية غريبة، يستمع فيها صبي نصف مصدِّق إلى حكاية خرافية من رجل بالغ يحظى بحبه واحترامه؛ لكن حين أكون وحدي كان لابد من أن أعترف لنفسي بأن أفضل ما تعلمت حتى الآن كنت تلقيته من يد الجنون. هذه الفكرة لشد ما أغاظتني ولم أدرك كيف يمكن للمرء أن يكون مجنوناً. وغمرني شعور ما بالقسوة فنويت نية مؤكدة أن أبدد الغيمة السخيفة كلها بكلمة واحدة واضحة؛ غير أنني حين كنت أقف في مواجهة الجنون، سرعان ما كنت أحس بقوته وبكثافته في آن واحد وكان يسرني أن أجد كلمات فيما يتعلق بالأفكار الضالة قد تجود على رُومر المكابد ببعض التخفيف من معاناته عن طريق إطلاعه على معرفتي بأمره، لأنني لن أستطع أن أتجاهل أنه كان بالفعل تعيساً ومعانياً ويحس أيضاً بكل العذاب الذي توهمه.

كتمت جنون رُومر فترة طويلة عن كل الناس وحتى عن أمي، لأنني ظننت أن لكرامتي علاقة بالأمر معنية به ما دام اتضح أن معلماً وفناناً رائعاً مصاب بالخبل والجنون، وعز علي أيضاً أن أتجاوب مع الإشاعات الشنيعة

التي راجت حوله. ولكن حادثة مضحكة أغوتني ذات مرة فدفعتني إلى الحديث، فبعد أن كان يتحدث في أغلب الأحيان باهتمام بالغ تارة عن البوربونيين وأخرى عن النابليونيين وثالثة عن الهابسبورغيين حدث أن أقامت في مدينتنا لبضعة أيام والدة ملكة من احدى الدول الملكية وكانت سيدة طاعنة في السن ويرافقها خدم كثيرون وسيدات على الطراز القديم، وعلى الفور اعترت رُومر حالة من الاضطراب الشديد فصار يحوّل طريقنا في أثناء قيامنا بنزهات مشياً على الأقدام بحيث كان لا بد لنا من المرور بجانب الفندق الذي نزلت فيه تلك السيدة وكان يدخل إليه كما لو أن بينهما، مع أنه وصفها بأنها مولعة جداً بتدبير المكايد والمؤامرات وأنها أتت إلى مدينتنا من أجله، مواعيد للقاءات وأحاديث مهمة فكان يتركني بانتظاره فترة طويلة في الشارع. ولكنني كنت ألاحظ من الرائحة التي تنتشر منه إثر عودته أنه لم يُقِم في أثناء غيابه سوى في غرفة سائقي العربات وأنه تناول هناك قطعة من النقانق المثومة مع كأس من النبيذ. هذا العبث المرتكَب من رجل ذي مظهر نبيل وجدي كالسيد رُومر أغاظني بخاصة ما دام مقروناً بمكر مثير للسخرية والضحك. لذلك بدأت أحكي عن هذه المسألة في بيتنا كما في أمكنة أخرى أيضاً، ولشد ما أدهشني آنذاك أنني علمت أن شخصية رُومر النادرة كانت معروفة لدى الناس، ولكن بدلاً من أن تثير بينهم الشفقة والإسهام بمساعدته عُدّت نوعاً من رذيلة سيئة المقاصد ومن ثم كذباً متعمداً، شخصية تهدف إلى خداع الناس وتقديم كل ما هو مزيف وخطأ، على حسابهم. لابد أن اتفق مع بداية مرضه انتهاك للتواضع أو للتقاليد القويمة ارتكبه رُومر في البلاد الأجنبية البعيدة، أو ثمة التزام كان حل موعد الوفاء به ولم يفِ بذلك، لكن ما من أحد عرف تماماً ما حقيقة الأمر. الشخص المعني، الذي حافظ على درايته بالموضوع بطريقة سرية وجددها من حين لآخر لم يشأ أن يضطلع بأعباء الظهور على هيئة ملاحق متحامل بل عرف كيف يعزل المريض بطريقة حالت دون التحدث عن هذه المسألة ودون معرفة ذاك الشخص المريض أي شيء عنها. ولكن في حين حقق فنانون أقل أهمية منه

غاياتهم بارتياح تم تجاهل رُومر كما لو أنه غير موجود البتة فلم يقابَل جده، الذي لا غبار عليه ولم يفتر أو يخمد أبداً على الرغم من كل الاضطراب العقلي، بأي خطوة أو أي اعتراف أو شفاعة مجامِلة. عرفتُ فيما بعد أن رُومر كان في معظم الأحيان يعاني في أثناء فترة اختلاطنا بعضنا ببعض الجوع وكان يضحي في أثناء ذلك بإمكاناته الزهيدة في سبيل الإنفاق على مظهر خارجي نظيف.

حتى ولو لم أحمل التشنيعات المتداولة محمل الجد وأخذت أدافع عن الرجل ضد الإشاعة، فقد تزعزعت ثقتي بالمعلم رُومر وقلل ما قيل عنه من شأن نظرتي الشبابية إليه المتسمة بكل الإجلال والتقدير وتحاملت عليه إلى حد ما، ولكن مع فارق أنني قدرت عالياً- لاحقاً كما سابقاً- قيمته وأهميته بوصفه فناناً أصيلاً.

بعد أن قضيت أربعة أشهر تحت إشرافه، عنَّ على بالي أن أنسحب عادّاً أن المبلغ الذي كنت دفعته هو الأجر المكافئ لعمله في تلك المدة. ولكنه عبر عن رأيه مرات كثيرة في أن الأمر لا ينبغي أن ينظر إليه بهذه الدقة ولذلك لا يجوز أن تتوقف الدراسات الفنية وأعمال الرسم؛ بل على العكس، فهو يرغب بإلحاح في أن يستمر تعاوننا معاً. وهكذا لم أعد أعمل تحت إشرافه في منزله، بل صرت أزوره من حين لآخر وأستمع إلى نصائحه. على هذا النحو انقضت أربعة أشهر أخرى سألني في أثنائها، بدافع العوز والفاقة، ببساطة وبصورةٍ عرضية عما إذا كان بإمكان أمي أن تدعمه بقرض صغير لمدة قصيرة، وحدد على وجه التقريب مبلغاً مماثلاً لما سبق أن دفعناه له من قبل فأحضرت له ذلك المبلغ في اليوم ذاته. وفي فصل الربيع أفلح مرة أخرى بعد بذل جهود كبيرة في بيع واحدة من لوحاته فتحسنت بذلك ظروفه المادية وقرر الذهاب إلى باريس ما دام الشفاء من مرضه استعطى عليه هنا، كذلك دفعه الوهم أيضاً فيما عدا ذلك إلى توقع انتزاع حظ أوفر عبر تغيير مكان الإقامة. على الرغم من كل الغريزة الثاقبة، التي يتحلى بها شخص

مجنون وتعيس، فإن رُومر لم يستشعر عن بعد أن مصيره الفعلي أسوأ بكثير من آلامه المتخيَّلة، وأن العالم بأسره كان اتفق على أن يرى في سوء نفسه الموهوم التعويض المناسب عن لوحاته ورسوماته الجميلة والتعيسة.

رأيته كيف كان يحزم أمتعته للرحيل ويدفع بعض الفواتير المستحقة. وأنبأني بسفره الذي سيتم في اليوم التالي، ثم ودعني في الوقت ذاته بمودة ولطف مضيفاً بعض التلميحات الغامضة المتعلقة بالهدف من السفر. وحين نقلت الخبر إلى أمي سألتني فوراً عما إذا كان رُومر قال شيئاً عن النقود المقترضة أم لا.

كنت أحرزت تحت إشراف رُومر وتدريسه تقدماً حاسماً في مجال فن الرسم فعززت كامل قدراتي وآفاقي، وقد تعذر حسابه لا بل لم يعد ممكناً تصورُ مسيرة حياتي لولا كل ذلك التقدم. ولذلك جاز لنا أن نعد النقود التي دفعت تعويضاً محقاً وفي محله خصوصاً أن رُومر في الفترة الأخيرة لم يضن علي لاحقاً كما سابقاً بإسداء نصائحه القيمة. ولكن ظننا أننا حصلنا على دليل على صحة الإشاعات ولم نكن نعرف آنذاك بعد كم كانت حياته شقية وتعيسة؛ كنا نظن أنه ميسور الحال نظراً إلى أنه عمل على إخفاء فقره بدقة وعناية. أصرت أمي على وجوب إرجاعه المال الذي اقترضه منها وأغضبها أن يستولي أحد هكذا ببساطة على جزء مما كانت ادخرت لمصلحة ابنها العزيز. أما ما تعلمته واكتسبته على يد رُومر فلم تعره أي حساب لأن كل العالم في رأيها مسؤول عن إطلاعي على كل ما يعرف من أمور جيدة ومفيدة.

أما أنا فتارةً لأنني كنت في الآونة الأخيرة أيضاً متحاملاً على رُومر وعددته نوعاً من المحتالين وتارةً أخرى لأنني كنت أقنعت أمي بإقراضه المبلغ وأخيراً بدافع الافتقار إلى الحكمة وعمى البصيرة، لم أستطع الاعتراض لا بل كنت أشعر بالرضا للانتقام بسبب كل الأذى والظلم. لذلك حين أرسلت أمي رسالة قصيرة إليه وأدركت أنا أنه، إذا ما كان مصمماً على الاحتفاظ بنقودنا، لن يعير أي اهتمام لتذكير امرأة عادية في نظره أو إنذارها، استوليت

على رسالة أمي، التي كانت في كل الأحوال مرتبكة لمخاطبة رجل مرموق وغريب الأطوار كهذا الرجل، وأعددتُ رسالة أخرى كانت، ولا بد من أن أعترف بالخزي والعار، غائية غرضية. بلغة مهذبة لبقة راعيت أوهامه وغروره وشعوره بالكرامة، ولكن حين تحولت الرسالة المتواضعة إلى مرارة فحسب، أي حين لم يُراع توقع أن رُومر قد يسخر من كل ذلك صيغت تلك الرسالة في النهاية على أساس أنه سيرى نفسه مكشوفاً ومسبور الغور. غير أن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل ذلك؛ لأننا حين أرسلنا هذا الشيء الرديء بالبريد عاد الساعي بالسرعة القصوى ومعه المبلغ المطلوب. اعتراني الخجل قليلاً؛ ورأيتنا نتحدث الآن عنه بكل خير وأنه ليس سيئاً إلى هذا الحد وهلم جرا، لمجرد أنه أعطانا تلك الكمية الصغيرة التعيسة من الفضة.

أظن، لو أن رُومر تصور أنه فرس نهر أو خزانة طعام، لما قسوت عليه ولا كنت جحوداً إزاءه إلى هذا القدر؛ ولكن ما دام أراد أن يكون نبياً عظيماً فقد جرح ذلك شعوري بالغرور فتسلح بالأسباب الظاهرية المفتعلة.

بعد شهر واحد تلقيت من رُومر الرسالة التالية من باريس:

"صديقي الفتي العزيز!

أرى أنَّه لا بدَّ لي من إطلاعك على وضعي الصحي، ما دمت أتوقع أنه يجوز لي أن أضع في حسباني مشاركتك الوجدانية وصداقتك الحميمة إلى أبعد قدر ممكن. ألست مديناً لك أيضاً بتحرري النهائي وسيادتي النهائية! من خلالك، لدى طلبك مني أن أسدد ما لك بذمتي من نقود (بالطبع لم أنس في يوم من الأيام وجوب تسديدها، ولكنني أرجأت ذلك إلى لحظة أكثر يسراً وحرية)، انتقلت أخيراً إلى قصر آبائي وعدت إلى قَدري ومصيري الحقيقي! غير أن ذلك كلفني مشقة كبيرة. كنت نويت أن أنفق ذلك المبلغ على متطلبات إقامتي الأولى هنا؛ ولكن بما أنك طلبت مني إعادته إليك، لم يبق معي بعد استقطاع تكاليف السفر سوى فرنك واحد كان من أمره أن رافقني بدءاً من مكتب البريد. كان المطر يهطل بغزارة ولذلك استخدمتُ الفرنك المذكور

للسفر إلى مون بييت من أجل أن أرهن حقائبي هناك. بعد ذلك بوقت قصير رأيتني مضطراً لبيع مجموعاتي من اللوحات والرسومات إلى بائع كتب مستعملة لقاء وهبة بقشيش، والآن فحسب حين تحررتُ أخيراً بمنتهى السعادة من كل قناع كنت اتخذته بوصفي فناناً ومن كل الأدوات الفنية صرت أتسكع جائعاً في الشوارع من دون مأوى ومن دون ألبسة لكن مبتهجاً ومهللاً لحريتي، عندئذ وجدني بعض الخدم الأوفياء من أتباع سلالتي النبيلة وقادوني بتهليل الظفر والانتصار إلى البيت! ولكنني لا أزال أخضع للمراقبة من حين لآخر والآن أغتنم فرصة ملائمة لإرسال هذا النداء. لقد أصبحتَ ذا قيمة عندي، وأنوي أن أشترك معك في مشروع فيه كل الخير والفلاح! في غضون ذلك تقبل شكري من أجل التحول المواتي، الذي جلبته لي! ليت تعاسة الدنيا كلها تغزو قلبك، أيها البطل الفتي! ليت الجوع والشبهة وسوء الظن تلاطفك وتدللك وليت التجربة السيئة تكون رفيقة طاولتك وسريرك! بوصفك صبياً نبيلاً مصغياً أرسل إليك لعناتي الأزلية وبها أودعك بكل وفاء حتى إشعار آخر!

صديقك المتعاطَف معه

كتبت هذا على عجل، لأنني مشغول جدا!".

لم أعلم إلاً فيما بعد أن رُومر غاب عن الأنظار في مستشفى فرنسي للأمراض العقلية. كيف وصلت به الأوضاع إلى هذا الحد، ذلك ما يتضح تقريباً في الرسالة المذكورة آنفاً. فأمي، التي أخفيت عنها كل شيء، لا ذنب لها إلا كما لكل النساء اللواتي يصبحن بدافع القلق على ذويهن من دون أي تسامح أو مراعاة ضد العالم بأسره. أما أنا، الذي ظننت أنني في هذا الوقت ذاته إنسان جيد وطموح، فقد أدركت الآن ما كنت اقترفت من شيطنة وخبث. لم أكذب ولم أفترِ ولم أغش أو أكذب، كما فعلت في مرحلة الطفولة، ولكنني كنت جحوداً وظالماً وقاسياً تحت ستار الحق الظاهري. قد أقول لنفسي فترة طويلة من الزمن إن ذلك الطلب هو في حقيقة الأمر مجرد رجاء بسيط لتسديد

الدين كما يحاول ذلك كل العالم، وإنه لا أمي ولا أنا أصررنا مرة على ذلك بالقوة أو العنف؛ قد أقول لنفسي فترة طويلة من الزمن إن التجربة تصنع المعلم وإن المرء يتعلم على أفضل وجه إدراك هذا النوع من الظلم وتجنبه، بصفته الحال الأكثر حدوثاً وأسهل ارتكاباً، عن طريق المعايشة والتجربة؛ وقد أقنع نفسي أيضاً أن شخص رُومر ومصيره هما اللذان استثارا تصرفي حياله ولابد من أن يتحقق المقدر من دون ما صدر عني أيضاً: لكن هذا كله لم يمنع من أنني لمت نفسي أشد اللوم وخجلت أشد الخجل كلما كانت صورة رُومر تلوح في أفق مخيلتي. حتى لو لعنتُ البشر، الذين يعترفون بتصرفات كهذه ويعدونها ذكية ومحقة (لأن أكثر الناس عدلاً كانوا قدموا لنا التهاني بمناسبة استرجاعنا المبلغ)، فإن كل الذنب يقع من جديد علي وحدي حين أفكر في إعداد تلك الرسالة القصيرة التي كتبتها من دون أدنى جهد كما لو أنها لعبة تتم بمنتهى السهولة. كنت على وشك أن أصبح في سن الثامنة عشرة واكتشفت الآن فحسب كم عشت بهدوء وبحرية على سجيتي منذ اقترافي ذنوب التصابي وافتعالي أزماتها، طوال ستة أعوام! والآن فجأة هذه الفعلة المنكرة! وإذا ما أمعنت التفكير أخيراً كيف عددت ظهور رُومر الفجائي ذاك قدراً أعلى فإنني لم أعرف هل كان ينبغي علي أن أضحك أم أن أبكي على الشكر الذي تبرعت به من أجل ذلك. لم أجرؤ على حرق رسالة رُومر الرهيبة وخفت من أن أحتفظ بها؛ تارة كنت أدفنها تحت أغراض نائية معزولة وتارة أخرى كنت أسحبها وأضعها بين أحب أوراقي إلى نفسي ولا أزال حتى الآن أغير مكانها حين أراها فأنقلها إلى مكان آخر بحيث تبقى في وضع تجوال مستمر.

* * *

الفصل السادس

المعاناة والحيـاة

كان لهذه الإهانة وقع أكبر على نفسي خصوصاً أنني، ولكي أظهر في أحلام آنَّا وأحاسيسها نقياً وطيب القلب، كنت عودت نفسي طوال فصل الشتاء على طبيعة متزمتة وأخضعت للرقابة الدقيقة ليس مظهري الخارجي فحسب بل كذلك أفكاري، وسعيت إلى أن أكون مثل زجاج صافٍ يمكن سبر غوره في كل لحظة. ولكن لم يتضح لي كم رافق ذلك من التكلف والغرور إلا الآن، بعد الإزعاج الكبير الذي نجم عن تصرفي مع رُومر؛ وأضفى الشعور بالجنون والغرور على ندمي ولومي ذاتي مسحة من المرارة واليأس.

كان على آنَّا أن تلازم غرفتها في أثناء فصل الشتاء تماماً وتطور الأمر في الربيع إلى أن غدت طريحة الفراش. وأبوها المعلم المسكين أتى إلى المدينة لكي يحضر أمي من أجل رعايتها والاهتمام بها؛ وبكى الرجل حين دخل إلى حجرتنا. وهكذا أقفلنا منزلنا وسافرنا معه إلى مزرعته حيث استُقبلت أمي واحتُرمت كنصف أعجوبة بحرية، ولكنها تحفظت في الذهاب إلى كل الأمكنة المحببة إليها من أجل زيارة أصحابها من سالف الزمن، بل أسرعت إلى إعداد إقامتها إلى جانب الطفلة المريضة؛ فيما بعد استغلت بالتدريج لحظات مناسبة غير أن الأمر استمر شهوراً إلى أن استطاعت أن ترى وتزور كل رفاق الصبا على الرغم من أن معظمهم كانوا مقيمين في أمكنة قريبة.

أقمت في بيت خالي وكنت أذهب كل يوم إلى بيت المعلم على ضفاف البحيرة. كانت آنَّا تعاني الآلام صباحاً ومساءً وأكثر المعاناة كانت ليلاً؛ في أثناء النهار كانت تنام أو تستلقي صامتة في السرير وكنت أنا أجلس بجانب سريرها دون أن أعرف كثيراً عما كان ينبغي علي أن أتحدث. علاقتنا تراجعت ظاهرياً أمام معاناة الآلام الشديدة وأمام الحزن الذي أخفى المستقبل إلى نصفه فحسب. حين كنت أجلس بجانبها في بعض الأحيان لمدة ربع ساعة وحدي كنت أمسك بيدها في حين كانت تنظر هي إلي تارة جادَّة وأخرى مبتسمة دون أن تنبس ببنت شفة أو على أبعد تقدير لكي تطلب مني كأساً أو أي شيء آخر. وكثيراً ما أمرت بإحضار علبها ونفائسها الصغيرة إلى السرير ونبشتها إلى أن تعبت ثم طلبت مني بعد ذلك أن أعيد كل شيء إلى مكانه أو أدخله في علبته المخصصة له. هذه التسلية كانت تغمرنا على وجه التقريب بسعادة صامتة وإذا ما ذهبت بعد ذلك وشأني، تعذر علي أن أدرك كيف ولماذا تركت آنَّا وهي في انتظار أوجاع مؤلمة.

أزهر الربيع الآن في أوج رونقه وبهائه، ولكن الطفلة المسكينة لم تقوَ على أن يؤتى بها إلى أمام النافذة إلا بشق الأنفس وبحالات نادرة. لذلك ملأنا غرفة الجلوس، التي وُجد فيها سريرها، بسيقان الزهور وبنينا أمام النافذة سقالة عريضة لكي نقيم عليها قدر الإمكان حديقة قوامها أصص كبيرة من الزهور والنباتات الجميلة. إذا كان في تصرف آنَّا ساعة من الزمن في أوقات العصر وكنا نفتح النافذة لشمس أيار الدافئة وكان تلألؤ البحيرة الفضية يقتحم الغرفة عبر الزهور ونباتات الزينة المتألقة، وكانت آنَّا تستلقي في سريرها وهي ترتدي ثوب مرضها الأبيض فقد بدا أن طقوساً خاصة بالموت، هادئة وحزينة، تُمارس هنا على قدم وساق.

ولكن آنَّا كانت تتحول أحياناً في ساعات كهذه إلى إنسانة مرحة تماماً وحتى ثرثارة نسبياً؛ عندئذ كنا نتحلق حول سريرها ونتجاذب أطراف حديث هادئ عن أشخاص وأحداث مختلفة، تارة ذي طبيعة مرحة وتارة أخرى جادة

بحيث كان يُقدم إلى آنَّا تقرير عما كان يحرك عالمنا الصغير. وفي أحد الأيام، حين كانت أمي ذهبت إلى القرية، جرى الحديث عني أنا ذاتي وبدا أن المعلم وابنته أرادا التشبث بهذا الموضوع برضا وارتياح فشعرت أنني جوملتُ إلى أقصى درجات المجاملة واعترافاً مريحاً مني بالجميل قابلت بادرتهما بأكبر الولاء والإخلاص. وانتهزت المناسبة لكي أحكي عن علاقتي بالتعيس رُومر، التي لم يسبق أن أخبرت بها أحداً منذ تلك الرسالة، ثم انفجرت بأشد العويل على الحادث وعلى تصرفي. إلا أن المعلم لم يفهمني تماماً؛ لأنه أراد أن يهدئني ويعدّ الموضوع أمراً بسيطاً وما كان لا يزال يكمن في هذا الحدث من أخطاء وإخفاقات ينبغي أن يذكرني بأننا كلنا مذنبون وبحاجة إلى رحمة المخلِّص. ولكن كلمة مذنب كانت عندي مكروهة وتستحق السخرية وكذلك كلمة رحمة أيضاً؛ بل الأرجح هو أنني أردت بلا أي شفقة أو رحمة أن أحسم الأمر مع ذاتي وأدين نفسي بطريقة دنيوية بحتة لا بطريقة دينية البتة.

ولكن فجأة أصيبت آنَّا، التي كانت حافظت حتى الآن على هدوئها، من جراء انفعالها من حكايتي وسلوكي بنوبة حادة في تشنجاتها وآلامها بحيث رأيت المخلوقة الرقيقة المسكينة لأول مرة تقع فريسة لكل أوجاعها الموئسة. دموع كبيرة، عصرها العناء والخوف، تدحرجت على وجنتيها البيضاوين دون أن تستطيع إيقافها. كانت منشغلة تماماً بتحركات آلامها إلى حد أن كل مراعاة وكل تمالك كان لابد أن يختفيا فوراً، ومن حين لآخر فقط كانت توجه إلي نظرة ضالة كأنها خارجة من عالم الألم الغريب عن عالمنا؛ في آنٍ واحد بدا بعد ذلك أن استحياء رقيقاً أخافها من أن تتألم أمامي إلى حد يتجاوز كل قياس؛ ولابد لي من الاعتراف بأن حيرتي المتمثلة في وقوفي أمام معبد التعذيب هذا كانت كبيرة بقدر إشفاقي. تركتها بين ذراعي أبيها لاقتناعي بأنني بذلك أتيح لها على الأقل بعض التحرر ثم وليت مسرعاً وأنا في جو من الذهول والخجل لإحضار أمي.

بعد أن ذهبت مع واحدة من بنات أخيها للاهتمام بالطفلة المريضة، قضيتُ بقية اليوم في بيت خالي ألوم نفسي على ارتباكي الفظ وعدم لباقتي. ليس ظلمي رُومر فحسب بل حتى اعترافي به وتبعاته الحالية، كل ذلك كان من شأنه أن ألقى علي مظهراً مقيتاً وشعرت أنني مأسور بنوع من تلك الحالات النفسية المقبضة الغامضة التي تصعد الشك في الواحد منا في ما إذا هو فعلاً إنسان طيب والسعادة قدره؟ إذ يبدو كأن اللؤم يلازمه ليس في القلب والطباع فحسب، بل أيضاً في الرأس والمصير ومن شأن هذا أن يجعله أكثر تعاسة من الخبث المحتم. أبى النوم أن يطرق بابي وأحسست بحاجة ماسة إلى التحدث مع أي أحد لأن الصمت الدائم شأنه شأن حسن السيرة المخفقة يزيد من الشعور بالانقباض والرهبة. نهضت من سريري بعد منتصف الليل وارتديت ملابسي ثم تسللت إلى خارج البيت لكي أزور يوديت. سرت دون أن يراني أحد عبر حدائق وسياجات، ولكنني وجدت عند يوديت كل شيء مظلماً ومقفلاً. ووقفت متردداً بعض الوقت أمام بيتها؛ غير أنني تسلقت أخيراً الحائط الخشبي ونقرت على شباكها وأنا أرتعد من الخوف لأنني خشيت أن أُرعب هذه المرأة الجميلة والذكية وأنتزعها من ظلام الليل الغامض. ولكنها سرعان ما سمعتني وعرفتني فنهضت من سريرها وارتدت ملابس خفيفة ثم سمحت لي بالدخول من النافذة. بعد ذلك أشعلت النور لكي تنشر الضياء لأنها ظنت أنني أتيت لكي أجرؤ على ممارسة بعض الملاطفات والمداعبات والمعانقات والتقبيل. غير أنها استغربت أيما استغراب حين بدأت بسرد قصصي بدءاً من الإزعاج العنيف الذي حملته اليوم إلى غرفة المرض الهادئة ثم القصة التعيسة مع رُومر التي وصفت ليوديت كل مجراها. وبعد أن أتيت بالتفصيل على ذكر رسالتي الإنذارية المصوغة بفنية عالية والرسالة التي تسلمتها بعد ذلك من باريس والتي استطعنا من خلال مضمونها أن نتكهن ما آل إليه مصير رُومر، فقط أننا توقعنا أنه أُدخل السجن بدلاً من مستشفى المجانين، صرخت يوديت بعالي صوتها: "هذا أمر في منتهى الفظاعة! ألا

تستحي من ذلك أيها القزم!. "وبينما كانت تمشي غاضبة ذهاباً وإياباً تخيلت تماماً كيف أن رُومر كان تعافى من مرضه لو أنه لم يُحرم من المال اللازم لإقامته الأولى في باريس وكيف أن حب البقاء ربما، لا بل من المؤكد، سوف يبقيه وقتاً طويلاً على درجة من النباهة والذكاء ويمكن أن ينجم عن ذلك إلى حد يتعذر تقديره انعطاف أفضل على هذا النحو أو ذاك.

وصاحت يوديت قائلة: "ليتني تمكنت من رعاية ذلك الرجل المسكين والاهتمام به، فمن المؤكد أنني كنت شفيته! كنت ضحكت عليه وتملقت إليه وجاملته إلى أن أصبح متعقلاً!".

بعد ذلك وقفت بهدوء ونظرت إلي ثم قالت: "هل تعلم يا هاينريش بأنك بانعدام خبرتك مسؤول إلى الأبد عن القضاء على حياة إنسان؟".

لم يسبق أن خطرت لي هذه الفكرة ذات مرة على بال، ولكنني قلت مذهولاً: "ليس الأمر على هذا الحد الشديد من السوء! وفي أسوأ الأحوال لا يزيد الوضع على كونه مصادفة تعيسة ما كنت أظن قط أن أكون سبباً في حدوثها!".

ردت علي يوديت برفق وهدوء: "أجل، ليتك طلبت منه أمراً بسيطاً حتى لو كان فظاً! لكن بفعل إكراهك الجهنمي النظيف وضعت الخنجر شكلياً على صدره وذلك في زمن يُطعن فيه بالكلمات والرسائل الصغيرة حتى الموت! آخ، يا للرجل المسكين! كان مجداً إلى حد كبير وبذل جهوداً كبيرة لانتشال نفسه من ورطته وحين حصل أخيراً على بعض المال انتزع منه كل ما يملك! من الطبيعي جداً أن يستخدم أجور عمله من أجل طعامه وشرابه؛ وعندئذ قيل له: رد قبل كل شيء ما كنتَ اقترضته ومت جوعاً بعد ذلك!".

جلسنا معاً فترة منقبضين هكذا وفي تفكير عميق؛ قلت بعد ذلك: "لا شيء ينفع. فما يحدث، يتعذر أن يتغير. ينبغي أن تكون هذه القصة بمثابة إنذار لي؛ ولكن لا يمكنني أن أتسكع بها إلى الأبد. وبما أنني أدركت ظلمي وندمت عليه فلا بد لكِ أخيراً من أن تغفري لي ذنبي وتطمئنيني بأنني لا أستحق الكره لهذا السبب ولست فظيعاً!".

لاحظت الآن فحسب أنني فعلاً لذلك أتيت وكنت بالطبع، من خلال الإفضاء بما في نفسي وتدخل فم غريب، بحاجة إلى القضاء على شعور ضاغط أو الحصول على العفو والغفران حتى لو أنني أرفض بذلك توسط المعلم في صبغته المسيحية. ولكن يوديت أجابت: " لن يأتي ذلك بأي نتيجة! تأنيبات ضميرك هي خبز صحي تماماً عندك وينبغي عليك أن تقضم منه طول حياتك دون أن أدهن لك عليه زبدة الغفران! ذلك مالا أستطيعه؛ لأن ما يتعذر تغييره، يتعذر لهذا السبب نسيانه أيضاً، هكذا يبدو لي وعندي تجربة كافية في هذا المجال! للمناسبة أنا، بكل أسف، لا أشعر بأنك أصبحت بحال من الأحوال مقيتاً عندي؛ ما الغاية اذاً من وجود المرء إذا لم يحب الناس كما هم؟".

أذهلني القول الغريب من فم يوديت ودفعني إلى أن أنعم التفكير؛ وكلما أطلتُ التفكير تأكد لي أكثر أن يوديت محقة في ما ارتأت، واستخلصت نتيجة تحولت في الوقت ذاته إلى قرار وهو ألاَّ أنسى ما حييت وعيي بالظلم الذي ارتكبته ورغبتي في أن أحمله على الدوام بكامل جدته وراهنيته، هذا القرار بدا لي أنه التسوية الوحيدة الواردة في الحسبان.

وإنه لعجيب أن الناس لا يعتقدون أن باستطاعتهم خصوصاً نسيان الحماقات الكبيرة التي سبق لهم أن ارتكبوها، ويقفون مذهولين لدى تذكرها ولا يخفون بل يعلنون أنهم أصبحوا الآن أكثر ذكاء؛ ولكنهم يخدعون أنفسهم بأنهم يستطيعون شيئاً فشيئاً نسيان ما اقترفوا من ظلم لأن الظلم على قرابة وثيقة من الحماقات ومن طبيعة مشابهة. أجل، هكذا فكرت، بقدر ما كانت حماقاتي لا تغتفر، سوف يكون ظلمي أيضاً! ما جنيت على رُومر لن أنساه أبداً من الآن فصاعداً ولو كنت خالداً لن أموت فسوف أحمله معي إلى الخلود، لأنه جزء مني ومن قصتي ومن كياني وإلا لما حدث! سوف يكون همي الوحيد هو أن أقيم العدل ما أمكن بحيث يبقى وجودي محتملاً ومُطاقاً!

انتفضت واقفاً وأخبرت يوديت بهذا القول وبتطبيق كلماتها البسيطة، فقد تراءى لي أن حدثاً مهماً يكمن في ألا يتخلى المرء عن نسيان الإساءة والظلم.

أجلستني يوديت وهمست في أذني: "أجل، هكذا سيكون الأمر؛ أنت الآن شاب بالغ وقد فقدت في هذه الصفقة عذريتك الأخلاقية! والآن حذار، يا صبيَّ العزيز، من الاستمرار في ذلك!". التعبير المضحك، الذي استخدمته يوديت، كان من شأنه أن عرض لي الأمر بوجه جديد وواضح إلى حد مضحك بحيث اعتراني غضب شديد وصرت أشتم وأسمي نفسي مجنوناً ومغروراً منتقى وغولاً منتفخاً عرض نفسه دونما تبصر أو تردد للاستغفال والغش. ضحكت يوديت ثم قالت: "فكر في حقيقة حين يظن المرء نفسه أكثر الناس ذكاءً فقد يظهر قبل كل الناس بصفته حماراً!". فرددت عليها غاضباً: " لا حاجة بكِ إلى أن تضحكي، فقد سببتُ لكِ قبل مجيئي إليك بعض التجني والأذى؛ خشيت أن يكون عندك رجل غريب!".

صفعتني فوراً، ولكن كما بدا لي، بدافع السرور أكثر منه بدافع الغضب ثم قالت: "أنت ولد وقح وتظن أنك تتخلص مني لمجرد أن تعترف بأفكارك المخزية! طبعاً محدودو الأفق والمختومون على قفاهم هم وحدهم الذين لا يعترفون بشيء إطلاقاً، ولكن ذلك لا يعني أن تصرفات الآخرين هي لهذا السبب كلها صحيحة! لكي تنال العقوبة التي تستحق عليك الآن أن تغرب عن وجهي وتذهب إلى بيتك! وفي الليلة التالية يُسمح لك بأن تعود إلى هنا!".

صرت أذهب إليها ليلاً كلما تسنّى لي ذلك؛ كانت تقضي يومها في معظم الحالات وحيدة وفي عزلة عن الناس في حين إما أنني كنت أقوم بجولات واسعة لممارسة الرسم أو أحضر في بيت المعلم بهدوء ورزانة على أنه ذلك البيت مدرسة للآلام. وهكذا كان عندنا في هذه الليالي مواضيع كثيرة للمسامرة وكثيراً ما كنا نجلس ساعات طوالاً أمام النافذة المفتوحة، إذ كان تلألؤ السماء الليلية يخيم على العالم الصيفي؛ أو كنا نغلق النافذة ودرفاتها ونجلس على الطاولة ثم نقرأ معاً. كنت تركت عندها في الخريف، بناء على طلبها كتاباً هو الترجمة الألمانية لملحمة إريوست" رولان المتهور" التي لم أكن أنا ذاتي قد عرفتها بعد معرفة أقرب؛ ولكن يوديت كانت قرأت فيها في

معظم الأحيان طوال الشتاء وامتدحت لي هذا الكتاب الآن على أنه الأجمل في العالم. لم تعد يوديت تشك في أن آنّا سوف تموت عما قريب وقد قالت لي ذلك دون خفية أو تستر، على الرغم من أنني لم أشأ الاعتراف بهذا الأمر؛ هذا الموضوع إضافة إلى ما كنت أحكيه عما يحدث حول سرير المريضة كان يشيع جواً من الكآبة والانقباض، كل على طريقته ودوافعه؛ وإذا ما قرأنا عند ذلك في كتاب إريوست كنا ننسى كل الكآبة ونغرق في عالم نضير متلألئ. في بادئ الأمر كانت يوديت أخذت الكتاب على الطريقة الشعبية بوصفه نصاً مطبوعاً، كما كان، دون أن تمعن التفكير في منشئه وأهميته؛ ولكن حين قرأنا فيه الآن معاً طلبت مني أن أطلعها على بعض المعلومات المتعلقة به، فكان علي قدر معرفتي أن أشرح لها عن طريقة نشوء عمل أدبي من هذا النوع وأهمية، وعما يريد الشاعر وعن نواياه المدركَة وأن أحكي لها بقدر ما كنت أعرف عن الشاعر الإيطالي إريوست. فغدت الآن مسرورة تماماً ووصفت الشاعر بأنه رجل ذكي وحكيم وقرأت الأناشيد برغبة مضاعفة ما دامت عرفت أن هذه القصص المتعاقبة، المرحة والعميقة إلى حد كبير، تقوم على أساس روح خفيفة ورغبة وإبداع وتجسيد وإدراك ومعرفة تبدت لها متألقة في جدتها كنجمة في ليل مظلم. حين كان أبطال الشاعر الوامض بالجمال يمرون بنا بلا مستقر، من تضليل إلى تضليل، يصطاد ويطرد بعضها بعضاً بانفعالات جارفة، ويغيب الواحد باستمرار عن الآخر ويظهر ثالث، أو إذا ما عوقبوا واستراحوا للحظات قصيرة من أهوائهم الجارفة أو على الأرجح إذا ما بدؤوا يستريحون غارقين في تلك الأهواء على ضفاف مياه صافية، تحت أشجار هي غاية في الروعة، كانت يوديت تصيح قائلة: "أوه، أيها الرجل الذكي! أجل، هكذا تسير الأمور، هكذا هم البشر وحياتهم، وهكذا نحن ذاتنا، نحن المجانين!".

خلت نفسي أكثر، أنا ذاتي، أنني موضوع لفكاهة شعرية حين رأيت أنني بجانب امرأة تقف بهدوء تام، مثلها مثل تلك المخلوقات الخرافية، على حظ من

القوة والجمال في أوج انتشارهما وتبدو إضافة إلى ذلك أنها ملائمة بلا توان لإثارة عواطف أبطال متجولين. كل معلم من معالم مجمل جسمها له طابع مظفر ثابت، وثنايا ثيابها البسيطة كانت باستمرار من بهاء الرونق والفخامة بمكان بحيث يخال المرء أنه يحس عبرها في وضع من الانفعال بوجود بنسات ذهبية أو حتى قطع سلاح تومض وتلمع. ولكن إذا كان هذا الشعر الملحمي العظيم قد عرَّى النساء من حليهن وثيابهن وعرَّض جمالهن المجرد إلى حرج علني أو إلى وضع إغرائي عابث في حين كان يفصل بيني وبين الواقع الجمالي الأكثر ازدهاراً مجرد خيط رفيع، فقد تراءى لي تماماً كما لو أنني بطل خرافي أحمق ولعبة بيدي شاعر لاهٍ. ليست مجرد مشاعر الواجب والإخلاص الأفلاطوني إزاء سرير الآلام المستلقية فيه مخلوقةٌ رقيقة والمحاط بصلوات مسيحية، بل كذلك الخشية ببساطة من أن تفضحني أحلام آنَّا الناجمة عن المرض، هي التي حاصرت رغبات الشهوة الحسية؛ في حين راعت يوديت كلاً من وضع آنَّا ووضعي وقمعت رغباتها الجسدية انطلاقاً من ضرورة أن تعيش قليلاً في جو الحياة الشبابية ذات الطابع الأفلاطوني الرقيق. أحياناً كانت أيدينا تتحرك بعفوية باتجاه كتفي الآخر وردفيه لكي تضمهما وتستقر حولهما، إلا أنها كانت في منتصف الطريق تتخبط في الفراغ هكذا على غير هدى إلى أن تنتهي رحلتها بتربيت متردد متقطع على الوجنتين بحيث كنا نشبه بصورة ماجنة جنونية قطتين صغيرتين تمد كل واحدة يدها باتجاه الأخرى، ترتجفان كهربائياً وتحتاران هل ينبغي أن تلعبا أم تنبشا في وبريهما.

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل السابع

موت آنَّا ودفنها

إضافة إلى انفعالات الأيام والليالي المتناقضة المتضادة كل التضاد جرت في الصيف أيضاً أحداث مختلفة في حياة الأسرة الريفية كان من شأنها على بساطتها أن أحدثت التبدل الهائل في الحياة ومسيرته المؤقتة في دائرة الضوء. فالوضع المادي للطحان الشاب لم يعد يسمح بتأجيل زواجه بعد الآن فاحتُفل بزفافه ثلاثة أيام حيث كان لابد للبقايا الزهيدة من الأثاث المستخدم في المدينة التي جاءت بها العروس من بيتها، من أن تخضع بصورة يرثى لها إلى مظاهر الأبهة الريفية. لم تصمت أدوات الكمان الموسيقية طوال الأيام الثلاثة؛ ذهبت إلى هناك عدة مرات ووجدت يوديت في زينة احتفالية وسط ازدحام الضيوف؛ رقصت معها مرة ثم أخرى بتواضع كما لو أنني غريب، وهي أيضاً كانت متحفظة معي على الرغم من أن فرصاً كثيرة أتيحت في أثناء الليالي الصاخبة لكي يقترب بعضنا من الآخر دون أن يرانا أحد.

ما كاد احتفال الزفاف ينتهي حتى ألم المرض بزوجة خالي، التي لم تتم الخمسين عاماً من عمرها، وتوفيت في غضون ثلاثة أسابيع من بدء مرضها. كانت امرأة قوية، فكان المرض الذي سبَّبَ وفاتها أكثر قوة وعنفاً وكانت متمسكة بالحياة إلى أقصى حد. عانت بشدة واضطراب ولم تستسلم للموت إلا في اليومين الأخيرين؛ ومن الذهول والهول، اللذين انتشرا في البيت إثر الفاجعة، كان بالإمكان رؤية ماذا كانت تعني عند الجميع. لكن كما

تُسد الثغرة من جديد بسرعة بعد سقوط جندي جيد صريعاً في ساحة الشرف ويستمر القتال ببنيان صلب، هكذا أثبتت جدارتها أيضاً طريقة حياة هذه المرأة الشجاعة وقوتها بأحلى صورها إذ إن الصفوف التحمت وتضامَّت بسرعة دون عويل أو نحيب؛ فقد تقاسم الأبناء فيما بينهم العمل وأعباء الحياة ووفروا على أنفسهم الألم المتعمق حتى في أيام راحتهم حين يرى المرء معالم الحياة وهي تنتصب انتصاباً أكثر وضوحاً. خالي فقط كان يُصدر في بداية الأمر بعض الأنَّات الأعمق؛ ولكنه سرعان ما لخصها كلها في عبارة "المرحومة زوجتي" وقالها بعد ذلك في كل مناسبة. إبان دفن الجثة رأيت يوديت بين النساء الغريبات، وكانت ترتدي ثوباً أسود اللون مدني الزي ومزرراً إلى ما تحت الذقن، كانت تنظر بخنوع إلى الأرض غير أنها كانت تمشي مرفوعة الرأس.

هكذا كان شكل بيت الخال تغير في وقت قصير وأصبح كل شيء بفعل الأحداث المختلفة أكبر عمراً وأكثر جدية. والمسكينة آنَّا رأت هذه التغيرات من المسرح الحزين الكائن حول سرير مرضها، ولكن أكثر من كونها منفصلة ظاهرياً عن الأحداث. كانت آنَّا لفترة طويلة قد راوحت في وضعها ذاته، وعلق الجميع الآمال على أن تعود إليها الحياة من جديد في نهاية المطاف وتشفى من مرضها. ولكن بما أن ذلك كان آخر ما توقعه الناس، فقد ظهر المعلم في صباح يوم خريفي بثياب سوداء في بيت خالي، الذي كان لا يزال يرتدي الثياب السوداء، وأعلن نبأ وفاة ابنته.

خلال لحظة لم يكن البيت وحده مليئاً بالنواح والعويل، بل الطاحونة المجاورة كذلك، كما عمل المارون بدورهم على نشر البلية في كل القرية. ومنذ قرابة عام كانت ذكرى موت آنَّا كبرت وبلغت ذروتها وبدا أن الناس اختزنوا بذلك مناسبة مرموقة من النواح والتأسف؛ لأن تلك المخلوقة الظريفة والبريئة والجديرة بالاحترام كانت الأجدر لإقامة مأتم عام وشامل من حالات فقدانهم ذويهم ذاتهم.

بقيت بهدوء في مؤخرة الجمع، ولو كنت في المناسبات السعيدة لكان صوتي يعلو وتنشط حركتي وأقوم بدور متمادٍ بصورة لا إرادية، ولكن كنت أتحفظ بالمقابل في المناسبات الحزينة فلا أخترق الصفوف لكي أصل إلى مقدمة القوم وأقع دائماً في حيرة وارتباك كي لا يعدّني الناس غير مكترث وقاسي القلب، خصوصاً أنه منذ الأزل كانت تقوى على استدراج دموعي فقط حالات الاستياء الناجمة عن ارتكاب الآثام وممارسة الظلم ومن ثم حالات تماس الناس بعضهم ببعض من الأعماق، في حين لم تستدرج دموعي بأي حال من الأحوال فجيعة مباشرة كما لم يستدرجها الموت أيضاً.

ولكنني الآن كنت مبهوتاً للموت المبكر ومبهوتاً أكثر لأن هذه الفتاة المسكينة الميتة كانت حبيبتي. وذلك ما أغرقني في تفكير عميق دونما شعور بهلع أو ألم حاد، على الرغم من أن الحدث طغى على كل أفكاري في مختلف الجوانب والاتجاهات حتى إن تذكري يوديت لم يسبب لي أي اضطراب. وبعد أن أجرى المعلم ترتيباته، انتُشلت أخيراً من خفائي بأن طلب مني أن أعود معه الآن إلى بيته لكي أقيم عنده بعض الوقت. فتأهبنا للذهاب بينما وعد الأقارب الباقون، ولا سيما البنات اللواتي مازلن يقمن في البيت، باللحاق بنا في أقرب وقت.

في الطريق لخص المعلم ألمه فعبر عنه بتكرار وصف الليلة الأخيرة ووصف الموت الذي حدث في الصباح. سمعت كل شيء باهتمام وصمتٍ؛ كان الليل مخيفاً ومليئاً بالآلام، ولكن الموت ذاتــه لم يلفت الانتباه بل كان وديعاً وهادئاً.

كانت أمي وكاترين العجوز قد زينتا الجثة ووضعتاها في غرفة آنّا الصغيرة. هناك كانت مستلقية وفقاً لرغبة المعلم على سجادة الزهور الجميلة التي كانت الابنة طرزتها ذات يوم من أجل أبيها والتي مُدت الآن على سريرها الصغير الضيق؛ وبعد تأدية السجادة خدمة كهذه كان في نية الرجل الطيب أن يلتف بها دائماً طيلة بقائه على قيد الحياة. فوق الميتة على الحائط

كانت كاترين، التي كان اشتعل رأسها شيباً تماماً وكانت تبكي وتولول بحدة ورقة إلى أقصى درجة، علقت الصورة التي سبق لي أن رسمتها ذات مرة لآنَّا، وفي الجهة المقابلة كانت لا تزال تظهر ربوع الطبيعة التي ضمت حجرة الكفار المرسومة بريشتي قبل سنين على الجدار الأبيض. درفتا خزانة آنَّا كانتا مفتوحتين وظهرت بينهما تلك الأشياء البريئة التي كانت تمتلكها فأضفت على حجرة الموت الهادئة مظهراً حيوياً مريحاً. والمعلم أيضاً انضم إلى المرأتين اللتين مكثتا أمام الخزانة لكي يساعدهما في إخراج الأشياء الأرق والأغنى بالذكريات من مخبئها التي كانت المرحومة جمعتها منذ طفولتها. الآن انشغل الجميع في مشاهدتها، فمنحه ذلك بعضاً من التشتت المخفف، الذي لم ينتشله بالطبع من موضوع آلامه. حتى إنه أحضر بعض الأشياء من محفوظاته، وعلى سبيل المثال رزمة صغيرة من الرسائل التي كانت أرسلتها إليه ابنته من المنطقة الفرنسية في سويسرا، هذه الرسائل وضعها المعلم، إلى جانب الأجوبة عنها التي وجدها الآن في الخزانة، على طاولة آنَّا، ثم وضع عليها أيضاً أشياء أخرى: كتبها المفضلة، أعمالاً بُدئ بها وأخرى كاملة، بعض الجواهر، وذلك التاج الفضي الخاص بالعرائس، حتى إن بعض الأشياء وضعت إلى جانبها على السجادة بحيث مورست هنا بغير قصد وخلافاً لعادات هؤلاء الناس البسطاء وتقاليدهم تقاليد شعوب قديمة. في أثناء ذلك كان هؤلاء يتحدثون فيما بينهم وكأن الميتة لا تزال تسمعهم ولم يرغب أحد في أن يبتعد عن حجرة الموت.

في تلك الأثناء مكثت بهدوء بجانب الجثة وتأملت فيها بنظرات ثابتة لم تتحول عنها؛ ولكن رؤيتي المباشرة للموت لم تمكني من فهم سره أو على الأرجح لم تجعلني أكثر انفعالاً من ذي قبل. كانت آنَّا مستلقية هكذا على سريرها دون أن تختلف كثيراً عما كنت رأيتها آخر مرة ما عدا أن عينيها كانتا مغلقتين، وبدا وجهها الأبيض في وضع الازهرار على استعداد بصورة ثابتة لاحمرار خفيف. كان شعرها يلمع بنضارة ولون ذهبي وكانت يداها

الصغيرتان البيضاوان مشبوكتين على الثوب الأبيض المزين بوردة بيضاء. طبت نفساً لرؤية كل شيء وأحسست تقريباً بنوع من الاعتزاز المحظوظ أن أكون في وضع حزين إلى هذا القدر وأرى أمامي في الوقت ذاته حبيبة شبابي ميتة وجميلة بهذا المستوى الشاعري الرفيع.

لقد بدا أن أمي والمعلم أقرا لي بصمت حقاً ثابتاً فيما تعلق بالمرحومة، حين اتُفق على أن يمكث باستمرار واحد منا بجانب المتوفاة فترة من الزمن، ووقع الاختيار علي أنا لتولي الحراسة الأولى لكي يتمكن الباقون المنهكون في أثناء ذلك من الانسحاب والحصول على قسط مستحق من الراحة.

ولكنني لم أبق وَحيداً مع آنّا لفترة طويلة، إذ سرعان ما قدمت بنات خالي من القرية وأتت بعدهن بعض الفتيات والنسوة الأخريات، اللواتي كان حدثٌ مؤثر إلى هذا الحد عندهن وجثة مشهورة بهذا القدر من الأهمية بمكان بحيث تركن أكثر الأعمال إلحاحاً من أجل أداء الخدمة الأكثر مهابة في عالم مصير البشر. امتلأت الحجرة بالنساء اللواتي تجاذبن في بادئ الأمر أطراف الأحاديث بطريقة جليلة هامسة لكي ينتقلن بعد ذلك إلى أحاديث عادية. كن يزدحمن بكثافة حول آنّا الصامتة الهادئة، الفتيات منهن وقفن واضعات الواحدة من أيديهن فوق الأخرى، والأكبر سناً وقفن مشبوكات الأذرع. كان باب الحجرة مفتوحاً للداخلين والخارجين، فاغتنمت أنا الفرصة للخروج من البيت والتسكع في العراء هنا وهناك حيث كانت الطرق المؤدية إلى القرية تعج بالناس على غير العادة.

لم يأتِ دوري مرة أخرى إلا بعد منتصف الليل لحراسة الميتة، التي نظمناها الآن بطريقة غريبة. بقيت في الحجرة حتى الصباح؛ لكن بقدر ما أحسست أن الساعات مضت بسرعة، وكأنها لحظة واحدة، تعذر علي في حقيقة الأمر أن أعرف بماذا فكرت وبماذا شعرت. خيم السكون المطبق فتخيلت معه أنني أسمع عبر الصمت والسكون هدير الأبد؛ الفتاة الميتة البيضاء مازالت على حالها مستلقية دون حراك، غير أن الزهور الملونة في السجادة

بدت كأنها تنمو في الضوء الخافت. الآن سطعت نجمة الصبح وانعكست في البحيرة؛ فأطفأت المصباح احتراماً لها لكي تكون وحدها ضوء الموت لأنَّا وجلست الآن في الظلام في زاويتي ورأيت كيف ينتشر تدريجياً الضوء في الحجرة. وبطلوع الفجر، الذي تحول إلى شفق الصباح الذهبي شديد النقاء، بدا أن الحياة بدأت تدب حول الجسد الصامت إلى أن استلقى هكذا في ضوء النهار. كنت نهضت واقفاً وانتقلت إلى أمام السرير، وحيث اتضحت لي معالم وجهها ناديتها بالاسم لكن همساً بالنَفَس ومن غير صوت؛ بقي صمت الموت مخيفاً، وحين لمست في الوقت ذاته يدها بتردد وخوف سرعان ما سحبت يدي مذعوراً وكأنني أتيت إلى حديد متوهج؛ لأن يدها كانت باردة مثل كومة صغيرة من الطين.

وكما سرى هذا الشعور المقيت البارد في كل جسدي، جعلني وجه الجثة الآن فجأة أظهر بلا روح وبلا وجود إلى حد أوشكتْ معه أن تفلت مني تلك الصرخة المذعورة: "ما علاقتي بكِ؟" حين دوى الأرغن في تلك اللحظة من صوب الصالة بأنغام لطيفة وفي الوقت ذاته قوية ولم تتقلب إلا أحياناً إلى ارتجاف أليم، ولكنها سرعان ما تشجعت وتحولت من جديد إلى قوة انسجامية مهيمنة. كان ذلك هو المعلم، الذي عقد العزم في هذا الصباح الباكر على التخفيف من آلامه وولولته عبر لحن أغنية قديمة في مديح الخلود والبقاء الأبدي. أصغيت إلى اللحن؛ فكان من شأنه أن تغلب على هلعي الجسدي ومن شأن أنغامه الغامضة أن فتحت عالم الأشباح الأزلي وظننت بمزيد من التأكيد من خلال عهد جديد مع المتوفاة أنني أنتمي إلى هذا العالم. وبدا لي مرة أخرى أن هذا هو حدث جَلَل ورهيب.

ولكنني في الوقت ذاته امتعضت الآن من الإقامة في حجرة الموت وسرني أن أخرج مع فكرة الخلود إلى الخضرة التي تمور بالحيوية والحياة. في ذلك اليوم ظهر صانع نجار من القرية لكي يصنِّع هنا تابوتاً، كان المعلم قبل سنين قطع بيده شجرة صنوبر نظيفة لكي تكون في المستقبل خشباً لتابوته

هو، كانت هذه الشجرة ملقاة خلف البيت على شكل ألواح منشورة وتحميها المظلة وكانت دائماً تقدم خدمات مهمة بوصفها مقعداً للراحة كان المعلم يقرأ عليه واعتادت ابنته أن تجعله مكاناً للعبها. تبين الآن أن النصف الأعلى من الشجرة، الأقل ثخانة، يصلح لتصنيع تابوت آنّا الضيق دون أن يضر ذلك بتابوت الأب فيما بعد؛ ألواح الخشب الجافة أُخرجت من مكانها ونُشرت إلى نصفين لكن المعلم لم يستطع البقاء طويلاً في مكان نشر الخشب وتقطيعه، والنسوة ذاتهن، اللواتي كن في البيت، اشتكين من صوت المنشار المزعج. لذلك حملنا، النجار وأنا، ألواح الخشب وأدوات النجارة إلى القارب الخفيف وجدفنا إلى مكان ناءٍ من الضفة حيث يبرز النهر الصغير من الغابة ويصب في البحيرة. كانت أشجار زانٍ فتية تشكل هناك على ضفاف الماء بهواً مضيئاً، وفي حين ثبَّت النجار بعض الألواح الخشبية على الجذوع الصغيرة بمَلازم حديدية، فقد أعد منضدة كانت تتقوس فوقها رؤوس الزان. في البدء كان لا بد من تجميع أرضية التابوت وتغريته. ومن أولى القشور الناجمة عن سحج الخشب بالفارة مع بعض الأغصان الجافة أشعلتُ ناراً ووضعت فوقها مقلاة غراء ثم صرت أصب قطرات من ماء الجدول فوق المقلاة، في حين انهمك النجار بعد ذلك بقوة في العمل بالمنشار والفارة. وبينما كانت قشور الخشب الملتفة تختلط مع أوراق الشجر الساقطة على الأرض وغدت الألواح الخشبية ملساء، عملتُ على تعزيز معرفتي بالنجار الشاب. كان ألمانياً من أقصى الشمال في منطقة بحر البلطيق، طويل القامة ممشوق القد، معالم وجهه مهيبة وجميلة الهيئة، عيناه زرقاوان فاتحتان إلا أنهما ناريتان، وشعره ذهبي كثيف يظن المرء دائماً أنه يراه مردوداً إلى الخلف من على جبينه المكشوف وأنه مربوط من الوراء بخصلة من الشعر، كان مظهره يدل على أنه جرماني أصيل. كانت حركاته في أثناء العمل رشيقة، ولكن شخصيته اتسمت مع ذلك بصفات طفلية. سرعان ما قامت بيننا علاقة حميمة، وحكى لي عن موطنه وعن المدن القديمة في الشمال، عن البحر واتحاد الهانزا العملاق للمدن

الألمانية الشمالية. وانطلاقاً من اطلاع جيد روى لي عن الماضي وعن عادات تلك المدن الساحلية وتقاليدها؛ رأيت من خلال ما روى قتال المدن الطويل والعنيد مع قراصنة البحار والقراصنة الذين عرفوا باسم إخوة الفيتاليا، ورأيت كيف قطع الهامبورغيون رأس كلاوس شتورتسنبيشر مع كثيرين من زملائه وأتباعه؛ بعد ذلك رأيت من جديد كيف خرج أصغر أعضاء المجلس البلدي سناً في الأول من أيار من بوابات مدينة شترالسوند مع حاشية متألقة من الشباب في زينة السلاح وتُوج في غابات الزان ذات الأبهة كونتاً أيارياً بهامة شجرة خضراء وكيف رقص في المساء مع كونتيسة أيارية جميلة. ووصف لي أيضاً المنازل والأزياء التقليدية لفلاحين شماليين بدءاً من أهالي مناطق ما وراء بومارن وانتهاء بالفريزيين الأكفياء، الذين لا تزال تجدهم يتحلون بحس رجولي بالحرية؛ ورأيت، من خلال روايته طبعاً، احتفالاتهم بحفلات الزفاف، ودفن الموتى، إلى أن تحدث النجار أخيراً أيضاً عن حرية الأمة الألمانية وعن وجوب إقامة سريعة للجمهورية الألمانية الكبيرة. في أثناء ذلك نحتُّ وفقاً لإرشاداته عدداً لا يستهان به من المسامير الخشبية؛ أما هو فقد أتم السحجات الأخيرة بالفارة المزدوجة على ألواح الخشب؛ فانفصلت عنها قشور ناعمة شبيهة بأشرطة حرير لماعة ورقيقة، وصدرت عن عمله ذاك نغمة مغنية مغبطة كانت تحت الأشجار بمثابة أغنية غريبة. كانت شمس الخريف تشيع الدفء والظرف في الأجواء وتتلألأ بحرية فوق الماء ثم تضيع في الأريج الأزرق المنتشر في ليل الغابة التي استوطنا في مدخلها. والآن ركَّبنا ألواح الخشب البيضاء الملساء معاً، ضربات المطارق تردد صداها من جديد عبر الغابة بحيث أجفلت الطيور فغادرت أماكنها مذهولة مرتاعة وأخذت تطير فوق سطح البحيرة وهي تلامسه بطيران خاطف، وسرعان ما وقف التابوت في بساطته أمامنا، ضيقاً ومتناسقاً وذا غطاء مقوس وفي منتهى الجمال. ومسح النجار بجرات قليلة بالفارة مجرىً مجوفاً رشيقاً حول الحواف، ورأيت باستغراب كيف انحفرت الخطوط بسهولة ويسر في الخشب

اللين؛ بعد ذلك أخرج النجار قطعتين من الحجر الخفيف وفرك الواحد منهما بالآخر فوق التابوت فانتشر المسحوق الأبيض الساقط منهما على سطحه؛ كان لابد من أن أضحك حين استخدم بالذات قطعتي الحجر وأخذ يطرق إحداهما بالأخرى بمهارة فائقة، تماماً كما كنت أرى أمي حين تفرك كتلتين من السكر فوق قطعة كاتو. لكن حين صقل التابوت تماماً بالحجر غدا التابوت أبيض كالثلج ولم يومض منه أي أثر يذكر لاحمرار خشب الصنوبر كما في حال ازهرار التفاح. وكان أجمل وأنبل بكثير مما لو كان مطلياً بالدهان أو بالذهب أو مرصعاً بالفلزات. عند رأس التابوت صنع النجار حسب العادة فتحة لها باب منزلق تتيح رؤية وجه الميتة إلى أن توارى الثرى؛ وكان لابد هنا الآن أيضاً من تركيب لوح من الزجاج على الفتحة الصغيرة، لكن ذلك لم يخطر على بال أحد فأسرعت إلى البيت لكي أحضر واحداً. كنت أعرف أن ثمة إطاراً صغيراً قديماً كان مُلقى على إحدى الخزانات وأن الصورة التي كانت بداخله اختفت بطريقة ما منذ مدة طويلة. تناولت لوح الزجاج المنسي ووضعته بحذر في القارب ثم عدت أدراجي إلى الغابة. في أثناء غيابي تجول النجار في الغابة قليلاً باحثاً عن ثمار البندق؛ وفي أثناء ذلك جربت لوح الزجاج وحين وجدت أنه يناسب الفتحة غطسته، بما أنه كان معفراً بالغبار ومسودًّا، في ماء الجدول الصافي ثم غسلته بعناية خشية أن أكسره على الحصى. بعد ذلك رفعته إلى الأعلى لكي تسيل من على سطحيه الماء النقية، وحين وضعت الزجاج اللامع في وجه الشمس ونظرت عبره رأيت ألطف أعجوبة عايشتها طول حياتي وأحلاها. رأيت ثلاثة صبيان من الملائكة يعزفون موسيقى؛ كان الأوسط منهم يمسك بنوتة موسيقية ويغني في حين كان الاثنان الباقيان يعزفان على آلتي كمانٍ قديمتي الطراز وجميعهم كانوا ينظرون بفرح وتأمل عميق إلى الأعلى؛ ولكن هذا الظهور كان مرحاً ولطيفاً في شفافيته إلى حد أنني لم أعرف هل كان يحوم في أشعة الشمس أم في الزجاج أم في مخيلتي فحسب. حين كنت أحرك لوح الزجاج كان الملائكة

يختفون للحظات إلى أن ألاحظهم من جديد فجأة بفعل حركة أخرى. علمتُ منذ ذلك الحين أن لوحات النقش على النحاس أو الرسوم، التي تبقى سنين طويلة خلف قطعة من الزجاج في وضع لا يعبث به أحد، تنتقل في أثناء الليالي المظلمة من تلك السنين إلى الزجاج وتبقى فيه كما لو أنها صورة منعكسة فيه. شعرت الآن بحال مشابهة كنت عرفتها من خلال تظليلي نقوشاً قديمة على النحاس ومن تجسيد الملائكة المغنين لدى فان آيك. لم أر أي كتابة على الزجاج ومن ثم ربما كانت الصورة طبعة تجريبية نادرة. والآن صح أن يكون لوح الزجاج الثمين أجمل هدية يمكنني أن أضعها في التابوت فثبتها بيدي على غطائه دون أن أقول لأحد شيئاً عن السر الذي تكشف لي. في تلك الأثناء عاد الألماني من الغابة؛ وبحثنا معاً عن القشور الخشبية الناعمة، التي نتجت عن سحج الفارة واختلط بها بعض أوراق الشجر الضاربة إلى الحمرة ونثرناها في التابوت بوصفها آخر فراش فيه؛ ثم أغلقناه بعد ذلك وحملناه إلى القارب وأبحرنا مع العتاد الأبيض فوق البحيرة المتلألئة الهادئة، وحين رأتنا النسوة ورآنا المعلم نقترب من الضفة ونرسو على اليابسة انفجر الجميع بالبكاء الصاخب والنواح والعويل.

في اليوم التالي وضعت المخلوقة الأكثر بؤساً في التابوت محاطة بكل أنواع الزهور التي زهت آنذاك في البيت والحديقة على حد سواء؛ لكن على قبة التابوت وضع إكليل ثقيل من أغصان الريحان والورد الأبيض العذارى المنتميات إلى دائرة الكنيسة قد جلبنه، إضافة إلى عدد كبير من طاقات الورود الناتجة عن الازهرار الخريفي شاحب اللون من كل الأنواع بحيث غدا السطح كله مغطى بها تماماً ولم يبق مكشوفاً سوى لوح الزجاج الذي مكن من رؤية وجه الجثة الأبيض الناعم.

عملية الدفن أُريدَ لها أن تتم انطلاقاً من بيت خالي، ووصولاً إلى هذه النهاية كان لابد من حمل آنًا في المرحلة الأولى عبر الجبل. لذلك قدم فتيان من القرية لكي يحملوا النعش على أكتافهم بالتناوب، ورافقت الموكب حاشيتنا

الصغيرة المكونة من الأقارب المقربين. استرحنا قليلاً على قمة الجبل المشمسة ووضعنا النعش على الأرض. كان الجو هنا في الأعالي في منتهى الجمال! هنا جال البصر فوق الوديان المحيطة وصولاً إلى الجبال الداكنة، وتجلّلت المنطقة من حولنا بروعة ألوان براقة متلألئة. الفتيان الأقوياء الأربعة، الذين كانوا حملوا النعش آخر مرة، جلسوا للراحة على جانبيه مسندين رؤوسهم إلى أيديهم وأخذوا ينظرون بصمت إلى جهات الدنيا الأربع. في أعالي السماء الزرقاء هامت غيوم مضيئة وبدا أنها تتوقف للحظة فوق تابوت الزهور وتنظر بفضول عبر نافذته الصغيرة، التي كانت تلمع بخبث بين الريحان والورود في انعكاس ضوء الغيوم. لو تسنَّى لآنَّا الآن أن تفتح عينيها لرأت بلا شك الملائكة ولظنت أنهم يطوفون في أرجاء السماء العالية. جلسنا هكذا كيفما اتفق واعتراني آنذاك حزن شديد بحيث ذرفت بعض الدموع حين خطر ببالي أن آنَّا تسير لآخر مرة وهي ميتة على هذا الجبل الجميل.

حين نزلنا إلى القرية قرع جرس الموت لأول مرة؛ رافقنا أطفال زمراً زمراً إلى البيت الذي وضعنا التابوت أمام بابه تحت أشجار الجوز. ووسط حزن شديد منح الأقارب الميتة حق الضيف في أثنـــاء هذه العودة الأخيرة: وما كاد يمر الآن عام ونصف منذ أن تحرك ذلك الموكب الاحتفالي للرعيان تحت هذه الشجرات ذاتها وحيا بإعجاب كبير ظهور آنَّا آنذاك. سرعان ما غدا المكان مكتظاً بالناس الذين تزاحموا لكي يروا المرحومة وجهاً لوجه لآخر مرة.

انطلق الآن موكب الجنازة، الذي كان كبيراً إلى حد تجاوز المعتاد؛ كان المعلم، الذي سار مباشرة خلف التابوت، ينشج وينتحب دونما انقطاع مثل طفل. أما أنا فقد ندمت آنذاك أشد الندم لأنني لم أمتلك بدلة سوداء للمناسبات الرسمية والخاصة من هذا النوع، بل مشيت بين أبناء خالي المرتدين الملابس السوداء بلباسي الأخضر كما لو أنني كافر غريب. بعد انتهاء الجماعة من الصلاة المعتادة واختتامها بجوقة تراتيل، تجمع الناس حول القبر حيث أنشد

كل الفتيان بطريقة فوق عادية أغنية موت تدربوا عليها بدقة وعناية بصوت معتدل. والآن أنزل التابوت إلى القبر؛ فرفع حفار القبور عندئذ الإكليل والزهور وناولها إلى من يحتفظ بها فيما بعد، والتابوت المسكين استقر الآن لامعاً في العمق الرطب. استمر الغناء، ولكن النسوة بكين وانتحبن كلهن. وسطعت آخر أشعة الشمس عبر لوحة الزجاج على الوجه الشاحب الذي تحته؛ أما الشعور الذي انتابني آنذاك فكان غريباً إلى حد أنني لم أستطع أن أصفه إلا بالكلمة الغريبة والباردة، التي أبتكرها التفقه اللغوي، أي كلمة "موضوعي". أظن أن لوح الزجاج هو الذي جعلني أرى الإنسانة التي أُغلق عليها، وهي بمثابة جزء من تجربتي لا بل من حياتي وُضع خلف زجاج وإطار، جعلني أراها مدفونة في جو سامٍ ومهيب لكن في راحة تامة كذلك؛ حتى اليوم لا أعرف إن كان من قبيل القوة أو من قبيل الضعف أنني تمتعت بهذا الحدث المأسوي الرهيب أكثر مما تقبلته وكدت أفرح بالتبدل الصائر بجدية في عالم حياتي.

أغلق الباب المنزلق؛ وصعد حفار القبور ومساعده من الحفرة؛ وسرعان ما أقيمت بعد ذلك التلة بنية اللون.

* * *

الفصل الثامن

وترحل يوديت أيضاً

في اليوم التالي، حين أعلن المعلم أنه يريد أن يتغلب على آلامه في العزلة وحده مع ربه، تأهبت للعودة مع أمي إلى المدينة. قبل ذلك ذهبت إلى يوديت فوجدتها مشغولة بتفحص أشجارها ما دام الوقت قد حان من جديد لجمع الفاكهة. ضباب الخريف تجمع في ذلك اليوم تحديداً لأول مرة وغطى بستان أشجار الفاكهة بردائه الفضي. كانت يوديت جدية ومرتبكة قليلاً حين رأتني لأنها لم تكن تعرف تماماً ما موقفها من الحدث المحزن.

ولكنني قلت بجد إنني أتيت لكي أودعها، وذلك إلى الأبد؛ لأنني لن أستطيع أبداً أن ألتقيها في يوم من الأيام. فارتاعت لدى سماعها ما قلت وصرخت مبتسمة أن هذا كلام غير ثابت ويحمل في طياته بذور التراجع عنه؛ كانت في أثناء ابتسامها شاحبة اللون ومع ذلك لطيفة إلى أقصى حد بحيث أوشك سحرها على أن يغيرني كما يقلب المرء قفازاً على الوجه الآخر. ولكنني أجبرت نفسي وتابعت قولي: إن علاقتنا لا يمكن أن تستمر هكذا، وإنني كنت أحب آنّا منذ الطفولة وإنها أحبتني بصدق حتى يوم مماتها فاستحقت بذلك إخلاصي وولائي. الإخلاص والصدق يجب أن يسودا العالم، ولابد للمرء من أن يستند إلى شيء ثابت، وأنا أرى أن ليس من واجبي فحسب بل من حسن حظي أن يكون لي في ذكرى المرحومة، بالنظر إلى خلودنا المشترك، نجم صافٍ ولطيف مدى الحياة تستطيع كل تصرفاتي أن تهتدي به.

حين سمعت يوديت هذه الكلمات ازداد ارتياعها وبان عليها في الوقت ذاته تأثر مؤلم. كانت تلك مرة أخرى من نوع الكلمات التي زعمت أن ما من أحد قال لها مثلها طوال حياتها. مشت تحت الأشجار بحدة، هكذا على غير هدى ثم قالت: "ظننتُ أنك أحببتني أيضاً بعض الشيء!".

أجبتها: "لهذا السبب تحديداً، أي لأنني أشعر بارتياح لتعلقي بكِ فلا بد من وضع نهاية لعلاقتنا!".

فقالت: "كلا، لهذا السبب تحديداً يجب أن تبدأ بحبي بشكل صحيح وتام!".

صرختُ بأعلى صوتي: "ما أجملها من فوضى إذاً! وماذا عن آنَّا في هذه الحالة؟".

أجابت: "آنَّا ماتت!".

فقلت: "كلا، آنَّا لم تمت وسوف ألتقيها في المستقبل، لا أستطيع طبعاً أن أجمع حريماً كاملاً من النساء إلى الأبد!".

وقفت يوديت أمامي بهدوء مبتسمة بمرارة ثم قالت:

"إذا كان الأمر كذلك فهو جد مضحك ويدعو إلى السخرية! هل نعلم إن كان ثمة أبد حقاً؟".

أجبت: "هكذا أو هكذا، لابد من وجود أبدٍ، حتى ولو كان أبد الفكرة والحقيقة! أجل، إذا ما اختفت تلك الفتاة الميتة إلى الأبد في العدم وذابت تماماً ما عدا الاسم فإن ذلك سبب وجيه لالتزام الإخلاص والصدق إزاء الغائبة المسكينة! إنني قطعتُ عهداً بذلك ولن يثنيني عن نيتي أي شيء!"

قالت يوديت بصوت عالٍ: "ولا شيء! أووه، أيها الولد المخبول! هل تريد أن تقيم في أحد الأديرة؟ يبدو لي أنك تريد ذلك! ولكن لا حاجة بنا إلى أن نتنازع حول هذا الموضوع الشائك؛ لم أكن راغبة في أن تأتي إلي فوراً بعد الحدث الحزين ولم أتوقع مجيئك. اذهب إلى المدينة وابقَ نصف عام صامتاً وبعد ذلك سوف ترى ماذا سيحدث لاحقاً!".

فأجبت: "أرى منذ الآن ما سيحدث، لن تريني أبداً ولن تتحدثي معي، أقسم على ذلك بالله وبكل ما هو مقدس، بالجزء الأفضل من ذاتي و....".

هنا صرخت يوديت خائفة مذعورة ووضعت يدها على فمي لكي تحول دون استمراري في الكلام:" كفَّ عن كلامك! أنا متأكدة من أنك سوف تندم مرة أخرى على أنك نصبت لنفسك فخاً شنيعاً! أي شيطنة تعشش في رؤوس هؤلاء الناس! وإضافة إلى ذلك يزعمون ويخدعون أنفسهم بأنهم يتصرفون حسبما تملي عليهم قلوبهم. ألا تشعر أبداً أن القلب لا يحقق كرامته الحقيقية الا بأن يحِب حيث يحَب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؟ إنك تستطيع أن تحب، ولكنك تحب في الخفاء وترى في ذلك كل شيء على ما يرام! حالما لم تعد تطيقني، حالما تعمل السنون في ظروف أخرى على التفريق بيننا، ينبغي عليك عندئذ أن تغادرني وتنساني تماماً وإلى الأبد؛ لا مانع عندي من أن أتحمل ذلك؛ ولكن الآن فقط، لا تتركني ولا تجبر نفسك على تركي؛ هذا وحده سوف يؤلمني، وسوف يتعسني حقاً ألاَّ يحق لنا، لمجرد حماقتنا، أن نكون سعيدين حتى لعام أو عامين من الزمن!".

قلت:" هذان العامان لابد من أن ينقضيا هكذا بطبيعة الحال وسوف ينقضيان، وبعد ذلك تحديداً سوف نكون سعيدين أكثر لو أننا افترقنا الآن: إنه الآن تحديداً أنسب وقت لفعل ذلك دون أي ندم عليه فيما بعد. وإذا كان ينبغي علي أن أفصح لك بصريح العبارة فاعلمي أنني سوف أنقذ أيضاً ذكراك، التي ستكون عندي باستمرار ذكرى تضليلية، وأحافظ عليها نقية قدر الإمكان وذلك لن يحدث إلا من خلال فراق سريع في هذه اللحظة. لطالما قلتِ وشكوتِ من أنك لم تحصلي أبداً على النصف الأنبل والأسمى من الحب! فأي فرصة أفضل يمكنك أن تنتهزي من أن تسهلي علي بملء رغبتك وبدافع الحب أن أتذكرك بكل احترام وحب وأن أكون في الوقت ذاته وفياً للمرحومة؟ ألا تشاركين بذلك في ذلك النوع الأعمق من الحب؟".

فردت يوديت بأعلى صوتها: "كل هذا هراء ودوي لا أكثر! لم أقل شيئاً، أريد أنني لم أقل شيئاً! لا أريد احترامك، أريدك أنت ذاتك طوال ما أستطيع ذلك!".

وعزمتْ على أن تلمس كلتا يديَّ فأمسكت بهما، وفي حين بذلت جهداً كبيراً دون جدوى لانتزاعهما منها وكانت هي تنتظر في عينيَّ راجية متوسلة، تابعت قولها بنبرة عاطفية جارفة:

"أوه هاينريش، يا أحب الناس! اذهب إلى المدينة، ولكن عدني بألاَّ تلزم نفسك وتجبرها بإيمان ونذور مخيفة كهذه! اترك لنفسك...".

أردت أن أقاطعها، لكنها منعتني من الكلام وتغلبت علي وقالت:

"دعِ الأمور تجرِ كما تشاء، هكذا أقول لك! لا أريدك أيضاً أن ترتبط بي، بل ينبغي أن تكون حراً كالريح! هل يعجبك...".

لم أدع يوديت تكمل كلامها، بل انتزعت نفسي منها وصرخت:

"لن ألتقيك أبداً ما دمت متأكداً من بقائي مخلصاً! يوديت، وداعاً!"

وليت هارباً، ولكنني نظرت مرة أخرى إلى الوراء، وكأن قوة كبيرة أجبرتني على ذلك، فرأيتها واقفة هكذا مبهوتة وحديثها مقطوع ولا تزال يداها ممتدتين جراء انتزاع يديَّ منهما قبل قليل، وكانت مندهشة وقلقة ومهانة في آن واحد وهي تنظر إلي دون أن تنبس ببنت شفة، إلى أن حجب عني الضباب المشبع بأشعة الشمس صورتها نهائياً.

بعد ذلك بساعة من الزمن كنت أجلس مع أمي على عربة، وأحد أبناء خالي أوصلنا إلى المدينة. وهناك بقيت طوال فصل الشتاء وحيداً ودونما اختلاط بأحد؛ محافظي المليئة باللوحات والرسومات وأدواتي المخصصة للرسم لم تلقَ مني أي اهتمام، حتى إنني لم أحب أن أراها لأنها كانت تذكرني باستمرار بالتعيس رُومر، وبدا لي أيضاً ألاَّ حق لي في أن أتابع تأهيلي في ما تعلمته منه وألاَّ حق لي في استخدامه أيضاً. حاولت أحياناً أن أبتكر أسلوباً جديداً وخاصاً بي، ولكن سرعان ما كان يتبين أن الفضل في اتخاذ الموقف

وفي الوسائل، التي ستستخدم في ذلك، يعود إلى رُومر وحده دون غيره. بالمقابل كنت أقرأ وأقرأ من الصباح حتى المساء وإلى وقت متأخر من الليل. كنت أقرأ باستمرار كتباً ألمانية وبأغرب طريقة. كنت أعقد العزم في كل مساء أن ألقي الكتب جانباً في صباح اليوم التالي وفي كل صباح في الظهيرة التالية وأبدأ من ثم في عملي من جديد في مجال الرسم؛ من ساعة لأخرى كنت أحدد الموعد؛ ولكن الساعات كانت تنسل وتختفي بتقليبي صفحات الكتاب، كنت أنساها تماماً؛ الأيام والأسابيع والشهور انقضت على هذا النحو برقة وهدوء، لكن غيلة وغدراً، كأنها وهي تتزاحم ببطء تسرق نفسها وتختفي ضاحكة على اضطرابي الدائم وساخرة منه.

إلا أن حلول الربيع جلب معه خلاصاً حاسماً من هذا الوضع المتعب؛ كنت تجاوزت الثامنة عشرة من عمري فأصبحت بذلك ملزماً تأدية خدمة العلم، وكان علي في اليوم المحدد أن أحضر في الثكنة لكي أتعلم الأسرار الصغيرة المتعلقة بالدفاع عن الوطن. وجدتُ اكتظاظاً ذا أصوات مهمهمة مدمدمة لمئات كثيرة من الشباب من جميع الطبقات، ولكن سرعان ما عملت مجموعة من رجال الحرب المتجهمين المتشددين على تهدئتهم وتقسيمهم وتحريكهم طوال ساعات كثيرة ذهاباً وإياباً بوصفهم مواد أولية عصية على الاستخدام إلى أن تم اختيار الصالحين منهم للعمل والمفيدين. حين بدأت التدريبات بعد ذلك وتم فرز الفصائل لأول مرة تحت إمرة القادة، الذين كانوا عسكريين محنكين، حُلق على حين غرة شعري الطويل إلى درجة الصفر حول الرأس وذلك وسط ضحك الجميع وقهقهتهم. ولكنني قدمته بكل سرور قرباناً على مذبح الوطن وشعرت بكل ارتياح بهفيف الهواء العليل حول رأسي الجرداء. ولكن كان علينا الآن أيضاً أن نمد أيدينا للتأكد من أنها مغسولة ومن أن أظافرنا مقصوصة كما ينبغي، والآن أتى دور بعض العمال محدودي الأفق لكي تستخدم في تعليمهم الأصوات العالية. بعد ذلك وُزع علينا كتاب صغير، الأول من بين سلسلة كتب كاملة، طبع فيه ورُقم بوضوح في جمل

غريبة على صورة أسئلة وأجوبة ما يترتب على المجنّد من واجبات وسلوك. ولكن أضيف إلى كل قاعدة نص قصير يتعلق بالأسباب الموجبة لذلك، وإذا ما صادف أحياناً أيضاً أن انزلق ذكر هذه الأسباب في نص جملة القاعدة أو انزلقت القاعدة في الأسباب فيما بعد، كنا نحفظ جميعاً كل كلمة بتبصر وتمعن عن ظهر قلب ونرى أن من الشرف أن نتلو هذه الفروض من دون تلعثم أو تردد. وأخيراً قضينا بقية اليوم الأول في بذل الجهود للتعلم من جديد كيف نقف ونمشي بضع خطوات وفقاً للتعليمات العسكرية، الأمر الذي تحقق بالتناوب بين الشجاعة والخذلان.

وجب الآن أن ننصاع إلى نظام حديدي ونبذل الجهود للتقيد بدقة بكل المواعيد؛ ومع أن هذا تطلب أن أتنازل عن حريتي واستقلاليتي التامتين، إلا أنني أحسست بتعطش حقيقي إلى أن أستسلم للشدة مهما كانت أهدافها الصغيرة التالية مضحكة، وحين اقتربت بضع مرات من المعاقبة نتيجة لهفوات غير متعمدة فقط اعتراني شعور بالخجل أمام زملائي، الذين كانوا بدورهم عرضة لأوضاع مشابهة.

وحين تطورنا إلى حد إتقان المشية العسكرية عبر الشوارع، كنا نذهب كل يوم إلى ساحة التدريب التي في العراء ويخترقها طريق زراعي. في أحد الأيام، حين كنت في وسط طابور من نحو خمسين رجلاً بقيادة المدرب، الذي كان يمشي أمامنا إلى الخلف دون كلل أو ملل صارخاً بصوت عال ومؤشراً بيديه بقصد حملنا على التصرف بسرعة، حين كنت طوال ساعات من الزمن عبرت الساحة الواسعة في كل الاتجاهات، توقفنا فجأة على مقربة من الطريق الزراعي في وضع دفاعي ضد ذلك الطريق. والمدرب، الذي وقف خلف الخط الدفاعي، تركنا لفترة من الزمن واقفين بلا حراك لكي نقدم بعض العروض لأطرافنا وإمكاناتنا البدنية. وبينما كان يحدث صخباً ويسب ويشتم من وراء ظهورنا بقدر ما سمح له القانون والعرف بذلك ونحن نصغي إليه هكذا ووجوهنا متجهة صوب الطريق الزراعي، أتت عربة كبيرة يجرها

أربعة أحصنة ومجهزة وفقاً لما اعتاده المهاجرون المتوجهون إلى موانئ البحار. هذه العربة كانت محملة ببضائع فخمة وبدا أنها تخدم عائلات كثيرة، نازحة إلى أمريكا. رجال أقوياء ساروا بجانب الأحصنة وأربع نساء أو خمس جلسن في العربة تحت مظلة مريحة إلى جانب أطفال كثيرين ورجل عجوز. غير أن يوديت كانت انضمت إلى هؤلاء الناس؛ لأنني اكتشفتها حين نظرت مصادفة إليها فكانت شامخة وجميلة بين النساء الموجودات ومرتدية ثياب السفر. راعتني رؤيتها بشدة وخفق قلبي بقوة، في حين لم يكن يصح أن أتحرك أو تهتز جوانحي. يوديت، التي رمقت كما بدا لي صف الجنود لدى مرور العربة بهم بنظرة عبوس، رأتني بينهم ومدت يديها إلي في الحال. ولكن في اللحظة ذاتها أصدر مدربنا الطاغية أمراً "إلى الوراء دُر!" وقادنا كمن أصابه مس من الجنون بخطى سريعة إلى الجانب المقابل من الساحة الواسعة. مشيت في ركاب القوم متابعاً، ملصقاً ذراعيَّ حسب التعليمات بجسمي على طوله، "قالباً إبهاميَّ إلى الوراء" تعبيراً عن تجهمي، دون أن ألفت انتباه أحد مع أنني كنت شديد الجيشان والانفعال؛ ففي هذه اللحظة كنت أحس بأن قلبي يكاد يرتج في صدري من جراء ما رأيت. حين أدرنا وجوهنا من جديد باتجاه الطريق الزراعي طبقاً للأفكار المتعرجة الحاسمة والمستوطنة في دماغ القائد، اختفت العربة في غياهب البعد المترامية.

لحسن الحظ تفرق جمعنا الآن، وفي حين ابتعدت فوراً وبحثت عن عزلتي ونزوعي إلى أن أخلو بنفسي شعرت بأن الجزء الأول من حياتي انتهى وبدأ جزء آخر.

* * *



الفصل التاسع

وثيقة الرَّق الصغيرة

كم مضى من الوقت على ما كتبته حتى الآن. فأنا لم أعد الإنسان نفسه، وخطي تغير منذ وقت طويل؛ على أني أشعر كما لو أنني أتابع الآن الكتابة من حيث توقفت بالأمس. وعند المشاهد لحياة باستمرار يتساوى حسن الطالع وسوؤه في أنهما متبدلان ويزيلان الملل، وهو يدفع ثمناً لمقعده المتبدل في صالة المشاهدين من غير تمحيص بعملة الأيام والسنين إلى أن ينفد ماله الفارُّ من بين يديه.

نقطة الانعطاف، التي كانت اقتربت خلسة مع نهاية الفترة الأولى من مرحلة الشباب ورحيل يوديت، تجلت الآن في ضرورة إتمام تعليمي الفني. فكان لابد من أن أسلك تلك الطريق المؤدية إلى العالم الواسع الذي يخرج إليه يومياً آلاف كثيرة من الشباب وبعضهم لا يعود. هذه المسألة اليومية اتسمت عندي بأنني استطعت لفترة محدودة أن ألتزم دونما قلق على قوت يومي التعلم أملاً في قدوم يوم علي أن اعتمد فيه على نفسي.

كان ثمة مبلغ زهيد من المال ورثته قبل أعوام عن أبي، ولكنه بقي طبقاً للأحكام القانونية في عهدة خالي، الذي كان تولى الوصاية علي على الرغم من أنه قلما تدخل في شؤوني. ولكن بما أن هذا المال كان له أن يمكنني من الإقامة في مدرسة الفنانين، التي اخترتها بطريقة تقليدية متعارف عليها، فقد تطلب الأمر إجراء مفاوضات وصائية الطابع لكي يجوز تسييل

المبلغ واستهلاكه. هذه الحال كانت جديدة تماماً في موطني الريفي ولم يستطع أحد أن يتذكر إن صادف في يوم من الأيام أن الرجال الريفيين البسطاء التابعين لدائرة الأيتام عقدوا جلسة محاكمة لإصدار قرار يجيز لطالب فتي في مجال الفن أن يلمَّ ثروته ويخرج من البلاد لكي يستهلكها حقاً. ولكن كان ثمة مثال حي بين أيديهم لإنسان كان منذ بعض الوقت قام بعمل كهذا دون أن يكون لهم علاقة بذلك، وقد أطلق على هذا الإنسان اسم مفترس الأفاعي. فقد نما هذا الشاب وترعرع في أمكنة بعيدة تحت حماية أبوين مستهترين وجاهلين، وأراد أن يصبح مثلي رساماً ثم تنقل من أكاديمية فنية إلى أخرى مرتدياً سترات مخملية وسراويل ضيقة على الساقين وكان له خصلات شعر طويلة ومهمازان يحيطان بقدميه، إلى أن زالت الثروة وزال الأبوان. بعد ذلك بدا أنه كان يتسكع على مدى سنين طويلة وعلى ظهره قيثار كان يستخدمه لكسب طعام يومه دون أن يتمكن على هذه الآلة أيضاً من تقديم عزف يعتد به أو يسر الناس، إلى أن نُقل إلى القرية قبل زمن غير بعيد بعد أن طال به العمر وأُدخل إلى مأوى صغير للفقراء حيث أقام هناك عدد من النساء العجائز والمجانين والمنهكين من شطار الحياة من أدنى المستويات، واعتاد هؤلاء من حين لآخر أن يصدروا أصواتاً عالية ويحدثوا ضجيجاً كما لو أنهم يجلسون في المطهر. كان ماضيه شبيهاً بأسطورة غامضة، فلم يعرف أحد شيئاً أكيداً عما إذا كان في يوم من الأيام ذا موهبة أو مقدرة على أي شيء أو لا، وبدا هو ذاته أيضاً أنه لم يعد يتذكر شيئاً من هذا القبيل. ولم يتبين لا من أقواله ولا من أفعاله أنه كان في يوم من الأيام على اختلاط بأناس مثقفين أو أنه زاول أي فعالية في مجال أي فن ماعدا حين كان يتباهى من حين لآخر بأنه ارتدى ذات مرة ثياباً جميلة. وتجلت مهارته الوحيدة في أنه كان يحصل بمختلف الأساليب على جرعة كونياك ويصطاد أفاعي كان يقليها كأسماك الثعابين ويتلذذ بالتهامها؛ وكذلك كأن يخلل للشتاء حلة من الثعابين كما لو أنها من الفقريات ذوات تسع العيون، وكان يجر الحلة من زاوية إلى أخرى لكي

يؤمن كنزه هذا ضد الاصطياد من رفاقه في السكن، الذين لم يكونوا فيما يتعلق بالأنانية أكثر براءة من شطار الحياة رفيعي الدرجة.

كيف يستطيع الآن وغد فريد من هذا النوع أن يعيث فساداً في منطقة بأكملها ويحرض كل القلوب ضد شأن الفن، هكذا ظهر لي أيضاً مفترس الأفاعي في وقت غير ملائم حين أتيت لحضور جلسة المفاوضات آنفة الذكر. فقد ظهر لي ذاتي كشيطان شرير حين كنت أرسم في كتيبي وأنا في الطريق نبتة كبيرة من العام الفائت وهي من فصيلة الشوكيات السنانية وكان منظرها شبيهاً بموت مدينة يُبارن البلجيكية، مر الولد هناك يحمل أفعيين ميتتين على قضيب فوق كتفه فتوقف للحظة ونظر إلي ثم ابتسم ساخراً وتابع سيره وهو يهز رأسه كما لو أن شيئاً غريباً سرى عبر ذاكرته. كان يرتدي سترة طويلة مليئة بالثقوب ولها لون بني داكن من دُرجة قديمة ومزررة إلى أعلاها، وكان ينتعل على ساقيه العاريتين شحاطة مطرزة بورود بهتت ألوانها مع مر الزمن، وعلى رأسه قبعة عسكرية نمساوية؛ لا أزال أراه حتى اليوم وهو يجر ساقيه ويولي هارباً.

هذا الشبح أحدث على ما يبدو ضجيجاً في رؤوس العُمَد الثلاثة أو الأربعة، الذين جلسوا بصفتهم ممثلي دار الأيتام مجتمعين حول المنضدة وعاينوا شخصي للحظة بفضول حذر؛ لأن خالي كان رأى أن من المستحسن أن أقوم أنا ذاتي بتعريف نفسي وتقديمها لكي أعمل عند الضرورة على إضافة ما يلزم إلى مـــا يقوله عني وألقي الضوء على ذلك عن كثب. ولكن بدا أن وجوه الرجال تقلصت كمن رأوا أن أمراً مزعجاً قد يحدث وهم الآن يقولون: ها نحن الآن في قلب المأزق! ربما سبق لهم أن راقبوا باستغراب كيف أنني منذ سنين كنت أطوف في كل صيف في الحقول والغابات وأنصب مظلتي الكتانية البيضاء دون أن يبـــدو أنني جلبت إلى منطقتهم ســمعة ذات شـــأن أو قدم إلينا مسافرون غرباء وسياح بقصد تعرّف بلادنا المدهشـــة. أما السؤال عما إذا كان عملي المضحك يدر علي في حقيقة الأمر شيئاً من المال

فقد تم صرف النظر عنه لأنه ما من أحد سبق أن طلب منهم شيئاً، والآن انكشفت المساومة.

صحيح أنهم في البدء تصرفوا معي بتحفظ حين كان خالي عرض الموضوع وشرحه. لم يشأ أي منهم بادئ ذي بدء أن يسجل على نفسه نقصاً في العقل أو الإدراك أو يُظهر أنه يحتقر بتكبر وتعال ما كان يجهله. ومع ذلك فقد رسخ في أذهانهم بكل وضوح أن كمية تقريبية من الثروة هي الآن آمنة في الحفظ والصون مثل إليعازر في حضن إبراهيم قد تُبذر بالفعل وتختفي في غضون وقت معين. وعلى جناح السرعة تصور كل منهم، طبقاً لوضعه الخاص وشخصيته ما الفائدة التي ترجى من مال كهذا. أحدهم خطر على باله أن يشتري بذلك مرجاً واسعاً لكي يكون ميراثاً للأولاد والأحفاد وترعى فيه بعض المواشي؛ والآخر ألقى بعينه على قطعة أرض مكسوة بكروم العنب حيث يزهو ويزدهر في أسوأ الأحوال نبيذ صالح للشرب؛ أما الثالث فقد اشترى في ذهنه حق الانتفاع بطريق من جاره تجتاز حقله من الطول إلى الطول؛ والرابع أخيراً رأى أن من الأفضل الاحتفاظ ببساطة بصك القيمة النقدية المعني، الذي هو ورقة رَقٍّ قديمة بصفتها وسيلة جيدة لجني الفوائد المترتبة على إبقائها على حالها ولا يجوز لأحد التفريط بمثلها. وفي حين طبقوا معاييرهم على هذا النحو على الشيء غير المنظور وكان علي في هذه الحالة أن أقدم من أجل ذلك المرج وكرم العنب وحق الانتفاع بالطريق ووثيقة الرَّق الصغيرة، تراءى ذلك الشيء الآنف الذكر أكثر فأكثر في أفق النظر لكن كضباب خاو أو غبش لا يُنال، والأكبر سناً من بين هؤلاء الرجال تشجع وأعرب عن تحفظه بهمهمة مزخرفة وتبعه الباقون واحداً بعد الآخر.

وهنا قيل إنه ليس من حسن الرأي استبدال شيء غير مؤكد بالشيء الوحيد والقليل الذي يملكه المرء ويضمن وجوده في يده، لأنه يتعذر على الإطلاق ضمان تحقيق الهدف وتعلم المرغوب فيه ضماناً فعلياً. وفي هذه الحال ربما كان من الأذكى أن أفترض من الآن أنني لا أملك ذلك المال وعلي حل

مشكلتي بوسائل أخرى. وقد يكون بعد ذلك فجأة وسيلة مرحباً بها ذات مرة في أيام المرض أو الشدة أو الفقر ويمكن أن تستخدم بكل حيطة وحذر.

وقيل أيضاً إن علماء وفنانين هم في غاية الأهمية جالوا في العالم في مقتبل أعمارهم، وكسبوا قوتهم بجدهم واجتهادهم ومن عملهم، وتعلموا في الوقت ذاته وطوروا فنّهم إلى مستويات رفيعة، بل إن عملهم الدؤوب ونشاطهم المتواصل وفعاليتهم النشيطة عادت عليهم بالفائدة والنجاح طوال حياتهم، وبلّغتهم أعظم الأهداف وأعلى المراتب. ولقد سمعت هذه الترنيمة للمرة الثانية في حياتي ولمّا تعجبني حتى الآن.

كان الرجال، الذين أجروا مفاوضات على هذا النحو، يجلسون حول منضدة مستديرة ويشربون كأساً من النبيذ الخفيف المز؛ بينما جلست أنا، بوصفي موضوع المشاورات، وحيداً على منضدة طويلة ضاعت نهايتها في منطقة الباب شبه المظلمة. في هذه العتمة قرفص رجل الأفاعي الذي كان تسلل إلى المكان دون أن يراه أحد، في حين كنت أنا في المكان العالي الأكثر إضاءة وأمامي زجاجة صغيرة من النبيذ الأحمر الغامق. كان ذلك بالطبع تطاولاً كبيراً على اللياقات المعهودة ولو أنه سُجل على مضيفة إدارة البلدة التي كانت وضعت النبيذ على منضدتي ولم يخطر ببالي أن أردها. وخالي، الذي جلس مع العُمَد، كان يشرب من صنف النبيذ المذكور بسبب ألم صغير في المعدة، على حد قوله للرجال الأجلاف الذين بجواره.

أحد هؤلاء، الذي عامل قطعته الصغيرة من الخبز الأبيض كقطعة حلوى من اللوز والسكر فكان يلم الفتات الساقط منها على الطاولة بقبصة يده بعناية فائقة كما لو أنه من ورود الزنبق، تابع الآن قوله إنه:

لا يفهم شيئاً عن الموضوع، ولكن يبدو له بالطبع أنه كان من الأجدى لو أن الرجل الشاب، بدلاً من اعتماده على الميراث الصغير الذي تركه له أبوه، تدرب لدى إقامته في كنف أمه على كسب المال وتمكن بذلك بأسهل طريقة في العالم من أن يدخر المبلغ الذي هو الآن بحاجة ماسة إليه. ويكون

على هذا النحو قد أمَّن مستقبله؛ لأن من تعود في الظروف المواتية أن يفكر في مستقبله وألا يقوم بعمل دون النظر إلى قيمته المادية يتعذر عليه الإقلاع عن هذه العادة ويعرف كيف يتدبر أموره في كل مكان، مثله مثل الجندي في المعركة. وهذا هو أيضاً فن جيد وكلما تعلمه المرء أبكر كان أفضل؛ ولذلك فهو يريد أن ينصح بأن أعقد العزم بشجاعة على الرحيل إلى بلاد الله الواسعة مزوداً بمبلغ متواضع من المال وبنية أن أثبت وجودي في هذا العالم. وسوف أنجز، على حد قوله، بعضاً من المهارات المجدية على مر السنين القادمة، أم إن الأمر ليس هكذا؟

هذا السؤال، الذي كان صحيحاً وغير صحيح معاً، استأثر باهتمام الجميع وصاروا ينظرون إلي. كان مفترس الأفاعي في أثناء ذلك انزلق شيئاً فشيئاً من مكانه المعتم إلى مقربة مني وأخذ يراقب باهتمام نبيذي ويصغي إلى المفاوضات في آن واحد؛ وعلى هذا النحو صرنا نحن الثلاثة، النبيذ الأحمر ومفترس الأفاعي وأنا، محط النظر؛ وأحسست عندها أنني صرت أحمر الوجه كالنبيذ حين حل في كل أرجاء المكان هدوء له دلالاته. الشراب الفاضل شهد ضد تواضعي وحرصي على الادخار، والرفيق الذي بجانبي شهد ضد خططي في الحياة؛ شهد بصوت عال بحيث لم يجد أحد أي ضرورة في أن يضيف كلمة واحدة.

لذلك، بعد أن أُخرج الرجل الدخيل من القاعة، بقي الهدوء مخيماً لفترة غير قصيرة إلى أن تناول خالي الكلمة لكي يعمل على تعويم السفينة الصغيرة المرتطمة. قال خالي إنه لا يمكن تناول الموضوع بالصورة التي ارتآها السادة العُمَد؛ فمثلهم مثل فلاح أراد، بدلاً من أن يستخدم مكياله من الحبوب بذاراً، أن يحتفظ به إلى أن تحل في البلاد مجاعة ويذهب في غضون ذلك للعمل مياومة لدى الناس الآخرين. فالوقت، كما هو معلوم، هو أيضاً مال؛ ولا يجوز إجبار شاب على أن يجرجر نفسه بتثاقل وعناء على مدى سنين طويلة لكي يتعلم ما قد يتوصل إليه في وقت أقصر بكثير بفضل الإفادة من

موروث صغير من المال. لم نهتدِ إلى ذلك عشوائياً ومن دون تخطيط، بل أوردنا في الحسبان منذ البداية أن نلجأ إلى هذه الوسيلة عند اللزوم؛ وللمناسبة حبذا لو نسمع رأي ابن أختي ذاته في هذا الأمر لعله يطلعنا على ما قد يبدي من ملاحظات بهذا الشأن.

إثر ذلك أعطاني رئيس الجلسة الكلمة فطلعت عليهم، نصف خجلان ونصف مغتاظ، ببعض التباهي والتعالي. قلت إنه مضى منذ زمن طويل ربط الفن بالصنعة اليدوية ومضى معه أيضاً تجوال طالب العلم وتنقله من مدينة إلى مدينة كأي صاحب صنعة آخر. ولم يعد يوجد الآن أي تتابع مراتبي، بل يجب على كل مبتدئ أن يقف على قدميه بفضل عمله الأول الوحيد والمعدِّ إعداداً جيداً. ولكن ذلك لا يتسنّى إلا في مكان يزدهر فيه الفن وتقوم له قائمة؛ هناك لا يجد المرء الاقتداء الضروري بكل أنواع التدريب الفني فقط، بل كذلك التنافس المنتفع به لدى كثيرين من الطموحين، لكنه يجد أخيراً في الوقت ذاته الاعتراف بما يُنجز والسوق اللازم للأعمال المنتَجة وبوابة اليسر والرغد إلى المستقبل. على هذه البوابة يهوي على الأرض ويهلك كل من لا يشعر بأهليته لأن يحمل في أعماقه شعلة الروح العظيمة، مثلاً كمفترس الأفاعي التعيس الذي شوهد هنا قبل قليل. أما الآخرون فإنهم يعبرون طريقهم بجرأة ويصلون بسرعة إلى النعيم والشرف بحيث يكون الأكثر تواضعاً من بينهم هم أولئك الذين سرعان ما يعوض عليهم سعر البيع لواحدة من لوحاتهم كل الأموال المنفقة سابقاً التي تعادل قيمة مرج وكرم عنب أو حقل زراعي!

وكما هو قدر الشعب الريفي الطيب في أنه يقع دائماً تحت تأثير الكلمات الكبيرة الصادرة عن أناس متفائلين، فقد غدا الرجال بفعل أقوالي في وضع من التردد إن لم يكن من الملل. وبعد استراحة قصيرة مرة أخرى سمعت في أثنائها نحنحة مقتضبة حول ما سمعوه من كلامي، قال رئيس الجلسة فجأة إنه يريد التأكد مما إذا كان الخال، بوصفه وصياً، مصراً على طلبه؛ لأنه في نهاية المطاف هو صاحب الصلاحية وهو الرجل المؤهل لقول

كلمة الفصل في هذا الموضوع. أكد خالي مرة أخرى رأيه ثم أضاف أنَّ علي أن أرحل، ذلك أمر ضروري ولا محيد عنه؛ ولكن لم تُعد العدة، وأنا أيضاً لست مؤهلاً، في الظروف الحالية، لأن أرحل من دون مبلغ كاف من المال وأبحث فوراً عن قوتي بكل سهولة ويسر. لو أن الإمكانات المادية اللازمة غير متوفرة ولو أنني مكتمل اليتم بالمرة ومن دون أصدقاء فسوف أستجيب على حد ما يتوقع خالي مني بروح متجددة لقدري؛ ولكن من دون أي مسوغ لا يجوز أن يُجبر صبي فجأة على فعل أمر كهذا.

رد العُمَد الآخرون على استطلاع رئيس الجلسة بأنهم عبروا عن رأيهم طبقاً للمعلومات المتوفرة لديهم ولم يحسوا بأنهم مضطرون لإبداء معارضة كبيرة خصوصاً أنه مشهود بالموهبة والاجتهاد والسلوك الفضيل للمعني بموضوعنا السيد الفوغت الشاب، الذي إذا ما عقد العزم بالطبع على اجتياز بوابة الرفاهية واليسر فإن عليه قبل كل شيء أن يقلع في كل حله وترحاله عن عادة الشرب من النبيذ الأفضل.

في حين تغاضيت عن هذا التلميح، اتُخذ قرار بتسليم صك الإرث الصغير إلى صاحبه وتنظيم محضر خاص بذلك وتوقيع خالي عليه مع بقية الموقعين.

الخزنة، التي احتُفظ فيها بصكوك الأموال العائدة إلى أولئك الذين تحت الوصاية، كان جيء بها بسبب شؤون أخرى إلى المكان نفسه؛ وهنا أعلنت الإدارة المسؤولة أن من الأفضل إخراج الوثيقة الآن حالاً أملاً في أن تجد هذه المشكلة حلاً نهائياً.

وُضع الصندوق الخشبي المزود بثلاثة أقفال على المنضدة وفُتح، في حين أخرج كل من رئيس الجلسة وأمين الصندوق والكاتب مفتاحاً من جيبه ووضعه في الثقب المخصص ثم أداره بتأن وتمعن. انفتح الغطاء وإذا ثروة الأرامل والأيتام تظهر الآن ملقاة على هيئة كومة في داخل الصندوق شبيهة بقطيع صغير من الغنم محشور في الزاوية وفقاً للترتيب الذي تمخض عن حمل هذه الخزنة وخضّها. قال الكاتب حين بدأ يقرأ عناوين مختلف اللفائف:

"لقد سرت مصاير كثيرة عبر هذا الصندوق"؛ لم تتعلق كل رزم الأوراق بنساء وقاصرين، بل كان بينها أيضاً أجزاء من ثروات رجال مساجين ومبذرين أو مختلين عقلياً. وأخيراً اصطدم بشيء صغير وقرأ: "لي"، هاينريش، رودولف متوفى" وناوله إلى الرئيس. وهذا أزال بدوره الغطاء عن ورقة رقٍّ قديمة داكنة كان يتدلى منها ختم نصف متفتت من شمع رمادي اللون. ثم وضع عدة نظارته النحاسية حول رأسه وفتح تلك الوثيقة الوقور وأمسك بها بعيدة عن وجهه. وهنا أبدى ملاحظة قال فيها: "موثق العقود، الذي نظم الوثيقة، لم يعد يشكو من ألم في أسنانه! يعود تاريخها إلى عيد القديس مارتيني ١٥٣٩، إنها لوثيقة قديمة وجيدة وذات قيمة". في الوقت ذاته رمقني بنظرة جدية ولكنني ظهرت له عبر النظارة، التي كانت تصلح للقراءة فقط، بصورة ضبابية تماماً.

وتابع رئيس الجلسة يقول: "منذ ثلاثمئة عام وهذه الرسالة المبجلة تنتقل من جيل إلى جيل وقد حملت دائماً خمساً في المئة من الفوائد!".

قال خالي وهو يضحك محاولة منه لتبديد الانتباه الذي انصب علي مرة أخرى: "ليتنا حاصلون على هذه الفوائد، ولكن ابن أختي لم يمتلك هذه الوثيقة إلا منذ نحو عشرة أعوام وقبل أقل من أربعين عاماً كانت في ملكية الدير الذي باعها رئيسه إبان الثورة. لذلك لا يمكن للمرء أن يحسب بهذه الطريقة؛ وليس صحيحاً أيضاً إن قلنا إن هؤلاء الشيب الثلاثة يبلغون معاً من العمر مئتين وسبعين عاماً أو ذاك الزوج وتلك الزوجة يبلغان معاً مئة وستين عاماً! لا، عمر كل أولئك الشيب الثلاثة معاً تسعون عاماً فقط وعمر الزوج والزوجة ثمانون ما دام الأمر يتعلق تماماً بالسنين نفسها التي عاشوها معاً. وعلى هذا النحو فإن الفنان الشاب هذا لا يضيع فوائد ثلاثمئة عام إذا ما باع هذه الوثيقة، بل المبلغ الذي تنطوي عليه فقط!".

بالطبع كان الرجال يعرفون ذلك جيداً؛ ولكن بما أنه كان على كل واحد منهم التزامات ديون من هذا النوع، مغرقة في القدم وثابتة فيما يخص

مزارعهم وبما أن كل واحد أيضاً عدَّ نفسه مسدداً كل الفوائد إلى الأبد، فقد نظروا إلى اليد القابضة للدائنين المتناوبين على أنها أيضاً أداة أبدية وعصية على الزوال ثم أعطوها أهمية أعلى بكثير مما هي عليه ومنطوية أيضاً على أسرار وغموض. ولذلك سقط علي أخيراً أيضاً الشعور بأهمية المفاوضات وعاق تفكيري. فرأيتني موضوعاً لحديث جدي وإجراءات قانونية، مُعانياً ومسؤولاً في آن واحد، دون أن أرتكب شيئاً أو أرغب في ارتكاب شيء، بحسب رأيي، وجهدت بحماس مزدوج للخروج من الوضع المقيَّد. "إنهم لا يعرفون بتاتاً ما معنى حرية!" هكذا يقول الطالب عن محدودي الأفق دون أن يلاحظ أنه هو ذاته لا يزال في طريقه إلى تعلم ذلك.

* * *



الفصل العاشر

الجمجمة

بيعت وثيقة الرق القديمة الآن بربح لا بأس به لأحد الذين يجمعون وثائق من هذا النوع وكان الأوان قد آن فعلاً للرحيل. في اليوم الأخير من شهر نيسان، الذي صادف يوم أحد، حزمت أمتعتي الضرورية، الأمر الذي ترك في غرفة جلوسنا مشهداً لم يُر من قبل وجعل أمي في وضع مقلق من الانفعال والارتباك. كان ثمة محفظة كبيرة احتوت على ثمرات عملي حتى الآن، المشكوك فيها، وقد لُفت بمشمع مائدة وأُسندت إلى الحائط، كان وزنها الثقيل على الأقل قد واساني بعض الشيء؛ ولكن في وسط الحجرة رست الحقيبة المفتوحة ولم تكن سوى سفينة صغيرة من شجر الصنوبر. وعلى أرضيتها كنت رتبت في طبقات ما أردت أن أصطحب معي من الكتب وصنعت فيها أيضاً مغارة ثابتة خصصتها لجمجمة أحد الموتى لكي تكون محفوظة بأمان في قاع الحقيبة. كانت هذه الجمجمة تستخدم منذ بعض الوقت بوصفها زينة لغرفة عملي وموضوعاً للدراسة المزمعة للشكل البشري، التي كانت توقفت فجأة بالطبع فور الانشغال بدراسة الفك الأسفل بحيث كنت أعرف مؤقتاً مجرد أسماء مختلف عظام الرأس فحسب. كان سبق لي أن لاحظتُ الجمجمة في زاوية إحدى المقابر، إذ ربما وضعها حفار القبور في ذلك المكان الآمن حفاظاً عليها من العبث؛ لأنها كانت جمجمة رجل شاب وكانت أسنانها لا تزال كاملة. بالقرب منها كان شاهد قبر قديم جرى تشييده

قبل ما يقرب من ثمانين عاماً رُمي وكتب عليه وقتذاك اسم المرحوم ألبرتوس تزفيهان. ومع أنه لم قط أن هذه الجمجمة كانت تخص هذا التزفيهان، إلا أنني عددت ذلك حقيقة واقعية، إذ ارتبطت بهذا الاسم – طبقاً لتاريخ خطي خاص بإحدى الأسر في جوارنا - قصة قصيرة في غاية الغرابة.

يتعلق الأمر، بقدر ما حُل من ألغاز، بالابن غير الشرعي لرجل اسمه تزفيهان وكان أقام فترة طويلة في آسيا وتوفي هناك. المرأة الهولندية، التي ولدت له هذا الابن، كانت ولدت أيضاً من رجل مفقود ابناً آخر غير شرعي اسمه هيرونيموس وأحبته أكثر من ابنها تزفيهان الصغير؛ وحباً بها واقتناعاً بكلامها فقد تبنى الرجل هذا الصبي الآخر بالشكل القانوني المتبع في حين أهمل من ناحية أخرى أمر الزواج بها فيما بعد ولم يعترف بابنه الذي هو من صلبه. ولكن الابن المتبنى غير الشرعي ابتعد عن البيت حين كبر ثم اختفى دون أي أثر تماماً كأبيه الطبيعي، وحين توفي أخيراً كل من العجوز تزفيهان وصاحبته واحداً بعد الآخر وجد الابن ألبرتوس نفسه، الذي بقي من دون ميراث، وحيداً في بيت وثروة لا صاحب لهما فلم يتردد في أن يحل بطريقة بارعة محل الصبي المتبنى الذي كان له وحده حق الإرث فيتلقف بذلك ما يستطيع من الثروة التي جمعها أبوه العجوز ويغادر المستعمرة الآسيوية بسرعة متوجهاً إلى وطن أبيه القديم.

وبما أنه كان رأى في منامه ذات يوم أن أخاه لأمه غرق في البحر وكان يؤمن بمصداقية الأحلام إيماناً قاطعاً، فإنه لم يفعل كل ذلك بنية شريرة على الرغم من مكره ودهائه الذي كان كافياً لأن يخفي وجوده في مدينة أبيه القديمة، التي لم تكن قد رأته بعد مطلقاً، وينتحل على أساس الوثائق التي جلبها معه شخصية الآخر. فاشترى بيتاً واسعاً مع حديقة هادئة لطيفة وكان يتنزه فيها بارتياح صعوداً ونزولاً. هنا بالطبع كان الجيران يراقبونه بفضول لكن دون أن يلاحظ ذلك، وبعد أن كان رتب أموره على ما يرام واستقر في سكناه وإقامته بدأ الجوار ينشط من حوله ويتابع شؤونه مثلما يظهر شيئاً فشيئاً

أهالي جزيرة من الجزر على الرحالة المقذوفين إلى هناك. وترتب على تردد التجار على منزله أن أشيع بأن القادم الجديد يحقق إنجازات مرموقة على صعيد التجارة والاستثمارات القائمة على أساس علاقات منظمة وموثقة. لذلك كان يحيّا عليه في الشارع هنا وهناك بالتحية الأليفة المؤنسة، وفي ما وراء الزقاق كانت تدب الحركة في أكثر من نافذة إذا ما نظر من نافذته لكي يرى حال الطقس. في شرفة ضيقة من أحد الأبنية كانت تجلس طوال اليوم، امرأة شابة وفي يدها مغزل وظهرها باتجاه الشارع دون أن تلتفت إلى الوراء فلم يستطع البتة أن يرى وجهها. لذلك هام عشقاً، ما دام بحكم أصوله العاطفية الجارفة ذا طبيعة عشقية، بظهر الغازلة اللطيف وبانحناءة رأسها الفاتنة. ولكن حين مكث في أحد الأيام، وهو يفكر في أمرها، في الجانب الآخر من حديقة بيته، سمع فجأة صوت أنثى ينادي اسم كورنيليا ورُد عليه بصوت آخر من الحديقة المجاورة. وتكرر ذلك مرات متعددة في أثناء الأيام التالية بحيث نسي ألبرتوس تزفيهان ظهر الغازلة وهام من جديد حباً باسم كورنيليا الجميل، التي لم يرها بعد. لأنها كانت مختفية وراء جدار من شجيرات الياسمين. ولكن كم دهش حين تفرقت هذه الشجيرات فجأة بعضها عن بعض وخرجت من بينها قامة نسائية متجهة إلى المنطقة التزفيهانية عبر باب صغير ذي قضبان خشبية لم يكن يلفت الانتباه حتى الآن. فالبيت الذي تتبع له الحديقة التي في الجانب الآخر لم يقع على الشارع نفسه، بل في جهة أخرى من مجمل شوارع الحي، وتبادل البيتان منذ قديم الزمان بينهما حق الانتفاع بالمرور عبر الحدائق والساحات والممرات، لأغراض محددة وأثناء أوقات اليوم.

لم تكن الفتاة على قدر عظيم من الجمال ولكنها ذات عينين ضاحكتين، وموهوبة ومائلة إلى الطول؛ وقفت هكذا أمام الرجل المندهش وأطلعته على أحكام حق الانتفاع المعمول به حين لاحظت الجارة جهله بذلك. وقالت له إنه يجب أن يكون في حوزته هو أيضاً مفتاح للبوابة الصغيرة؛ فأحضر علبة صغيرة فيها كثير من المفاتيح القديمة وفرز بمساعدتها فرزاً صحيحاً ذلك

المفتاح الذي ناسب القفل. وفي حين كانت تبحث بأصابعها الطويلة البيضاء عن المفتاح، راقب هو بإعجاب شديد جسدها النحيل الذي أعطى من خلال ثيابه الضيقة انطباعاً عن وفرة مطواع. غير أنها الآن أفصحت عن مطلبها بأن حيته باسمه وقدمت له اسمها، ذلك الاسم ذا الوقع المريح، كورنيليا. طالبت كورنيليا بلباقة بحقها في مد خرطوم ماء من البئر الغني بالمياه الموجود في فسحة بيته إلى حجرة غسيلها لكي تتزود، طبقاً للأعراف المدونة، بالماء اللازم لعملية التنظيف الكبيرة نصف السنوية المزمع القيام بها في الحال. وحين رجاها ألبرتوس بلباقة أن تتدبر أمرها بالطريقة التي تريحها، أسرعت على الفور إثر إشارة من كورنيليا عدة غسالات ومعهن مزاريب وأنابيب من صفيح وخشب فانهمكن في تركيبها وتجميعها بعضها مع بعض لكي يحصلن بذلك على مجرى ماء معلق ثم اختفين به من جديد بين الشجيرات التي كن تدفقن منها. وكورنيليا أيضاً تسللت عبر الشجيرات بعد أن كانت انحنت توديعاً، ووقف السيد تزفيهان وحيداً بجانب سيل مائه الجميل من البئر وتمنى لو أنه يستطيع الذهاب إليهن. ولكن في اليوم التالي ظهرت النسوة الغسالات من جديد وفككن أنابيب الماء ثم أخلين الطريق لامرأة طويلة وبدينة لكي تمر بتثاقل وبطء عبر البوابة الصغيرة. هنا جادت هذه المرأة على الحاضرين بتصور كم يمكن أن تصبح الآنسات النحيلات مع مر الزمن ضخمات إذا ما تلقين تغذية جيدة؛ وعرَّفت نفسها بأنها السيدة الأم لكورنيليا المعروفة التي لم تجرؤ على أن تثقل على السيد الجار مرة أخرى بمزيد من المتاعب وساحته، إذ إن من المشكوك فيه ما إذا كانت الشمس سوف تسطع طول اليوم، ولذلك فهي ترغب في أن تجفف الغسيل مرة واحدة، الأمر الذي يمكن تحقيقه من جديد بفضل الموافقة على نشر جزء منه في حديقة تزفيهان وساحته. حدث ذلك في السنوات السابقة على الرغم من أن هذه العادة لم تتطور إلى حق انتفاع كحق استجرار الماء مثلاً ولذلك فهي تأتي، كما يقتضي الواجب، لكي تطلب هذا التسهيل اللطيف. لبى ألبرتوس تزفيهان بكل سرور

طلب السيدة فانسحبت شاكرة إثر ذلك وظهرت بدلاً منها من أدغال شجيرات الياسمين ابنتها في مقدمة بضع سلات محملة بثياب الغسيل في حين حملت هي ذاتها الحبل الجاف، الملفوف على بَكَرة. ولكن طول جسدها لم يكن كافياً في كل الأمكنة، مهما حاولت الوقوف على أصابع رجليها، لربط الحبل بما وُجد في المكان من أعمدة خشبية وعقفات وفروع أشــجار فنجم عن ذلك تلقائياً أن كان على ألبرتوس أن يهب لمساعدتها فيسحب الحبل إلى كل الأمكنة على شكل متعرج ويثبته، في حين أخذت كورنيليا تكرُّ الحبل وهي تحمله وراءه. وكانت تتحرك في أثناء ذلك بخفة ورشاقة ولطافة ووسامة، فغدا الشاب إثر ذلك شغوفاً ومندمجاً إلى حد أنه كان يدوس على منثورة هنا وقرنفلة هناك. وحين تعلق الأمر بنشر الغسيل ظل في الحديقة بطريقة تفتقر نوعاً ما إلى شيم الرجولة وساعد من جديد في جرجرة سلات الغسيل وخدمات أخرى. هنا أعلنت الآنسة بلطف وكياسة أنها جلبت ثيابها الخاصة بها والأفضل مما عندها وتركت الثياب القديمة في الجانب الآخر لكي لا تظهر في مكان غريب بمظهر شحيح ويدعو للشفقة. وهكذا غص المكان بقمصانها وجواربها وصدريّات وأغطية رأس ليلية، ولدى هبوب نسمة عليلة بدأت هذه الملابس ناصعة البياض ترفرف بعبث ومجون بحيث انشغلت كل الأيدي بتثبيت الأشرعة المعرضة للهواء.

انسحب ألبرتوس بانفعال كبير بعد العمل الذي أنجزه إلى حجرات بيته وأخذ يحرس بصورة متواصلة انطلاقاً من نوافذها الحديقة التي كانت تعج بالمستجدات والأحداث. لم يكن هناك أحد في تلك اللحظات بل خيم الهدوء تماماً على الحديقة؛ وحدها ملابس النساء كانت تهف مترجّحة كما لو أن جناً في الهواء يسكن في طياتها إلى أن تدور بها إلى الأعلى فجأة هبة ريح فتلتف الجوارب بعضها حول بعض كسيقان أشباح، وغطاء رأس صغير منتزع من مكانه يصعد كبالون هواء عبر السطح إلى الأعلى. هنا أسرع ألبرتوس تزفيهان مرة أخرى إلى الأسفل لكي ينقذ ما بدا له أنه أقرب إليه من بشرته ذاتها. وظل

يتصارع مع الريح هنا وهناك بشجاعة نادرة؛ ولكن الجوارب ضربت في أذنيه والقمصان رفرفت حول رأسه وغطت عينيه ولم يقوَ على التخلص من الكتان المتوحش إلى أن أتت النسوة الضاحكات وتخطفن الملابس المنشورة.

بعد ذلك ببضعة أيام دُعي رسمياً من قبل الجارتين لتناول القهوة لكي تشكراه على حسن صنيعه. فكانت تلك هي المرة الأولى التي وطأت فيها قدماه الحديقة التي في الجانب الآخر؛ هناك وجد المائدة معدَّة في صالة صغيرة مكشوفة ومتوارية خلف جدار الياسمين. اهتمت الصبية وأمها به إلى أقصى حد، وكان عليه فيما بعد أن يصعد إلى مسكنهما ويتناول عشاء خفيفاً في ضيافتهما. وبالطبع رد هو على هذه الألطاف ودعا الجارتين بدوره إلى ضيافة بقدر ما استطاع أن يقدم لهما بمعونة طباخة عجوز؛ باختصار، نشأت دون إبطاء أو إرجاء علاقة اختلاط متكرر، وكان في حوزة الآنسة كما في حوزة ألبرتوس تزفيهان دائماً وأبداً المفتاح الخاص بباب المرور، كل إلى منطقة الآخر. وسرعان ما اعتادت الأم أن تترك ابنتها وحدها مع الرجل الغريب، لكي يضيعا في مئة حديث حميم؛ كورنيليا سألت عن كل ما عايشه ألبرتوس وعن كل ما أصابه؛ وهو بالمقابل كان يشعر من جراء فضولها إزاءه ومشاركتها له بالتقدير والسعادة فوثق بها في كل شيء لكي يرد تجاوبها معه وصداقتها ويجود لها نوعاً ما بنفسه بلا تحفظ ويحكي لها عن جذوره وملكيته وآخر أسراره غير أنه حكى لها سره الأخير فقط بقليل من التحريف بأن قال إن أخاه غير الشقيق، الذي هو في عداد المفقودين، غرق فعلاً، بدلاً من أنه رأى غرقه في المنام فحسب.

هذه الصداقة الجديدة سرعان ما شاع خبرها وعدت سلفاً خطبة تمت فعلاً أو على الأقل على أن تتم. أثبتت ذلك عند العاشق بضع رسائل غير متوقعة حدث أن تلقاها تباعاً وكانت تحذره من الارتباط الذي كان يهم بالوقوع فيه.

ورد في الرسائل الآنفة أن المرأتين ليستا في أحوال جيدة؛ وفي واقع الأمر لا تملكان شيئاً ومن ثم لا تملكان أكثر من نشاط كبير على صعيد اقتراض المال الذي تبرعان فيه إيما براعة. وقد عرفتا في كل مكان كيف تتدبران الأمر بحيث لا يجري أي حديث حول هذا الموضوع وذلك بأن تختارا دائماً ضحايا يفكرون بنبل ويصمتون وعند الضرورة تتحفظان قليلاً هنا وهناك على حساب أشخاص آخرين؛ ولكن الأمر هو على الرغم من ذلك سر مفضوح ولا يستطيع المرء أن يشاهد مواطناً ممتازاً، تفتح له أحسن البيوت أبوابها، وهو يلقي بنفسه إلى التهلكة. فحيث تقطن رذيلة، لن تكون الرذيلة الثانية والثالثة بعيدة عنها وقلة المال هي صنارة كل الآثام والخطايا. لا ضرورة للتلميح بأكثر من ذلك.

حين قرأ ألبرتوس هذه الرسائل، لم يحزن ولم يغضب بل فرح من كل قلبه لأنه عدّها إفرازات حسد وغيرة وإيعازاً له لكي يشمر عن ساعد الجد ما دام زواج في نظر الرأي العام صار محتملاً ووشيكاً إلى حد كبير. حركته الشفقة الرقيقة فتاق إلى أن يكون ما زُعم من وضع مادي حرج لدى السيدتين وضعاً قائماً فعلاً لكي يرتمي بوصفه متبرعاً للمساعدة في أحضان حب معترف بالجميل. وتحديداً لحال أنهما تحتاجان بالفعل إلى نقود كثيرة وضع على الفور خططاً من أجل زيادة موارده عند الحاجة؛ وكان نوى في كل الأحوال أن يُفيد من معرفته بالعلاقات التجارية الشرقية ويقيم بكل ارتياح وانتباه مؤسسة يمارس فيها نشاطاً متناسباً مع عمره الفتي. وإذ شغلته أفكار كهذه صار يتسكع بانفعال في حجرة سكنه هكذا هنا وهناك وصمم بالتساوي كلاً من خطة العمل والصورة المشرقة للمستقبل انطلاقاً من التصورات والأفكار الخام، وفي أثناء ذلك كان شعوره بأنه حامٍ ومنقذ ذو نفوذ كبير ومسعد الناس ومبدع قوي يزداد دفئاً باستمرار. ولكي يستريح هنيهة فوق هذه الأمواج وقف على إحدى النوافذ ورأى مصادفة كيف دخلت في الجهة المقابلة المرأة الغازلة، التي كان نسيها تماماً، إلى شرفة البناء ورأته هي أيضاً

مصادفة قبل أن تجلس إلى مغزلها. كانت كالعادة أدارت له ظهرها من جديد، الذي كان معروفاً لديه معرفة جيدة حين التفتت إلى الخلف مرة أخرى وتمعنت فيه بنظرة طويلة مظهرة بذلك وجهها الغامض، هذه المرة كله تماماً وبهدوء بينما لم يكن يراه من قبل إلا كلمع البرق الخاطف. ذلك الوجه، تقريباً على صورة القلب، انتهى بذقن صغير ناعم وبدا أقرب إلى رسم كنمنمة على عاج أبيض من أن يكون وجهاً مكوناً من لحم ودم؛ الفم فقط كان مائلاً إلى الاحمرار كبرعم ورد صغير مغلق وظهر أصغر بكثير من العينين الكبيرتين السوداوين، وكل ذلك كان محاطاً بنقاب من كتان الباتيست. أخيراً التفتت إلى الأمام من جديد وأدارت مغزلها؛ ولكن كما لو أنها أحست بأن عينيّ الجار ظلت معلقة بها نهضت واقفة وذهبت إلى أعماق الغرفة المعتمة. هناك فتحت الباب ومشت على طول ممر مضاء بأشعة الشمس المسائية إلى أن اختفت كشبح في عتمة الجانب الآخر.

بذلك تبددت أيضاً خطط ألبرتوس وقصور أوهامه السابقة في العدم ونسيها في تلك اللحظة تماماً وكأن مئة عام انقضت بدلاً من بضع دقائق. وقف وحملق في الجهة الأخرى حيث بهت بالتدريج شعاع المساء خلف الجهة المقابلة وامتلأت الغرفة بالعتمة إلى أن غدت مظلمة تماماً كالحجرة التي مكث فيها هو ذاته. ولكن نظرة تلك العينين الغامضتين استمرت تومض في ذهنه حتى في أثناء نومه في الليل إلى أن لمعت نجمة الصبح في السماء وربما لامس ضوؤها أجفان عينيه؛ لأنه رآه مباشرة حين استيقظ. كان رأى في منامه لتوه أنه يجلس مختفياً بعمق في صالة الحديقة التابعة لكورنيليا بينها وبين الغازلة المجهولة، التي هي كتلك زوج له شرعاً وكلتاهما تداعبه وتعانقه في حين ضم هو كل واحدة منهما بأحد ذراعيه. بدا له الوضع مقبولاً جداً وجديراً بالثناء، وظل في أثناء ذلك هادئاً كالهواء وشجيرات الياسمين التي من دون حراك وإذا المرأة المجهولة تنهض فجأة وتلوح له بيدها، وهي ترمقه بنظرة لطيفة وعصية على التعبير، طالبة منه اللحاق بها. ولكن كورنيليا

طوقته بذراعيها وأطبقت عليه بحيث لم يستطع التحرك في حين كان لا بد له من أن يرى كيف كانت تلك تحوم عبر ممر شجري طويل إلى ما لانهاية وتمسك بيدها ضوءاً باهراً أضاء في أثناء المرور السريع شجرة تلو الأخرى ثم تركها فيما بعد في الظلام. وأخيراً اختفت المجهولة في عتمة الليل، الذي بقي فيه الضوء معلقاً وما رآه لدى استيقاظه من منامه كان نجمة الصبح أو الشيطان. وما دام الشوق طغى عليه إلى حد يتعذر تحمله، فإنه لم يستطع انتظار الوقت المناسب للاستفسار أخيراً عن كثب عن المرأة المجهولة وإيجاد مدخل إليها. وأعجب ما في الأمر هو أنه أمسك قبل كل شيء بمفتاح بوابة الجوار الكورنيلية وتسلل عبرها ثم قام بزيارة صباحية للسيدتين اللتين هناك. فوجدهما يحزمان بعض الحقائب للسفر لمدة أسبوع أو أسبوعين إلى منتجع حمامات صغير وكانتا تنتظران عربة الأجرة التي تقلهما سنوياً إلى هناك. وحين بدأ تزفيهان يلقي أسئلته عن الجارة الغازلة، توقفت كورنيليا عن عملها للحظة ونظرت إلى السائل وهي تركع على إحدى الحقائب في وجهه بدهشة واستغراب. "لابد أنك تقصد السيدة أفرا تسيغونيا مايلوفت!". قالت ذلك مفاجأة أكثر منها مستغربة؛ لأنها سبق أن تعجبت من أنه بدا على غير معرفة بهذه المرأة الجميلة إلى حد الغرابة. ولكنها حين لاحظت أنه كرر كلمات الاسم الذي سمعه بعينين لامعتين، قاطعته بالدعوة المفاجئة إلى أن يرافقها وأمها إلى منتجع الحمامات. ثم أضافت واحمرار الخجل يعلو وجنتيها: إذا كان مهتماً بتلك المرأة فسوف يخبره الناس ونحن في الطريق إلى هناك مزيداً من المعلومات عنها وعلاوة على ذلك سوف تأتي هي ذاتها، على حد العلم، في غضون أيام قليلة إلى المنتجع لكي تلتقي هناك بعض الأصدقاء. وفي هذه الحال سوف تتسنّى له أفضل فرصة لأن يرى الجميلة في اختلاط حر ويتعرفها. عاد ألبرتوس دون إبطاء أو تردد مسرعاً إلى مسكنه ليجلب بعض الأمتعة وبعد ذلك بساعة من الزمن كان يجلس إلى جانب السيدتين في عربة السفر، وتناهى إلى سمعه آنذاك أن الآنسة أفرا تسيغونيا مايلوفت في حقيقة

الأمر ليست من مواليد مدينتنا، بل هي تقيم منذ بعض في البيت المجاور ذاك، فقط بصفتها قريبة متيتمة وتعد للمناسبة في نظر الناس امرأة تقية ورعة وقديسة، حتى إنها تنتمي إلى حد ما إلى جماعة الإخوة البروتستانتية التي يطلق عليها اسم جماعة هيرنهوت. راقبت كورنيليا وأمها إثر ذلك السيد تزفيهان بدقة لكي تريا التأثير المنفر الذي توقعتاه من هذه الحقائق الواقعية. ولكنه نظر هكذا على غير هدىً حالماً أكثر مما كان سابقاً، غارقاً في أفكار جميلة؛ ما سمع عن تلك المرأة، بدا له أكثر صلاحية لإتاحة الفرصة المغرية له التي تمكنه من الاشتراك في مشروع ما يجلب له سعادة غامرة. لدى وصوله إلى منتجع الحمامات ذهبت به صديقتاه من ثم، لكي تشتتا تفكيره، إلى جماعة من مرتادي المنتجع المرحين وعن هذه الجماعة انفصلت مجموعة من الرجال والنساء بثياب خفيفة بغية ممارسة تدريبات في مجال العناية الصحية. أما هو فقد اقتيد دائماً إلى طرق أخرى غير تلك التي تتنزه عليها هؤلاء بهدوء وهم يتجاذبون أطراف الأحاديث المعتدلة، وهكذا حدث حين وصلت فعلاً في إحدى الأمسيات من عُرفت باسم أفرا تسيغونيا أنه لم يكتشفها إلا لدى صعودها في الصباح الباكر من اليوم التالي إلى عربة سفر مع اثنين من الأشخاص الدينيين. ولأياً رأى المودة المتحفظة لكن العميقة، التي كان الباقون في المكان أحاطوا ورافقوا بها تلك المرأة المتدثرة بثياب السفر، وإذا العربة تولي الأدبار وتختفي على الفور عن الأنظار، في حين كان أولئك الباقون يمرون به بوجوه راضية ومغرقة في التفكير كمن قاموا بعمل قيم كان يمس شغاف قلوبهم. وسمعهم يقولون: "هذه المخلوقة اللطيفة هي الآن في رعاية الله وحفظه! وهي الآن تمضي إلى خلاصها وسلامتها وسوف تجول عما قريب في جنائن رب السموات!".

بهذه الكلمات داهمه تصور يتعذر التعبير عنه؛ فأسرع بقلب منقبض قاصداً مولاتيه لكي يستفسر عن معنى هذا الحدث الذي عايشه تواً. فأخبرتاه بابتسامة عن أنه يحكى الآن تحديداً في كل مكان أن السيدة أفرا تسيغونيا

سافرت إلى سكسونيا لكي تنضم إلى عضوية الأخوية الدينية في مدينة هيرنهوت وتقضي حياتها هناك. فقال في نفسه: هذا هو منامي! إنها تجول بالضوء عبر الليل حتى ظهور نجمة الصبح، ولكن لن تستوقفني هذه الكورنيليا بل سألحق بأفرا هذه المرة!". وبقي بضعة أيام في المنتجع متصنعاً الهدوء والارتياح؛ ولكن بعد ذلك ذهب في صباح يوم باكر إلى بيته دون أن يودع أحداً وسلم قضايا ثروته إلى موثق عقود قانوني وبيته إلى الطباخة وتزود أيضاً بالمال ثم اختفى إثر ذلك من المدينة لكي يقتفي أثر الصورة التي رآها في منامه. ولكن بما أنه لم يكن ملماً بمعرفة الأوضاع الجغرافية لعالم الغرب ولم يشأ أن يكشف لأحد عن هدف سفرته، فإنه لم يصل إلى منطقة هيرنهوت إلا بعد أن ضل طريقه بضع مرات. وإثر وصوله حام حول مستوطنة المؤمنين هذه مقترباً منها أكثر فأكثر ثم دخل إليها أخيراً طالباً الانضمام إلى جماعتهم. ولكن بما أنه لم يكشف في تعبيره ولا في لغته، لا في نظراته ولا في حركاته، عن أي قرابة مع ما أظهر أنه يريد الحصول عليه أو معرفته، بل عرض نفسه إجمالاً بصفته شاذ آفاق قليل الحيلة والتدبير ولذلك استُنكر واشتُبه به واستُغني عنه برفضه بعد بضعة أسئلة كانت وُجهت إليه. وبينما كان يقف هكذا مستاء ومتردداً حتى إنه كان يذرف الدموع بسبب سفرته المخفقة، مرت به جوقة من النساء العازبات وكانت في مؤخرتها الآنسة أفرا تسيغونيا. حين رأته هذه بدا لها أنها تعرفه أو بدا أنها تتذكر أين سبق لها أن رأت الرجل؛ لأنها وقفت لحظة بهدوء وأمعنت النظر فيه بدقة، وسرعان ما استغل تلك الوقفة لكي يقترب منها محيياً بخضوع ويقر لها بنبرة متلعثمة بأنه تبعها بدافع حب شديد، ولكن طلبه الانضمام إلى جماعتها بصفته أخاً قوبل بالرفض. بذهول وحب شغوف معاً، كما بدا له، تركت عينها مستقرة عليه لامعة بهدوء كما لو أن ضوءاً سلط عليه من الداخل، ثم قالت بعد ذلك بصوت منخفض لكن مسموع الرنين إنه بحاجة أكثر إلى حب الله والمخلِّص من الحب الأرضي؛ لكن لا يجوز أن يقابل بالرفض وحبذا لو

انتظر يوماً أو يومين في بيت الضيوف. إثر ذلك حيته بجدية معتدلة ثم لحقت بأخواتها. وما إن حل الصباح التالي حتى أتى أحد المسؤولين في الجماعة إلى ألبرتوس وحُقق معه واختُبر من جديد، سواء أكان اكتسب مظهراً أكثر تبصراً وتدبراً عبر الأمل الحلو – الحالم الذي غمره من جديد أم أن الآنسة مايلوفت كانت ذات نفوذ كبير: تزفيهان وضع قيد الاختبار وضم إلى أدنى مجموعة من المبتدئين الجدد، على أي حال على أساس أن يخضع بعد مضي بعض الوقت إلى قرار القرعة حول قبوله النهائي وفقاً لأتباع هذه الطريقة كما هو معلوم حين يتعلق الأمر بمسائل مهمة وذلك من أجل إفساح المجال أمام الإشهار المباشر لإرادة الله.

الآن وجب عليه بالطريقة المناسبة والصحيحة أن يقرأ ويصلي ويغني ويتعلم ويتواضع ويكون رزيناً ومحباً للعمل، وقبل كل شيء أن يتمعن في شخصه المذنب والبائس؛ ولكن بما أنه لم يشعر في داخله استجابة لكل ذلك ولم يفكر إلا بحبيبته، على حد ظنه، أفرا، فقد غدا الوضع عنده صعباً جداً وفضح أمره يومياً بنظرات وكلمات همجية. لم يكن يتسنى له رؤية الحبيبة إلا من بعيد في تجمعات أداة الصلاة حيث كانت تجلس في صفوف العازبات في حين كان هو يطلق تنهيداته في جوقة أشباه الرجال العازبين. ولكن بدا أنها تبحث عنه في كل مرة بعينيها وتراقب لحظة من الزمن إن كان لا يزال في مكانه، ودائماً بتلك النظرة البريئة الكبيرة التي كانت مست شغاف قلبه فجأة لأول مرة. بعد ذلك كان يتشجع دائماً من جديد ويتابع عمله في صيرورة القدسية، ولكن بعد مضي بضعة أشهر قبل أن تضيع عليه جهود إضافية أخرى لإصلاحه كان من الصعب بمكان إعداد العدة لاستشارة النبوءة الإلهية في أمره. في تجمع احتفالي لحسم عدد قليل من حالات مشابهة ووسط الأضواء الخافتة لشموع منطوية على أسرار وألغاز ركع تزفيهان على انفراد على الأرض، في حين امتلأ المكان بالصلوات والإنشاد، إلى أن اقتيد إلى صندوق الاقتراع وسحب قرعته بهدوء عميق. كانت القرعة لمصلحته

وبمثابة قرار لدخوله في دائرة اختبار أعلى مستوىً من ذي قبل. ولكن حين جلس من جديد في صفوف الرفاق، تملكه الحزن إلى حد أنه فوت على نفسه فرصة أداء التراتيل والصلوات التي بدأت من جديد، ذلك لأن مبشراً مرموقاً ورحالة جاب معظم أرجاء العالم صار يركع الآن في المكان الذي كان سابقاً في حوزة ألبرتوس تزفيهان. عند هذا المبشر كان الأمر يتعلق بما إذا كان يُسمح له أن يتولى تلبية لرغبته أمر مركز إفريقي للتبشير في أجواء طقس غير صحية بتاتاً أو ينبغي عليه أن يكتفي بمركز ذي هواء صحي أكثر بما لا يقاس بناء على طلب الجماعة مراعية بذلك قواه المستهلكة إلى حد ما. لبت النبوءة رغبته فعاد إثر ذلك إلى مكانه القديم وعاد ثانية إلى الركوع هناك؛ دوت الأناشيد من جديد وألبرت تزفيهان، الذي تماسك قليلاً وجمع نفسه في أثناء ذلك، استغل الحماس المتنامي لكي يشاهد طلعة أفرا تسيغونيا مايلوفت التي لم يرها بعد. لم يجدها في مكانها المعتاد لأنها كانت تركع بهدوء إلى جانب المبشر حيث اكتشفتها على حين غرة عين ألبرتوس التي كانت تجول في كل مكان. لأن الأمر عند أفرا كان يتعلق بما إذا كانت إرادة العناية الإلهية تقضي بأن تلحق هي بذلك المبشر بصفتها زوجاً له إلى الصحراء الحارة والقاسية أو أن شخصها أكثر نعومة ورقة وعمقاً ونبلاً من أن يصلح لذلك. ولكن القرعة لبت رغباتها هي الأخرى أيضاً حين اقتيدت إلى صندوق الاختيار وحين كانت الآن تتبختر مع الزوج المصطفى يداً بيد إلى عقد الخطبة الفورية تلألأت عيناها الهادئتان عادة وكادتا تكشفان عن دفء وإضاءة أكثر بقليل مما تستحقه مسألة دنيوية.

بفم مفتوح ولون ممتقع إلى حد الموت جلس ألبرتوس وقد حال عجزه فحسب عن مجرد أن يتنفس الصعداء أو يطلق تنهيدة دون أن تلفت حاله هذه انتباه الناس. وبعد أن انتهى كل شيء تسلل دون أن يُحدث أي صوت إلى سريره وقضى ليلة مرعبة؛ فأنانيته المفتقرة إلى التدريب والخبرة كادت تخنق قلبه كحبل متكور؛ وفي خلال ذلك كان يرى أفرا دائماً بصحبة المبشر يداً بيد

وهي تتبختر مولية الأدبار. إذاً كان هذا هو الضوء الذي كانت حملته في يدها أثناء ذلك المنام السرابي المخادع! في اليوم التالي ظهر بين الناس ممتقع اللون ومحبطاً تماماً بحيث عُدّ جاهزاً لحالة من الانفجار العصبي والنفسي. ولكي ينقل إلى حالة من حركة وفعالية منشطتين، فقد كلف بمساعدة مبشر آخر كان يتأهب للسفر إلى غرونلاند ولابرادور وكالمُيكاي لكي يجول فيها على مراكز الجماعة ويتفقد فيها سير الأعمال هناك. أعد تزفيهان العدة للسفر دون أي معارضة أو مقاومة وسافر مع سيد روحه الديني مولياً الأدبار ولم يتمكن عندئذ من التقاء أفرا وتوديعها. أما هي فكانت أرسلت له فقط كتيباً جميل التجليد وصغيراً وسميكاً؛ كان الكتاب يحتوي على قول مأثور أو شعر لكل يوم من أيام السنة وعلاوة على ذلك على عصية صغيرة من العاج مثبتة عليه وذلك من أجل التأشير على النبوءات العارضة. بعد ذلك ببضعة شهور كان تزفيهان جالساً في أحد الأيام على ضفة شاطئ بحري غرونلاندي بالقرب من سانت جان؛ وكانت أشعة شمس خفيفة تضيء المياه التي كان يظهر على سطحها من حين لآخر كلب بحر. في هذا الوضع الذي غلب عليه النعاس فتح الكتاب مصادفة كيفما اتفق، لأنه كان متعباً قليلاً من العمل في حجرة التخزين وحجرة الكتابة وحلم هكذا على غير هدى حين قرأ مقطعاً عجيباً من أغنية:

في حديقة صغيرة، حيث تعلمين
هنا تزهر جنة النفوس.
هنا يحمم الروح القدس في الماء
أجنحة الحمام الصغيرة حتى تصبح بيضاء كالفضة.
هنا تفوح رائحة الياسمين الإلهية
وتتنزه النفس بابتهاج حلو
في ورود مخملية ذهاباً وإياباً،
هنا يقبِّل العريس العروس.

الأبيات الأخيرة جعلته في البداية نصف نشيط وبعد ذلك دب فيه كل النشاط؛ وفجأة رأى الحديقة التي خلف بيته ورأى فيها الجارة النحيلة كورنيليا تتسلل عبر شجيرات الياسمين، ومع أن الكتيب الذي في يده كان طبع منذ بضع سنين فقد عَدّ في الحال أبيات الأغنية خاطرة مباشرة أو قُل نداء رائعاً أوحته أفرا للعودة إلى الوطن والزواج من كورنيليا، التي ظهرت له مع كل لحظة فكر فيها في هذا الموضوع مرغوباً فيها أكثر فأكثر. ولكن إزاء أفرا تسيغونيا كذلك أحس لأول مرة منذ مغامرة سحب القرعة برضى جدير بالامتنان وعن اقتناع بأنها أكثر حكمة منه، وقد قادته إلى الطريق التي لا يجوز له أبداً أن يحيد عنها. هذا هو، على حد تفكيره، مغزى اختفائها في المنام ومغزى الضوء الذي أبقته معلقاً ثم انصرفت. حزم أمتعته في الليل وكل ما يملك وولى هارباً من رئيسه ثم أبحر باتجاه الجنوب مع صياد حيتان ويمّم شطر الوطن دون توقف إلى أن رن جرس بيته في إحدى الأمسيات حين كان أنفق تماماً كل ما أخذ معه من النقود؛ لأنه كان الآن في الشهر العاشر من غيابه عن البيت. وفكر في هذه اللحظة إن كان وارداً في الحسبان أن يعبر في هذا اليوم لدى حلول الظلام بوابة الحديقة ويفاجئ الصديقة المهجورة بصنع جميل، فإذا الباب يُفتح ويقف أمامه إنسان غريب المنظر، رجل مجدور الوجه، سمرة بشرته ضاربة إلى الاصفرار، وأنفه معقوف، شارباه كثيفان وعيناه مدورتان وينتعل في قدميه شحاطة تركية بوصفها من لباس البيت الداخلي، ويرتدي على رأسه قلنسوة حمراء متدلية إلى الأسفل كتلك القلنسوات التي ترى في بلدان البحر المتوسط وكثيراً ما ترى أيضاً لدى البحارة. سأل الرجل عما يريد ذلك الذي رن الجرس.

فقـــال هذا مستغرباً: "أريد الدخول إلى بيتي، أنا السيد هيرونيموس تزفيهان!".

فرد ذاك بفظاظة: "هذا هو أنا بذاتي". ثم أغلق الباب في وجه الواقف أمامـــه.

ولبث ألبرتوس واقفاً بضع دقائق إلى أن خطر على باله أن يذهب إلى موثق العقود، الذي لابد أن يعرف من هو النزيل الذي يحتل بيته، إلا أن الكاتب العام، الذي أُزعج في أثناء تناوله طعام العشاء، حملق فيه مستغرباً وقال بصوت عال: ها أنت ظهرت أخيراً بعد أن بقيت زمناً طويلاً دون أن يسمع أحد عنك شيئاً (لأنه لم توجد آنذاك بعد وسائل الإعلام الكثيرة لكي تنادي على شخص غائب مجهول الإقامة). في البيت، على حد قول الكاتب العام، لا يقيم أحد سوى الابن بالتبني والوريث الوحيد للمرحوم تزفيهان أو على الأقل رجل يدعي بالمرتبة نفسها مع ألبرتوس أنه كذلك وهو يمتلك تماماً الوثائق المشابهة لوثائق الأخير. وقد شهدت الآنسة كورنيليا كذا وكذا، التي عُدّت خطيبة للأخير، أمام المحكمة أنها عرفت من ألبرتوس ذاته من باب الثقة السر الذي أماط اللثام عن أنه ليس هو أخاه غير الشقيق هيرونيموس، الذي مات غرقاً، بل هو الابن الطبيعي الخاص لتزيفهان القديم. وبموجب هذه الشهادة سُمح لهيرونيموس، الذي قدم فجأة ودون توقع، أن يقيم في أثناء ذلك في البيت المختلف عليه؛ وإذا كان الأمر كذلك فإن الوريث الشرعي طبقاً لقانون الإرث المحلي ليس هو الابن الطبيعي ألبرتوس بل الابن بالتبني هيرونيموس، وليذهب ذاك حيث يشاء؛ هذا اللهم إذا لم يودع السجن بسبب تزويره الوضع العائلي. ما رأي السيد ألبرتوس في هذه التفاصيل؟

صحيح أنه لم يعد ثمة داعٍ لدى ألبرتوس لكي يبني على أحلامه؛ إلا أن الضرورة القصوى أجبرته في هذه المرة أيضاً على أن يصر على ادعائه غرق هيرونيموس؛ فتلعثم مضطرباً وغاضباً بأن كل ما سمعه من موثق العقود ليس صحيحاً وليس ممكناً وسوف يتضح الأمر بسهولة؛ غير أن الموثق هز كتفيه ولم يتفضل بإعطاء ألبرتوس التعيس قليلاً من الثروة التي في عهدته لكي يبحث عن مكان يؤويه. الأخ الذي كان مفقوداً ظهر بالفعل فجأة في الهند الشرقية بعد رحيل ألبرتوس، واقتفى آثار هذا الأخير بالسفر إلى سويسرا. أين كان يتسكع طوال هذه السنين الطويلة، هذا الأمر لم يتضح

قط في يوم من الأيام؛ ولكن قيل همساُ إنه عمل لدى القراصنة وجمع مبلغاً لا يستهان به من عملة الدوكات.

الآن نُقل النزاع إلى المحكمة للبت في مسألة من هو المتبنَّى من كلا الأخوين غير الشقيقين، ومن ثم الابنين غير الشرعيين، من قبل الأب المستهتر الميت. وقد وكَّل كل من الأخوين محامياً كان من أمره أن دافع بكل عزيمة عن الغنيمة المرجوة، ونظراً إلى بعد ساحة الأحداث الأولى وندرة الشهود فقد بدا لفترة طويلة أن الصراع قد توقف وذلك إلى أن أتى محامي هيرونيموس بمساعدة من كورنيليا ببعض الرجال المتقدمين في السن ممن كانوا على معرفة جيدة بالعجوز تزفيهان في سني شبابه وكهولته قبل هجرته إلى مجاهل آسيا. هؤلاء الرجال شهدوا أمام المحكمة بأن ألبرتوس لابد أن يكون الابن الحقيقي للعجوز لأنه، وفقاً لتذكرهم الواضح، فهو يشبهه تماماً كما تشبه بيضة بيضة أخرى؛ هكذا حُسم النزاع لمصلحة هيرونيموس الحقيقي وآل إليه كل الإرث الذي كان ألبرتوس أتى به إليه بعد جهود مضنية، بينما رُمي بهذا الأخير في السجن، بسبب ادعائه الكاذب المضلل، لمدة عام واحد وذلك بعد أخذ ظروف مخففة بالحسبان. على هذا النحو حُرم ألبرتوس تزفيهان من حقه الطبيعي ورأى كيف استولى سليلُ مغامرٍ غريب إلى حد موحش، شبيه بأبيه في مغامراته، بتدبير من أمه ذاتها على كل ثروة أبيه في حين أصبح هو ذاته متسولاً. كورنيليا بالمقابل، التي كان اسمها جميل الجرْس أغوى في وقت سابق ألبرتوس الساذج، تزوجت دون إبطاء أو تردد القرصان الآتي من بعيد ولم يثنها عن ذلك افتقاره إلى حسن السلوك أو غناه بالطباع الخشنة. ولكي تتمكن من الاستمرار في تعذيب ألبرتوس المنكوب وإذلاله حتى بعد قضائه مدة عقوبته في السجن فقد أقنعت زوجها بأن يوافق لوجه الله على إقامة أخيه في كنفهما فتم ذلك. فكان عليه الآن أن يقوم بعمل خادم أو قُل خادمة: لأنه لم يكن يملك قرشاً واحداً يمكنه من السفر أو البدء بأي عمل فكان لذلك مضطراً لأن يخضع لكل شيء. القيام بتطهير الحقل من الحشائش وغسل الخس وحمل الماء كان يزعجه أقل من إعداد تلك الأنابيب

والمزاريب لجر المياه ونشر الغسيل، الذي كانت تكلفه به بانتظام وبابتسامات شريرة مدام كورنيليا تزفيهان. إلا أن ما منحه فرصة لتغيير الجو كان انشغاله بنسخ تاريخ العائلة الذي كان في حوزة امرأة طاعنة في العمر من النسل التزفيهاني وأعير هذا التاريخ إلى هيرونيموس تزفيهان. أراد هذا، بصفته الآن الحافظ الشرعي الأخير لاسم العائلة المرموقة في السابق من الضياع، أن يجعل من نسخ تاريخ أسلافه ضماناً له ما دامت العجوز المستبدة برأيها لا تريد أن تتنازل عن الوثيقة الأصلية. وهو ذاته لم يكن يجيد كتابة الألمانية، وكورنيليا التي انغمست في عيشة رغيدة مريحة رفضت أن تنجز إعداد النسخة المطلوبة.

تعرف ألبرتوس عن طريق نسخ الوثيقة سمعة العائلة ومكانتها وعزّتها التي كان ينتمي إليها والآن طرد منها شر طردة؛ حتى إنه لم يستطع أن يثبت صفته بصفته ابناً ولو غير شرعي، إذ لم يعد هناك ولو وثيقة وحيدة تفي بالغرض. وبإخفائه حقيقة وضعه العائلي كان الأحمق المسكين جعل نفسه مشرداً بائساً لا يلوي على شيء؛ وتشابهه مع أبيه كان كافياً لأن يسلبه الميراث، ولكنه لم يعد كافياً لحصوله على اسم أبيه وحقوقه في المواطنة إذ لم يوجد أي قول ولا أي ملاحظة مدونة حول هذا الموضوع.

ولكن لكي يترك على الأقل أثراً لوجوده، كتب ألبرتوس مصيره خفية في الوثيقة الأصلية من تاريخ العائلة فقد قدمت مجموعة من الصفحات التي بقيت خاوية من الكتابة مكاناً كافياً لمدوناته، ثم أعاد ذلك الكتاب فوراً بعد انتهاء عمله إلى تلك السيدة المسنة. قرأت السيدة القصة المضافة بتعاطف كبير خصوصاً أنها لم تكن تطيق الخلف المزيف الجديد الذي يحمل اسم العائلة، وحين مرض ألبرتوس تزفيهان ومات بعد ذلك بقليل بسبب المنغصات التي نجمت عن فقدانه وجوده بل شخصه وهويته، أمرت السيدة بصنع مشهد قبر له وكتبت في تاريخ العائلة: به دُفن آخر فرد حقيقي من أسرة تزفيهان ومن قد يظهر بين الناس في المستقبل تحت هذا الاسم هو حصراً من ذرية قرصان متشرد من شذاذ الآفاق.

كانت ليلة صيفية دافئة حين قفزتُ آنذاك فوق جدار المقبرة وجلبتُ الجمجمة التي كنت لاحظت وجودها لمناسبة دفن جثة هناك. كانت ملقاة في أعشاب خضراء عالية، وفكها ملقى إلى جانبها، وفي الداخل كانت مضاءة ببصيص خافت ضارب إلى الزرقة ومتسلل عبر محجري العينين كما لو أن مغارة رأس ألبرتوس تزفيهان الفارغة، إذا كانت هذه فعلاً مغارة رأسه، لا تزال مسكونة من أشباح أحلام قديمة. دودتان صغيرتان مشعتان كانتا في داخلها، لعلهما منشغلتان بالإعداد للزفاف؛ ظننت أنهما روحا كورنيليا وأفرا وأدخلتهما في البيت في زجاجة صغيرة فيها كحول الإيتيل لكي أكتم أنفاسهما أخيراً لأنني اعتقدت جازماً أن أفرا أيضاً، التقية الورعة، قد أغوت عمداً ذلك الإنسان المتصدع، ألبرتوس، بجمال ظهرها وضللته.

بعد أن فُرشت أرضية حقيبة السفر، وفيها الجمجمة المسورة، إلى هذا الحد، دخلت أمي لكي ترتب طبقة الملابس الداخلية الجديدة في داخل الحقيبة بطريقة لائقة وترسخ في ذهني ما تستحق أشياء كهذه من العناية والاهتمام. كل ما أظهرته من ملابس، كانت هي ذاتها التي غزلته وأوصت بنسجه، على سبيل المثال مجموعة من القمصان الناعمة ترجع إلى سني الشباب؛ إذ ما دام نمو أسرتنا انقطع في وقت جد مبكر، فقد بقيت مخزونات جهودها إلى نسبة كبيرة في الحفظ والصون، ومن ناحية أخرى لم أصطحب معي إلا جزءاً يسيراً من هذه النسبة في حين تركت الأم ما تبقى إلى أن أعود، على حد أملها، فأجدد ملابسي عندئذ.

بعد ذلك جيء بلباس خاص بأيام العطل والأعياد، لأول مرة بلون رسمي أسود؛ إذ لا يجوز في رأيها بأي حال من الأحوال أن أخل بالعادات والتقاليد فأُبعد بذلك عن طريق الوصول إلى النجاح الباهر؛ علاوة على ذلك كانت أمي تؤمن بأن امتلاكي بذلة خاصة بيوم الأحد يأتي في المقام الأول في سياق مواكبتي للنظام الإلهي في العالم، كذلك لا يمكن أن تتصور أيضاً أنني فيما مضى كنت أتجول في بلدان غريبة في أيام الأحد وأيام العمل معاً

بالملابس نفسها. ولذلك كررت في أثناء حزم الأمتعة ما أطلقته في غالب الأحيان من تحذيرات حول الاعتناء بالملابس والحفاظ عليها، كيف أن إهمالاً وحيداً ومن ثم إساءة استعمال قصيرة يشكلان مقدمة ومن بعدُ بداية لتلف قطعة من اللباس، وكم هو مشين أن يرمي المرء بذلته جانباً من باب إهمالها والاستخفاف بها ثم يضطر فيما بعد بدافع الفقر وضيق ذات اليد إلى أن يرتديها مرة أخرى من جديد بدلاً من أن يحافظ عليها من البداية فيبقيها أطول مدة ممكنة في وضع وسط لا بأس به. بذلك يفسح المرء للقدر مجالاً كافياً للانعطاف والتحول، بينما عند عملية تدمير سريع لقطعة لباس لا يمكن أن يحدث أمر صحيح وسليم قبل أن تبلى وتملؤها الثقوب.

بعد أن فُرشت أخيراً قطع الثياب الباقية وما زودت به من سلع صغيرة في داخل الحقيبة ودُست فيما بينها توافه كثيرة للاستخدامات قليلة الأهمية، أغلقنا الحقيبة وقام أحد الرجال بنقل هذه السفينة الصغيرة إلى البريد لكي تكون بصحبتي حين انطلق إلى السفر في صبيحة اليوم التالي. نظرت أمي، التي كانت جلست للاستراحة من عمل شاق بشيء من الهلع، إلى البقعة الخاوية من أرض الغرفة حيث وجدت الحقيبة واقفة طول اليوم؛ والمحافظ المحتوية على رسومي وأعمالي نقلت أيضاً وأخلت مكانها في الغرفة وبذلك لم يبق من كل شيء له علاقة بي سوى شخصي ذاته ولليلة قصيرة فقط. ولكن أمي لم تستسلم طويلاً لهذا الشعور المسبق بالوحدة والعزلة بل استجمعت قواها مرة أخرى، ما دام ذاك اليوم كان يوم سبت، لكي تنظف الغرفة بالعزيمة المعتادة ولا تستريح حتى تنجز كل العمل المطلوب وتسود النظافة الهادئة في الصباح الباكر من يوم الأحد.

الصباح الباكر صعد أيضاً في أجمل يوم من أيام شهر أيار على الرابية حين كنت استيقظت عند طلوع الفجر، ومشيت من المدينة إلى رابية مجاورة لكي أبدد نفاد صبري بتضييع الوقت وألقي النظرة الأخيرة على ربوع موطني. وقفت تحت الأشجار الأمامية من الغابة؛ خلف الغابة كانت جهة

الشرق مزدانة بشفق الصباح المتألق؛ ولكن في الوقت ذاته توهجت أعالي هامات الشجر والقمم والجدران الصخرية في ذرا الجبال العالية من جهة الجنوب، المطلة على الشرق في أشكال غير معتادة لأنني لم أرها مصادفة من قبل على هذا النحو. في هذه الربوع كنت ترى جروفاً وهُوىً وبالتدريج أيضاً حقولاً في أماكن شاهقة الارتفاع وبلدات لم يسبق أن كان عندي أي تصور عنها؛ وحين سُلط الضوء كذلك على الكنائس القديمة في المدينة الواقعة من تحتي من إحدى الفتحات الجبلية، أضف إلى ذلك أثيراً من دون غيوم منسكباً فوق البلاد وما أحاط بي من كل الجهات من تغريد العصافير، ظهر لي الموطن في تلك اللحظات بثوب جديد وغريب وكأنني – بدلاً من أن أتركه- لم أكن أعرفه من قبل. كانت تلك واحدة من الحالات، التي يتكشف فيها ما اعتدناه منذ وقت طويل وما يحمل من المعقولية الشيء الكبير، في اللحظة التي ندير فيها ظهورنا له، يتكشف عن جاذبية وأهمية مجهولتين ويوقظ فينا التجربة المؤلمة مع إهمالنا ومحدوديتنا. هنا مجرد السبب المتمثل في أن نرى المسألة وقد ألقي عليها الضوء بأكثر المعاني حرفية للكلمة من الجانب الآخر، يكفي لأن يصعِّب علي الوداع ويوقظ شعوراً بالندم والتردد، لا بل يجعلني أعقد العزم الأكبر في عدم جدواه على أن أصبح واحداً من المستيقظين باكراً والمستغلين الوقت بكل جد ونشاط وكأنني فلاح أو صياد أو جندي ممن يجب عليهم مع حلول الصباح الباكر أن يكونوا في الحقول أو الأماكن الأخرى الملائمة لممارسة مهنهم. وكشاهد على نيتي وولائي الأفضل للواجب التقطت عن الأرض ريشة زرياب صغيرة ملونة بالأبيض والأزرق، وهما اللونان المميزان لكياننا الاتحادي السويسري، ثم وضعتها على قبعتي المخملية. إثر ذلك أسرعت في عودتي إلى المدينة، التي كانت أشعة الشمس في ذلك الصباح الباكر تنتشر في أزقتها وأجراس الكنائس الأولى تدوي في أرجائها. وبينما كانت أمي تعد الفطور الأخير، ذهبت أنا لوداع الجيران الذين كانوا يقيمون في مختلف طوابق المبنى بوصفهم مستأجرين.

في أسفل الطوابق أقام سمكري كان يعالج تلك المادة المفيدة، التي تكاد في حقيقة الأمر أن تكون عديمة القيمة، ولكنها تتحول عن طريق القص والطرق والتلحيم إلى أداة ما ولا يمكن تصنيعها مرة ثانية. بذلك يقوم كل شيء على أساس الشكل المنجز، الذي يُلف حول أمكنة جوفاء لا حصر لها وعلى أساس- نظراً إلى ضآلة شأن المادة الأولية- أنه ما من أحد يرغب في أن ينفق من المال على عمل مستمر بلا توقف من الصباح حتى وقت متأخر من اليوم لكي نصل عن طريق الكمية المطرَّقة إلى حصيلة من شأنها أن تغطي الاحتياجات اللازمة. لهذا السبب وللحذر الدائم، الذي تقتضيه خطورة تطريق المزاريب وتركيبها، غدا المعلم إلى حد ما رجلاً شكلياً متذمراً ويعامل صناعه بقسوة ولم يكن كذلك لطيفاً في معاملة زوجته وأولاده. وانطلاقاً من تواضع شكاك لم يجرؤ أبداً مثلاً على افتتاح محل للبيع فيوسع بذلك عمله بل اقتصر على العمل في ورشته الواقعة في زقاق ناءٍ من الصباح الباكر حتى الليل حتى ولو كان صناعه في أسرَّتهم أو في إحدى الحانات. كان يدفع أجور مسكنه دائماً في الوقت المحدد ويتعامل مع أبي تعاملاً جيداً ولائقاً؛ أما أنا فكان ينظر إلي دائماً بطرف عينه ويعاملني بدقة وجفاف لأنه، كما كنت لاحظت منذ فترة غير قصيرة، كان يستنكر عيشي الحر والخالي من الهموم حتى الآن، ومهنتي، وإجمالاً كل ما كنت أفعله. ولكن أدهشني على وجه الخصوص أنه استقبلني الآن خالي البال وبمودة لافتة تنم عن وجود صداقة بيننا وتجلى انشراح صدره بأنه كان حليق الذقن ومرتدياً بذلة أنيقة أحدية، غير أن ذلك كله لم يمنعه بالطبع من توجيه صفعة سريعة إلى صبي صغير من أبنائه كان يتناول طعام الفطور وقد طلب في أثناء ذلك مزيداً من الحليب فما كان منه إلا أن انفجر بالبكاء إثر تلك الصفعة. بعيد ذلك بدأت أيضاً واحدة من بناته تحت القمع والإهانة تبكي وتنوح، إذ كان جرها فجأة من شعرها لأنها أسقطت خبزتها على الأرض. وبعد أن انسحبت الزوجة، إثر نظرة قاسية من الزوج، مع أبنائها إلى المطبخ بدأ جارنا بالتحدث معي بنبرة مرحة

عن سفرتي ومن ثم عن المدن التي سأراها ورموز تلك المدن التي ينبغي علي أن أعاينها وشعاراتها ثم سمى رموزاً متعددة، كما اعتاد الصناع المتجولون أن ينقل بعضهم إلى بعض، هنا رجل حجري وهناك برج مائل وفي مكان آخر قرد خشبي معلق على مبنى البلدية. بعد ذلك أتى على ذكر الأطعمة والمشروبات وماذا هنا أو هناك مما لذ شربه أو وجب تجنبه، المأكولات الشعبية اللذيذة، التي يتميز بها كل بلد والتي لن ينساها هو أبد الدهر وسأجدها أنا في كل مكان. وهنا لا يجوز أن أحرم نفسي من أي شيء من هذا القبيل.

وبخطى وئيدة سار فجأة إلى طاولة مكتبه وأخرج منها قطعة صغيرة من الورق كانت لُفت فيها قطعة تالر من العملة البرابنتية فقدمها إلي باعتبارها هدية سفر متواضعة، على حد قوله، ثم طلب مني أن أنفقها بكل سرور وبصحة جيدة. حسب العادات والتقاليد لم يكن يجوز لي أن أرفضها، بل احتفظت بها في يدي شاكراً بكل لباقة وتهذيب ثم صعدت سلماً أعلى. فيما بعد اهتديت إلى تفسير لما عاملني به من مودة ولطف. فقد كان جد مسرور وراض عن اقتناعه بأنني سوف أتعلم ما الحياة وما العمل وسوف أعاقب في مدرسة القدر، التي أسافر إليها الآن بكل براءة، العقاب الذي أستحق؛ ذلك لأن المأكولات الشعبية اللذيذة، التي كان تمتع بها في أثناء ارتحاله، على حد قوله، لم تدم طويلاً؛ فقد عانى الجوع والعطش واجتاز الشدائد ولم يكن سبب ذلك مما اقترفت يداه بل من سوء حظه. لذلك كان وداعه المرح نوعاً من اللعنة أعطانيها زاداً للطريق على الرغم من أنها لمصلحتي، بحسب رأيه.

في الطابق التالي الذي زرته الآن كان يقيم رجل ميكانيكي صغير ويعمل في تجارة مختلف أدوات الضبط والإحكام الشعبية مثل المركبات والمقاييس والدوائر ثم طواحين القهوة وأدوات صنع البسكويت وماكينات تقشير التفاح، وكان يعمل أيضاً في إصلاح أدوات كهذه، بناء على طلب الناس، بمساعدة عامل متقدم في العمر. في الوقت ذاته كان يشغل منصب

رئيس مكتب المقاييس والموازين في إحدى النواحي الإدارية وكان يفحص المقياس والوزن ويحز ويدق ويجلخ الرموز في الأشياء والأدوات الواردة في الحسبان. وقد خاض على خير وجه حرباً مستمرة مع الكثيرين من أصحاب الحانات حين كانوا يحاولون بكل ما أوتوا من مكايد وبتكرار تبديل أوانيهم الزجاجية الالتفاف على القانون. فدفعته الأهواء الجارفة لا إلى الحرص على تعيير الأواني واختبارها بدقة فحسب، بل على أن تُملأ كذلك كما يجب، وصار ينتقل من حانة إلى أخرى لكي يتحقق من مسألة أين بقي المشروب تحت خط التعيير وأين قبل مرتادو الحانات بذلك. لهذه المناسبة فقد هو ذاته الاعتدال في شربه ووقع فريسة للإدمان على شرب جرعات لا حصر لها، ولم يعد باستطاعته التخلص من ذلك الإدمان مع أنه كان يتمعن في كل جرعة ويعاينها بدقة وحدة قبل أن يتناولها، كان لايزال من دون حلاقة ذقنه وفي ثياب العمل ينتظر قهوته الصباحية، التي أعدتها زوجته بهدوء؛ لأنها كانت تتحفظ بذكاء في تعنيفها الحاد له إلى أن تخبو جذوة بقية المزاج الناجم عن احتساء الخمر التي يستمد منها قدرته على المقاومة ويبقى فقط الضعف الذي كانت تحطمه كل يوم بلا فائدة، بالكلام فقط. هنا صب معلم الأوزان والقياسات في كأس أسطوانية صغيرة كان يستخدمها في التوفيق بين أوزان الكميات الصغيرة ومساواتها بعضها ببعض قليلاً من مشروب الكريز، لأن زوجته بدافع الحسد أو بدافع الخبث كانت كسرت آخر كأس مخروطية الشكل مما خصص من الكؤوس لهذا الشراب تحديداً.

وضعها أمامي هذه الأداة الإنعاشية القياسية، بينما صب لنفسه جرعة كبيرة في كأس أكبر بصفتها أداة موفقة لتعزيز وضعه الدفاعي وتطويل أمده. وبينما كان يحك في شعره غير الممشط نظر إلي من عينين محمرتين ويتطاير منهما الشرر ثم تنهد وشكا من العادة المقيتة المتمثلة في إفســاد صباح يوم الأحد دائماً ومسبقاً من خلال السهر الطويل في ليلة السبت. ثم قال بعـــد ذلك:

"أيها السيد "لي"، أنا لا أزال مديناً لوالدتك بالأجرة الأخيرة لمسكني؛ ولذلك فإنه من غير اللائق أن أقدم إليك هدية سفر متواضعة إلى حد كبير. ولكن بدلاً من ذلك أريد أن اسدي إليك وأنت على طريق سفرك نصيحة جيدة، وإذا ما عملت بها فسوف تعود عليك بفائدة كبيرة. احرص دائماً على رفقة صحيحة ومزاج مرح؛ وقد تكون غنياً أو فقيراً، عاملاً أو عاطلاً من العمل، ماهراً أو غير ماهر، ينبغي ألاَّ تذهب أبداً إلى حانة في أثناء النهار بل انتظر حتى المساء! هذه وجهة نظر لرجل أخلاقي ومثقف، وأنا لم أعد للأسف كذلك! وفي المساء أيضاً حبذا لو ترتاد الحانات متأخراً لا مبكراً؛ فلا أنبل ولا ألطف من مرتاد حانة يأتي إليها في الآخر شرط ألاَّ يكون آتياً من حانات أخرى. بالطبع لا يحرص كل الناس على نيل هذا الشرف لأن واحداً أيضاً أو كثيرين يجب أن يكونوا الأوائل وآخرون الأوسطين وهلم جرا؛ ثم ينبغي أن تتناول بكل قوة إرادة الكمية المقدرة لك من المشروب وتغادر الحانة أيضاً بالعزيمة والتصميم نفسهما أو على الأقل لا تقبع أمام كؤوس فارغة في جو ثرثرة مملة؛ فملء هذه الكؤوس مرة أخرى هو أفضل من أن تضيع على صاحب الحانة ليلته بأسلوب وضيع إلى هذا الحد كما يضيع لصوص النهار على الله نهاره! والآن أريد أن أضيف إلى الوداع الحميم نصيحة أن تتوخى الاعتدال في كل شيء!".

ثم أتى بغلاف طولاني وأخرج منه قطعة عيار رسمية مصنوعة بمهارة من معدن لامع وعلقها برقبتي ثم قال:

"إلى هذا العلو وليس أبعد منه يجوز أن يسير ويصل الحظ وسوء الحظ، السرور والحزن، المرح والبؤس! قد يجيش الصدر ويهيج ويموج وقد يختنق النفس في الحلقوم! ولكن الرأس ينبغي أن تبقى مرفوعة حتى الموت!".

بما أن القطعة المعدنية اللامعة أشعرتني بالبرودة فقد اعتراني في منطقة الرقبة شعور وكأن تأثيراً طاغياً حدث بالفعل ولم أعرف إن خرجت

من فم الرجل حماقة أو حكمة. وهو كذلك ضحك مثلما ضحكت أنا حين جلس هو إلى فطوره وتابعت أنا طريقي.

أتيت الآن إلى باب مقفل، وكان بإمكاني في حقيقة الأمر أن أتوقع ذلك، إذ كان يقيم هناك موظف صغير عزب وقد اعتاد في كل يوم أحد، حين كان الطقس بطريقة ما يسمح بذلك، أن يخرج من البيت في الصباح الباكر ويبقى طول اليوم بعيداً عنه لئلا يُستدعى إلى إنجاز أمر أو أداء عمل لم يكن وارداً من قبل في الحسبان. وهكذا أيضاً في كل يوم، ما إن تدق الساعة السادسة مساء، حتى يرمي الريشة بعيداً ويغادر المكان ولو كان العمل المتوجب إنجازه على حد كبير من الضرورة والإلحاح. كان يسب دون توقف أو تردد المنصب الذي تقلده على الرغم من أنه كان سعى سنين طويلة إلى الحصول عليه وطالب به بكل توسل وتضرع. وسمى نفسه ضحية لـــ "مبادئ مخيبة للآمال" ثم اعتاد أن تقتصر زياراته على الجماعات التي يتعرض رؤساؤه في أوساطها إلى السب والشتم وهناك كان ينشر الرأي القائل إنه يُحرم من الترفيع إلى مناصب أعلى لأنه لا يحني ظهره لأحد. ولكن السبب الحقيقي لبقائه في مكانه ومن ثم لعدم ترفيعه كان طبعاً عجزه عن إنجاز شيء أفضل، مثلما سبق أن برهن من خلال تعبيره الوردي المتعلق بـــ "المبادئ المخيبة للآمال" على أنه كان يفتقر إلى معرفة الاستخدام اللغوي الصحيح. ولكن على الرغم من كل التذمر والاستياء فقد تعلق بمنصبه كنبات الأرقطين الشائك ولم يكن ممكناً إبعاده عنه حتى ولو بمسعر نار؛ لأن منصبه كان ضمن له دخلاً وإن لم يكن عالياً إلا أنه كان ثابتاً ومريحاً. وكان يتحاشى كذلك بحذر شديد، ما دام تكاسله وإهماله متعمدين وكان يتصرف في هذه المسألة كما يحلو له، أن يهبط إلى ما تحت خط الفصل من عمله، في حين لم يكن يكترث لحالات مرحلية من التأنيب والتشجيع. لم أحب رفيقي هذا في السكن خصوصاً أنه كان يشكل من حين لآخر مصدر تعيير لي على الرغم من أنه لم يكن بأي حال من الأحوال نموذجاً يحتذى به؛ فقد كانت أمي طرحت أكثر من مرة،

نظراً إلى عيشه الهادئ والخالي من الهموم، السؤال الخجول عما إذا لم يكن ربما من الأفضل لو اتبعنا نصيحة ذلك العضو في المجلس البلدي الرامية إلى اختيار مسيرة حياة كهذه التي يسير عليها بكل ارتياح رجل أحمق كهذا في حين لابد لي أنا من أن أرحل إلى العالم البعيد، وأجهل الآن كل ما يتعلق بأوضاعي ومستقبلي، غير أنني كنت أكتفي بالإشارة إلى الكيان التعيس الذي يشكل شخصية ولد كهذا لا يلم بمعرفة شيء أسمى ولم تزوده الحياة بأي خبرة. حين وقفت هكذا أمام الباب، الذي عُلقت به لوحة صغيرة ولطيفة من النحاس الأصفر تحمل اسمه ولقب منصبه الصغير، سمعت في الداخل رقاص ساعة الحائط وهو يتحرك مترجّحاً ببطء وسلام. وفي الحجرة عم سكون وهدوء عميقان حيث بدت الساعة فرحة كل الفرح لغياب الصبي الساخط المتذمر. ولدى استنادي إلى قائمة الباب أصغيت لفترة إلى الأغنية الرتيبة والغنية بالدلالات والمعاني في أداء كيَّالة الوقت، التي لم تقس أبداً اللحظة الواحدة مرتين. سمعت جيداً شيئاً ينبعث من حركة الساعة، ولكنه لم يكن الشيء المناسب لي لأنني كنت لا أزال صغير السن، وما كان مني في تلك اللحظة إلا أن اندفعت أخيراً بخطى سريعة باتجاه الأعلى إلى بيتنا.

هناك كانت أمي تنتظر عودتي وقد أعدت آخر وجبة صغيرة مشتركة من الطعام؛ والوجبة التالية كان ينبغي أن تتناولها وحدها. ملأت شمس الصباح بأشعتها أرجاء الغرفة، وحين جلسنا إلى المائدة دون أن نتكلم في أي موضوع صرت أنظر بتمعن، إذ خيم علينا من جراء السكون المطبق جو مفعم بمشاعر التغرب، إلى الستائر البيضاء وألواح الخشب القديمة التي كانت تكسو الجدران وإلى معدات البيت وكأنني لن أرى كل ذلك مرة أخرى. كانت أمي ارتأت أن يكون الفطور أغنى قليلاً من المعتاد، في المقام الأول لكي لا أجوع في الساعات القادمة وأضطر لذلك لإنفاق مزيد من النقود، لكن لكي تأكل أمي أيضاً في أثناء الوقت الباقي من اليوم ما يتبقى من طعام الفطور فلا يحتاج بعد ذلك إلى إعداد طعام جديد لذلك اليوم. حين قالت أمي ذلك

بطريقة عرضية اعتراني شيء من الذهول وأردت أن أرد عليها بأن لا لزوم لأن تفعل ذلك لولا أنني لم أشأ أن أحمل معي في سفري تصوراً حزيناً. ولكنني لم أنبس بأي بنت شفة إذ لم أكن معتاداً على هذا النوع من الإفصاحات، في حين أخذت أمي تبحث عن كلمات لكي توجه إلي تلك التحذيرات الأخيرة المنوطة عادة بأب لا بأم. ولكن بما أنها لم تكن تعرف العالم كما لم تعرف أيضاً الفعاليات وأنماط الحياة التي كانت تواجهني ومع ذلك كانت تشعر تماماً بأن شيئاً ما هو غير صحيح فيما تعلق بأعمالي وتطلعاتي دون أن تستطيع البرهنة على مكان هذا الشيء، فقد اكتفت أخيراً بالموعظة القصيرة القائلة إنني لا يجوز أبداً أن أنسى الله. هذا التحذير العام، الذي شمل كل شيء وعبر عن كل شيء أمكنها أن تقوله لي ما دمت كنت أحمل في داخلي إيماناً وشعوراً تأليهيين راسخين، هذا التحذير تلقيته بالصمت الذي هو بحد ذاته قبول أكيد. وإذ قرعت في الوقت ذاته أجراس الكنيسة ودوت بسرعة معاً واحداً بعد الآخر، فقد بقي ذلك التحذير آخر طرف مما تجاذبنا بيننا من حديث؛ لأن لحظة انطلاقي إلى السفر كانت حلت توّاً. فنهضت واقفاً وتناولت معطفي ومحفظتي ثم مددت يدي إلى أمي للوداع. وحين أرادت أمي، ونحن على باب الغرفة، أن ترافقني دفعتها برقة إلى الوراء وأغلقت الباب ثم أسرعت بمفردي إلى مكتب البريد حيث جلست إثر ذلك في الحال في إحدى العربات السريعة الثقيلة ذوات خمسة الأحصنة، التي كانت تهدر خبباً في كل صباح في انحدارات الأزقة الشاقة والمكسوة بالأحجار بطريقة جد سيئة، أزقة المدينة الجبلية.

بعد ذلك بخمس ساعات على وجه التقريب كانت العربة تعبر جسراً خشبياً طويلاً. وحين انحنيت من داخل باب العربة إلى خارجها رأيت نهراً قوياً يجري من تحتي وتعكس مياهه نقية الخُضرة في واقع الأمر امتزاج تلألؤ شجيرات منحدرات الضفاف بتلألؤ الزرقة العميقة لسماء أيار، تعكس ذلك الامتزاج على هيئة مزيج لوني بديع من الخضرة والزرقة معاً وتنشره

في الجو بحيث حل بي ذلك المنظر حلول السحر وحين اختفى بسرعة ظهوره من جديد فقط وقيل: "كان هذا هو نهر الراين!"، خفق قلبي بدقات قوية. لأنني كنت آنذاك على أرض ألمانية وكان عليّ من الآن فصاعداً حق وواجب أن أتحدث بلغة الكتب التي كانت نمت منها وترعرعت فيها مرحلة شبابي وتصاعدت منها أحب أحلامي إلي. وإذا ما تعذر أن يعيش في ذاكرتي أنني فقط انتقلت من إقليم من أقاليم ألمانيا القديمة إلى آخر ومن ثم ذهبت من شفابيا القديمة إلى شفابيا القديمة، مجرى التاريخ هو الذي تكفل بالأمر، ولذلك كان التلألؤ الرائع لتدفّق مياه الراين ذي اللون الأزرق والأخضر معاً بمثابة تحية الأشباح في مملكة سحر وطئتها قدماي وهي تغصّ بالأسرار والغموض.

كان ينبغي طبعاً أن أوقظ بطريقة متوقعة من أحلام كهذه وأن تتحول متابعة سفرتي إلى أغرب رحلة توبة وتكفير عن الذنوب وأندرها سبق لإنسان أن قام بمثلها من قبل. إذ بالقرب من أول محطة تبديل لعربات السفر في موقع البريد التابع للبلاد الجارة كان أيضاً مركز للجمارك وعليه شعار التاج الأميري؛ وبينما فُتحت كيفما اتفق أمتعة بقية المسافرين وفُتشت بسهولة ويسر، أثارت حقيبتي غير المتناسقة انتباهاً أكثر دقة لدى موظفي الجمارك؛ ما حُزم في أمسية يوم أمس بعناية واهتمام، أُخرج من الحقيبة دون شفقة ولا رحمة وفُرق شذَرَ مذَرَ ماعدا الكتب التي في الأسفل فقد غطيت الآن بشكل صحيح. وهكذا ظهرت جمجمة المسكين تزفيهان وأيقظت من جديد فضولاً من نوع آخر، باختصار لم يهدأ لهم بال إلى أن نثرت كل محتويات الصندوق في كل مكان على الأرض الأجنبية الغريبة. أخذ حراس الحدود ذوو المنظر الحربي يرنون إليّ بابتسامة باردة حين رميت بسرعة ولهفة أمتعتي في الصندوق وضغطتها فيه ولأياً تمكنت من أن أدس فيه كل شيء بينما كان المسافرون الباقون يجلسون في عربة البريد الجديدة وكان سائق العربة يحثني على الإسراع. ثم ساعدني أيضاً في الضغط على غطاء الحقيبة وإغلاقها، وحين حمل المستخدمون قطعة الموبيليا الثقيلة ونقلوها إلى العربة، كانت

الجمجمة ملقاة بوضعها الصحيح في المكان الخاوي ومنسية في مخبئها وراء الحقيبة، إذ لم يبق لها داخل الحقيبة أي مكان لكي توضع فيه. لذلك رفعتها عن الأرض وتأبطتها تحت ذراعي ثم حملتها معي إلى العربة وأبقيتها في حضني طوال مدة السفر بعد أن لففت حولها قماشاً كنت جلبته معي لكي أحمي به رقبتي من برد قارس محتمل في أثناء الليالي. كان ثمة نوع من التقوى الفطرية أو الخوف من تبكيت الضمير هو ما منعني من أن أرمي في الطريق بطريقة مناسبة هذه الجمجمة المتعبة أو أتركها في مكان ما بعد أن كنت سرقتها ذات مرة من المقبرة باستهتار تجاوز كل الحدود؛ مثلما لا يزال يجد دائماً حتى أكثر الناس دناءةً وانحطاطاً ما يدفعه لأن يثبت شخصيته عن طريق نقلة إنسانية النزعة، حتى ولو طُبقت هذه النقلة بطريقة جد غريبة.

مع مغيب شمس اليوم الثاني من سفري وصلت إلى هدف رحلتي، إلى العاصمة الكبيرة، التي كانت تمتد بكتلها الحجرية الضخمة ومجموعات أشجارها الكبيرة على مساحة سهلية واسعة. بحثت في الحال، وأنا أحمل في يدي الجمجمة المغلفة بالقماش، عن المضيف المدوّن لدي وطفت على هذا النحو قسماً كبيراً من المدينة. هنا كانت تتوهج في آخر الشعاع المسائي أطراف جملونات يونانية وبروج غوطية؛ وصفوف أعمدة كانت ماتزال تغطِّس رؤوسها في الألق الوردي، وتماثيل مصبوبة مضيئة وجديدة تماماً كانت تومض من عتمة الغسق المشربة بالضوء وكأنها لاتزال تشع بضوء النهار الدافئ، بينما كانت ثمة صالات، مزدانة بالرسوم ومكشوفة، مضاءة بالمصابيح وتغص بأناس بأزهى زينة، وتماثيل منحوتة ارتفعت في صفوف طويلة من أسوار عالية إلى الأجواء الداكنة، قصور، ومسارح، وكنائس، كل ذلك شكل صوراً جماعية كبيرة في كل طُرُز البناء الممكنة بجدة وتألق وتناوب مع كتل معتمة من قباب وسطوح مسودة لأبنية المجالس البلدية وأبنية المواطنين. من الكنائس والحانات دوت الموسيقى ودوى قرع الأجراس وعزف الأرغون والجنك؛ ومن أبواب كنائس مزينة بطرق تصوفية غامضة

تسربت إلى الأزقة سحب من دخان البخور؛ وأشكال فنانين مشوهة الوجه وجميلة مرت بصورة عابرة زرافات وجماعات؛ طلاب يرتدون سترات محزومة وقبعات مطرزة بخيوط فضية قدموا من الجهة المقابلة، وخيالة مدرعون بخوذات لامعة امتطوا صهوات جيادهم بارتياح واعتزاز لأداء حراستهم الليلية بينما زحفت صبايا نبيلات وأنيقات بأكتاف عارية إلى صالات رقص مضاءة تدوي منها طبول وأبواق. نساء بدينات تقدم بهن العمر كن ينحنين أمام قساوسة نحيلين يلفهم السواد ويطوفون في المكان بأعداد كبيرة؛ بالمقابل كان يجلس في ردهات بيوت مكشوفة مواطنون متخمون خلف إوزات فتية مشوية وجرات نبيذ ضخمة؛ وعربات كانت تمر يستقلها زنوج وصيادون. باختصار، كان في تصرفي ما يكفي للمشاهدة والمراقبة في كل مكان كنت آتي إليه وتعبت من الطواف والتجوال بحيث سرني أنني تمكنت أخيراً من أن أخلع معطفي وأضع الجمجمة في مكان ما من الغرفة التي خصصت لإقامتي في الفندق الذي نزلت فيه.

* * *



الفصل الحادي عشر

الرســامـون

إذا ما تتبعتُ بذاكرتي التحول السابق في حياتي، فإنه يتشكل من جديد بصورة أوضح في الوقت الذي قضيت مدة عام ونصف العام على وجه التقريب في مكان عملي الفني كثيراً أو قليلاً تحت اسم مستعار، إذ لم تكن استعداداتي كما لم تكن كذلك معرفتي بالحياة صالحة لأن أوجه حركاتي وسكناتي بسرعة وبصورة ثابتة ودائمة.

ولدى بحثي في كل الاتجاهات في شبح مرحلة الانتقال القاتمة هذه رأيتني في عصر أحد الأيام، حين توفر لي بعض الوقت، أنظف لوحة الألوان وريشة الرسم إذ خضت بهما معركة رسم زيتي، عزمت على البدء بها اعتماداً على ما كنت سمعت من معلومات بهذا الشأن. لا أزال أراني أمسك بالقبعة البسيطة عريضة الحواف، التي اعتدت منذ زمن طويل ارتداءها بدلاً من القبعة المخملية المثيرة للمشاعر وأسلك طريقي إلى واحد جديد من أصحابي لكي أجده على رأس عمله وأشاهده طوال فترة عابرة من الزمن قبل أن نقوم بنزهة في العراء مشياً على الأقدام. وصلت دون أن أنعم بأي توصية من أحد ودون أي إمكانات للقيام بخدمات في ورشة فنان ناجح ولذلك اضطررت إلى الوقوف في ردهات المعبد والنظر هنا وهناك عبر الستائر، الأمر الذي لم يخلُ من صعوبات ومتاعب. لأنه يتفقّ على المرء يتعلم أي شيء من طالبي العلم من ذوي المستوى المتوسط، وحالما تعلم الشبان الفتيان

أن يعدّوا أنفسهم في طريقهم إلى أن يصبحوا فنانين لمجرد توفقهم في بيع لوحة صغيرة من صنعهم فقد أصبحوا منغلقين على أسرارهم الفنية وقليلي الكلام. وصادف أن رُددت ذات مرة على أعقابي حين جئت بخجل وارتباك أزور واحداً من هذا الصنف بناء على دعوة صريحة مسبقة منـــه فما كان منه إلا أن طردني عن بابه بحجة أنه كان يبحث تواً مع مقوم أعماله لكي يصل مع "الرجل" إلى اتفاق حول مناقشة لوحة جديدة. ففي العالم المثالي للفن ثمة توابل وملح بمقادير أكبر من طعام الآلهة الضامن للخلود، ولو عرف الناس صَغار ما في رؤوس بعض الرسامين والشعراء والموسيقيين ورداءته لتخلّوا عن بعض التحيز والأحكام المسبقة الضارة بهـــذه الشريحة الصغيرة من الشعب.

ولكن صديقي الجديد، أوسكار إيريكسون، كان ذا طبيعة مستقيمة وبسيطة. كان يجلس بكامل جسمه الطويل وكتفيه العريضين وشعره الذهبي، الكثيف والمضاء بأشعة ساقطة عليه من الأعلى، أمام لوحة صغيرة ويرسم فيها. وفي ما عدا ذلك لم تكن ترى في جميع أرجاء الحجرة الواسعة إضافة إلى بعض كتيبات التصاميم سوى بضع بنادق صيد على الحائط وعلى الأرض شحاطات طويلة لا تتسرب منها الماء وعلى الطاولة أوانٍ للبارود على هيئة أبواق وأكياس خردة صغيرة إلى جانب بعض الكتب. وفي فمه غليون قصير من نوع غلايين الصيادين. أخذ الرجل العملاق حين دخلت إلى غرفته يتحرك على كرسيه متنهداً ومتبرماً ذهاباً وإياباً ومطلقاً من فمه سحباً ضخمة من الدخان، نهض واقفاً ثم عاد فجلس من جديد، رمى الغليون بعيداً فتناثر منه العشب المتوهج هنا وهناك، سدد بريشته باتجاه اللوحة ثم صرخ بأعلى صوته بطريقة متقطعة: "ياللصاعقة المقدسة، أي شيطان كان لابد أن ينفخ فيَّ لكي أصبح رساماً! هذا الغصن اللعين! لقد أتيت في اللوحة بعناصر شجرية أكثر مما ينبغي، ولا أستطيع في حياتي كلها أن أجمع هكذا كمية كبيرة من مكونات الشجر! أي شوفان لسعني حتى أجرؤ على رسم لوحة لخميلة معقدة كهذه؟ يا

إلهي، يا إلهي! ليتني أعيش حيث ينمو الفلفل! آي، آي، آي، آي! إنها لقصة نظيفة - لو أنني أخرج هذه المرة أيضاً من هذا المأزق الحرج!".

وبدأ فجأة بدافع اليأس يغني بقوة:

"أوه ليتني في أعالي البحار

وأجلس بثبات إلى المقود!"

الأمر الذي بدا أنه يشكل عنده دافعاً إلى الاختراق؛ ذلك لأن الريشة استقرت الآن في المكان الصحيح وتابعت عملها بارتياح عدة دقائق في حين كان إيريكسون يكرر اللحن بطريقة أكثر هدوءاً وأكثر انخفاضاً إلى أن صمت أخيراً وتابع عملية الرسم. ولكن على ما يبدو، لكي لا يختبر الله كثيراً، نهض فجأة وتفحص عمله مبدياً رضاً كبيراً، وهو يرجع خطوة إلى الوراء ويصفِّر اللحن القديم "مارش ديساو". ثم حوَّل الصغير إلى كلمات وغنى وهو يبحث من جديد عن أدوات التدخين: "هكذا نعيش، هكذا نعيش، هكذا نعيش كل الأيام" وهلم جرا، وفي أثناء ذلك اكتشف أخيراً حضوري.

قال لي وهو يهز يدي على سجيته محيياً: "ها أنت ترى ما أكابد من عذاب، احمد ربك على أنك مصمم بارع ورسام عن دراية وفهم ولست بحاجة إلى مقدرة جديدة في هذا المجال، بينما لا يعرف شيطان تعس مثلي بوصفه رساماً تجارياً من أين يأتي بآلاف الألوان المكسَّرة والبقع الملونة ومصادر الضوء ذات الصلاحية، لكي يرسم لوحة بمساحة أربعين بوصة مربعة صالحة للعرض وعلى حد مقبول من الخداع والغش".

لم يقل هذا من باب السخرية؛ لأنه نظر إلى عمله من جديد بعينين مرتابتين لكنه عاد فجلس من جديد في محاولة منه لتجريب حظه قليلاً مرة أخرى، في حين صرت أنا أنظر إليه بفضول وتوتر كيف كان ينتقي على لوح الألوان الكبير بحذر ينم عن الخوف أنواع حبر نقية تبعث على الطمأنينة ثم يمزج بعضها ببعض ويصبغ بها حسب التعليمات المتعلقة بهذا الشأن. وكما قال فيما بعد عن نفسه، حين تطورت العلاقة بيننا إلى مستوى حميم، فإنه لم

يكن رساماً رديئاً (لأنه كان بالطبع ذكياً وغنياً بالخواطر والبوادر)، بل لم يكن بالمفهوم الجوهري للمسألة رساماً. كان في الأصل سليلاً لبيئة المياه الشمالية، متحدراً من منطقة الحدود الفاصلة بين الألمان والسكندنافيين، وابناً لبحَّار ذي أحوال ميسورة؛ وكان أظهر في سني الشباب الأولى مهارة كبيرة في الرسم بالخطوط العريضة بقلم أوتي الكثير من المرونة والنباهة، رسم ما يرى أمام عينيه ولا سيما رسوماً تتغنى بالامتحان المدرسي السنوي وتتجز بالطباشير الأسود. وعبر تأثير واحد من معلمي الرسم المندثرين، الذين كانوا يصبون بحماس لا ينضب إلى تغطية ضنك عيشهم أو تحسينه وكانوا جاهزين في كل مكان للتحريض المشؤوم، وُجِّه إيريكسون بعقلية متنورة لأسرة سعيدة، آنذاك لم يكن يعي ذاته إلا قليلاً، إلى عالم الفن ليس من غير أن يجيد ذلك المعلم في أثناء فترة التعليم التمتع بوجبات طعام غنية بما لذ وطاب وأجور رنانة لقاء أقواله وأعماله الكثيرة. مسيرة الحياة غير العادية لاءمت أيضاً على ما يبدو عقلية الصبي المتفتحة والمرحة وطاقاته المتنامية بجموح أكثر مما لاءمه مكوثه في غرفة الكتابة في بيت الأسرة. وهكذا جُهز ودُعم، خلافاً لصبية كثيرين آخرين في مثل وضعه، وسط أفضل القبول والطموح، للسفر إلى أشهر مدارس الفن ولقي ترحيباً لدى أشهر الفنانين الذين اعتادوا في مثل هذه الحالة أن يفتحوا أبواب ورشاتهم الفنية على مصراعيها. في البدء سار التطور بنشاط مشهود وبلا انقطاع، لا لأن الرجل الشاب كان مفرطاً في نشاطه وولعه بالحياة بل لأنه لم يتوقف أو يسترح لحظة خلال جده واجتهاده، وكان يشكل زينة لاستوديوهات الرسم على حد سواء بمنظره الذي ينم عن فخامة وأبهة وبجديته الفرحة المرحة. ولكن تقدمه لم يصل إلا إلى حد معين ثم توقف تماماً بطريقة غامضة حيث عُلقت أجمل الآمال وإذ لم يطرأ أي تغيير في توجيه طالب العلم المتسم بهدوء الرجولة. ففطن إيريكسون إلى هذه الظاهرة، ولكنه ظن بالمقابل أن بإمكانه أن يكافحها ويتغلب عليها ويتخلص منها، فغيَّر المكان وجرب حظه في جميع المجالات واستبدل معلماً بآخر دون

جدوى. كان يشعر في تلك الفترة بأنه فقد القدرة على الابتكار وتوفر التنفيذ على حد ســواء بحيث تخلت عنه ملكة التبصر عند مرحلة مستبينة بوضوح أو على الأكثر حالة فريدة مثل رمية زهر محظوظة عصية على التكرار، وحينما عقد العزم على أن ينهي الكفاح المخجل ويعود إلى موطنه تناهى إليه على وجه السرعة نبأ خراب بيت أسرته. كان ذلك الخراب تاماً ويدعو إلى اليأس، على الأقل على مدى سنين طويلة بحيث نُظر إلى رجوع الابن إلى موطنه على أنه إسهام في تعزيز الخراب وزيادته، فكان المرغوب فيه بالتأكيــد هو أن يحاول الإفادة مما قطف حتى ذلك الحين من ثمار جده ونشاطه المجيد.

على هذا النحو سرعان ما غير قراره، واعتماداً على نقد نزيه ومتبصر للذات تفحص وقارن مجال طاقاته وقدراته بالتمام والكمال، وتوصل بعد تبصر ناضج إلى نتيجة أن باستطاعته أن يُنتج بثقة وفهم رسوم مناظر طبيعية في منتهى البساطة وأصغر المقاييس، وينعشها بإضافة أشكال صغيرة إليها بعناية وحذر وينفذ كل ذلك بجاذبية معينة. وقد باشر بلا تردد هذا العمل بحس صادق ومستقيم. فبدلاً من الإقدام على عمل سهل يفضي إلى تأثيرات زائفة ويستخدم فرشاة متكلفة وعلى الموضة وتطلي إن صح التعبير من تلقاء ذاتها (هذا تحديداً قد يكون ملائماً تماماً لبعض الآخرين)، بقي إيريكسون كجنتلمان حقيقي وفياً لمبادئ استعداد وإنجاز صادقين فتجدد بذلك لدى رسم كل صورة صغيرة عمله وجهده، ولحسن الحظ كان النجاح حليفه في ذلك، إذ بيع على الفور أول إنتاج عرضه وسرعان ما بدأ جامعو اللوحات المهمون من أصحاب الذوق الرفيع في مجال الإلمام بمعرفة الفن الأصيل باقتناء ما عرف آنذاك بأعمال إيريكسون بأسعار عالية.

لوحة إيركسونية كهذه كانت تحتوي عادة على أرضية رملية مضيئة في القطاع الأمامي وبعض الأعمدة السياجية المزدانة بأغصان القرع المتسلقة، وتحتوي في القطاع الأوسط على شجرة بتولا نحيلة ثم يأتي بعد ذلك

أفق واسع مستوٍ، ومرسومة خطوطه القليلة وفقاً لحسابات حكيمة، وتشكل مع الجو الوقور ببساطة التأثير الرئيسي الذي يحدثه العمل كاملاً.

لكن على الرغم من أن إيريكسون عُدّ على هذا النحو فناناً أصيلاً، فإن ذلك لم يدفعه إلى المبالغة في الاعتداد بالنفس ولا إلى البخل؛ فحينما كانت تتم تغطية نفقات احتياجاته كان يرمي بالريشة وبلوح الألوان جانباً ويذهب إلى الجبال، حيث عدّ رفيق صيد من أهل البلاد إلى حد أنه سمح له باصطياد الدببة إذا ما تسنّت فرصة لقيام بسفرة لهذا الغرض، فكان يقضي الجزء الأكبر من العام على هذا المنوال، بعيداً عن المدينة.

كان جزءاً لا يتجزأ من استكمال صورة هذا الرجل الفاضل العامة والخاصة، الذي لا يعد نفسه معلماً فناناً، أنني كنت آنذاك مضطراً للوقوف على أسرار صنعته باستراق السمع.

قال إيريكسون فجأة: "ولكن هذا يكفي! بهذه الطريقة لن نحرز تقدماً. زد على ذلك أننا نريد أن نمر على زميل ونصطحبه معنا، لدى هذا الزميل تستطيع أن تشاهد أعمالاً أفضل، هذا إذا ما حالفنا الحظ! هل تعرف لُويس، الهولندي؟".

قلت: "سمعت عنه فحسب، هل هو ذلك الرجل غريب الأطوار الذي لا يعرف أحد ماذا يرسم؟ ولا يسمح لأحد بالدخول إلى ورشته؟".

فقال إيريكسون: "سوف يسمح لي بالدخول لأنني لست رساماً! وربما يسمح لك أنت أيضاً لأنك لا تستطيع شيئاً بعد ولا يُعرف ما إذا كنت ستصبح في يوم من الأيام رساماً! ولكن لا تتضايق! سوف تصبح شيئاً ما بالتأكيد، لا بل لك الآن مكانتك وتقديرك. لا حاجة، لله الحمد، إلى صاحبنا لُويس بما نتحدث عنه فهو غني وعنده القدرة على كل شيء يريده، إلا أنه لا يريد الكثير؛ لأنه لا يعمل تقريباً أي شيء. وفي نهاية الأمر ليس هو برسام أيضاً، إذ لا ينبغي على الأقل أن يسمى المرء رساماً إلا إذا كان يمارس فعلاً مهنة الرسم، إذ إن عليه أن يقوم بإجراءات في هذا المجال مثل ليوناردو ذاك، الذي كان يرمي قطع التالر النقدية على قباب الكنيسة".

ساعدت إيريكسون بسرعة في تنظيف أدواته، التي كان يرتبها عادة بطريقة جيدة، بحيث رأى الآن أيضاً الطريقة التي أتبعها أنا في إنجاز ذلك. عندها قال: "ليس الأمر سواء إن رسمنا بزبل إذا ما كان في نيتنا الحصول على درجة ألوان أكثر نقاء. إن من تحتوي أدواته على قذارة أو من يمزج ما يشاكس بعضه بعضاً من الألوان هو شبيه بطباخ يضع سم الفئران بين التوابل. ولكن الفراشي نظيفة، بارك الله فيك! وانطلاقاً من هذه النقطة يمكنني أن أسميك عفيفاً وأعدّ صفحتك بيضاء من غير سوء! إن لك أماً هي غاية في الترتيب والنظافة، أم إنها ماتت؟".

بعد أن كنا اجتزنا عدة شوارع دخلنا إلى مستوطنة الرسام الهولندي الغامض، التي اختيرت بحيث كانت نوافذ الطابق الواسع الذي كان يسكنه هو بمفرده مطلة على الأفق الطلق والسماء المفتوحة، ولم يكن يشاهَد من المدينة شيء سوى بضعة مبان فخمة ومجموعات كثيفة من الأشجار. إذا ما كان المرء في هذه المنطقة في العراء فهو لا يرى سوى طرف غير مكتمل من مدينة ومحتو على جدران من ألواح الخشب وتخشيبات قديمة؛ نوافذ السيد لويس، التي لم تُظهر إلا تلك الأشياء المثالية المستقرة في فيض من الضوء الذهبي، بدت لذلك مميزة بذوق منتقى بعناية واهتمام. على الأقل أثرت الشفافية اللامعة للنوافذ الكبيرة من خلال هدوء وبساطة متعمدين على ما يبدو في تجهيز الغرف بمقياس مزدوج.

لشدة دهشتي لم أرَ على لويس، الذي استقبلنا بلطف، أي سمات هولندية الطابع، كما اعتاد الناس أن يتصوروها. كان رجلاً متوسط الطول ونحيفاً وعمره ربما كان ثمانية وعشرين عاماً، أسود الشعر والعينين، اللتين نمتا عن تعبير كئيب مثلهما في ذلك مثل الفم المبتسم بطريقة جميلة، ودهشت أكثر من أن الغرفة التي كنا فيها لم تظهر أي أثر لفعالية فنية، لا بل كانت شبيهة بمقر إقامة لفقيه أو لسياسي. وكانت ثمة رفوف كبيرة على الجدران مغطاة بستائر تخفي وراءها عدداً كبيراً من الكتب من بينها، كما علمت فيما بعد، بعض

الكتب النادرة والإصدارات الأولى. وبالجدران لم تعلق صور أو رسوم بل خرائط؛ وعلى إحدى الطاولات أُلقيت كومة من الجرائد والمجلات بلغات مختلفة وعلى مكتب واسع بدا أن لُيس كان يمارس تواً عملاً ما.

حين جلسنا قال لويس: "لا أزال مديناً لنفسي بقهوة بعد الظهر، فهل تجاريانني في شربها الآن؟".

هنا أجاب إيريكسون عنا نحن الاثنين: "ما دمنا نظن أن قهوتك لن تكون رديئة، فنحن موافقان بكل تأكيد". فقرع لُويس الجرس لرجل شاب كان يقوم بخدمته. في غضون ذلك كنت لا أزال أجول بنظري في المكان، ولكن لم أكن مزوداً بالكلمة الطيبة ملتزمة اللياقات.

وقال إيريكسون عني: "إنه يستغرب أيضاً أين حوامل الرسم واللوحات في معبد الفن هذا! ولكن صبراً أيها الفتى الطموح، سوف يطلعنا الرجل عليها إذا ما رجوناه بلطف! للحقيقة يا عزيزي لويس إن غرفة مكتبك شبيهة بغرفة عمل صحفي كبير أو وزير!".

قال لويس وهو يبتسم متجهماً إن مزاجه يأبى عليه أن يرى أعماله الفنية في هذا اليوم من جديد؛ فللمرة الثالثة على الصبي أن يزيل في كل مساء ألواح الألوان لأعمال غير منجزة من مكانها ويضعها جانباً وفي هذه الحالة حبذا لو يُعفى الآن من عناء الذهاب إلى الاستديو لهذا الغرض، وحده أو مع غرباء. ولكنه عهد بالفعل إلى خادمه بالأمر حين ظهر هذا ومعه صينية القهوة. كانت الصينية والأواني تلمع، باستثناء الفناجين صينية المنشأ، وهي من فضة ثقيلة وقد صنعت وفقاً لطراز يوناني جديد واقعي يعود إلى عقود سابقة، فكانت بذلك بمثابة شاهد على أن أبوي الفنان الهولندي وأسرته قد اختفوا من على وجه الأرض، وأن الابن، بصفته الباقي الوحيد على قيد الحياة، احتفظ بهذا الإرث لكي يرى من حوله وميضاً أخيراً لبيت الأب المفقود. وفي فرصة تلت فيما بعد أسرَّ لي إيريكسون أن لُويس يحتفظ في طاولة مكتبه أيضاً بكتاب أمه للتراتيل الكنسية وهو كتاب مرصع بالذهب.

كان المشروب البني ألذ ما تمتعت به حتى ذلك الحين بالنظر إلى ظروفي وأوضاعي البسيطة؛ ولكن انعدام المألوف، المتمثل في إيجاد أوان عائلية ثمينة مسخرة للاستخدام اليومي لدى فنان متجول، أخافني قليلاً، وحين خاطبني لويس بعد أن لاحظ نظراتي المتكررة والشاردة في كل الأرجاء: "والآن، يا سيد ليمان، ألم تستطع بعد أن تألف منظر مسكني الخالي من آثار فن الرسم؟"، دفعني نسيانه اسمي أو عدم انتباهه واكتراثه له إضافة إلى رفضه أن يطلعنا على أعماله إلى هجمة صغيرة. فقلت إن نوعية تجهيز بيته وتأثيثه ربما له علاقة بطبيعة أخرى كنت لاحظتها منذ بعض الوقت، أعني الأسلوب الغريب الذي تبدل الفنون المختلفة بموجبه طريقة تعبيرها الفنية. على هذا النحو كنت قرأت مؤخراً انتقاد سيمفونية فلم يرد فيه إلا القول عن دفء درجة اللون وتوزيع الضوء، عن الظل العميق للأصوات، عن أفق الأصوات المرافقة المتسم بعوم المعالم وامتزاجها، وعن الألوان الداكنة المضيئة في أدوار الغناء الوسطى، وعن المعالم الجريئة في الفصول الموسيقية الختامية وما شابه ذلك، بحيث يظن المرء أنه يقرأ نقداً للوحة فنية؛ إثر ذلك مباشرة كنت سمعت محاضرة بليغة لباحث في علوم الطبيعة وصف فيها عملية الهضم عند الحيوانات وقارنها بسيمفونية ضخمة لا بل بأحد أناشيد الكوميديا الإلهية، في حين كان على طاولة أخرى من المحل العمومي بعض الرسامين يناقش المؤلَّف التاريخي الذي أبدعه مدير الأكاديمية الشهير ويجيد في الحديث عن الترتيب المنطقي واللغة الحادة والمعالجة الجدلية لتناقضات المفاهيم والتقنية التنفيذية لدى انتهاءٍ منسجم على الرغم من ذلك للتشاؤم في الاتجاه الإيجابي. باختصار، يبدو أنه ما من جماعة من أهل الفن تشعر بالارتياح والاطمئنان وأن كل واحدة تريد أن تسير في مظاهر الأخرى. ربما يتعلق الأمر بالكشف عن مضمون جديد لكل العلوم والفنون وتثبيت هذا المضمون، على أن يُسرع المرء لئلا يأتي متأخراً ويهضم حقه.

هنا ضحك لويس وقال: "أرى أنه لا بد من الدخول إلى حجرات رسومي ولوحاتي لكي ترى أننا لا نزال على الأقل نرسم باستخدام الألوان!".

مشى أمامنا وفتح الباب المؤدي إلى صف من الأمكنة التي في كل واحد منها إحدى لوحاته غير المكتملة، موجودة بمفردها على أفضل ما تكون من الإضاءة بحيث يتعذر تحويل النظر عنها إلى شيء آخر وتبديد هذا النظر. وكان من شأن شمس الأصيل فيما بعد، التي سطعت على الغيوم في الخارج وعلى ربوع الطبيعة البعيدة والأبنية الشبيهة بالمعابد أن أظهرت اللوحات، التي كانت في واقع الأمر مضيئة بطبيعة الحال بفعل ضوئها المنعكس إلى الداخل، أكثر إشراقاً وتسامياً بحيث ولدت في جو المكان الهادئ انطباعاً نادر المهابة. اللوحة الأولى رسم عليها النبي سليمان مع ملكة سبأ فكانت صورة رجل ذي جمال مميز وكان من أمره أن نظم وكتب نشيد الأناشيد: كل شيء تحت الشمس زائل! كانت الملكة بصفتها امرأة كما هو بصفته رجلاً، وكلاهما في ثياب تنم عن الفخامة والغنى، جلس مقابل الآخر وحيداً ومعزولاً وبدا وهو يثبِّت عينيه المتوهجتين على الآخر أنه يريد من خلال تلاعب بالألفاظ حامي الوطيس ومعادٍ على وجه التقريب أن يستدرج لغز كيانيهما ولغز الحكمة والحظ. الغريب في الأمر هو أن الملك الجميل بدا في معالم وجهه نسخة مجمَّلة ومرتدية ثوب المثالية. في الغرفة لم يكن ثمة شيء آخر سوى إناء نحاسي منبسط ومنظف إلى حد اللمعان مصنوع على الطراز القديم مع بضع برتقالات وقد وضع مصادفة على طاولة صغيرة في زاوية. وكانت صور اللوحة بنصف الحجم الطبيعي.

كانت لوحة المكان التالي تمثل هاملت الدانمركي، ولكن لا كما صوره مشهد من المسرحية المأسوية بل الصورة التي ارتسمت في ذهن فنان جيد ورسمها بوصفها صورة الأمير الشاب النابض الذي لا يزال شاباً في عمر الورود ومزهواً بثياب الدولة الرسمية وحول جبينه وعينيه وفمه كان يحوم مصير المستقبل المختفي تحت حجاب غامض. وهاملت هذا ذكَّر أيضاً

بالرسام ذاته، ولكنه كان مستتراً بطريقة فنية بارعة بحيث لم تتم معرفة السبب في ذلك. وفي زاوية من الحجرة استند إلى الحائط سيف في سلة مرصعة بالفولاذ والفضة وكانت تستخدم على ما يبدو بوصفها موديلاً للرسم ولا تزال تستخدم كذلك. هذا الشيء الفردي كان من شأنه أن عزز انطباع الوحدة والعزلة كما عزز الحزن الوديع الذي تدفق من تألق الصورة المتسم بالهدوء. للمناسبة كانت اللوحة بالحجم الطبيعي الكامل.

من هذه الحجرة انتقلنا أخيراً إلى الأخرى التي يصح أن تسمى صالة. هنا وقفت، مزودة كاللوحات الباقية بإطار مزين ثقيل، أكبر الرسوم التي شكلت كلمات الإنجيل "طوبى لمن لا يجلس على مقعد المستهزئين!" الدافع الرئيسي لإنجازها. على مقعد حجري نصف دائري في إحدى فيلات روما وتحت سقف من العرائش جلس أربعة رجال إلى خمسة في زي لباس القرن الثامن عشر وأمامهم طاولة من المرمر عليها نبيذ كامباني يتلألأ في كؤوس فينيسية عالية. أمام الطاولة، جلست فتاة شابة بمفردها تدير ظهرها للمشاهد فارعة الطول ممتلئة الجسم ومزدانة بالحلي وتظهر في الصورة منهمكة في ضبط أوتار العود الذي بين يديها، وتشرب في الوقت ذاته من كأس يضعه على فمها الرجل الجالس بجانبها، وهو شاب يكاد يصل إلى سن التاسعة عشرة. لم ينظر هذا لدى إمساكه الكأس بتكاسل وتراخٍ إلى الفتاة بل شخص ببصره إلى من يتأمل اللوحة ويشاهدها ثم استند في الوقت ذاته إلى رجل ذي شيب فضي أبيض ووجه ضارب إلى الحمرة. والرجل الأشيب كان بدوره ينظر أيضاً إلى مشاهدي اللوحة، ويعد إضافة إلى ذلك بسخرية واستهزاء مقلباً ماجناً بإحدى يديه بينما يعبث بالطاولة باليد الأخرى. كان يغمز بطرف عينيه بلطف مغرق في الاضطراب ويُظهر كل المجون الذي قد يكمن في شاب في التاسعة عشرة من العمر، بينما بدا الشاب الفتى بشفتيه الجميلتين بعناد وعينيه السوداوين المتوهجتين بلون باهت وشعره العصي على الترويض والمتألق سواداً، الشبيه بسواد خشب الأبنوس، بفعل المسحوق الممسوح عنه، وكأن ذلك الشاب يحمل

في داخله تجارب رجل أشيب وخبراته. وفي وسط المقعد، الذي أظهرته اللوحة ولوحظ مسنده الخلفي، العالي والمنحوت برشاقة ورقة، من خلال الثغرات، جلس رجل عاطل ومحدود الأفق تماماً ونظر من الصورة لاوياً أنفه بسخرية واستهزاء مكشوفين، ثم جعل استهزاءه أكثر إساءة وإهانة بأن أظهر من خلال وردة وضعها أمام فمه أنه يريد بحسن طوية أن يخفيه. وتلا هذا رجل ضخم الجثة بلباس رسمي؛ كان هذا ينظر بهدوء بل بحزن تقريباً، ولكن باستهزاء مشفق إلى داخل الصورة، وأخيراً أغلق نصف الدائرة قبالة الفتى الشاب كاهنٌ علماني يرتدي جبة حريرية وكان من وضعه، كما سلف لغيره، أن ألقى على المشاهد نظرة فاحصة حادة في اللحظة التي جر فيها إلى أنفه تنشيقة استغرق في تناولها وتحت مفعولها وهلة معينة، إلى هذا الحد بدت له تفاهة المشاهد وخواؤه ورداءته مدهشة ودفعته إلى التهكم والتمجن. على هذا النحو كانت جميع النظرات، باستثناء نظرات الفتاة، موجهة إلى من يأتي إلى أمام اللوحة وبدت كأنها بتغلغل لا سبيل إلى رده تنتشل منه كل الغرور وأنصاف الحلول والتحمس وكل ضعف مخفي وتملق، إرادياً كان أو غير إرادي. صحيح أن يأساً واضحاً استقر على جباههم وحول زوايا أفواههم، لكن على الرغم من الشحوب الذي غطى وجوه الجميع عدا الرجل الأشيب الضارب وجهه إلى الحمرة فقد تمتع الجميع بصحة جيدة كالسمك في الماء. والمشاهد، الذي لم يكن على وعي تام بوضعه، عانى معاناة شديدة تحت وقع النظرات بحيث فضل أن يميل إلى القول: الويل لمَن يقف أمام مقعد المستهزئين!

إذا ما اتسمت الغاية من اللوحة واتسم تأثيرها بطابع رافض، فإن بناءها بتفاصيله بالمقابل مشبع بأكثر الحياة دفئاً. فكل رأس فيها أظهر شخصية فعلية ذات مضمون وشكَّل بحد ذاته عالماً مأسوياً تماماً وملهاة وأُلقي عليه الضوء ورُسم على أفضل وجه، إضافة إلى الأيدي الناعمة العاطلة من العمل. والألبسة المطرزة للسادة غريبي الأطوار، ولباس الفتاة بالزي الرومي القديم، ونقرتها الجميلة وحولها عقد المرجان، وخصل الشعر وجدائله السوداء،

وأعمال النحت المبذولة في طاولة المرمر القديمة، وحتى الرمل اللامع في الأرض الذي غرزت فيه قدم الفتاة؛ هذان الكعبان في الحذاء الحريري باهت الحمرة: كل ذلك كان مرسوماً بشكل عريض وأكيد ومع ذلك من دون تكلف وتكبر، لا بل انطلاقاً من أكثر الكيانات بدائية إلى حد أن التناقض بين البريق المفرح والشأن النقدي للوحة أسفر عن التأثير منقطع النظير. سمى لويس لوحته هذه "المهمة السامية"، التي اضطلع بها ومن ثم لجنة الخبراء التي يمثل هو ذاته أمامها من حين لآخر بخوف ووجل؛ ثم أتى بمذنب مسكين، لم يظهر على حكمته وتبريكه أنهما منتميان إلى أطهر السماوات، إلى أمام اللوحة ثم راقب تقاطيع وجهه المضطربة المرتبكة.

حين كنا ننتقل بصورة متكررة من لوحة إلى أخرى وكنت أنا أبقى في أثناء ذلك أيضاً وحدي لدى هذه اللوحة أو تلك، لم أستطع الإسهام في الحديث الدائر بإضافة حتى كلمة واحدة إليه بل خضعت بصمت تام للانطباع الذي ولَّدته مقدرة فائقة لدى من لا يقدر على الإحاطة بها. أما إيريكسون بالمقابل، الذي عمل في مجال محدود ومتواضع، فقد كان جرب ورأى أشياء كثيرة بحيث استطاع بسهولة وفهم أن يدلو بدلوه في الحديث عن كل شيء. واعتاد أيضاً أن يقول إنه يفهم ما يكفي تماماً عن الفن لكي يكون عاشقاً مخلصاً له ومهتماً بجمعه إذا ما أراد الحظ أن يجعله غنياً وبهذا الثمن سوف يعلق في الحال لوح ألوانه بمسمار في الحائط. وبالفعل كان يجيد الحكم على القديم والحديث ويقدر كليهما حق التقدير خلافاً لبعض الفنانين، الذين يكرهون كل شيء أو يقللون من شأنه أو ببساطة لا يفهمون مالا يقع في مجالهم. هذه المحدودية الجارفة هي ضرورية طبعاً عند البعض إذا ما هم أصروا على التمسك بالشيء الذي يقدرون عليه لأن الطموح والاكتفاء نادراً ما يلتقيان في وضع موفق وسعيد. على ذلك القول كان يرد لويس أحياناً بقوله إنه ينبغي طبعاً التوقف عن ممارسة العمل من حين لآخر لكي يضاف إلى المعلومات المكتسبة دم جديد؛ والمقومون مفيدون على الصعيد المنطقي والترتيب

الزمني، وعلى صعيد فن الرسم وسيرة الحياة وتدوين ما تم تثبيته؛ إزاء الراهن من الأمور، بقدر ما يبدو جديداً أو مفاجئاً، يقف هؤلاء النقاد عادة من دون إنتاج وفي حيرة، والنقاط الأساسية الأولى لا بد أن تصدر دائماً من أوساط الفنانين، وهي لذلك منحازة في معظم الأحيان وهذا الانحياز يتابع النقاد غزله، بعد أن يتم التغلب على ذهول الوهلة الأولى، إلى أن يصبح الموضوع تابعاً للماضي ويصبح صالحاً لتدوين رشيد. وهذا، على حد قول لويس، عمل مقيت! إذ كان يعرف رسامين رموا رفائيل البائد بالشتم وعدّوه شخصاً متعباً وكانوا بذلك شديدي الاعتزاز بنزعتهم النقدية، القاسية والفظة؛ بالمقابل يوجد عنده أساتذة جامعات لا يميزون في اللوحات الأقدم تذهيباً معدنياً حقيقياً من ذهب مرسوم، ومن الوجهة الفنية التقنية لا تختلف وجهة نظرهم عما يدور في ذهن الأطفال والبدائيين، الذين اعتادوا أن يروا في وجه مرسوم مجرد ظل ناتئ لبقعة سوداء.

لاحظتُ تماماً أن لويس مر بلوحاته بطريقة مميزة عبر مدرسة الإيطاليين الكبار دون أن يريد تحديداً تقليدهم في غير الممكن، لكنه نُبه الآن على تأهل في السابق لمهنة رسام ألماني متشدد كان من أمره أن وصل في مجال الاستخدام الواثق للقلم والفحم تقريباً إلى مرتبة معلمه الشهير في حين كان يرى بالإجمال أن الألوان واستخدامها في الرسم شر لابد منه. وبعد إقامته في إيطاليا لسنوات طويلة عاد إلى الوطن وقد تغير تماماً فصار ينظر إلى أسلوبه السابق بازدراء ويحط من قدره وشأنه. وحين دار الحديث عن هذا الموضوع عبَّر إيريكسون عن أسفه من أن لويس صرف النظر تماماً عن العمل في مجال الفن الألماني النبيل في الرسم بالقلم والخطوط، الذي هو في نوعه ثروة لا سبيل إلى تعويضها ومعلم من معالم الأمة، رد هذا بقوله: "إطلاقاً! إن من يفهم تماماً كيف يرسم بالألوان المائية يستطيع بصورة جيدة أن يرسم بالقلم والفحم وتحديداً كل ما يريد رسمه! وللمناسبة لا أزال أمارس ذلك من حين لآخر، بالطبع تبعاً لرغبتي وتسليتي".

وأحضر ألبوماً كبيراً تقريباً من أفضل الورق ذا غلاف من الجلد ومزوداً بقفل من الفولاذ. وبعد فتحه بمفتاح صغير مثبت في علاَّقة ساعته ظهر في لوحة إثر لوحة عالم من الجمال وفي الوقت ذاته الاستهزاء بهذا العالم بصورة يتعذر وجودها بسهولة مرة أخرى على هذا النحو. وكانت تلك قصة سلسلة من الغراميات كان عايشها ثم رسمها في هذا الكتاب بأرق الأقلام وأتقن الأساليب الألمانية، كما لو أن دُورر وهولباين، أوفربيك أو كورنيليوس رسموا أحداث مجموعة بوكاشيو القصصية "ديكاميرون" وأعدوا تلك الرسومات مباشرة من أجل النقش والحفر. وقصة من هذا النوع تكونت حسب دوام مدتها من عدة لوحات، قليلة أو كثيرة، وبدأت كل قصة مع رأس صورة المرأة المعنية مع بعض التنويعات من تلك الصورة بمفاهيم مختلفة؛ ثم تلا ذلك كامل الصورة، كما يرى المرء شخصاً جميلاً لأول مرة في السوق أو الكنيسة أو الحديقة العامة؛ ثم تطورت الحركة والعلاقة بالبطل، ودائماً كان لويس نفسه، إلى أن وصلنا إلى انتصار الحب وظفره فتبدأ إثر ذلك مرحلة انهيار العلاقة بين المحبين بمشاهد من النزاعات ومغامرات الخيانة من طرف واحد أو من الطرفين إلى أن يتم الانفصال الذي لا بد منه إما بالطرد المفاجئ للبطل الذي يبدو ذليلاً وكسير النفس أو بلا مبالاة مضحكة من كلا الجانبين. في أثناء ذلك تألق بشكل خاص عدد من الأشخاص الغاضبين أو الباكين ممن زهوا بالجمال بوصفهم نصباً تذكارية صغيرة حقيقية للأسلوب الصارم بلطف ورقة. وكان من شأن ضفيرة شعر مفكوكة، وإزاحة اللباس عن الكتف أو القدم أن عززتا انطباع التأثر، كما يشهد شراع آليةٍ يرفرف ممزقاً على النجاة من العاصفة. لم يكن أمراً محسوماً ما إذا كانت هذه الحالات المأسووية موصوفة من قبل يدٍ متأثرة بها بعمق أو أن ثمة سخرية خافتة أسهمت في نشوئها؛ بالمقابل شعت بلا منازع الأمجاد النسائية لبعض السيدات، اللواتي تسامين في أوج انتصاراتهن إلى تجسيدات أسطورية.

كان لويس يُقلِّب بارتياح لوحة بعد أخرى كما لو أنه يعرض أمامنا كتاب فراشات، وكان يأتي من حين لآخر فحسب على ذكر اسم واحدة من تلك الجميلات: هذه تيريزيا وهذه مارييتا، كان ذلك في مدينة فراسكاتي وحدث هذا في فلورنسا وهذا في البندقية!

كنا نشاهد بدهشة وصمت على حد سواء تقليب اللوحات واحدة إثر الأخرى، وكان ما تحتويه من جمال وموهبة يمر بنا مرفرفاً، إيريكسون فقط كان يضع يده من حين لآخر على لوحة أو أخرى لكي يتوقف عندها للحظة ثم يقول أخيراً: "يجب أن أعترف أنني لا أستطيع أن أتفهم تماماً كيف يمكن لامرئٍ أن يحتبس هذا القدر الكبير من العبقرية أو أن يوظفها على الأكثر في هذا العبث السري! كم تستطيع أن تنشر المتعة بين الناس لو أنك تسخر كل هذه الطاقة الإبداعية في خدمة غاية جدية!".

هز لويس كتفيه وقال: "عبقرية؟ أين العبقرية؟ هذا هو السؤال! حتى الكائن الأكثر وحشية وبدائية ضمن هذا الجنس يجب أن يكون تقياً وبسيطاً كالطفل، حين يكون وحده ويعمل. ربما ينقصني التقى أو التدين؛ لست وحدي أبداً بل كل الكلاب عندي وأنا مهيَّج معهم!".

لم نفهم تماماً هذا القول، الذي أتى متناقضاً مع القول السابق بأن الإنسان قادر على كل شيء، وأنا تحديداً لم أعرف تماماً كيف لي أن أكوِّن رأياً عن المسألة برمتها. أحسست بارتياح إزاء الرجل الجميل والهادئ بل الجدِّي أيضاً، في حين نمَّ مضمون الكتاب عن نوع معين من الخسة والدناءة، التي قد يجد لها بعض الناس ما يسوّغها لأنفسهم، لكن لن تقبل من صديق جدي. كان هذا شيئاً من ذلك المبدأ المخيف، الذي يعدّ جنسي البشر قوتين طبيعيتين متعاديتين متجابهتين حيث يصح شعار المطرقة أو السندان، إما أن تدمِّر أو تدمَّر، أو ببساطة أكثر: من لم يكن ذئباً، افترسته الذئاب.

في تلك الأثناء وصلنا إلى آخر اللوحات المرسومة بالقلم وتلاها بعد ذلك بعض الصفحات الخاوية من أي رسوم فأراد لويس أن يغلق الألبوم

بسرعة، لكن إيريكسون أوقفه وطلب أن يرى اللوحة الأخيرة بدقة أكثر؛ لأن كل الأشخاص الذين ظهروا في الرسوم حتى الآن كانوا إيطاليي الأصل، بينما أولئك على ما يبدو من الألمان. لم تُرسم رأس الصورة، كما في الصور الأخرى، من البدء بصفتها تصميماً على وجه الخصوص بل ظهر في الحال، كما لو أن الرأس لن تُفرز على حدة، مجمل الجسد الواقف المغرق في النحول للفتاة الشابة، التي رُفع شعرها الكثيف إلى الأعلى في ضفائر كبيرة إلى حدّ أن الرأس بدت تترجّح يمنة ويسرة كقرنفلة فوق ساقها على الرغم من أن الرقبة والنقرة المستديرتين برقة ونعومة لم تنحنيا بهدوء إلا من جراء الرقة الطبيعية. وما عدا عينين كبيرتين تشعان بالبراءة فإن الوجه لم يُظهر أي محتوى آخر، إذ لم يكن القلم الفضي الذي كان اختاره الرسام كافياً للتعبير عن ملامح الوجه الرقيقة. بالمقابل نما المظهر العذري الصارم للفتاة بثقة وثبات أكبر، دائماً بيدٍ رسَّامة رقيقة، عبر ثنايا اللباس محكمة الطيّ في الضوء التي لم تحتوِ على أي خط أكثر أو خط أقل مما يلزم.

قال إيريكسون بصوت عال: "يا للدهشة! أين توجد هذه الزهرة؟"

فأجاب لويس: "هنا في المدينة، وتستطيعان رؤيتها من حين لآخر، إذا ما التزمتما التأدب!".

أما أنا فقد صرخت، تحت تأثير البراءة الطبيعية لهذه المخلوقة، من دون تبصر وبنبرة استجدائية: "ولكنك لن تؤذيها، أليس كذلك؟".

قال لويس ضاحكاً وهو يربت على كتفي: " أوهو، كيف لي أن أوذيها؟"

ضحك إيريكسون أيضاً، وهكذا انطلقنا لكي نقضي أمسيتنا برفقة الهولندي. ولدى مرورنا بأمكنة اللوحات رأينا مرة أخرى اللوحات الثلاث الجميلة وهي تلمع، أما عني أنا فلآخر مرة؛ إذ لم تتح لي رؤيتها مرة أخرى إلا فيما بعد في غسق الصباح الداكن حين لم أُلقِ بالاً لذلك. أين بقيت تلك اللوحات منذ ذلك الحين، لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع؛ إلا أنها لم تُعرض على الملأ، ولويس ذاته اعتزل الفن فيما بعد من جراء ترجّح

شخصيته وتقلبها. فإذا كان ثمة نجوم، كما يقال، رآها المرء بوضوح تتموج وتترجح طول برهة من الزمن، لماذا إذاً لا ينحرف شخص ضعيف عن مسيرته الطبيعية؟

مشينا الآن نحن الثلاثة من الجزء الشمالي للمدينة بمحاذاة الطرف الغربي لكي نصل هناك شيئاً فشيئاً إلى استراحة على ضفة النهر الآتي من جهة الجنوب. وفي الطريق مررنا بجانب البيت الذي أسكن فيه. هنا قال إيريكسون حين أردنا أن نمر ببيوت أخرى: "توقفا! ما رأيكما في أن نطَّلع أيضاً بسرعة على ما يعمل هذا! لعل الشمس المائلة إلى المغيب، التي تطل عليه حالياً من نافذته اللاعملية تسعفه بحيث نرى أمام أعيننا على الأقل شيئاً من اللون!". مشيت أمامهما بتردد لكن ليس بغير رغبة لكي أفتح الغرفة فرأيت بالطبع لوحاتي الكبيرة تقف في شفق المساء كمدينة تحترق بحيث انفجرنا نحن الثلاثة بالقهقهة والضحك. كان ثمة تصميمان للوحتين من الكرتون، أحدهما تصور صيداً ألمانياً قديماً لثيران برية متوحشة في واد جبلي ضخم مليء بالأشكال وتصور الثانية غابة جرمانية من البلوط ذات وديان صخرية، وقبور أبطال وهياكل قرابين. كنت رسمت اللوحتين بريشة كبيرة من نبات الحلفاء على المساحات الضخمة من الورق وظللتهما بقوة وفرشت فوقهما أيضاً كتلاً واسعة من الظلال باللون المائي الرمادي وطليت قطعتي الكرتون بعد ذلك بماء الغراء ثم صرت أتسلى بدهن هذه الأرضية بألوان مائية هكذا بمرح على غير هدى بطريقة مكنت من رؤية رسوم ريشة الحلفاء في كل مكان عبر الأجزاء الشفافة، المعتمة المضيئة. لم أستخدم لذلك أي تصميم طبيعي سابق، بل ابتكرت في اندفاعي الإبداعي الجموح بكل حرية أول خط رسمته وآخره، وبما أن هذا النوع من العمل يجمع بين البساطة والمرح على حد سواء فإن قطعتي الكرتون الملونتين دلَّتا على شيء لا يقال عنه الكثير من الكلام، إذ لم يكن معروفاً بادئ ذي بدء إن كان أيضاً بمقدوري أن أنجز فعلاً لوحات كهذه. كنت كلفت شاباً من أهالي موطني سبق له أن

زار الأكاديمية بصفته تلميذاً وكان يجيد بكل جسارة تصميم الرسوم، برسم الأشكال الكبيرة بطول ثماني بوصات. ولكن هذه الأشكال كانت لا تزال بلا تلوين وتتسكع في أثناء ذلك كأشباح بيضاء في أرجاء الغابات.

خلف هاتين اللوحتين، اللتين اختبأت الواحدة منهما بضخامة وراء الأخرى إلى نصفها، برزت على الحائط لوحة ثالثة إلى ما فوقهما، معدة بالطريقة نفسها لكن من دون ألوان. لوحة مدينة صغيرة محاطة بأشجار زيزفون ضخمة واسعة؛ أقيمت هذه المدينة بين جذوع الأشجار وانطلقت من قممها لتستند إلى جبل، واكتظت ببروج كثيرة وبيوت ذات جمَلونات وجمَلونات زينة فوق البوابات والنوافذ وأسيجة وملاحق خارجية. كنت تسرح بنظرك في الأزقة الضيقة المتعرجة والمتصلة بسلالم وأدراج وفي ساحات صغيرة حيث نوافير المياه وعبر حجرات الأجراس في الكنيسة، التي مرت خلفها سحب الصيف المضيئة كذلك خلف عرائش النبيذ أيضاً، المرتسمة في الجو والآوية مجموعات من الرجال الصغار من أهالي لوحتي. بنيتُ المدينة العجيبة بمساعدة مجموعة من الدراسات المعمارية وكدست أشكال طرازي البناء الروماني والغوطي في تجميع وإسراف ملونين بصورة لم يسبق لها مثيل وألمحت في أثناء ذلك إلى طريقة النشوء وفق ترتيب زمني بحيث أظهر البرج والأجزاء السفلى من الكنيسة العمر الأكبر في نوع البناء. الأفق العالي امتد أيضاً في الأعالي إلى ما بعد أشجار الزيزفون وأغلق بقعة واسعة من الأرض أحاطت بدورها بمزارع وطواحين وغابات كما أحاطت أيضاً في زاوية ظل معتمة بساحة الإعدام. في الجهة الأمامية كان ينبغي أن يأتي من البوابة المفتوحة موكب زفاف من العصور الوسطى عبر الجسر المتحرك ويتقاطع مع راية داخلة إلى المدينة، محمولة من جنود مسلحين لخدمة المدينة. هذا الاكتظاظ في الأشكال والأشخاص أضفته إلى اللوحة مع كلمات شارحة لمجرد أن المكان اللازم لذلك كان آنذاك شاغراً.

قال لويس: "هذا رائع! مظهر متخيَّل، هذا هو أبسط مما يمكن أن يتحقق وأرقّ ؛ للمناسبة مدينتك تتوهج في حساء التوت الشوكي اللعين لهذا الشفق المسائي كطروادة المحترقة! ولكن يخطر الآن ببالي: عليك أن تبني كل الجدران العالية من حجر رملي أحمر، لأن ذلك من شأنه أن يُحدث إزاء الأشجار الضخمة وباقترانه مع الغيوم البيضاء اللامعة تأثيراً مميزاً! ولكن ماذا يوجد هنا من جديد؟".

عنى بسؤاله لوحة أصغر من الكرتون متكئة على الحائط وقد عرَّفت نفسها بأنها صورة بألوان رمادية لمنطقة موطني إبان عصور تجوال الشعوب. على اتساع أشكال الأرض المعروفة امتدت غابات عذراء إلى جانب وبعضها فوق بعض وزحف في مسالكها جيش جرار؛ وفوق تلة عالية تصاعد الدخان من برج روماني. ولكن لويس كان قلَّب تصميماً ثانياً ما هو إلا بقعة جيولوجية الطابع، إن صح التعبير. من بين أنواع جديدة للجبال، التي يتميز حسب الأعراف المدرسية بعضها من بعض، برز جبل مغرق في القدم على هيئة تاج وسعى إلى أن يكوّن مع بقية الجبال صفاً صالحاً للرسم. لم تُسهم شجرة وحتى شجيرة واحدة في بعث الحياة في تلك الأرض المجدبة القاسية؛ ضوء النهار فقط يجلب معه بعض الحياة التي تتصارع مع الظل المعتم لليل عاصف ومخيم فوق أعلى قمة جبلية، وفي المنطقة الصخرية ينهمك موسى، بناء على أوامر صادرة عن الرب، بإعداد الألواح للوصايا العشر التي ينبغي أن تكتب للمرة الثانية بعد أن تكسرت الألواح الأولى.

خلف الرجل العملاق، الذي يركع فوق الألواح بجدية عميقة، يقف على قطعة من الغرانيت يسوع الطفل دون أن يدري، عارياً، وينظر ويداه الصغيرتان على ظهره إلى العملية الضخمة لنحت الأحجار بجدية مماثلة. كنت ابتكرت أنا ذاتي، لأن الأمر لم يكن يتعلق بتصميم أول للوحة، شكلي الشخصين بقدر ما استطعت، الأمر الذي زادهما قرباً من عصر الانقلابات الأرضية. وبما أن موسى زود بقرون من الأشعة وزود الطفل بهالة العزة

الإلهية، فقد أدرك لويس الموضوع في الحال فرد إليّ بذلك أهميتي وحاز رضاي ولكنه سرعان ما قال إثر ذلك: "هنا نجـد المفتاح! أمامنا إذاً رجل يؤمن بالروحانيات، رجل يُخرج العالم من اللاشيء! لعلك تؤمن أيضاً إيماناً شديداً بالله؟".

قلت وكلي فضول لأعرف ما الذي يريد أن يرمي إليه: "طبعاً"؛ أما إيريكسون فقد قاطعنا نحن الاثنين موجهاً قوله إلى لويس: "يا صديقي العزيز! لا تعذب نفسك دائماً بمحو الله من الوجود! إنك في الحقيقة تتحمل في ذلك عناء أكبر مما يتحمل أكثر المتحمسين اندفاعاً في سبيل غرس هذا المفهوم في عقول الناس!".

فرد عليه لويس: "بهدوء، يا من لا يميز بين الأمور!" ثم تابع يقول: "هنا اذاً بيت القصيد! لا تريد أن تعتمد على الطبيعة، بل على العقل وحده لأن العقل يصنع معجزات دون أن يعمل! والروحانية هي ذلك النفور من العمل، الذي ينبع من الافتقار إلى تبصر وتوازن في الخبرة والتجربة ويستعيض عن الجد والاجتهاد في الحياة الفعلية بفعالية المعجزات ويصنع من الأحجار خبزاً بدلاً من أن يفلح الأرض ويبذرها بانتظار نمو السنابل ثم يحصدها ويدرسها ويطحنها ويخبزها. إن استخراج عالم مختلفٍ اصطناعي مجازي من ملكة الابتكار وإحاطة هذا العالم بالطبيعة الطيبة هو تحديداً ذلك النفور من العمل ليس إلا؛ وحين يقدِم رومانسيون ومجازيون من كل الأنواع طول يومهم على الكتابة وقرض الشعر والرسم والعمل في أي مجال، فإن ذلك كله مجرد تنبلةٍ إزاء النشاط الذي هو لا أكثر ولا أقل من التعبير الضروري والقانوني عن نمو الأشياء. كل إنجاز منطلق من الضرورة هو الحياة والجهد، اللذان يستهلكان بعضهما كما يحل الفناء تدريجياً في الأشياء منذ ازدهارها؛ الازدهار هو العمل الحقيقي وهو الجد الحقيقي؛ وحتى وردة بسيطة لا بد لها من أن تعمل بشجاعة من الصباح إلى المساء بكامل جسدها لكي يكون الذبول أجراً لعملها، ولكن في مقابل ذلك لابد من الاعتراف بأنها كانت حقاً وردة بكل معنى الكلمة!".

بما أنني لم أفهم تماماً ما قال لأنني كنت متيقناً مما بذلت من جهود في عملي، فقد قلت له ذلك.

أجاب لويس: "هكذا حدث، بقعة الأرض الجيولوجية، التي تريد أن تعرضها في لوحتك، لم ترها يوماً في حياتك وأريد أن أشارط أنك لن تراها في يوم من الأيام. هناك ترسم شخصين لكي تتغنى من خلالهما بقصة الخلق وبالخالق من جهة وتسخر من جهة أخرى؛ هذه قصيدة هجاء جيدة، لا علاقة لها بفن الرسم؛ وأخيراً لم تستطع أنت ذاتك، كما يرى المرء بوضوح، أن تنجز على الأقل الآن رسم الشخصين ومن ثم لا تستطيع أن تضفي عليهما تلك الأهمية التي تفكر بها بذكاء؛ ونتيجة لذلك فإنك تقف بكل عملك هذا في الهواء؛ إنه لعب وليس عملاً! والآن كفى حديثاً عن هذا الموضوع ودعني أقل لك إن موعظتي هذه ليست موجهة ضدك تحديداً بل ضد كل هذا النوع من فن الرسم؛ ففي حقيقة الأمر أجد متعة في ما أنت فيه لأنه يتناقض مع رؤيتي لهذه المسألة. نحن إجمالاً من طبيعتين متناقضتين ويمكن أن نبدأ بالتناقض حيث نشاء. ما الجمجمة التي بحوزتك هنا، لم تكن محنطة قط، بل هي إذاً من تحت الأرض؟".

وأشار إلى جمجمة ألبرتوس تزفيهان التي كانت ملقاة على الأرض في إحدى الزوايا.

أجبته ونحن نتابع سيرنا ورويت باختصار حكاية المرأتين اللتين جُرجر بينهما ذلك الصبي ذهاباً وإياباً: "هذه الجمجمة تخص أيضاً رجلاً مزدوج الشخصية متناقضها على نحو ما". فضحك لويس وقال: "هذا ما أعنيه بالفعل! لننتبه كي لا نقع بين خيارين!".

بقينا نحن الثلاثة معاً حتى ساعة متأخرة من الليل واتفقنا على أن نلتقي في أغلب الأحيان؛ وتم ذلك أيضاً إلى أن صرنا في وقت قريب أصدقاء حميمين ورآنا الناس في كل مكان معاً.

الفصل الثاني عشر

نزعات حب فريدة من نوعها

كان البعد المكاني بين مواطننا، حيث تقع في أقصى شمال حدود الرايخ السابقة وغربها وجنوبها، زاد ارتباطنا أكثر مما فرقنا. وبما أننا نحن الثلاثة كنا نشعر بأن شيماً باطنية متشابهة لانتماء مشترك كانت تجمعنا معاً وأننا أتينا إلى قلب منبع الأمة الكبيرة، فقد وجدنا أنفسنا في وضع أبناء عم بعيدي القرابة يتهامسون معاً في زحمة بيت مضياف ويسر بعضهم لبعض مديحاً وذماً لما يعجبهم وما لا يعجبهم. كنا جلبنا معنا طبعاً بعض التحيز والأحكام المسبقة دون أن يكون لنا ذنب في ذلك. كانت تلك هي الفترة التي أُديرت فيها ألمانيا من حكامها الثلاثين أو الأربعين بطريقة ضيقة الأفق وغير ماهرة مما أدى إلى نزوح أعداد كبيرة من المواطنين إلى ما وراء الحدود وصار هؤلاء يتسكعون هناك ويتناولون بلادهم بالسب والشتم أيما شتم أمام الغرباء. وطرحوا في التداول كلمات سخرية واستهزاء لم تكن معروفة حتى ذلك الحين في البلدان المجاورة ويتعذر أن تأتي من غير داخل البلاد المشتومة. وبما أن مواهب السخرية من الذات، التي شكلت المبالغة فيها الظاهرة المنتشرة في نهاية المطاف، لا تُفهم ولا تُقدر إلا بقدر يسير فقد أخذ الغريب ظاهرة الممارسات السيئة هذه على محمل الجد وتعلم هو ذاته مستقلاً عن غيره استخدامها وإساءة استخدامها على حد سواء، خصوصاً أن الناس تمكنوا بفضل فعلة كهذه من التملق حقاً للتعساء، الذين توقعوا من ذلك في غمرة جهلهم بالعالم وأموره عوناً

ودعماً. كان سبق لكل منا أن سمع شيئاً من هذا القبيل وتشربه، ولكن مع مرور الوقت قادتنا الأحاديث الحميمة إلى التفاهم على أن النازحين والباقين في البلاد هم في كل وقت نوعان مختلفان من الناس وأن على المرء، إذا ما أراد معرفة طباع شعب من الشعوب وصفاته تمام المعرفة، أن يبحث عن ذلك لدى الشعب ذاته ويقصده إلى مسقط رأسه، فإنه أكثر صبراً ولذلك أفضل من المغادرين البلاد أيضاً، وهو لذلك لا يقف تحتهم بل فوقهم على الرغم من الظاهر المغاير، الذي يعرف الشعب أخيراً باستمرار كيف يقضي عليه.

إذا كنا ارتحنا من هذا الموضوع، فقد قض مضاجعنا موضوعٌ آخر، أي التناقض بين الجنوبيين والشماليين. وفي ما يتعلق بجماعات ناطقة بلغة واحدة ويُراد لها أن تشكل كلاً قائماً بذاته لا يتجزأ، من حسن الحظ أن تتقارب في ما بينها لكن أن تتواخز بتبادل التعيير والقذف أيضاً؛ لأن الاختلاف والتنوع، كما هي الحال في كل عالم وكل طبيعة، يشكلان هنا أيضاً عامل ربط ويعمل التباين في القرابة على التماسك والتآلف. ولكن ما كنا نسمع من الاتهامات والمآخذ، التي تتقاذفها البلدان الشمالية والجنوبية في ما بينها، كان أمراً مهيناً بفظاظة وقاسياً لا يرحم إذ أنكر هؤلاء على أولئك القلب والعاطفة وأولئك على هؤلاء الروح والعقل، ومع أنه لا أساس من الصحة لهذا المورث فلم يكن سوى عدد قليل من الأشخاص الصالحين في كلا النصفين، الذين لم يؤمنوا بذلك. أو في كل الأحوال لم يُظهر سوى قليلين الشجاعة اللازمة لقطع الأحاديث الخاملة من هذا النوع على ذويهم وبني موطنهم. وتلبية لحاجتنا إلى تحقيق الوضع المثالي المفقود فقد أعطينا لأنفسنا الكلمة في كل مرة نظهر فيها بصفة حياديين، سواء كنا حاضرين أفراداً أو جماعة، لكي نؤيد الطرف الذي كنا نظن أنه أُسيئت معاملته. وأفلحنا من حين لآخر في إثارة بعض الذهول والدهشة أو حتى في إحداث انعطاف مؤنس؛ بالمقابل صُنفنا في مرات أخرى في هذا الجانب أو ذاك وتبعاً لأصولنا أناساً بسيطين محدودي الأفق وذوي طبيعة حمقاء أو متجرعي جوع عيابين أذكياء. ولكن بما أن ذلك لم يجر علينا

تعاسة أو بؤساً لا بل أوقظ فينا حيوية ومرحاً، فقد أدى على الأقل إلى التخفيف من النبرة الحادة للأحاديث وتحقيق توازن مقبول.

ولكن مهمتنا في مجال التوسط بين المتنازعين غدت في يوم من الأيام زائدة عن اللزوم وكوفئت بأجمل ما يكون حين تجمع كل الفنانين بمختلف أنواعهم، احتفالاً بعيد الكرنفال القادم، لكي يرسموا في موكب استعراضي واحتفالي كبير صورة لعظمة بائدة لا بالكتان والريشة والأزميل بل بزج الشخص بلحمه ودمه. كان ينبغي بعث مدينة نُيرنبيرغ القديمة كما تسنّى لها أن تعرض نفسها في تشكلات بشرية متحركة وكما كانت في عهد الفارس الأخير، القيصر مكسيميليان الأول، حين احتفل فيها بأيام الأعياد وكرم ابنها البار ألبريشت دُورر(*) بأرفع الأوسمة والرموز. نشأت الفكرة في رأس شخص واحد إلا أنها ما لبثت أن تلقفها ثمانمئة رجل وشاب ومهتم بالفن من جميع المستويات ثم أُعدت ونقحت بصفتها مادة تصنيعية صالحة للإعداد والتهذيب كما لو أن الأمر يقتضي إنجاز عمل للأجيال المقبلة؛ ونما في أثناء الإعداد الموضوعي والشامل مزاج مشجع وأنس فاقتهما شدة الفرحة بيوم الاحتفال، غير أنهما بقيا في الذاكرة جزءاً محبباً ومبهجاً للجميع.

توزع موكب الاحتفال إلى ثلاثة مواكب رئيسية، ضم الأول منها مواطني نُيرنبيرغ وأهل الفن وأرباب المهن والصناعة، في حين ضم الثاني القيصر مع الأمراء وفرسان الرايخ والمحاربين، وضم الثالث جماعة من المتنكرين على الطراز القديم، وذلك على النحو الذي عُرض فيه الموكب الاحتفالي من قبل مدينة الرايخ المهمة أمام الضيف الجاري تتويجه. في هذا الجزء الأخير، الذي تصح تماماً تسميته في حقيقة الأمر حلماً في داخل الحلم، اخترنا نحن الثلاثة موقعنا لكي نسير مع السائرين بوصفنا تكوناً خيالياً مزدوجاً في صورة ظل الماضي.

(*) الرسام الشهير، المترجم.

كان من شأن الجدية والفخامة الاحتفالية، اللتين اتسم بهما المشروع منذ البداية، أن سمح بمشاركة العنصر النسائي؛ نساء، بنات، عرائس الفنانين وصديقاتهن من مدن أخرى جهزن وفقاً لذلك ملابسهن الملائمة للاحتفال، وكم سر الرجال ببدء صفقة مهمة اعتماداً على الكتب القديمة الخاصة بالأزياء وكم حرصوا على أن تُفصل وتُجمَّع الأقمشة المخملية والمذهَّبة بشكل صحيح ومناسب، أقمشة القصب والديباج الثقيلة والأقمشة الشفافة العطرة من أجل القدود الممشوقة؛ وأن يُجدل الشعر أو يُنشر على الأكتاف بطريقة ملائمة وتتخذ قبعات الريش والقلنسوات وكل أنواع أغطية الرأس الكبيرة والصغيرة شكلاً وطرازاً وتأخذ أمكنتها بصورة جيدة. إلى هؤلاء المغمورين بالسعادة والفرح انضم أيضاً صديقاي إيريكسون ولويس وسار كل منهما على طريقته على درب حب اختارها لنفسه.

لدى إجراء القرعة السنوية، التي كانت مرتبطة بمعرض الرسم، كان إيريكسون باع واحدة من لوحاته الصغيرة وربحتها أرملة أحد صناع البيرة الكبار التي لم يُعرف عنها اهتمامها بالفن، بل كانت تشارك في أمور كهذه لمجرد أداء واجب اللياقات المتبعة عند أغنياء الناس. وبما أنه حدث في أغلب الأحيان أن بيعت أشياء رابحة كهذه بأبخس الأثمان إلى تجار متطفلين، فقد حاول الفنانون في هذه الحال استرجاع عملهم الفني من أجل أن يربحوا هم ذاتهم ما قد يترتب على قيامهم بعملية البيع مرة أخرى. إيريكسون كذلك دفعته جرأته وآماله لدى تخيله فرصة من هذا النوع إلى محاولة الحصول على لوحته من جديد بسعر مخفض لكي يبيعها مجدداً فيوفر على نفسه عندئذ جهد ابتكار لوحة صغيرة جديدة وتنفيذها. لأنه كان متواضعاً ولم يَرَ أن قيام العالم مرتبط بتعذر قابلية جده واجتهاده للنفاد. فقصد إذاً بلا إبطاء أو تردد منزل الأرملة الرابحة ووقف حالاً في الصالة الأمامية من مقر سكنها الذي بدا تجهيزه شاهداً على صحة الإشاعة عن غنى صانع البيرة المتوفى. هنا أخبرته دون تمهل خادمة عجوز كان سبق أن أفصح لها عن سبب زيارته بأن السيدة

ترغب بكل سرور في التخلي عن اللوحة، ولكن حبذا لو يأتي مرة أخرى للحديث معها عن هذا الموضوع. وبما أنه كان بعيداً أشد البعد عن التحسس من خضوع وازدراء كهذين فقد ذهب إيريكسون إلى هناك مرة ثانية وثالثة ولم يشعر بشيء من الذهول والحنق إلا حين أخبرته الخادمة أخيراً بأن السيدة المرتاحة على استعداد لبيع اللوحة بربع القيمة المقدرة وتخصيص ثمنها لفقراء الناس؛ وحبذا لو تفضل السيد الرسام، كيلا يكلف نفسه عناء مزيد من الجهد، بالمجيء لأخذها في اليوم التالي بصورة مؤكدة وإحضار النقود معه. في أثناء ذلك وجد مواساة له في فرصة التوقف في كل الأحوال عن الرسم لمدة ربع عام وترقب أحوال الطقس إن كانت تعد بأيام صيد مواتية وعلى ذلك الأمل شق طريقه إلى بيت السيدة للمرة الرابعة.

قادته العجوز، التي لا يمكن تجنبها، إلى غرفة خدمتها الصغيرة وتركته واقفاً فيها لكي تُحضر له ذلك العمل الفني الصغير، إلا أنه تعذر إيجاده في أي مكان؛ فهرع في كل الأرجاء المزيد ثم المزيد من المستخدمين، طباخة ووصيفة وخادم، عربجي وبحثوا في المطبخ والقبو والحجرات والكراجات. وأخيراً استدعت الضوضاء الأرملة، التي كانت نوت في معرض تقويمها للوحة الصغيرة أن تجد لها مشترياً صغيراً وذا فاقة ولكنها حين رأت الآن إيريكسون القوي واقفاً هكذا بضخامة وأبهة وشعره الذهبي يلمع متدلياً على كتفيه العريضين اعتراها ارتباك شديد ووقعت في حيرة خصوصاً أنه، إذ استيقظ من ابتسامة هادئة، رمقها بنظرة ثابتة ومكشوفة وكأنها خيال تراءى له. ولكنها كانت تستحق أيضاً إطالة النظر إليها؛ فقد حباها الله اللون الوردي الذي ينم عن الصحة الجيدة والإقبال على الحياة، لم تكن تبلغ الرابعة والعشرين من العمر، حسن التناسق في قدها وأعضاء جسمها وصل إلى أوجه، شعرها حريري بني اللون وعيناها بنيتان ضاحكتان، بهذه المواصفات يمكن عدّها باختصار مفيد شخصية أفروديتية بكل معنى الكلمة، شخصية تعيها صاحبتها تماماً وتصونها بسياج من الأخلاق والعادات النبيلة.

لكي تضع حداً للدهشة والحيرة المتبادلتين دعت المحمرةُ خجلاً وارتباكاً ضيفها الرسام بعد استحضار تركيزها العائد إليها إلى الدخول إلى الغرفة وهناك حيث وقفا جنباً إلى جنب اكتشف الضيف مكان الصندوق الصغير، الذي كانت اللوحة وضعت في داخله وكان استخدم مسنداً للأقدام تحت طاولة مكتب الأرملة التي لم تُلق بالها إليه أو نسيته.

قال إيريكسون: "يا إلهي، ها هي ذي اللوحة!" وأخرج الصندوق الصغير من تحت الطاولة. لم يسبق للصندوق أن فُتح ذات مرة، لأن غطاءه كان لا يزال ملتصقاً به بسهولة مع وجود براغٍ مفكوكة. أزاح إيريكسون الغطاء بقليل من الجهد فلمعت اللوحة الصغيرة عند ذلك في إطارها، الذي كان صُنع وفقاً لطراز قديم زاخر، بكل انتعاش ونضارة في وضح النهار. في أثناء ذلك كانت السيدة الشابة عقدت النية على أن تدرك بسرعة وضع الأمور ورغبت أولاً في أن تتخلص من الخجل، الذي قد يعتريها جراء تعاطيها مع أمرٍ فني بأسلوب مهمل. فقالت وقد احمر وجهها من جديد خجلاً وارتباكاً إنها في الواقع لم تكن تعرف ما الأمر وبم يتعلق؛ ولكن الآن، وإن كانت غير ملمة بمعرفة فنية كافية، يبدو لها أن هذه اللوحة الصغيرة ذات قيمة باهرة وتظن أنها قد توجه إهانة إلى مبدعها إن هي لم تطلب على الأقل نصف القيمة المقدرة لشرائها. بدافع قلقه من أن السيدة قد ترفع السعر من جديد مرة أخرى، سارع إيريكسون إلى إخراج محفظة نقوده ووضع القطع الذهبية على الطاولة في حين غرقت السيدة أكثر فأكثر في تأمل ذلك المنظر الطبيعي البسيط في اللوحة بعناية واهتمام أكبر من ذي قبل وجالت بعينيها متنزهة في ربوع الحقل الصغير المشمس وكأن أمام ناظريها برّ خليج نابولي وبحره. بعد ذلك اشرأبت بعنقها ونظرت إلى الأعلى كالخجلى ثم تابعت قائلة: كلما نظرت إلى اللوحة، ازددت إعجاباً بها، وإنه لا بد لها الآن من أن تطلب كامل المبلغ الذي يشكل سعرها.

تنهد إيريكسون ثم عرض ثلاثة أرباع السعر لكي ينقذ على الأقل ما قد يمكن إنقاذه. ولكن السيدة لم تتورع أبداً عن الإصرار في الخلف بوعدها ثم أعلنت أنها تفضل الاحتفاظ باللوحة على أن تعطيها بأقل من قيمتها. فرد إيريكسون: "في هذه الحالة قد يكون من القسوة بمكان أن أحرم عملي الفني الصغير من حقه في الإقامة في مكان جيد كهذا؛ وأيضاً لم يعد ثمة ما يدفعني إلى التمسك بصفقة لا تدر علي أي ربح!".

بذلك أعاد نقوده إلى محفظته وهم بالانصراف، ولكن الجميلة، وهي تنظر إلى اللوحة، رجته مع بعض الارتباك أن ينتظر للحظة. والآن فحسب قدمت له كرسياً لكي تكسب الوقت من أجل إتمام تكفيرها عن الإساءة التي ألحقتها برجل من هذا النوع. وأخيراً فكرت بمخرج هو غاية في اللياقة والتهذيب فسألت إيريكسون بكلمات لبقة إن كان بإمكانها أن تطلب منه رسم لوحة أخرى مماثلة، تريح العين وتشعرها بالمودة والطمأنينة بحيث يكون لكل عين على نحو ما مستراح خاص بها وذلك حين تجلس إلى طاولة مكتبها، الذي تفكر في تعليق اللوحتين فوقه. هذا التخريف البصري كان من شأنه أن أيقظ لدى الرسام انشراح صدر عميق وبهيج وعلى الرغم من أنه كان أتى بهدف التقليل من عمله لا التكثير منه فقد أجاب عن سؤالها طبعاً بالقبول والالتزام، ولكن الأرملة قطعت فجأة الحديث وغادرت الرسام وهو في وضع من التشتت المحيِّر.

كان إيريكسون حكى لنا في مساء اليوم ذاته مجرى الأحداث حتى ذلك الحين عادّاً إياه مغامرة جميلة؛ ولكنه فيما تلا من الوقت لم يعد إلى ذكر الموضوع بل أمعن في التزام صمت تام حوله. ومع ذلك فقد قرأنا ما يدور في خاطره من جراء إشارة عابرة وذلك حين تحدث ذات يوم عن اللوحة الثانية التي أنجزها ولم يستطع تجنب ذكر من طلبتها منه لا بل أورد بلا حذر اسمها الشخصي، روزالي. نحن الآخران تبادلنا النظرات بصمت؛ لأننا لم

نشأ، بصفتنا صديقين مخلصين له ومتعاطفين معه بقدر ما يستحق، أن نعكر صفوه في أثناء سيره على دروبه.

تحدرت روزالي من أسرة غنية كانت تعمل في صناعة البيرة، ووفقاً لعرف قديم في الأسرة كانت الفتاة الشابة رُبطت برجل من المهنة نفسها لأن لأساس المشروب الوطني الكلاسيكي بحد ذاته شأناً عاماً وأهمية كافية لحمل تقاليد من هذا النوع. ولكن بعد أن فتكت فجأة حمى خطرة بالسيد صانع البيرة القوي رأت الأرملة نفسها متحولة دفعة واحدة إلى وضع من الحرية التامة والاستقلال، الذي امتزج به الوعي الشخصي الآيل إلى النضج في غضون ذلك. وكانت أحاطت نفسها بادئ ذي بدء، وقد أوتيت ذلك الجمال غير العادي الذي ظهر نادراً كما ظهر أيضاً كاملاً على حد سواء وإذ كانت تشعر في الوقت ذاته انطلاقاً من الأعماق بالحاجة إلى عيش ملؤه التناسق والانسجام، أحاطت نفسها بحواجز خفيفة لكن قوية وقائمة على الخلو من الغايات والأهداف لا بل الاستسلام لكي تتحاشى كل تسرع وعنف يجلبان الندم، لكن ربما أيضاً مع تحفظ الاختيار الحاسم ريثما تأتي اللحظة المناسبة لذلك. وقد أتت على حين غرة بظهور إيريكسون على الساحة؛ وفي حال من إدراك تلك اللحظة والحدس بها لم تفوت روزالي على نفسها الفرصة من الوهلة الأولى، ولكن تصرفت بعد ذلك بكل هدوء وحيطة وبالتدريج أعطت إيريكسون الفرصة للظهور في بيتها وإسدائها النصائح في كل شيء؛ كان ذلك يتم من تلقاء ذاته دون تصنع أو تكلف لأنها كانت تهم بتغيير أثاث منزلها ومكان إقامتها، المتسمين بالعرضية وتعدد الألوان وتبسيطهما لكن إغنائهما أيضاً. كانت تلاحظ بسرور خفي الثقة الهادئة في حلول إيريكسون ومساعداته وكيف كان يظهر في مكانه تماماً إذا ما استطاع الحصول على الوسائل اللازمة والمكان اللازم بطريقة تفي بالغرض. لم تبق خافية عليها حقيقة أنه كان جيد الأصول والتربية، بقدر ما أمكنها تقدير ذلك اعتماداً على خبرتها الخاصة في هذا المجال؛ وعلى هذا النحو تابعت مسيرتها خطوة خطوة بنية اصطياد

الدب، الذي سبق أن كانت أسيرة له. كانت تدعو إلى بيتها ضيوفاً أكثر لكي تتمكن في أغلب الأحيان من دعوته هو ورؤيته على المائدة؛ وسمحت له باصطحاب أصدقاء معه بحيث تسنّت لي أنا أيضاً فرصة المجيء إلى بيتها مرة أو مرتين وعاد علي بالنفع أنني كنت، تبعاً لرغبة أمي، لا أزال أملك دائماً بذلة معتنى بها ومخصصة ليوم الأحد. بالمقابل لم يصطحب معه إلى هناك صديقنا لُيس حتى ولو مرة واحدة وذلك بسبب الألبوم المغلق، كما أسرَّ إلي ذات مرة ووافقته على ذلك وكانت تعلو وجهي سيما الجد. أكاد أظن أنني آويتُ نوعاً من الغرور النفاقي فيما يتعلق بتميزي، وكنت فخوراً بأنني لم أنزلق في يوم من الأيام إلى وضع من الحفاظ على مناقبي عن طريق الغنى والحرية ومعرفة العالم والشخصية الكفء، لأن مغامراتي السابقة مع يوديت لم أقدر أبداً قيمتها؛ وعشت في تلك الحالة التي نسيت فيها إلى زمن بعيد ما يعرف باسم التصرفات الصبيانية ودنت بقسوة متطاولة كل ما لم أعشه من قبل.

حين أعدت العدة الآن للاحتفال بعيد الفنانين وصلت العلاقات بين روزالي وإيريكسون إلى مستوى أنها تمكنت إلى حد ما من أن تظهر في الاحتفال بصفتها شريكة له، كما يلبي المرء الدعوة تقريباً إلى حفلة رقص.

على طريق آخر سار لُيس في طلب رفيقته إلى الاحتفال. ففي حي قديم من داخل المدينة في ساحة جانبية صغيرة قام بيت ضيق الاستطالة مبني من أحجار قرميد مسودَّة بثلاثة طوابق فقط كل منها بعرض نافذة واحدة مما لا يستهان بها طبعاً. لم تكن النوافذ مقسمة بوفرة ضمن أسوارها فحسب، بل كانت وهي تشهق في الأعالي مرتبطة في ما بينها بزخارف أحاطت بدورها بصور جدارية معتمة. هكذا شكل ذلك البيت برجاً صغيراً أو قل نصباً تذكارياً ممشوق القد كتلك النصب التي كان يحلو لفناني القرون الغابرة بناؤها لأنفسهم. فوق باب البيت امتدت إلى الأعلى صورة للعذراء من مرمر أسود على هلال مذهَّب ووصلت إلى الطابق الأول وعلى الباب كانت لا تزال تلمع مطرقة الباب الأصلية التي اتخذت صورة عروس بحر منحنية بجرأة إلى

الخارج. اللوحة السفلى فوق النافذة الأولى صورت بيرزيوس وكيف حرر أندروميدا من التنين، وتلك اللوحة فوق النافذة الثانية عرضت معركة القديس جورج الذي خلص ابنة الملك الليبي من سطوة التنين وعلى الجدار المدبب للجملون رُسم الملك ميخائيل، الذي قتل بدوره أيضاً غولاً طعناً بالحربة في سبيل العذراء التي فوق باب البيت. قبل أعوام كثيرة، حين كانت آثار فنية من نوع ذلك البيت الصغير الرشيق تُحتقر وتهدَّم أو تُطلى، كان بنَّاء اشتراه بثمن بخس واعتنى به وتركه لابنه، الذي كان رسام صور شخصية من المستوى المتوسط وكان في الوقت ذاته – نظراً إلى قوة بنيته – عضواً احتياطياً في حرس النبَّالة التابعين للملك. في ذلك البيت القديم عاشت أرملة النبَّال الرسام مع ابنتها براتب قليل مخصص للأرامل إضافة إلى مبلغ محدد من المال كان يدفع لها سنوياً لقاء امتناعها عن بيع البيت أو تدمير أي شيء في واجهته أو تغييره دون موافقة السلطات العليا.

كانت الابنة، واسمها أغنيس، هي النموذج الأصل الأول لتلك الرسمة الأخيرة في ألبوم لويس، الخبير بالجمال الذي كان اطلع بادئ ذي بدء على البيت وكان اكتشف أيضاً بعد أن اطّلع على داخله تلك الجوهرة التي احتواها الصندوق الصغير؛ لم تقتصر الأم على أنها كانت ترعى جمال الطفلة والبيت على حد سواء بل جمالها هي ذاتها كذلك بقدر ما كانت لا تزال تتألق في صورة بالحجم الطبيعي من صنع زوجها المتوفى. بعنف مشرئب وبثلاث خصل من الشعر على كل جانب من جانبي الجبين سيطرت الأم في وميض وضعها العروسي على الحجرة، وأمام الصورة وقفت دائماً شمعتان لم يسبق لها أبداً أن اشتعلتا. وعلى الرغم من الرسم المسطح والهزيل فإن الجمال السابق ظل ساري المفعول؛ وبذلك لم يُعرف إن كان ظهور بعض القسوة يُرد إلى خلل في مهارة الرسام أو أن شخص المرأة هو السبب؛ ومع ذلك فقد كانت بهذه الصورة لا تزال تحكم البيت دائماً وكان كافياً أن ترمقها بنظرة لدى مرورها بها لكي تحد من غرور ابنتها بجمالها. هذه النظرات تكررت

خلال اليوم بانتظام، مثلها مثل تغطيس أناملها في وعاء الماء المقدس الموجود إلى جانب باب الحجرة. ولكن من الروح، التي أفلتت منها في تتابع الصيرورة دون أن تتوقف، كان ظهر من جديد في الابنة جزء متقلب طبعاً وهادئ وعنصري كالجسد الذي احتواها.

حين قدم نفسه لويس إلى العائلة بلياقات مرنة ومريحة وألف الجو إلى حد بعيد بحيث سُمح له برسم تلك الفتاة، لا في الكتاب سابق الذكر بل بادئ ذي بدء بحجم أكبر على ورقة تصميم خاصة، غير أنه لم يجد الشجاعة ولا الدافع لأن يتم الدورة المعتادة فاقتصر الأمر على التدوين في الألبوم فحسب الذي قام به بحب وعناية بعد أن كان أنجز تصميم الصورة من قبل. ومن حين لآخر كان يقضي مع السيدتين أمسية فيذهب معهما مرة إلى المسرح أو إلى متنزه وحيثما كانوا كان مظهر أغنيس الغريب يثير رضاً عاماً وذا عفة في الوقت ذاته بحيث لم يُسمع حولها أي تشنيع أو إساءة فهم. كل حركاتها الهادئة كانت ببساطة واختصار تتجه فقط إلى الغاية التالية فكانت لذلك مفعمة بالظرف والكياسة؛ عيناها كانتا تتلألأان، إذا ما أثارتها جاذبية من نوع ما، بالبراءة المخلصة الصادرة عن حيوان صغير لم يتعرض بعد إلى أي سوء معاملة؛ وهكذا حدث أن انزلق لويس، بدلاً من أن يبدأ بواحدة من مغامرات حبه السابقة، من غير عمد إلى مخالطة مشرفة وأكثر جدية من ذي قبل وتحولت هذه المخالطة إلى مطلب لم يكن معروفاً حتى ذاك الحين. كان ارتباكه يزداد حين كانت الأم تروي، في أثناء غياب ابنتها بغية التغني بمكارم أخلاقها، كيف أن هذه الابنة لم تقوَ طول حياتها على اقتراف أي كذبة مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت بقصد المزاح، وكانت منذ سني طفولتها الأولى تعترف من تلقاء ذاتها بكل ارتكاب يصدر عنها بهدوء، إن لم يكن بفضول متطلع إلى النجاح بحيث بدت العقوبة أمراً مستحيلاً أو لا لزوم له. بعد ذلك لم تستطع الأم، لكي لا تعدّ هي ذاتها مفتقرة إلى الذكاء، أن تغفل التلميح على طريقتها بأن ابنتها إن لم تكن طبعاً واحدة من أكثر البنات قاطبة ذكاء وفطنة

فهي بالمقابل أكثر صدقاً وهي أيضاً حسنة السريرة تماماً. كان لويس عرف تمام المعرفة أن أغنيس أكثر ذكاء من الأم ولو أنها لم تكن تدرك ذلك بعد؛ وقد تفوقت عليها بدرجة لم تكن أقل فيما تعلق بالكفاءة والمهارة؛ فقد لاحظ أنها تنجز أعمال البيت بسرعة ومن دون جلبة، دون أن تكسر أي آنية؛ في حين كانت الأم تقوم بعمل كل شيء ببذل لا يستهان به من المشي ذهاباً وإياباً والكلام والجعجعة وكثيراً ما أسفرت ممارساتها عن أصوات ارتطام أوان مكسرة. إثر ذلك اعتادت الابنة أن تبدي في مثل حالات كهذه ملاحظة مسوّغة أو مواسية وشبيهة بنكتة هي غاية في اللطف والرشاقة، ولكنها في الوقت ذاته تحمل معنى موضوعياً صرفاً بجدية عميقة وتُروى على هذا الأساس. ولكن أي نوع من الروح أو الشخصية تحلت به هذه المخلوقة، ذلك بقي مجهولاً عنده. وحين كان الناس يهنئونه على اكتشافه ويعلنون أن اغنيس سوف تتمخض عن أفضل زوج رقيقة لرسام فنان يتسنّى إيجادها ذات مرة، فهي هادئة ومنسجمة مع ذاتها ومعين لا ينضب لحركة جميلة، كان يهز رأسه ويقول: لا أستطيع أن أتزوج واحدة من لعب الطبيعة.

مع ذلك استمر في زياراته البيت الضامر الذي سكنت فيه تلك الفتاة الضامرة وتجنب في أثناء ذلك أن يفعل أو يقول ما يدل على أنه عاشق. تراءت له عينا الفتاة كمياه هادئة، صحيح أنها لا تقاوم غير أنها محفوفة بالأخطار حتى عند سباح ماهر ما دام المرء لا يستطيع أن يعرف أي نباتات أو حيوانات تختفي في أعماق تلك المياه. وإذ كان يعاني ضغوطاً نفسية من هذا التصور الغامض عن أخطار كهذه فقد وقع في حالة من القلق غير العادي وصار يطلق من حين لآخر تنهيدة عميقة دون أن يعلم بذلك؛ ولكن هذه التنهيدات أججت وهجاً خفياً لميل قلبيٍّ كان اشتعل منذ وقت طويل في أعماق الفتاة التي كادت تبلغ سن السابعة عشرة وحولته إلى لهب حي. كان بإمكان كل إنسان أن يرى هذه النار اللطيفة ورأيناها نحن أيضاً، أعني صديقيه، وذلك حين كان لويس يقيم من حين لآخر ضيافة مسائية في بيت السيدتين

ويدعونا إليها لكي لا يكون هناك وحده ولكي لا يهجر في الوقت ذاته أيضاً ذلك البيت. كنا نرى كيف كانت الفتاة باستمرار تتوجه بعينيها نحوه ثم تتحول عنه بحزن وتعود باستمرار فتقترب منه من جديد في حين كان يجبر نفسه على ألاَّ يلاحظ حركاتها هذه، ولكن كان بادياً للعيان أنه تراجع مئة مرة عن أن يلمسها بيده المرتجفة. بالمقابل، إذا ما أفلحت مرة في أن تتظاهر بأنها تتفهم وتقدر أسلوبه الأبوي الجاف فتبقي يدها في أثناء ذلك ملقاة على كتفه لفترة من الزمن أو حتى تسند جسدها إليه للحظة كطفل يتصرف على سجيته وعفويته، عندئذ كانت السعادة تشع من عينيها فتبقيها طول المساء في حال من الفرح والرضا.

هذه العلاقة بدأت تصبح صعبة وموضع شك عند الجميع ما عدا الأم، التي أحست بالارتياح من جراء انتعاش الحركة في بيتها ولم تشك في أن لُيس سوف يمثل أمامها ذات يوم يطلب يد ابنتها بصورة جدية، تحديداً لأنه متحفظ إلى حد كبير. وإيريكسون أيضاً، كونه منهمكاً في الانشغال بوضع آخر، لم يحظ هذا الموضوع باهتمام كبير منه ولا سيما حين كنا نغادر معاً ذلك البيت اللطيف كان إيريكسون يذهب دون إبطاء إلى حال سبيله بينما اعتدت أنا أن أتمشى مع لُيس مرة إلى أمام بيته وأخرى إلى أمام بيتي وأتجادل معه أيضاً وأتنازع لمدة ساعات طويلة. صحيح أنني لم أجرؤ على أن أسائله علناً بشأن الفتاة لأنه في هذا الموضوع كان يتكلم باقتضاب، وكلما ازداد شعوراً بالتردد ازداد تصميماً على الظهور كواحد يعرف ما يفعل وما يجب أن يفعل. بالمقابل كنت أنا أحول الحديث إلى حوارات ميتافيزيقية لأنني كنت أربط الاستهتار، الذي كنت أتهمه به بآلام صادقة، بالإلحاد الذي كان يدافع عنه في ساعة متأخرة من الليل بكل حماسة وجنون وكنت أهاجمه بلا توقف. كنا نتحاور من حين لآخر لفترة طويلة وبصوت عال عبر هدوء الليل إلى حد أن حراس الليل في المدينة حذرونا من إزعاج المواطنين النائمين. ولكن فجأة، إبان الاستعدادات لعيد الفنانين، قاطع لويس ذات مرة حديثي الذي لاحظ تماماً

مقصده ومرماه وأعلن بكلمات هادئة أنه سوف يدعو أغنيس إلى أن تكون بصحبته في أثناء العيد وسوف يتوقف مجرى الاحتفالات وسيرها على ما سوف تتمخض عن بقاء العلاقة بينهما أو لا. وفي رأيه أن الناس الحيارى يخرجون عادة في مناسبات كهذه من أنفسهم ويكونون أكثر قدرة على التعاطي مع الأمور المصيرية مما هم في الأيام العادية. وعنده هو أيضاً أنه بحاجة إلى قرار حاسم عن طريق المصادفة تتوازن فيه تماماً قوة الرغبة والخوف من الخطيئة.

جمال أغنيس أينع مؤقتاً في أمل جديد حين وجه الحبيب إليها كلمة الخلاص، لأنها كانت تخلت في لحظة من الحزن العميق عن فكرة إمكانية مجرد وجودها إلى جانبه في بريق أفراح ذلك العيد، ولكنها لم تشأ أن تستدعي الخلاص وانصاعت بهدوء وخضوع لكل أوامره حين ظهر ومعه الأقمشة الوفيرة اللازمة لتفصيل ملابسها التي ستحيط بقدها الممشوق وتعبر عن تطور نموها إلى جمال متبلور بصفاء ونقاء. ولكن بينما كان هو منهمكاً في تمرير أمواج شعرها الأسود، التي كانت تكفي لرؤوس ثلاث فتيات، عبر يديه متفحصاً لأول مرة وترتيبها في أوضاع جديدة وكانت هي تضع رأسها تحت تصرفه بصمت من أجل القيام بذلك، قررت في داخل هذه الرأس الفتية بصمت ومهابة أن تتوق فقط إلى ضمه بين ذراعيها في اللحظة المناسبة وتربط حياتها بحياته إلى الأبد. هذه النية الجريئة تعذر أن تكون إلا من بنات أفكار مخلوق بسيط وبريء إلى حد الطفولة، لكن منزلق إلى حالة من الانفعال الشديد.

* * *

الفصل الثالث عشر

عيد الكرنفال من جديد

تحوّل أكبر المسارح في مقر الملك إلى صالة كانت اتسعت بإضاءة كاملة إلى العنصرين الأساسيين المكونين لجموع العيد: الممثلين والمتفرجين. وبينما انتظر جمهور المتفرجين متجمعاً في الشرفات والمقصورات وأخذ في غضون ذلك يتأمل في رونق زينته، تناهت إلى الأسماع من الصالات الجانبية ومن الممرات المكتظة همهمة جموع الفنانين المنهمكين بترتيب صفوفهم وتجمعهم. هنا تموجت الأجواء وتلألأت بمئات الألوان المتداخل بعضها ببعض. كل واحد كان ظاهرة غزيرة الدلالة وقائمة بذاتها وشخصاً مستقلاً قائماً بذاته أيضاً، وفي حين كان مظهره ينم عن وسامة وأناقة كان ينظر باغتباط إلى زميله التالي، الذي ظهر الآن في زيه الجميل أيضاً وسيم الطلعة وقويها إلى حد غير متوقع على الرغم من أن مؤسسي الاحتفال لم يتكونوا من ممثلين صامتين خاوين ومن أناس منغمسين في الملذات والمتع بل من شبيبة دفاقين كان ارتقى بهم الملاك الحامي إلى مستوى عالٍ، ومن رجال اكتمل نضجهم منذ زمن طويل في غمار عمل متقن فكان لهم حق شرعي في تمثيل أدوار الأسلاف الميامين. إضافة إلى الرسامين والنحاتين سار في الموكب بناؤون وسباكون ورسامون على الزجاج والبورسلان وحفارون على الخشب ونقاشون على النحاس وطباعون على الحجر وصانعو ميداليات وكثيرون آخرون من أوساط حياة فنية معزولة. في ورشات السبك كان ثمة اثنا عشر

تمثالاً للأسلاف من أجل قصر الملك، أُنجزت تواً، كل منها بعلو ثمانية أقدام ومرصع بالذهب المصهور. وسبق أن أُنجزت تماثيل كثيرة لحكام ورجالات فكر وطنيين وأجانب، على الخيل وعلى الأقدام، مع منحوتات لمساند أرجلهم، ووزعت في أرجاء العالم؛ وبدئ بمشاريع فنية ضخمة وجرى العمل في بيوت النار بعنف وقوة، كما في ذلك الفرن المخصص لأعمال السبك في فلورنسا حين صب الفنان بينفينوتو تمثال بيروزيس. كانت جدران بعيدة المدى طليت بمادتي الفريسكو والشمع؛ نوافذ عالية بقدر ارتفاع بيتٍ كامل ومطلية بطلاء متنوع حُرقت وجُمعت معاً لتشكل ناراً من الألوان كانت جديرة ببعث فن بائد من جديد والاحتفال به بالصورة اللائقة. وكان من شأن ما حافظت عليه مجموعات اللوحات من كنوز نادرة ومتعذرة التعويض على قماش من الكتان آيلٍ إلى الفناء أن نُقل في عملية استرجاع مستمر على يد عاملين متمرسين وبجد متواضع على ألواح من البورسلان وأوانٍ نبيلة بفن لم يثبت جدارته إلى هذا الحد إلا منذ وقت قريب. وما أضفى على كل حملة هذا العالم الفني من الفنانين الكبار والأصغر والمساعدين والتلاميذ قيمة عالية هو البريق الأكثر صفاء والنابع من النضج الشبابي الأول لمرحلة ندر أن تتكرر فرحتها المثالية الطابع في العصر ذاته، لا بل كانت أقرب إلى أن يحوم حولها هنا وهناك ظل خفيف من الإفساد والانحطاط. كان الجميع بما فيهم الفنانون الأكبر سناً لا يزالون شباباً لأن كل تلك الفترة كانت لا تزال فتية وكانت آثار مقدرة صرفة من دون شعور لا تزال قليلة الوفرة.

فُتحت الآن الأبواب، والبواقون والطبالون الذين بانوا بمظهر رنان أخفوا بصفوفهم الموكب المتزايد من خلفهم بحيث انتظر الناس بتفاؤل إلى أن أخلوا الساحة بتقدمهم إلى الأمام للانتشار الواسع. وتبعهم قائدان للموكب كانا يحملان شعار مدينة نُيرنبيرغ، نسر البتول على السترتين باللونين الأبيض والأحمر، ووراء هذين سار رئيس النقابة الحرفية الضخمة المعنية بشؤون الشعر والموسيقى بقده الأهيف الممشوق وعلى رأسه إكليل كبير من أوراق

الشجر وفي يده عصا مذهَّبة. أعضاء النقابة الحرفية الصالحون، كلهم علت هاماتهم الأكاليلُ، ساروا حاملين لافتتهم وفي مقدمتهم الشبيبة المغرمة بالتجوال والمرتدية ألبسة قصيرة، وتبعها كبار السن المتحلقون حول الشيخ الجدير بالاحترام، هانس ساكس، الذي ظهر بمعطفه الفرو الغامق اللون مثل حياة مكللة بالنجاح وحول هامته البيضاء أشعة شمس الشباب الخالد.

ولكن الأغنية البورجوازية كانت في ذلك الحين غنية وزاخرة إلى حد أنها كانت ترافق كل بطولة وفي المقام الأول أيضاً كانت تسير تحت لواء نقابة الحلاقين المارة الآن في الموكب وراء مقص وحوض لحية. هناك كان هانس روزنبلُيت، معلم القص والجز وشاعر الخبث والرموز والتجوال وكان معلماً خفيف الروح وذا حدبة معوجة وحقنة شرجية كبيرة في الساعد. وتبعه بخطوات كبيرة ذلك الرجل طويل الساقين هانس فولتس من مدينة فورمس، الحلاق والشاعر ذائع الصيت في مناسبات الكرنفال والمسرحيات الهزلية الذي كان بوصفه كذلك رفيق روزنبلُيت وملِهم هانس ساكس. حلاقان واسكافي قاموا على هذا النحو برعاية البرعم الفتي للمسرح الألماني.

كانت كل النقابات الأخرى غنية بالأغاني أيضاً، وقد توالت الآن في الموكب بثيابها وراياتها المحددة الألوان، نقابة صانعي البراميل وصانعي البيرة، اللحامون بلباس النقابة الأحمر والأسود والمزين بفرو الثعالب، الخبازون بالألوان القاتمة والبيضاء، صانعو الشمع بكل ظرافة بالألوان الخضراء والبيضاء والحمراء وصانعو الكعك المشهورون بثيابهم البنية الفاتحة والحمراء القاتمة؛ الحذاؤن الخالدون بالثياب السوداء والخضراء كلوني سوء الطالع والأمل، والخياطون برقعات ملونة. وبظهور نساجي الدمقس والسجاد رأى الناس معلمين مشهورين في مجال هذه الصناعة رفيعة المستوى، فقد أنجز هؤلاء السجاد والأقمشة الفخمة، التي زينت بها بيوت كبار التجار وذوي المال والجاه.

النقابات التي ظهرت الآن في الموكب كلها كانت ممثلة برجال أقوياء ومبدعين في مجالي الحرف والفن. وتوزع النشاط بين الصناع، الذين برز

من بينهم بعض الصبيان الأكفياء كما توزع أيضاً بين المعلمين. وسبق للخراطين أن ضموا إلى زمالتهم أيضاً هيرونيموس غيرتنر، الذي سبق أن نحت بكل ما أوتي من دقة التمعن والتأمل الطفلي من قطعة صغيرة من الخشب شجرة كرز عدّها نوعاً من تمجيد الله فأتقن صنعها بحيث كانت تتأرجح على ساقها الخشبية التي تجلس عليها ذبابة برقة ونعومة بحيث كان جناحاها وأقدامها في حركة دائمة حالما تتعرض للنفخ، مع أن غيرتنر كان في الوقت ذاته معلماً ذا خبرة واسعة في مجال أعمال المياه والنوافير الفنية.

من وفرة الظواهر المضطربة، التي كان لكل منها على وجه التقريب أسطورة طريفة، لا تزال تعيش في ذاكرتي الآن بعض منها ولكنها تبقى قليلة مقارنة بالكل. بين الحدادين، وكانوا يلبسون ثياباً بلون أحمر وأسود كالنار والفحم، سار المعلم ميلشيور الذي صنع طابور المدافع الحديدية الكبيرة، وسار بين صانعي البنادق الحرفي ذو العقلية المبدعة الغنية بالابتكارات هانس دانر، الذي أخرج من المعادن آنذاك كميات كبيرة من البرادة كما لو أن بين يديه خشب طري كما سار بينهم أيضاً أخوه ليونارد، مخترع البراغي الصالحة لتهديم الجدران. ورافق الموكب أيضاً المعلم فولف دانر، مخترع الأقفال من حجر الصوان؛ وإلى جانبه بُوهايم، رئيس سباكيّ المدافع الذين ذاع صيتهم في كل أرجاء العالم بفضل إنجازاتهم الباهرة في مجال صناعة وترصيع سبطانات المدافع والمدافع ذات النيران المستقيمة ووحدات القياس والمدافع الثقيلة.

نقابة ملمعي السيوف وصانعي الأسلحة ضمت وحدها عالماً متشعباً من عمال المعادن المتميزين بمهارات فنية. ملمع السيوف، حداد الغطاءات، صانع الدروع، كل واحد من هؤلاء أتقن أيما إتقان صنع ذلك الجزء من التسلح الحربي، الذي تطابق مع اسمه، وحافظ بذلك على كيان فني بالغ الأثر. وبصورة جديرة بالإعجاب ذاب التقسيم الحاد في الحرية والتنوع، الذي أحرز بموجبه رجال النقابات البسطاء من جديد تقدماً إلى أهم الأعمال والاختراعات

وكان الكل مرة أخرى قادراً على إنجاز كل شيء، وغالباً دون الإلمام بالقراءة والكتابة. مثلاً حداد الأقفال هانس بولمان، صانع محركات الساعات الكبيرة حسب أنظمة الكواكب ومتمم تلك المحركات أندرياس هاينلاين الذي صنع أيضاً ساعات صغيرة كانت توضع في رؤوس العصيّ المخصصة للتنزه؛ بيتر هيلي أيضاً، المخترع الحقيقي لساعات الجيب، سار هنا تحت الاسم القوي لمعلم متخصص بصناعة الأقفال.

كما أني أرى أيضاً بين الحفارين على الخشب قزماً في معطف صغير من فرو القطط، هيرونيموس رُوش صديق القطط، الذي تجمعت في كل مكان من حجرته الهادئة تلك الحيوانات ذات الأطوار الغريبة. ومباشرة خلف رجيل القطط ذي اللباس الأسود الرمادي أرى المظهر المضيء لصانعي الفضة بلباس سماوي وأحمر اللون وعباءة بيضاء وصائغي الذهب بلباس قرمزي ومعطف من الدمسق الأسود موشىً بالذهب بوفرة وعناية. لوحات فضية مصورة وأطباق مرصعة بالذهب حُملت في مقدمتهم؛ هنا ضحك الفن المميز المعالم في مهده الفضي ورأى فن النقش على النحاس المولود حديثاً جذوره المعدنية بمعزل عن الحفر على الخشب الذي سار جنباً إلى جنب مع طباعة الكتب الضاربة إلى السواد.

كما أني أرى أيضاً رجلاً ظريفاً حركت قصته العجيبة مشاعري بوجه خاص، أراه بين محترفي أعمال النحاس: سبياستيان ليندنيدأست، الذي صنع أوانيه وأطباقه النحاسية بطريقة جميلة ونفيسة بحيث منحه القيصر امتياز ترصيعها بالذهب في حين لم تتح لغيره فرصة كهذه. كم كانت تلك علاقة جميلة بين رجل حرفي والرجل الأرفع في الأمة: هذا الترخيص برفع معدن ضئيل الشأن إلى مرتبة الذهب من أجل الحصول على الشكل النبيل!

وبعد ليندنيدأست مباشرة رأيت رجلاً ذا مزيج في منتهى الغرابة: إنه فايت شتوس. كان يصنع من الخشب صوراً بديعة للعذراء وللملائكة ويلبِّسها بطريقة لطيفة بالألوان والشعر الذهبي والأحجار الكريمة بحيث كان شعراء

تلك الفترة يتغنون بأعماله بحماس لا نظير له. وكان إلى ذلك رجلاً معتدلاً وهادئاً، إذ لم يحتسِ الخمر والتزم بكل جد ونشاط عمله مبدعاً دائماً لوحات ورعة جديدة من أجل مذابح القرابين في الكنائس. لكنه كان يعمل في الليل بكل جد واجتهاد في تزييف العملة لكي ينمي ثروته وحين ضُبط متلبساً غُرزت علناً قطعة حديدية متوهجة في وجنتيه فاخترقتهما، ولكن هذه المهانة لم تُثن له عزيمة فعاش بعد ذلك على مهل ووصل إلى سن الخامسة والتسعين منشغلاً أيضاً بحفر الخرائط البارزة لمناظر طبيعية تضم مدناً وجبالاً وأنهاراً؛ كما عمل أيضاً إضافة إلى ذلك في الرسم والنقش على النحاس.

ولكن برز الآن بصفته رفيقاً كاملاً وكلاسيكياً الحرفي بيترفيشر تحت الاسم البسيط لسبَّاك في قطاع النحاس الأصفر والبرونز مع أبنائه الخمسة الذين اشتغلوا في مجال المعادن الخام اللامعة. كان منظره بلحيته المخصَّلة بقوة وقبعته الدائرية من اللباد ومئزره الجلدي شبيهاً بهيفيستوس(*) ذاته. كانت عينه الواسعة بلطف تعلن أنه أفلح في أن ينصب لنفسه تمثالاً خالداً في قبر القديس سيبالدوس زاخراً بعمل سنين كثيرة ومضاء ببريق الحياة الإغريقية، ويقيم مقراً لتماثيل كثيرة من شأنها أن تحرس في ذلك المكان المضيء التابوت الفضي الخاص بالقديس. وهكذا أقام المعلم الفنان ذاته مع أبنائه الخمسة ونسائهم وأطفالهم في بيت واحد وفي الورشة الفنية ذاتها، مبهوراً برونق أعمال جديدة.

شخص لم أكن معجباً به أقل بكثير من بيتر فيشر، كان يسير في موكب البنائين والنجارين، هوغيورغ فيبر؛ كان يخطو إلى الأمام بقامته الطويلة والقوية وكان ثوبه الرمادي اللون بحاجة إلى عدد هائل من أذرع القماش. كان بالطبع مبيد غابات؛ فقد اشتغل مع عماله، الذين كان يختارهم جميعاً من طويلي القامة وأقوياء البنية كما كان هو ذاته، اشتغل مع هؤلاء العمالقة بقوة

(*) إله النار وفن الحدادة عند قدماء الإغريق، المترجم.

في قطع الأشجار والكتل الخشبية بطرق معقولة واصطناعية ولم يكن له مثيل، ولكنه كان رجلاً شعبياً عنيداً وصنع للفلاحين إبان فترة حروبهم مدافع من أشجار الغابات الخضراء. لهذا السبب كان عليه أن يواجه بالقرب من بلدة دينكلسبُيل حكم الإعدام؛ إلا أن مجلس مدينة نُيرنبيرغ نجاه من ذلك نظراً إلى فنه وفائدته، وعينه رئيساً لنجاري المدينة. لم تقتصر إنجازاته على بناء دعامات السقوف والدعامات الأفقية الأساسية، بل امتدت لتشمل آلات الطواحين والرافعات والعربات الضخمة حاملات البضائع الثقيلة، وقد وجد لكل عائق ولكل كتلة وزنية حلاً مناسباً في إطار حساباته العقلية الدقيقة، ومع ذلك كله لم يكن ملماً بالقراءة ولا بالكتابة.

وهكذا وبما أنَّ عصراً بأكمله قد اختصر، فقد توالت مجموعات من أشخاص معبِّرين، كانوا جميعاً خاضوا غمار الحياة بكل شجاعة، إلى أن اختُتم هذا الجزء من الموكب بمرور الرسامين والنحاتين وظهور الرسام الشهير ألبريشت دُورر. وأمامه مباشرة سار وصيفه حاملاً درع الشعار، الذي يُظهر على أرضية زرقاء ثلاثة دروع صغيرة وكان منح من قبل القيصر مكسيميليان إلى الفنان الكبير دُيرر بصفته درعاً للقطاع الفني بأسره. دُورر ذاته مشى بين معلمه فولغيموت والنحات آدم كرافت؛ خصل الشعر المكورة ذات اللون الفاتح، التي غطت رأس الرجل المؤدي دور دُورر، تدلت من جانبي الرأس مفروقة بالتساوي تماماً على هذا النحو إلى الكتفين العريضين المغطيين بالفرو، كما في الصورة الشخصية الشهيرة التي كان رسمها الفنان لنفسه؛ وبمهارة انطوت على الكياسة والظرف أظهر الممثل الرشيق الوقار المهيب الذي ألقي على كاهله.

بعد أن تقدم الآن ما يبني مدينة ويزينها، ظهرت نوعاً ما المدينة ذاتها. وبرفقة رماحين اثنين ملتحيين حُملت إليها الراية الكبير. حامل الراية الجسور رفع الراية المرفرفة إلى الأعلى وكان يرتدي ثوباً فخماً مفتوحاً من الأعلى إلى الأسفل، قبضة يده اليسرى مسندة بقوة إلى خاصرته. بعد ذلك جاء قائد

المدينة مرتدياً ثياباً حربية فخمة باللونين الأحمر والأسود ودرعاً يحيط بصدره وكان غطى رأسه بقبعة واسعة متموجة بالريش. وتبعه عمدة المدينة والوكيل القانوني وأعضاء المجلس البلدي، من بينهم بعض الرجال المرموقين على امتداد الرايخ الألماني والنافعين، وأخيراً الصفوف المحتفلة من الرجال والنساء. كانت حلي الحرير والذهب والجواهر تلمع وتتلألأ هنا بوفرة زاخرة. وذوو المال والجاه من التجار، الذين عامت بضائعهم في مياه كل البحار ودافعوا في الوقت ذاته في مواقف حادة الانياب عن المدينة بالمدافع التي صنعوها هم أنفسهم واشتركوا في حروب الرايخ، وقد فاقوا طبقة النبلاء الوسطى في الفخامة والغنى كما في الحس الجماعي والتضحية من أجل المصلحة العامة والتسامي الخلقي. وكانت زوجاتهم وبناتهم يُصدرن في مشيتهن حفيفاً كالأزهار الكبيرة الطبيعية، بعضهن بشعر مخصل بطريقة جميلة ومحاط بشبكات وأغطية رأس ذهبية، وأخريات بقبعات متموجات بالريش وقد أحطن الأعناق بأكثر أقمشة الكتان نعومة وطراوة في حين أحاطت الأوليات الأكتاف العارية بفرو ثمين. في وسط هذه الصفوف اللامعة سار بعض السادة والرسامين القادمين من مدينة البندقية بصفتهم ضيوفاً متلفّعين بطريقة شاعرية بمعاطفهم الفرنسية، الأرجوانية أو السوداء. هؤلاء الأشخاص كان من شأنهم أن وجهوا المخيلة إلى تلك المدينة الشاطئية ومن هناك إلى كل الشواطئ البعيدة المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط.

صف عريض ثان من بواقين وطبالين، كان يعلوه شعار من نسر مزدوج، استحضر أخيراً بأصوات مدوية كيان الرايخ مع كل ما كان تجمع حول القيصر من شجاعة ورونق، وأعطى جمع غفير من الجنود المرتزقة مع قائدهم قوي البنية صورة حية عن زمن الحرب آنذاك وطابعه الشعبي المضطرب والمتوحش والمولع بالأغاني. وعبر غابة من الرماح بطول ثمانية عشر قدماً كنت ترى بعينك الباطنية الجبل والوادي، الغابات والحقول، البروج والحصون، اتساع البلاد الألمانية والفرنسية، بعد أن كانت ظهرت قبل قليل

المدينة المحاطة بالأسوار والمكتظة بالأبنية. جمع المحاربين، المكون من الشبان وبعض قطاع الطرق الأكبر سناً، كان تأقلم بحماس بالغ في مجال لباس القدوة التاريخية وعاداتها وأغانيها بحيث تشكلت من هذا العيد بالكلمة والصورة ثقافة ارتزاق قائمة بذاتها، وظل الناس لمدة طويلة يرون أقفية الرقاب ذات الجلود السميكة، العارية والمحروقة بأشعة الشمس في كل مكان، وثياب المرتزقة المنتفخة المجعدة المتقطعة.

الآن ساد من جديد جو مهيب وهدوء شامل. أربعة وصفاء كانوا يحملون دروع شعارات بورغون، وهولاندا، وفلاندارن والنمسا، بعد ذلك ظهر إلى العلن أربعة فرسان بألوية شتاير، والتيرول، وهابسبورغ وبراية القيصر وتلاهم حامل سيف ومناديان. وبعد حرس القيصر الشخصي، الذي كان يحمل سيفاً ملتهباً من النوع الذي عادة ما يستخدمه المرتزقة باليدين، مرَّ جمع من الوصفاء في ثياب قصيرة مذهبة تحت الدروع وكانوا يحملون كؤوساً ذهبية ويتقدمون على ساقي الخمر التابع للقيصر كما تقدم أيضاً في الموكب صيادون وصيادون بواسطة الصقور على رئيس الصيادين. حملة المشاعل أحاطوا بالقيصر بوجوه مسلحة بالقضبان. وخطر القيصر مختالاً في مشيته اختيالاً بطولياً وهو يرتدي سترة ومعطفاً من فرو الهرملين الأسود المطرز بقماش من ذهب ويحيط بصدره درع ذهبي وتزهو قبعته بالحلي الملكي وفي وجهه علائم الشجاعة البطولية وعلائم الفروسية وبُعد الغور. على هذا النحو صح القول عن الصورة الحية. إذ كان وُجد لصورة القيصر رسام شاب من أبعد حدود تلك الرايخ وكأنه خلق خصيصاً لذلك في كل ما تعلق بالتصرف وبالوجه.

خلف القيصر مباشرة سار مستشاره المرح كونتس فون دير روزن، ولكن لم يكن شبيهاً بمهرج بل ببطل ذكي قادر على الحرب والدفاع وذي حكمة فكهة. كل لباسه كان من المخمل الوردي وقصيراً على جسمه ولكنه كان ذا أكمام واسعة متعرجة. وعلت رأسه قبعة صغيرة لا زوردية اللون

ومحاطة بسور من أزهار وأجراس ذهبية؛ في حين تدلى من خاصرته على علاقة زهرية اللون سيف حربي من الفولاذ الجيد، عريض وطويل. واقتداء ببطله وقيصره لم يكن هو ذاته شاعراً بقدر ما كان قصيدة.

والآن مشى مغطىً بالحديد ومصلصلاً بالسلاح من كان بارز وسال دمه امتداداً من مروج لُينيبورغ إلى روما القديمة ومن جبال البيرينيه حتى نهر الدانوب التركي، الآن سارت قيادة الرايخ: وارث السقاية والوالي سيغموند فون ديتريششتاين والقانوني الذي أفلح من حين لآخر في ميادين القتال أولريش فون شيلينبيرغ، وغيورغ فون فروندسبيرغ، إيريش فون براونشفايغ، وفرانس فون سيكنغن، والصديقان روغندروف وزالم، وأندرياس فون سوننبورغ، رودولف فون أنهالت والباقون، ورافق كل واحد من هؤلاء حملةُ سلاحه ورموزُه، تحت ظلال الرايات الحاملة أسماء المعارك والحصارات وبرفقة شعارات جريئة أو ذات روح عالية. في هذا الموكب كنت ترى بشكل مميز رجالاً على درجة عالية من القوة والجمال لأن الذين تبوؤا مكانهم هنا هم في معظم الحالات، بصفتهم صانعي حظهم بأنفسهم، من حققوا بفضل نضالهم الدؤوب بلوغ أوج الحياة والنجاح وكانوا جديرين من جميع الجوانب بتأدية الأدوار على أفضل ما يُرام. كنت في أثناء ذلك تقدمت إلى الأمام قليلاً من مكاني الذي كان لا يزال مخفياً لكي أرى بصورة أفضل من كان يتقدمنا من الناس؛ عندئذ التهمت كل شيء بعينيَّ كمن له الوجه الثاني. وإذ نسيت تماماً رفاقي المشاركين معي في اللعبة، أمتعتني أيما إمتاع رؤية العظمة المتجلية في الموكب؛ وكأنني أنا ذاتي سليل رجالات الرايخ الزائلين فقد تنفست فرحة الاعتزاز، التي ربما عاشت تصعيداً قدر الإمكان حين ظهر الآن بين مستشاري الملك من الفقهاء ذو الشهرة الواسعة فيليبالد بيركهايمر الذي قاد في ما عرف باسم الحرب الشفابية التعزيزات التي أسهم فيها أهالي نُيرنبيرغ في جيش مكسيميليان ضد السويسريين ووصف تلك الحملة بدقة وعناية. لأنني خطر ببالي الآن فجأة كيف أن ملك الفرسان هذا

مع كل قادة الحروب هؤلاء حين أراد أن يجبر وطني على العودة إلى كيان الرايخ، كان اضطر إلى إنزال راية الرايخ المعقودة ضد أسلافي والانسحاب دون أن يصيب أي نجاح لا بل منفجراً بالنواح والعويل من أنه لا يستطيع الانتصار على السويسريين من دون سويسريين. وهكذا استطعت بارتياح كبير أن أستسلم لكل أنواع الرضا عن نفسي فيما تعلق بالوطن وغفلت عن تقلب الأقدار باستمرار وعن كره كل جيران بلادي وقلة احترامهم لأبناء وطني القدماء على الرغم من سجايا هؤلاء، النبيلة والشجاعة.

كدت أغفل أيضاً عن أن موكب الفارس الأخير(*) الموكب الذي تميز بطوله وأبهته، كان وصل إلى النهاية في حين تقاطعت جموع المارين حتى الآن بعضها مع بعض في طواف واسع، وأن القافلة التنكرية كانت اقتربت وتفتقت فيها كل الطاقات الفنية الكامنة في مجون غريبي الأطوار والمنكّتين وسادّي الفراغات والمتحلين بطبيعة المذنَّبات.

افتتح رئيس الحفل التنكري وهو راكب على حمار جموح الموكب الحالم، ورقص خلفه المهرجون المزدهون بالألوان: غُيليُمي، وبُوك وغوغريليس والقزمان الخبيثان ميترشي ودوفايندل وكثيرون من المهرجين الآخرين الذين كنت أندسست بينهم من الخلف بوصفي مهرجاً هادئاً. بعد ذلك أتى حامل عصيّ تُيرسوس، الذي أحيط بالأكاليل وقاد العصابة الموسيقية المزودة بالشعر والقرون والذيول. هؤلاء الصبيان أتوا، وهم ينطون ويثبون بجلود التيوس على وقع موسيقاهم الخاصة بهم، بأنغام مغرقة في القدم وصارخة ومهمهمة بطريقة نادرة وغريبة، مرة كانوا يصفرون ويوشون بثمانية أصوات وأخرى بخمسة قافزين من أعلى الأعالي إلى أسفل الأسافل.

تقدم إلى الأمام قائد موكب باخوس وهو يحمل عصا تُيرسوس مذهبة ومحاطة بأوراق العنب إله الخمر. وكان إكليل من العنب الأسود أن أحاط

(*) مكسيميليان الأول، المترجم .

جبينه المتوهج؛ ومن الكتفين رفرفت وتموجت حمولة من الأشرطة الحريرية الملونة حتى القدمين وغطت مرفرفة الجسم النحيل. القدمان وحدهما كانت منتعلين صندلين ذهبيين، وكان ثمة كرَّامون يرتدون مآزر بزي خليط نصفه من القرون الوسطى والنصف الآخر من العصور القديمة ويحومون حول المستطلعين الإنجيليين من أرض الميعاد، الذين حملوا العنقود الكبير على قضيب منحنٍ بشـــدة وتبعهم أربعة رجال أكثر قوة في بنيانهم، هؤلاء جلبوا من بين أربع أشـــجار من الشربين عنقوداً أكبر بكثير. كل اللوازم الباقية لهرجٍ ومرجٍ مفعم بالمرح بما في ذلك أجران وأقداح وعصي كان جرت ودفعت عربة الإله المكلل باللبلاب، التي تشكلت فوقها قبة سماء قاتمة من عناقيد العنب.

وتقدم عربةَ النصر المقتربة التابعة لإلهة الحب الرومانية فينوس صبيان ناعمان بوصفهما من خدم إله الحرب وكانا يرتديان ثياباً بزيّ المرتزقة ومعهما طبل ومزمار ويحمل كل منهما على ظهره قبعة ريش مزودة بحزوز بحيث كان الريش الملون يجر على الأرض، وبأبهة خبيثة جعلا مارشهما العسكري يدوي في حين كانت الناي الرخيمة أكثر منها الحادة تكرر باستمرار الفصل الموسيقى ذاته بحنين لاعج. ملوك ذوو تيجان وصولجانات، متسولون بثياب رثة وحقائب ظهر، قساوسة ويهود، أتراك وزنوج، شبان وشيب، كل هؤلاء أقبلوا يجرون العربة. إلهة الحب المستريحة في العربة لم تكن واحدة أخرى سوى روزالي الجميلة، نصف مضطجعة على سرير من الورود تحت تعريشة شفافة من الزهور. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأرجواني لكن من تفصيلة ثوب مخصص لأعياد ذوي الجاه والمال من ذلك الزمان، على نحو ما كان يحلو للفنان الكبير ألبريشت دُورر أن يرسم شكلاً ميثولوجياً. صُنعت من القماش النادر بكل أمانة الثنيات المتكسرة الفخمة في الأكمام الطويلة الواسعة وفي ذيل الفستان ملكي الأبهة، وكانت قبعة للسيدات واسعة من المخمل الأرجواني ومحاطة بريشات بيضاء أحاطت الرأس بظلال أفقية وتألقت بأشعة

نجمة ذهبية. وفي يدها حملت إلهة الحب كرة أرضية ذهبية جلست عليها حمامتان ترفرفان بجناحيهما وتتناجيان. ومن بين أسراها سار إلى جانبي العربة كل من الفيلسوف الوثني أرسطو والشاعر المسيحي دانتي أليغيري على أساس تقديم حماية لها من نوع خاص ومختلف أنواع العون وذلك بكل الاحترام والتقدير. أما هي فقد كانت تنظر إلى الوراء من حين لآخر لأن إيريكسون القوي كان يسير خلف عربتها مباشرة بصفته رجلاً متوحشاً على رأس موكب ديانا وقائداً له، الخواصر والجبين كانت مغطاة بورق كثيف من شجر البلوط وحول الكتفين لُفت قطعة من فرو الدببة. وتبعه صيادون كثيرون كانوا يحملون أغصاناً خضراء على قبعاتهم وطواقيهم، أبواق الصيد الكبيرة ملفوفة بأوراق الشجر، ثياب الصيد مزينة بفرو النمس ورؤوس الفهود وأقدام الغزلان وأسنان ذكر الخنزير. وقاد البعض كلاباً ذكوراً وكلاباً سلوقية وحمل البعض الآخر بواسطة سلالم حديدية معلقة بأحزمة تيوس ظباء على ظهورهم وحمل آخرون غيرهم ديوك الطيهوج وحزمة من الديوك البرية وآخرون حملوا كذلك على نقالات خنازير برية وغزلاناً بأنياب وقرون متشعبة وأظلاف مفضضة. ثم حمل جمع من الرجال المتوحشين غابة جوالة ذات أشجار مورقة من أنواع مختلفة كانت تتسلق على أغصانها سناجب وتبني طيور أعشاشاً لها. وعبر جذوع هذه الغابة كنت ترى شبح ديانا وهو يومض، أي أغنيس النحيلة كما كان ألبسها وزينها صديقها لويس. كانت عربتها مغطاة بما أمكن من حيوانات الصيد فأحاطت بها رؤوس هذه الحيوانات بقرون مذهبة وريش ملون. أما هي ذاتها فقد جلست ومعها قوس وسهم على صخرة تفجر منها نبع ماء في حوض من أحجار متقطرة؛ وقد اقترب رجال متوحشون وصيادون وحوراوات جميعاً من النبع في اكتظاظ متعدد الألوان لكي يرووا عطشهم بتجاويف أيديهم.

كانت أغنيس ترتدي ثوباً من قماش مزين بالفضة، التصق بجسمها حتى الأرداف وجعل كل ملامحها الرشيقة تظهر وكأنها مسكوبة من ذات المعدن.

كان صدرها الصغير الناعم كأنه من صنع صايغ فضة وقد أضفى ذلك رقة وذوقاً. ومن الحِجْر فما تحت، الذي لفه مرات كثيرة حزام أخضر من نسيج شفاف، انساب الثوب واسعاً وكثير الثنايا وتكرر رفع أطرافه، لكن إلى ما فوق القدمين اللذين أطلا بعفة وعذرية بصندلين فضيين. وفي الشعر الأسود، المسترسل على الطريقة الإغريقية بدا للعيان بجهد وعناء هلال القمر اللامع وحين كانت الرأس تتحرك قليلاً، كانت خصلات الشعر تغطي الهلال تغطية تامة. كان وجه أغنيس أبيض كضوء القمر وكان في تلك اللحظات أكثر شحوباً من المعتاد؛ كانت عينها تتوهج بالسواد وتبحث عن الحبيب في حين كانت تبيت في صدرها ذي اللمع الفضي أمراً جسوراً من شأنه أن جعل القلب يخفق بشدة واضطراب.

ولكن الحبيب لويس، الذي اختار موكب ملكٍ آشوري قديم ملتزم الصيد لكي يستطيع السير إلى جانب ديانا، حين رأى روزالي - فينوس ترك ديانا وانضم إلى موكب النصر التابع لروزالي وتمعن في النظر إليها بحيث لم يحوِّل وجهه عنها مثل سائر في نومه ولم يتزحزح خطوة واحدة عن عربتها، دون أن يعي ما كان يفعل.

من جهتي كنت ارتديت، إخلاصاً مني للقبي القديم، ثوب مهرج أخضر اللون وأحطتُ قبعتي ذات الأجراس بطوق من الأشواك وأغصان البهشية الشائكة حمراء الحبات. هذا الزي الذي يمت بصلة القرابة إلى عالم الصيد، استخدمته الآن حتى رأيت كيف كانت تقف الأمور لا بل كيف كانت تسير لكي أتسلل من حين لآخر عبر الغابة الجوالة وأبقى إلى جانب ديانا المسكينة ما دامت لم يكن حولها عدا ذلك أي صديق آخر؛ لأن إيريكسون، الرجل المتوحش، ركز نظره على لُيس وروزاليا دون أن يخرج في غضون ذلك خروجاً قوياً على هدوء عاطفته.

وتلا المشاهد الإغريقية – الجنوبية موكبُ ملك الجبل بصفته مشهداً لأسطورة جرمانية – شـمالية. سلسلة جبال من طبقات المعـدن الخام

والكريستاليات أقيمت على عربته وعلى الجبل تربع الشخص العملاق بثوب من الفرو رمادي اللون وفرش اللحية البيضاء كالثلج كما فرش الشعر أيضاً حتى الأرداف وغطاها بهما. وعلى الرأس وُضع تاج ذهبي عالٍ ومسنن. ومن حوله تسلل عفاريت صغار وحفروا في التجاويف والممرات وكانوا أوغاداً حقيقيين؛ ولكن شبحاً جبلياً صغيراً كان يقف في الجهة الأمامية من العربة وعلى رأسه ضوء ساطع من حفرة، المطرقة في يده، هذا الشبح كان فناناً لا يتجاوز طوله ثلاثة أشبار لكن بنضج تام، رقيق البنية بقدر متساو وذا وجه صغير نظيف خليق برجل وعينين زرقاوين ولحية مثلثة شقراء اللون. ذلك المخلوق الصغير الشبيه بأسطورة سحرية لم يكن أقل من غرابة بحتة، بل كان رساماً مستقيماً ومشهوراً ومن ثم كان شهادة حية على أن هؤلاء الفنانين المهمين لا يشملون كل فئات شعب كبير فحسب بل كذلك كل تجسيدات الوجود الإنساني بأسره.

خلف ملك الجبل على العربة ذاتها قام سكاك النقود بصنع قطع تذكارية صغيرة من الفضة والنحاس اللامع تخليداً لذكرى العيد؛ فبصقها تنين في حوض رنان ثم رماها وصيفان اسمهما ذهب وفضة بين جموع الشعب المتفرج. وهنا تسلل في تمام النهاية ووحده مهرج غُيليشيش ونفض بحزن كيس النقود الفارغ.

بالطبع تبعت من جديد بدايةُ الموكب الرائع المهرجَ الأعرج؛ ومن جديد مرت النقابات، ونُيرنبيرغ القديمة، والقيصر والرايخ وعالم الخرافات، وهكذا للمرة الثالثة وبلا انقطاع سار الفنان لويس إلى جانب عربة فينوس وسار إيريكسون خلفها بكل انتباه ناظراً إلى أغنيس، التي وهي في غابتها لم تستطع أن ترى ما كان يحدث، تارة حيرى يائسة وتارة مسبلة جفنيها حزينة بائسة.

اصطف الجمع الآن بأسره في نسق مزدحم وأنشد أغنية احتفالية كاملة الأنغام لكي تقدم بذلك الولاء للملك الحقيقي، الذي في دائرة سلطته حام أخيراً كل هذا العالم الحلم ثم تحرك الموكب الطويل ماراً بأسرة سيد البلاد المتجمعة

في صالة المقصورة المسرحية وصولاً عبر ممرات مغطاة إلى قصر الملك، ومن ثم عبر صالاته ودهاليزه التي غصت بالمتفرجين. كان الملك منبسط الأسارير لا بل بدا لاهياً ضاحكاً، ما دام جاز له أن يعدّ فرحة العيد النشوى والساطعة بالألوان البراقة إلى حد ما المكافأة على صنائعه الجميلة وخدماته الجلَّى، كان الملك يجلس على كنبة ذهبية في وسط رعيته وينظر بدقة إلى هذا المشهد وإلى ذاك من الموكب المار هائجاً مائجاً ثم يجود على بعض الناس بدعابة لطيفة. وحين اقتربت أنا منه كان بيننا حساب لا بد من تصفيته. فقبل فترة قصيرة من الزمن حين كنت، عملاً بنصيحة رئيس مصلحة القياسات والأوزان، أمشي في أصيل إحدى الأمسيات عبر شارع هادئ قاصداً المكان الذي كنت أحتسي فيه شراب المساء المتواضع، مر بي الرجل الطويل النحيل والمجهول عندي وأوقف فجأة خطواته السريعة ثم سألني متجاهلاً المارين لماذا لم أحيِّه بما يليق به من التبجيل والاحترام؟ فنظرت إليه باندهاش؛ ولكن كان سرعان ما رفع قبعتي عن رأسي وأعطانيها بيدي ثم قال: ألا تعرفني؟ أنا الملك! وإثر ذلك تابع سيره في دغشة الليل. وضعت قبعتي على رأسي من جديد وتتبعت بنظري وأنا في غاية الاستغراب والدهشة ذلك الشبح المتجول ولم أعرف ماذا علي أن أفعل. وأخيراً قلت لنفسي إذا كان هذا الرجل من أهل الدعابة والمرح وجرب معي أفانينه فإن الأمر لم يتعلق بالاحترام وصون الكرامة؛ أما إذا كان هو الملك فعلاً فليس للموضوع أيضاً علاقة بالاحترام؛ لأن الملوك ما داموا لا يجوز أن يتعرضوا للإهانة فلا يجوز لهم من ثم أن يهينوا أو يشتموا أحداً، فتعسفهم وحده من شأنه أن يلغي كل وقع معتاد. واليوم أدركت فوراً، حين مررت به، أنه كان الملك حقاً. وإذ استخدمت حرية التهريج رأيتني أخرج من الموكب وأتقدم إلى أمامه وأمد رأسي إليه وأنادي بصوت عال بفرح وسرور: هاي، أيها الأخ الملك! لماذا لا تمسك بقبعتي هذه المرة وتنزلها عن رأسي؟ فنظر إلي باهتمام وتذكر الحادثة على ما يبدو ثم فهم أيضاً أنني أعني أشواك القبعة وشجيرات البهشية الشائكة أيضاً، التي قد

تجرح يده. ولكنه لم ينبس ببنت شفة، بل أمسك مبتسماً برؤوس أصابعه اثنين من أطراف الأجراس الشامخة المعلقة على طاقيتي ورفعهما بهدوء إلى الأعلى بحيث وقفت هكذا حاسر الرأس ثم أعادهما بنفس الهدوء إلى مكانهما من جديد. هنا رأيت استحالة أن أكون نداً له فصرفت النظر عن الأمر وتابعت طريقي.

نزولاً على الأدراج الفخمة، عبر ممرات ذات أقواس وقاعات ذات أعمدة، مروراً بالأمكنة المضاءة بشعل القار والمكتظة بجموع أهل المدينة، في كل مكان مر الفنانون بأعمالهم الفنية إلى أن صب الموكب في بناية الاحتفال الكبيرة التي كانت غرفها وصالاتها أعدت وزينت من أجل ممارسات أخرى جديدة. أكبر الصالات كانت جهزت للولائم واللعب والرقص تماماً بحسب أسلوب العصر المحتفى به، وخضع لإجراءات التنكير على شكل شبيه بحديقة صف من الزوايا والأركان في الجدران وحجرات جانبية من أجل إقامة مجموعات وجماعات من الناس، كل على حدة. وبعد أن تناول الناس ما كفى من ملذات الطعام والشراب بدأ أيضاً دون إبطاء أو تردد الرقص واللعب من كل نوع وفي جميع الأرجاء. الحرفيون المهتمون بالشعر والموسيقى أقاموا بكل دعم وتشجيع مدرسة غنائية في صالة صغيرة. فنُظمت مسابقات غنائية طبقاً للتقاليد النقابية الفنية وأُعلنت ترقية زميل هنا في هذه المدرسة أو مغنٍّ هناك إلى مرتبة مايستر وأنجزت أمور أخرى شبيهة. احتوت القصائد الملقاة في المقام الأول على تشنيعات الاتجاهات الفنية المختلفة في ما بينها، استهزاء أشخاص متطاولين أو مستبدين برأيهم بأناس ومدارس، وشكاوى حول أوضاع اجتماعية سيئة ثم احتوت أيضاً على مديح ما اتُّفق عليه وما اعتُرف به. كان ذلك، إن صح التعبير، تصفية عامة للحسابات أرسل إليها كل اتجاه فني وكل فنان كبير من يمثله بأشعار جاهزة بين المغنين. كان مضمون الأبيات الشعرية الساخرة والمتدفقة حيوية في غاية الغرابة فيما تعلق بالشكل الذي ألقيت فيه. ففي حين أدى كل المغنين مقاطعهم الشعرية المزعومة إلى

نهاياتها بأبيات الدوبيت، الرتيبة والجافة كجفاف الخشب، طلب من كل واحد أن يغني في ضوء الإعلان عن أسلوب جديد في الأداء. فغنِّي بطريقة اورفيوس المتصفة بالشكوى والحنين، وبطريقة بشرة الأســد الصفراء، وبطريقة الكهرمان الأسود والقنفذ والخوذة المقفلة والجبل الشاهق والبوق الأعوج والحرير الأملس وأنبوبة القش والمخرز المدبب والفرشاة المبتورة وبرلين النشوى وخردل الراين وديك البرج المتلألئ والليمون الحامض والعسل الجامد وما إلى ذلك من طرائق وأساليب، وكان الضحك كبيراً كلما سمع من جديد صوت القيثارة المتذمر القديم بعد هذه الإعلانات المنطوية على أبهة وروعة. بعض المغنين تلقف موضوعه أيضاً مباشرة من اللحظة الراهنة؛ فعلى سبيل المثال انتقم حذَّاء من غرور سيدة نبيلة كانت وفاء للدور الذي تمثله، رفضت تواً أن ترقص معه، بالتباهي بصوت عال بالخطوة التي يلقاها المرء لدى أكثر من امرأة ذهبية إذا ما عرف فحسب كيف يبدأ معها بداية صحيحة، إثر ذلك أجاب دبَّاغ بمادة الشبَّة بطرح السؤال القديم عما يسبق إلى تحقيق الهدف: الجسارة أم التواضع؟ وأخيراً أعلن سبَّاكُ شمعٍ أن النساء ما هن إلا تلك المخلوقات التي تفضل دائماً نوعاً من الرجال إذا ما تعذر عليها الحصول في الوقت المناسب على النوع الآخر.

أقوال فظة من هذا النوع لم يكن من اللائق أن تسمعها السيدة فينوس، التي كانت حضرت مع جزء من حاشيتها أنشطة المدرسة الغنائية، فغادرت مكانها باستياء متصنِّع منسحبة إلى إحدى الحجرات الجانبية حيث جعلت منها مقر إقامة لها وانضم إليها بضع نساء هن غاية في الكياسة والظرف. في ركن مجاور، أخضر اللون تماماً، كان الصيادون اتخذوا مقراً لهم وقام بمجالسة راعيتهم ديانا بضع حوراوات فتيات؛ غير أنهن تركنها في معظم الأحيان وحدها وذهبن للرقص مع رفاق الصيد المتوحشين. لذلك جلستُ في أغلب الأحيان إلى جانبها محاولاً بتجاذب أطراف الحديث معها وتقديم الخدمات المعتادة لها أن أجعل وحشتها في مأمن من الأعين قدر الإمكان إلى

أن يحدث الانعطاف المرجو للأمور. كان إيريكسون يتمشى ذهاباً وإياباً؛ لأنه بسبب لباسه المتوحش لم يستطع إجادة الرقص كما لم يكن من اللائق أن يجلس مقترباً من أمكنة النساء أكثر مما كان جائزاً له. لم يضطر إلى القبول بدوره إلا في الأيام الأخيرة ونظراً إلى ظروف طارئة، ولكنه لم يكن مستاء من ذلك ما دام الدور أبعده قليلاً عن السيدة روزالي، وبذلك فإن العلاقة القائمة بينهما لم تكن مرشحة لافتضاح أمرها تماماً في وقت أبكر من اللازم، وروزالي كانت موافقة على ذلك. والآن ندم على تصرفه حين رأى كيف أن لُيس كان يبقى باستمرار إلى جانبها وكيف كانت تضحك وتمزح وتشع جاذبية لطيفة وكيف تلقت تصرفات الغادر، التي كانت مصدر تسلية كبيرة لها، بأسئلة بدائية – ظريفة وذلك عبر حركة لم يفقه غرور العقل الكامن فيها أي شيء عن الأمان الجميل الذي عاشت فيه تلك المرأة. فلا هو ولا إيريكسون لاحظا النظرة التي بدا أنها عرضية وسطحية لكنها مرتاحة والتي اقتفت بها أثناء الحديث أثر شبح الرجل المتوحش حين كان يمر بهما من حين لآخر من مسافة قريبة.

كانت أغنيس وقفت فترة طويلة بجانبي في حين كان وقت هذه الليلة الثمين ينقضي باستمرار بلا توقف. كانت، وصدرها يجيش بمشاعر جامحة، تهز رأسها المكسو بخصل شعر سوداء اللون ولكن من حين لآخر كانت تطلق نظرة ملتهبة صوب لويس وروزالي وتنظر إليهما من حين لآخر أيضاً باستغراب وهدوء، لكنها كانت ترى في كل مرة المشهد ذاته. في نهاية الأمر لذت بالصمت أيضاً وغرقت في تفكير معتكر في الضعف الشديد إلى هذا الحد لدى صديق كنت أقدره تقديراً عالياً. وكظاهرة طبيعية مخيفة أقلقني هذا التقلب اللامبالي في الإرادة، الذي تحول إلى جرأة وقحة؛ وعانيت تحت وطأة الكابوس الذي به يرى المرء في منامه شخصاً يائساً يرمي بنفسه إلى الهاوية.

أيقظتني تنهيدة عميقة وكانت أغنيس رأت كيف ذهب لويس مع روزالي للرقص، وقد انتشى وتموج في الصالة الرئيسية القريبة؛ وفجأة طلبت مني أن

أقودها أيضاً إلى حلبة الرقص وأرقص معها. درنا مع جمع الراقصين المتألقين بألوان متعددة والتقينا مرتين فينوس المتوردة التي كان فستانها الأرجواني يطير ويغطي من حين لآخر نصف الفنان لويس، الراقص معها. وكان هذا يحيينا بابتهاج وسرور كما يحيي المرء أطفالاً منهمكين في تسلية جيدة. ولدى انتهاء رقصة الفالس التقينا من جديد؛ أعجبت روزالي بالطفلة الصغيرة وطلبت أن تبقى الطفلة قريبة منها في حين كان علي أن أشارك في ألعاب المهرجين التي حلت الآن محل الرقص.

قاد مستشار القيصر، كونتس فون دير روزن بحبل طويل، كل المهرجين الموجودين عبر الزحام. وكل واحد منهم حمل لوحة كتب عليها اسم مجونه؛ هنا قام المستشار المرح بفرز تسعة ثقيلي الوزن عن أولئك الأخف وزناً وقدمهم إلى القيصر بصفتهم لعبة الأوتاد، وهكذا تيسر لكل الناس أن يشاهدوا بأم أعينهم الغطرسة والحسد والفظاظة والغرور، والادعاء بمعرفة الكثير، والنزوع إلى المقارنة وتفخيم الأنا والعناد وتقلب الإرادة. وحاول الآن بعض الفرسان والمواطنين زحزحة مهرجي لعبة الأوتاد التسعة من أمكنتهم بكرة ضخمة دحرجها بقية المهرجين بحركات عنيفة مضحكة دون جدوى إلى أن أتى أخيراً البطل ماكس فقلب الكل برمية واحدة بحيث يدحرج بعضهم فوق بعض.

من هذه الهزيمة تطور عرض هزلي قدم فيه كونتس إلى الملك المنتصر مكافأة تمثلت في عرض تماثيل العالم القديم التي أعيد بعثها أمام عينيه، ولكنه عمل في بادئ الأمر على إنهاض المهرجين الذين سقطوا على الأرض بصفتهم مجموعة أبناء الملكة الإغريقية نيوبي وبناتها، الذين كانوا لا يزالون بالطبع في باطن الأرض إبان عهد مكسيميليان، ومن العرض المأسوي برزت فجأة مجموعة إلاهات الحسن والجمال مكونة من ثلاثة مهرجين فتيان ناعمين، وحين استداروا لمرة واحدة اختفى منهم رجل واحد

فمثل الباقيان دور آمور(*) وبسيُشي(**) إلى أن ذاب هذان ولم يبقَ سوى نارسيسوس(***)، غير أن هذا أيضاً اختفى واستلقى محله على الأرض ذلك القزم الأصغر مبارزاً مشرفاً على الموت؛ وبذلك أدى دوره خير تأدية إلى حد أن جميع المتفرجين صفقوا له تصفيقاً مدوياً وقدم إليه كل طاقم المهرجين فرفعوه عن الأرض مع طشت السمك المقلوب، الذي كان مستلقياً فيه وحملوه بعيداً بطلاً من الأبطال المظفرين.

حين انقشعت هذه الغيمة أيضاً ظهرت مجموعة لاوكونيه(****) وقام بدور هذه المجموعة كل من إيريكسون وشيطانين اثنين فتيين من شياطين الخصوبة واثنتين من الأفاعي الكبيرة كانتا صنعتا من الأسلاك والكتان. لقد تطلب جهداً كبيراً أن يبقى إيريكسون فترة من الزمن بعضلاته المشدودة في الوضع الخاضع للتعليمات المسبقة؛ لكن ذلك الوضع ازداد صعوبة حين عوج رأسه بتشنج مضنٍ إلى الوراء وحرك عينيه ذات مرة إلى الأسفل ورأى في مرمى النظر الحالي المؤقت روزالي، كيف مرت وهي مسندة إلى ذراع لويس مبتسمة، لكن متجهة إليه بصورة عرضية ثم ضاعت في الزحام وهي تتجاذب مع مرافقها أطراف الحديث. وسمع إيريكسون على مقربة منه أحدهم يقول: "فينوس الجميلة ترافق طول الوقت ذلك الشاب الغني من أصول فليمية هولندية أو فريزية شمالية أو ما إلى ذلك! إنه للمناسبة ذو مظهر جيد، أما هي فقد تقول في نفسها: جميل وغني، كلاهما مساوٍ للآخر!".

(*) إله الحب، المترجم.

(**) النفس، المترجم.

(***) شاب جميل تزعم الأسطورة اليونانية أنه افتتن بجمال صورته في الماء فذوى جسده وتحول إلى نرجسة، المترجم.

(****) لاوكون هو كاهن أسطوري من طروادة كان حذر بني وطنه من حصان الإغريقيين الخشبي فحكم عليه مع ابنيه بالموت خنقاً باثنتين من الأفاعي، المترجم.

ما إن تخلص إيريكسون من الأفعيين وغدا حراً، حتى اقتحم البيت وتسول من بعض أصحابه المنادمين قطعاً من الثياب لا لزوم لها. وإذ كان يرتدي ثياباً غريبة، مرة كأسقف وأخرى كصياد وكرجل متوحش وكانت رأسه لا تزال مغطاة بورق الشجر الأخضر، فقد بحث عن المختفيين ووجدهما في الدائرة الأوسع التي تجمع فيها أتباع باخوس وحاشية فينوس والصيادون. لم يكن غيرانَ حتى إنه خجل من فكرة أن يكون كذلك في يوم من الأيام لأن الغيرة، لسبب أو لغير سبب، تقضي على الكرامة التي يحتاج إليها الحب الصحيح. إن كل شيء في العالم ممكن وإن أغنى شيء بالتبعات كثيراً ما يتوقف على إغفال صغير يغير الأمور من دون عناء؛ وعلاوة على ذلك كان إيريكسون في ذلك الوقت تحديداً لا يزال غير متأكد من أيهما يسبب إهانة أكثر عند روزالي إظهار الهدوء أم الاضطراب؟ لأنها حين كانت تبذل جهداً في الصبر بكل صراحة ووضوح على محاولات تقرب الهولندي منها وتخفي في أثناء ذلك نية سرية، فقد كان على إيريكسون أيضاً أن يبذل بكل لطف وتهذيب جهداً في فهم تصرف من هذا النوع.

ولكن الغلبة كانت للهدوء حين رأى إيريكسون الثنائي المفقود يجلس في دائرتنا الميثولوجية؛ فاتخذ حينئذ بكل رباطة جأش مكانه بالقرب منهما، إلا أنه سرعان ما اضطر إلى تركيز انتباهه من جديد. تحدث لويس عن أمور بريئة لا بل غير جديرة بالاكتراث، ولكن بتلك النبرة الودية والموجهة مباشرة إلى السيدة، النبرة التي يعتاد الفاتحون من هذا النوع استخدامها لكي يعودوا العالم في الوقت المناسب ما لا سبيل إلى تجنبه. تحمل إيريكسون منه بعض التصرفات كاتماً غيظه؛ أما الآن فقد خطرت على باله فكرة عما إذا كان صديقه واحداً من المأفونين البارعين في سرقة ساعات ذهبية أو في الاستيلاء على نساء الآخرين. وقال في نفسه إنه يوجد في كلا الجنسين وحوش كواسر وأميبات متحولة من هذا النوع وهؤلاء لا يشعرون بالسعادة إلا إذا دمروا سعادة الآخرين! بالطبع هم لا يأخذون إلا ما يستطيعون الحصول عليه،

والبضاعة تأتي أيضاً في معظم الأحيان بعد ذلك! ولكن هذه المرة قد يكون الأمر مؤسفاً فعلاً! ثم تمعن في النظر بقلق وإعجاب جديدين إلى السيدة روزالي، كيف كانت تصغي بعذوبة لا تبلى إلى حديث لويس وتغويه بابتسامة عصية على المقاومة إلى أقوال ذكية ومطمئنة ومريحة. ولّما كان منشغلاً إلى هذا الحد فهو لم يلاحظ ما كان يجري حول أغنيس وكيف أتيت مرات كثيرة بتكليف منها وبصفتي مرسالاً لها إلى لويس ورجوته بصوت منخفض لكن مستعطف وملحّ لكي يرقص معها ولو مرة واحدة. وبما أن لويس كان يقضي توّاً استراحة قصيرة فقد جفل كما يجفل عادة طير الطيهوج الملقِّح، لا لكي يطير مبتعداً بل ليصرخ في وجهي مغلظاً لي القول: "أي لياقة هذه لدى فتاة في ريعان شبابها؟ ارقصا معاً واتركاني وشأني!".

تركته لكي أواسي تلك المخلوقة المضطربة بألم وأشعلها قدر الإمكان؛ إلا أن إيريكسون كان سبقني وكانت روزالي، في أثناء حديثي مع لويس، همست في أذنه بضع كلمات بدت أنها جعلته في غبطة وسرور. وإثر ذلك قاد إيريكسون ذلك الجسم المتلألئ إلى صفوف الرقص ودار معها بقوة وسهولة في حين طارت أغنيس معه وحوله بقوتها الذاتية كما لو أن رُسْغَي قدميها الناعمين من الفولاذ. بعد ذلك طلبها للرقص السيد فرانس فون سيكنغن الذي لم يكن بعد موافقاً على أن يدفن في صندوق مخصص للدروع. وظهرت أغنيس أيضاً في سلسلة الحركات والأشكال الراقصة التي عرضت آنذاك بمظهر جذاب إلى حد الغرابة بحيث وقف الفنان الكبير دُورر ذاته في طريقها ووفاء منه لأداء دوره لم يحوّل عينه عنها قيد أنملة ثم سحب دفتره وبدأ يرسمها بهمة منقطعة النظير. وقد أحدثت هذه البادرة الظريفة بهجة كبيرة؛ فتوقف الناس عن الرقص وتجمع حشد لكي يبدي استحساناً لا بل إجلالاً وتقديراً وكأن الفنان القديم ظهر الآن بشحمه ولحمه وشوهد وهو يرسم.

لم تكن الأمور وصلت بعد إلى أوج التكريم الذي عاشته أغنيس في ذلك اليوم؛ فالملك ذو الجلالة القيصرية والمرتدي ثياباً بيضاء كان أمر لدى

مروره متنزهاً أفراد حاشيته بتقديم تقرير عن المشهد الاحتفالي، كما أمر أيضاً أن تقدَّم إليه ديانا الممشوقة القوام للتعارف، ورجا السيد فون سيكنغن بكلمات لطيفة أن يتركها له من أجل القيام بجولة مشي على الأقدام للتنزه معها. مع بدء الأوركسترا الكاملة بالعزف مشت ديانا مستندة إلى يد الملك الحلم، المحتفي، حول الصالة في حين كان يؤدي انحناءة في كل مكان على طريقها الفرسانُ والسيداتُ النبيلات والسيدات ذوات الجاه والمال وكان المواطنون يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم.

كان وجهها زاهي الاحمرار بسبب الاضطراب والأمل حين عاد بها إيريكسون معتلية عرش المجد إلى مكانها بعد أن سلمها القيصر بكل احتفاء ومهابة إلى سيكنغن وسلمها هذا بدوره إلى إيريكسون. ولكن حبيبها لم ير شيئاً من كل هذا ولم يلحظ أيضاً عودتها. كانت روزالي في أثناء هذه الفترة خلعت قبعتها الريشية الواسعة وأعطتها إلى لويس لكي يحتفظ لها بها؛ وحين جلست الآن برأس مكشوف هكذا وأخذت ترتب شعرها الخلاب بأصابعها البيضاء، كان لجاذبية جمالها المتجددة تأثير كبير فيه.

امتقع لون أغنيس الآن فأدارت وجهها إلي ورجتني أن أقول لصديقها لويس إنها ترغب في أن يعود بها إلى البيت، فأسرع إليها في الحال وأحضر معطفها الدافئ وحذاءها الخارجي، وحين غدت مغطاة تغطية جيدة قادها إلى مكان إقامتها ملوحاً إلي بيده للانضمام إليهما، وألقى ذراعها في ذراعي ثم رجاني وهو يودعها بطريقة أبوية لطيفة أن أرافق فتاته الصغيرة، بصفته وصياً على حمايتها، بكل عناية ومروءة إلى بيتها. ثم بعد أن شد على أيدينا اختفى في الحال، مرة أخرى بين الجموع الذين كانوا يصعدون وينزلون على أدراج واسعة.

وقفنا الآن في الشارع؛ فالعربة التي كانت أتت بأغنيس مع قرار حبها إلى هنا لم تكن موجودة وبعد أن نظرت بحزن إلى أعالي البيت المضاء، الذي ضج بالغناء والموسيقى، أدارت له ظهرها بحزن أكبر ومشت برفقتي على طريق العودة عبر الأزقة الهادئة، التي بدأ الصباح يطلع فيها.

أطرقت برأسها الصغير بعمق؛ وكانت تحمل بيدها من حيث لا تدري مفتاح البيت الكبير وكان قطعة من صناعة قديمة كان دسها لويس وهو في لحظة شرود في جيبها هي بدلاً من جيبي أنا. كانت تحمل المفاتيح محبوسة بإحكام بشعور قاتم بأن لويس أعطاها قطعة الحديد الباردة الصدئة؛ ولكن مع ذلك كان هذا شيئاً أتى منه وما عداه فإنه لم يفعل اليوم الكثير من أجلها. على مائدة العيد لم تتناول إلا النزر اليسير من الطعام وهذا النزر اليسير الذي أنعشت به شفتيها منذ ذلك الحين كان من تدبيري ومن مسعاي.

حين وصلنا إلى أمام البيت وقفت صامتة ولم تُبدِ أي حراك على الرغم من أنني كنت سألتها مراراً علها تسمح لي أن أسحب الجرس أو بالأحرى أن أحدث ضجة وصخباً بوساطة جنية البحر المنقوشة على مقرعة الباب، وحين اكتشفت المفتاح في يدها وفتحت الباب ورجوتها أن تدخل، ألقت ذراعيها بوهن حول عنقي وبدأت تتأوّه وتئنّ وكأنها في حلم ثم بدأت تغالب الدموع التي أبت أن تنسكب. وانحسر معطفها عن كتفيها؛ فأردت أن أوقفه لئلا يصل إلى الأرض إلا أنني أحطت بها بدلاً من ذلك بنية أخوية وصرت أداعب بأصابعي رأسها وعنقها لأنني لم أستطع أن أتمكن من الوجنتين. وفي الصدر الفضي الناعم، الذي كان مُلقىً علي، تحسستُ وسمعتُ التنهيدات وهي تتصاعد إلى الأعلى والقلبَ وهو يخفق؛ كان الوضع شبيهاً بخرير مياه نبع كما يسمعه امرؤ في الغابة وهو مستلق على الأرض. نَفَسها الدافئ تدفق في أذني، وأحسست كأنني أعيش بحق أسطورة حزينة هانئة كالتي تحتوي عليها أغان قديمة، وصرت أتنهد أيضاً من غير عمد. وأخيراً استطاعت المخلوقة الأتعس أن تبكي وبدأ عندئذ نحيب مرير. الجرْس الطبيعي الشاكي، وإن لم يكن جميلاً البتة إلا أنه مؤثر إلى ما لا نهاية كوجع الطفل، تدافع وتكسر في حنجرتها الناعمة وبالقرب من أذني. وألقت برأسها هكذا دون تفكير على كتفي الآخر فوضعت بدوري رأسي عليها بحركة ليس فيها أي نية مبيتة وكأنني أصادق على ألمها وأعترف به. هنا وخزت أوراق الشوك وأغصان

البهشية الشائكة المزروعة في قبعتي رقبتها ووجنتها فجفلت وأرجعت رأسها إلى الوراء ثم صحت وأدركت فجأة مع أي شخص كانت. وقفت الفتاة المخدوعة مرتين يائسة هكذا على غير هدى ونظرت جانباً شاكية باكية. أعطيتها المعطف على ذراعها لمجرد أن أشغلها بشيء ما ثم رافقتها بهدوء إلى الدرجة وخرجت بعد ذلك مغلقاً الباب. كان كل شيء لا يزال هادئاً في البيت، وبدت الأم نائمة نوماً عميقاً راسخاً فلم أسمع إلا صعود أغنيس تصعد الدرج متأوهة وكانت تعاود الاصطدام بالدرجات. أخيراً انصرفت عن المكان وعدت أدراجي ببطء إلى صالة الاحتفالات.

*   *   *



الفصل الرابع عشر

مبـارزة المهـرجين

كانت الشمس أشرقت في الحال حين دخلت إلى الصالة، كانت النساء كلهن وكان كل الناس الأكبر سناً انصرفوا إلى بيوتهم؛ ولكن جموع الشباب، الذين حركهم أقصى حدود المرح، كانت تموج وقد اختلط الحابل بالنابل وتتأهب للركوب في صف من العربات لكي تخرج بلا إبطاء ودون استراحة إلى العراء ولإكمال الولائم في البيوت والحدائق المنتشرة في الغابات الواسعة، الواقعة على ضفاف النهر الجبلي.

في تلك المنطقة كانت روزالي تملك بيتاً ريفياً وكانت دعت جماعة التنكر المرحة إلى أن يكونوا هناك بعد الظهر، حيث ستكون هي أيضاً بصفتها مضيفة على أتم الاستعداد للعناية بهم. إضافة إلى ذلك دعي على وجه الخصوص بعض النساء اللواتي كن اتفقن، ما دام الأمر كان يتعلق بالاحتفال بعيد الكرنفال، على أن يخرجن بزي اللباس القديم؛ إذ رغبن هن أيضاً في أن يتمتعن قدر الإمكان بهذه الحال الطارئة ذات البريق الخلاب.

كان إيريكسون ذهب إلى مسكنه لكي يرتدي ثيابه المعتادة، ولكنه انتقاها الآن بدقة أكثر قليلاً مما تتطلب مناسبات أخرى. وبما أن روزالي أيضاً ظهرت فيما بعد في زينة حديثة مناسبة ببساطة لذلك الفصل من السنة ولذلك اليوم، فقد ساد تفكير في أنه إما أن تفاهماً حدث أو أن شعوراً متطابقاً ساد من تلقاء ذاته، كلاهما إشارات بسيطة لم يغفل عنها مراقبون هادئون للأحداث الجارية.

كان لويس أسرع أيضاً إلى بيته، لكن بنية مغامرة، فقد كان فيما مضى كلف أحد الخياطين على سبيل التجربة بتفصيل بذلة ملوكية من الطراز الشرقي القديم من أجل التصاميم اللازمة للوحة النبي سليمان؛ فكان الرداء الطويل من قماش الباتيست الأبيض الناعم مزوداً بثنيات متعددة ومطرزاً بأشرطة زينة وشرابات وأهداب أرجوانية وزرقاء وذهبية. وتطابق لباس الرأس والقدمين أيضاً على وجه التقريب مع الطراز القديم للباس الشرق الأدنى. لم يستخدم التصميم المذكور لدى تنفيذ اللوحة، ولكن الآن بدا له أن البذلة صالحة لكي يقدم بها دعابة ويحضر إلى بلاط آلهة الحب بثياب بلاطية بصفته ملك الصيد ليوم أمس. إضافة إلى ذلك أوعز بترتيب شعره ولحيته وتجعيدها بالمعقصة والزيوت زكية الرائحة، وأحاط أخيراً ساعديه العاريين بأفاع وأطواق بطابع مغامر. كل هذا شغله كثيراً حتى منتصف اليوم وذلك بعد أن كان نال قسطاً قليلاً من النوم نظراً إلى الضياع العاطفي الجارف الذي كان ألم به.

وأنا بدوري لم أنم، بل خرجت في الحال في الصباح الباكر مع الجمع الرئيسي من الناس. كانت عربات كبيرة محملة بمرتزقة ومدججة برماحهم تهدر في مقدمة الموكب وتبعها رتل طويل من عربات النقل من كل الأنواع إلى داخل شمس الصباح المشرقة، على حواف غابات الزان الجميلة، في أعالي منحدرات ضفاف النهر الذي كان خرير مائه يتناهى إلى الأسماع في التواءات براقة حول جزر الرواسب المجروفة وجزر أدغال الشجيرات المائية.

كان يوماً معتدل الطقس من أيام شهر شباط وكانت السماء زرقاء صافية؛ وسرعان ما اخترقت أشعة الشمس أجساد الأشجار، وإن لم تكن هذه مورقة فقد لمعت الطحالب الطرية المنتشرة على الأرض وعلى جذوع الشجر بصورة أكثر اخضراراً، وفي الأعماق شعّت مياه الجبل المضيئة.

تدفق الشعب المتنوع على مجموعة رومانسية من البيوت الواقعة في أعالي ضفاف النهر والمحاطة بالغابات. مزرعة غابية، وحانة على الطراز القديم وطاحونة على ضفة جدول مزبد في الغابة، سرعان ما تحولت كل هذه

المباني كلها إلى معسكر مشترك للفرح والمرح وارتبطت ارتباطاً وثيقاً في ما بينها؛ ورأى السكان الهادئون أنفسهم، مأخوذين نوعاً ما بالذات ومحاطين بالطنين والرنين من قبل الاحتفال الشهير وشغلوا بما يكفي برؤية كل ما أحاط بهم فجأة وسماعه من كل جانب بمئة شكل ونوع، كما شغلوا أيضاً بالإعجاب بكل ذلك وبالضحك الذي أثاره. أما عند الفنانين فقد أيقظت الطبيعة الحرة كما أيقظ الربيع المنبعث من جديد الفطنة والدعابة في أعمق أعماق نفوسهم؛ وكشف الهواء العليل عن خيوط الإحساس بالفرح الأكثر حيوية ونشاطاً، وإذا كانت بهجة الليلة الماضية قامت على أساس اتفاق وترتيب مخطط له فإن بهجة النهار الراهنة أغوت مصادفة وبحرية بقطاف متراخ، كقطف الثمرة من على الشجرة. والآن كانت الثياب، التي لاءمت الإحساس والتمتع الغارقين في عالم الخيال، كأنها عادة متأصلة ولم يمكن أن تكون شيئاً آخر غير ذلك، وفيها اقترف السعداء ألفاً من الدعابات والألعاب والحماقات الجديدة من الأنواع الأكثر ذكاء والأكثر صبيانية على حد سواء وكثيراً ما قُطعت فجأة من غناء مركَّز وعذب الرنين، مرة تحت الأشجار وأخرى من حانة قريبة أو من عصابة من المرتزقة كانوا أحاطوا بابنة الطحان. ولكن على الرغم من كل نسيان الذات بقي كل واحد كما كان، وجرت التصرفات البشرية الأزلية كظلال هادئة على الوجوه البهيجة. كان المستاء يتجهم قليلاً كلما سنحت له الفرصة، والماجن يحرض المؤاخِذ، وخلي البال يحرض اللوَّام على مشاجرة صغيرة؛ وكان المتضايق يفكر من حيث لا يدري في همومه ويتنهد بعمق. وكان المولع بالتوفير والمتوجس خيفة يبالغ خلسة في عد نقوده فيفاجئه المستهتر المتهور، الذي كان أشرف على الإفلاس، ويزعجه بإبداء الرغبة في الحصول منه على قرض، ولكن هذا كله كان يمر مرور الكرام كنسمة عابرة على بريق سطح ماء.

وأنا كذلك وقعت لفترة في ظل سحابة من هذا النوع. كنت مشيت طبقاً لمجرى جدول الطاحون لمسافة طويلة في عمق الغابة وغسلت وجهي بأمواج

المياه النقية النضيرة؛ بعد ذلك جلست على مقعد خشبي على حافة توسع مائي وفكرت ملياً في الليلة الماضية وفي المغامرة الغريبة التي جرت في ردهة بيت أغنيس. نقلني خرير الماء الهادئ إلى نصف نعاس جعل أفكاري تطوف كأنها في منام في ربوع موطني؛ وتخيلت أنني جالس إلى جانب آنّا الميتة على ضفاف مياه الغابة الهادئة في زي مسرحية فليلهم تِلّ؛ بعد ذلك رأيتني إلى جانبها ممتطياً صهوة حصاني عبر ربوع الطبيعة في وقت المساء، ورأيت كل شيء بقلب هادئ كمنظر أيام مضت انتهى من تلقاء ذاته ولم يعد بالإمكان تغييره. ولكن فجأة غابت الصورة وامتقع لونها أمام صورة يوديت التي تجولت معها عبر الليل؛ كنت في بيتها حين حاصره إخوة الرحمة، رأيتها الآن في بستانها المزدان بأشجار الفاكهة ورأيتها آخر مرة في عربة المهاجرين وهي تختفي في الأفق البعيد. أين هي الآن؟ وكيف أصبحت أوضاعها؟ سؤالان اعتلجا في نفسي، وحنيني إليها جعلني فجأة نشيطاً ويقظاً. في أوج سطوع ضوء النهار رأيتها أمامي تقف وتمشي، ولكنني لم أر أي أرض تحت قدميها العزيزين وشعرت وكأنني فقدت بها بعنف وإلى الأبد أفضل ما كنت أملك وما قد أملك في يوم من الأيام.

تذكرت انقضاء زمن الأفاقين فتنهدت وهززت رأسي بهدوء، والآن فحسب غدت أفكاري بفضل دوي الأجراس يقظة ومرتبة تماماً بحيث تذكرت أخيراً الأم أيضاً، بالطبع فقط بصفتها أمراً بدهياً وغير قابل للفقدان ومن ثم زاداً جيداً في البيت؛ لأنني لم أكن أعلم بعد أن شيئاً كهذا قد أفقده في يوم من الأيام قبل بقية الناس. ومع ذلك فقد فكرت بجد عميق في السيدة القابعة في الحجرة الهادئة؛ صحيح أنني بلغت سن الثانية والعشرين، ولكنني لم أقدم لها بعد تقريراً واضحاً عن وضع آفاق مستقبلي في هذه الدنيا ومن ثم حول مسألة تقدمي المحرَز في هذا العالم. قلبت بسرعة جيبي الصغيرة المعلقة بحزام سروالي فوجدت إضافة إلى منديل للزكام وأشياء أخرى جزءاً مما تبقى معي من النقود المعدة للإنفاق التي كانت أمي أرسلتها إلي قبل وقت قصير في

الوقت المحدد وبكل إخلاص، مثلها في ذلك مثل المبالغ السابقة. بالطبع لم يكن ثمة فائدة الآن من عد هذه النقود فأعدت الجيب إلى وضعها الذي كانت عليه من قبل ولم أُخف على نفسي حقيقة أن ميزانيتي الصغيرة في البيت لن تمكن من الاشتراك في العيد. صحيح أن لباس المهرج لم يكن ذا تكلفة باهظة وقد سبق أن اخترته في المقام الأول انطلاقاً من هذا السبب؛ ولكن كان ممكناً أن تأتي لحظة يصعب علي فيها أن أتخلى عن هذا المبلغ المتواضع، غير أنني الآن كنت أفهم أكثر من أمي ما كان ضرورياً ومجدياً لفنان فتي ولا سيما حين دوت أغنية جديدة قادمة من معسكر الفرح والسرور. هززت رأسي من جديد إلى أن قرعت الأجراس فقفزت واقفاً وابتعدت عن المكان.

تسكعتُ والغبطة تعلو محياي وقمتُ بمشاوير كثيرة في ربوع الطبيعة، مرة مع آخرين ومرة أخرى وحدي. عند الظهيرة التقيت إيريكسون ذي الطلعة المهيبة، الذي كان آتياً تواً من المدينة ويخطو باتجاهي. كان أول حديث لنا عن تصرف صديقنا لويس. هز إيريكسون كتفيه ولم يقل كلاماً كثيراً في حين عبرت عن دهشتي وأكثرت من الحديث حول هذا الموضوع مستغرباً كيف يقوى ذاك على القيام بتصرفات شائنة من هذا النوع. أكثرت من لومه بحدة فائقة خصوصاً بصوت عال حين أحسست بذلك الشعور المعتكر بأنني لم أتخلص إلا بشق النفس من حال غير مشروعة لدى معانقتي المضطربة أغنيس في الليلة الفائتة. كان تطاولي في تصرفي ذاك أمراً ثابتاً لأنني شعرت الآن بالثقة نظراً إلى تيقظ تذكري يوديت وحنيني القوي إليها. ومع ذلك فقد كان من المميز أن معايشات تمت في أيام ماضية كانت عندي خطرة وغير لائقة، لا بد أن تستخدم الآن في حمايتي ضد مغريات الساعة الراهنة.

قاطعني إيريكسون بقوله: "أشارط على أنه سوف يتخلى اليوم عن المخلوقة المسكينة ولن يصطحبها معه إلى احتفالات عيد الكرنفال. ولكن ينبغي أن نعد له مقلباً لكي يؤوب إلى رشده. خذ عربة وسافر إلى المدينة وتقصَّ قليلاً! فإذا لم تجد الأرعن المجنون في بيته أو في بيت الفتاة أحضر

هذه معك بلا أي تردد وذلك باسم روزالي وبتكليف منها، وفي هذه الحال لن ترفض الأم مجيئها معك؛ وسوف أتحمل أنا المسؤولية. فيما بعد قد تقول لصديقنا لويس ببساطة إنك أنت نفسك رأيت أن من واجبك القيام بذلك ما دام أوكل إليك بإلحاح أمر أغنيس الجميلة في الليلة الماضية".

وجدت هذه الخاطرة مصيبة فسافرت في الحال إلى المدينة، وفي الطريق التقيت صاحبنا لويس جالساً وحده في العربة ومغطى بمعطف دافئ؛ وكان من شأن طاقيته الملوكية المخروطية الشكل وذيولها ولحيته السوداء المخصلة بغرابة أن دلتا بصورة كافية على مدى التحمس للعيد لدى آخر من جاء إليه.

قال لي لويس بصوت عال: "إلى أين أنت ذاهب؟" فأجبته: "كان ينبغي علي أن أقصدك وأرى إن كنت ستصطحب معك الفتاة الطيبة أغنيس، وفي حال أنك لن تفعل ذلك من تلقاء ذاتك! يبدو الآن أنك أتيت من دونها فعلاً، وأنا أريد أن آتي بها إلى الاحتفال إن لم يكن لديك مانع، وباسمك. الأرملة الجميلة، صديقة إيريكسون ترغب في ذلك".

قال لوس غير مبالٍ قدر الإمكان، على الرغم من أنه بدا عليه شيء من المفاجأة: "افعــل ذلك يا بنيَّ!" وأحكم تغطية جسمه بالمعطف في حين أمر سائق العربة بفظاظة أن يتابع السفر، أما أنا فسرعان ما توقفت بعد ذلك أمام مسكن أغنيس. وكان وقع أقدام الأحصنة ودوران العجلات والتوقف الفجائي قد أحدثت صدى بطريقة غير معتادة في المكان الصغير المنعزل بهدوء بحيث هرعت أغنيس لحظة التوقف ذاتها إلى النافذة وعيناها تتألقان فرحاً. وحين رأتني وأنا أنزل من العربة اكتست نظرتها بغشاوة، ولكنها سرعان ما عاد إليها الأمل من جديد حين دخلت إلى غرفتها.

كانت أمها موجودة أيضاً وأخذت تنظر إلي من كل الجوانب وبينما استمرت تنفض بريشة نعام قديمة الغبار عن هيكلها والصورة المعلقة فوقه وفناجين البورسلان والكؤوس الفخمة والشموع وتنظيف كل ذلك، وبدأت

تتكلم: "أي، الآن تأتي إلى بيتنا أيضاً قطعة كرنفال، حمداً للعذراء ماريا! أي مهرج متفرد بحب الناس هو السيد ضيفنا! يا للدهشة والعجب! ماذا فعل السيد لويس بابنتي؟ فلقد جلست طول الصباح، لا تأكل ولا تنام ولا تضحك ولا تبكي! هذه هي صورتي، أيها السيد، كما كنت قبل عشرين عاماً! لقد رأيتها من قبل أيضاً، على حد ظني! الشكر لسيدنا ومخلِّصنا، لا يزال بالإمكان النظر إليها بتمعن! قل لي بربك، ماذا جرى لطفلتي؟ من المؤكد أن السيد لويس أساء إليها، كنت أقول دائماً إنها لا تزال من الغباء والجهل بمكان عند السيد الناعم! وإنها لا تتعلم شيئاً ولا تتصرف بلياقة ومهارة. أجل، أجل، احذري يا أغنيس! أتتعلمين ذلك مني؟ ألا ترين إلى هذه الصورة، أي لياقة كنت أملك حين كنت شابة؟ ألم يكن منظري شبيهاً بامرأة نبيلة؟".

أجبت عن كل هذه الأسئلة بتوجيه دعوتي إلى أغنيس باسم كل من لويس والسيدة روزالي؛ وذكرت بعض الأسباب التي حالت دون مجيء ذاك الرجل بنفسه، بينما قالت الأم مراراً: "هيا، هيا، نيسي! يا إلهي، كيف يقع الأغنياء في هذه الحال بعضهم على بعض، قصيرة القامة بعض الشيء، قصيرة القامة بعض الشيء هي هذه السيدة الفاضلة، ولكنها جذابة فيما عدا ذلك! الآن يمكنكِ تعويض ما فقدت وما ارتكبتِ ليلة البارحة! اذهبي، البسي ثيابك أيتها الجحود وتزيني بالأشياء الثمينة التي أهداها إليك السيد لويس! هناك الهلال ملقى على الأرض! ولكن لا بد أولاً من أن أرتب لك شعرك، إذا ما سمح لي السيد بذلك!".

جلست أغنيس في وسط الغرفة، واحمرت وجنتاها بهدوء بفعل بصيص أمل كان يتنامى في داخلها من جديد. والآن سرحت الأم شعر ابنتها بمهارة كبيرة. فلم يعدَم تمشيطها ظرفاً ولطفاً، وحين أمعنتُ النظر في السيدة فارعة الطول ورأيت خلقة وجهها ومعالمه، التي مازالت في منتهى الجمال، كان لا بد لي من أن أعترف بأن لغرورها السابق ما كان يسوّغه.

جلست أغنيس عارية العنق، يغطيها سواد الشعر المسترسل، وحين كانت الأم تمشط الغدائر الطويلة وتمسحها بالكريمات وتضفرها ثم ترجع إلى الوراء

لمسافة بعيدة، كنت أُمنح من جراء ذلك نظرة مفعمة بالهدوء المريح. كانت تتحدث باستمرار في حين كنا نسكت نحن الباقيان ونعرف السبب. إلا أنني لاحظت من كل أحاديثها أن أغنيس لم تُخبر أمها بعد شيئاً عن سوء طالعها في الليلة الفائتة واستنتجت من ذلك كم خنقها هذا الأمر بكل وحشية وعنف.

أخيراً عاد شعر أغنيس تقريباً إلى ما كان عليه ليلة البارحة ودخلت مع أمها إلى غرفتهما المشتركة لكي ترتدي ثياب ديانا التنكرية من جديد؛ ولكن ما إن استطاعتا إنجاز العمل إلى حد ما حتى ظهرتا من جديد وأكملتا اللبس بحضوري لأن الأم أرادت أن تشبع رغبتها في الحديث وأن تعرف قدر الإمكان عن عيد الكرنفال وكل ما يجري فيه من أحداث. ولكن بعد ذلك أتت بقطعة كبيرة من الشوكولاته، أكلتها المفضلة، التي كانت أعدت مكوناتها بالإضافة إلى كعك وفطائر منذ الصباح الباكر من أجل الزيارة المتوقعة للمتنكر في شخص الملك الآشوري.

كان لا بد للشراب العابق الآن، الذي كانت أعدته السيدة القنوع، من دعم الغداء في الوقت ذاته، وقد نشطت في شربه متلذذة بطعمه لأنها صنعت كمية كافية منه؛ وكذلك تناولت أغنيس فنجانين من الشراب والتهمت قطعة كبيرة من الكاتو، أما أنا فقد شاركت في ذلك بكل سرور على الرغم من أنني سبق أن تمتعت من قبل بأكل أشياء مختلفة. هكذا يعايش المرء استضافات شتى في أيامه؛ لا أكاد أصدق أنني ذات مرة جلست في لباس كهذا في أحد الآثار المعمارية المزينة بفنيات رائعة بين ديانا وسيبلّي المتقدمة في السن وتناولت بهدوء وطمأنينة طعام الفطور.

ولأن الطقس كان جميلاً جداً وبناء على طلب الأم، التي أرادت إظهار مفخرة أمام الجيران، فقد أُنزل غطاء العربة حين انطلقنا وأخذت هي تلوح لنا بمنديل النافذة المفتوحة وسط تحيات وداع وتمنيات بالسعادة. ولكن أغنيس كانت تتنهد في أثناء ذلك خلسة ولم تتنفس بحرية أكثر قليلاً إلا لدى وصولنا إلى أمام البوابة. ودون أن تذكر أحداث الليلة الماضية ولو بكلمة واحدة، بدأت

تتحدث. كان علي أن أخبرها عن دواعي اللهو في هذا اليوم وبمن سنلتقي هناك في العراء ومتى سنعود إلى البيت. لأنها لم تجرؤ بعد على أن تفترض علناً أنها لن تعود برفقتي إلى بيتها بل مع لويس. لم أستطع أن أعطيها الخبر اليقين بل أفصحت عن ظن عام أن الجمع كله سوف ينطلق معاً وإذا ما عاد الأمر إلي، فإن الناس لن يعودوا في هذا اليوم إلى بيوتهم.

قالت أغنيس وعلى وجهها شيء من السرور إنها ستبقى إذاً هي أيضاً مع الباقين، كما لو أنها تأخذ الأمر على محمل الجد. وحين رأينا البيت الريفي الأبيض وهو يلمع على بعدٍ قريب، دبت الحركة من جديد في أوصال الفتاة؛ فاحمر وجهها وامتقع لونها وحين ظهرت على جانب الشارع فوق تلة صغيرة كنيسة صغيرة، طلبت التوقف لكي تنزل من العربة.

وهرعت وهي تجمع ثوبها الفضي صاعدة على الدرج إلى أن دخلت إلى الكنيسة الصغيرة، وخلع الحوذي قبعته ووضعها بجانبه على المقعد ثم صلَّب على نفسه وأدى، مستغلاً وقت الفراغ الورع، صلاة "أبانا الذي في السماء...". في هذه الحال لم يبق لي إلا أن أدخل بكل ارتباك واضطراب إلى الكنيسة وأنتظر أن يمر الحدث الطارئ غير المتوقع. على أحد أعمدة الباب رأيت صلاة مطبوعة ومعلقة بثبات خلف لوح من الزجاج وكانت تحمل على وجه التقريب العنوان التالي: صلاة إلى الألطف والأبرّ والأغنى آمالاً، القديسة العذراء ماريا، الشفيعة عند الله وافرة الرحمة والجائدة بالعون. مجازة رسمياً وينصح باستخدام فعال لها من أجل قلوب نسوية مغمومة، تلك نصيحة السيد الأسقف الجدير بكل احترام، الخ. وأُلحق بنص الصلاة نص آخر يتضمن طريقة الاستخدام لدى تلاوة صلوات كثيرة وأقوال أخرى. نص الصلاة ذاته كان مسحوباً على ورق مقوى وملقى هكذا كيفما اتفق فوق بعض المقاعد الخشبية. ما عدا ذلك لم يوجد في داخل الكنيسة الصغيرة سوى هيكل بسيط عُلق به غطاء بلون بنفسجي حائل. لوحة الهيكل كانت تُظهر التحية الإنكليزية مرسومة بيد خشنة وأمام اللوحة لوحة صغيرة للعذراء بفستان

فضفاض متحجر من الحرير والحلي المعدنية المزيفة من جميع الألوان. وحول الهيكل علقت بالجدار قلوب مضحَّى بها من الشمع بكل القياسات والأحجام ومزينة بطريقة هي غاية في التنوع؛ في الواحد من هذه القلوب شُكَّت زهرة صغيرة من الحرير وفي آخر شعلة من رقائق مذهبة والثالث اخترقه سهم. ومن جديد قلب آخر كان ملفوفاً تماماً بخرقة صغيرة من الحرير الأحمر ومحاطاً بخيوط ذهبية وآخر كان موخَزاً بدبابيس كبيرة كوسادة إبر ودبابيس لوصف العذاب الأليم، الذي كانت عانت منه المتبرعة بالقلب؛ بالمقابل بدا قلب مطلي بلون أخضر ومزين بورود حمراء كثيرة كأنه ينبئ بالشفاء الناجح، الذي يدعو إلى الرضا والسرور.

للأسف ضاعت علي فرصة قراءة نص الصلاة شخصياً، لأنني كنت منشغلاً فقط بالنظر إلى المصلية، التي ركعت بثوب الآلهة الوثني والهلال الطاهر على جبينها على درج الهيكل أمام تمثال العذراء المصنوع من الشمع، وتلت نص الصلاة بشفتين مرتجفتين وذلك من على ورق مقوى، ثم طوت يديها ورفعت نظرها ودمدمت أو همست ببطء العدد المفروض من بقية الأقوال المأثورة، الذي لم يكن لحسن الحظ كبيراً. في هذا الهدوء الكبير وبهذه النظرة أحسست بتداخل الأزمنة بعضها ببعض وكدت أشعر كأنني عشت قبل ألفي عام وأقف الآن أمام معبد صغير من معابد فينوس في مكان ما من ربوع طبيعية قديمة. ولكن خُيل إلي أنني مرتقٍ إلى ما لا نهاية فوق المشهد، مهما يكن ظريفاً، وشكرت خالقي على الشعور الاعتدادي والحر، الذي طغى علي.

أخيراً بدا أن أغنيس ضمنت ضماناً كافياً عون ملكة السماء؛ فنهضت واقفة وهي تطلق تنهيدة عميقة ثم مشت إلى وعاء الماء المقدس الذي كان معلقاً بالقرب مني. فرأتني كيف كنت أتمعن في النظر إليها مستنداً إلى الباب وتذكرت من جل مواقفي أنني ملحد. فغطَّست وهي خائفة المرشَّة بعمق في الوعاء ثم هرعت بها باتجاهي ورشت وجهي كلياً بالماء في حين كانت ترسم بالمرشَّة صلباناً كثيرة في الهواء. بذلك كانت بللتني للمرة الثانية في أقل من

اثنتي عشرة ساعة، أولاً بدموعها والآن بالماء المقدس وكنت أحرك عنقي بطريقة مزعجة يميناً ويساراً لأن الرطوبة سالت في نقرتي. ولكن المخلوقة الميثولوجية بصورة مزدوجة كانت مطمئنة على التأثير الضار لإلحادي؛ فأمسكت بذراعي لكي أصحبها من جديد إلى العربة، التي كان سائقها انتهى منذ وقت طويل من انتعاشه الديني وأصبح جاهزاً لمتابعة السفر. وحينما رآني من جديد افتر ثغره عن ابتسامة غريبة لأنه كان يعرف ما امتزج بمكان الرحمة الصغير من عقائد شعبية. أما ما تعلق به هو ذاته فربما راق له أن يأخذ معه بركَة الحب الرحيمة، مثله في ذلك مثل رجل مدمن بخشونة على الشرب ولكنه تلقف سهواً كأساً صغيراً من مسكِر معطر ومحلًّى كان صادف أن وجده أمامه.

المقر الريفي، الذي وصلنا إلى القرب منه، كان يعج بالحياة؛ كان يقع في أرض واسعة من الحدائق ويظهر طرازاً مختلطاً من البناء بحيث كان يستخدم فيما مضى لأغراض مطعم وهو منذ فترة قصيرة وفي الوقت الحالي قيد التحويل إلى منتجع صيفي لإحدى العائلات وثمة مستأجر أو رجل أعمال في الوقت ذاته كان يدير شؤونه ويحرص على القيام بمختلف الخدمات وتلبية الرغبات. وهكذا عاد علينا الآن بالفائدة على أحسن وجه تناول القهوة التي كانت السيدة روزالي أمرت بإعدادها لاستقبال الضيوف. كانت أشعة الشمس دافئة إلى حد أن كثيرين شربوا قهوتهم في العراء أو أمام أبواب الغرف المعدة حديثاً لكي تطل على الحدائق، في حين جلس آخرون في داخل المبنى حول نار الموقد أو حتى في حجرة قديمة من حجرات المطعم سابقاً بجانب مدفأة موقدة.

لم أكن أكثر جسارة من السيدة التي في عهدتي ورأيتني أتقدم بهدوء إلى الأمام بمعيتها؛ ولكن سرعان ما اكتشفتنا المضيفة الجميلة، التي تحركت الآن بخفة ومرح بثوب حريري أكثر أبهة وأصطحبت اغنيس بلا إبطاء أو تردد إلى داخل البيت.

وقالت: "إن لباس الآلهة لا يريد أن يتلاءم تماماً مع طقسنا ولا سيما معنا نحن النساء! دعينا ندخل إلى البيت حيث توجد نار تدفئنا! وملك بابل أو نينوى، السيد لُيس، هو أيضاً في داخل البيت لأنه قد يموت من البرد لو بقي خارجه".

كان لويس بالفعل عجز عن تحمل البرودة في العراء بذراعين عاريين وبلباس من قماش الباتيست فلم يجلس بأفضل مزاج بجانب مدفأة كبيرة؛ والقهوة أيضاً، التي كانت عند آخرين جيدة ومجدية، لم تستطع تبديد الهموم التي خيمت على جبينه. اللباس اليومي، الذي التقى فيه دونما توقع لا السيدة فينوس فحسب بل إيريكسون أيضاً، كان من شأنه أن أثقله بهذه الهموم، وأكثر من ذلك أثار قلقه أيضاً النشاط الفعال لصديقه الشاب الذي كنت تراه تارة يدحرج برميلاً من أفضل البيرة في فسحة البيت وتارة أخرى يقطع بعض الخبز أو يقوم بأعمال أخرى وكأنه كان يتقاضى في مقابل ذلك أجراً يومياً. لذلك فإن رؤية أغنيس لم تكن عند الآشوري المتجهم أمراً غير مرحب به في هذه الظروف. فعرض عليها في الحال بكل رقة ولطف ذراعه بوصفها تعويضاً مناسباً عن فترة الانعزال أو غياب روزالي، التي كانت منشغلة أمام البيت لا باستقبال رفاق العيد الآتين من الغابة فحسب بل بالترحيب كذلك بمختلف الأشخاص الذين كانوا يمتون لها بقرابة أو بصداقة؛ لأنها كانت طلبت في لحظة من الاستعجال أيضاً استدعاء أناس كهؤلاء. كانت حدة الولع غير المعتادة نفسها، التي انتابت لويس، دعته أيضاً كبطل حرب في ساحة القتال إلى ممارسة تيقظ مزدوج؛ فقد كان الآن في غنىً عن إصابة برد خطرة أو حتى مرض مميت فكان لا بد إذاً من أن يتدارك سخف لباسه بتحفظ حذر؛ وفي هذه الحالة أسهمت ديانا الفضية، التي كان اشترى لها ثياباً فيما مضى، إسهاماً كبيراً في التستر على وضعه.

وهكذا كانت هي الآن بجانبه، أي في موطن حبها، وبدت أنها حصلت على حقها، ولكنها لم تُظهر انتصاراً ولا تعالياً، بل اكتفت بإطلاق زفرات أكثر هدوءاً مطفئةً بذلك نار الجوى حتى إشعار آخر؛ لأنها كانت كابدت في

وقت قصير الكثير من العذاب، الذي لا تقدر أن تنساه بسهولة. وبدلاً من ذلك فقد مشت بكل ما تجمع لديها من الجد عبر الحجرات مستندة إلى ذراع الملك الكبير الجميل، الذي انتحل شخصية نمرود قديم زاعماً أنه بتوفيقه المعهود بصفته صياداً أفلح في أسر آلهة الصيد ذاتها. وحين مرا فقط بمرآة كبيرة أدركت هي بصورة أوضح تغير زيه وبريقه وشكله وتأكد لها أنها هي ذاتها لا تضارعه ثم رأت نظرات الحاضرين التي تتبعت الزوج المتألق في حقيقة الأمر بكل إعجاب. هنا علت وجهها الأبيض حمرة خفيفة بهيجة؛ إلا أنها تماسكت بشجاعة وحافظت على مظهرها ثابت الجأش على الرغم من أنها ربما كانت الشخص الوحيد في ذلك البيت، الذي أغوته زينة لويس اللافتة للانتباه وذلك بالصورة التي أرادها سلوكه المضلل.

في أثناء ذلك دوت من أمكنة البيت الأكثر نأياً موسيقى راقصة مغرية، كما لا يُتوقع غير ذلك من الشبان ومن فترة عيد الكرنفال. ففي إحدى صالات المطعم السابق كانت لا تزال منصة العازفين الصغيرة على حالها وقد علقت بها سجاجيد متنوعة الألوان وزينت بنباتات الأصص. على هذه المنصة جلس أربعة فنانين عازفين كانوا جلبوا معهم آلاتهم الموسيقية، التي تعودوا أن يعزفوا عليها معاً في بعض الأمسيات بوصفهم مرتبطين بعضهم ببعض ويعيشون حياة متعقلة، وقد أطلق عليهم اسم عازفي الكمان الأتقياء الأربعة لأنهم من جهة بدافع الهواية ومن جهة أخرى أيضاً لكي يحققوا كسباً إضافياً صغيراً كانوا يشاركون في أيام الأحد في العزف ضمن جوقة واحدة من الكنائس الكثيرة في المدينة. كان رئيسهم شاباً جميلاً وذا بشرة ضاربة إلى السمرة، من منطقة الراين وذا بنيان متين، مرح العينين وساذج الفم. وعُرف بين الفنانين بلقب صانع الله، ليس لأنه كان يصنع أدوات فضية بأشكال جيدة لمصلحة الكنيسة فحسب بل كان ينحت في العاج بنظافة فائقة صلباناً وصوراً للعذراء، وكان أتى من بلاد الراين لكي يعمق تأهيله في هذه التدريبات والتمارين. كان محبوباً في كل مكان يحل فيه ولم يُظهر أبداً عقلية متعصبة، لا

بل أجاد رواية قصص كثيرة مضحكة عن القساوسة ورجال الدين. على هذا النحو أوى إلى الروح الكاثوليكية كما إلى عادة قديمة يتعذر أن تتغير ولم يفكر ملياً في تغييرها أبداً ثم إنه كان يحمل معه دائماً برميلاً من نبيذ خاص من صنع موطنه ويرسله إلى هناك على جناح السرعة للملء من جديد كلما فرغ.

كان الملقب بصانع الله يعزف على آلة التشيللو بلباس كرَّامٍ من موكب باخوس؛ وعلى أول كمان عزف ملك الجبل الذي كان ترك لحيته جانباً وظهر الآن بصفته نحاتاً. كان ينمذج، كما قيل، منذ عامين نحتاً يجسد عملية حمل صليبٍ ولكنه لم يستطع أن يحيد عن قدوة كلاسيكية معروفة؛ وعوضاً عن ذلك أجاد أكثر في العزف على الكمان. العازفان في الوسط كانا نقاشي زجاج؛ وقد صنعا على نوافذ الكنائس نماذج السجاد الرائعة وأعمالاً أخرى ملحقة ولم ير الناس أحداً منهم من دون الآخر. وكانوا أتوا إلينا من موكب نقابات نُيرنبيرغ فانضموا إلى جماعة الحرفيين المهتمين بالشعر والموسيقى؛ ولكنني كنت أعرف كل هذه الموسيقى من مائدة الغـــداء، التي اعتدت أن أذهب إليها في مطعم رخيص الأسعار. كثيرون من الإخوة الطيبين كانوا يتناوبون هناك يومياً على الطاولات المشغولة باستمرار عن آخرها؛ غير أن نقاشَي الزجاج كانا الوحيدين اللذين وضعا نقودهما في كيسين صغيرين مربوطين تماماً وممتلئين؛ لأنهما هنئا بكسبهما المتواضع لكن الثابت، وعاشا مقتصدين وكانا يكسبان في كل يوم أحد غولدناً إضافياً من عزف الموسيقى في الكنائس.

ولكن الأربعة فعلوا اليوم من أجل الفرح والسرور أكثر مما كان ينبغي وأغروا الناس بعبارات مهذبة للإقبال على الرقص. وسرعان ما دار نصف دزينة من الأزواج بارتياح في المكان الرحب، من بينهم أغنيس ولويس التي كانت تترجّح في ذراعه بسعادة متيقظة، لأول مرة منذ بداية العيد كله. هنا بدا أن صلاتها في الكنيسة أجدت نفعاً؛ بالطبع كان بين الجمع أيضاً عازفون على حد كبير من التقى ولا سيما الملقب بصانع الله الذي كان يقتفي أثر قوام

أغنيس الممشوق بعينين براقتين ويضغط في كل مرة تقترب فيها منه على قوس الكمان بقوة أكثر، لكن بطراوة أكثر أيضاً، على الأوتار معبراً بذلك أرق تعبير عن إعجابه بالفتاة. أما أنا فكنت أجلس بغية الارتياح بجانب جرة صغيرة مليئة بالبيرة الطازجة إلى إحدى الطاولات الصغيرة وأراقبه بشيء من الاستمتاع مدركاً تماماً كم كان هذا المشتغل بالفضة والعاج على اقتناع وإعجاب بهذه الإنسانة الرقيقة الناعمة.

طوال بضع ساعات كان سير الأمور يصب في رغبة هذا العازف؛ ولم يكن من عادة عازفي الكمان الأتقياء أن يتطوعوا للعزف مدداً طويلة لئلا يتعب الناس وليبقى أيضاً وقت كاف لتسلية هادئة مريحة. اقتربت الشمس من المغيب وبدأت العتمة تدب في البيت؛ كان إيريكسون يظهر في كل مكان، وكأنه المسؤول عن شؤون وإدارة البيت أو أمين البلاط فيه، ويأمر بإشعال الأضواء وتعليقها ووضعها في الأمكنة المناسبة. ثم يختفي من جديد لكي يعنى في صالة أخرى جديدة بأمر ترتيب العشاء البسيط، الذي أرادت الأرملة ذات المزاج المرح تقديمه لضيوفها: بقدر ما تيسر إنجازه على عجل؛ هكذا قال الرجل الذي لا يكل ولا يمل، وكأن الأمر شأن خاص به.

أما لويس فكان من حين لآخر يستطلع الأوضاع في أمكنة أخرى؛ إلا أنه أخيراً غاب كلياً ولم يعد. انتظرناه ما يقرب من ساعة من الزمن؛ لاذت أغنيس بالصمت ولأياً كانت تجود علي بجواب إذا ما كنت وجهت كلامي إليها؛ ولم تشأ أن تتحدث مع آخرين أيضاً ولا أن ترقص. وأخيراً حين رأيت أنها سئمت الانتظار وبدأت تعاني من جديد اقترحت عليها أن نتجول في أرجاء البيت الأخرى فنرى ما يجري هناك من أمور كثيرة. فوافقت على اقتراحي وقدتها ببطء عبر الأمكنة المختلفة حيث كانت تلهو في كل مكان جماعات متعددة إلى أن وصلنا إلى حجرة صغيرة كان يُلعب فيها بارتياح بورق اللعب إلى طاولتين صغيرتين أو ثلاث. وإلى إحدى الطاولات جلس لويس مقابل سيدة البيت بين رجلين أكبر سناً وأمتع نفسه بلعبة الهويست؛ كان

الرجلان الأخيران من أقارب روزالي التي رغبت في أن توفر لهما تسلية ممتعة ومريحة، وبالطبع كان لويس أسرع إلى مشاركتها في هذه التضحية. كان سعيداً ومنغمساً في وضعه إلى حد أنه لم يلاحظ أننا كنا نشاهد اللعبة وأن مشاهدين آخرين كانوا تجمعوا أيضاً حول الطاولة.

انتهت اللعبة؛ وأسفرت عن كسب لويس وروزالي بعض القطع الذهبية من الرجلين المسنين، الأمر الذي حرك بوصفه دلالة مواتية ذلك المتمادي في غيه، لويس، إلى حد أنه لم يستطع أن يخفي فرحته. ولكن روزالي جمعت أوراق اللعب ورجت اللاعبين، الذين انضم إليهم أيضاً لاعبو الطاولات الأخرى، أن يستمعوا إلى كلمة تريد أن تلقيها.

بدأت روزالي بكل ما أوتيت من ظرف الفصاحة: "اقترفتُ حتى الآن ذنباً كبيراً بحق الفن إذ إنني، ولو نعمت بمستلزمات الحظ السعيد، لم أفعل شيئاً لمصلحته! وتخجلني أكثر حقيقةُ أنني أحس بالارتياح لدى وجودي بين الفنانين، وأظن أن أفضل طريقة للتعبير على نحو ما عن اعترافي بالجميل للحضور المشرف، الذي تفضل به علي هؤلاء الموسيقيون المرحون، هي أن أبدأ بالقيام بعمل مفيد. ولكن من مواصفات الحُماة وفاعلي الخير المعروفة الاعتماد على مشاركين في العمل لقضيتهم وأن يمارسوا فعالياتهم على نطاق واسع قدر الإمكان لكي يضمن الخير مزيداً من تثبيت أقدامه في هذا العالم. لذلك اسمعوني، أيها الأصدقاء الأعزاء! بعد ظهر هذا اليوم حين حمتُ حول هذا البيت لكي أنادي أحد الخدم، وجدت في زاوية خفية من الحديقة أفتى ضيوفنا وأرقّهم وهو الوصيف المسمى "الذهب" التابع للسيد ملك الجبل، الذي أنفق كنوزه بسخاء على موكب عيد الكرنفال. الصبي الذي لم يبلغ بعد سن السابعة عشرة كان يقف بجانب رفيقه، الوصيف المسمى "الفضة" وفي يده رسالة مفتوحة، ممتقع اللون ومذهولاً وكابتاً في عينيه الجميلتين دموعاً ساخنة ثقيلة. في هذا الوضع العلني والمتسم بالمشاركة الوجدانية، حيث نحن الآن جميعاً، لم يسعني إلا أن أقترب وأستفسر بلطف عن سبب معاناة كهذه. عندها سمعت أن الجرائد المسائية ليوم

أمس أخبرت عن حريق كبير شب في المدينة البعيدة موطن الصبي المحزون وهذا الحريق لايزال مستعراً منذ أيام، في حين لم نكن في غمار فرحتنا هنا نعرف أي شيء عن الحدث المدمر. واليوم يُحضر الوصيف "الفضة"، الذي ذهب في الصباح الباكر بشكل عادي للنوم لكي يستطيع المرور ظهراً على رفيقه ويعود بصحبته- كونهما ربيبيّ أكاديميتنا ويعملان معاً جنباً إلى جنب-، اليوم بعد الظهر يُحضر معه تلك الرسالة إلى هنا خارج البيت حيث كان يبحث عن صديقه. تخبر الرسالة عن أن الشارع كذلك، الذي ولد فيه ذلك الوصيف وتقيم فيه أمه المتقدمة في السن، تحول إلى رماد وغدت الأم بلا مأوى. سوف أكلف السيد إيريكسون بسرعة بالاستفسار عن المزيد من الوقائع المتعلقة بهذا الأمر. كان الصبي الذي في مقتبل عمره والموهوب إلى حد غير عادي أُرسل إلينا وهو في سن مبكرة على غير العادة لكي يرتقي في وقت مبكر أيضاً بفضل بعض الوفورات الزهيدة إلى المراتب الأعلى في تأهيله، فكانت تلك مجازفة بدا حتى الآن أن تسويغها ممكن عن طريق الاجتهاد الموفق والجهد الذي بذله التلميذ في هذا المجال. والآن وضع كل شيء موضع تساؤل! ربما ليس وسائل الوجود فحسب هي التي التهمتها النار وفُقدت إلى الأبد، بل لا يستطيع الصبي المسكين الآن كذلك حتى إلى الإسراع في التوجه إلى أمه الغارقة في التعاسة والفوضى لأنه أنفق ما كان يملك من بعض المال، الذي ربما كان ممكناً استخدامه لهذه الغاية، على اشتراكه في هذا الكرنفال؛ إذ كان أقنعه بذلك آخرون صعب عليهم الاستغناء عن شكله الموفق صبياً يصلح للقيام بدور الوصيف، ولأنه على كل حال كان يتوقع أن يرسل إليه مبلغ بديل من أهله والآن تعذر ذلك إلى الأبد. وبسبب استهتاره الموهوم يلوم نفسه الآن أشد اللوم ويريد أن يفنى في اتهاماته لنفسه وكأنه هو ذاته أشعل تلك النيران التي أتت على كل شيء. دفعت الوصيف التعيس، الذي لم يلائمه نثر الذهب، فوراً إلى أن يذهب إلى مسكنه ويحزم أغراضه؛ ولكن يبدو لي أننا ينبغي أن نحرص على أن يعود إلينا ويتابع تعلمه حالما تزود أمه بما تحتاج ويهدأ بالها. باختصار: أريد أن أخصص له منحة

متواضعة تكفي لمدة عامين وأبدأ بها الآن هنا في هذا المكان! سأفرد الآن أوراق الشدة وأدير اللعبة كما كنت أراها بكل أسف في مصايف على شاطئ البحر حين كنت أرافق والديَّ المرحومين إلى هناك. من يخسر فليخسر؛ ومن يربح فعليه أن يضع نصف ربحه في هذا الصحن الذي هو بمثابة صندوق المنحة! غير الفنانين فقط هم الذين يُسمح لهم باللعب؛ باستثناء السيد لويس، الذي لا يعيش من فنه، كما أسمع!".

بعد أن قالت هذا الكلام سحبت محفظة نقود مثقَّلة ووضعتها أمامها على الطاولة ثم خلطت أوراق اللعب ونادت: "هيا مارسوا لعبتكم، أيها السادة والسيدات! أحمر أم أسود؟".

الجمع، الذي فوجئ قليلاً بالأمر، تردد بضع ثوان؛ فما كان من لويس عندئذ إلا أن افتتح اللعب وقامر بطريقة فروسية بقطعة ذهبية وربح. دفعت له روزالي نصف الربح وألقت النصف الآخر في علبة للسكر مفرغة من محتواها وكانت مصادفة في متناول اليد.

قالت روزالي بفرح ولطف وتودد: "لك أعظم الشكر، يا سيد لويس! من يريد متابعة اللعب؟ ".

رجل متقدم في السن كانت تناديه بقولها "أيها الخال الشجاع!" قامر بقطعة من فئة غولدنَيْن وربح أيضاً. فألقت غولدناً واحداً في الصحن وأعطته الآخر إضافة إلى المبلغ المقامَر به. ثلاث سيدات أو أربع تشجعن بذلك وجازفت كل واحدة منهن في وقت واحد بقطعة غولدن فخسرن؛ روزالي رمت لكل واحدة نصف غولدن في الإناء. ولكي ينتقم للسيدات، كما قال، ألقى لويس من جديد بقطعة ذهبية في اللعبة ثم تلاه بعض الرجال بقطع من فئة تالريَنْ والسيدات أيضاً قامرن مجدداً بأنصاف غولدن بل بقطع غولدن كاملة. وتناوب الربح والخسارة بالتساوي تقريباً، ولكن كان يسقط دائماً شيء من النقود في علبة السكر، وإن كانت العملية تتم أيضاً ببطء فقد نما صندوق المنحة، كما سمته روزالي، نمواً ملحوظاً.

ولكن لويس قال حينئذ بصوتٍ عالٍ: "اللعب يسير ببطء شديد!" ثم قامر بأربع قطع من الذهب، أي ما تبقى في محفظته نقداً. وحين ربحت روزالي وألقت بالنصف في الصحن قالت: "شكراً جزيلاً، مرة أخرى!" لم يكن واضحاً تماماً إن كان لويس شاطرها الفرحة؛ إلا أنه أمسك بكرسي وجلس مقابل المرأة الجميلة وهو يقول: "لا بد من أن تأتي الأمور بصورة أفضل!" لم يعتد إطلاقاً أن يخرج من بيته دون أن يحمل معه مبلغاً كبيراً من المال بأوراق نقدية طبقاً لعادة قديمة من عادات سفره. والآن كان يحمل أيضاً محفظة نقوده مليئة بالمال في مكان ما في ثيابه، فأخرجها وقامر بورقة نقدية من فئة المئة غولدن الرايني ثم قامر، بعد أن خسر الأولى، بالثانية والثالثة وهلم جراً حتى العاشرة، التي كانت هي الأخيرة. الحدث كله، نقلة إثر نقلة دون إبطاء، لم يستمر أطول من دقيقتين اثنتين إذ كانت روزالي اكتفت بتوجيه نظرة وحيدة بهيجة وابتسامة وحيدة دون أن تتنفس إلى لويس من أول ورقة حتى آخر ورقة نقدية رمتها في الصحن دون أن تخصم منها النصف. السرعة الخاطفة، التي رافقت لعبة المصادفة، أضفت على المشهد ظرفاً مميزاً وولدت الانطباع بأن مديرة اللعبة المتألقة تستطيع أكثر من أن تأكل خبزاً، يعني أنها متمكنة من ممارسة فنون خفية.

قالت روزالي: "الآن جمعنا ما يكفي! ألف غولدن غير القطع النقدية! لا ينبغي لصبي كهذا أن يبعثر في عام واحد أكثر من ٥٠٠ غولدن. إذاً نستطيع بذلك أن ننقذه لمدة عامين ونريد أن نودع هذا المال في البنك، ولكن غداً ينبغي عليه قبل كل شيء أن يسافر إلى بلاده".

بعد ذلك تخيلت لنفسها ولنا كيف سيتم مشهد التعارف بين الأم المتضررة من الحريق والابن الذي ظهر فجأة من غير توقع جالباً معه العون والمساعدة؛ ووصفت مرة أخرى كيف بوغت الصبي المتألق، البعيد عن أهله، وسط تهليل عيد تنكري من قبل النبأ المرعب ووقف هكذا على غير هدى يائساً وصار يغالب الدموع المريرة. كانت في فرحتها الآن جميلة إلى حد

وصلت معها إلى أوج الجاذبية الأنثوية وألقت على وجه لويس بريقاً من جمالها حين مدت إليه يدها من فوق الطاولة وشدت على يده وهزتها بحرارة وهي تقول: "ألا يسرك هذا القدر البسيط من أشعة الشمس، الذي نشكرك عليه؟ فلولا كرمك السريع، لما أنقذ وضعنا بهذه السرعة! ينبغي أن تكون أيضاً رئيسنا وأن تصطحبني في مساء هذا اليوم إلى المائدة!".

بهذه الكلمات بدا أن تفكيرها اتخذ منحىً آخر؛ فنهضت واقفة وطلبت المعذرة ثم انسحبت. إثر ذلك مباشرة أسرع لويس بالانصراف عبر الباب نفسه وكأنه أراد أن يقول شيئاً كان نسيه. وبعد نصف ساعة ظهرت روزالي من جديد ممسكة بذراع إيريكسون لكي تذهب إلى المائدة على رأس ضيوف بيتها المرحين. لم يعد لويس؛ وقيل إنه ذهب إلى معسكر الغابة الذي أراد أيضاً أن يراه ويدرسه في حاله اللاهية المرحة.

ما حدث في أثناء ذلك تناهى فيما بعد إلى حد كبير بالاقتران مع سياق الأحداث إلى معرفة أولئك الذين كان لهم علاقة بالأمور بطريقة أو بأخرى. كان لويس لاحق بخطى سريعة وتصميم مفاجئ السيدة التي كانت اختفت فلحق بها إلى غرفة منعزلة حيث أرادت أن تجري مع شخص غيره حديثاً قصيراً. فأمسك بكلتا يديها وصرح لها بحبه الجدي والمقدس وطلب منها أن تحقق له سعادة حياته وهدوء باله على أساس أنها هي الوحيدة التي يمكن أن تمنحه ذلك. قال لها إنها سيدة النساء، السيدة الإلهية التي توجد على مر الزمن واحدة فقط في العالم، جميلة ومضيئة وبهيجة كنجمة الزهرة، ذكية وطيبة القلب وليس لها شبيهة إلا هي. وتابع يقول إنه يعرف الآن لماذا كان يتخبط في الخطأ والتقلب في وقت كان يحدس فيه بالأفضل ويبحث عنه فلا يجده؛ ولكن الآن عليه أيضاً واجب لا يعرف اللين وله حق عصي على التصرف في انتزاع هذا الأفضل. لا يجوز لأي حسبان مهما كان أن يمنعه في ساعة مصيرية كهذه من أن يخطو عبر الجسر المترنح الضيق إلى عالم الوجود ويعرض عليها الحياة غير المجزأة لا بل التامة، التي لا تكدر صفوها أي

مصادفات، حياة سوف تكون هي الحتمية ذاتها، لا الحتمية الحديدية بل الذهبية. لأنه لا يمكن أن يوجد أي مخلوق حي قادر على معرفتها وتقديرها مثله، هذا ما يحس به بكل تأكيد وبكل توهج كنار ملتهبة، وهج هو في الوقت ذاته ضوء، ضوء الرأي الذي لا بد أن يكون متبادلاً.

وما إلى ذلك من كلمات كبيرة كهذه لم يكن معتاداً على قولها؛ ولأنه ظهر في أثناء حديثه طيباً ومندفعاً لا بل رائعاً فقد تعذر على روزالي أن ترفض اقتحامه حياتها بهذه الصورة بطريقة خبيثة أو جارحة، مع أنها أحست بذهول مقيت لدى ظهوره في بيتها اليوم بلباسه التنكري.

سحبت يديها مذعورة من بين يديه ورجعت إلى الوراء ثم قالت: "يا عزيزي السيد لويس! لا أفهم من أحاديثك الغامضة سوى أن الضوء والرأي المتبادل الواردين فيها لا وجود لهما تماماً في حياتنا. لستُ سيدة النساء وأدعو الله أن يحفظني من ذلك لئلا أكون إجمالي كل الأوهام والضعف! أنا مخلوقة بسيطة ومحدودة ولا أستطيع أن أكتشف أصلاً أي ميل تجاهك عندي، ثم إنك لا تعرفني حق المعرفة، إذ لم يمض بعد أربع وعشرون ساعة على رؤيتك إياي لأول مرة!".

ولكنه قاطعها وحاول من جديد أن يمسك بيديها ثم تابع يقول: إنه يعرفها جيداً ويعرف ماضيها ومستقبلها. وإذا كانت عاشت هكذا بلا اكتراث في خضوع وسوء تقدير فإن من معالم قضائها وقدرها أن تصل بانتصار كبير إلى وضوح حقها وبريقه! يتجلى في حقيقة الأمر بعد الغور في كثير من الأقوال الإلهية والبشرية في أن رحمة السماء والجمال انحدرا إلى الظلام والاستسلام ومن جهلهما ذاتهما المثير للشفقة دعيا إلى وعي حقيقة أن لابد للجوهري من الأمور من أن ينفض عنه غبار اللاجوهري ويتحرر منه.

وفجأة شابكت يديها وصرخت بنبرة شــاكية: " أيتها السماء، أي تعاسة تلم بي! ليتني عرفت بالأمر قبل ثمانية أيام- ولكن فات الأوان من جديد مرة أخرى! أنا مخطوبة، احزر لمن!".

قال بشيء من الاحتداد: مخطوبة لإيريكسون! أو شكت أن أظن ذلك! ولكن هذا لا يهم! فتبدلات المصير الأصلية لا تبالي بمثل ذلك وتتجاوزه بسهولة كما تفعل ريح الصباح بالعشب الذي تمر فوقه! ولقرار اليوم لا بد أن تنصاع إرادة أمس المتقادمة".

فقالت وهي تهز رأسها وتبدي ارتباكاً حزيناً: "كلا! أنا من جنس أولئك الذين يلتزمون كلمتهم؛ لا أستطيع غير ذلك، لأنني من فصيلة العشب!".

ثم لاذت بالصمت لحظةً وكأنها كانت تريد الإمعان في التفكير، في حين بدأ هو من جديد بحديث ملحّ؛ ولكنها قاطعته مرة أخرى كما لو أنها اهتدت إلى فكرة جيدة.

" سمعت أو قرأت عن نسوة ممتازات عشن بسلام مع رجال قليلي الأهمية، ولكنهن أقمن في أثناء ذلك مع أصحاب عقول كبيرة وفي منتهى الأهمية صداقة روحية كانت تستدعي في البداية مسافة أمان لا يستهان بها وذلك إلى أن يأتي العمر المهدأ بالتدشين الصحيح. إن نسوة كهؤلاء، حين ينجبن ما يكفي من الأطفال ويربينهم تربية حسنة، ينبغي عليهن بعد ذلك أحياناً الارتقاء إلى أعلى درجة من فهم تلك العقول الكبيرة لأنهن عندئذ لا يفتقرن إلى الوقت اللازم لتدارك العيش في عالم المستويات الرفيعة. انظر الآن كم نستطيع الآن أن نرتب الأمور على ما يرام إذا ما شئنا ذلك. فإذا كنت أملك فعلاً ميزات فوق عادية كما ستجعلني أظن عما قريب، أستطيع إذاً أن أتزوج في أثناء ذلك رجلاً غير مهم وهو حبيبي إيريكسون وتبتعد أنت بضعة عقود من الزمن".

لم تلذ بالصمت من غير قلق حين تهاوى لويس مطلقاً تنهيدة أليمة على كرسي وأطرق رأسه بصمت إلى الأرض. الآن فقط لاحظ أن السيدة الفاتنة مارست لعبتها معه، وبما أنه في الوقت ذاته رأى ثيابه التنكرية فقد فطن في تلك اللحظة إلى وضعه الحرج الذي قاده إليه ضعفه وربما لأول مرة طغى عليه الشعور بالفراغ القاتم في كيانه أيضاً، الذي عادة ما كان مليئاً وزاخراً.

كان إيريكسون قبل بضع دقائق دخل إلى الغرفة الصغيرة وهو يمشي ببطء وهدوء على السجاد الناعم من دون أن يسمعه أحد ثم وقف وراء صديقه لُيس في حين كانت روزالي أسهبت في حديثها الخبيث بحضوره الذي لم تشأ أن تكشف عنه بغمزة عين.

قال إيريكسون وهو يضع يده على كتف لوس: "ولكن قل لي أيها البوم المجنون، من منا يخطط لخطف عرائس رفاقه؟".

انتفض لويس قائماً ووقف لا يلوي على شيء، على يمينه رأى السيدة واقفة وعلى يساره الألماني الشمالي وكان الاثنان يبتسمان له.

فقال بفم بدا أنه لا يفتر عن ندم وارتباك فحسب بل كذلك عن بعض الحزن العميق والمرير: "الآن، الآن أرى أنني أحصد ما كنت زرعت! هذه هي النتيجة ما دام المرء استسلم مرةً لغيره. الآن أدرك كيف تتم عملية اقتياد المرء إلى منفاه. لذلك أتمنى لكما حظاً وافراً!" بذلك دار على عقبيه بسرعة ومضى وشأنه!

وحين ذهب القوم فيما بعد إلى المائدة، التي سبق أن أعدت لأن تكون مأدبة أنس أكثر منها مأدبة فخامة وأبهة ولُيس لم يأت إليها، آلت إلي من جديد فكرة العناية بأغنيس الطيبة. كانت أغنيس شاهدت وهي واقفة إلى جانبي المشهد دون أن تنبس ببنت شفة. ثم أمسكت بذراعي في أثناء الاستراحة الطويلة وتسكعت معي هنا وهناك من غير أن تعلق على أي شيء ولو بكلمة واحدة. لم أكن أجرؤ بعد ولا بأي صورة من الصور على أن أفاتحها بالحديث عن قضيتها ووضعها ولم أشعر بأي حاجة أو كفاءة لذلك؛ ولكنني كنت أحس بجيشان صدرها دائماً وكيف كانت تنهيدات غاضبة وحزينة يتصارع بعضها مع بعض فتسحق الواحدة الأخرى وتقمعها.

رافقت أغنيس إلى المائدة وجلست إلى جانبها، وحين ألقى إيريكسون الآن كلمة قصيرة معلناً فيها حادثة الخطبة وراجياً من الجمع المبتهج أن يشاطره الاحتفال بسعادته لهذه المناسبة الطيبة، سمعت زفير أغنيس بعمق

وسط ضوضاء المفاجأة العامة ورنين الكؤوس والهتافات الصاخبة. جلست غارقة في نفسها بضع دقائق وكأنها تحررت من كابوس ثقيل، ولكن ما دام لويس لم يعد، فلا شيء أجداها نفعاً؛ على أن سقوطه ازداد ظهوراً ووضوحاً بواسطة الحدث الذي كان محط ظنها، وروحها البسيطة لم تكن من النوع الذي يبني على أساس سوء طالعه خططاً جديدة. إلا إنها تغلبت على همومها وتحملت بشجاعة دون أن تبدي رغبة في الذهاب إلى بيتها. حتى إنها لبت دعوتي إلى الانضمام إلى الناس الذين نهضوا جميعاً من أماكنهم لكي يمروا بالعروس المضيفة مهنئين ومحيين.

كانت روزالي في بادئ الأمر محاطة بأقاربها، الذين لم يبدوا مسرورين من الخطبة غير المتوقعة خصوصاً، وكانوا يظهرون وجوهاً جدية إلى حد كبير؛ لأن السيدة الذكية كانت استخدمت ذلك اليوم لكي تجذبهم إلى الفخ فتجبرهم حينئذ على حضور الاحتفال بالخطبة بطريقة مشرفة دون أن يتمكنوا، بسبب الحضور الغفير من الضيوف، من إبداء أي مقاومة مهما قلت بتحذيرات ونصائح غير مرحب بها، لذلك كانت السيدة المسرورة تمارس بكل ظرف تصرفات أكثر مرحاً بين المتبرمين من أبناء أعمامها وبناتهم.

ولكن كانت الآن لحظة مؤثرة حين تقدمت أيضاً أغنيس الصف المتنوع من الضيوف متعددي الأشكال والألوان وألقت تحيتها، بوصفها المرأة المهجورة، على المرأة المنتصرة. فانحنت وقبّلت يد العروس بخضوع التعاسة للسعادة. نظرت وروزالي إليها بذهول وتأثر وشدت على يدها بمشاركة صادقة بعد أن كانت نسيت الفتاة من قبل كما نسيت في هذه اللحظة أيضاً لويس الرديء ولوحظ عندئذ أنها تعتزم فعل شيء ما؛ إلا أن اللحظة التالية خطفت منها مزاج الحزن، المستمر في تعجله، وأعادتها إلى تشتتها الغامر بالسعادة.

بعد أن اتخذ كل الضيوف أماكنهم من جديد وتوقفت موجة منتظمة من المرح كان شارك فيها أخيراً أيضاً أولاد العم المولعين بالحياة والصخب، سرعان ما حدث انقطاع جديد، فنبأ تبدل الحظ لدى أحد الرفاق تسرب بسرعة

إلى معسكر الفرح الكبير الذي في الغابة حيث كان الشبان المتدفقون حيوية وقوة لا يزالون يقيمون هناك. وهكذا زحف الآن موكب من المرتزقة بالطبل والمزمار والراية الخفاقة إلى أحد أبواب البيت ودخلوا منه، بينما ظهر في الباب الآخر جمع من الحرفيين والنقابيين المرحين مع موسيقاهم الصاخبة. كلا الطرفين التف حول المائدة وهم يلوحون بقبعاتهم ويهتفون بصوتٍ عالٍ وأقدموا بطريقة تنم عن الطيب على تناول جرعة شرف من الخمر. بذلك ألغي الترتيب الذي كان تم حتى ذلك الحين وكان على إيريكسون وعلى خدم البيت ما يكفي من العمل من أجل إيواء الزيادة من الناس التي ازدحمت بها كل الأمكنة. ولكن كل شيء سار بمزاج مرح وجيد، وأهمية ذلك اليوم وجدارته بالذكر ازدادتا بشكل ملحوظ.

سألت أغنيس ماذا تريد أن تفعل، هل ترغب في العودة إلى بيتها أم في البقاء؟ لم يكن الخيار الأول أمراً غير مرغوب فيه؛ ذلك لأنه مهما بدا لي استمراري في رعاية مخلوقة بريئة وجذابة إلى حد كبير أمراً لطيفاً ومشرفاً إلى حد كبير أيضاً، فقد أحسست على الرغم من ذلك على طريقة الشبان الألمان بالرغبة في أن أتدارك ما فاتني حتى الآن وأقضي الساعات الأخيرة المتبقية بين أقراني، حراً بين أحرار.

ترددت أغنيس في حسم أمرها؛ اقشعر بدنها خيفة من شعورها بالوحدة في بيتها حيث لم تتوقع هناك أي مواساة حقيقية ثم كان لا بد لها من أن تأبى مغادرة المكان الذي كان لا يزال الحبيب يمكث فيه قبل وقت قريب وكانت هي تعيش في أمل جديد. وهكذا صحبتها في غضون ذلك إلى مختلف الحجرات، بين مجموعات الندماء الخلابة، إلى كل مكان كان يحتوي على شيء جدير بالرؤية مما جادت به بصورة دائمة ومتجددة خواطر أفراد وجماعات لا تعرف الكلل.

في أثناء تجوالنا سمعنا أغنية رباعية الأصوات ومشنفة للآذان فتتبعنا مصدرها. وفي نهاية ردهة ضعيفة الإضاءة وجدنا توسيعة بناء شبيهة ببروز

بنائي خارجي كانت تستخدم نظراً إلى نوافذها لاستنبات أشجار البرتقال؛ لأنها كانت مليئة بدستة من أشجار البرتقال والرمان والآس، التي بينها كان وضع الملقب بصانع الله وجماعته طاولة صغيرة ومكثوا هناك. فوق المدخل علق شعار حانة حديدي قديم على شكل نجمة خماسية أو قدم أشباح كانوا وجدوه في زاوية ما مهملة وأتوا به ثم علقوه. هناك جلس الآن، الكرَّام الرايني، ملك الجبل والحرفيان الموسيقيان النقاشان على الزجاج وبرهنوا بغنائهم الجماعي الرباعي عن تدريبات في هذا المجال ليست أقل من التدريبات في العزف على الأوتار. حين وقفنا أمام مأواهم مصغين إلى أصواتهم أجبرونا في الحال على الجلوس معهم بعد أن قرب بعضهم من بعض وأتوا بكرسيين إضافيين. أدهشني أن أغنيس أعجبت بذلك؛ إذ بدا أن غناءهم جذب قلبها وشغلها وهدَّأها. في تلك الفترة كانت اختيرت أولاً بعض الأغاني الشعبية القديمة من جديد ثم لُحنت من قبل موسيقيين أحياء. ثم وُضع ما كان متوفراً من ألحان تلك الأغاني في أشعار آيشندورف، وأولاند، وكيرنر، وهايني، وفليلهم مُيلر، وضع من قبل الحرفيين العاملين في حقل الموسيقى والغناء في نوطات حزينة الأنغام كثيراً أو قليلاً وغنِّي من شبيبة الرجال المدربين على ذلك؛ قبل أن ينتقل، بعضه للمرة الثانية، إلى الشعب. لم يسبق لأغنيس أن سمعت ذات مرة أغاني وألحاناً كهذه. كانت انتهت تواً أغنية "إلى جانب نافورة الماء أمام الباب، هناك تنتصب شجرة زيزفون"، وأتت بعدها "صقيع نزل في ليل الربيع". أغاني وداع قديمة، استكشاف الموت، نواح على حظ زائل، استبشارات الربيع، الأغاني المتعلقة بعجلة الطاحون وبشجرة الصنوبر، قصيدة أولاند "الآن أيها القلب المسكين، انسَ العذاب فلا بد أن يتغير كل شيء"، أغنية تلو الأخرى أُديت بوضوح ودقة تعبير بحيث قاد الفنان الملقب بصانع الله مجمل اللحن بطبقة صوته العالية وأسهم ملك الجبل بصوته العميق في حين أدلى نقاشا الزجاج بدلوهما بصفتهما نغماً وسطاً بين الصوتين، بتمعن وإخلاص ملتزمين النغمة والإيقاع.

أصغت أغنيس بعمق واستغراق وكل ما سمعته بدا كأنه صُنع من أجلها وأتى من أعماقها هي ذاتها. وفي حين كانت بعد كل أغنية تتنفس الصعداء، لوحظ أنها غدت أكثر هدوءاً وأكثر تحرراً. كان مرح مشرق يحوم حول مائدتنا الصغيرة نصف المختبئة؛ كنا وكأننا شعرنا جميعاً بصمت أن كابوساً زال عن قلب مغموم على الرغم من أنه ما من أحد غيري عرف في واقع الأمر شيئاً عن وضع أغنيس. والآن أتى إلينا أيضاً إيريكسون المتجول فاكتشف مكان مكوثنا وأسرع من هناك، حين أدرك نوع المكان، لكي يزودنا ببضع زجاجات من الشمبانيا الفرنسية وإثر ذلك تابع جولته التفقدية بغية توفير العناية بالضيوف خدمة لسيدة البيت.

أغنيس ومعظمنا لم يسبق لنا أبداً أن رأينا مشروب الشمبانيا وبالتالي لم نشربه؛ ومجرد الكؤوس، التي كانت حتى ذلك الحين لا تزال حسب دُرجة ذلك الزمان عالية تماماً وتتصاعد فيها بلا توقف اللآلئ الناجمة عن صب ذلك المشروب فيها، كان من شأنها أن صعدت وتيرة أمزجتنا إلى مستوى احتفالي رفيع. والآن أتت روزالي ذاتها لتكرم أغنيس بصحن من المعجنات الحلوة والفاكهة وتوصينا بأن نعامل ديانا الرقيقة الناعمة بمرح الفرسان وشهامتهم.

كنا كذلك فعلاً بأفضل الأساليب وأكثرها لياقة وتهذيباً أيضاً. وفي المقام الأول الفنان الملقب بصانع الله، الذي كان يظهر اهتماماً ولطفاً إزاء أغنيس؛ ولكن الباقين أيضاً غدوا في ذلك الجو من الأنس وخلو البال يشعرون بالاعتزاز بظهور جميل إلى حد كهذا من الشاعرية، كما اعتادوا أن يسموا أغنيس، وكان من شأن هذا الظهور أن زين شلتهم الصغيرة. حين قرع الجميع كأسها لشرب نخبها، شربت هي الكأس الطويل النحيل مفرغة إياه عن آخره، أو قل انسابت العذوبة الملألئة في فمها كما تنساب أفعى صغيرة في سيرها، دون أن تعي ذلك؛ على الأقل زعم الملقب بصانع الله فيما بعد أنه رأى من بلعومها الأبيض كيف انزلق الشراب عبره. والآن بدأت تغرد وتقول إنها تشعر هنا بالارتياح وكأنها انتقلت من مطر ثلجي شتائي إلى حجرة

صغيرة دافئة؛ ولكنها تعرف على حد قولها كيف يتم ذلك، إذ دائماً ما يشكل بضعة أناس طيبين معاً حجرة صغيرة دافئة، حتى من دون مدفأة ومن دون سقف ونافذة!

ثم صرخت وشربت، حين قرعت الكؤوس بعضها ببعض، كأسها مرة أخرى بجرعة واحدة فأفرغتها عن آخرها: "ينبغي أن يعيش كل الناس الطيبين"! ثم أضافت: "آي، كم هو لطيف هذا النبيذ! إنه أيضاً روح خيِّرة!".

أعجبنا بذلك إعجاباً شديداً ورفع المغنون الأربعة أصواتهم على الفور من غير اتفاق مسبق، لكي يغنوا بكل ما أوتوا من قوة: "على ضفاف الراين، على ضفاف الراين، هناك تنمو كرومنا". وما إن خفتت أنغام تلك الأغنية الصادقة حتى غنوا، منتقلين إلى أسلوب محافظ على جديته وإن لم يكن بإيقاع متثاقل ممطوط، الأغنية الأخرى الجميلة للشاعر ما تياس كلاوديوس:

يعيش الإنسان ويستمر

وقتاً قصيراً

الدنيا كل الدنيا زائلة

بعظمتها الخ.

حين خُتمت الأغنية الجماعية فيما بعد بعبارة "هاليلويا آمين" الدفاقة المتوثبة وساد حولنا جو من الهدوء المفاجئ، سُمع من الأمكنة الأخرى ومن بعيد أيضاً رجع الأصوات المدندنة وأغان ذات أنغام متقاطعة متشابكة وموسيقى راقصة صارت تُسمع، لذلك في كل فرصة لنا للاستراحة، بوصفها كماً من الأنغام المتدحرجة باستمرار بصورة قاتمة ومعتمة. ولكن في هذه اللحظة ولَّد عندنا هذا الجو بسبب التنافر الحاصل انطباعاً احتفالياً؛ كما لو أننا كنا نسمع ضجيج العالم بأسره يدوّي من حولنا، في حين كنا جالسين بهدوء مؤنس في غابتنا الصغيرة المكتظة بأشجار الريحان والبرتقال. أصغينا بارتياح لفترة من الزمن للهدير العجيب واشتبكنا بعد ذلك في حديث مسل كانت رؤوسنا فيه تتهامس فوق الطاولة وحكى كل منا قصة أو ذكرى مفرحة

أو محزنة، ولكن الرجل الملقب بصانع الله على وجه الخصوص حكى لنا عدداً كبيراً من الحكايات الظريفة عن أم الله، كيف عقدت ذات مرة مؤتمراً لوكيلاتها في أشهر أمكنة الحج في العالم وما جرى عندئذ من أحداث وكيف نشأت نزاعات كبيرة، إذ لا يتوقع غير ذلك حين تلتقي نساء كثيرات معاً؛ ماذا عايشن وفعلن في الذهاب والإياب؛ كيف سافرت الواحدة منهن كأميرة كبيرة بأبهة مبذرة والأخرى كبخيلة شحيحة، وفي الفنادق البسيطة، التي كانت تبيت فيها، كأن تحبس ملائكتها في حظيرة الدجاج ثم تعدهم في الصباح أيضاً كالدجاجات لكي لا يغيب أحد منهم. وهكذا كانت سيدتان كبيرتان أخريان سافرتا إلى المؤتمر، هما الملقبة بأم الله من تشنشتوخاو في بولونيا ومريم من آينسيدلن في سويسرا مع حاشيتيهما، والتقتا في مطعم وتناولتا طعام الغداء في الحديقة. وحين جيء إلى السيدتين بوعاء مليء بقنابر لايبزيغ ووضع فوقها طائر مقلي من طيور الشنقب، سارعت البولونية إلى جر الوعاء إلى أمامها وقالت: إنها على حد علمها ذات النسب الأكثر عراقة على تلك المائدة ولذلك فهي تستحق أن تحصل على طير اللقلق الصغير الموضوع في أعلى الوعاء! لأنها ظنت أن طائر الشنقب، نظراً إلى طول منقاره، ما هو إلا لقلق فتي فغزته بالشوكة ووضعته في صحنها. بينما اكتفت السويسرية المستاءة من هذا التطاول بحركة "سويبس!" إذا الشنقب المقلي يحيا من جديد ويكتسي بالريش ثم يطير من الصحن مبتعداً عن المكان كله. في أثناء ذلك جرت مريم فون آينسيدلن الوعاء إلى أمامها وزحلقت كل القنابر إلى صحنها وصحونها الأخرى، ولكن السيدة فون تشنشتوخاو أطلقت صفرة "تيريلي" فما كان من القنابر، كما حدث من قبل لطائر الشنقب، إلا أن رفرفت وطارت وهي تغرد مختفية في الأعالي، وبذلك أفسدت كلتا السيدتين على الأخرى بدافع الغيرة طعام الغداء وحُرمت الاثنتان منه، ثم أُجبرتا فيما بعد على الاكتفاء بزجاجة كبيرة من الحليب وكانتا في أثناء ذلك تلويان وجهيهما قاتمي الاسمرار بصورة مرحة ومضحكة.

جلست أغنيس بيننا بوصفها واحداً منا، واضعة ذراعها على الطاولة ومسندة خدها إلى يدها. ولكنها لم تستطع أن تفهم كيف يمكن لكل المريمات المقدسات، اللواتي يتعذر أن يكنَّ في حقيقة الأمر سوى شخص واحد، أن يسافرن إلى كل الأرجاء بوصفهن أشخاصاً كثيرين مختلفين بعضهم عن بعض وكيف يجتمعن لا بل يتنازعن في ما بينهن؛ وعبرت أغنيس عن شكها في ذلك بكل وضوح.

هنا لمس الكرَّام أنفه بيده وقال متأملاً بعمق: "هذا هو السر الغامض، الذي لا نستطيع سبر غوره بعقولنا".

ولكن ملك الجبل، الذي كان يزداد تفوهاً وفصاحة في الأمور العجيبة كلما قلت مقدرته على إغناء مجموعة نماذجه من تمثال حمل الصليب بلمسات فنية مكافئة للتمثال الشهير من إبداع رافائيل، تناول الكلمة وقال: " المسألة تعني في رأيي العمومية الهائلة لملكة السماء، وجودها في كل مكان، قابليتها للتوزع ومقدرتها على التبدل؛ هي الكل في الكل، كالطبيعة ذاتها وهي بصفتها امرأة أقرب الناس إلى الطبيعة وكذلك بالنظر إلى قابلية التغير التي لا تتوقف، كما يحلو لها أيضاً علاوة على ذلك أن تظهر في كل من أمكن من الأشخاص إلى حد أنها شوهدت بصفتها جندياً ذا نزعة عدوانية. هنا تحديداً ربما كرست طبعاً من طباع بنات جنسها، على الأقل الأعضاء الأفضل ضمن هذا الجنس، يعني نزوعاً معيناً إلى ارتداء ثياب الرجل".

ضحك أحد النقاشين على الزجاج لدى سماعه هذا الكلام فقال: " يخطر ببالي الآن مثال مضحك عن فن تنكر من هذا النوع" ثم بدأ يحكي قصة: " في مسقط رأسي، الذي هو مدينة كانت تقام فيها في فصل الخريف خصوصاً أسواق كبيرة، كنا نحن صبيان الأزقة زرافات زرافات نبذل قصارى جهودنا في تصيد الثمرات من التفاح والكمثرى والخوخ وأنواع الفاكهة الأخرى، التي كثيراً ما كانت تتدحرج على الأرض حين تنقل حمولاتها أو توزن كما كنا نسرق ثمرات كهذه أيضاً من الأكوام المكدسة. في أثناء ذلك كان يسير بيننا

دائماً صبي لم يعرفه أحد ولكنه كان دائماً في المقدمة وأكثر نشاطاً منا جميعاً فكان يملأ جيوبه ثم يختفي وسرعان ما يظهر من جديد لكي يملأها مرة أخرى. وكذلك حين كان الفلاحون ينقلون النبيذ الجديد إلى المدينة ويفرغونه أمام بيوت الأهالي وكنا نحن نقرفص تحت العربات وفي أيدينا قصبات طويلة مجوفة ندخلها خفية في البراميل والدلاء الموضوعة على الأرض لكي نمص النبيذ الفائض، الذي كان يصبه صانعو البراميل في تلك الأوعية مؤقتاً لكي يتمكنوا من إجراء عمليات القياس والوزن، سرعان ما كان الصبي المجهول يوجد في المكان ويمتص النبيذ لكن لا لكي يستقر في جوفه كما كنا نفعل نحن بل لكي يصبه بكل ذكاء وحكمة في زجاجة مخبأة في جاكيته. لم يكن ذلك الصبي أطول منا، بل أقوى قليلاً وذا وجه ينم عن عمر أكبر وصوت عالي النبرة شبيه بصوت الأطفال؛ وحين سألناه ذات مرة بشيء من التهديد عن اسمه، سمى نفسه ببساطة: يوخل كلاين. هذا اليوخل لم يكن صبي أزقة حقيقياً بل مصطنعاً، أي ما كان إلاّ أرملة ناقصة النمو تقيم في إحدى ضواحي المدينة وتعاني فقراً مدقعاً وبدافع من العوز والفاقه ومن عبقريتها لبست ثياب ابن متوفى عن اثني عشر عاماً ثم قصت ضفائرها وجرؤت في ساعات محددة من كل يوم على الخروج إلى الشارع والاختلاط بالصبيان هناك. وحين وصلت بفنها هذا إلى الأوج، افتضح أمرها. في سوق الأجبان، حيث يكون تجار الأجبان دائماً لممارسة أعمالهم هناك، كانت لاحظت كيف كان هؤلاء الرجال يغرزون في كتل الجبنة السويسرية الكبيرة مخارز مجوفة لكي يُخرجوا منها بغرض تجريب نوعية أجبانهم عُصيات أو تحاميل دائرية ثم يقطعون منها بكل دقة وعناية إحدى نهاياتها فيذوقونها ويعيدون بقيتها من جديد إلى الثقب الناجم عن عملية الاستخراج بحيث تظهر كتلة الجبنة الضخمة كاملة غير منقوصة. وهكذا كانت المرأة تتزود بمسمار عادي وتدور حول الجبنة فتعاين الأمكنة التي يكشف فيها خط دائري رقيق عن وجود عُصية من هذا النوع. ثم تعزز المسمار في اللحظة المناسبة وتخرج عصية الجبنة من

مكانها وغالباً ما حملت معها بهذه الطريقة نصف كيلو من الجبنة الممتازة إلى بيتها. ولكن أخيراً، بما أن تجار الأجبان في كل مكان هم أكثر حرصاً على منافعهم ومصالحهم من التجار الآخرين وأقل تسامحاً منهم في أمور كهذه، ضبطت تلك المرأة متلبسة وسلمت بعدئذ إلى الشرطة فاكتشف لهذه المناسبة وضعها الحقيقي، غير أن الناس ظلوا يسمونها يوخل كلاين طول حياتها".

استمتعت أغنيس بالحيلة البسيطة والبريئة، التي اخترعتها المرأة المسكينة، ولكنها أسفت للنهاية السيئة. النقَّاش الآخر على الزجاج تقدم بالمقابل أيضاً بحكاية تنكر باللباس عن امرأة، غير أنها كانت أكثر فظاظة من حكاية المرأة التي مثّلت دور صبي أزقة.

قال: "إنها قصة قديمة ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادي. ففي عام ١٥٦٠ أو ٦٢ طبقاً لعرض الأحداث وفقاً لترتيبها الزمني، حدث في مدينة نمفيغن الواقعة في مقاطعة غِلدارن أن استدعي الجلاد إلى البلدة الصغيرة المسماة غرافي الواقعة على نهر الماس بمحاذاة حدود برابانت لكي يقوم بجلد ثلاثة جناة. ولكن الجلاد في مدينة نمفيغن كان مستلقياً في سريره مريضاً وضعيفاً جراء تقديم خادمه له صحناً صغيراً من الحساء المشبع بالسم ولكي يحل محله في وظيفته. لأنه، على حد قول مؤرخ الأحداث وفقاً لترتيبها الزمني، ما من منصب تعيس إلى حد أنه لا يوجد أحد لا يريد أن يتلقفه على حساب روحه. وهكذا أخبر الجلاد المجلس البلدي لبلدة غرافي أنه لا يستطيع المجيء، ولكنه سوف يرسل زوجه على الفور إلى جلاد مدينة آرنهايم، الذي سبق أن أبرم معها عقداً ينص على تقديم كل منهما العون للآخر عند الضرورة ولا بد أن يستجيب هذا لطلب العون ويحضر حالاً. وأمر زوجه أن تذهب دون إبطاء إلى آرنهايم لكي تطلع زميله على الموضوع. كانت زوجه امرأة هيفاء القد وجميلة ووقحة، وكانت أيضاً بخيلة بحيث لم تشأ أن تفوت على نفسها فرصة الحصول على أجر صفقة مجزية كهذه. فبدلاً من أن تذهب إلى آرنهايم، ارتدت خفية ملابس زوجها بعد أن كانت وسَّعت، بسبب حجم

الصدر، القميص والرداء الذي يلبسه الرجال تحت الدروع ثم وضعت على رأسها بعد تقصير شعرها بسرعة قبعته المزدانة بالريش وتزنرت بسيف الجلاد العريض ثم سافرت في الليل والضباب إلى غرافي إذ وصلت في الوقت المحدد وطلبت مقابلة عمدة المدينة. صحيح أن وجهها الناعم وصوتها الفتي العالي النبرة لفتا انتباهه وأنه سأل عمّا إذا كانت وبالأحرى عمّا إذا كان هو، أي الجلاد المزعوم، على قدر كاف من القوة والخبرة اللازمتين للعمل الذي هو قيد التنفيذ. فأكدت له بكلمات وقحة أنها تعرف اللعبة معرفة كافية وسبق أن لعبتها في بعض الأحيان. وعلى الفور مدت يدها أيضاً إلى الحبل الذي أُخرج به أول المذنبين المساكين واستحوذت عليه بهذه الطريقة. ولكن لما حان الوقت لكي يجلس الرجل على كرسي الإعدام ولكي تقوم هي بربط عينيه، اعترته حال من الاضطراب؛ هنا انحنت السيدة إلى مستوى أدنى لكي تتأكد من إحكام الرباط في كل مكان، وفي هذه الحالة أحس الرجل بطراوة صدرها لدى تلامسه مع رأسه. فصرخ فوراً بأعلى صوته إنها امرأة! وهو لا يريد أن يموت على يد امرأة كهذه بل على يد جلاد نظامي، وهذا حقه المشروع. ذلك الرجل المسكين عول على أن ينجم عن الحال الطارئة كسب بعض الوقت وإرجاء إعدامه. كان في جو الفوضى الناشئة يصرخ باستمرار بصوت أعلى أكثر فأكثر ويقول إنه ينبغي تنزيل ثيابها إلى الأسفل فيتم التأكد عندئذ من أنها امرأة. وأخيراً بما أن الأمر بدا للملتفين حولها ينطوي على احتمال أن يكون صحيحاً، فقد أمر واحد من خدم الجلاد بأن يتأكد بنفسه من الحقيقة ففتح بالمقص، الذي كان أزال به تواً شعر الجاني، من على صدر المرأة وظهرها الرداء الذي تحت الدرع وفتح القميص أيضاً وجرد منهما الكتفين بحيث وقفت هكذا أمام كل الشعب وهي عارية النصف الأعلى من جسدها وطردت بإهانة مذلة من ساحة الإعدام. كان لا بد من إعادة المجرمين إلى السجن؛ غير أن الشعب الغاضب أراد أن يلقي بالمرأة في الماء ولم يُثْنَ عن ذلك إلا بشق الأنفس. ومع ذلك فقد هرعت النساء والخادمات وطاردن

الجلادة الفارة بالعصي وأيدي المكانس إلى خارج المدينة وانهلن على ظهرها الأبيض المتألق بالضرب الشديد. وهكذا وصل هذا التنكر في اللباس إلى نهاية سيئة عند الأمازونية المجازفة. وحين توفي زوجها بعد ذلك بقليل أصبح الخادم المزيف الذي سمم سيده جلاداً في نمفيغن بدلاً منه ثم تزوج أرملته فكان للجلاد الجديد بذلك الزوجة التي استحقها".

بهذه الحكاية الفظة كاد حديثنا يتجاوز الحدود، التي كنا مدينين فيها للفتاة الحاضرة بيننا. هزت رأسها وهي ترتعش ولم يفتها أن تشرب كأسها حتى الثمالة حين قرعنا الكؤوس بعضها ببعض. في أثناء الحديث بأسره كان تشبث كل منا بكأسه الطويل لئلا يسقط على الأرض ولكي يكون قريباً من الفم قدر الإمكان في حال تبادل الكلام الودي والمشجع والمجامل من حين لآخر، وكانت أغنيس قلدتنا بصدق وأمانة لقلة خبرتها في هذه الأمور ونسيانها السعيد كل الشدائد. كنا نجهل، بوصفنا عزّاباً، كيف يجب على المرء في مثل هذه الحال أن يتصرف مع مخلوقة أنثى وكنا نملأ كل الكؤوس كلما فرغت، مبتهجين بتنامي اضطراب الطفلة الطيبة ومرحها.

كان راينهولد، الملقب بصانع الله، كسر في أثناء حديثنا الطويل أغصاناً زاهية مزدهرة من شجرة برتقال صغيرة واقفة وراء أغنيس وصنع منها إكليلاً صغيراً ووضعه على رأسها. ورجاها في الوقت ذاته أن تسعده برقصة صغيرة على أساس أن يعزف لها واحد أو اثنان من الآخرين.

قالت أغنيس: "كلا، أريد أولاً أن أقدم لكم رقصة شـــعبية بمفردي وعليكم أنتم الأربعة أن تعزفوا لها الموسيقى اللازمة!" لبى الرفاق طلبها فتناولوا الآلات الموسيقية من الأجربة وضبطوا أوتارها من جديد. تنحيت جانباً، وعزف الموسيقيون لحن رقصة شعبية من تراث تلك المنطقة وأحبها الناس كثيراً آنـــذاك؛ ورقصت أغنيس في ذلك المكان الصغير، الذي تبقى بين الشجيرات الصغيرة، بكل رقة بالطريقة البطيئة والمعبرة عن شيء من الحنيـــن.

لم يكد الإيقاع الأخير يخفت حتى طلبت أغنيس، في حين أُعطيت من جديد كأس الشمبانيا المليئة والمكتسية بالرغوة فأفرغتها بشفتين عطشَيَيْن، لحناً لرقصة فالس أرادت أيضاً أن تؤديها وحدها. العُزَّاب الطيبون عزفوا اللحن على الكمان بقدر ما استطاعوا من القوة، وأغنيس أخذت تدور حول نفسها وعيناها تتلألآن وقد أسندت يديها إلى أردافها النحيلة. وفجأة امتد ذراعاها في الهواء وكأنها كانت تبحث عن أحد الناس ثم وقفت بهدوء وأزاحت الإكليل عن رأسها فعاينته وأعادته من جديد إلى مكانه وبدأت تترنح بعد ذلك. قفزت إليها بسرعة وقدتها إلى كرسيها؛ والموسيقيون اعتراهم الرعب فتوقفوا عن العزف، في حين رمت الفتاة المسكينة رأسها وذراعيها على الطاولة بحيث سقطت على الأرض كل الكؤوس الموجودة هناك؛ وهنا بدأت الفتاة تبكي وتولول بصوت مسرف في العلو معانية آلاماً تمزق القلوب وتستغيث بأمها. بكت ونادت بإلحاح شديد إلى حد أن ضيوفاً آخرين أتوا إليها في حين وقفنا نحن هكذا مرتبكين في وضع كان يلفه أشد الذهول وأكبر الحيرة. حاولنا إعادتها إلى وضع الوقوف على قدميها، إلا أنها سقطت من بين أيدينا على الأرض حيث استلقت شاحبة اللون كالميتة وارتجفت شفتاها ويداها، وسرعان ما بدت فاقدةً الحياة تماماً بحيث عم الآن أرجاء المكان جو مخيف من الهدوء والسكينة.

وأخيراً كان علينا أن نبت في أمر نقل المخلوقة المسكينة فاقدة الحراك باحثين لها عن مكان في الجزء الآهل من البيت أو الجاهز للمساعدة. أمسك الرجل الملقب بملك الجبل بها من تحت ذراعيها والملقب بصانع الله أمسك بقدميها ثم نقلا على هذا النحو الحمل الخفيف المومض بالفضة بعناية فائقة إلى مكان آخر. سرت في المقدمة وتبعنا نقاشا الزجاج، وآلتا الكمان اللتان تخصهما تحت إبطيهما إذ لم يكن ثمة وقت لحزم أي أمتعة ولم يكن أيضاً من الجائز ترك الآلات الموسيقية الجيدة لعبث العابثين.

كانت السيدة روزالي للأسف سافرت إلى المدينة برفقة إيريكسون دون أن تودع أحداً، لكي لا يغادر أحد المكان في أثناء غيابها دون رغبتها مما قد

يؤثر سلباً في جو الاحتفال المرح. ولكن المسؤولة عن البيت أو القائمة على إدارته برهنت على مسارعتها إلى أداء الواجب على غير وجه فأتت إلينا وقادت موكبنا الحزين إلى غرفة سكنها حيث وضعت تحت تصرف الفتاة المسكينة، التي لم تكن تبدي وقتئذ أي حراك، سريراً مريحاً وجلب لها بعض الوسائد ثم أودعت سريرها.

قالت السيدة، التي هبت لمساعدتنا، حين لاحظت خوفنا وهلعنا: "ليس الوضع بهذا السوء، لا بد أن تكون الآنسة ثملة وأن يزول السكر عما قريب!".

فهمست في أذنها: " كلا، إنه سُكر الهم والغم".

فردت قائلة: " إذاً شربت وهي في غمرة همها؛ من يقدم لفتاة صغيرة هذه الكمية الكبيرة من الكحول؟".

الآن فقط احمرت وجوهنا واعترانا الخجل والارتباك إلى أن دعتنا السيدة الفاضلة إلى الانصراف بعد أن كانت استفسرت عن أهل المريضة وذويها. ثم قالت: " عربة السيد وحرمه سوف تخرج مرة أخرى لكي تؤدي بعض الخدمات الضرورية؛ ولذلك سوف نهتم بكل شيء". عرض راينهولد خدماته وأبى إلا أن يبقى في البيت حيث هو؛ وألح علي أن أترك له أمر حماية الفتاة المقطوعة من شجرة والاهتمام بها فسررت لذلك ما دام رجلاً شجاعاً ويتحلى بصفات حميدة. وهكذا انتقلت أغنيس، لكي ترى العين ما كان كتب على الجبين، في فترة غيابها عن الوعي كما في أثناء مجمل الاحتفال بعيد الكرنفال من يد إلى أخرى كابنة ملك في أزمنة غابرة قدر لها أن تقع في الأسر.

انفصلتُ عن عازفي آلات الكمان، الذين كانوا منشغلين بتأمين أمكنة لإيواء آلاتهم وحمايتها ثم مضيت إلى حال سبيلي. كذلك بدأ الناس عموماً، سواء هنا وفي الغابة هناك بالانطلاق عائدين إلى بيوتهم فغطت عربات هؤلاء الشارع برمته. وبما أنني لم أجد على الفور مكاناً يؤويني فضلت أن أمشي على قدميّ، ولكي لا أتعرض للخطر من العربات الخابَّة المتطاردة، مشيت على درب جانبية امتدت في أرض الغابة بموازاة الشارع الرئيسي. القمر في

فترة محاقه أضاء الطريق نوعاً ما عبر الأشجار؛ على أي حال كان من شأن أدغال الشجيرات هنا وهناك أن عاقت وتيرة الخطوات فلحقت لذلك أيضاً بمتجول وحيد كان يتعثر حانقاً متضايقاً بسيقان الشوك الأبيض وشجيرات العليق. كان هذا هو صديقنا لويس، الذي كان رداء الكتان الناعم يومض من تحت معطفه الأسود ويبقى معلقاً بالأشواك المتداخلة بعضها ببعض.

بعد أن عرف بعضنا الآخر، حكيت له ما جرى بنبرة جعلته يخمن الغاية التي رميت إليها. لويس، الذي كان سكيراً مثابراً ولكنه كان في الوقت نفسه يستفظع عادة السكر عند الرجال، أحس بانزعاج عميق واستخدمه فوق كل ذلك في اتقاء المزيد من الاتهامات والملاحظات المقيتة. فقال مستهزئاً: "إنها لقصة لا غبار عليها! هل ترون أعمالاً بطولية في غواية فتاة بريئة ودفعها إلى السكر؟ حقاً، لقد وضعتُ الفتاة المسكينة في عهدة أيدٍ أمينة!".

فأجبته بانفعال: "وضعتها في عهدة أيدٍ أمينة! والحق هو أن تقول إنك تخليت عنها، إنك خنتها!" ثم انهلت عليه بسيل من الاتهامات التي تجاوزت إلى حد كبير صلاحيتي وشرعيتي في هذا الموضوع. وختمت مؤقتاً بالقول: "هل من الصعب جداً أن يضع المرء حداً ثابتاً لنزواته ويكتفي ببعض الوفاء الجدير بالشكر من هبة زاخرة من الله كهذه الفتاة؟ هل يجب على العالم كله أن يندفع بسرعة إلى فوضى عارمة فيحجب عن ذاته النور في كل مكان ويعكر صفوه بنفسه؟".

كان لويس في أثناء ذلك تخلص من الأشواك العالقة بثيابه، ولأنه رأى أنه لا يستطيع أن يخيفني، فقد استسلم وقال بهدوء في حين تابعنا سيرنا واحداً خلف الآخر: "اتركني وشأني، فأنت لا تفهم هذا الأمر!".

فاستشطتُ غضباً وأجبته: "لوقتٍ كافٍ توهمت أن شيئاً يكمن في عقليتك مما لا أقدر بخبرتي المتواضعة على الإحاطة به وتقويمه! ولكنني الآن أرى بكل وضوح أن ما يهيمن عليك لا يزيد على كونه أكثر أنواع الأنانية والقسوة تفاهة ووضاعة، وما أسهل إدراك ذلك وأجدره بالاحتقار. لو كنت تعرف إلى

أي عمق شوهك نهجك هذا ومسخك وآلم أصدقاءك، لغيرت هذا النهج بدافع ذات الأنانية ذاتها التي توجهك الآن وتتخلص من عيوبك الكريهة".

فرد علي بنصف استدارة نحوي: "أقول مرة أخرى إنك لا تفهم هذا الأمر! وهذا في نظري هو أفضل اعتذار لك عن أقوالك غير اللائقة. والآن، يا بطل الفضيلة! هل فعلت ذات مرة شيئاً آخر غير ما لم تستطع أن تتركه؟ أنت لا تفعله الآن وسوف تحجم أكثر عن فعله إذا ما كنت بادئ ذي بدء تعايش شيئاً...

قلت: "آمل على الأقل أن أستطيع في كل وقت ترك السيئ والمستنكَر حينما أعرفهما كذلك!".

إثر ذلك رد لويس بقلب بارد في حين عاد من جديد إلى الاستدارة إلى الأمام: "سوف تترك في كل وقت ما لا يريحك!".

بفارغ الصبر أردت أن أقاطعه مرة أخرى؛ ولكنه أسكتني بعلو صوته وتابع يقول: "إذا ما وقعت مرة بين امرأتين، فقد يحتمل أن تجري وراء الاثنتين إذا ما وافقتا هواك وذلك أبسط من أن تحسم الأمر لمصلحة واحدة! وربما تكون محقاً في ذلك! ما يتعلق بي أنا، اعلم: العين هي الدافع إلى الحب والمحافظ عليه أو مدمره؛ يمكنني أن أعقد العزم على أن أكون وفياً، ولكن العين لا تستجيب لذلك بل تذعن بالطاعة لمجموعة قوانين الطبيعة الأزلية. ولوتر تحدث بوصفه إنساناً عادياً فقط حين قال إنه لا يستطيع أن ينظر إلى امرأة دون أن يشتهيها! إن امرأة نقية إلى حد كهذا من كل إضافات الاستبداد بالرأي والسقم والشواذ ومتمتعة بميزات لا تبلى من الصحة والمرح والطيب والذكاء كما هي روزالي، هي وحدها دون غيرها التي يمكن أن تأسرني إلى الأبد بفتنتها وسحرها. وكم يعتريني الخجل حين أدرك كم هي عرضة للفناء والزوال تلك الخاصية التي أوشكت على ربط حياتي ومصيري بتلك الأغنيس! وأنت أيضاً عليك أن تخجل من تسكعك في هذا العالم بصفتك عينة

فارغة كظل من دون جسم! ابحث لك أخيراً عن مضمون، عن ولع يسد ثغراتك بدلاً من أن تثقل على الناس بكلماتك الطنانة الرنانة".

أهانني بكلامه عدة مرات ورأيتني ألوذ بالصمت لبضع دقائق. كان لويس دون أن يعرف مصيباً في رأيه حول المرأتين اللتين أوردهما لي في الحسبان ما دمت سبق أن ضللت على طرق مشابهة حين كنت لا أزال أعدّ نصف طفل. ومع ذلك فقد أبيت أن أُقارن به؛ وكان من شأن النبيذ المحتسى والانفعال المتنوع الذي كان دام أكثر من أربع وعشرين ساعة أن أسهما أيضاً في تأجيج نزوعي إلى العراك والعدوانية، ولذلك بدأت من جديد بالكلام بلهجة جارفة جازمة: " إذا ما أراد المرء أن يحكم على قولك السابق فأنت لا ترغب إذاً في أن تحقق للفتاة الآمال التي حركتها لديها بطيشك واستهتارك؟".

قال لويس: "لم أحرك لديها أي آمال، وأنا حر وسيد رغبتي إزاء أي امرأة وإزاء العالم بأسره! وإذا كنت أستطيع في هذه الحال أن أفعل شيئاً لخير الطفلة الطيبة، فسوف أكون لها صديقاً حقيقياً وغير أناني ومن دون زخرفة وعبارات جوفاء! وهنا أقول لك لآخر مرة: دع عنك الاهتمام بغرامياتي أو لاغرامياتي، فأنا أرفض اهتمامك هذا رفضاً قاطعاً!".

قلت: "ولكنني سأهتم بها! فإما أن تلتزم الآن الوفاء والشرف أو أنك ستضطرني إلى البرهنة لك في أعماق نفسي أنك ترتكب باطلاً! ولكن ما تفعله هو نتيجة للإلحاد المقفر الكالح! فحيث لا يوجد الله، لا يوجد ملح ولا سند!".

هنا ضحك لويس ضحكة مجلجلة حين أجابني: "والآن، حمداً لربك! كنت أظن أنك سوف ترسو في النهاية في هذا الميناء من السعادة الغامرة! ولكنني أرجوك الآن، يا هاينريش الأخضر، دع الله يخرج من اللعبة، إذ لا علاقة له من قريب ولا من بعيد بهذا الأمر! أؤكد لك أنني سأكون معه ومن دونه تماماً كما أنا الآن! وهذا أمر لا يتوقف على إيماني بل على عينيَّ، على دماغي، على كل كياني الجسدي!".

قلت غاضباً وناسياً نفسي: "ويتوقف في كل الأحوال على قلبك؛ أجل، دعنا نقلها بصراحة، ليس رأسك بل قلبك هو الذي لا يعرف الله! إيمانك أو لنقل لا إيمانك هو سمتك المميزة!".

هنا رعد لويس بصوت قوي مستديراً نحوي وبقي واقفاً: "كفاك الآن تجنياً! ومع أن ما تقوله ليس إلا هراء محضاً ولا يرقى إلى مستوى الشتم، فإنني أعلم ماذا تقصد؛ لأنني أعرف هذه اللغة الوقحة التي تصدر عن واهم كاذب ومتعصب ولم أكن أظن أبداً أنك واحد من هذا النوع. تراجع فوراً عما قلته! فلن أدع من يتجنى على صفاتي دون عقاب!".

قلت بنبرة عدوانية تنم عن نزوع متنمر للعراك: "لن أتراجع عن شيء! وسوف نرى إلى أين سيقودك جنونك الإلحادي!" ولكن لويس رد بصوت ملؤه المرارة والاستياء: "كفاك تقريعاً وتأنيباً! أدعوك إلى المبارزة! وعليك أن تستعد لها مع طلوع الفجر لكي تناصر مرة، وسلاحك في يدك، ربك الذي تجيد مناصرته بالشتم والبذاءة. عليك أن تتدبر تأمين أعوان لك، أما أعواني فسوف يصلون إلى هناك في غضون ساعتين من الآن وهناك سوف يحضرون من أجل تأمين باقي الاحتياجات". ثم حدد مكاناً توقع أن تستمر فيه طوال الليل حركة العيد مع أصدائها. ثم استدار ومشى بخطوات سريعة إلى الأمام حيث صارت الطريق أقل وعورة مما كانت عليه سابقاً. أما أنا فقد قفزت إلى الجانب الآخر من الشارع، الذي كان أصبح في أثناء شجارنا خاوياً من الناس وهادئاً منذ مدة طويلة. كانت تلك هي الآن نهاية العيد الجميل! كان القمر يرمي بظلي إلى أمامي حين كنت أمشي في منتصف الشارع، ورأيت عليه شراشيب قبعتي التنكرية التهريجية مرسومة بكل وضوح. ولكن ذلك كله لم ينفع في شيء؛ فنور العقل كان انطفأ؛ وأسرعت في طريقي لكي أبحث عن أعوان لي يمكنهم تقديم الدعم والتشجيع إبان المبارزة.

كنت قبل ستة أعوام على الأقل تعلمت من رجل بولوني، كان يقيم في غرفة صغيرة من بيتنا، شيئاً من فن المبارزة. كان بضخامة بنيته وطول قامته

واحداً من أولئك العسكريين، الذين أصبحوا معروفين بصفتهم لاجئين من ثورة عام ١٨٣١ ثم اختفوا تقريباً من العالم أو على الأقل من البلدان التي كانوا هاجروا إليها. كان الرجل ضابط خيالة ومن أصول عريقة ويكسب قوته بمهارة ونزاهة ويرضى بأكثر أنماط الحياة تواضعاً كما يرضى بكل عمل يتيسر له، وكان دائماً مرحاً ولطيفاً إلا إذا تحدث عن المعارك الحربية، عن الكارثة التي ألمت بوطنه وكذلك عن حقده على روسيا. وعلى الرغم من أنه حظي بتربية كاثوليكية جيدة، كان ينكر في كل مرة بمرارة شديدة وجود رب في السماء وإلاّ لما جعل مصير بولونيا في أيدي الروس. كان يحبني، ولكي يبرهن لي عن استجابة لطيفة أو صنيع جميل، ولأنه لم يكن في تلك الفترة مشغولاً بعمل آخر، فلم يهدأ له بال إلا بإعطائي بعض الدروس في فن المبارزة. من حسابه الخاص اشترى لي سيفين أو شوكتين للمبارزة بالشيش وقناعين مزودين بأسلاك معدنية متقاطعة لتغطية الوجه ولوازم أخرى وكان يصحبني يومياً لمدة ساعة من الزمن إلى الأرضية الواسعة التي تحت سقف البناية حيث أوصلني للضرورة فحسب إلى إنجاز مرحلة أولى وفعل ذلك بحب وتحمل وكأن الأمر كان يتعلق يكسب الذهب إلى أن أبعدته عن منطقتنا مقادير أخرى. وفي المدينة، التي كنت أقيم فيها الآن، كنت حاولت في بعض الأحيان مع طلاب من بني موطني كنت أختلط بهم وألتقيهم من حين لآخر وكانوا احتفظوا بأدوات مبارزة مبعثرة في حجرة سكناهم، أن أتبارز من جديد جولة أو جولتين وذلك دون أي هدف آخر غير التفكير بملء الفراغ مؤقتاً. والآن فكرت أن بإمكاني أن ألتقي واحداً أو اثنين من هؤلاء الشباب بالتأكيد في مكان تجمعهم المعتاد، لكي أطلب مساعدتهم وتشجيعهم في أثناء المبارزة، وبالفعل وجدتهم هناك وهم في حالة من الجسارة، متفقة تماماً مع الوقت المتأخر ومع رغباتي أيضاً. فذهبوا في الحال إلى حيث كان ينتظرهم أعوان خصمي وأمناء سره.

ولكن سرعان ما عادوا على أساس أن الاتفاق تم على أن تجري المبارزة غداً في الساعة الثانية صباحاً وفي مسكن لويس ذاته. وقالوا إن

لويس أكد أنه يسكن وحده، إذاً لا خشية في هذه الحالة من أي شهود؛ ثم إن بإمكانه، إذا ما جُرح، أن يستلقي في سريره الخاص به ويتعافى في جو من الهدوء والطمأنينة أو يموت، ويمكن للخصم في هذه الحال أن يرحل بكل أمان وراحة بال. ولكن إذا صادف أن منيت أنا بإصابة فبإمكاني أن أستلقي في بادئ الأمر على السرير بدلاً منه في حين يولي هو الأدبار.

ثم قيل إنه تم أيضاً تأمين طبيب لهذا الغرض كما تم كذلك تأمين الأسلحة اللازمة، وكان سبق أن اقترحت سيوف شيش أو ما كان يطلق عليها اسم السيوف الباريسية، وهي الأسلحة الوحيدة التي كنت ألم إلى حد ما بمعرفة استخدامها، خصوصاً أنني عرفت أن لويس يلم أيضاً بمعرفة ذلك.

كيف أمضى لويس البقية القصيرة من الليل، لم أعرف ذلك أبداً، أما ما تعلق بي أنا فقد بقيت جالساً مع مستشاريَّ لأننا وجدنا أن من الأفضل اجتياز المغامرة الخطيرة بنجاح بصفتها خاتمة لإرهاق العيد كله، الذي تغلغل على نحو ما في داخلي وكأنني بعد راحة غير كافية أُوقظت من نوم عميق وعلي أن أبارز دون تداخل الأفكار. ولذلك لم يتسنَّ لي أن أغير البذلة، ولو أن القدر أصابني لحملت بعيداً في شكل مهرج مات طعناً.

وعلى الرغم من ذلك فقد داهمني الإرهاق، فغلب علي النعاس ووضعت رأسي في النهاية على الطاولة واستسلمت للنوم، في حين شرب الآخرون مع آخر الغادين والرائحين ومع المتأخرين كأساً من النبيذ الساخن. وأنا أيضاً أفرغت في جوفي كأساً منه حين أوقظت بهزّ جسمي وتحريكه يمنة ويسرة، ولكنني لم أجد نفسي منتعشاً بالمرة ولم أكن صاحياً أيضاً من جراء فترة النوم القصيرة. ومع ذلك فقد تذكرت، كما يتذكر المرء من حلم كان رآه، أنني كالاثنين اللذين أتيا معي مشيت عبر الشوارع بجدية شديدة ودخلت إلى مسكن لويس الهادئ حيث كان ينتظرنا مع رجلين شابين أو ثلاثة، كذلك بجدية وبرودة.

وقفنا جميعاً في كبرى غرف مسكنه أمام اللوحة التي تصور المستهزئين؛ وكان من شأن غسق الصباح أن جعل أشخاص اللوحة، الذين كانوا يخرجون وامضين من قلب الظلام، يظهرون وكأنهم أحياء وكأنهم يتوقعون ما سيجري فيما بعد.

والآن أُخرج من صندوق صغير طويل سيفان مثلثا الشكل ومدببا الرأس كالإبرة ومصقولان إلى حد اللمعان، ومقبضان ملبَّسان بأسلاك الفضة، وجرسان مذهَّبان ولهما شكل نصف دائري والغرض منهما هو حماية اليد، أُخرجت هذه الأشياء ورُكبت متداخلة بعضها في بعض ثم ثُبتت ببراغيّ. وبعد السؤال عما إذا كان بالإمكان إجراء مصالحة أو تفاهم من جانب آخر فلم يُبد أي منا أي حراك، سُلِّمنا السلاح بأيدينا وأُرشد كل منا إلى المكان المخصص له. ألقيتُ نظرة على لويس؛ فبدا أيضاً شاحب الوجه ومتوتر الأعصاب مثلي أنا نفسي. وقد زال كل ملمح من الرضا والعقلية الودية من وجوهنا، في حين هدأت أيضاً ثائرة الحنق السابق ولم يبق سوى الحماقة البشرية المتجمدة على الشفاه. هنا وقفت الآن، والسيف في يدي، في أتم الجاهزية لإراقة دم صديق من أجل أن أبرهن له على حقيقة إيماني بالله، والصديق كان بحاجة إلى دمي لكي يدافع عن شرف نظرته إلى الحياة، وفيما عدا ذلك كان كل منا من دعاة التعقل والحرية والنزعة الإنسانية. وما هي إلا ثانية مشؤومة، والسيف الساطع كان ربما انزلق إلى قلب دافئ.

ولكن لم يعد ثمة وقت لتروٍ منقذ ومفيد، فقد أُعطيت إشارة البدء، أدينا بالسيفين التحية المعتادة واتخذنا وضعية القتال، لكن لا كمتبارزين محترفين بل على الأرجح كتلميذين وجلين مرتبكين. كانت أيدينا ترتجف بقدر متساو تقريباً حين جعلنا رأسي سيفينا يدور بعضهما حول بعض لكي نهتدي إلى البداية، والطعنة الأولى التي وجهتها لخصمي كانت بالفعل الطعنة التدريبية الأولى كما تُعرض عادة في صالة المبارزة بحسب ترتيب الأرقام. ردها لويس أيضاً بطريقة تدريبية لأنه رآها آتية من بعيد؛ رد الهجمة على أي

حال، ودفعت عني بدوري هجمته متثاقلاً قليلاً ولكن ما زالت في الوقت المناسب. الله، الذي كنا يقاتل بعضنا بعضاً من أجله، ربما كان يعرف كيف أن زوجاً من المقاتلين المسالمين إلى هذا الحد كان وقع في وضع خطر كهذا. ولكن في كل الأحوال كان الوضع خطراً وحرجاً؛ فمع صليل السيوف المنزلقة أصبحت المبارزة أكثر حيوية وسرعة بحيث غدت الطعنات بسبب الدفاع عن النفس أكثر عدداً وأكثر ثباتاً. هنا ومض فجأة السيف والأجراس في سلاحينا بشعاع ضارب إلى الحمرة وبدأت في الوقت ذاته اللوحة التي في خلفية الغرفة تتلألأ بهدوء، كلاهما بفعل توهج سحابة كانت وقفت في انعكاس ضوء الشفق الذي لاح تواً. ألقى لويس بغير قصد نظرة جانبية إلى لوحته فرأى نظرات خبرائه(*) كما اعتاد أن يسميهم، متوجهة إلينا. فترك سيفه يرتمي على الأرض في حين نودي علي أنا، الذي كنت أهم بشن هجمة جديدة، بصرخة "توقف!". لويس، الذي كان بقي واقعياً ومتعقلاً تماماً، كان بفضل النظرة التي رُمق بها من لوحة المستهزئين أول من أدرك عدمية ما كنا نفعل.

هنا أعلن لويس بنبرة جدية لكن هادئة: "أريد أن أتراجع عن التحدي الذي كنت وجهته إليك وأريد أن أنسى ما حدث دون أن تسيل الدماء".

وتقدم إلي خطوة ومد لي يده. ثم قال: "دعنا نذهب إلى النوم، يا هاينريش لي! وفي الوقت ذاته أقول لك وداعاً! وبما أنني على أتم الجاهزية للرحيل، فقد أخرج اليوم لبعض الوقت لكي أروح قليلاً عن نفسي".

بذلك ذهب بعد أن حيا الحاضرين إلى غرفة نومه؛ هكذا غادر بعضنا بعضاً، على الرغم من المصالحة التي لم تكن متوقعة، من دون إظهار أي مودة لأننا كنا في حقيقة الأمر أهان بعضنا بعضاً ولم يكن أحد في تلك اللحظة متصالحاً مع ذاته. الشهود والطبيب، الذين لم يكن لهم في أثناء سير النزاع

(*) المستهزئين، المترجم.

نظرة واضحة قط، ودع بعضهم بعضاً بصمت أمام البيت وذهب كل إلى حال سبيله، أما أنا فقد انصرفت بطبيعة الحال وأنا أشعر وكأنني أُرسلت إلى بيتي بفعل التفوق المعنوي لخصم كنت أردت أن أعامله كتلميذ وألقنه درساً لا يُنسى.

حين دخلت إلى مسكني رحب بي أهل البيت، الذين كانوا يجلسون على مائدة الفطور، بوصفي مهرجاً مثابراً. ومع أنني كنت مرهقاً ومتعباً فلم أكد أستطيع النوم وحين استطعته حلمت بأنني طعنت الصديق طعنة قاتلة، ولكن سال دمي أنا بدلاً من دمه هو، وأن أمي الباكية تضمد جرحي. وفي أثناء ذلك تصارعت بمرارة مع نحيب كنت حلمت به فاستيقظت بسببه. صحيح أنني وجدت العينين والوسادة مبتلة، ولكنني فكرت في التبعات التي كانت واردة في الحسبان إلى أن نعمت في النهاية بنوم أعمق.

* * *




الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الخامس عشر

صيد الأوهام

نمتُ إلى ما بعد الظهر من ذلك اليوم وحين استيقظت لم أدر ماذا أفعل مع نفسي؛ فالعالم ورأسي بدوا كلاهما أجوفين وزائلين. تذكرت نهاية احتفالات الشبيبة في فترة صباي وعروض مسرحية فليلهم تِلّ وقلت لنفسي: إذا ما انتهت كل احتفالاتك المفرحة هكذا فمن الأفضل أن تقلع عن الذهاب إليها. في بادئ الأمر جمعت ثياب التنكر، التي كانت مبعثرة على الأرض وعلقتها بمسمار في بأحد جدران حجرتي الصغيرة بصفتها مادة مناسبة للرسم، أما الإكليل المصنوع من الأشواك وشجيرات البهشية فقد لففته حول جمجمة تزفيهان، التي وضعتها على الكومودينا في غرفة نومي الصغيرة، لكي أجعل من ذلك تذكاراً مفيداً. إن ما جبلنا عليه من طبع لعوب ومولع بالزخرفة يحتفظ بحيويته في كل أوضاع التعاسة وكل أشكال البروز إلى حيز الوجود إلى أن نتصدع ونزول. ربما أن ذلك جزء من الضمير؛ إذ كما أن الحيوان لا يضحك فالعديم الضمير لا يلعب، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالربح والكسب.

نظراً إلى وضعي الذي اكتنفه الغموض كوني عاطلاً من العمل فقد كانت زيارة راينهولد، الكرّام وعازف الكمان، إلى مسكني أمراً مرحَّباً به؛ وقد قصدني لكي يطلب مني أن أؤدي له خدمة لها علاقة بالحب. أخبرني راينهولد أن وضع أغنيس الذي كان ميئوساً منه استمر على حاله ساعات طويلة وأنها لم تتعافَ إلى حدّ أمكن معها نقلها إلى البيت إلا لدى حلول الصباح وانتشار ضوء النهار. ولكن ثمة إشاعات مسيئة إليها حول تصرف نم

عن إساءة للأدب، إذا صح التعبير، ومن ثم عن حال سكر أسفرت عن أن خاطباً غنياً غادر أغنيس فوراً وصرف النظر عن خطبتها، إشاعات كهذه كانت سرت وتغلغلت بين الناس قبل أن تصل الفتاة إلى أمها؛ وحين وصلت العربة إلى أمام البيت ونزلت منها منهكة منكسرة النفس، فُتحت نوافذ الجيران وأخذ الناس ينظرون إليها باحتقار واضح أو على الأقل باستنكار ولوم. وهو ذاته، أي راينهولد، كان رافق المسكينة بصحبة خادمة من بيت روزالي الريفي غير أنه ذهب وشأنه في الحال دون أن يدخل معها إلى البيت. ولكن هذا الظهور أيضاً لحامٍ جديد كان من شأنه أن زاد الطين بلة، أي زاد مظهر الأمر سوءاً، وعلينا الآن كوننا أسهمنا في حينه في وصول الوضع إلى هذا الحد أن ندافع عن سمعة هذه المخلوقة البريئة. وتابع راينهولد يقول إنه وضع خطة واتفق مع أصدقائه أن يعزفوا في مساء هذا اليوم تحت نافذة الآنسة المكابدة موسيقى جدية ومشرِّفة وبالتالي تحية موسيقية تحمل أسمى آيات التقدير والاحترام؛ ولكي نتجنب أي مضايقات وكذلك للإعلاء من مكانه المناسبة فقد تم الحصول على إذن رسمي من السلطات المعنية. وبعد الانتهاء من التحية الموسيقية أفكر أن أعرج فوراً على الفتاة المخذولة وأتقدم رسمياً لطلب يدها.

ثم تابع يقول: "وبكل تعمد لا أريد أن أعرف أي شيء عما سبق أن جرى معها وليُشع الناس عنها ما يشاؤون! كما هي في هذه اللحظة، بوجهها الناعم وجسمها الخفيف ومجمل شخصها وبمصيرها الصغير، تعجبني وتبدو أن لا غنى لي عنها! وإذا ما أخطأ ظني فيها فلن يكون لذلك معنى سوى أنها عندي أكثر بكثير مما كنت أظن! إن ما سيغمرها بالمرح والغبطة هو شيء من الشمس الدافئة وقليل من السعادة وما يسميه الناس إذا صح التعبير كأساً من نبيذ الراين الجيدة.

سألت راينهولد مستغرباً، لكن مبدياً أيضاً بعض التجاوب إذ رأيت في نية الرجل المريح أفضل عون في لحظة الشدة: " ما المطلوب مني أن أفعل في هذا المجال؟".

فأجاب قائلاً: "ما أريـــده منك هو أن تذهب عند المساء إلى البيت الضيق، أعني إلى علبة الحلي الصغيرة، وتلهي السيدتين لئلا تخرجا منه فتفاجأا عندئذ بتحية الموسيقي. وينبغي عليك أيضاً، إذا لم يحصل ذلك من تلقاء ذاته، أن تجعل مني – دون أن يلفت ذلك انتباه أحد- مداراً للحديث وتشيد بي قليلاً، يعني لا بشخصي بل بأوضاعي، أريد أن أقول برفاهيتي المتواضعة التي تسمح لي دونما قلق أو انشغال بال بأن أجلب زوجاً إلى بيتي. أرغب في أن تفعل ذلك بصورة عرضية تماماً، ولكن أن تتحدث عن واحد من أصحابك لا ريب فيه بحيث تكون هذه الأرضية ممهدة حين أجيء فلا أحتاج عندئذ أن أدخل أنا ذاتي في الموضوع من بدايته. مقدمات كهذه هي على جانب كبير من الأهمية والفائدة ولها تأثير حاسم في أمور متشابكة من هذا النوع. ولن تقول عني كذباً، اللهم إلا إذا بالغت متباهياً، أعاهدك على ذلك! شيء من ملكية عقارية وموردي من الفن من شأنهما أن يكفيا لحياة ذات مستوى متوسط، وليس بأي حال من الأحوال لحياة شحيحة؛ ومستقبلي مضمون من خلال ميراث سوف ينتقل إلي من عمة عجوز تسومني باستمرار سوء العذاب بسبب الزواج وتعد لي جهاز عروس لا يستهان به وكأنني ابنة وحيدة لها. انتبه- هذا الوضع يمكنك أن تصفه بشيء من الإسهاب والتفصيل! إنه لأمر مضحك فعلاً كيف أن عمتي الطيبة لا تزال تشتري من أجلي ما هب ودب من الحاجات، فحينما ترى شيئاً وتظن أنني قد أكون بحاجة إليه مستقبلاً لتأثيث بيتي، تشتريه دون تردد ودون إبطاء. تكدس عمتي باستمرار في بيتها، المليء منذ قديم الزمان بمختلف الأشياء، مخزونات ومؤناً جديدة صغيرة وكبيرة على حد سواء. إذاً تحدّث ، تكلَّم! هل تريد أن تحقق لي رغباتي؟ يمكنني أن أقول لك إنني أشعر شعور واحد يرى قطعة من الماس ملقاة على الأرض، سبق أن كان رماها هناك رجل غبي، ويخشى الآن أن يجدها واحد غيره قبل أن يصل هو ذاته إلى مكانها".

كان لا بد لي من أن أبتسم في داخلي لهذه النادرة الطريفة في مسيرة هذا الكون، التي تثبت صحتها بذاتها بكل ظرف إذا ما نجحت خطط راينهولد. وافقت له على تلبية رغباته بقدر ما فهمت ذلك فأسرع مغموراً بالأمل إلى الموعد الضروري التالي.

لم يسعني في ذلك اليوم الخاوي المقفر إلا أن أرحب بطلبه، على الرغم من أنه كان أمراً جديداً عليّ أن أمارس نوعاً من القيادة. وقلت لنفسي: "بعد أن حرستَ طوال يومين تقريباً الحبيبة التي أهملها وهجرها واحد من الدونجوانات، يمكنك أن ترضى أيضاً بممارسة عمل النساء العجائز فهو يتناسب مع عمل الحراسة ويتناسب أيضاً مع المبارزة التي لم يكتب لها أن تتم!".

مع حلول الغسق ذهبت إلى بيت السيدتين ووصلت بسرعة إلى أمام باب حجرتهما فوجدتهما جالستين في جو عميق الهدوء؛ إذ ما من صوت كان يُسمع من تلك الحجرة. ولدى طرقي الباب فقط، سمعت كلمة "ادخل!" خافتة وحين دخلت لم أر في غرفة نصف مظلمة سوى الأم وهي جالسة في أريكتها المريحة وواضعة رأسها بين يديها. على الطاولة أمامها كان ثمة صندوق صغير. وإذ عرفتني لم تقل بصوتها المبحوح أكثر من: "عيداً جميلاً لنا جميعاً! ليلةً جميلةً ويوماً جميلاً!".

أجبت بصوت منخفض قليلاً: "كان عيداً متسماً بشيء من السحر، وقد حدثت للبعض أمور غريبة!".

لاذت بالصمت هنيهة وتابعت قولها بعد ذلك بثقة أكبر: "يا لها من غرابة جميلة! حين أمد رأسي إلى خارج الباب يشير الجيران إلي بأصابعهم! عرّابة بعد أخرى، لم أرَهنَّ فيما عدا ذلك، يقتحمن بيتنا في هذه الأيام لكي يتمتعن بالحديث عن الفضيحة! هكذا تُجرجر الطفلة ليلتين هكذا على غير هدى وتعاد إلي بعد ذلك سكرى وبرفقة أناس غرباء! والخاطب الغني الجميل، هذا السيد لويس، اكتفى طبعاً بالتمثيل إلى هذا الحد ورفض وولى الأدبار! وهكذا ترى كم كابدنا وعانينا!".

ثم أخرجت رسالة كانت تحت الصندوق الصغير وفتحتها؛ ولكن تعذرت قراءتها بسبب الظلمة. فقالت السيدة: "أريد أن أُحضر ضوءاً! "ثم خرجت من الغرفة متعبة ومستاءة وعادت بمصباح مطبخ صغير ومتواضع، إذ بدا أن واحداً من جماعة الغدر والخيانة لا يستحق أن يُبذل في سبيله جهد من أجل أن يوضع أمامه ضوء أفضل. قرأت الرسالة القصيرة، التي أشار فيها لويس بأسطر قليلة إلى أنه لا بد له من السفر لفترة غير محددة بل ربما إلى الأبد وقدم الشكر من كل قلبه للصداقة الجيدة التي أمتعته وتمنى كل السعادة والخير، ثم رجا الابنة أن تقبل منه بكل مودة تذكاراً صغيراً. حين قرأتُ الرسالة، فتحت المرأة المنكودة الصندوق الصغير، الذي كانت تلمع فيه ساعة ثمينة مع جنزير ناعم.

قالت السيدة: "أليست هذه الهدية الثمينة برهاناً على جديته، حتى إنه يتصرف الآن بروح عالية من النبل على الرغم من المهانة التي لحقت به؟".

قلت: "أنت تخطئين في تقدير الأمر! فليس لأحد أن يلوم نفسه على شيء، ولا سيما الآنسة الطيبة، ابنتك! لويس تخلى عن ابنتك منذ البداية وتبع امرأة جميلة أخرى؛ وإذ رفضته هذه ما دامت باختصار العروس الحالية لصديقه إيريكسون، فقد ولى الأدبار مغادراً البلاد إلى غير رجعة. أعرف بالتأكيد أنه كان قضية خاسرة لابنتك وذلك قبل أن يؤدي بها الهم والانفعال إلى وضعها الصحي الرديء الآن. وربما كان ذلك هو من حسن حظ الآنسة، حتى إن هذا هو في رأيي أمر مؤكد!".

هنا رمقتني السيدة بنظرة كبيرة؛ ومن خلفية الغرفة الضيقة، لكن العميقة، سُمع صوت تنهيدة أليمة. الآن فقط رأيت أغنيس جالسة في زاوية بجانب المدفأة. كانت فكت شعرها ولم تضفره من جديد فغطى وجهها ونصف جسمها المحني. إلى ذلك كانت ألقت منديلاً حول رأسها وكتفيها وسحبته إلى وجهها؛ ثم ضغطت الوجه، محولة نظرها عن الغرفة، على الحائط وبقيت هكذا دون حراك.

قالت الأم: "لم تعد تجرؤ على الجلوس بالقرب من النافذة!".

ذهبت إليها لكي أحييها وأمد لها يدي؛ لكنها تحولت عني بعمق أكثر وبدأت بهدوء تبكي في داخلها. فعدت بارتباك إلى الطاولة، وبما أن مغامراتي كانت صفعتني معنوياً إلى حد كبير فقد تدفقت الدموع إلى عينيّ أنا ذاتي. من ناحية أخرى مس ذلك شغاف قلب الأرملة فبدأت هي أيضاً بدورها بالبكاء وعند ذلك تقلص وجهها بقوة تقلصاً لا يُرى إلا لدى الأطفال الصغار المولولين. كان ذلك منظراً غريباً ومزعجاً وكان من شأنه أن أدى إلى جفاف عينيَّ بسرعة. ولدى المرأة أيضاً، مثلها مثل الأطفال، توقف رذاذ الصاعقة بسرعة ودعتني الآن فحسب بصوت متغير تماماً إلى الجلوس. في الوقت ذاته سألتني من كان في واقع الأمر ذلك الغريب الذي رافق أغنيس في الصباح الباكر إلى البيت، وعما إذا سوف يعمل على مزيد من نشر الحكاية التعيسة. فأجبتها: لا؛ ذلك لأنه إنسان فاضل وجيد الأوضاع، ولم أقصر الآن- بكلمات تبدو لا مكترثة ومقولة بالحذر الضروري- في سرد تلك التفاصيل المتعلقة بالملقب بصانع الله وبأوضاعه بالطريقة التي تتفق مع رغباته. ولكن لدى وصف عمته ونزوعها الجامح إلى تأثيث المنزل، الذي من شأنه أن يوفر على زوجة ابن أخيها في المستقبل - باستثناء شخصها هي ذاتها - من وضع أي شيء في البيت أو إلقائه أو تنضيده أو تعليقه، ازدادت أقوالي حيوية لأنها أدخلت السرور إلى نفسي. للمناسبة، هكذا ختمتُ حديثي، سوف يقوم السيد راينهولد في مساء هذا اليوم إذا ما وافقت السيدتان بزيارة إلى هنا ليقوم بواجبه في الاستفسار عن صحة الآنسة المريضة، وما دام يعرف أنني أحظى بشرف السماح لي بالمجيء إلى هذا البيت فقد رجاني أن أحصل على السماح له بتقديم نفسه للسيدتين. فكان من شأن هذا الإعلان أن أعاد للمرأة جزءاً من ثقتها بنفسها.

فقالت محتدة: "يا طفلتي! هل تسمعين؟ سوف يأتينا زائر، اذهبي، ارتدي ملابسك، ارفعي شعرك، فمنظرك الآن هكذا شبيه بمنظر ساحرة!".

ولكن أغنيس لم تُبد حراكاً، وحتى حين ذهبت أمها إليها وأخذت تهزها بهدوء يمنة ويسرة فقد ردتها ورجتها منهنهة أن تتركها وشأنها وإلا فسوف ينشطر قلبها إلى نصفين. في غمرة يأسها بدأت تلك بإعداد المائدة وتحضير الشاي؛ فأحضرت بضعة أوعية من المأكولات الباردة وطبقاً من الكاتو ووضعت الكل على الطاولة. ثم شكت من أنها كانت اشترت من أجل أمسية البارحة كيساً صغيراً من أجود أنواع الشاي وأعدت بعض المكسّرات أملاً في عودة ابنتها الشابة مع صديقها الشاب لويس في وقت أبكر؛ أما الآن فعسى أن تعود المأدبة الصغيرة بالفائدة وتليق بشرف الزائر المنتظَر؛ على أي حال لم يفسد أي شيء.

جلسنا وكان الماء يغلي في قدر الشاي الصغير اللامع ولقليل الاستخدام منذ زمن طويل، ولم يأت بعد أي زائر لأن الوقت عموماً كان لا يزال مبكراً. هنا نفد صبر المرأة الطيبة؛ فبدأت تشك في حقيقة أن راينهولد سوف يأتي فعلاً، حاولت تهدئتها وانتظرنا من جديد فترة طويلة. وأخيراً سئمت من الانتظار وأعدت الشاي؛ فشربنا فنجاناً وأكلنا قليلاً وانتظرنا مرة أخرى، تجاذبنا أطراف الحديث بكلمات وأفكار مبعثرة إلى أن استسلمت السيدة المتعبة للنعاس نظراً إلى قلة كلامي. وهكذا حل الآن هدوء عميق، وبعد بعض الوقت لاحظت من الأنفاس الهادئة المنتظمة والآتية من زاوية المدفأة أن أغنيس نامت هي الأخرى أيضاً. وبما أنني بدوري لم أنعم بنوم كاف فقد ذبلت عيناي ونمت في مواكبة من نام في حين أضاء المصباح الصغير بنوره الخافت أرجاء الغرفة.

ربما كنا نمنا بكل وئام وتضامن سويعة من الزمن حين أيقظتنا موسيقى جهورية هادئة ورأينا النافذة في ذات الوقت مضاءة بلمعان أحمر اللون. الأرملة المفاجأة وأنا هرعنا إلى النافذة؛ في الساحة الصغيرة كان يقف ثمانية عازفين أمام بضع منصات موسيقية، وكان أربعة صبيان يرفعون مشاعل تتأجج فيها النيران وعلى مدخل الساحة كان شرطيان يسيران صعوداً وهبوطاً

من أجل إحلال النظام بين المتفرجين الذين كانوا تجمعوا بسرعة في ذلك المكان. إضافة إلى عازفي الكمان كان راينهولد استأجر أيضاً بعض النافخين في البوق والمزامير والناي؛ وجلس هو ذاته على كرسي سفري وأخذ يعزف على آلة الفيولونسيل.

سألت أم أغنيس وقد اعترتها الدهشة: "يا إلهي ما هذا؟".

فأجبتها: "أشعلي أضواء! هذا هو السيد راينهولد مع أصدقائه، الذي يؤدي تحية موسيقية على شرف ابنتك! هذه الموسيقى تعزف خصيصاً لها، لكي تُكرَّم أمام العالم وأمام هذه المدينة!".

فتحتُ مصراعاً من النافذة في حين هرعت السيدة إلى شمعداناتها الفخمة وأشعلت الشموع الوردية التي أتت لهذه المناسبة في محلها تماماً وعلى أفضل وجه. الموسيقى البطيئة من إيطالي أكبر سناً تسللت إلينا مع نسيم الربيع المبكر المنعش بكل أبهة وروعة.

همست الأم في أذن ابنتها المنصتة: "يا طفلتي العزيزة! ثمة تحية موسيقية تُعزف تكريماً لنا، تُعزف لنا تحية موسيقية. تعالي، انظري من النافذة!". لأول مرة سمعت صوتها مفعماً بالفرح من الأعماق والسعادة الفعلية وهي تتحدث إلى ابنتها، إلى هذا الحد من الارتياح أثر فيها هي أيضاً الحدث الموسيقي، وأغنيس أدارت بصمت وجهها الشاحب باتجاه النافذة. ثم نهضت واقفة ببطء وتثاقل ومشت إلى هناك. ولكن حين رأت الوجوه الكثيرة في الشارع وتحت كل نوافذ الجيران في ضوء المشاعل هربت عائدة إلى مكان جلوسها ووضعت يديها مشبوكتي الراحتين في حضنها ثم مالت برأسها جانباً لكي لا تضيع على نفسها أي نغمة من الموسيقى الجميلة. وظلت هكذا إلى أن انتهت القطع الموسيقية الثلاث التي عزفها الرجال واختُتمت التحية الموسيقية بتحول إلى ألحان سريعة شبه راقصة ثم غادر الموسيقيون الساحة بهدوء في حين عبر الناس المحتشدون في الزقاق عن فرحتهم بالمناسبة بتصفيق صاخب. وكان من شأن الصناديق الصغيرة والأجربة، التي حمل العازفون

فيها آلاتهم أن عززت لدى الجمهور الانطباع بأن ذلك الحدث الموسيقي أعلى من عادي وعريق؛ ولدى تبعثر الناس وتفرقهم ببطء تمعنوا في ملاحظة البيت لافت الانتباه والداعي للاستغراب، والسيدة الواقفة في النافذة تمتعت بكل ما رأت حتى آخر لحظة؛ وحتى حمل منصات الموسيقى ونقلها من المكان بدا لها أكثر أبهة وروعة من كل ما سبق لها أن عايشته.

حين أغلقت السيدة أخيراً النافذة واستدارت، كان راينهولد واقفاً في الغرفة؛ فحياها بكل إكبار وفي الوقت ذاته قدمتُ لها اسمه للتعارف. بعد ذلك اعتذر بسبب الحرية التي سمح لنفسه بها في إحداث إزعاج فضولي قد يُلتمس له العذر من جراء الجو الكرنفالي العام؛ فردت السيدة على ذلك بمجاملات وتقديمات شكر كبيرة، في حين انزلقت إلى نغمة غنائية نمت عن سعادة غامرة ورنت شبيهة تقريباً بنغمات صافرة تؤدى عزفاً على آلة الكمان. وفجأة قطعت غناءها لكي تستدعي ابنتها، التي بدا لها أن تريثها الطويل في الزاوية هو أمر غير لائق. ولكن هذه كانت تسللت من غير أن يلاحظ أحد إلى خارج الغرفة ودخلت إليها من جديد. كانت لفت حول روبها الصباحي، التي قضت فيه حزنها طول اليوم، شالاً أبيض وربطت أطرافه على الظهر. وكانت جمعت ببساطة شعرها الأسود ولفته على نقرتها في عقدة كبيرة، كل ذلك في دقيقة واحدة وربما دون أن تنظر في المرآة. كان سلوكها وتعبير وجهها يوحيان بأنها أكبر سناً بعشر سنوات مما هي عليه بالفعل؛ وحتى أمها نظرت إليها بدهشة واستغراب كما لو أنها ترى شبحاً، ليس إلا. توجهت أغنيس إلى الملقب بصانع الله بقامة منتصبة وصوبت عينيها نحوه بجدية هادئة ثم مدت يدها لمصافحته. لو أنها كانت مكسوة بالمخمل والحرير لما استطاعت أن تفتن نظرة راينهولد إلى الحد الذي بلغته الآن بمظهرها البسيط، وأنا ذاتي كان لا بد لي من أن أجيل في ذهني على الفور فكرة تقول: حمداً لله على أن لويس ذهب إلى حال سبيله ولن يرى أغنيس بعد الآن، وإلا لكان الويل وارداً في الحسبان من جديد!

بَيْدَ أن راينهولد قدم بنظرة صامتة كل التقديس والعبادة لما أنجزه الآن في أغنيس؛ لأنه حرفياً كان أعاد الوردة المقروفة من جديد إلى انتصابها بحيث استطاعت أن تحيا مرة أخرى. فصونه كرامتها وتكريمها على يديه شعا بكل صفاء من جبينها وحول نجوم عينيها السوداوين الهادئتين بحيث اعتراه الذهول بكل خضوع وعجز عن الكلام، وحتى حين جلسنا الآن على المائدة وأعدت الأم الشاي من جديد. ساد جو من الارتباك وقلة الكلام إلى أن بدأت السيدة الكبيرة بالحديث عن موطن الضيف في منطقة حوض الراين فسألته هل صحيح أن إقامته هنا لن تستمر طويلاً وأنه سيعود إلى هناك؟ فكان من شأن هذا السؤال أن حل عقدة لسانه فأوضح أن كنائس وأحباراً مع طلبياتهم ينتظرونه بفارغ الصبر ويعولون على التقدم الذي لا بد أن يكون أحرزه في مجال عمله. ثم سره أن يمدح موطنه الجميل، فقال: "يقع بيتي هناك خارج المدينة الصغيرة القديمة في السفح حيث يمكن للمرء أن يشاهد جبل راينغاو من الأعلى ومن الأسفل؛ بروج وصخور تسبح في أريج ضارب إلى الزرقة وتسيل عبره المياه الواسعة. وخلف حديقة البيت تنتشر دوالي الكرمة على سفوح الجبل الصاعد إلى قمته وفي الأعالي توجد كنيسة سيدتنا العذراء الحبيبة التي تطل على ما بعد تلك البلاد وتغطس في الشفق الأخير من المساء. وفي مقربة منها أقمت بيتاً صغيراً في الحديقة للاستمتاع والاستجمام ثم أقمت تحته قبواً صغيراً محفوراً في الصخور وفيه توجد باستمرار دزينة من زجاجات النبيذ الصافي. حين كنت أنتهي من صنع كأس جديد للنبيذ كنت أصعد، قبل أن أطلي داخله بماء الذهب، إلى القبو وأشرب ملء الكأس ثلاث مرات أو أربعاً نخب كل القديسين والمرحين. أريد هنا أن أعترف فقط أن عمل الفضة وشيئاً من الموسيقى والنبيذ كانت مسرتي الوحيدة، وأفضل أيامي كانت أيام العطل المشمسة لأم الله حين كنت أعزف تمجيداً لها الموسيقى في الكنائس المجاورة في حين كانت الأوعية التي أصنعها تلمع في الأسفل فوق هياكل مكللة؛ ولا بد من أن أقر بأن نشوة صغيرة بعد ذلك على مائدة قسيس

مرحة كانت تبدو لي بمكانة قمة الوجود. نمط حياتي هذا سوف يتغير من الآن فصاعداً، إذ إن في ذهني الآن مشروع نمط أفضل".

كان يتلعثم لدى قوله هذه الكلمات التي رافقتها حرارة متنامية، ولكنه سرعان ما تشجع ونهض عن كرسيه متوجهاً إلى السيدتين بالقول: "لماذا كل هذا اللف والدوران؟ أنا هنا لكي أعرض على الآنسة قلباً مخلصاً مع كل ما يلحق به من يد وبيت ومزرعة؛ باختصار، أتيت لكي أتقدم بعرض زواج! وأرجو أن يلقى عرضي استماعاً عطوفاً، كما أرجو أيضاً، في حال كان أسلوبي في التصرف متسرعاً أو جسوراً أكثر مما يجوز، ألا تغفلوا عن حقيقة أن مناسبات لاهبة تحديداً كهذه التي انتهت تواً قد تُختتم بأحداث مشابهة لم تكن واردة في الحسبان!".

الأرملة الطيبة، التي اعتادت أقصى حدود التوفير، كانت قد أخرجت بالملعقة الصغيرة قطعة صغيرة من السكر سبق أن سقطت منها في الفنجان ضد رغبتها ووضعتها خفية في طبق الفنجان أملاً منها في إنقاذ ما لم يذب بعد من قطعة السكر. لحست الملعقة الصغيرة بسرعة وبرقة ثم بدأت إثر ذلك، وقد غزا الاحمرار وجنتيها جراء السرور، تتغنى بأجمل نغماتها بالشرف الكبير لكن بالمهلة الضرورية كذلك وبالتفكير الملي في الأمر، فذلك هو ما يجب على الإنسان أن يسمح لنفسه به. ولكن الابنة قطعت حديث أمها، وربما كان شحوب وجهها الآن أكثر من ذي قبل، ثم قالت: "كلا يا أمي العزيزة! عن سؤال السيد راينهولد لابد، بعد كل ما عايشناه وما فعل هو من أجلي، أن يتبع الجواب في الحال وبموافقتكِ أقول له نعم! لم أكن أستحق سوء الحظ، الذي ألم بي؛ ولذلك تحدوني الرغبة في أن أقدم الشكر إلى منقذي الذي يرفعني من حضيض الوحشة والاحتقار!".

بدموع التأثر، التي كانت تذرف من عينيها، تقدمت أغنيس باتجاه خاطبها واقتربت منه ثم وضعت ذراعيها حول رقبته وضغطت شفتيها المفتوحتين شوقاً وحنيناً ولم يسبق أن قُبلتا بعد قط على شفتيه.

ومس هو وجنتيها برقة خجلة، ولكنه لم يحوِّل عنها أي عين. فرأت الأرملة هذا المنظر بدهشة وحيرة في حين قالت أغنيس: "كوني هادئة وراضية يا أمي! أمس كنت لا أزال أصلي للعذراء الأكثر قداسة لكي تعطي قلبي ما يليق به؛ واليوم ظننت طوال يومي أنها أغفلتني ولم تُصغ إلي، أما الآن فإنني أمسك بذراع من يخصني ومن يصلح بصورة أفضل لشفائي وخلاصي ممن كنت أتوقع!".

الآن بدا لي أن الوقت حان لكي أنصرف بأدب بوصفي هنا زائداً عن اللزوم؛ لأنني لم أعرف إلى أين أوجه نظري. فصافحت الجميع بسرعة ووليت الأدبار دون أن يعوقني أو يتمسك بي أحد. وأنا في الشارع رفعت نظري مرة أخرى إلى بيت السيدتين حيث كان ضوء القمر خيَّم على صورة العذراء سوداء اللون المعلقة فوق الباب ونشر ضوءاً خافتاً على الهلال الذهبي وعلى التاج.

قلت لنفسي وأنا أهز رأسي مستغرقاً في التفكير هذه الحياة الواهمة: "يا إلهي، ما هذه الفوضى الكاثوليكية؟" في فجر هذا اليوم كنت شهرت سيفي مدبب الرأس ضد ملحد والآن، إذ حل الليل، ضحكت من جديد على هؤلاء المصلين للقديسين".

في صباح اليوم التالي كنت أشعر بأن أوان الجد قد آن، إذ لا بد من متابعتي من جديد لعملي المنقطع. وفي حين واصل الفنانون في معظمهم مسيرتهم المعتادة بثبات وراحة بال، وجدتني متردداً في ما علي أن أفعل أولاً. وحين نظرت من حولي شعرت وكأنني لم أكن في غرفة عملي طوال شهور كثيرة وأن أعمالي نصف المنجزة ليست إلا آثاراً من زمن بائد. أخرجتُ لوحة بعد أخرى فبدا لي كل شيء بائتاً ولا لزوم له، كأنه هواية محضة ليس إلا. أمعنت التفكير مرة بعد مرة ولكنني لم أستطع أن أسبر غور التشاؤم المعكِّر، الذي تسلل إلى داخلي. إلى ذلك انضم شعوري بالوحدة والعزلة عن الناس؛ لويس ذهب إلى شأنه وضاع، على الأرجح بما يتعلق

بالفن أيضاً، لأنه كان أوحى مؤخراً بأنه سوف يرمي الكأس على الأرض لدى أول صدمة. ولكن إيريكسون أيضاً كان أسر لي البارحة في لحظة عابرة مفعمة بالسرور أنه ينوي أن يقلع مباشرة بعد زفافه عن مهنة الرسم العويصة ويعمل من جديد بدعم من إمكانات زوجته المادية الضخمة في مجال الملاحة البحرية، مهنة آبائه وأجداده، ويزدهر بها. الوقت ملائم وهو يريد أن يصبح غنياً في مدة غير طويلة. والآن تزعزعت أنا أيضاً، وكل جرمان محيط البلاد الثلاثة، الذين كنا نبدو على نحو ما أفضل من جموع شعب الداخل الكبيرة المتماسكة المتضافرة، سقطوا كما تسقط القراضات من تحت المبرد وانفصل بعضهم عن بعض مع ترجيح ألاَّ يرى أحد منهم الآخر من جديد في يوم من الأيام!

سحبت وأنا أرتعد من البرد، لكي أبحث عن ملاذ، قطعة كرتون جديدة كنت بدأت بالرسم عليها قليلاً وهي رقعة من الورق الرمادي منبسطة بعرض ثمانية أقدام على الأقل وارتفاع مماثل. لم يُرَ عليها أي شيء سوى بداية مقدمةٍ لرسم شجرتي شربين متآكلتين بفعل العوامل الجوية، كل واحدة على جانب من جانبي اللوحة المقبلة، التي تخليت آنذاك قبل أشهر عن فكرتها واختفت تماماً من ذاكرتي. ولمجرد أن أفعل شيئاً وربما لكي أنشط أفكاري وأحركها بدأت بريشة مصنوعة من الحلفاء بإنجاز واحدة من شجرتي الشربين اللتين كنت فيما مضى أعددت بقلم الفحم تصميماً أولياً لهما، بانتظار ما قد يحدث لاحقاً. لكن لم أكد أرسم لمدة نصف ساعة من الوقت وأُلبس بضعة أغصان بإبر الشربين واحدة الوتيرة والشكل، حتى هويت إلى حال من التشتت الشديد وصرت أشخبط بريشة الحلفاء بالقرب من الرسم من دون أي تركيز وكأنني أجرب الريشة واختبر صلاحيتها للكتابة. هذه الشخبطة أسفرت تدريجياً عن نسيج لا نهاية له من جرات ريشة ووسعت هذا النسيج في كل يوم مستغلاً في ذلك فترة اكتئاب ضائعة كلما أردت أن أبدأ بالعمل إلى أن غطى على شكل نسيج عنكبوت هائل وقاتم الجزء الأكبر من مساحة الرقعة. إذا ما تأملت بدقة أكبر هذه الفوضى العابثة فسوف تكتشف فيها ترابطاً وجداً،

إذ إنها كونت، بسحبة مستمرة من جرات الريشة والانحناءات التي من شأنها أن تشكل ربما آلاف الأذرع، متاهة يمكن تتبعها من نقطة البداية وحتى النهاية. من حين لآخر كان يظهر نهج جديد، إلى حد ما مرحلة جديدة من مراحل العمل؛ فأسفر ذلك عن نماذج ومواضيع جديدة أيضاً وكثيراً ما كانت رقيقة وظريفة، ولو أن حشد الاهتمام والغرضية والمثابرة، الذي تطلبته تلك الفسيفساء اللامعقولة، استُخدم في عمل فعلي لكان علي بالتأكيد أن أقدم شيئاً جديراً بالمشاهدة. ولكن لم يخلُ الأمر في بعض الأحيان من تعثرات صغيرة أو كبيرة وتعقيدات معينة في متاهات نفسي المشتتة المكروبة؛ والعناية، التي حرصت الريشة بموجبها على أن تجر نفسها من مستنقع الحيرة والحرج، أثبتت أن الوعي الحالم كان واقعاً في الفخ. وهكذا استمر العمل على هذا المنوال طول أيام وأسابيع والتسلية الوحيدة إبان وجودي في البيت تمثلت في أنني كنت أتابع، وجبهتي مسندة إلى النافذة، سير الغيوم وأتأمل تشكلها وأجول بأفكاري في أثناء ذلك في أرجاء الأفق البعيد.

وهكذا كنت ذات يوم أعمل من جديد بنفسية متراخية متثاقلة، لكن بفكر ثاقب، في الشخبطة الهائلة وإذا الباب يُطرق. فذعرت وخفقت جوانحي؛ ولكن كان فات الأوان على إبعاد الرسمة من مكانها. دخل راينهولد وأغنيس إلى غرفتي وما كاد يسلم بعضنا على بعض حتى ظهر إيريكسون مع زوجه منذ الآن، السيدة روزالي، فرأيتني عندئذ تهزني النشوة والحياة والجمال فتوقظني. كل من الزوجين كان خلَّف عرسه وراءه وأتم زواجه بهدوء، راينهولد نظراً إلى نفاد صبره في انتشال غنيمة حبه مما كانت فيه من سوء وضع، أما إيريكسون فنظراً إلى أن أقارب روزالي ورجال الدين لم يحاولوا وضع عراقيل مذهبية في طريقهما إلا في وقت متأخر. ولكن روزالي كانت، مدعومة في الخفاء ومن جهة ذات نفوذ كبير، اعتنقت بسرعة مذهب إيريكسون زاعمة أن حبيبها يستحق، كما استحق باريس في زمانه قداساً، اعترافاً بالخطايا وحتى أكثر من ذلك، وبهذا تم بسرعة عقد القران. ختم إيريكسون تقريره القصير هذا

بقوله: "نحن الآن بعد أن تمت إجراءات زواجنا في طريقنا إلى سفرة شهر العسل! أولاً في أزقة هذه المدينة فقط، ولكن غداً على الطريق العام وعما قريب، هكذا آمل، في السفينة الخاصة".

كانت زوجته سلمت في اثناء ذلك على الزوجين الآخرين وتبادلت الحديث مع أغنيس المشعة سعادة وبهجة على أتم وجه. غير أن إيريكسون وقف أمام حامل الرسم ونظر بأشد الاستغراب إلى عملي الأخير، ثم نظر إلي بتأمل عميق ومريب إلى أن ارتبكت واحمر وجهي حرجاً ثم قال، أولاً مع هزة رأس وبعد ذلك أومأ برأسه بخبث:

"بهذا العمل المهم دخلتَ، يا هاينريش يا أخضر، في مرحلة جديدة وبدأت بحل مشكلة قد يكون لها أكبر التأثير في تطور الفن الألماني. في حقيقة الأمر لم يعد منذ وقت طويل وارداً في الحسبان أن يتحمل الناس باستمرار سماع الحديث عن عالم الجمال والتمحيص فيه، ذلك الحر والقائم بذاته الذي لا يجوز تعكير صفوه من قبل أي واقع أو أي نزعة، في حين استخدموا دائماً أكثر التعابير خشونة وفظاظة في مخالفتها للمنطق في وصف الناس والحيوانات والسماء والنجوم والحقول والمروج وكل الأشياء من هذا النوع، المنتمية إلى الواقع اليومي. لقد تقدمت هنا خطوة جبارة إلى الأمام لا يعرف بعد مدى جسامتها وأهميتها. إذ ما الجميل في هذه الدنيا؟ فكرة بحتة معروضة لغرض ما وبوضوح ونية موفقة. المليون من الخطوط والشخبطات برقتها وظرفها أو بثباتها وقوتها، كما هي، إذا وضعت بطريقة ملموسة في ربوع طبيعة فقد تشكل بطبيعة الحال ما يقال عنه صورة بالمعنى القديم وتذعن هكذا للنزعة المتوارثة الأكثر فظاظة وخشونة! هيا! لقد عقدت العزم فوراً ورميت بعيداً كل تجسيم مادي وكل مضموني وضيع! هذه التظليلات المجدة هي تظليلات بحد ذاتها، حائمة في أجواء الحرية التامة للجمال؛ هذا هو الجد، الغرضية، الوضوح بحد ذاته، في أكثر أشكال التجريد جاذبية وفتنة! وعقد الوصل هذه، التي امتددت انطلاقاً منها بطريقة رائعة، أليست هي

البرهان المظفر على أن المنطق وسلطان الفن يتغنيان فحسب بأجمل انتصاراتهما في ابتعادهما عن الواقعية الملموسة وبالتالي في إنجابهما في العدم أهواء وظلاميات ويتغلبان عليها على أفضل وجه؟ ألم يخلق الله العالم من عدم؟ العالم هو خُرَّاج هذا العدم ومرضه، هو ارتداد الله عن ذاته. الجميل، الخيالي، الإلهي يقوم على أساس أن نخرج من هذا التورم المادي الملموس ونعود من جديد إلى العدم، وهذا فقط يمكن أن يكون فناً، لكن حقيقياً أيضاً!"

هنا قالت السيدة إيريكسون، التي كانت أدارت وجهها إلينا وهي تصغي إلى حديث زوجها: "ولكن يا أعز الناس، إلى أين تريد أن تصل!" الملقب بصانع الله حملق مندهشاً؛ لأن أقوال إيريكسون الغريبة كانت في خلطها بين المزح والجد مبهمة وغريبة عن عقليته البسيطة. أما أنا فقد شعرت بشيء من الفرح يدب في أوصالي من جراء حيوية الرجل، إلا أنني وقفت في النافذة حائراً مرتبكاً.

وبنبرة احتفالية تابع إيريكسون يقول: "ولكن مديحي لا بد أن ينجب في الحال لوماً أو بالأحرى طلباً لإنجاز خطوة أخرى حازمة إلى الأمام! ففي هذه المحاولة الإصلاحية لا يزال ثمة موضوع يذكِّر بشيء ما؛ ولا مفر لك أيضاً، من أجل دعم المنسوج الرائع الذي صنعته، من أن تثبته ببعض الخيوط المطوَّلة بأغصان هاتين الشربينتين القديمتين المتآكلتين بفعل تقلبات الطقس، غير أنهما ما زالتا قويتين؛ وإلا فقد يخشى المرء في كل لحظة من أن يتهاوى هذا المنسوج على الأرض بسبب ثقله هو ذاته. ولكنه بذلك يرتبط من ناحية أخرى بالواقع الكريه إلى أقصى حد، أي أشجار بالغة النمو وفي مقطعها العرضي حلقات سنوية تدل على عمرها! كلا، يا هاينريش الماهر، ما هكذا يستقيم العمل! لا تبقَ هنا واقفاً! فالخطوط تشكل، حين تكون تارة نجمية الشكل وأخرى متعرجة وثالثة منعطفة ورابعة نصف قطرية، نموذجاً واقعياً ملموساً إلى أقصى حد يذكر بورق الجدران أو أقمشة الشيت القطنية المطبَّعة. دع عنك هذا! وابدأ في الزاوية العليا وارسم بشكل منفرد خطاً بعد خط مطوَّل

ومن مئة إلى مئة قسماً رئيسياً ومن ألف إلى ألف أكمل الرسم بدعامة سقف سميكة أو بحاجز سميك. نظام عشري كهذا يفي بالغرض تماماً ويتقيد بالمنطق، في حين أن وضع الخطوط بشكل إفرادي هو الجهد المبذول في حرية النزعة التامة ومن ثم في الوجود البحت. في الوقت ذاته تتحقق بذلك غاية أسمى. وهنا في محاولتك هذه لا تزال تتجلى مقدرة معينة؛ فغير الخبير واللافنان لا يستطيعان إنجاز هذا الرسم الكالح. ولكن المقدرة هي ذات فداحة مشخصة أكثر مما ينبغي وتسفر عن ألف تكدير وتباين بين المريدين؛ وهي تثير انتقاداً مغرضاً وتقف باستمرار في وجه النية الصافية وقفة معادية. الملحمة الحديثة تدلنا على الطريق! ففيها يُرينا مبصرون متحمسون عبر أجزاء منها صغيرة أو كبيرة كيف تُعرض النية الصافية كصفاء السماء والبريئة التي لا يشوبها شائبة وذلك دون أن تصطدم بالقوى المظلمة للمقدرة الأرضية! وتسود مساواة أزلية ومؤنسة بامتياز بين أخوَّة المريدين. من غير عناء ومن غير هم يقسِّمون بضعة آلاف من السطور إلى أناشيد ومقاطع، ومن يستطيع أن يقدر كم هو قريب الزمن الذي فيه ينبذ الشعر أيضاً سطور الكلمات المستعصية على الفهم ويلجأ إلى ذلك النظام العشري ذي الخطوط الدفاقة بساطةً ومرحاً ثم يعقـد قراناً مع الفن التشكيلي في شكل ظاهري مماثل؟ بعد ذلك سوف تبدو للعيان روح المبدع والشاعر، التي تغفو في كل مواطن، متحررة من كل العوائق والحواجز، وحيث يلتقي مواطنا مدينة تُسمع التحية التالية: "شاعر؟" ، "شاعر!" أو: "فنان؟"، "فنان!" مجلس مشكَّل من خبراء في تجليد الكتب وتذهيب حوافها سوف يمنح في ألعاب أولمبية أسبوعية لقب المجلَّد الفاخر والإطار الذهبي بعد أن يتعهدوا مُقسِمين على ألاَّ ينظموا ملاحم ولا يرسموا لوحات طول فترة تنصيبهم قضاةً، وفصيل كامل من الناشرين المفسَدين سوف ينشرون بتعمق الكتب المتوَّجة في طبعات منجزة بساعات ويوزعونها في كل أرجاء ألمانيا بحيث لا يستطيع أي شيطان أن يجدها من جديد!".

صرخت روزالي مرة أخرى: "توقف، أيها الرجل! لم أعد أعرفك!"

فقال إيريكسون: "لنتوقف عند هذا الحد، ولتكن هذه الثرثرة بالمرة بمنزلة وداعي للفن! فمن الآن فصاعداً نريد أن نرمي شيئاً من هذا القبيل وراءنا لكي نجدَّ في صياغة نمط عملي من العيش ومجد نفعاً!".

ثم نظر إلي وهو يمسك بيدي نظرة أكثر جدية وقادني إلى المنسوج الكبير ثم قال بهدوء: "صديقنا لُيس لن يعود إلى هنا؛ وكان علي أن ألف لوحاته وأضعها في صناديق ثم أرسلها إلى حيث يقيم في موطنه ومعها أيضاً كتبه وقطع أثاثه. وقد سبق أن كتب إلي أنه يريد الترشيح إلى برلمان بلاده لن يتعاطى مدى حياته فن الرسم لأن المرء يحتاج من أجل ذلك إلى العينين، الأمر الذي لا أفهمه. وهكذا تراه يجر أذياله من حماقة إلى أخرى وبودي أن أبكي عليه. والآن آتي إليك لهذا السبب فأجدك تخوض غمار مغامرة لصيد الأوهام فريدة من نوعها، ولم ينجب العالم بعد مثيلاً لك في ذلك! ما هذه الشخبطة؟ حافظ بانتعاش وحيوية على علو مستواك واخرج من هذا الشرك اللعين! هنا ثمة ثقب على الأقل!". بهذه الكلمات جر راحة كفه عبر ورقة الرسمة ومزقها طولاً وعرضاً. مددت إليه يدي شاكراً؛ لأن كلماته وحركته التي نمت عن قوة إرادة برهنت لي عن تعاطف متفهم.

بعد أن برزنا من وراء الستار وعاينّا الثقب من الجهة الأمامية أيضاً جرى وداعنا على عجل، طبعاً على أمل اللقاء في المستقبل مع أنني لم أر في حياتي بعد ذلك قط أياً من الأشخاص الأربعة. بعد الوداع بدقيقة واحدة عاد الهدوء المطبق من جديد إلى غرفتي، والباب المطلي بدهان أبيض، الذي اختفت عبره السيدتان الجميلتان والسيدان الجميلان، كان يومض أمام عيني كشاشة أزيلت عنها بمسحة واحدة صورة حياة دافئة.

* * *



الفتى هاينريش

الجزء الرابع



الفصل الأول

المبارز البورغيزي

على المدفأة المنخفضة في غرفة عملي قام تمثال من الجبس بعلو ثلاثة أقدام تقريباً للمبارز البورغيزي(*) كانت عملية الصب تمت على أفضل وجه على الرغم من أن لون التمثال أصبح قاتماً بعض الشيء؛ لأن ملكيته كانت ترجع إلى مقيم سابق في هذا المسكن وتنتقل من نزيل إلى آخر. كان كل واحد من هؤلاء يشتري تمثال المقاتل صلب البنيان من أصحاب البيت، الذين عرفوا كيف يفيدون في أدوار متعاقبة من عمل النحات الفاضل أغاسياس وذلك بعد ألفي عام من إنجازه.

حين انزلقت عيناي من الباب، الذي كان اختفى وراءه كل من إيريكسون ورواينهولد مع زوجيهما، وقعتا على المبارز الواقف بالقرب من ذلك الباب وبقيتا ملتصقتين بالتمثال الجميل. اقتربت منه على أساس أنه رفيق سكن لي مرحب به ولا سيما في وقت شعوري بالوحدة والعزلة وتأملته جيداً ربما لأول مرة. وسرعان ما أزحت كل الرسمات وحاملات الرسم من أمكنتها وأسندتها إلى الجدران ثم حملت التمثال إلى منتصف الغرفة ووضعته في الضوء على طاولة صغيرة. ولكن على الرغم من اسوداده بفعل الدخان فقد شع منه ضوء أقوى كان من شأن الحياة ذاتها أن حافظت فيه على دائرة

(*) للنحات الإغريقي أغاسياس من القرن الأول قبل الميلاد، المترجم.

ذهبية من الدفاع والهجوم. من قبضة الذراع الأيسر المرفوعة إلى الأعلى مروراً بالكتفين حتى قبضة الأيمن المخفوضة إلى الأسفل، من الجبين حتى إصبع القدم ومن النقرة حتى الكعب، هاجت الحركة من عضلة إلى عضلة ومن ملمح إلى ملمح وهاجت الخطوة من الحرج إلى النصر أو إلى الهزيمة المشرفة. وأي أشكال ظهرت في تنوع الحركة وتباينها! هذه الأعضاء كلها كانت شبيهة بجمهور من المدافعين الذين زحفوا مسلحين بإرادة قوية لكي يحموا تشكيلهم من التدمير.

من حيث لا أدري بحثت عن طبق من الورق الأبيض وبريت عوداً من الفحم بدقة وعناية إلى أن صار ذا رأس مدبب ثم بدأت أحاول رسم معالم هذا العضو وذاك بصورة إجمالية وبعد ذلك، حين لم تسفر محاولتي عن نتيجة يعتد بها، حاولت أن أتمكن بسرعة من الذراع الأيسر حتى الإبط وأتعجل الحركة المستمرة من هناك حتى الخاصرة اليسرى بكامل الشكل وتمامه؛ ولكن يدي لم تكن متمرنة على هذا النوع من الرسم ولم تشأ جرة القلم ذاتها أن تزداد حيوية من تلقاء ذاتها إلا حين زال تدبيب الفحم ودبت الحياة في الإصبع. والآن لم تكن العين معتادة على أن تضيء لليد الطريق بالصورة الكافية من السرعة فيما يتعلق برسم الجسم البشري؛ فكان علي في هذه الحال أن أقف وأتفحص الحدود والمعابر بشكل أدق، وكذلك لأن عمري كان آنذاك أكبر من أن أستمر بطريقة متعنتة في التعمق في الأشياء وارتباطها في ما بينها.

هكذا أنجزت رسم التمثال كله نوعاً ما في غضون بضعة أيام وأدرته وظفرت به من بقية الجهات. وفجأة خطر ببالي أن أتخيل المبارز منتصب القامة وأرسمه في وضع مستلقٍ، على أساس أن يكون ذلك تدريباً لمعارفي المكتسبة في فن الرسم. كنت رأيت في النموذج القدوة، المصنوع بصوة جيدة من الوجهة التشريحية، ما هو منحوت بوصفه عظاماً أو عضلات، أو أربطة أو أوعية؛ ولكن حين اقتضى الأمر الآن رسم كل هذه الأشياء في أوضاعها

وأشكالها المتغيرة وجدتني أفتقر إلى كل اطلاع مؤكد على ارتباط ما تحت الجلد من أعضاء وحالات بعضها ببعض وعلى ما يجري هناك من تفاعلات أيضاً؛ وبما أن الموضوع لا يمكن أن يتعلق بتصميم غامض متطاول وعديم الجدوى هنا، فقد اضطررت إلى أن أرمي القلم جانباً وأقلع عن الرسم.

وحدث هذا في وقت كنت طوال سنين متعددة مهتماً جداً بالفن ومتجهاً نحو اختتام مرحلة أولى من مسيرة تعلمي. كان أمراً ممكناً أن أتكهن تماماً بهذا النجاح قبل أن أبدأ بالرسم، وحين تمعنت الآن ويداي مشبوكتان في حضني في الحماقة التي ارتكبتها استغربت من أنني لم أختر رسم الإنسان مهنة لي بدلاً من مكان إقامته ومسرح أحداثه فقط، في ربوع الطبيعة. وحين تابعت إمعان تفكيري في هذه المصادفة المروعة استغربت من جديد كيف أنني بوجه عام في فترة طفولتي حققت بسهولة إرادتي المفتقرة إلى الخبرة والتجربة في ما تعلق بأمرٍ مصيري له أن يوجه كل مسيرة حياتي الطويلة. لم أكن تجاوزت بعد الفكرة الشبيبية الموحية بأن تقرير مصير كهذا في عمر أكثر الأظفار نعومة هو أكثر ما يمكن أن يكون مدعاة للفخر والاعتزاز؛ ولكن الآن بدأ يتكشف لي فجأة أن العراك مع أب متدبر إلى أقصى حد ويستطيع أن يتجاوز بنظره عتبة الباب هو أفضل ترويض وتقسية للنفس لطاقة الشباب الآتية من حب أم غير محصَّن. ولأول مرة، على ما أذكر، فطنت إلى أن هذا الشعور بفقدان الأب يزداد عندي وضوحاً، وسرى في داخلي في تلك اللحظة جيشان ساخن متجه إلى الأعلى حتى وصل إلى ما تحت جذور شعري حين تصورت بسرعة أنني صحيح كنت سأُحرم إبان حياة أبي من الحرية في وقت مبكر وربما سأخضع لأسلوب عنيف في تربيتي، ولكن مقابل ذلك كنت سأُقاد أيضاً على طريق مضمون. وفي حين كنت أتضرج إبان هذا التصور بوهج الحنين والتناقض ومن ثم بوهج شعور غامض عندي لكنه حلو وقائم في آن واحد على الطاعة والرغبة الجامحة بالحرية، حاولت أن أستحضر صورة الأب التي اختفت من مخيلتي اختفاء شبه

تام ولكنني لم أستطع في غمرة تموج الأفكار بين مد وجزر أن أستحضرها في نهاية المطاف إلا عبر عين الأم كما كانت ترى زوجها الراحل في منامها.

فمع مر الزمن كانت ترى بصورة متكررة، لكن باستمرار فقط بعد انقطاعات لسنين طويلة، الأب في منامها ربما مرتين أو ثلاث مرات بمنزلة رمز لندرة ما كنا نُمنح من بصيص أمل غامض في أعمق أشكال السعادة. ولكنها في كل مرة كانت في الصباح تروي الحادثة، التي وقعت فجأة بعد طول انقطاع، بفرحة عارمة بالشكر والامتنان وتصف الطريقة التي تم بموجبها ظهور أبي في المنام.

وعلى هذا النحو رأت في نومها ذات مرة وكأنها تتنزه مع الزوج الراحل في أحد أيام الأحد في العراء، كسالف عهدها؛ ولكنها لم تجده إلى جانبها بل رأته فجأة آتياً من بعيد في شارع زراعي لا يعرف له مدى. كان الزوج مرتدياً ملابس أنيقة أحدية، ولكنه كان يحمل على ظهره كيس سفر ثقيلاً؛ وحين اقترب منها وقف بهدوء ورفع قبعته عن رأسه ثم مسح العرق عن جبينه؛ بعد ذلك لوح لها بيده بكل حب وقال بصوت لطيف النبرة: "إنها مسافة بعيدة، بعيدة على المشي!" وتابع تجواله إثر ذلك على عصاه بحركة نشيطة إلى أن اختفى عن عينيها. هذه الرؤيا، التي أظهرت لها بدلاً من رجل مرتاح رجلاً سائراً في أبعد أرجاء الدنيا وظهره مثقل بحمل منهك، كان من شأنها في لحظة تفكير عميق أن أحزنت أمي لأنها عانت حينئذ بصرف النظر عن الخرافات وتفسير الأحلام شعور مشقة كبيرة في تحرك الزوج الراحل أو تصوّره.

أما أنا بالمقابل فقد أيقظ فيَّ تذكُر هذا التجوال، الذي لا يكل ولا يمل لتلك الروح اللطيفة عبر أزل غامض، أكثر ما أيقظ المشاهدة المشرّفة لإرادة حياة لا تنكسر بلا تلاحق الهدف بلا هوادة ولا مستقر. رأيت ذلك الرجل يخطو باتجاه ذلك ويلوح لي بيده وحين انمحت صورته بالتدريج من لوح الذكرى واختفت قلت لنفسي بحزم:" ما الفائدة! لا يجوز لك أن تتلكأ بعد الآن ولا بد لك من استدراك ما فاتك من معرفة!".

عقدت العزم بلا أي إبطاء على دراسة علم التشريح بقدر ما هو ضروري على الأقل لفهم الجسد البشري وعرضه عبر فن الرسم؛ وبما أن المدرسة الفنية الرسمية قدمت بعض الفرص المنقوصة بهذا الشأن ولم أكن منتمياً إليها، فقد قصدت في الحال واحداً من أولئك الطلاب الذين كانوا قدموا لي الدعم في عملية المبارزة المخالفة للمعقول مع فرديناند لويس. كان طالباً مهتماً بعلم الطب ومقترباً من انتهاء دراسته ويقتصر عمله على وجه التقريب على التدرب في قاعات المرضى وإجراء العمليات الجراحية. وإذ كان في الحال على استعداد لأن يعيرني أطالسه وكتبه التشريحية ويقودني مبدئياً إلى قاعة محاضرات عن علم العظام، فقد نصحني بعد بعض التفكير بعمق أن أحضر برفقته تلك المحاضرات البادئة تواً عن علم الإنسان التي تُلقى من معلم بارع. وقال معلقاً على ذلك إنه هو ذاته سوف يرتاد هذه المحاضرات لا من أجل مستوى تحصيل دراسي كان وصل إليه منذ فترة بعيدة، بل من أجل الشكل الممتاز والمضمون العقلي لتلك المحاضرات التي هي في حقيقة الأمر متعة غنية بالفائدة التعليمية. ولذلك فكما يمكن تسمية عالم التشريح نحاتاً يسير إلى الوراء، إذا صح التعبير نحاتاً معرِّياً، فإن من الأفضل أن ينطلق الفنان التشكيلي في الطريق المواجهة لا من الهيكل العظمي فحسب، بل من الرؤية الشاملة للتكوين العضوي وصيرورته؛ وإذا ما شارك في مشاهدة دخول الحواس إلى خيمة بشرة الإنسان المهيبة، صحيح أنه لن يرتقي بذلك إلى مستوى ميكيل أنجلو إذا لم تكمن هذه الإمكانية في ما عدا ذلك في داخله لكنه يستطيع تعويض مواهب أخرى ضاعت الآن بعد أن كانت ظهرت في أزمنة مضت.

الآن فحسب قدرت ابن موطني واسع الإلمام حق قدره ولم أكد أصدق أن محدثي هو الشخص ذاته الذي كان قبل أسابيع على استعداد لدعمي في إحداث ثقب في جلد إنسان. حين يكتشف الشبان، الذين جمعتهم صداقة حول ممارسات مستهترة طائشة، بعد ذلك مواصفات أكثر جدية في كل منهم فإن

ذلك من شأنه أن يكفيهم دائماً للرضا الذي يستجيب برغبة لتأثير حاسم متبادل فيما بينهم. لذلك لم أتردد في الاستجابة لناصحي ودخلت بصحبته إلى مبنى الجامعة الواسع، الذي كان يتدفق على درجات سلالمه وفي ممراته بتداخل فوضوي شباب الدولة الفعلي من مختلف المقاطعات والمناطق. كانت المقاعد في قاعة المحاضرات المعنية لا تزال شاغرة. الجدار الأجرد واللوح الأسود المعلق به، الطاولات المقطعة والملطخة، كل ذلك ذكرني بشيء من الانقباض بغرفة الصف في المدرسة، التي لم أعد أراها منذ سنين طويلة. التعلم المنقطع مس شغاف قلبي وأشعرني كأنني جالس على واحد من هذه المقاعد ونودي علي فجأة وأُمكن تخجيلي، إذ لم يخطر ببالي أن كل واحد هنا يتمتع بكامل حريته على امتداد فترة من الزمن ولا يكترث أحد للآخر وأن يوم حساب كل واحد لا يزال يرقد في المستقبل. ولكن بالتدريج امتلأت القاعة وبكل دهشة واستغراب أحطتُ برؤية كل الجمع المحتشد. إلى جانب مجموعة من الشبان بعمر قريب من عمري كانوا اتخذوا أماكنهم هكذا بلا مبالاة وتمسكوا بها، ظهر بعض الرجال الكهول بملابس جيدة أو رديئة وحاولوا الحصول على مقاعد بطريقة أكثر هدوءاً وتواضعاً؛ وحتى بعض السادة المسنين بشعرهم الأبيض، كانوا تحديداً معلمين مشهورين، اتخذوا مقاعد جانبية نائية لكي يبحثوا عما يمكنهم بعد أن يتعلموا. هنا أحسستُ بالطبع بمحدوديتي بسبب ظني حتى الآن أن من المعيب أن يتعلم من هم دون مستوى الطلاب تحديداً في قاعات يمارس فيها العلم والدراسات عالية المستوى.

كان عدد المستمعين إلى المحاضرة الذين انتظروا المحاضِر يربو على المئة، إذا هو يدخل فجأة من الباب ويسرع إلى منبره الصغير وهناك بدأ يتحدث بطريقة مهذبة محاولاً رسم صورة عن بنية جسدنا وتركيبته ومواصفاته وشروط حياته طبقاً للمفاهيم العلمية السائدة آنذاك التي كانت ارتفعت كالمعتاد إلى أعلى مستوى ممكن حتى ذلك الحين. ولكنه لم يسوّغ

بأي حال من الأحوال أبهة كهذه، بل قاد مستمعيه بكلام منسابٍ بهدوء ووضوح من دون أي تعثر عبر البنية العضوية المرتبة جيداً، دون تعجل ودون توقف لا فائدة منه، دون الإعلان عن المفاجئ أو الفكه على الرغم منه وإرفاقه بدعايات الحركات والكلمة.

وكان لتأثير الساعة الأولى وحدها فيّ أن أنساني الغرض الذي جئت من أجله وأنساني كل شيء، وكنت متلهفاً فقط للاطلاع على الخبرة المتدفقة من ذلك المحاضِر. في المقام الأول شغلني في الحال مدى صلاحية التفاصيل، التي قيلت عن العضوية الحيوانية وبدت في منتهى الروعة؛ كل حقيقة جديدة بدت لي برهاناً على ألمعية الخالق ومهارته، ومع أنني لم أتصور العالم طول حياتي على أنه مخطط له سلفاً ومخلوق، فقد بدا لي الآن من الرؤية الأولى كأني في حقيقة الأمر لم أعرف شيئاً حتى الآن عن خلق المخلوقات، أما الآن بالمقابل فإنني أريد وأستطيع بأعمق اقتناع أن أثبت في مجابهة كل إنسان وجود الخالق وحكمته. ولكن بعد أن وصف المحاضر بأجمل ما يكون الوصف براعة الأشياء واستحالة الاستغناء عنها تركها من حيث لا يدري تستقر في ذاتها وتتداخل في ما بينها بحيث عادت الأفكار الجانحة عن الخالق خفية أيضاً ونقلت إلى الدائرة المغلقة للحقائق الواقعية. وإذا ما بقي جزء من دون شرح وعاد إلى الغامض المبهم، عندئذ أخرج المتحدث ضوءاً ساطعاً من المجال المشروح وجعله يشع في تلك الظلمة بحيث راوح الموضوع المعني في مكانه، على الأقل دون أن يُمس محتفظاً بعذريته بانتظار أن يحين وقته، كشاطئ بعيد في عتمة الفجر. وتحديداً هناك، حيث ظن أن عليه أن يُحجم عن الحديث، فقد فعل ذلك بالتنبيه المقنع على أن كل شيء يسير على ما يرام وأن في حدود ملكة الإدراك البشري لا يكمن أبداً حد لمنطقية القوانين الطبيعية وحتميتها. في هذا لم يكن بحاجة إلى أي أقوال عنيفة وتجنب بدقة وعناية تعابير ثيولوجية معينة وما يناقضها أيضاً.

المغرضون لم يُلقوا بالاً لكل ما قيل وكانوا يدونون بلا كلل أو ملل ما بدا أنه يفي بأغراضهم على صعيد أنانيتهم وتكوين آرائهم، في حين تخلى النزيهون عن كل خبث وسوء نية وحرصوا بكل رحابة صدر على تعلم احترام المعرفة الصرف الكامنة في التعابير والأقوال الذكية، الصادرة عن المعلم المتحدث.

وفي داخلي أنا أيضاً سرعان ما تراجعت إلى الوراء تلك المقومات العبثية والتطبيقات المصلحية دون أن أعرف كيف حدث هذا التبدل، وذلك حين استسلمت لتأثيرات الحقائق الواقعية، البسيطة منها والغنية؛ إن البحث عن الحقيقة ينطوي دائماً وأبداً على حسن نية، بكل نقاء وبراءة وحينما يتوقف عن أن يكون كذلك يبدأ الكذب لدى المسيحي والوثني على حد سواء. وحين بدأت الآن أتعلم شيئاً متعلقاً بالحقيقة، شعرت كأن كابوساً زال عن صدري؛ لأن سعادة المعرفة هي أيضاً جزء من السعادة الحقيقية من حيث إنها بسيطة وصريحة وسواء أتت مبكرة أو متأخرة فهي دائماً ما يمكن أن تكون تماماً ؛ وهي ترشد إلى الأمام لا إلى الوراء ثم إنها أيضاً تُدخل في طي النسيان هشاشتها الخاصة بها بسبب حياة القانون المستعصية على التعديل أو التحريف.

غُمرت بالرضا عن المعلم المفوه، الذي لم يكن يعرفني؛ لأنها ليست الصفة الأكثر رداءة لدى الإنسان إذا ما كان أكثر امتناناً لجمائل العقل منها لصنائع الجسد إلى حد يزداد معه العرفان بالجميل كلما قل إتيان الصنيع العقلي بمنفعة ظاهرية مباشرة. وفقط حين يتصف صنيع جسدي بإمكانية التحلي بقوة عقلية من شأنها أن تتحول عند الإنسان المستقبِل من جديد إلى خبرة معنوية فإن عرفانه بالجميل يرتقي إلى مستوى أجمل ويؤدي في الوقت ذاته إلى تزويده بشمائل نبيلة. إن الاقتناع بأن فضيلة وطيبة خالصتين موجودتان في مكان ما هو الحادث الأفضل لنا، والنفس الخبيثة ذاتها سوف تفرك فرحاً وسروراً يديها الخفيتين القاتمتين إذا ما رأت أن آخرين هم طيبون وأفاضل عندها.

في حين كانت النظرية المتعلقة بطبيعتنا البشرية تقترب بشكل ملحوظ من الاكتمال، كنت ألحظ باستغراب كبير كيف اتخذت الأشياء في مخيلتي، إلى جانب شكلها الموضوعي، في الوقت ذاته شكلاً خيالياً نموذجياً، صحيح أنه كان من شأنه أن زاد من قوة التصور في خطوطه العريضة إلا أنه بالمقابل عرض للخطر المعرفة الأدق للتفاصيل. كان هذا يرجع إلى تعود التصوير عن طريق الرسم، الذي تدخَّل الآن حيث كان ينبغي أن يسود عالم الأفكار، بينما تدافع هذا بدوره من جديد إلى المكان الذي لاق بذاك. وهكذا كنت أرى الدورة الدموية مباشرة على صورة نهر من الأرجوان البهي وعلى ضفته كان يجلس الجهاز العصبي الرمادي الفاتح كشبح حائل اللون، شبح خيالي ملتف بمعطف أنسجته، ويشرب ويرشف بنهم وقد أوتي من القوة ما مكنه، على طريقة بروتويس(*) من أن يتحول إلى كل الحواس. أو كنت أرى ملايين الأجرام الفلكية، التي لا تعد ولا ترى أيضاً بالعين المجردة، مثلها في ذلك مثل جحافل الأجرام السماوية، وهي تشكل الدم وتتدفق عبر ألف قناة وفي تدفقها تختال باستمرار بروق الحياة العصبية في فترات طويلة أو قصيرة في نظر نظام العالم كتلك الفترات التي تحتاج إليها النجوم لتجوالها وتلبية نداء مصيرها. وكذلك تكرار العدد الهائل وتكرار تركيب كل الطبيعة الكونية في كل جمجمة إفرادية واهنة اتسع عندي إلى التصور الخارق وكأن باحثاً صغيراً بقدر مونادة صغيرة يستطيع أن يجلس في عمق الدماغ ويصوب بسهولة منظاره عبر أمكنة مكشوفة، كالفلكي الذي يصوب منظاره عبر أثير العالم، على الرغم من كل الكثافة الظاهرية للمادة في أول دائرة محيطية؛ بل ربما لم يكن تذبذب الكتل العصبية في الدماغ إلا التجول الفعلي للأجسام الصغيرة المتعلقة بالأفكار والتعبير عبر مواضع نصف الكرة، وما إلى ذلك من تفكه وتندر.

(*) في الأساطير اليونانية شيخ بحري متنبئ وقد منح موهبة أن يحول ذاته إلى أشكال كثيرة، المترجم.

ولكن جدية المعلم المحاضِر والهدوء المتوازن في إلقائه تغلبا أخيراً على تشويشات من هذا النوع ولفتا انتباهاً دام حتى النهاية، ولكنه أخلى الساحة بعدئذ لذهول معين. فبعد أن ختم نظرية تطور الحواس بنشوء الوعي البشري، خلص وهو يخرج من تحفظه، إلى إنكار سافر لوجود ما يعرف باسم إرادة حرة. وفعل ذلك بكلمات قليلة معتدلة لم توحِ بأي حال من الأحوال، ولو أنها كانت هادئة ومسالمة، بالظفر أو الرضا عن النفس؛ لا بل تخللتها بكل وضوح نبرة استسلام مرير مما دفعني في الحال إلى التمرد على ذلك، لأن الشباب لا يرضون أبداً أن يتخلوا بسهولة عن شيء يعدّ جيداً وقيماً.



*   *   *

الفصل الثاني

حول الإرادة الحرة

بقدر ما احترمت الرجل المحاضر، كابدت من أجل إعادة حرية الإرادة، العزيزة على نفسي التي كنت أظن أنني أمتلكها وأمارسها بشجاعة منذ زمن بعيد، إلى ما كانت عليه. بين الأشياء القليلة، التي بقيت من تلك الأيام، لا يزال هناك كتاب مخصص لتدوينات معينة، وهو يحتوي على بضع ملاحظات متسرعة، وسوف أتلو الآن الصفحات المكتوبة بقلم الرصاص بمشاعر أكثر تواضعاً ولكن ليست متحررة من التأثر واهتزاز الجوانح:

"في واقع الأمر ليست إجابة البروفسور بالنفي هي ذلك الأمر الذي نفرني وأخافني. ثمة قول مأثور بأن على المرء ألا يهدم فقط بل عليه أيضاً أن يعرف كيف يبني، هذه عبارة طنانة يقولها أناس هنيو البال وسطحيون في كل مكان ودائماً حيث تواجههم بصورة غير مريحة بادرة مقوِّمة. هذه العبارة هي في محلها حيث يرفض بصورة عرضية أمر من الأمور أو يجاب عنه بالنفي انطلاقاً من نوازع حمقاء. لأن المرء لا يهدم دائماً لكي يبني من جديد؛ بل العكس هو الصحيح فهو يهدم بجد وإمعان لكي يحصل على مكان حر ينتشر فيه الضوء والهواء اللذان يوجدان من تلقاء ذاتهما في كل مكان حين يزال حاجز مغلق. حين ننظر إلى الأمور بدقة وتمعن ونعالجها بنية حسنة فليس ثمة أمر سلبي بل كل شيء هو إيجابي لاستخدام هذا التعبير الذي هو بمنزلة حيلة مبتذلة.

"والآن إن لم تكن حرية الإرادة موجودة أيضاً في أوساط المستويات الدنيا من جنسنا البشري ولدى الفرد المنحط، فلا بد إذاً من أن توجد وتتطور حين يوجد السؤال عنها وإن كانت ورقة فولتير الرابحة في قوله: إن لم يوجد إله فعلينا أن نخترع واحداً! أقرب ما تكون إلى سب الله بوصفها قولاً " إيجابياً" جيداً، فليس الأمر كذلك في ما يتعلق بحرية الإرادة، وهنا يمكن للمرء طبقاً لواجب الإنسان وحقه أن يقول: دعونا نحقق هذه الحرية وننشرها في العالم!

"مذهب الإرادة الحرة يمكن أن يقارن على أنسب وجه بحلبة لركوب الخيل، أرضيتها هي بمنزلة حياة هذا العالم المطلوب التغلب عليها بطريقة ناجعة، وهذه الأرضية قد تقدم في الوقت ذاته الأساس الثابت للمادة. والحصان الأصيل والمدرب هو الأداة المميزة التي لا تزال مادية الطابع، أما الفارس الذي يمتطي صهوته فهو إرادة الإنسان الطيبة التي تهيمن على تلك الأداة المادية وتصبو إلى تحويلها إلى إرادة حرة من أجل أن تتغلب بطريقة أكثر نبلاً على ذلك الأساس الخشن؛ والسائس بجزمته العالية وكرباجه هو أخيراً القانون الأخلاقي لكن القائم أولاً وأخيراً على أساس طبيعة الحصان وهيئته ومن دون هذا يتعذر وجوده، ولكن الحصان قد يكون منافياً للعقل والمنطق إذا لم توجد الأرضية التي يستطيع أن يخب عليها، بحيث تكون كل أجزاء هذه الدائرة متوقفاً بعضها على الآخر ولا وجود لأحد منها من دون الآخر باستثناء أرضية المادة التي هي موجودة بطبيعة الحال سواء أمورس فوقها ركوب الخيل أم لا. ومع ذلك يوجد تلاميذ خيالة جيدون ورديئون، لا تبعاً للأهلية البدنية فقط بل في المقام الأول أيضاً نتيجة للتماسك الحازم. والبرهان على ذلك تقدمه أولى أفضل فصيلة من الخيالة مرت بنا في الطريق، فجموع العامة ممن لا خيار لهم في أن يتعلموا بعناية أكثر أو أقل ولم يعودوا امتطاء الصهوة إلا باتباع نظام حديدي قاسٍ، هم كلهم بالتساوي تقريباً جديرون بالثقة ويعول عليهم؛ لا أحد منهم يتميز بوجه خاص ولا أحد يتخلف عن الركب، ولكي تكتمل صورة حياة قائمة على أساس

فوضى منظمة تواجههم في منتصف الطريق الأحصنة المحشورة والمروضة على ما يرام وما يفوته الخيال على نفسه تنجزه الأداة، أي الحصان، من تلقاء ذاتها. وحيث يتوقف هذا الإكراه وهذه الفوضى وما هو ضروري للجمهور بمرارة لدى الفيلق الحميد من الضباط، يوجد عندئذ ما يعرف باسم خيالة جيدين وأكثر رداءة ومتفوقين؛ لأن بإمكان هؤلاء إنجاز ذلك كثيراً أو قليلاً بما يتجاوز المعيار المطلوب. الإنجاز الممتاز والجريء، الذي يحققه المرء العادي في زحام المعركة فقط بصورة لا إرادية ولا واعية وفي جو من الخطر والشدة لا محيد عنه، أي الوثبات والقفزات الكبيرة، هي ما يتدرب عليها الضابط في كل الأيام تحقيقاً لمتعته وانطلاقاً من إرادة حرة ونظرياً إذا صح التعبير؛ ولكن ذلك لا يعني أنه لذلك قادر على كل شيء فلا يُلقى مرة على الأرض على الرغم من كل شجاعته وقوته أو لا يدفعه حصانه الجموح إلى أقصى حد إلى امتطاء صهوته في طريق آخر غير الذي أراده من قبل.

"هنا لا بأس من إيراد مثال آخر، فهل سيقول قائد الدفة لسفينة ما، بسبب عواصف عارضة قد تقذف به في عرض البحر وجراء تبعيته لرياح مواتية، أو بسبب سفينة رديئة وصخور ناتئة ظهرت فجأة ونجوم إرشاد محجوبة وشمس معتمة؛ هل سيقول قائد الدفة: "ليس ثمة فن للقيادة!" ويكف بذلك عن بذل أكبر جهد ممكن للوصول إلى هدفه المنشود؟

"لا، تحديداً إن صرامة الألف شرط المتداخلة في ما بينها لكنها منطقية أيضاً لابد أن تغرينا لئلا نترك الدفة وننتزع على الأقل شرف سباح ماهر يمخر عباب البحر باتجاه مستقيم فوق تيار مندفع بقوة. اثنان لن يفلحا في الوصول إلى الضفة الأخرى: ذلك الذي لا يثق بقوته والآخر الذي يعتل بأنه في غنى عن السباحة، بل يريد أن يطير وهو ينتظر إلى أن يهيم إعجاباً بالمغامرة.

"أجل، ثمة كائن متخم بالشعور بالمسؤولية يختمر في الأشياء ويجعِّد مرآة النفس الهادئة: السؤال عن حرية إرادة حتمية هو أيضاً في نشوئه سبب

هذا النشوء وتحققه، ومن يطرح مرة هذا السؤال فإن عليه أن يتحمل مسؤولية جواب أخلاقي عن ذلك!".

أذكر أنني كتبت هذه الكلمات في شهر آب وفي منطقة معزولة من حديقة عامة. وإذا لم يكن لوقعها ثقل كبير على كاهلي، فقد تابعت سيري بهدوء بعد عمل ناجز إلى أن وصلت إلى سياج من شجيرات أزهار برية كانت تتدلى من بينها الأنسجة المشدودة لمجموعة من العناكب المنتمية إلى فصيلة من العناكب الصفراء الصغيرة والمزودة مؤخراتها بشِيات على صورة صلبان بيضاء. لقد بدا أن هذه العناكب كانت أقامت في ذلك المكان مستعمرة لها ومارست وهي معلقة بأنسجتها فعالية يقظة. إحداها جلست هادئة في وسط بيتها، الذي برعت في فن بنائه أيما براعة، مترصدة بانتباه شديد ما قد يُساق إليها من صيد؛ وتسلقت الأخرى الخيوط، هكذا بارتياح وعلى غير هدى، لكي ترمم هنا وهناك أضراراً كانت أصابت بيت العناكب؛ في حين أخذت الثالثة رغبة منها في النزاع تراقب جاراً شريراً. ففي المنطقة الحدودية لكل شبكة عنكبوتية جلست مختبئة بين أوراق الشجر عناكب ذات ألوان متشابهة لكن بأجساد ضامرة تماماً وهذه العناكب لم تبن بيوتاً خاصة بها بل اكتفت بالاستحواذ على ملكية الفنانات المجدات. كانت ريح خفيفة تحرك الشجيرات من حين لآخر فتتحرك معها المدينة المرحة لهؤلاء المستوطنين بحيث أسفر مجرى الأحداث هنا أيضاً بكل هدوء عن أهواء جارفة وهياج.

قبضت على ذبابة ورميتها فوق نسج كانت صاحبته معلقة بمركزه دون أن تبدي أي حراك، ولكنها انقضت عندئذ على الحشرة التعيسة، لفتها ودارت بها بضع مرات بين أكفها ثم حزمت أجنحتها وأرجلها بحبال مؤقتة وغلفتها بعد ذلك بنسيج أكثر كثافة وتشابكاً في حين لفت الفريسة من جديد بمهارة فائقة بين الأرجل الخلفية كالشواء على السيخ فصنعت منها على هذا النحو لفافة سهلة الاستعمال وفي متناول اليد ثم جرتها بارتياح إلى مقر إقامتها. لكن

العنكبوت الكاسرة المتطفلة كانت تزحزحت عن مرصدها قليلاً واقتربت ثم استعدت لكي تنتزع الفريسة من صيادتها الشرعية، ولم تكد هذه ترى عدوتها حتى تركت فريستها معلقة بقضبان مقرها واتجهت بسرعة البرق نحو العدو المهاجم. وبعيون تقذف شرراً وأرجل أمامية ممتدة تواجه الخصمان وتعاطيا مع الوضع القائم بصفتهما مبارزين بكل معنى الكلمة والتحما في ما بينهما في قتال عنيف. العنكبوت، التي كان لها كامل الحق الشرعي في ما اصطادت، ردت الأخرى على أعقابها واضطرتها إلى الفرار بعد معركة حاسمة ثم عادت إلى فريستها؛ ولكن هذه كانت في غضون ذلك سلبت من لص ثان قادم من الجهة المقابلة وقد انسحب تواً ومعه الذبابة إلى وكره الخاص به. وبما أن هذا الغلام الأوفر حظاً كان الآن هو المالك، فقد تخلص الآن بدوره من المالكة الشرعية التي كانت تلاحقه وتملص من سطوتها بأن غادر الشبكة بما أمكنه من السرعة. وباضطراب شديد أخذت تلك تتسكع في أرجاء المكان هكذا على غير هدى إلى أن انشغلت بترميم نسيج شبكتها حيثما ألحقت به الأحداث أضراراً ثم عادت أخيراً من جديد إلى الجلوس في مركز مقرها.

هنا جئت بذبابة جديدة؛ فأمسكت بها العنكبوت، تماماً كما فعلت بالأولى؛ ولكن قاطع الطريق الأول، الذي لم يشأ الجوع أن يترك له أي خيار آخر، أتى من جديد إلى مسرح الحدث؛ والآن بدلاً من أن تحزم الضحية الجديدة بطريقة فنية فإن العنكبوت تناولتها ببساطة بين كلابي الافتراس وحملتها كما يحمل الدب الحمَل، لا إلى وسط مقرها، بل إلى خارج الشبكة لكي تضعها في مأوى آمن. ولكنها لم تتمكن من الوصول إليه لأن العدو قطع عليها الطريق بحيث اضطرت إلى البحث عن مأوى آخر ما دامت لم تشأ التخلي عن فريستها ومن ثم لم تستطع لهذا السبب الشروع في المعركة. كذلك تطور وضع من الإرباك والضياع أكثر ازعاجاً للحشرة الصغيرة المعذبة حين هبت الريح في الوقت ذاته بصورة أشد مما كانت عليه فجعلت الشبكة

تترجّح بشدة إلى حد أن دعامة رئيسية من دعائمها، أي واحداً من حبالها الأقوى الذي تعلقت الحشرة به، آلت إلى التمزق. بذلك ضاعت الذبابة، والخصم ولى الأدبار أيضاً؛ وبقيت العنكبوت في المكان لكي تقوم بواجبها. وكما في حال حدوث عاصفة يتعلق البحار بأشرعة سفينته، فقد تسلقت العنكبوت بأعضاء جسدها المرتجفة إلى أعلى الشبكة المتأرجحة ثم إلى أسفلها محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه غير آبهة بهبات الريح العاصفة التي رمتها ورمت معها شبكتها المنسوجة هنا وهناك. وحين كسرت غصناً وأزحت به البناء كله فجأة من مكانه فرت العنكبوت إلى الأدغال هاربة من القوة الأكبر. قلت لنفسي وأنا أتابع سيري: حسبها ما فعلت في هذا اليوم. ولكن حين مررت بعد ربع ساعة بالمكان نفسه، كانت العنكبوت بدأت بعمل جديد فأنجزت شد الخيوط إلى نصف قطر الشبكة. والآن كانت تسحب الخيوط الأفقية الأكثر نعومة، ولكن لم تعد تفعل ذلك بتساو وانتظام ورشاقة كما في تلك الخيوط التي دُمرت؛ كان ثمة مواضع أكثر ارتخاء أو ضيقة إلى أقصى حد، هنا نقص خيط وهناك جرَّت خيطاً مماثلاً مرتين، باختصار، خدعت نفسها كواحد واجهته صعوبات وشدائد وبدأ عمله من جديد مغموماً ومشتت الفكر. أجل بالطبع، كان واضحاً أن المخلوقة الصغيرة قالت لنفسها: لا مفر! لابد لي بمشيئة الله من أن أبدأ من جديد!

لم يدهشني ذلك بقدر قليل؛ لأن مقدرة كهذه على التصميم وعقد العزم في الدماغ الصغير الزهيد ارتقت على وجه التقريب إلى مستوى حرية الإرادة الإنسانية التي قلتُ بها وروجتُ لها، أو أن هذه المقدرة انحدرت بحرية الإرادة إلى مجال قانون الطبيعة الأعمى، أي إلى دافع الأهواء الجارفة. ولكي أتخلص من هذا الدافع رفعت في الحال سقف مطالبي الأخلاقية، لأن الأمر لا يتوقف أبداً لدى تشييد قصور الأحلام على تكاليف أكثر أو أقل إن كانت قصور الأحلام قابلة للتنفيذ أو أنها تؤدي على الأقل خدمة حماية الطريق

الوسطى المثلى، كما كان فيما مضى معسكر الجيش الروماني يحمي طريق ذلك الجيش، ذلك هو سر خبرة لا يبوح به دائماً تواضع مكتسَب.

على هذا النحو كنت إذاً مسلحاً بسيف حرية الإرادة اللامع، لكن دون أن أكون مبارزاً. وإذا ما سبق أن عقدت العزم على تحصيل بعض المعرفة في مجال علم التشريح بغرض عرض جسم الإنسان عبر رســـوم فنية، فإنني لم أعد أعرف شيئاً عن هذا الموضوع وكففت عن المزيد من الإجراءات في هذا الاتجاه.

ودون أن أعرف كيف حدث ذلك كنت انخرطت في الصيف ذاته في حلقة دراسية مهيأة لدراسة علم القانون ولم تضع علي سوى ساعات قليلة منها؛ فقد بدا لي على الفور أن من غير المحتمل ألا أعرف مالم أعلم عنه قبل عهد قريب أي شيء ولم يطالبني به أحد، من أصحاب جدد، كنت اكتسبتهم في غضون ذلك وسافروا الآن لقضاء إجازاتهم، وقد استعرت كتباً عن علوم القانون واشتريت أيضاً أنا ذاتي بعضاً منها، وقرأت فيها الآن ليل نهار وكأن امتحاناً كان يقف لي أمام الباب، وحين فتحت قاعات المحاضرات أبوابها من جديد في الخريف وجدتني واحداً من المستمعين لدى أول معلم في القانون الروماني، لا بنية أن أصبح قانونياً متخصصاً بل لكي أعرف فحسب ما أمر هذه المنظومة وأطلع على بنيتها وتركيبها. واستمرار بقائي هنا كان بالطبع متوقفاً على مقدار تشكل شعور عندي بالصبو إلى تاريخ الدولة الرومانية والشعب الروماني بالإجمال، وانطلاقاً من هناك كان من المعقول والمنطقي أن تمتد اليد أيضاً إلى كتب التاريخ الإغريقية، التي اضطررت فيما مضى إلى تركها وأنا في خضم مسيرتي التعليمية حين فُصلت من المدرسة؛ كانت تقدم إلينا نحن التلاميذ بأول صورها المدرسية المفتقرة إلى العمق والتفصيل. هذه المرة تصرفت بكل هدوء وارتياح وتلقيت تأثير هذه الروائع فيّ بارتياح مفعم بالفرح والسرور، مع استحضاري دائماً ربوع الطبيعة الجميلة والجزر

والتلال الجاثمة على سفوح السلاسل الجبلية العالية حين كانت ترد أسماؤها المشنفة للآذان.

ولكنني اصطدمت فجأة بمجلدات ألمانية عن قوانين عصور قديمة، واستشارات قانونية، وأساطير وميثولوجيا؛ هذه المجلدات كانت آنذاك في أوج شهرتها؛ وهنا عادت بي كل الدروب من جديد إلى العصور الأولى من تاريخ وطني وعايشت باندهاش جديد متعة التعرف المتنامية على قانون هذا الوطن وتاريخه. في ذلك الزمان كانت بدأت تلوح في الأفق طقوس برونهيلدي(*) بصفتها حنيناً إلى العصر الجرماني الشاب وتزيح بذلك ظلال السيدة البارة توزنيلدي(**) تماماً كما أثارت ميديا(***) الشيطانية الشريرة إعجاب الأحاسيس المرهفة أكثر مما استطاعت ذلك إفيغينيا(****) ذات النزعة الإنسانية. وبدا على وجه الخصوص لبعض الفرسان الصغار ضعاف البنية أن الامرأة البطلة الغامضة، برونهيلدي، هي الجديرة بأن تكون محطاً لتلبية التطلعات وتحقيق الآمال، وكم تغزل كثيرون لاحقاً بعظمتها وروعتها! على أي حال ألقى بريق الصورة المتخيَّلة أشعة ضوء ساطعة على ربوع الطبيعة في سالف الأزمنة واسترجع المطلب المضاد المتمثل في شخصية البطل الجرماني الشهير، زيغفريد، التي كان خيم عليها السبات وهي مختبئة في ظلال الغابات الوارفة.

ولكن تصورات من نسيج الخيال كهذه سرعان ما أخلت الساحة لأفكار واقعية حين عودت نفسي أكثر الانشغال بالتاريخ والتمعن في أحداثه وكدت أكتفي، مثلي مثل سانشو بانسا(*****) جديد، ببضعة أمثال مبتذلة لكي أوجز

(*) المرأة الجرمانية الأسطورية، المترجم.

(**) زوجة الأمير الشيروسكي الجرماني أرمينيوس، ماتت وهي أسيرة عند الرومان، المترجم.

(***) حسب الأساطير الإغريق القديمة: ابنة الملك ايتيس، المترجم.

(****) في الأساطير الإغريقية: ابنة أغاممنون، قائد الإغريقيين في حرب طروادة، المترجم.

(*****) صبي الفارس الشهير دون كيشوت، المترجم.

النتائج. فتبين لي أن لكل ظاهرة تاريخية تماماً فترة يستحقها أساسها المتين وعمقها الحي وتتطابق مع طريقة نشوئها، وتبين لي أيضاً كيف أن فترة كل نجاح ليست سوى حساب للوسائل المستخدمة واختبار للدراية وحسن التقدير؛ وكيف أنه في مواجهة سلسلة الدوافع لأحداث التاريخ أيضاً، لا فائدة ترجى من الأمل ولا من الخوف، لا من الشكوى ولا من الهيجان، لا من الغرور ولا من القنوط، بل لكل من الحركة والانتكاسة إيقاعها المقيس بدقة. لذلك حاولت مراعاة هذه الحال في التاريخ وقارنت طبيعة الأحداث والأوضاع بطول فترتها وتبدل تعاقبها: فأي نوع من أوضاع مستمرة لفترة أطول على سبيل المثال تنتهي فجأة أو بالتدريج، أم أي نوع من أحداث غير متوقعة وتتداعى بسرعة قد تصيب نجاحاً على الرغم من ذلك؟ وأي نوع من التحركات تؤدي إلى انتكاسة سريعة أو بطيئة، أيها تخدع ظاهرياً وتضلل وأيها تسير على المكشوف في الطريق المتوقع لها؟ وفي أي علاقة يقف مجمل المضمون الأخلاقي مع إيقاع القرون، والسنين، والأسابيع والأيام في التاريخ؟ بذلك ظننت أنني مكنت نفسي من الحد في بدء أي تحرك، تبعاً لوسائله وطبيعته، من الأمل أو الخوف المفترض أن يعقدا عليه تماماً كما يليق بمواطن عالمي حر متدبر. وقلت في نفسي: "كما تسيّرها تمشي!" فليس في التاريخ أيضاً لحسن الحظ قول مبتذل أو غير ذي شأن، بل حقيقة حديدية. ولذلك فإن الإدراك التالي مفيد للحياة الحاضرة: إن كل ما نجده لدى خصومنا جديراً باللوم والاستنكار، لابد لنا نحن ذاتنا من أن نتجنبه ونفعل الشيء الصحيح لذاته فقط، لا بدافع الميل إلى ذلك الشيء بل بدافع الإيفاء بالغرض والوعي التاريخي.

كانت الأمكنة التي مورس فيها التعليم هي الأحب لإقامتي وكنت أتسكع في كل الأمكنة بصفتي نصف طالب حدته الرغبة إلى سماع كل شيء ورؤيته، مثلي في ذلك مثل ابن شاب لسادة من الناس يمكث من أجل تأهيله العام في المدرسة العالية، ولكن في ما عدا ذلك ليس بحاجة إلى هذا المكوث.

وحيثما كان يُعلن عن محاضرات وندوات قيمة لفيزيائيين، أو كيميائيين، أو علماء حيوان أو علماء في التشريح، وحيثما كانت فصول كتب ذات شهرة خاصة تعالج من أهل الفصاحة والبلاغة، كنت دائماً أحضر في وسط جموع الفضوليين المنضمين إلى الركب. وبعد كل مغامرة ناجحة كنت تراني في وسط حشود الطلاب حين كانوا يحتسون النبيذ قبل الطعام في مجالس شربهم الصباحية الصبيانية. الآن فقط خالفت نصيحة معلم الموازين والقياسات بألا أذهب إلى حانة أبداً قبل حلول المساء، إذ رأيتني في تلك الآونة أرغب في سماع الأحاديث عما تحققت معرفته وفي مشاركتي أنا ذاتي في ذلك، حتى إنني أفلحت من حين لآخر في أن أُسند إلي في أجواء حماسية معينة التحدث بصوت عال باسم الحضور، على وجه التقريب تماماً كما كان الحال في تلك الفترة من حياتي حين بذرت حصالة توفيري وكنت متحدثاً كبيراً بين أقراني من الصبيان وسرت وقتها باتجاه كارثة مأسوية.

* * *

الفصل الثالث

أنمـاط عيش

كان عندي بالطبع مرة أخرى حصالة توفير بانتظار الاستخدام، ففي اليوم الذي تلا رحيلي عن بيتنا قبل أكثر من ثلاث سنوات، كانت أمي غيرت في الحال نظام تدبيرها المنزلي وشؤون بيتها وحولته تماماً على وجه التقريب إلى فن العيش من لا شيء. إذ اخترعت طعاماً مميزاً كان نوعاً من حساء أسود ظلت تطبخه على مر السنين يوماً بعد آخر في وقت الظهيرة على نار صغيرة كانت تشتعل تقريباً من لا شيء فتجعل بذلك كمية من الحطب باقية أبداً. في أيام العمل الأسبوعية كفت أمي عن إعداد المائدة بما أنها كانت تتناول طعامها وحدها تماماً، ولكن لم يكن ذلك توفيراً للجهد بل توفيراً لنفقات المغسولات وصارت تضع أواني طعامها على حصيرة صغيرة من القش كانت تبقى دائماً نظيفة؛ وحين كانت تغطس في الحساء ملعقتها البالية، المتآكلة إلى ثلاثة أرباع ملعقة فقط، كانت تناجي الله في لحظة محددة وترجوه أن يمنح الخبز اليومي لكل الناس، لكن على وجه الخصوص لابنها. في أيام الأحد وأيام الأعياد فقط كانت أمي تعد المائدة فتغطي طاولتها بكتان أبيض نظيف وتضع فوقها قطعة صغيرة من لحم البقر سبق أن تسوقتها في يوم السبت الفائت. هذا التسوق ذاته لم تقم به عن حاجة بها إلى ذلك – لأنه كان بإمكانها من أجل شخصها هي تحديداً أن تكتفي، إذا ما لزم الأمر، حتى في أيام الأحد أيضاً بحساء التقشف- بقدر ما كانت تبحث عن إقامة علاقة لها بالناس فتتسنى لها على الأقل مرة واحدة كل أسبوع فرصة للظهور في أرجاء السوق القديم ورؤية مجرى الحياة في هذا العالم.

لذلك كانت أمي تذهب أولاً إلى بسطات اللحوم، بهدوء وحماس وعلى ذراعها سلة صغيرة؛ وحين كانت تقف هناك بذكاء وتواضع خلف ازدحام طويلات القامة من ربات البيوت والخادمات، اللواتي كن يطلبن بأصوات صاخبة وبجسارة ملء سلالهن باللحوم، كانت تبدي آراء انتقادية حول تصرفات هؤلاء النسوة وتعبر عن انزعاجها على وجه الخصوص من الخادمات الحيويات المستهترات اللواتي كان يغرر بهن صناع الجزارين المرحين بحيث كان هؤلاء يلقون في كفة الميزان دون أن يسترعي ذلك انتباه أحد كمية كبيرة من العظام وقطعاً كثيرة من الرغاميات إلى حد صعبت معه على السيدة إليزابيت لي رؤية ذلك التجاوز. ولو قدر لها أن تكون سيدة لفتيات من هذا النوع لكان عليهن أن يدفعن ثمناً باهظاً لحركات عشقهن حول بسطات الجزارين ولأجبرن هن أنفسهن في كل الأحوال على أكل غضاريف الصناع المخادعين ورغامياتهم. على أن تجاوز الحدود هو أمر غير مسموح به فكان لابد إذاً من وضع الأمور في نصابها إذ ربما لم يعد الآن بمقدور أكثر النسوة الموجودات هناك صرامة وشدة الحصول على أكثر من نصف كيلو من اللحم، الذي تسوقته بكل حيطة ودأب.

وحينما كانت تلقيه في سلتها الصغيرة، كانت تذهب إلى سوق الخضار على ضفاف النهر وتمتع نظرها بخضرة الأعشاب وبألوان الفواكه المتعددة وبكل ما حفّ به من البساتين والحقول. كانت تجول من مقطف إلى مقطف وفوق الألواح الخشبية المترنحة من منبت إلى منبت محيطة بكل النمو المتكدس ومتخذة من جماله واستساغته مقياساً لرفاهية الدولة وعدالتها الكامنة فيها؛ وفي الوقت ذاته ظهرت في ذاكرتها تلك الربوع الخضراء والحدائق الغناء في فترة شبابها، التي كانت مارست فيها هي ذاتها عملية الزرع والإنبات بنجاح كبير واستطاعت أن ترسل إلى السوق عشرة أضعاف مما تتسوقه الآن بتدبر واهتمام. ولو كان لا يزال عندها مخزونات كبيرة لإعداد تدبير منزلي وفير، لشكل ذلك بديلاً للزرع والإنبات؛ ولكن هذا البديل أيضاً

انتزع منها، والكمية القليلة من الفاصولياء والسبانخ الخضراء والجزر الأصفر، التي ألقتها أخيراً في سلتها الصغيرة بعد أن كانت استخدمت لهجة قاسية بسبب الغلاء الفاحش، ليست عندها سوى رمز زهيد للماضي مع جرزة البقدونس أو الكراث التي كانت تحصل عليها بشق النفس، على البيعة.

خبز المدينة الأبيض، الذي كان يُجلب إلى بيتها حتى الآن، ألغته أيضاً وأبدلته كل أسبوع بقطعة خبز خشنة أقل ثمناً وكانت تأكل قليلاً منها إلى أن تغدو قاسية كالحجر؛ ولكن حينما تفرغ منها برضاً وارتياح، تنغمس تماماً بتقشفها الذي اختارته لنفسها طواعية.

في تلك الفترة كانت أمي شحيحة وجدية مع كل الناس، حذرة ومتحفظة في علاقاتها الاجتماعية لكي تتجنب أي نفقات قد تترتب على غير ذلك؛ ولم تستضف أحداً وإذا صادف أن فعلت فقد كانت تتعامل مع الضيف بتقتير وخوف بحيث سرعان ما عدّها الناس بخيلة وغير مجاملة لولا أنها لم توازن نزعتها الشديدة للتوفير بتجاوب مضاعف مع ما استطاعت جهود يديها أن تحقق دونما نفقات إضافية.

في كل مكان، حيث تمكنت من تقديم العون قولاً وعملاً، كانت باستمرار يقظة ونشيطة في المبادرة إلى المساعدة، ولم تتهيب أي دأب ومثابرة؛ وما دامت تنجز مشاغلها بسرعة فقد خصصت وقتاً طويلاً من أجل خدمات من هذا النوع، مرة في هذا وأخرى في ذاك البيت حيث نغص المرض والموت على الناس حياتهم.

ولكنها جلبت معها إلى كل مكان فنها الدقيق في تقسيم الناس إلى فئات بحيث كان الأكثرون امتلاء يقولون من وراء ظهرها وهم يتقبلون شاكرين مساعدتها التي لا تكل ولا تمل: إنه في حقيقة الأمر لعار على السيدة «لي» أنها شديدة الخوف والهشاشة ولا تستطيع أو تريد أن تترك لله شيئاً. مع أنها، رداً على ذلك، تركت بالطبع للعناية الإلهية كل ما لم تستطع إدراكه ولا سيما

تعقيدات العالم المجرد التي لم يكن لها بها أي علاقة ما دامت لم تكن عرضة للأخطار. ومع ذلك فقد شكل الله عندها أيضاً حجر الأساس في مسألة التغذية؛ لأن هذه المسألة بدت لها على جانب كبير من الأهمية بحيث لم تتردد يوماً في أن تدافع عن نفسها بنفسها أولاً بحيث بدا أنها تعتمد على نفسها فحسب.

وتمسكت بكل حزم بولائها لأسلوبها هذا في العيش؛ لا نظرات الشمس المفعمة بالبهجة والمرح ولا المقت المقبض، لا المزاح ولا الجد، لا شيء من كل ذلك أغواها لأقل إنفاق غير ضروري. كانت تضع قرشاً إلى قرش وحيث وضعت هذه القروش كانت في الحفظ والصون وكأنها في علبة البخل الشديد. وبالمثابرة على البخل استطاعت أن تجمع نقوداً، ولكن لا من أجل متعة النظر؛ لأنها لم تتأمل بتاتاً ما جمعت من المال ولم تكرر عدَّه، على الأقل لم تعده مرة ثانية كما لم تتصور أيضاً ما يمكن أن تشتري به ولم تفكر في أي متعة قد تتاح لها من خلاله.

أما ما تعلق بأوضاعي فقد أشرفت منذ بعض الوقت تلك النقود التي كانت خصصت للإنفاق على تأهيلي الفني على النهاية. وأصبحت حبيس شبكة واسعة من علاقات ديْن كنت وقعت فيها بكل سهولة عبر الصلات الطلابية التي تختلف اختلافاً جوهرياً عن نمط حياة تلاميذ الفن. فهؤلاء يعتمدون من البداية على الاستفادة من ضوء النهار عبر تمرين يدوي لا يتوقف؛ ويترتب على ذلك وحده وضع مادي آخر من شأنه أن يمت بالقرابة إلى تقاليد الحرفة القديمة الأصيلة. لدى اختلاطي بالرسام الغني لويس والرسام المتعود أيضاً حياة لا هم فيها ولا قلق، إيريكسون، لم أفطن أبداً الى أوضاعي المادية المتواضعة. لم يلتق دائماً بعضنا بعضاً إلا في المساء فلم يمارسا إذّاك في العادة عيشاً مختلفاً عن عيشي وعيش أمثالي من ذوي الأوضاع المادية غير الموسرة؛ فلم يرد في الحسبان إذاً في كلا الطرفين أي داعٍ لإنفاقات باهظة، وما نجم عن مزاج جيد أو عن أعياد واحتفالات من استثناءات من تلك القاعدة لم يُحدث أبداً خللاً في التوازن إلى حد يعتد به.

أما الطالب فكان بالمقابل يعيش في غضون ذلك وسيبقى يعيش إلى يوم الدين بكل جوانب حياته واتجاهاتها تحت لواء الحرية، فهو يتمتع، إذ يسبح في خيال اعتداد شبيبي ملحوظ، بثقة بالنفس فوق العادة؛ فالتكاسل وقلة المال لا يجران عليه أي مضرة لا بل يحتفل بهما عبر أغانٍ خاصة، حتى إنه يتغنى ببعثرة آخر ما يملك وبالاستهزاء من الدائنين عبر أناشيد شعائرية قديمة وجديدة. ولو أن ذلك كله في ظل العرف الحالي الأصلح هو عملية تجميل، فإنه يبقى رمزاً لحريات من شأن استقامة عامة معينة أن تشكل إحدى مقوماتها.

حين رأيت نفسي في صبيحة أحد الأيام من دون تدبر وإرادة مثقلاً ببعض الديون جالت في خاطري بعض الأفكار المتعلقة بالموضوع وتعاملت معه على وجه التقريب بالطريقة التالية:

إذا فرضنا أن علي تزويد ابن لي بمواعظ نافعة فسوف أقول له: "يا بني، إذا ما أردت أن تثقل نفسك دونما عوز وعلى نحو ما من أجل انغماسك في المتعة، فأنت في نظري لست مستهتراً بقدر ما أنت إنسان وضيع وأشتبه في أنك تتطلع إلى تحقيق منفعة شخصية قذرة ومن ثم أنانية من شأنها أن تسلب الآخرين عمداً ما يملكون تحت قناع الحاجة المريحة إلى المساعدة، ولكن إذا ما أراد واحد من هذا الصنف أن يقترض منك مالاً، فرده على أعقابه؛ لأنه من الأفضل أن تضحك عليه بدلاً من أن يضحك عليك! بالمقابل إذا ما وقعت في ضيق فاقترض ما يلزمك تماماً واخدم أصدقاءك أيضاً بلا حساب وثُق إلى سداد ديونك وتحمل خسائرك وثُق أيضاً إلى الحصول على ما يخصك دون أن تتزعزع أو تتردد ودون أن تتشاجر مع أحد بطريقة بذيئة. فلا المدين فقط هو الذي يفي بالتزاماته، بل الدائن أيضاً الذي يحصل على ما يخصه دون شجار هو الذي يبرهن عن أنه رجل ذو موقع جيد ويشيع من حوله شعوراً بالكرامة. لا ترجُ مرتين من لا يرغب في أن يقرضك مالاً ولا تعرض نفسك أيضاً لإلحاح المقترضين؛ فكر دائماً في أن سمعتك الطيبة مرتبطة بسداد الدين أو بالأحرى لا تفكر مرة، لا تفكر في غير ما يجب عليك دفعه في الحياة أو في

الممات. ولكن إذا ما تعذر على أحد غيرك أن يلتزم وعده الذي كان قطعه على نفسه، فلا تصدر بحقه فوراً حكماً سلبياً بل اترك الحكم للزمن. فربما كان من مصلحتك مرة أخرى أن يؤدي لك مهمة حصالة للتوفير. ولكن بقدر ما يترتب عليك من التزامات وبقدر ما تخمن ما يكمن فيك من طاقات وإمكانات، عندئذ يتبين مقدار قيمتك وكم تساوي. سوف تكون تعلمت أن تشعر إنسانياً بتبعية وجودنا وعرفت كيف تستفيد من قيمة الاستقلالية بطريقة أكثر نبلاً ممن لا يريد أن يعطي شيئاً ولا أن يكون مديناً بشيء. فإذا ما احتجت في وقت الشدة إلى قدوة ومثل أعلى لمدين، تذكَّر البطل الإسباني الذي رهن عند اليهود صندوقاً مليئاً بالرمل وقال لهم إن فيه فضة صافية! كانت كلمته بالطبع في حكم الفضة! ولكن كم كان أمراً مزعجاً لو أن شخصاً فضولياً أو سيئ الظن أقدم على فتح الصندوق قبل الأوان! ومع ذلك أمكن أن يكون البطل ذاته هو من ارتجت جثته على السيف حين أراد يهودي أن ينتش بلحيتها".

هذه الكلمات الكبيرة، التي استبدلتها بنصيحة أب حكيم، كان من شأنها أن حفزت سريرتي بقوة إلى حد أنني أعددت العدة لفتح بوابة كسب العيش ودون أن أضيع مزيداً من الوقت شرعت في العمل على إعداد تصميم للوحة طبيعية من حجم متواضع ويحتمل بيعها من البداية. تلك اللوحة قامت على أساس دراسة مهمة ترجع إلى أيام الوطن وتعرض غابة جبلية مجتثة الأشجار. من هذه الغابة امتدت حافة متبقية من أشجار البلوط على طول قمة جبلية أعلى ونزلت من فوقها باتجاه الوادي على ضفاف جدول غابيّ مزبد كموكب عمالقة سائر إلى التجمع في أسفل الوادي والاجتماع هناك. حين انتهيت من التصميم شعرت بالحاجة إلى استشارة رفيق في مجال الفن لكي لا أغفل شيئاً يؤدي إلى إنجاح اللوحة، لأنني أحسست بجدية الأمر أكثر فأكثر مع كل جرة ريشة.

من حسن الحظ أنني التقيت في تلك الفترة رسام مناظر طبيعية كان آنذاك في أحسن حال وكان سبق أن اجتمعت به بضع مرات بمعية إيريكسون

وكان بيننا معرفة عادية. كان الرجل يتميز بصنعة وثيقة وفعالة؛ إذ لم يعتد أن يجر فرشاة أكثر أو فرشاة أقل من اللازم وكل جرة كانت تتلألأ بقوة لم يهض لها جناح؛ وكانت لوحاته أيضاً مرغوباً فيها في كل مكان ولطالما بذل جهوداً كبيرة لتلبية طلبات الناس في الحصول عليها بحيث بدأ يشعر بالنقص في مواضيع رسومه، الأمر الذي أسفر عن أنه أمد المعجبين بلوحات أكثر مما كان ادخر أفكاراً لازمة لذلك، فقد كرر إنتاجه مرات كثيرة، حتى إنه كان يفتقر إلى بضعة أشكال لها علاقة بالغيوم والأرض لأنه كان استخدم بطريقة ما كل ما عنده منها مرة أو عدة مرات مع أنه لم يكن آنذاك قد بلغ بعد الأربعين من العمر. فقد كان عليه إعالة زوجة قوية وضخمة البنية وقطيع من الأطفال، وبما أنه كان موفقاً في هذا المسعى، سرعان ما خطر بباله أن يصبح أيضاً موفور المال. فقد اعتاد أن يقول: إذا كان على المرء أن يتكفل بالإعالة في الماضي فلابد أن يفعل ذلك في الحاضر والمستقبل. ويتعذر عنده أن يتصور أولاده واحداً بعد الآخر في أوضاع من الفاقة والفقر؛ ولهذا السبب كان لا بد له من أن يحميهم من أوضاع كهذه فيحضهم بذلك في الوقت ذاته على التفكير في أولادهم ذات مرة بالطريقة نفسها؛ وعلى هذا النحو سوف تتخذ الأمور على المدى البعيد مساراً جيداً ولكن فقط بناء على مبدأ مطبق بعزيمة وحزم.

سألني عن عملي فانتهزت الفرصة لكي ألتمس نصيحته، وعن طيب خاطر أتى إلي ورأى بشيء من الدهشة عملي أو بالأحرى الدراسة الطبيعية التي شكلت أساساً لذلك العمل. الأشجار، بوصفها البقايا المقلمة من غابة كانت عالية في السابق، أظهرت كلها أشكالاً خلابة إلى حد مميّز بحيث لا تجدها بسهولة أو لا تلقاها مرة ثانية؛ والانتظام الواضح الذي تحركت بموجبه مجتازة قمة الجبل لم يكن أقل أصالة. وبما أن شجرات البلوط هذه علاوة على ذلك قطعت على الأرجح أيضاً منذ ذلك الحين ونظراً إلى نأيها وانعزالها عن الرؤية كاد يتعذر على رسام آخر غيري استحضارها من جديد على اللوحة فقد اكتسب موضوع الدراسة التخطيطية واللوحة المصممة من دون

صنيعي طابع ندرة قيمة. حفّز هذا الوضع رسام المناظر الطبيعية المحنك للانشغال بالتصميم بجدية وحيوية، فبدأ أولاً معلقاً بالكلام بتفحص غزارة التصميم ووفرته الزائدة عن الحد التي يقف بعضها في طريق بعض فاستبعد الزائد عن اللزوم أو العائق وضم الجوهري بعضه إلى بعض. ثم أمسك، مأخوذاً بحماس منقطع النظير، قلماً وورقة وصاغ رؤيته، في حين لم يتوقف عن الكلام، بيد ثابتة عبر تجسيد بادٍ للعيان وببراعة فائقة إلى حد أنه أنجز في خلال نصف ساعة تصميماً رائعاً كان احتل مرتبة مرموقة في كل مجموعة من الرسوم اليدوية الجيدة. رأيت بالطبع مع أسف خفي اختفاء أكثر من موضوع معقول وورع لم أكن أرغب في أن أضحي به، ولكنني أبديت رأيي أيضاً بكل رضا من أن تأثيراً جديداً أقوى ظهر بذلك بوضوح في ما تبقى من مواضيع وكان لابد من أن يسهل تنفيذاً ناجحاً. سررت لإيجادي هذا الرجل في الوقت المناسب ورأيتني أنهمك في العمل، ولكن كان علي بالطبع أن أعد تصميماً جديداً لأن المعلم طوى بعد انتهاء مشاوراتنا رسمته بهدوء ثم دسها في جيبه وتركني بلطف لنيتي الممتنة له.

لدى تنفيذ اللوحة حاولت أن أفعل ما بوسعي وثابرت على عملي بكل جد وأمل ملتزماً في أثناء ذلك قدر الإمكان توجيهات المعلم ذات الطابع الانتقادي، غير أنني كنت ميالاً لاحقاً إلى التخيل وكأن شيئاً في بنية اللوحة كان لا يزال بحاجة ماسة إلى عملي التلويني المتواضع الذي، ما دام الأمر يتعلق أخيراً بإتمام نظامي للوحة، كان علي أن أنجزه وفقاً للقواعد الأولى التي كنت تعلمتها في مجال فن الرسم. مع ذلك لم أكن بعد مضي عدد من الأسابيع غير راض عن الناتج بالصورة التي ظهر فيها ضمن جدراني الأربعة؛ طلبت بعد ذلك تزويده بإطار بسيط وغير مذهَّب لكي يعبر عن جدية روح فنية بعيدة كل البعد عن أساليب الأبهة وتتفق أيضاً مع أوضاعي المادية ثم أرسلت اللوحة إلى صالات العرض حيث كانت تُعرض هناك أسبوعياً أحدث الأعمال الفنية وتمت عمليات التوسط للبيع.

هكذا حان الآن الوقت، الذي سبق أن تحدثت عنه بكل ثقة واطمئنان أمام هيئة الوصاية في قريتنا، أعني وقت البدء بكسب عيش مشرف. وحين دخلت في يوم الأحد التالي إلى صالات العرض التي تزاحم إليها عدد كبير من أهل الزينة والتبرج تذكرت بوضوح تلك الكلمات المتباهية، التي قلتها آنذاك لأعضاء لجنة الوصاية، ولكنني واجهت الوضع الآن بروح فاترة لأن أموراً كثيرة كانت متوقفة عليه أو متعلقة به. وحينما لاحظت من بعيد لوحتي، التي لم تسترعِ الانتباه، لم أجرؤ على المكوث قريباً منها لأنني تخيلت نفسي فجأة كطفل فقير كان وضع حَمَله المصنوع من نديفة قطن صغيرة وشيء من الذهب المزيف إبان سوق عيد الميلاد بقوائمه الأربع الصغيرة المتصلبة على حجر جاف ثم انتظر خائفاً مما إذا كان واحد من بين الألف المارين قد يتنازل فيلقي على الحمَل نظرة. لم يكن ذلك نوعاً من الكبرياء بل شعوراً بوجوب التغني بمصادفة سعيدة إذا ما وُجد من هو على استعداد لشراء حَمَلي الصغير لعيد الميلاد.

ولكن مصادفة كهذه لم تعد هي الأخرى واردة في الحسبان؛ إذ حين دخلت إلى صالة العرض التالية رأيت تصميمي للوحة ربوع الطبيعة يتلألأ من على الحائط وكان عرضه ذلك الفنان الذي أسدى إلي النصائح والمشورات في مجال فن الرسم بعد أن كان رسمه بكل بريق مقدرته الفنية وأحاطه بإطار كلف وحده من المال أكثر مما تجرأت أن أطلب ثمناً للوحتي. على لوحة الرجل المقتبسة مني عُلقت قصاصة من الورق معلنة أن هذا العمل الموفق قد تم شراؤه!

وكانت مجموعة من الفنانين تقف أمام اللوحة وتتجاذب أطراف الحديث. قال أحدهم: "تُرى من أين جيء بهذا الموضوع العظيم؟ منذ زمن طويل لم يأت مبدعها بشيء جديد كهذا!".

فرد عليه فنان آخر كان انضم تواً إلى بقية زملائه: يمكنك أن ترى موضوع اللوحة متكرراً في تلك المعلقة هناك، ويبدو أن راسمها هو فنان مبتدئ لا يجيد معرفة تأسيسها ولا طلائها بدهان شفاف".

ضحك الباقون وذهبوا إلى لوحتي بغية التمعن في قدري، وذلك إثر قولهم: "إذاً أقدم ذاك الوغد المبتدئ على سرقة الموضوع من هذا!". بقيت أمام العمل المظفر واقفاً وقلت في نفسي مطلقاً تنهيدة عميقة: "من يمتلك القدرة، يفعل ما يشاء!". ولكن حين درست اللوحة فترة أطول ظننت أنني اكتشفت أن التغييرات التي أجراها الرسام هي جيدة ومفيدة لوجهة نظره الفنية، بالمقابل كانت ضارة في ما يتعلق بعقليتي المثالية. ولكن بما أنني لم أمتلك تلك الروعة الهائلة لفرشاته، فقد يشكل العمق السحيق لتصميمي الأول والأثر المباشر لتلك الرسمة التخطيطية مع وفرة أشكالها بعض التعويض عند المولعين بالفن.

وحين مكثت لدى خروجي من الصالة فترة أمام لوحتي المهجورة تأكدت من أنها، بدلاً من أن تزداد غنى بفعل نصيحة ذلك الفنان المعلم، ازدادت فقراً من الناحية المنهجية وهو مما يبرهن على أن عصفور الدوري في هذه الأمور أيضاً لا يتعلم شيئاً من الشحرور.

بحسب النظام المتبع كان علي أن أترك لوحتي في صالة العرض لمدة أسبوع، ولكن في أثناء ذلك لم يسأل أحد عن سعرها. بعد ذلك جلبتها من هناك وأسندتها مؤقتاً إلى الحائط، ثم دخلت إلى غرفة النوم الصغيرة القريبة وجلست على حقيبة سفري الواقفة هناك كعادتي حين يكون لابد لي من التفكير في أمر محرج لأن الحقيبة كانت قطعة من لوازم موطني الأصلي. هكذا انتهت محاولتي الأولى لكسب العيش.

ما الكسب وما العمل؟ ألقيت على نفسي هذا السؤال؛ هنا تقود رغبة بحتة ومن ثم خاطرة موفقة إلى كسب وفير من دون جهد، وهناك يقود الى ذلك جهد منظم وشديد الأثر ومساوٍ لعمل فعلي ولكن من دون حقيقة باطنية، وبلا غاية حتمية، وبلا فكرة. هنا يسمى عملاً ويعدّ أمراً مجدياً ويتحول إلى فضيلة ما هو هناك حياة بطالة وعدم فائدة وحماقة. هنا يعود شيء ما بالفائدة والمساعدة بالتدريج دون أن ينطوي على حقيقة؛ وهناك يعدّ شيء ما حقيقياً وطبيعياً دون أن يقدم مساعدة، والنجاح هو دائماً الملك الذي يمنح لقب فارس.- على بال أحد

المضاربين ونهازي الفرص خطرت فكرة القهوة العربية المستنبتة (هكذا سماها على الأقل) وحين زرعها بكل حيطة ودأب لاقت توسعاً هائلاً وأصابت نجاحاً باهراً؛ وبسبب ذلك دبت الحركة في آلاف الناس واستُدرج مئات الآلاف بل ربما ملايين، مع أن الكل قالوا: إنه محض غش! مع أن الناس في ما عدا ذلك اعتادوا أن يسموا غشاً وخداعاً كل ما يدر كسباً من دون عمل وبذل جهد. ولكن لن يستطيع أحد أن يقول إن عملية الاستنبات هذه قد تتم من دون عمل؛ إذ من المؤكد أن تتطلب ترتيباً جيداً ومثابرة وفعالية وحيطة وإحاطة بإجمالي الأمر، كما في أكثر البيوتات التجارية وشؤون الدولة جدارة بالاحترام، فعلى أساس خاطرة المضارب هذه قام نشاط شامل ونشأ عمل فعلي.

إعداد القهوة المطحونة، وتصنيع العلب، وحزم السلع وإرسالها حيثما تُطلب، كل هذه الأعمال تعول عمالاً كثيرين؛ كما أن كثيرين يمارسون عملاً بفضل الإعلانات التي يطلقها المنادون في الأسواق ويتطلب ذلك أكبر الجهد والحيطة، فلا توجد مدينة واحدة في مختلف القارات إلا يجد فيها صفافو حروف وطباعون قوت يومهم عن طريق صنع الإعلانات والدعايات، ولا توجد قرية إلا كان فيها تاجر تجزئة يفرض ضريبة صغيرة على ذلك، هذه الضريبة تتجمع في ألف شريان صغير ويحيلها إلى مئة مصرف محاسبون جديرون بالاحترام ومحصلو نقود قليلو الكلام حتى تصل إلى منبع الفكرة. هناك يجلس أصحاب الفكرة في مكتبهم التجاري وتعلو وجوههم سيما الجد وسط نشاط عميق التفكير؛ لأن عملهم لا ينحصر في الإشراف على التجارة اليومية ومواصلتها بل عليهم أن يدرسوا أيضاً سياستهم التجارية من أجل إيجاد أسواق جديدة للبن المطحون وحمايته في هذا الجزء من العالم وفي ذاك من منافسة محدقة.

ولكن لا يسود دائماً في هذه الأمكنة الهدوء العميق للحركة التجارية كما لا تسود أيضاً قسوة العمل التي لا تتزعزع؛ فثمة أيام مخصصة للراحة، وللسرور، وللمكافأة المعنوية التي تستوقف مجتمعة بصورة محببة تلك الجدية المقدسة. رب البيت يقابل ثقة رفاق المواطنة بكل احترام متسم بالأبهة وتقام

ضيافة لا يستهان بها على شرف كل المحسوبين، أو يُحتفل بزفاف كبرى البنات سناً، فهو يوم مجيد عند جميع من يعنيهم الأمر؛ إذ يتم الارتباط المتكافئ تماماً مع الأسرة الأكثر وجاهة في الحي؛ فأوضاع الغنى متوازنة بالتساوي في كلا الجانبين بحيث لا يرد في الحسبان أي تشويش على السعادة الزوجية. عشية الزفاف جُلبت إلى البيت أحمال عربات من أشجار النخيل والريحان وعُلقت أكاليل الزهور؛ وفي الصباح تمتلئ الأزقة بالفضوليين ويتراجع الناس إلى الوراء أمام العربات التي تصل وتغادر وتعود من جديد في طابور لا نهاية له إلى أن تبدأ مأدبة الزفاف وسط أبواق مدوية. ولكن سرعان ما يحل هدوء صامت حين يقرع والد العروس الكأس ويصف بتأثر متواضع، دون أن يستفز القدر، مسيرة حياته فيتغنى بالهيمنة الأعلى التي أوصلته، وهو غير أهل لذلك على حد قوله، الى ما هو فيه كما يبدو الآن لكل العيان. وقال إنه بعصا ترحال فقط أتى في يوم من الأيام إلى هذه المدينة القيِّمة وناضل خطوة خطوة في أوضاع سادها العوز والقلق ولكن بدأب لا يكل ولا يمل وكثيراً ما كاد ييأس وتثبط عزيمته؛ لكن الزوجة النبيلة، أم أولاده، بوقوفها إلى جانبه جعلته دائماً ينهض من جديد ويقف على قدمين ثابتتين ويركز عينيه في شيء واحد هو كبير الأشياء، الأمر الذي آتى أكله في تلك الأحوال! طوال ليال كثيرة مقفرة كان يتصارع مع الفكرة المبدعة التي تزود ثمارها الآن عالماً قائماً بذاته بالبركات والنعم، وتكافئه بالطبع علاوة على ذلك أيضاً على طموحه الصادق وتعد له رفاهية متواضعة الخ.

ولكن على هذا النحو لا تزال تمارس عملية الاستنبات في أشياء كثيرة، فقط مع فارق أنها ليست دائماً بناً مطحوناً لا ضرر منه، ولكنها تنطوي على المزاج الغامض ذاته بين العمل والخديعة، الخواء الداخلي والنجاح الظاهري، العبث والتشغيل الحكيم، إلى أن تعصف رياح الزمن الخريفية بكل شيء فلا تبقي شيئاً في السهول غير بقية من ثروة هنا وبيت متهدم هناك فلم يعد ورثته يعرفون ماذا يقولون عن كيفية نشوئه فيما مضى أو إنهم لا يحبون قول ذلك.

واصلت الإمعان في التفكير فقلت في نفسي: إذا ما أردت الآن أن أستعرض مثالاً على عمل غني التأثير ويفضي إلى حياة حقيقية وقويمة معاً، فسوف تكون حياة فريدريش شيلر وعمله.

هذا الرجل، وهو الذي خرج هارباً من الوسط الذي حددته له أسرته وحاكم بلاده، ومعرضاً عن كل شيء قد يسعده حسب رغبتهم وإرادتهم، اعتمد كلياً على نفسه وفعل فقط مالم يقوَ على تركه، حتى إنه تنفس الصعداء عن طريق مجون وتجاوز تمثلا في أي قصة لصوص دفاقة ووحشية؛ لكن حينما حقق غايته هذه، سما بنفسه باستمرار انطلاقاً من داخله وغدت حياته ليست إلا استجابة لمطالب أعمق أعماق كيانه ومن ثم للعمل المنطقي الشفاف ضمن إطار المثل التي كمنت فيه وفي زمانه. وهذا الوجود الدؤوب هيأ له ببساطة في نهاية المطاف كل ما شكل اقتناعاً لكيانه الشخصي. فبما أنه، مع كل الاحترام، كان صاحب علم مثابراً على الجلوس في حجرته، لم يتُق إلى أن يكون رجل دنيا غنياً متألقاً. لو أن انحرافاً صغيراً حصل في طبيعته الجسدية والروحية، بعيداً عن الأصول والجذور الشلرية، لأصبح شيلر رجل اللياقات والتهذيب. ولكن بعد موته فقط، هكذا يمكن القول، بدأت حياة عمل صادقة وصافية وحقيقية تعبر عن تأثيره وقدرته على الكسب، وإذا ما صرفنا النظر تماماً عن تركته الفكرية التي خلفها وراءه فلابد من أن تدهشنا الحركة المادية ومن ثم المنفعة المادية البحتة التي خلفها عبر إبراز مخلص لمثله العليا. فعلى مدى كل المناطق الناطقة باللغة الألمانية لا يوجد في المدن بيوت كثيرة تخلو من مؤلفاته وتوجد في القرى على الأقل في بيت أو بيتين. ولكن بقدر ما تنتشر ثقافة الأمة، تزداد مع هذا الانتشار عمليات طبع هذه الكتب حجماً واتساعاً فتقتحم أخيراً أكثر الأكواخ انحطاطاً وبؤساً. إن مئة متعطش للربح يترقبون بفارغ الصبر انتهاء فترة امتياز الطبع لكي يروجوا للعمل النبيل الذي أبدعه شيلر طول حياته وينشروه على نطاق واسع وبأسعار زهيدة ككتاب الإنجيل، وحركة المغانم الشاملة التي دبت في أثناء النصف الأول من قرن سوف تنمو إبان النصف الثاني منه بمقدار ضعفين. وثمة

أعداد كبيرة من صانعي الورق، ومن العاملين في حقل الطباعة، والبائعين، والموظفين، والصبيان السعاة، وتجار الجلود، ومجلدي الكتب كانوا كسبوا من جراء ذلك عيشهم وسوف يكسبون أيضاً. وهذه هي، خلافاً لمبدأ القهوة العربية المستتبة في بعض الممارسات، حركة أيضاً مع أنها لا تتعدى كونها القشرة الخشنة للب ثمرة حلوة ومن ثم لثروة قومية خالدة.

لم يكن هذا إلا وجوداً عضوياً موحداً؛ الحياة والتفكير، العمل والروح هما الحركة ذاتها، ولكن هناك أيضاً حياة منفصلة، إلى حد ما لا عضوية بالمستوى نفسه من الاستقامة ووفرة الطمأنينة، فعلى سبيل المثال إذا ما قام شخص ما يومياً بعمل متواضع ملتبس لكي يكسب الأمان الهادئ من أجل تفكير حر، على غرار سبينوزا الذي يجلخ عدسات بصرية. ولكن لدى روسو، الذي يكتب نوطات، تتشوه العلاقة ذاتها إلى البشع الممقوت لأنه لا يبحث هنا لا عن الطمأنينة ولا عن الهدوء بل يعذب نفسه كالآخرين، ويحب أن يكون حيث يريد.

ما العمل الآن؟ أين يقع قانون العمل وشرف الكسب وأين يتطابقان؟

هكذا استغرقت في التفكير والتأمل في أمر لم يكن لي فيه بادئ ذي بدء أي خيار؛ لأن شدة الحياة وجديتها وقفتا لأول مرة بالفعل أمام الباب. أخيراً خطر هذا الموضوع ببالي أيضاً؛ وتذكرت تلك العنكبوت التي بنت من جديد شبكتها المدمرة وقلت في نفسي وأنا أنهض واقفاً: لا فائدة من أي شيء، ويجب علي أن أبدأ من جديد مرة أخرى! نظرت إلى ما حولي من متاع باحثاً عن أشياء قد تبدو ملائمة لمعالجة متنوعة للألوان في لوحات صغيرة متواضعة وقنوع. فلم أفكر فجأة إلا باتباع أسلوب ظننت أن بالإمكان تركه جانباً في كل وقت، إذ لم يتعلق الأمر هنا بذلك الرسم الجميل الأرفع شأناً، الذي أنجزه فنانون اختلسوا مواضيع اللوحات من غيرهم في حين لم أستطع أنا التغلب على إشكالاته، بل تعلق الأمر بانحدار إلى مستوى أدنى حيث يبدأ بهاء لوحات صينيات الشاي وأغطية العلب. بالطبع لم أشأ أن أنزل تماماً إلى هذا المستوى من الانحدار؛ فعلى أي حال كنت أنوي أن أصنِّع قيمة معينة،

ولكن أن آخذ بذلك بالحسبان عدم المعرفة والذوق الأكثر فظاظة في السوق الأدنى، مع ممارسة تأثيرات كثيرة معقولة. ولكن كلما كنت أبحث بحماس بل بخوف في محافظي، بدا لي كل شيء وصل إلى يدي، وكل دراسة من أجل لوحة، وكل تصميم صغير، أكثر قيمة وأعلى مستوى مما كنت أنوي رسمه ويا خسارة دراساتي وتصميماتي الأولية إذا ما استخدمتها في إنجاز لوحات دون مستواها وقيمتها الفنية! وإذا لم أشأ أن أفسد بالقوة سروري سابقاً بأعمالي الفنية، فقد كان علي إذاً أن أتعمق أكثر لكي أنجز اختراعاتي الخاصة بي التي لم تكن عرضة لأن يُنتقص منها أي شيء.

حين فكرت ملياً في ذلك، تراءى لي أن مشروعي لا يبشر بخير؛ فتركتُ يائساً ورقة الرسم، التي كنت أمسكت بها تواً، تهوي إلى الأرض وعدت فجلست من جديد على حقيبة سفري. تُرى هل هذه هي النهاية التي آلت إليها سنون طويلة من التعلم وآل إليها السعي الى تحقيق آمال كبيرة وكلمات موثوقة! إبعاد الذات عن مجال الفن المثقف واختفاء مخزٍ في الظلام حيث يجعل شياطين تعساء بدونياتهم من الحياة عيشة ضنكة! حتى إنني لم أقدِّر رغبتي الأكيدة في الظهور بعمل فني جدي، إلا أن محنكاً في مجال الاختلاس كان سرق مني النجاح؛ بحثت فقط عن نقطة خطئي لأنني كنت متكبراً أشد التكبر بحيث حال ذلك دون أن أعدّ نفسي تعيساً وعاثر حظ وانتهيت بلا وضوح بتنهيدة بعد تأجيل كنت في السابق جدت به على نفسي وأضعته بلا فائدة، بقدرُ ما تعلق الأمر بالغاية الحتمية التالية.

وأنا على هذه الحال جلست الآن، ورأسي مدفون مرة أخرى بين يدي، متجولاً بأفكاري في جميع الأرجاء هكذا على غير هدى إلى أن وصلتْ إلى موطني وأرسلتْ إلي من هناك الهم الجديد المتمثل في أن أمي استطاعت أن تحس بوضعي وتقلق بشأنه. في ما عدا ذلك كنت أكتب لها بانتظام وبنبرة مرحة وأروي لها كثيراً من العادات والتقاليد التي رأيتها في بلاد الغربة وأضمِّن ذلك بعض الأحدوثات والنوادر لكي أحثها من بعد على الضحك

وأتباهى أيضاً بمرحي. وكانت تجيب عن رسائلي بأخبار مخلصة عن مجرى الأمور في منطقة موطننا وترد على كل مزاح بخبر عن حفل زفاف أو حادث موت، أو عن إخفاق إحدى العائلات في تدبير شؤون بيتها أو عن نجاح مشبوه لعائلة أخرى. كان خالي توفي أيضاً وتبعثر أولاده في ازدحام الدرب المضطرب وجروا وراءهم عربات أطفالهم الصغيرة كاليهود في الصحراء. ولكن منذ بعض الوقت أصبحت رسائلي أكثر ندرة وأكثر اقتضاباً؛ وبدا أن أمي خجلت من أن تسأل عن السبب فشكرت لها ذلك ما دام شيء ذو بال لم يكن في ذهني فأخبرها عنه. ومنذ بضعة شهور انقطعت عن الكتابة وتوقفت هي أيضاً عن ذلك. ولدى جلوسي الآن هكذا في هدوء مطبق طُرق باب الغرفة الخارجية برقة ولطف؛ فدخل طفل محضراً لي رسالة بخط أمي وخاتمها.

لم تشأ أن تتحمل لمدة أطول القلق لا بل الخوف من أن أوضاعي ليست على ما يرام، أي بعيدة كل البعد عما كنت أرغب فيه وآمل، ولذلك طالبت بإيضاح عن ظروفي وفرصي ثم أبدت خشيتها من أنني قد أكون مثقلاً بالديون لأنها لم تعرف شيئاً عن أي دخل دره علي عملي، ولابد أن أكون استهلكت منذ وقت طويل المبلغ الذي كنت جنيته من الميراث الصغير، فإن كنت في ضيق فإن في تصرفها بعض المدخرات مما زاد على حاجتها وهي الآن جاهزة لكي تقدم خدماتها إذا ما أردت أن أفصح عن حاجتي إلى ذلك.

كان الطفل، الذي أحضر لي الرسالة، لا يزال واقفاً في مكانه حين قرأتها بسرعة؛ كنت جعلت منه، لدى رسمي المسيح طفلاً في تلك الربوع المسيحية – الميثولوجية أو الجيولوجية، نموذجاً لكي أطلع من خلاله على أكثر الأوضاع لزوماً؛ وبما أن الصورة انتقلت مصادفة من جراء تفتيشي العشوائي في رسومي إلى مقدمة اللوحات فقد وقف الطفل الصغير أمام تلك الصورة وقال: "هذا هو أنا!" واضعاً إصبعه في أثناء ذلك على ابن السماء. بفضل هذه المصادفة القدرية اللطيفة اكتسب الحدث مسحة فوق طبيعية؛ فحامل البشرى السارة، ذاك الطفل الصغير، ظهر نوعاً ما بوصفه رسول

العناية الإلهية ذاتها، ومع أنني لم أكن ممن يؤمنون بمعجزة أتت على صورة دعابة عطوف إلى أقصى حد من قبل تلك العناية الإلهية فقد أعجبتني المغامرة الصغيرة أيما إعجاب وضاعفت من انتعاشي وسروري برسالة أمي. هنا لابد من القول: إذا ما أمعنا التأمل بدقة في هذا الأمر فلا بد أن الشخص ذاته، الذي كنت أرى من جراء إقحامه في تصميم تلك اللوحة أنني اقترفت سخرية بعيدة الغور، قد أسهم في تزيين شؤوني على الأقل بحكاية رمزية لطيفة ذات مغزى أخلاقي وسمت بها إلى مستوى الربط بعالم المالانهاية.

كل شيء بدا الآن جيداً وكل تحقق ممكناً من جديد بل محتملاً؛ لم أتردد لحظة واحدة في قبول التضحية، وكتبت جوابي بفتور، لكن بصراحة وانشراح صدر. ولم أقصر بذلك في ذكر دراساتي الجامعية المستغرَبة وعدّها تشويشاً مضراً في الوقت الحاضر ولكنها مفيدة على نحو ما في المستقبل؛ وأخيراً رسوت من جديد على رأس الرجاءات والاستبشارات الصالحة.

حين تلقت أمي هذه الرسالة وقرأتها أغلقت باب الحجرة وفتحت طاولة مكتبها القديمة ثم أخرجت من رفوفها إلى النور لأول مرة كنز وفوراتها من النقود، فرتبت وحدات التالر النقدية في لفات وأعدت منها طرداً غير متناسق ثم حزمته مرات متعددة بورق قوي وحزمت الورق بخيطان القنب ودمغته في كل الأمكنة بالشمع الأحمر ثم ضغطت فوق الشمع بالخاتم، كل شيء تم بطريقة لم تكن تجارية قط وبجهد زائد على اللزوم لأن الطرد كان مكيناً بما يكفي قبل فترة طويلة؛ ولكنه كان مكيناً في كل الأحوال. ثم أدخلت الصرة الثقيلة بعد ذلك في محفظة يدوية من حرير التفتة أو كيس نقود من صنع يدوي وعلقته بذراعها وهرولت مسرعة على دروب جانبية في طريقها إلى مكتب البريد؛ لأنها لم ترغب في أن يراها أحد، إذ لم تعدّ نفسها للإجابة إذا ما سألها أحد إلى أين تريد أن ترسل النقود. أخرجت أمي بجهدٍ مضنٍ ويد مرتجفة كتلة النقود من الكيس الحريري الصغير وناولتها عبر النافذة الصغيرة المنزلقة ثم أعطتها من يدها بشعور من الارتياح. موظف البريد نظر إلى

العنوان ثم إلى السيدة وقام باتخاذ ما عليه من إجراءات روتينية معقدة ثم أعطاها وصل الاستلام فانصرفت بعد ذلك دون أن تنظر إلى ما حولها كما لو أنها أخذت من أحد الناس مبلغاً كبيراً من النقود بدلاً من أن تعطيه. كان ذراعها الأيسر، الذي حملت عليه العبء الثقيل، متصلباً ومتعباً؛ وهكذا عادت مرهقة إلى بيتها صامتة عبر ازدحام الناس الذين لا يعطون أبناءهم غولدناً واحداً دون أن يتباهوا بذلك أو يحدثوا ضجة أو يتباكون ويشكون. في الوقت، الذي كان خالي في أثنائه لا يزال على قيد الحياة ويعظ في الكنيسة، سمعته مرة يقول: "يعرف الله حق المعرفة أي الناس متواضعون وهادئون وأيهم ليسوا كذلك وهو يزعج الأخيرين قليلاً من حين لآخر دون أن يعلموا من أين يأتي هذا الإزعاج، إنني أشتبه بأن ذلك يسبب له شيئاً من المتعة!".

في البيت وجدت أمي أن باب طاولة المكتب كان لا يزال مفتوحاً وأن الدروج الصغيرة لا تزال مسحوبة وقد فرغت الآن مما كان فيها؛ فأغلقتها وفتحت مؤقتاً ذلك الدرج الذي وُجدت فيه كمية زهيدة من القطع النقدية في صحن صغير كانت خصصتها لاحتياجاتها اليومية، هنا أعلنت أمي أولاً أن كل خيار زال الآن بين أن يرتع المرء كما يشاء أو التقتير وأن السيدة الطيبة لا تستطيع بعد الآن مع كل حسن النية والإرادة أن تنعم بأيام جيدة. ولكن هذا لم يُلاحظ من قبلها ولم يرد في الحسبان. وسرعان ما أغلقت أيضاً هذا الدرج الصغير وتزودت بلوازم الكتابة وشمع أحمر ثم أغلقت الخزانة وجلست على كرسي الهموم القديم بلا مساند لكي تستريح من عناء أفعالها، منتصبة الجلسة كشجرة صنوبر صغيرة.

هكذا لا أزال أراها الآن مع أنني لم أكن حاضراً بجانبها، بفضل معرفة عاداتها، كعالم الآثار الذي يعيد صورة تمثال محطم إلى ما كانت عليه بفضل وسائل المساعدة والأدلة المتوفرة له.

الفصل الرابع

معجـزة النـاي

الطرد المحتوي على النقود لم يجلبه إلى غرفتي، كما حدث للرسالة من قبل، ابن صاحبة البيت بل ساعي البريد ذاته. صعوده المهم على الدرج، الذي كان انقطع لفترة طويلة، كان نشط الناس في الحال برضاً مؤقت عن ثقتهم الثابتة التي منحونيها سابقاً؛ وتلقوا بعد ذلك بشعور الامتنان ما كان لهم من مبالغ متراكمة نوعاً ما بعد أن كنت حررت ببذل جهد كبير النقود المرسلة إلي من الأجربة والأربطة الكثيرة وتصفحت بسرعة البرق الرسالة الجديدة، التي كانت كتبت بقلق واضطراب دون أن تغفل عن موضوعهما.

الخياط أيضاً، الإسكاف وباقي الدائنين وقعوا على إيصالات استلامهم برضاً متودد وانصرفوا مبدين استعدادهم لمزيد من التعامل على الصعيد المالي. كل هذا كان مدعاة لشعوري بمتعة كبيرة وكأن الفضل في ذلك كان يعود إلي وأنني أنا الذي كسبت تلك النقود المحببة بعرق جبيني. كدت أبدي أسفي لتوقف عملية الدفع ولسرعة فقدان ذلك الشعور الرائع بوفاء الديون؛ ولكن حدة البطر خفت حين سددت أيضاً لبعض أصحابي الخلَّص ما كنت استلفت منهم نقداً فما كان منهم إلا أن وضعوا جانباً ما قبضوا مني وبطريقة نمت عن لا مبالاة تامة. بذلك تأكد لي أنني في نظرهم لم أفعل ما يثير بشكل خاص أي اهتمام أو اكتراث؛ الأمر الذي أدى إلى انكماشي وتحفظي من جديد في رضاي عن ذاتي، لكن مع ذلك شعرت بشيء من الارتياح وعددت مقدرة

أمي على دفع المال إلى حد ما مقدرتي أنا ذاتي ثم رتبت في المساء احتفالاً صغيراً كانت تكاليفه، مع قلتها وتواضعها، كافية لإعالة أمي مدة نصف شهر من الزمن، حتى إنني أسهمت في أثناء ذلك بإيقاع أسرع مما كان حدث منذ بعض الأيام في أداء أغنية تحتقر الهموم وكأنني غدوت متحرراً تماماً من كل رزايا العالم.

ولكن سرعان ما رأيت في صباح اليوم التالي أن نهاية للسلسلة لا تزال موجودة وهي كومة صغيرة من عملة التالر كانت بقيت من خزنتي. لأنني حين حسبت الآن فقط ما فيها وعددته بدقة وفتحت كيس الورق الأخير، الذي سبق أن شُق قليلاً، تماماً على مصراعيه تبين أنه كان علي أن أعيش به لمدة ربع عام. لم أندهش قليلاً كيف أن القلق تسلل بهذه السرعة إلى نفسي من جديد وخيل إلي أخيراً أنه لم يبرح مكانه قط، مثله كمثل زوجة القنفذ التي جلست في الحفرة لدى سباقها مع الأرنب ونادت:" إنني هنا!".

ولكنني لم أتردد في الانطلاق من جديد باتجاه كسب العيش، وبشيء من التروي والتدبر سلكت طريقاً وسطى ذكية بأن بدأت برسم بضعة ربوع طبيعية دون التطلع إلى أسلوب أو خيال غني بالخواطر، ولكن بالمقابل مع مراعاة دقيقة لإثارة الإعجاب، وفي كل الأحوال أقمت عملي على أساس حقيقة أكثر اختياراً للطبيعة فلم أحوِّل قسراً ما نما ذات مرة برقة ورشاقة إلى تجسيد فظ وثقيل الحركة، كذلك لم أحوِّل أيضاً ما شُكل إلى تجسيد عديم الشكل. بهذه الطريقة توهمت أنني قد لا أضيع الفرصة لنجاح أكبر، بينما انزلق ما تطلعت إليه من تحقيق إثارة للإعجاب لدى تنفيذ اللوحة إلى نوع محدد من التواضع البحت غير أن الشكل سرعان ما اكتسب من جديد مظهراً أسلوبياً مشبوهاً عند النظرة الأكثر فظاظة وخشونة. كان هذا بالطبع أمراً بعيداً مرة أخرى عن تحقيق الغاية المرجوة؛ لأن الناس ذاتهم، الذين يعالجون شؤون حياتهم اليومية بكلمات كبيرة وتعابير سامية، هم من يُرجعون الأنف إلى الوراء حينما يتشممون في الفن شيئاً يبدو للعيان كأسلوب أو كشكل.

إلى جانب الحذر، الذي وظفته لمصلحة عملي، شغلتني أيضاً موازنة الوقت المنقضي مع التناقص اليومي لمخزوني من النقود؛ وتخلل ذلك كله على مهل قدر من خوف وأمل كان أظهر لي تلك المدة القصيرة من الوقت مع ظروفها المتواضعة كقطعة من وجود مسالم تم عيشه بأمان وطمأنينة وقسم بالتساوي بتطلعات متواضعة، وبفعالية مخلصة وتوقع مواسٍ للنجاح المجهول. وإذا لم يفتقر وضع كهذا في غضون ذلك إلى الخبز اليومي في حين تعمل الحاجة المقبلة على إبقاء قوى النفس يقظة ومنتعشة، فإن من السهل تحمله مدى الحياة. على أن المرء لا يدرك هذا إلا بعد تحطم الآمال والرغبة في إرجاع الوضع السابق إلى ما كان عليه حين كانت هذه الآمال لا تزال غامضة ومريبة.

حين أنجزت كلتا اللوحتين التوءمين، ولت إلى غير رجعة حياة الرضا والقناعة وكان لا بد لي من الخروج إلى التجارة. وبعد كارثة الانتحال تلك لم أستطع من جديد اتخاذ قرار بائتمان المعرض العلني العام على اللوحتين، وهو ما شكل بالطبع دليلاً على كوني لا أزال في طور البداية وأنني غير ذي خبرة في هذا المجال؛ لأن موهبة كاملة يمكن أن ترتضي بسهولة بشيء من هذا القبيل ولا يهمها كيف يتنازع أناس الظل حول ملكية أفكار وابتكارات.

ذهبت إلى تاجر لوحات مرموق، كان يهيمن على عمليات البيع بالمزاد العلني ويشتري تركات كاملة لبعض الفنانين وكذلك لوحات جديدة تماماً إذا ما حظيت هذه بإعجاب حنكته وخبرته أو أثارت عدا ذلك شهية ربحه عن طريق ميزة سرية معينة. في أحد البيوت الجميلة كان الطابق الأرضي مليئاً بأعمال من عرفوا باسم الفنانين القدماء وبلوحات أكثر حداثة أيضاً وخلف النوافذ كان بعضها يرى دائماً، ولكن لم يكن ثمة شيء أبداً إلا وجد له الرجل اسماً خاصاً به. وسواء أكان ذلك مني تصنعاً أم خجلاً، رأيتني أذهب إلى المعرض من دون لوحتيَّ لكي أقدمهما إلى تاجر اللوحات على نية أن أسأل عما إذا كان مسموحاً لي باحضارهما إلى صالات العرض أو علي أن أتوقع زيارة منه

بقصد المعاينة. غير أن دخولي إلى ذلك المعرض التجاري ظل أمراً لم يؤبه له ما دام صاحب المعرض كان يقف بتراصّ مع مجموعة صغيرة من السادة وذوي الخبرة في معرفة اللوحات الفنية أمام برواز صغير لكي يتأملوا محتواه وقد قربوا رؤوسهم بعضها من بعض وأخذوا يتهامسون وينظرون إلى اللوحة بعدسات مكبرة، في حين عرض الرجل آراءه ونظرياته حول التحفة الفنية النادرة. وفجأة قاد المجموعة، وهو يحمل العدسة المكبرة في يده، إلى غرفة مجاورة لكي يجري أمام لوحة أخرى مشابهة دراسات مقارنة؛ وبقيت أنا هنيهة وحيداً في المكان. أخيراً عاد السادة متباعدين بعضهم عن بعض لكن منهمكين في حديث مشترك حامٍ بدا فيه أنهم اتفقوا على حقيقة شافية عظيمة وصاغوا هذه الحقيقة، وهنا لم يتعلق الأمر على ما كان يبدو بصفقة تجارية بقدر ما تعلق بواحد من تلك الاجتماعات الخاصة بعشاق الفن اعتاد من خلاله هواة لوحات كهؤلاء أن يضفوا على مقامرتهم مسحة علمية. في غضون ذلك لاحظ مشتري الأعمال الفنية وجودي في ذلك المكان وسألني عما أريد.

أفصحت له بشيء من الذهول عن رغبتي، مع شعوري بأنني كنت أطلب شيئاً لا يدين لي أحد من الناس بمنحه؛ ولم أكد أفعل ذلك حتى قال الرجل، باختصار وجفاف وحتى دون أن يسأل من أكون، إنه لن يشتري ما عرضت عليه ثم أدار لي ظهره وانصرف.

بذلك قضي أمري؛ ولم يكن ثمة ما يسوّغ بقائي هناك حتى لو لدقيقة واحدة فقط وبعد ربع ساعة كنت في مسكني من جديد بجانب اللوحتين الصغيرتين.

لم أفعل شيئاً آخر في هذا اليوم، إذ كان يعتريني شعور معتكر من الغضب والقلق. ولم أستطع إقناع نفسي بأن سلوك تاجر اللوحات ليس إلا سلوك معظم الناس، الذين يصدون عن أنفسهم كل ما لا يرغبون فيه أو لا يبحثون عنه بفضل سياج الجواب الرافض والباقي على الزمن ويجعلون الأمور متوقفة على ما قد يصب في كل الأحوال في مصلحة منفعتهم الشخصية.

في اليوم التالي سعيت من جديد في مناكبها فاتخذت طريقي باتجاه أمكنة البيع، ولكنني أخذت معي هذه المرة من باب التصرف بشيء من الذكاء اللوحتين الملفوفتين بقطع من القماش لكي تحظيا بشيء من التقدير على الأقل. ذهبت إلى تاجر لوحات من مستوى أدنى ومبالغ الحركة التجارية لديه أقل بما لا يستهان به من التاجر السابق، ومع أن هذا كان يجيد أكثر من ذاك التعاطي مع المعروضات حتى إنه كان ينظفها بنفسه ويرممها ويورنشها من جديد. قابلته في متجر معتم في وسط أوانيه وزجاجياته وكان منهمكاً لساعته في ترقيع ثقوب لوحة على قطعة قديمة من قماش الكتان. استمع إلي باهتمام ووضع هو ذاته لوحتيَّ المجسدتين للربوع الطبيعية في ضوء ملائم قدر الإمكان وبعد أن مسح يديه بمئزره أرجع إلى الوراء قليلاً قبعته الصغيرة من على مقدمة رأسه المصابة بالصلع وأسند يديه إلى أردافه وقال على الفور دون أن يفكر طويلاً: "هذه الأشياء ليست رديئة، ولكنها منقولة عن نقوش نحاسية قديمة لا بل جيدة!".

بشيء من الدهشة والامتعاض رددت عليه: "لا، هذه الأشجار كلها قمت برسمها أنا ذاتي نقلاً عن الطبيعة وعلى الأغلب إنها لا تزال واقفة في مكانها حتى الآن، وما تبقى أيضاً يكاد يكون كله موجوداً في الطبيعة تماماً كما هو في اللوحة مع فارق أنه أكثر تباعداً بعضه عن بعض فقط!".

قال وهو يغادر المكان الذي كان يتمعن في لوحاتي انطلاقاً منه ويعيد قبعته الصغيرة من جديد إلى وضعها السابق: "لا يجوز اختيار مواضيع منقولة عن الطبيعة إذا ما بدت كما لو أنها منقولة عن نقوش نحاسية قديمة! على المرء أن يعيش مع عصره ويتقدم إلى الأمام!".

هنا ثبت لي أن مسألة الأسلوب بأسرها هي من الوجهة العملية من الصغر بقدر محتوى جوزة. حزمتُ لوحتيَّ وألقيت في أثناء مغادرتي المكان نظرة حزينة على تجميع من المصادفات الفظة والمزابل المرسومة، التي

غطت الجدران بوصفها أعمالاً فنية مواكبة للعصر، أو الأصح أنها في حقيقة الأمر تدل على المستقبل لأنها أعمال من صنع شياطين تعساء كان من أمرهم أن أنجزوا بلا أي مهارة بفرشاة رخيصة ما ظهر إلى النور منذ ذلك الحين مدعياً لنفسه الحق في الحضور على الساحة الفنية. وقفت في الزقاق مغموراً طبعاً بكل بؤس الدنيا وشقائها، ولكنني مع ذلك أدرت ظهري لمتجر اللوحات ثم تابعت سيري باعتزاز كرجل إسباني من طبقة النبلاء الدنيا كان ألم به الفقر. وبما أنني كنت متردداً في ما إذا كان من الأفضل أن أعود إلى مقر سكني، فقد ضللت طريقي وعبرت عدة شوارع باتجاه مغاير إلى أن توقفت فجأة أمام حانوت كان يملكه خياط يهودي وكان هذا الخياط يتاجر في الوقت ذاته بملابس جديدة ولوحات حديثة. بعض الفنانين كانوا يعتمدون عليه في تأمين ملابسهم، الأمر الذي اضطره من حين لآخر إلى أن يستعيض عن قبض المال منهم لقاء ذلك بأخذ لوحات من صنعهم أو رهنها وربما كان ذلك هو السبب في أنه أصبح مع مرور الأيام مالكاً صغيراً لمعرض فني، وجنى أكثر من مغنم حين كان إما أن يحصل على لوحات فنانين شباب ضاقت بهم سبل العيش ولكنهم نالوا فيما بعد شهرة وجاهاً، أو حين كان يضبط على حين غرة لوحات قيمة من صنع فنانين آخرين من ناقصي الخبرة والدراية. ومن أمام ذلك الجزء من حانوته، الذي وضعت فيه اللوحات الفنية، نظرت للحظة عبر النافذة؛ وبما أن المكان أوحى على الأقل بالترتيب والنظافة والعناية فقد أغراني ذلك بالدخول إليه وعرض لوحاتي مرة أخرى للبيع. أبدى التاجر استعداداً لرؤية الأشياء التي بحوزتي وتأملها بفضول نهم ثم استفسر مني عن كل كيف وماذا وأين وسألني أخيراً عما إذا كنت أنا الذي صنعها فعلاً وعما إذا كانت مرسومة رسماً جيداً؟ على أن الأمر لم يكن بدائياً كما بدا؛ لأن الرجل نظر إلي في أثناء ذلك بتمعن وتفحص لكي يقرأ من ملامح وجهي درجة ثقتي تحديداً وما إذا كانت مشروعة أو باطلة، كما فعل بزبون آخر حمل إليه خاتماً ذهبياً فسأله بادئ الأمر عما إذا كان الخاتم مصنوعاً من ذهب

أصلي؛ في هذه الحال عرف التاجر الذهب مسبقاً ولكنه أراد من سؤاله أن يعرف مع أي نوع من الناس كان يتعامل؛ بالمقابل عرف في حالي أنا كيف يقوّم الإنسان ولكنه أراد أن يعرف عبر سلوك هذا الإنسان كيفية التعاطي مع السلعة المعروضة للبيع. حين أجبته بعد ترددٍ بأنني رسمت اللوحتين بقدر ما استطعت من الجودة والإتقان مع أنه لا يليق بي مديحهما؛ وهما ليستا على قدر كبير من الروعة والأبهة وإلا لما كنت جئت بهما إلى هنا؛ وفي كل الأحوال تستحقان السعر المتواضع الذي أطلبه، وحين قلت له كل ذلك ظهر عليه شيء من الرضا والارتياح وغدا لطيفاً وأنيساً بأن أخذ في أثناء ذلك يعاين اللوحتين من حين لآخر متردداً وراضياً في آنٍ واحد. بدأت أغرف أملاً كبيراً في أن شيئاً ما لابد أن يحدث الآن؛ ولكن لم يتم أي شيء آخر سوى عرضه الفجائي بأن يتولى هو أمرهما لقاء عمولة فيعرضهما للبيع في دكانه بالسعر المربح والمناسب. هنا حط الأمر رحاله أيضاً؛ لأن الرجل لم يُظهر أي استعداد للتفاهم على شيء آخر، واقتراحه لم يكن غير مقبول ولكن تصرفه كان إنساني النزعة لأنه ترك عندي أملاً واستطعت عندئذ أن أقصد منزلي بارتياح أكبر مما لو وجب علي من جديد أن أحمل اللوحتين إلى هناك.

هكذا بقي عالم كسب العيش عندي كأنه مغلق بجدار لم أجد فيه أي باب ولا حتى وكر قد يمكن ولو لقطة أن تزحف عبره. من المؤكد أنني لم أُضع طبعاً في الثلاث روحات في البحث عن كسب العيش مئة كلمة؛ ولكن حتى ولو كانت مئة وواحدة فهي لن تجدي نفعاً؛ لو أن صديقي إيريكسون مازال هنا، لكان باع لوحاتي بكلمات قليلة وذلك بأن يذهب إلى معارض البيع ويقول: "ماذا يخطر ببالكم؟ لا بد أن تشتروها!" أو لو بقي هنا فرديناند لويس، لعمل على أن تحتل أعمالي مكانها المناسب في صالات العرض ولاستخدم نفوذه بصفته رجلاً غنياً في حث رجل غني آخر على شرائها ولكنت اهتديت كمئة آخرين إلى طريق عريضة إلى حد مقبول وبقيت أيضاً على هذه الطريق. ولكن صديقيَّ كانا أدارا ظهريهما للفن وعاشا، حيث لا أعلم، كميتين

بدا أنهما يلوحان بأيديهما من بعيد للباقي على قيد الحياة من بعدهم: أدر ظهرك أنت أيضاً أيها الموجود هناك!

في من عداهما لم يكن لي في أوساط الفنانين أصحاب جيدون آخرون، لأنني كنت أختلط حصراً تقريباً بطلاب وفقهاء في طور الصيرورة وأشاطرهم بوصفي مستمعاً أنيساً أنماط حديثهم وحياتهم. وبالمستوى نفسه فقدت أولاً المظهر الخارجي ثم إلى حد ما أيضاً التصرف الباطني لتلميذ في الفن. وفي حين ربطني الاختيار والواجب بالعمل البدني فإن الروح تعودت الحياة في حركتها الخاصة بها؛ فالإخراج البطيء الذي لم يعد مفعماً بالأمل لفكرة وحيدة عن طريق اليدين بدا عناء لا فائدة منه حين يمر في الوقت ذاته ألف تصور على أجنحة الكلمة غير المرئية. هذا الإحساس الخاطئ تسلل إلي على حين غفلة خصوصاً أن مساهمتي في الأمور العلمية اقتصرت على الاستماع والقراءة ومن ثم على مجرد التلقي والاستمتاع، وأنني لم أعرف العمل في مجال الإنتاج العلمي اعتماداً على خبرتي الشخصية. وهكذا درت حول نفسي على غير هدى كظل يكتسب بواسطة مصدرين مختلفين للضوء ملامح مزدوجة ونواة متموجة.

بهذه المواصفات انتقلت الآن مرة أخرى إلى وضع الحرية المسلوبة من جراء اقتراض النقود حين أنفقت بالفعل آخر تالر كان في حوزتي. كانت البداية، بصفتها تكراراً مقيتاً، أصعب وقعاً على نفسي في هذه المرة، ولكن الاستمرار تم من تلقاء ذاته كما في حلم مزعج إلى أن حان الوقت من جديد وتلت الصحوة مع ضرورة السداد واستمرار العيش.

الآن فقط عقدت العزم على اللجوء مرة أخرى إلى أمي، ما دام ما يميز الجنس البشري هو أن يرجع الفتيان، إذا ما تسنى لهم الأمر دائماً، إلى الكبار. إن الفتيان، الذين هم على وعي بصفاء النوايا وحسنها، يدلون بثقتهم بالعالم عموماً على مستقبلهم الطويل ناسين بالطبع أنهم يعايشونه بلا مبالاة لا بل على الأرجح وحدهم ولا بد لهم أخيراً من أن يذوقوا إلى الوراء وإلى الأمام

مرارة المقولة الشعبية القائلة بأن أماً قد تعيل سبعة أطفال أكثر مما يعيل سبعة أطفال أمهم.

الوفورات الجديدة، التي لا شك في أن أمي جمعتها، لن تصل إلى المبلغ الذي أنا الآن بحاجة إليه؛ ولذلك أردت أن أعالج الأمر من جذوره فاقترحت عليها في إحدى رسائلي، التي أظهرت فيها ارتياحاً أكثر مما كنت أحس به، طلب قرض على بيتنا. وسوّغت ذلك بأنه سيكون أمراً هادئاً وغير محرج وسيتم تسديده بهدوء أيضاً بعد إيجاد بداية كسب محظوظة بفضل جدي واجتهادي، وعلى أكثر تقدير سيترتب عليه بعض الفوائد. هنا جزعت أمي بشدة من هذه الرسالة واستعاضت عن الرد عليها بالتعبير عن أنها تنتظر مجيئي في كل يوم باشتياق ولهفة ولو لم أعد موفور الحظ بل يكفي أن أكون مرتاح البال. وفي رأيها أن كل شيء عاد فانزاح إلى غياهب المجهول. في هذه المرة كانت وفوراتها قليلة لأنها تكبدت خسائر جسيمة في مجال علاقتنا مع مستأجري مختلف المنازل من بيتنا. فالمستأجر الطيب، مراقب المقاييس والأوزان، مات بسبب إسرافه في تجريب المشروبات بحكم مهنته تاركاً وراءه عبئاً ثقيلاً من الديون، والموظف المتذمر باستمرار كان أفرغ في أثناء نوبة غضب من إهمال مستمر خزنة صغيرة للرسوم الإدارية وسافر إلى أمريكا بحثاً عن رؤساء له في العمل، أكثر عدالة. ثم تخلى علاوة على ذلك عن أمي وأبقى لها في ذمته أجرة عام كامل بحيث امتزج نحسي بطريقة مخيفة بهاتين المصيبتين. أضف إلى ذلك تلك الوحشة التي نجمت عن موت بعض المقربين؛ فبعد خالي توفي والد آنّا، المعلم، كما توفي أيضاً هذا الصديق القديم الحميم أو ذاك وآخرون أيضاً كانوا غادروا هذا العالم كما يحدث من حين لآخر حين يبلغ الإنسان من الكبر عتياً أن يتوفى كثيرون دفعة واحدة إذا ما حان الوقت المحدد لهم لهذه الغاية. صحيح أن أمي لم تكن لتسأل كل هؤلاء الموتى ما العمل؛ ولكن العزلة التي كانت تعيش فيها زادت من خوفها، ولكي تتحرك فحسب من جديد وتحس بالحيوية فقد تجاوبت مع

رغبتي. فقصدت تاجراً كان من أمره أن أمَّن لها المبلغ المطلوب مع كل الظروف والأشكال الممكنة في حين كان عليها أن تقف هكذا ثابتة في مكانها بصفتها مقدمة طلب خجولاً. ثم حصلت بفضل ما قدم لها من نصائح وبرواح وغدو مضنيين على حوالة تجارية سرها أخيراً إرسالها إلي أيما سرور. وفي رسالتها إلي اقتصرت على وصف هذه الجهود بدلاً من استرسالها في التحذيرات والشكاوى.

حين كنت كتبت رسالتي إليها خفضت في اللحظة الأخيرة وخشية أن أطلب من المال أكثر مما يجوز، المبلغ الوارد في الحسبان إلى النصف وفكرت بأن ذلك سوف يفي هكذا بالغرض. لذلك كان مبلغ الكمبيالة المرسلة إلي يكاد يكون كافياً لسداد الديون المتراكمة، وكذلك على هذا النحو كنت مضطراً إذا ما أردت الاحتفاظ بمبلغ ما لمهلة قصيرة فقط أن أطلب تأجيل سداد ما سبق أن أُعير بلطف ومودة هنا أو هناك، اللهم إذا لم تلح الحاجة إلى سداده. وكنت ألاحظ من الاستجابة المترددة أن الطلب جاء غير متوقع ولذلك اضطرني الخجل إلى سحبه. واحد فقط من الدائنين، حين لاحظ احمرار وجهي خجلاً وحرجاً، رفض قبول المبلغ على الرغم من أنه كان يريد السفر في أقرب الآجال، وقال إنه ينبغي علي أن أرد له النقود حين أكون أكثر يسراً فهو يمكنه الآن الاستغناء عن المبلغ وسوف يتصل بي من حين لآخر لهذه الغاية.

بفضل هذا التساهل رأيت طوال فترة أسابيع متعددة أنني لا أزال مستقر البال، ولكن الحدث بمجمله كان أيقظ في نفسي تأملاً أكثر جدية حول وضعي وحول ذاتي باتجاه أعماق نفسي. وفجأة اشتريت بعض الدفاتر المحتوية على ورق للكتابة وبدأت، لكي أوضح لنفسي صيرورتي وماهيتي، بعرض لحياتي وخبرتي حتى الآن، ولكنني ما كدت أبدأ جدياً بالعمل حتى نسيت تماماً مطمحي العسير واستسلمت للذكرى المتأملة البحتة عما كان أيقظ في نفسي فيما مضى الرغبة في الإقبال على الحياة أو العزوف عنها؛ وزال كل قلق الحاضر في حين كنت أكتب من الصباح حتى المساء ويوماً بعد يوم لكن ليس

كمدون لحالات الهم والقلق بل كواحد يجلس في أثناء أسابيع ربيعية جميلة في صالة حديقته، في يده اليمنى كأس من نبيذ ريفي معتق وفي اليسرى طاقة غضة من زهور الحقول. كان اعتراني في الغسق الباهت، الذي أحاط بي لوقت طويل، شعور بأنني لم أعش في حقيقة الأمر مرحلة الشباب؛ والآن دبت في الخفاء حركة لحياة فتية كان من شأنها، على الرغم من كل تواضع الأوضاع والظروف، أن أسرتني وشغلتني وغمرتني مرة بأحاسيس السعادة وأخرى بأحاسيس الندم.

وهكذا وصلت بتفكيري إلى اللحظة، التي وقفت فيها في الحقل بصفتي جندياً مستجداً ورأيت حينئذ يوديت الجميلة وهي تهاجر من البلاد وذلك دون أن يسمح لي بالإتيان بأي حركة. هنا نحيت الريشة جانباً لأن ما عايشته منذ ذلك الحين كان لا يزال حاضراً. أخذت الصفحات الكثيرة المكتوبة دونما إبطاء إلى مجلد كتب لكي أجعلها بتجليدها بقماش من الكتان الأخضر ترتدي لوني الشخصي وألقي بالكتاب بعد تجليده في صندوق كتبي. وبعد بضعة أيام ذهبت قبل الطعام من أجل جلب الكتاب. كان صاحب الحرفة أخطأ فهمي فجلَّد الكتاب بنعومة وتزيين لم يسبق أن خطرا لي على بال. وبدلاً من قماش الكتان استخدم الحرير وطلى القطع بماء الذهب وزود الكتاب بأحزمة معدنية للإغلاق. كنت أحمل معي كل ما بقي بحوزتي من النقود؛ وكان وارداً في الحسبان أن تكفي لإعالتي أياماً متعددة ولكن وجب علي الآن أن أتخلى عن القرش الأخير لكي أدفع لمجلد الكتب أجره، الأمر الذي قمت به من دون مزيد من التفكير وبدلاً من أن أذهب لتناول طعام الغداء توجهت إلى البيت حاملاً في يدي أقل عمل في هذه الدنيا جدوى وفائدة. ولأول مرة في حياتي رأيتني أُحرم من الجلوس إلى المائدة وأشعر بأن زمن الاقتراض والدفع قد ولى إلى غير رجعة. كان وارداً بالطبع أن تقع هذه الحادثة في غضون بضعة أيام؛ ومع ذلك أدهشني وقوعها الآن بقوة هادئة جداً، لكن قاسية لا ترحم. قضيت النصف الثاني من ذلك اليوم في غرفتي واستلقيت مساء في سريري

بلا طعام وفي وقت أبكر من المعتاد. وهناك تذكرت فجأة الخطب الحكيمة التي كانت أمي تلقيها في أثناء تناولنا الطعام حين كنت وأنا غلام صغير أعيب طعامنا فكانت تلومني قائلة إنني ربما سأكون في يوم من الأيام مسروراً من جراء حصولي على هذا الطعام. الإحساس التالي كان شعوراً بالاحترام تجاه المنطقية المنتظمة للأشياء وكيف يتوارد كل شيء على مستوى رفيع من الجمال، وفي واقع الأمر ليس ثمة شيء ملائم لأن يعي المرء جذرياً مجرى أحداث العالم بقدر ما إذا جاع بسبب أنه لم يأكل شيئاً أو ليس عنده شيء يأكله لأنه لا يملك شيئاً لأنه لم يكسب شيئاً للعيش. وفقاً لهذا الاستدلال البسيط والوديع تصطف من تلقاء ذاتها كل التعاقبات والدراسات التالية؛ وبما أنني كنت حينئذ أعيش في فراغ مطبق ولم تثقلني أي تغذية دنيوية، فقد تأملت من جديد حياتي على الرغم من الكتاب المجلد بالحرير الأخضر الذي كان ملقى على الطاولة وتذكرت ذنوبي التي بدت، ما دام الجوع حرك إشفاقي مباشرة على نفسي، خفيفة نوعاً ما.

في جو هذه التصورات والأفكار رأيتني أستسلم بهدوء للنوم، ثم استيقظت في الموعد المعتاد، دون أن أعرف ماذا سأتناول من الطعام في ذلك اليوم أيضاً لأول مرة. كنت ألغيت منذ بعض الوقت طعام الفطور لأنني رأيت أنه زائد على اللزوم؛ والآن كان يسرني لو تمكنت من الحصول عليه، إلا أنه لم يكن من الجائز أن يعرف أهل مسكني أنني كنت أتضور جوعاً كما اتضح لي أيضاً أن أول مقتضيات وضعي الجديد هي التزام أشد الكتمان. ولأنني عشت بصفتي بقية من مجموعات شباب مبعدة فلم يكن عندي في تلك اللحظة صديق واحد موضع ثقة يمكن أن أفضي إليه بحقيقة واقعية عجيبة إلى هذا الحد. لأن من يعجز في يوم من الأيام، دون أن يكون متسولاً، وهو في وسط المجتمع عن تأمين طعام يومه فعلاً فإنه يلفت الانتباه مثل كلب ربطت بذيله ملعقة الحساء. لذلك بدلاً من أن أختبئ بهدوء وراء غاباتي المرسومة، كنت مضطراً إلى الخروج من البيت في فترة الغداء. في الشوارع انتشرت أشعة

الشمس الربيعية في أقصى درجات ضيائها؛ كل شيء كان يسرع مبتهجاً في جو من فوضى عارمة، وكل واحد إلى مكان مائدته. اخترقت الجموع بكل رزانة وصبر دون أن ألفت انتباه أحد ولاحظت في أثناء ذلك أن الرغبة لم تتجسد أولاً بأول نحو وجبة جيدة من الطعام بقدر ما انصبت على واحدة من الخبزات الطازجة والضاربة إلى السمرة مما رأيت في واجهات المخابز؛ بهذه السرعة توجهت رغبة الحاجة إلى أبسط مادة غذائية وأعمّها ممجدة بذلك تلك الكلمة المغرقة في القدم عن الخبز اليومي.

ولكن وجب الآن من جديد ألا تلزق العين المشتهية بتلك الخبزات المعروضة ولا حتى لثانية واحدة لكي تبقى هيمنة إنسان العقل محافظة على حالها، وهكذا مشيت أيضاً، بدلاً من التسكع بتردد وحيرة، بخطوة سريعة إلى معرض لوحات عام لكي أمضي الوقت كما ينبغي في تأمل أعمال الفنانين الكبار، الذين كانوا عايشوا أثناء مسيرة حياتهم أيضاً متاعب شتى. أفلحت لبضع ساعات في ترويض قوى الطبيعة ونسيان النزاع المترجّح بينها وبيني. وحين أغلقت صالات العرض أبوابها خرجت فوراً من المدينة وخيمت على ضفاف النهر في غابة ذات أشجار غضة الأوراق حيث بقيت مختفياً في هدوء نوعاً ما إلى أن خيم الظلام. وكوني تعودت إلى حد ما منذ يومين طويلين وضعاً رهيباً، فقد تسلل إلى نفسي صبر حزين كان الوضع ذاته بدا له محتملاً أيضاً، اللهم إلا إذا ازداد الحال سوءاً. كنت أسمع كيف توقفت شيئاً فشيئاً كل العصافير عن التغريد وحل هدوء الليل في عالم المخلوقات بينما كان ضجيج المدينة المرحة يئزّ باتجاه هذا الجانب. ولكن حين تعالى فجأة بالقرب مني زعيق أحد الطيور الذي تعرض للخنق من قبل نمس أو ابن عرس، استجمعت قواي ثم نهضت واقفاً وذهبت إلى البيت.

وهكذا مضى اليوم الثالث مع فارق أنني أصبحت الآن متعباً في كل أعضاء جسمي وصرت أتسكع بوتيرة أبطأ هكذا على غير هدى وأعايش بصورة ملحوظة تدهوراً واضمحلالاً في أفكاري المشتتة. وثمة فضول شبه لا

مبالٍ، كما ينبغي في حقيقة الأمر أن يغدو الوضع، احتفظ بالغلبة إلى أن تجدد الجوع في فترة الظهيرة المتأخرة، حين كنت أجلس في حديقة عامة بعيداً نوعاً ما عن البيت، بحدة وألم إلى حد كان اعتراني معه الشعور تماماً كأنني في صحراء خاوية من البشر انقض علي نمر أو أسد. نوع من خطر الموت كان الآن بادياً للعيان؛ ولكن هذا الخطر لم يتغلب تحديداً في أقصى حالات الشدة هذه على نيتي المعززة من جديد في ألا ألتمس المساعدة من أحد. مشيت بانتظام قدر المستطاع إلى مسكني واستلقيت هناك في سريري للمرة الثالثة بلا طعام؛ لحسن الحظ مع تصور أن هذه الحال ليست مغامرة مختلفة عن حال لو أنني فرضاً ضللت طريقي في أدغال الجبال ولا أكثر عيباً منها فكان لا بد لي إذاً من قضاء ثلاثة أيام من دون غذاء. ومن دون هذا العزاء كنت قضيت ليلة جد سيئة، بينما اعترتني على الأقل عند الصباح حال شبيهة بالنوم لم أصحُ منها إلا حين وقفت الشمس في قبة السماء. بالطبع شعرت الآن بالضعف والتوعك ولم أعرف ما العمل.

الآن فحسب غدوت ممتعضاً بحق وغاصاً بالبكاء وتذكرت أمي، غير مختلف كثيراً عن طفل ضل طريقه فضاع. لكن حين تذكرت هذه الأم التي منحتني حياتي خطر ببالي من جديد أيضاً حامي حماها الأعلى ومزودها الأكبر بالقوت والغذاء، أي الله، الذي صحيح أنه كان حاضراً دائماً عندي، لكن لا بوصفه مدبراً لأموري الصغيرة. وبما أن الصلاة من غير موضوع لم تكن آنذاك قد أُحدثت بعد في المسيحية، فقد كنت أقلعت منذ زمن طويل في خضم الحياة المستوي عن كل هذا النوع من التوسلات والتضرعات، وكان آخرها، على ما أذكر، ذلك التضرع الذي أتى بعده مباشرة ذلك الرجل الغبي، رُومر.

ولكن في لحظة الشدة هذه تجمعت أشباح حياتي البشعة وعقدت اجتماعاً للتشاور فيما بينها مثل مواطني مدينة محاصرة وقائدهم طريح الفراش، فقرروا العودة إلى تدبير فوق العادة، ولكنه متقادم، واللجوء مباشرة إلى العناية الإلهية. أصغيت بعناية إلى أشباحي ولم أقدم على أي تشويش أو

إزعاج، وعلى هذا النحو رأيت في قاع نفسي المدغش شيئاً شبيهاً بصلاة هو في طور التكون هناك ولم أستطع إدراك ما إذا كان هذا الشيء يريد أن يصبح سرطاناً صغيراً أو ضفدعاً صغيرة. قلت في نفسي: دعهم يجربون ذلك وأمري إلى الله، لن تعود محاولاتهم بالضرر في كل الأحوال وهي لم تنطوِ في يوم الأيام على شر أو أذى! وهكذا أطلقت العنان دون أي إعاقة لتنهيداتي المتكونة تواً كي تصل إلى السماء مع عجزي عن تذكر شكلها بصورة أدق.

أبقيت عينيَّ مغمضتين لبضع دقائق، وقلت في نفسي وقد تماسكت: "لابد لك من أن تنهض واقفاً!" وحين وجهت نظري الآن هكذا على غير هدى وكيفما اتفق، رأيت لمعاناً صغيراً يومض باتجاهي من إحدى زوايا الغرفة كأنه صادر عن خاتم إصبع ذهبي، في مقربة من أرض حجرتي. كان ذلك لمعاناً نادراً ولطيفاً تماماً، ما دام لم يكن في الغرفة عدا ذلك أي ضوء من هذا النوع. وهكذا نهضت واقفاً لكي أنظر في أمر ذلك الظهور فوجدت أن اللمعان آت من الغطاء المعدني لإحدى فتحات الناي التي كنت أملكها آنذاك وكانت مسندة إلى الحائط في تلك الزاوية كعصا تجوال منسية ولم تستخدم منذ شهور. كان شعاع شمس وحيد اصطدم بقطعة المعدن الصغيرة عبر الشق الضيق، الذي ترك مفتوحاً بين الستائر المغلقة أمام النافذة؛ لكن من أين أتى ما دامت النافذة كانت مطلة على جهة الغرب ولم يكن ثمة شمس ساطعة هناك في ذلك الوقت؟ تبين أن الشعاع انعكس من رأسٍ ذهبي لمانعة صواعق كان يتلألأ في الشمس على سطح بيت بعيد نسبياً ثم وجد على هذا النحو طريقه إلى الناي نفسه عبر شق الستارة. حينئذ رفعت الآلة الموسيقية إلى الأعلى وأخذت أتأملها، وقلت في نفسي: "لم تعد بحاجة إلى هذه الناي فإذا ما بعتها، فإنك تستطيع أن تأكل الآن من جديد". هذا الكشف التصوفي أتى وكأنه من السماء، مثل شعاع الشمس. ارتديت ملابسي وشربت كأساً كبيرة من الماء التي لم أكن أعاني قلة فيها ثم بدأت في فك الناي وتنظيف قطعها من الغبار بدقة وعناية. وأمعنت في حفها بعد ذلك ببقية قليلة من الورنيش وخرقة من

الصوف ثم دهنتها أيضاً من الداخل بزيت أبيض مصنوع من نبات الخشخاش نظراً إلى عدم وجود زيت اللوز الذي يستخدم عادة في مثل هذه الحال لكي تصدر الآلة نغمة أيضاً حين تُجرب مثلاً. وبعد ذلك بحثت عن علبة الناي القديمة الصغيرة بين المتناثرات ووضعت فيها الآلة الموسيقية بطريقة احتفالية كأن أكثر القوى روعة وسحراً كانت تكمن فيها، والآن انصرفت دونما تباطؤ أو تلكؤ وبقدر ما حملتني ساقاي الهزيلتان من السرعة لكي أبحث عمن يشتري صديقة الشباب القديمة.

وسرعان ما طالعني في زقاق جانبي دكان صغير معتم لبائع سلع قديمة، وخلف واجهته رأيت آلة كلارينيت واقفة إلى جانب أوان بورسلانية قديمة بعض الشيء؛ في الواجهة الأخرى علقت بضع رسوم نقوش على النحاس مصفرة اللون، في إطار صغير صورة منمنمة باهتة اللون لشخصية عسكرية في زي رسمي عفا عليه الزمن وساعة جيب مرسوم على مينائها مشهد من حياة الرعيان. هنا دخلت إلى الدكان ووجدت في وسط سلعه القديمة رجلاً صغيراً غريباً ومسناً بعض الشيء، قصير القامة وبديناً، متنكراً في ثوب منزلي طويل ومتحزماً علاوة على ذلك بمئزر نسائي أبيض. وعلى رأسه شبه المستديرة كان يرتدي قبعة عجيبة ذات واقية ومصنوعة على شكل قوقعة الحلزون. ولدى دخولي إلى الدكان كان هذا الشخص ينحني فوق موقد صغير للطبخ ويحرك شيئاً في حلة على الموقد. عند ذلك نظر إلي إلى الأعلى وسألني بشيء من التودد عما أريد فأجبته بصوت منخفض بأن عندي ناياً للبيع. ففتح بفضول العلبة الصغيرة، ولكنه سرعان ما أعادها إلي وقال: "اجمع هذه الأشياء بعضها مع بعض، إذ لا أعرف ماذا تكون إذا ما بقيت على حالها هذه!" وحين جمعت المكونات الثلاثة بالصورة المناسبة والمطلوبة، تناول الرجل الآلة الموسيقية وتمعن في معاينتها من جميع الجوانب ورأى علاوة على ذلك إن كانت معوجة أو ملتوية.

سألني: "لماذا تريد إذاً أن تبيعها؟" فقلت له لأنني لم أعد أريدها. فسأل من جديد: "لكن هل تصدر نغمة أيضاً، هذه الناي؟ هناك عندي كلارينيت منذ وقت طويل وهي تقبع في مكانها، لا تصدر أي صوت وقد غشني بها أحد الناس. اعزف قليلاً على نايك!"

عزفت سلَّماً من النغمات، إلا أنه أراد أن يسمع قطعة موسيقية كاملة؛ وهكذا بدأت بنفس ضعيف، مع انعدام أي مزاج عندي لتعاطي الموسيقى، بأداء لحن من أوبرا "فرايشُتس":

حتى ولو أن السحابة تحجبها،

فإن الشمس تبقى في قبة السماء.

هناك تهيمن إرادة مقدسة،

لأن العالم لا يخدم مصادفة عمياء.

كانت تلك أول قطعة موسيقية كنت تعلمتها ذات مرة قبل أعوام ولذلك فقد خطرت ببالي الآن قبل أي قطعة غيرها. لا بسبب الضعف فقط بل بسبب شعور حزين على وضعي وتذكر تلك الأوقات المتحررة من الهموم كذلك أتى أدائي متهدجاً قليلاً أو مرتجفاً ولم أصل إلا إلى الإيقاع العاشر أو الثاني عشر. ولكن الرجل الصغير طلب مني أن أستمر في الأداء فتابعت العزف على الناي بإذلال يثير الشفقة خشية أن تخفق صفقة البيع، وفي غضون ذلك لم يحول تاجر السلع القديمة أي عين عني. فأدرت وجهي ونظرت عبر النافذة بعينين دامعتين بمرارة وألم.

في تلك الأثناء كان ينظر، شبيهاً بشروق الشمس، إلى داخل الدكان الوجه الأجمل لفتاة شابة بهيجة كالربيع؛ جادت الفتاة بضحكة خلابة ثم طرقت بيدها المكسوة بقفاز على لوح زجاج الواجهة. كانت الفتاة على ما بدا منها عريقة الأصل، وقد أسرع البائع العجوز بحماس لكي يفتح النافذة على اتساع ما مكنته من ذلك سلعة قديمة كانت معروضة خلفها.

سألت الفتاة بلهجة المنطقة الحميمة، التي بدا أنها تستخدمها لمجرد التودد واللطف: "أيها الرجلان، أي حفلة موسيقية تقيمان هنا؟"؛ ولكن بعد ذلك وقبل أن يجد الرجل الصغير المفاجأ جواباً عن سؤالها، سألته مرة أخرى عن صحون صينية معينة سبق أن وعدها بتزويدها بها. في غضون ذلك كنت جلست على صندوق خشبي وصرت أنظر وأنا أرتاح من العزف المضني إلى الأنثى اللطيفة، التي ألقت بعد حديث تم بسرعة نظرة أخرى على سجيتها في المكان مروراً أيضاً بشخصي الحزين.

وقالت أيضاً وهي تتصرف مرسلة تحية لطيفة من النافذة: "اعمل على أن أحصل على الصحون القديمة، والآن تابعا موسيقاكما!". أما الرجل العجوز فقد اعتراه اضطراب شديد من جراء ظهور الفتاة غير المتوقع آنذاك؛ إذ كان ريعان الشباب، الذي نبض به ذلك الوجه الجميل، غمره دون أدنى شك بالدفء ونقله إلى أفضل حال نفسية.

قال لي الرجل: " الناي هي على ما يرام، تُرى كم تريد ثمناً لها؟".

وحين لم أعرف ماذا أطلب منه، أخرج غولدناً ونصف الغولدن في قطعتين لامعتين. وقال: "هل أنت راض بهذا السعر؟ إياك أن تحتج، فالمبلغ لا بأس به!". كنت راضياً، حتى إنني شكرت بسرعة من كل قلبي، وفقاً لشعوري الإنقاذي، ما قد لا يحدث إلا قليلاً في مسيرة تحركه. ربت الرجل بهدوء على كتفي وطلب مني أن أشرح له كيفية فك الناي ووضع أجزائها المكونة في الجراب المخصص لها، ثم وضع الجراب مفتوحاً خلف النافذة.

وأنا في الشارع تأملت بصورة أكثر دقة قطعتي النقود لكي أتأكد مرة أخرى من أنني كنت أمسك بيدي فعلاً بأسباب القوة اللازمة لسد الرمق. بدا لي أن لمعان الفضة الباهر وبريق العينين اللتين رأيتهما قبل قليل وكانا لا يزالان يمارسان تأثيرهما فيّ وأن شعاع الشمس أيضاً، الذي كان دلني في الصباح الباكر بعد الصلاة بقليل على الناي المنسية، بدا لي أن كل ذلك آتٍ من المصدر ذاته وأنه واقع وراء نطاق المعرفة وفوق الوجود المادي. وبتأثر

مفعم بالشكر وتحرر من كل هموم الحياة انتظرت حلول وقت الغداء وأنا على قناعة بأن الله تدخل مباشرة وقدم لي العون. لذلك سوف توضع الأمور أخيراً في نصابها الصحيح – هكذا فكرت في أعماق أنانيتي المطعون فيها بشدة – ولا بد لي من أن أقبل بهذه المعجزة المتواضعة بهدوء وأشكر الله شرعاً وقانوناً. وتحقيقاً للتناظر والتماثل فقد أرفقت الآن الصلاة الصباحية الصغيرة بدعاء شكر قصير دون أن أثقل على سيد العالم الكبير بكلمات كثيرة أو بصوت عال.

ولكنني الآن سارعت إلى الذهاب إلى المطعم المعتاد، الذي خيل إلي أنني أقلعت منذ عام كامل عن الدخول إليه، إلى هذا الحد تراءى لي طول الأيام الثلاثة. أكلت صحناً من الحساء المغذي وقطعة من لحم الثيران مع خضار شهية وقطعة من المعجنات التي تشتهر بها المنطقة. إضافة إلى ذلك أُتي إلي بإبريق من البيرة التي كانت ترغي بكل روعة، وكل ما تناولت من طعام وشراب طاب لي طعمه وكأنني كنت في مأدبة غاية في الأبهة واللذة. كان ثمة طبيب عزب اعتاد أيضاً تناول الطعام هناك، هذا الطبيب أبدى بلطف وتهذيب ملاحظة فقال إنه كان يظن قبل قليل أنني مريض، إلى هذا الحد ظهر علي الضعف والهزال؛ ولكن بما أنني أملك شهية نشيطة، على حد قوله، فيبدو أن حالي لا تنطوي على أي خطورة. استنتجت من كلام الطبيب أنني متمتع على الأقل بصحة جيدة، الأمر الذي لم أكن أفكر فيه من قبل وعليه شكرت أيضاً العناية الإلهية؛ لأن الإرهاق من شأنه أن يستهلك شخصاً سقيماً وضعيف البنية إلى درجة أكثر فعالية وتأثيراً.

بعد الغداء ذهبت إلى مقهى لكي أستريح هناك لدى تناول فنجان من مشروب أسود وأقرأ في أثناء ذلك الصحف فأرى ماذا يجري في العالم. لأنني في هذا المجال أيضاً كنت طوال الأيام الثلاثة الماضية كأنني كنت في الصحراء فلم أتحدث مع أحد ولا سمعت أي خبر جديد. وجدت أيضاً أخباراً وأحداثاً عالمية كثيرة كانت تجمعت في أثناء ذلك؛ ومن جراء القراءة المريحة

عادت بصورة ملحوظة قواي البدنية والعقلية، وحين قرأت الخبر الذي وصف كيف تجمهر الناس في إحدى كنائس مدينة لأن صورة للعذراء تحركت فيها العينان كما قيل، عرجت بذهول وانبهات على التفكير بمعجزتي الخاصة الهادئة، وقلت في نفسي بعد بعض التفكير العميق وفي مضمون نفسي متغير تماماً عما كان عليه الأمر قبل تناولي الطعام: تُرى هل أنت أفضل من عبدة الصورة هؤلاء؟ هنا بإمكان المرء أن يقول إنه إذا ما كان الشيطان جائعاً فهو يلتهم ذبابات، وهاينريش "لي" يلهث وراء معجزة!

ومع ذلك ترددت في التخلص من إحساس مريح بتدبير وقائي وتقبل مباشرين ومن ثم بصلة شخصية مع أمن العالم.

وأخيراً، لكي لا أخسر هذه المزية وأنقذ أيضاً قانون العقل، فسرت لنفسي الحدث بأن عادة الصلاة المتوارثة حلت محل تجميع فعال لقوى الأفكار مما جعل تلك القوى، بفعل ما ارتبط بهذه العادة من ارتياح نفسي، حرة وقادرة على إدراك وسيلة الإنقاذ البسيطة والجاهزة أو البحث عن وسيلة كهذه؛ ولكنني فسرت أيضاً أن هذه العملية هي من طبيعة إلهية وأن الله بهذا المعنى فوض الناس مرة واحدة بالاستعانة بالصلاة دون أن يتدخل في التفاصيل ودون أن يكفل أيضاً النجاح الحتمي في كل مرة. لا بل اتخذ، لكي يتقي سوء استخدام اسمه، تدبيراً ينص على أن للثقة بالنفس وقوة العزيمة، إن كانتا على نحو ما كافيتين، قيمة الصلاة وأهميتها وأن لهما حظاً موفوراً في النجاح.

إلى اليوم أضحك لا على تفاهة ذلك العوز ولا على الإيمان إلى حين بالمعجزة ولا على الحسابات الدقيقة المضنية التي أعقبت ذلك، ولن أتهاون في أمر تجربة الإحساس ذات مرة في الحياة بالجوع الشديد ولا بمعجزة رؤية الشعاع اللطيف من الشمس بعد الصلاة والحل الذي لا يستهان به لذلك اللغز بتحقيق تغذية بدنية طال انتظارها؛ لأن الألم والخطأ والقدرة على المقاومة من شأنها أن تبقى الحياة على حيويتها، كما يبدو لي.

الفصل الخامس

أســـرار العمـل

المبلغ القليل من المال، الذي حصلت عليه من بيع الناي، كان كافياً لإطعامي يوماً ثانياً أيضاً لأنني كنت وزعته بذكاء ونباهة. وهكذا استيقظت هذه المرة دون قلق من أن أجوع في هذا اليوم، وكانت تلك من ناحية أخرى متعة معيشة لأول مرة لأن القلق لم يكن معروفاً من قبل عندي وقد أحسست بالفرق الآن فحسب. الشعور الجديد بأنني في مأمن من الهلاك بسبب قلة التغذية أعجبني إلى حد أنني بحثت بسرعة عن مزيد مما أملك لكي أتبعه بالناي؛ فلم أكتشف ما يمكنني البتة الاستغناء عنه سوى الكنز المتواضع من الكتب، الذي تكدس نظراً إلى تجاوزي الحدود العلمية ومن المثير للغرابة والدهشة أنه كان كاملاً وموحداً. فتحت بعض الكتب وقرأت واقفاً صفحة تلو أخرى إلى أن دقت الساعة معلنة الحادية عشرة واقتربت الظهيرة. هنا أغلقت الكتاب مع تنهيدة وقلت لنفسي: "لتغرب هذه الكتب عن وجهي! ليس الآن هو وقت ترف كهذا زائد على اللزوم، فربما نجمع فيما بعد كتباً من جديد!".

أحضرت بسرعة رجلاً كان من أمره أن حزم مجموعة الكتب كلها بحبل وقذف بها إلى ظهره ثم تبعني بها في الطريق إلى بائع كتب قديمة. وفي غضون نصف ساعة من الزمن تخلصت من كل الانشغال بالعلم وحملت في جيبي في مقابل ذلك الوسائل التي تسد رمق الحياة لبضعة أسابيع.

بدا لي هذا وقتاً لا نهاية له؛ ولكنه مضى هو الآخر دون أن يشهد وضعي أي تغيير، فكان علي في هذه الحال أن أفكر إذاً في مهلة جديدة بانتظار الانعطاف إلى الأفضل أو بداية الحظ السعيد. بعض الناس يتصرفون دائماً بصورة نافعة وفعالة ودؤوب دون أساس ثابت تحت أقدامهم ودون هدف واضح نصب أعينهم، بينما يستحيل أن يتصرف آخرون بغية المنفعة وبشكل متعمد من دون أساس وهدف لأنهم لا يستطيعون ولا يريدون، انطلاقاً من دوافع نفعية، أن يصنعوا شيئاً من لا شيء. هؤلاء يَرَوْن أن أوج المنفعة يكمن في ابتعادهم عما لا يقدم ولا يؤخر من الأمور، لا بل في تعرضهم للريح والأمواج واستعدادهم في كل لحظة للإمساك بالحبل الرئيسي إذا ما رأوا أنه مثبت في مكان ما. وإذا ما وصلوا فيما بعد إلى بر الأمان فإنهم يعرفون من جديد أنهم مهرة، بينما يسبح أولئك باستمرار على الكتل والألواح الخشبية الصغيرة هكذا على غير هدى ويتخبطون بسبب نفاد صبرهم مبتعدين عن الضفاف. بالطبع لم أكن الآن شخصاً كبيراً في عالم العقول لكي أستخدم وسيلة نبيلة كالصبر؛ ولكن لم يكن في تصرفي آنذاك وسيلة أخرى، وعند الحاجة يشد الفلاح حذاءه بأربطة حريرية.

آخر ما كنت أملكه، ماعدا لوحاتي وتصميماتي غير القابلة للبيع، كانت محافظي المليئة بالرسوم الأولية لمناظر طبيعية. وكانت تحتوي تقريباً على كل ثمار جهودي في مرحلة شبابي وتشكل ثروة صغيرة لأنها تعرض أشياء واقعية محضة. تناولت أثنتين من اللوحات الأفضل، من القطع الكبير نوعاً ما، وكنت أنجزتهما في العراء بكاملهما ولونتهما بألوان خفيفة بطريقة صادف أن كانت محظوظة. اخترت هاتين اللوحتين لكي أضمن تأثيراً أكبر في الشاري، لأنني لم أفكر بأن أغزو بهما واحداً من تجار التحف الكبار بل ذلك الرجل اللطيف بائع السلع القديمة فحسب ولم أعلق منذ البداية آمالاً على تلقف ثمن فعلي يعتد به. وحين وصلت إلى زاوية دكانه ومسكنه نظرت في بداية الأمر عبر الواجهة ولاحظت وجود الأشياء القديمة خلفها، أي الكلارينيت

والرسوم المنقولة عن النقوش على النحاس ولوحات صغيرة بينما لم أعد أرى بالمقابل علبة الناي الصغيرة. فشجعني ذلك على الدخول إلى الرجل العجوز، الذي عرفني على الفور وسألني عما أحضر معي من أشياء جديدة. كان معتدل المزاج وأخبرني بأنه مضى على بيع تلك الناي وقت طويل. وحين فككت اللوحتين وفرشتهما على طاولته بقدر امتدادهما سألني قبل كل شيء، تماماً كتاجر الرسوم والثياب اليهودي، عمّا إذا كنت رسمتهما أنا ذاتي فترددت في الجواب، لأنني كنت لا أزال مغروراً إلى حد حال دون أن أعترف بأن العوز والفاقة دفعاني إلى المجيء بإبداعاتي الخاصة إلى دكانه الضئيل الشأن. ولكنه سرعان ما انتزع مني بتملقه ومجاملته قول الحقيقة، التي لم أكن بحاجة إلى الخجل منها بل الاعتزاز بها؛ لأن الرسمين بدوَا له، على حد قوله، جيدين فعلاً وهو يريد أن يجازف بشرائهما لقاء دفع مبلغ لا يستهان به. ودفع لي أيضاً ما مكنني من العيش بضعة أيام لا بل بدا لي أنه كسب لا يجدر ازدراؤه على الرغم من أنني كنت قضيت في إنجازهما في حينه أسابيع زاخرة بالمزاج الجيد والجد المثمر. والآن لم أوازن بين المبلغ الزهيد والقيمة الفنية بل بينه وبين عوز اللحظة الراهنة وهنا بدا لي الشيخ التاجر البائس بخزنته الصغيرة راعياً جديراً بالتقدير. والمبلغ الزهيد، الذي أعطانيه بنية حسنة وحركات مرحة، كان يساوي ما قد يقدمه تجار لوحات أغنياء من مبالغ أكبر مع مزاج متردد متشكك في تقييم العمل الفني.

ولكن وأنا لا أزال حاضراً قام الرجل غريب الأطوار بتثبيت اللوحتين في أرجاء واجهته في حين مضيت أنا إلى حال سبيلي. وفي الشارع ألقيت نظرة عابرة على الواجهة ورأيت أقفار الغابات المشمسة من ربوع موطني العزيز وهي تقف حزينة على عمود تشنيع الفقر هذا، المعتم الداكن.

ومع ذلك ذهبت في غضون يومين مــرة أخرى إلى ذلك الرجل فاستقبلني بغبطة ولطف. اللوحتان الأوليان اختفتا من مكانيهما؛ والرجل الصغير، أو السيد يوزف شمالهُوفر طبقاً للافتة دكانه القديمة الصغيرة، لم يشأ

أن يقول أين ظلتنا بل طلب أن يرى ماذا أحضرت معي. وسرعان ما اتفقنا على إبرام الصفقة؛ صحيح أنني بذلت جهداً متواضعاً للحصول على سعر شراء أكثر رحمة، ولكن سرعان ما سرني أن العجوز ظل مثابراً على رغبته في الشراء وشجعني على أن أُحضر له دائماً ما أنجزه من أعمال فنية وأن أكون باستمرار متواضعاً ومقتصداً إلى حد كبير، وبذلك سوف تسفر البداية الصغيرة بالتأكيد عن فعالية لا يستهان بها، ومرة أخرى ربت على كتفي بشيء من التودد ودعاني ألا أتجهم هكذا مكتئباً وقليل الكلام.

محتوى محافظي بأسره انتقل الآن شيئاً فشيئاً إلى يدي تاجر الخردة المستعد دائماً للشراء، ولم يعد يعلق المشتريات في الواجهة بل كان يضعها بعناية بين قطعتي كرتون ويربطهما معاً بحزام طويل من الجلد. لاحظت تماماً أن اللوحات، كبيرها وصغيرها، الملون منها والمرسوم بقلم رصاص، كانت تتجمع أحياناً لفترة طويلة إلى أن تصبح حاويتها رقيقة وفارغة؛ ولكن الرجل لم يفصح مرةً ولو بكلمة واحدة إلى أين تذهب كنوز شبابي. فيما عدا ذلك كان يبقى دائماً على حاله؛ كنت أجد لديه، كلما كانت عندي لوحة للبيع، ملاذاً آمناً وأخيراً كان يسرني حتى من دون أن أدخل معه في صفقة أن أمضي عنده ساعة من الوقت بغية الحوار وتجاذب أطراف الحديث والاطلاع على سير عمله. وإذا ما أردت الخروج من عنده، كان يطلب مني ألاَّ أذهب إلى المطعم فأضيع المبلغ الصغير الذي بحوزتي هباء بل يرجوني أن أتناول الطعام معه ويجبرني في النهاية على ذلك. بالمناسبة كان العفريت العجوز المقيم في منزله وحده طباخاً ماهراً وكان عنده باستمرار طعام لذيذ في القدر الذي على موقد الطبخ أو في فرن قبوه المعتم. مرة كان يقلي بطة ومرة أخرى أوزة ومرة ثالثة كان يحمِّص خضاراً مكتنزة مع لحم الضأن أو يحول، اعتماداً على فنه في إعداد الطعام، أسماك نهر رخيصة إلى أطعمة رائعة مسموح بها في فترة الصوم. حين حبسني في أحد الأيام لكي أتناول من طعامه، قام فجأة بفتح النافذة بسبب شدة الحرارة على حد قوله؛ ولكنه أراد في حقيقة الأمر أن يروض بذلك

اعتزازي بنفسي الذي لا أساس له ويريني للمارين. لاحظت ذلك من عينيه الصغيرتين الماكرتين وكلماته الهزلية، التي حارب بها علامات الارتباك والامتعاض التي كانت ظهرت على وجهي. لم تعد حيلته تنطلي علي وعددت وضعي المعوز مسألة شخصية لا يحق له التصرف بها بهذه الطريقة. ومن الغريب العجيب أنه لم يسألني أبداً كيف أو لماذا أصبحت فقيراً مع أنه استجوبني منذ فترة طويلة لمعرفة اسمي وجذوري. وتبين لي أن سبب سلوكه هذا يكمن في حرصه على تجنب أي حديث قد يضطره من الوجهة الأخلاقية إلى تقديم عروض شراء أكثر إنسانية ورحمة، وللدافع ذاته لم يعد أيضاً يقوّم أبداً ما كنت أحضره معي على أنه جيد أو مُرضٍ، وبالمثابرة نفسها كان يخفي دائماً حقيقة المكان الذي يرسل إليه اللوحات من أجل بيعها.

وأنا أيضاً ما عدت سألته عن هذا الأمر، وطبقاً لحالي النفسية سلمت طوعاً كل شيء لقاء الخبز الزهيد الذي أعطانيه العالم وأحسست مع ذلك بالرضا عن التبذير في دفع ثمنه. كان ذلك موضع تباهٍ عندي خصوصاً أن تلك المبالغ القليلة التي حصلت عليها هي أول كسب أدين بالفضل فيه لعملي الشخصي؛ لأن الكسب من العمل فحسب هو الذي لا ترقى إليه المآخذ والمعايب ويتفق مع الوجدان والضمير وكل ما يكسبه المرء لقاء عمله فهو ذاته الذي يبدعه وينتزعه إذا صح التعبير.

هكذا علتُ نفسي نصف عام تقريباً بقدر ما أعطاني الرجل العجوز من مبالغ زهيدة مقابل تصاميم اللوحات والدراسات الفنية المتنوعة؛ لأنها على وجه التقريب لم تشأ أن تنتهي ومع ذلك انتهت بالطبع في يوم من الأيام. ولكنني لم أكن على استعداد لأن أجوع فوراً من جديد. لذلك فككت كرتوناتي الكبيرة الملونة أو الرمادية من البراويز المؤقتة المشدودة بقماش من الكتان وقطَّعت كلاً منها بعناية إلى عدد من اللوحات المتساوية في الحجم ووضعت بعضها فوق بعض في مغلف ثم حملت هذه الدفاتر العجيبة التي لا تزال ضخمة، الواحد بعد الآخر، إلى السيد يوزف شمالهُوفر فتأملها بدهشة كبيرة؛

وكانت على جانب كاف من الروعة. اللوحة الكبيرة الجريئة، التي سارت من دون نهاية عبر كل الأجزاء، وجرات القلم الثخينة وبقع الحبر الصيني العريضة ظهرت كلها على الأجزاء الصغيرة بحجم مضاعف وأضفت عليها بوصفها أجزاء لكل غير معروف مسحة خرافية غامضة بحيث أوقفت العجوز في حيرة فكرر السؤال عما إذا كان ذلك من الصحة والصواب بمكان. ولكنني أدخلت في روعه أنه لابد من العمل بهذه الطريقة ومن الممكن تجميع الرسوم لكي تشكل بعد ذلك لوحة كبيرة؛ كما أن لها أيضاً كلاً على حدة قيمتها وأهميتها وفي كل واحدة منها ما هو جدير بالاهتمام، باختصار سخرت منه بخدعة قصد الدعابة وقلت في نفسي: إذا ما استطعت توريطه بشراء تلك الرسوم فقد يكون ذلك انتقاصاً من الربح الفاحش الذي انتزعه مني. حك العجوز، بائع السلع القديمة، بحيرة وارتباك ساقه المصابة بمرض الحزاز ولكنه لم يستغنِ عن الدفاتر الغامضة لا بل باعها في يوم من الأيام كلها معاً من دون أن أعرف إلى أين ذهبت.

حين كنت استهلكت إيراد آخر بيعة، غدوت من جديد دفعة واحدة لا حول لي ولا قوة، ولكن على سبيل التجربة ذهبت إلى تاجر الصور والملابس لكي أرى ما جرى للوحتين الزيتيتين اللتين سبق أن تركتهما عنده. كانتا لا تزالان معلقتين في مكانهما القديم فعرضت على الرجل أن يمتلكهما بأقل سعر قد يحدده. إلا أنه لم يكن على استعداد لدفع أي نقود من أجلهما وبدلاً من ذلك شجعني على الصبر الذي بفضله قد تتسنّى لي صفقة أفضل. اقتنعت بذلك أيضاً ونجم عن اقتناعي أنني مازلت أعوّل أملاً صغيراً على العالم وعلى صفقة تلوح في الأفق. من هناك تابعت سيري وعرجت على صاحبي شمالهُوفر لكي أعبر عن تمنياتي له بيوم سعيد، فنظر فوراً إلى يدي الخاويتين؛ قلت له: لم يعد عندي شيء قابل للتصرف.

قال وهو يمسك بيدي: "تشجع يا صديقي العزيز! فسوف نبدأ في الحال عملاً جديراً بالمشاهدة. نحن الآن بالضبط في المقام الصحيح حيث لا يجوز

تضييع الوقت!". ثم قادني وبالتالي جرني إلى قبو خلف دكانه وأكثر ظلمة منه فلم يكن يتلقى ضوءه إلا عبر كوة ضيقة ومفتوحة في الجدار الرطب والمكسو بالطحالب. بعد أن كنت تعودت نوعاً ما الظلمة، رأيت القبو مليئاً بعدد كبير من العصي والعيدان الخشبية، جديدة تماماً ومقوسة ومصقولة بالفأرة ومسندة إلى الجدران بكل القياسات والأحجام، أحمالاً أحمالاً. وعلى كور حداد مغرق في القدم، كان أثراً لمخبري علمي مارس عمله هنا ربما قبل مئة عام، وقف سطل مليء بالطلاء الأبيض في وسط قدور كثيرة بألوان أخرى وكان كل منها مزوداً بفرشاة دهان خفيفة.

تناوب العجوز على لثغ السين والصراخ قائلاً:" في غضون أسبوعين سوف تنتقل عروس ولي العهد لكي تقيم في مقر الحكم بمدينتنا! المدينة كلها سوف تزدان بالحلي والزينات؛ ألوف الآلاف من النوافذ والأبواب والعيون السحرية في ثقوب الأبواب سوف تُزين برايات ألواننا وألوان وطن العروس؛ رايات من كل الأحجام سوف تكون على مدى الأسبوعين القادمين السلعة الأكثر طلباً! سبق أن قمت بضع مرات بمشاريع تزويد مناسبات كهذه بمستلزماتها وكسبت من جراء ذلك مبالغ كبيرة من المال. من يكن الأول والأسرع والأرخص، هو الذي يلاقي الإقبال المطلوب. لذلك هيا إلى العمل ولا تضع الوقت! احتطت للأمر فأمنت العيدان اللازمة وطلبت توريدات أخرى، تفصيل القماش وتخييطه سيبدأ أيضاً في الحال. أما أنت، أيها الصديق العزيز، فكأن السماء خصصتك لكي تطلي العيدان بالدهان!

"صه! لا تتذمر! من أجل كل واحد من هذه العيدان الكبيرة التي هنا سأدفع لك قطعة نقود من فئة كرويتسر، ونصف قطعة لفئة العيدان الأصغر؛ وكل أربعة عيدان صغيرة بالمرة، من الفئة التي أعدت لجحور الفئران وللغمز من النوافذ الصغيرة الضيقة في مساكن مواطني الرايخ والأتباع المساكين، تستحق أجرة بمقدار كرويتسر واحد! ولكن لاحظ الآن كيف يتم العمل الذي ستقوم به، إذ لا بد من تعلم كل شيء!".

كان حضَّر لإعداد الكثير من العيدان الصغيرة، بعضها نصف تحضير والبعض الآخر تحضيراً كاملاً؛ وبعد طلاء العود الواحد بالدهان التأسيسي الأبيض الذي يجمع بين كلتا المملكتين، لُف بخط حلزوني من اللون الآخر. وضع الرجل العجوز واحداً من العيدان المطلية بدهان التأسيس في كوة الجدار وأمسك به بيده اليسرى بصورة أفقية وفي حين لفت انتباهي وهو يغطس الفرشاة في الطلاء كيف أن هذه لا يجوز أن تكون طافحة به ولا فارغة منه لكي ينشأ خط مضمون ونظيف بجرة ريشة واحدة، بدأ بتدوير العود ببطء وجر الخط اللولبي سماوي الزرقة بدءاً من الأعلى، قدر الإمكان دون أن يرتجف أو يضطر إلى استدراك موضع ناقص، ولكنه ارتجف فعلاً وانزلق المكان الأبيض الذي بين الخطوط كما انزلق اتساع الخطوط الزرقاء أيضاً إلى وضع غير متساوٍ بحيث رمى بعيداً العمل الفاشل وصرخ بأعلى صوته:" هكذا! على هذا النحو يتم العمل! مهمتك الآن هي أن تمسك هذه الأداة بصورة أفضل وأكثر ثباتاً؛ فلماذا أنت اذاً في ريعان الشباب؟".

دون أن أمعن في التفكير ولو للحظة واحدة أمسكت بعصاً ووضعتها في مكان قيد الاستعمال ثم حاولت بدافع من فضول كبير إنجاز ما كلفت به من عمل غريب وسرعان ما سارت الأمور على ما يرام. فتابعت العمل بحماس إلى أن حان وقت الظهيرة؛ وحين خرجت عند ذاك من فتحة القبو المظلم وجدت الرجل العجوز يمكث بين ثلاث خياطات أو أربع ويفصِّل لهن قماش الرايات ثم يصدر مئة من التعليمات بوجوب ألا يخطن بإهمال واستهتار ولا بجودة فائقة أيضاً بل بشكل تتقدم معه الراية بقوة إلى الأمام وتبقى مع ذلك متماسكة إذا ما رفرفت لدى هبوب الريح دون أن تحافظ من ناحية أخرى على صلاحيتها للاستخدام إلى ما شاء الله. ضحكت النسوة وضحكت أنا أيضاً حين عبرت المكان وناداني من خلفي ذلك الرجل الصغير منبهاً أن أعود من كل بد في غضون ساعة واحدة من الوقت. فتم ذلك وقضيت الأيام التالية إلى نهايتها في العمل الجديد.

في الخارج كان يتلألأ بشكل مستديم الصيف المتأخر في غاية الروعة واللطف؛ وكانت أشعة الشمس تخيم على جو المدينة وفي كل أرجاء المنطقة وكان الناس يتسكعون في العراء بحيوية أكثر من المعتاد. كان دكان المعلم يوزف يعج باستمرار بالناس الذين أتوا للحصول على رايات أو لطلبها كما كان يعج أيضاً بفتيات كن يفصلن ويخطن تلك الرايات ونجارين أتوا بعيدان خشبية حديثة العهد؛ والرجل العجوز كان في غضون ذلك يمارس الحكم ويحدث ضجة وهو في أفضل مزاج، هكذا على غير هدى ويقبض نقوداً ويعد رايات، وكان يدخل من حين لآخر إلى القبو المظلم حيث كنت أقف في شعاع الضوء الخافت وحيداً كالمقطوع من شجرة وأدور أعواد الخشب البيضاء في كل الاتجاهات لكي أجر عليها خط اللولب الأزلي.

ربت على كتفي بشيء من الرقة وهمس في أذني: "أداؤك صحيح يا بني! وهذا هو خط الحياة الحقيقي؛ فإذا ما تعلمت جره بصورة منظمة وسريعة حققت بذلك أشياء كثيرة!". وبالفعل وجدت شيئاً فشيئاً في هذا العمل البسيط ما شدني إليه إلى حدّ أن الأيام التي قضيتها في القبو المظلم مضت وكأنها ساعات فقط. كانت تلك هي المرتبة الأدنى من عمل يُنجز من دون تفكير عميق ومن دون شرف المهنة ومن دون أي مطلب آخر سوى سد الرمق الآني في الحياة؛ وكذلك حيث يمسك المتجول المتسكع في الشارع بالمجرفة ويقف في الصيف ويشترك مع الجارفين في الشارع ذاته ما دام أعجبه ذلك ودفعته الحاجة إليه.

بلا توانٍ سحبت الرباط الملفوف، بسرعة وبحذر أيضاً، دون أن ألطخ شيئاً ودون أن أضطر إلى استبعاد أي عود خشبي أو أضيع لحظة في التردد أو الغرق في الأحلام؛ وبينما كانت العيدان المطلية تتكدس وتباع بلا توقف وبينما كانت تأتي عيدان جديدة أيضاً، كنت أعرف في كل لحظة ماذا أنجزت وكان لكل عود خشبي قيمة معينة. قطعت في العمل شوطاً كبيراً إلى حد أن يوزف المندهش تماماً لم يدفع لي بحلول المساء الثالث أقل من تالرَيْن من

النقود كأجر يومي، يعني أكثر مما كان أعطاني لأفضل لوحة. ولكنه اعترض على ذلك وقال بصوت عال إنه أخطأ في الحساب ولم يسبق أن تم الاتفاق على أن أكسب هذا القدر من المال لقاء عمل كهذا!

بالمقابل أظهرت عندئذ كل الجدية وتمسكت بما كنا اتفقنا عليه مع الادعاء بأنه لا علاقة له بمهارتي المكتسبة وينبغي أن تسره حقيقة أنه يستطيع بفضل هذه المهارة توريد عدد كبير من الرايات الجاهزة؛ دعنا من هذا، شعرت هنا تماماً بأنني أقوم على أساس متين وأخفت الرجل الصغير إلى حد أنه سرعان ما اعترف برضاه عني ثم طلب مني الاستمرار في العمل لأن الأمور كانت تسير على أفضل ما يرام.

لقي الرجل إقبالاً منقطع النظير وزود قسماً كبيراً من المدينة برايات الولاء التي صنَّعها، أما أنا فقد دورت العود بلا كلل وطفت بأفكاري على الخط الأزرق المتكون بلا توان في عالمٍ من الذكريات والإطلال على المستقبل. لم يدر في خلدي أن أسقط، ولكنني لم أستطع رؤية المخرج الذي كان بلا أدنى شك موجوداً ما دام الإيمان بنظام عالم إلهي كان يعشش لاحقاً كما سابقاً في دمي وإن احترست من أن أرمي شباكي مرة أخرى لاصطياد معجزة صغيرة ناجمة عن أداء صلاة. وأخيراً اكتفيت بالوعي المباشر بأن عندي لهذا اليوم ولأيام كثيرة أخرى ما أقتات به. وثمة كيس نقود جلدي صغير كنت اقتنيته على طريقة السائقين والبحارة ومن حين لآخر كنت أخرجه من جيبي للتأكد من أن الكنز المتواضع من قطع الفضة المربوط جيداً في داخله هو في ازدياد ملحوظ.

حتى الآن كنت أحمل نقودي دائماً بصورة مكشوفة في جيب سترتي؛ لكن لأنني أصبحت مدخراً للنقود عقدت العزم على ألا أتعاطى معها بعد الآن من دون حفظها في كيس صغير، وتابعت بحماس عملي غير المشرف، لكن المقنع. كنت في المساء أبحث بعد العمل عن أي مطعم ناء ومنعزل وأجلس فيه بين أناس لا أعرفهم وأتناول عشائي المتواضع، الذي كنت أدفع ثمنه

ناكشاً في كيس نقودي هكذا على غير هدى بتأن وحذر كمن يعرف تماماً من يأتي بتلك النقود.

في أثناء ذلك اقترب أخيراً موعد الموكب. حتى الساعة الأخيرة مازال بعض الناس الأكثر فقراً أو المقترين يأتون بعد اتخاذ قرار مترو لشراء راية أو رايتين ويفاصلون في السعر؛ بعد ذلك أصبح الدكان هادئاً وخاوياً، وانهمك العجوز في عد إيراده من المال ثم طلب مني في أثناء ذلك أن أخرج للتفرج على الموكب الاحتفالي للحاكمة المقبلة والاستمتاع به.

أضاف الرجل يقول حين رأى أنني لم أظهر رغبة كبيرة في العمل باقتراحه: "يبدو أنك لا تعول كثيراً على مشاهدة الموكب، أليس كذلك؟ انظر، هكذا يصبح المرء رزيناً وذكياً! لقد أصبحت أكثر حكمة وروية في غضون الوقت القصير الذي أمضيته بجانب كور الحدادة القديم! هكذا يجب أن ترد الأمور! ولكن مع ذلك حبذا لو خرجت قليلاً إلى العراء، يا عزيزي، حتى ولو كان الدافع مقتصراً على التمتع بالهواء العليل والشمس!".

استحسنت رأيه ووجدته معقولاً؛ وتسكعت في أرجاء المدينة التي كانت تعج بالألوان والذهب وأوراق الشجر الخضراء بحيث ترى الرفرفة والتلألؤ من كل حدب وصوب. عبر الشوارع كانت تتموج جموع غفيرة من الناس؛ مواكب خيالة لامعة، مشاة، نقابات وروابط، هيئات وجمعيات وأخويات، كلها كانت تحمل مختلف الرايات الغريبة النادرة وتزحف باتجاه البوابة؛ وخارج البوابة التي عبرتها مع من عبر تدفق هذا الجمع البهيج مجتازاً مشارف المدينة إلى حقل مكشوف وانخرط في حشد من الناس كان تجمع في الحقل من قبل إذ كانت زحفت إلى هناك مجموعات من الفلاحين والمدارس الريفية والمدفعيين، وتدافع إلى ما بين هؤلاء أيضاً بأعداد كبيرة جمهور المشاهدين الذين جروني معهم.

وفجأة دوى صوت المدافع والأجراس فوق المدينة واسعة الامتداد؛ جوقات موسيقى ودق طبول وهتاف شعب صارخ، كل ذلك أعلن اقتراب

وصول الأميرة المنتظرة. وفي بريق شمس الأصيل رأيت سيوف الخيالة الصاخبة المتقدمة إلى الأمام وهي تلمع ثم رأيت بعد ذلك في عربة مترعة بالزهور الأنثى الشابة وهي تحوم مارة فوق رؤوس الجموع المتموجة كما في سفينة تنزلق فوق مياه البحر الهادرة لأنني لم أستطع أن أرى خيولاً ولا عجلات. في بادئ الأمر سرني الهدير الهائل، ولكنه أزعجني بعد ذلك بوصفه شيئاً غريباً وأيقظ غيرتي القائمة على المبادئ الجمهورية ضد سلطة حياة ملكية لم يكن لي بها أي علاقة ولم أستطع أن أزيد عليها أو أنقص منها أي شيء.

في أعماقي قال صوت الضمير السياسي: "بالطبع حققتَ شيئاً ونمَّيت، ومن ذلك لا تزال تعيش منذ أسابيع؛ حتى إنك تحمل أجور الخطيئة في جيبك!".

عندئذ رد تجميل الذات على ذلك بقوله: "على الأقل لم أطلق النار على الرعية كما فعلت في غالب الأحيان وحدات الحرس السويسرية المسخرة لخدمة الأمراء؛ وفي هذه اللحظة لا تزال كتائب كاملة العدد تقف عند أقدام عروش أسوأ من العرش الذي يُحتفى به هنا الآن!".

تصور الكتائب السويسرية وهي تؤدي خدمات خارج الوطن أسفر من جديد عن تخيل آخر؛ فقد رأيت في مخيلتي الآلاف العديدة من أعواد الرايات، التي كنت بقَّعتها، رأيتها شبيهة بسياج منصوب بعيد المدى وتخيلت أنني القائد الميداني لهذا الجيش الخشبي وأنني واقف أمامه ممسكاً بيدي كيس نقودي المصنوع من الجلد. بدت مقارنة منصب الشرف هذا بمنصب مارشال سويسري سابق في الجيش الفرنسي أو الإسباني في مصلحتي لأنها على الأقل غير مثقلة بأي قطرة دم. انتعش وعيي من جديد وبرأ نفسه فعدت إلى المدينة على رأس كومة العنف، التي ابتدعتها أشباح عيداني الخفية، أشق طريقي في زحمة الجماهير العائدة، المتدفقة ببطء وتؤدة.

والآن كنت أمشي الهوينى عبر الشوارع المزدانة بمختلف أنواع الزينة ودققت النظر ملياً في كل الزخارف والاحتفالات؛ بعد ذلك خرجت من مسكني

مرة أخرى لدى حلول المساء إلى حيث كانت كل الحانات وحدائق الرقص تعج بالناس وبالحركة، ولكنني لم أتوقف في أي مكان إلى أن أتيت مع قمر طالع تواً إلى جزيرة نهرية مزدانة بأشجار حور فضية اللون بعمر مئة عام، وفي منتصف تلك الجزيرة مبنى شعبي للرقص والشرب مزدان بالأضواء وتنتشر منه في كل الأرجاء أنغام كمنجات وطبول وأبواق. هناك بحثت عن مكان صغير تحت الأشجار وقريب قدر الإمكان من مياه النهر التي كانت أمواجه الدافقة تتلألأ في ضوء القمر. ولكن كان لبعض الناس مزاج مشابه بحيث مررت ببعض الطاولات بلا جدوى؛ وأخيراً كان لابد لي من اتخاذ قرار بالجلوس إلى واحدة كان سبقني إليها آخرون، فتيات شابات مع أصدقائهن أو أقاربهن. العتمة الخفيفة التي نشرتها الأشجار العالية في أرجاء المكان كان مصباح ورقي ملون أن أضاءها قليلاً إضاءة غير كافية لإزالة التأثير اللطيف للمياه المشبعة بضوء القمر المنتشر فوقها أو لجعل تألقه عبر الأغصان أكثر شحوباً وضعفاً.

حين جلست مُزيحاً قبعتي جانباً بعض الشيء أكدت لي فتاتان جلستا قبلي بابتسامة خبيثة أن ثمة مكاناً كافياً لرجل من المعارف الطيبين ورفاق العمل، وعندئذ فحسب عرفت فيهن اثنتين من خياطات العيدان اللواتي عملن في ورشة شمالهُوفر. كانت الفتاتان فاتنتي التبرج وأدهشني أن أجد أمامي مخلوقتين جميلتين إلى هذا الحد في حين لم يسبق لي أن نظرت إليهما أو ألقيت عليهما التحية لدى عبوري الدكان ودخولي إلى القبو المظلم أو خروجي منه. أكبرهما سناً قدمت لي الجماعة، التي بدت مكونة من عاملات وعمال شبان في مهن مختلفة، بوصفها رفاقاً ورفيقات من طبقة واحدة؛ وفي ما تعلق بي فقد سبق للرجل العجوز أن ذكر اسمي أمام الفتاتين. لقد بدا في نظرهما أنني أمارس مهنة دهان مرموق؛ أما الشبان فقد شربوا نخبي وقدموا لي بكل مودة أباريقهم المليئة بالبيرة فشاركتهم بجرعة ثم زودت نفسي بإبريق منها؛ وكوني سررت لوجودي بعد شعور بالوحدة فترة طويلة في وسط مجموعة

من الناس، فقد سلمت نفسي للمجالسة البسيطة دون أن أفصح عن مستواي الأعلى قليلاً، وحسناً فعلت لأن من شأن ذلك أن يجر علي ندماً وسوءاً.

تلك الحلقة الصغيرة تكونت من ثلاثة أزواج من العشاق عُرفوا كذلك من طريقة عناقهم بعضهم بعضاً على سجيتهم، بصورة طبيعية وغير متكلفة. وإذا كانوا مترجّحين بين الأمل في أن يظلوا مرتبطين ببعضهم دائماً والخوف من أن يتفرقوا من جديد، فإنهم لم يضيعوا أي وقت في التثبت من راهنية وضعهم. هنا بدا أن ثمة فتاة رابعة زائدة على اللزوم؛ لأنها كانت تجلس بلا عاشق، في أقرب مكان مني، ربما بسبب صغر سنها الذي كان على أبعد تقدير سبعة عشر عاماً. سبق لي أن لاحظت في دكان بائع السلع القديمة كيف كانت عينا الفتاة الصغيرة البراقتان تتجهان دائماً إلي لدى مروري بجانبها. والآن رأيت أيضاً جسمها الناعم المغطى بمنديل أحدي أبيض رقيق؛ وعلى الطاولة ألقت بيدها الصغيرة الناعمة، التي غدت بشرة أناملها الرقيقة أكثر خشونة بفعل وخزات الدبابيس الكثيرة؛ وإذا ما أضفنا إلى ذلك شعرها البني الطري المتدفق من تحت قبعتها الصغيرة الخفيفة وضوء الصدر الفتي حين ينزاح عنه للحظة المنديل المضيء، ظهر هنا في ظلال الفقر كنز مخفي من الفتنة والإثارة لشد ما كانت تتمناه بعض الثروات الطائلة لكن دون جدوى، حتى إن شحوب الوجه، الذي ظننت أنني تذكرته، أدى الآن دور الأساس في لعبة أضواء بحيث كان يمر على الوجه تارة ذلك الشعاع الخافت الضارب إلى الحمرة والمنبعث من مصباح الورق المتأرجح في تيار الهواء وتارة أخرى لمعان النهر الفضي المائل إلى الزرقة ويشكل بالتعاون مع ابتسامة فمها، حين كانت تتحدث، حيوية غامضة، وزيادة على ذلك كله كان اسمها هولدا.

سألتها عما إذا كانت فعلاً تسمى هكذا أم إنها اتخذت هذا الاسم على غرار ما يحدث من حين لآخر لبنات الطبقة العاملة والخادمة التي كنا ننتمي إليها؟

فردت بقولها: "لا، حصلت على هذا الاسم إضافة إلى أربعة أسماء أخرى من أبويَّ إبان تعميدي. كان أبواي إسكافين فقيرين وغير قادرين في

أثناء التعميد على إقامة مأدبة ولا على جلب أشابين قد تؤمل منهم أي عطية أو هدية. ولأنهم مع ذلك كانوا يتحلون بخاصية أرستقراطية معينة، فقد زودوني بالمقابل بخمسة أسماء، ولكنني ألغيتها كلها ما عدا الاسم الأقصر؛ لأنه ما دام الواحد منا ملزماً دائماً مراجعة السلطات لكي يحافظ على صحة المعلومات المتعلقة بشخصه فقد نهرني الموظفون دائماً باستياء متسائلين عما إذا كانت أسمائي ستنتهي عما قريب أم إنهم ربما كانوا بحاجة إلى استخدام صفحة جديدة لتدوينها جميعها".

قلت وقد أمتعتني الجدية التي روت بموجبها القصة: "ولكنك احتفظت بالاسم الأجمل من بين الأسماء الخمسة ؟".

قالت: "لا، احتفظت بالأقصر فحسب! وكانت كل الأسماء الأخرى أطول وأكثر بهاء وروعة! لكنك تحمل معك نقوداً كثيرة وتتسكع بها، لا يجوز للمرء أن يفعل شيئاً كهذا!".

كنت وضعت كيس نقودي الممتلئ على الطاولة لكي أدفع ثمن إبريق جديد من البيرة كان أُحضر إلي لأنني كنت أتضور عطشاً وغدوت منتهياً من الإبريق الأول.

قلت: " هذا هو كسبي من عيدان الرايات، وسوف أتدبر أمره حين لا أكون بحاجة إليه!".

فردت: "يا إلهي! كسبت كل هذه النقود من عملك لدى الرجل العجوز! في حين كاد يصل كسبي إلى أربعة عشر غولدناً فقط!".

قلت: "عوملت على أساس القطعة المنجزة، وفي هذه الحال يمكن للمرء أن يستلقي في الدكان ويسخر من رب العمل!".

فقالت موجهة كلامها إلى الجميع: "اسمعوا، أيها الناس، كان يتلقى أجوراً على أساس القطعة المنجزة! إنه يكسب إذاً نقوداً كثيرة! إلى أي مرحلة وصلت حقاً في مهنتك، أم إنك تعمل مستقلاً عن غيرك؟".

"أنا في الوقت الحالي من دون معلم وأنوي أن أبقى كذلك إلى ما شاء الله".

"سوف تكون أوضاعك على ما يرام، لأنك تعمل بجد من الصباح الباكر حتى وقت متأخر، رأينا ذلك وكثيراً ما كنا نقوله في ما بيننا! وكان الآخرون يقولون عنك ليته غير مغرور إلى هذا الحد، ولكنني عددتك حزيناً أو ملولاً أكثر منك مغروراً. هل تناولت طعام العشاء؟".

"لم أتناوله بعد! وأنتِ؟".

"وأنا أيضاً لا أزال بلا عشاء! ما رأيك، بما أنني الآن وحدي، لو نتشارك ونتناول الطعام معاً، حينئذ يمكننا أن نشكل ثنائياً لطيفاً!".

وجدت هذا الاقتراح مريحاً وذكياً جداً وأراحني شعور دافئ من جراء أنني حظيت فجأة ومن حيث لا أدري بملاذ جيد إلى هذا الحد. لذلك دعوت هولدا اللطيفة إلى أن تترك لي أمر إضافتها؛ إلا أنها لم توافق إلا على أساس المشاركة في التكاليف، وحين أتانا ما طلبنا من طعام أخرجت الفتاة محفظة صغيرة مزودة بما لا يستهان به من النقود ولم يهدأ لها بال قبل أن أتسلم منها ما ترتب عليها لكي أدفع حسابنا المشترك في الوقت المناسب. هكذا تناولنا معاً طعام العشاء في جو ودي لا تكلف فيه ولا تصنع وكانت الأمور على ما يرام؛ ولكن المخلوقة الجذابة لم تشأ أن تأكل شيئاً من البطاطا التي كنت طلبتها لها مع ما رغبت من لحم الكاستاليت. بل قالت إنني على ما يبدو لم يسبق أن كانت لي حبيبة وتجربتي في هذا المجال معدومة وإلا لعرفت أن البنات العاملات إذا ما خرجن في أيام العطل للتنزه والتمتع فإنهن لا يرغبن بتاتاً في أكل البطاطا. فسألتها كيف لي أن أعرف ذلك وأي سر خطير يمكن أن يكمن في مسألة البطاطا هذه؟

قالت:" لأنهن طول الأسبوع في أثناء العمل لا يتغذين إلا من البطاطا ويأخذن ما يكفي منها!". عبرت عند ذلك عن مشاركتي الوجدانية معهن دون أن أعترف بأنني عشت أياماً أكثر سوءاً؛ لأن اعترافاً كهذا كان ربما يصعب حصولي على احترامها، هكذا كنت أظن على الأقل.

في أثناء ذلك كان هذا الزوج من العشاق ذهب من بقية الجماعة مرة ومرة أخرى الزوج الآخر إلى الرقص في الصالة لكي يعود من جديد، فنجم عن ذلك أن غدت طاولتنا بالتناوب خالية من الناس أو مأهولة مرة أخرى. ودونما توقع عاد الآن زوجان وهما في منتهى الاضطراب والانفعال وتابعا على الطاولة مشاجرتهما التي ربما كانت نشبت في الصالة في وقت سابق. إحدى الفتاتين كانت تبكي والأخرى تنهر وتشتم، والرجلان الشابان المرافقان كانا منشغلين بتهدئة العاصفة ورد هجومات كثيرة كانت شنت ضدهما.

قالت هولدا: "الآن تتكرر الحكاية من جديد!"، ثم التصقت بي وأخذت تحكي لي بصوت منخفض عن غراميات متصالبة تخللتها حالات من القطيعة: "هذه الفتاة التي هنا أحبت فيما مضى الرجل الآخر، والفتاة الأخرى أحبت هذا الرجل الحالي؛ فيما بعد بدل الأربعة كلهم مواقعهم، ألم ترَ ذلك، فاتخذت هذه ذاك واتخذت تلك هذا حبيباً لها. ولكن كلما حلت أيام الصوم تنشب مشاجرة عنيفة بحيث يكاد العالم أن يزول وتقوم الساعة. إن عربة كهذه بأربعة أحصنة ويتحكم فيها التقاطع والسير أفقياً بالعرض لن تفلح في سفرتها، إذ لا يجوز أن يزيد أبطال قصة من هذا النوع عن اثنين!".

"ولكن لماذا يأتون معاً، بدلاً من أن يتفرقوا؟ ".

"الله وحده هو الذي يعرف السبب! إنهم يرتادون دائماً الأمكنة نفسها ويقرفص بعضهم إلى جانب الآخر وكأنهم واقعون تحت تأثير السحر!".

اعترتني الدهشة أيضاً من هذه الظاهرة ومن أحاديث صديقتي التي في مقتبل الشباب. الشجار، الذي دار حول أمور غامضة وعلى ما بدا باطلة أيضاً، تصاعد في آخر الأمر إلى حد أن زوج العشاق الثالث الذي عاش بسلام تدخل ثم توصل بعد عناء كبير إلى عقد هدنة. وأباريق البيرة، التي شارك شخصان في الشرب من كل واحد منها، ملئت من جديد. أظهرت الفتاتان حادتا الأنياب امتعاضاً وحنقاً لا من بعضهما على بعض فحسب بل كذلك من عاشقيهما. أما الحياديان فقد تدخلا ثانية فتقرر عندئذ بناء على

اقتراح هولدا أن يعمد الزوجان العاشقان المتنازعان بغية التغلب بحسم على كلتا الغيرة وعدم الجنوح إلى السلم، من جديد إلى أن يرقص كل مع القرين السابق دون أن يرمق أحد الآخر شزراً.

ونُفذ القرار أيضاً وعاد الزوجان المستبدلان بعد فترة رقص طويلة، كلا الفتاتين كانت تمسك بذراع قرينها القديم؛ ولكن بدلاً من أن يفترقا من جديد جمع الفريقان المتشكلان حديثاً أغراضهما وانصرفا إلى حال سبيلهما دون أن يقول أي منهما ولو كلمة واحدة. باندهاش شديد تبعناهما نحن – المتبقين - بنظراتنا إلى أن اختفيا وانفجرنا بعد ذلك بقهقهة صاخبة. هولدا فقط هزت رأسها وقالت: "يا للأوغاد!" وبالفعل لم يجد هؤلاء في الرقص التوازن الأخلاقي المرجو، بل مجرد إثارة جديدة لتعسفهم وربما كانوا الآن في عجالة من أمرهم لكي يمتعوا أنفسهم بعد طول انفصال بما تهيئه لهم إعادة ارتباطهم معاً من لهو وتسلية.

قبل أن كانت هدأت دهشتي من عادات هؤلاء الناس البسطاء شعرت بوجود اليد الطرية للفتاة الشابة على كتفي، التي رغبت أخيراً هي الأخرى في أن أرقص معها، ومع أنني لم أفكر في البحث عن لهو من هذا النوع ولا في إيجاده، فقد كان علي أن أستجيب لرغبة صديقتي لأنها رأت في ذلك أمراً بدهياً وعهدت بقبعتها وشالها إلى صديقتها التي كانت لا تزال مع جليسها هناك. في ضوء صالة الرقص وفي الحركة الحرة رأيت تماماً كم كانت جميلة تلك الفتاة. ولكن سرعان ما تبين أنني لم أعد أراها بل أحسست بحملها الخفيف فحسب، طرياً كريشة ناعمة، حين كانت تتطاير عني كالشبح، ولكن إذا ما توقفنا عن الرقص لم أكن أرى سوى عينيها الدافئتين بترفق وابتسامة فمها الراضية، في حين كانت هي تنشغل بشد قلادة عنقي المرتخية أو بلفت انتباهي إلى أن ثمة زراً مفقوداً من كم قميصي.

بدا أن حياة ساخنة تتنفس في المخلوقة الرقيقة البنية كما بدا أنها تتجلى في طيب مخلص لكل شيء يقترب من تلك المخلوقة، وبدأت رقة غامضة

عندي تطغى عليها من عينيها حتى كل أناملها دون أن تكون ممزوجة بأدنى أثر لتملق مزيف أو دناءة أبداً؛ لا بل كانت حركاتها على الرغم من كل ذلك متسمة بتواضع لطيف بحيث لم يلحظ أحد شيئاً منها في زحمة الراقصين، ومع ذلك لم تبدُ أنها بحاجة حتى إلى أدنى قدر من الحذر وضبط النفس.

حين توقف الرقص نتيجة لعثرات بعض الناس، وضُغطت هولدا إلى جسمي أحسست بخفقان قلبي فوضعت يدها على صدري ثم هزت رأسها بلطف بالغ وقالت: "دعني أر، هل لك قلب فعلاً؟".

أجبت: "أظن ذلك!". ونظرت بفم مفتوح إلى الوجه الفاتن القريب تماماً من وجهي، فهزت رأسها مرة أخرى وأردنا أن نواكب دوامة الرقص المنطلقة تواً من جديد فإذا صديقة هولدا تجدنا، فأوقفتنا وسلمتها القبعة والشال معلنة أنها تريد الآن أن تذهب إلى بيتها إذ إن عليها أن تبدأ في الصباح الباكر بعملها من جديد.

قالت هولدا ضاحكة: "وأنا أيضاً علي أن أكون في السابعة صباحاً خلف ماكينة خياطتي!، لأنني كنت بسبب عملي في خياطة الرايات استمهلت زبائني العاديين ولابد لي الآن من أن أعوض عليهم ما فاتهم! ولكنني لا أحب أن أذهب الآن فوراً إلى البيت!".

قالت الفتاة الأخرى: "يمكنك البقاء هنا لفترة قصيرة أيضاً، ومؤكد أن هذا الرجل الطيب، الذي هو من أصحابنا وأصدقائنا، سوف يرافقك بعد ذلك إلى بيتك، أليس كذلك؟ كن لطيفاً وافعل ذلك، أيها السيد صانع العيدان!".

وعدت بكل رغبة أن أتولى هذه المهمة، وإثر ذلك ودعنا آخر زوج من العشاق في حين عادت هولدا معي إلى الطاولة التي غدت مهجورة. وجلسنا الآن وحدنا تحت أشجار الحور الفضية؛ كان القمر يقف في أعالي السماء ولذلك كان يطل علينا فقط عبر الشعاع الخافت الذي خيم في أعلى قباب تيجان الشجر؛ في الأسفل كانت المنطقة معتمة لأن النهر لم يعد يتلألأ في ذلك المكان وكان المصباح مطفأ.

قالت هولدا: "حبذا لو نستريح هنا قليلاً ثم نذهب بعد ذلك إلى حال سبيلنا!". ثم ارتمت بلا أي حرج في ذراعي الذي ألقيته على أردافها. لكنني سحبته في أثناء ذلك بغية جلب كأس من النبيذ الساخن، فمنعتني من ذلك وأعادت الوضع السابق إلى ما كان عليه.

وقالت بصوت منخفض: " لا تشرب! الحب مسألة جدية وهو لا يريد أن يكون سكران حتى ولو كان دعابة فحسب!".

"أنى لك أن تعرفي هذا الشيء الكثير عن الحب، يا أجمل طفلة في الدنيا، وأنتِ لا تزالين بالفعل طفلة؟".

"أنا، أتممت تواً السابعة عشرة من عمري! ومنذ خمس سنوات أقف وحيدة تماماً في هذا العالم وأحافظ على كرامتي، بدءاً من العام الثاني عشر، بالعمل يومياً، وقد خبرت الناس إلى حد بعيد، ولذلك أحب العمل، فهو لي أب وأم! وثمة شيء وحيد أحبه أيضاً، أعني الحب. فقــد أفضل أن أموت على ألاَّ أحب!".

قلت وأنا أحاول أن أرى بوضوح الفم الذي أتى بكلمات كهذه: "يا إلهي، إنك قطعة حلوى باللوز والسكر!".

فهمست هولدا في أذني: "حقاً؟ ، أم هل تظن أنني قطعة من الخشب الذي يُصنع منه الخل؟ لقد سبق أن كان في هذا القلب حبيبان اثنان!".

"يا إلهي، اثنان حتى الآن! إلى أين ذهبا إذاً؟".

" كان الأول لا يزال صغير السن ويعيش هنا في الغربة؛ كان لا بد له من متابعة ترحاله ولكنه كتب إلي فيما بعد أنه وجد في وطنه حبيبة وهو يريد أن يتزوجها في يوم من الأيام. هنا ذُرفت دموع غزيرة، ولكنها لم تنفعني في شيء. ثم أتى الحبيب الثاني، غير أنه لم يشأ أن يعمل فكان علي أن أعوله تماماً تقريباً؛ لم يكتب لهذه الحال أن تستمر إلى الأبد ثم إنني كنت أخجل من نفسي بسببه فتركته يمضي إلى حال سبيله! فمن لا يعمل لا ينبغي ألاَّ يأكل فحسب، بل لا حاجة به أيضاً إلى أن يحب!".

"وهل يتسكع هذا الآن هنا في هذه المدينة؟"

"للأسف لا، لأنه يقبع الآن في السجن بسبب ارتكابه جرماً حين قطعت عنه ما كنت أمده به من المال. ولهذا السبب خجلت من نفسي وتضايقت إلى درجة أنني لم أجرؤ على رؤية أحد طوال نصف عام!".

"لكن الآن يمكنك البدء من جديد؟".

"مؤكد، من غيري يريد إذاً أن يعيش؟".

كان اضطرابي يزداد باستمرار لدى سماعي هذه المخلوقة الشابة وهي تتحدث بهذا الوعي وهذا التصميم وهذا الاستهتار ومن ثم لدى سماعي إنسانة رقيقة ومتصدعة كهذه وهي تعلن أنها تذوب في العمل والحب ولا تبتغي شيئاً من العالم عدا ذلك. ومع هــذا كانت مرة أخرى بمنزلة ظاهرة من ظواهر عالم الخرافات القديم وتحمل في يدها قانون الأعراف الخاص بها الشبيه بوردة غريبة. شعرت كأن أنثى فاتنة تكثفت فعلاً من الجو وارتمت بدم حامٍ في أحضاني.

في أثناء ذلك كان تحول حديثنا إلى مداعبة خفيفة؛ وبعد برهة قصيرة همست في أذني: "وأنت، ما وضعك؟ هل أنت متحرر من أي ارتباط؟".

"للأسف تماماً ومنذ سنين!".

"إذاً دعنا بهدوء وصمت تامين نبدأ تعارفنا ونرَ بارتياح إلى أين سيقودنا!".

ولكنها قالت هذه الكلمات المعتادة الخبيثة والمتسمة بالواقعية بصوت فتاة صغيرة تدلي بأول اعتراف لها وتعبيرها، أو إلى حد ما بنبرة واحد من تلك المخلوقات الأزلية، ظهر الآن على هيئة خادمة مسكينة لكي يعقد صفقة حب في وضع من صبا وتجديد خالدين على مر الأزمنة. بالطبع كمن هنا أيضاً اطمئنانها من أنها سوف تذهب إذا ما فقدتني إلى جدول أعمالها دون أن يلحق بها أي ضرر كما لم تتضرر أيضاً من أي فقدان آخر. شعرت بهذا بكل

وضوح وبحثت مع ذلك عن يدها الصغيرة وعن فمها الذي استقبلني بطراوة الطعام الإلهي، نقياً وفواحاً كوردة متفتحة.

قالت: "حبذا لو نذهب الآن! إذا ما أردت أن تتكرم بمرافقتي إلى منزلي، فسوف تتعرف البيت الذي أقيم فيه. تعال إلي في أيام السبت في نحو الساعة التاسعة وعندئذ سوف نتفق على ما نريد أن نفعل في أيام الأحد. أما في أثناء الأسبوع فعلينا أن نعمل بصمت ورضا دون تردد أو تمعن! يا إلهي كم أحب العمل إذا ما كان ثمة ما يدعوني إلى التفكير في الحب وإذا ما كنت متأكدة من أننا سنكون معاً يوم الأحد. وإذا ما تطور الأمر بيننا إلى حد أن نبقى معاً في الحجرة الصغيرة ونلم شملنا، فسواء إذا ما هطل المطر وهبت العاصفة؛ نجلس بهدوء ونسخر من السماء!".

"لكن من أين تعرفين، أيتها الطفلة اللطيفة الطيبة، أن كل شيء سوف يحدث ويسير كما هو مأمول في ما يتعلق بي أنا؟ من أين تعرفينني؟".

" لا تشغل بالك، أعرفك قليلاً حتى الآن ولكن على القلب أن يكون جريئاً ومبكراً في خفقانه إذا ما أراد أن يعيش. ليتك تعرف ما سبق لي أن رأيت وخبرت! إذا ما كنت بحاجة إلى عمل فبإمكاني أن أؤمن لك عملاً، فأنا أطوف وأتجول في أمكنة بعيدة وأسمع وأرى أكثر مما يظن بعضهم!".

كانت تعلقت بذراعي ومشت بجانبي بثبات وانتعاش وهي تدندن أغنية حب صغيرة وتكرر دائماً الشيء ذاته. لم أكد أصدق حواسي في أنني وقفت آنذاك على حين غرة، وأنا في قلب الشدة والعوز التي كنت وقعت فيهما ومن ثم في أكثر أعماق الوجود الموهومة ظلمة وبؤساً، أمام منهل من مناهل متعة الحياة الأكثر صفاء، أي أمام كنز غني بفتنة خلابة وهو يفيض وميضاً ولمعاناً كأنه مطمور تحت ركام وطحلب يابس.

قلت في نفسي: " إلى جهنم وبئس المصير! لقد أقام الناس في ما بينهم جبال هُيرزل عالية حقيقية، حيث لا يملك حتى أروع الفرسان أي تصور عن ذلك؛ كما يبدو، على المرء أن يصبح هو ذاته فقيراً لكي يجد الروعة!".

قالت هولدا متوقفة عن غنائها: "فيم تمعن التفكير إلى الحد الكبير الذي هو عليه الآن؟".

"الآن أراني أتمعن في السعادة الجميلة التي حظيت بها دونما توقع! ولذلك لا غرو إذا ما كنت مندهشاً بعض الشيء!".

" يا إلهي، أي كلمات مزينة هذه التي قلتها! كأنها مقتبسة من كتاب مطالعة! ولكن حين تمعنتُ في أمرك، قلت لنفسي بضع مرات إنك لا تتحدث ولا تتصرف كعامل حقيقي، وربما عشت أياماً أفضل من الآن، في حقيقة الأمر لا يجوز أن تصبح حرفياً".

"أجل، في الأمر شيء من هذا القبيل! ولكنني الآن راض عن وضعي ولا سيما في هذا اليوم!".

قالت: "تعال إلي، تعال!". ثم عانقتني وقبلتني بحرارة لا نظير لحلاوتها ولذتها إلى حد أنني تابعت سيري معها بنشوة عارمة؛ لأن طريقنا كانت طويلة.

غير أنني لم أقل كلماتي السابقة كذباً بل تابعتها في تفكيري: "لماذا لا تنخرط بين هؤلاء الناس البسطاء وتعيش معهم حياتهم المريحة والسعيدة متخلياً بذلك عن تطلعاتك المثالية وسعيك إلى الشهرة؟ لماذا لا تباشر مرة أخرى غداً فوراً عملاً كالذي مارستَه منذ أسابيع وتكون عاملاً بين العمال وتؤمن قوتك المتواضع في كل يوم وتجد في كل مساء راحتك الهادئة على هذا الصدر الناعم، الذي يزدهر على مدى فترة شبابية طويلة؟ عمل بسيط، حب رائع، وعيش قنوع، ماذا تريد أكثر؟ أَوَليس ممكناً أن يزدهر الوضع في نهاية المطاف إلى الأفضل فتتحقق كل الرغبات والآمال؟".

حين وصلنا أخيراً إلى أمام منزل هولدا، كنت مقتنعاً بأنني عشت مغامرة أصيلة ومفعمة بالسعادة ووعدت بأن ألتزم من كل بد موعد لقائنا في يوم السبت القادم. وكان بعض العائدين متأخرين إلى بيوتهم حالوا دون وداع أخير حميم، فتسللت إلى داخل بيتها بسرعة برفقة هؤلاء بعد أن عبرت ببضع كلمات مهذبة عن شكرها لي على مرافقتها.

كان القمر اقترب من مغيبه، وحركت رياح شديدة الآلاف من الرايات في الشوارع التي غدت هادئة بحيث كان كل شيء في كل مكان، في الوديان وعلى سطوح البيوت والبروج، يجيش ويرفرف وكأن أيدي أشباح كانت تحركه، لكن في داخلي كذلك عبر كل الشرايين تموج، وهس الآن فقط الولع الجارف المستيقظ تواً، متوحشاً ووديعاً، حلواً ووقحاً في آن واحد، كما تموج وهس أيضاً الأمل في أنني، بل التيقن من أنني، سوف أمتلك في غضون بضعة أيام كنزاً من وسائل السعادة لم أكن أحلم به قبل ساعات.

وهكذا عدت إلى مسكني المقفر، الذي ما عدت دخلت إليه منذ الصباح الباكر الأخير.

* * *



الفصل السادس

أحلام ذات صلة بمسقط رأسي

حل الموت بالبيت الذي كنت أقيم فيه؛ وكان لابد لي من أن ألتقيه على الدرج، إن صح التعبير. بعد الظهر كانت صاحبة البيت تنتظر مولوداً، أما الآن فهي مستلقية ميتة في الحجرة المعتمة إلى جانب طفل ميت. مررت بالباب المفتوح؛ كانت ثمة داية وجارة ترتبان الحجرة وتهدئان الأطفال الباكين الذين كانوا تدفقوا من غرفة نومهم. وعلى أحد الكراسي كان يجلس الرجل، الذي عاد إلى بيته قبلي بقليل بعد أن قضى يومه منذ قبل الظهر في المواكب الاحتفالية واللهو ووصل إلى البيت قبل أن أصل إليه بفترة قصيرة بعد أن تعذر إيجاده في الأمكنة المعتادة. كان يمارس مهنته خارج البيت بطريقة لم أكن أعرفها، وما كان يكسبه كان ينفق معظمه على شؤونه الخاصة، وكانت الزوجة المتوفاة حجر الزاوية في كيان العائلة ومعيلتها.

والآن كان الرجل يجلس صامتاً حائراً وممتقع اللون في وسط البؤس والشقاء؛ فحمرة المرح المخيم على وجهه زالت من أساسها، وبدلاً من أن يستطيع البحث عن النوم كان عليه أن يبقى مستيقظاً من دون أن ينفع أو يساعد في شيء. كان ينظر بعين التهيب إلى المخلوقة مبهمة المعالم والملفوفة بملاءة من القماش التي فنيت في خضم الأوجاع والآلام قبل أن ترى ذلك اليوم. كان يهز رأسه برعشة وينظر إلى الأم؛ أما هي فكانت ملقاة جثة متصلبة ولا حراك فيها كما يليق بميتة محنكة؛ ولم يلمسها لا الزوج ولا

الأبناء ولا الجيران؛ وحتى الصغير الذي بجانبها لم يعنها في شيء على الرغم من أنها قبل قليل كانت ضحت بحياتها من أجله.

الأطفال، الذين حُبسوا وأُهملوا في أثناء فترة الموت العصيبة، كانوا يجوعون ويصرخون وسط بكائهم وعويلهم بحزن وبؤس على الأم طالبين القوت والطعام، إلى أن استجمع الزوج قواه وأخذ بأعضائه المشلولة يبحث هنا وهناك عن مكان آخر طعام كانت حضرته الزوجة أو أين تركته. وفعل ذلك مكرهاً وكأنه كان يسمعها تقول له: "امش إلى هناك، ترَ الحليب، وهناك يوجد الخبز، وفي الطاحونة لا تزال ثمة قهوة باقية!"، لكنها لم تقل أي شيء.

اقتربت أكثر من جماعة البؤس وسألت عما إذا كان بإمكاني أن أفعل شيئاً، فقالت إحدى النساء إن الأطباء أمروا بالنقل الفوري إلى صالة الجثث؛ ويستحسن أن تؤخذ الجثتان إلى هناك في الصباح الباكر فوراً، ولكن لا يوجد أحد إذا لم يذهب الزوج لأداء هذه المهمة. عرضت خدمتي للقيام بهذا العمل وقرعت بعد ذلك بعشر دقائق جرس الغرفة التابعة لحراسة الموتى. وبعد أن أخبرت الحارس بما كان لازماً، نظرت عبر باب زجاجي إلى داخل القاعة حيث كان الموتى من جميع الطبقات والأعمار يستلقون ممددين كأهل السوق الذين ينتظرون حلول الصباح أو كالمهاجرين الذين ينامون في ساحة الميناء فوق أمتعتهم. من بينهم رأيت أيضاً فتاة شابة راقدة على مضطجع من الزهور. صدرها، الذي لم يكتمل ازدهاره بعد، ألقى على كسوة الآخرة ظلين باهتين؛ هنا تذكرت ما عايشته في هذه الليلة وما عقدت العزم عليه ثم أسرعت مفعماً بالشك والاضطراب والهلع والإرهاق، باحثاً عن النوم.

ولكن هذا النوم كان عاصفاً وغير مريح، فحيناً كانت توقظني الأحداث المحزنة التي جرت في البيت، وحيناً آخر كنت محاطاً برؤى نصف مستيقظة واختلطت فيها بشكل متواصل صور الأحياء بصور الجاهزين للقبر وكلمات الحب المتزلفة بالنواح على الموتى، تنفست الصعداء حين حل الصباح واستطعت على الأقل أن أستجمع أفكاري.

ولكن تلك الأفكار ما لبثت أن تنازعت في ما بينها؛ فحين نهضت واقفاً وأمعنت، واضعاً يدي على جبيني، التفكير في ما حدث في واقع الأمر وفي ما سأفعل قبل كل شيء، ترددت في ما إذا كان ينبغي علي أن أتقهقر أمام ظل الموت الجدي الذي أنذرني أو أقتفي مع كل ذلك أثر صورة الحب التي أغوتني في هيئة الفقر الكامن في عالم العمل. بقي الإغواء منتصراً؛ فقد بدا لي تماماً أن من الأفضل أن أجد على الصدر الطري لحياة فتية عزاء وثقة وأجد نفسي ذاتها من جديد، كلما ازداد الوجدان جدية في تحذيره من البدء في وضع كهذا في صفقة الحب وعقد تحالف مريب إلى حد كهذا، ازداد تدفق الدوافع للوفاء بالعهد والحفاظ على الكرامة والشجاعة لدى تحقيق القصد.

حتى إنني قررت الذهاب إلى المخلوقة الفاتنة في مساء اليوم التالي بدلاً من نهاية الأسبوع، ولكن قبل ذلك وددت المرور على العجوز بائع السلع القديمة لكي أتباحث معه في أمر تأمين عمل لي متواضع وبسيط كالعمل السابق.

وهكذا غادرت بعينين وشفتين متعطشتين للحياة بيت الحزن، الذي أخرجت منه قبل ساعات جثة الأم مع جثة ابنها الأخير. لم أر الأطفال المهجورين، الذين كانوا جالسين بهدوء، وباب المنزل مفتوح، بجانب كومة هامدة. وحين خرجت بعد ذلك من البيت وهرولت إلى الشارع اصطدمت برجل شاب كان يقود على ذراعه امرأة جميلة. كلاهما كان مرتدياً ثياباً أنيقة في زي سفر نظيف، وكان واضحاً أنهما يسعيان إلى إيجاد رقم بيت كان دُوِّن على قصاصة ورق حملاها معهما. تراءى لي أنني أعرف الرجل دون أن أفكر في ذلك في شيء محدد من جراء حالي المشتتة آنذاك؛ ولكنني حين أردت أن أتنحى عن طريقهما، تمعن الرجل في النظر إلي بدقة أكثر ثم قال بلهجة بلدنا:
"يا إلهي، إنه هنا حقاً! ألست السيد هاينريش لي الذي نبحث عنه فعلاً؟".

بفرح وفزع في آن واحد عرفت في الرجل جاراً لنا حرفياً من سكان مدينتنا كان ارتحل عنها قبل أعوام، تقريباً في الفترة التي شَهدت رحيلي أنا أيضاً ذاتها، ثم عاد قبل وقت طويل بعد أن صار معلماً في حرفته وتولى

عمل أبيه بل وسعه، والآن كان يقضي شهر العسل في المنطقة التي كنت أقيم في ربوعها. ولكن سفرته هذه انطوت أيضاً على غايات جانبيه على جانب كبير من الذكاء ما دامت البنت البورجوازية الثرية، التي كان يقودها على ذراعه بصفتها زوجاً له، كانت قدمت له الوسائل اللازمة للقيام بمشاريع مجدية نفعاً.

عندها أبلغني تحيات أمي، التي كان زارها لهذه الغاية قبل رحيله. كانت مضطرة مع شيء من الخجل لأن تعترف لجارنا أنها لا تعرف بصورة أكيدة أين أنا ولا إن كنت لا أزال أقيم في المكان القديم؛ ولكنها تمنت باشتياق ملحّ أن تعرف مزيداً من الأخبار عني. وأنا أيضاً اعتراني الارتباك والتردد في أن أكثر من الأسئلة عنها لأنني بذلك قد أفصح عن أنني كنت لا أعرف عن أوضاعها شيئاً يذكر؛ إلا أنني لم أقاوم طويلاً حاجتي الملحّة فسألت بجد عما تاقت نفسي إلى معرفته.

قال ابن البلد وهو يزداد تمعناً فيّ: "والآن، سوف نتحدث عن كل شيء. يبدو أنك تغيرتَ إلى حد كبير، أليس كذلك يا زوجي؟ لابد أنك كنت تعرفين السيد هاينريش من قبل أيضاً؟".

فردت تقول بينما ظهرت لي أنوثتها البالغة أشدها بصفتها أمراً غريباً كل الغرابة: "أظن أنني أتذكره، على الرغم من أنني كنت آنذاك لا أزال تلميذة صغيرة في المدرسة". في أثنـــاء ذلك شعرت كيف كانت تنظر باشمئزاز إلى بذلتي المفتقرة تماماً إلى أدنى درجات الفخامة إذ إنها لم تكن جديدة كما لم تكن أيضاً في وضع جيد؛ ولأول مرة أحسست بالذل من جراء ارتدائي ثياباً رديئة، وزاد من ارتباكي سؤال ابن البلد عما إذا كان ممكناً الصعود إلى مسكني؟ ولكن لحسن الحظ عاد علي حدث الموت بالفائدة بصفته ذريعة لتعذر قيامي بالاستضافة، ولهذا السبب تحديداً اضطررت إلى الخروج من مسكني.

"أتسمح لنا إذاً بأن ندعوك لقضاء اليوم معنا؟ أتينا إلى هنا يوم أمس؛ ولكنني أنجزت البارحة بعض الأعمال، وفي الصباح الباكر سوف نتابع سفرنا، ولذلك لن تضيع معنا وقتاً طويلاً؛ لأننا لا نريد بأي حال من الأحوال أن نعطلك عن أشغالك!".

ابن البلد الطيب لم يخمن كم كان وقع كلامه علي مؤلماً؛ إلا أنني أكدت له ألاَّ خطر في ذلك وأنني لست مجداً في أعمالي إلى هذا الحد الأقصى. بعد أن تسكعت إثر ذلك بزوج السفر بضع ساعات ذهبت معهما إلى الفندق، المتواضع على المستوى الطبقي، الذي كانا أقاما فيه وشاركتهما في تناول طعام الغداء. وقد جعلتني عادة التحدث بلهجة البلد وعن أمور مألوفة من زمن بعيد، تلك العادة التي كنت تخليت عنها، أنسى الحضرة ولا سيما حين نشرت زجاجة من نبيذ الراين الجيد رائحتها الطيبة. وسلوك الزوجين، الهادئ اللطيف الذي لم يكشف عن وضعهما العائلي الجديد عبر أي مداعبات ثقيلة الظل، كان من شأنه أن زاد الارتياح الذي داهمني كنظرة شمس عابرة من سماء غائمة وذات جو حار ورطب.

وحين طلب الآن ابن البلد زجاجة ثانية من النبيذ وكانت بقية الضيوف غادرت طاولات الضيافة، انسحبت الزوجة الشابة إلى غرفتها لكي ترتاح قليلاً، على حد قولها. في حين غدونا نحن ميالين إلى الحديث أكثر مما مضى وذلك إلى أن قطع الجار الطيب حديثه بنفسه وبدأ، بعد البحث عن كلمات مخلصة، يقول: "لا أخفي عليك، يا سيد لي، أن أمك بحاجة ماسة إلى عودتك إليها وبودي أن أنصحك أن ترجع إلى بلدك بأسرع ما يمكن؛ إذ بينما تحاول السيدة الفاضلة أن تكتم أعمق الهموم واشتياقها إليك، فإننا نرى بوضوح كيف تستنزف طاقاتها من جراء ذلك وتفكر في هذا الأمر دون غيره ليل نهار. لا أعرف إن كنت مخطئاً، ولكن قد يبدو لي أن أوضاعك ليست على ما يرام وأرى أنك الآن في مرحلة يكابد فيها السادة الفنانون الكثير من المتاعب لكي يخرجوا أخيراً من المعركة بمكانة مرموقة. ولكن لكل شيء حدوده! ينبغي

عليك أن تتوقف عن عملك لفترة وترى بلدك من جديد حتى ولو كنت لن تأتي مكللاً بالغار. ففي حال كهذه يمكن أن يُنظر إلى الأمور ويؤخذ بناصيتها في أغلب الأحيان من زاوية جديدة".

ثم أمسك بكأسه وشرب معي نخب البلد والأم ثم فكر قليلاً وتابع حديثه:

"ثمة نسوة طويلات اللسان وقليلات العقل ورجال أيضاً على هذا النحو في مدينتنا، إذ أشيع أن أمك أرسلت إليك بعض المبالغ من المال فقللت بذلك إلى حد كبير من دخلها الخاص، خطر على بالهم أن يعيبوا على أمك من وراء ظهرها ويقولون لها أيضاً دون أن يسالوها عن ذلك إنها ارتكبت خطأ؛ وفي آن واحد قدمت لابنها خدمة لا يعتد بها كما حمَّلت نفسها عبئاً ثقيلاً. وكل من يعرف السيدة يعرف أن الوضع يمكن أن يكون أي شيء آخر غير ذلك؛ إلا أنه تهيبت الثرثرة اللامعقولة إلى حدّ أنها أقلعت عن الاختلاط بالناس وهي تعيش الآن في جو من العزلة وإنكار الذات.

"وهي تجلس طول يومها أمام النافذة منشغلة بالغزل، وتغزل طول الوقت، كأن عليها أن تجهز سبع بنات للزفاف، لكي يتجمع في أثناء ذلك – على حد قولها- شيء يعتد به فيجد ابنها على الأقل مدى حياته ولبيته كله ما يكفي من قماش الكتان. تظن أمك على ما يبدو أنها بفضل هذه المؤونة من القماش الأبيض، الذي يُنسج لها في كل عام، تستدرج سعادتك على ما يشبه إلى حد ما شبكة ممدودة لكي يملأها بيت فعال للزوجية وذلك كما يُغري دفتر من الورق الأبيض الفقهاء والأدباء على سبيل المثال لكتابة عمل جيد عليه، أو كما تستدرج قطعة كتان مشدودة الرسامين إلى رسم لوحة".

لدى المقارنة الأخيرة، التي أوردها المتحدث الفاضل، لم أتمالك إلا أن ابتسمت بمرارة، فبدا ذلك عنده برهاناً على صحة ظنونه وتابع يقول:

"من حين لآخر تسند رأسها لكي تستريح على يدها وتنظر بثبات إلى الحقول البعيدة من فوق السطوح أو إلى الغيوم العالية؛ ولكن ما إن يحل وقت الغسق حتى يتوقف مغزلها عن الدوران وتبقى هي جالسة في الظلام دون أن

تشعل النور، وإذا ما سقط ضوء القمر أو شعاع ضوء غريب على نافذتها، كان بالإمكان رؤية شكلها فيه بكل وضوح وتأكيد وهي تنظر باستمرار بنفس الطريقة إلى الآفاق البعيدة.

ولكن من المحزن حقاً أن يراها المرء وهي تقوم بتشميس فرش الأسرَّة ولحفها ووسائدها؛ فبدلاً من حملها بمساعدة آخرين إلى ساحتنا حيث توجد النافورة الكبيرة، تعتلها إلى سطح بيتكم الأسود العالي وتنشرها هناك باتجاه الشمس ثم تمشي بهمة ونشاط على السطح المائل في كل الاتجاهات، حافية القدمين ولكن إلى الحافة فقط، وتنفض وسائد الرأس والوسائد الكبيرة وتقلبها ظهراً لبطن ثم تنفضها وتعالج الأمر بمجمله وحدها وفي الأعالي تحت سماء مكشوفة إلى حد أن مشاهدتها كانت بحاجة إلى جسارة فائقة وتنطوي على غرابة ولا سيما حين تضع يدها فوق عينيها ممعنة في التفكير وناظرة إلى الأفق البعيد وهي تقف في الأعالي معرضة نفسها للشمس. وذات مرة لم أعد أستطيع رؤية ذلك انطلاقاً من فسحة بيتنا حيث كنت آنذاك أقف مع الصناع؛ فذهبت إلى هناك وصعدت إلى ما تحت السطح ثم تحدثت إلى أمك من تحت الكوة لافتاً انتباهها إلى خطر ما تفعل، ولكنها اكتفت بابتسامة وشكرتني على حسن نيتي. لذلك كله أرى أن تسافر إلى بلدك في الحال، وخير البر عاجله! حبذا لو سافرت معنا بأقرب فرصة!".

غير أنني أنني هززت رأسي؛ لأنني لم أستطع أن أعقد العزم على الإفصاح عن إخفاقي وأغادر هكذا مجال تأهيلي. نويت أن أبرأ من هذه الرزية اعتماداً على نفسي فحسب وأعود في الوقت المناسب بمصير واضح بشكل أو بآخر. بكلام غامض، لم أنافق فيه بإظهار ثقة كبيرة بالنفس كما لم أعترف من خلاله بوضعي الفعلي، قضيت الجزء المتبقي من ذلك اليوم إلى أن ودعت في وقت متأخر من المساء ابنَي بلدي اللذين أرادا السفر في الصباح الباكر من اليوم التالي.

مع ذلك كانت صورة الأم الناظرة إلى الأفق البعيد أيقظت شعوراً قوياً من الاشتياق والحنين لم يسبق أن اعتراني من قبل إلا في أثناء نومي، أعني أنني مذ أقلعت عن شغل خيالي وشغل قدرته على التشكيل في أثناء النهار، تحرك العاملون فيه في أثناء النوم بتصرفات مستقلة وأوجدوا بفعل عقل وتتابع منطقي ظاهرين خليطاً من الأحلام بأكثر الألوان توهجاً وبأكثر الأشكال تنوعاً. وتماماً كما تنبأ لي من ناحية أخرى ذلك الفنان المخبول والمعلم المحنك، سرعان ما حلمت الآن مرة بمدينة موطني وأخرى بالقرية متحليتين ومتغيرتين بطريقة عجيبة دون أن أستطيع ذات مرة الدخول إليهما، أو حين كنت أخيراً هناك استيقظت فجأة بانزعاج. طفت عبر أجمل المناطق في بلادي، التي لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، رأيت جبالاً ووديناً وأنهاراً ذات أسماء لم يُسمع بها ولكنها مع ذلك معروفة جيداً؛ كانت أسماؤها ترن كالموسيقى وتحمل مع ذلك شيئاً مضحكاً.

بسبب أخبار ابن البلد كانت اختفت من ذاكرتي فتاة مساء أمس، هولدا، كما اختفت أيضاً الخطط الصباحية لهذا اليوم؛ فأسرعت في حالة من الإرهاق إلى البحث عن النوم ومن جديد استسلمت أيضاً في الحال لحياة ناشطة من الأحلام. اقتربت من المدينة، التي كان بيت أسرتنا يقع فيها، على طرق عجيبة وضفاف أنهار واسعة، وكانت كل موجة فيها تحمل شجيرة ورد سابحة بحيث تعذر لمعان الماء بعد أن غطتها غابة من الزهور الزاحفة فوقها. على الضفاف كان فلاح يحرُث أرضه بمحراث ذهبي وثورين أبيضين كالحليب وتنبت تحت حوافرهما زهور كبيرة من القنطريون العنبري. خط الحراثة امتلأ بحبوب ذهبية كان الفلاح، وهو يقود المحراث بيد، يغرفها باليد الأخرى ويرميها بعيداً في الهواء فتسقط علي كمطر ذهبي. ولقفت منها بالقبعة بقدر ما استطعت واستمتعت برؤية تحولها إلى ميدالية ذهبية صافية صُكت عليها صورة رجل سويسري عجوز بلحية طويلة وسيف ذي يدين. انهمكت في عدها بحماس، ولكنني مع ذلك لم أستطع إحصاءها تماماً بل ملأت بها كل الجيوب؛

وما لم أعد أتمكن من إدخاله في جيوبي، رميته من جديد في الهواء. وهنا تحول مطر الذهب إلى حصان ذهبي رائع ضرب الأرض بحوافره وهو يصهل فتدفق منها أجمل الشوفان، إلا أن الحصان أنف منه ورفض أكله. كل حبة من الشوفان كانت لب لوزة حلواً وزبيبة وقرشاً جديداً، صُرت كلها معاً في قطعة قماش من الحرير الأحمر ثم لُفت بخيط صغير من شعر الخنزير دغدغ الحصان بارتياح حين تمرغ فيه بحيث صاح صاهلاً: "الشوفان يخزني!".

طردت الحصان من مخبئه وامتطيت صهوته، إذ كان مزوداً بسرج جميل ثم سرت على مهل على ضفة النهر ورأيت كيف كان الفلاح يحرث في وسط الورود السابحة وكيف غرق فيها مع فريق عمله. أشرفت الورود على النهاية وتجمعت في حشود كثيفة ثم سحبت إلى مسافة بعيدة ونشرت في الأفق احمراراً واسعاً؛ أما النهر فقد ظهر الآن كشريط عصي على القياس من الفولاذ الأزرق الجاري. في غضون ذلك كان محراث الفلاح تحول إلى سفينة؛ فركب فيها هذا وأخذ يجذف بشفرة المحراث الذهبية ويغني: "وهج الألب ينطلق ويطوف حول البلاد في كل الاتجاهات!". وهنا أحدث ثقباً في أرضية السفينة ودس فيه فم بوق ثم مصَّه بقوة فدوى إثر ذلك بصوت عالٍ كبوق عسكري وقذف بشعاع دفاق متلألئ من الماء كان من شأنه أن شكل أروع نافذة في السفينة وصنع منه على ركبتيه وبقبضة يده اليمنى سيفاً كبيراً بحيث كان الشرر يتطاير في أثناء ذلك. وحين انتهى من صنع السيف اختبر حدته بشعرة لحية منتوفة من مكانها ثم ناوله بكل لطف وتهذيب إلى شخصه ذاته، بعد أن تحول فجأة إلى فيلهلم تِلّ، الذي قام بتمثيل دوره في مسرحية تِلّ ذلك المضيف البدين في أثناء فترة شبابي المبكر. فأمسك هذا بالسيف ثم لوَّح به وغنى بصوت عالٍ:

"هايو، هايو! أنا لا أزال هنا أيضاً

وأفرح دائماً بمهارتي في إطلاق الأسهم!

هايو، هايو! مضى زمن بعيـــد،

وسهم تِلّ لا يزال يطير حتى اليوم!

إلى أين تنظرون؟ ألا ترونه؟

إنه يرقص هناك في الضوء العالي!

ولا يُعرف له مستقر،

هايـــو

ثم قطع تِلّ البدين بسيفه شظية كبيرة من جدار السفينة، الذي كان الآن قطعة من الشحم، ثم دخل بها إلى المقصورة بطريقة احتفالية لكي يتناول وجبة خفيفة من الطعام.

في أثناء ذلك تابعت امتطائي صهوة الحصان إلى أن وصلت فجأة إلى وسط القرية التي كان خالي يقيم فيها. كدت ألاَّ أعرفها ثانية لأن كل البيوت على وجه التقريب بُنيت من جديد. وكان الناس جميعاً يجلسون خلف النوافذ المضيئة حول الطاولات ويأكلون دون أن يكترث أحد للشوارع الخالية من البشر، ولكن ذلك سرني أيما سرور؛ لأنني اكتشفت الآن فحسب أنني كنت أجلس على حصاني الرائع بثياب رثة. لذلك سعيت أيضاً إلى الوصول دون أن يراني أحد إلى وراء بيت خالي الذي لم أكد أستطيع إيجاده. وأخيراً تعرفته وكان مكسواً كلياً باللبلاب ومغطى علاوة على ذلك بأشجار الجوز القديمة بحيث تعذرت رؤية حجر أو قطعة قرميد بل مجرد قطعة صغيرة هنا وهناك بحجم اليد من زجاج النوافذ كانت تومض من حين لآخر عبر الخضرة. كنت أرى شيئاً يتحرك في الخلف، ولكن لم يتضح لي ما رأيت. كانت الحديقة مغطاة بأدغال من زهور حقلية برزت منها مرتفعة بقدر علو الشجر نباتات الحدائق المعتادة، كإكليل الجبل والشمرة ودوار الشمس وعنب الذئب. أسراب من النحل، الذي غدا جموحاً، كانت تطوف هادرة فوق أدغال الزهور؛ ولكن في بيت النحل كانت تقبع رسالة الحب تلك، التي كنت كتبتها من أجل آنَّا وكانت الريح حملتها إلى هناك في يوم من الأيام، متآكلة بفعل العوامل الجوية ومفتوحة دون أن يجدها أحد طوال السنوات الماضية.

التقطتها من على الأرض وأردت أن أدسها في جيبي فانتزعت من يدي وحين التفت إلى ما حولي رأيت يوديت وقد تسللت بالرسالة ضاحكة إلى ما وراء بيت النحل وقبلتني في أثناء ذلك عبر الهواء بحيث شعرت بدفع القبلة على فمي. ولكن القبلة كانت في واقع الأمر قطعة من كاتو التفاح كنت ألتهمها برغبة. ولكن يبدو أنها لم تسد رمق الجوع الذي كنت أحس به في نومي، فقد فكرت في أنني ربما كنت أحلم وأن مصدر الكاتو هو التفاحات التي أكلتها ذات مرة مع يوديت ونحن نتبادل القبل. لذلك وجدت أن من الأنسب أن أدخل إلى البيت، حيث من المؤكد أن طعاماً شهياً أُعد هناك. أفرغت خُرجاً ثقيلاً كان ظهر لي فجأة على ظهر الحصان حين ربطته بسياج الحديقة المتهدم. فتدحرجت من الخُرج أجمل الثياب وقميص جديد ناعم زُين صدره بتطريزات على هيئة عناقيد عنب وسوسنات صغيرة. ولكن حين فتحت هذا القميص وطني الصنع تحول إلى قميصين وتحول القميصان بدورهما إلى أربعة والأربعة إلى ثمانية، باختصار انتشرت على نطاق واسع كمية من الملابس الداخلية التي هي غاية في الجمال، وكم بذلت من جهد في محاولة إعادتها من جديد إلى الخُرج ولكن دون جدوى. كانت القمصان وقطع الثياب تزداد باطّراد وتملأ المكان المحيط بي؛ أحسست بأشد الخوف من أن يفاجئني أقاربي برؤية هذا الوضع الغريب، وفي لحظة من اليأس تناولت أخيراً واحداً من القمصان لكي أرتديه ووقفت باستحياء وراء شجرة جوز؛ ولكن كان بالإمكان رؤية هذه البقعة انطلاقاً من البيت فانزلقت بخجل إلى ما وراء شجرة أخرى ثم انتقلت باستمرار هكذا من شجرة إلى شجرة إلى أن كنت بدلت ملابسي بارتباك وتسرع لدى اقترابي بشدة من البيت وتوغلي في عمق شجرة اللبلاب؛ لبست الثياب الجميلة وكدت لا أستطيع الانتهاء من هذه العملية؛ حين انتهيت منها أخيراً وجدتني من جديد في وضع حرج جداً إذ تحيرت أين أخفي الصرة الحزينة من الثياب القديمة. فأينما كنت أحملها، كانت تسقط قطعة بالية منها على الأرض؛ وفي نهاية المطاف أفلحت بعد

جهد جهيد في رمي الثياب في جدول الماء إلا أنها أبت بالمرة أن تتابع السباحة، بل صارت تدور بهدوء في مكانها ذاته. وهنا عثرت على عود فاصولياء هش وعذبت نفسي في سحب الخرق اللعينة إلى تيار الماء الجارف؛ ولكن العود كان يتكسر دائماً المرة تلو الأخرى حتى لم يبقَ منه سوى آخر جُذمة صغيرة.

في تلك اللحظة مست نسمة وجنتي، فإذا آنّا تقف أمامي وتقودني إلى البيت. صعدت معها السلم يداً بيد ودخلت إلى الحجرة التي كان تجمع فيها الخال والعمة وبنات الخال وأبناؤه، فتنفست الصعداء ونظرت إلى ما حولي؛ كانت حجرة الجلوس القديمة منظمة على طريقة أيام الأحد ومضاءة بأشعة الشمس إلى حد أنني لم أفهم من أين أتى كل هذا الضوء مخترقاً شجر اللبلاب الكثيف. كان خالي وعمتي في أفضل سني عمرهما وكانت بنات الخال الفتيات إضافة إلى أبنائه أكثر تألقاً من أي وقت مضى، وكان المعلم(*) أيضاً رجلاً جميلاً ومرتباً كشاب فتي، ورأيت آنّا كفتاة بعمر أربعة عشر عاماً بثوب مكسو بورود حمراء وبطوق عنق، مكشكش ولطيف.

لكن ما كان غريباً هو أن الجميع بمن فيهم آنّا أيضاً كانوا يحملون في أيديهم غلايين خزفية ويدخنون تبغاً طيب الرائحة، وأنا أيضاً مثلهم. وفي أثناء ذلك لم يهدؤوا، الأموات منهم والأحياء على حد سواء، لحظة واحدة بل كانوا يمشون في الحجرة بصورة متواصلة صعوداً وهبوطاً ذهاباً وإياباً وعلى وجوههم ملامح بهيجة لطيفة، وفي ما بينهم بمستوى منخفض إلى الأرض تجمع كلاب الصيد والغزال والنمس المروض والصقور والحمامات في وضع من وفاق سلمي، إلا أن هذه الحيوانات كانت تتبع في تجوالها في الحجرة الطريق المواجه لخط البشر فأسفر ذلك عن نسيج رائع من الفوضى.

(*) والد آنّا، المترجم.

كانت طاولة الجوز الثقيلة على قوائمها الملتفة مغطاة بقماش دمقسي أبيض ومجهزة بوليمة زفافية ذات رائحة طيبة ومنتشرة في أرجاء المكان، فسال لعابي وانفتحت شهيتي للطعام وقلت لخالي العجوز: "يا إلهي، يبدو أنكم هنا تعدون العدة لقضاء وقت ممتع ومريح!". فرد بقوله: "أمر بدهي!". وكرر الجميع بأصوات ذات وقع مريح: "أمر بدهي!". وفجأة أمر الخال بالجلوس إلى المائدة؛ فجمع الكل غلايينهم ونصبوها على هيئة هرم على الأرض، كل ثلاثة على حدة كما يفعل الجنود ببنادقهم. إثر ذلك بدا أنهم نسوا من جديد أنهم أرادوا تناول الطعام؛ لأنهم صاروا يطوفون لاحقاً كما في السابق هنا وهناك في أرجاء الحجرة وبدؤوا يغنون تدريجياً:

"نحن نحلم ، نحن نحلم،

نحن نحلم ونتلكأ،

نسرع ونمكث،

نوجد هنا ونوجد أيضاً هناك،

ونحمل دائماً عصا الترحال،

مَن لا يناسبه ذلك؟

كم هي جميلة هذه القصيدة!

هالو، هالو!

وليهنأ كل ما يختال على الأرض في لباس أخضر،

الغابات والحقول، الصيادون والصيد!"

غنت النسوة وغنى الرجال بانسجام مس شغاف القلب، وبدأ الخال يترنم بكلمة "هالو" بصوت قوي بحيث استجابت لذلك الجماعة كلها وانتشت بتطريب مصعَّد، وانحلت في الوقت ذاته في ضباب مضطرب بعد أن غزا وجوهها الشحوب المتزايد باطّراد، في حين صرت أنا أبكي وأنتحب بمرارة. استيقظت

غارقاً في الدموع ووسادتي أيضاً كانت مبللة بسبب ذلك. وحين استجمعت فكري بعد جهد وعناء كان أول ما خطر لي على البال هو المائدة المعدَّة إعداداً جيداً؛ لأنني لم أستطع بعد أن سمعت أقوال ابن البلد أن أتناول في ذلك المساء أي طعام ولذلك جعت من جديد في أثناء النوم. وحين تبصرت الآن في الشره، الذي أجبرني على الرغم من رونق الخيال الجامح على أن أحلم في النهاية باستمرار بالمال والملك والثياب والطعام فقط، بكيت من جراء هذا الإذلال المستجد إلى أن استسلمت للنوم من جديد.



*   *   *

الفصل السابع

تواصل الأحـلام

في غابة كبيرة وجدت نفسي من جديد وصرت أمشي فوق ممر ضيق وغريب من ألواح خشبية متلوية عبر الأغصان وتيجان الشجر، فشكل ذلك نوعاً من إقامة جسر معلق لا نهاية له، بينما ظلت الأرض المريحة في الأسفل طبقاً لمسيرة حلم صحيح خارج نطاق الاستخدام. ولكن كم كانت جميلة رؤية قاع الغابة من عل وهو مكسو بطحالب خضراء اللون وراقدة في عتمة عميقة، وفوق الطحالب نبتت زهور كثيرة ومتنوعة على شكل نجوم وكانت تحملها سيقان تترجح وتميل بها دائماً نحو المتسلق الذي ينظر إليها من الأعلى؛ بجانب كل زهرة كان يقف قزم صغير أو أنثى طحلبية صغيرة مهمتها إضاءتها بواسطة ياقوتة تشع في مصباح ذهبي بحيث كانت الزهرة المضاءة تومض من العمق إلى الأعلى كنجمة زرقاء أو حمراء؛ وبينما كانت هذه التشكيلات من نجوم الزهور، التي كانت تتجمع غالباً في صور جميلة، تدور في المكان بوتيرة أبطأ أو أسرع كانت المخلوقات الصغيرة الدقيقة تسير حولها بمصابيحها الصغيرة موجهة شعاع الضوء بدقة وعناية إلى كؤوس الأزهار. وهكذا ظهرت هذه الإضاءة الدائرة في العمق انطلاقاً من الدرب العالية، المكونة من دعامات وألواح خشبية، كسماء تحت الأرض مكسوة بالنجوم مع فارق أن هذه كانت خضراء وكانت النجوم تشع في كل الألوان.

تابعت سيري مفتوناً بما حولي فوق الجسر المعلق وأبليت فأحسنت البلاء عبر تيجان أشجار الزان والبلوط لأنني أدركت أن قاعاً وأرضاً مزينين لا يصلحان للسير على الأقدام. كنت أحياناً أتوغل إلى داخل مجموعة من أشجار الصنوبر التي كانت أكثر إضاءة بقليل؛ وكانت الأغصان الحمراء المتوجة أشجار الزان والمتوهجة بأشعة الشمس والفائحة بقوة برائحة زكية أتاحت لي نظرة وإقامة رائعتين، لأنها بدت وكأنها أعدت وأُنجزت بطريقة صناعية وزُينت بصورة نادرة، إلا أنها بقيت مع ذلك كياناً طبيعياً من الأغصان. أحياناً كان الممر يقودني أيضاً من فوق الأشجار تماماً إلى ما تحت السماء المكشوفة وأشعة الشمس وكنت أقف على السور المترنح لكي أرى على ما يطل في حقيقة الأمر؛ ولكنني لم أر سوى بحر لا نهاية له من قمم أشجار خضراء على مد النظر، وعلى سطح ذاك البحر كان يتلألأ يوم صيفي حار وآلاف من حمامات برية وعصافير وغربان زرقاء ونقارات خشب وصقور كانت تحوم مرفرفة هنا وهناك، والرائع في الأمر هو أنه كان بالإمكان تعرف أكثر الطيور بعداً بكل وضوح والتمييز بين أشكالها وألوانها. وبعد أن جلت بنظري فيما حولي بما يكفي، حولته من جديد إلى الأعماق المعتمة فاكتشفت حينئذ هوة صخرية كانت تستأثر وحدها دون غيرها بضوء الشمس. في القاع الأعمق امتد مرج صغير على ضفاف جدول ماء صاف؛ وفي وسط المرج جلست أمي على أريكة صغيرة من القش في ثوب راهبة بني اللون وقد اشتعل شعرها شيباً. كانت طاعنة في السن ومنحنية الظهر، وبصرف النظر عن بعد العمق الساحق فقد استطعت تعرّف كل ملامحها بدقة. كانت ترعى بعصاً خضراء قطيعاً صغيراً من الطواويس الفضية وإذا ما أراد واحد أن يبتعد عن قطيعه كانت تضربه بهدوء على جناحه فتتطاير منهما بعض الريشات اللامعة وتحوم عابثة في أشعة الشمس. ولكن على ضفة الجدول الصغير كانت وضعت مغزلها المزود بمجاريف من كل الجوانب وكان في حقيقة الأمر عجلة طاحون تدور حول نفسها بسرعة البرق. غزلت

باليد الواحدة فحسب الخيط اللامع الذي لم يلتف حول البكرة بل دار حول المنحدر بالطول والعرض وتحول في الحال إلى مساحات واسعة من الكتان الرائع، الذي ارتفع شيئاً فشيئاً إلى أن اقترب مني؛ وفجأة شعرت بحمل ثقيل على كتفي ولاحظت أنني كنت أحمل خُرجاً منسياً مليئاً تماماً بالقمصان الناعمة، والآن تأكدت بالطبع من أين أتت هذه القمصان، وفي حين جررت نفسي بعناء شديد بذلك الحمل الثقيل اكتشفت أن الطواويس كانت كلها بياضات سرير جميلة وقد انهمكت أمي في تشميسها ونفضها، بعد ذلك جمعتها ثم حملتها بنشاط وحيوية هكذا على غير هدى ودخلت بها واحداً بعد الآخر إلى الكومة الكبيرة. وحين خرجت منها من جديد نظرت إلى ما حولها ويدها فوق عينيها ثم غنت بصوت منخفض، لكن مسموع بوضوح من قبلي:

"أي بنيَّ، أي بنيَّ،

كم هي نغمة جميلة!

متى سيأتي على عجل،

ويمشي على دروب الغابة؟

وهنا رأيتني في الأعلى كأنني أحلق في الجو وأنظر إليها على الأرض بكل اشتياق وحنو، فأطلقت صرخة فرح عالية وهرعت تعدو كشبح فوق الصخور والأحجار دون أن تعرضني أبعد فأبعد إلى مغبة اختفائها عني، في حين عدوت خلفها منادياً ولكن دون جدوى، فالممر انحنى وطقطق وقمم الأشجار ترنحت وحفت.

هنا وصلت الغابة إلى نهايتها ورأيتني واقفاً على الجبل الواقع مقابل مدينة موطني؛ ولكن يا إلهي أي منظر أتاحت هذه المدينة لمشاهدها! كان النهر أوسع بمقدار عشرة أضعاف ماكان سابقاً وغدا يلمع كالمرآة؛ والبيوت كانت كلها كبيرة بحجم كنيسة الدير سابقاً ومن طراز بناء هو غاية في الجمال والروعة وكانت تلمع في أشعة الشمس؛ وكانت النوافذ مزينة بوفرة من الزهور التي انحدرت بثقل ملحوظ معلقة بالجدران المغطاة بلوحات ورسوم

مختلفة. أشجار الزيزفون صعدت إلى أبعد مدى في عمق السماء القاتمة الزرقة والشفافة أيضاً التي ظهرت على صورة حجر ثمين وحيد وقمم الزيزفون الضخمة كانت تحف بها ذهاباً وإياباً وكأنها تريد أن تكنسها فتزيد بالتالي من لمعانها، وأخيراً امتدت تلك القمم إلى داخل الكتلة الكريستالية الزرقاء الشفافة.

بين الجبال الخضراء من أشجار الزيزفون ارتفعت إلى السماء بروج الكنائس الضخمة في حين استقرت سفينة الصخور الهائلة تحت تلال من ملايين أوراق الزيزفون على شكل قلب، وهنا أو هناك فقط كان يلمع لوح زجاج بنفسجي أو أزرق إذ كان يخترقه شعاع شمس تائه. ولكن التيجان الذهبية، التي شكلت هامات البروج، كانت تومض في أعالي السماء وهي فتيات في أوج صباهن؛ كن يمددن خصلات شعرهن عبر الزخرفة غوطية الطراز إلى العالم الخارجي. وعلى الرغم من انني أدركت كل ورقة زيزفون بملامحها المحددة بدقة فإنني مع ذلك لم أستطع أن أرى من كن أولئك الفتيات كلهن، وأسرعت في الذهاب إلى الجهة المقابلة لأنني تحرقت توقاً إلى معرفة ذلك العدد الكبير من المواطنات.

في الوقت المناسب رأيت الحصان واقفاً إلى جانبي فوضعت الخُرج على ظهره وبدأت أنحدر راكباً على الدرب السحيقة ذات الأدراج والمؤدية إلى الجسر، ولكن كل درجة كانت قطعة مجلوخة من الكريستال الصخري وحبست في داخلها أنثى صغيرة بطول شبر واحد وفي وضع شبيه بالسبات، في حين تميزت أعضاء الإناث الصغيرة بتناسق وجمال يجلان عن الوصف. في أثناء نزول الحصان على الدرب الخطرة واحتمال أن يرمي فارسه في كل لحظة في الأعماق السحيقة، صرت أميل عن البردعة يسرة ويمنة وأحاول أن أنفذ بنظرات مليئة بالحنين إلى لب درجات الكريستال.

قلت بنهم وظمأ هكذا على غير هدى: "يا إلهي! تُرى ما هذه المخلوقات التي هي غاية في الظرف والقابعة في هذا الدرج اللعين؟".

ودون أن أستغرب قط بدأ الحصان فجأة بالتحدث بأن أمال رأسه إلى الوراء وأجابني بقوله: "ما عساها تكون؟ إنها ليست غير الأمور والأفكار الجيدة المخزونة في أرض الوطن ويتسنّى استخراجها لمن يبقى في بلاده ويحصل على قوته بطرق مستقيمة!

قلت: "أعوذ بالله! سوف أخرج فوراً في الغد من هنا وأكسِّر بعض الدَرجات!".

ولم أستطع أن أحول نظري عن سلم الدرج الطويل، الذي اصطدم من خلفي لامعاً متألقاً بالجبل. ولكن الحصان قال إن الأمر لا يتعدى كونه خدشاً بسيطاً والأرضية بتمامها مليئة بخدوش من هذا النوع. وصلنا الآن إلى تحت بالقرب من الجسر، ولكنه لم يعد ذلك الجسر الخشبي القديم بل صار قصراً من المرمر وشكل بطابقين قاعة من الأعمدة لا نهاية لها فأقام على هذا النحو جسراً فخماً فوق النهر لم تكن رؤيته متيسرة أبداً. قلت في نفسي حين سرت راكباً في قاعة الجسر الواسعة: " كم يتغير كل شيء ويخطو إلى الأمام حين يغيب المرء عن بلده بضعة أعوام!" وبينما كان المبنى بأسره من الخارج يلمع عبر تشكيلات من المرمر الأبيض والضارب إلى الحمرة والأسود، كانت الجدران الداخلية مكسوة برسومات لا حصر لها وتعرض كل تاريخ البلاد وكل فعالياتها. كان جميع الناس الذين ماتوا بمن فيهم الرجل الأخير، الذي رحل تواً، مرسومين على الحائط وبدا أنهم كانوا يشكلون كلاً قائماً بذاته مع الأحياء الذين يغدون ويروحون فوق الجسر؛ حتى إن بعض الأشكال المرسومة كانوا يخرجون من صورهم ويلوحون بأيديهم بين الأحياء في حين ذهب بعض هؤلاء إلى ما بين المرسومين ونُقلوا إلى الحائط. كلا الفريقين تكون من أبطال ونساء، وقساوسة وعامة الناس، وسادة وفلاحين، وأفاضل وسفلة؛ غير أن مدخل الجسر ومخرجه كانا مكشوفين وغير محروسين وفي حين ظل الرواح والغدو فوقه ثابتاً ولم تنقطع الفعاليات المتبادلة بين الحياة المرسومة والحياة الفعلية، فقد بدا أن الماضي والمستقبل فوق هذا الجسر، الذي يعج بصورة رائعة بالحياة والحيوية، هما شيء واحد.

همست في داخلي: "أريد الآن بكل إلحاح أن أعرف ما سر هذه الحياة الناشطة هنا؟" فأجاب الحصان على الفور:

"هذا ما يسميه الناس هوية الأمة!".

فصرخت: "يا إلهي، إنك لحصان متفقه جداً! ولا بد أن الشوفان يخزك فعلاً! من أين لك هذه الخواطر المتفققهة؟".

قال الحصان: "تذكر على من تركب! ألستُ مكوناً من ذهب! ولكن الذهب هو غنى، والغنى هو إدراك".

لدى قوله هذه الكلمات لاحظت في الحال أن خُرجي هو الآن ممتلئ بتلك القطع الذهبية بدلاً من امتلائه بالثياب. وبدلاً من أن أمعن التفكير في مسألة من أين أتت فجأة هذه القطع من جديد، شعرت برضا منقطع النظير عن امتلاكي لها، ومع أنني لم أوافق الحصان الحكيم بسريرة نقية على رأيه في أن الغنى هو إدراك، فقد وجدتني فجأة متفهماً الوضع بحيث لم أرد بشيء على الأقل بل تابعت ركوبي بكل ارتياح.

بدأت بالحديث من جديد بعد فترة: " والآن قل لي يـا سليمان الحكيم! هل الجسر هو في حقيقة الأمر الهوية أم الناس الذين فوقه؟ أيهما تطلق عليه هذا الاسم؟".

"الهوية هي كلاهما معاً، وفيما عدا ذلك لا حديث البتة عن هذا الموضوع!".

"هوية الأمة؟".

"هوية الأمة، أمر بديهي!".

"الجسر إذاً هو أيضاً أمة؟".

فقال الحصان بامتعاض: "يا سلام، منذ متى يمكن أن تكون وسيلة نقل مهما تكن جميلة أمةً؟ الناس فقط هم من يمكن أن يكونوا كذلك، وبالتالي الناس الذين هنا!".

"هكذا إذاً! لكن سبق أن قلت للتو أن الأمة والجسر يشكلان معاً الهوية!".

"هذا ما قلته أيضاً وأصر عليه!".

"هلا فسّرت لي ذلك؟".

أجاب الحصان بتدبر وتأمل مفرداً في أثناء ذلك قوائمه الأربع: "عليك أن تعلم، عليك أن تعلم حقيقة أن من يقدر على الإجابة عن هذا السؤال الشائك ويحل التناقض فلا بد أنه معلم حقيقي ومشارك فعال في الهوية. لو أوتيتُ من الفهم ما يمكنني على وجه التقريب من صياغة الجواب، الذي يدور متسكعاً في أرجاء فمي، لما كنت حصاناً بل لرُسمت على هذا الحائط. للمناسبة ينبغي عليك أن تتذكر أنني مجرد حصان حلمتَ به ومن ثم لا يزيد حديثنا كله عن كونه من صنع بنات أفكارك. إذاً عليك أن تجيب بنفسك مباشرة أولاً بأول عما تطرح من الآن فصاعداً من أسئلة!".

صرخت وركلت الحصان بكعبيَّ في خاصرتيه: "هاه! أيها الحيوان المتوحش! أنت ملزم، أيها الحصان الجحود، بحكم أفضالي عليك الإجابة عن أسئلتي وتقديم المعلومات لي لأن علي أن أصنعك من دمي المعزز بعرق جبيني وأطعمك وأغذيك طوال فترة الحلم!".

قال الحصان بارتياح وأناة: "في هذا شيء من الصحة! هذا الحديث كله، لا بل كل معرفتنا القيمة بعضنا لبعض هي عمل لأقل من ثلاث ثوان تكاد تكلفك نَفَساً من هذا الجسد المركب المحترم!".

"كيف، ثلاث ثوان؟ ألم يطل ركوبنا على الأقل ساعة واحدة ونحن على هذا الجسر الذي لا نهاية له؟".

"ثلاث ثوان يستمر لدى الخيال الليلي وقع الحوافر، الذي أدى إلى ظهوري فيك؛ وسوف يختفي معه فتكمل عندئذ رحلتك سيراً على الأقدام من جديد!".

"يا إلهي! لا تُضع إذاً مزيداً من الوقت وإلا فقد تنقضي المدة قبل أن اجتاز هذا الجسر الجميل!".

"في العجلة الندامة! كل ما علينا أن نعايشه ونعرفه في المرحلة الحالية يدخل تماماً في مدى الوقع الشجاع للحوافر، وإذا ما نادى شاعر المزامير، الذي كان فكر تفكيراً سليماً، الله ربه: ألف سنة هي عندك لحظة واحدة! فإن هذه الفرضية إذا ما قُرئت بالعكس تعبر أيضاً عن الحقيقة ذاتها الكامنة فيها:

أي إن لحظة واحدة هي مثل ألف سنة! قد نسمع ونرى ألف مرة أكثر في أثناء وقع الحوافر هذا إذا ما كنا في حيازة الأداة اللازمة لذلك، أيها الصديق العزيز! كل إلحاح أو تردد لا يفيد في شيء، وكل شيء يتحقق بالراحة، ويمكن أن نعطي أنفسنا بهدوء وعلى مهل الوقت الكافي لحلمنا؛ مع ذلك فإنه يبقى هو هو، لا أكثر ولا أقل".

لم أعد أصغي إلى حديث الحصان لأنني لاحظت أنني حُييت من كل الجوانب بإخلاص وصدق؛ لأن أكثر من واحد من المارين كان تلمس بأنامل متميزة خُرجي المكتنز، تقريباً كما يفعل الجزّارون حين يختبرون في إسطبلات الفلاحين أو في الأسواق مدى سحنة بقرة أو عجل بقرصة في منطقة الظهر والقطن.

قلت أخيراً: "هذه أساليب شاذة! ظننت أن لا أحد يعرفني هنا!" فرد الحصان: "لست أنت المقصود بذلك أيضاً، بل خرجك ومن ثم ما فيه من ذهب كثير وضاغط على فقراتي القطنية!".

"هكذا؟ إذاً هذا هو الحل وهذا هو سر مسألة الهوية بأسرها في مفهومك، أعني قطع الذهب؟ لأنك من مادة مشابهة دون أن يتلمسك أحد؟".

همهم الحصان وقال: "لا يؤخذ الأمر بهذه الدقة، فالناس ركزوا بالطبع على الاحتفاظ بهويتهم، التي يسمونها في هذه الحالة استقلالاً ويدافعون عنها ضد أي هجوم كان، ولكنهم يدركون الآن حقيقة أن جندياً جيداً قادراً على القتال لابد أن يحصل على تغذية جيدة ويكون في معدته فطور مشبع إذا ما كان عليه أن يبلي في المعركة بلاءً حسناً. وبما أن ذلك لا يتحقق ولا يُصان إلا عن طريق وفرة من المال، فإنهم يعدّون كل شخص مزود بالمال مدافعاً عن الهوية معداً إعداداً جيداً وداعماً لها ويجلونه لهذا السبب. وهنا يسقط سهواً بالطبع حسابهم أن مصلحتهم الخاصة تتطابق تماماً مع المصلحة العامة فلا يبذلون في التدريب جهوداً كبيرة لتعزيز كل الطاقات، ولذلك قد يظهر هذا أو

ذاك بمظهر حمار جشع. ومهما يكن من أمر فأنا أنصحك بطرح رأس مالك في التداول هنا قليلاً وتنميته. وإذا كان رأي الناس بوجه عام خاطئاً فإن لكل ملء الحرية في جعله حقيقة له وجعل موقعه مريحاً لهذا السبب".

دسست يدي في الخُرج وقذفت ببضع حفنات من القطع الذهبية إلى الأعلى فتلقفتها على الفور مئة من الأيدي المتقلبة في الهواء، ثم تابعت رميها في الجو بعد أن تفحص أولاً كل شخص قطعة الذهب وفركها بقطعة ذهبه الخاصة به فتضاعفت القطعتان من جراء ذلك. وسرعان ما عادت كل قطعي الذهبية برفقة الذهب الآخر وعلقت نفسها بالحصان؛ كانت السماء تمطر ذهباً بمعنى الكلمة وتوضع ذلك الذهب كتلاً كتلاً على قوائمه الأربع، كغبار الطلع الذي يجعل للنحل سراويل، بحيث تعذرت عليه في الحال متابعة السير. وتشكلت على جسد الحصان أجنحة كبيرة فصار شبيهاً في النهاية بنحلة عملاقة وطار بوصفه كذلك فوق رؤوس الناس. الآن فقط صرنا ننفض مطر الذهب فوق الأرض بحيث لحقت بنا أخيراً حثالة كبيرة من القوم المتعطشين له، إذ إن مسنين وشباباً، نساء ورجالاً تدحرج بعضهم فوق بعض لكي يتلقفوا الذهب. لصوص كانوا يُنقلون من قبل حراس ارتموا مع هؤلاء فوق الكومة؛ صبيان خبازين رموا خبزهم في الماء وملأوا سلالهم بالذهب؛ قساوسة كانوا ذاهبين إلى الكنيسة ليلقوا مواعظ على المؤمنين عقدوا أروابهم، كما تعقد أثوابهن فلاحات لدى قطفهن الفاصولياء، وغرفوا ذهباً إلى داخلها؛ عاملون في إدارة البلدية كانوا آتين من المجلس البلدي تسللوا إلى المكان وأدخلوا في جيوبهم باستحياء بضع قطع من الذهب كانت تدحرجت جانباً؛ وحتى من محكمة مرسومة على الحائط غادر القضاة الموتى منصتهم وتركوا المتهم واقفاً ثم نزلوا لكي يتسكعوا خلفي، وأخيراً أتى المجرم المرسوم هو الآخر قافزاً، طلباً للذهب.

حلقت أخيراً، وأنا مترع بالشعور بالغنى، خارج قاعة الجسر وقفزت بكبرياء في الفضاء ممتطياً صهوة حصان النحل الذهبي حيث حمتُ في الأعالي فوق قمم كنيسة الدير الكبيرة كالصقر، أنخفض حيناً بمجون وخيلاء وأرتفع مرة

أخرى متمتعاً إلى أقصى حد بالفرحة الصبيانية الناجمة عن الطيران وركوب الخيل معاً في الحلم. من القمم العالية مدت أصابعها إلى الأعلى مئة من الأيادي البيضاء لكي تصل إلى ذهني، عيون ووجنات ناعمة تألقت في أشعة الشمس كزهر "لاتتسني" وزهور أخرى جميلة. قال لي الحصان: "اِختر الآن، هذه هي الفتيات الجاهزة للزواج في هذه البلاد! وأفضلهن هي امرأة مطيعة. وجهت عينيَّ إليهن من عل بإباء وفهم ونويت أن أختم تجوالي في بلاد الله الواسعة وهمومي المعيشة بزواج تقليدي ملائم، وإذا بصوت خشن يدوي منادياً: "ألا يوجد هنا أحد قادر على إنزال هذا المجرم بحق الوطن من الجو؟".

أجاب فلهلم تِلّ البدين، الذي كان مختبئاً في رأس شجرة من أشجار الزيزفون: "أنا هنا!" ثم صوب قوسه ونشابه باتجاهي ورماني بسهمه. إيكاروس(*) جديد، تهاويت مع الحصان ووقعت على سطح كنيسة ثم انزلقت من هناك بكل بؤس وتعاسة إلى الشارع فاستيقظت ووجدتني أعاني صدمة عنيفة كأنني سقطت من مكان عالٍ. وألم بي صداع حاد في الرأس، في حين انهمكت في لملمة ما كنت حلمت به. هذا العالم المقلوب، الذي اختلق وحاك فيه في أثناء نوم الليل دماغي العاطل من العمل عادة في اليقظة، اختلق من تلقاء نفسه وعلى مسؤوليته أساطير مترابطة ومجازات واستعارات تليق بكتاب وتتطابق مع نماذج مقروءة في مكان ما بكلمات مدرسية وعلاقات ساخرة، هذا العالم بدأ يخيفني كبشير لمرض عضال؛ أجل، لا بل تسلل إلي كالشبح الخوف من أن تخذلني أخيراً بالكامل أعضائي الصالحة للخدمة، أعني عقلي، فتجعلني أعتمد في تدبير شؤون حياتي اعتماداً مسعوراً على خدمات الخدم.

حين واصلت الإمعان في التفكير في الأمر أحسست بالخطر الكامن فيه أي خطر الرغبة في الاشتغال ضد الطبيعة والعادة بما ينافي العقل وخطر

(*) الإغريقي الذي حاول الطيران بأجنحة من الشمع فسقط في البحر حين ذابت الأجنحة في أشعة الشمس، المترجم.

التغذية به؛ ومع ذلك لم أعرف كيف الخروج من هذا المأزق. على هذا غشيني النوم مرة أخرى وبدأت الأحلام من جديد؛ ولكن ضاع عالم المجاز والاستعارة واستمرت هيمنة الفوضى.

سقتُ الآن الحصان المنهك والمحمل بأكياس ثقيلة في شارع جبلي مرتفع إلى بيت أمي؛ فاستمر ذلك فترة أزلية مضنية إلى أن وصلت إلى هناك. فما كان من ذلك الحيوان إلا أن تداعى وتحول إلى كل متنوع من أجمل الأشياء والغرائب وأغناها، التي أُفرغت منها الأكياس أيضاً، أشياء كالتي تجلب عادة من سفرات كبيرة هدايا. وقفت مرتبكاً بألم لدى الكومة المكدسة من التحف الثمينة، التي نشرت في الشارع على اتساع مكشوف وبحثت بلا جدوى عن سقاطة باب البيت وسحَّابة الجرس. رفعت نظري وأنا أحرس ثرواتي من الذهب بحيرة وخوف، إلى أعلى البيت ورأيت الآن فقط شكله الخارجي. كان مشيداً، على غرار بناء قديم من الخزانات والألواح الخشبية النبيلة، تماماً من خشب الجوز قاتم اللون، ومزوداً بعدد لا حصر له من الرفوف والأفاريز والتقسيمات إلى علب والحشوات والشرفات، كل ذلك كان مصنَّعاً بأدق الأساليب وملمعاً كإضاءة المرآة. فكان ذلك في حقيقة الأمر داخل بيت مقلوباً إلى خارجه. الأفاريز والشرفات ازدانت بصفوف من الأباريق والأكواب الفضية من الطراز القديم وأوان خزفية وتماثيل صغيرة من المرمر. ألواح نوافذ من زجاج الكريستال كانت تتألق بلمعان منطو على أسرار أمام خلفية معتمة بين أبواب حجرات أو أبواب خزانات معرَّقة كانت أدخلت فيها مفاتيح فولانية لامعة. فوق هذه الواجهة النادرة تقببت السماء بلون أزرق قاتم وانعكست شمس نصف ليلية في الأبهة المعتمة لخشب الجوز وفي فضة الأباريق وزجاج النوافذ.

وأخيراً رأيت أيضاً أن سلالم كان حُفر خشبها بوفرة تقود إلى الشرفات فصعدت عليها طالباً السماح بالدخول، ولكن كلما كنت أفتح باباً، لم أر أمامي سوى حجرة صغيرة مليئة بالمؤن والمخزونات من مختلف الأنواع. هنا فتحت أبوابها مكتبة تزخر كتبها ذات الأغلفة الجلدية بالتذهيب؛ وهناك كدست أدوات

وأوانٍ بعضها فوق بعض مما يرغب المرء في التمتع بطيبات العيش؛ وهناك تكومت مرة أخرى جبال من قماش الكتان الناعم أو فتحت أبوابها خزانة تفوح بالطيب وتحتوي على مئة علبة صغيرة من التوابل. أغلقت باباً تلو الآخر برضاً تام عما رأيت لكن بخوف لأنني لم أر أمي في أي مكان لكي أتكيّف في الحال مع الجو العائلي الرائع، وبغية البحث عما أريد ألصقت جسدي بواحدة من النوافذ ووضعت يدي على الصدغ لكي أزيل انعكاس الزجاج الكريستالي؛ عندها بدلاً من أن أرى حجرة داخلية رأيت حديقة خلابة في العراء وتخيم عليها أشعة الشمس وهناك توقعت أن أرى كيف كانت أمي، وهي في ريعان الشباب والجمال وترتدي الملابس الحريرية، تطوف بين أحواض الزهور. أردت أن أفتح النافذة وأنادي أمي، ولكنني لم أجد قط ترباساً ولا زراً ما دمت طبعاً خارج البيت إلى جانب حائط مكسو بالخشب بسخاء على حافة ضيقة كادت تتيح لقدميَّ موطئاً كافياً. حين انحنيت إلى الخارج لكي أرى كيف يمكنني النزول من ذلك المكان الخطر، رأيت في الزقاق قزماً مجعد الوجه بين صبيان اكتست رؤوسهم بشعر أشيب ذابل وكان هذا القزم يحمل عصاً ويستخدمها في تبديد ما كنت أرى من أشياء جميلة وقيمة.

سرعان ما تبين لي أن القزم هو عدو مرحلة الشباب، أي ذلك الصبي ماير الصغير الذي كان أنهى حياته بسقوطه عن البرج؛ فأسرعت في التسلق إلى تحت لكي أطارده، غير أن هذا شرع، وهو في أشد الغضب والحنق، بإطلاق السباب والشتائم وبصفته مرابياً في مرحلة الطفولة ودائناً فقد بدأ من جديد بعد مرور هذه الأعوام الكثيرة يحيي مطلبه وجعله ساري المفعول ضاغطاً في أثناء ذلك بيده على رأسه التي كان هشمها السقوط. فصرخ في وجهي بكلمات سامة قائلاً إنه يريد أخيراً أن يحجز علي إلى أن يصل إلى حقه المعزز بسند ديْن؛ لأن حسابه على حد قوله هو صحيح مئة في المئة.

صرخت في وجهه قائلاً: "أنت تكذب، أيها الوغد الوضيع، اغرب عن وجهي! فرفع عصاه ليضربني ونشب بيننا عراك لم يعرف الرحمة. مزق

الخصم الغاضب كل الثياب الجميلة، التي كنت أرتديها، إرباً إرباً؛ ولكن حين هممت بخنقه وأنا في حال من اليأس والأنفاس اللاهثة اختفى من بين يدي وتركني واقفاً في الشارع الظليل قارس البرد. حينئذ رأيتني واقفاً هناك منهكاً وحافي القدمين. كان البيت في أثناء الحلم هو فعلاً بيتنا القديم ولكنه شبه متداع وكلس جدرانه مفتت ونوافذه معتمة وفيها أصص زهور فارغة أو يابسة ومصاريع نوافذه كانت تقرقع لدى هبوب الريح وكانت معلقة بمفصلة وحيدة.

لم يبق لي من الملكية التي حصلت عليها من جراء الحلم سوى بضع بقايا مدعوسة فوق بلاط الشارع، وقد بدت كأنها لم تأت من شيء يعتد به، ولم أمسك في يدي سوى العصا التي انتزعتها من خصمي اللدود.

انتقلت مذعوراً إلى الجانب الآخر من الشارع ورفعت نظري بقلق إلى النوافذ المقفرة حيث رأيت بوضوح أمي، عجوزاً وشمطاء وشاحبة اللون، جالسة خلف لوح معتم من الزجاج وهي تغزل خيوطها وتغرق في تفكير عميق.

مددت يدي إلى الأعلى باتجاه النافذة؛ ولكن حين رأيت الأم تتحرك ببطء، اختبأت خلف نتوء جداري وسعيت خائفاً إلى الفرار من المدينة الهادئة المعتمة دون أن يراني أحد. صرت أسير ملتصقاً بالجدران على طول البيوت وعدت أدراجي فوراً على عكازي الرديء وعلى درب زراعية لم يُعرف مداها إلى حيث أتيت. تجولت وتجولت بلا كلل وبجهد مضنٍ غير ملتفت إلى ما حولي. وعلى مسافة بعيدة مني رأيت على درب طويلة أيضاً ومتقاطعة مع دربي أبي وهو يمر متجولاً وحقيبة سفره الثقيلة على ظهره.

حين استيقظت زال الهم عن كاهلي، إلى هذا الحد وصل عبء هذا الجزء الأخير من المغامرات في منامي.

هكذا استمر الحال عدة ليالٍ مع أنه كان من حين لآخر أيضاً أكثر اعتدالاً بعض الشيء بحيث صار الوضع المحلوم به متاخماً لنوع من الرضا الهادئ. حلمت مرة أنني كنت أجلس فوق جبل واقع على حدود موطني وكان معتماً بسبب ظلال الغيوم بينما انتشرت البلاد أمامي مغطاة بأشعة مضيئة.

في الشوارع البيضاء والحقول الخضراء تموجت وسارت مجموعات من الشعب والناس وتجمعت إلى احتفالات مرحة وممارسات وتدريبات حياتية مختلفة، وكنت أراقب كل ذلك بعناية واهتمام. ولكن حين كانت مجموعات أو مواكب كهذه تمر بالقرب مني وتعرفني كانت تشتمني في أثناء مرورها لأنني، إذ بقيت مصراً على حزني وعدم اكتراثي، لا أرى ما يجري من حولي، وطلبت مني هذه المجموعات أن ألحق بها، غير أنني دافعت عن نفسي بلطف وتهذيب وأعلمتها بأنني أرى تماماً كل شيء يحركها وأشارك فيه، وحبذا لو يُصرف النظر عن الاهتمام بي فأرتاح إذاً أكثر.

هذا التصور كان سرقه على ما يبدو أشباح حلمي النشيطون من الأبيات التالية لشاعر مجهول، التي كنت قرأتها في المساء الفائت في بعض الصفحات الممزقة والمعدة للطباعة:

لا تتهموني بأنني من الألم
لا أستطيع أن أرى سوى صورتي!
فأنا أرى عبر النسيج الشفاف لألمي
أشكالكم وهي تسير.
وعبر تلاطم الأمواج القوي
في البحر، الذي تآمر ضدي،
لم تضع علي من غنائكم،
ولو أنه خافت، أي نغمة.
ومثل دانايدي المتعبة،
حين أنزلت الغربال ونظرت حولها بفضول،
هكذا أنظر إليكم بعجب،
ويشغل بالي أمر إذعانكم واستكانتكم!

الفصل الثامن

الجمجمة المتجولة

هكذا كان يحدث معي في الليالي. لكن لم أعد أتذكر كيف قضيت أوقات النهار آنذاك؛ كان ذلك أغرب ترويض أنجزه الصبر إزاء القدر أو بالأحرى إزاء الذات. أصاب حدسي في أن المخرج انفصل عن الأشياء بهذه الطريقة على أسهل وجه. فما هي إلا أيام قليلة حتى تبين أن صاحب المنزل المترمل تواً لم يستطع البقاء فيه من غير زوجه ورأى نفسه مضطراً إلى حل كيان البيت وإرسال الأطفال مؤقتاً إلى أبوي الزوجه المتوفاة وإخلاء المنزل، وبعد رحيل الصغار أبلغني الرجل بتجهم وقلة اكتراث أن علي أن أبحث عن مسكن آخر لأنه هو ذاته سوف يرحل عنه في اليوم التالي.

كنت أقمت في ذلك البيت طوال السنين الماضية كلها، وبما أن قدراً سيئاً قد بدد ملكيتي الصغيرة المتجولة، قررت في الحال أن أذهب إلى بلدي بدلاً من القيام بانتقال تسولي إلى مسكن جديد. ولم أغير قراري هذا حتى ولو لم يبقَ، بعد سدادي ما كنت مديناً به لصاحب البيت ولآخرين، الشيء الكثير من المبلغ الذي كنت كسبته من جراء عملي لدى السيد يوزف شمالهُوفر؛ لم يبقَ ما كان يكفي لنفقات سفري إلى بلدي. لا بل كاد يكون كافياً لترحالٍ مشياً على الأقدام؛ ذلك ما تبين لي حين وزعت بدقة ما في حوزتي من نقود وكنت أبقى ليل نهار في العراء وأتناول القليل من الطعام.

ولكن كيلا أظهر في ثيابي الرثة شبيهاً تماماً برجل متشرد، لجأت إلى آخر وسيلة كانت تحت تصرفي أي إلى اللوحتين الصغيرتين اللتين كنت

تركتهما معلقتين في عهدة ذلك الخياط اليهودي المشتغل بالفن. ودونما إضاعة للوقت ذهبت إليه آخذاً معي أيضاً تلك اللوحة الأكبر قليلاً، التي كانت منيت في معرض اللوحات بحظ عاثر، ثم سألته عما إذا كان يريد امتلاك اللوحات الثلاث لقاء أن يعد لي ملابس جيدة وجديدة إضافة إلى دفع شيء من المال نقداً علاوة على ذلك.

لم يوافق بالطبع على أي دفعة نقدية؛ لكن عوضاً عن ذلك كانت البذلة، التي أبدى استعداده لإنجازها على الفور حسب المعايير المتبعة في مجال عمله، مقبولة لا بل جيدة؛ حتى إنه تفضل أيضاً بصنع قبعة متينة وضخمة ومن شأن إطارها الدائري الواسع أن يقي الرقبة من المطر. في كل ذلك وجدتني أنعم بالعناية والنصح السديد، وغادرت منقذي راضياً بعد أن كنت بدلت ملابسي في حجرة خلفية وتركت له أمر الملابس المخلوعة كرمز لاعترافي بالجميل إزاء معاملة إنسانية – لطيفة.

في أثناء عودتي ترددت في ما إذا كان ينبغي أن أعرج على العجوز شمالهُوفر وأودعه، ولكنني خشيت من أن يغويني من جديد إلى القيام بعمل ذي كسب لا يعول عليه بصورة حاسمة من جهة ويبلد العقل من جهة أخرى؛ ولذلك تحاشيت المرور ببيته وذهبت لجلب وثائقي المتعلقة بإثبات الشخصية من دوائر السلطات المحلية ثم أسرعت إلى البيت حيث كان المساء قد اقترب؛ لأنني أردت أن أبدأ رحلتي دونما إبطاء مع حلول الليل.

كان ذلك رأياً سديداً أيضاً لأن صاحب المنزل كان أفرغه من كل محتوياته وأخرج منه سريري أيضاً، غير عابئٍ بأنني قد أحتاج إلى النوم فيه إبان هذه الليلة الأخيرة. وجدت صاحب المنزل واقفاً فيه وحده تماماً، وبما أن المنزل كان فارغاً برمته فقد كان يُسمع فيه صدى غير معتاد لخطواتنا وكلماتنا. قليل من الملابس والأدوات فحسب كانت لا تزال ملقاة بعضها بجانب بعض ولم يستطع صاحبنا في حينه أن يحزمها لأن الصندوق اللازم لذلك لم يكن آنذاك تحت طلبه. قلت له إنّ بإمكانه استخدام حقيبتي الكبيرة لأني

لست بحاجة إليها حالياً. فقبل عرضي دون أن يشكرني ولذلك دبرت له مقلباً مزعجاً، إذ حين دخلت الآن إلى غرفتي مسكني وأدخلت في محفظة سفر بقية صغيرة من الملابس الداخلية إضافة إلى قصة شبابي المحزمة بإتقان وتلفتُّ إلى ما حولي لعلي أجد شيئاً آخر ينبغي أن أفعله، اكتشفت لشدة هولي جمجمة ألبرتوس تزفيهان التي بقيت في مكانها وحيدة ومن دون أي عناية واهتمام.

تناولت بيدي وأنا في غاية الذهول شبه الكرة التعيسة، التي لم تنعم يوماً بالهدوء والراحة، وشعرت بتأنيب الضمير. وقلت في نفسي: "يا تزفيهان المسكين، رحلت في السابق من الهند الشرقية إلى سويسرا ومن سويسرا إلى غرونلاند ثم إلى هنا، والآن الله وحده هو من يعلم ما ستؤول إليه أمورك وأنا الذي أتيت بك باستهتار من المقبرة!".

ولكن هذا الكلام لم ينفع الآن في شيء؛ رفعت غطاء حقيبتي الخاوية ووضعت الجمجمة القديمة في داخلها تاركاً أمر الاهتمام التالي بها لصاحب المنزل المتحفز، الذي لم يُحسن وهو في حاله المشؤوم آنذاك التصرف معي مع أنني كنت أسهمت منذ أكثر من خمس سنوات في إعالة أسرته بمبلغ جيد من عملة التالر.

بعد ذلك خرجت بمحفظة معلقة بكتفي من مسكني الحزين الخاص إلى العام ومددت يدي بسرعة إلى الرجل للوداع ثم نزلت على الدرج. وما إن وطئت قدماي أرض الممر حتى ناداني ذلك الشيطان اللئيم باسمي من الأعلى صارخاً بأعلى صوته:" هاك، خذ معك هذه الجمجمة أيضاً، فهي تخصك أنت!". في الوقت ذاته تدحرجت رأس الميت من على طول السلم الخشبي فأحدثت ضجة كبيرة وضربت في نهاية مطافها عند نهاية الدرج كعبي بفظاظة وقوة.

رفعتها عن الأرض؛ وفي ساعة متأخرة من وقت الغسق انفصل عنها بصورة مخزية الفك الأسفل الذي كان معلقاً بها بأسلاك؛ وبدت كأنها تتوسل ألاَّ أخلفها ورائي.

قلت: " إذاً تعالي معي ولنعد معاً إلى البلد من جديد! لقـــد كانت رحلة عجيبـــة!".

حشرت الجمجمة بشق النفس في محفظة السفر فظهرت بشكل غير متجانس كما لو دُست فيها قطعة من خبز الجيش أو رأس من الكرنب.

الآن بقي واجب وحيد كان علي أن أقوم به ولم أكن أستسهله، فمنذ مغامرة الحب الغريبة وغير المتوقعة مع هولدا كان انقضى سبت لم أستخدمه والآن أتى السبت الثاني. وبسبب الأخبار التي تلقيتها من ابن البلد، الذي كان على سفر لقضاء شهر العسل، كما بسبب الأحلام المعيشة فقدت كل شجاعة ورغبة في وضع خطط السعادة الخيالية موضع التنفيذ؛ ومع ذلك فقد اعتراني الآن شعور امتنان دافئ لا بل ميل رقيق وذكرى محببة بألا أرحل من دون كلمة للوداع والتفاهم. كنت آمل أن أقنع تلك المخلوقة الحلوة والجديرة بالاحترام بسهولة بالتخلي عن أفكارها وأواسيها بفقدان عاشق جديد بأن أعترف لها بأنني أصلاً لست صانعاً حرفياً بل فناناً وقع في الفقر ولا يعرف بعد ما يخبئ له القدر ثم افترق عنها على هذا النحو بسلام وأمان. كنت حملت محفظة وعصا الترحال حين سرت باتجاه الشارع الذي كانت تقيم فيه. ولكن بما أنني وصلت قبل الأوان، دخلت إلى مطعم لكي أتناول آخر طعام عشاء في تلك المدينة. وبعد ذلك سرعان ما وجدت بيتها في ضوء المصابيح وجلست على مقعد صغير في ظل عمود نافورة منتصب في مقابل البيت. والآن أتت الفتاة الفاتنة تمشي الهوينى في ثياب العمل إلا أنها لم تكن وحيدة؛ كان برفقتها شاب أهيف القوام وبدا أنه طالب أو فنان كان يتحدث إليها بإلحاح، وحين اقتربا من باب البيت صارت تمشي بخطىً أبطأ وهنا سمعت، إذ بدأت الآن تتحدث، ذلك الصوت اللطيف والصريح الذي أعرفه، لكنه الآن أكثر حزناً وطراوة مما كان في أمسية لقائنا لأول مرة.

سمعتها تقول لمرافقها: "الحب مسألة جدية، حتى في المزاح! ولكن ثمة قليلاً من الإخلاص والاستقامة في العالم. دعنا نجرب تعارفنا حين تأخذني غداً للرقص، فسوف يندهش قلبي من تجربة ذهابه مع رجل!".

خاطب الود الجديد افترّ ثغره بصوت هامس عن كلام لم أفهمه؛ بل سمعت صوت قبلة خفيفة وكلمة وداع "ليلة سعيدة!" اختفت الفتاة على أثرها خلف باب البيت وأغلقته بينما مضى الشاب بخطىً سريعة إلى حال سبيله.

قلت في نفسي وأنا أنهض واقفاً بضمير مرتاح لكن بشعور ممتعض: "هذه هي أيضاً تبرئة وتحرير!" ومن غير أن ألتفت إلى ما حولي أو أن أتوقف دقيقة واحدة في تلك المدينة أسرعت باتجاه بوابة الخروج وكنت بعد ذلك بوقت قصير أسير على الطريق العام ليلاً باتجاه بلدي.

وبرضاً عن الشكل الواضح والجاهز، الذي كان مصيري اتخذه الآن، وضعت نصب عيني، بلا تسرع وبلا توقف خطوة إثر خطوة، هدفاً وحيداً هو أن أعيش مع أمي تحت سقف واحد سواء أكنت فقيراً أم غنياً. استمر سيري ساعات طويلة؛ لم يلفت انتباهي أنني كنت على نقطة تقاطع وانحرفت عن الطريق الرئيسية إلى طريق فرعية كان من الصعب ملاحظة أنها أكثر ضيقاً بحيث تكرر تفرع كهذا مرة أخرى إلى أن وجدتني على طريق زراعية صالحة لسير العربات. لكن بما أنني سرت طبقاً لموقع النجوم تقريباً إلى الجهة الصحيحة، لم أكترث بذلك بل أدرجت انحرافاً كهذا عن الطريق في عداد المعايشات الضرورية لمتشرد مثلي. مشيت عبر غابات وعلى حقول ومروج ومررت بقرى كانت معالمها الضعيفة أو أضواؤها الضائعة بعيدة عن الطريق. الوحشة الأعمق انتشرت على الأرض حين حل منتصف الليل وحين اجتزت تخوم مناطق بعيدة؛ وكلما كانت الكواكب تتزحزح من أمكنتها كان الهواء الناجم عن ذلك يزداد حيوية، لأن رفوف الطيور المهاجرة غير المرئية كانت تهدر وتضج في الأعالي. لم يسبق لي طول حياتي أن رأيت أو سمعت حركة السماء الخريفية الليلية هذه بهذا الوضوح.

أتيت إلى غابة كبيرة، وهنا أصبح الظلام مكتملاً تماماً. بصمت مر البوم بسرعة بالقرب من وجهي ومن أعماق الغابة كانت البومة تصيح، ولكن حين كنت أرتجف من البرد وأعاني الإرهاق، طالعتني في منطقة كثيفة من الغابة كومة من الفحم يتصاعد منها الدخان وكان حارسها يقبع وينام في كوخه الترابي. جلست بهدوء بالقرب من الكومة الدافئة فدفئت واستسلمت للنوم إلى أن أيقظني تحليق طيور مهاجرة فوق الغابة وهي تزعق بأصوات عالية وتلمع بأجنحتها الزرقاء الفضية وصدورها البيضاء في أول بزوغ الفجر. وحين صحوت ودب فيَّ النشاط بدأ الفحام بالزحف من الكوخ وقدماه تتقدمانه؛ وقفت أمامه كمتجول وصل تواً إليه، وتمنيت له صباح خيرٍ ثم سألته عن المنطقة التي وصلت إليها وعن الطريق الصحيح، فلم يعرف أكثر من أنه نصحني بالسير أكثر باتجاه الغرب.

انتهت الغابة وخرجت منها إلى بقعة أرض ألمانية واسعة في أثناء صباح خريفي. سلاسل جبلية مكسوة بالغابات ومعتمة امتدت في الأفق البعيد؛ وعبر المنطقة التف نهر ضارب لونه إلى الحمرة لأن نصف السماء كانت تتوهج في شفق الصباح كما كانت طبقات الغيوم المتوهجة باللون الأرجواني معلقة فوق الحقول والجبال والقرى وفوق مدينة تنتصب فيها البروج العالية. وانتشر الضباب على منحدرات الغابات العالية وسفوح الجبال الزرقاء الداكنة. قصور وبوابات مدن وبروج كنائس كانت كلها تلمع باللون الأحمر؛ إضافة إلى ذلك انطلقت جلبة صيد عارمة في الغابات ودوت أبواق ونبحت كلاب في أمكنة قريبة وبعيدة، ومر بقربي غزال جميل قافزاً واثباً حين كنت أغادر الغابة في الحال.

بشر شفق الصباح بالطبع بعشاء مبلل ولم يمنحني أي فرصة جيدة. وإذا ما أردت التقيد بخطة ترحالي فما كان لي أن أفكر في البحث عن مأوى أبيت فيه لأن ذلك كان سيسلبني طعام يوم كامل. لذلك فكرت مذعوراً بعض الشيء بالمياه القادمة وبأنني سوف أطوف مبللاً طوال الليلة الثانية، فإن البلل

والوسخ هما نتيجة حتمية لكل دعابة سيئة للقدر وينتزعان أيضاً من المتشرد المواساة الأخيرة الكامنة في إمكانية ارتمائه على الأرض الحنون حيث لا يراه أحد، ففي كل مكان تواجهه الرطوبة القاسية بأذى البرد ويضطر إلى أن يبقى واقفاً منتصب القامة.

في غضون ساعات قليلة غطت أيضاً سحابة كثيفة من الضباب القاتم كل ضوء وبدأت تتفكك ببطء إلى خيوط رمادية إلى أن هطل مطر قوي وبكميات متساوية على امتداد كل المنطقة واتساعها واستمر طول اليوم. ولكن في بعض الأحيان كانت حال الطقس البارد المبلل تتناوب مع حال من هطول مطر أقوى كانت إذ تعرضت لسياط الريح أتت بإيقاع أكثر حركة إلى حياة الماء ثم أغرقت الأرض والدروب. مشيت بلا كلل ولا ملل عبر الطوفانات وقد سرني آنذاك أنني كنت اخترت بذلتي الجديدة من قماش متين وقادر على التحمل. ولدى حلول وقت الظهيرة، لكن بالضبط وبدقة، عرجت على قرية وتناولت فيها طعاماً مكوناً من حساء ساخن وشيء من اللحم والخضار إضافة إلى قطعة من الخبز. ثم استرحت ساعة من الزمن وخرجت بعد ذلك إلى المطر، لأنني إذا ما أردت أن أصل إلى البيت في غضون أسبوع، وهو الزمن الذي كنت أحتاج إليه على الأقل لذلك الغرض، فقد وجب علي أن أتقيد بكل دقة من كل الوجوه بالترتيب المتخذ من قبل فلم يكن يجوز لي تبعاً لذلك حتى أن أتعب أو أمرض، وعلى هذا المنوال بقيت حتى النهاية سيد نفسي ولم أكن لأخشى أحداً.

وبعد بضع ساعات سرت مرة أخرى على درب في غابة وأنا في سعي حثيث للوصول إلى الطريق الرئيسية الكبيرة، التي كان لابد لاتجاهي من أن يتطابق بالتدريج مرة أخرى مع محورها الطولي. وحين رأيت خارج حرم الطريق شجرة زان كبيرة كانت أوراقها الصفراء لا تزال ترقد على الأغصان بكثافة كافية، ذهبت إليها فوجدت على واحد من جذورها البارزة من الأرض مكاناً للراحة محمياً إلى حد لا يستهان به وجلست هناك. في تلك الأثناء أتت

إلي امرأة عجوز وهي تمشي بخطوات قصيرة متقاربة مسندة بإحدى يديها رزمة تعيسة صغيرة من الأغصان الجافة القصيرة المحمولة على رأسها الأشمط ذي الشعر الخشن والمنكوش كالأدغال التي فوقه؛ وباليد الأخرى كانت تجر وراءها بشق النفس شجرة بتولا صغيرة متكسرة. وبخطوات مرتجفة كانت تجر الشجيرة الجامحة بنشاط ولهاث وتطلق في أثناء ذلك تنهيدات مذعورة، مجتازة كل العوائق كنملة تجلب إلى وكرها عوداً من القصب، أثقل مما تستطيع أن تتحمل. نظرت إلى المرأة المسكينة بعين ملؤها الشفقة وكان لابد من أن أعترف إزاء نفسي بأن وضع هذه المخلوقة أسوأ من وضعي بكثير ومع ذلك فهي لم تكفّ لحظة عن المقاومة والصمود. وما كان يتعسني من جديد هو أنني لم أستطع مساعدتها في شيء أو إعطاءها شيئاً. وبينما كنت أحملق هكذا على غير هدى إمعاناً مني في التفكير بعجزي المخجل هذا، مر على الطريق حارس غابة تواً، وهو بعمر المرأة تقريباً لكن ذو وجه أحمر وشاربين كبيرين وحلقات صغيرة معلقة بالأذنين وعينين متقلبتين بتَبالُه في كل الاتجاهات، وسرعان ما انقض هذا على المرأة فتركت الشجيرة مذعورة في حين صرخ هو في وجهها:

"لقد سرقت من جديد حطباً، أيتها الوغدة المتشردة، أليس كذلك؟"

ولكن المرأة العجوز أقسمت له بكل القديسين مؤكدة أنها وجدت شجرة البتولا الصغيرة محنية على الدرب. غير أن الحارس صرخ في وجهها من جديد:

"أو تكذبين أيضاً؟ انتظري، سأجبرك على الإقلاع عن الكذب!".

وأمسك الرجل العجوز بالمرأة العجوز الشمطاء من أذنها اليابسة التي كانت تطل من تحت قبعة صغيرة قطنية مائلة جانباً، ثم جر تلك المرأة من تلك الأذن بنية أن يأخذها معه هكذا فكان ذلك مشهداً غير طبيعي. وفجأة أضاءت مخيلتي خاطرة سريعة فأخرجت الجمجمة من محفظة سفري وعلقتها على العصا ثم مددتها عبر أوراق شجر الأدغال، التي كنت أنا ذاتي مختبئاً خلفها، وفي الوقت ذاته صرخت بصوت غاضب:

"دع المرأة وشانها، أيها الولد السيئ!". وهززت الجمجمة قليلاً إلى أن تصاكّت الأسنان وسرى حفيف ملحوظ في أوراق الشجر التي أطلت الجمجمة من بينها. فكان ذلك منظراً أوحى للموجودين في عراء ذلك المكان كما لو أن الموت قابع في الشجيرة.

نظر حارس الغابة إلى المكان الذي دوى منه الصوت وتجمد في مكانه تماماً وغدا ممتقع اللون كقطعة خبز أسيء تصنيعها ثم حرر أذن المرأة من مخالب يده. أما أنا فسحبت الشبح بهدوء إلى الوراء؛ في حين حملق حارس الغابة باتجاهي دون أن يبدي حراكاً؛ ولكن حين أظهرت الجمجمة من جديد من أعلى الشجيرة لاحقتها عيناه شبه الدائريتين إلى هناك ثم ولى الأدبار إثر ذلك مسرعاً بقدر ما أرادت ساقاه المرتعدتان أن تحملاه ودون أن ينبس ببنت شفة. وحين ابتعد فحسب إلى مسافة لا بأس بها وغيرت الطريق اتجاهها ظل واقفاً هنيهة من الزمن ونظر بحذر إلى الوراء. عندها جعلت الجمجمة تترنح وتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، وإثر ذلك سرعان ما اختفى صاحبنا الهارب حول زاوية الطريق ولم تعد عيني ترى أي أثر له. لم يتوفر له بالطبع أي سبب للظن بأن الأمر لا يعدو كونه، في هذا الطقس الرديء ولمصلحة المرأة المسكينة، ضرباً من ضروب السحر والشعوذة تم عرضه في عمق الغابة؛ أضف إلى ذلك أن حلقتي أذنيه كانتا تشيران بما يكفي إلى أنه ممن يؤمنون بالخرافات. أما المرأة العجوز، التي لم تر نظراً إلى شدة ذعرها إلا هروب معذبها، فهي لم تعرف كيف جرى ما جرى له، فتركت كل شيء على حاله وولت الأدبار هي الأخرى؛ وكانت تجذف في الهواء بحماس بالغ بيديها المرتجفتين وتتكلم هكذا على غير هدى.

وأنا بدوري أعدت الجمجمة القديمة المصفرَّة، التي أنجزت لساعتها خدمات جيدة، في محفظة السفر. كانت الدعابة التي ابتكرتها تواً مصدر دفء حقيقي لي، واسترحت بعدها قليلاً كمنتصر في ساحة القتال مع الشعور المنعش بأن من النادر أن تسوء إلى حد كهذا حال امرئ لا يضعه انعطاف

صغير ما فوق الأشياء. تمعنت في التفكير في الشيطان المدحور من ساحة المعركة وبذلت جهداً كبيراً في اكتشاف الأساس الذي قامت عليه طبيعته الوحشية. رأيت عينيه البارقتين في كل الاتجاهات واكتناز وجهه شديد الحمرة وشاربه الأشيب المعتنى به إلى حد كبير والأزرار اللامعة في بذلة خدمته، فظننت أنني أشعر بأن الأصل في كل هذه النفشة الوحشية المتطاولة هو حب ظهور لا حدود له؛ ولأنه كان كامناً في إنسان فظ أحمق فإنه لا يعرف سوى طريقة كهذه للتعبير عن نفسه.

وقلت في نفسي إن هذا الوغد، الذي ربما كان أباً وزوجاً مهتماً بأولاده وزوجته إلى أقصى حد ورفيقاً جيداً لأقرانه، ما دام أحد لا يعوقه في تباهيه والترويج لصنفه من الناس، هذا الوغد أُعجب بنفسه أيما إعجاب وعدّ تبعاً لدرجة حماقته أن من البطولة بمكان جر المرأة الضعيفة من أذنها. لم تكمن المسألة في أنه لم يكن يدرك من حين لآخر وهو في الكنيسة أو على كرسي الاعتراف أنه على خطأ؛ بل إن نشوة حب الظهور والغرور هي التي كانت تأخذ بلبه وتجعله يذعن لصنمه، ولكنه يرى هذا العيب بصورة أدق لدى رئيسه ورئيسه أيضاً لدى رئيسه وهكذا يستمر الأمر مرتبة بعد أخرى بحيث يلاحظ الواحد تماماً عيب الآخر ولكنه لا يقلع عن إطلاق العنان بكل غضب لعادته السيئة كي لا يصاب بغبن لا بل ليظهر مكللاً بالعظمة. كل الألف شخص، الذين يتبع بعضهم بعضاً ويتبادلون أساليب التربية فيما بينهم على هذا النحو، يداعبون شواربهم المشتعلة شيباً ويقلِّبون عيونهم بجموح في كل الاتجاهات لا بدافع الخبث، بل بدافع حب الظهور بطريقة صبيانية. هؤلاء يحبون الظهور في إصدار الأوامر وفي إطاعتها، في الاعتزاز وفي الخضوع؛ يكذبون بدافع حب الظهور ويقولون الحقيقة لا من أجل الحقيقة بل لأنها في هذه المرة تلائمهم. الحسد والجشع وقسوة القلب والنزوع إلى الافتراء والخمول، كل هذه العيوب قابلة لأن تُروض أو يُبطل مفعولها؛ بينما يبقى حب الظهور متيقظاً دائماً ويورط الإنسان دائماً بألف من المشكلات

والممارسات الوحشية والأخطار الصغيرة أو الكبيرة، وكل هذه التوريطات كاذبة أو على الأقل غير ضرورية وتجعل من هذا الإنسان مخلوقاً مختلفاً تماماً عما يرغب في أن يكون، وتكون النتيجة انحرافاً مرضياً عن الذات بدلاً من السعي إلى تثبيتها.

ولكن هؤلاء ليسوا إلا النصف الأكثر فظاظة وعنفاً، أي جماعة الناس فقراء العقل. أما النصف الأكثر نعومة، أي جماعة الموهوبين والمثقفين، فلا ينحرف عن كيان ذاته بل ينعم بمباركة سحرية تقول: نعرف الأمر ونريده أن يكون كما هو، أي ولعاً بالظهور! إن حب الظهور البريء زينة الوجود الجيدة في نوعها! الوصفة البيتية الذهبية للنزعة الإنسانية والسم المضاد لحب الظهور الفظ والخبيث! وحب الظهور الجميل، بوصفه الاكتمال الرقيق والاستدارة الرشيقة للذات البشرية، يقود إلى الازدهار كل البذيرات التي تجعلنا نافعين ومقبولين في هذا العالم؛ وهو في الوقت نفسه القاضي والمنظم الأكثر رقة لذات الشخص ويحثنا على إظهار الخيِّر والحقيقي من الأمور، اللذين يظلان في الخفاء فيما عدا ذلك، في أنبل الصور والأشكال. المسيح ذاته كان يحب الظهور بعض الشيء، إذ كان يخصل شعر رأسه وشعر لحيته ويأمر بدهن رجليه بالزيت.

هكذا تترجَّع هذه الأغنية الجميلة، وحب الظهور هذا هو المُلْخ(*) الذي تلتهم ناره الخفيفة الناس والحصى ويبقى على الدوام هو ذاته، هذا المُلْخ، وهو لا يخشى أحداً ويفتر ثغره عن ابتسامة حديدية في حين يتوهج بالنار بطنه المتضور جوعاً، وهو يلفح بناره الصداقة والحب والحرية والوطن وكل الأشياء الجيدة، وإذا لم يجد بعد ما يلتهمه، يتحول إلى فرن بارد مليء بالرماد.

في أثناء هذه الموعظة الحماسية، التي ألقيتها على نفسي، كنت أتابع سيري وبما أن نسج الأفكار كان يعينني على تمضية الوقت في ذلك الطقس

(*) إله عند قدماء الساميين، المترجم.

البارد فقد تابعته برضا ورغبة. ووجدتني أختبر ذاتي وطرائق سلوكي وأدقق في موقفي من الناس المحبين للظهور لو أنني متحرر إلى حد ما من هذا العيب أو إذا ما تحقق هذا التحرر ذات مرة في يوم من الأيام. وقلت في نفسي: من المؤكد أن محبي الظهور هم عبيد الأحرار ويتزلفون لكي يحظوا باستحسانهم؛ ولكن العبيد يتمردون ويطورون وحشية وعنفاً كزنوج سانت دومينغو. وفي كلتا الحالتين يستحسن اختراقهم والتفاهم معهم من دون إلحاق أي أضرار بالروح أو بالجسد. لكن لماذا يميز المرء نفسه عنهم ولماذا يرتفع إلى ما فوقهم؟ ألكي يصبح بتعاليه هذا هو ذاته محباً للظهور من جديد؟

هنا وجدتني في طريق مسدود، وبينما كنت أبحث عن مخرج أحدثت هبة ريح عاصفة انقطاعاً في تعمق تفكيري وتأملي وأخذت تهز بقوة شجرة كبيرة بحيث صبت هذه فجأة كل مياهها المتجمعة فوق أغصانها على كتفيَّ وظهري. وبدوري نفضت عني ماء المطر وصرت أبحث عن ملجأ ولكنه لم يكن متوفراً كما لم يكن مسموحاً لي به أيضاً. ومع ذلك فقد رغبت بإلحاح في التوصل إلى وضع مريح على نحو ما؛ فوجدته أخيراً بفضل جمجمة تزفيهان، التي كانت بدأت تضغط على جسدي بسبب شكلها غير المريح أكثر منه بسبب وزنها، ولكن حين هممت بإلقائها جانباً بهدوء في أحد الأدغال، غمرتني فجأة الرغبة والحاجة في آن واحد إلى أن أفعل في وضعي الاضطراري الحرج شيئاً عن طيب خاطر لكي أرتفع ولو إلى علو إبهام واحد فوق ذلك الوضع. فحملت من جديد ذلك الشيء الزاهد المتقشف وتابعت ترحالي الشاق الذي قادني إلى حد زائد على كل لزوم على كثير من الدروب التائهة والصعبة.

* * *

الفصل التاسع

قصـر الكـونت

استمر وضعي على هذا النحو إلى أن حل غسق المساء، إذ هيمن علي الإرهاق والزمهرير وكل أنواع الوهن إلى حد أنه لم يحل دون انهياري المعنوي سوى الخاطر المزعج أنه ليس وارداً في الحسبان أن أموت أو أهلك، والمغامرة الرديئة بصفتها مصدر إغاظة فقط لم تكن ضرورية ومن ثم كان بالإمكان الاستغناء عنها. تماسكت من جديد وتمت لي الغلبة مرة أخرى.

خرجت أخيراً من بين الغابات ورأيت أمامي وادياً واسعاً بدا أن مزرعة إقطاعية كبيرة تقع فيه؛ لأن أشجار حدائق جميلة ظهرت للعيان بدلاً من الغابة وأحاطت بمجموعة من السطوح، وفي مرمى النظر تناثرت بين الحقول والمراعي بيوت قرية بعيدة، وأمامي مباشرة رأيت كنيسة صغيرة مفتوحة الأبواب.

دخلت إلى تلك الكنيسة حيث كان عم الظلام تقريباً في أرجاء المكان وكان الضوء الأزلي يتموج أمام المذبح كنجمة ضاربة إلى الحمرة القاتمة. كانت الكنيسة على ما يبدو قديمة جداً وكان بعض نوافذها مكوناً من ألواح زجاجية مزدانة برسوم مختلفة والجدران والأرضيات مغطاة بشواهد قبور ونصب تذكارية.

قلت لنفسي: "هنا أريد أن أقضي هذه الليلة وأستريح في ظل هذا المعبد!".

وجلست على كرسي اعتراف شبيه بخزانة وكانت على الكرسي وسادة ضخمة؛ وهممت في الحال بإغلاق الستارة الصغيرة لكي أنام لبعض الوقت فإذا يد تمسك بالراية الحريرية الخضراء الصغيرة وإذا شماس الكنيسة، الذي كان لحق بي وهو ينتعل شحاطته الطرية، يقف أمامي ويقول:

"هل تريد أن تبيت هنا أيها الصديق الطيب؟ إن بقاءك هنا هو أمر متعذر!

قلت: "لمَ لا؟".

فأجاب الشماس: "لأنني سوف أغلق الكنيسة فوراً! اخرج منها!".

قلت: "لا أستطيع الذهاب من هنا، دعني جالساً بضع ساعات فقط وكن واثقاً من أن العذراء أم الله لن تؤاخذك على ذلك!".

فصرخ في وجهي قائلاً: " انصرف من هنا فوراً! لا يمكنك البقاء هنا أبداً!".

تسللت مغموماً حزيناً إلى خارج الكنيسة في حين باشر ساحب الحبل اليقظ بإقفال أبوابها. وقفت الآن في المقبرة التي كانت تشبه حديقة غناء ومعتنى بها تمام الاعتناء؛ فكل قبر كان يشكل لذاته أو مع قبور أخرى حوضاً من الزهور في ترتيب حر؛ ولا سيما قبور الأطفال الصغيرة فقد كانت موزعة بطريقة ظريفة، تارة كتجمع صغير فوق جزيرة من العشب وأخرى في عزلة تامة في زاوية مريحة منزوية تحت شجرة وتارة ثالثة بين قبور كبار السن من الموتى، كالأطفال الذين يتعلقون بمآزر أمهاتهم. كانت الدروب مغطاة بالحصى ومجرَّفة بعناية وتمر من دون جدران عزل تحت الأشجار المعتمة في غابة للتنزه، أي تحت أشجار من فصيلة القيقب والدردار. كانت حدة هطول المطر قد خفت؛ ومع ذلك كانت لا تزال تهطل قطرات كثيرة؛ بينما ظهر في جهة الغرب ضياء ناري لغبش المساء ورمى شعاعاً خافتاً على شواهد القبور، فجلست هكذا من غير عمد على أحد مقاعد الحديقة في وسط القبور.

وإذا فتاة رشيقة القوام تظهر من ظل الأشجار العميق بخطوات سريعة وتهز خصلات شعرها السوداء الكثيفة في مهب الريح ثم تمسك بإحدى يديها طرحة مفرودة على صدرها بينما كانت تحمل في اليد الأخرى مظلة خفيفة

من دون أن تفتحها. هذه المخلوقة التي كانت غاية في الظرف واللطف كانت تتنقل هانئة البال بين القبور بخطى سريعة وبدت كأنها تعاينها بعناية واهتمام لكي تتأكد من أن النباتات التي هناك لم تتأذ بفعل العاصفة والمطر. وكانت تقرفص هنا وهناك وترمي المظلة الخفيفة على درب الحصى ثم تنهض بوردة متأخرة غير مستقرة إلى الأعلى وتثبتها في مكانها من جديد أو تقلم بمقص صغير لامع واحدة من أزهار النجمة أو ما شابه ثم تواصل إثر ذلك تنقلها بسرعة. من شدة إرهاقي رأيت هذا الظهور الجميل يتموج أمامي ويختفي شيئاً فشيئاً فلم أعره كثيراً من الاهتمام والتفكير وإذا شماس الكنيسة يظهر أمامي ثانية.

وعاد إلى مخاطبتي من جديد فقال: "هنا أيضاً لا يمكنك أن تبقى يا صديقي الطيب! فهذه المقبرة هي إلى حد ما تابعة لحدائق النبلاء وليس مسموحاً لأي غريب أن يتسكع فيها ليلاً ".

لم أرد عليه بأي كلمة، بل نظرت أمامي شارداً حائراً هكذا على غير هدى؛ لأنه لم تواتني القدرة على الوقوف.

فصرخ بصوت أعلى قليلاً وهز كتفي بالطريقة التي يُوقظ بها النائمون على طاولات الحانات: "ألا تسمع؟ انهض! قف، ناشدتك بالله، على قدميك".

في هذه اللحظة مرت السيدة بقربنا وتوقفت مشيتها، التي كانت تتم عن خلو البال، لكي تشاهد المشادة الكلامية. كان فضولها متجلياً في تصرفات بريئة وظريفة وكان شخصها مزداناً بجمال خلاب في عينيها، كل ما رأيته في ذلك الوقت من الغسق من فتنة السيدة في الشكل والسلوك المتسمين بلطف طبيعي عفوي سافر كان أعاد إلي في تلك اللحظة النشاط والحيوية فنهضت واقفاً ومثلت أمامها حاملاً قبعتي في يدي، ولكنني غضضت بصري بارتباك حين صارت تنظر بدقة إلى ملابسي المبتلة والمتسخة.

في غضون ذلك سألت خادم الكنيسة: "ما أمر هذا الرجل؟".

فأجابها: "لا عليك، أيتها الآنســة الفاضلة، الله يعلم إلى أي صنف من الناس ينتمي هذا الشاب! إنه يصرّ على أن ينام هنا في هذا المكان؛ وهذا أمر

متعذر، وإن كان متشرّداً مسكيناً فمن الأفضل أن ينام في القرية في أي حظيرة للمواشي!".

قالت السيدة الشابة بلطف، موجهة كلامها إلي: "لماذا تريد أن تنام هنا؟ هل تحب الموتى إلى هذا الحد؟".

فأجبتها رافعاً نظري إليها: "آه يا آنستي العزيزة، لقد حسبت الموتى ملاّك الأرض والمضيفين الحقيقيين، الذين لا يرفضون إيواء إنسان متعب؛ ولكن أرى الآن ألاَّ حول لهم ولا قوة وأن مرادهم يفسَّر بالطريقة التي تعجب أولئك الذين يدوسون على رؤوسهم!"

قالت الآنسة مبتسمة: "لا ينبغي أن تقول إننا هنا في هذه البلاد نفكر بعقلية أسوأ من الموتى! حبذا لو عرفتنا قليلاً شخصك وقلت لنا كيف حالك، وستجدنا نحن الأحياء هنا أناساً لا بأس بنا!".

"أتسمحين لي في بداية الأمر أن أقدم لك أوراقي الشخصية؟".

"قد تكون أوراقك مزورة، ومن الأفضل اتباع أسلوب شفوي! ".

"أنا ابن أناس طيبين وأُهم الآن قدر المستطاع بالعودة إلى حيث أتيت! ولكن يبدو للأسف إن هذا أمر غير ممكن من دون توقف!".

"ومن أين أتيت إذاً؟ ".

"من سويسرا. ومنذ بعض الوقت كنت أقيم في عاصمتكم بوصفي فناناً فاكتشفت أنني لست كذلك. أنا الآن في طريقي إلى بلادي من دون وسائل سفر مريحة وكنت أظن أن بإمكاني اجتياز المسافة هكذا مشياً على الأقدام دون أن أسبب لأحد أي إزعاج أو أكون ثقيل الظل. فحال المطر دون ذلك؛ ولذلك أملت أن أقضي الليلة دون أن يراني أحد في هذه الكنيسة وأتابع ترحالي بهدوء في الصباح الباكر من يوم غد. إن كان هناك في مكان قريب تماماً من هنا مدخل بناء مسقوف أو زريبة مكشوفة، لأنني لم أعد أستطيع الآن متابعة ترحالي، فحبذا لو تكرمتِ بإصدار أوامرك بالسماح لي بنيل قسط

من الراحة هناك وكأن شيئاً لم يكن، وفي الصباح سوف أختفي من جديد ولساني يلهج بشكرك!".

"ينبغي أن تحصل على مبيت أفضل، تعالَ معي الآن، سوف أتحمل مؤقتاً مسؤولية هذا الأمر إلى أن يأتي أبي الذي سيعود عما قريب من رحلة صيده".

وعلى الرغم من أن مفاصلي كانت ترتعد من البرودة الناجمة عن ابتلال ثيابي منذ أن وقفت في المقبرة، إلا أنني ترددت في اللحاق بها، وحين رمقتني الآنسة بنظرة لائمة وهي تنتظر تحركي، اعتذرت منها وقلت إنني على الرغم من وضعي العجيب لست متسولاً وإن عرضها علي يتعارض مع خطتي القاضية بوجوب وصولي إلى بلدي من دون قبول المساعدة من غرباء.

"لكن ثيابك مبللة تماماً وأنت ترتجف ككلب صغير، أيها السيد المعتز بنفسه! وإذا ما بقيت في العراء حتى الصباح فقد تصاب بحمى قوية تعوقك عن متابعة سفرك دون مساعدة وعناية. لذلك ينبغي مؤقتاً أن تمكث في بيت حديقة حيث كنت أقضي فيه كل نهاري وحيث تشتعل فيه نار دافئة. لذلك لا تحبس نفسك لمدة أطول، لكي تغادرنا من جديد حسب رغبتك وبالطريقة الأكثر أماناً والأقرب وقتاً! وأنت يا خادم الكنيسة اتبعني بصفتك مرافقاً مكلفاً بأداء ما يطلب منك من خدمات عقوبة على معاملتك غير المضياف لهذا الحاج التقي!".

دمدم شماس الكنيسة قائلاً بفظاظة فائقة: " ماذا سيقال عني، أيتها الآنسة الفاضلة، ثم ماذا سيفعلون بي لو تركتُ الكنيسة مفتوحة طول الليل أو حبست فيها رجلاً غريباً؟ ألم يسبق أن سمع الناس بسرقة كنائس في الليل؟ ألم تسرق بعد شمعدانات وكؤوس وأطباق خاصة بالقرابين؟ "

هنا كان لابد من أن أضحك ثم قلت: " هل تعدّني باردولفاً شكسبيرياً شنق في فرنسا بسبب سرقة وعاء السر المقدس؟".

أضافت إلى قولي تلك المرأة الرائعة وهي تنظر إلي بضحكة جوابية مترنمة: "بعد أن كان سرق في إنكلترا صندوقاً مليئاً بآلات العود الموسيقية

وحمله إلى مسافة بعيدة لمدة اثنتي عشرة ساعة لكي يبيعه بثلاث وحدات نقدية من عملة الكرويتسر؟" فقلت بدوري:

"ما دمت بارعة في استخدام اقتباسات تعود بالضرر على عامة الناس، اسمحي لي أن أجرؤ على اللحاق بك فكلانا منضم إلى جمعية سرية عامة ربما حقّ لها أن تجعل وجودها مفيداً من خلال إحسان متبادل".

قالت وهي تخطو إلى الأمام: "وهكذا ترى أن لكل شيء في العالم جانباً جيداً!"؛ مشيت معها وتبعنا خادم الكنيسة، مندهشاً وسيئ الظن، عبر الحديقة المعتمة. وسرعان ما شعّت عبر الأشجار النوافذ المضاءة لبيت حديقة واسع على مسافة لا بأس بها من البناية المخصصة للسكن. دخلنا إلى صالة صغيرة لم يفصلها عن الحديقة سوى باب زجاجي فقط؛ نار جميلة كانت تشتعل في الموقد؛ والسيدة قربت مني كرسياً بمسند مصنوعاً من القصب وطلبت مني أن أستريح عليها. جلست في الكرسي من غير تردد، ولكن محفظة سفري غير المتناسقة كانت تسبب لي شيئاً من الضيق والانزعاج.

قالت ابنة السادة: " أنزل المحفظة عن كتفك! أم إنك تحملها دائماً لأن فيها فعلاً صندوقاً مسروقاً يحتوي على آلات عود موسيقية فلا تستطيع في هذه الحال أن تنفصل عنها؟".

قلت رداً عليها: " شيء من هذا القبيل!". ثم تخلصت من الحمل الذي على كتفي، المنتفخ بفعل الجمجمة؛ وبناء على إشارة من الآنسة أخذه عني خادم الكنيسة وأسنده إلى إحدى زوايا الجدران. ومن غير أن يلاحظه أحد تلمس برؤوس أصابع قدميه العلو شبه الدائري ما إذا كان للأمر علاقة ببطيخة مسروقة لأنه لم يفهم المقصود من حكاية صندوق الأعواد.

أما الآنسة، التي بذلت في أثناء ذلك جهداً كبيراً للاهتمام بأمري، فقد وقفت أمامي هكذا على غير هدى وسألتني بنبرة تنم عن إشفاق: "ما اسمك إذاً؟ أم إنك تريد أن تسافر متنكراً تماماً؟".

قلت: "هاينريش لي".

"يا سيد لي، هل وضعك سيء بالمرة؟ ليس عندي أي تصور صحيح عنه. ولكنك في النهاية لا يعقل أن تكون فقيراً إلى حد الجوع؟

"ليس هذا الأمر بذي شأن لأنه مرحلي ومؤقت، ففي الوقت الراهن أراني فعلاً أعاني الفقر؛ لأنني إذا ما أكلت في اليوم أكثر من وجبة فإن النقود المخصصة لسفرتي لا تكفي إلى أن أصل إلى بلدي".

"لكن لماذا تفعل ذلك؟ كيف يمكن لامرئ أن يعرض نفسه للفاقة والعوز إلى هذا الحد".

"لم أفعل هذا عمداً؛ ولكن بما أن الوضع هو هكذا فإنني أتقبله شاكراً، هذا إذا كان الاضطرار يستحق الشكر. إن المرء يتعلم قليلاً من كل شيء، أما النساء فلا يلزمهن تمرينات كهذه لأنهن لا يفعلن دائماً إلا الشيء الذي يستطعن تركه؛ في حين أن ترويضات ملموسة من هذا النوع هي عند الواحد منا جيدة؛ لأن ما نراه ونحس به قلما نكون ميالين إلى تصديقه أو أننا نعدّه منافياً للعقل ولا يستحق الاهتمام".

وفي الحال أحضرت الآنسة بمساعدة شماس الكنيسة طاولة صغيرة كان عليها بضعة صحون فيها شيء من الطعام.

"هنا لا يزال طعام عشائي على حاله، لحسن الحظ. تناول مؤقتاً شيئاً من الطعام إلى أن يعود أبي إلى البيت فيهتم بأمرك. أما أنت أيها الخادم فاذهب بسرعة إلى بيتنا الآخر وأجلب من مدبرة المنزل زجاجة من النبيذ، أتسمع ما أقول لك؟ هل تفضل النبيذ الأبيض أم الأحمر، يا سيد لي؟".

قلت بنبرة غير مهذبة: "الأحمر!"، لأنني كنت في تلك اللحظة، وأنا في ذلك الوضع المترجح بين متشرد مجهول بحاجة إلى مساعدة ومنتم إلى المجتمع يُعامل بالحسنى والتكريم، مرتبكاً مجدداً ومن ثم عاجزاً عن إيجاد العبارة اللائقة.

"إذاً ينبغي أن نقدم لك شيئاً من نبيذ مائدتنا!"، بهذه الكلمات أرسلت الآنسة بصوتها وراء الخادم المنصرف تواً ثم شدت بعد ذلك سلكاً مربوطاً

بجرس فأتت إلينا فتاة بلباس ريفي وقفت مذهولةً من رؤيتي هنيهة ونظرت إليّ بدهشة شديدة. كانت الفتاة هي ابنة بستاني كان يتخذ مسكنه تحت السقف ذاته وقد شكلت مع مر الزمن الخادمة وأمينة السر في شخص واحد للآنسة واعتادت مخاطبة ابنة السادة مخاطبة الند للند.

قالت الأخيرة: "أين كنت مختفية يا روُزشن؟ أشعلي الضوء بسرعة، ثمة الآن من يغزونا في عقر دارنا وسوف نبقى هنا إلى حين.

كنت في أثناء ذلك أمسكت بالشوكة والسكين لكي أتناول شريحة من الشواء البارد، ولكنني ارتبكت من جديد، فأدوات المائدة المصنوعة من الفضة كانت على ما يبدو استخدمت زمناً طويلاً من قبل طفل، لا بل كانت مخصصة للأطفال، وعلى الشوكة الصغيرة حُفر بعناية ودقة بخط غوطي اسم "دوروتيا"، وبما أن الوريدة، أي روزشن، التي أتت مؤخراً وخاطبت في الحال سيدتها مدلعة إياها باسم دورتشن فلم يكن إذاً ثمة شـــك في أنني كنت في تلك اللحظة أمسك بيدي أدوات الطعام المخصصة لدوروتيا. فوضعتها على الطاولة؛ في الوقت ذاته لاحظت روُزشن هذه الحال وقالت: "ماذا تفعلين يا دورتشن؟ لقد أعطيت الرجل أدوات طعامك!".

قالت الآنسة المسماة دورتشن بشيء من الخجل: "صحيح، هكذا يحدث إذا كان المرء في شرود تام! اعذرني إذا كنت زودتك بسلاحي الذي خصص لي في مرحلة الطفولة ولكن إذا كنت لا تشمئز منها فبإمكانك أن تتابع بكل هدوء تناول طعامك فأكسب أنا عندئذ سمعة القديسة إليزابيت التي أطعمت الفقراء من طبق طعامها الخاص!".

على هذه الدعابة اللطيفة لم يعد عندي ما أعترض به، ولكن عملية تناول الطعام لم تشأ أن تتم على ما يرام، إذ فقدت الشهية فجأة أو بالأحرى اعتراني شعور ضاغط بأنني لست في المكان الصحيح ورغبت في أن أكون في العراء على الطريق العام وفي جو الحرية، غير أنني عرفت بالطبع أن هذا الأمر غير وارد في هذا الظرف تحديداً. ونعمت بارتياح أكثر قليلاً حين

شربت كأساً من النبيذ سبق أن صبته لي روُزشن وهي تقيسني بعينيها الصغيرتين الناقدتين طولاً وعرضاً. بعد ذلك أسندت ظهري إلى الوراء وصرت أراقب ما كانت تفعل الفتاتان. كانت الآنسة جلست في وسط الصالة على طاولة مستديرة كبيرة ووقفت ابنة البستاني إلى جانبها. على الطاولة تجمعت كؤوس وأباريق كثيرة مليئة بزهور ونباتات غابات مما اعتاد الخريف أن يأتي به إضافة إلى حزمات حمراء وسوداء من ثمر العليق. وفيما بينها كانت أوراق شجر غريبة، على شكل ريشات أو على شكل قلب، وأوراق لبلاب خضراء لامعة ومميزة بجمالها، وأعشاب حلفاء، كل ذلك جاهز لأن يُجمع في طاقة أو أن يؤدي كما هو على حاله خدمة جُلى في إمتاع الناظرين. بدت الزهور كأنها أتت من المقبرة وكما كنت أرى فقد عملت الآنسة على وضع ما قُطف في ذلك اليوم في كأس مليء بماء نظيف. كانت بعض طاقات الزهور الصغيرة طازجة وأخرى ذابلة أو شبه ذابلة، الأمر الذي بدا أنه يدل على أن الآنسة الجميلة لابد أنها صديقة محبة للموتى ومعتنية بهم. وهذا ما ذكرني بالقول المنتشر عن القديسة إليزابيت التي كانت وهي طفلة تحب اللعب مع أقرانها وقريناتها على القبور وتحكي عن الموتى، وبما أن هذه الدوروتيا ذاتها ملمة بمعرفة تلك الخرافات فقد أضفى هذا كله على شخصيتها البريق الذهبي لصفات مميزة أكثر عمقاً في حين لم يُظهر سلوكها الحر والحاسم أي مقومات لتزمت كنسي.

نظرت إلى طاولة الزهور بنوع من الرضا المنوِّم ورأيت وسمعت بعينين وأذنين نصف مفتوحتين لفترة من الزمن ماذا فعلتا وعمّا تحدثتا دون أن أتابع ذلك أو أهتم به إلى أن استسلمت للنوم فعلاً. كان على كرسي إلى جانب الآنسة محفظة كبيرة فكانت تُخرج منها رسوماً أكبر وأخرى أصغر وتنشغل طول الوقت بتثبيتها على أطباق من الورق المقوى بحيث كانت بذلك تحميها وتزودها بهوامش عريضة. كانت تنجز عملها هذا بوساطة شريط صغير من الورق وقليل من الصمغ العربي؛ وكانت روُزشن تعد لها هذه الأدوات.

قالت الآنسة حين نفدت في الحال كمية الورق المقوى: "الآن علينا أن نفصِّل أوراقاً من جديد!". وأزاحت الفتاتان جانباً بحماس بالغ تلك الفوضى العائقة من على الطاولة لكي تحصلا على فسحة من المكان، ووضعتا عليها أطباقاً جديدة من الورق وبدأتا بمعالجتها بمقصي عملهما وكأن أمامهما قطعة كتان يفصلان منها مناشف. وبما أن الورق كان يفتقر إلى وجود خيوط مرشدة، فقد كان ينكمش في بعض الأمكنة على الشفرة أو أن المقصين كانا يشكلان منحنى في أثناء مسيرتهما عبر الورق فعانت الفتاتان كثيراً من حالات الاستياء المتكررة، التي أنحت فيها كل فتاة باللائمة على الأخرى، من باب الدعابة.

قالت دوروتيـــا: "انتبهي يـــا صغيرتي، كل الهوامش التي تصنعينها متشققة ومن المؤكد أن أبي سوف يلغي عملنا حين يطلع عليه ويتولى هو ذاته القيام به!".

"وأنتِ وتقديرات عينيك الخاطئة! انظري كيف أن الخريطة التي هناك مائلة! تقديراتنا، أبي البستاني وأنا، هي أفضل حين نقسم الأرض إلى أحواض لزرع الخضار!".

"اخرسي، أعرف هذا! لكن بين هذه الرسوم ثمة لوحات أكبر من أن يستطيع المرء الإحاطة بصورة منتظمة بالتعاطي معها! في المعهد كنا نُزوَّد بأحجام أكثر جدوى حين كنا نرسم لوحاتنا الصغيرة من عالم الزهور؛ لا عليكِ، فإن أبي سوف يعمل فيما بعد على تدارك الأمر ويصحح الأخطاء بوساطة المسطرة وقلم الرصاص. المهم في الأمر هو ألا نقص ورقة مقوى أصغر مما ينبغي، لأنه يريد أن تكون أحجام كل اللوحات متساوية. وكان أمر بصنع صندوق من أجل وضع اللوحات في داخله في الحفظ والصون؛ ثم طلب بضعة براويز خشبية مع الزجاج اللازم لها لكي يعلقها في حجرة مكتبه ويضع فيها بالتناوب هذه اللوحة أو تلك مما يعجبه خصوصاً، وزُودت هذه البراويز في الجانب الخلفي منها بمزالج مريحة للفتح والإغلاق".

"ما الذي يجدر بالمشاهدة في هذه الرسوم! ولأي غرض يُحتاج إليها؟".

"ويحك أيتها المخبولة، يُحتاج إليها للمتعة طبعاً! على المرء أن يعرفها ويفهمها، وفي ذلك تكمن المتعة! ألا ترين كم تسر الناظرين كل هذه الأشجار وكيف تتموج الأغصان والأوراق وتدب فيها الحركة وكيف تلعب الشمس فوقها؟ وهذا كله لابد للمرء من أن يتعلمه لكي ينجزه في لوحة!".

وضعت روزشن ذراعيها على الطاولة وأمالت أنفها الصغير باتجاه إحدى اللوحات ثم قالت: "فعلاً! أجل، إنني أرى الآن المنظر بوضوح! تماماً كصدرية أبي الخضراء، المخصصة ليوم الأحد! هل هذه بحيرة؟".

"لماذا تحديداً بحيرة، أيتها الجرادة! إنها السماء الزرقاء فوق الأشجار! منذ متى تكون الأشجار من تحت والمياه من فوق؟".

"كفاك هراء، فالسماء هي في الحقيقة مستديرة ومقببة، واللون الأزرق هنا هو منبسط ومربع مثل بركتنا المائية الكبيرة، التي أمر السيد بغرس شجيرات الزيزفون حولها. من المؤكد أنك ألصقت الصورة بالعكس! اقلبيها تجدي المياه من تحت والأشجار منتظمة من فوق!".

"أجل إنها واقفة على الرأس! هنا ترين في حقيقة الأمر قطعة واحدة فقط من السماء، أيتها الطفلة! إذا ما نظرتِ عبر النافذة فسوف ترين أيضاً مربعاً كهذا، أيتها المربعة!".

قالت روزشن وهي تضرب سيدتها برقة على ظهرها بيدها المبسوطة: "وأنت مخمسة!".

غفوت حقاً على شدو الفتاتين الذي تناهى إلى مسامعي من هناك واستهواني دون أي مشاركة مني، ولكنني صحوت بعد ذلك ببضع دقائق على نداء عذب الصوت لاسمي كان دوى على مسمع مني. أي إن الفتاة ابنة البستاني كانت لاحظت فجأة بعد هنيهة من إبعادها جانباً اللوحةَ المخرجَة من المحفظة، على زاوية اسم الفنان وعام إنجازها فقالت: "ما الذي كُتب هنا؟".

فأجابت دوروتيا: "ماذا عساه أن يكتب؟ طبعاً اسم الفنان الذي أعد مسودات الرسوم، التي هي تصاميم لمناظر طبيعية! اسمه هاينريش لي وكل ما في هذه المحفظة من لوحات هي من إبداعه!". بعد ذلك كانت قطعت هي ذاتها كلامها فجأة ونظرت إلى جهتي ثم نادت: "كيف للمرء أن يكون شارداً إلى هذا الحد! هذه الرسوم هي في معظمها مناظر طبيعية سويسرية، كما يقول أبي!".

حين فتحت عينيَّ، كانت دوروتيا واقفة أمامي مباشرة وهي تحمل أمام صدرها طبقاً كبيراً من الورق المقوى وقد أمسكت برقة بزواياه العليا وكأنه بيرق كنيسة وكانت لا تزال فاغرة فاها جراء النداء: "السيد هاينريش لي!".

ولكنني كنت لا أزال مثقلاً بالنعاس بحيث لم أعرف في اللحظات الأولى أين كنت. لم أر سوى مخلوقة جذابة تقف أمامي وتنظر من عل بعينين لطيفتين إلى صورة فنية، وفي حال من فضول حالم ملتُ بجسدي إلى الأمام وحملقت في تلك الصورة إلى أن ظهرت لي ربوع الطبيعة الغابية واضحة وتذكرت أيضاً عملي الفني في مرحلة الشباب. كانت لوحة في منتهى العلو وبين سيقان أشجارها السامقة كانت تومض بقعة ثلج سويسرية على صورة حبيبات. عرفتها أيضاً خصوصاً من نبتة شوكران كبيرة ممتدة بالعرض وعبر حزم أزهارها البيضاء المتموجة في جو عميق بين العتمة والضياء وكان الضوء يمر بها مروراً عابراً. هذه النبتة الخلابة كانت أدخلت إلى قلبي في تلك الأيام الماضية الفرح والسرور إلى حد أنني رسمتها بجد أكثر سعادة من المعتاد، وكانت أيضاً زاخرة وموفقة في فنون سيقانها وأوراقها بحيث لم أكن بحاجة إلى رسم ثانٍ لشجيرة من الشكران ما دمت كنت أملك هذه اللوحة، وقد ودعتها بحزن عميق حين افترقت عنها.

ولكن نظري تحول عن اللوحة إلى الوجه الذي كان يبتسم من فوقها، وهذا الوجه ظهر لي فجأة بسبب هذا الاقتراب وإضاءة النار المتلألئة كوجه مألوف من قبل؛ ولكنني مع ذلك لم أتذكر أين رأيته. أمعنت التفكير وأمعنت التفكير لأن ظهور هذا الوجه عاد بي إلى الماضي عبر هذا اليوم الذي لم

أستطع أن أستحضر أحداثه كذلك بالسرعة المطلوبة. وفجأة عرفت من إشارة طرفها بالتحية ومن فمها المفتوح تلك الفتاة الجميلة، التي كانت نظرت ذات مرة عبر النافذة إلى دكان بائع الأدوات القديمة وسألت عن فناجين صينية؛ والآن لم أعد أشك في أنني لم أزل في جو واحد من تلك الأحلام المتعلقة بعودتي الخائبة إلى وطني وحسبت تبعاً لذلك كل ذلك الظهور رؤيا مازحة عابثة، وأن أفكاري المتعلقة بهذا الموضوع هي صيرورة الوعي الظاهري للحالم الذي يخشى أن يصحو من حلمه فيجد نفسه غارقاً في بؤسه السابق. ولكن بما أنني صحوت فعلاً وكنت أعمل بعقل حيوي، كان إحساسي بكل شيء أوضح وأقوى، وحين حولت نظري مرة أخرى إلى ربوع الطبيعة البريئة في اللوحة ووعيت معرفتي من جديد بكل حجر ملون وكل عشبة فيها، تبللت عيناي بالدمع وأدرت رأسي إلى الجانب لكي أجعل الرؤيا تختفي من مخيلتي.

وبعد مضي أعوام على ذلك لا أزال أستنتج من هذا الحدث الصغير أن ما نعايشه هو في بعض الأحيان جميل بقدر جمال ما نحلم به وأكثر معقولية منه، وليس طول الأمد هو المهم في هذا الأمر.

كانت دوروتيا لاذت بالصمت ورأت تصرفي بشيء من التأثر والمشاركة الوجدانية، لم تستطع إبداء أي حراك ولذلك لبثت واقفة في مكانها المزدان بالفتنة والروعة.

وأخيراً كررت مناداتي باسمي وقالت: "تكلم إذاً! هل أنت من رسم هذه اللوحة؟".

شجعتني بنبرة صوتها الكاملة فنهضت واقفاً وتناولت اللوحة ثم أمسكت بها بين يديَّ متفحصاً وقلت: "من المؤكد أنني أنا الذي رسمتها، تُرى كيف وصلت إليكِ؟". في الوقت ذاته أطلعت لاحقاً على بقية الرسوم بالتمام والكمال التي كنت رأيت الفتاتين من قبل تشتغلان بها وأنا نصف نائم؛ ذهبت إلى الطاولة وتناولت بضع لوحات بيدي ثم نقبت أيضاً عدة مرات في المحفظة وتأكدت من أن كل الرسوم والتصاميم هي من صنعي؛ لم ينقص منها شيء،

وكانت كلها مصطفة بعضها إلى جانب بعض كما صففتها في السابق حين كنت أمتلكها.

اعترتني الدهشة تماماً وقلت بعالي صوتي: "يا لها من مغامرة عجيبة! من يصدق أن حدثاً من هذا النوع يمكن أن يتناهى إلى علمه!".

ثم نظرت مرة أخرى إلى الآنسة، التي تتبعت حركاتي بفضول مثير ومفرح وعين مفتوحة، وقلت: "وأنتِ أيضاً سبق لي أن رأيتكِ، وأعرف الآن من أين جلبت رسومي؛ ألم تنظري ذات يوم عبر نافذة الدكان الذي يملكه يوزف شمالهُوفر وتسألي عن صحون قديمة، حين كان أحدهم يعزف لحناً على الناي؟".

فصرخت بعالي صوتها: " طبعاً، طبعاً، ولكن دعني أرَ شكلك بشيء من التمعن!".

ومن دون خجل تمعنت فيَّ بدقة واضعة يديها على كتفيَّ.

وقالت مندهشة من جديد: "ليتني أعرف أين تاهت أفكاري في هذا اليوم؟ هكذا هو الحال! رأيت هذا الوجه في مغارة شيخ المشعوذين، كما يسميه أبي. وكنتَ آنذاك تعزف لحن أغنية على الناي، أليس كذلك يا سيد هاينريش- يا سيد هاينريش لي؟ بدأت الأغنية بــ: "حتى لو حجبتها السحابة". هلا تذكرت تتمة الأغنية!".

"فإن الشمس تبقى في قبة السماء! هناك تهيمن إرادة مقدسة، والعالم لا يسخَّر في خدمة مصادفة عمياء!" ما عسى أن أقول في هذا الأمر؟".

قالت دوروتيا: "إذا ما أردنا ان نشتغل بعلم الأساطير فمن الممكن أن تسود في العالم آلهة المصادفة، الأحب إلى النفس، طوال إعدادها مقالب ظريفة من هذا النوع، وعلى المرء أن يقدم لها القرابين وروداً فتية وكريم اللوز لكي تمارس الحكم دائماً بهذه السهولة والهدوء والإحسان! ولكن الآن ينبغي أن نستقبلك أيضاً بكل ترتيب وحفاوة وبما يتناسب مع الحدث خالد الذكر ومع الأوضاع القائمة! في هذا البيت توجد غرفة ضيوف بسيطة،

وسوف أتخذ في الحال الإجراء الضروري لكي تغير ملابسك بادئ ذي بدء. ابقي هنا يا روزُشن كل الوقت لئلا يصيب أحد شيخ المساكين، السيد لي، بأذى!". ثم انصرفت مسرعة.

لم أعرف إن كان ينبغي أن أعدّ هذا الانعطاف الجديد حظاً سعيداً، ونظرت بتنهيدة عميقة إلى رسومي التي وجدتها مرة أخرى دونما توقع لكي أفقدها مجدداً. الفتاة روزيني، التي تقمصت بسرعة المزاج المرح لسيدة البيت وأرادت أن تعدني خجولاً محرجاً، قالت بلطف: "لا تعبأ بالوضع! فالسيد الكونت والآنسة يفعلان دائماً ما يحلو لهما وما هو صحيح. وحين يفعلانه يعنيان ذلك أيضاً ولا يعبأان بما يقول الآخرون".

قلت مذعوراً أكثر مني مفاجأً بارتياح: "إذاً أنا الآن لا أزال في كنف أحد الكونتات؟".

"ألا تعرف هذا؟ أنت في كنف الكونت ديتريش زو. ف. بيرغ".

الآن أضيفت إلى كل ما حدث أيضاً المعلومة المقيتة بأن علي أن أخالط أناساً غريبين عني تماماً من حيث الترتيب الطبقي؛ إذ لم يسبق لي أبداً طوال حياتي أن اختلطت بأيٍّ ممن يسمون كونتات، ثم إنني كنت أختزن في ذاكرتي تصورات رومانسية عن أنماط الحياة والتطلعات الشخصية لسادة كهؤلاء، وهذه التصورات تسيء إلى حسن المساواة مع أبناء الطبقة الوسطى، الذي جبلت عليه. ولكنني أخذت بالحسبان حقيقة أنني، حتى لو كان رب ذلك البيت فلاحاً، لم يعد يحق لي أن أقف معه بهذين النعلين على قدم المساواة، ولذلك اعتراني ارتباك جديد بسبب الانعطاف الذي طرأ على مسيرة ترحالي. ولكن الفتاة ابنة البستاني تابعت حديثها بطيبة قلب لكي تلقي في روعي شيئاً من التشجيع فقالت:

"سوف يتعجب السيد ويفرح حين يجدك هنا دونما توقع أو حسبان؛ إذ حين جلب فيما مضى الرسوم الأولى من مقرها واستمر فيما بعد وصول رسوم أخرى أيضاً، كان أهل هذا البيت يطّلعون عليها في كل يوم وظلت المحفظة التي تحتويها جاهزة دائماً للاستخدام".

بعد فترة من الزمن عادت دورنتشن وقالت: "اسدِ لي معروفاً واصعد إلى الطابق الأعلى! روُزشن سوف تضيء لك الطريق إلى هناك وسيقدم لك أبوها الخدمات الأخرى اللازمة. تمتع بالراحة بالقدر الذي تتيحه لك هذه التدابير الذي اتخذت على عجل لكي تستطيع أن تسلم على أبي وأنت في حال جيدة ولكي أوفر على نفسي تأنيباً ولوماً بسبب التهاون في واجباتي الإنسانية!".

تناولت حقيبة سفري، غير أن روُزشن أخذتها مني وحملتها ثم حملت معها شمعداناً ومشت أمامي؛ وهكذا غادرت باسم الله إلى الطابق الأعلى من بيت الحديقة إلى حجرة سكن البستاني. كان هذا جالساً مع خادم الكنيسة وكان الاثنان يحتسيان شراب المساء؛ استقبلني البستاني بوصفي وافداً كل أموره على ما يرام. وخادم الكنيسة كذلك صار الآن يعدّني ضيفاً مستوصى به خيراً وطال انتظاره، ولكن الخادم كان على ما يبدو سمح لنفسه بحكم طريقته في التصرف بمزاح غريب معي. قادني البستاني بضع درجات أعلى، حيث كانت بنيت في عراء الجهة الخلفية من بيت الحديقة باتجاه القصر صالة صغيرة على أعمدة خشبية. هذا البناء الصغير الملحق والمخصص للاستجمام وتعديل المزاج كان من الخارج مكسواً من أقدام الأعمدة حتى السطح بنبات صريمة الجدي المتسلق وذي اللون الأرجواني، ومن الداخل كانت الحجرة تحتوي على سرير واحد وأدوات أخرى منتقاة بما يكفي للسكن فيها لا في الليل فحسب بل خلال النهار كذلك.

وعلى كراسيّ ألقيت وجهزت قطع ملابس مريحة للاستخدام، فدعاني البستاني إلى استخدامها. غير أني فضلت لكي لا ألبسها أن أستلقي في السرير على الفور، خصوصاً أنني كنت أرغب في أن أغمض عيني ورجوت الحدائقي أن يجلب ملابسي المبتلة، عندما أنام، لكي تجفف وتنظف. وحين استلقيت أخيراً في الظلام بعد كل ما حدث، سمعت أصوات خيول وعربة وكذلك نباح كلاب. كان ذلك بلا شك السيد الكريم، العائد إلى البيت؛ على أن تأجيل مثولي أمامه في هذا اليوم كان عندي أمراً جديراً بالتقدير.

الفصل العاشر

تبـدل الحظ

كان نومي عميقاً ومتواصلاً إلى حد أنني لم أصحُ إلا عند منتصف فترة ما قبل الظهر. وكانت ملابسي أُحضرت إلى الغرفة في حال جيدة قبل ذلك بكثير من دون إحداث أي صوت؛ وحين رأيتها امتدحت الصفقة التي كنت أبرمتها مع العبراني اللطيف. هكذا تضفي اللحظة الراهنة على الأشياء قيمتها الخاصة، فقد بدت لي الآن حصيلة عملي على شكل لباس لا يستهان به أفضل عندي من مبلغ من المال بمقدار ضعفين أو أربعة أضعاف من هذه الحصيلة في وقت آخر.

وبينما كنت منشغلاً بارتداء ملابسي، طرق الباب، وبناء على دعوتي الطارق فُتح الباب على مصراعيه ووقف في عتبته رجل طويل وجميل ممسكاً بالأكرة بيده جائلاً بنظره بدقة وعناية أرجاء الغرفة بمن فيها. كان ملتحياً بلحية كاملة لم تكن معتادة في ذلك الزمان وقد غزاها، شأنها شأن شعره الرئيسي، شيء من الشيب وكان يرتدي سترة صيد قصيرة عليها أزرار من قرن الغزال.

قال بنبرة صوت رنانة وقوية: "نهارك سعيد! لا أريد إزعاجك! بل لا أريد إلاّ أن أرى كيف حال ضيفي!".

فأجبته بشيء من الارتباك وقد أبعدت المشط الذي كنت أسرح شعري به في الحال وانحنيت أمامه بقدر ما كنت أفهم تقاليد الانحناءة: "إن حالي على

ما يرام، أيها السيد الكونت، ما دام لي الشرف أن أحيي في شخصك بالفعل سيد هذا البيت!".

"أرجو أن تتابع ما كنت منشغلاً به وتتصرف تماماً كأنك في بيتك وبين أهلك! ولكن في البداية اسمح لي أن أرحب بك!".

بهذه الكلمات استكمل دخوله إلى الغرفة ثم هز يدي مصافحاً، ومن تلك اللحظة زال عني كل ارتباك إزاءه، إذ إنه بيده ونظرته وصوته أعلن نفسه الرجل الحر الذي يسمو فوق الأمور العارضة.

قال الكونت بحيوية ونشاط وهو يجلس أمام النافذة المفتوحة لكي يترك لي فسحة في المكان: "ولكن هلا قلت لي الآن، هل أنت فعلاً صاحبنا هاينريش لي المدون اسمه في كل مكان على اللوحات التي بحوزتنا؟ إن الإقرار بذلك يغمرني بأكبر المتعة والسرور، إذ إنني مارست في أعوام سابقة عملاً كعملك، ولكنني توقفت عن ذلك بسبب افتقاري بشدة إلى المهارة؛ بالمقابل كنت أفرح في كل مرة إذا ما أفلحت في الحصول على لوحة أو أخرى مرســومة طبقاً للطبيعة، الأمر الذي لا يحدث في غالب الأحيان. ولذلك ما من شيء يسرّني أكثر من امتلاك ثروة كاملة، إذا صح التعبير، من هذا القبيل، ثروة لتشمل التطور الكامل لفنان طموح بكل إخلاص واستقامة وتشمل في الوقت نفسه عدداً كبيراً من التجسيدات المتعلقة بأشياء حقيقية واقعية. وحين وجدنا الفرصة سانحة لدى مشجع الفن المغمور وغريب الأطوار، عملت على أن تصل إلى يديَّ كل رسومك وحاولت أيضاً أن أعرف مباشرة المصدر الذي أتت منه؛ إلا أن الشيخ بائع الأمتعة القديمة أصر على الاحتفاظ بسره".

كنت أخرجت من حقيبة سفري صرة تحتوي إضافة إلى رسائل أمي على جواز سفري. ففتحت تلك الوثيقة الشخصية وقدمتها إلى الكونت على أساس أنها تحتوي رسمياً على اسمي ومهنتي.

وقلت وأنا اضحك هانئ البال: "إنه ليس شيئاً آخر، يا سيدي الكونت، سوى أن قدراً خيالياً يهبني رؤية ثمار عملي المتواضعة في سني شبابي مرة أخرى ومعرفة أنها في الحفظ والصون، قبل أن أعود إلى بلد منشئها".

تناول الكونت جواز السفر وقرأه بتمعن لكي يرسخ الوقائع في ذاكرته لا بدافع التشكيك في كلامي، على حد تعبيره.

وأضاف يقول: " إنها لمصادفة ثمينة؛ ولكن قبل كل شيء لا يجوز الحديث عن متابعة سفرك إذا ما أردنا أن نكرم هذه المصادفة بما يليق بها! إنني جد مستغرب كيف أنك سقطت في وضعك السيئ هذا وكيف تُصاغ حياة كهذه، ماذا تفكر أن تفعل فيما بعد، ولابد من أن نتحدث في كل شيء بمتعة وسرور في أثناء استراحتك عندنا، التي ستطول حسب الضرورة".

وفجأة نظر الكونت بعينين كبيرتين إلى الطاولة، التي كنت أخذت منها بلا انتباه منشفة لكي أجفف يديَّ اللتين كنت غسلتهما في أثناء ذلك. وهذه المنشفة سبق أن رميتها بسرعة فوق محتويات حقيبة سفري حين سمعت طرقاً على الباب، والآن ظهرت الجمجمة إلى جانب المخطوطة المجلدة بغلاف والمتعلقة بقصة شبابي مكشوفتين هكذا وفي متناول رؤية كل الناس.

قال الكونت وهو يقترب من الطاولة: "هذه أمتعة سفر تنطوي على أسرار خفية وألغاز! جمجمة ميت وكتاب من قطع الربع مغلف بحرير أخضر ومزود بقفل ذهبي! هل أنت محضِّر أرواح ومنقِّب عن كنوز؟".

"للأسف لست كذلك، كما ترى!". قلت هذا ورويت له باختصار القصة المزعجة، المتعلقة بالجمجمة وذلك بطريقة شيقة وبما أن أشعة الشمس الخافتة زادت من انشراح صدري ورغبتي في الكلام فقد رويت أيضاً الدعابة التي خططت لها ونفذتها يوم أمس مع حارس الغابة. فرمقني الكونت عبر عينين براقتين بهدوء بنظرة ثاقبة وزاخرة.

"وهذا الكتاب، ما شأنه؟".

"ألفته حين لم يعد عندي ما أعمله ولم أعد أعرف كيف أعيش؛ وهو يحتوي ببساطة على وصف مرحلة أعوامي الفتية، التي فرضت فيها على نفسي اختباراً للذات؛ ولكنه أسفر فيما بعد عن مجرد ذكريات ممتعة. ولكن لا ذنب لي في تجليده ذي الأبهة والإثارة".

ورويت كيف أتى سوء التفاهم مع مجلد الكتب على آخر ما كنت أملك من نقود الغولدن وترتب على ذلك أنني تعرفت من جراء ذلك على الجوع إلى أن ساقتني معجزة الناي إلى بائع الأدوات المستعملة.

قال الكونت وهو يضحك من القلب: "هذه إذاً هي القصة حيث سمعتك دوروتيا وأنت تعزف على الناي؟ ولكن تابع! ماذا حدث منذ ذلك الحين؟".

أضفت إلى ذلك أيضاً مغامرتي مع عيدان الرايات والارتياح الهادئ الذي جلبته لي تلك المغامرة؛ وعرجت أيضاً على موت صاحبة المنزل الذي كنت أقيم فيه ثم تابعت الرواية إلى أن وصلت إلى رمي الجمجمة من فوق درج السلم من قبل صاحب المنزل وهي الحكاية التي سبق لي أن رويتها من قبل، أما لقائي القصير مع هولدا وبقية تلك القصة فقد أحطته بالكتمان.

تناول الكونت كتابي وسأل: "هل تسمح لي بأن أفتحه أو ربما بأن أقرأ فيه؟" فوافقت بكل رغبة، اللهم إذا لم يكن مملاً له.

"نريد الآن إذاً أن ننتقل إلى الجانب الآخر ونتناول شيئاً من طعام الفطور، لأننا لن نتغدى إلا بعد ثلاث ساعات من الآن".

أخذ الكتاب تحت أحد ذراعيه وأخذني أنا تحت الذراع الآخر ثم ذهبنا إلى القصر، كما كان يسمى المبنى الرئيسي، الذي شُيد في بداية القرن الماضي تقريباً. قادني الكونت إلى حجراته في الطابق الأرضي، التي شكلت صالةُ مكتبةٍ مضيئة مع طاولات عمل واسعة مركزاً رئيسياً لها. وعلى واحدة من تلك الطاولات كان أُعد فطور وإلى جانبها كانت المحفظة التي تحتوي على رسومي. وبينما كان الكونت ديتريش يشاطرني تناول الطعام المنعش بروح المزاملة، فتح المحفظة. وقال: "يجب أن ترتب لي رسومك وبذلك تستطيع مبدئياً تمضية وقتك

بعمل مفيد. ثمة لوحات كثيرة لا تحمل تاريخاً، بينما تختلط الطرائق والمهارات بعضها ببعض، المعتنى به والمهمل، الموفق إلى حد كبير والمخفق، ويترافق كل ذلك في الوقت نفسه مع رسوخ متباين أو اضطراب متباين، تختلط هذه الأمور إلى حد أنه يتعذر علي تحقيق الترتيب المطلوب بصورة صحيحة وفقاً للتتابع الزمني. لا أعرف إن كنت تفهمني! على سبيل المثال هنا لوحة كُتب لها أن تصيب الهدف بدقة وتُتوج بنجاح ساذج وظريف مع أنها تدل على مقدرة غير متطورة وترجع على ما يبدو إلى البدايات الأولى من عملك؛ وهناك تزاوج لوحة أخرى إخفاقاً بائناً لما هو منشود مع تأكد مسبق من الإنجاز الرديء، باختصار، هذا كله ممتع ومشوق عندي، وأود أن أرى مجموعة الرسوم مرتبة زمنياً بما أمكن من الدقة، يعني أن نتحفظ على ما سنتخذ بشأنه قراراً فيما بعد. في الصباح الباكر من هذا اليوم كنت أمعن التفكير في هذه المسألة.

دهشت للفهم الصحيح، الذي بنى عليه حكمه على نماذج رسوم كان أخرجها انتقائياً من المحفظة، ولكنه أخرج أيضاً من إحدى الخزانات بعض الدفاتر المحتوية على رسوم أخرى وأتى بها إليَّ.

"ولكنّ هنا حالاً أخرى أيضاً لم أستطع فهمها؛ هل هذه الأشكال فعلاً من صنعك؟ أرى أنها أشياء مقصقصة، ولكنني لا أعرف كيف أجمع بعضها مع بعض لكي تشكل وحدة قائمة بذاتها".

كانت تلك هي تجميعاتي الكرتونية لرسوم متعددة، ولكن بائع الأدوات المستعملة كان خلط رسوم الدفاتر المختلفة، الملونة والباقية بلا تلوين، الكبيرة والصغيرة ووُزعت جميعها على كل دفتر على أساس أن ذلك، على حد رأيه، يكسب المجموعة العظيمة أهمية أكثر بالتساوي والتنوع بل التغاير. ثم إن الكونت لم يستطع بعدُ أن يدرس ويحلل مجموعة الرسوم هذه بشمولية وعمق، لذلك تفهمت أنه كان من الصعب الاهتداء إلى صلة تربط فيما بينها. بدأت بسرعة بفرز اللوحات الكثيرة وانتقيت مساحة كافية غير مشغولة من أرض الغرفة ثم جمَّعت هناك غابة البلوط الصغيرة الجرمانية القديمة.

تمعن الكونت في هذا التكون الكبير بصمت إلى أن قال: "إذاً كنت تصنع أشياء من هذا القبيل؟ لكن لماذا كنت تقصقصها؟".

"لأنني لم أستطع أن أقدمها للعجوز وأرغبه في شرائها إلا بهذه الطريقة، ولأنه ما كان ليدفع لي من أجل كل هذا الكرتون الملون أكثر مما حصلت عليه ثمناً لأجزائه كل على حدة. وبصراحة لم أكن أرغب أيضاً في أن تُرى هذه النماذج الهائلة في دكانه التعيس ثم تُنقل من هناك إلى مكان لا يعلمه إلا الله. كان ممكناً أن يخطر على بال صاحب إحدى الحانات أن يكسو بها جدران صالة البولينغ في حانته؛ وبما أن وجود هذه المحاولات في عالم الأوساط الفنية لم يبق مجهولاً، فقد كان وارداً في الحسبان أن أصبح بطريقة كئيبة مضرب المثل في هذا المجال، ولكن ذلك كان أقل احتمالاً!".

التقطت اللوحات من الأرض من جديد ووضعت على حدة كلاً من لوحة صيد الثيران البرية ثم المدينة من العصور الوسطى وبقية الابتكارات.

قال الكونت:" الآن أعرف ماذا كنت تريد! إنك لبربري حقاً، إذ كيف نستطيع إعادة الرسوم إلى وضعها الطبيعي دون أن يلحق بها الضرر والأذى؟.

"تكلف أقرب نجار من هنا بصنع براويز مؤقتة خفيفة من خشب الشربين ونشدها بقماش رخيص ثم نلصق الرسومات فوقه ببساطة كما كانت في الأصل؛ وسوف تبقى شبكة من الشقوق الناعمة بادية للعيان، ولكنها غير مؤذية. لكن ماذا، بالله عليك، تنوي أن تفعل بذلك؟".

"أريد أن أعلقها فوق خزانات الكتب هنا، ببراويزها قاتمة اللون، وللمناسبة بعضها من غير إنجاز تام، كما هي عليه، ولسوف تكون هذه اللوحات بوصفها آثاراً تذكارية للدراسة والعمل في مكانها الصحيح وعندي خصوصاً ما دام صاحبها ذاته أقام في هذا البيت، فسوف تكون واقعاً ملموساً ومرموقاً".

وبالفعل قدمت جدران الحجرة العالية فوق الخزانات البلوطية مكاناً كافياً أيضاً؛ حين كنت أتصور ثمار عملي النادرة وهي هناك في الحفظ

والصون، كان يفرحني المصير اللطيف الذي قدر لها بعد طول عناء وتعثر حظ. فقد اعتلى فوقها بالطبع سقف الصالة نصف المقنطر وزينتها بدلاً من أن تخفيها أو تشوهها بعض التماثيل النصفية والكرات الأرضية القديمة وما شابه ذلك، مما وضع على الخزانات المصنوعة من شجر البلوط.

ولكن الكونت تابع حديثه قائلاً: "لابد لي من أن أرد على سؤالك بسؤال مضاد: "ماذا تنوي الآن أن تفعل إزاء وضعك الحالي؟".

"هذا ما أصبح في هذه اللحظة واضحاً إلى حد ما عندي، ما دمت أستطيع الآن أن أقول وداعاً للكرامة الظاهرية، بعبارة أخرى لقلب قنوع بالوسطية التي ارتضيتها حتى الآن وأتجه في آخر لحظة إلى حياة تليق بي أكثر حتى وإن كانت أكثر تواضعاً. كيف ستكون هذه الحياة، طبعاً لا أعرف ذلك بعد؛ غير أنني لن أتردد طويلاً.

"لا تتسرّع في اتخاذ قرار قبل الأوان، مع ظني أنني أتفهم جيداً وضعك النفسي! قبل كل شيء نريد، على ما يخطر على بالي الآن، أن نصفي الحساب! هل تريد أن تعود إليك رسومك وإلا فحدد لي شروطك لإبقائها عندي!".

قلت مستغرباً: "إنها ملكك!".

"أي ملك هذا! لا يحق أن تظن أنني، ما دمت أعرفك الآن وما دمت موجوداً في بيتي، أريد امتلاك محفظة رسومك لقاء ثمن بخس؛ ولا تتوقع أنني دفعت لذلك الشخص غريب الأطوار، تاجر الأدوات القديمة، نقوداً كثيرة، لقد اكتفى بربح جد متواضع. أم إنك تريد أن تقدم لي هدية؟".

"أعني أن المحفظة لاقت مصيرها وأدت خدمتها؛ لقد سدت رمقي في فترة الضيق والعوز؛ وكل قرش حملته إلي كان له آنذاك قيمة تالر، وعلى هذا النحو تخليت عنها تخلياً مشروعاً. ما يفقده المرء، عليه أن يدعه وشأنه!".

"قد يعجبني قولك لو كانت الظروف مختلفة عما هي عليه الآن، ولكن ما نريد تركه وشأنه هو تصنع لا جدوى منه. أنا غني وبودي شراء مجموعة الرسوم بأي سعر مقبول حتى لو لم تحصل أنت ذاتك على شيء من ذلك، أي

بصرف النظر عن أن لك علاقة بالموضوع. تعلَّم التمسك بحقك، إذا كان لا يثقل على أحد ولا يخيف أحداً، حتى ولو كان حقاً معنوياً فحسب، وخذ القدر الذي تستحقه دون تهيب أو خشية؛ وفيما بعد تستطيع أن تفعل به ما تشاء! إذاً حدد سعراً يبدو لك جيداً وسوف أكون مسروراً إذا ما احتفظتُ بالرسوم!".

قلت مبتسماً وليس من دون سرور خفي لرؤية أوضاعي تتحسن بهذه السرعة: "حسن إذاً، لا بأس من أن نعقد الصفقة بصورة جذرية! لابد أن الأمر يتعلق بما يقرب من ثمانين لوحة جيدة وأكثر إنجازاً وتستحق وسطياً في عملية بيع نظامية إذا ما حظيت بتقدير عادل، تستحق كل لوحة ثمناً بمقدار قطعتين ذهبيتين من عملة اللويدور، بعضها أكثر والبعض الآخر أقل؛ ثم ثمة ما يقرب من مئة رسم صغير وتصميم هي أقل شأناً وقيمة وقد ينحدر بعضها إلى مستوى انعدام القيمة. لنحسب لكل واحدة منها إجمالاً قيمة غولدن واحد، ولك أن تحسم من مجموع المبلغ الناتج مجمل ما دفعته للسيد شمالهُوفر!".

قال الكونت: "انظر، هذا قول معقول! أستطيع أن أقول لك في الحال إنني دفعت إلى بائع الأدوات المستعملة ثمناً للرسوم بما في ذلك الكرتونات مبلغاً وقدره ثلاثمئة واثنان وخمسون غولدناً وثمانية وأربعون كرويتسراً".

قلت: " الحق أنه لم يكسب مبلغاً كبيراً من المال من جراء ذلك البيع، كما كنت أظن، فقد حصلت منه تقريباً على نصف هذا المبلغ".

"هذا يدل على أنه لم يكن ملماً على وجه الخصوص بهذا الجانب من تجارته المزدهرة! لكن ولكي نرجع إلى مسألة الكرتونات، التي دمرتها تقريباً، فيستحسن أن نعالجها فيما بعد حين تُعاد إلى وضعها السابق. والآن لنعد محتوى المحفظة لكي تعرف ثروتك، حين نجلس إلى المائدة، وتتحرر بذلك من هموم هذا اليوم".

أقمت الآن كومتين واحدة للرسومات الأخف والأخرى للرسومات الأثقل، وصرت أرميها حسب مواصفاتها من دون تفكير طويل إما على هذه الكومة أو على تلك. وقام الكونت مرات كثيرة بإنقاذ لوحة مبتكرة ببساطة

تفوق الحد فكان يضعها على الجانب الأفضل. وفي النهاية عُدت كل كومة وحُسبت فدخل الرجل إثر ذلك إلى غرفة داخلية لكي يعود بمبلغ يربو على ألف وخمسمئة غولدن. ووضعها أمامي قطعاً ذهبية معدودة؛ فشكرته بوجه ألهبه الفرح والسرور ثم أخرجت كيس نقودي الجلدي الصغير، الذي كان قبع فيه ذلك المبلغ الزهيد الذي خصص لنفقات السفر فأخرجته منه ووضعت قطع الذهب مكانه فظهر الكيس عندئذ مستديراً ومكتنزاً. والآن عرفت أنني أستطيع الذهاب إلى بلدي وأوضاعي أفضل بكثير مما كانت عليه، وأستطيع أن أعوض أمي جزءاً مما ضحت به من أجلي.

قال الكونت حين لاحظ رضاي المشع فرحاً وسروراً ما دمت خبأت في جيبي حفنة فعلية من ذلك الذهب الحلم: " بم تشعر الآن؟ ألا تشعر بالرغبة في أن تعود مرة أخرى إلى متابعة عملك لفترة من الزمن أيضاً؟ فبعد هذه البداية، التي أتيح لي جلبها، يمكن بسهولة استمرار الانعطاف إلى الأفضل!".

"لا، هذا لن يحدث! لأن للمغامرة برمتها إلى حد كبير طابعاً استثنائياً فريداً لا سبيل البتة إلى تكراره. وكذلك قراري سبق أن اتُخذ وهو يقع في طبقة أعمق من تلك المتعلقة بإمكانية تقدم مقبول؛ لقد عرفت أناساً أفضل مني كانوا وضعوا موضع التنفيذ قراراً مشابهاً وهم في وسط فعالية مجزية لأنهم لم يكونوا مع مهنة الفن قلباً وقالباً".

رويت له قصة كل من إيريكسون ولويس. فهز رأســه وقال: "هذه الحالات متباينة فيما بينها وحالتا صاحبيك مختلفتان بدورهما عن حالتك أنت! ولكنك أنت أيضاً لست فناناً مهملاً غبياً ولو كنت كذلك لكان تركك المهنة أمراً لا أهمية له ولم يكن ليشغلنا أو يحظى بمزيد من اهتمامنا، غير أنني أعترف بأنني قد أُعجب تمام الإعجاب بنبذ حرفة نفهمها ونسبر غورها ونحس بها وقد أعُدّ هذا النبذ نقلة من نقلات قوة العقل، لأن هذه الحرفة عاجزة عن تحقيق ذاتنا. لكنك كما يبدو لي لم تختبر ذاتك بعد بما يكفي. وتحديداً لأنك لم تصل بعد إلى العلو الظاهري، الذي وصل إليه ذلك الرجلان

وبالتالي إلى رسوخهما وثبوتهما، فإنني لا أراك محقاً إذا ما دفعك اعتدادك بنفسك إلى أن تخطو خطوة الاستسلام!".

ضحكت وأنا أفكر في التكاليف الباهظة لإجراء من هذه النوع في ما يتعلق بأوضاعي وظروفي، ولكنني لم أقل شيئاً عن هذا الأمر بل أبديت مجرد ملاحظة: "إنك تخطئ الظن، يا سيدي الكونت! فقد وصلت إلى ذروتي المتواضعة والحق أنني لا أستطيع إنجازاً أفضل مما سبق لي أن حققت؛ وحتى في ظل أوضاع أكثر ملاءمةً قد أصبح في أحسن الأحوال أكاديمياً غير متخصص يريد أن يقدم شيئاً غريباً ولا مكان له في العالم والزمن!".

"ليس الأمر كذلك! أقول لك، كانت غريزتك الخيرة وحدها هي التي لم تحقق لك ما ترغب فيه. إن إنساناً يصلح للأفضل يجعل الأسوأ دائماً سيئاً ما دام يجعله مصطنعاً وغير طبيعي، لأن أقصى ما يمكن أن ينجزه على وجه الإجمال الإنسان الطبيعي المتحرر من كل العوائق هو فحسب ما يعتد به؛ وكل ما عدا ذلك هراء وحماقات. ويختلف الأمر إذا ما عقد العزم من جديد بدافع غرور صرف على إنجاز ما هو أكثر محدودية ما دام قد يفلح في ذلك وهو يلهو ويلعب. نريد، على ما أظن، أن نجرب هذا النهج أيضاً! لا يجوز أن تهرب من ذلك في وضع يرثى له كهذا، بل يجب أن تودع بالصورة التي تقتضيها اللياقات المألوفة حرفة شبابك دون أن يستطيع أحد أن يرمقك شزراً! ما نتخلى عنه، يجب أن نتخلى عنه بملء إرادتنا الحرة، لا كتخلي الثعلب عن العنب!".

على هذه الكلمات هززت رأسي بدوري وكل ما كان يشغل بالي هو أن أصل إلى بلدي بما أمكن من السرعة حاملاً معي غنيمتي غير المتوقعة، ولكن الحديث انقطع بسبب وصول واحد من رجال الدين هو مساعد القس المسؤول عن المنطقة؛ كان هذا علم من شماس الكنيسة بظهور الضيف المغامر فأحب أن ينال حقه بالحضور بالطريقة التي تعجبه على مائدة الكونت وإرواء ظمأ فضوله. كان يضع ساقيه في جزمة عالية لامعة ويرتدي سترة سوداء مفرشاة بعناية تامة ويحمل بإحدى يديه قبعة وعصا ويلوّح باليد الأخرى على هيئة

قوس؛ بهذا المظهر اللافت قدم مساعد القس نفسه وهو يؤدي انحناءات هزلية بصفته مبعوث سيدة القصر، فنقل عنها القول بأن المائدة معدة لتناول الطعام وأن السيدة تنتظرنا على رصيف الحديقة. وقال مازحاً: " إذ إنني لا أتعب من حمل قلائدها إلى أن أجرها بها إلى السماء!".

في بداية الأمر عرّفوني الرجل وذهبنا إثر ذلك إلى المكان الذي ذكر في الحال. كانت الآنسة تتمشى على الرصيف في أشعة الشمس المعتدلة، التي انتشرت في ذلك اليوم في ربوع الريف. حيتني بلطف ومودة وقالت إننا لم يَرَ بعضنا بعضاً منذ فترة طويلة أزلية ثم سألت كيف حالي. ولكن بدلاً من أن تنتظر الجواب، طلبت من مساعد القس أن يمد لها ذراعه لتستند إليه ففعل ذلك مبقياً على أسلوب المرح والتصنع في التصرف والحركة، وهكذا مشت أمام الكونت وأمامي إلى البيت وصعدت السلم الواسع إلى أن وصلنا إلى غرفة الطعام. هذا الموكب الصغير عبر بيت الدرج المشع بالوجاهة والعظمة وعبر الممرات الطويلة جعلني أتذكر درب العناء الذي مشيت عليه قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، وحين جلسنا أربعة أشخاص حول الطاولة المستديرة وقام بخدمتنا رجل هادئ بلباس أسود وقفازين بلون أبيض، أذهلني تماماً تبدل المصير العجيب، الذي ارتبط مرة أخرى بعمل يديَّ وبسني حياتي المنقضية. كان طعام الغداء قليل الأبهة والاستفاضة، وكانت نبرة الحديث حرة وغير مقيدة إلى حدّ أنني سرعان ما استسلمت لراحة هي غاية في الهدوء وعددت الله رجلاً طيباً. استأثر مساعد القس بكل الحديث الذي دار في الجلسة بأن تبادل مع الآنسة رواية نكات كثيرة لم يكن معنى كلماتها واضحاً عندي.

وفجأة أدار وجهه إلي وقال: "يجب أن تعلم خصوصاً أن سيدتنا الفاضلة اختارتني مستشاراً لها لشؤون المرح والدعابة، يعني بالألماني الفصيح مهرجاً كهنوتياً في بلاطها، وأنني أقوم بأعباء هذه المهمة الصعبة لكي أنقذ روحها الكافرة، الأمر الذي لابد أن يتم!".

قالت دوروتيا: "لا تصدق ذلك! فأبونا المحترم يتعامل معي بالعكس لأنه يعدّ روحه هالكة في كل الأحوال كما تفتت قطة صغيرة عابثة جسد فراشة!".

فرمى الكونت بينهما كلاماً قال فيه: "احذرا من التمادي في رواية النكات أكثر من اللازم، فصديقنا أوتي الكثير من المكر والدهاء وهو يحمل معه أيضاً مهرجاً يمكنه التدخل حتى في شؤون الناس!".

وأخبر رفاق المائدة بالحادثة التي جرت مع حارس الغابة والجمجمة، وكان ما لقيت الحادثة من دهشة واستحسان أن أغواني لرواية القصة الفعلية المتعلقة بألبرتوس تزفيهان، كما كنت أعدها إلى الأبد خرافة جديرة بالتصديق، خصوصاً كيف أن بطل القصة فقد ميراثه وحياته عبر المرأتين الجميلتين كورنيليا وأفرا وبالأحرى عبر ترجّحه بينهما. كانت دوروتيا تصغي إلي وفمها نصف مفتوح في حين حامت حول شفتيها المزدهرتين ابتسامة وتكشفت أصوات جرسية متكسرة في منطقة الحلْق عن ضحكة فعلية إلا أنها لم تبرح مكانها.

صاحت الآنسة: " لقد نال جزاءه العادل! لأنه كان نصيراً مشيناً!"

فتجرأت على الرد عليها بقولي: "لا أريد أن أدينه بهذه القسوة والعنف فتبعاً لأصوله وتربيتـــه كان نصف متوحش، وكان بدافع من أنانية طفل صغير يقتفي أثر كل شعلة تومض أمامه دون أن يعلم ما هو الحب وأن الفتاتين تتحرقان!".

بسبب هذا القول الذي ينمّ عن إلمامي بمعرفة خفايا أمور كهذه احمر وجهي خجلاً وسرعان ما ندمت لأنه ورد على لساني بقصد الإسهام في تسلية الحاضرين؛ لم ألاحظ فقط أن مساعد القس بأنفه المكسور بسبب ضربة سيف طلابية أظهر إزاء الآنسة وجهاً فكاهياً بل شعرت أيضاً بضعف قصص حياتي التي من دونها لم يكن القدر ليقذف بي إلى هنا. عقدت العزم في الخفاء على أن أتابع رحيلي في أقرب وقت ممكن، وحين سئل بعد الطعام كيف ستُقضى بقية اليوم أبديت رغبة في البحث قبل كل شيء عن حرفي يستطيع

تصنيع البراويز المشدودة اللازمة لإعادة الرسومات الكرتونية إلى وضعها الطبيعي. فعرض علي مساعد القس أن أذهب بصحبته لهذه الغاية إلى نجار القرية، الذي هو قادر بلا أدنى شك على إنجاز عمل بسيط كهذا. وحين فكرنا أيضاً في الأساس الذي توضع فوقه شظايا الرسوم لكي يضم بعضها إلى بعض، تبين أن عاملاً متخصصاً في لصق ورق الجدران وهو من بلدة مجاورة يعمل حالياً في تزويد غرفة الجلوس في منزل مساعد القس، الذي يقع عبء إعالته على كاهل الكونت بصفته السيد المسؤول عن حمايته ورعايته، بزينة جديدة.

قال مساعد القس: "لدى ذلك العامل ما يكفي من الورق لتلبيس البراويز، فثمة أشرطة طويلة من أوراق المكنات يضعها تحت ورق الجدران لكي أتمتع فيما بعد بالدفء والراحة!".

وقال الكونت: "هذا لا يكفيني، يجب أن يكون الأساس الذي يُفرش تحت الرسوم قماشاً متيناً لكي تكتسب العملية صفة الديمومة. فبما أن الرجل يصنع في الوقت ذاته أيضاً مفارش منجَّدة، فإن بإمكانه أن يقدم لنا بعضاً منها. فيما يقوم السيد لي في أثناء ذلك مبدئياً بطلب الضروري من هذه المفارش. بعد ذلك يمكن أن يأتي إلينا الاثنان، النجار ولاصق ورق الجدران، ذاك بالقضبان الخشبية الرفيعة المصقولة بالفارة وهذا بالأقمشة ويفصِّلان البراويز ويعدَّانها تحت إشرافنا وطبقاً للمقاييس الدقيقة!".

سرني الاشتغال بمشروع تجميع الرسوم فذهبت مع مساعد القس إلى القرية المرموقة، التي توجد فيها الكنيسة الرئيسية المبنية على الطراز الحديث، وقد حملت اسمها بالاشتراك مع أسرة الكونت النبيلة أو البارون سابقاً؛ ومساعد القس، الذي كان دائماً يسليني بأحاديثه، دلني على الأنقاض القاتمة لمقر الأسرة الأصلي الذي كان شُيد في قمة أحد الجبال. فتكفّلت بكل سرور تحت إشرافه بإبرام الصفقة وعدت إلى القصر بعد نزهة طويلة مشياً على الأقدام كنت قمت بها وحدي.

كان الكونت خرج للتنزه على ظهر حصانه؛ فلم أجد من اللائق أن أسأل عن الآنسة، ولذلك مكثت وحيداً على الرصيف ورعيت غيوم المساء، تلك المرافِقات اللطيفات، التي تتفرق وتتجمع من جديد دون كلل أو ملل لكي تجذب إليها آلاف المرات العيون الحائرة ثم تثبتها فيها. قلت لنفسي، يا إلهي أي تدبير منزلي هذا الذي تجود به وسيلةُ الوجود، التي يتعذر الاستغناء عنها، كذلك بوفرة لا تنضب من الأشكال الاستعراضية للفقراء والأغنياء والشبان والشيب على حد سواء وهي في كل الأوضاع مرآة للنفس وقاضيها الهادئ الذي يرى كل شيء.

من هذا التأمل بنفس هادئة أيقظتني مشية دوروتيا الرشيقة التي لم تعد غير مألوفة عندي. كانت تصعد بسرعة على درجات الرصيف حاملة بيدها كتابي الأخضر الجميل.

وواجهتني بالقول: "أهكذا تُترك وحدك! هل تعلم من أين أنا آتية الآن؟ من المقبرة، وهناك قرأت في كتابك الذي ألَّفته قصة الفتاة الصغيرة ميريت، التي لم تشأ أن تصلي! هل كان مسموحاً لي بذلك، وهل تسمح لي الآن بقراءة المزيد فيه؟ لقد قضى والدي بضع ساعات من بعد ظهر هذا اليوم في قراءته ثم أعطانيه بعد ذلك لكي أقرأ تلك القصة. انظر، هنا وضعت فيه ورقة لبلاب كنت قطفتها من قبر طفل! ولكن عليك الآن أن تمد أيضاً يدك لمصافحة الواحد منا إذا ما قابل بعضنا بعضاً؛ لأن معرفتنا بك ازدادت الآن وتوطدت!".

* * *

الفصل الحادي عشر

دورتشن شوُنفوند

بعد بضعة أيام انتهيت من ترتيب اللوحات المصممة ومن إعادة المناظر الطبيعية الكرتونية الكبيرة منها والصغيرة إلى ما كانت عليه، ولكن وضعها كان الآن مؤقتاً إلى أن وصلت من العاصمة البراويز التي كانت بحاجة إلى تلبيس بالقماش والتي علقت بالأمكنة المخصصة لها حيث كان الكونت يتأملها بالتناوب برضا وسرور كبيرين. ودون أن تدعي لنفسها قيمة أكبر، أعلت هذه اللوحات في واقع الأمر من شأن المنظر الخلاب في قاعة المكتبة وولدت عندي الشعور المريح بأنها أنقذت في هذا المكان بصفتها شواهد على مشيئة صادقة، كما سبق أن ذكرت. إلى ذلك لم يضن الكونت بعبارات التشجيع وتعزيز الثقة.

قال الكونت: "سواء أتابعت مسيرتك الفنية أم لا، فإن رسومك سوف تبقى بذات القيمة والأهمية عندي، أولاً بصفتها معلَماً لمسيرة تطور وثانياً بوصفها تزييناً أو إتماماً لسيرة حياتك في مرحلة شبابك، التي قرأتها كاملة. الكل بحاجة إلى هوايات؛ وأنا الآن في صدد توسيع هواياتي بالانشغال بمسيرة حياة كمسيرة حياتك أنت. إنك إنسان على قدر كبير من الأهمية ولكنك تعيش في رموز، إلى حد ما، وهذه صنعة خطرة ولا سيما إذا كانت تمارس بطريقة ساذجة إلى هذا الحد. ولكننا لا نريد الآن أن نشغل أنفسنا بهذا الموضوع، على الأقل لا تشغل بالك أنت؛ وما يتعلق بي أنا، فإنني لم أعد أستطيع للأسف

تطبيق هذا المثل على حالي. وما أرى لزاماً علي قبل كل شيء هو التعويض الذي يجب علي تقديمه لك من أجل هذه الحلي التي تزين قاعة كتبي!".

قلت بشيء من الهلع من أنني قد أحصل من جديد على مبلغ من المال، إلى هذا الحد كنت أرتاب بهذا الحظ السعيد، الذي لم أعتده، قلت: "سبق أن عوضت علي وأعطيتني ما أستحق!"؛ ولكنني كنت أميل إلى التصنع أكثر مني إلى الجد، دون أن يكون في نيتي أن أتصنع، لأنني أسفت على الكونت بسبب نفقاته الباهظة إلى هذا الحد، على الرغم من فقري المدقع.

فقال بصوت عالٍ: "لا تتعب نفسك، يا عزيزي! هنا لا يتعلق الأمر بسعر شراء، لأنني أعرف تماماً أن رسوماً كهذه غير قابلة للتسويق ولا تستهوي كل الناس؛ المسألة عندي هي مراعاة خاطر وعندك ضرورة. وبما أن الأمر يتفق على هذا النحو ويسهم علاوة على ذلك في وضع مغامرتنا الخارقة موضع التنفيذ، فلماذا لا نشمل هذه المغامرة بالرعاية والتكريم؟".

ثم أدخل في جيبي الصدرية مغلفاً من الورق مليئاً بأوراق نقدية؛ وكان ذلك، كما تبين لي فيما بعد، مبلغاً مماثلاً لما دفع لي من قبل بحيث زاد غناي بمقدار ضعفي ما كان عليه قبل بضعة أيام فقط.

وتابع الكونت يقول: " والآن دعنا نتكلم عن موضوعنا الرئيسي، ألا وهو بأي عمل تريد أن تبدأ؟ أشعر أيضاً بأن عليك أن تغير مهنتك؛ لأن تأهيلك مقارنة برسام بسيط ومحدود للمناظر الطبيعية هو تأهيل مفرط في الاستفاضة وكثرة المنعطفات والمتاهات والاضطراب، وهنا يجب أن يدخل على هذا الخط معني آخر بالأمر! غير أن هذا لا يجوز أن يتم بالكآبة والإكراه إلى هذا الحد، بل كما قلنا سابقاً بلياقة قرار حر وجب أن يتخذ في كل الأحوال بطريقة مختلفة!".

"لقد روعيت اللياقات بما يكفي بفضل القبول الحسن الذي منحته لمنتجاتي الفنية التي كانت موضع شك وتساؤل!".

"لا، ليس في مفهومي أنا! لابد لك أنت ذاتك من أن تبرهن على أنك، ولو بصورة غير براقة، تستطيع أن تصمد موفور الكرامة في مهنتك التي اخترتها بملء حريتك! بعد ذلك فحسب قد تشكر نفسك وتمر بهذه المهنة مرور الكرام! ارسم في أثناء إقامتك عندنا لوحة كاملة بعد أن تجمع قواك ويرتاح بالك، بجسارة ومن دون هموم؛ وعندئذ أريد أن أشارط أننا سوف نبيعها!".

هززت رأسي من جديد، إذ فكرت في الشهور التي قد تستغرقها مغامرة من هذا النوع.

وقلت: "هذا العمل، حتى وإن كتب له النجاح، لن يكون مرة أخرى إلا واحداً من الرموز، التي تقول عنها يا سيدي الكونت إنني أعيش فيها وفي هذه الحال سوف يكون عملي باهظ التكاليف! ثم إنك بأريحيتك تسببت أنت ذاتك في أن رغبتي في السفر إلى بلدي تعشش في كل أعضائي!".

قال الكونت:" اصغ إلي! دعنا نبدأ بالعمل من دون إضاعة للوقت! ولكن لا بد من أن تفكر في الأمر ملياً طوال ليلة كاملة. استعد للسفر في الصباح الباكر من يوم غد، فالعربة ينبغي أن تكون جاهزة؛ بعدئذ أوصلك تبعاً لقرارك الأخير إما إلى محطة البريد المسافر مباشرة إلى سويسرا أو نسافر معاً إلى العاصمة حيث عندي هناك بطبيعة الحال ما أفعله وتقوم أنت بشراء الأشياء الضرورية لعملك. اتفقنا؟".

صافحته على ذلك موافقاً، ولكن لم يساورني الشك في أنني سوف أختار الطريق إلى البلد.

في هذا اليوم كانت النية تتجه إلى تناول الطعام في ما سمي صالة الفرسان وهي المكان الواقع في الطوابق العليا ولم أتعرفه بعد. أتت دوروتيا إلى المكتبة لكي تخبرنا بذلك، وقالت إن الحرارة هناك ستكون معتدلة في هذا اليوم بحكم اتجاه الشمس بحيث لا تحتاج الصالة إلى التدفئة وسوف يتنزه اليوم الخريفي الجميل عبر النوافذ إلى داخل الحجرة. وكان منظرها هي ذاتها، حين استمعت إليها بدهشة هادئة، شبيهاً بيوم حزيراني مضيء؛ والكونت أيضاً تمعن

في النظر إليها بدهشة هنيهة من الزمن. كانت ارتدت ثوباً من الحرير الأسود ولفت العنق والصدر بزينة من الدانتيلا الفخمة تاه فيها عقد من اللؤلؤ، ولكن الحمل الثقيل من خصلات الشعر الأسود كان في هذا اليوم مقذوفاً بتوثب خاص إلى الوراء باتجاه النقرة، في حين أضفت الأجزاء المضيئة من منطقة الصدغين، التي بدت للعيان من جراء ذلك، أضفت على الرأس تعبيراً عن حرية إن لم يكن عن اعتداد بالنفس.

قال لها الكونت:" ماذا تنوين أن تفعلي، ما دمت تزينت هذه الزينة اللافتة؟ هل تنتظرين ضيوفاً لا أعرف عنهم شيئاً؟".

فردت عليه: " ليس في نيتي أي شيء سوى أنني أريد أن أظهر على شرف الطقس الجميل والصالة بقليل من التبرج والأبهة. وبذلك آمل أن أولد بفضل كل هذه الأشياء مجتمعة انطباعاً متعدد الألوان لدى صديقنا السيد لي؛ فربما يتفضل بوصف هذا الجو ذات مرة حين يتابع كتابة قصصه بنصف صفحة، ومع هذه الصالة يتسلل في الوقت ذاته شخصي المريب إلى داخل كتابه! إضافة إلى ذلك يصادف اليوم عيد النرجس في الرزنامة الكاثوليكية والبروتستانتية ولذلك يحق لنا جميعاً أن نستسلم لشيء من النرجسية والاعتداد بالنفس، أليس كذلك يا سيد هاينريش؟".

وعلى الرغم من أنها أوردت هذا القول بطريقة نصف جدية- لينة ونصف فاتنة- باسمة ولم توحِ بنية سيئة، فقد بدت لي مع ذلك كلمة نرجس على أنها تلميح واخز إلى الاعتزاز بالذات الوارد في كتابي المدون بخط يدي، خصوصاً أنني لم أكن مرتاحاً حين ائتمنتها عليه. من أي عمق صعدت إلى الأعلى وخزة كهذه، سواء أكانت من باب التقييم أو من باب المزاح، فقد بدت لي في كلتا الحالين مخجلة وشعرت بانتشار احمرار في وجهي دون أن أجد أي كلمة للرد عليها، ولكنها لم تراعِ ذلك ولم تلاحظ شيئاً منه، الأمر الذي جعلني أتوقع سوء النية في ما لمحت إليه.

كانت الصالة، التي ذكرت آنفاً، بالفعل متعددة الألوان بما يكفي ولكن بكل وجاهة وأبهة. سجادة قرمزية اللون امتدت فوق كل الأرضية؛ وغُطي السقف كله بطوله وعرضه بلوحة وحيدة منقوشة عليه، وبين المكان من الحائط، الواقع بين السقف والمساحة المكسوة بخشب أسود بطول رجل تقريباً، علقت إجمالاً صور الأسلاف والأجداد. وفوق موقد من المرمر، أسود اللون، تكدست أسلحة ومعدات قديمة؛ وأسلحة أخرى أكثر نعومة كانت تلمع في خزانات زجاجية ولا سيما أشياش وسيوف ثمينة كانت تعرف صورها المطابقة للأصل بوساطة بعض التماثيل التي تجسد حامليها السابقين، لكن كانت ثمة قطع من الأسلحة ترجع إلى عدة قرون من الزمن لم تتوفر ثمة صور تدل عليها، فمثلاً أظهر درع مثلث صغير بشكل لا يكاد يستبين بوضوح الرمز البسيط الأقدم لسلالة الكونت، الرمز الذي لا يشكل سوى واحد من عشرين حقلاً تحتوي عليها لافتة الرمز الحالي التي تجلس على حافتها العليا أربع خوذات متوجة كأربعة ديوك على صارية.

لم أستطع الإحجام عن التجول برغبة جامحة في أرجاء الصالة وأمتع نظري بكل هذه الأشياء الجميلة؛ وصار الكونت يشرح لي هذا وذاك من الأمور، بينما أحضرت دوروتيا بعض المفاتيح وفتحت النمليات الصغيرة المصونة على أفضل وجه، التابعة لخزانة أوانٍ كبيرة؛ في هذه النمليات كان يومض كنز من الفضة من الطراز القديم. خزانات أخرى كانت محفورة في الجدران الملبسة بالخشب ومحتوية على مخطوطات مكتوبة على الرق وفيها رسومات منمنمة لامعة ووثائق كثيرة علقت بها أختام في كبسولات خشبية أو فضية وأخرى بلا كبسولات ونصف مفتتة. أخرج الكونت بعض هذه الوثائق وفتحها؛ إلا أنني لم أستطع قراءتها لأنها كانت ترجع إلى القرن الثاني عشر أو حتى إلى الحادي عشر وكانت رسائل قيصرية تتعلق ببقعة الأرض التي كنا نقف عليها. وحين أبديت دهشتي من ذكريات وآثار بهذا الغنى لم يسبق لي أن رأيت مثيلاً لها بعد، قال الكونت إنه كدس في هذه الصالة كل أغراض

الأسرة القديمة حيث يمكن لها أن تتمتع بوجودها دون إن تثقل على الأحياء في كل روحة وغدوة. ثم قال إن فرحته بها معتدلة وليست أكبر مما يشعر به أي شخص يستهويه جمع مثل هذه الآثار.

قلت: " يا إلهي، هذا التجسيم وهذه الشفافية لماضٍ طويل وله بنا علاقة لا يمكن أن يُنسى وتطمس معالمه عمداً وينبغي أن نفرح به دون أن نسيء استخدامه بما ينم عن ضيق أفق وعدم تسامح.

فقال الكونت: " ينبغي التفكير في هذا الأمر؛ ولكن من لديه الخبرة في هذا المجال يعرف أن المرء قد يسأم تحت وطأة بعض الظروف من إشكالات ستة القرون أو السبعة من الزمن. كنت أرغب أيضاً في أن أنتمي في ظل دولة قانون حرة إلى أرستقراطية صائنة بحكم الحسب والنسب، كلمة أرستقراطية تُفهم طبعاً بمعنى الإنجازات الطوعية العالية. وهذا ما هو إلا أحلام بأحلام، لأسباب مختلفة، ولذلك لا يبقى أمام نبيل متعَب إلا مخرج الاندماج من حين لآخر بعموم الشعب. غير أن هذا الأمر لا يخلو من مصاعب ويتعذر أن يوضع موضع التنفيذ بسهولة من دون أحداث سعيدة وهكذا لا يمكن توجيه القدَر هنا أيضاً إلا بوتيرة أقل مما ينبغي أن نظن. والدي، الذي كان بموجب أصوله النبيلة قائد خيالة، مات في وضع من التعاسة والبؤس إبان خدمته في الحاشية العسكرية التابعة لجيش الثورة الفرنسية في روسيا. وأخي الأكبر مني سناً، الذي عُدّ رجلاً عنيداً، هاجر إلى أمريكا الجنوبية لكي يبدأ هناك حياة جديدة تتفق مع تصوراته وخططه؛ ولكنه وقع تماماً ضحية المصادفة اللامعقولة وفقد حياته في سن مبكرة من جراء مشاجرات في تلك البلاد. من سيدة نبيلة إيبيرية الجنسية كان تزوجها قبل فترة قصيرة من موته، كما قيل، لم تصلنا قط أي أخبار أُخرى عنه. والآن أنا الوريث الأول وصاحب حق البكورية وكل العظمة والأبهة تقف على عيني الاثنتين، لأنني بالمطلق الرجل الأخير في خط نسبنا. لو أنني رزقت بابن لذهبت معه إلى العالم الجديد ولغصت في المد الشعبي الجديد، الذي يجدد

الشباب، ولكن بما أنني وحيد فإن الجهد الذي قد يبذل لم يعد مجدياً خصوصاً أنني للمناسبة لا أشعر بعدم الرضا عن حياتي! دعنا من هذا ولنجلس إلى المائدة لأن سيدة بيتنا معجبة بأن تلعب دور الجدة الأعلى!".

قالت دوروتيا: "سأقوم بذلك! يعجبني أيما إعجاب المكوث مؤقتاً في هذه الصالة، التي لا يستهان بها!"، قالت ذلك بشيء من الوقار والتحفظ فاعتراني الارتباك مجدداً لأنني لم أفهم هذه الطباع الجديدة ولم أستطع أن ألومها ولا أن أبدي إعجابي بها. في أثناء ذلك كان المكوث هناك بالفعل ذا طابع احتفالي مهيب، من خلال الهواء المشمس المتدفق إلى داخل الصالة كما من خلال عبق البخور اللطيف الذي سبق أن أُحرق في المكان من قبل على حد سواء. وأبهة الألوان، التي كانت تحيط بنا، بدا أنها تكتسب من جراء ذلك قوة وعمقاً أيضاً.

بعد أن جلسنا فترة من الزمن نتجاذب أطراف حديث عابر ومتقطع، تنازلت دوروتيا فتفضلت بتوجيه حديثها إلي بطريقة مستعلية بلطف لكن شبه لا مكترثة، تماماً مثل سيدة عالية المستوى فقالت: "والآن يا سيد لي، أنت أيضاً لا تخلو من حساسية مفرطة إزاء أصول نسبك العريقة وفي طبقتك الاجتماعية الوسطى تعتز بوالديك الفاضلين وتستوثق لدى بداية تدويناتك في كتاب مذكراتك من أن لك اثنين وثلاثين من الأسلاف الشجعان وإن لم تكن تعرفهم؟".

أجبت برضاً عن ذاتي وبعناد مهذب: " طبعاً! بالطبع لم يلتقطني الناس أيضاً من الشارع!".

هنا صفقت فجأة بيديها مهللة مبتهجة، في حين عادت إلى سجيتها الطبيعية المعتادة ثم نادت بعالي صوتها فرحة مسرورة:" الآن استدرجتك إلى الاعتراف، أيها السيد عريق النسب! إذ إنني التُقطت فعلاً من الشارع، كما تراني هنا الآن!".

نظرت إليها مندهشاً ولم أعرف ماذا عنت بكلامها في حين تابعت هي إظهار فرحها وسرورها وقالت: "أجل، أجل، يا سيدي الشديد الصارم ومن

أصل عريق! أنا اللقيطة الحقيقية بكل معنى الكلمة واسمي دورتشن شوُنفوند وليس شيئاً آخر، وبهذا الاسم عمَّدني مربيَّ العزيز الذي هو بمثابة أبي!".

نظرت الآن باستغراب شديد إلى الكونت، الذي ضحك قائلاً: "هل هذا إذاً هو الهدف من مكركِ ودهائك؟ كان لابد من أن نضحك في هذه الأيام حين قرأنا في سيرة حياتك أن من دواعي اعتزازك اقتناعتك الراسخ بأن لك اثنين وثلاثين جداً أعلى وفقاً لخط نسب غير منقطع. وحين تابعنا القراءة إلى حيث قلت إنه لا بد لك من بعض التأمل في هذه المعلومة، استاءت ابنتنا هذه وشكت في أن لكل الناس، النبلاء وأبناء الطبقة الوسطى والفلاحين على حد سواء، أصولاً يعتزون بها ويفرحون في حين أنها هي الوحيدة التي يخجلها ويخزيها انعدام أصلها، لأنني فعلاً التقطتها من الشارع وهي الآن ابنتي بالتبني، الشجاعة والذكية!".

وأرجع إلى الوراء برفق وحنو خصلات شعرها، التي كانت تسعى وهي في منفاها الكائن في أرجاء النقرة الجميلة إلى العودة إلى مكانها المناسب بجانب الخدود المتوردة. بذهول وتأثر كبيرين رجوت أن يُغفر لي ما اقترفت من جرح مشاعرها بغير قصد. وأضفت أنني كنت أستحق الإخجال الذي ألحقته بنفسي حين أغوتني الرغبة في الانتصار على الكونتيسة المفترضة الفخور بنفسها بدلاً من أن أتركها وشأنها دون أن أصيبها بأذى. والشيء بالشيء يذكر لعل نسبها هو حقاً الأكثر وجاهة ونبلاً، ما دامت من صنع يد الله مباشرة ويمكن أن يفكر المرء عبر هذا التصور في أسمى الأشياء وأروعها!

قال الكونت: "لا، لا نريد أن نجعل منها أميرة من صنع الشعوذة. مجرى الحدث معروف لدى كل إنسان وما يعرفه كل طفل يجوز لك أن تعرفه أنت أيضاً. قبل عشرين عاماً حين كانت توفيت زوجي، الوحيدة، طفتُ في كل أرجاء البلاد والألم واليأس يقضان مضجعي. وفي مساء أحد الأيام نزلت على ضفاف نهر الدانوب النمساوي في أحد بيوتنا في المدينة، الذي كان يستهوي الحبيبة وكثيراً ما كانت تقيم فيه. حين دخلت إلى ذلك البيت،

رأيت طفلة جميلة بعمر سنتين أو ثلاث سنوات جالسة بهدوء على المقعد الحجري الذي بجانب البوابة، دون أن أكترث لها. خرجت من البيت مرة أخرى لكي أمتع ناظري بشفق المساء المنتشر فوق النهر الواسع، حيث كثيراً ما كانت المرحومة تقصده لتستمتع برؤيته؛ كانت الطفلة نائمة. وحين عدت بعد نصف ساعة أخذت تبكي بصوت منخفض وبخوف شديد. فناديت البواب، الذي لم يشأ نظراً إلى ما اعتاده من عدم اكتراث أن يعرف عن الأمر شيئاً ماعدا أن جمعاً من النازحين كانوا اجتاحوا المدينة وكانت الطفلة تخصهم. عند ذلك أمرتُ بجلبها إلى البيت والاهتمام بها، وبما أن الأمر جرى ببطء وعلى كره منها أخذتها إلي وأشركتها في طعامي. النازحون كانوا هنا بالطبع، لكنهم ركبوا النهر في طوافات وسفن منحدرين في مياه الدانوب نزولاً. وتبعاً للتحريات البوليسية أتى هؤلاء من مناطق شفابيا وذهبوا إلى جنوب روسيا؛ ولكن لا في بلدهم السابقة ولا في الجديدة أراد أحد منهم أن يعرف شيئاً عن الطفلة؛ لم تُفتقد في أي مكان ولم يُدوَّن اسمها في كتب النازحين ولا في كتاباتهم. وحين ظهرت عصابة من الغجر بالقرب من المدينة، انطلقت تحريات جديدة بهذا الشأن، ولكنها لم تسفر أيضاً عن أي جديد. باختصار، بقيت الطفلة عندي لقيطة من الصنف الجميل، كما تراها الآن أمامك! فأمنت لها عيشاً جميلاً مضموناً ولائقــاً بها بصفتها كذلك، وأعلنت أن زوجتي المتوفاة هي شبينتها وأعطيتها اسمها: دوروتيا. وثبتٌّ كنيتها، شوُنفوند، رسمياً في الدوائر المعنية بالأمر، وحين نمت الطفلة فيما بعد وتطورت إلى فتاة لا بأس بها وتبنيتها رسمياً بموجب القوانين والأنظمة المرعية، أمرت بضم اسم البيت واسم المكان المحليين إلى الكنية. وعلى هذا النحو تسمى هي الآن شوُنفوند - ف. بيرغ، غير أنني لم أستطع أن أجعل منها كونتيسة، وليس هذا بالأمر الضروري!".

هنا سألتني المخلوقة الجميلة وهي مطرقة: "هل أستحق الإشفاق أم أُحسد على ما أنا فيه؟".

قلت وقد أفقت من دهشتي التي مست شغاف القلب: "أكيد أنك تُحسدين فقط، فأنت تشبهين ببساطة نجمة سطعت من جديد من أعماق السماء ومُنحت اسماً. ولكن نجمة كهذه يمكن أن تختفي مرة أخرى، في حين أن روحاً غير فانية تحمل اسمكِ الآن لا يمكن أن تزول أبداً".

حينذاك حركت رأسها بهدوء كما لو أنها تريد نفي ما قلته ثم ردت عليَّ: "لا نريد أن نتباهى بهذه المواساة إلى حد كبير! فاللقيط قد يختفي دون أن يلفت الانتباه كما ظهر أول مرة!".

حين لم أعرف كيف أفسر تماماً هذه الكلمات لأنني كنت نسيت كلماتي أنا التي استثارتها، قال لي الكونت: "لا بد من أن تعرف أن شعار دورتشن هو أنها من تلقاء ذاتها لا تؤمن بالخلود لا نتيجة لأمور تعلمتها في المدرسة ولا نتيجة لتأثير الآخرين، بل طبقاً لأسلوب ذي علاقة بالمنشأ، أي منذ نعومة أظفارها!".

خجلت دوروتيا وكأن الأمر تعلق بإفشاء سر دفين؛ فألقت بوجهها على غطاء الطاولة المصنوع من قماش الدمقس بحيث انتشرت خصلات شعرها على اتساع سطحه. غير أن ما حدث ولَّد عندي انطباعاً شبيهاً بما يعترينا من هلع وديع أو قشعريرة حين يقترب مخلوق، سبق أن أحاطنا برضاً وإعجاب، من الروح ويباغتنا بإحدى صفاته المتعارف عليها.

قالت فجأة بابتسامة عذبة وهي تعتدل في جلستها: " ما دمت أصبحت معروفة الآن وسوف يُسبر غوري عما قريب، أريد أن أنسحب وأتكفل بإيجاد زاوية مريحة لنشرب فيها القهوة".

حين كنت أرافق الكونت فيما بعد في سفرات أشغاله، بما أنه كان يشرف بنفسه في معظم الأحيان على أملاكه ومزارعه، كنت أساله عن المزيد من المعلومات عن الآنسة.

فأجاب: " المسألة هي في الواقع كالتالي: منذ أن استطاعت قليلاً أن تصدر أحكاماً على الأمور ومنذ أن سمعت الناس يتحدثون عن هذه المواضيع، ويصعب تحديد الوقت الذي تم فيه تطورها هذا، كانت تقول بلا

أي حرج أو تحفظ ومن قلب هو غاية في السذاجة والصفاء إنها لا تستطيع إطلاقاً التحديد والإيمان بخلود الإنسان. بالطبع لا يندر أن تجد أناساً منصفين من كل الطبقات يستقون بسهولة هذا الشعور البسيط والأصلي بالفناء من الأم الطبيعة ويحتفظون به غير مبالين، بلا تشاؤم أو حرج، على أساس أنه بداهة لا غبار عليه ولا خطر منه. ولكن هذه الظاهرة لم تبدُ لي في أي مكان آخر مريحة وطبيعية بقدر ما كانت لدى هذه البنت؛ وكان اقتناعها البريء بذلك دفعني، أنا الذي كنت تركت الله والخلود حيث هما، إلى أن أتابع تأهيلي الفلسفي مرة أخرى وحين وصلتُ في مسيرة الفكر وقراءة الكتب من جديد إلى ما كانت جُبلت عليه هذه الفتاة وحين كانت دروتشن هذه تحملق في الكتب من فوق كتفيَّ، حينذاك فقط غدا جديراً بالملاحظة كيف تشكل في أعماقها هذا الشعور بزخم قوي على الصعيد الفكري. من يقل إنه لا شعر ولا قدسية في الدنيا من دون الإيمان بالخلود كان عليه أن يراها، إذ لم تكن الطبيعة والحياة تحفّان بها فقط بل جو من التجلي والسمو كذلك. فضوء الشمس بدا لها أجمل بألف مرة مما كان يبدو لأي إنسان آخر، ووجود الأشياء غدا عندها مقدساً، كذلك الموت الذي تأخذه مأخذ الجد من دون أن تخاف منه، وقد عودت نفسها أن تفكر فيه في كل ساعة حتى وهي في غمرة الفرح والسرور وفي غمرة الشعور بالسعادة أيضاً، كما عودت نفسها أننا لابد أن نودع الحياة ذات يوم من دون أي مرح ودعابة وإلى الأبد. كل الوجود المؤقت لشخصيتنا والتقائها الأشياء الأخرى الزائلة، الحيّة والهامدة أيضاً، ورقصنا الوامض والمختفي في ضوء العالم، لكل ذلك عندها نَفَس خفيف ورقيق مرة من حزن معتدل ومرة أخرى من ابتهاج لطيف لا يدع مجالاً لظهور مطامع الفرد ظهوراً ضاغطاً وثقيلاً مع بقاء الشخصية كاملة غير منقوصة. وأي ولاء وتعاطف تشعر بهما تجاه المحتضرين والموتى! إنها تزين قبور هؤلاء، الذين انسحبوا من هذه الدنيا وأجرهم على الله على حد قولها عنهم، ولا يمضي يوم واحد إلا وتقضي ساعة كاملة منه في المقبرة. فالمقبرة هي حديقة التنزه عندها وهي زاوية

التبرم والاستياء، ومرة تعود منها مسرورة ومغرورة ماجنة ومرة أخرى هادئة وغارقة في تفكيرها".

بالطبع لم تتناسب آنذاك سجايا ظريفة كهذه إلا مع حياة ناعمة لا هموم فيها ولا آلام ومع الطاقات الشبابية السليمة؛ ومع ذلك كان وصف هذه الطاقات زاد من تعاطفي وارتباكي.

وسألت الكونت: "ألا تؤمن دورتشن أيضاً بالله؟".

فأجاب: "طبقاً لقواعد المدرسة لا تنفصل المسألتان بعضهما عن بعض؛ وطبقاً لما جُبلت عليه النساء فهي لا تحب المنطق لأنها لا تستوعب مفاهيمه، وعادة ما تقول: يا إلهي ماذا يمكنني أن أعرف وأنا مخلوقة مسكينة بائسة! كل شيء ممكن عند الله، ويمكن حتى أن يكون له وجود! ولكنها لا تذهب إلى أبعد من ذلك مع تعابير مضحكة كهذه، لا بل تثير استياءَها حرية أو وقاحة في التعبير، متجاوزة حدود اللياقات سواء وردت في أحاديث أو في نصوص مكتوبة، ولا تتقبل هجومات فظة وخشنة. وتقول إنها لا تتفهم لماذا يحتاج المرء إلى أن يكون إزاء الله فظاً ووقحاً حتى ولو كان لا يؤمن بوجوده ولا يخشاه، وهي تعدّ ذلك تصرفاً وضيعاً أكثر منه شجاعاً".

بعد العودة من جولتنا قصدت مكان إقامتي الوديع الهادئ في بيت الحديقة، التي كنت رجوت أن أُترك فيه حين أريد لي أن أنتقل إلى القصر، ولكنني وجدت حجرتي الصغيرة مسكونة؛ لأن دوروتيا مكثت مجدداً بعد إتمام تدريباتها فترة من الزمن في الصالة السفلى ثم صعدت مع ابنة البستاني إلى الطابق الأعلى لكي تتأكد من أن كل شيء في مسكني هو على ما يرام. حين دخلت إلى الحجرة رأيت قصبتين عاليتين فخمتين من نبات الحلفاء مع حزمتي ازهرارهما مغروزتين خلف المرآة بشكل متصالب. وتحت المرآة المحاطة بإطار حائل اللون من نحاس منقوش مفضض استلقت جمجمة تزفيهان على الخزانة ذات الأدراج وفُرشت تحتها بطراوة بقعة من طحالب خضراء وحول قمة الرأس لُف إكليل صغير من نبات دائم الخضرة. رُوزشن اتكأت بمرفقيها

على قطعة الموبيليا المحدودبة بشكل مكوَّر واستندت فوقها ثم أخذت تتمعن في الجمجمة باهتمام وعناية بأنف ينم عن الازدراء وفم مدبب بمرح واستخفاف. ومن ورائها وقفت سيدة البيت شابكة يديها على ظهرها وصارت كما بدا تجيل النظر وهي غارقة في تفكير جدي في ما أنجزت يداها من عمل في مجال التزيين والزخرفة.

أدارت السيدة وجهها إلي ثم قالت: " لعلك تُعجب بفنوننا في التزيين بالورق، لقد جمَّلنا قليلاً لرفيق ترحالك الأبكم إقامته عندنا وعنينا بذلك تجميلك معه أيضاً. وكنت أفكر تواً: حبذا لو أنك تريد التخلص منه فتمنحه الراحة. لأننا نريد إذا سمحت الظروف أن ندفنه في مقبرتنا، فقد اخترت له مكاناً صغيراً وآمناً ومناسباً تحديداً لدفن رأس تحت الأشجار حيث تتعذر إمكانية حفره إلى الأبد".

عبارة "إذا سمحت الظروف" هذه، التي سقطت من فمها كورقة ورد لا ثقل لها، نمت عن كرم ضيافةٍ كبير فغمرت قلبي في الحال بالفرح والسرور، ولكنني رددت بقولي إن الجمجمة لابد، حسبما تعهدت لنفسي، أن تعود معي إلى بلدي وهناك أريد أن أسلمها أخيراً من جديد إلى التربة حتى ولو ظهر تصرفي هذا فارغاً وعديم الفائدة.

سألت دوروتيا: "متى سترحل؟".

"أظن غداً، كما جرى الاتفاق!".

" لن ترحل، بل افعل ما نصحك به أبي! تعال لكي أريك شيئاً جميلاً!". وفتحت خزانة صغيرة قديمة وملبَّسة واقفة في الزاوية، وأخرجت منها بعض الفناجين الصغيرة الصينية، التي كانت متنوعة الألوان وناعمة وأصلية. ثم قالت: "انظر، لقد ضبطتها لدى صاحبك وصاحبنا بائع الأدوات المستعملة؛ ووعدني بأن يؤمِّن لي مزيداً منها، لكنه لم يفِ بوعده حتى الآن. لقد أحضرنا هذه الفناجين إلى هنا لكي تتمكن أنت من أن تدعونا مرة إلى شرب القهوة في حجرتك أو في الصالة الكائنة في الطابق الأرضي، ولكي تحتوي غرفتك

أيضاً على شيء ظريف وثمين! انظري يا رُوزشن، هكذا رأيت السيد لي لأول مرة وهو يعزف على الناي!".

وتناولت عصاي ووضعتها على فمها كآلة الناي ثم غنت إلى ذلك بضعة أبيات من أوبرا فرايشُتس "ومع أن الغيمة تحجبها" ورمت العصا جانباً لكي تغني تلك الأبيات بإيقاع متسارع وتكررها بتعالٍ وتختم التحلية بجمال الصوت الواثق الذي نقلني إلى اندهاش جديد. لكنها لم تؤدِّ نغمة أطول مما كان ينسجم مع جيشان مزاجٍ جيد، والترنيمة التي غنتها انتهت دون توقع مثلما بدأت. وفجأة رأت دوروتيا مساعد القس ماشياً في الساحة فنادته: "أيها المحترم! اصعد إلينا قليلاً لكي نتحدث هنا إلى أن يحين موعد تناول الشاي فننتقل إلى المكان المخصص لذلك، دعنا هنا نتودد إلى ضيفنا الرائع الصبور أوديسويس. سوف تمثّل روُزشن دور منقذته ناوسيكا وتؤدي أنت دور السلطة المقدسة، التي تمتع بها ألكينوس حاكم شعب الفيئاكيين، وأنا أمثّل الأم أريتي ابنة ريكسينور، مثيل الآلهة!".

قال السيد الكهنوتي لاهثاً شاخراً حين صعد بالفعل على درج السلم: "في هذه الحال تكونين زوجي، أيتها الكافرة المحترمة!".

فضحكت وقالت:" هل تلاحظ شيئاً أيها الخادم المعذب تحت نير العذراء المقدسة، التي تهيمن على الأثير وتتربع على عرش الهياكل الذهبية؟".

قالت رُوزشن: " هذا الحديث يتجاوز أفقي!" بعد أن قرَّبت لمساعد القس واحدة من الكراسي القليلة الموجودة ثم انسحبت، بينما بدأ ذاك هذراً مسلياً وتابع حربه مع الآنسة. وأخيراً أتى الكونت أيضاً لكي يرى أين بقينا جميعاً وشارك في تجاذب أطراف الحديث إلى أن حل الظلام ووقف القمر فوق أشجار الحديقة لكي يرسل ضوءه إلى داخل الحجرة. ومن شكله أدركت أن أربعة أسابيع مضت على تناولي الطعام مع الفتيات العاملات تحت أشجار الحور على ضفة النهر وعجبت الآن لتبدل الأحوال في مجرى حياة بسيطة إلى هذا الحد.

جلست الجماعة الصغيرة في القصر بعد ذلك فترة طويلة معاً. في بداية الأمر بدا أن دورتشن لا تزال فرحة، لكن مضطربة أيضاً؛ وغدت بالتدريج أكثر هدوءاً ثم اكتفت بعزف قطعة موسيقية صغيرة على البيانو من حين لآخر؛ وفي النهاية اختفت دون أن تودع أحداً.

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن إلى أن طلع الصباح، لكن لم أعانِ من جراء ذلك أي توعك أو ألم. ولم أكد أنام وقتاً قصيراً حتى أُوقظت لأن ساعة السفر قد أذنت. ارتديت ملابسي بارتباك وتسرع شديد ومشيت إلى حيث كان الكونت جالساً على مائدة الفطور وكانت العربة تقف أمام الباب والحوذي بالقرب من الأحصنة. حين صعدنا إلى واسطة نقلنا قال الكونت: "والآن إلى أين سننطلق؟". لم تأتِ دوروتيا لوداعي، ولكنني لم أجرؤ على السؤال عنها لأنني سبق أن فقدت الجرأة، ومن جهة أخرى لم أستطع مغادرة تلك البلاد دون وداعها، لذلك قلت في آخر لحظة، بعد أن أمعنت التفكير لمدة دقيقة، إنني أوافق على اقتراح السيد الكونت.

فرد علي: " حسنٌ!" وأمر الحوذي بالتوجه صوب المدينة التي أتيت منها.

* * *


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الثاني عشر

المسيحي المتجمد

على الجانب الشمالي من القصر دلت نافذة أعلى من النوافذ المعتادة على المكان الذي بنيت فيه الكنيسة الخاصة. وَلأْياً أقيمت فيها صلاة واحدة في هذا القرن؛ إلا أن جدرانها كانت لا تزال مزدانة بالزخارف كنسية الطابع ومزودة بالأثاث، وكانت القبة مزدانة بالرسوم والأرضية المبلطة خالية منذ زمن بعيد من الكراسي. وبدلاً من ذلك وقفت في وسطها مدفأة حديدية وأشبعت المكان بالدفء بفضل جسمها وبواريها، وعلى حصيرة كبيرة من القش وقف حامل للرسم فجلست أمامه وصرت أعمل بتأثر بالغ.

كان ترتب على الانقطاع الطويل عن الرسم والمعايشات المختلفة وقرار التخلي عن هذه المهنة من دون شك نشوء حرية في النظرة وجدة في الأمور التي كانت تعتلج في داخلي، أو بالأحرى ترتب إيقاظ هذه الأمور التي تصب الآن في مصلحتي. ففي أثناء إقامتي الأخيرة في مقر الكونت كنت نظرت إلى لوحات قديمة وحديثة بمنظار جديد إلى حد ما؛ فكان كأن غشاوة من الجهل انقشعت عن عينيَّ واستمر هذا الانقشاع ما دمت أعمل الآن في آن واحد بحماس وبرود، بجموح وانجراف، خلي البال وحذراً، إذ فكرت لدى كل جرة ريشة بالجرة التالية دون أن أترك فرصة لأي تردد أو تخاذل لأن يعوق أو يوقف تدفق العمل. على أن الظاهرة المتمثلة في أن المرء قادر فيما بعد على إنجاز شيء تعذر إنجازه فيما مضى من دون تدريبات انتقالية سواء عبر

مجرد ارتياح القوى العقلية أو عبر تبدل المصير، هذه الظاهرة قد يتكرر حدوثها أكثر مما نظن. حينذاك شهدت مثالاً على ذلك، طبعاً ضمن الحدود التي رُسمت لي إجمالاً.

كنت بدأت برسم لوحتين في آن واحد وأحرزت بهذه الطريقة تقدماً منتظماً ومحمولاً من حال نفسية مفعمة إلى درجة بليغة الأثر بالإضاءة والدفء، ولكن النار المبدعة الفعلية كانت الميل المستيقظ، عن الحب أو العشق أو ما شابه من وضع تتعذر تسميته قبل أن يأتي به الزمن ولكنه يشكل ظاهرة يومية ككل الحتميات والضرورات. كنت تعلمت في زماني أن أسمي القلب أيضاً عضلة ومضخة آلية؛ والآن خضعت مع ذلك للتضليل القائل بأنه مقر الحركات التي تنطلق من صراعات الحب؛ وعلى الرغم من الدعابات المعتادة حول صورة القلب الشعارية على كعكة الزنجبيل وأوراق اللعب ورموز شعبية أخرى فقد ترسخت صفته القديمة حين دخل إليه لا إلى الرأس شخص دوروتيا مع هالة أصولها الغامضة وتميز فلسفتها في الحياة وجمالها وثقافتها؛ أو على الأقل أدت هذه الهالة في حجيرات ضوئها وصداها المكشوفة مجرد خدمة بواب وإدراك حسي من أجل إرسال المدرَك إلى أعماق الطاحونة الأرجوانية المعتمة للأهواء الجارفة.

حتى العقل أدى خدمات لمصلحة هذه الأهواء وفعل أكثر مما ينبغي لكي يستطيع مجابهتها. إن زوال الحياة وتعذر عودتها مرة أخرى، في نظر دورنتشن، جعلا العالم يبدو لي في الحال مزداناً ببريق أقوى وأعمق كما هي الحال عندها أيضاً؛ وكان شعور بالحظ السعيد مفعم بالحنين اخترقني برجفة لمجرد أنني فكرت في إمكانية العيش معها هذه الحياة القصيرة في هذا العالم الجميل. لذلك سمعت من دون أي ارتياب أحاديث عن وجود تلك الأشياء ولا وجودها وأحسستُ بلا سرور أو ألم، بلا استهزاء أو ضغط، بالأفكار التربوية عن الله والخلود وقد أخذت تذوب وتتحرك في أعماقي. إن الدافع إلى حرية كهذه كان بالطبع لا حرية ولم يكن يدعو إلى الاعتزاز والفخر؛ وفي الشعور

بهذا بحثت عن ترويض نفسي وتدريبها على التعليل فلجأت إلى مكتبة الكونت. كنت ملماً بالخطوط العريضة لتاريخ الفلسفة التي لا تخرج منها المسائل الأخيرة عند إلى الجاهل بها. والآن لجأت إلى الأعمال الآخذة تواً في الانتشار من تأليف الفيلسوف الذي كان مازال على قيد الحياة والذي اكتفى بتحويل كل هذه المسائل إلى لغته الرتيبة على الطراز الكلاسيكي لكن الجارفة جاعلاً إياها في متناول فهم الجميع، وكعصفور سحري قابع في أدغال معزولة استطاع بتغريده أن يزيل الله من صدور آلاف الناس.

كان الكونت ينتمي فكرياً وإلى حد ما شخصياً أيضاً إلى جماعة من الرجال الذين دعموا عقيدة هذا الفيلسوف المتحمسة حتى لو لم يشاطرهم الرأي والأمل في أن عليه بادئ ذي بدء أن يروج للحرية السياسية المعصومة عن الخطأ. وبصفتي ضيفاً عنده فإنه لم يشأ التعرض إلى هذا الموضوع؛ ولكن حين بدأت الآن أعارض بصورة معتادة التأثيرات الجديدة وأدرس التغييرات التي تعرضت لها على الصعيد المعنوي الأخلاقي، انطلق حديث محدد حول موضوع الله، وهو الأمر الذي كان رافقني طبعاً منذ نعومة أظفاري.

كان الكونت لفترة طويلة خلي البال فيما تعلق بأمور كهذه، ولكن صبره نفد الآن بعض الشيء فقال: "سيان عندي إن كنت تؤمن بالله أو لا تؤمن به! لأنني أعدّك إنساناً لا يهمه إذا ما نقل أساس وجوده ووعيه إلى داخل ذاته أو إلى خارجها وإذا لم يكن الأمر كذلك، أي لو كنت ظننت أنك شخص آخر مع الله وشخص آخر من دون الله، لما منحتك الثقة التي أحس بها الآن فعلاً. هذا هو أيضاً ما على هذه الأزمنة أن تتمه وتأتي به: أي الضمان التام للحق والكرامة لدى كل إيمان وكل عقيدة، لا في مجال قانون الدولة فحسب بل في تصرفات الناس الشخصية والحميمة بعضهم مع بعض. إن الأمر لا يتعلق هنا بالإلحاد والزندقة ولا بالعبث والتشكك والضيق بالدنيا وكل ما اختُرِع من أسماء محببة لأشياء سقيمة! بل يتعلق الأمر بالحق في أن نبقى هادئين في طبيعتنا ونفوسنا مهما كانت نتائج التأمل والدراسة. إننا نرى الإنسان يقضي

جل حياته في التعلم، ولكن ما من أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيؤمن به في أواخر عمره، ولذلك نريد حرية الضمير الحتمية في كل الاتجاهات، وعلى العالم أن يحقق أيضاً بفضل الهدوء ذاته، الذي يكتشف بموجبه قانوناً في الطبيعة غير معروف من قبل ومن ثم نجماً جديداً في السماء، وضعاً يتقبل معه أحداث الحياة العقلية ونتائجها ويتأمل فيها ويكون مستعداً لكل شيء وينسجم مع ذاته على قاعدة إنسانية تحتل مكانها تحت الشمس وتقول: هنا أقف أنا!".

لم يدم الأمر طويلاً حتى تحررت من لوم الكونت متنور الفكر وتأنيبه، بل تابعت سيري باستقلالية تامة على الدرب ذاته وتكيّفت مع لغة صديق الله الكبير، المثير برتابة؛ هذا اللهم إذا جاز أن نطلق هذه التسمية باستهزاء أو بجد على من لم يستطع أن يتخلص طول حياته من موضوعه المحبب. وككل المهتدين حديثاً غدوت حتى أكثر حماساً من الآخرين، والشعلة التي أنارت لي دربي في أدغال أفكاري القديمة ازدادت توهجاً خصوصاً أنها أوقدت الآن بنار الحب. هنا صرت أتحدث بالاتجاه المضاد ولا سيما في أثناء الأمسيات التي طالت حيث كان يحضر مساعد القس غريب الأطوار وتشده إلى ذلك النزاعات الناشبة؛ فكان يأتي إلى تلك الجلسات لكي يسائل المرتد الجديد ويعاقبه على ارتداده.

هذا الرجل تفوق بثلاثة أشياء، كان أكولاً وشروباً بولع جارف ومثالياً كبيراً في عقيدته الدينية وصاحب دعابة وروح مرحة أكبر، بمعنى أنه كان يستخدم في كل ربع ساعة كلمة دعابة ويجعلها مقياساً وعنواناً لكل ما كان يحدث ويقال بطريقة ما. وكل ما كان هو ذاته يفعل أو يقول أو يحس، كان يعده بادئ ذي بدء من باب الدعابة، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن إلا في الحالات الأقل حدوثاً بل كان يتجلى أكثر في قرقعة وألعاب نارية مفرطة مع متناقضات وصور وأمثال، فقد أسفرت هذه الروح مع كل ذلك عن دعابة معينة ولا سيما حين كنا نجلس جميعاً معاً ويشرح لنا مساعد القس بسيل عارم من الكلام ما الدعابة وأننا لا نملك من هذه الهبة الإلهية حتى مقدار حبة خردل.

كان قرأ كل الكتابات ذات الطابع الدعابي المرح وكل ما تناول ظاهرة الدعابة بالمعالجة والدراسة وأقام منظومة مهمة ذات علاقة بالعناصر الرطبة والســائلة والأثيرية والحائمة حول العالم، كما كان يسميها، مما اقترن بطبيعة لاهوتيته. وكثيراً ما تردد على لسانه ذكر سيرفانتس وشكسبير، ولكنه كان معجباً أيما إعجاب بما تعرض له سانشو وفارسه دون كيشوت مرات لا حصر لها من الضرب والجلد ومقالب الغش والخداع والمقالب الفظة من كل الأنواع. عجز عن إدراك كنوز الحكمة والنبل، التي وضعها المؤلف على لسان السيد الفارس المنتمي إلى منطقة مانشا في إسبانيا وذلك في تناوب سريع مع ثورانات الحماقة، عجز كذلك عن رؤية الاستهزاء الأكثر رقة ونعومة ولا سيما حين ظهر هذا الاستهزاء كأنه موجه إليه ذاته، الأمر الذي شكل النقيض الممتع إلى أقصى حد للضمانات المتعلقة بروح الدعابة التي كان يتمتع بها. وعلى هذا النحو لم يرَ مساعد القس في المغامرة التي جرت في كهف مونتيسينو سوى أحدوثة غريبة هزلية سطحية، والدعابة الكامنة في الحبل الطويل، الذي يُسحب تماماً من غير فائدة بينما يغمض الفارس عينيه من البداية ككل الذين يكذبون على أنفسهم فيرهبون الآخرين بذلك، والطريقة التي يتصرف على أساسها فيما بعد المرة تلو الأخرى بسبب ما يراه في الكهف، كل ذلك لم يره مساعد القس أو إنه لم يرض عنه دون أن يلاحظ أحد ذلك.

كانت مثاليته، وكان يسمي نفسه مثالياً مرة متباهياً وأخرى معتذراً، تتجلى في أنه، إزاء مستمعيه الذين كانوا يطلقون صفة مثالي على كل شيء فعلي وحادث ما دام يعبر عن جوهره الخاص ويقدمه بصورة كافية وناجحة، وكان يلعن هذا الشيء الفعلي والحادث بصفته بحسب رأيه زبالة أو وحلاً؛ وبالمقابل كان يسمي كل ما لم يره من قبل وكل ما لا يدركه وكل مالا اسم له وكل ما يتعذر التعبير عنه، مثالياً، تماماً كما لو أردنا أن نطلق على فراغ ما في السماء اسم: المنطقة الأمامية من مقاطعة بومارن البروسية. وهكذا كان يرى كل ممارسة غير متخصصة ومهملة ولا تؤدي إلى أي شيء يعتد به

طموحاً مثالياً حتى لو كانت كذلك ممارسة مقلوبة رأساً على عقب ومتطاولة؛ بينما كان يرى العمل الجدي المتفاني في مجالات العلم والفن والمسفر عن نجاحات أكيدة تصيداً للنجاح والجاه والتملك، ملتصقاً بهذه الدنيا الفانية. وكان يمتدح البنَّاء الذي تهدمت بروج كنيسته بصفته مثالياً ابتُلي بمأساة، بينما رأى في ذلك الذي بقيت بروج كنيسته قائمة ثابتة صياد حظ مادي النزعة.

وبوصفه قساً كاثوليكياً فقد كان متسامحاً وقد تعدى تسامحه نطاق كنيسته؛ اعتاد بكل تواضع ألاَّ يتحدث عن شيمته هذه وألاَّ يتباهى بها، ولكنه اعتنق أكثر من أي قس آخر مبادئ الربوبية المتنورة، التي والاها وتغنى بها بحماس منقطع النظير، فقد كان يحاول ممارسة إرهاب جهنمي فعلي عبر أقوال مثالية ومنطوية على دعابة ومزاح، ويبني أكوام حطبه من نقائض وأمثال عرجاء ونكات عنيفة لكي يحرق عليها العقل والنية الحسنة حتى ضمير خصومه، جاعلاً من رأيه الخاص قرباناً لطيفاً وملائماً للحرق.

هذا الانشغال المفضل الجريء إلى جانب كرم الكونت دفعاه إلى التردد على البيت، وبما أنه كان مساعداً صادقاً ومعاوناً مستقيماً في مشاريع خيرية فقد عاد على بيت السيد بالنفع والمرح الدائم. عرفت دوروتيا خصوصاً عبر أخف تصرفاتها ظرفاً وكياسةً كيف تجول به في متاهات مزاحه وتهرع أمامه عابثة لكي تتسلل عبر أدغال نكتته المجعدة. ولم يكن واضحاً إن كان في اللعبة تلاطف مرح أو مجون مريب؛ إذ حين كانت تمنح مساعد القس فرصة للتألق، كان ذلك يؤدي في غالب الأحيان إلى إغواء إعجابه بنفسه للتزلج على الجليد فتُكسر هناك ساق دعابته.

كان هذا هو الرجل المطلوب، الذي وجدت فيه فرصة سانحة لتجريب سلاحي الجديد بلا تردد أو مراعاة، خصوصاً أنني وقفت في وجه شقاوات وارتكابات كنت في السابق أنا ذاتي انغمست فيها في أكثر من اتجاه. بعد اندهاشه الحزين أول مرة من سقوطي تأهب الرجل بقوة مضاعفة لكي يرديني قتيلاً؛ ولكن بما أنني تعديت الكيل المترفق، الذي كان اعتاده، دون أن أراعي

اللياقات بقدر ما أذعنت لرغبة في القتال متوفرة لدى كاهن في أول عهده على طريق الرهبنة، ورددت على خصمي بالمثل بهجمات تجاوزت التصور ووخزات مزاحية، تعكر مزاجه وفقد الاستجمام المؤنس الذي كان بحث عنه بعد أيام مضنية من إقامة القداديس ومساعدة رئيسه القس في أداء الطقوس القداسية. فتأثرت بدوري لوضعه؛ واستغربت من حقيقة أن الإنسان عاجز عن تغيير نفسه حين استرجعت في مخيلتي التجربة التي عايشتها مع فرديناند لويس إذ كنت التزمت حتى أداء دور أكثر شراً ووقفت ممسكاً بيدي سيفاً في الجانب المواجه للقس. وقد عقدت العزم على أن أهدئ من روعي وأصحح سلوكي، ولكنني وقعت مجدداً في الأخطاء السابقة، وبذلك غدوت بصفتي سائراً على طريق تعكير الصفو بحاجة إلى الترفق والصون، وقد شعرت بذلك وداهمني الغم والكدر.

ولكن شاءت الأقدار أن يتلقى مساعد القس المتأزّم عوناً لم يكن يتوقعه، فذات يوم هدرت عربة مكشوفة، كان يجرها حصان ريفي متثاقل الحركة، إلى أمام القصر. وعلى مقعد الحوذي كان يجلس رجل ريفي في فمه غليون تبغ، بينما في الصندوق الذي كان على هيئة حوض مغسلة كما في الصَدَفة الملونة كان يجلس رجل فريد من نوعه وعلى رأسه قبعة ذات إطار عريض ومتدل وفي فمه هو كذلك غليون تبغ أيضاً، وإلى جانبه أُسند كيس قمح بعلو قامة، ولكن بدا ممتلئاً بأشياء كبيرة وصغيرة، معقوفة ومستديرة، ومربوط في الأعلى بخيوط كادت تتمكّن من أن تضم جوانب فتحته كلها بعضها إلى بعض بحيث لم يتشكل على الرأس سوى تويج منخفض من الثنيات. أمسك الرجل الراكب في العربة الكيس بإحدى يديه وحافظ بذلك على وقوفه منتصباً، إذ كان يهمه في المقام الأول أن يُنزل الكيس في حينه بكل حيطة وحذر. وحين تم ذلك قفز هذا من العربة من بعده وبقي واقفاً إلى جانبه وممسكاً به بغية أن يبقى واقفاً لأنه لم يشأ مهما كلف الأمر أن يقع الكيس على الأرض الرطبة قليلاً. فكان من شأن ذلك أن صعَّب عليه تبادل الكلام التالي مع الحوذي، الذي

لم يرض عن تعويق عمله بسبب مسألة حصوله على أجره من الرجل المسافر معه بينما احتج هذا على مقدار المبلغ المطلوب منه وطلب استمهالاً إلى أن يسلم رسائله إلى من يعنيه الأمر وينجز وصوله إلى مقر الكونت بالصورة اللائقة. بفم متدفق وثرثرة دائمة بالقرب من الغليون حاول الرجل التفاهم مع الحوذي، ولكنه رأى نفسه دائماً معوقاً بفعل الحركات الضرورية والبحث عن الرسائل ومن ثم إخراجها من الكيس، لأن هذا أوشك أن يسقط على الأرض إذا ما أفلته من يده. وأخيراً أتى واحد من خدم البيت وسأل الرجل عن شؤونه.

فقال هذا: "هذه أمتعتي يا صديقي الطيب! أمسك بها قليلاً إلى أن أجد رسائل التوصية الموجهة إلى السيد الكونت، وأرجو الآن أن يأتي إلي!".

أمسك الخادم بالكيس، وأخرج المسافر عندئذ بضع رسائل من محفظة مكتنزة وسلمها إلى الخادم فذهب هذا إلى البيت وأمسك ذاك بالكيس من جديد، وبعد بعض الوقت ظهر الكونت حاملاً بيده إحدى الرسائل للبحث عن الرجل القادم والاهتمام بأمره، فمد هذا يده الطليقة وهو يسند الكيس المنتصب كالعمود، إلى الكونت وقال بصوتٍ عالٍ:

"أحييك أيها الرجل النبيل وأيها الرفيق! أليس من دواعي السرور أن نعيش في هذه الدنيا، وأن نتحدث في أثناء حمل السلال على الظهر؟".

أجاب الكونت ديتريش: "هل لي الشرف الآن أن أرى السيد بيتر كيلكوس، الذي يوصيني به هنا عدد من أصدقائي؟".

"أنا هو! أليس من دواعي السرور أن نعيش في هذه الدنيا؟".

"أكيد! لكن حبذا لو ارتحت قليلاً! ألا تريد أن تسلم أمتعتك وتدخل إلى بيتي؟".

"لا أستطيع ذلك قبل أن أتحدث إليك قليلاً!".

اقترب الكونت من الرجل، الذي أسر إليه خبراً أصدر على أثره الأوامر إلى الحوذي بالذهاب إلى مبنى الخدمات الملحق بالقصر لكي يلقى هناك الرعاية اللازمة، ويتناول هو وحصانه ما يرضيهما من الطعام والشراب.

عندئذ نقل رجلان الكيس بحذر وعناية إلى البيت وقام الكونت بمرافقة الرجل الغريب إلى الغرفة التي خصصت لإقامته، وأجرى الاثنان معاً مزيداً من الاستشارات.

كان السيد بيتر كيلكوس معلماً في مدرسة بإحدى مناطق وسط ألمانيا وقد تخلى عن مهنته هذه وسخر نفسه للترويج للإلحاد وإنكار وجود الله ثم هجر مسقط رأسه لكي يرى العالم، بالمعنى الحرفي للكلمة، ويتمتع به بعد أن طُرد الله منه. وعدّ هذا الحدث ضربة حظ لا تقدر بثمن واعتاد أن ينادي دائماً أينما حل: "من دواعي السرور أننا نعيش في هذه الدنيا!" كما لو أن العالم تحرر تواً بالفعل من ألد أعدائه وظالميه، منذ أن قرأ كيلكوس كتب الفيلسوف الذي سبق ذكره. وتبعاً لذلك كان يتصرف وكأن كل الأيام هي يوم أحد وأن الشواء موجود دائماً على السيخ، أو يتصرف كشعب إمارة صغيرة هرب طاغيتها أو كعش مليء بالفئران حين تكون القطة خارج البيت.

وبصفته معلماً فقد يكون عانى بالطبع بشدة ضغوط رجال الدين؛ إلا أنه سُر أيما سرور بطرد الله من حياته ومن العالم. كان مندهشاً دائماً من روعة تصوره بأنه متحرر من ذلك المفهوم المشؤوم ومن كل تبعية له، صغيرة كانت أو كبيرة. وكثيراً ما كان يستشيط غضباً ضد الماضي الطويل لآلهة مشابهة تماماً؛ وكان يصعد مراراً وتكراراً كل تلة صغيرة ويمد يده ممتدحاً جمال العالم الأخضر ويهلل لزرقة السماء العميقة، الخالية من الغيوم ومن الآلهة ثم يشرب وهو منبطح على بطنه من ينابيع وجداول لم يسبق لها من قبل أن جادت بمياه نقية وعذبة كما هي الآن. ولكن هذا لم يمنعه، إذا ما حل طقس برودة متواصلة أو مطر لفترة طويلة، من أن يصبح في غاية الاستياء ويصب جام غضبه الشخصي على وضع كهذا مستخدماً في ذلك عبارات شتم مقذعة قديمة لا تُستخدم إلا ضد مسببي طقس كهذا موجودين شخصياً وذوي تأثيرات مقيتة.

بعد خروجه من بلده قصد بادئ ذي بدء زعيم المدرسة الإلحادية، أي الفيلسوف آنف الذكر، وظل في خدمته وتقديسه ثمانية أيام بطولها ثم اقترض من أجل متابعة سفره المبلغ الزهيد الذي كان يمتلكه تواً ذلك الحكيم العالمي، الذي كان يعيش بملء إرادته حياة ضنكاً وفي غنى عن كل الاحتياجات اللازمة. وكان من أمر الحكيم أن زود صاحبنا كيلكوس ببضع رسائل إلى بعض الميسورين من مريديه وأرسله هؤلاء من جديد إلى أصدقاء آخرين فسافر هكذا من مدينة إلى مدينة ومن مزرعة إلى مزرعة وعاش حياة رائعة ومسرَّة ممتدحاً العهد الجديد البادئ تواً. والآن أتى أخيراً إلى الكونت ديتريش أيضاً، الذي أراد بدوره هو الآخر أن يتعرّفه. حين أتى الكونت لتناول الطعام مع الضيف الجديد، كان متعباً بعض الشيء من أحاديثه ونداءاته بصوت عال؛ إلا أن الضيف صرخ، وهو يغطِّس الملعقة في الحساء الجيد، ودفق عبر شفتين غليظتين بشعاره المعروف: " من دواعي السرور أن نعيش في هذه الدنيا!".

كان كيلكوس رأى فيَّ مؤقتاً محسوباً وزميلاً في ضيافة البيت، فتوجه إلي بعد الطعام وأجبرني على أن أرافقه إلى الغرفة التي خُصصت له؛ وتحت ألف سؤال بدأ يرتب إقامته ويفرغ كيسه الذي قام بدور حقيبة سفر، إضافة إلى عدد كبير من قطع الملابس المختلفة التي لا تناسب قطعة منها قطعة أخرى، ظهرت أغرب الحاجات والأمتعة، التي ثمَّن كل واحدة منها تثميناً اصطناعياً. أخرج كيلكوس كتب الفيلسوف المعلم، التي كانت مجلدة بغلاف من الجلد أحمر اللون وكان كل جزء منها ملفوفاً بقطعة من القماش الخاص، من الكيس ووضعها طبعاً على الطاولة التي كانت في الغرفة. ثم أخرج قطعة سميكة من خيش غير ممتقع، أذرعاً كثيرة منه، كان يعول على أن يصنِّع لنفسه منها في الصيف ملابس ألمانية للجمباز. بعد ذلك أتت كتب أخرى؛ وبعدها تدحرجت من الكيس بعض كميات من تفاح بورسدورف الجميل مهداة إليه من امرأة جميلة في إحدى المزارع، على حد قوله؛ بعد ذلك تلت قطعة من اللحم المملح، مصرورة في ورق؛ ثم لحاف أزرق اللون مطوي وفي

إحدى طياته حزمة من خيطان التريكو وجوارب جديدة. لدى رؤية كل هذه الأشياء لابد أن يُترك له أمر التعويض بصورة لا بأس بها عن العناية الربانية والتفكير في كل شيء قد يحتاج إليه. وبعد أن أخرج أيضاً بعض الأشياء الأخرى من عمق الكيس من بينها ساعة صغيرة من إنتاج مصانع الغابة السوداء، زحف برأسه إلى داخل الكيس وأخرج من أعمق مكان فيه روباً منزلياً مطوياً، بلون الورد الأحمر. وحين فتحه ظهرت علبة متوسطة الحجم وفيها نموذج عينٍ بحجم رأس الطفل.

فتح كيلكوس العلبة وأخرج منها العين بعناية وحذر لكي يتأكد من أنها سليمة ولم يلحق بها أي ضرر. كانت تلك العين مصنوعة من شمع وزجاج وكان بالإمكان تفكيكها لكي يطلع الدارسون من خلال ذلك على بنية العين البشرية. كان أخذ معه تلك العين لدى مغادرته المدرسة إلى غير رجعة من بين مجموعة صغيرة من منتجات الطبيعة، التي كانت تستخدم في مدرسته وسائل إيضاح، ولهذا السبب اتخذت التدابير لملاحقته في كل مكان يحل فيه حينما يُعرف مكان إقامته؛ إلا أنه لم يُرجع العين إلى مكانها الأصلي.

والآن نفخ الغبار عنها ووضعها طبعاً على طاولة المكتب ثم قال: "هذه هي عين الله الحقيقية!".

كان لعين الله هذه أكثر أشكال الترتيب والتجهيز خشونة وفظاظة، ومعرفة كيلكوس لم تكن لتتعدى ذلك؛ ومع هذا فقد أُريد لها أن تؤدي خدمة تزيين رسالته التبشيرية بقناع العلوم الطبيعية، وقد حمل معه تلك العين نوعاً ما رمزاً لتلك الظاهرة بعامة، حين تقول العلوم الفكرية لدى بداية سلسلة جديدة من الاكتشافات، تقول في كل مرة للامنتهي: " هولاَّ! إننا نعرف الآن طرائق العمل والإنجاز".

وإضافة إلى ذلك فقد أدت له العين خدمة أرشيف سري وخزينة نفائس. فتح التفاحة وأفرغ داخلها الأجوف، الذي غدا محتواه مختلطاً بعضه ببعض من جراء الارتجاجات الناجمة عن السفر. من عهنة كبيرة من القطن أخرج

مشبكاً ذهبياً للصدر وكستك ساعة فضياً وبضعة خواتم وأراني هذه الكنوز بكل رضاً وإعجاب. وأشار تلميحاً إلى حزمة صغيرة من الفواتير ووصفة نبيذ ساخن وحزمة صغيرة من رسائل الغرام، التي كان تلقاها من الخادمات المسؤولات عن غرف النوم لدى مضيفيه في حين فتح بطريقة جدية ورزينة، وكأن الأمر يتعلق بالتزام تجاه الدولة، بطاقة يانصيب طبع عليها الكثير من مئات الآلاف في بنود كبيرة وصغيرة؛ وأطلق على مبلغ نقدي صغير ملفوف بالورق اسم صندوق احتياط لن يلجأ إليه مهما كانت الظروف ولذلك يحتفظ به في مكانه هذا. طاقة ورد صغيرة يابسة أكملت مجموعة الأشياء وواصلت بروح من التصالح والتسامح مسيرة الطابع اللطيف والأنيس على الصعيد الإنساني.

كل ذلك كان في العين آنقة الذكر، والآن وضع كيلكوس هذه الوفرة من الأشياء في العلبة الخاوية وأقفل عليها درج الطاولة؛ لأنه كان ينوي إظهار النموذج التشريحي في الأحاديث المقبلة النافعة علمياً ومعرفياً.

على الفور في أول أمسية، حين أتى مساعد القس لينضم إلى جماعة القصر، كان كيلكوس جعل منها مرمىً لاندفاعه التبشيري؛ وقد حدثت ضجة كبيرة إلى أن أدرك الكاهن في الرجل القادم طبيعته الكاريكاتورية فغيَّر فجأة بغمزة عين ملؤها البهجة والسرور أسلوب صراعه ضده وبدأ يتملق هذا الرجل الصاخب، الذي كان يكيل المسبات والشتائم ويجدف على الله والقديسين بجرأة لا نظير لها. قال الكاهن إنه يصنف نفسه في عداد السعداء من الناس نظراً إلى تمكنه من الترحيب بظاهرة متبلورة إلى هذا الحد وبالغة حد الكمال في نوعها ونظراً إلى تمكنه أيضاً من دراسة هذه الظاهرة؛ فكل متناقض تناقضاً مطلقاً لابد أن يتجاذب بشكل أقوى مع نقيضه لكي يتوحدا أخيراً في عنصر أعلى. فمحب الله حباً جارفاً ومنكر الله إنكاراً جارفاً يجران في حقيقة الأمر العربة ذاتها، التي لا يستطيع أي منهما أن يتخلص منها؛ ولذلك يعرض الأول على الثاني صداقته بصفته صاحباً مخلصاً له. وكان من رأي مساعد القس أيضاً أن مسألة إنكار الله بهذه الجدية والإلحاح ليست في

حقيقة الأمر إلا نوعاً مخفياً من مخافة الله، كما كان يوجد في الأزمنة الأولى قديسون كان من شأنهم أن أظهروا كفراً وفجوراً لكي يخلو لهم الجو في وضع من الازدراء للاستسلام المريح لحرارة الإيمان بالله.

لم يعرف كيلكوس المندهش ماذا جرى له وحاول أن يساعد نفسه بمشاكسة فوارة؛ إلا أن مساعد القس المرح لفه بكثافة كبيرة بمئة دعابة صغيرة رقيقة وواساه بقوله إن الرب وضع عيناً عليه منذ فترة طويلة وسوف يصبح كل شيء على ما يُرام، الأمر الذي أشعره إلى حد ما بالرضا وقبل إثر ذلك دعوة الكاهن لتناول الفطور عنده. وهناك نشبت بينهما في بداية الأمر من جديد معركة كلامية؛ وبعد ذلك تشاربا وتنادما وأقاما صداقة حميمة ثم تسكعا معاً في الحقول والحانات في جولة أمطر مساعد القس صديقه في أثنائها بدعابات ونكات جديدة المرة تلو الأخرى؛ فقد ظل هذا دائماً محافظاً على وعيه وإدراكه وخبثه بينما فقد كيلكوس عقله كلما غدا في حال سكر وبدأ يبكي ببؤس وشقاء على عظمة مصيره وأبهة الزمن إذ إن من دواعي السرور أن نعيش في هذه الدنيا. إذا ما استطاع مساعد القس أن يأتي به مساءً أو ظهراً إلى القصر وهو في حال كهذه من السكر، كان سروره يصل إلى أعلى أوج له. كان الكونت يبتسم حيناً بمرح وحبور وحيناً آخر باستياء وانزعاج، بينما كانت دوروتيا تضحك بسرور وانشراح لأنها لم يسبق أن رأت تصرفات من هذا النوع ولا سيما حين كان كيلكوس يركع أمامها ويقبل باكياً أطراف ثوبها؛ لأنه سرعان ما تخلى عن ابنة البستاني بعد أن أظهر لها في بداية الأمر مودة واهتماماً، حين عرف أن دوروتيا ليست كونتيسة بل هي إنسانة متنورة وتؤمن إيماناً شديداً بحرية الفكر والتفكير والعقيدة، ويبدو أنه ظن مؤقتاً أنها خُلقت لكي تشاطره متعة اللحظة الكبيرة الراهنة في الدنيا وتشاطره الحياة أيضاً.

وإذا ما غدا بعد بعض تصرفاته هذه رزيناً من جديد، اعتراه حزن عميق ولكي يتدارك الخطأ اقترف كثيراً من الأفعال المشينة. على الرغم من برودة الطقس الشديدة كان يسبح في برك ماء وجداول طواحين بحيث كان

الناس يرون دونما توقع من قريب أو بعيد جسده العاري وهو يغطس في الماء ويخرج منها. وبعد ذلك كان يقدم نفسه، بوجه مزرقّ وشعر مبلل، على أنه وُلد من جديد مرة أخرى؛ في ذلك كان يجد كل من مساعد القس ودوروتيا وحتى رُوزشن العابثة تسلية يومية ممتعة. كان مساعد القس يعرف أن الفلاحين تحدثوا عن أنهم سيصطادون ذات مرة رجل الماء الكافر ويجففون جسده بفرشاة من قش الشوفان فسر لذلك سلفاً.

أما أنا فلم يدفعني الحدث بمجمله إلى تهدئة رغبتي في النزاع فحسب بل شعرت بالخجل كوني أقف هكذا إلى جانب الشخص الغريب الأطوار بصفتي ضيفاً مغامراً أكاد لا أختلف عنه في ذلك. بالطريقة نفسها، التي بموجبها وضع الرجل جمال البيت هدفاً نصب عينيه، تذكرت أنني فعلت الشيء نفسه ولا أزال أفعل ولو أنني لم أبح بعد بشيء من هذا القبيل ولا تحدوني الرغبة حتى هذه الساعة في أن أبوح به. والقهقهة العذبة، التي كانت تصدر بكل لباقة ولياقة عن دوروتيا، كنت أستحقها أنا ذاتي في أعماق قلبي. وإذا أردت أن أكون صادقاً مع نفسي، فلا بد لي من الاعتراف بأنني لم أبق هنا إلا من أجل دوروتيا، غير أنني لم أجرؤ على إظهار ذلك أو تعليق الآمال به؛ إذاً كنت ربما أكثر جنوناً من بيتر كيلكوس.

وقعتُ من جراء كل هذه الأحاسيس والأفكار المتناقضة في نوع من التجمد انسحبت بموجبه إلى عملي وإلى دراسة الكتب الفلسفية بتمعن وهدوء، دون أن أشارك في المزيد من المناقشات الدائرة في أرجاء القصر. في أثناء ذلك استمر العشق، لكن كازهرار النباتات الذي يستمر في برودة الربيع الطارئة لفترة من الزمن ويراوح في مكانه عند تفتح كؤوس الأزهار إلى النصف فقط، دون أن يحسم أمره. وعلى النحو ذاته أصررت على ازدراء خصومة في مجال العشق رأيتها متجلية في سلوك كيلكوس فيما تعلق بعقيدته الجديدة وفي النظرة أيضاً إلى المرأة، الأمر الذي لم يكن بالطبع مواكباً العصر ولا إنساني الطابع إلى حد كبير.

وذات ضحى ترامى علي مضطرباً ومتزيناً في لحظة وجدتني فيها مستجمعاً فكري ومع ذلك معرِضاً صاداً كعانسة وجالساً على عملي. كان يرتدي سترة بنية مزدانة بأزرار مذهبة وعلى رأسه قبعة سفر فاتحة على الرغم من أن الوقت كان شتاء. قال لي، يجب أن يُحسم الأمر مع دوروتيا؛ لأن ارتباط رجل مثله بامرأة مثلها هو ظاهرة نموذجية ولا يجوز في أي حال من الأحوال أن تمنى بالإخفاق؛ وهي أشبه ما تكون بواجب تاريخي فلسفي، لأن تخليص العالم من فكرة الله يجب أن يتم بصورة صحيحة عبر تزاوج ممثلين أحرار لسلالات الجنس البشري، وإلى آخره. أخجلني وأزعجني في أعماق استعداداتي الطبيعية لقائي إياه وحديثي إليه إلى حد أنني لم أكن قادراً حتى على الضحك على جنونه. لم أر في الأمر ما يُسرُّ البتة لأنه، على ما كان يبدو، كان ذاته سبباً في تعكير صفو دورتشن، العفوية المتحررة من كل قيد أو كبح.

لذلك سألت كيلكوس بفظاظة عما إذا كان الآن وهو يرتدي سترته تلك في طريقه إلى طلب الزواج من دوروتيا؟

فأجاب: "لا، لم يحن الوقت لذلك بعد! أريد أولاً أن أعتني أكثر بهندامي لبضعة أيام بالصورة التي تليق بالبحث عن زوجة. ألا تناسبني هذه السترة؟ لقد حصلت عليها هدية من صاحب بنك ملحد وهو داعم كبير لرابطتنا؛ إنه لا يزال بالطبع يذهب إلى الكنيسة للصلاة في كل يوم أحد، لأن عليه أن يراعي الناس. آه لو أن أمي مازالت على قيد الحياة، عساها أن تعايش عندئذ ما سأكون فيه من سعادة!".

"أمك؟ هل هي ميتة؟".

"منذ عامين! ماتت قبل أن ترى تحرير الجنس البشري! الزهور الذابلة، التي أودعتُها في عين الله، كانت أهدتنيها في عيد ميلادي الأخير الذي عايشته! وقد حصلت عليها من السوق لقاء كرويتسر واحد!".

أصابتني وخزة جديدة في القلب؛ إذ ادعى أنه يستحق أن يكون له أم محبة، وفي النهاية كان ابناً أفضل مني لأني بقيت هنا في هذه البلاد وكدت أنسى أمي مع تيقني من أنها تنتظرني بفارغ الصبر. هكذا هي حياتنا منسوجة من فوضى واضطراب بحيث لا نستطيع أن نوجه لوماً للآخرين نستحقه نحن قبل أن يتلقاه أولئك.

بعد خروج كيلكوس مندفعاً بسرعة من الحجرة ببضع دقائق، دخلت دوروتيا حاملة معها سلة صغيرة مليئة بالعنب والإجاص الجميلين.

قالت:" أنت الآن مجد في عملك ومعتكف إلى حد أن علينا أن نزودك بمنعشات صغيرة. كل من هذه الثمار وإلا فسوف تكون جافاً معي! وفي مقابل ذلك ينبغي أن تجود علينا بنصيحة جيدة! ولكن تابع عملك في الرسم، فكم أحب أن أراقبك في أثناء العمل!".

وتناولت كرسياً ثم جلست إلى جانبي.

وتابعت حديثها قائلة: "إن أبي يكتب رسائل إلى بعض الناس بهدف أن يخلصنا من السيد كيلكوس؛ لأنه لم يعد يطيق وجوده بيننا. ألقى كيلكوس في الصباح الباكر من هذا اليوم موعظة على الفلاحين، كما فعل النبي يونس في بلدة نينوى، دعاهم فيها إلى التوبة والتخلي عن إيمانهم بالله الذي هو في رأيه كفر. لا يمكن أن يستمر أمره على هذا المنوال، لذلك يريد أبي أن يرحّله عنا في هذا اليوم، إلى مكان بعيد، ويزوده برسائل حسنة النية، شبيهة برسائل أورياس، على أساس أن يعتنى به ويُربط بعمل معقول".

سألت: " وماذا يمكن أن أنصح في هذا الشأن؟".

" لا تنصح بقدر ما تساعد! ينبغي، إذا ما تأبى، أن تشجعه وتصور له رحيله على أنه ضرورة ومتعة. وثمة بضع حقائب أعدت لكي تتسع لمحتويات كيسه المخيف. وبما أنك سوف تهب إلى مساعدته في آخر سويعة من إقامته عندنا فلابد من أن تقنعه بأن الكيس غير لائق وموضع شبهة ثم

تأتي له بالحقائب كما لو أن ذلك محض مصادفة. فربما يعاند ويرفض قبولها، ولكن أبي لا يريد أن يرحل كيلكوس من بيته بكيس القمح".

لم أخش أن يرفض صاحبنا الحقائب، ومع ذلك وعدت أن أبذل جهدي. ولكنها قالت: "والآن سأشاهد قليلاً رسمك، إن كان ذلك مسموحاً لي!". وشابكت ذراعيها ثم جلست بجانبي ربع ساعة من الزمن دون أن ينبس أي منا ببنت شفة حول الموضوع المطروق.

حين أبعدت حجراً غير موفق كان في مقدمة لوحتي، قالت دوروتيا: "احذر! أخرجه من هنـــا!" ثم نهضت واقفة وشكرت لي المقابلة القيمة وانسحبت وهي توصيني بأن ألتقيها قبل موعد الطعام لكي تعرف ما يجري بشأن ذلك الموضوع.

كل شيء تم من دون صعوبة أيضاً وفقاً للمطلوب؛ فقد سافر كيلكوس بكل هدوء وارتياح بعربة محملة تماماً إلى محطة البريد التالية لكي يتابع رحيله من هناك في الصباح الباكر من اليوم التالي. وحين أتى مساعد القس في المساء لتناول الشاي وجد المكان هادئاً ووادعاً وكأن طاحونة كانت توقفت عن العمل. وكان أحضر معه في الآونة الأخيرة من حين لآخر أعمالاً لواحد من المتصوفين الألمان السابقين، بنية أن يضع التركيبة العميقة والجريئة لمفكرين من هذا النوع وجهاً لوجه أمام أحدث عقلية هي أيضاً عميقة وجريئة حتى في تقديمها المشوه عبر كيلكوس، وبما أنه كان مهتماً في المقام الأول بما يغذي الخيال وبالحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي، الذي كان يقتفي أثره، فقد كانت بعض النتائج مرة لمصلحته وأخرى لمصلحة الآخرين، وحول ذلك كان اختار لنا كتاب أنغيلوس سيليسيوس "الرحالة الملائكي" وأسف لأن كيلكوس لم يعد موجوداً بين الحاضرين، فقد علق آمالاً على إثارته وشدهه عن طريق إلقاء الأشعار الرائعة ووضعنا نحن في حيرة مفعمة بالدعابة والروح المرحة.

ومع ذلك رجوناه أن يلقي علينا من تلك الأشعار، والجماعة الصغيرة من الحاضرين سُرت أيما سرور بالشاعر المتمكن، الذي رأى الله ببصيرته وإيمانه، كما سرت أيضاً بلغته الحية ووهج شاعريته. ولكن هذا أيضاً لم يناسبه تماماً؛ فبدأ يلقي بحماسة أكبر ونبرة أشد ومع كل صفحة قلبها ارتفعت وتيرة المشاركة والتعاطف مع الظاهرة العقلية الحية إلى أن رمى الكتيب بعيداً نصف منزعج ومتعب.

فتناوله الكونت بيده وقلَّب بعض صفحاته ثم قال بعد ذلك:

"إنه كتاب جوهري ومميز! وكم هو صحيح ورائع أن يبدأ رأساً ببيتي الشعر التاليين:

ينبغي أن تكون نفسيتك نقية كأخلص ذهب،

حادة كحجر الصوان وصافية كالكريستال.

"هل يمكن للمرء أن يصيب أكثر في وصف أساس كل هذه التدريبات الروحية وأنواع التفكير، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وفي الإشارة إلى القيمة التي علينا من البداية أن نضيفها إلى ذلك ما دام الأمر بمجمله على جانب كبير من الخطورة والأهمية؟ ولكن إذا ما أردنا متابعة الدراسة والبحث، فإننا نجد والمتعة تغمرنا كما يمس المتناقضان بعضهما بعضاً ويتحول أحدهما إلى الآخر حين يُقلَبان. تُرى ألا نظن أننا نسمع قول فيلسوفنا لودفيغ فويرباخ حين نقرأ الأبيات التالية:

أنا كبير كالله، وهو صغير مثلي،

لا يمكنه أن يكون فوقي ولا يمكنني أن أكون تحته.

"ثـــم:

اعرف أن الله لولاي لا يستطيع أن يحيا لحظة واحدة،

وإذا ما فنيت، فلا بد له من أن يتخلى مضطراً عن الروح.

"وهذا أيضاً:

إذا كان الله قرير العين ويحيا من دون رغبات،

فقد تلقَّى ذلك مني، تماماً كما تلقيته منه.

"أو:

أنا غني كما الله، وليس ثمة ذرة غبار

على وجه الأرض (صدقني أيها الإنسان) لا أشاركه فيها.

"وحتى هذا:

ما يقال عن الله لا يكفيني بعد؛

ما فوق – الألوهية هو حياتي ونوري.

- إلى أين أذهب إذاً؟

يجب أن اذهب عبر الله إلى صحراء.

"وكم يجد المرء على أســـاس من حقيقة بسيطة روح الزمن مغناة في هذه القصيدة الصغيرة المنطوية على حكمة عميقة: "على المرء أن يكون متدفق الأحاسيس":

أيها الإنسان! حيث تخطر بروحك عبر المكان والزمان،

تستطيع أن تكون في كل لحظة في عالم الخلود.

"ثم: " الإنسان هو الخلود":

أنا بذاتي الخلود، متى أغادر الزمن

وأتحد مع الله ويتحد الله معي.

"و: "الزمن هو الخلود":

الزمن كالخلود، والخلود كالزمن،

إلا إذا أنت لم تعمد إلى التفريق بينهما.

"كل هذا يولِّد تماماً تقريباً انطباعاً وكأن أنغيلوس الطيب لم يكن بحاجة إلا ليعيش في أيامنا هذه ولم ينقص الشاعر المتمكن، الذي رأى الله ببصيرته، سوى بعض الحظوظ الظاهرية المتغيرة لكي يصبح فيلسوفاً متمكناً أيضاً ودفاقاً وفي أوج الملاءمة للعصر الذي نعيش فيه".

قال مساعد القس: " لقد بلغ السيل الزبى عندي، من جراء قولك هذا! ولكنك تنسى فقط أن شيفلر(*) عاصر أيضاً مفكرين وفلاسفة ولا سيما دعاة إصلاح أيضاً ولو كان فيه ذرة من عرق ينبض بالإنكار لسنحت له فرصة كبيرة للتأهل لذلك!".

قلت: " إنك محق فيما تذهب إليه، ولكن ليس تماماً. إذ إن ما منعه من ذلك وقد لا يزال يمنعه حتى الآن هو النزر اليسير من العبث والدعابة، التي مزج بها صوفيته الوهاجة؛ وهذان العنصران الصغيران من شأنهما مع كل قوة الفكرة أن يحتجزاه الآن أيضاً في مستودع الأسرار الإلهية!".

فقال مساعد القس:" عبثاً! أرى الأقوال في تحسن دائم! ماذا تريد أن تقول بكلامك هذا؟".

قلت: "في العنوان يضيف هذا الشاعر الورع إلى اسم كتابه عبارة: قوافٍ طريفة في الحكمة والاستدلال. طبعاً ليس لكلمة طريف في التداول اللغوي آنذاك تمام المعنى الحالي؛ ولكن حين نمر باهتمام أكثر دقة عبر هذا الكتيب، نجد الكلمة بالفعل أيضاً بالمعنى الحالي طريفة أكثر من اللازم ولا تنطوي على أدنى حد من البساطة والسهولة، الأمر الذي يُظهر الآن ذلك الوصف كأنه نبوءة ساخرة. ثم انظر أيضاً إلى الإهداء الذي يهدي الشاعر أبياته بموجبه إلى الله العزيز مقلداً بذلك تمام التقليد، حتى في ترتيب الحروف المصفوفة، ذلك الشكل الذي اعتاد الناس آنذاك أن يهدوا به كتاباً إلى السادة الكبار، وصولاً إلى التوقيع: عبده المعرض للموت في كل وقت يوهانيس أنغيلوس.

(*) الاسم الحقيقي للشاعر اللاهوتي أنغيلوس سيليسيوس موضوع الحديث الجاري، المترجم.

"تأمل رجل الله الجدي إلى درجة مريرة، القديس أوغوستينوس، واعترف بصدق: هل تتوقع منه أن يزود كتاباً صب فيه دم قلبه الديني بإهداء منكِّت متصنع كهذا الإهداء؟ هل تظن أن هذا القديس يرضى أن يؤلف كتيباً مزاجياً لعوباً كهذا الكتيب؟ لقد تحلى بخفة الروح كغيره من الناس، ولكن كم كان يكبح جماح هذه الخفة إذا ما تعلق الأمر بالله؟ اقرأ اعترافاته! فكم يمس شغاف القلب وكم يُبهج أن يرى المرء كيف يتجنب هذا القديس بخشية وخوف كل أبهة الصور الغريزية واللعوب وكل خداع النفس أو خداع الله عن طريق الكلمة الملبية للغرائز. وكيف يوجه خلافاً لذلك كلاً من كلماته القاطعة الباتة والبسيطة مباشرة إلى الله ذاته ويكتب تحت رقابته لئلا يتسلل إلى اعترافاته بهرج لا يليق أو وهم أو نوع من التجميل بما يدنس أو يعيب.

"ومع أنني لا أريد أن أعدّ نفسي في عداد أنبياء أو آباء كنسيين كهذين ولكنني أستطيع أن أتفهم مشاعرهم تجاه الله هذا، الكامل والمأخوذ على محمل الجد، والآن فقط حيث فقدته أدرك سلوكي التهكمي والتهريجي في مرحلة شبابي التي اعتدت في أثنائها أن أعالج الأمور الدينية عن طريق تديني الموهوم؛ وكان لا بد لاحقاً من أن أتهم نفسي ذاتها بالطيش والاستهتار لولا أنني استطعت أن أظن أن تلك الطريقة المموهة والتهريجية لم تكن في واقع الأمر سوى غطاء لحرية العقل الكاملة، التي حصلت عليها في نهاية المطاف".

ضحك القس الآن ملء شدقيه: "هاها! رجعت حليمة إلى عادتها القديمة! حرية العقل، استهتار! هنا تتخبط السمكة من جديد وهي معلقة بالخيط الطويل ظانة أنها تقفز في الهواء! ولكن سرعان ما تحاول التقاط أنفاسها اللاهثة! كم يحلو للمرء أن يقول إن الناس لن يحسوا بالشيطان أبداً لو لم يكن للسيد الله شأن في ذلك، عسى أن يغفر الله لي ذنبي!".

وإذ أزعجني أنني وقعت الآن من جديد في شرك صياد الذباب المهرج، انسحبت من جلسة الحوار ومشيت بصمت إلى إحدى النوافذ حيث رأيت نجوم

الدب الأكبر وهي تسير في دربها الهادئ. وفجأة صرخت دوروتيا، التي كانت في أثناء ذلك تناولت الكتاب بيدها:

"يا إلهي، هنا توجد أظرف أغنية ربيعية صغيرة رأيتها في حياتي! اسمعوا:

تفتَّح، أيها المسيحي المتجمد!

شهر أيار أمام الباب،

ستبقى ميتاً إلى الأبد،

إن لم تتفتح الآن وهنا!"

وأسرعت إلى البيانو فعزفت وغنت هذه الكلمات بفصل تراتيلي على الطراز القديم له نغمة تستهوي السامع بحنو، ولكن على الرغم من الطراز الكنسي غنت دوروتيا بصوت يحمل تعبيراً دنيوياً مرتجفاً من جراء العشق.

* * *

الفصل الثالث عشر

الصورة الحديدية

على الرغم من أن عيد الميلاد لم يحل بعد، إلا أن الربيع بدا خلافاً لتدابير الطبيعة كأنه يريد أن يأتي فعلاً، وبينما كانت كلمات أغنية الربيع وألحانها التي أدتها دوروتيا لا تزال تدوي في أذني، كنت أسمع طوال الليل هبوب ريح الجنوب وتنقيط الثلج الرقيق الذائب من الأسطحة، وفي الصباح انتشرت أشعة شمس دافئة إلى حد غير طبيعي على امتداد الحقول الجافة، في حين كانت الجداول تهدر وتخر في جريانها بمنسوب مياه أعلى من المعتاد، غير أن الحقول وضفاف الجداول كانت تفتقر إلى الزهور والأقحوان وزهر الثلج. ومع ذلك كانت كلمات تلك الأغنية لا تزال ترن في أذني باستمرار: شهر أيار أمام الباب، ستبقى ميتاً إلى الأبد، إن لم تتفتح الآن وهنا!

كنت حتى يوم أمس ظننت أنني بعشقي المكتوم أسمو فوق كل ما سبق أن فكرت فيه وشعرت به حول الحب، والآن كان لا بد وأن يتناهى إلى علمي أنني لم أفقه شيئاً عن التغيير الذي حصل في هذه الليلة الربيعية الكذوب.

ما يميز النوع في الإنسان استيقظ حينئذ في نفسي بكل قوة ماهيته؛ وتضاعف الشعور بجمال الحياة وزوالها؛ وفي الوقت ذاته بدا لي أن كل سلامة العالم تقف على هاتين العينين الجميلتين؛ وإن كنت أحبها وأحترمها امتناناً لمجرد وجودها، فقد أبيت أن أثقل عليها بشخصي حتى لو في التفكير فقط بدافع مجرد الخضوع والخوف، مع أن الخضوع والخوف كانا مرة

أخرى كذبة حين تناوبا عشرين مرة مع آمال غير محددة وتصورات عن السعادة والسرور بدلاً من أن يؤديا إلى اتخاذ قرار بهروب حكيم.

والآن ولى الهدوء والعمل إلى غير رجعة؛ إذ كلما أردت أن أتناول بيدي شيئاً سرحت عيناي في آفاق بعيدة وكل الأفكار اقتفت هاربة أثر صورة الحبيبة، التي كانت تحوم حولي في كل مكان دون أن تنزاح عني لحظة واحدة، في حين أنها في الوقت ذاته استقرت في قلبي ثقيلة كما لو أنها مصبوبة من حديد، جميلة، لكن قاسية وعسيرة إلى حد لا رحمة فيه ولا هوادة. من هذا الضغط الحديدي، الذي بدا لي غاية في الجدة والعنف، لم أتحرر إلا في حضور دوروتيا؛ وحينما كنت أوشك على ألاَّ أراها أو أسمعها بعد، كان الضغط يعود من جديد ويقض مضاجعي وكان يحق لي أن أعده وبالاً علي جسدياً ونفسياً في آن واحد. على أن حدة الوضع لم تخف بأي حال من الأحوال عن طريق الوعي المخجل بحقيقة أنه كان لي في بيتر كيلكوس المطرود تواً رفيقاً مضحكاً؛ كذلك فإنني لا أعول كثيراً على الرأي القائل بأن الآلام الجسدية والروحية تخف إذا ما تقاسمها المرء مع آخرين. وإذا كان كيلكوس مختلفاً عني في نوعيته، فقد تشابهنا في أننا أتينا إلى دار الكونت بوصفنا لاجئين تعيسين وانتهينا إلى الولع بالبنت.

استمر الربيع الذي أتى قبل موعده عدة أسابيع؛ وفي الغابات أزهرت نباتات فصيلة الغار، لذلك تمكنت عشية عيد الميلاد، إذ لم يكن عندي عمل آخر، من وضع ملء اليد من وريدة الحجر ذات الأغصان الحمراء الفواحة على الطاولة المخصصة لوضع هدايا العيد. بالمناسبة لم تقدم هدايا إلا للموظفين والخدم ومن دون أي مراسم احتفالية؛ لأن الكونت قال إنه لا يجوز أن نتقاسم مع الكنسيين اللهو والمسرة فقط، بل لا نتقاسم المنغصات والعبادات كذلك. وحين أُفرغ سطح الطاولة مما احتواه وانسحب الناس، ظلت زهوري ملقاة هناك. فأمسكت بها دوروتيا وقالت: " لمن هذه الطاقة الجميلة من الغار؟ من المؤكد أنها لي أنا، لأنها هي ذاتها توحي إلي بذلك!".

قلت: " في حال أنك لا تشكين كثيراً في صلاحية هذا الفصل من السنة لإنتاج الزهور، فعسى أن يرق قلبك لهذه الرسل المبكرة!".

فقالت: " لا، علينا أن نقبل الخير كما يأتي إلينا. شكراً لك على هذه الزهور؛ ودعنا نضع الأغصان فوراً في الماء، لكي تنشر رائحتها العطرة في كل أرجاء البيت!".

كانت دوروتيا، لا في أثناء ذلك المساء فقط، بل طول فترة العيد خلية البال وفي ألطف مزاج ولا سيما في أول يوم من العام الجديد إذ حضرت لأول مرة منذ قدومي إلى ذلك البيت جماعة كبيرة من الناس إلى مأدبة الكونت. لم يأتِ إليها مساعد القس فحسب بل القس ذاته كذلك، والطبيب، وموظف حكومي كبير وبعض النبلاء من رفاق الكونت في فترة شبابه الذين ظلوا متعاطفين معه على الرغم من آرائه الممجوجة، وأُحضرت بالعربات بضع نساء مسنات حاذقات فنشرن في الحال في أجواء الأحاديث النبرة الجيدة الحرة أو الحرة الجيدة، التي غالباً ما كانت في أزمنة معينة حكراً على النساء الطاعنات في العمر اللواتي عشن أياماً مختلفة ولم يعد على المستوى الشخصي ثمة شيء يخشينه أو يعلقن آمالاً عليه. لم يُقل أي شيء غير مسموح بسماعه ولم يُسكت عن شيء كان من شأنه أن يشيع مرحاً وحبوراً. والجميع وجدوا فرصة سانحة للتحدث في ما بينهم وما من أحد أقدم على إساءة استخدام فرصته لأن القول الأكثر سداداً، الذي بدا لهذا السبب أكثر جدة، سبق أن قيل إذا ما كان أراد أحد أن ينجز هذه المهمة. حتى مساعد القس مارس فنونه باعتدال مؤدب؛ أما القس نفسه، وهو كاثوليكي شديد الإيمان ولكنه بعيد عن الخبث وسوء الخلق، وقد أحاط شخصه المريح بهالة من يُطاق في كل الأحوال بحيث لم يجرؤ أحد على تخطي الحدود معه ولم يحاول أحد حتى أن يتقرب منه بصورة واضحة وملحوظة.

بصرف النظر عن هذا الحضور المرح انتهزت الفرصة لكي أنسحب مؤقتاً لأنني لم أرغب من جراء بقائي في أن ألفت انتباه أحد ولا أن أزعج أحداً.

في تلك اللحظة غدوت أكثر هدوءاً وذهبت إلى كنيسة البيت الصغيرة القديمة واشتغلت هناك بعض الشيء بلوحاتي التي غدت في أثناء ذلك نصف جافة.

وما إن كنت هناك وخيم علي الهدوء، حتى فكرت في أمي التي كانت تقبع في بلدنا البعيد ولا تعرف أين أنا في حين كانت أحوالي هنا على ما يرام. كان بإمكاني منذ زمن طويل أن أزودها بأخبار عني وكان ينبغي علي ذلك أيضاً لأن أوضاعي كانت تغيرت بشكل مواسٍ؛ وبما أنني مع ذلك كنت أؤجل باستمرار هذا الأمر فقد رجع هذا إلى دوافع متداخلة في ما بينها ودونما وضوح. أولاً رأيت بالطبع أن أموري لم تعد على تلك الدرجة السابقة من الأهمية ولم يعد من الأهمية بمكان التباحث بشأنها منذ أن تخلصت من العوز والفاقة؛ ثم فكرت بعد ذلك مرة أخرى بالتعويض عن كل شيء من خلال السرور بوصول غير متوقع بحيث لم تعد المسافة الزمنية القصيرة المتبقية واردة في الحسبان مقارنة بالسنين الطويلة الماضية؛ وأخيراً تهيبت من غير قصد أن أبوح وأنا على هذا الوضع الحالي الذي يعتلج في أعماقي بأي كلمة مما يدور في نفسي خصوصاً أن الأنانية الخفية لم تشأ على الرغم من كل مسيرات التفكير والنوايا المعاكسة أن تعترف بأن كل قرار حاسم هو غير وارد. وحين تأملت بشيء من الهدوء هذه البلبلة عقدت العزم على أن أستغل الساعة الهادئة وأكتب إلى أمي أين أنا وكيف حالي وأنني سأعود عما قريب إلى بلدي. ولهذا الغرض ذهبت إلى بيت الحديقة حيث كنت ألقيت هناك بعض الدفاتر وأدوات الكتابة. وفي طريقي إلى هناك لاحظت أن الجماعة كانت تتنزه في الحديقة الراقدة في ما يشبه ضوء الربيع؛ فكان هذا الحدث يصلح، بصفته صورة غريبة لبدء عام جديد ولإقامتي، لأن يكون مقدمة للرسالة التي سأبعث بها إلى أمي. ولكنني ما كدت أصل إلى غرفتي أو بالأحرى إلى صالة نومي الصغيرة حتى قُرع الباب وظهرت البستانية روزُشن في لباس يوم الأحد بالزي المحلي وبالتفصيلة التي هي غاية في الزينة والأبهة؛ السترة الصوفية المزينة بالفرو اكتفت بسبب الهواء الدافئ بحملها على ذراعها بحيث

جسد لباس الصدر من الحرير الأخضر المزين بالمشابك والأزرار الصغيرة الفضية نمو تلك الفتاة الجميلة بأنعم تجسيد. وكان من شأن قلنسوة صغيرة من المخمل الأسود وأشغال الدانتيل أن كست مخرج جدائل الشعر الذهبية الكثيفة، التي جُرت الواحدة منها كأنها مغترة بنفسها عبر الكتف إلى الأمام واستقلت على الذراع مع السترة.

كانت رُوزشن أُرسلت إلي من قبل الآنسة بطلب أن آتي إليها فوراً بصحبة المبعوثة لكي أدل الفتاتين على المكان الذي وجدت فيه الوريدات البرية المزهرة. كانت الفتاة تبتسم بظرف وخبث لدى أداء مهمتها وعلى وعي تام بطلعتها الوسيمة: إطلالتها الجميلة تثبتت أيضاً في عيني، ولكنني تلقيتها فقط لمصلحة سيدتها وعددتها جزءاً من جمال هذه السيدة. دون أن أتباطأ أو أتردد تركت كل شيء مما كنت أنوي أن أنجزه ملقىً في مكانه وأسرعت برفقة الفتاة عبر الأشجار والجماعة المحتفية إلى المقبرة حيث كانت دوروتيا بانتظارنا.

فقالت موجهة كلامها إلي: "أين كنت تختبئ؟ نريد أن نبحث عن المزيد من الورود البرية المزهرة؛ إذ لا نستطيع إيجادها في كل أيام بدء العام الجديد. إضافة إلى ذلك نحن الشباب الوحيدون هنا ويجوز لنا أن نُسر بحياتنا قليلاً على طريقتنا أيضاً!".

ثم أمسكت بذراعي وذهبنا ترافقنا رُوزشن إلى غابة الزان فوصلنا إليها قي نحو ثماني دقائق أو عشر. كانت أرض الغابة جافة كما في الصيف وما إن وطئتها أقدامنا حتى بدأت دوروتيا تغني أغنية شعبية حقيقية وباللحن الذي يغني الشعب على أساسه، بإخلاص وتزيينات صغيرة اعتاد الناس إلحاقها بالأغنية. وسرعان ما لحقت بها رُوزشن بالصوت الثاني، الذي كان عميقاً نوعاً ما وخشناً بحيث ترنم كما لو أن فتاتين ريفيتين تتمتعان بصحة جيدة كانتا تتنزهان عبر الغابة في يوم أحد. بالطبع تعلق الأمر بقصص حب حزينة ترنمتا بها واحدة بعد أخرى وغنتاها بتعمق وإصغاء دون أن تترك دورتشن ذراعي إلى أن أشار لنا لمعان ضارب إلى الحمرة أننا اقتربنا من بعض

شجيرات النباتات التي كنا نبحث عنها؛ لأن الشمس المائلة إلى الغروب مرت بأشعتها عبر جذوع أشجار الزان فأصابت أغصان الوريدات البرية المزهرة كما سمتها دورتشن بحسب علم النبات ولم أكن ملماً بمعرفة تلك التسمية. هللت دوروتيا بفرح عارم لدى رؤيتها الشجيرات المنشودة، وسرعان ما هرعت الفتاتان إلى قطف أجمل الأغصان الفواحة بعطر مخدر، في حين جلست أنا على جذع شجرة مقطوعة ملقاة على الأرض وصرت أراقب الفتاتين متتبعاً بعيني بكل إعجاب كل حركة صدرت عنهما.

حين جنتا محصولهما تابعت رُوزشن البحث عن المزيد من الشجيرات فضاعت الفتاة تدريجياً بين أشجار الغابة، لكن دوروتيا أتت إلي وجلست بجانبي ثم وضعت طاقة الأزهار تحت أنفي.

وقالت: "أليس المكان الذي هنا جميلاً، أوَلست أنت مسروراً من أننا أخرجناك من وكرك الذي كنت مختبئاً به وأتينا بك إلى هنا؟".

أجبت: "أردت أن أكتب رسالة إلى أمي".

"ألم تُرسل إليها من قبل بمناسبة هذا اليوم رسالة تهنئة بالعام الجديد؟".

"لم أكتب إليها بعد منذ وجودي هنا؛ وهي لا تعرف بتاتاً أين أعيش!".

"ألا تعرف ذلك حقاً؟ كيف يمكنك أن تفعل بها شيئاً من هذا القبيل؟".

فنظرت جانباً وأزلت بأصابعي حديقة صغيرة من الطحالب كانت مستقرة على قشرة الجذع ذات اللون الفضي القاتم، وقلت بعد ذلك إنني لم أكن أنوي البقاء هنا هذه الفترة الطويلة وفكرت أخيراً بأن أفاجئ أمي فتزداد سروراً حين آتي إليها أخيراً بنفسي.

قالت دورتيا بصوت عال: " لابد من أن أقول إنه يجب عليك أن تكتب إليها غداً، لم أعد أطيق ذلك منك! إن من له أماً كهذه، عليه أن يشكر خالقه! هل تعلم بأن كتابك شبيه بحوض من نباتات محنطة؟ فحيث سرني في أي صفحة منه أمر ما أو حيث أحببت أن أوبخك وأناقشك الحساب، كنت أضع فيه ورقة خضراء أو عشباً، وهو الآن محبوس في خزانتي. وفي كل مرة

كنت أقرأ فيها عن أمك كنت أقول لنفسي ليتكِ تستطيعين إيجاد مأوى وحماية لدى أم كهذه، ولكنكِ لم تعرفي مثلها! لا بد من أن يكتب إليها غداً! يجب أن تكتب في غرفتي ولن أبرح مكاني بجانبك إلا بعد أن تختتم الرسالة وتغلقها وإذا ما أطعتني فسوف أضمن الرسالة أنا ذاتي تحية لأمك!.

قلت: "لن يكون ذلك ممكناً!".

"لمَ لا؟ أيها المسيحي المتجمد! لمَ لا؟ ألا يجوز لي أن أرسل تحية إلى أمك؟ أوَلا تريد حقاً أن تكتب إليها؟".

بدلاً من أن أجيب تابعت عملي بجد ونشاط في اقتلاع بقعة الطحالب؛ لأن صورة دورتشن الحديدية استدارت في قلبي لأول مرة في حين كنت أجلس بجانب الصورة الأصل، وكان الوضع كما لو أن القلب ضغط بقوة على جدران مسكنه المظلم من جراء ضغط مخيف بفعل الأيدي الحديدية الثقيلة. في أثناء ذلك أمسكت دوروتيا بيدي وكررت قولها بصوت منخفض:

"لماذا لا تريد أن تكتب؟ أم ينبغي علي أن أكتب بدلاً منك كما لو أنك تكلفني بذلك؟ لا، هذا أيضاً غير وارد! إذا كان الأمر كذلك فدعني أملِ عليك ما أفكر فيه ويدخل السرور إلى قلب أمك، وما عليك إلا أن تنقل ما أمليه عليك، هيا بنا!".

لكن قبل أن أتمكن من الإجابة، أتت رُوزشن واثبة وهي تحمل مئزراً مليئاً بأزهار آذار التي كانت وجدتها في الغابة؛ كان الوقت قد حان للعودة إلى القصر. لم تتابع دورتشن الحديث الذي كان يدور بيننا. وفي طريق عودتنا لم تمسك بذراعي من جديد، لكنها اقتربت مني في أثناء مشيها إلى درجة الالتصاق بي. وفجأة قالت:

"يا رُوزشن، أعيريني سترتك إذا كنت لا تحتاجين إليها! بدأت أشعر بالبرد!".

فأعطتها رُوزشن تلك القطعة من الملابس؛ ولكن صادف أنها كانت، نظراً إلى نمو دوروتيا وعلو قامتها، قصيرة وضيقة بحيث لم تستطع ارتداءها.

قلت بلهجة انعدام الحيلة والتدبير: "ألا تريدين استخدام معطفي؟" فأجابت: "كلا، لا أريد أن أحل محلك وأتبادل الثياب معك، أيها السمكة الباردة!".

إثر عودتها إلى القصر كان عليها أن تشرف على تقديم الشاي، الذي كان الضيوف لا يزالون يتناولونه، وأن تشارك فيما بعد في وداع المدعوين واحداً واحداً. وحين كان علي أن أجلس مع الكونت ومساعد القس لاحتساء كاس من النبيذ الساخن أتت دوروتيا لكي تتمنى لنا ليلة سعيدة. وألقت ذراعها حول كتفي والدها ثم قالت بشيء من الدعابة المبكية: "إن ابنة بالتبني مثلي تعيش حياة تعيسة! إذ لا يُسمح لها أن تعطي أباها قبلة حين تذهب إلى النوم!".

فقال الكونت ضاحكاً: " ماذا يخطر ببالك يا صغيرتي المجنونة؟ هذا أمر غير جائز طبعاً وسوف يكون غير لائق!".

هنا استدار الحديد في قلبي مرة أخرى وأقلقني بكل بؤس وشقاء طول الليل، وإضافة إلى ذلك بدأ الخناق يضيق علي ولم أستطع تنفس الصعداء إلا بتفجير سيل من الدموع ونحيب يستدر الشفقة لأول مرة في حياتي بسبب الحب، وكان من شأن استيائي من هذا الضعف أن زاد من الوبال كما زاد منه أيضاً الاكتشاف الذي لا تحمد عقباه والمتمثل في فقدان الحرية الشخصية وكل تقرير معقول للمصير عبر الولع الحقيقي الجارف الذي شكل عندي أساس المسألة برمتها، مما جعلني بائساً وتعيساً.

وحين حل النهار أخيراً ولى الربيع المزيف وهطل مطر يخالطه ثلج. لم تقل دورتشن حين ظهرتُ في القصر أي شيء عن كتابة رسالة إلى أمي وأنا ذاتي لم يكن في مقدوري آنذاك أن أبادر إلى ذلك، وكان ثمة ظاهرة جديدة متكررة هي أنني فقدت كل شهية للطعام إلى حد الاشمئزاز منه ولم أكن أتوقع قط أنني قد أشعر بشيء كهذا في يوم الأيام من جراء أسباب من هذا النوع. وقد كلفني إخفاء ذلك لئلا يظهر علي ويلفت الانتباه ولأنه يجلب معه مظهراً غارقاً في الكآبة، أكبر الجهد، وذلك كله في عمر لم أعد فيه أيضاً تحت سن تثبيت التعميد، وأسفت أيضاً لأنني لم أملك هذا الولع الجميل والموفر للخبز في

فترة معاناتي الجوع، إذ كان بوسعه آنذاك أن يقدم لي أفضل الخدمات. وإذ لم أسمح أن أخبر دوروتيا عن هذا التأمل الاقتصادي الواقعي بقصد وضعها مرة أخرى في جو من الدعابة والضحك، فقد أوشك ذلك أن يفتت قلبي.

بالمقابل بدت دورنتشن ناعمة بمزاج جيد ومتحسن يوماً بعد يوم من دون أن توليني اهتماماً كبيراً. كانت ترقِّص قطعاً من النقود على الطاولة على شكل دوارات وتُحضر أطفالاً لكي تضع على رؤوسهم قلنسوات من الورق، وتأمر بأن يؤتى بكلاب إلى ساحة القصر لتدريبها على جلب الطرائد المصطادة، وما إلى ذلك من ألعاب مرحة ومسلية وبريئة؛ وكل ذلك بدا لي أمراً غريباً إلى حد يتعذر سبر غورها وجذاباً أيضاً ولشد ما استهواني. كل الشيطنات الصغيرة كانت تنم يومياً بوضوح متزايد عن طبيعة متميزة بظرف أصيل وقابلية عفوية للحركة، وتدل بتحولات خفيفة كالريشة على أن الفتاة تزخر بالنزوات الكامنة تحت خصلات شعرها. حين تكسبنا طيبة القلب الصافية والمكشوفة، التي يطلق الناس عليها اسم عذوبة المرأة وخلابتها فإن خبث الأطفال المبهج، الكامن في القلب، يسلبنا تماماً الهدوء والعقل حين نكتشف بسذاجتنا أن الحبيبة ليست جميلة وطيبة فحسب بل هي أيضاً ذكية ديناميكية؛ وهكذا تكشف لي أنا أيضاً إدراك جديد واعتراني ذعر شديد من أن أفقد بالتأكيد هدوئي إلى الأبد ما دمت لا أستطيع البتة أن أعدّ هذه الحياة النسائية اللاهية تحديداً هي حياتي أنا أيضاً. فإذا لم يقتصر الحب على كونه جميلاً وعميقاً فحسب بل هو في حقيقة الأمر أيضاً لاهٍ تماماً، فهو يجدد لمصلحته في كل لحظة الجزء القليل من الحياة ويضاعف قيمته؛ وليس أحزن من أن نرى حياة كهذه أمراً ممكناً دون أن نكسبها؛ لا بل الناس الأكثر حزناً هم أولئك الذين يظنون أنهم يمتلكون الأداة اللازمة لأن يكونوا مرحين ومغتبطين تماماً ومع ذلك لابد لهم من أن يحزنوا بسبب افتقارهم إلى مخالطة جيدة. هكذا كنت أفكر وأحس في تلك الفترة لأنني لم أكن أعرف أن ثمة أشياء أهم وأكثر ديمومة في العالم من ذلك اللهو الشبابي.

وبما أن تلك المخلوقة الجميلة كانت تظهر لي مع كل يوم مختلفة وعصية على الفهم أكثر، مع أنها كانت دائماً هي ذاتها، فقد فقدت في آخر المطاف كل تحرر من التكلف في تعاملي معها، ولكي أحاول الشفاء من مرضي انسحبت إلى العزلة والوحشة كناسك زاهد في الدنيا؛ وبذريعة مشاهدة المنطقة والبلاد والناس بدأت لدى كل طقس، جيداً كان أو سيئاً، بقضاء يومي في العراء. وفي معظم الأحيان كنت أمكث فوق مرتفعات الغابات تحت الموجود من أشجار التنوب أو في أكواخ مهجورة خاصة بالفحامين من غير اختلاط بالناس، الأمر الذي كان في مصلحتي لأنني بدأت، إذ كنت منشغلاً دائماً بذلك الموضوع فقط وناسياً بذلك السيطرة على نفسي، أفكر وأتكلم بصوت عال ولا سيما لدى الشكوى من الضغط الشائن الذي كنت ابتليت به كمرض غريب وحاولت مئة مرة أن أزيله بيدي.

قلت لنفسي في أحد الأيام بصوت عال هكذا على غير هدى، حين قرفصت وحيداً تحت بعض الأشجار ونظرت في الأفق إلى تلك البلاد المترامية الأطراف: "هل هذه الشيطنة هي إذاً الحب الفعلي؟ هل أكلت فقط قطعة خبز واحدة أقل حين كانت آنّا مريضة؟ لا! هل بكيت دمعة واحدة حين ماتت؟ لا! ومع ذلك أظهرت مشاعري بطريقة جميلة ومشاركة! وأقسمت أن أبقى وفياً للمتوفاة مدى الحياة؛ ولكن لا يمكنني أن أفعل ذلك إزاء هذه التي لا تزال على قيد الحياة لأنه أمر بدهي ويتعذر علي أن أفكر في شيء آخر مخالف! إذا ما ألم بهذه مرض عضال أو حتى إذا ما ماتت، هل سيكون بمقدوري بعدئذ أن أراقب الحدث بدقة وعناية حتى أن أصفه؟ أوه لا، أشعر بأن ذلك قد يقصم ظهري وينشر الظلمة في العالم! وكم كنت مع ذلك إنساناً عملياً حين مارست حباً عذرياً أفلاطونياً طاهراً إلى هذا الحد وطبقاً للطريقة المألوفة المعتادة بانتظام وكنت شاباً أخضر بمعنى الكلمة! كم قبّلت دون خجل فيما سبق من زمن الصغيرة والكبيرة في وقت الفطور وفي وقت العشاء! والآن حيث صرت أكبر سناً ببضعة أعوام ورأيت شيئاً من العالم يعتريني

الخوف من مجرد التفكير في تقبيل هذه المرأة الجميلة والطيبة ذات مرة وفي وقت ما!".

ثم حملقت من جديد في العراء البعيد؛ لكن لم تمضِ بضع دقائق راقبت في أثنائها بفضول سحابة أو شيئاً في الأفق أو غصناً متأرجحاً تحت قدميَّ إلا عادت الأفكار من جديد إلى عبئها القديم؛ لأن الصورة الحديدية لم تسمح لها بالتنزه لمدة أطول في مكان آخر. وحين نزلت في مساء أحد الأيام على درب صخرية مائلة تعثرت في خضم تشتتي الكئيب وصرت أترنح كغائب عن الوعي فوق الصخور بحيث لم أعرف كيف وصلت إلى أسفل المكان وكيف أصبت بجرح لا يستهان به وكان يغمرني الاستياء والخجل. وذات مرة أخرى جلست في الحقل على محراث مهجور كان واقفاً في خط الحراثة المتكسر وعلى وجهي علائم الكآبة والغباء؛ لأن صبياً متشرداً في الحقول، كان يبتسم بسرور وبلاهة وشماتة ويعلق بظهره جرة فخارية صغيرة وفيها مياه معدنية، أتى إلي مترنحاً ووقف أمامي بهدوء ثم حملق فيّ وبدأ أخيراً يضحك بطريقة متوحشة جامحة في حين كان يمرر كمه بحركة مريبة على فمه وأنفه. مجرد رؤية الجرة الصغيرة المسكينة أوجعت عينيَّ لأنها كانت تتدلى وتترجح ذات اليمين وذات الشمال بطريقة مفرحة بهدوء ووقحة من على كتف هذا الصبي، الذي ربما كان يحمل فيها جرعات الشرب اللازمة لعشائه. كيف يمكن أن يحمل امرؤ جرة صغيرة كهذه وكأنه ليس في هذا العالم أي سيدة معطاء، أي دورنتشن؟

وبما أن الصبي الفظ لم يُقلع عن الوقوف أمامي والضحك في وجهي، فقد نهضت واقفاً وتوجهت إليه متباكياً متألماً ثم صفعته خلف أذنه بقوة إلى حدّ أن الولد المسكين صار يترنح إلى هذا الجانب وإلى ذاك؛ وقبل أن يتمكن من استرداد قواه وتهدئة روعه أفرغت كل الألم على الظهر الغريب وهشمت أيضاً جرته فجُرحت يدي من جراء ذلك وسال منها الدم إلى أن ولى هارباً ذلك الصبي المتشرد الذي كان ظن أن الشيطان يطارده، وحين ابتعد عني

مسافة ما بدأ يقذف الأحجار باتجاهي. وبعد هذه البطولة إنسانية النزعة غادرت ببطء وتثاقل ذلك المكان وأنا أهز رأسي وأطلق التنهيدات على هذا القدر الكبير من البؤس المنتشر في أرجاء هذا العالم!

وإذ أضناني عرض كهذا، فإنني لم أفكر في أن أنهك نفسي بشيء من هذا القبيل بل بحثت عن الطريق لكي أحرر نفسي من تكدس الأخطاء، فقست وقارنت مختلف الأوضاع لكي أستطيع إثبات أنني لست الإنسان الذي يستطيع أن يوقظ ميلاً كذاك الذي يعتلج في صدر دورتشن.

إن ما يناسب واحداً من الناس، لا قيمة له عند آخر، وكما أنت معي أنا معك، هذان هما مثلان ذهبيان في مجال صراعات الحب أيضاً، على الأقل عند أناس متفهمين على وجه العموم؛ وأفضل استشفاء لقلب مريض هو التيقن القاطع من أن المعاناة لا تتقسم بين الناس. الحالات المعاندة والأنانية فقط هي التي تتعرض لخطر أن تنحل إذا لم يكن الحب متبادلاً مع أولئك الذين يثيرون الإعجاب. ولكن ما يُحتمل أن يكون ولم يُكتب له الحدوث من شأنه أن يحول دون السعادة وحسن الحظ وفي هذه الحال لا فائدة من التأسي بأن العالم واسع وخلف الجبال لا يزال ثمة أناس يقيمون؛ إن الحاضر فقط، الذي نعرفه، هو مقدس ومواسٍ.

بعد أن اقتنعت بأن دورتشن لا تفكر فيّ، هدأت قليلاً وبدأت أدرس موضوع أن عليّ إذا كنت أريد امتناناً مني لتعطفها أن أبوح لها بالأمر أو لا. في ما تعلق بالحال الأولى فكرت حين أجد فرصة مناسبة أن أعترف لها ضاحكاً وبكل تهذيب ولباقة وقبل رحيلي إلى بلدي بما سببت لي من اضطراب، وأرجوها أيضاً ألاَّ تعير الأمر أي اهتمام لأنني صرفت النظر عنه وعادت المياه عندي إلى مجاريها وأتمتع الآن بكل العافية والنشاط. ولكن في الجانب الآخر ظهر قلق من أن يُفهم اعتراف من هذا النوع على أنه إعلان خبيث عن حبي لها فأعرض نفسي بذلك للشبهة وأُعد للحبيبة يوماً مقيتاً. أوقعني هذا الحوار الداخلي من جديد في حال من التفكير المضطرب والكئيب

في ما إذا كان ينبغي علي أن أفعل ذلك أو لا، إلى أن بدا لي أخيراً أمراً ممكناً أن أجود عليها عبر ثقة غير معوقة وعبر عرض صريح للعاصفة التي هبت علي وبشيء من المزاج المعدّل والدعابة بحكاية صغيرة مسلية تستحقها هي وتعيد إلي أنا الارتياح المفقود، وعقدت العزم بحق على أن أفعل ذلك فوراً. كان اليوم يوم سبت وكان الطقس يبشر بتحسن في اليوم التالي أيضاً. لذلك قررت أن أستغل صباح يوم الأحد ببريقه الهادئ في إجراء الحديث الجسور، كذلك قررت أيضاً ألاَّ أظهر بعد على الملأ لئلا تعمل انطباعات جديدة على تضليلي وثنيي عما نويت.

كان الصباح غاية في الجمال أيضاً؛ فقد ضحك ربيع مبكر بسمائه الخالية من الغيوم عبر كل النوافذ، وكنت أنا على الرغم من بعض الوجل الحلو على أحسن ما يرام لأنني رأيتني أقترب بسرعة من حريتي وخلاصي من الانقباض المشين؛ وتسرب إلي الوهم بأنني لا أريد تحقيق أي غاية أخرى. ومع ذلك فقد قام الانفعال الحلو برمته، الذي تزينت به بما يليق بعيد وصرت أفكر باستمرار بدعابات جديدة لكي أدخلها في نسيج الحديث الوشيك، قام على أساس خداع الذات الذي حجبت به إحياء رغبتي في التحدث فقط راضياً أو كارهاً مع دوروتيا عن الحب.

ولكن صادف أنها كانت سافرت في يوم السبت إلى مكان بعيد لزيارة صديقة لها وسوف تذهب من هناك إلى العاصمة وتغيب بوجه عام عدة أسابيع، بذلك قضي علىً كل أملي وغدت السماء الزرقاء سوداء في عينيَّ. أول ما قمت به هو أنني مشيت عشرين مرة ذهاباً وإياباً على الدرب الممتد من بيت الحديقة إلى المقبرة وكنت أميل بكل ثقلي إلى جانب الدرب الذي اعتادت دورتشن أن تمسح به حواشي أثوابها، ولكن لم أجنِ من هذه المواقع سوى أن الشعور بالبؤس القديم عاد إلي مرة أخرى بزخم أقوى مما كان وأن العقل كأنه طار مني، وعاد الهم أيضاً إلى القلب وأخذ يضغط عليه ويثقله بشدة ودأب.

كان الكونت في أثناء ذلك مارس طول الوقت هوايته الجارفة الوحيدة في مجال الصيد ولذلك لم يظل في البيت إلا قليلاً، والآن بدا أنه تعب قليلاً وبدأ من جديد يجيء إلي. كان يجدني في كنيسة القصر الصغيرة ما دام لم يعد ثمة ما يدفعني لأن أهيم على وجهي في الغابات وما دمت كنت أجد هناك أكثر مما في أي مكان آخر ضالتي المنشودة.

قال لي الكونت وهو يربت على كتفي: " ما وضع اللوحتين الآن، يا معلم هاينريش؟ هل هما في تقدم مستمر على طريق الإنجاز النهائي؟".

أجبت بصوت منخفض ومكتئب: "ليس كما يجب!".

"لسنا في عجلة من أمرنا، وأنت لا تزال موضع ترحيب عندنا وإلى فترة طويلة! مع ذلك أرى في وجهك رغبة في التحرر عما قريب وبطريقة مؤدبة من التزامك".

قلت في نفسي: " أنت تصيب الموضوع بصورة أفضل مما تعرف!". وأقدمت فجأة بعزيمة ملؤها التذمر والاستياء على العمل بحيث انتهيت من رسم اللوحتين قبل مضي ثلاثة أسابيع. وبينما كانتا تجفان في الهواء طلبت من عند النجار الصندوقين، اللذين ينبغي أن ترسلا فيهما إلى العاصمة. بعد ذلك قمت ببعض الجولات والتحركات لئلا أبقى عاطلاً من العمل وأفتقر إلى الحركة، وحين عدت في إحدى الأمسيات إلى البيت متأخراً رأيت من الحديقة غرفة دوروتيا مضاءة. الآن هجر النوم، الذي كنت نعمت به من جديد في أثناء أيام العمل الأخيرة المجدة، أجفاني مرة أخرى على الرغم من أنني لم أعرف بعد إن كانت عادت فعلاً من سفرتها.

في صباح اليوم التالي ظهرت رُوزشن ودعتني إلى الفطور الذي سيُتناول جماعياً على شرف وصولها، وحين أتيت إلى القصر ترنم صوتها عبر البيت؛ كانت تعزف وتغني كعندليب في صباح عيد العنصرة وكل شيء كان يعج بالحياة والفرح؛ أما أنا فقط فكنت حزيناً وقليل الكلام لأن الفراق بات الآن وشيكاً.

ولكن بدا عليها أنها لم تلاحظ شيئاً من هذا القبيل، لا بل مارست أنواعاً كثيرة من العبث والمجون، الذي كان يوقعني المرة تلو الأخرى في انفعال واضطراب؛ وفي أثناء ذلك كانت تتوجه بالحديث إلى آخرين وتستخدم على أفضل وجه رُوزشن الخدوم بصفتها عرابة أفانينها ونصيرتها، وحين كانت هذه تطلق من حين لآخر ضحكة صغيرة مجلجلة وموحية بـــأن لها علاقة بحال مزاجي المكدّر، لحقت بالفتاة وأمسكت بها من ذراعها ثم ثبتت رأسها بيدي الأخرى.

وصرخت: "على من يضحك هنا وماذا تريدين أيتها الأقحوانة؟". فتقلبت الطفلة المزدهرة وتخبطت وتأبت ولكنها استمرت في الضحك. وفجأة هدأت وهمست في أذني:

"دعنا نضحك! فالآنسة الفاضلة مبتهجة ومسرورة بعودتها إلى هنا! هل تعلم لماذا؟".

حين تركت المخلوقة الخبيثة وشأنها في حال من الحيرة والخجل وضعت يدها على كتفي وتابعت همسها في أذني:

"كانت حزينة طول الوقت لأنها عاشقة مغرمة! هل تعلم بمن؟".

شعرت بأن قلبي يوشك أن يتوقف عن الخفقان وقلت بصوت مختنق: "بمن هي مغرمة؟".

فهمست الآن بصوت لا يكاد يُسمع: "كابتن من سلاح الخيالة! بلباس أزرق سماوي ومعطف أبيض بياض الثلج ودرع فولاذي وخوذة فضية عالية عليها عرف انسيابي وكل هذه الأشياء جميلة جمال رجل متغطرس، أي هيكتور، على حد قولها، مع أننا نطلق هذا الاسم هيكتور على كلبنا الأسود!".

بذلك ولت الأدبار واثبة ولحقت بسيدتها، التي كانت زاغت قبلها وغادرت المكان. لاحظت بالطبع أن الأمر لا يتعدى كونه مزاحاً؛ فمجرد الوصف المتعلق بضابط جميل في سلاح الخيالة لم يرق لي ولم أستطع ربطه في سياق كهذا.

من حسن الحظ وصل الصندوقان المخصصان للوحتين وحُزمتا على الفور، وأنا نفسي سمّرت غطائيهما بالمطرقة بحيث تردد صدى الطرقات الغاضبة في كل أرجاء الكنيسة الصغيرة التابعة لقصر الكونت؛ فمع كل طرقة عقدت العزم بصورة أكثر تأكيداً على رحيلي في اليوم التالي وبدا لي على هذا النحو كأنني أسمّر نعشي بيدي، ولكن بعد كل طرقة تردد صدى ضحكات رنانة أو زغرودة فرح من الممرات ودرجات السلالم؛ كانت الفتاتان تتطاردان بين الفينة والفينة وتفتحان الأبواب وتغلقانها بعنف.

ترتب على ذلك أنني ذهبت إلى مسكني في بيت الحديقة وحزمت أيضاً حقيبة سفري على الفور مع كل المحتويات الجديدة التي كنت اشتريتها في أثناء إقامتي الأخيرة في قصر الكونت، وحين انتهيت من ذلك ذهبت والحزن العميق يغمرني، ولكنني كنت مع ذلك متماسكاً، إلى العراء وإلى المقبرة؛ هناك جلست على مقعد دروتشن المفضل وكلي أمل بأنها سوف تأتي وأتمكن من الجلوس بجانبها على الأقل بضع دقائق من دون خبث أو تعرض للخطر لكي أشبع عيني من رؤيتها. وفعلاً أتت بعد ربع ساعة بوقع خطىً كحفيف الحرير، ولكن برفقة ابنة البستاني والكلب الأسود هيكتور. هنا ابتعدت بسرعة عن المكان ظناً مني أنهما لم ترياني بعد واختفيت في ما وراء الكنيسة. وحين سمعت هناك حديث الفتاتين وضحكهما ذهبت مضطرباً إلى القرية ودخلت إلى مقر القس لكي أجد مأوى لدى مساعده، لكن بحجة أن أخبره عن رحيلي.

وجدته جالساً يتناول الطعام على الطاولة التي غادرتها تواً أشعة الشمس في وقت العصر.

قال: " إنني أتناول هنا طعام المساء. ألا تريد أن تشاركني؟".

فأجبته: "شكراً، هلا سمحت لي أن أتحدث معك وأسليك قليلاً!".

قال المحترم:" هكذا هم شباب اليوم؛ لم يعد عندهم ثمة قابلية ألمانية عظيمة للطعام! وكذلك تفكيرهم لا قيمة له فهو لا يفضي إلا إلى لا شيء ومن ثم لا شيء!".

"منذ متى يفكر المحترم تفكيراً مادياً إلى هذا الحد؟".

" لا تخلط لي المخلوق مع غير المخلوق، أيها الفنان المشؤوم، وتفضل بالجلوس! إن جرعة من البيرة لن تكون ثقيلة عليك، على الأقل!".

ثم تابع انشغاله باندفاع بصحفة الطعام الكبيرة التي كانت أمامه، وقد احتوت هذه على بقايا وقطع من لحم خنزير مذبوح تواً وعلى الأذنين والخطم والذيل المكور، كل ذلك كان طُبخ قبل قليل وفاحت رائحته بلطف إلى أنف رجل الدين، وامتدح بسخاء وجبة الطعام المكومة أمامه على أنها لا تُجارى في نعومتها البسيطة وبراءتها وشرب مع تلك الوجبة جرة مترعة من البيرة ذات اللون البني المذهَّب.

بعد جلوسي هناك نحو عشر دقائق طُرق الباب ودخلت دورتشن، لا يصحبها إلاّ الكلب الجميل، بكل ظرف وتهذيب لكنها بدت مرتبكة قليلاً.

قالت: " لا أريد أن أزعج السيدين، بل أردت أن أرجو السيد مساعد القس أن يأتي إلينا في هذا المساء لأن السيد لي سوف يرحل عنا يوم غد. هل ثمة ما يشغلك عن المجيء؟".

قال القس الذي كان جلس من جديد وتابع عمله المريح في تناول الطعام: "أكيد أنني سوف أجيء إليكم، أرجوكَ يا أعز الناس أن تُحضر كرسياً للآنسة الفاضلة!".

فعلت ذلك برغبة كبيرة ووضعت كرسياً ثانياً على حافة الطاولة تماماً في الجهة المقابلة لي، فشكرتني دوروتيا على ذلك بابتسامة لطيفة ونظرت بتواضع إلى الأرض هكذا على غير هدى حين أخذت مكانها. كنت في تلك اللحظة مغموراً بالسعادة لأنني جلست في الحجرة القسية المريحة والمشمسة وجهاً لوجه قبالة دورتشن وكانت هي تتصرف بطيبة قلب وهدوء. مساعد القس كان يتحدث وحده وهو يأكل من غير أن يشاركه أحد في الحديث، فكان علينا أن نصغي إليه فقط في حين كان كلب الآنسة يحملق بعينين ناريتين وفم مفتوح في صحفة الطعام وفي يدي المحترم وفمه.

قالت دروتشن: "ياله من كلب مسكين، وكم هو في شهوة للطعام؛ هل تريد أن تأكل هذه القطعة التي هنا، أيها السيد مساعد القس، أم تسمح لي بأن أعطيها إلى الكلب؟".

وأشارت بذلك إلى الذيل المكوَّر، الذي عرض نفسه بكل ما تقتضي اللياقات على حافة الصحفة.

فقال مساعد القس: " تقصدين ذيل الخنزيرة هذا؟ كلا، كلا يا آنستي! لا يمكن أن تقدميه إليه! انتظري، هنا يوجد شيء له!". ووضع أمام الكلب النهِم صحناً كان رمى فيه عظاماً وغضاريف كثيرة. وكنا أنا ودورتشن نتبادل النظرات بغير قصد، وكان لابد من أن نضحك لأن فرحة رجل الدين، التي لم تشبها شائبة، بالأكل المتواضع كان من شأنها أن أنعشتنا وأفرحتنا. والكلب أيضاً، الذي تسلى بصحنه باشتهاء عارم، زاد من جراء ارتياحه من وتيرة المزاج الجيد المنتشر في جو الحجرة. أخذت دورتشن تداعب رأسه حين مررت يدي للتو على ظهره اللامع، وحين تعرضت دونما انتباه إلى خطر أن تلتقي يدانا سحبت يدي بتأدب فنظرت إلي عندئذ مسرعة بنصف ابتسامة عذبة.

في النافذة المفتوحة رفّت الستائر بهدوء إذ كان يحركها الهواء وأمام تلك النافذة تراقص في أشعة الشمس رف من البعوض اللامع، لم تكد تتميز واحدة منها بمفردها، بسرعة وولع جارف متزاحمة ومتشنتة في فوضى عارمة وكأنها ألمت بمعرفة قصر المهلة الممنوحة لها، التي ربما تُحسب بأنصاف الساعات.

في تلك اللحظة استدعي رجل الدين من قبل مدبرة البيت لكي يمنح بدلاً من القس الغائب مقابلة لزوجين متنازعين بناء على موعد مسبق.

قال مساعد القس، العازف دينياً عن الزواج والمتذمر من الإزعاج الطارئ: " ألم يحن الوقت بعد لكي يقلعا عن النـــزاع فيما بينهما، كم يثير هذان الزوجان النفور والاشمئزاز! نظّفي الطاولة يا تيريز فأنا لن أتابع الأكل فيما بعد!".

بذلك ذهب رجل الدين إلى مكتب رئيسه القس من دون أن يودعنا، لذلك اضطررنا إلى البقاء جالسين إلى الطاولة المغطاة بقماش أبيض؛ لأن مدبرة البيت لم تأخذ معها سوى الصحفة والصحون وتركت غطاء الطاولة ملقىً عليها. نظرت بصمت إلى سطح الطاولة الأبيض المستدير، الذي كان يلمع بيننا بفعل أشعة الشمس الفتية. كلمة "زوجين"، التي لفظها رجل الدين آخر الأمر، كانت لا تزال ترن على نحو ما في الهواء ما دام أحد لم ينبس ببنت شفة؛ لأن دوروتيا أيضاً جلست صامتة في مكانها ملقية يدها على رأس الكلب، الذي كان انتهى في أثناء ذلك من تناول طعامه الشهي. إلا أن تلك الكلمة المحرجة لم يتردد صداها بسياقها الراهن بل أيقظت في نفسي تصور اثنين من الناس سعيدين في اعتكافهما المنزلي الحميم ويجلسان في تلك اللحظة إلى الطاولة وجهاً لوجه، وخيل إلي أن غطاء الطاولة المستدير الأبيض دبت فيه الحياة وملأته بصور السعادة؛ واعتراني ألم عميق على دورتشن ما دام لم يبدُ لي ممكناً بحق السماء أن تقضي عمرها بسعادة ورضا إلا بجانبي. مع تنهيدة عميقة أنهضتُ العينين اللتين أصبحتا مبتلتين بالدموع وهلعت لرؤية عيني دورتشن تتعاطفان معي وتستقران على وجهي، في حين أضفت جدية رقيقة لطيفة على شفتيها المطبقتين أجمل تعبير وأروعه ومالت برأسها قليلاً إلى الجانب غارقة في تفكير عميق. وحتى بعد أن رفعت نظري لم تغير على الفور وضعها وتعبيرها ولم تتماسك إلا حين ازدانت عيناها بلمعان مبلل أيضاً. صورة هذه اللحظة ظلت أيضاً ماثلة في ذهني كلمعان نجمة هادئ رئي وميضه ذات مرة في جو صاف فوق العادة وتعذر نسيانه بعد ذلك.

بحثت بإلحاح عن كلمات لكي أبدد الصمت، ودورتشن التي حققت مطمحها المشابه بصورة أسرع مني فتحت فمها فوراً حين عادت مدبرة بيت القس من جديد إلى الحجرة ولم تعد تخرج منها لأنها شعرت بأن عليها أن تسلي سيدة القصر الشابة. ولم يدم الأمر طويلاً حتى عاد مساعد القس أيضاً

من عمله الذي أنجزه بأسرع مما كان يتوقع، وبما أن حديثاً بيتياً بدأ يجري على سجيته انتهزت الفرصة فحييت الجماعة ثم انصرفت لكي أهرب بقلبي المترع بالحب وهمومه إلى بر الأمان تتبّعتني. دورتشن بنظراتها ونادتني ألاَّ آتي إلى القصر متأخراً.

بعد بعض التسكع في أرجاء الموقع مررت بمكان خروجي من الغابة حين كنت وصلت أول مرة في أثناء سفري إلى بلدي إلى كنف دورتشن، ورأيت ربوع هذه المنطقة في مساء ممطر مزدانة بالمزرعة والكنيسة القديمة. سرت الآن باتجاه الكنيسة ودخلت إليها، وبما أن عجوزاً كانت تركع فيها وتدمدم صلاتها فقد تسللت من ورائها إلى نوع من سرداب كان يشكل الجزء الأقدم من المبنى والمكان نصف المعتم منه، الذي سُدت نوافذه رومانية الطراز إلى نصفها، ففي هذا المكان وُضعت مع مر الزمن أشياء كثيرة أدت إلى تضييقه.

هذا التضييق سببه على أفضل وجه شاهد قبر، مصنوع من حجر الكلس وقد مُد عليه تمثال فارس طويل ويداه مطويتان على صدره. بجانبه، على حافة التابوت، وضعت علبة مقفلة وملحومة من البرونز على صورة وعاء صغير لحفظ رماد الموتى، مصبوب ومحفور برقة ورشاقة ومثبت بسلسلة رقيقة من المعدن ذاته على درع الصدر في تمثال الفارس الحجري، وطبقاً للمأثور المنقول من الأقوال فإن العلبة كانت تحتوي على قلب الفارس المدفون، المحنط والجاف، وكان كل من الوعاء والسلسلة متأكسداً تماماً ويومض لمعاناً أخضر في عتمة السرادب، ولكن شاهد القبر كان يخص فارساً بورغونياً اتصف بطبيعة وحشية ومتقلبة لكن صادقة وطورد لدى نهاية القرن الخامس عشر من قبل حالات كثيرة من الحظ العاثر وسوء معاملة الناس، ولذلك تاه في أرض الله الواسعة ووجد هنا في كنف أجداد الكونت الملاذ الأخير حيث تحطم قلبه أخيراً بفعل خيانة أخيرة، على حد رواية الأقوال المأثورة المتناقلة جيلاً بعد جيل.

كان تبرع لنفسه بشاهد القبر والتمس المكان المنعزل اللازم له؛ كان قبر سلالة الكونت الجماعي سبق أن نقل آنذاك إلى الكنيسة الأكبر، وحول القلب الذي في العلبة تدور أقوال مختلفة يتناقلها الشعب مثل القصة التي تروى عن الفارس "البورغوني المغرم" كيف أنه أمر بأن يبقى قلبه مربوطاً على قبره إلى أن تأتي سيدة معينة حيةً أو ميتةً فتأخذه إلى بلاده، وإذا لم يحصل ذلك فلا يجوز لها أن تجد طمأنينة الموت بالقدر الذي يأمل هو في أن يجدها؛ ولكن كل امرأة أخرى تجرؤ على أخذ العلبة بيدها مع القلب الذي بداخلها، عليها أن تلتزم تقبيلها ثلاث مرات وتؤدي صلاة " أبانا الذي في السماء" ثلاث مرات أيضاً، وإلا فسوف يشل الفارس البورغوني المغرم يدها أو يكسر إحدى ركبتيها أو ما شابه ذلك. هذه القصص المأثورة المتداولة ربما أدت إلى بقاء العلبة مع السلسلة في مكانهما فترة طويلة من الزمن.

جلست قبالة التمثال الرومانسي في زاوية معتمة بين أوعية القرابين المقدسة وأدوات الطواف واستسلمت للأفكار المتعلقة بالفراق الوشيك التي كانت محزنة خصوصاً أنني قلت لنفسي في تلك الساعة الأخيرة إن من الصعب مع كل الطابع المغامراتي لمعايشتي الأحداث أن يخدمني حسن الطالع إلى حد أتمكن بموجبه من إنجاز غزوة مظفرة من النوع الباهر الذي كنت أحلم به. اضطرتني شدة اللحظة الحاسمة إلى هذا الإدراك السطحي وانضم إليه ذلك الخجل من الطريقة الصبيانية التي وقعت فريسة لها، أي أن أعقد العزم في الحال على تحقيق ما كنت أصبو إليه من هدف براق خلاب. وأنا أتصارع مع مشاعر كهذه بحثت بعد ذلك عن الإعلاء من شأن نزوع توافقي لا يطمح إلى تحقيق شيء لمصلحته الشخصية، بل يريد أن يكون متعاطفاً حصراً مع الحبيبة ما دامت لم تكن من جديد أيضاً شهوانية مموهة؛ باختصار، أمضيت الوقت على هذا النحو في دغشة التابوت إلى أن سمعت من الكنيسة الخارجية وقع أقدام خفيفة وأصواتاً نسائية في آن واحد، وعند إصغائي قليلاً عرفت أنهما صوتا دوروتيا ورُوزشن. بدا أن الفتاتين لا

تضحكان هذه المرة، بل تناقشان بجد وحماس أمراً مهماً، ولكن سرعان ما ضاقتا ذرعاً بالوضع الجدي؛ إذ نزلتا بسرعة على بضع درجات إلى السرداب ونادت دوروتيا قائلة: "تعالي يا رُوزشن، فلا بأس من أن نشاهد مرة قبر الفارس المغرم من جديد!".

وقفتا أمام شاهد القبر ونظرتا بفضول إلى وجه الرجل الحجري، المعتم والمنطوي على إخلاص واستقامة.

هنا همست رُوزشن: "يا إلهي، أنا خائفة!". وأرادت أن تولي الأدبار، ولكن دورتشن أمسكت بها وثبتتها في مكانها ثم قالت بصوتٍ عالٍ: "لماذا أيتها المجنونة الصغيرة؟ إنه لا يؤذي أحداً، انظري كيف أنه رجل طيب القلب!".

وأمسكت بيدها الوعاء المعدني ووزنته بتمعن؛ ولكنها هزته فجأة بقدر ما استطاعت من قوة، إلى الأعلى وإلى الأسفل بحيث أمكن بوضوح سماع الشيء المجفف والمنكمش، الذي حُبس فيه منذ أربعمئة عام وسماع رنة السلسلة أيضاً. تنفست دورتشن الصعداء؛ وبما أن شعاعاً نهارياً سقط على وجهها فقد رأيت كيف تبدل لون ذلك الوجه وانتقل إلى حمرة وردية في شحوب مرمر.

قالت دورتشن: "اسمعي جوزة القعقعة كيف تخشخش في داخل الوعاء! اقرعيها أنت أيضاً!".

وضغطت الوعاء في يدي رُوزشن المرتجفتين؛ غير أنّ هذه أطلقت صرخة وأسقطت القلب على الأرض فالتقطته دورتشن بكل مرونة وسلاسة وجعلته يقعقع من جديد.

أما أنا، الذي لم تعرف الفتاتان أي شيء عن وجودي في المكان، فقد راقبت اللعبة بكل دهشة واستغراب.

وقلت في نفسي: "انتظري، أيتها الشيطانة! سأرعبك شر رعب!".

جففت عيني المبللتين بالدموع وأطلقت تنهيدة جوفاء ثم قلت بصوت حزين لم أكن بحاجة إلى أن أغيره، قلت باللغـــة الفرنسية القديمة: "أيتها

الآنسة، إذا كان الأمر يعجبك، فخذي هذا القلب واغرزيه في وسادتك ذات الإبر والدبابيس!".

بصرخة مزدوجة طارت الفتاتان من السرداب ومن الكنيسة كمن أصابه مس وركبه عفريت، في المقدمة دورنتشن التي مشت على الدرج وعتبة باب الكنيسة بقفزة وثابة وخرجت منها قافزة ممتقعة اللون، ولكنها لمت ثوبها ومازالت تضحك ثم أسرعت عبر المقبرة إلى أن أتت إلى مقعد راحتها فارتمت فوقه؛ تمكنت من مراقبة كل ذلك من خلال إحدى النوافذ التي كنت تسلقتها بسرعة.

دورنتشن، التي كان وجهها آنذاك تقريباً بلون أسنانها البيضاء، أسندت ظهرها إلى الوراء ولفت يديها حول ركبتها، في حين صرخت رُوزشن: "يا إلهي الكبير، لابد أن يكون المكان مسكوناً بالأرواح!".

قالت دورنتشن وهي تضحك كالمجنـــونة: " صحيح، المكان مسكون بالأرواح، المكان مسكون بالأرواح!".

"أيتها الكافرة! ألا تخافين أبداً؟ ألم يخفق قلبك برعب أكبر حين قرع هناك ذلك القلب الميت؟".

أجابت دورنتشن: "قلبي؟ أقول لك إنه على ما يرام!".

وسألت رُوزشن، التي كانت ما تزال مستمرة في وضع يديها على قلبها وتختبر بصورة متناوبة إن كانتا قادرتين على الحركة: "ماذا كان محتوى النداء؟ ماذا قال الشبح الفرنسي؟".

"قال: أيتها الآنسة، إذا كان الأمر يعجبك فخذي هذا القلب واغرزيه في وسادتك ذات الإبر والدبابيس! اذهبي إلى هناك مرة أخرى وقولي إننا نريد أن نفكر في الأمر! اذهبي، اذهبي، اذهبي!".

ونهضت واقفة وكأنها أرادت أن تعيد الخادمة الجميلة فعلاً إلى الكنيسة، ولكنها عانقتها فجأة وأمطرت خديها بقبلات حارة، ثم اختفت الفتاتان تحت الأشجار.

بعد ذلك بفترة طويلة خرجت أنا أيضاً من مخبئي لكي أؤمن آخر الأشياء التي لا تزال تلزمني للسفر، فذهبت إلى كراج العربات وأتممت استعدادي للسفر إلى آخره؛ ولكنني كنت نسيت الجمجمة لدى حزم الأمتعة فاضطررت عندئذ إلى إيجاد مكان لها مرة أخرى، وأخيراً حصلت هي الأخرى على مأوى بوصفها المتاع الوحيد المتبقي مما كنت جلبت معي فيما مضى من بلدي إلى بلاد الغربة. لذلك شعرت الآن حقاً بقيمة تلك القطعة المسكينة حين تمعنت في أمرها؛ كانت أُلقيت سنين طويلة في تراب الوطن ثم قاسمتني حجرة سكني وعايشت معي، ولو بصفتها أداة صامتة، أيامي الماضية؛ وهكذا لا أعود إلى الوطن على الأقل خالي الوفاض من لوازمي السابقة.

وحين أنجزتُ إيواءها ذهبت إلى الكونت لكي أجري معه الحديث، الذي استدعته الساعات الأخيرة من وجودي في كنفه واستدعاه أيضاً واجب الامتنان له، ولكنه لم يكترث الآن بأي أحاديث من هذا النوع بل أصر على مرافقتي مرة أخرى إلى العاصمة ليكون شاهداً على ما سأفعل بلوحاتي وما سيحدث لي.

قال الكونت إن علينا أن نتجنب بعد المحاولة الأولى الذهاب من جديد إلى بائع أدوات قديمة. فأجبته بأن هذا أمر لا يخشى منه لأنني الآن من الغنى بمكان يجيز لي الاحتفاظ برسومي مؤقتاً وأخذها معي إلى بلدي حيث تكون شاهداً على الطريقة التي كنت بموجبها أمضي أوقاتي. هنا أبدى رأيه بأنها لن تمارس تأثيرها في منطقة موطني بقدر ما تنجز ذلك في مدينة الفن وإلا فإن قراري المنتظر لا يرتكز على أساس متين.

ابتعدت عن الكونت وذهبت إلى الشرفة الأرضية حيث أردت أن أمضي الوقت القليل المتبقي إلى أن يحين موعد اللقاء المسائي. على طاولة في الغرفة المؤدية إلى مكان اللقاء كان ثمة وعاء مليء بحلويات ناعمة اعتيد لفها بورق ملون وإرفاقها بحكم كثيرة أو بما يعرف باسم شعارات. كانت دوروتيا اعتادت هي ذاتها لف حلويات من هذا النوع وأن ترفقها، بدلاً من

قواف مبتذلة، بأبيات شعر ذات مغزى وحكمة وزوج مقفى من الأبيات ومقاطع من أغان؛ كل ذلك كانت تجمعه من كل الشعراء الواردين في الحسبان ومن مختلف اللغات. وكانت أمرت بطبع مجموعات كاملة من أقوال جميلة كهذه على ورق على أن تُقص بحسب الحاجة إلى قصاصات صغيرة وكانت موهوبة في جمع مختارات ظريفة منها في كل مرة بحيث لم يندر أن وُضع الحاضرون لدى تناولهم تحلية ما بعد الطعام في أجواء ممتعة عبر عروض مرحة ظريفة أو فكهة لاذعة أو كلا النوعين بالتناوب. ومارست كثيراً من الألعوبات الهزلية الساخرة بأن ضمت في معظم الأحيان بيتين من الشعر لشاعرين مختلفين أحدهما إلى الآخر وظن الناس عندئذ أنهم يقرؤون نصاً معروفاً في حين أفلحت العبارة الجديدة وبالتالي أفلح المغزى المضاد، الذي نجم عن ثنائية المجهول – المعلوم، في تضليل القارئ وتعجيزه. ثم أعدت للتقديم في كل وقت مخزوناً من هذه الحلويات المحضَّرة سابقاً، مرتباً في سلة مصنوعة من الأسلاك الفضية ومزينة بالزهور في أثناء الاستعمال وكانت تدور هي ذاتها بين الحضور إذا ما لزم الأمر وتقدم لهم هذا النوع من الضيافة. في الواقع لم تلقَ هذه اللعبة كثيراً من استحساني؛ ولكنني عددتها بما أنني عاشق متشدّد في إيماني بالعشق إن لم تكن رائعة فعلى الأقل مغتفرة وظريفة؛ فقد يسر المرءَ دائماً أن يجد لدى الأشخاص الذين يحبهم عيوباً صغيرة لكي يغفرها لكن من دون تردد بل لكي يحبها بوصفها جزءاً ممن يحب.

والآن كانت دورتشن على ما يبدو منشغلة بملء سلة كهذه من جديد وربما استدعيت من عملها بصورة غير متوقعة. وبما أنني بسبب المشهد الذي تم في سرداب الكنيسة والوداع الوشيك شعرت بحرية أكثر من المعتاد، ولأنني لا أكترث إن ضبطتني دورتشن فجأة لدى عودتها مما استدعيت إليه، فقد جلست على الطاولة وصرت أراقب ما صنعت السيدة المبجلة في ذلك اليوم. كانت لفت بالفعل عدداً كبيراً من ألواح الحلوى، الصغيرة المربعة، في ورق لامع ووضعتها في السلة الصغيرة؛ وحين حاولت معرفة نوع الأبيات

الشعرية وأقوال الحكم المأثورة التي أعدتها، وجدت حزمة من القصاصات الصغيرة المطبوعة على ورق أخضر ناعم وعلى كل هذه القصاصات تجد ذات المقطوعة الشعرية الوحيدة:

حقاً، إن يخدع الأمل

يخدعْ متقلبي الإرادة فقط

غير أن الأمل يُظهر

للقلوب المخلصة طيبة إلى الأبد،

إن الأمل يرسي أساسه

في القلب لا في الفم!

حين فرقت بهدوء الحزمة الصغيرة من قصاصات الورق بعضها عن بعض (كانت ملفوفة بشريط من الحرير الأخضر)، نظرت صوبي في كل مكان هذه الكلمات البسيطة الساذجة لكنها مثيرة إلى حد كبير. وبحذر تناولت من السلة الصغيرة هذا وذاك من الألواح الصغيرة المربعة الجاهزة وفتحته قليلاً فوجدت في كل صرة تلك الأغنية الخضراء ذاتها. وكانت تترنم في مسامعي كالنداء المواسي لطائر سمانى في حقل مقفر أو كنصف النشيد الذي يعلو بهدوء وببطء ثم ينقطع مرة واحدة بلطف مؤنس، نصف النشيد الذي تؤديه تغريداً مشنفاً للآذان شحرورة في أعماق الغابة.

وبما أنه لم تكن في ذلك اليوم ثمة جماعة بأعداد كبيرة تستدعي إحضار تحلية بعد الطعام فقد كانت نية الخاطرة التي تراءت لدورنتشن متجهة إلى مناسبة مقبلة، غامضة عندي. فجأة تركت كل شيء في مكانه وخرجت متسللاً إلى الشرفة الأرضية حيث ارتميت على كرسي وأمضيت الوقت المتبقي بتنهيدات مستغرقة في التفكير. لم يدم الوقت طويلاً حتى ظهرت دورنتشن ومعها بعض الورود الحمراء الشاحبة، التي أتت بها بلا شك من البيت الزجاجي، ومعها أيضاً مصباح يدوي مشتعل لأن الدغشة بدأت بالتحول إلى ظلام. وتابعت عملها غير آبهة بشيء آخر فلفت مزيداً من قطع السكر

والفانيل وما شابه ذلك بقصاصات الورق وصارت تدندن إلى جانب ذلك بنصف صوت مرات كثيرة بيتي الشعر:

حقاً، إن يخدع الأمل

يخدعْ متقلبي الإرادة فقط

إلى أن قفزت، مع إعداد آخر قطعة من الحلوى، إلى خاتمة المقطوعة الشعريـــة:

"إن الأمل يرسي أساسه

في القلب لا في الفم!"

والله يعلم بأي لحن ترنمت بها وبصوت أعلى قليلاً في أعمق النغمات، التي كانت مطواعاً لصوتها، ثم خبأت بحركة سريعة ما تبقى من القصاصات الصغيرة الناعمة في إحدى جيوب ثوبها وزينت السلة الصغيرة بالورود ثم أسرعت بالخروج من الصالة مع كل الحفل اللطيف، ممسكة بالمصباح بيدها؛ وكنت راقبت ظرف ما كانت تفعل عبر إحدى النوافذ العالية، وبالطبع كنت نصف محجوب عن الناس بفعل ستائر تلك النافذة ذات النسيج الشفاف.

دوى الصوت البهيج لمساعد القس في المكان؛ فلم أتباطأ في النزول فوراً على درجات الشرفة الأرضية والذهاب لمقابلته، ودخلت برفقته مجدداً إلى القصر ومن ثم إلى الأمكنة التي قُضيت فيها الأمسيات. وبهذه التحويلة الاصطناعية تجنبت أن يخطر بطريقة ما ببال دورنتشن أنني أعرف السر العجيب الذي تخفيه سلتها الصغيرة. وحين جلسنا إلى الطاولة نحن الأربعة مضى الوقت بسرعة قياسية، لأن حب الذات سُر أيما سرور بالحظوة التي جعلت من شخصي موضوعاً للحديث الأخير وكذلك فإن التيقن من أنني أنعم فعلاً بحضور دورنتشن لآخر مرة قصر الوقت تقصيراً مضاعفاً. قال الكونت إنه تعود على عِشرتي وإذا ما تعلق الأمر به وحده فسوف يُبقي علي هنا فترة طويلة إضافية؛ إلا أن مساعد القس قال لا، بل يجب علي، على حد أمله الأكيد، أن أرحل لكي أسترجع بفضل تغيير الهواء وفي بلادي الجميلة مثلي المفقودة.

قلت ضاحكاً: وفقاً لتنبؤات معينة لأحلامي سوف يكون لي في كل الأحوال مثل جديدة وقد سبق أن رويت عن السلم الكريستالي، الذي رقدت الأفكار في درجاته على هيئة نسوة صغيرات. استغرب مساعد القس من ذلك وأخذ ينظر إلي باندهاش أكثر فأكثر حين تابعت وصف نواتج النوم تلك في فترة تعيسة؛ لأنني برهنت له بذلك على أنني في أثناء النوم قد أستطيع أن أكون أيضاً أروع، يعني أكثر مثالية بحسب مفاهيمه منه وهو في اليقظة. وهنا تحدثت عن جسر الهوية وعن مطر الذهب الذي صنعته وأنا ممتطٍ صهوة الحصان الطائر، وكيف تدحرجت إلى الأرض من على سطح الكنيسة ووقفت أخيراً مكروباً ممقوتاً أمام بيت أمي بعد أن لمع في عينيَّ بطريقة رائعة.

وبما أن مزاجي تميز تحت تأثير النبيذ الاستثنائي الناري، الذي شربناه، بطول اللسان فقد زينت هذه الأشياء أيضاً ببعض الإضافات ونسج الخيال واختتمت أخيراً كما يختتم راوي أساطير يذر رماداً في عيون الناس.

قال مساعد القس مستعيناً، من جراء اضطرابه من تلفيقي الرائع، بالتعبير الشعبي الفظ: "له فم كالتزام مستمر!"؛ لأنني ظهرت له بمظهر المتدخل في شؤونه الخاصة لأني وصفت معايشة فعلية كانت لا شيء، عن حلم فقط؛ فقال الكونت:

"طلاقة اللسان هذه لم نستطع بالطبع اكتشافها حتى الآن لدى صديقنا! ولكن ما دمنا اكتشفناها الآن فليس ثمة ما يمنعني من أن أتصور رؤيتها وهي تستخدم في يوم من الأيام في أمور أكثر جدية وأهمية. والآن دعونا نشرب نخب مستقبل جيد لنا جميعاً!".

وملأ لنا الكؤوس فجعلناها ترن بعضها مع بعض دون أن أجهد نفسي في فهم مغزى كلماته؛ لأنني رأيت دوروتيا فجأة آتية إلينا ومعها السلة الصغيرة المزينة بالورود.

قالت وهي تقف بجانبي: "وأنا أيضاً أريد أن أقول حكمة مأثورة؛ ولكنني أريد أن أترك أمر صياغتها إلى مصادفة هذه السلة المتنبئة المعروفة للجميع؛ أخرج لك منها حبة ملبَّس، حبة واحدة فقط، ولكن بحذر وتأمل!".

رفعت نظري إليها مندهشاً وسائلاً؛ لأنني عرفت أن في كل العلب الصغيرة الرشيقة القول المأثور ذاته.

سألت وفي داخلي شيء يجيش: "أي علبة قد تنصحينني بأخذها؟" ، ولكنها أجابت برباطة جأش: "لا يجوز لي أن أتدخل إذا ما أريد للنبوءة أن تحدث مفعولها!".

"هل ينبغي أن آخذ هذه؟".

"لا أعرف!".

"أم هذه؟".

قلت: "إذاً سوف آخذ هــذه وأشكرك جزيل الشكر!". ثم فتحت الورقة الصغيرة وسحبت دورتشن سلتها الصغيرة بسرعة إلى الوراء.

فصاح مساعد القس: "والآن، ماذا في القصاصة؟"؛ وسرني هذا السؤال لأنني لم أستطع قراءة الأبيات بصوت مسموع. فأعطيته القصاصة ورجوته أن يقرأها هو ذاته، وفعل ذلك بتعبير جيد.

قال: "إنه لقول جميل تماماً! وبإمكانك أن تكون راضياً عنه؛ فهو يقوم على أساس عقيدة في الحياة ورعة وصادقة ولم تعد موجودة بكثرة في عالمنا هذا! ولكن الآن أيتها الفاضلة ناوليني سلتك الصغيرة ودعيني أيضاً أرَ النبوءة المتعلقة بي بصفتي باقياً هنا!".

وهم بأخذ السلة، ولكنها قالت له: "في يوم الأحد القادم يمكنك أن تختار نبوءة لبقائك هنا، أيها المحترم! أما اليوم فهو من نصيب من سيغادرنا!". بذلك ابتعدت بسرعة عن المكان ووضعت السلة بعناية في خزانة وأقفلت عليها.

حين جلسنا، الكونت وأنا، في قبيل الظهر اليوم التالي في عربة السفر المريحة قالت دوروتيا التي كانت صافحتنا نحن الاثنين مودعة ودخلت الآن فجأة إلى العربة مرة أخرى: "الآن لا يزال شيء في طي النسيان! كتابك الأخضر يا سيد هاينريش لا أزال أحتفظ بـــه! هل ينبغي علي أن أحضـــره لك بسرعة؟".

فقال رفيق سفري: "اتركيه! لئلا يؤخر سفرنا لفترة طويلة؛ إذا ما كتب إلينا هاينريش، كما نأمل ذلك، عما قريب فبإمكاننا عندئذ أن نعيد إليه كتابه سالماً آمناً، أليس كذلك؟".

عبرت عن موافقتي بهزة رأس متنفساً بذلك الصعداء، فقد بدا أن جانباً من ذاتي سيبقى مع الكتاب بالقرب الوثيق من دورتشن.

قالت: "سوف أحافظ عليه في مكان أمين ولن يصيبه أي مكروه!". ولوحت لي بيدها حين انطلقت بنا العربة ورمقتني بنظرة ملؤها المودة واللطف، ومع ذلك كنت أرى آنذاك تلك المخلوقة الجميلة لآخر مرة في حياتي.

* * *

الفصل الرابع عشر

العودة إلى الوطن وسلاماً أيها القيصر

إطاران ذهبيان عريضان، كانا طلبا مسبقاً، كانا جاهزين حين وصلنا إلى المدينة التي زرناها الآن معاً للمرة الثانية. فسارع حامي حماي إلى استخدام نفوذه الذي لم يكن يستهان به في أمور بريئة وذلك بفضل لقبه النبيل وشخصه أيضاً. ولذلك عُلقت اللوحتان بعد أيام قليلة في أفضل ضوء من أمكنة المعرض الفني، الذي كنت ظهرت فيه ذات مرة بمظهر مزرٍ وقاتم. بالطبع لم تكن اللوحتان من روائع الفن، ولكن لم تكونا أيضاً خاويتين من كل قيمة وأهمية لا بل انطوتا في آن واحد على تقدم وعلى توقف مقدرة محدودة، وعلى الاستراحة الأزلية من تحفز فريد من نوعه إذ عاد المتحفز إلى نفسه وسيبقى جالساً على حافة الطريق الوسط الذهبي، المطروق كثيراً.

ولشد ما دهشت حين رأيت أيضاً تينك اللوحتين الصغيرتين معلقتين بجانبهما، اللوحتين اللتين كنت تخليت عنهما للخياط اليهودي وتاجر اللوحات لقاء بذلة صنعها لي. وقد كان الكونت، الذي سبق أن اطلع على أمرهما، اقتفى أثرهما واشتراهما عن طريق غير مباشر، والآن كانتا مزينتين بقصاصات ورق كتبت عليها الكلمة الضخمة "مبيعة". حيلة الكونت هذه أيقظت تحيزاً ملائماً لكل المجموعة الصغيرة المكونة من أربع لوحات، وفي التقرير الفني التالي لصحيفة كبيرة واسعة الانتشار خصصت لها بضعة أسطر مشجعة ولو أنها لم تكن بكلمات صحيحة ومنطبقة على الحال الفنية. باختصار

بعد بضعة أيام جاء تاجر ذو أهمية كبيرة في مجال الأعمال الفنية وكان زار من قبل مدارس الرسم الألمانية من أجل الحصول على مجموعات كاملة من اللوحات وبيعها في البلدان المجاورة. عبر هذا الشاري، الذي كان يأمل في أن يشتري لوحاتي بسعر متواضع، ستضاف إلى اسمي على حد قوله عبارة "عضو المدرسة الإكسية" وذلك شرف لم أكن لأحلم به، على حد رأيه. غير أن الكونت ارتأى أن اللوحات يجب أن تباع لعاشق فن لا لتاجر وهو الآن في صدد اقتفاء أثر محب للفن من هذا النوع.

ولكن بعد بضعة أيام أُخر سلمني أمين المعرض الفني رسالة وصلت إلي من الشمال. كان مرسلها إيريكسون الذي كتب فيها: "عزيزي هاينريش، قرأت تواً في الصحيفة المحلية التي أقتنيها من أجل زوجي أنك ما زلت هناك وعرضت أربعة من أعمالك الفنية، لوحتين صغيرتين وأخريين أكبر. إذا ما تعذر عليك ترويج الواحدة منها أو الأخرى فحبذا لو تترك واحداً من الزوجين وترسله إلي؛ سوف أدخل هذا الأمر في حسباني! حدد لذلك سعراً لا بأس به ولا تخجل مني! لأنك تعرف أن حالي المادية جيدة. لقد تمكنت من أن أعيد أوضاع أسرتي إلى ما كانت عليه دونما حاجة إلى أموال زوجي وتمكنت علاوة على ذلك من الادخار أيضاً، أي إنني أنجبت صبيين، أكبرهما سناً جرَّ مؤخراً وبالاً علينا فلطخ الجدار بمهروس الكرز لمجرد أنه كان سمع أمه تقول إن ذلك ذنب لا يجوز اقترافه. وثمة نبتة صغيرة لم تبلغ بعد ثلاثة أعوام من العمر! إذا كان بإمكاني الحصول على اللوحتين، فاكتب لي معهما الكثير عن أحوالك!".

اخترت بلا تردد عرض صديقي هذا، الذي جعلني أتمسك بأبسط ما يكون بقراري في اعتزال الفن؛ لأن شراء كهذا بدافع الترفق الناجم عن صداقة لا يشكل برهاناً عن مهنة الفنان الحقيقية. كان على الكونت أن يوافقني على هذا الرأي مع أن الظنون ساورتني في أن مشروع بيعه اللوحات ربما لن يسفر عما هو أفضل.

أُرسلت اللوحتان إلى إيريكسون، وفي رسالتي إليه، التي لم تحتو بسبب انشغالاتي الكثيرة وانشغال بالي على التفصيلات التي كان عبر عن رغبته في معرفتها، رجوته أن يرسل إلي مبلغ الشراء إلى بلدي الذي أهم الآن بالعودة إليه؛ وهكذا لم أجلب معي إلى موطني إذاً مبلغاً عظيماً من المال فقط، طبعاً في ما يتعلق بأوضاعي المادية التي عانيتها حتى الآن، بل كذلك رصيداً متأخراً من شأن مجيئه من مصدر بعيد، بعد أن أكون وصلت بسلامة الله وتكون أصداء مجيئي الأولى قد زالت، أن يحدث أثراً مفرحاً.

ولكن كما أن الحلم التعيس بالذهب والممتلكات أراد أن يتحول بصورة مصغرة إلى حقيقة، فإن الذي تحقق حتى الآن لم يبدُ كافياً بعد، إذ بعد أن علمت السلطات المحلية بإقامتي الجديدة وبانتهائها عن قريب، تلقيت دعوة قضائية للاطلاع على بعض التبليغات. كنت نويت فيما مضى أن أقوم بزيارة صديقي القديم بائع الأدوات المستعملة يوزف شمالهُوفر، غير أنني وجدت دكانه المعتم مغلقاً وتناهى إلى علمي آنذاك أن الرجل الذي كان يعاني الوحدة والعزلة مات قبل عدة أسابيع. ولدهشتي الكبيرة بُلغت الآن في مكتب المحكمة أن العجوز، الذي لم يترك وارثين وراءه، أهدى ثروته التي لا يستهان بها إلى مؤسسة خيرية وخصني شخصياً في وصيته بمبلغ أربعة آلاف غولدن. وحينما أستطيع إثبات أنني أنا الشخص الذي عناه المورث في وصيته، فإن المبلغ المذكور آنفاً جاهز للدفع بعد أن أخفقت كل التحريات التي أجريت حتى الآن، أي إن الأمر كان يتعلق بمسألة ما إذا كنت أنا ذلك الشاب الذي باع للمتوفى عدداً كبيراً من رسوم معينة الخ. وطلى بمناسبة احتفالات زواج أميري صواري خشبية لحمل الرايات.

استطاع الكونت أن يقدم الدليل الأكثر قطيعة بكلمتين حول الرسوم وحول ما تبقى، فكانت مصداقيته كافية تماماً لموظفي المحكمة حين أعلن أن الشخص الذي طلى صواري الرايات لا يمكن أن يكون غيري أنا.

وهكذا أُعطيت أربعة من سندات الدين الرسمية بقيمة ألف غولدن لكل منها؛ وباع الكونت تلك السندات وأمَّن لي كمبيالات جيـدة بالمبلغ بحيث صرت الآن مزوداً بثروة متنوعة في ثلاثة أشكال: بمال نقدي وديون لمصلحتي وكمبيالات.

قلت حين جلسنا إلى مائدة مطعمنا حيث كنت إضافة إلى وفرة المال بحوزتي ضيفاً على الكونت أيضاً: "قد يُخشى الآن من أن يأتي البدين فيلهلم تِل"(*) حاملاً سهمه الشهير ويظهر معه أيضاً سطح الكنيسة! يجب أن أسعى إلى الانصراف من هنا لئلا يذوب أخيراً حظي الكبير غير الطبيعي ويتحول إلى حلم!".

شعرت فعلاً بانقباض حقيقي وبدأت بفقدان ثقتي بتبدل حظي إلى هذا الحد الكبير.

قال الكونت: لماذا ترهق نفسك من جديد بالتفكير في البؤس والتعاسة؛ من كل ما تملكه الآن وما يبدو لك وضعاً خارقاً لا يوجد قرش واحد لا تستطيع أن تبحث عن مصدره الشرعي في ذات نفسك! وأنى لك أن تتحدث عن حلم وحسن حظ في حين ضيعت سني عمرك الجميلة مقابل بضعة الغولدنات التي في حوزتك؟".

"ولكن قصة الوصية هي بكل تأكيد مغامرة الحظ البحتة؟".

"وهذه أيضاً ليست كما تقول! فهذه القصة أيضاً لها جذورها في داخلك أنت فقط! لقد نسيت أن أعطيك قصاصة مكتوبة كانت مختبئة في طيات أحد سندات الدين التي كنت قدمتها إلى صاحب البنك الذي أتعامل معه. هاكَ القصاصة التي خلفها لك العجوز المتوفى!".

وأعطاني الكونت رقعة صغيرة من الورق كتب عليها بخط يـد بائع الأدوات المستعملة، الذي أعرفه وأعرف رداءته وقد ازداد رداءة بسبب ما لحقه من جراء الضعف الذي طرأ على جسم الرجل العجوز؛ قرأت على القصاصة:

(*) البطل السويسري الأسطوري، المترجم.

"لم تأت إلي مرة أخرى، يا بنيَّ العزيز، ولا أعرف الآن أين أجدك. ولكنني أريد، من جراء خشيتي من أن الموت قد يغزوني في غضون أيام قليلة في عقر داري المزري، أن أقدم لك شيئاً على هيئة إعانة مالية لن أستطيع فيما بعد أن أكون بحاجة إليها، للأسف! إنما أفعل ذلك لأنك كنت دائماً راضياً عما أدفعه لك لقاء رسومك خصوصاً لأنك اشتغلت عندي بهدوء وجد. حين يأتي إلى يديك ما ادخرته أنا في سنين طويلة بصبر وحذر وأهبه الآن لك، تمتع به بصحة وعقل لأنه لا بد لي للأسف من فراقه، وختاماً: حماك الله برعايته يا صديقي العزيز!".

قلت باستغراب جديد: "إنه لأمر جيد أن يكون لكل تصرف قاضيان يحكمان عليه! فما يعدّه آخرون استهتاراً مني إن لم يكن فساداً، هو ما يمنحه العجوز الفاضل جائزة فضيلة!".

فرد الكونت بصدر منشرح: "لذلك حبذا لو نشرب الآن نخب غبطته ما دام أصدر حكماً عادلاً!". ثم تابع قائلاً وهو يملأ كأسينا من جديد: "والآن نريد أن نحيي صداقتنا ونشرب نخب أخوَّة نقيمها بيننا، إذا كان هذا يناسبك!".

قرعت كأسي بكأسه وأفرغتها كلها في جوفي، ولكن ظهر على وجهي في أثناء ذلك شيء من الدهشة والاستحياء بحيث لاحظ هو ذلك حين هز يدي مصافحاً؛ لأن فارق السن وأوضاع المعيشة لم تأذن لي بتوقع أمر من هذا النوع.

قال الكونت فرِحاً: "لا تندهش من أنه ينبغي علينا استخدام الصيغة الحميمة عند المخاطبة! أن أخاطب أخاً لي في الأصول العرقية من دولة أخرى وأصغر مني سناً بالصيغة الحميمة، ذلك ما أعدّه كسباً كبيراً. وأنت أيضاً يجوز لك أن تخضع للتقليد الألماني الجيد، الذي على أساسه يقيم في بعض الأحيان شبان ورجال وشيب إذا ما جمعهم هدف واحد أخوَّة حميمة. ولكننا نريد الآن أن نتحدث عنك وحدك! ماذا تنوي أن تفعل بعد أن تستقر في بلدك؟".

فأجبت: "أنوي أن أتابع دراساتي المقطوعة حول المبارز البورغيزي!". وحين سألني عن هذا الموضوع رويت له باختصار كيف تحولت بفضل التمثال الذي يحمل هذا الاسم إلى دراسة الإنسان لا من حيث تشكيله بعد، بل أريد أن أختار دراسة كنهه الحي وكيانه الاجتماعي مهنة لي. وبما أن حظي السعيد يمكنني الآن من امتلاك الوقت والوسيلة لذلك، فإنني آمل أن أستطيع بطريقة سريعة وهادفة استدراك المعارف الضرورية لكي أضع نفسي في تصرف خدمة الدولة.

قال الكونت المتآخي معي لتوه: "توقعت هذا أيضاً، ولكن في الأوضاع الراهنة قد لا أفضّل تضييع مزيد من الوقت في دراسات مميزة خصوصاً أنكم في سويسرا لا تعتمدون نظام تدرج الرتب بتسلسل إلزامي. لو كنت في مكانك لحاولت في بداية الأمر دراسة الأوضاع قليلاً وبهدوء وبعد ذلك، إذا ما لزم الأمر بصفتي متطوعاً، أتولى منصباً متواضعاً ثم أتعلم السباحة بأن أقفز فوراً إلى الماء. وإذا ما تعودت أن تقرأ يومياً علاوة على ذلك بضع ساعات عما يتعلق بعلم الدولة وتدوِّر ما قرأته في رأسك وتتأمل فيه، فقد تصبح في غضون وقت قصير في آن واحد موظفاً عملياً ومثقفاً بما فيه الكفاية وتعوض تماماً فوارق المعلومات المدرسية النظرية مع مر السنين، في حين يبدأ بالبروز ما يشكل الرجل الفعلي. أما شؤون القضاء وما يتعلق بها فيستحسن أن أتركها لرجال القانون المؤهلين جذرياً وأعمل على أن يفعل الآخرون أيضاً الأمر نفسه. المهم في الأمر هو أن تعرف فيما بعد في مجال التشريع أين موقعهم وأين تُعطى لهم الكلمة وأنك تحافظ على احترامهم ماداموا يعملون على إحياء القانون فلا يميتونه ويعيثون في الشعب فساداً. لا تتسامح مع القضاة الجبناء في البلاد بل اعمل على إسقاطهم وتعريضهم للازدراء".

قلت بصوت عال، لأنه بدأ بحماس بالغ يتدخل في هذا الموضوع ناسياً بذلك وضعي الراهن: "على رسلك، أيها الكونت! لم أُصبح بعد قنصلاً ولا مدافعاً عن الشعب!"

فصرخ بصوت أعلى مما كان من قبل: "الأمر سيان! ولكن إذا ما تعلق الأمر بوجود قاض جبان وآخر ظالم في آن واحد أحدهما بجانب الآخر، فاقطع رأسي الاثنين وضع بعد ذلك للقاضي الظالم رأس القاضي الجبان وللجبان رأس الظالم! هكذا ينبغي عليهما أن يقضيا بقدر ما يستطيعان!".

وشرب وقال من جديد: "تقريباً هكذا هو رأيي في هذا الموضوع، وأكيد أنك سوف تتفهمه!".

لم يسبق أبداً أن رأيت الرجل الهادئ إلى حد كبير منفعلاً بهذا القدر؛ لأن مجرد التصور أنني على وشك الدخول إلى أراضي دولة جمهورية وسأشارك في حياتها العامة، هذا التصور بدا أنه أيقظ في الكونت تصورات أخرى تمت إلى ذاك بصلة قرابة كما أيقظت فيه أيضاً آلاماً قديمة قائمة على أساس من الاستياء وعدم الرضا.

في أثناء ذلك حانت أخيراً لحظة الوداع ولم يعد ثمة سبب وجيه لإرجائها. وبما أن الكونت رأى أن وضعي على ما يرام وأنني جاهز للسفر، سافر بعد الطعام مباشرة لكي يصل إلى مزرعته في اليوم ذاته في حين صرت أنا أبحث عن المحطة التي افتُتحت لأول مرة قرابة هذا الوقت. لأن بعض أجزاء السكك الحديدية التابعة لمناطق أعالي ألمانيا أُنجز الآن ترابطها لأول مرة وهو ما مكنني من الوصول على الطريق الجديد بصورة أسرع إلى الحدود السويسرية ولو لم يكن ذلك باتجاه مستقيم. وعلى أساس هذا التغيير تمكنت من تحديد طول غيابي.

حين اجتزت نهر الراين ووطئت قدماي أرض الوطن، كان هذا الوطن يعج بضوضاء تلك الحركات السياسية التي انتهت بعملية تحويل اتحاد دول دام خمسمئة عام إلى دولة اتحادية، فكانت تلك عملية عضوية أنست نظراً إلى قوتها وتنوعها الصغر الظاهري للبلاد، إذ ليس ثمة شيء صغير وشيء كبير بل إن بيت نحل غنياً بالخلايا ويعج بالطنين ومسلحاً تسليحاً جيداً هو أهم من كثيب رمل هائل. في الطقس الربيعي النادر الجمال كنت أرى شوارع

ومطاعم مكتظة بالناس وكنت أسمع صراخاً غاضباً بشأن فعلة عنف ناجحة أو فاشلة. كان الناس في تلك الآونة يعيشون في وسط سلسلة من التحولات والتحركات الانتخابية والتغيرات الدستورية، الدموية منها والجافة التي أطلق عليها اسم انقلابات وكانت نقلات شطرنجية على لوحة الشطرنج العجيبة في سويسرا، إذ شكلت كل خانة كياناً قائماً بذاته صغيراً أو كبيراً من كيانات السيادة القومية؛ الواحد منها له من يمثله والآخر ديمقراطي، لهذا حق الاعتراض وذاك لاحق له في ذلك، لهذا طابع مدني ولذاك طابع ريفي وثمة كيان آخر أيضاً مدهون بزيت سيطرة الكنيسة ولم يستطع أن يرى بعينيه.

وفي الحال سلمت أمتعتي إلى مصلحة البريد وقررت أن أقطع المسافة المتبقية من سفرتي مشياً على الأقدام لكي أطلع بنفسي على عجل على معلومات مؤقتة عن الأوضاع الراهنة عبر مشاهدة شخصية؛ فعلى طريقي ذاته كان ينتشر الدخان والحريق في أمكنة متعددة.

ومع كل ذلك غطى البلاد في كل مكان أريج فواح تحت سماء زرقاء وكان يومض منه الشعاع الفضي المنتشر على سلاسل الجبال والبحيرات والأنهار، وكانت الشمس تلهو بأشعتها فوق الخضرة اليافعة المنداة. صرت أرى الصور الغنية من الوطن في سهول ومياه هادئة وأفقية، في الجبال متعرجة بانحدار وجرأة وفي السفوح أرض مزهرة وبالقرب من السماء قفار رائعة، كل ذلك متبدل بلا توقف ويضم بين جنباته في كل مكان كثيراً من الوديان المأهولة بالسكان والمواطن المختارة للإقامة. وفي لحظة من شرود الشباب وعمر الصبيان عددت جمال هذه البلاد مأثرة سياسية – تاريخية ومن ثم إلى حد ما إنجاز وطني من إنجازات الشعب ويعني تماماً الحرية ذاتها؛ وبقوة بنيان وحركة نشيطة ملحوظة مشيت عبر أجزاء من مناطق كاثوليكية ومُصلَحة وأخرى موقَظة ومُعتَّمة بعناد وإصرار، وحين تخيلت على هذا النحو ذلك الغربال الكبير برمته المليء بالدساتير والطوائف والأحزاب والسيادات والمواطَنات، الذي ستغربَل به أخيراً أكثرية قانونية واضحة التي

هي في الوقت ذاته أكثرية القوة والوجدان والعقل القادر على متابعة الحياة، حلت بي الرغبة الدافقة في أن أنضم بصفتي مواطناً فرداً وجزءاً يعكس الكل إلى النضال، وأصنع من نفسي في خضم هذا النضال رجلاً فرداً فعالاً وناشطاً وحياً، ويسهم مع الآخرين في النصح وفي العمل بهدف المساعدة على كسب الجموح النبيل الذي تتميز به الأكثرية وهو جزء منها ولكنها ليست عنده أكثر قيمة من الأقلية التي تمت له الغلبة عليها لأن هذه الأقلية وتلك الأكثرية هما من ناحية أخرى من اللحم والدم نفسيهما.

قلت لنفسي: "ولكن الأكثرية هي القوة الفعلية والضرورية في البلاد، ملموسة ومحسوسة بقدر الطبيعة الجسدية التي نرتبط بها أشد الارتباط. إنها المتكأ الوحيد، الذي لا تخطئه العين، فتي دائماً وقوي دائماً بالقدر نفسه؛ ولذلك ينبغي جعلها في الخفاء معقولة وواضحة حيث هي ليست كذلك، هذا هو الهدف الأسمى والأجمل. ولأنها ضرورية ولا محيد عنها فإن العقول المقلوبة لدى جميع المغالين تعمل ضدها في حين تنهي هي دائماً الصراع وتهدئ حتى من روع المهزوم بينما تغريه جاذبيتها الفتية على مر الدهور إلى عراك جديد معها فتحفظ له بذلك حياته العقلية الخاصة به وتغذيها. وهي دائماً لطيفة ومحط رغبة، وحتى حين تخطئ فإن المسؤولية العامة هي التي تتحمل الأضرار الناجمة عن هذا الخطأ. وإذا ما أدركته فإن الاستفاقة منه بمنزلة صباح أياري منعش وتشبه ما هو الأظرف في الوجود. ولا يخطر ببالها أن تخجل كثيراً، لا بل يفضي المرح المنتشر في كل الأرجاء إلى رغبة في حدوث الخطأ المرتكب، ما دام يغني خبرتها ويثير الرغبة في التحسين ويلقي الضوء بكل سطوعه وجلائه على العتمة التي هي في طريقها إلى التبدد.

"الأكثرية هي المهمة المثيرة، التي يستطيع الفرد المنتمي إليها أن يقوّم نفسه بموجبها، وإذا ما فعل ذلك تحول عندئذ فقط إلى رجل كامل الرجولة، وثمة تفاعل غريب يحدث بين الكل وجزئه الحي.

"الجمهور ينظر عندئذ فحسب إلى ذلك الفرد الذي يريد أن يقول له شيئاً، وهذا الفرد بدأبه بشجاعة على الصبر يظهر أفضل مواصفاته ومناقبه من أجل أن ينتصر، ولكنه لا يفكر في أن يكون معلم الجمهور وقائده؛ فقد كان قبله آخرون في هذا المضمار وسيأتي بعده آخرون أيضاً والكل وُلد من رحم الجمهور؛ الفرد جزء من الجمهور والجمهور يضع نفسه أمام الفرد لكي يجري معه، أي مع ابنه ومن يشكل ملكية له، حديثاً ذاتياً. فكل خطبة شعبية هي حوار ذاتي فحسب ويلقيها الشعب على ذاته، ولكن سعيد الحظ هو من يستطيع أن يكون في بلاده مرآة لشعبه ومن ثم من لا يعكس شيئاً آخر سوى شعبه في حين أن هذا الشعب ذاته ينبغي أن يكون مجرد مرآة صغيرة للعالم البعيد الحي".

هكذا تحدثت مع نفسي بحماس متزايد كلما اشتد لمعان زرقة السماء وكلما اقتربت أكثر من مدينة الآباء والأجداد.

بالطبع لم يحدثني قلبي بأن الزمن والتجربة قد يعكران صفو الوصف المريح للأغلبيات السياسية؛ ولم ألاحظ أنني في اللحظة ذاتها التي أردت فيها أن أتصرف من تلقاء ذاتي نسيت أيضاً عِبر التاريخ قبل أن أخطو الخطوة الأولى. فالحقيقة الكامنة في أن شخصاً واحداً قـد يتمكن من تسميم أغلبيات كبيرة وإفسادهم وامتناناً لذلك قد تسمم هذه الأكثريات وتفسد بعض الأفراد الصادقين المخلصين، وحقيقة أن أكثرية كُذب عليها ذات مرة قد تستمر في الرغبة في هذا النوع من الكذب وترفع باستمرار راية كذابين جدد مثل وغد شرير وحيد عن وعي وتصميم، وأخيراً كذلك حقيقة أن استفاقة المواطن والفلاح من خطأ للأكثرية كان كلفه الكثير ليست صحوة مزدهرة مشرقة ما دامت جرت عليه أضراراً وأذى، كل هذه الحقائق لم أتبصر بها ولم أكن أعرفها.

ولكن حتى مع هذه الظلال فقد كان ما لا محيد عنه وما هو حتمي في عالم الأكثرية، اللذين من دون موافقتهما يذهب هباءً أعتى الحاكمين بأمرهم، كما كانت أيضاً العظمة البحتة لهذه الأكثرية، إلا إذا لم تكن فاسدة، من القوة

بمكان بحيث استطاعت حمل مقاصدي وروت تعطشي للرغبة في الحياة من جديد. وهكذا كانت خطوات سيري تتسارع بجرأة وتوثب أكبر إلى أن أحسست فجأة ببلاط المدينة تحت قدمي وحصرت تفكيري بقلب خافق في أمي وحدها، التي كانت تقيم فيها.

كان لابد أن تكون أمتعتي قد وصلت إلى مركز البريد، لذلك وجهت خطواتي أولاً إلى هناك لكي أتناول في يدي علبة تحمل تحية سفري المتواضعة إلى أمي، أي قطعةَ قماش لثوب ناعم على أمل أن أستطيع إقناع أمي بارتدائه ومخزوناً من الفطائر والكعك من صنع بلاد أجنبية، وهي غنية بالتوابل وتبقى مدة طويلة دون أن تتلف، على أمل أن تثير شهية أمي للطعام وتلقى عندها قبولاً حسناً.

سرت والعلبة في يدي في وقت بعد الظهر، الذي كان لا يزال مضيئاً، عبر شارعنا القديم؛ وقد ظهر لي حينذاك أكثر حيوية واكتظاظاً مما قبل سنين طويلة؛ ورأيت أيضاً أن بعض مخازن البيع الجديدة قد أقيمت وورشات قديمة ملوثة بالهباب قد اختفت، ورأيت بيوتاً كثيرة أعيد بناؤها وأخرى كانت على الأقل مزينة حديثاً. بيتنا فقط، الذي كان في السابق واحداً من البيوت الأكثر نظافة، ظهر بلون أسود ومدخَّناً حين اقتربت منه ورفعت عيني إلى نوافذ غرفتنا، التي كانت مفتوحة ومكسوة بأصيص زهور؛ ولكن وجوه أطفال غريبين كانت تطل منها وتختفي من جديد. لم يلاحظني ولم يعرفني أحد حين أردت أن أدخل فوراً إلى الباب المعروف باستثناء رجل أتى مسرعاً عبر الزقاق وهو يحمل في يده متراً وقلم رصاص، كان ذلك الرجل هو معلم الحرفة الذي سبق أن زارني فيما مضى في أثناء سفرته إلى شهر العسل.

ناداني الرجل وهو يمد يده بسرعة ليصافحني: "منذ متى أنت هنا، أم إنك وصلت الآن تواً؟".

قلت:" وصلت في هذه اللحظة"، فأجابني ورجاني أن أذهب بسرعة إلى محله في الجهة الأخرى من الشارع لمدة دقيقة قبل أن أصعد إلى بيتنا.

فلبيت طلبه بشيء من التـــوتر القائم على الرهبـــة والخوف ووجدتني في دكان جميل وفي الجانب الخلفي منه جلست زوجته الشابة على طاولة مكتب، وسرعان ما أتت هي أيضاً إلي وقالت: " يا إلهي، لماذا تأتي متأخراً إلى هذا الحد؟".

وقفت مذعوراً دون أن أستطيع التكهن بما أثار الناس وحرك عواطفهم، ولكن جارنا لم يتردد في إيضاح الأمر لي:

"أمك الطيبة تعاني المرض وهو عضال إلى حدّ أنه ربما ليس من حسن الرأي أن تظهر عندها فجأة دون أن يطلعك أحد على ذلك. منذ الصباح الباكر لهذا اليوم لم نسمع عنها شيئاً؛ أما الآن فالأفضل أن تذهب زوجي بسرعة إلى هناك وتستطلع الوضع، وفي غضون ذلك حبذا لو انتظرت هنا!".

دون أن أظن بحدوث انعطاف محزن إلى حد كبير، لكن منشغل البال، ارتميت دون أن أنبس ببنت شفة على كرسي، وعلبة الهدايا فوق ركبتيَّ. زوج جارنا أسرعت خطاها عبر الزقاق ثم اختفت في الباب، الذي كان لا يزال ينبغي أن يغلق في وجهي بوصفي غريباً. عادت الجارة وعيناها غارقتان بالدموع وقالت بصوت ضبابي غير واضح:

"أسرع في الذهاب إلى أمك، أخشى أنها لن تستمر طويلاً بعد على قيد الحياة، ثمة رجل دين عندها! ويبدو أن المرأة المسكينة فقدت وعيها!".

وهرعت وهي تسير أمامي على استعداد تام للمساعدة إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وتبعتها وركبتاي ترتجفان. تسلقت الجارة درجات السلم بسرعة وسهولة؛ وعلى الطوابق المختلفة وقف أناس في جو رهيب أمام الأبواب وكانوا يتحدثون بأصوات منخفضة كما في بيت يخيم عليه الموت. وأمام مسكننا أيضاً وقف بعض هؤلاء ممن لم أعرفهم؛ دليلتي في بيتنا القديم مرت بهؤلاء بسرعة أيضاً وتبعتها إلى أن وصلنا إلى أرضية سقف السطح حيث رأيت أدوات منزلنا مكدسة بكثافة بعضها فوق بعض وحيث كانت أمي تقيم في حجرة صغيرة هناك. فتحت الجارة ببطء وهدوء باب تلك الحجرة؛ هناك

استلقت المسكينة على فراش الموت مادةً ذراعيها فوق الغطاء، لم تمل بوجهها يمنة ولا يسرة، وكانت تتنفس ببطء. في الأنفاس المميزة بدا أن قلقاً عميقاً يحتضر ويخلي الساحة لراحة الاستسلام والعجز. وأمام السرير جلس الشماس التابع لدائرة الكنيسة وهو يتلو صلاة موت. دخلت إلى الحجرة الصغيرة دون أن أحدث أي صوت وبقيت هادئاً إلى أن انتهى من الصلاة. اقتربت الجارة منه حين أغلق كتابه وهمست في أذنه أن ابن السيدة المحتضرة قد أتى.

فقال: " في هذه الحال يمكنني الآن أن أنسحب"، ثم رمقني للحظة بنظرة متمعنة ثم حيا وانصرف.

اقتربت الجارة الآن من السرير وتناولت منديلاً صغيراً جففت به جبين المريضة المبتل بالعرق وجففت شفتيها أيضاً؛ في حين كنت أنا لا أزال واقفاً في مكاني كمن كان استدعي إلى استجواب في محكمة، قبعتي في يدي وعلبة هدايا السفر بجانب قدميَّ، انحنت الجارة وقالت لأمي بصوت ناعم تعذر أن يرعبها: "يا سيدة لي! هاينريش هنا!".

على الرغم من أن هذه الكلمات بكل ليونتها ونعومتها قيلت بطريقة متيسرة السمع إلى حد أن النسوة المتجمعات أمام الباب المفتوح استطعن سماعها، لم يصدر عن أمي أي إشارة أخرى سوى أن حولت عينيها بهدوء باتجاه المتكلمة. في أثناء ذلك كان حبس أنفاسي، علاوة على الحزن العميق، أيضاً هواء الحجرة الصغيرة المعتكر المدغش؛ لأن غباء المرأة المهتمة بوضع أمي التي جلست القرفصاء في زاوية من الحجرة لم تكتفِ بإبقاء النافذة الصغيرة مغلقة بل كذلك الستارة الخضراء التي أمامها ومن ذلك أدركت أن ما من طبيب كان هنا بعد في هذا اليوم.

من غير قصد أزحت الستارة وفتحت النافذة. فكان من شأن هواء الربيع النقي والضوء المنساب معه إلى داخل الحجرة أن حركا وجه أمي الجدي المتجمد ببارقة حياة؛ ودبت الحركة بقوة في عينيها فوجهت إلي نظرة

طويلة مستفسرة وذلك حين انحنيت إليها وأمسكت يديها؛ ولكن الكلمة، التي حركت أيضاً شفتيها المرتجفتين، لم تستطع بعد أن تخرج من فمها.

هنا خرجت جارتنا من الحجرة آخذة معها تلك المرأة المعتنية بأمي ثم أغلقت الباب بهدوء فارتميت أنا على السرير وصرخت بعالي صوتي: "أمي! أمي". وألقيت رأسي على اللحاف مجهشاً في البكاء. وكان من شأن تنفس متقطع وأقوى أن دعاني من جديد إلى النهوض واقفاً ورأيت حينئذ العينين الوفيتين متهاويتين متكسرتين. أمسكت بالرأس فاقد الحياة بيدي وأبقيت تلك الهامة في يدي على هذا النحو ربما لأول مرة في حياتي، على الأقل حسبما استطعت أن أتذكر، ولكن قضي الأمر في تلك اللحظة إلى الأبد.

خطر ببالي أن عليّ أن أغمض لها عينيها وأن وجودي هنا هو لهذه الغاية وأنها ربما ستحس أيضاً لو أنني تركت ذلك؛ وبما أنني كنت جديداً وغير متدرب في هذا الشأن المرّ فقد قمت بإغماض عينيها بيد خائفة مترددة متهيبة.

بعد حين دخلت النسوة إلى الحجرة وحين رأين أن أمي قد فارقت الحياة عرضن أن يقمن بما هو ضروري وأن يُلبسن الجثمان إعداداً لوضعها في التابوت. وبما أنني كنت حاضراً في المكان فقد طلبن مني تأمين كفن. ففتحتُ إحدى الخزانات المنتصبة على أرضية سقف السطح التي كانت مليئة بملابس جيدة معلقة ومحفوظة منذ سنين ومدخرة وغير مفصّلة بحسب الدُّرجة. ولكن المرأة، التي اعتنت بأمي، قالت إنه لا بد من وجود كفن كانت المرحومة تحدثت عنه ذات مرة وفعلاً وجدنا مثل ذلك ملفوفاً في قطعة من القماش الأبيض ومُلقى في أسفل الخزانة. متى جهزته أمي لهذا الغرض، ذلك ما لم أعرفه.

تحدثت النسوة أيضاً عن أن المتوفاة لم تثقل في أثناء مرضها على أي من الناس وكم استلقت في سريرها هادئة وصبوراً وقلّما طلبت شيئاً من أحد.

* * *

الفصل الخامس عشر

مجرى الحيـاة

بينما كانت النسوة يُعْدِدن السرير والجثمان إلى الوضع المطلوب، لبيت دعوة الجارة إلى الذهاب إلى بيتها لكي أستريح فيه قليلاً. هناك حاول زوجها بحذر، قبل أن يتابع الحديث، أن يعرف أوضاعي المحظوظة ومعايشاتي. فلم أُخفِ عنه حقيقة أنني كنت في أثناء وجوده في تلك المدينة في وضع سيئ، ولكنني أخبرته بعد ذلك عن انعطاف الأمور إلى الأفضل ورويت له كل شيء ماعدا صفقة الحب، وأريته وأنا أبكي القيم المالية التي كنت أحملها معي، ووجدتني أزيح النقود والسندات المالية جانباً وأضع رأسي باكياً من جديد على طاولة الرجل الغريب.

جلس الرجل بذهول وصمت هكذا على غير هدى وحين هدأت قليلاً من روعي فقط أظهر هو استياء شديداً من مجرى الأحداث المفجع ولم يتمالك إلا أن أطلعني على استيائه، فبعد أن انتظرت أمي وقتاً طويلاً على أمل عودتي أو على الأقل إعلامها شيئاً عن أوضاعي واعتلت صحتها قليلاً، تلقت في أحد الأيام دعوة للحضور إلى قسم الشرطة. كان لهذا الأمر، كما يجب أن نظن الآن، صلة بتحريات المحكمة الألمانية عن شخصي بشأن وصية يوزف شمالهُوفر. وسواء أكان التقصير التعيس في الإفصاح عن سبب هذه التحريات قد ارتكب من قبل تلك المحكمة أو لا، الأمر سيان؛ فلدى سؤال أمي عن مكان إقامتي وعدم قدرتها على أن تسمِّيه ووقوفها هكذا مرعوبة ومستفسرة عن

الموضوع، أجيبت بأن لا أحد يعرف شيئاً عنه، ببساطة ثمة دعوة لي للحضور إلى المحكمة؛ والمحتمل هو أنني هربت من ديون أو ما شابه ذلك. هذا التأويل سرعان ما انتشر في كل الأرجاء وكان من شأن كثير من التلويحات والتلميحات أن عزز تصور المرأة المسكينة أنني غارق في الديون وأهيم على وجهي في هذا العالم، فقيراً معوزاً.

بعد ذلك بفترة قصيرة حين سددت أمي فوائد القرض المسحوب على البيت، التي كانت جمعتها بشق النفس، طلب منها إرجاع القرض برمته إلى المصرف فكان عليها في هذه الحال في خضم الهموم المضنية والقلق الشديد أن تسعى إلى الحصول على قرض جديد. ولكنها لم تفلح في إيجاد المال لأن النوايا كانت تتجه إلى تجريدها من ملكية بيتنا وكان وراء ذلك بعض اللاهثين وراء الربح من بينهم المعلم السمكري، الذي كان لا يزال من المقيمين في المبنى بصفة مستأجر، أملاً منه في أن يحصل هو ذاته على المسكن الذي يقيم فيه. أضف إلى ذلك أن مشروعاً لبناء سكة حديد في تلك المنطقة كان برز أخيراً إلى الوجود وإلى حيز التنفيذ وخطط لأن تكون المحطة قريبة من زقاقنا، فترتب على ذلك أن أخذت أسعار العقارات ترتفع يومياً تقريباً دون أن تعرف أمي الغارقة في عزلتها شيئاً عن هذه الأمور.

كان من شأن هذه المنغصات المزدوجة أو المثلثة أن أسهمت إلى حد كبير في تقصير عمرها؛ لأن موعد تسديد القرض اقترب مع مضي كل أسبوع أكثر فأكثر من الاستحقاق.

والآن قال جارنا: "لو علمت أي شيء عن ذلك الوضع لأمكنني بسهولة أن أسدي النصح؛ ولكن صمت أمك سهل على منتهزي الفرص سعيهم في الإبقاء على سرية الصفقة، فلم أسمع عن ذلك إلا مصادفة وقبل بضعة أيام، أي منذ أن ظن السادة أن غنائمهم أصبحت مضمونة. ولكن ما دمتَ الآن هنا فإن أقل من عشر ما هو في تصرفك من الإمكانات المالية كاف لأن تسدد القرض وتحرر بيتك من جديد، الذي هو فيما عدا ذلك غير مثقل بأعباء تذكر

على حد علمي؛ فقد يدر عليك ربحاً كبيراً إذا ما أردت بيعه، فعلى الرغم من أن البيت قديم وذو مظهر غير لائق فإنه مع ذلك قوي البنيان ويحتوي على مكان غير مستخدم يمكن بسهولة جعله صالحاً للسكن. والآن على هذا النحو كان لابد وأن تسير الأمور!"

فكرة أن مصادفة تعيسة واحتيال اللاهثين وراء الربح كان لهما اليد الطولي في اللعبة لم تخفف البتة من ثقل العبء الذي جثم فجأة على ضميري بوزن بدا فيه بالمقارنة بالضغط الناجم عن صورة دوروتيا الحديدية خفيفاً كريش ناعم؛ أو العكس أيضاً: أريد إن أقول أن العبء تحول إلى شعور بالفراغ بقدر ما تكون الدرجة الأعلى في البرودة شبيهة باحتراق، وقد كنت في وضع كأنني خرجت من ذاتي وابتعدت عنها.

رفضت طلب جيراني الودودين أن أبيت عندهم، لأنه بدا من غير الممكن أن أترك أمي وحدها أبيت عندهم. فعدت إلى بيتنا مع حلول المساء. في تلك اللحظة كان المعلم السمكري ذو اللون الضارب إلى السواد واقفاً على عتبة بابه، حييته فدعاني بنظرة متفحصة إلى أن أعرج عليه فرفضت بأن رجوته أن يعطيني شمعة. وحين زودني بها صعدت إلى أرضية السقف الأعلى ودخلت الحجرة الصغيرة ثم أشعلت المصباح النحاسي الذي على ضوئه كنت أراها عبر العقود الطويلة من الزمن جالسة في أمسيات الشتاء الطويلة. كان المصباح مهملاً ولم يعد يلمع، ولكنه كان ممتلئاً بالزيت. هنا استلقت أمي الآن في سلامها الأزلي وأنا، الذي ترددت هكذا من دون تفكير في المجيء إليها، لم أجد الآن سوى بعض التأسي بحضورها الهادئ الذي لا يجوز لي أن أتصور فقدانه. كانت علبتي التعيسة مصدر إزعاج عندي ففتحتها وأخرجت منها قطعة القماش من الصوف الناعم التي كنت خصصتها لأن تكون ثوباً لأمي. كنت على وشك أن أفتح قطعة القماش وأضعها بوصفها غطاء خفيفاً واقياً على السرير والجثمان لكي أقربها على نحو ما من المتوفاة، إلا أنني أدركت عدم جدوى عمل متصنع كهذا في لحظة جدية كهذه؛ فلففت

القماش وخبأته مرة أخرى في العلبة. وعلى الرغم من أنني كنت متعباً من الرحلة مشياً على الأقدام أياماً طويلة، فقد أمضيت تلك الليلة منتصباً في جلستي على كنبة القش الصغيرة على حافة النافذة، ونمت مع ذلك من حين لآخر وكان استيقاظي بالطبع في أثناء ذلك مؤلماً في كل مرة على نحو مزدوج حين كنت أتأكد مجدداً من وجود الأم الصامتة.

في اليوم التالي أتى مبعوث من جمعية دفن الموتى، التي كان أبي ساعد وهو على قيد الحياة في تأسيسها، واتخذ كل الإجراءات اللازمة؛ ولم تكن بحاجة إلى اتخاذ أي خطوة. وتكاليف الدفن أيضاً كانت مغطاة منذ زمن طويل نتيجة لما كانت أمي تدفع من أقساط التأمين في حينها وفي مواعيدها الدقيقة؛ حتى إنه عُرض علينا لاحقاً استرجاع مبلغ صغير. هكذا رحلت من هذا العالم دون أن تسبب متاعب للآخرين، في هذا المجال أيضاً.

حين بحثت في تركتها عن الوثائق ذات الصلة كان علي أن أفتح إجمالاً الخزانة وطاولة المكتب فوجدت بعض الأشياء السرية التي لم يسبق أن رأيتها في حياتي، ففي علبة خشبية مزينة بالقصدير كان ثمة أدوات زينة مصفرَّة ترجع إلى أيام شبابها مثل زهور اصطناعية، بضع قفازات حريرية بيضاء اللون، أشرطة مضغوطة بعضها مع بعض ونادراً ما استخدمت أو أنها حتى لم تستخدم أبداً، إضافة إلى بعض التقويمات المذهبة القديمة، ربما كانت هدايا عفا عليها الزمن منذ مدة طويلة؛ ولكن ما فاجأني أكثر من أي شيء آخر كان كتاباً فيه مجموعة صغيرة من الأشعار والأغاني المنسوخة، التي ربما نالت إعجابها في أيام صباها، وبين صفحات ذلك الكتاب كان ثمة ورقة مطوية مفكوكة، كذلك بخطها آنذاك حائل اللون وعليها قرأت:

حق مفقود، حظ مفقود

حق مع حسن الحظ هو قدر ذهبي،
يتيح لك أن تعلي من شأن البلاد والناس!

حسن حظ مع الحق هو روح مرحة؛
من ينعم بها يتقن عمله!

حق مع سوء الحظ هو منظر مبهر،
كالبحر في هول الطقس!
يهدر رائعاً على حافة صخور الشاطئ،
ويرمي لآلئ على الرمال؛

رأيت بحاراً شيبته السنون،
يبحر فوق الماء،
كان شبيهاً بدرع ميودسا
صورة للجيشان المتحجر.

وكان يغني: "آلاف المرات
انزلقت في وادي الأمواج،
ارتفعت إلى علو الأمواج،
ثم اضطجعت فوق البحر الهادئ!

"والموجة كانت خادمتي،
لأن حليتي كانت الحق؛
حتى البارحة كنت لا أزال نائماً مع تلك الحلية
آه، الآن تستلقي هناك في أسفل الأعماق!

"في العمق البعيد المعتم
يومض نجم كان سقط؛

والوضع هو كألف عام،
إن الحق كان حقي في يوم من الأيام.

"حين يهيج البحر الآن من جديد
يتوقف الكل عن مدح المعلم:
إذا ما أصابني حسن حظ، لا أستحقه،
فحسن الحظ يحطمني كسوئه!"

أي إعجاب كان أن تعمل فتاة بهذا العمر اليافع ذات مرة هذه المقاطع الشعرية النادرة وتحتفظ بها؟

وجدت في تركة أمي أيضاً بقايا أخرى من قصاصات ورق مكتوبة وتعود إلى الأعوام الأخيرة إن لم تكن من آخر فترة في حياتها. ففي محفظة صغيرة احتوت على مخزون قليل من ورق الرسائل كان ثمة قصاصة بدا أنها كانت تتمة لرسالة بأن بدأت الكتابة فيها في أقصى علو في الزاوية اليسرى. قرأت في هذه البقية من رسالة:

"إذا ما أراد الله بالفعل أن يكون ابني سيئ الحظ ويعيش حياة ضالة، فلا مفر من أُسأل عما إذا كنت أنا، أمه، هي من تحمل وزر ذلك ما دمت نظراً إلى جهلي لم أستطع أن آخذ بيده إلى تربية رصينة ثابتة فتركت الطفل لحرية وتعسف لا حدود لهما. أما كان ينبغي علي بمساعدة أولي الخبرة أن أستخدم شيئاً من الإلزام والإكراه في تأمين مهنة لابني تدر عليه كسباً مضموناً بدلاً من تركه وهو لم يعرف العالم بعد لهوايات غير محقة تلتهم مالاً ولا هدف لها؟ وحين أرى كيف يجبر آباء ميسورون أبناءهم، غالباً حتى قبل بلوغهم سن العشرين، على كسب عيشهم بأيديهم وكيف يبدو ذلك أنه لا يعود على هؤلاء الأبناء بغير الخير والفائدة، يثقل علي بصورة مضاعفة تأنيب النفس المحزن والمعروف منذ الأزل، ولم أتوقع نظراً إلى سذاجتي وسلامة نيتي أن

أُبتلى في يوم من الأيام بتجربة كهذه. بالطبع سألت وقتها عن نصيحة؛ ولكن ما دامت الموافقة لم تتم على رغبات الولد توقفت عن التماس النصائح وتركت الأمر وشأنه. بذلك ترفعت عن طبقتي، وإذ توهمت أنني وضعت في هذا العالم عبقرية فذة فخدشت التواضع وسببت لابني ضرراً ربما لن ينجو من تبعاته طول حياته، أين ينبغي أن أبحث الآن عن العون؟".

هنا انقطعت الكتابة؛ فمن الكلمة التالية لم يوجد سوى الحرف الأول. إلى من وُجهت الرسالة، إن كانت أُرسلت محتوية على الجزء الأعلى منها أو من دونه بل إن كانت أُرسلت فعلاً إلى أحد، لم أعرف شيئاً عن كل هذه الأمور؛ ثم إنني لم أجد جواباً عنها بين الرسائل المُحتفظ بها. ربما كانت أمي أخفت هذا الشيء ذات مرة. بالمقابل اندمجت الآن مسألة الحق العجيبة، التي طرحها الحظ المفقود في المقاطع الشعرية الآنفة، مع تلك الواردة في الجزء المتمم للرسالة وأثقلت علي بصفتي المسؤول الوحيد عما اقتُرِف.

هكذا تكسرت الآن المرآة التي عول عليها أن تعكس حياة الشعب، وأصبح الفرد، الذي أراد بفضل أكثرية الشعب أن ينمو معززاً بالآمال، مجرداً من كل حق، فبما أنني كنت دمرت مصدر الحياة المباشر الذي ربطني بالشعب، فلا حق لي إذاً في أن أشارك هذا الشعب في حياته وفعالياته، عملاً بقول من قال: من يُرد الإسهام في إصلاح العالم، فليكنس أولاً أمام بابه.

بعد أن أُغلق قبر الأم المسكينة، أقمت بعض الوقت في الحجرة الصغيرة التي ماتت هي فيها، وبعد ذلك بعت البيت عملاً بنصيحة الجار وربحت فعلاً آلافاً كثيرة من الصفقة بحيث جمعت مما جلبت معي من مال وما ربحت من بيع البيت ثروة صغيرة مكنتني من العيش بتواضع واعتكاف. ولكن الأمر الذي برز مصادفة ولازم غناي الزهيد، لم يسرني ولم أستطع أن ابني عليه عيش كسل وبطالة؛ وبما أن الإنسان علاوة على ذلك يحيا لا من الغريزة البدنية فقط للإبقاء على الذات بل من غريزة معنوية أيضاً، فقد نويت إجراء بعض الدراسات بناء على نصيحة الكونت لا بهدف الظهور والبروز

بل لمجرد إنجاز الضروري من أجل إعدادي لوظيفة في الإدارة، راضية بالقليل، وإحاطتي نوعاً ما بالنظام الذي قامت على أساسه. ولذلك قرأت أحياناً أشياء أصعب وأحياناً أخرى أشياء أجمل ذات طابع عام لكي أضفي على أفكاري المرتبكة والملحة شيئاً من الحرية والتشتت. فبينما تحول ألم الندم بسبب الأم بالتدريج إلى خلفية معتمة لكن هادئة بصورة متساوية وقائمة على أساس من انعدام السرور، بدأت صورة دوروتيا تتحرك في ذاكرتي من جديد بوتيرة أكثر حيوية من ذي قبل، دونما إلقاء أي ضوء على الظلمة المهيمنة.

كنت لا أزال أحمل القول المتعلق بالأمل والمطبوع على ورق أخضر في المحفظة الصغيرة لرسائلي وأوراقي على صدري وأقرؤه من حين لآخر مع تنهيدات وهزات رأس عصية على التصديق. ومع افتراض حسن الحظ، الذي بدا أن كلماته البسيطة توحي به وتعلن حصوله، كنت مع ذلك في وضع يستدعي الخوف منه وتقريباً في مزاج مدّع متباهٍ يضم إلى صدره في مكان بعيد امرأة جميلة رائعة ولا يستطيع أن يريها الكوخ الحقير الذي يعيش فيه. وحتى على مجرد التواصل اللطيف مع أمكنة بعيدة لم أبدُ آنذاك قادراً لأنني كنت أخجل من الاعتراف بحقيقة وضعي ولم أشأ أيضاً أن أكذب، فزمن التلفيقات المزاحية وألاعيب المخيلة، وحتى في المفهوم البريء للكلمة، كان ولى إلى غير رجعة.

مضت عشرة شهور إلى أن تمكنت من الكتابة إلى الكونت من دون أن أختلق أي شيء أو أظهر بمظهر تعيس وبائس جداً.

غير أنه لم يقابل تقصيري بالمثل؛ بل سرعان ما تلقيت منه رسالة طويلة تناول فيها وضعي حسب إدراكه له بكلمات جيدة بصفته جزءاً من مجرى الحياة كما يمر على حد سواء عبر قصور وأكواخ ويغزو العادلين والظالمين من الناس وتبعاً لطبيعته يتغير باستمرار من دون توقف.

وتابع الكونت في رسالته قائلاً: " أما ما يتعلق بعزيزتنا دورتشن فهي تحظى الآن، ونحظى معها نحن الآخرين، بمقدار وفير بما قُسم لها من

نصيب. فمنذ أن غادرتنا ابتسم لها الحظ إذ تبين أنها بالفعل- ابنة أخي وعلى أساس قرابة الدم أيضاً، ولا شيء غير ذلك! لا أستطيع الآن أن أشرح لك الحدث بالتفصيل في هذه العجالة وسأكتفي بالتلميح ببعض الخطوط العريضة: بعد فترة قصيرة من موت أخي، الذي كان قُتل إثر نزاعات في جنوب أمريكا، ماتت أيضاً أرملته وكانت أوصت قبل موتها بأن تُرسل طفلتها مع أناس تتوفر فيهم الأمانة إلى ذويها الألمان. ولكن أولئك الناس المؤتمنين لم يكونوا مخلصين ولا جديرين بحمل الأمانة. فلكي يستطيعوا الاحتفاظ بمال دُفع إليهم فوراً دون حذر أو حساب لما يمكن أن يحدث فيما بعد (للمناسبة كانت تلك مبالغ قليلة)، ساقوا إلي الطفلة على طريق تركها لقيطةً. ثم ذهبوا بصورة محققة مع أولئك النازحين إلى جنوب روسيا أو الأرجح أنهم انضموا إليهم في الطريق إلى منطقة نهر الدانوب ثم أدّوا دورهم بمكر ودهاء. وما دام لم يأت قط أي استعلام من أمريكا عن الموضوع كما لم يأت سابقاً أي خبر عن إرسال الطفلة إلى ألمانيا ولا عن موت أمها، فقد حدث كل شيء على هذا النحو، لا على غيره. ومن جديد فقط، لأن الزوجين المذنبين، اللذين كان أوكل إليهما أمر طفلتنا آنذاك، تقدم بهما العمر وعانيا تبكيت الضمير وربما دفعتهما الرغبة أيضاً في الحصول على مكافأة الرحمة، جاءا إلينا مصطحبين معهم كل الثبوتيات المعتادة والمحتفَظ بها بعناية، المتعلقة بقصص كهذه عن العثور على الأطفال المفقودين؛ وهكذا كسبنا كونتيسة أخرى جديدة في الوطن الألماني! كم سيمضي من الوقت إلى أن تصبح كونتيستنا مادة وموضوعاً لرواية أو حتى لعدة روايات، الله أعلم؛ لقد أعددتها أيضاً لبضع مسرحيات شعبية وميلو دراما. لكنها لا تلقي بالاً لذلك، ما دامت بدأت بالتحضير للجزء الثاني من الرواية. وقبل أربعة أسابيع ارتبطت الكونتيسة دوروتيا ف. بيرغ (في الحقيقة كان اسمها لدى ولادتها إيزابيل) بموجب خطبة بالبارون الشاب تيودور فون ف. بيرغ. إنه شاب جميل وفاضل وهو من خط نسب الناس الذين يسمون بهذا الاسم ولم يعد لخط النسب هذا منذ مئات السنين علاقة

بخطنا نحن. وسوف يُمنح لقب كونت وأسمح أنا بأن ينتقل إليه حق الأقدمية في الميراث، إذ ليس ثمة ما يدفعني إلى منع استمرارية وجود الاسم ولا إلى الرغبة فيها. وكما هي الأمور على حالها الآن فلا يهمني مطلقاً إن صرفت النظر عن السرور الذي أسببه للابنة مجاملة لخطيبها.

"ولكن الآن ترد في الحسبان رؤية تهمنا نحن الاثنين، يا عزيزي هاينريش! فقد رأيتُ تماماً في أثناء وجودك عندنا أنك وقعت في غرام دورتشن! وهنا تظاهرت أنا بأنني لا أرى ما يجري، لأنني لا أتدخل عادة في أمور كهذه إذ يستطيع الناس أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم ويعرفون ما عليهم أن يفعلوا. خصوصاً أن جماعة الشعر الطويل متقلبة ومزاجية إلى حد أنه من غير المجدي أن تسوِّد وجهك من جراء إسداء نصيحة لا لزوم لها. وأنت أيضاً لم تكن خارج نطاق اهتمام البنت وحتى الآن لا تزال صحيفتك بيضاء عندها. كانت المسألة تقريباً على النحو التالي: لو أنك فعلت مالم تفعله بسبب أنك إنسان يراعي الاعتدال، أي لو أنك أفدت في أثناء وجودك عندنا من الوقت ومما في مصلحتك أو كتبت إلينا بعد وصولك إلى بلدك بوقت قصير، لبقيت دوروتيا على ما أظن حتى هذه الساعة من نصيبك. ولكن بعد أن أمضيت هناك فترة غامضة، قفزت هي فوق هذه الهوة حين ظهر الخطيب المصمم الجاد، الذي جعلها من جديد بطريقة غمرتها بالسعادة في مصاف النظام السائد في هذه الدنيا.

"ولكن بصرف النظر عن هذا الوضع المدرَك والمتيسر الفهم، فلا يجوز أن نحكم بقسوة على عدم استقرار طفلتنا، إلا إذا كان شيء كهذا موجوداً فعلاً. فالشابات الطيبات يعتمدن كلياً على أنفسهن وإذا ما أقحمن أنفسهن في ورطة فعليهن في واقع الأمر التخلص منها دون مساعدة أحد، مع كثير من المعاناة والآلام إلى حدّ تُفسَّر بموجبه الفجائية الناجمة عن ذلك التي تغيِّر غرائزهن من حين لآخر. فترة ازدهارهن تنقضي بسرعة بحيث، إذا لم تُقل في أثناء ذلك كلمة حاسمة، لا يطقن انتظاراً كان أراد على ما يبدو أن

يوطن نفسه ويحتفظن في الخفاء بحقهن في اتخاذ أي قرار. وإذا ما منحن أملاً وتعذر في الوقت المناسب إلزامهن إياه، يقفزن فوقه ويهملنه؛ لأنهن يردن إنجاب الأطفال وتربيتهم وهن في عمر الشباب، لا نصف شيخات. وتحديداً أجملهن وأصحهن يسرعن بقوة إلى ممارسة مهنهنّ ويعرضن بعد ذلك في أغلب الأحيان عن الزواج إذا ما أخطأن الهدف في أفضل اللحظات ففاتهن القطار.

"عُدَّ زواجي نوعاً ما حالة فريدة من نوعها وكان الناس يقولون، لابد أن يكون الأمر هكذا لأن شخصين فريدين من نوعهما تزوجا. بقدر ما انطبق هذا القول علي شخصي، كان ذلك بالطبع تهكماً على ارتدادي عن التحيز والأحكام المسبقة؛ أما على زوجتي فقد أحسنوا تطبيق القول عليها بأفضل معاينة؛ ومع ذلك لولا أن الأمر بقي معلقاً بشعرة واحدة، لقاد العروس إلى داره رجل غيري.

"هذا هو أيضاً جزء من مجرى الحياة".

لم يكن ثمة حاجة لهذه المواساة المؤنسة من قبل الصديق الأكبر سناً لطرد أشباح الهوى الجارف، العاملة في داخلي. فمجرد حقيقة أن دوروتيا مخطوبة وسميت الكونتيسة إيزابيل زو. ف. بيرغ كانت كفيلة باستحضار الوضع الذي كنت سأقحمها فيه حتى لو أنها بقيت لقيطة وكنت أنا أقل تحفظاً وقامت بيننا علاقة. تخيلت الوضع كما لو أننا نريد وضع فراشة كبيرة في قفص صغير للجراد. وألهم الدفين أن أتعرض لإحراج من هذا النوع مقابل تحقيق أقصى حدود السعادة الجميلة زال عن كاهلي وتنفست الصعداء فلم يبقَ في قلبي سوى الحنين الهادئ لفقدان الحبيبة في وئام تام إلى جانب الحزن العميق على أمي. بالطبع دفعت ثمناً باهظاً لمجرى الحياة هذا. فتحويل طريق سفري عبر قصر الكونت لم يكلفني أمي فقط بل كذلك الإيمان بلقائها وبالله ذاته، ولكن هذه كانت كلها أموراً تبقى أهميتها ماثلة في الحياة وجزءاً منها وتظهر فيها المرة تلو الأخرى.



الفصل السادس عشر

هيكل التتـويج

بعد ذلك بعام واحد تقريباً توليت إدارة مكتب صغير لوظيفة حكومية عالية، كان متاخماً للمكتب الإداري لقريتنا القديمة. هنا تمكنت من العيش بهدوء في جو عمل متواضع ومتنوع وكنت في وضع وسط بين جماعة المواطنين وإدارة الدولة بحيث تسنّت لي الرؤية إلى فوق وإلى تحت وتعلمت إلى أين تسير الأمور ومن أين تأتي، إلا أن هذه الأمور لم تتمكن من إلقاء الضوء على الظلال المعتمة التي غطت على نفسيتي المدمَّرة، ولأن كل ما رأيت وعايشت أصبح قاتماً ولذلك ظهرت لي تصرفات الناس وعقلياتهم، التي عايشتها في مجال عملي الجديد أكثر غموضاً والتباساً مما هي عليه بالفعل. حين كنت أرى ميل الناس هنا أيضاً إلى التخاذل ونسيان الواجب أو محاولة كل واحد أن يوجه ما توفر من مياه قليلة إلى طاحونته؛ ثم أرى أن الحسد والغيرة كانا يعششان بصورة مزعجة حتى في أصغر شؤون العمل الإداري، نزعت إلى أن أُرجع هذا الوبال إلى طباع كل الشعب وشخصيته الكلية، التي أغوتني خداعة مضللة إلى حد كبير في عالم الذكرى وعالم الغربة البعيدة. ولكنني حين تذكرت وجداني المثقَل، لذت بالصمت بدلاً من أن أفصح بصراحة عن هذا الرأي في وقت مناسب. اكتفيت بأداء واجباتي بانتظام وهدوء قدر الإمكان لكي أمضي الوقت من دون اضطراب، لكن كذلك من دون أمل بعيش أكثر انتعاشاً وحركة. عدّ الناس طريقتي هذه نموذجاً لأداء

وظيفي جيد، وبما أنهم كانوا أفضل وأكثر رضاً مما كنت أتوقع عن ذلك، فقد عملوا بعد بضع سنين تالية من دون دعم مني وضد رغبتي على تعييني رئيساً للوحدة الإدارية لتلك المنطقة، وفي هذا الموقع كان لزاماً علي أن أزيد من اختلاطي بالناس ومن مشاركتي في لقاءاتهم المختلفة بوصفي دائماً ذلك الموظف الحكومي المكتئب وقليل الكلام، الذي هو أنا. والآن تعرفت، بما أنني كنت أرى الحركة السياسية بمجملها وعن كثب، آفة كانت جديدة عليّ مع أنها لحسن الحظ لم تكن مهيمنة إلى حد كبير. رأيت كيف وُجد في جمهوريتي الحبيبة أناس جعلوا من هذه الكلمة عبارة جوفاء وطافوا بها كما تطوف العاهرات في السوق السنوية حاملات سلالاً صغيرة على أذرعهن. وآخرون رأوا في عبارات مثل جمهورية، حرية ووطن لا أكثر من ثلاث عنزات يحلبونها باستمرار ليصنعوا من حليبها جبنة ماعز صغيرة من كل الأصناف والأنواع؛ في حين كانوا يستخدمون هذه العبارات مراءاة وخداعاً تماماً كالفَرّيسين والمنافقين. وثمة آخرون أيضاً، إذ كانوا عبيداً لأهوائهم، تراهم لا يتشممون في كل مكان سوى العبودية والخيانة، مثلهم في ذلك مثل كلب طُلي أنفه بجبن قريش ولذلك يرى العالم كله لبناً قريشاً ليس إلا. وتشمم العبودية هذا كان له أهمية تواصلٍ محددة وفي نطاق ضيق، إلا أن الفخر الوطني كان مع ذلك أكبر وأعلى. كل ذلك مجتمعاً لم يكن إلا عفناً مضراً يدمر كياناً جماعياً إذا ما قدر له أن ينمو بضخامة وكثافة؛ ولكن الأغلبية كانت في وضع سليم، وحينما تحركت بصورة جدية زال العفن من جراء ذلك. أما أنا بالمقابل فقد رأيت نظراً إلى حالتي النفسية المريضة أضرار الزيف بقدر عشرة أضعاف عما كانت عليه أصلاً، ومع ذلك لذت بالصمت بدلاً من أن أدوس على أقدام المثرثرين الزائفين؛ وبذلك سكتُّ أيضاً عن بعض الأمور التي أمكن أن يتمخّض ذكرها عن فائدة حقيقية.

شعرت بأن تلك لا تسمى حياة ولا يمكن أن تستمر على ما هي عليه وبدأت أمعن التفكير في كيفية الخروج من هذا السجن الجديد المكبل للعقل،

ومن حين لآخر تحركت دائماً بشكل ملموس أكثر الرغبةُ في أن أرحل عن المكان إلى غير رجعة.

وفي أحد الأيام أمضيت ساعات طويلة في شوارع منطقتي الإدارية لكي أدرس برفقة المهندس المعماري أوضاع تلك الشوارع، وبعد إنجاز ذلك العمل انفصلت عن الرجل لأنني أحسست بالرغبة في أن أمشي وحدي في أرجاء المنطقة. وهكذا وصلت إلى وادٍ ضيق ناءٍ ومعزول بين منحدريْ جبلين تكسوهما الخضرة ويعمهما الهدوء بحيث كان يُسمع الحفيف في هامات الأشجار البعيدة. وفجأة أدركت أن ذلك الوادي هو جزء من منطقة موطني مع أنه كان بسيط التشكل إلى حدّ أنه لم يقدم ولا في أي بقعة شكلاً مميزاً ولم يظهر فيه أي أثر للناس والمباني.

تقريباً في منتصف الطريق، الذي يخترق الوادي، استلقيت على مرتفع من الأرض، صغير وأخضر، واستسلمت للذكريات المؤلمة حول كل شيء كنت علقت به الآمال، لكن فقدته وضللني وأخطأت فيه الهدف. وأخرجت من جديد قصاصة دوروتيا الخضراء التي كانت لا تزال بين واحدة من طيات لوحي الأردوازي المخصص للكتـــابة. وقرأت منها: "غير أن الأمل يُظهر للقلوب المخلصة طيبة إلى الأبد!" واستغربت من أنني كنت لا أزال أحتفظ بذلك الإقرار الصغير المضلل. وبما أن هبة ريح ضعيفة هاجت فوق الأرض الدافئة بفعل حرارة الصيف، تركت القصاصة في مهب الريح فأخذت ترفرف مرتاحة عبر العشب وأزهار المروج دون أن أتابع النظر إليها.

وقلت لنفسي: "الأفضل أن تضطجع تحت صدر الأرض هذا وألاَّ تعرف أي شيء عن أي شيء! فهنا تستريح النفس بكل هدوء ولطف!".

وبعد هذه التنهيدة، التي لم تعد جديدة عليّ، جلت ببصري اعتباطاً في أرجاء المرج الواقع في المنحدر الجبلي المقابل، الذي ظهر في منتصف علوه شريط صخري من رصيص متلاحم من الحصى بمختلف الأحجام، رمادي اللون. واعتباطاً أيضاً رأيت جسماً خفيفاً من اللون الرمادي ذاته على طول

الشريط الصخري ينزلق أو يتموج، وبما أن المنحدر كان مضاء من شمس الأصيل فقد رأيت أيضاً في الوقت ذاته خيال ذلك الجسم يشترك في عملية الانزلاق على جدار الصخور. كنت أعلم أن درباً ضيقاً يمتد هناك على طول حافة الصخر فتابعت بنظري ذلك الظهور، الذي كان يتحرك بإيقاع مرئي ذكَّرني بشيء سبق لي أن رأيته من قبل في مكان ما. وحين كان الجسم، الذي كان ملحوظاً وواضحاً أنه نسائي الهيئة، وصل إلى نهاية الجدار الصخري استدار وعاد من حيث أتى على الدرب ذاته؛ هنا خُيل إلي كما لو أن شيطان الجبل خرج من الصخور لكي يجول في أشعة المساء ذهاباً وإياباً.

نهضت واقفاً وقد غمرني السرور من جراء تبديد نسبي لأفكاري المثقلة ثم مشيت على الدرب وسرت صعوداً عبر الغابة، التي كانت تكسو سفح المنحدر الجبلي على الجانب الآخر إلى ما تحت رصيص الحصى المحاذي للدرب. هناك أمكن النظر من الوادي إلى خارجه وأمكن عن بعد في دغشة المساء رؤية مقر عملي من جانب واحد. حين توجهت إلى هذا المنظر رأيت الجسم واقفاً في النهاية الأخرى من الشريط الصخري وينظر باتجاهي، ولكنه استدار مرة أخرى وعاد على الطريق نفسها تماماً في مواجهتي، وما كاد يقترب مني قليلاً حتى عرفت أنها يوديت، التي لم أسمع عنها منذ عشر سنوات أي كلمة أو أي خبر، عرفتها على الرغم من اللباس الغريب الذي كانت ترتديه. فبدلاً من الزي نصف الريفي، الذي كنت رأيتها فيه آخر مرة، كانت ترتدي الآن ثوباً نسائياً من قماش رمادي خفيف وبرقعاً رمادياً ملفوفاً حول القبعة والرقبة وكل ذلك بصورة خالية من أي تكلف لابل مريحة بحيث أمكن أن تُرى حركاتها، التي لم يهض لها جناح، كانت ضمنت بفضل تنسيق أغنى وأوسع لطيات ثوبها مكاناً لها من تلقاء ذاتها دون أن يظهر على يوديت أدنى ارتخاء أو تشنج. في تلك اللحظة لم أقم بالطبع بمراقبات من هذا النوع؛ ولكنها تفسر الانطباع الذي ولده عندي ظهورها المفاجئ.

لم تحدث السنون العشر في الوجه أي تغيير آخر سوى أنه أصبح أكثر وعياً بذاته، وأضفى عليه نَفَس خفي شيئاً من النبل لا التشويـــه. الخبرة ومعرفة الناس استوطنتا حول الجبين والشفتين ولم تزل تشع من العينين سذاجة طفل طبيعي.

هكذا رأيتها، إذ وجهت عينيَّ إليها باندهاش، تقترب مني وتبطئ خطواتها حين رأتني. لابد أن يكون مظهري قد تغير في أثناء فترة غيابنا أحدنا عن الآخر أكثر مما تغير مظهرها هي؛ لأنها بدت مترددة ومشت الآن بخطوات أسرع قليلاً من ذي قبل ثم تماسكت من جديد وهمت بالمرور بي دون أن تتوقف. ومن جراء ذلك أوشكت أنا أيضاً أن أتردد وتتزعزع ثقتي؛ ولكن حين وقفت أمامها في وضع التصاق شبه تام على الدرب الضيق، لم يعد عندئذ مجال للشك وصرخت:"يوديت!".

ولكن في الوقت نفسه مرت على وجهها الجميل فرحة معتدلة غير متكلفة ومع ذلك تجل عن الوصف؛ واستقرت يدي في يدها الدافئة الثابتة وطبقاً لطريقة شعبية قديمة أبقتها مغلقة لفترة من الزمن.

قالت دون أن تتذكر اسمي: "أهذا أنت؟" ولم أجرؤ أنا أيضاً على تكرار اسمها لأنني لم أعرف في واقع الأمر بماذا أخاطبها؛ إذ لم يكن من المحتمل بالمرة أن امرأة كهذه قد بقيت من دون زواج. لذلك سألتها فقط، بارتباك وقلة حيلة، من أين هي آتية.

فأجابت: "من أمريكا! أنا هنا منذ أسبوعين!".

"هنا أين؟ في قريتنا؟".

"إذا لم أكن في قريتنا فأين إذاً؟ أقيم في الفندق، إذ لم يعد لي أحد في ما عدا ذلك!".

" هل تقيمين وحدك هناك؟"

"أكيد؛ من عساه أن يكون معي؟"

ومن دون أن أتابع التفكير على نحو ما، جعلني هذا الجواب سعيداً؛ سعادة الشباب، والوطن، والرضا والقناعة، كل هذا بدا لي بصورة نادرة متحققاً بعودة يوديت أو بالأحرى كما لو أنه خرج من داخل الجبل بكامل نموه وتبلوره. في أثناء ذلك كنا تابعنا من دون أي خطة سيرنا على الدرب الضيق، تارة شبه ملتصقين أحدنا بالآخر وأخرى واحداً منا بعد الآخر، بحسب ما يسمح به المكان.

قالت الآن وهي تدير رأسها إلي: "هل تعرف أين رأيتك آخر مرة؟، حين سافرتُ من البلاد في عربة وكنت تقف في ساحة التدريب بصفتك جندياً في خدمة العلم في صف صغير من الناس. وقتها استدرتم جميعاً إلى الوراء كما لو أنكم سُحبتم فجأة بحبل، وقلت في نفسي آنذاك: لن تريه أبداً بعد الآن!".

مشينا صامتين هنيهة من الزمن؛ بعد ذلك سألتها إلى أين تريد الذهاب الآن وهل تسمح لي بمرافقتها على بعض الطريق.

فقالت: "كنت أتنزه فقط مشياً على الأقدام، وأظن أن علي الآن أن أعود إلى البيت. هل الطريق بعيد عليك إذا ما أتيت معي إلى القرية؟".

أجبتها: "يسعدني مجيئي معك وأريد أن أتناول طعام الليل في فندقك، وفيما بعد قد أعود إلى البيت في عربة الفندق الصغيرة؛ لأن المسافة إلى هناك تستغرق ثلاث ساعات سيراً على الأقدام.

"هذا جميل منك! كان في الصباح الباكر من هذا اليوم حدس يغمرني بأن خيراً سيتحقق لمصلحتي والآن عندي هاينريش لي بذاته، السيد ابن العمة والموظف رفيع المرتبة في إدارة الدولة!".

سرعان ما وجدنا طريقاً أكثر اتساعاً وسرنا في جو من حديث مؤنس باتجاه القرية؛ ولكن قبل أن نصل إليها بدأنا بعفوية وبغير قصد نتخاطب بالصيغة الحميمة، الأمر الذي كان يجوز لنا بصفتنا أقارب بالدم. أول بيت مررنا به كان بيت المرحوم خالي؛ ولكن كان فيه أناس غرباء، إذ إن أولاده تفرقوا في بلاد الله الواسعة. وقد أخذ أطفال صغار غرباء يعدون وراءنا

ويناودن:" الأمريكية!" وبعضهم مدّ يده إليها باحترام وهيبة فقامت هي بإهدائهم قطعاً نقدية صغيرة. وحين مررنا ببيتها وقفنا لحظة بهدوء. فقد أجرى مالكه الحالي تعديلات على بنائه، غير أن حديقة الأشجار الجميلة حيث كانت يوديت فيما مضى تقطف التفاح، ظلت على حالها ولم تتغير في شيء. هنا اكتفت السيدة بإلقاء نصف نظرة علي ثم أرخت جفونها وعلت وجهها حمرة خجل وارتباك فتابعت حينئذ سيرها بسرعة. في تلك اللحظات رأيت أن هذه المرأة، التي سبق لها أن عبرت البحار وجالت في عالم جديد قائم وزاد عمرها في أثناء ذلك عشر سنوات، هي أرق وأفضل مما كانت عليه في فترة شبابها وفي موطنها الهادئ.

قلت في نفسي لدى نظري إلى مظهرها اللطيف المحبب: "هذا هو ما يسميه الناس عرقاً، كما قد يقول رياضيون أجلاف عن ذلك!".

لدى وصولنا إلى الفندق أدهشني كيف أجادت إلى حد كبير في تدبير ضيافة جيدة على شرفي بحيطة كبيرة وعناية هادئة وبكلمات قليلة، وكيف أولتني اهتماماً بالغاً كأم وسط أجواء أسرة متحابة، وهذا ما جعلني أظن أنها أمضت وقتها في أمريكا في مدن وبيوت جيدة؛ إلا أن الحكايات والأوصاف، التي دارت حول مصيرها وشكلت موضوعاً له والتي روتها بمزاج رائع في أثناء تناول الطعام الليلي لي وللمنصتين معي إلى حديثها من رواد الفندق، ألمحت على العكس من ذلك إلى أنها كانت أعلت بشق النفس من شأنها وارتقت إلى الأعلى نتيجة لصراع مرير مع بأساء الناس ونتيجة لما وجب عليها من تربية رفاقها المهاجرين على نحو ما وجمع كلمتهم.

أي إنها حين وصلت مع أبناء وطنها إلى موقع الاستيطان وانضم إليهم آخرون أيضاً، تبين أن الجماعة كلها تقريباً لم تتحل بالثبات والصبر كما لم تُبدِ أيضاً مهارة في التعاطي مع الشدائد والمنغصات، كذلك فإن النزاعات الباقية التي استدعتها الهجرة لم تتبدد في الحال. يوديت، بوصفها كانت تمتلك معظم الوسائل المادية، اشترت القسم الأكبر من الأرض؛ ولكن أرضها استثمرت من

قبل الآخرين في حين اكتفت هي بإدارة نوع من مكتب تجاري من شأنه أن لبى الاحتياجات المختلفة للمستعمرة الصغيرة، غير أنها حين رأت أن الرفاق عملوا على إلحاق الضرر بها وأنها مهددة بالإفقار، سرعان ما غيرت أسلوب العمل، فقد استرجعت أرضها لكي تضعها تحت إدارتها الشخصية فدفعت أجوراً يومية إلى أولئك العاملين فيها الذين لم يفلحوا في زراعتها واستثمارها لحسابهم الخاص نظراً إلى خمولهم وإمعانهم في التنبلة والكسل، وعلى هذا النحو كانت هي السبب في أن دبت فيهم جميعاً الحياة والحركة. أما النساء فقد أثابتهن إلى رشدهن ووفرت العناية للأطفال المرضى والتربية للمعافين، باختصار، كانت غريزة الإبقاء على الذات ممتزجة فيها بكل سعادة بمقدرة كبيرة على التضحية بحيث استطاعت أن تدفع البأساء عن الناس وعنها هي ذاتها إلى أن شُق طريق وصل مهم بجانب المستوطنة ووفد معها عدد متنام من العناصر القوية والمؤهلة بحيث حدث انعطاف ملحوظ نحو الأفضل عند الجميع. ولكن كان عليها طوال تلك الفترة أن ترفض طلبات الزواج التي قُدمت إليها، لمحت إلى ذلك من باب الدعابة أكثر منه من باب الجد؛ ومن وقت لآخر حين كان مغامرون خطيرون يأتون ويعرضون أمن المستوطنة للخطر، اقتنت حتى السلاح لكي تدافع عنها ولم تعتمد في ذلك إلا على ذاتها فقط.

أما حين جُر العجل عبر جدول الماء وأرسيت أسس النجاح والتقدم وزودت المستوطنة باسم مدينة مشهورة ما من العالم قبل ميلاد السيد المسيح، انسحبت السيدة واعتزلت العمل لكي تعيش حياة أكثر هدوءاً؛ لأنها لم تكن مربية بالعادة كما لم تكن أيضاً منجزة أعمال مع سبق الإصرار والتعمد. بل استطاعت بالمقابل أن تضاعف ثروتها الأصلية عن طريق بيع أرضها واطلعت من حين لآخر لمدة بضعة أسابيع على مجرى الحياة في عاصمة الدولة أو في مدن كبيرة أخرى، أو قامت برحلات فوق أنهار واسعة حين كانت توجد جماعة مؤنسة، إلى داخل البلاد، إلى أن حظيت بمشاهدة الهنود الحمر المتوحشين.

كل هذا روته لنا يوديت بصورة متقطعة وغير متكلفة وبروح مسلية بحيث لم نتعب من الإصغاء إليها خصوصاً أن كل كلمة منها كانت تحمل خاتم الحقيقة. في أثناء ذلك كان مضى الوقت عليّ كلحظة، وذلك ربما لأنني لم أجلس منذ سنين على طاولة خلي البال وسعيداً كما كنت آنذاك؛ وسائق العربة، الذي كان يعمل لدى صاحب الفندق وكان كلف بأن يوصلني إلى البيت، وقف في أتم الاستعداد لأداء مهمته لأنني كنت ملتزماً عدة مواعيد في الصباح الباكر من اليوم التالي، مواعيد ذات علاقة بأعمال وخدمات المكتب الإداري.

شكرت يوديت لدى وداعنا على كرمها ودعوتُها إلى زياتي في القريب العاجل لكي تعوض خسارتها، إذ لا بد لنا أيضاً من تناول الطعام في أحد الفنادق ما دام ليس ثمة من يعد لنا الطعام في مسكني.

فقالت: "سوف آتي إليك في الأيـــام التالية في هذه العربة الظافرة وأحصل بنفسي على أجري!".

وحين جلست في العربة ضغطت صامتة على يدي في الظلام وظلت واقفة دون أن تنبس ببنت شفة إلى أن ابتعدت بي العربة عن مرمى النظر.

ولكن السعادة الجديدة التي غمرتني تعكر صفوها في اليوم التالي حين تذكرت أنه لا بد من أن أفصح لها عن السر الكامن في وجداني وعن مصير أمي. فإذا ما وُجد الآن ثمة حكم كنت أخشاه، فهو ذلك الحكم المتعلق بهذا الظهور النسائي والمثير للعجب؛ ولذلك لم تكن واردة في الحسبان لا علاقة صداقة ولا علاقة حب بينها وبيني إلا إذا عرفت كل شيء.

لهذا السبب انتظرتها بخوف ونفاد صبر كبيرين إلى أن أتت في فترة الغداة. كان ثمة انقباض معين ممزوج بفرحة اللقاء، عندها وعندي أيضاً. وبعد أن جالت قليلاً في أرجاء مسكني قالت وهي ترمي بعيداً كلاً من القبعة والعباءة: "أرى الحياة جميلة في هذه القرية الكبيرة التي تشكل وحدة إدارية قائمة بذاتها، إنها شبيهة تقريباً بمدينة. وكم يحلو لي أن أنقل مسكني إلى هنا لكي أكون على مقربة منك أكثر مما أنا الآن، لولا...".

وهنا توقفت خجلاً عن حديثها كفتاة حديثة السن، ولكنها تابعت قولها بعد ذلك: "انظر يا هاينريش، منذ وصولي إلى الوطن ترددت مرات كثيرة على درب الجبل، أي حيث التقيتني، لكي أنظر من هناك إلى هنا ما دمت لم أجرؤ على المجيء إليك!".

"لم تجرئي! وأنت امرأة شجاعة!".

"انظر، الأمر حدث هكذا: أنت متجذر في دمي وفي كياني ولم أستطع أن أنساك في يوم من الأيام لأن كل إنسان لا بد أن يمتلك شيئاً ما هو مولع به جدياً! قبل بعض الوقت ظهر في مستعمرتنا ابن بلد جديد من قريتنا، ولكنه كان يجول هناك أيضاً لبضعة أعوام. وبما أنه جرى حديث عن أمور بلدنا، سألته للمناسبة عنك وعما إذا كان الناس في القرية لا يعرفون عنك شيئاً، ولكنني أملت ألا يخبرني شيئاً لم أكن معتادة إياه منذ زمن طويل. أمعن الرجل فترة في تفكيره ثم قال: "أجل، انتظري، كيف هو الوضع؟ سمعت عن ذلك، ثم حكى لي عما سألته".

سألتها بحزن: "وماذا حكى لكِ؟".

"سمع من الناس أنك كنت تتسكع في بلاد الغربة وأنت في فقر مدقع بعد أن أغرقت أمك في الديون فسببت لها الموت من جراء ذلك، وأنك عدت بعد ذلك إلى الوطن في وضع بائس وعملت كاتباً صغيراً في مكان ما لكي تسد رمق الحياة. وحين علمت بوضعك التعيس حزمت أمتعتي دون إبطاء أو تردد لكي آتي إليك وأكون بجانبك!".

صرخت: " يوديت، فعلتِ هذا من أجلي؟".

"ماذا تظن إذاً؟ هل يجوز لي، وقد أحببتك من كل قلبي حين كنت صبياً غراً وأحطتك بالغنج والدلال، بعد علمي بأنك تعاني ضيقاً وهماً أن أتركك وشأنك؟ ولكن حين أتيت الآن، تبين أن كل ما قيل ليس صحيحاً! صحيح أن الأم ماتت، غير أنك عدت من الغربة وأنت في أوضاع جيدة وتعمل الآن

موظفاً في الدولة موفور الكرامة ومرموق المكانة كما ألاحظ الآن، على الرغم مما يقال بأنك مغرور وفظ قليلاً! وهذا أيضاً هو بالطبع غير صحيح!".

"وأنتِ أتيتِ من أمريكا من أجلي مع أنك كنت تعدّينني شخصاً سيئاً؟".

" من قال هذا؟ لم أعدّك على الرغم من ذلك سيئاً، بل تعيساً!".

"ولكن أسوأ ما في التعاسة هو مع ذلك أمر حقيقي، ألا وهو مديونيتي! صحيح أنني جررت على أمي هموماً وغموماً وأتيت في الوقت المناسب لكي أغمض عيني التي ماتت بسبب ذلك!".

"كيف حدث هذا الأمر؟ قص علي كل شيء، ولكن حذار من أن يخطر ببالك أنني قد أتخلى عنك لأي سبب كان!".

"إذاً ليس لحكمك علي أي أهمية إذا ما اقتضاه فحسب ميلك المتلطف بي!".

"هذا الميل ذاته هو حكم كاف ويجب عليك أن تعترف به! ولكن إحكِ لي الآن؟".

حكيت لها بالتفصيل إلى حدّ أنني فقدت لدى اقترابي من النهاية التركيز على أقوالي وغدوت مشتتاً؛ لأنني أحسست في أثناء ذلك بزوال الضغط القديم على نفسي وعرفت أنني كنت حراً ومعافىً. وفجأة قطعت حديثي وقلت: "لافائدة من المزيد من الثرثرة! المهم أنني أنعم الآن بخلاصي على يديك، يا يوديت، وأشكرك على أنني استعدت مرحي وفرحي؛ ولهذا سوف أبقى ملكاً لك ما دمت حياً!".

ردت تقول وعيناها تلمعان وتشعان سروراً: " لشد ما يسرني سماع هذا الشيء!". واكتست ملامح وجهها الجميلة بتعبير من الرضا بحيث أمعنت النظر إليها في تضليل ذاكرتي المرة تلو الأخرى حين كنت أتبصر على مر السنين في أمر أن جمال الأشياء لا يكفل استقامة كل شيء ووضعه في نصابه الصحيح، وأن الخدمة الوحيدة الجانب التي يقدمها الجمال هي رياء كأي رياء آخر. أجل، إلى جانب تذكري وجه دوروتيا إبان جلوسنا إلى طاولة

مساعد القس تألق الآن وجه يوديت ليشكلا منظر نجمتين اثنتين. كلتا النجمتين جميلة كالنجمة الأخرى ولكنهما ليستا متساويتين في طبيعتيهما الحقيقيتين.

قالت يوديت: "أنا الآن جائعة وأريد أن أتناول طعاماً إذا كان عندك شيء من هذا القبيل؛ ولكن تدبَّر أمرك في أن تمضي معي بقية اليوم في العراء؛ وتحت سماء الله المكشوفة نريد أن ننهي أمورنا!".

وقررنا أن أسافر معها بعد تناول الطعام باتجاه محل إقامتها بحيث تستمر العربة في سيرها إلى هناك بعد أن توصلنا إلى مدخل الوادي، الذي التقينا فيه في بادئ الأمر، حيث كنا نريد الصعود مشياً على الإقدام إلى الجبل المحتوي على بقعة من رصيص الحصى المتلاحم.

جلسنا معاً في جو من الفرح والرضا في إحدى الحجرات الصغيرة المخصصة للرجال من المطعم المسمى مطعم النجمة الذهبية. وفي إحدى النوافذ أضاء لوح من الزجاج عمره مئتا عام ومرسوم عليه شعارا زوجين ماتا منذ زمن طويل. وفوق الشعارين نُقش ما يلي: "أندرياس ماير، مدير المنطقة وصاحب مطعم النجمة الذهبية وإيميرينتيا يوديتا هولينبيرغرين تزوجا في الأول من أيار عام ١٦٥٠". والخلفية التي وقف عليها الشعاران أظهرت أرض حديقة مع مجموعة من تماثيل ملائكة في محفل شرب بين شجيرات ورد. وكان ثمة زوجان متبرجان يحملان قفازيهما في يديهما ويراقبان بإعجاب الندماء. ولكن في أسفل لوح الزجاج وبصورة أفقية فوقه كتبت على شريط عريض الأبيات التالية:

حقاً، إن يخدع الأمل

يخدعْ متقلبي الإرادة فقط

غير أن الأمل يُظهر

للقلوب المخلصة طيبة إلى الأبد،

إن الأمل يُرسي أساسه

في القلب لا في الفم!

المصدر المشترك، الذي كان استقى منه كلا الكاتبين اللذين عاشا في عصرين متباعدين من الزمن: النقاش القديم على الزجاج والآنسة المقيمة في قصر الكونت، لابد أن يكون كتاباً مغرقاً في القدم.

غير أن تطفل المصادفة هذا، الذي شع من كل أرجاء الوصف، وقع من نفسي موقع الخوف والانقباض أكثر منه موقع السرور؛ لأن صاحب السلطان هذا بدا أنه يريد رسمياً أن ينصب نفسه قائداً علي، وذلك القول برمته أمكن أن يكون خدعة جديدة. قرأت يوديت القول المنقوش دون أن تلتفت إلى الصورة المرسومة ثم قالت وهي تبتسم: "كم هي جميلة أبيات الشعر هذه ومن المؤكد أنها تنطوي على حقائق؛ ولكن على المرء أن يفهمها بشكل صحيح!".

وهكذا اتجهنا صوب الطريق بعد أن استغنينا عن العربة بدءاً من سفوح ذلك الجبل متوسط العلو وانطلقنا في التجوال بارتياح باتجاه رأس القمة. هناك انتصبت على امتداد واسع في جو المنطقة شجرتا بلوط ضخمتان ومغرقتان في القدم وتحتهما مقعد وطاولة حجرية مكسوة تماماً بالطحالب. يقال إن هذا المكان كان موقعاً حضارياً وأصبح فيما بعد موقعاً قضائياً ويعود تاريخه إلى ما قبل الأزمنة المسيحية والطاولة الحجرية كانت بمنزلة قوس لمحكمة.

وفي أثناء جلوسنا في ظلال الأغصان الممتدة إلى اتساع هائل، نظرنا ويدانا متشابكتان في كل الأرجاء إلى الفضاء البعيد الضارب إلى الزرقة. كانت يوديت وضعت قبعتها ومظلتها على الطاولة، وبعد فترة حين عاينت الطاولة بدقة وطلبت مني أن أشرح لها ماذا تعني على الصعيد التاريخي، قالت بعبارات متأملة ومؤثرة:

"ماذا يسمي الناس في البلدان التي فيها ملوك عملية تتويج هؤلاء ووقوفهم على هيكل القرابين؟".

لم أعرف على الفور ماذا كانت تعني بسؤالها فأمعنت التفكير في ذلك، لكن حين رأيت أنها لم تحول نظرها عن الطاولة الحجرية القديمة، حتى إنها

أبعدت عن تلك الطاولة القبعة والمظلة كما لو أنها أرادت بذلك توضيح الأمر، خطر ببالي مارمت إليه وقلت:

"معنى ذلك أنهم يأخذون التاج من على هيكل القرابين!".

هنا نظرت إلي برقة وحنو ثم قالت:

"أجل، هكذا هو معنى ذلك! انظر، والآن يمكننا هنا أيضاً أن نحصل على السعادة من على هيكل التتويج هذا، أي ما يسميه الناس السعادة، بأن نصبح زوجاً وزوجة! وإن من غير تتويج! نريد أن نستغني عن ذلك التاج ونستعيض عنه بالسعادة الأكيدة التي تغمرنا الآن، في هذه اللحظة؛ وأنا أشعر بأنك أنت الآن أيضاً سعيد وراض!".

لذت بالصمت ببالغ التأثر، أما هي فتابعت تقول:

"انظر، وأنا في أعالي البحار وفي أثناء هبوب عاصفة فكرت في هذا الأمر، حين هزت البروق الصواري ووصلت الأمواج إلى ما فوق ظهر السفينة وناديت اسمك إذ اعتراني الخوف من الموت، وفي الليالي الأخيرة أدرت الأمر في ذهني في كل اتجاه وقطعت على نفسي عهداً: كلا، أنتِ لا تريدين استغلال حياته والإساءة إليه من خلال ربطها بحظك! ينبغي أن يكون حراً وألاّ يُجر عبر منغصات الحياة أكثر مما عليه حاله الآن!".

وهنا هززت رأسي وقلت مبهوتاً: "لا أريد أن أكون غير متواضع، يا يوديت، إلا أن تفكيري حول هذا الموضوع مختلف بعض الشيء. فما دمت تعنين الكثير لي، ألا تفضلين أن تقيمي عندي على أن تظلي وحيدة وتقفي وحدك في هذه الحياة؟".

"حيث تكون أنت، سوف أكون أنا أيضاً؛ إلا إذا كنت ستبقى وحيداً؛ أنت لا تزال شاباً فتياً، يا هاينريش، ولا تعرف حتى ذاتك، ولكن بصرف النظر عن هذا الأمر، صدقني، إذا ما بقينا كما نحن الآن في هذه الساعة فإننا نعرف ما في حوزتنا، ونحن سعيدان بذلك! ماذا نريد أكثر؟".

بدأت أحس وأفهم ما كان يجيش في صدرها؛ قد تكون رأت وذاقت طعم أشياء في العالم أكثر من اللازم لكي تثق بسعادة غامرة وتامة. نظرت إلى وجهها وأرجعت برقة ونعومة شعرها الطري البني إلى الوراء ثم صرخت:

"سبق أن قلت إنني ملكك وأريـــد أن أكون كذلك بأي صـــورة وأي صيغة تريدين!".

ضمتني بقوة بين ذراعيها وإلى صدرها العامر؛ وقبلتني أيضاً برقة ونعومة على فمي ثم همست: "الآن ثبت العهد! ولكن عندك من دون إلزام وتبعاً لما تراه وارداً في الحسبان، فأنت رجل حر ولا يجوز إلا أن تكون حراً بكل المعاني والمفاهيم!".

وهكذا بقيت العلاقة بيننا على هذا النحو، وعاشت يوديت بعد ذلك عشرين عاماً؛ دبت فيَّ الحركة من جديد ومزقت الصمت ونشطت قدر المستطاع في القيام بإنجاز هذا أو ذاك من الأعمال، وكانت يوديت في كل ذلك دائماً إلى جانبي. وإذا كان لابد من تغيير محل إقامتي فقد تبعتني مرة وأحجمت أخرى، ولكننا كنا نلتقي معاً كلما شئنا ذلك. أحياناً كنا نلتقي يومياً وأحياناً أسبوعياً وأحياناً أخرى مرة في كل عام حسبما يقتضي مجرى الحياة؛ ولكن كلما التقينا، سواء يومياً أو سنوياً، شكلت المناسبة عندنا عيداً بهيجاً. وإذا ما وقعت في حال من التشكك والتمزق لم أكن بحاجة إلا إلى أن أسمع صوتها فأحس بذلك بصوت الطبيعة ذاتها.

ماتت يوديت حين عمت البلاد موجة من مرض الأطفال القاتل إذ ألقت بنفسها وهي تمد للناس يد المساعدة في مسكن تعيس مع الفقراء البائسين، مكتظ بأطفال مرضى ومقفل في وجه الأطباء. وإلا كان يمكن أن تعيش لمدة عشرين سنة أخرى وكانت ستبقى في أثنائها عزائي وسروري المنشودين.

كنت أهديتها ذات مرة، محققاً لها بذلك مسرة كبيرة، الكتاب الذي ألفته عن فترة صباي، وتلبية لرغبتها استرجعته من تُركتها وضممت إليه الجزء الآخر لكي أتنزه مرة أخرى على دروب الذكريات، القديمة الخضراء.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفهرس

الصفحة

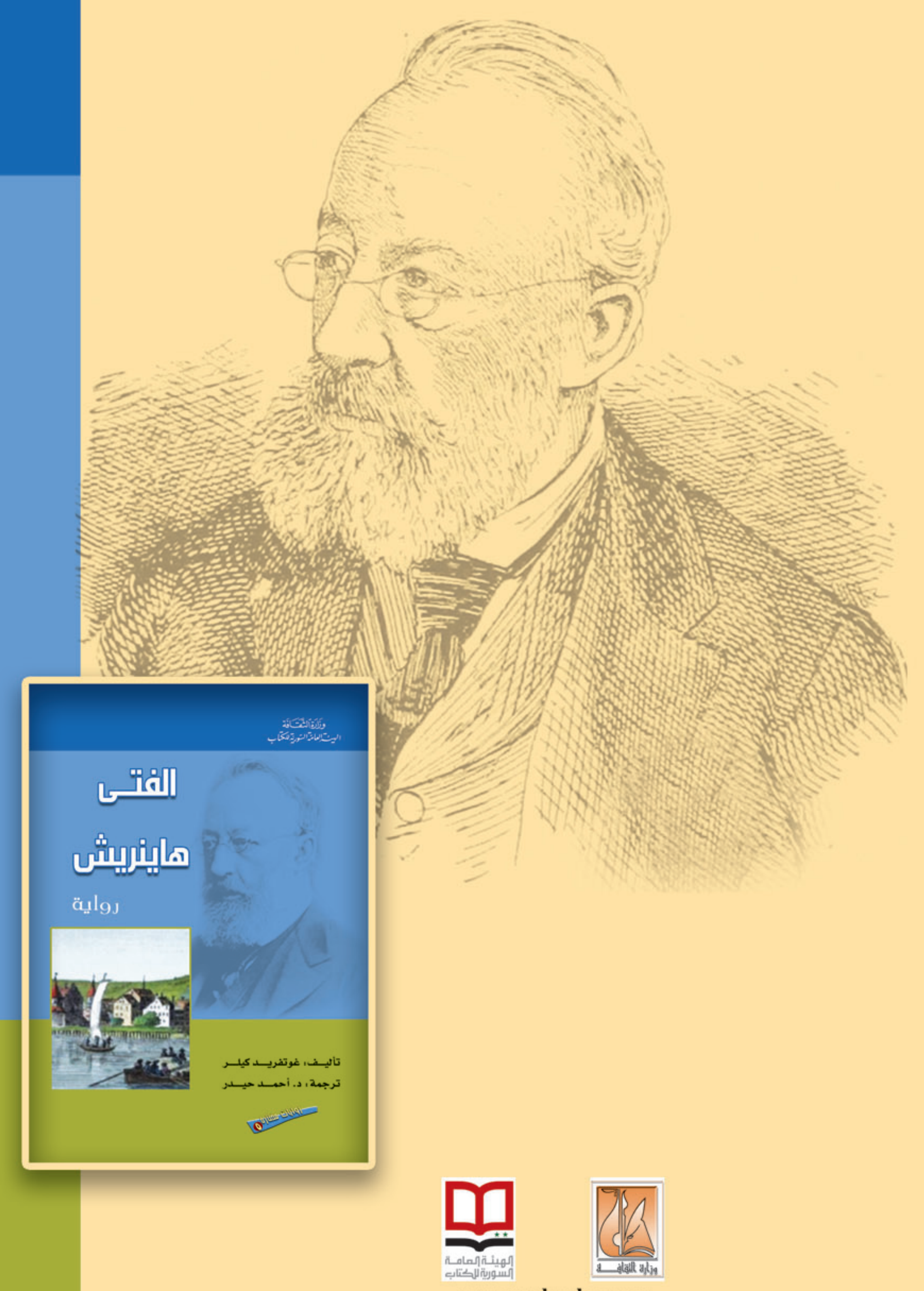
الصفحة

* * *



الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٦١٠ ل.س أو ما يعادلها